

المركز القومي للترجمة

چون چوليوس نورويش

الأبيض المتوسط

"تاريخ بحر ليس كمثله بحر"

2463

ترجمة: طلعت الشايب



ليس كمثله بحر !

هو أعظم بحيرة طبيعية، ومركز التاريخ الروحى، وملتقى الحضارات الأعظم فى تاريخ البشرية. على ضفافه نشأت ونمت الأديان الثلاثة الكبرى، وعن طريقه تواصلت ثلاث قارات، وفوق مياهه وحول جزره تصارعت الإمبراطوريات؛ وبذلك كله تعددت أدواره وتجلياته ليكون مهدًا ولحدًا وجسرًا وعائقًا ونعمة ونقمة وواحة تتثاقف ومسرحًا لحروب ضروس.

وهذا الكتاب عمل موسوعى، يصحبنا فى رحلة طويلة فى الزمان والمكان، تبدأ بالبشر، وليس بالصخور والماء، كما يقول مؤلفه الذى زار كل البلدان الواقعة على شطآنه ليكتب قصته. تبدأ الرحلة من فينيقيا ومصر القديمة، وتنتهى مع صمت مدافع الحرب العالمية الأولى.

على صفحات هذا العمل الكبير، يتدفق نهر من الحكايات عن اليونان القديمة، والإمبراطورية الرومانية المقدسة، والعصور الوسطى، والفتوحات العربية، وصراعات الأباطرة والملوك والباباوات والقراصنة، والحروب الصليبية، وحروب الاسترداد، ومحاكم التفتيش الإسبانية، والبعث الإيطالى، وحروب ناپوليون، وثورة اليونان، ومصر محمد على، وقناة السويس، والإمبراطورية العثمانية، وحروب البلقان، وتقسيم العالم القديم بين المنتصرين فى الحرب العالمية الأولى فى مؤتمر پاريس (1919) ومعاهدة ڤرساى التى تبعته، ليسدل الستار على العالم القديم..

ويبدأ عالم جديد.. ويظل فى القلب من ذلك كله ... بحرنا... الذى ليس كمثله بحر، كما شاءت الجغرافيا وقدر التاريخ.

(المترجم)

تصميم الغلاف: عصام عبد الرحمن

الأبيض المتوسط

تاريخ بحر ليس كمثله بحر

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2463
- الأبيض المتوسط: تاريخ بحر ليس كمثله بحر
- چون چوليوس نورويش
- طلعت الشايب
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:
The Middle Sea: A History of the Mediterranean
By: John Julius Norwich

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الأبيض المتوسط

تاريخ بحر ليس كمثله بحر

تأليف: چون چوليوس نورويش
ترجمة: طلعت الشايب



2015

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

نورويش. جون جوليوس
الأبيض المتوسط: تاريخ بحر ليس كمثله بحر/ تأليف جون جوليوس نورويش: ترجمة طلعت الشايب.- القاهرة المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥
عدد الصفحات: ٧٧٦ صفحة.
المقـــــــاس: ١٧ × ٢٤ سم.
تدمك ٩٧٨٩٧٧٩٢٠٣٨٥٠
١ - البحر الأبيض المتوسط
(أ) الشايب، طلعت (مترجم)
(ب) العنوان

٥٥١،٤٦٢

رقم الإيداع
٢٠١٥ / ١٦٥٧١

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي، وتعريفه بها. والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المحتويات

مقدمة

عندما تلقيت اقتراحًا قبل خمس أو ست سنوات تقريبًا، بأن أكتب تاريخ البحر الأبيض المتوسط، غاص قلبى فى قدمى. بدا الموضوع ضخمًا والفترة الزمنية طويلة جدًا، فكيف يمكن ضغط ذلك كله فى كتاب واحد؟ من أين يبدأ وأين ينتهى؟ وما دام لا بد من أن يكون انتقائيًا، فكيف ينبغى أن يكون الانتقاء؟ المثير للدهشة أن هذه الأسئلة وغيرها التى ظهرت فى أثناء العمل كانت تحمل إجاباتها. فى لحظة ما فكرت فى كتابة فصل يكون بمثابة مقدمة تتناول نشأة البحر، تلك اللحظة المهيبة، عندما ارتطمت مياه الأطلنطى بالحواجز التى هى الآن مضايق جبل طارق؛ لتغمر الحوض الهائل الذى تشغله منذ ذلك الحين. كان يمكن أن يمضى ذلك الفصل ليصف ذلك الجيشان المزلزل – المفاجئ بالقدر نفسه – الذى فصل أوروبا عن آسيا فى الجانب الشمالى الشرقى، واصلاً البحر الأبيض بجاره البحر الأسود، القريب مكانيًا والبعيد كل البعد فى طبيعته. إلا أننى لست عالم چيولوچيا، وبدلاً من أن أبدأ قصتى من ملايين الأعوام، قررت أن أبدأ بالبشر.. وليس بالصخور والماء.

لن أبدأ بالبشر الأوائل على أية حال، وذلك لسبب بسيط وهو أن البشر الأوائل كانوا بشر ما قبل التاريخ، ودائمًا ما كنت أجد ما قبل التاريخ مضجرًا؛ (إذ لو حاول مؤلف أن يكتب عن موضوع مضجر بالنسبة له، فلا بد من أن تكون متأكدًا من أن قُرَّاءه سوف يصابون بالضجر كذلك). ارتأيت أنه سيكون أكثر معقولية أن أبدأ بمصر القديمة، وهى الثقافة التى خلبت لب الغرب منذ اكتشاف حملة نابوليون لها فى 1798 – 1799، هنا ستكون أرضية ننطلق منها مرورًا بـ كريت Crete ومسينى Mycenae وحرب طروادة إلى اليونان وروما القديمة.. لنمضى بعد ذلك.

كان السؤال المهم الثانى هو أين أتوقف، وكانت تلك مشكلة لم أواجهها من قبل. سبق أن قمت بكتابة تاريخ مملكةٍ وجمهوريةٍ وإمبراطوريةٍ... وكان كل من هذه التواريخ يصل إلى نهاية محددة، وحيث إننا يمكن – بكل ثقة – أن نتوقع أن يبقى البحر الأبيض المتوسط ملايين أخرى من السنين على الأقل، كان من الواضح لى أنه ينبغى علىَّ أن أختار نقطة ما أتوقف عندها حتى وإن بدت تعسفية. بعد تردد طويل اخترت أن أتوقف عند نهاية الحرب العالمية الأولى، يمكن أن نظل فى جدال لا ينتهى حول ما إذا كانت

هذه الحرب قد غيرت عالم الغرب أكثر مما فعلت الحرب العالمية الثانية، إلا أننى أعتقد أن ذلك هو ما حدث بالفعل، لقد أسقطت ثلاث إمبراطوريات قوية، وعليه كانت خلافتها حتمية. إلا أن أمرًا آخر أكثر عملية كان لا بد من أخذه بالاعتبار، لو أننى واصلت القصة فى أثناء سنوات الحرب وصولاً إلى العام 1945 لأصبح هذا الكتاب أكثر ضخامة، ولو أننى مضيت إلى ما هو أبعد من ذلك – إلى إنشاء دولة إسرائيل فى 1948 مثلاً – لبدأ التاريخ يختلط بالشأن الحاضر، ولو حدث ذلك فلربما انتهت ما تمنيت أن تكون رحلة بحرية سعيدة هادئة... بغرق السفينة.

لقد بذلت قصارى جهدى فى الفصول الثلاثة والثلاثين التالية لكى يكون البحر الأبيض المتوسط نفسه هو بؤرة اهتمامى، ومرة أخرى حاولت قدر المستطاع تجنب الجغرافيا الطبيعية. أرجو ألا يتصور أحد أننى أقلل من أهمية عوامل المد والجزر والرياح والتيارات المائية وغيرها من الظواهر الخاصة بالمحيطات والأنواء، فتلك العوامل كلها هى التى شكلت وطورت فن الملاحة، وحددت لنا طرق التجارة وحسمت نتائج الكثير من المعارك البحرية. بالرغم من ذلك كله، لن تجد لها مكانًا على هذه الصفحات. كل ما حاولت أن أفعله هنا هو أن أتتبع المصائر السياسية الرئيسية لأراضى البحر الأبيض المتوسط بقدر تأثر تاريخها بالظروف والأحوال المحيطة بها، وربما يعنى ذلك بدوره اختلاف درجات التأكيد على نقاط بعينها قد تبدو مثيرة للدهشة. فرنسا على سبيل المثال دولة متوسطية دون شك، ولكن مركزها السياسى بعيد هناك فى الشمال، ومن ثمَّ لن تجد سوى ذكر هامشى للثورة الفرنسية، ولن تجد ذكرًا بالمرة لـ: «جان دارك – Joan of Arc" ولا إلى مذبحة "سانت بارتولوميو – St Bartholomew". إن مقاطعة "پروڤنس Provence" مع مدينة "مرسيليا – Marseille" الكبيرة وميناء "طولون Toulon " الرائع - أكثر أهمية بالنسبة لنا من باريس.

لعل إسپانيا حالة خاصة. "فرديناند – Ferdinand" و"إيزابيلا – Isabella" لهما أهمية كبيرة لعدة أسباب: تدميرهما مملكة "غرناطة – Granada"، طردهما المسلمين واليهود بالجملة؛ الأمر الذى كان له أثره على ديموغرافية أوروبا الغربية، ولا يقل عن ذلك أهمية رعايتهما لـ: "كولومبس Columbus"، التى كانت أول خطوة فى تقليص أهمية البحر الأبيض، كذلك فإن مشكلات الأسر الإسبانية الحاكمة شديدة الارتباط بموضوعنا، فهى التى ألقت بجزء كبير من القارة فى خضم فوضى عارمة. من ناحية أخرى، فإن حرب شبه الجزيرة التى تركزت، أساسًا فى الجزء الشمالى الغربى من إسبانيا، وفى البرتغال - ليست من بين اهتماماتنا هنا.

لم يكن هناك أى شك أو تردد بالنسبة للقسطنطينية – Constantinople. ربما تكون أهمية المدينة فى أنها تشرف على البوسفور – Bosphorus وبحر مرمرة – Marmara فحسب، إلا أنها كانت عاصمة لإمبراطوريتين متعاقبتين (البيزنطية والعثمانية)، كانتا تحتلان فى أوقات مختلفة أكثر من نصف خط شاطئ المتوسط، وعليه فكلتاهما جزء لا يتجزأ من قصتنا. كذلك لا بد من أن نضع فى اعتبارنا الجزر التاريخية المهمة: صقلية وقبرص ومالطة وكريت. الأولى كانت جزءًا من الإمبراطورية البيزنطية على مدى عدة قرون (كما كانت عاصمتها لفترة قصيرة).[1] الجزر الثلاث الأخرى عانت من عمليات حصار مروعة بواسطة الأتراك العثمانيين، كان من بينها عمليتان ناجحتان. مالطة وحدها بقيت دون غزو حتى مجيء نابوليون.

الدولتان اللتان يمكن وصفهما بالمتوسطتين بمعنى الكلمة هما إيطاليا واليونان. لن يدهش قارئ هذا الكتاب للأهمية التى نعطيها للأولى؛ حيث إن إيطاليا كانت بعبارة "مترنيخ – Metternich"، قبل النصف الثانى من القرن التاسع عشر "مجرد تعبير جغرافى". واقعة بين "سافوى – Savoy" فى الشمال وصقلية فى الجنوب، كانت شبه الجزيرة أشبه بكاليدوسكوب دائم التغير بين ممالك ومعتمديات ودوقيات وجمهوريات ومدن- دول، كانت كلها عرضة لغزوات وعمليات احتلال رئيسية أو ثانوية من جيرانهم الإيطاليين أو سواهم: الفرنسيون والإسبان وكذلك البريطانيون إن كان لنا أن نعتبر أسطول «نلسون – Nelson" غزوًا. لقد حاولت فى الفصول الخاصة بإيطاليا أن أحتفظ بالقضايا بسيطة قدر الإمكان، ولأن التاريخ مراقب قاس لا يرحم، لم يكن أمامى سوى أن أدفع بسبب قاهر (force majeurs). كان بمزيد من الارتياح، أن وصلت إلى الـ: "ريزورجيمنتو – Risorgimento" – البعث – وتوحيد إيطاليا – وهو الهدف الذى كنت أتوق إليه مثل "ماتزينى – Mazzini" تمامًا. حينذاك أدركت أن عملى قد وصل إلى نهايته.

على عكس ذلك، تظهر اليونان أربع مرات فحسب فى هذا الكتاب، وبالتحديد فى الفصول: الثانى والثامن والثامن عشر والعشرين، وليس من الصعب اكتشاف السبب. على مدى خمسة قرون تقريبًا كانت اليونان، مثل باقى أوروبا الشرقية، تحت الحكم التركى، وهكذا كان محكومًا عليها منذ الفتح العثمانى أن تكون دولة شبه راكدة، وبقيت كذلك تقريبًا حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر عندما استيقظت الروح اليونانية. لم يكن القتال الذى نشب من أجل الاستقلال ملحمة بطولية مستمرة كما يوصف أحيانًا إلا أنه نجح، كما أن الاستيلاء على "سالونيكا – Salonica" بكل نتائجه هو الذى أسفر عن اليونان كما نعرفها اليوم.

ويتبقى شمال أفريقيا أو معظمه، أما مصر فهى حالة خاصة وذلك – لدرجة كبيرة – بفضل نهر النيل، ولو كانت هناك مجار مائية أخرى فى الجزء الغربى بمثل أهمية نهر النيل لاختلف تاريخ المنطقة كلها اختلافًا كبيرًا. لذا فإن الدول المطلة على المتوسط فى الجانب الجنوبى منه معظمها صحارى، بصرف النظر عن المدن والبلدات الموجودة على امتداد شريط ساحلى ضيق، ونحن معنيون بالتأكيد بهذا الشريط، الذى كان له تاريخ مميز فى سالف العصور. منذ القرن السادس ق.م، كانت هناك فيما يعرف بـ "قيرنايكا – Cyrenaica" شرقى ليبيا، عدة مدن إغريقية منتعشة: "قورينة – Cyrene" وميناؤها فى "أبولونيا – Apollonia" كانت إحدى المدن الأكثر ازدهارًا فى العالم. بعد مائة عام، كانت "قرطاج - Carthage" – فيما يعرف الآن باسم تونس – تسيطر على أكثر من نصف الساحل الأفريقى الشمالى وتمثل خطرًا على روما؛ بينما بحلول القرن الثالث الميلادى امتدت أفريقيا الرومانية من ساحل الأطلنطى إلى "تريبوليتانيا – Tripolitania"، التى كانت عاصمتها "ليبتس ماجنا – Leptis Magna" مسقط رأس "سبتيميوس سيڤيروس – Septimius Severus" أحد أباطرة الروم الأكثر تميزًا فيما بعد.

أبعد من ذلك قليلاً فى اتجاه الغرب، أخشى أن تكون الجزائر ومراكش قد حظيتا باهتمام أقل نسبيًّا. التاريخ الجزائرى - كما هو متوقع - جزء منه رومانى وجزء منه "وندالى – Vandal"[2]، ثم بيزنطى، ثم أموى، ثم مرابطى[3]، ثم موحدى[4]، ثم عثمانى حتى مجيء الفرنسيين فى عام 1830. فى مراكش كان الوضع مشابهًا تقريبًا فى القرون الباكرة، أما فيما بعد فكان هناك فارق مهم: كانت مراكش هى الدولة الوحيدة فى شمال أفريقيا التى لم تخضع للسيطرة العثمانية، وظلت تحت حكم حكام محليين حتى القرن التاسع عشر. هذه الحقيقة البسيطة كان لها تأثير غير عادى فى طبيعة ذلك البلد الذى يتمتع بصفات شرقية وغربية إلى حد ما فى العالم الإسلامى الحديث، وهو فى الواقع بلد أطلنطى أكثر منه متوسطيًا.

إلا أننى أشعر كذلك ببعض الذنب بسبب بلد متوسطى آخر أغفلته ربما دون وجه حق؛ فإمارة «موناكو – Monaco"، التى ربما لا تزيد مساحتها عن ميل مربع، يمكن أن تدعى أنها كانت دولة مستقلة منذ القرن الخامس عشر تحت حكم بيت ملكى (الجريمالد – The Grimaldis)، الذى هو الأقدم فى أوروبا حيث يعود إلى عام 1297 وربما إلى ما قبل ذلك، كانت "موناكو" تستحق الذكر، إلا أن ذلك لم يحدث. وفى لحظة ما، فكرت فى إضافة بعض الصفحات الجذلة عن تطور "الريڤييرا – The Riviera" أعطى فيها هذه المعتمدية حقها، إلا أننى أدركت أنها ستكون خارجة عن السياق فتغاضيت – من

أسف – عن الفكرة. أتمنى أن تكون هذه الكلمات معبرة عن تقديرى لأهل "موناكو" مؤكدة أنه لم يتم إغفالهم تمامًا.

والآن إلى كلمة عن أسماء الأعلام. فى كتاب من هذا النوع ليس هناك قواعد ثابتة؛ إذ يبدو لى أنه يمكن التضحية بذلك بغية الاتساق، ولذا سمحت لنفسى أن أسترشد بما هو مألوف. الأسماء اليونانية كتبتها باللاتينية (Comnenus بدلاً من Komnenos)، الاسم الأول الذى يسبق اسم الأسرة كتبته بالطريقة الإنجليزية (William of Sicily بدلاً من Guglielmo)، كما بَسَّطت الأسماء العربية قدر المستطاع، (سوف تجد Saladin مثلاً بدلاً من صلاح الدين). ولتفادى إرباك القارئ، كانت هناك – من ناحية أخرى – عدة استثناءات، فسوف تجد Lewis و Louis و Ludwig، كما ستجد Francis و François و Franz؛ وستجد Isabella و Isabel، Peter و Pedro، و Caterina و Catherine. أبقيت على الأماكن التى لها أسماء بالإنجليزية كما هى، ثم رحت أستخدم الاسم الجديد بعد تغييره (أدريانوپل Adrianople إلى أدرنة Edirne، وزانته Zante إلى زاكينتوس – Zakynthos)، إلا أننى كنت أضع الاسم القديم بين قوسين. ربما يكون ذلك غير علمى، ولكننى كما أشرت فى كل كتبى الأخرى، لست عالمًا.

هناك مشكلة خاصة بالنسبة للقسطنطينية. نظريًا، كان لا بد من أن ترد باسمها التركى "إسطنبول – Istanbul" بعد الغزو التركى فى سنة 1453. بالرغم من ذلك فإن الحكم البريطانى يشير إليها باسمها القديم Constantinople وربما حتى إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، أما بالنسبة لى فأنا أستخدم الاسم المناسب حسب السياق. كثيرون من لا أستطيع أن أفيهم حقهم من الشكر، إلا أننى لا بد من أن أنوه بدين خاص أسجله هنا، بعد أن بدأت فى العمل فى هذا الكتاب بوقت قصير، حدث أن كنت وزوجتى ضيوفًا على العشاء بالسفارة الإسپانية، وأثناء الحديث أبلغت صديقى العزيز السفير "سانتياجو دى تامارون – Santiago de Tamaron" بأننى بالرغم من إلمامى المعقول بالحوض الشرقى للمتوسط (حيث كنت قد كتبت تاريخ بيزنطة)، فإننى، للأسف أجهل الحوض الغربى لأننى لم أكن أعرف الكثير عن التاريخ الإسپانى ولا أتحدث الإسپانية. كان تعليقه "حسنًا! أعتقد أننا يمكن أن نفعل شيئًا بهذا الخصوص". بعد أسابيع قليلة كانت هناك دعوة لى ولزوجتى لقضاء عشرة أيام فى إسپانيا ضيوفًا على "مؤسسة كارولينا – Fundacion Carolina"، نذهب فيها إلى حيث نشاء. كانت لتلك الأيام – التى نحن مدينان بها شاكران لها – أهمية بالغة حتى بالرغم من نقص ثقافتى الإسپانية، وظنى أننى بفضلها لم أخذل أصحاب الدعوة.

أما ابنتى "أليجرا هيوستن – Allegra Huston" فقد قامت بنسخ وتحرير هذا الكتاب فى مقر إقامتها فى نيومكسيكو، لتضعنى فى ظروف بالغة القسوة، لم أمر بمثلها من قبل، لكى أنتهى منه، أنا مدين لها بالشكر، وكذلك لـ "پنى هور – Penny Hoare" و"ليلى ريتشاردز – Lily Richards" فى "شاتو – Chatto". كل كلمة تقريبًا على الصفحات التالية وعلى صفحات كتبى السابقة، كتبتها فى قاعة المطالعة بمكتبة لندن. شكرى الجزيل لكل العاملين بها على مساعدتهم البالغة وكل ما قدموه لى بنبل وشهامة، فما كان لى أن أنجز شيئًا بدونهم.

چون چوليوس نورويش
John Julius Norwich

هوامش المقدمة

(1) انظر الفصل الرابع.

(2) Vandal – نسبة إلى الوندال، وهى قبيلة جرمانية اجتاحت فرنسا وإسبانيا وشمال أفريقيا فى القرن الخامس الميلادى. (المترجم)

(3) نسبة إلى المرابطين – Almoravid. (المترجم)

(4) نسبة إلى الموحدين – Almohad. (المترجم)

الفصل الأول

البدايات

- مصر القديمة
- الفينيقيون
- كريت والمينويون
- مسينى وطروادة
- طروادة وحرب طروادة
- العبرانيون

البحر الأبيض المتوسط معجزة. عند رؤيته على الخريطة، ربما للمرة المليون نأخذه على علاته، أما عند النظر إليه نظرة موضوعية نكتشف فجأة أن هناك شيئًا فذًا... فريدًا، وكأن هذا الكيان المائى قد صمم عمدًا، وبتأن، وعلى نحو لا نظير له على الكرة الأرضية؛ ليكون مهدًا للثقافات. تحيط به اليابسة من كل الجوانب تقريبًا، إلا أن مضايق جبل طارق تعصم ماءه من الركود. أعمدة هرقل القديمة تلك تحميه كذلك من عواصف الأطلنطى لتحافظ على مياهه طازجة وغير ملوثة – حتى السنوات الأخيرة على الأقل. الأبيض المتوسط يصل بين ثلاث من قارات العالم الست. مناخه، فى معظم العام، من أجمل المناخات التى يمكن أن تجدها فى أى مكان.

لا عجب كبيرًا إذن أن يحتضن المتوسط ثلاثًا من أكثر حضارات العالم إبهارًا، ويشهد ميلاد ثلاثة أديان كبرى وخروجها إلى حيز الوجود. ليس ذلك فحسب، بل إنه وفر وسائل الاتصال الرئيسية. فى العصور القديمة لم يكن هناك طرق، وكانت وسيلة الانتقال الوحيدة المؤثرة عن طريق الماء، مع ميزتها الإضافية وهى القدرة على نقل أحمال ثقيلة لا تستطيع أى وسيلة أخرى تحريكها. لعل فن الملاحة كان ما زال فى بداياته، ولكن البحارة الأوائل كان يمكنهم الإبحار من ميناء إلى آخر فى معظم الحوض الشرقى منه دون أن تغيب اليابسة عن أبصارهم، حتى فى الحوض الغربى كان هناك مجرى مباشر تقريبًا يضمن الوصول إلى شاطئ صديق فى غضون أيام قليلة.[1] المؤكد أن حياة البحر كانت لها مخاطرها، رياح الميسترال – mistral التى تعوى باتجاه وادى الرون – Rhône لتضرب خليج ليون – Lyons بقسوة أقرب إلى الجنون، رياح البورا – Bora فى الأدرياتيكى التى تجعل من الصعب السير فى شوارع تريستا دون مساعدة، رياح الجريجالى – Gregale فى البحر الإيونى، التى دمرت أكثر من رحلة شتوية. كل تلك الرياح التى كانت نذيرًا بالهلاك بالنسبة لغير المتمرسين. حتى رياح الملتيمى – meltemi المعتدلة فى بحر إيجه، التى كثيرًا ما كانت نعمة بالنسبة للسفن الشراعية، كان يمكن أن تتحول فجأة إلى وحش هائج يدفعها لترتطم بالصخور. صحيح أنه ليس هناك أعاصير فى الأطلنطى ولا عواصف عاتية فى الباسيفيكى، وأن الإبحار فيها كان سهلاً فى معظم الأوقات – مع قدر من الحذر – إلا أنه لم يكن هناك ما يدعو للمخاطرة، ولذا كان قُدامى بحارة وملاحى المتوسط يجعلون رحلاتهم قصيرة قدر الإمكان.

كان إبحارهم بالقرب من الشاطئ الشمالى قدر الإمكان. بالنسبة لمعظمنا اليوم تبدو خريطة الأبيض المتوسط مألوفة، لدرجة أننا لم نعد ننظر إليها بموضوعية. وبالرغم من ذلك، لو أننا كنا نراها للمرة الأولى، لأصابتنا الدهشة لذلك التناقض بين المناطق الساحلية فى الشمال والجنوب. المناطق الشمالية عامرة بالكثير من الظواهر بسبب شبه الجزر الإيطالية والبلقانية التى تحيط بها ثلاثة بحار (الترينى والأدرياتيكى والإيجى)، ثم تلك البنية غير العادية للركن الشمالى الشرقى؛ حيث يؤدى الدردنيل إلى بحر مرمرة الصغير الذى تقع مدينة إسطنبول على حافته الشرقية، مشرفة على مدخل البوسفور ومن ثم البحر الأسود. الساحل الجنوبى، على النقيض من ذلك، فهو بلا ملامح محددة تقريبًا مع قدر من التضاريس التى تجعل المرء يشعر دائمًا – حتى فى المدن الرئيسية – بأن الصحراء ليست بعيدة.

أحد أسئلة التاريخ القديم التى لم نجد لها إجابة هو: لماذا بعد ألفيات عديدة من السنين على وجود إنسان الكهف، كان أن ظهرت الومضات الأولى للحضارة فى مناطق متفرقة بعيدة عن بعضها، وفى الوقت نفسه تقريبًا؟ بالنسبة للمناطق حول المتوسط كان هذا الوقت هو سنة 3000 ق.م تقريبًا. صحيح أن "بيبلوس – Byblos" (جبيل الحديثة التى تبعد نحو خمسة عشر ميلاً شمالى بيروت) التى أعطت اسمها للإنجيل (Bible) – الكلمة تعنى البردى – كانت مأهولة فى العصور الحجرية القديمة (Palaeolithic Times)، ويعتقد كثيرون أنها أقدم من ذلك؛ والحقيقة أنها ربما تكون أقدم مكان بقى مأهولاً فى العالم. ولكن بقايا أكواخ قليلة كل منها عبارة عن صخرة واحدة وصنم أو اثنان، من الصعب أن تعتبر حضارة؛ وهناك كما فى أى مكان آخر لم تحدث أشياء كثيرة حتى قدوم العصر البرونزى (Bronze Age) فى مطلع الألفية الثالثة ق.م. وأخيرًا تبدأ الأمور فى التحرك. هناك بعض المقابر الضخمة (كل منها صخرة واحدة) فى مالطة، تعود إلى ذلك الوقت تقريبًا، وأخرى فى صقلية وسردينيا، إلا أننا لا نعرف شيئًا عن من بنوها. أما الثقافات الثلاث الكبرى التى ظهرت آنذاك، فأصولها موجودة على مسافة أبعد ناحية الشرق: فى مصر وفلسطين وكريت.

لم يبق من عجائب الدنيا السبع المعروفة إلى اليوم سوى أقدمها: أهرام مصر؛ وهناك قدر من الشك فى احتمال بقائها خمسة آلاف سنة أخرى. يُعتقدُ أن هرم سقارة المدرج (وهو أكثرها مهابة وجلالاً) يعود إلى العام 2686 ق.م، أما هرم الفرعون "خوفو – Khufu" – المعروف لـ هيرودوتس ولنا بـ Cheops- وهو أكبر حجمًا وأكثر فخامة – فيعود إلى قرن بعد ذلك. طول العمر هذا ينبغى ألا يدهشنا، فشكلها وحده كاف ليضمن

لها الخلود. لا يوجد أى بناء آخر فى العالم أقل ثقلاً عند القمة. حتى الزلازل لا يمكن أن تهزها. التحديق فيها يصيب المرء بالذهول أمام عظمة الإنجاز وحجمه الضخم والطموح الذى كان وراءه: ذلك أن إنسانًا قبل نحو خمسة آلاف سنة يقرر أن يبنى جبلاً وينجح فى ذلك. بعد خمس وعشرين سنة فحسب، بنى خفرع (Chefren) ابن خوفو هرمًا آخر متصلاً بقاعة ضخمة من المرمر والجرانيت الأحمر، يصطف على امتداد جدرانها 23 تمثالاً له فى وضع الجلوس. ثم كان أبو الهول. لعله صورة له، إلا أن المؤكد أنه أول قطعة آثار منحوتة – فهو حفر فى بروز صخرى هائل على سطح الأرض – عرفها الإنسان.

مصر التى بدأت باكرًا هكذا، كان تغيرها بطيئًا. خوفو وخفرع ينتميان للأسرة الرابعة. بالنسبة للأسر الثلاث الأولى، لا نعرف شيئًا عنها سوى أسماء بعض حكامها. الأخيرة، كانت الأسرة الواحدة والثلاثون التى انتهت فى 335 ق.م بغزو الفرس للبلاد: بعد ثلاث سنوات طردهم الإسكندر الأكبر، الذى لم يتردد – كعهده دائمًا – وواصل زحفه على بلاد الرافدين والشرق الأقصى. بعد وفاته فى 323 ق.م انتقلت مصر إلى چنراله السابق بطليموس (Ptolemy)، الذى سوف تستمر سلسلة نسبه (اليونانية أكثر منها مصرية) ثلاثة قرون أخرى. وهكذا من البدايات الضبابية مع الأسرة الأولى إلى موت كليوپاتره فى 30 ق.م، تمتد فترة طولها ثلاثة آلاف سنة؛ وعليه فالعين غير الخبيرة التى تحدق بسوء نية فى النقوش البارزة على جدران المعابد أو على الأعمدة التى لا نهاية لها من الهيروغليفية - تجد صعوبة بالغة فى تمييز فن ألفية من فن تلك التالية لها. بالرغم من ذلك تبقى بعض الأسماء العظيمة الأخرى فى الذاكرة؛ فالملكة حتشبسوت على سبيل المثال، التى كانت وصية على تحتمس الثالث ابن زوجها وابن عمها، أكملت بناء معبد الكرنك وأقامت به مسلتين لتخليد اللحظة، وزينت المعبد الجرانيتى الرائع، معبد الدير البحرى فى طيبة الذى تظهر على جدرانه فى هيئة رجل؛ وهناك تحتمس نفسه الذى أمر عند موتها فى 1469 ق.م، فيما يبدو أنه كان نوبة ضغينة انتقامية - بتشويه كل رسم لها وتخريب كل نقش يحمل اسمها، إلا أنه هو نفسه الذى وسع حدود مملكته إلى أعالى الفرات، وأثبت من خلال مواهبه المتعددة كقائد عسكرى ومشرع وبناء وراع للفنون، أثبت أنه أحد أعظم فراعنة مصر، وهناك أمنحتب الرابع المشهور بـ "إخناتون" (1367 – 1350 ق.م)، الذى يمكن التعرف عليه فى لمح البصر من وجهه الطويل المدبب وانحناءة ظهره، وفخذيه الكبيرين؛ والذى كان شخصًا متعصبًا من الناحية الدينية؛ إذ حظر عبادة آمون إله الشمس فى طيبة وكرس بدلاً منه قرص الشمس آتون الذى تنتهى أشعته بأيد صغيرة ممتدة لكى تبارك (أو تلعن)، وهناك بالطبع ابن زوجته وخليفته الثانى

الملك الصبى توت عنخ آمون (1347 – 1339 ق.م) الذى ارتد إلى الدين القديم، والذى لولا اكتشاف "هوارد كارتر Howard Carter" لمقبرته فى 5 نوفمبر 1922 لظل مجهولاً، ولبقى تابوته الحجرى تحت أكداس الكنز الذهبى مفخرة المتحف المصرى إلى اليوم، وهناك رمسيس الثانى العظيم (1290 – 1224 ق.م) المهووس بجنون العظمة، الذى أقام تماثيل لنفسه فى كل أنحاء مصر وبلاد النوبة، وربما كان هو فرعون الخروج، رغم أن العلماء ما زالوا مختلفين بهذا الخصوص وأحسبهم سوف يستمرون هكذا لسنوات قادمة. وأخيرًا وليس آخرًا، لا بد من ذكر خاص لملكة إخناتون – نفرتيتى - التى يؤكد تمثالها النصفى الذى تم اكتشافه فى تل العمارنة – عاصمة زوجها – أنها كانت واحدة من أكثر نساء العالم سحرًا وجمالاً.[2] لا الإغريق ولا الرومان ولا – حتى – عظماء النحاتين فى عصر النهضة الإيطالى، استطاعوا تقديم نظير لهذا التمثال، ولو لم تنتج مصر القديمة عملاً فنيًا آخر سواه، لكفى ذلك تلك الألفيات الثلاث.

هناك سبب آخر لخلود مصر الغريب وهو جغرافيتها المدهشة، فهى تبدو لمن ينظر إليها من الجو مثلما تبدو خريطتها تمامًا. امتدادات واسعة من اللون الأصفر، خط أخضر يميل إلى الزرقة يتسلل رفيعًا من الجنوب، وشريط ضيق من الخضرة على امتداد كلا الجانبين قبل أن يظهر الأصفر مرة أخرى. النيل بالنسبة لمصر مثل الشمس: ضرورة لاستمرار الحياة على نحو لم يحققه أى نهر آخر فى الوجود. ضرورة مثل أنبوبة تنفس لغواص فى بحر عميق. فى ظروف كتلك، ليس هناك فرصة كبيرة للتغير، خارج القاهرة والإسكندرية ومدينة أو اثنتين من المدن الكبرى، تسير الحياة فى معظم أرجاء مصر كما كانت دائمًا. متعة كبيرة أن تستقل قطار النوم من القاهرة إلى الأقصر وتستيقظ فى الصباح الباكر لتجد نفسك تتحرك بمعدل عشرة أميال فى الساعة تقريبًا، على امتداد شاطئ النهر، بينما تتوالى المناظر فى إثر بعضها يغمرها ضوء الشمس خلف النافذة، كأنها خارجة من كتاب جغرافيا ڤيكتورى.

منذ الأزمنة الباكرة كان المصريون حالة فريدة خاصة ومتجانسة. يبدو أن معاصريهم الفينيقيين لم يحاولوا قط أن يخلقوا مثل تلك الحالة، وبالرغم من أنهم كانوا رحالة مجبرين على الترحال، كان موطنهم فلسطين، وهناك ذكر فى العهد القديم The Old Testament لشعب صور وصيدا وبيبلوس وأرواد. (تقع الأخيرة بالقرب من الساحل مقابل الشاطئ الجنوبى لقبرص تقريبًا). نشأت هذه المجتمعات الأربعة كلها حوالى سنة 1550 ق.م، وكانت كلها مرافئ؛ حيث كان الفينيقيون شعبًا بحريًّا. نقرأ فى سِفر الملوك الأول كيف أن "حيرم" ملك صور أرسل الحرفيين والأخشاب إلى الملك سليمان لبناء المعبد

فى أورشليم، ولكنه ورعاياه كانوا يبقون على الشريط الساحلى الضيق بين جبال لبنان والبحر. لقد أنشأوا وطوروا صناعة محلية جديرة بالذكر وهى جمع أصداف "المريق – Murex"، وهو حيوان بحرى رخوى يشبه الحلزون والأخطبوط، يفرز صبغًا أرجوانيًا يساوى أكثر من وزنه ذهبًا.[3] إلا أن اهتمامهم الرئيسى كان دائمًا بتلك الأراضى ناحية الغرب، التى كانوا يتعاملون معها باعتبارها تجمعات تجارية أكثر منها أشباه دول.

عندما نتذكر الفينيقيين فى أيامنا هذه، فنحن نتذكرهم باعتبارهم كانوا – قبل كل شيء – ملاحين، أبحروا فى كل أرجاء الأبيض المتوسط وكثيرًا ما كانوا يبحرون إلى ما وراءه. يخبرنا هيرودوتس بأنهم فى حوالى سنة 600 ق.م، وبأمر من الفرعون «نيخو – Necho" - أبحروا مطوفين حول أفريقيا؛ ولو كان هيرودوتس محقًا فى قوله (أو تقريبًا كذلك)، لكان ذلك إنجازًا لم يتكرر على مدى أكثر من ألفى عام. (أما إذا كان مخطئًا، فكيف تسنى له أن يعرف، أو يعتقد، أنه كان بالإمكان الطواف حولها؟). هناك بعض شك على أية حال فى أن يكون "حيرم" و"سليمان" قد شاركا فى رحلات بحرية أحيانًا من "إزيون جيبر – Ezion- Geber" (بالقرب من إيلات الحالية) إلى "أوفير – Ophir" الأسطورية، التى كانت على الساحل السودانى أو الصومالى، رغم أن ذلك ليس مؤكدًا. فى مراحل أخرى كان التجار الفينيقيون قد أقاموا تجمعات تجارية فى "موزيا – Mo-zia" (فى صقلية) و"أيبيزا – Ibiza" (فى جزر باليريا) وعلى امتداد شواطئ شمال أفريقيا. بعد ذلك عبروا مضايق جبل طارق لاستكشاف مرافئ الأطلنطى فى إسبانيا ومراكش، والمؤكد أنه كان لهم مخفر أمامى على قنة[4] جبل «قادش – Cadiz"، تحميه المستنقعات والأراضى السبخة المحيطة به؛ كما نعرف – حتى – أن شخصًا ما يدعى "هيميلكو – Himilco"، كان قد عبر القنال الإنجليزى ورسا على الساحل الجنوبى لبريطانيا (ربما كورنوول Cornwall) بحثًا عن القصدير. ظل الفينيقيون قوة ضاربة مهمة فى الأبيض المتوسط حتى نهاية القرن الثامن عشر ق.م، عندما بزتهم – أولاً – قوة "أشور – Assiria"، ثم قوة الإغريق فيما بعد.

كان الفينيقيون قوة حضارية كذلك، وتشهد على ذلك سلع الترف التى جاؤوا بها، فمن موطنهم الليڤانتى (المشرقى) وكذلك من قبرص ومصر والأناضول ووادى الرافدين، جاؤوا بالعاج والأخشاب النادرة وأوانى الشراب المصنوعة من الذهب والفضة، وكؤوس الزجاج والمرمر والأختام والجعل المصنوعة من الأحجار الكريمة وشبه الكريمة؛ إلا أن الهدية الكبرى التى قدموها للأجيال التالية - لم تكن شيئًا له علاقة بالتجارة أو الملاحة. المؤكد أنهم كانوا أول من وضع أبجدية. كانت الهيروغليفية بالأسلوب

المصرى شيئًا جيدًا، إلا أنها كانت بطيئة فى الكتابة ومربكة فى القراءة غالبًا ولا تستطيع أن تعكس ظلال المعانى. كانت خطوة متقدمة أن يتم اختراع نظام يمكن بواسطته تمثيل كلمة منطوقة بمجموعة صغيرة من الحروف، ولا شك كبيرًا فى أن تلك الخطوة قامت بها بدايةً مجموعة من الشعوب الناطقة بالسامية على الشاطئ الشرقى للمتوسط. أول نقش أبجدى واضح قابل للقراءة اكتشف فى بيبلوس، يعود إلى القرن الحادى عشر ق.م. تقريبًا، ولكن الأشكال البدائية من الأبجدية – المكونة كلها من حروف غير صائتة – فكانت مستخدمة قبل ذلك بعدة قرون، وإذا قلنا: إن الاختراع الأصلى يعود إلى سنة 1700 أو 1500 ق.م، فلن نكون بعيدين كثيرًا عن الصواب، بعد فترة قصيرة سوف يتم تطوير هذه الأبجدية، ثم يتبناها الإغريق، وبذلك يمكن اعتبارها سلفًا للغتنا.

***

عندما كان المصريون يبنون الأهرام، كانت هناك كذلك حركة نشطة فى كريت. كان الناس هناك يشتغلون بالنحاس والبرونز، والأهم من ذلك أنهم كانوا يعملون بصناعة السكاكين البدائية من الزجاج البركانى الداكن المعروف بـ "السبج – Obsidian" وهو زجاج أقرب شبهًا بالفحم، وعندما يتشظى تصبح حوافه حادة كالموسى. كان السبج يستورد من الأناضول، والاستيراد يعنى التجارة، وقد وجد الأركيولوجيون مواد أخرى (مثل العاج والكريستال الصخرى والأحجار شبه الكريمة) تعود إلى أزمنة بعد ذلك بقليل. يبدو أن كريت كانت قد أصبحت بحلول عام 2000 ق.م مفترق الطرق التجارية فى الحوض الشرقى للمتوسط، ونحن نعرف ذلك من مصادر ثقة لا تقل عن أوديسيوس نفسه[5]، وهو أن رياح بحر إيجه فى فصلى الربيع والصيف كانت تساعد على قطع المسافة من كريت إلى مصر فى خمسة أيام على الأكثر، وأن القصرين العظيمين على الجزيرة (فى كنوسوس – Knossos وفايستوس – Phaestos) كانا تحت الإنشاء.

قلعة "وندسور – Windsor Castle" فى كريت هى قصر كنوسوس؛ حيث بدأت أعمال الحفر والاستكشاف الأولى على يد سير "آرثر إيڤانز – Sir Arthur Evans" فى 1899. "إيڤانز"، الذى كان ضئيل الحجم، داكن البشرة، قوى الجسم، أعطى أجمل سنوات عمره للقصر، وهو قصر شديد التميز بالفعل: يغطى مساحة كبيرة تصل إلى عشرة آلاف متر مربع وربما أكثر، ترتفع أجزاء منه إلى ثلاثة أو أربعة طوابق، أما شبكة أنابيب المياه فتبدو أفضل من أى شىء آخر قد تكون عرفته أوروبا قبل القرن التاسع عشر. المشكلة أن علم الآثار كان ما زال فى بداياته فى أيام "إيڤانز"، فأطلق

الرجل العنان لخياله الفنى، إلى درجة تترك زائر اليوم للمكان فى حالة دهشة بالغة. لو تخيلنا الملك "مينوس – Menos" يدخل القصر اليوم فلن يتعرف بسهولة على بعض ما تبقى به من معمار وآثاث – العرش الجصى مثلاً (الذى ما زال مسموحًا بالجلوس عليه)، وتلك الأعمدة الغريبة الشكل فى باحة القصر – ولكن هل سيمكنه التعرف على محاولات سير آرثر لإعادة إنتاج ديكوراته الداخلية: الألوان القرمزية المتوهجة، الألوان الصفراء الأشبه بلون الزبد، ملامح الفن الحديث التى لا تخطئها عين، أو ما هو أكثر مدعاة للانبهار: الجداريات؟ إلا أن هناك سؤالاً لا بد من أن نطرحه. هل الملك مينوس شخصية حقيقية؟ بحسب "هومر – Homer"، كان مينوس ابن "زيوس – Zeus" و"أوروبا – Europa"، ولكن "ديدوريوس سيكولوس – Didorus Siculus"، الذى كان يكتب بالأجريجنتو Agrigento فى القرن الأول ق.م، يعطيه نسبًا أقل قدرًا ويروى كيف أنه فى صراع على ملك كريت، كان يصلى لـ "بوسيدون – Poseidon"[6] ليرسل له ثورًا من البحر يضحى به. استجاب الإله، إلا أن الثور كان جميلاً لدرجة أن مينوس فضل ألا يضحى به، واستبقاه لنفسه؛ انتقامًا منه، جعل بوسيدون زوجة مينوس «باسيفاى – Pasiphae" تقع فى حب الحيوان. أسفر الزواج غير الطبيعى بينهما عن المينوتور – Minotaur (نصف إنسان ونصف ثور) الذى حبسه الملك فى متاهة من تصميم "ديدالوس – Daedalus". لا شىء من ذلك كله، بإقرار الجميع، يوحى بشخصيات تاريخية؛ إلا أن "ثيوسيديديس – Thucydides"، من ناحية أخرى، وهو المؤرخ الثقة، يرجع الفضل لـ "مينوس" باعتباره أول من أنشأ بحرية عظيمة فى المتوسط، وأخضع جزر "السيكلاديس – Cyclades"، ونظف البحر إلى حد كبير، من القراصنة وعين حكامًا على بعض جزر بحر إيجه. أما بالنسبة للمتاهة، فليس هناك أفضل منها وصفًا لقصر كنوسوس، فزائره الذى لا يرافقه مرشد لا بد من أن يحسد "ثيسيوس – Theseus" الذى وجد أمامه خيط "أريادن – Ariadne" ليخرجه إلى الحرية بعد أن ترك المينوتور ميتًا وراءه. وأخيرًا هناك الثور، فهو يمكن رؤيته أو على الأقل هناك ما يدل عليه فى كل مكان من القصر، وهناك لوحة جصية رائعة – لعلها تبدو أصلية أكثر من معظم الأشياء الأخرى – يظهر فيها حيوان فى حالة هجوم، وبطل رياضى صغير يتشقلب فوق قرنيه. المعروف أن الثور يلعب دورًا رئيسيًا فى عقيدة المينويين.[7]

هذه الحضارة غير العادية – الموهوبة المثقفة شديدة الثراء – حكمت إمبراطورية كانت تغطى معظم جزر إيجه، ومارست حتى سنة 1400 ق.م تقريبًا نفوذًا قويا على كل الحوض الشرقى من المتوسط، وخلفت آثارًا وصلت إلى ترانسلفانيا والدانوب إلى جانب

سردينيا وجزر أيوليا – Aeolian Islands القريبة من الساحل الشمالى الشرقى لصقلية. لا بد أنه كان جميلاً أن تكون من أبناء تلك الحضارة. ما تركه المينويون وراءهم يعطى انطباعًا جيدًا عن ذلك الشعب المسالم السعيد الخلو من الهم، الذى كان يشعر بالأمان لدرجة أن مدنه كانت بلا أسوار؛ كما أن اختراع عجلة صنع الفخار جعلهم يتفننون فى صنع أوانى الشرب والأباريق وجرار التخزين بأشكال بالغة الدقة والجمال، ويزينونها بتصميمات وأشكال تجريدية لطيور وأسماك وزهور. كانت ملابسهم كذلك متطورة – وغريبة أحيانًا – بها مساحات عارية كبيرة من أعلى ومزينة بتخريم وتثقيب مبهر. كانوا يتمتعون كذلك بدرجة من الرفاهية غير مسبوقة فى التاريخ، لم يوجد لها مثيل حتى فى أيام المجون والخلاعة إبان الإمبراطورية الرومانية. كانت حياتهم سهلة ومناخهم مبهجًا. كانوا يرتابون فى كل ما هو عسكرى. كانوا يصنعون الحب وليس الحرب.

وكما كان يحدث دائمًا عاجلاً أو آجلاً... كانت الكارثة ! ما حدث بالضبط ليس واضحًا. يقال: إنه كانت هناك عملية غزو من عدو حاقد، وفى مثل تلك الحال كان لا بد من أن يكون هذا العدو هو مسينى[8]- Mycenae، وهناك تفسير آخر مرجح (وإن كان لا يستبعد فكرة الغزو، وهو ذلك الفوران البركانى الهائل الذى حدث نحو 1470 ق.م على "سانتورينى – Santorini" (ثيرا – Thira الحديثة) على نحو ستين ميلاً شمالاً. فى نفس الوقت كانت موجة عنيفة من الزلازل قد ضربت كنوسوس، واجتاحت موجة عاتية الساحل الشمالى من كريت لتغرق كل المرافئ على امتداده، يضاف إلى ذلك أن ثوران البركان أرسل سحابة رهيبة من الرماد البركانى مثل ذلك الذى سيدفن "پومپى – Pompeii" بعد ثلاثة عشر قرنًا – (يقال: إن الرماد وصل إلى الأناضول والمنطقة الموجودة فيها إسرائيل الآن)، وبعد أن أصبحت المدينة مهجورة وبلا أى دفاعات كان يمكن أن تصبح فريسة سهلة للغزاة الأجانب. انتهت الحضارة المينوية.

***

لا نعرف على وجه الدقة كيف أصبحت حضارة مسينى الإغريقية الوريث والخليفة لحضارة كريت. كان هناك أناس يعيشون فى ذلك الحصن الجبلى الصغير منذ الألفية السادسة ق.م، إلا أنهم لم يكونوا يتميزون بشىء ما. ثم جيلاً وراء جيل، أصبحوا فى سنة 1500 ق.م تقريبًا أكثر ثراء وتقدمًا؛ مقابرهم العمودية على الأكروپولوس كانت مليئة بالحلى والمتاع المصنوع من الذهب. الغريب فى الأمر أن لا شىء من ذلك كله يبدو عليه تأثير الحضارة المينوية، هل حدث مثلاً أن كان المسينيون يعملون كمرتزقة لفراعنة

الأسرة الثامنة عشرة، وعادوا حاملين معهم الاعتقاد المصرى فى الحياة بعد الموت، وعادة ملء مقابرهم بالحياة الأخرى وظاهرة أقنعة الموت الذهبية؟ إن أحد هذه الأقنعة هو الذى جعل "هينرش شليمان – Heinrich Schliemann"، أثناء قيامه بالتنقيب فى مسينى يبرق لملك بروسيا: "لقد حدقت فى وجه أجاممنون[9]- Agamemnon. كم سيكون جميلاً أن نتصور أنهم فعلوا ذلك! إلا أننا – من أسف – لن نعرف".

بعد ذلك، وعلى نحو سريع – وقبل ثوران البركان – سادت الأفكار المينوية فجأة، وفى كل أنحاء مسينى: الفؤوس المزدوجة وقرون التكريس وسائر العلامات المميزة لـ "كنوسوس"، فهل كان ذلك نتيجة زيجة سلالية مهمة أم أكثر من زيجة؟ ربما، حيث من الصعب التفكير فى أى تفسير آخر. على أية حال مرت مسينى بتربية سريعة، وعندما كان المينويون يعانون من كسوفهم الغامض، كان خلفاؤهم جاهزين. فى حوالى سنة 1400 ق.م، كان نفوذهم الثقافى قد انتشر فى جزر البيلوپونيز – The Peloponnese مع علاقات تجارية قد امتدت إلى ما هو أبعد من ذلك. فى إيطاليا، التى يبدو أنهم كانوا قد وصلوا إليها قرب نهاية القرن الخامس عشر ق.م، كانت هناك مستوطنات مسينية على امتداد الساحل الجنوبى للأدرياتيكى، وخليج تارانتو – Taranto، وحتى إلى سردينيا وإسكيا – Ischia وخليج نابولى. فى مسينى نفسها، الجدران الهائلة الحجم المحيطة بالأكروپولوس وبوابة الأسد الشهيرة فى الجانب الشمالى الغربى تعود إلى سنة 1300 ق.م؛ كما كان هناك ذهب وبرونز بكميات كبيرة، وكانت هناك براعة حرفية متقدمة لإنتاج المركبات الحربية القديمة المهيبة التى اشتهرت بها المدينة طويلاً. كانت مسينى آنذاك فى أوج قوتها. كانت مستعدة لحرب طروادة.

تقع طروادة فى الركن الشمالى الغربى من آسيا الصغرى. المدينة اليوم، أو ما بقى منها، تبدو مستوطنة صغيرة جدا، والحقيقة أن الحرب نفسها، التى يقال اليوم عادة: إنها وقعت فى منتصف القرن الثالث عشر ق.م ... هذه الحرب ربما لم تكن ذات أهمية تاريخية كبيرة. إلا أنها من الناحية الثقافية كانت واحدة من أهم الحروب، فهى التى وفرت موضوع أكبر الملاحم الشعرية فى العالم. إلياذة – Iliad "هومر"، التى كتبت فى القرن الثامن ق.م تروى قصة حصار طروادة الذى استمر عشر سنوات، أما الأوديسا – Odyssey، التى جاءت بعدها، فهى تتتبع جولات أوديسيوس – Odys-seus، بطل الحرب، قبل أن يعود إلى مملكته إيثاكا فى النهاية. هنا كانت بداية الشعر – وربما التاريخ كذلك – كما نعرفه اليوم.

القصة معروفة لنا جميعًا. باريس، ابن بريام – Priam ملك طروادة يخطف هيلين – Helen زوجة مينيلاوس – Menelaus ملك إسبرطة، التى كانت فى الوقت نفسه فقسَ بيضة وضعتها ليدا – Leda بعد مغامرتها مع زيوس – Zeus متنكرة كبجعة – أجمل امرأة فى العالم. ثأرًا لذلك، سوف تعلن رابطة من المدن الإغريقية الحرب على طروادة وترسل ضدها أسطولاً ضخمًا، يحمل جيشًا قويًا تحت قيادة أجاممنون شقيق مينيلاوس. سوف يستمر حصار المدينة عشر سنوات، وفى النهاية يستولون عليها بواسطة الحصان الخشبى. الحصان وجمال هيلين "الوجه الذى أطلق ألف سفينة"، وربما هيلين نفسها يمكن نسبتهم إلى الأسطورة، ولكن الإلياذة كلها فكرة رمزية، خرافة.

عندما ذهب هينريش شليمان إلى موقع طروادة لأول مرة فى 1868 كانت هناك آراء كثيرة بأن المدينة لم يكن لها وجود أصلاً، ومعظم من كانوا يصدقون كانوا يفضلون موقعًا مختلفًا تمامًا، وهو مكان يسمى بونار باشى Bunarbashi؛ كان شليمان أول من حدد هيزارلك Hisarlike، الواقعة على بعد ستة أميال شمالاً تقريبًا، واعتبرها المكان الصحيح بموجب ما جاء فى الإليادة من دلائل جغرافية. أحد الأسباب التى جعلته يرفض بونار باشى، هو أنها كانت تقع على بعد مسيرة ثلاث ساعات من الساحل: هومير يقول، تحديدًا: إن اليونانيين كانوا يستطيعون الذهاب والعودة عدة مرات فى اليوم الواحد بين سفنهم والمدينة المحاصرة، وهناك سبب آخر وهو شدة انحدار الميل:

> **تركت دليلى مع الحصان على القمة وهبطت على الجرف الذى كان مائلاً فى أوله بزاوية حوالى 45 درجة، ثم بزاوية حوالى 65 درجة، لدرجة أننى كنت مضطرًا للنزول على يدى ورجلى. استغرقنى الوقت نحو خمس عشرة دقيقة، وخرجت مقتنعًا بأنه لم يكن بإمكان أى كائن حى النزول على منحدر يصل ميله إلى 65 درجة، ولا حتى الماعز، وأن هومير، وهو الدقيق دائمًا فى طبوغرافيته لم يكن بإمكانه أن يقنعنا بأن هيكتور وأخيل هبطا هذا المنحدر المستحيل ثلاث مرات.**

أما فى هيزارلك فكان الوضع مختلفًا تمامًا:

> **المنحدرات التى على المرء أن يعبرها حول المدينة سهلة، لدرجة أنه يمكن النزول عليها بسرعة ودون مخاطرة بالسقوط، وبالجرى حول المدينة ثلاث مرات يكون هيكتور وأخيل قد قطعا خمسة عشر كيلومترًا.**

لسوء الحظ، فإن هومير يقول – بوضوح تام – فى الإلياذة: إنه كان هناك نبعا ماء فى طروادة، أحدهما ساخن والآخر بارد. أما فى هيزارلك فلم يكن هناك شىء من ذلك. من ناحية أخرى كان الوضع فى بونار باشى أكثر اختلافًا: وجد شليمان ما لا يقل عن أربعة

وثلاثين نبعًا – كانت درجات حرارتها كلها متساوية تقريبًا بحسب الترمومتر الذى كان يحمله – وفيما بعد، اكتشف أنه كانت هناك ستة أخرى كان قد غفل عنها. تغلب شليمان على هذه الصعوبة بأن افترض أن المجارى المائية تحت الأرض كانت قد تغيرت بفعل الزلازل التى ضربت المنطقة، والمحتمل أن يكون ذلك قد حدث بالفعل.

توجد كذلك دلائل تاريخية على حرب طروادة أو على شيء قريب الشبه بها. السجلات التى تركها الحيثيون[10] Hittites الذين عاشوا فى الأناضول تشير إلى حملة عسكرية مسينية كبيرة على آسيا الصغرى فى القرن الثالث عشر ق.م؛ يضاف إلى ذلك أن المدينة التى اكتشفت فى الطبقة الأركيولوچية السادسة من الطبقات التسعة المكتشفة فى موقع هيزارلك – التى يوجد إجماع الآن أنها تنتمى إلى طروادة هومير – كانت تحمل دلائل كثيرة على النهاية العنيفة التى آلت إليها. سوف نقتنع بذلك، وليس لأن شليمان بالطبع كان مقتنعًا به. قام شليمان بالحفر نزولاً إلى الطبقة الثانية ليجد أمامه فى اليوم قبل الأخير كمية كبيرة من الذهب، ثم أعلن بعدها للعالم أنه قد اكتشف مجوهرات هيلين طروادة، بل إنه حتى التقط صورة لزوجته اليونانية الجميلة وهى تتقلدها. الآن، نعرف أن هذا الكنز كان يعود إلى فترة سابقة تقدر تقريبًا بألف عام قبل الملك پريام. مسكين السيد شليمان: لم يعرف قط أنه كان مخطئًا.[11]

لم تعرف القرون الثلاثة أو الأربعة التالية لحرب طروادة حضارة بارزة من النوع الذى نتناوله هنا. كانت فترة تحول وانتقال حفلت بغزوات من قبل القبائل الدورية[12] Dorian Tribes من الشمال، وارتحالات سكانية وتنقلات تضمنت إقامة مستوطنات يونانية جديدة فى آسيا الصغرى. لم تستقر الأمور مرة أخرى إلا فى سنة 800 ق.م تقريبًا، عندما اتحدت الأراضى المتاخمة لبحر إيجه بلغة واحدة وثقافة واحدة. حتى ذلك الحين كان لا يمكن أن تجد مدينة واحدة أو بلدة واحدة قد بزت غيرها أو تقدمت أكثر منها بين تلك المجتمعات الإقطاعية الكثيرة المعزولة عن بعضها، التى صنعت العالم اليونانى. ولكن التجارة عادت وعاد الاتصال، والأهم من ذلك كله أنه تم إحياء الأبجدية وتحسينها بإدخال الحروف الصائتة. هكذا إذن كان المسرح معدًا لبديات الأدب، وجاء ظهور هومير فى موعده عام 750 ق.م. ولو أن هومير كان قد ولد قبل ذلك لما كانت ملحمتاه. ربما ما كانت اللغة لتكون جاهزة له، ولربما كان هو نفسه قد بقى أميًا. (يجادل كثير من الباحثين بأنه كان بالفعل أميًا، فالعملان يحملان سمات الأدب الإنشائى الشفاهى، وكلتاهما لا تخلو من عدم ترابط واتساق، وكثيرًا ما يبدو فيهما الشاعر متناقضًا مع نفسه).[13] وحتى لو أنها كتبت هكذا فى الأصل، فنحن نعرف بكل تأكيد أنها دونت

لأول مرة لتصبح طبعة حقيقية، تحت حكم «بيزيستراتوس – Peisistratus“ حوالى 540 ق.م.

أيًا كانت طريقة كتابتها فإن هومير كان ينشد عن عصر ذهبى، عصر آلهة وأبطال لا يوجد شىء مشترك بينهم وبين عالم أيامه الرتيب؛ إلا أن ذلك العصر بالنسبة له، مهما كان مختلفًا، ما كان ليبدو بعيدًا جدًا. كان الشاعر يكتب بعد نحو خمسمائة عام من الأحداث التى يصفها - فترة أقصر من تلك التى تفصلنا عن ”حروب الورد – Wars of the Roses“، ولو أنه كان إيونيًا Ionian، كما هو متفق عليه[14]، فإن طروادة نفسها لم تكن بعيدة جدًا.

نعرف كذلك شاعرًا مهمًا آخر يبدو أنه كان معاصرًا لـ هومير تقريبًا. يخبرنا «هزيود – Hesiod“ أن عائلته كانت من سلالة يونانية برغم أن والده كان قد استقر فى ”بويتيا – Boetia“ فترة قصيرة قبل أن يولد. لعل أهم أعماله هو ”مولد الآلهة – Theogony“. فى هذا العمل يروى الأحداث التى أدت إلى ميلاد وسلسلة نسب زيوس: إخصاء ”أورانيوس – Oranus“ بواسطة ”كرونوس – Cronus“ وانقلاب آلهة الأولمب على كرونوس. والتيتان[15] – The Titans. ترك هزيود عدة قصائد أخرى طويلة (موجودة إما كاملة أو أجزاء منها)، لعل من أهمها ”أعمال وأيام – Works and Days“، وهى عمل مختلف عن ”مولد الآلهة“. عمل أقرب إلى الوعظ منه إلى أى شىء آخر، كتبه قس إنجليزى فى أواخر القرن السابع عشر يتغنى بفضائل الأمانة فى أداء العمل ويستنكر الكسل والإهمال، كما يحتوى على نصائح عملية فى موضوعات مختلفة مثل الزراعة واتباع الدين والسلوك القويم. المثير للدهشة أن هزيود ليس مقروءًا اليوم على نطاق واسع، رغم أهمية قصائده. اللافت أن يكتب ذلك فى ذلك الوقت، إلا أنه لم يكن لديه شىء من دافعية هومير... لا شىء من حيويته.. لا شىء من خياله الجسور.

ربما تكون قد حدثت واحدة من أهم الهجرات فى التاريخ بعد نحو عشر أو خمس عشرة سنة من حرب طروادة: هجرة العبرانيين بقيادة موسى الذى خرج بشعبه من مصر إلى أرض كنعان المعروفة لنا بـ ”فلسطين“. أما إذا كانت المسافة، القصيرة نسبيًا، التى قطعوها – نحو 400 ميل على الأكثر – قد استغرقت أربعين سنة بالفعل كما يخبرنا الكتاب المقدس، فذلك أمر مشكوك فيه. المؤكد أكثر من ذلك أن وجودهم لم يكن مقبولاً من الفلسطينيين والآخرين الذين كانوا يسكنون ما يعتبره شعب إسرائيل أرضهم الموعودة – Promised Land. كانت قبائلهم الإثنتى عشر الأصلية مضطرة مِن ثمّ للاتحاد واختيار ملوك يعيشون تحت عروشهم حياة قومية أكثر استقرارًا. كان

"شاؤول – Saul" الذى حكم من 1025 إلى 1010 ق.م أول أولئك الملوك؛ ولكن تحت خليفته داود وابنه سليمان كان أن وصلت المملكة إلى ذروتها. كان داود هو الذى أباد الفلسطينيين وأخضع كل القبائل المجاورة واختار مدينة أورشليم الواقعة على التل عاصمة له. هنا سيبنى سليمان قصرًا رائعًا، وأول هيكل – أكثر روعة – ويطور مرفأ "إزيون – جيبر Ezion- Geber" على البحر الأحمر، صانعًا بذلك صلة مباشرة بين المملكة وأفريقيا.

إلا أن ذلك لم يستمر. انشقت المملكة بعد موته إلى مملكة إسرائيل فى الشمال ومملكة يهوذا Judah فى الجنوب. النزاع والخلاف المستمر بين الخصمين المتنافسين أضعفهما وجعل منهما فريسة سهلة لأعدائهم؛ ففى حوالى منتصف القرن الثامن ق.م غزاهم الأشوريون، وفى سنة 722 ق.م دُمرت إسرائيل تمامًا. أما يهوذا، فبقيت تحت حكم ملكها "حزقيا – Hezekiah" منيعة مؤقتًا.. لمدة عشرين سنة فحسب. فى أواخر القرن سيهجم الملك الأشورى "سنحاريب – Sennacherib" على أسوار أورشليم "هجوم الذئب على قطيع خراف"، بكلمات بيرون – Byron، ويطلب استسلام المدينة. بتشجيع من النبى "أشعيا – Isaiah"، تحداه حزقيا. تقول السجلات الأشورية: إن سنحاريب كان مضطرًا آنذاك للعودة مسرعًا إلى بلاده بسبب بعض المشكلات المحلية، ومن ناحية أخرى فإن أشعيا يزعم – ويؤيده فى ذلك إلى حد ما هيرودوتس، أن وباء معجزًا أصاب جيش الغزاة. المهم أن أورشليم نجت.

إلا أن النجاة لم تكن لفترة طويلة؛ إذ بعد قرن تقريبًا، فى 568 ق.م، سيقوم "نبوخذ نصر- Nebuchadnezzar" بتدمير المدينة تمامًا وسمل عينى الملك "صدقيا – Zedekiah" – بعد إجباره أولاً على أن يشهد موت أبنائه، وبعد ذلك سيحمله مع عشرة آلاف من كبار أعوانه بمن فيهم النبى "حزقيال – Ezekiel" إلى الأسر فى بابل. فى سنة 538 ق.م فحسب، بعد أن يستولى "قورش الكبير – Cyrus the Great" على بابل، سيسمح للمنفيين، أو اليهود كما نطلق عليهم الآن بالعودة؛ ليقيموا دولة عبرية جديدة ويستعيدوا الهيكل ويعيدوا الطقوس القديمة كما هى فى أسفارهم، وتنتهى متاعبهم مؤقتًا.

هوامش الفصل الأول

(1) ربما باستثناء واحد بالطبع وهو أوديسيوس: Odysseus، عشر سنوات بين طروادة وإيثاكا، لا بد من أن يكون رقمًا قياسيًا، حتى فى أيامه.
(2) رغم تمنياتى بأن يقوم أحد بإصلاح عينها اليسرى.
(3) فى عهد الرومان، كان الإمبراطور نيرون Nero قد أصدر مرسومًا يقصر فيه ارتداء الأرجوان على نفسه وبقى الأرجوان لونًا إمبراطوريًا (ملكيًا) – لدرجة أنه يقال: إن بعض الملوك أو الأباطرة قد "ولدوا فى الأرجوان" – حتى سقوط الإمبراطورية البيزنطية فى 1453، وحتى يومنا هذا بقى محتفظًا ببعض مكانته السابقة. العيب الوحيد فى صناعة الـ Murex كان تلك الرائحة الكريهة الناتجة عنها، فكانت أكوام الأصداف المكسورة توضع دائمًا خارج المدينة وباتجاه الريح.
(4) قنة الجبل: الجزء الناتئ منه والداخل فى البحر. **(المترجم)**
(5) الأوديسا – الكتاب الخامس.
(6) إله البحر فى الميثولوچيا اليونانية.
(7) المينويون – Minoans: أصحاب حضارة جزيرة كريت القديمة (-3000 1000 ق.م). **(المترجم)**
(8) كانت مدينة مسينى القديمة فى جنوب اليونان؛ حيث ازدهرت الحضارة الإيجية (1400 – 1100 ق.م). **(المترجم)**
(9) كان ملكًا على مسينى. **(المترجم)**.
(10) لم يكن أحد يسمع بهم قبل نهاية القرن التاسع عشر تقريبًا، لكن المعروف الآن أن الحيثيين The Hittites أقاموا مملكة قوية فى الألفية الثانية ق.م، وتنسب حضارتهم لأعالى الأناضول أكثر مما هى للبحر الأبيض المتوسط.
(11) هذا الكنز نهبه الجيش الروسى فى الحرب العالمية الثانية من متحف برلين، ولعدة سنوات ساد اعتقاد بأنه قد ضاع إلى الأبد – كأن يكون بعض الجنود الروس قد قاموا بصهره. مؤخرًا – فحسب – أعلن الروس أنهم محتفظون به فى مكان آمن.
(12) الدوريون – The Dorians قبائل إغريقية قديمة غزت اليونان حوالى سنة 1100 ق.م **(المترجم)**
(13) لا بد من الاعتراف بأن التناقض الذاتى ليس أمرًا غريبًا فى الأدب الحديث كذلك. كل ما فى الأمر هو أن من قام بتحرير أعمال هومير كان ضعيفًا.
(14) يقال: إنه ربما كان من مواليد سميرنا – Smyrna (أزمير الحالية) أو خيوس – Chios.
(15) أسرة الجبابرة التى حكمت العالم قبل آلهة الأولمب. **(المترجم)**

الفصل الثانى

اليونان القديمة

• الحروب الفارسية: (559 – 481 ق.م) • هيرودوتس: 484 ق.م – العصر الذهبى: القرن الخامس ق.م. • أفلاطون وأرسطو: القرن الرابع ق.م. - الإسكندر 334 ق.م.

شهدت القرون التالية لـ «هومير» سقوط ما يمكن أن نطلق عليه «حضارات القصور» فى العصر البرونزى المتأخر، لكى تحل محلها أنظمة أكثر انفتاحًا وأكثر عددًا وديمقراطية نسبية. كانت الحضارة التى قامت فى مدينة «كورنته – Corinth" إحدى تلك الحضارات الأولى الأكثر قوة، وقد نمت بسرعة لتصبح قوة بحرية هائلة فى اليونان. كان الكورنتيون يتباهون بالموقع الجغرافى المتميز لمدينتهم الرابضة على البرزخ الذى يحمل اسمها – برزخ كورنته – الذى يمكنهم من الوصول إلى البحر الإيونى وبحر إيجه، ولذا فقد تحكموا فى طرق التجارة المؤدية إلى إيطاليا وأنشأوا المستوطنات التى امتدت إلى "سيراكوزا – Syracuse" فى صقلية و"أبولونيا – Apollonia"، فى ليبيا اليوم، وإلى جزيرة "كورفو – Corfu"، وذلك بعد أول معركة بحرية سجلها التاريخ اليونانى. (حدثت هذه المعركة فى سنة 670 ق.م تقريبًا وتحقق فيها الانتصار بفضل السلاح السرى الجديد لكورنته وهو السفينة ثلاثية المجاديف. إلا أن تفوق كورنته كان قصير المدى نسبيًا. بحلول القرن السادس ق.م، كان نجم أثينا قد بدأ فى الصعود بسرعة. فى ذلك الوقت كان اليونانيون قد احتلوا كل الحوض الشرقى من البحر الأبيض حتى صقلية غربًا. (كانت مجموعة من مدينة فوكايا – Phocaea فى آسيا الصغرى قد ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك وأنشأت مستوطنة فى إمبوريون – Emporion (إمبيوريس – Empuries الآن) على ساحل قطالونيا، وهى المستوطنة اليونانية الوحيدة فى إسبانيا، التى يوجد بها أثر يدل عليها). حملوا إليها الحضارة، بما كان لديهم من فن ومعمار وآداب وفلسفة وعلوم ورياضيات، إلى جانب مهاراتهم الصناعية. لا بد من أن نكون ممتنين لهم كذلك لإدخالهم النبيذ الفاخر وطقوس تناوله والممارسات الاجتماعية المصاحبة من حفلات وولائم. إلا أن اليونانيين لم يكونوا قط إمبراطورية بالمعنى الذى ستكون عليه روما فيما بعد.

سياسيا، كانوا مجرد عدد كبير من الدول – المدن، كما كانوا معظم الوقت فى حالة حرب مع بعضهم البعض. كانوا أحيانًا يشكلون روابط وتحالفات مؤقتة، إلا أن تلك الدول – المدن كانت مستقلة بالضرورة. فى تلك الأيام لم تكن أثينا عاصمة بأى معنى، أكثر من "هاليكارناسوس – Halicarnassus" فى آسيا الصغرى مثلاً؛ حيث ولد هيرودوتس، أو سيراكوزا فى صقلية، مسقط رأس "أرشميدس – Archimedes"، أو جزيرة "ساموس – Samos" موطن "فيثاجوراس – Pythagoras". كان القديس

بولس (سان بول – St Paul) يتباهى بأنه مواطن رومانى، ولم يكن بالإمكان أن يقال مثل ذلك عن اليونانية التى – لا تختلف عن اليهودية اليوم – كانت مفهومًا أكثر منها جنسية. لم يكن هناك تعريف دقيق. إذا كنت تشعر بأنك يونانى وتتحدث اليونانية، فأنت إذن يونانى.

إحدى نتائج هذا الشتات الكبير وجود كثير من المواقع اليونانية فى إيطاليا وصقلية وحول السواحل الغربية والشمالية لأسيا الصغرى مثلما على البر الرئيسى لليونان. ربما كان للبارثينون[1]- Parthenon مستواه الفريد الذى لا يضارع[2]، إلا أن الشىء نفسه يمكن أن يقال عن التحف المعمارية فى «أولمبيا – Olympia" و"باساى – Pas-sae". غير أن تفكير المرء سوف يذهب إلى المعابد العظيمة فى "پايستم – Paestum" جنوبى نابولى، أو تلك فى "سيجستا – Segesta" و"أجريجنتو – Agrigento" فى صقلية، أو فيما وراء بحر إيجه، وإلى المسرح اليونانى الكبير فى "إفسيوس – Ephe-sus"، وتلك المعابد الصغيرة المطلة على البحر فى "سيد – Side" و"كاس – Kas"، أو الآثار المثيرة للعواطف والذكريات فى "پرين – Priene"، إحدى المدن اليونانية القليلة من بين مدن الساحل التى نجت من "الرومنة – Romanizaton" أو إضفاء الطابع الرومانى عليها، أو البوليتريون (قاعة الاجتماعات) الصغير؛ حيث كان ممثلو الشعب المختارون يجتمعون لإدارة شؤون المدينة. ربما لا يكون ذلك كله هو "اليونان" بمنظورنا الحالى لمعنى "دولة"، ولكنه العالم اليونانى.. الأكثر أهمية.

كان هناك كذلك عدد من الممالك الصغيرة فى آسيا الصغرى التى رغم تأثرها المتزايد بالثقافة اليونانية حتى أصبحت هيلينية تمامًا، كان لها جذور قديمة قبل أن يسمع أحد باليونانيين: "پرجامم – Pergamum" على سبيل المثال، التى كانت مزارًا للحج عدة قرون بسبب وجود "أيسكلاپيوس – Aesculapius"، إله الشفاء بها، قبل أن تكون لها السيادة السياسية فى القرنين الثانى والأول ق.م؛ أو "فريجيا – Phrygia" التى حكم ملكها الشهير "ميداس – Midas" – صاحب اللمسة الذهبية الأسطورية – فى القرن الثامن ق.م[3]، أو «ليديا – Lydia" التى حكمها فى القرن السادس ق.م الملك "كرويسوس – Croesus" الأغنى حتى اليوم، وهو الذى اخترع عملية سك النقود، ولعب القمار ! (ربما فى الوقت نفسه). هذه المملكة – ليديا – سيكتب هيرودوتس عن سكانها: "لولا أنهم يدفعون بناتهم دفعًا للعهر والبغاء، لاعتبرنا أخلاق أهلها مثل أخلاقنا إلى حد بعيد".

كان افتقاد الوحدة السياسية هذا مفيدًا تمامًا لتطور الفن والثقافة والفكر اليونانى. هذا الغياب شجع التنوع، كما كان سببًا فى ظهور قدر كبير من المنافسة الصحية، إلا أنه كشف فى الوقت نفسه عن ضعف شديد وخطير فى وجه قوة إمبراطورية هائلة.كانت تتزايد على مدى معظم سنوات القرن السادس ق.م. كانت الإمبراطورية الفارسية من صنع "قورش الأكبر – Cyrus the Great"، الذى استطاع خلال حكمه الذى استمر ثلاثين عامًا (559 – 529 ق.م) أن يجمع ويوحد عددًا من القبائل المتباينة فى دولة واحدة ويجعلها أقوى دولة على وجه الأرض. كان الفرس جنودًا بارعين ومقاتلين مهرة يمكنهم أن يمطروا أعداءهم دون توقف بوابل من السهام، بفضل هؤلاء الجند والخيالة المهرة تمكن قورش من هزيمة كرويسوس سنة 546 ق.م وبسط سلطانه على ساحل الأناضول إلى "كاريا – Caria" و"ليسيا – Lycia". هكذا بضربة مفاجئة أصبحت فارس قوة متوسطية. تحت "داريوش – Darius" العظيم، الذى اعتلى العرش فى سنة 522 ق.م بعد أن قتل "قمبيز – Cambyses"، أصبحت فارس قوة أوروبية تقريبًا. قام داريوش بأول حملة كبيرة على اليونان فى 490 ق.م، عندما أرسل أسطولاً ضخمًا يحمل ما لا يقل عن خمسة عشر ألف جندى بقيادة "داتيس – Datis"، ابن أخيه. عبرت الحملة بحر إيجه لتشن هجومًا كاسحًا على أثينا. فى محاولة للتصدى لها، قام الجنرال اليونانى "ملتيادس – Miltiades" فورًا بحشد من مدينة "بلاتيا – Plataea" الصغيرة، وانتظمهم متراصين فى خط طويل عبر سهل ماراثون خارج المدينة بنحو اثنين وعشرين ميلاً. لم يتمكن جيش إسبرطى من الظهور فى الوقت المناسب ولم ينتظره ملتيادس. حسمت المعركة سريعًا. نجحت القوات اليونانية فى اختراق الفرس واندفعت متقدمة لكى تطوق الوسط. استدار جيش داتيس ولاذ بالفرار أمام اليونانيين الذين كانوا يطاردونه. بلغت خسائر الفرس نحو 6400 قتيل وفقد الأثينيون 192 جنديًّا وأسروا خمس سفن فارسية فى تلك المواجهة.[4]

كسبت أثينا معركة، ولكنها لم تكسب الحرب. كان كل ما كسبته هو «فضاء للتنفس» لكى تستعد للهجوم التالى. كان قائدها «ثيميستوكليس – Themistocles"، المنتخب حاكمًا ورئيسًا شرفيًّا للمدينة فى 493 ق.م، كان مقتنعًا بأن أفضل أمل لها هو أن يكون لها قوة بحرية.. وشرع فى بناء أسطول بحرى. بضربة حظ غير عادية، كان قد تم اكتشاف عرق سميك من الفضة فى مناجم "لوريوم – Laurium" القريبة، وعليه لم يكن التمويل مشكلة. لحسن الحظ كذلك أن الفرس كانوا مشغولين بإخماد تمرد فى مصر، كما أن موت داريوش فى 486 أخَّرهم أكثر من ذلك. وأخيرًا على أية حال انطلقت حملة جديدة قوامها مائة ألف مقاتل بقيادة "خشيرشاى – Xerxes" ابن داريوش وخليفته.

عبرت الحملة "هيلزبونت – Helleespont" (الدرنيل) على جسر من القوارب، وتقدم نحو "تراقيا – Thrace" إلى "تيسالى – Tessaly"، ويقال: إن الحشد كان ضخمًا لدرجة أن الرجال ودواب حمل العتاد والمؤن شربوا مياه البحر حتى جف. الأثينيون القلقون استشاروا الكهنة فى "دلفى – Delphi"، فنصحوا أن يضعوا ثقتهم فى جدرانهم الخشبية، ولكن أحدًا لم يكن يعرف ما إذا كان ذلك إشارة إلى تحصينات الأكروبولوس أو إلى السفن الحربية، ولم تُجْدِ النصيحة. الأثينيون تجاهلوها على أية حال، فتقدموا شمالاً لملاقاة العدو، مصحوبين هذه المرة بفرقة متوسطة الحجم من إسبرطة تحت قيادة الملك الإسبرطى "ليونيداس – Leonidas".

قرروا أن يتخذوا مواقعهم عند ممر "تيرموبايلاى – Thermopylae" الضيق الذى يعتبر بوابة إلى "بويتيا – Boetia" و"أتيكا – Attica". قاتل الأثينيون والإسبارطيون ببسالة جنبًا إلى جنب لمدة ثلاثة أيام، ثم أرشد أحد الأدلاء المحليين "خشيرشاى" إلى ممر ضيق عبر الجبال يمكنه أن يهاجم منه الإسبارطيين من الخلف. بينما كانت القوة الرئيسية لليونانيين تتقهقر فى اتجاه الشمال، كان ليونيداس ونحو ثلاثمائة مقاتل يخوضون حربًا يائسة فى المؤخرة، كان أن قضوا فيها كلهم. الآن كان الطريق إلى أثينا قد أصبح مفتوحًا. قام "ثيميستوكليس" بإخلاء المدينة ووضع قيادة على جزيرة "سالامس – Sa-lamis" المجاورة واستدعى كل السفن المتاحة (وصل عددها إلى 378 سفينة) لتتجمع فى خليج "سارونيك – The Saronic Gulf"، وبمجرد أن وصلت السفن وجدوا أنفسهم محاصرين بواسطة الأسطول الفارسى الذى كان قوامه نحو ستمائة سفينة. إلا أنهم بدلاً من محاولة فك الحصار، انسحبوا ببراعة فى المياه الضيقة فى سالامس مما أغرى الفرس بمطاردتهم. فى القتال المتلاحم الذى دار، كانت السفن اليونانية ثلاثية المجاديف أكثر سرعة وكفاءة، وأكثر قدرة على المناورة من السفن الشراعية الفارسية الثقيلة. كانت السفن اليونانية تدق السفن الفارسية دون رحمة، بينما خشيرشاى – غاضبًا – جالس على عرش أقدامه من الفضة تحت مظلة مذهبة، يراقب سير الاشتباك من شاطئ أتيك. عندما انتهت المعركة كان اليونانيون قد أغرقوا نصف سفنه تقريبًا، بينما خسروا أربعين من سفنهم. سيعود خشيرشاى إلى عاصمته فى "سوسا – Susa" ولن تطأ قدمه اليونان مرة أخرى. ترك فى تيسالى جيشًا قوامه نحو ثلاثين ألف مقاتل تحت قيادة جنرال يدعى "ماردونيوس – Mardonius"، لقى هو الآخر هزيمة فى العام التالى فى معركة "بلاتيا – Plataea"، وفى اليوم نفسه كان هناك اشتباك آخر بالقرب من "كيب ميكالى – Cape Mycale" فى آسيا الصغرى؛ حيث تم تدمير ما كان قد تبقى من السفن الفارسية. هكذا انتهت الحرب بانتصار اليونانيين.

كانت نتيجة الحرب – بالتأكيد – تعتبر انتصارًا للحرية الغربية على الأوتوقراطية والاستبداد الشرقى؛ الملك العظيم بكل آلته العسكرية الهائلة لم يكن قادرًا على تدمير حفنة من المدن – الدول اليونانية - وهنا قد يعن لنا أن نسأل: ولماذا حفنة؟ كانت أثينا وبلاتيا وإسبارطة والمدن القليلة الأخرى التى تشكل الرابطة البيلوبونيزية بقيادة إسبارطة، كانت تتميز بأنها أسمى منزلة، ولكن ماذا عن المدن الأخرى؟ الحقيقة أن أحدًا من معظم المدن اليونانية الأخرى لم يرفع إصبعًا، بعضها تعاون مع الفرس بدافع من الخوف، وبعضها بكل بساطة قبل البقاء دون مبالاة تحت "مرزبان[4]- Satrap" ربما متسامح أو غير مستبد، برغم كل ذلك كانت مدن الساحل الإيونى الكبرى – برجامم وإفيسيوس وميليتوس وبرين – قد عاشت تحت راية الملك العظيم على مدى الأربعين سنة السابقة دون شكوى. كان هناك الكثير من اليونانيين من أبناء الطبقة العليا المحافظة فى كل منطقة بحر إيجه، الذين يخشون الخطوات الراديكالية نحو الديمقراطية الشعبية التى كانت قد نشأت فى القرن السابق – فى أثينا قبل غيرها على يد مصلحين مثل "سولون – Solon" و"كليستينيس – Cleisthenes" – وكانوا يفضلون النظام القديم صراحة، ولأنه لم يكن لهم جنسية حقيقية، لم يكونوا ضد أى سيادة أجنبية ما دامت ودية ومعتدلة.

كانت "هاليكارناسوس – Halicarnassus" (بودروم – Bodrum الحديثة) كذلك تحت السيطرة الفارسية عندما ولد هيرودوتس فى 484 ق.م. عندما كان فى العشرين تقريبًا، عارض استبداد المرزبان الفارسى "ليجدامس – Lygdamis" ونجا بصعوبة من حكم بالإعدام. بعد طرده من الإمبراطورية أقام فى "ساموس – Samos" التى أصبحت مستقره الرئيسى حتى تورطه فى الاحتلال الأثينى لـ "تورى – Thurii" جنوبى إيطاليا فى 444 ق.م. يبدو أنه كان دائم الترحال طوال حياته، والمؤكد أنه أمضى فترة فى أثينا – حيث أصبح صديقًا مقربًا من "سوفوكليس – Sophocles"، وتنقل فى أرجاء اليونان وآسيا الصغرى ولبنان وفلسطين، كما أخذته رحلات أخرى إلى "قورينه – Cyrene" فى ليبيا وبابل فى بلاد الرافدين وعلى النيل إلى أسوان فى مصر العليا. أينما حل هيرودوتس، كان يطرح الأسئلة، وليس عن التاريخ فحسب. كان يسأل عن الجغرافيا والميثولوجيا والعادات الاجتماعية.. وكل ما يعن له.

التاريخ الذى كتبه – أول عمل أدبى أوروبى مهم كتب نثرًا – سجله فى أواخر حياته، وبعد موته تم تقسيمه إلى تسعة كتب كل منها على اسم إحدى الإلهات[5] – Muses. وبالرغم من أنه كتبها قبل ألفيتين ونصف الألفية، تبقى مثيرة للدهشة إلى اليوم عند قراءتها لامتلائها بالاستطرادات العديدة والنوادر الطريفة والمعلومات التى جمعها

أثناء أسفاره وتضفى عليها حيوية شديدة. العمل كله يرفده حب استطلاع شديد ودهشة وافتتان بجمال العالم وتنوعه من حوله. وهكذا فإن هيرودوتس يونانى قلبًا وقالبًا. إنه يجسد الروح الإغريقية تمامًا مثل التراجيديات الإغريقية فى القرن الخامس وربما مثل هوميروس.

لقد نشأنا كلنا ونحن ننظر إلى القرن الخامس ق.م فى أثينا باعتباره عصرًا ذهبيًا، عصرًا لم يشهد تقدمًا غير مسبوق فى العلوم والفنون كما فى الفلسفة والنظرية السياسية فحسب، بل إنه كذلك، فى حالات كثيرة، حقق فى هذه المجالات نفسها مستوى من الإتقان لم يتجاوزه عصر آخر إلى الآن. يمكن أن يكون ذلك بشكل عام؛ إذ إننا نرى بداية الظاهرة قبل ذلك بمائة عام تقريبًا، أما أصحابها فكانوا كلهم أثينيين فحسب. كان فى إيونيا أن تنبأ "تاليس – Thales" (من ميليتوس – Miletus) بكسوف الشمس 585 ق.م وصدق توقعه. كان أرسطو يعتبره أول فيلسوف طبيعى. وكان فى إيونيا كذلك أن أنتج زميله "أنكسماندر – Anaximander" أول خريطة للعالم المأهول. بعد نصف قرن، وعلى جزيرة ساموس سينتج "فيثاجوراس – Pythagoras" نظريته عن المثلثات قائمة الزوايا. ولكن كان فى أثينا أن بدأ "بيزيستراتوس – Peisistratus" معبد زيوس الأولمپى فى 540 ق.م عندما كان فن الفخار فى ذروته. وكان فى أثينا أيضًا أن اجتمع كل هذا الإبداع والتفوق والتألق – بعد انتهاء الحرب الفارسية – فى حالة عبقرية واحدة جاءت بموجة هائلة من الثقة والتفاؤل. كان يبدو أن الإنسان قد حرر نفسه من الخرافات البدائية التى كانت ملازمة للماضى، بدأ أخيرًا يفهم الكون من حوله ويدرك أنه – بالتأكيد – سوف يتمكن من السيطرة عليه. فى الوقت نفسه كان يكتشف الحقائق الأساسية للفلسفة السياسية التى علمته كيف يعيش فى المجتمع الذى ولد فيه؛ وبواسطة هذا المزيج من القوة والمعرفة، لن يستمتع بعصره الذهبى فحسب، وإنما سيجعله مستمرًا إلى الأبد.

كانت الروح المهيمنة على ذلك كله هى روح "بيركليس – Pericles" التى سادت أثينا منذ 461 ق.م، عندما كان فى الرابعة والثلاثين، حتى وفاته بالطاعون فى 429 ق.م. كل شىء قاله أو فعله كان من وحى وإلهام حب شديد لمدينته الأم. كان قد بذل كل ما فى وسعه لكى يجعلها جميلة، وبشتى الوسائل؛ بتجديد المعابد التى هدمها الفرس وتنظيم بناء أخرى جديدة على الأكروپوليس؛ حيث كان مسئولاً مسئولية مباشرة عن "البروپيلاى – Propylaea" والأوديون والإرخثيوم والپارثينون نفسه؛ إلا أن بيركليس كان كذلك قائدًا عسكريًا وإمبراطوريًا لا يشق له غبار؛ إذ ينبغى ألا نفترض أن القرن

الخامس ق.م كان زمن سلام فى أثينـا. على العكس، كان هنـاك تقريبًا قتال مستمر مع إسپارطـة، كما هو مع دول يونانية أخرى رافضـة أو مقاومة لسياسات أثينا التوسعيـة. هذه الظروف الضاغطـة كانت آخذة فى التصاعد حتى 431 ق.م لكى تنفجر فى حرب البيلوپونيز. كان أحد الأسباب الرئيسية لتلك الحرب التى استمرت لفترة تزيد عن ربع القرن الخامس المجيد - هو إصرار كل طرف على التحكم فى طرق التجارة التى تصل اليونان بالبحر الأدرياتيكى؛ ومن يريد أن يعرف قصة هذه الحرب كاملة فعليه أن يقرأ ثيوسيديديس. أما هنا فكل ما يمكن قوله: إنها انتهت بحصار شتوى طويل لأثينا (405 – 404 ق.م)؛ حيث ضاق الخناق على المدينة وتضورت جوعًا.. فاستسلمت. ولكن العصر الذهبى لم يكن عصر سياسة فحسب، ولعل وصفه بالذهبى يأتى لعلاقته بالفن والفكر. فى مجال الأدب بشكل عام، والدراما على نحو خاص، وهى موضع قوة اليونان، كان الاسم العظيم الأول هو اسم "أيسخيلوس – Aeschylus" المولود فى 525 ق.م، ولا بد أن يكون قد حارب فى "ماراثون – Marathon"، وربما فى "سالاميس – Salamis" و"پلاتيا – Plataea" كذلك. كتب على مدى حياته الطويلة أكثر من ثمانين مسرحية، بقيت منها سبعة بما فيها الثلاثية الإغريقية الوحيدة الباقية: "أورستيا – Oresteia". كان أيسخيلوس رائدًا فى أمور عدة. كانت تراچيدياته هى الأولى التى تستكشف الشخصية الإنسانية، والأولى كذلك التى تستخدم ممثلاً ثانيًا، وبذلك تقلل من أهمية "الكورس – Chorus" إلى حد ما. قام أيسخيلوس بزيارتين طويلتين لجزيرة صقلية – كانت حتى ذلك الحين جزءًا لا يتجزأ من العالم اليونانى – وكان أن مات هناك فى 456 ق.م. (قتل على نحو مؤسف عندما ظن نسر رأسه الأصلع صخرة فأسقط عليها سلحفاة لكى يكسر ظهرها العظمى).

"سوفوكليس – Sophocles"، الأصغر سنًّا من أيسخليوس بنحو ثلاثين عامًا، كان أكثر إنتاجًا. كتب 123 مسرحية لم يصلنا منها كذلك سوى سبع تراچيديات، بما فى ذلك ثلاث تتناول أسطورة "أوديب – Oedipus". بصرف النظر عن هذه المسرحيات الثلاث: "عقدة أوديب – Oedipus Rex" و"أنتيجون – Antigone" و"أوديب فى كولونوس – Oedipus at Colonus"، فإن تحفته هى "إلكترا – Electra"، التى تروى قصة قيام إلكترا وشقيقها "أورستيس – Orestes" بقتل أمهما "كلايتمنسترا – Clytemnestra" – زوجة أجاممنون – وعشيقها "أيجستوس – Aegisthus". كان سوفوكليس كذلك مبدعًا كبيرًا. يخبرنا أرسطو بأنه أضاف ممثلاً ثالثًا، ووجد الوقت إلى جانب ذلك كله؛ لكى يشارك فى الحياة العامة فى أثينا. خدم مرتين فى المجلس العسكرى الذى كان مكونًا من عشرة چنرالات، وكان قسًّا فى

"هالون – Halon" وأشبه بإله آخر للشفاء. مات سنة 406 ق.م وكان فى التسعين من العمر. قبل وفاته بفترة قصيرة أخذه أبناؤه إلى المحكمة للحجر عليه على أساس أنه كان قد بلغ من العمر عتيًا، ولم يعد قادرًا على إدارة شؤونه بسبب ظروف الشيخوخة. كان رده أن قام بتلاوة مقطع طويل – من الذاكرة – من أحدث مسرحياته "أوديب فى كولونوس"، وخسر أبناؤه القضية.

ثالث وآخر كُتَّاب التراچيديا العظام هو "يوريپيديس – Euripides" المولود فى 484 ق.م. كان إذن أصغر من سوفوكليس باثنتى عشر عام ومات قبله بأشهر قليلة فى سنة 406 ق.م. (فى مهرجان ديونيسيوس – Dionysus فى ذلك العام، جعل سوفوكليس الكورس والممثلين يرتدون السواد إحياء لذكراه). فى العصور التالية سيكون الاحتفال بـ "يوريپيديس" باعتباره من رجال النهضة. إلى جانب الكتابة المسرحية كان رسامًا رائعًا وموسيقيًّا بارعًا وكانت مكتبته واحدة من أفضل مكتبات أثينا. يعتقد أنه كتب 92 مسرحية بقى منها تسعة عشر من بينها: "أندروماك – Andromache" و"هيپولتيوس – Hippolytus" و"ميديا – Medea" و"نساء طروادة – The Trojan Women"، وهى تتناول الأساطير القديمة نفسها التى استخدمها سابقوه ولكنها تأخذ منحى معاصرًا وغير متوقع.

كاتب الدراما الوحيد الآخر فى تلك الأيام، الجدير بالذكر هنا بنفس الاطمئنان مثل الثلاثة السابقين، لم يكن كاتب تراچيديات وإنما كوميديات، أكثر المسرحيات سخرية فى ذلك الزمان. "أريستوفانيس – Aristophanes" المولود – تقريبًا – فى 445 ق.م، كان أصغر من يوريپيديس بجيل، وكما يمكن أن نتوقع ما يزال أكثر واقعية. كتب نحو 54 مسرحية وصلنا منها إحدى عشرة رسم فيها – بلا أدنى شفقة – صورًا كاريكاتورية للشخصيات السياسية والثقافية والاجتماعية الرئيسية فى أثينا بمن فيهم سقراط (فى مسرحية: "السحب – The Clouds") وكليون – Cleon (فى مسرحية: "الفرسان – The Knights") ولاماخوس – Lamachus أحد أبرز جنرالات أثينا فى حرب البيلوپونيز (فى مسرحية: "الأخارنيون – The Acharnians"). فى مسرحية: الضفادع يهبط ديونيسيوس – إله المسرح – إلى حادس[6]، ليأتى بـ: «يوريپيديس»، وبعد مشهد محاكمة هزلى يأتى بـ: «إيسخيلوس» بدلاً منه. لعل «ليسيستراتا – Lysistrata" هى أشهر مسرحياته، التى تمتنع فيها نساء المدن اليونانية عن معاشرة أزواجهن جنسيًّا إلى أن يعود السلام.

لعل سقراط وحده من بين فلاسفة أثينا العظماء، هو الذى يمكن أن يقال: إنه ينتمى إلى القرن الخامس ق.م. عاش سقراط من 469 ق.م إلى 399 ق.م. لم يكتب شيئًا؛ لأنه بكل بساطة كان يزعم أنه لا يعرف شيئًا، ولذلك لم يكن يشعر بأنه يمكن أن يكون معلمًا. كان بدلاً من ذلك يناقش كل شىء وأى شىء: الخير والشر والحقيقة والعدل والفضيلة والدين، وكان الموضوع الأخير هو سبب سقوطه. فى مطلع ربيع 399 ق.م اتهم بالعقوق؛ لأنه – كما قيل – قدم آلهة غريبة لا تعترف بها الدولة، واتهم إلى جانب ذلك بأنه كان يغوى الشبان رغم أنه كان له زوج "زانتيپى – Xanthippe" ولديه منها ابنان. اتهامان كانا كافيين لإدانته قضيا بإعدامه. عرض أصدقاؤه عليه تقديم رشوة لسلطات السجن لتهريبه ولكنه رفض لأسباب أخلاقية. بعد شهر تجرع – علنًا – كأسًا من السم ومات.

أفلاطون الذى كان ليخلده، كان فى الثامنة والعشرين عندما شهد محاكمته وتأثر بشدة لموته، الذى قضى بعده عدة سنوات فى مصر وإيطاليا وصقلية. على خلاف صديقه كتب كثيرًا، وكثيرًا ما كان يفصِّل نظرياته الفلسفية فى شكل حوارات درامية يلعب فيها سقراط دورًا مهمًا؛ وبالرغم من أنه كان يجادل بذكاء شديد، لم يكن يلزم نفسه بمبدأ خاص به. فى مرحلة ما من ثمانينيات القرن الرابع ق.م، أسس مدرسة خارج أثينا عرفت بالأكاديمية – Academy، وهى الكلمة التى تبنتها فيما بعد كل لغات أوروبا تقريبًا.

تلميذ أفلاطون اللامع – الذى كان يصفه بعقل المدرسة، كان شابًا يونانيًا إيونيًا من تراقيا – Thrace يدعى أرسطو، من مواليد "ستاجيرا – Stagira" بالقرب من تيسالونيكا فى 384 ق.م. عندما استقر فى "أسوس – Assos" فى آسيا الصغرى أسس مدرسة هو الآخر. فى 342 ق.م تلقى دعوة من "فيليپ الثانى المقدونى – Philip II Macedon" ليكون معلمًا خاصًا لابن الملك الشاب، الإسكندر، البالغ من العمر أربعة عشر عامًا، وهى الوظيفة التى بقى فيها لمدة عامين. بعدها سيعود أرسطو إلى أثينا ليؤسس مدرسة أخرى خاصة به – هذه المرة فى بستان كان مكرسًا لعبادة "أبوللو ليكيوس – Apollo Lykeios" مما أعطاها اسم "الليسيوم – Lyceum". كان أرسطو أكبر من مجرد فيلسوف، آثاره الباقية تضم أعمالاً فى الأخلاق والتاريخ والعلم والسياسة والنقد الأدبى والمسرحى والطبيعة والميتيورولوچيا (الظواهر الجوية) والأحلام وعلم الحيوان، أما المجال الأخير فكان اهتمامًا شخصيًا منه. باختصار.. كان أرسطو موسوعى الثقافة، ولعله الأول فى التاريخ. ترك وراءه أول مكتبة حقيقية، مجموعة واسعة من المخطوطات والخرائط كانت النموذج البدئى لمكتبات "برجامم – Purgamum" والإسكندرية وكل المكتبات العامة القديمة الأخرى.

بعد انتهاء حرب البيلوبونيز، حكمت إسبرطة الطائر اليونانى بضع سنوات، إلا أن الأضواء تحولت فى مطلع القرن التالى إلى مكان آخر غير مألوف، غير متوقع. فى تلك الأيام القديمة لا بد أن مقدونيا كانت تبدو مثلما كانت اسكتلنده بالنسبة لإنجليز العصور الوسطى: أرض برابرة بدائيين، همج وأجلاف، منقسمين إلى جماعات متحاربة، لا يضاهى فقرهم الثقافى سوى قدرة مذهلة على تعاطى الكحول. كان ذلك يصدق تمامًا على النجاد المقدونية، أما الأراضى المنخفضة التى كانت تضم مدينة "بيللا – Pella"، التى خرجت منها أسرة تعرف بـ "الأرجيد – Argeads"، فقد ملكت زمام الحكم والسيطرة على البلاد كلها، على الأقل من الناحية النظرية.

بالنسبة لنا هنا فإن القصة تبدأ بالملك "فيليپ الثانى – King Philip II" الذى اعتلى العرش بعد موت أخيه فى 359 ق.م. كان البلد الذى ورثه فقيرًا ومفككًا فقام من فوره بتكوين جيش احترافى أخضعه لتدريب شامل وأبقاه فى حالة تعبئة على مدار العام وليس فى الصيف فقط كما كانت العادة. فى غضون عشرين عامًا، أصبحت مقدونيا أقوى دولة فى شرق أوروبا، وقلب فيليپ الثانى موازين القوى فى العالم اليونانى بكامله. فى سنة 338 ق.م قاد جيشه فى اتجاه الجنوب ليجبر الدول – المدن&& فى جنوب اليونان – التى كانت تقودها أثينا وطيبة – Thebes على الدخول فى تحالف سريع معًا. أرسلوا جيشًا لمواجهته حيث تلاقت القوى المتنافسة فى الرابع من أغسطس فى "كايرونيا – Chaeronea" فى "بويتيا – Boetia". أسفرت المعركة عن انتصار حاسم للملك فيليپ.

كان الإسكندر ابن فيليپ، أحد السفراء الذين أرسلهم إلى أثينا لعرض شروط التسوية، ورغم أنه كان ما زال فى الثامنة عشرة، كان الأمير الصغير قد أظهر بسالة كبيرة فى القتال فى كايرونيا حيث كان قائدًا لخيالة ميسرة الجيش. منذ طفولته، كان يتم إعداده لكى يكون خليفة لوالده. كان معلمه أرسطو ينمى فيه شعورًا غريبًا وقويًا بحقه المقدس فى أن يحكم، وكان يشتط فى نصحه له لدرجة أنه كان يريده أن يكون "قائدًا لليونانيين ومستبدًا مع البرابرة، أن يعامل اليونانيين كأصدقاء وأقارب، والآخرين كما لو كانوا نباتات أو حيوانات". التهم الطموح الصبى. كان متعجلاً لتولى مقاليد الأمور لدرجة أن فيليپ بدأ يشك فى وجود مؤامرة عليه. ربما كان محقًا فى ذلك: ففى سنة 336 ق.م، أثناء الاحتفالات المقامة بمناسبة زواج شقيق زوجته من أخته (أخت شقيق الزوجة نفسه)، تم اغتيال الملك بيد أحد حراسه.

هل كان الإسكندر متورطًا فى الجريمة؟ لم يثبت ذلك، إلا أن الدلائل تشير إليه وإلى أمه "أولمبياس – Olympias" التى كان فيليب قد طلقها قبل فترة قصيرة. المهم أن اغتيال الملك جاء فى لحظة مواتية تمامًا. بموافقة إجماعية من الجيش تولى الإسكندر الحكم بعد أبيه. وبعد أن انتظر حتى ينتهى من حملة سريعة على طيبة – التى لم يترك فيها حجرًا فوق الآخر – عبر هيلزبونت (الدردنيل) ليبدأ حملته الكبرى التى سوف تشغل ما بقى من حياته القصيرة المدهشة: حملة شنها بهدف تحرير المدن اليونانية فى آسيا الصغرى من السيادة الفارسية، وإقامة إمبراطورية عظيمة له بعد ذلك فى المشرق. وبينما كان ما يزال فى البحر الأبيض انتصر على الملك الفارسى "داريوش الثالث – Darius III" فى معركتين تاريخيتين: الأولى على نهر جرانيكوس – Granicus على بعد نحو ثلاثين ميلاً شرقى طروادة، والثانية فى العام التالى على هضبة إيسوس – Issus بين ألكساندريتا – Alexandretta وأنتيوك – Antioch (الإسكندرية ثم أنطاكية على التوالى). بعد ذلك لم يكن أمامه سوى مقاومة قليلة وهو يقود جيشه جنوبًا على امتداد ساحل فلسطين، وعبر شمال شبه جزيرة سيناء إلى مصر؛ حيث أمضى شتاء 332 – 331 ق.م؛ ثم انطلق شرقًا مرة أخرى مع مقدم الربيع: إلى صور أولاً، ثم عبر الجبال إلى دمشق، وهنا سيخرج من قصتنا.

مات الإسكندر فى بابل فى 13 يونيو 323 ق.م وهو فى الثانية والثلاثين، مخلفًا وراءه فوضى عارمة. ابنه الحى الوحيد "هيراكليس – Heracles" كان غير شرعى، وعندما مات كانت زوجته "روكسان – Roxane" حاملاً، إلا أن المولود كان يمكن أن يكون أنثى، ولم يكن أحد مستعدًا للانتظار ستة أسابيع أخرى حتى تتم الولادة. نشب قتال عنيف بين كبار ضباطه ونبلاء المقدونيين الذين كانوا يشكلون بلاطه، وسرعان ما اتسع نطاق الصراع وامتد إلى المتوسط، وقبل مرور وقت طويل كان كل العالم اليونانى قد أصبح ممزقًا بسبب جشع المتنافسين. كان كل شىء يمضى فى مساره الحتمى، فكان لا يمكن أن تستمر إمبراطورية الإسكندر. كانت مترامية الأطراف ومن الصعب السيطرة عليها فسقطت سريعًا. كان المغامر الشاب الذى افترسه طموحه الشخصى لا يفكر سوى فى الزحف والتوسع، ولم يفكر قطُّ فى تثبيت دعائم إمبراطوريته وتماسكها. تشظى الإمبراطورية بعد موته جعل اندثارها حتميًا.

كان الإرث الثقافى الذى تركه الإسكندر أهم من إمبراطوريته قصيرة العمر. المدى الذى وصلت إليه الثقافة اليونانية حتى أفغانستان ووادى الإندوس – Indus، وامتزاجها بتراث فارس وإن كان ذلك خارج نطاق هذا الكتاب، إلا أن تأثير المرحلة الهلنستية(7) –

Hellenistic كان كبيرًا فى أرجاء المتوسط. ظهرت هناك كذلك مدن على شاكلة المدن اليونانية، بمعابد وساحات عامة ومسارح ومنشآت للألعاب الرياضية، ولكن معظم تلك المدن لم تبق مدنًا – دولاً مستقلة كما كان شأنها فى الماضى. الآن كانت قد أصبحت جزءًا من دولة كبيرة أقوى وأغنى، قادرة على أن تطلق مشروعات لبناء السفن على نطاق لم يكن ليخطر على بال أحد فى القرون الماضية. كانت، فوق ذلك كله، تمهد التربة لانتشار دين جديد ينبثق من قلب اليهودية بينما لا يعترف بشىء من حصريتها. كان هذا الدين الجديد هو المسيحية كما نادى بها وطورها "سان پول – St Paul".

بعد أن انقشع دخان إمبراطورية الإسكندر المحتضرة – بعد عشرين سنة تقريبًا – انبعثت ثلاث قوى من بين الرماد. كانت الأولى هى مملكة مقدونيا القديمة التى لم تعد سيدًا على غرب آسيا إلا أنها كانت تسيطر على شمال اليونان، فكانت قوة كبيرة فى العالم اليونانى، وكانت القوة الثانية هى الإمبراطورية التى بناها "سيليوكوس – Seleucus" (چنرال الإسكندر – القائد السابق لحملة التروس وقائد حرس الشرف الشخصى) بدءًا بـ "بابل" ثم سرعان ما بسط نفوذه على ما بين النهرين وسوريا، إلى أن امتد ملكه من عاصمته فى أنتيوك – Antioch (أنطاكية) إلى الحدود الشرقية للخليج الفارسى. استمرت سلسلة الملوك السلوقيين – Seleucid التى بدأها نحو أربعة قرون إلى أن محتها روما فى عام 72 م.

القوة الثالثة كانت مصر؛ حيث قام صديق للإسكندر (عسكرى ومؤرخ) يدعى "بطليموس – Ptolemy" ليعلن نفسه ملكًا. أظهر بطليموس تفوقًا كبيرًا. كان يحكم من الإسكندرية التى بناها الإسكندر – مدينة أعظم مكتبات العصور القديمة، المدينة التى كان يوجد بها أكبر مجتمع يهودى سيقرأ التوراة بانتظام... ليس بالعبرية وإنما باليونانية – ومن مدينة أخرى بناها فى مصر العليا (مدينة Ptolemais). هذا المقدونى المخادع، انتحل شخصية – وسلطة – الفراعنة القدامى، وخلال فترة حكم دامت نحو أربعين سنة امتدت ممتلكاته إلى فلسطين وجنوب سوريا وقبرص وآسيا الصغرى وجزر السيكلاديس. بدأ هو الآخر سلسلة من حكام لمصر شملت ما لا يقل عن خمسة عشر من أسرة واحدة، وهو عدد لافت لأن كل واحد منهم – تقريبًا – كان يتزوج أخته أو أخته غير الشقيقة أو ابنة أخيه أو أخته. كان بطليموس الرابع عشر – Ptolemy XIV الذى اعتلى العرش فى عام 47 م هو الذى تزوج شقيقته كليوپاتره التى كانت فى الحادية والعشرين من عمرها.

رغم أن البطالمة ربما كانوا من أصول يونانية، فإن العالم الذى عاشوا فيه، وخاصة الأجيال المتأخرة منهم، كان عالمًا رومانيًا. والآن، أعتقد أنه قد حان الوقت لكى نعود القهقرى قرنًا أو قرنين لنتحرى كيف تسنى لمدينة إيطالية صغيرة عديمة الأهمية، أن تجعل من نفسها سيدة على العالم المتحضر فى فترة وجيزة.

هوامش الفصل الثانى

(1) هيكل الإلهة أثينا فى مدينة أثينا.

(2) بالرغم من أن المهندس المعمارى هارى جودهارت – رندل Hary Goodheart- Randel قال لأوسبرت لانكستر – Osbert Lancaster عندما رآه لأول مرة: حسنًا. لا أعتقد أننا يمكن أن نعتبره إنجازًا كبيرًا.

(3) سباق الماراثون الحديث ومسافته 26 ميلاً و385 ياردة يقوم على قصة الرسول فيديبيديس – Pheidippeds، الذى يقال: إنه قطع تلك المسافة ركضًا لتوصيل خبر الانتصار إلى أثينا. إلا أن هذه القصة بدورها مبنية على فكرة خطأ. يروى هيرودوتس – وهو المصدر الثقة الوحيد أن فيديبيدس قطع المائة وأربعين ميلاً من أثينا إلى إسبرطة لكى يطلب النجدة، كما يقال: إنه قطعها فى يومين.

(4) كان أحد أولئك المزربانات "موسولوس – Mausolus"، حاكم مقاطعة "كاريا – Caria" من 377 – 353 ق.م، الذى بنت له أخته/ زوجته، المقبرة العظيمة فى هاليكارناسوس – Halicar-nasus، وهى الضريح الذى كان أحد عجائب الدنيا السبع. فى أواخر القرن الخامس عشر قام فرسان سان چون بإزالة بقاياه لبناء قلعة تشرف على الخليج، إلا أن تمثال موسولوس بقى، وهو موجود الآن فى المتحف البريطانى.

(5) بنات زيوس كبير آلهة الإغريق (أو رب الأرباب) من عشيقته منيموزين – Mnemosyne إلهة الذكاء. عدد بنات زيوس تسع ويعرفن بالـ: موزاى – Musae أو ربات الفنون التسع: أورانيا ربة الفلك، وكليو ربة التاريخ، ويوتيربى ربة الموسيقى، وتيرسيخوى ربة الرقص، وميلبومينى ربة شعر البكائيات والمراثى، وبوليمنيا ربة الشعر الغنائى، وكاليوبى ربة الشعر الحماسى، وتاليا ربة الكوميديا. (المترجم)

(6) حادس – Hades، مثوى الأموات فى الميثولوچيا اليونانية.

(7) "الهلنستية" هى الكلمة التى تطلق عادة على الفترة التى تلت موت الإسكندر مباشرة.

الفصل الثالث

روما - الجمهورية

- هانيبال (218 – 216 ق.م)
- كراسوس وپومپى (73: 70 ق.م)
- ديكتاتور پومپى (52 ق.م)
- «عيدس» مارس 44 ق.م
- محو قرطاج (146 ق.م)
- يوليوس قيصر (60 ق.م)
- قيصر فى مصر والشرق (47 ق.م)
- أنطونيو وكليوپاتره (31 – 30 ق.م)

كان نهوض روما يعود قبل أى شيء إلى طبيعة وخصال الرومان أنفسهم. كانوا شعبًا بسيطًا، مستقيمًا، أمينًا، مطيعًا للقانون. مع شعور قوى بقيم الأسرة، مستعدًّا لقبول النظام، منضبطًا عندما يتطلب الأمر ذلك – مثلما كانوا، بكل تأكيد فى سنة 510 ق.م عندما طردوا «التاركين – The Tarquins"، تلك السلالة من ملوك "الإتروسك – Etruscan" الذين كانوا قد حكموهم على مدى القرن السابق[1]، وأسسوا جمهوريتهم. كانت مدينتهم كما كانوا يزعمون قد سبقت المدن الإتروسكية بعدة قرون، وكان مؤسسها هو الأمير الطروادى «أيناس – Aeneas" الذى كان قد شق طريقه إلى إيطاليا بعد أن دمر اليونانيون مدينته. هكذا كانت روما وريثة طروادة القديمة.

فى 280 ق.م، رسا "پيروس – Pyrrhus"، ملك "إپيروس – Epirus" (إحدى الدول الهلنستية شمال غرب اليونان – بجيش قوامه نحو ألف مقاتل فى "تارنتوم – Tarentum" (تارانتوم الحديثة). قابله الجيش الرومانى عند "هيراكليا – Heraclea" ليلحق به هزيمة فادحة، ولأن خسائر پيروس كانت عظيمة مثلها مثل خسائر الرومان: كان أن ظهر مفهوم "الانتصار البيروسى"! على مدى السنوات الخمس التالية سيواصل الملك إثارة القلاقل وإن بنجاح أقل، وفى آخر الأمر عاد إلى إپيروس فى 275 ق.م بعد أن فقد أكثر من نصف جيشه. وهكذا هزمت روما، التى كانت ما تزال جمهورية مغمورة فى وسط إيطاليا ـ ملكًا هلنستيًا، وفى موكب النصر الذى سيطوف بالعاصمة سوف تظهر فيلة پيروس المأسورة، وهى المرة الأولى التى يظهر فيها هذا الحيوان (الفيل) فى إيطاليا.[2]

ولكن عدو روما الأقوى والألد لم يكن سوى «قرطاچ – Chartage"، التى كانت فى الأصل مستوطنة للفنيقيين – Phoenicians تحتل جزءًا من الموقع الذى تشغله مدينة تونس الحديثة. كان القرطاچيون دائمًا شوكة فى جنب الرومان على مدى أكثر من مائة عام (من 264: 146 ق.م)، كان الرومان خلالها مجبرين على خوض حربين منفصلتين هى "الحروب البونيقية[3] – Punic Wars"، قبل أن يتمكنوا من محو قرطاچ من الوجود. هاتان الحربان هما اللتان ألقتا بـ "روما" فى قلب المسرح المتوسطى بعد أن أصبح من الواضح أن قرطاچ لا يمكن هزيمتها على البر فحسب، فجعلتا الحربان من روما قوة بحرية رئيسية. الحرب الأولى التى انتهت فى 241 ق.م كان لها نتيجة واحدة سعيدة بالنسبة لروما: فقد ضمت الجزء الأكبر من صقلية، التى سيكون اعتبارًا من ذلك الوقت بمثابة مخزن القمح الرئيسى لها. (بعد ثلاث سنوات سوف تتبعها كورسيكا

وسردينيا). إلا أن روما كان لديها سبب أهم للقلق طوال السنوات الثلاث والعشرين التى مرت قبل أن تبدأ الحرب الثانية؛ لأن قرطاج أثناء تلك الفترة كانت قد نجحت فى إقامة إمبراطورية جديدة تمامًا – هذه المرة فى إسپانيا.

كان الفينيقيون قد وصلوا إلى شبه جزيرة أيبيريا لأول مرة نحو عام 1100 ق.م، عندما أنشأوا مرفأ قادش. كانت فى تلك الأيام جزيرة وكانت نموذجًا للمستعمرات الفينيقية بعدها، التى كانوا يقيمونها فيما بعد على الأجزاء الناتئة من الجبال أو الجزر البعيدة عن الشاطئ وغالبًا عند مصبات الأنهار لكى يكونوا بعيدين عن أهالى تلك المناطق. من بين أولئك الأهالى كان الأيبيريون الأكثر تقدمًا، وهم شعب غامض، لغتاه – مثل الإتروسكية – ليستا هندو أوروبية، وعلى خلاف الإتروسكية ما زالت محيرة بالنسبة لنا. كان الأيبيريون يمارسون تجارة نشطة مع الفينيقيين، ويبدو أنهم كانوا يعيشون معًا فى مودة وسلام. بعد بضع قرون كانت لهم حضارتهم الخاصة التى اشتهرت قبل شىء بتماثيلها التى يوجد بعضها الآن فى المتحف الأركيولوچى فى مدريد. بعضها يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وهى من أجمل وأروع المنحوتات القديمة التى يمكن أن يراها المرء فى أى مكان.

نحو عام 237 ق.م انطلق "أملكار باركا – Hamilkar Barca" چنرال قرطاج الأشهر (أو الأدميرال حيث يبدو أنه كان سيدًا على البر والبحر على السواء) نحو شبه جزيرة أيبيريا مصطحبًا ابنه الصغير "هانيبال – Hannibal"، الذى كان فى التاسعة من عمره آنذاك. وهنا على شبه الجزيرة، وفى غضون ثمان سنوات فحسب سوف يضع كل البنى التحتية لدولة مزدهرة مع جيش ضخم للدفاع عنها. بعد أن غرق بالمصادفة فى 229 ق.م، خلفه صهره "هاسدروبال – Hasdrubal"، الذى أسس العاصمة الدائمة لإسپانيا القرطاچية التى يسميها الرومان "قرطاچ الجديدة" ونسميها نحن "قرطاچنة – Cartagena". هاسدروبال، بدوره، فعل الكثير لتطوير فن التعدين، ويقال: إن منجمًا واحدًا هو منجم "بايبيلو – Baebelo"، كان ينتج نحو ثلاثمائة رطل من الفضة يوميًا. عندما اغتيل هاسدروبال فى 221 ق.م بيد عبد أيبيرى، أخذ مكانه هانيبال الذى كان قد بلغ السادسة والعشرين.

أثبت هانيبال أنه أعظم قائد عسكرى عرفه العالم بعد الإسكندر، وربما كان بالفعل واحدًا من أعظم القادة فى التاريخ. كان والده قد غرس فيه – كما هو متوقع – العداء والحقد الشديدين على روما، فكان مصرًّا من لحظة اعتلائه العرش على الثأر لهزيمة بلاده قبل عشرين عامًا، كما كان واثقًا من أن الممتلكات الإسپانية الجديدة، بمصادرها الهائلة من الثروة المادية والبشرية - سوف تمكنه من تحقيق ذلك. انطلق من إسپانيا فى ربيع 218 ق.م على رأس جيش قوامه نحو أربعين ألف مقاتل، سالكين الطريق البرى على امتداد

الساحل الشمالى لفرنسا أعلى وادى "الرون – Rhone"، ثم شرقًا إلى "بريانكون – Briancon" والممر الضيق إلى "مونت- چينيڤر – Mont-Genèvre". كان معظم جنوده المشاة من الإسبان رغم أن ضباطهم كانوا قرطاچنيين، أما جنود الخيالة فكانوا من إسبانيا وشمال أفريقيا، وكان معهم سبعة وثلاثون فيلاً. كان اجتيازه الشهير لجبال "الألب – The Alps" فى بدايات الخريف، وتبعه معركتان انتصر فيهما. بنهاية العام كان يسيطر بالفعل على كل شمال إيطاليا. ثم بدأ الفشل بعد هذا الزخم. كان هانيبال يعول على حدوث تمرد عام فى المدن الإيطالية القلقة بسبب نمو قوة روما، إلا أن أمله خاب. حتى الانتصار الثالث الذى حققه فى أبريل 217 ق.م، عندما استدرج الجيش الرومانى إلى فخ ممر ضيق بين بحيرة "تراسيمين – Trasimene" والتلال المحيطة، حتى هذا الانتصار أثبت عدم جدواه. لم يكن زحفه على روما ذات الأسوار الدفاعية المنيعة مجديًا، ولم يكن لديه عتاد يعول عليه لمحاصرتها. قام بدل ذلك بالدوران عن طريق "أبوليا – Apulia" و"كالابريا – Calabria"؛ حيث كان ذلك العدد الكبير من الأهالى اليونانيين يكرهون الرومان، ولذا كان يعتقد أنهم سوف ينضمون إليه.

هذه المرة، أيضًا كان مخطئًا. بدلاً من الحلفاء المتعاطفين الذين كان يمنى نفسه بوجودهم، وجد نفسه مرة أخرى فى مواجهة جيش رومانى أكبر وأفضل تسليحًا وعتادًا من جيشه، قام بمطاردته فى اتجاه الجنوب؛ وفى الثالث من أغسطس عام 216 ق.م كانت المعركة عند "كاناى – Cannae"، (بجوار نهر "أوفانتو – Ofanto" على بعد نحو عشرة أميال جنوب شرق بارلتا – Barletta الحديثة). كانت نتيجة المعركة انتصارًا هائلاً لـ "هانيبال"، لعله الأعظم فى حياته، وهزيمة ساحقة للرومان لعلها الأكثر فداحة فى تاريخهم كذلك. بفضل براعته فى القيادة وجدت القوات الرومانية نفسها مطوقة من كل جانب، فتم تدميرها فى مواقعها. بنهاية اليوم كان قد سقط منهم نحو خمسين ألف قتيل، أما خسائر هانيبال فكانت 5700 جندي.

كان هانيبال الآن قد دمر كل قوات روما المقاتلة ما عدا أولئك الذين كانوا داخل المدينة يدافعون عنها، إلا أنه لم يكن قريبًا من هدفه النهائى وهو تدمير الجمهورية. كانت قوات الخيالة، بعد أن نفقت كل الأفيال بسبب البرد والرطوبة، تقف بلا حول ولا قوة أمام أسوار المدينة، إلا أنه كان ما زال مصرًا على خطته، يحدوه الأمل فى أن يجمع أخوه (هاسدروبال آخر) جيشًا ويلحق به بعد تجهيزه بمعدات الحصار اللازمة؛ إلا أنه فوجئ فى "كامپانيا – Campania" (المقاطعة الإيطالية جنوبى روما ومركز ناپولى) بوجود درجة من التأييد الشعبى الذى كان مفتقدًا فى شبه الجزيرة. زحف بجيشه عبر الجبال إلى "كاپوا – Capua" (التى كانت ثانى أكبر المدن الإيطالية آنذاك)؛ حيث أقام مركز قيادته واستقر منتظرًا.

طال انتظاره. كان لدى هاسدروبال مشاكله الخاصة. كان الرومان قد سارعوا، مستغلين غياب هانيبال، وقاموا فى غضون شهرين باحتلال إسپانيا بقوة مكونة من فيلقين وخمسة عشر ألف مقاتل من القوات الحليفة بقيادة جنرال شاب يدعى "جنايوس كورنيليوس شيپيو – Gnaeus Cornelius Scipios"، الذى سرعان ما انضم إليه شقيقه "پبليوس – Publius". كانت النتيجة الفورية لهذا الغزو صراعًا طويلًا بين القوات الرومانية والقوات القرطاچينية مع وجود أيبيريين محليين يحاربون مع كلا الطرفين. انتهى الأمر بوجود رومانى فى شبه الجزيرة سوف يستمر أكثر من ستة قرون. بعد موت الأخوين شيپيو فى عام 211 ق.م، حل محلهما أحد أقربائهما كان اسمه – أيضًا – پبليوس الذى استولى على قرطاچنة بعد حصار قصير. بعد الاستيلاء على عاصمتهم، فقد القرطاچنيون روحهم بسرعة، وبحلول العام 276 ق.م، كان آخرهم قد غادر شبه الجزيرة.

بينما كان هناك أمل فى الانتصار على الرومان فى إسپانيا، لم يكن لدى هاسدروبال فرصة لتنظيم حملة دعم لأخيه. فى عام 206 ق.م فقط، عندما علم أن أخاه قد هُزم بدأ يفكر فى ذلك، وعندما قاد جنوده بدوره عبر جنوب فرنسا وعبر جبال الألب كان يسير نحو كارثة: على نهر "ميتوارس – Metaurus" بالقرب من أنكونا، واجه جيشًا رومانيًا ولقى هزيمة ساحقة. لم يعرف هانيبال بهذه الأخبار إلا عندما وصل رأس شقيقه المقطوع إلى معسكره فى "كاپوا – Capua". بقى فى إيطاليا أربعة أعوام أخرى، وفى مكان آخر من المتوسط كان الشاب پبليوس كورنيليوس شيپيو يستعد للهجوم.

فى عام 204 ق.م، رسا پبليوس وجيشه على الساحل الشمالى الأفريقى بالقرب من أوتيكا التى تقع على مسافة أقل من عشرين ميلاً غربى قرطاچ؛ حيث حشدوا عشرين ألف مقاتل من المحليين وأنشأوا موقعًا على خليج تونس كان يهدد المدينة نفسها. فى ربيع 203 ق.م، عاد هانيبال مسرعًا إلى قرطاچ فى حالة انزعاج شديد؛ ليقود فى العام التالى جيشًا مكونًا من سبعة وثلاثين ألف مقاتل وثمانين فيلاً، ضد الغزاة الرومان. التقى الجمعان أخيرًا بالقرب من قرية "زاما – Zama"؛ حيث لقى هانيبال الهزيمة الكبرى الوحيدة فى حياته بعد معركة طويلة طاحنة. كان فى زاما، كما نعرف، أن اكتشف الرومان كيف يتعاملون مع سلاح القرطاچنيين التكتيكى المفضل... الأفيال. فى البداية يقومون بإطلاق نوبة مفاجئة من الأبواق العالية المزعجة تجعل راكبيها يفقدون السيطرة عليها، ثم يفتح الرومان صفوفهم لتنطلق الحيوانات بينها مذعورة. كان الانتصار الرومانى تامًا، وهكذا انتهت الحرب البونيقية الثانية. كانت إسپانيا هى جائزة روما على انتصارها. كل الإدارة العسكرية والمدينة القرطاچنية التى كان قد جرى إعدادها بعناية انهارت. كان إخوة شيپيو حريصين على ذلك – والآن لم يكن أمام قرطاچ

سوى أن تتخلى عن شبه الجزيرة رسميا لغزاتها. هانيبال نفسه، الذى كان قد نجا من الموت بصعوبة فى زاما، عاش حتى سنة 183 ق.م، عندما تجرع السم لكى لا يقع فى يد أعدائه الذين كان يكرههم بشدة؛ أما بالنسبة لشيبيو المنتصر، فقد كوفئ من مواطنيه بلقب "أفريكانوس – Africanus" الذى كان يستحقه عن جدارة. كان هو الذى أكد، أكثر من سواه من بنى وطنه أن روما وليست قرطاج هى التى ستكون سيدة المتوسط فى القرون التالية.

ولكن الحروب البونيقية كان لها آثارها المؤلمة. لقد أوصلت الإمبراطورية الرومانية أكثر من مرة إلى شفا الكارثة، وفقدت فيها أرواح ما يقرب من مائتين أو ثلاثمائة ألف من أبنائها. بالرغم من ذلك كانت قرطاج ما زالت هناك رابضة على الجانب الآخر من البحر بسكانها غير المسلحين يعملون بنشاط ودأب. كانت قرطاج تتعافى من هزيمتها الأخيرة بسرعة مخيفة، كانت تذكرة لكل رومانى وطنى بالخزى وتمثل خطرًا دائمًا. لم يكن مسموحًا لها – بالقطع – أن تنجو من الكارثة. "لا بد من محو قرطاج من الوجود" – Delenda est Carthago – كانت تلك عبارة "كاتو الكبير – elder Cato"، التى ينهى بها كل كلمة له أمام مجلس الشيوخ إلى أن أصبحت شعارًا، ولكن السؤال الآن كان: كيف يتم ذلك؟ وأخيرًا وجدوا مبررًا فى 151 ق.م عندما هب القرطاجنيون للدفاع عن مدينتهم أمام عمليات السلب والنهب التى كان يقوم بها أحد الرؤساء المحليين. تعاملت روما مع رد الفعل الطبيعى هذا باعتباره ذريعة للحرب – casus belli، وفى 149 ق.م أرسلت مرة أخرى جيش غزو. هذه المرة سوف يستسلم القرطاجنيون، إلا أنهم سيعودون للمقاومة بعد أن روعتهم شروط روما: تدمير المدينة تمامًا وعدم السماح لسكانها بإعادة بناء منازلهم إلا على بعد عشرة أميال من البحر. كانت النتيجة حصارًا رهيبًا استمر قرابة العامين، وبعده (فى 146 ق.م) حدث التدمير الذى هددوا به. هكذا تحقق شعار كاتو وتم محو قرطاج من الوجود.

كان يمكن ألا يكون لمملكة "بونتس – Pontus" (وهى دولة كانت تقع على الشاطئ الجنوبى للبحر الأسود – مكان فى تاريخ يكتب عن البحر الأبيض المتوسط. وبالفعل لم يكن لها مكان، لولا ملكها الشاب "متريداتس السادس – Mithridates VI"، الذى كان الشوكة الرئيسية فى جنب الإمبراطورية الرومانية على مدى خمس وعشرين سنة. بالرغم من أنه كان – هو ورعاياه – من أصول فارسية، كان يتصور نفسه يونانيًّا ويفضل أن يبدو فى هيئة بطل من أبطال "الهيلينية – Hellinism" الملهمين لكل المدن اليونانية لكى تثور على حكامها الطغاة من اللاتين. فى سنة 88 ق.م، قام بغزو الإقليم الرومانى من آسيا[4]، وأعد لثورة انتهت بمذبحة راح فيها ثمانون ألفًا من الإيطاليين المقيمين؛ ثم متشجعًا بما حققه من نجاح، عبر بحر إيجه واحتل أثينا، وسقط عدد كبير من المدن فى يده.

كان لا بد من أن تتحرك روما، واختار مجلس الشيوخ الرومانى نبيلا رومانيًا فى الخمسين من عمره يدعى «لوكيوس كورنيليوس سولا – Lucius Cornelius Sulla" قائدًا عامًا لقوة الحملة. كان سولا صاحب سجل عسكرى رائع وعلى معرفة وثيقة بآسيا. وهو على وشك الرسو على الشاطئ، قرر الجناح الديمقراطى فى المجلس – ونجح فى ذلك – أن يحل محله چنرال عجوز متهالك كان قد خدم تحته من قبل، هو "جايوس ماريوس – Gaius Marius". كان ذلك قرارًا كارثيًا رفضه سولا رفضًا قاطعًا، فزحف بجيشه على روما حيث صفى أعداءه، وانطلق دون ضجة فى اتجاه اليونان. هجم على أثينا ودمر ميناءها (ميناء بيرايوس – Piraeus)، وحقق انتصارين حاسمين فى ساحة القتال، ثم عقد فى النهاية معاهدة سلام مع متريداتس، رغم أن شروطها كانت – فى نظر الكثيرين – متساهلة بدرجة مدهشة. فعل سولا ذلك كله دون إذن من روما، وكان "الحزب المارى – Marian Party" قد وصل إلى السلطة أثناء غيابه.

عاد سولا مسرعًا إلى العاصمة ليواجههم للمرة الثانية واتخذ دور الديكتاتور، فأصدر أوامره دون تردد بمذبحة جماعية لنحو عشرة آلاف من خصومه السياسيين، بمن فيهم أربعون نائبًا فى مجلس الشيوخ ونحو ألف وستمائة فارس. بعد ذلك أصدر سلسلة من القوانين شديدة الرجعية أعادت عقارب الساعة إلى الوراء... نحو نصف قرن على الأقل! فى آخر الأمر، بعد أن نجح فى إتمام ذلك، تخلى عن السلطة وعاد إلى موطنه كامپانيا. هنا، سيعيش حياة فسق وفجور، ملقيًا الرعب فى قلوب عبيده الكثر، الذين سيصدر حكمًا بإعدام واحد أو اثنين منهم من وقت لآخر، مع حرص على مشاهدة التنفيذ بنفسه؛ وذات يوم من عام 78 ق.م، عندما كان يشاهد عملية إعدام خنقًا، أصيب بأزمة قلبية مفاجئة مات على إثرها.

كانت السيطرة فى السنوات الأربعين التالية لثلاثة من القادة العسكريين الذين سيتركون بصماتهم على الجمهورية الرومانية أكثر من سولا. الثلاثة هم "جنايوس پومپيوس (المعروف بـ "پومپى") و "ماركوس ليكينيوس كراسوس – Marcus Licinius Crassus"، و"جايوس چوليوس سيزر – Gaius Julius Caesar". كان پومپى قد حقق انتصارات لصالح سولا – الذى كان متزوجًا من ابنة زوجته – فى صقلية وشمال أفريقيا، ثم منحه بسببها امتياز موكب النصر.[5] على خلاف معظم نبلاء الرومان فى عصره، لم يكن پومپى شديد الاهتمام بالمال، كما كانت السياسة مضجرة بالنسبة له. أكثر ما كان يستهويه هو السلطة والنفوذ. كان جنديًا بمعنى الكلمة... جنديًا شديد الطموح.

لم يكن كراسوس - ثانى العمالقة الثلاثة - مختلفًا بدرجة كبيرة. ولد ثريًّا، وجعل نفسه أكثر ثراءً من خلال عمله فى سوق العقارات الرومانية بمهارة شديدة... إن لم يكن باستخدام كل الوسائل غير المشروعة والمجردة من كل المبادئ الأخلاقية. كان – كذلك – جنديًّا من الطراز الأول، عندما يريد. ولكن بينما كان پومپى يجد من الوسائل ما يرسخ من شهرته العسكرية ويسرع بها، كان كراسوس يحبذ البقاء فى روما يتآمر من خلف الستار لتحقيق مآربه السياسية والمالية الخاصة. كان إنجازه العسكرى الوحيد هو إخماده لثورة العبيد فى 73 ق.م. بعد أن طارد قائدها «سپارتاكوس – Spartacus" فى البداية عبر كالابريا، ولحق به فى أپوليا حيث أعدمه فورًا، وصلب ستة آلاف من العبيد الثوار.

پومپى، الذى كان غائبًا فى إسپانيا – التى أسس فيها مدينة "پامپلونا – Pamplona" وأعطاها اسمه – عاد فى وقت عملية الصلب ليشارك فيها بحماسة، وحاول بالطبع أن تنسب إليه وأن يكون له الفضل فيها. غضب كراسوس بشدة كما كان متوقعًا. كلاهما كان وراءه جيش جرار، وللحظة كانت الجمهورية تبدو على شفا حرب أهلية، إلا أن المتنافِسَيْن نجحا فى التوصل إلى تفاهم اللحظة الأخيرة: سيتقدم الاثنان لانتخابات القنصلية فى عام 70 ق.م. الحقيقة أن كليهما لم يكن مؤهلًا للترشح؛ إذ لم يقم أيهما بتسريح جيشه كما كان من المفترض، باعتبارهما متقدمين لانتخابات القنصلية. يضاف إلى ذلك أن پومپى – وكان ما يزال فى السادسة والثلاثين – لم يكن – حتى – قد حصل على عضوية مجلس الشيوخ، ولكن المجلس لم يكن لديه الشجاعة للوقوف ضد رجلين مثلهما... وتم انتخابهما. أمضيا عامهما فى الحكم، يعملان بكل جهد – ودقة – على إبطال تشريعات سولا.

فى السنوات التالية، بينما بقى كراسوس فى روما مشغولاً – كان فى شجار مستمر مع مجلس الشيوخ حول جمع الضرائب فى آسيا – كان پومپى يزداد قوة ونفوذًا يومًا بعد يوم؛ وفى عام 68 ق.م استطاع بواسطة مائة وعشرين ألف مقاتل وخمسمائة سفينة أن يقضى تمامًا على القراصنة الذين طويلاً ما أزعجوا البحر الأبيض. لم يستغرق ذلك الأمر منه أكثر من ستة أيام، بعدها أصبح البحر آمنًا على مدى معظم سنوات الألفية التالية. ثم أرسل إلى الشرق حيث كان ملك پونتس قد عاد إلى حيله القديمة. لسوء حظ پومپى، انتحر متراداس قبل نشوب المعركة، إلا أنه كانت هناك مهام أخرى ينبغى إنجازها فى الأراضى الشرقية قبل أن يعود إلى البلاد. ودون أن يفكر فى استشارة مجلس الشيوخ قام بضم پونتس وزحف بجيشه جنوبًا إلى سوريا وطرد آخر ملوك السلوقيين وجعل منها أيضًا إقليمًا تابعًا، وبذلك حصل لروما على مدينة أنطاكية العظيمة. وأخيرًا تقدم فى اتجاه يهوذيا – Judaea حيث استولى على أورشليم سامحًا لملكها بالبقاء على عرشه وكيلاً لروما. أنجز ذلك كله فى غضون أربع سنوات، ولن يكون من المبالغة أن نقول: إنه غير

فيها وجه الشرق الأدنى على نحو جذرى، أكثر من أى وقت آخر، حتى مجيء الإسلام.

عاد پومپى إلى روما فى 62 ق.م ليستقبل استقبال الأبطال الفاتحين. حصل على امتياز موكب النصر الثانى وكان أكثر روعة من الأول. كان الخوف يساور الكثير من الرومان الذين كانوا يسترجعون عودة سولا قبل عشرين عامًا، ولكن القائد المنتصر قام بتسريح قواته، ولم يطلب شيئًا سوى إقرار كل ما فعله فى الشرق والتصديق عليه، ومنحه هبة من الأرض يمكن أن يعيش عليها جنوده. كان المطلبان يبدوان معقولين. بالنسبة للمطلب الأول: إذا كان قد تصرف دون تفويض بذلك، إلا أن بطء وسائل الاتصال فى تلك الأيام لم تترك بديلاً أمامه. كانت مكاسب روما هائلة على أية حال، ولم يكن لدى الرومان أسباب كثيرة للاعتراض.

ولكنهم فعلوا. كان كراسوس أحد كبار المعارضين لأعمال وتصرفات پومپى، وكان من الواضح أن ما يحركه هو الحقد الشخصى على منافسه القديم. الآن كان أقوى رجلين فى روما فى خلاف وخصام مع الحكومة ... وكلاهما مع الآخر.

** ** **

الآن يظهر على المسرح ثالث وأعظم المنتصرين الثلاثة. فى عام 62 ق.م كان جايوس چوليوس سيزر فى الثامنة والثلاثين من عمره ومتزوجًا من "پومپيا – Pom-peia"[6] حفيدة سولا (طلقها فى العام التالى). كان معروفًا فى روما كمثقف وخطيب مفوه فى مجلس الشيوخ، يهوى إقامة الحفلات والولائم ويعيش حياة متهتكة ودائمًا ما يقع فى الديون. كانت علاقاته الجنسية الماجنة (سواء مع الرجال أو النساء) لا تعد ولا تحصى، إلا أنه بالرغم من ذلك انتخب حبرًا أعظم – Pontifex Maximus رئيسًا لكهنوت الدولة الرومانية... كان موهوبًا، صاحب شخصية آسرة ولكن لا يعتمد عليه. عاد من إسپانيا فى عام 60 ق.م، حيث كان حاكمًا عليها؛ وبعد أن حقق بعض الانتصارات ضئيلة الأهمية، وعدوه بموكب نصر، ولكن ظهرت مشكلة. كان مصرًا على أن يحصل على القنصلية، ولكى يعلن ترشحه كان لا بد من أن يظهر فى روما قبل ترتيب موكب النصر بوقت طويل، وهو ما يجعله يفقد حقه فيه. حاول أن يحل المشكلة بأن طلب بشكل رسمى أن يتم إعلان ترشحه بالوكالة؛ وعندما رفض طلبه لم يتردد طويلاً. ألغيت فكرة موكب النصر. جاء من فوره إلى روما. كانت السلطة والنفوذ أهم عنده من المجد. الآن، كانت هناك عقبة أخرى، كانت العادة قد جرت منذ أيام روما القديمة على تخصيص مقاطعات للقناصل المحتملين حتى من قبل أن يشغلوا المنصب، لكى يحكموها بعد انتهاء فترتهم فى القنصلية، ولأن مجلس الشيوخ كان يعلم أنه لن يستطيع أن يمنع انتخاب سيزر، صمم أن يُحَجِّمه على الأقل، فلم يخصص له مقاطعات

مهمة، وإنما بعض الغابات والمراعى الإيطالية. كان ذلك بالتأكيد زجرًا واضحًا له، أو هكذا فهمها.

كان مجلس الشيوخ الآن قد نجح فى استعداء أقوى رجال روما، وحيث إن سيزر كان قد بقى على وفاق ممتاز مع كل من پومپى وكراسوس، لم يكن مفاجئًا أن يتقدم للرجلين باقتراح تحالف بينهم. فى مقابل دعمهما سيعطى كليهما كل ما يريد ما دام لم يعترض وبشرط أن يحجما كذلك عن النزاع معًا، وكان سيزر عند كلمته. صنوه القنصل المدعو ببليوس – Bibulus (وكان شخصية تافهة مثيرة للسخرية) انسحب إلى منزله "يستطلع السماء"، ولكن سيزر تجاهله. كافأ محاربى پومپى بالأرض التى طلبوها، وأكد التصديق على الإنجازات التى حققها فى الشرق، وكان سعيدًا عندما طلب پومپى يد ابنته جوليا – Julia، وكان قد طلق زوجته الأولى. كما تمت تسوية مسألة جمع الضرائب وكان ذلك أمرًا مهمًا بالنسبة لـ "كراسوس". فى الوقت نفسه، وبمساعدة حلفائه الجدد خصص سيزر لنفسه مقاطعتين "حقيقيتين"؛ لكى يكون حاكمًا عليهما بعد انتهاء فترة قنصليته: هما "سيسالپاين جول[7] - Cisalpine Gaul" (فى شمال إيطاليا) و"إيليركم – Illyricum" (دالماتيا)؛ وعندما وصلت الأخبار عن الموت المفاجئ لحاكم ترانسلپاين جول[8] – Transalpine Gaul، التى كانت تغطى معظم فرنسا الحديثة، كانت فرصة أخرى قد لاحت له، فانتهزها كذلك.

بعد انتهاء فترة قنصليته، سيغادر سيزر فورًا إلى الغال؛ حيث سيبقى ثمانيَ سنوات، وعندما يعود إلى روما سيكون قد غزا الدولة كلها. يقدر "پلوتارك – Plutarch" عدد من قتلوا من الغال The Gauls بمليون نسمة، كما تم استعباد مليونين آخرين. كان الأكثر أهمية بالنسبة لـ "سيزر" هو أنه حقق شهرة عسكرية كبيرة طمست شهرة پومپى؛ ليبرز هو كواحد من أعظم قادة العصر. كان لذهنه سرعة البرق، ويستطيع أن يتأقلم فورًا مع الموقف المتغير، كما كانت حساباته وتقديراته للوقت سليمة دائمًا. جسديًا، كان لديه طاقة استثنائية وقوة تحمل هائلة، يستطيع أن يقطع مئات الأميال فى عربة خفيفة فى يوم واحد، رغم وعورة الطرق وسوء الأحوال الجوية.

بعد عودته إلى روما، كانت سلطات كراسوس وپومپى تزداد ضعفًا بالرغم من أنهما كانا ما زالا مسئولين، وذلك بسبب مكائد ودسائس پبليوس كلوديوس پلشر – Publius Clodius Pulcher، الذى كان قد تسلل إلى حفل طقوس بونا ديا كما أسلفنا (انظر الهامش رقم 6 فى آخر الفصل). كان كلوديوس قد كشف عن نفسه كديماجوجى راديكالى شديد الخطورة، كما كانت أنشطته تمثل خطرًا على الدولة. مصرين على الاحتفال بهم وتكريمهم كمنتصرين، التقى القادة الثلاثة فى لوكا – Lucca فى سنة 56 ق.م، المدينة الواقعة داخل منطقة ما وراء الألب، كان سيزر على علم بأن بعض المخالفات

التى حدثت أثناء فترة قنصليته قد تجعله عرضة للمحاكمة إذا وضع قدمه على الأرض الرومانية. وهكذا وجدوا أن تقسيم العالم الرومانى إلى مناطق نفوذ ثلاث – الشرقية لـ "كراسوس" والوسطى لـ "سيزر" والغربية لـ "يومپى" – سيكون من الأفضل بالنسبة لهم لكى يحققوا طموحاتهم. سوف يتقدم يومپى وكراسوس للقنصلية، للمرة الثانية، فى العام التالى؛ بعد ذلك سوف يقوم كراسوس (الذى كان قد بدأ يساوره الشعور بأن الاثنين الآخرين كانا يضعانه فى الظل، ويريد أن يثبت قدراته فى ميدان القتال) بحملة وراء الفرات ضد الإمبراطورية "اليارتية[9] – Parthian Empire" التى كانت الدولة الوحيدة المتماسكة، فى أى مكان فى العالم، يمكن أن تواجه روما. يومپى سوف يضطلع بمسئولية إسپانيا لمدة خمس سنوات، معظمها من خلال معاونين تابعين، لكى يظل هو فى روما كأحد أصحاب الكلمة العليا فى الإدارة. أما بالنسبة لـ: سيزر، فسوف يمتد حكمه على الغال لمدة خمس سنوات أخرى، حتى يتسنى له أن يوسع ويدعم فتوحاته.[10]

إلا أن توترات الشراكة التى قامت بينهم وما خلفته من ضغوط كانت قد بدأت تتزايد. فى 54 ق.م ماتت چوليا وهى تلد، وكانت قد بذلت كل جهدها للإبقاء على أبيها وأمها معًا. بموتها افترقا. بعد ذلك سيلقى جيش كراسوس هزيمة ساحقة فى الشرق على أيدى اليارتيين رماة السهام، عند كارهاى – Carrhe (حران الحديثة جنوب شرق تركيا). من بين الستة الآلاف مقاتل، لقى خمسة آلاف وخمسمائة حتفهم، وعندما ذهب كراسوس للتفاوض... قتلوه. بقى يومپى وسيزر وحيدين. شيئًا فشيئًا كان كلاهما يدرك أن روما لم تكن كبيرة بما يكفى لأيهما؛ وعندما رفض يومپى عرض سيزر بزواج آخر بين الأسرتين، واتخذ لنفسه زوجة ثالثة هى ابنة "ميتيليوس شيبيو – Metellus Scipio" عدو سيزر الذى جعله قنصلاً، كان واضحًا أن الدمل امتلأ بالصديد، وأن الأزمة كانت فى اتجاهها إلى الذروة. بالإضافة إلى ذلك كان لدى يومپى ميزة أخرى مرجحة: وجوده فى روما.

ولكن روما كانت تنحدر سريعًا نحو الفوضى؛ وبالرغم من أن يومپى كان يتمتع بسلطات أكبر من أى شخص آخر، كان له أعداء كثيرون يشغلون مواقع مهمة مثل سيزر، وتدريجيًا كان يصبح أقل قدرة على السيطرة على أتباع كلوديوس المناوئين، وعلى خصمه الرئيسى "ميلو – Milo" الذى قسم الشارع بينهما. فى 52 ق.م قتل كلوديوس وأصبح يومپى قنصلاً وحيدًا، مع صلاحيات طوارئ خاصة تمكنه من إعادة النظام للمدينة، وبعد عامين كانوا يتناقلون فى مجلس الشيوخ آراء حول ضرورة إعفاء سيزر من القيادة. إلا أن هذا التحرك توقف فورًا بواسطة مدافع شاب عن الحقوق العامة يدعى "كيوريو – Curio"، كان من أشد مؤيدى سيزر، ومع ذلك بقى الطريق مسدودًا والموقف مجمدًا. بعدها اقترح كيوريو أن يتقدم سيزر ويومپى بالاستقالة من منصبيهما، وعندما تم رفض هذا الاقتراح أيضًا، دعا أحد القناصل يومپى لتولى قيادة كل قوات

الجمهورية، بما يعنى أن يكون له سلطات دكتاتورية. قبل پومپى الدعوة بشرط – وضعه هو – وهو ألا يكون هناك بحث عن أسلوب أفضل، وتولى على الفور قيادة فيلقين تصادف أن كانا فى العاصمة.

هرع كيوريو من فوره بالأخبار إلى مقر قيادة سيزر فى "راڤينا – Ravenna"، ثم عاد إلى روما مكملاً رحلة المائة والأربعين ميلاً فى ثلاثة أيام، حاملاً معه رسالة من سيزر كتب فيها بالتفصيل الخدمات التى قدمها للدولة، مصرًّا على أنه إذا كان لا بد من أن يتخلى عن القيادة، فلا بد كذلك من أن يفعل پومپى الشىء نفسه. مجلس الشيوخ الذى رفض مجرد قراءة الرسالة دعم اقتراحًا من ميتيليوس شيپيو – Metellus Scipio" (هو الآن حمو پومپى)، مفاده أن يستقيل سيزر وحده وإما أن يعلن عدوًّا عامًّا. هكذا قضى الأمر كما أعلن سيزر نفسه، ففى ليلة العاشر من يناير 49 ق.م قام هو والفيلق الوحيد الذى كان قد أخذه معه بعبور نهر "رابيكون – Rubicon" الصغير الذى كان يمثل الحد الجنوبى الشرقى للجزء المتاخم للألپ من الغال، وبهذا الفعل يكون قد خرق القانون الرومانى عمدًا؛ حيث كان يحظر على أى حاكم أن يقود جيشًا خارج إقليمه، وإلا اتهم بالخيانة. من الآن فصاعدًا سيكون اختبار قوة ... وستكون حرب أهلية.

** ** **

ستكون هذه الحرب على عدة جبهات. فى إيطاليا كان سيزر يواجه معارضة هينة، كانت المدن تفتح له أبوابها واحدة تلو الأخرى دون مقاومة؛ إذ إن قواته التى كانت قد خبرت المعارك كانت أكبر من ند لأى قوة يمكن أن تقف ضدها. بعد شهرين فقط من عبور نهر رابيكون فر قنصلان إلى دالماتيا؛ حيث لحق بهما پومپى نفسه بعد وقت قصير. لم يقم سيزر بمطاردتهم حيث كانوا فى حماية الأدرياتيكى، فانطلق برًّا إلى إسپانيا، المنطقة الرئيسية لقوة پومپى فى الغرب. توقف فى طريقه لفترة قصيرة عند مدينة "ماسيليا – Massilia" الحرة (مرسيليا – Marseille) وعندما وجد أهلها موالين لـ "پومپى" وضعها تحت الحصار، ثم عبر "البرانس – Pyrenees" بجيش قوامه نحو أربعين ألف مقاتل. كان فى مواجهته ما لا يقل عن سبعين ألفًا تحت قيادة ثلاثة من جنرالات پومپى، ولكنه تغلب عليهم دون مشقة بفضل قدرته على المناورة، وعندما وجدوا أنفسهم مطوقين من كل جانب استسلموا دون مزيد من المقاومة، وعندما عاد إلى ماسيليا كانت المدينة قد استسلمت هى الأخرى، وهكذا بات مستعدًّا للجولة الأخيرة من الصراع.

مع تشتت شمل أعدائه، لم يكن لدى سيزر صعوبة فى أن يتم انتخابه قنصلاً مرة أخرة فى 48 ق.م. بعد ذلك راح يطارد پومپى الذى كان قد وصل آنذاك إلى اليونان. فشلت محاولته لحصار قاعدة پومپى الرئيسية ورأس الجسر عند "ديراكيوم – -Dyr

rachium" (الآن ديورس – Durres فى ألبانيا)، إلا أن الجيشين تقابلا مرة أخرى على بعد مائتى ميل فى اتجاه الشمال الغربى، على الهضبة شديدة الحرارة والرطوبة فى "فارسالوس – Pharsalus" فى "تيسالى – Thessaly". كانت المواجهة فى التاسع من أغسطس من عام 48 ق.م. هنا سيحقق سيزر، الذى كان يعاونه القائد الشاب "مارك أنتونى – Mark Antony"، انتصارًا سهلًا. كان پومپى كما عرفنا من أوائل من انسحبوا. هرب إلى الساحل ومن هناك إلى مصر حيث زودها ملكها الصبى ونصيره القوى "بطليموس الثالث عشر – Ptolemy XIII" بسفن ومؤن. إلا أن بطليموس كان يريد أن يكون إلى جانب المنتصر، وعندما وصل سيزر إلى الإسكندرية فى مطاردة محمومة لعدوه، وجد أن پومپى كان قد تم اغتياله.

من ناحية أخرى لم تكن رحلة سيزر بلا جدوى. كان بطليموس قد نفى كليوپاتره (21 سنة) أخته غير الشقيقة وزوجه وشريكته فى الحكم، وكان لا بد من تحكيم عاجل بينهما. أخذ الأمر شكلًا غير معتاد فى مثل تلك الظروف: عادت كليوپاتره إلى مصر سرًا لكى تدافع عن قضيتها؛ حيث أغواها سيزر – كان ما زال فى الثانية والخمسين من العمر – وأخذها إلى قصره خليلة له. بطليموس مغضبًا، حاصر القصر إلا أن قوة رومانية جاءت مسرعة لتهزم المصريين فى مارس 47 ق.م. هرب بطليموس وغرق فى النيل – كان جزاء وفاقًا – وقام سيزر بتثبيت كليوپاتره على العرش مع أخيها الأصغر بطليموس الرابع عشر حاكمًا مشاركًا وأصبحت مصر دولة تابعة لروما. كان لدى سيزر نفسه مهمة أبعد قبل أن يعود إلى العاصمة وهى تأديب "فارناسس – Pharnaces" ابن متردانس صانع المتاعب القديم، الذى كانت كل الدلائل تشير إلى أنه كان يسير على خُطا أبيه. انطلق سيزر بسبعة فيالق شمالاً عبر سوريا والأناضول إلا أن الحملة كانت على شفا كارثة تقريبًا، ففى الثانى من أغسطس وعندما كان الجيش الرومانى يقيم معسكره عند زيلا – Zela (زيل – Zeil الحديثة فى وسط الأناضول) – هاجم فارناسس فيالق سيزر على حين غرة، ولم ينقذهم سوى انضباطهم وما كان لديهم من خبرة. آنذاك، كما يخبرنا پلوتارك – كان أن نقل سيزر أخبار انتصاره لروما بالكلمات التى أصبحت معروفة لكل تلميذ إنجليزى: "جئت .. رأيت .. غزوت[11] – Vici و Vidi و Veni".

مات پومپى وبقى ابناه دون هزيمة وكانت هناك حملتان أخريان – الأولى فى شمال أفريقيا والثانية فى إسپانيا قبل أن تصل الحرب الأهلية إلى نهايتها. كان سيزر الآن، وكما هو الحال دائمًا يواجه مشكلة، وهى أن يجد أرضًا يقيم عليها الفيالق التى خدمته وحاربت معه ببسالة. أقام عدة مستوطنات فى إيطاليا - حيث لم يكن هناك أراضٍ كافية فى شبه الجزيرة لإيواء كل رجاله - وأقام نحو أربعين مستوطنة أخرى فيماً وراء البحار، كان من بينها كورنته Corinth وقرطاج. وحيث إن تلك المستوطنات لم

تكن من أجل المحاربين القدامى وحدهم، فقد أرسل إليها نحو ثمانين ألفًا من الرومان العاطلين للحاق بهم. هكذا وضعت بذور الرومنة Romanisation بعيدة المدى لساحل المتوسط، الذى ما زال يحمل الكثير من الملامح الرومانية إلى اليوم.

الآن، كان چوليوس سيزر[12]، قد أصبح الأسمى والأعلى منزلة. ملأ مجلس الشيوخ بتسعمائة من أتباعه لكى يؤيدوه ويدعموه، كان معظمهم مدينًا له بخدمات وأفضال وكلهم محل ثقته. فى الوقت نفسه كانت ظاهرة «عبادة الشخصية – "Cult of Personality" تنمو لأول مرة فى روما من حوله.

انتشرت تماثيله النصفية فى كل مكان فى إيطاليا وخارجها، ظهرت صورته على العملة، ولم يكن أحد قد سمع بشىء مثل ذلك من قبل. ولكن لا شىء من ذلك أضاف إلى شعبيته. بكل السلطات التى كان يجمعها فى يديه كان الطريق مغلقًا أمام السياسيين الشبان الطموحين الذين كان رفضهم لصلفه يتزايد، وكذلك بسبب تقلباته وثروته الطائلة. كانوا رافضين لغيابه الطويل فى الحملات التى كانوا يعتبرونها غير ضرورية وغير مسئولة. كان فوق ذلك كله فى السادسة والخمسين من العمر ومعروف أنه مصاب بالصرع، وكان ينبغى أن يترك المستقبل لجنرالاته. الحقيقة أن سيزر كان يكره العاصمة بما فيها من مؤامرات ودسائس، ولم يكن يشعر بالسعادة إلا فى حملاته وبين جنوده، الذين كانوا يحبونه لدرجة العبادة ويمنحونه كل الولاء والوفاء؛ وربما كان ذلك، أكثر مما هو لأى سبب آخر، أنه فى أوائل سنة 44 ق.م كان قد أعلن عن حملة جديدة فى الشرق لينتقم لموت كراسوس ويلقن البارثيين درسًا. سيقود هذه الحملة بنفسه وسينطلق فى الثامن عشر من مارس.

بالنسبة للنبلاء، كان أمرًا سيئًا أن يحكمهم دكتاتور، أما احتمال أن يتركهم تحت حكم معاونيه وسكرتاريته لعامين قادمين أو يزيد، فكان أمرًا بالغ السوء ولا يمكن تحمله. هكذا راحت المؤامرات الكبرى تتشكل. بدأها "جايوس كاسيوس لونچينيوس – -Gaius Cas sius Longinus" الذى قد دعم پومپى حتى فارسالوس وصفح عنه سيزر فيما بعد. كان مع كاسيوس زوج شقيقته "ماركوس بروتس – Marcus Brutus". كان بروتس صنيعة سيزر الذى عينه حاكمًا على سيسالپاين جول، ولكنه لم يكن يستطيع أن ينسى قط تحدره المظنون من البطل القديم "چونيوس بروتس – Junius Brutus"، الذى كان قد طرد الملك الإتروسكى "تاركين" من روما (تأثرًا لاغتصاب "لوكريشيا كولاتينا – -Lu cretia Collatina" وانتحارها فيما بعد) ولذلك كان يعتبر مهندس الحرية الجمهورية. عندما اختير سيزر فى فبراير 44 ق.م حاكمًا أبديًا مطلقًا dictator in perpetuo، يبدو أن بروتس شعر بأن الوقت كان قد حان للقيام بتوجيه ضربة أخرى لنفس السبب. جمع مع كاسيوس نحو ستين متواطئًا، وفى الخامس عشر من مارس كانوا مستعدين.

فى ذلك اليوم، قبل ثلاثة أيام من الموعد المحدد لانطلاقه شرقًا، ذهب سيزر لحضور اجتماع لمجلس الشيوخ فى القاعة الكبرى المجاورة لمسرح بومبى، فدس يونانى (كان من العاملين فى قصر بروتس من قبل) فى يده مذكرة تحذير عندما اقترب، ولكن سيزر لم يشغل نفسه بقراءتها ومضى فى سبيله. كان المتآمرون قد رتبوا أن يشغل أحدهم نائبه الرئيس مارك أنتونى بحديث جانبى، لم يكن مواليًا تمامًا لصديقه فحسب، وإنما كان يتمتع بقوة بدنية هائلة كذلك. كانوا قد رتبوا أيضًا أن يكون بالقرب منهم جماعة من المجالدين الجاهزين للتدخل فى حال نشوب قتال، إلا أن هذا الإجراء الاحترازى لم يكن ضروريًّا. يبدو أن بيلوس كاسكا كان أول من قام بالهجوم فطعن الدكتاتور بخنجره فى حلقه، وفى لحظات كان المتآمرون يحيطون بـ "سيزر" يطعنه كل منهم بجنون فى كل مكان من جسده، بينما كان يحاول الدفاع عن نفسه قدر استطاعته دون جدوى، فسقط وهو يغطى رأسه الدامى على القاعدة المربعة لتمثال بومبى.

عندما رأوه ميتًا تملك الرعب المفاجئ الجميع ففروا من المبنى تاركين الجثة ملقاة فى مكانها. مر وقت قصير قبل أن يأتى ثلاثة من العبيد بنقالة حملوه عليها إلى بيته – يقال: إن أحد ذراعيه كان يجرجر على الأرض، وعندما فحصه الأطباء وجدوا ثلاثة وعشرين جرحًا فى جسده، كان واحدًا منها فقط هو الذى أودى به.

** ** **

فى الثالث عشر من سبتمبر عام 45 ق.م؛ أى قبل موته بستة أشهر فحسب، كان جوليوس سيزر قد قام بتبنى "جايوس أوكتاڤيوس – Gaius Octavius" حفيد أخيه كابن له؛ وبالرغم من أن أوكتاڤيان (كما كان يُعرف بشكل عام فى سنواته قبل الملكية) كان ما زال فى التاسعة عشرة، كانت تجرى تهيئته للنجومية منذ فترة. عندما كان فى السادسة عشرة عُين حبرًا أعظم، كما أنه كان قد حارب ببراعة إلى جانب سيزر فى إسبانيا. وهكذا كان متوقعًا أن يتسلم السلطة بعد مصرع عمه الكبير، ولكن مارك أنتونى - قائد حرس سيزر لم يضيع الوقت فتحرك بسرعة – لم يتردد فى تزييف بعض أوراق سيده المقتول – فأمسك بزمام الأمور فى الدولة وسيطر عليها. إلا أن أوكتاڤيان لم يسكت، وتمكن بفضل تأييد ومناصرة «شيشرون – Cicero" أن يحصل على أغلبية فى مجلس الشيوخ. (كان شيشرون واحدًا من أعظم الخطباء فى التاريخ وكان يكره الطغاة بشكل عام، وأنتونى بخاصة، وألقى عددًا من الخطب المدهشة ضده).

وهكذا مرة أخرى، كانت روما مستقطبة وعلى شفا حفرة من حرب أهلية، بل إن معركة صغيرة نشبت بالفعل بالقرب من "مودينا – Modena" انتهت بانتصار أوكتاڤيان. ولكن بحلول شهر نوفمبر 43 ق.م، كان الاثنان قد توصلا إلى تسوية صعبة

مع "ماركوس إميليوس ليبيدوس – Marcus Aemilius Lepidus" – أحد جنرالات سيزر الآخرين – وشكلوا من ثلاثتهم حكومة رسمية لمدة خمس سنوات تكون مهمتها مساعدة الحكومة لتقف على قدميها. على رأس الأولويات، كان تعقب الرجلين المسئولين عن مصرع سيزر. كان بروتس وكاسيوس قد فرا مع الموالين لهم من جنودهم عبر الإدرياتيكي تاركين روما في عهدة ليبيدوس. قام أوكتاڤيان وأنتوني بمطاردتهم حتى ڤيليبي في مقدونيا، وفي معركتين متتاليتين، بينهما ثلاثة أسابيع، لحقت الهزيمة بالجيش المتمرد وقتل قائداه؛ وباتفاق متبادل تم إبعاد ليبيدوس إلى موقع ثانوي. الآن سيُقسِّم القائدان المنتصران العالم الروماني بينهما. النصف الشرقي لـ: "أنتوني" والغربي لـ: "أوكتاڤيان".

لعل أشهر ما تعرف به اليوم مدينة "طرسوس – Tarsus" الصغيرة في "كيليكيا – Cilicia"، هو أنها كانت مسقط رأس "سان پول – St Paul"، إلا أنها قبل نحو أربعين عامًا من مولده كانت مسرح حدث آخر ما زال أثره على العالم كما نعرفه اليوم. في وقت ما من صيف عام 41 ق.م، كان أن رأى مارك أنتوني الملكة كليوپاتره السابعة لأول مرة في طرسوس. قبل ست سنوات كان چوليوس سيزر قد مكنها من عرش مصر مع بطليموس الرابع عشر الرجل الذي كان أخاها وابن أخيها، وحسب ذلك التقليد الغريب للبطالمة أصبح كذلك زوجًا لها. حتى هذه العلاقة الثلاثية فشلت في أن تقربها منه فقتلته في عام 44 ق.م. كانت كليوپاتره الآن تحكم منفردة ولكنها كانت في حاجة إلى حامٍ روماني، وكانت قد جاءت إلى طرسوس وهي تعرف أنها ستجد بغيتها هناك.

بالرغم من شهادة شيكسپير وإشارة "پاسكال – Pascal" إلى أنفها الذي لو كان قليلاً فلربما كان تاريخ العالم كله قد تغير، يبدو أن كليوپاتره كانت جذابة أكثر منها جميلة بالمفهوم الكلاسيكي. ولكن ذلك لم يمنعها من إغواء مارك أنتوني وإيقاعه في حبائلها كما حدث مع سيزر نفسه من قبل، لدرجة أنها أقنعته بتدبير قتل أختها "أرسيون – Arsio-në"، التي لم تصفح عنها قط؛ لأنها كانت قد أقامت حكمًا مناوئًا في الإسكندرية، (كانت أرسيون آخر أخواتها الخمس اللائي متن ميتة عنيفة، اثنتان منهن على الأقل اختفتا بإيعاز من كليوپاتره). كان أنتوني سعيدًا بأن يوافق، وكمكافأة له دعته لقضاء الشتاء في الإسكندرية. كانت النتيجةُ توأمًا. بعد ذلك لم يرَ الاثنان أحدُهما الآخرَ لمدة ثلاث سنوات، ولكن أنتوني دعاها في سنة 37 ق.م لتلحق به في أنطاكية عاصمته الشرقية، وكانت علاقة دائمة نتج عنها ابن آخر في العام التالي.

كانت العلاقة بينهما أشبه بأغنية رعوية تقطعها حملات أنتوني وكأنها علامات الترقيم في نص أدبي... ولم تستمر. في روما، استشاط أوكتاڤيان – زميله في الحكومة الثلاثية – غضبًا لتصرف صهره (كان أنتوني قد تزوج من شقيقته أوكتاڤيا حديثًا)،

وأغضبه أكثر قوة ونفوذ كليوپاترة عليه، وفى سنة 32 ق.م أعلن أخوها الحرب – رسميًا – على مصر. فى الثانى من سبتمبر 31 ق.م تقابل الأسطولان المتنافسان عند "أكتيوم – Actium" بالقرب من الحافة الشمالية لجزيرة "لوكاس – Leucas"؛ ليحقق أوكتاڤيان انتصارًا حاسمًا ويطارد الثانى المهزوم وهما مرتدان إلى الإسكندرية. مرت سنة تقريبًا قبل أن ينتهى الفصل الأخير فى هذه الدراما. لم يدخل أوكتاڤيان المدينة حتى الأول من أغسطس 30 ق.م حيث أصدر أوامره بضرورة أن تكون مصر فى المستقبل إقليمًا رومانيًا وأن تظل تحت حكمه الشخصى مباشرة. أما كليوپاترة فحبست نفسها فى ضريحها الخاص وأذاعت أنها انتحرت، وعندما سمع أنتونى بالخبر حاول الانتحار هو الآخر إلا أنه عرف بعد ذلك أن الأخبار لم تكن صحيحة. حملوه إليها، وكان للاثنين حوار أخير – كما يقول پلوتارك – ثم مات.

ليس معروفًا على وجه الدقة كيف ماتت كليوپاترة. المؤكد أنها انتحرت بالسم.. ولكن كيف كان ذلك؟ پلوتارك يروى قصة الأفعى مثلما كتب شيكسپير، إلا أنه يضيف أن "لا أحد يعرف الحقيقة الأكيدة.. بالرغم من ذلك فإن الجدال حول لدغة الحية كبير. كانت الكوبرا المصرية – رمز آمون رع الإله الشمس – كانت رمزًا ملكيًا منذ الفراعنة الأوائل الذين كانوا يضعون رسمها إكليلاً على تيجانهم، ولم يكن أحد يتصور أسلوبًا أكثر فخامة يليق بالملوك أكثر من ذلك. إلا أن رواية "سيوتونيوس – Suetonius" تظل أكثر إقناعًا من كل ذلك. يقول: إن أوكتاڤيان أذاع فيما بعد أنه بعد علمه بانتحار كليوپاترة استدعى سحرة الثعابين وأمرهم بأن يمتصوا السم من الجرح، ولكن إذا افترضنا أنهم جاؤوا بالفعل فلا بد من أنهم كانوا قد جاؤوا متأخرين جدًا.

هوامش الفصل الثالث

(1) كان الإتروسك، بحسب رواية هيرودوتس، قد جاؤوا إلى إيطاليا من ليديا فى آسيا الصغرى نحو أواخر القرن التاسع ق.م. تم فك شفرة لغتهم (التى لم تكن حتى هندو – أوروبية) حديثًا، ولكن الوثائق الإتروسكية القليلة لا تعطينا سوى معلومات قليلة، أما الأدلة الأكثر حيوية فتقدمها لنا أعمالهم الفنية الباقية ومنحوتاتهم (وبخاصة تلك الموجودة على المقابر) ورسومهم ومجوهراتهم. المؤكد أنهم كانوا، من الناحية الفنية أكثر موهبة من الرومان الذين طردوهم.

(2) هذه الأفيال، ومن بعدها أفيال هانيبال كانت إفريقية تقريبًا، ويقال: إن الأفيال الأفريقية – على خلاف الهندية – غير قابلة للترويض. هل كان بيروس وهانيبال يعرفان شيئًا لا نعرفه؟!

(3) punic، مشتقة من كلمة poeni اللاتينية، التى لها نفس الجذر مثل Phoenician.

(4) كانت روما قد ورثت هذه المنطقة من آسيا الصغرى فى 133 ق.م من الملك أتالوس Attalus III ملك برجامم.

(5) كان امتياز موكب النصر (Triumph) التكريمى عبارة عن موكب رسمى للقائد الرومانى المنتصر إلى مقبرة جوبيتر فى الكابيتول، وكان يتم بناء على تصويت خاص من الشعب وتوصية مجلس الشيوخ. كان القائد المنتصر (Triumphator) يحضر على عربة حربية تجرها أربعة خيول وخلفه مجموعة من أسرى الأعداء (ربما الذين سيتم إعدامهم) وأسرى الرومان المحررين والغنائم الرئيسية التى تم الاستيلاء عليها وجنود الجيش... وفى آخر الموكب كانت تسير الحيوانات التى سيتم ذبحها كأضحيات.

(6) كانت پومپيا هى المسئولة عن طقوس "بونا ديا – Bona Dea" كانت هذه الإلهة تعبد فى طقس دينى سنوى يتم ليلاً يحظر فيه حضور الرجال. فى ديسمبر 62 ق.م تسلل شخص يدعى "پبليوس كلوديوس پلشر – Publius Clodius Pulcher" متنكرًا كامرأة؛ لكى يكون مع پومپيا فى غياب زوجها كما قيل. سيزر الذى كان يحب كلوديوس، أعلن براءة كليهما إلا أنه طلق پومپيا باعتبارها "ليست فوق مستوى الشك".

(7) منطقة الغال المتاخمة لجبال الألب. (المترجم)

(8) منطقة الغال وراء جبال الألب. (المترجم)

(9) نسبة إلى "الپارت – Parthes" وهى إحدى القبائل المترحلة التى استولت على السهول الممتدة شمالى تلال خراسان بعد أن أجلوا عنها سكانها فى 250 ق.م، واقتطعوا الإمبراطورية السلوقية – Seleucids وأقاموا دولة الپارت. (المترجم)

(10) كان أن غزا بريطانيا فى العام التالى، ثم فى عام 54 ق.م، ومكث هناك ثمانية عشر يومًا وثلاثة أشهر على التوالى. لم يحقق إنجازات كبيرة باستثناء استعراض القوة الذى قام به.

(11) بحسب "سيوتونيوس – Suetonius". كان سيزر سعيدًا بتلك العبارة لدرجة أنه طلب نقشها على راية استعدادًا لموكب النصر فى روما.

(12) "يوليوس قيصر" فى معظم الترجمات العربية. (المترجم)

الفصل الرابع

روما – الإمبراطورية الباكرة

• الرسالة المسيحية • الرومان • شرائع ديوقليتيان: 306 ق.م
• جسر ميلفيو: 312 ق.م • الهرطقة الأريوسية • تأسيس القسطنطينية: 330م
• القوط ينهبون روما: 410 م • الوندال ينهبون روما: 455م • صعود جستنيان: 518 م • بيليزاريوس يدخل روما: 536م • تولى توتيلا: 541م • نارسيس يزحف على إيطاليا: 552م • القوط فى إسبانيا: 555م • إمبراطورية جستنيان.

أسفرت معركة أكتيوم عن نتيجتين هائلتين: النتيجة الأولى هى أنها أكدت بقاء الضوء السياسى مركزًا بشدة على إيطاليا والغرب. كانت الأراضى الواسعة شرق المتوسط التى تتحدث اليونانية فى معظمها ملكًا لمارك أنتونى بحسب الاتفاق الذى كان قد توصل إليه مع أوكتاڤيان وفيليى، وإذا كان قد انتصر فسوف يستمر فى محاباتهما بكل الوسائل. كانت روما تحت حكم أوكتاڤيان ما زالت صاحبة السيادة، وسوف تظل كذلك على مدى القرون الثلاثة التالية، إلى أن يغادرها «قسطنطين الكبير – Constantine the Great فى 330 ق.م إلى عاصمته الجديدة القسطنطينية. النتيجة الثانية هى أن أكتيوم كرست أوكتاڤيان، بينما كان ما يزال فى الثانية والثلاثين من العمر أقوى رجل على وجه الأرض، سيد العالم المعروف بلا منازع. كانت مشكلته الآن هى كيف يمكن أن يقوى وضعه على أفضل وجه. كانت الجمهورية ميتة بالفعل وكانت هناك أمور كثيرة واضحة، إلا أن أوتوقراطية چوليوس سيزر الصريحة ثبت أنها كانت قاتلة بالنسبة له، وكان حفيد أخيه مصرًا على ألا يرتكب الخطأ نفسه. بالرغم من ذلك، كان لا بد من مراعاة بعض الأعراف الجمهورية القديمة، ولو مظهريًا ولبعض الوقت. فى كل سنة من 31 إلى 23 ق.م كان أوكتاڤيان يشغل القنصلية، ولكن اتخاذه اللقب الجديد "أوجسطس – Augus-tus" فى 15 يناير 27 ق.م - كان مؤشرًا واضحًا على اتجاه الأحداث.

هكذا، يكون من المستحيل أن نحدد تاريخًا معينًا لتأسيس الإمبراطورية الرومانية. كانت عملية تدريجية، ولعله كان من الأفضل أن تسير الأمور على هذا النحو. فى شبابه كان أوجسطس متعطشًا للسلطة، وبمجرد أن امتلك زمامها ثمل بها وأصبح رجل دولة. إنجازاته الأخرى لا تعد ولا تحصى. أعاد تنظيم الإدارة والجيش وأنشأ قواعد بحرية دائمة على ساحل شمال أفريقيا... وحتى على البحر الأسود. أصبحت الآن روما سيدة البحر الأبيض التى لا يجرؤ أحد على تحديها، وبين 200 ق.م و200 م كانت تشهد حركة تجارية كثيفة أكثر منها فى أى وقت من الألفية التالية.[1] فى 26 و25 ق.م قام بنفسه بإخماد تمرد القبائل فى شمال إسبانيا وأنشأ ما لا يقل عن اثنتين وعشرين مستوطنة كان كل سكانها من الرومان، وفيما بعد ضاعف – أو بالأحرى چنرالاته – مساحة الأراضى الرومانية. الأهم من ذلك كله هو أنه وضع الجمهورية القديمة فى القالب الجديد الذى فرضه اتساعها الشاسع، ونجح إلى حد ما فى استمالة كل طبقات المجتمع الرومانى وحشدهم لدعم نظامه الجديد. يقال: إنه وجد روما مدينة من القرميد

وتركها مدينة من المرمر، إلا أنه فعل ما هو أكثر من ذلك: وجدها جمهورية وتركها إمبراطورية.

كانت هذه الإمبراطورية تضم إقليم سوريا الذى كان قد تم الاستيلاء عليه فى الحروب مع الملك متريداتس فى أوائل القرن الأول ق.م. لم يكن هذا الإقليم يعتبر مهمًا من وجهة نظر من يديرون شؤونه، ولكن كان هناك أثناء حكم أوجسطس – ربما فى القرن الخامس أو السادس ق.م[2] – أن ولد فى بيت أحد اليهود الأتقياء، الرجل الذى سوف يعيد تشكيل العالم جذريًا أكثر من سواه قبله أو بعده. فى غضون ثلاثين عامًا، كان سان پول أول وربما أعظم مبشر مسيحى قد حمل الرسالة الجديدة، رسالة السيد المسيح، عبر الحوض الشرقى للمتوسط. وفى غضون ثلاثمائة عام، كما سنرى بعد قليل، كانت الإمبراطورية نفسها تتبنى العقيدة التى كان يبشر بها.

*** ***

ماذا حققت الجمهورية الرومانية فى سنوات وجودها الذى دام نحو خمسمائة عام؟ أول ما نتذكر هو أن الرومان كانوا يرون أنفسهم دائمًا ورثة الإغريق. كانت الحضارتان قائمتين جنبًا إلى جنب فى شرق المتوسط منذ القرن الثانى ق.م، وبالرغم من أنهما كانتا تتخذان أشكالاً سياسية مختلفة، كان الرومان يحبذون – ثقافيًا – أن يعتبروا أنفسهم يواصلون الإرث الإغريقى. فى الأدب على سبيل المثال، نجد أن أعظم كاتبين رومانيين («ڤيرچل – Virgil " و"هوراس – Horace")، كان كلاهما بالمصادفة صديقًا شخصيًا لـ "أوكتاڤيان"، كما كانا يقران صراحة بدينهما لأسلافهم الإغريق. ملحمة ڤيرچل الضخمة، "الإنيادة – Aeneid"، تستلهم هومير (رغم أن الأسلوب واللغة أكثر تطورًا) وتجسد الأسطورة المهمة لعلاقة المدينة بطروادة من خلال البطل الطروادى "أينياس – Aeneas"، الذى هرب زمن الغزو الإغريقى، وبعد تجوال طويل شق طريقه إلى إيطاليا حيث أسس "رومولوس – Romulus" و"ريموس – Remus" (وهما من سلالته) روما. كما أن أناشيد الرعاة – Eclogues والقصائد التى تتناول الموضوعات الخاصة بالزراعة – Georgics، حتى إن كان من المتعذر تتبعها عائدين إلى هزيود، فإنها تتبع الأسلوب الإغريقى فى شعر الرعاة. هوراس، المولود فى 65 ق.م (أى بعد ڤيرچل بخمس سنوات)، كان قد درس بالفعل فى أكاديمية أثينا، قبل أن يحارب إلى جانب بروتس وكاسيوس فى فيلپى. كانت أملاك عائلته فى أپوليا قد صودرت من قبل القائد المنتصر، ولكن صديقه "ماكيناس – Maecenas" (الذى كان ڤيرچل قد

قدمه إليه)، وكان صاحب ثروة أسطورية وبالغ الكرم، توسط له لدى أوكتافيان فأعطاه المزرعة القائمة على تلال ساباين – Sabine Hills؛ حيث عاش سعيدًا بقية حياته. كان هنا أن كتب هوراس غنائياته الشهيرة – Odes[3] – التى كان يفاخر بأنها جاءت على نهج الأغانى الرعوية الإغريقية لشعراء مثل «ألكايوس – Alcaeus" و"پندار – Pendar" و"سافو – Sappho". كان كتاب النثر مقيدين بحقيقة أن فن الرواية لم يكن معروفًا بعد، إلا أنه كان هناك كتاب أدب على درجة كبيرة من البراعة مثل "پلينى – Pliny"، وخطباء مفوهون مثل "شيشرون – Cicero"، وبالإضافة إلى كل هؤلاء مؤرخون عظام مثل "ليڤى – Livy" و"تاكيتوس – Tacitus"، وأخيرًا وليس آخرًا چوليوس سيزر نفسه.

يمكن أن نجد التأثير نفسه فى مجال الفنون البصرية. كان إعجاب الرومان شديدًا بالنحت الإغريقى لدرجة أن الأباطرة والنبلاء كانوا يملؤون قصورهم وحدائقهم بنسخ من التماثيل التى صنعها "فيدياس – Phidias" و"پراكسيتيليس – Praxiteles"، كما أن الكثير من الأعمال الإغريقية المعروفة اليوم لم تعرف إلا عن طريق النسخ الرومانية. إلا أن النحت الرومانى الأصلى، رغم روعته، لم ينجح تمامًا فى الإمساك بروح الإغريق، فلا يوجد نموذج رومانى يضاهى رخاميات إلچن – Elgin Marbles، ناهيك عن أعظم قطعة من النحت الكلاسيكى فى الوجود المعروفة بـ "ناووس الإسكندر – Alexander Sarcofagus"، الموجودة فى المتحف الأركيولوچى فى إسطنبول.[4] أما فى فن التصوير فربما تكون المقارنة العادلة أكثر صعوبة؛ حيث لم يتبق سوى نماذج إغريقية قليلة، بصرف النظر عن تلك الرسوم الموجودة على المزهريات، من بين الرسوم الرومانية – إن كان لنا أن نعتبرها كذلك – لعل لوحات وجوه الفيوم (التى اكتشفت فى منطقة تبعد نحو ثمانين ميلاً جنوب غرب القاهرة، والتى تعود إلى القرنين الأول والثانى ق.م)، هى الأكثر إدهاشًا، فهى أروع مجموعة من الصور التى وصلتنا من العالم القديم.

ولكن الإنجازات الرومانية امتدت إلى ما هو أبعد من مجال الفنون. كان الرومان مشرِّعين وعلماء ومعماريين ومهندسين... وبالطبع مقاتلين بارعين، وكان فى المجالين الأخيرين أن بنوا شبكة الطرق المدهشة بطول أوروبا وغربها، بهدف أولى: وهو أن يتمكن الجيش من الوصول إلى مقصده فى أقصر وقت ممكن، وإذا كان لا بد من أن تكون الطرق صالحة للمرور عليها فى جميع الأجواء، كان لا بد كذلك من أن تكون ممهدة جيدًا، ومن نافل القول أن تكون فى خطوط مستقيمة. أول امتداد لطريق الأپيان

– The Appian Way انتهى فى 312 ق.م، كما شهد عام 147 ق.م استكمال الطريق المار بـ: "بوستوميا – Via Postumia" الممتد من البحر إلى البحر – من جنوة على البحر التيرينى إلى "أكيليا – Aquileia" على الأدرياتيكى. مثل هذه المجتمعات وغيرها – التى لا حصر لها – فى الأيام الباكرة للجمهورية كانت أكبر من أن تكون مجرد مستوطنات، كانت قد أصبحت مدنًا مزدهرة يوجد بها المعابد والمنشآت العامة بأحجام ومساحات تفوق التصور فى ذلك الزمن.

ربما كان ذلك كله قد أصبح ممكنًا بفضل الاكتشاف الأهم فى تاريخ العمارة. لم تكن القنطرة – the arch – معروفة بالنسبة للإغريق. كانت كل مبانيهم تعتمد على الأسلوب البسيط وهو وضع عرقة – lintel أفقية على أعمدة رأسية، وبالرغم من أنهم كانوا قادرين على استخدام هذا الأسلوب فى تشييد منشآت جميلة، كانت تلك الأبنية محدودة سواء فى الارتفاع أو القدرة على حمل أوزان ثقيلة. مع اختراع القنطرة وتطورها وصولاً إلى القبة، انفتحت أمامهم إمكانيات واسعة؛ وحسبنا فقط أن ننظر إلى "الكولوسيوم[5] – Colosseum"، أو تلك التكوينات المعمارية الرائعة بالقرب من "نيمس – Nimes"، أو القناة المائية الهائلة ذات المائة وتسع عشرة قنطرة فى "سيجوفيا – Segovia" – إسبانيا؛ لنعرف حجم ونسب العمارة التى كان الرومان قد أصبحوا متمكنين منها.

بالرغم من ذلك، تثير ذكريات الكولوسيوم تداعيات أقل سعادة. لقد كان الرومان موهوبين وأكفاء ومجدين، قدموا كُتَّابا وفنانين بارعين، ونشروا حضارتهم المائزة فى أنحاء كثيرة من العالم المعروف. لماذا إذن كان ذلك الولع المجنون بالعنف؟ لماذا كانوا يذهبون بعشرات الألوف لمشاهدة مباريات المجالدين الدموية التى كانت تنتهى بأن يلقى حتفه فيها واحد على الأقل من المشاركين؟ لماذا كانوا يهتفون ويصيحون لمرأى الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال بينما تمزقهم الحيوانات المفترسة إربًا، أو لمرأى تلك الحيوانات نفسها وهي تواجه الموت البطئ البشع؟ هل أظهر أى شعب أوروبى آخر قبلهم، أو منذ ذلك الحين، مثل تلك الدرجة من الوحشية والسادية؟ لا نتحدث هنا عن العامة أو الدهماء فقط، وإنما عن الأباطرة أنفسهم كذلك، على الأقل فى القرنين الأولين من حياة الإمبراطورية. مرارًا وتكرارًا كانوا ينحدرون إلى مستويات من الفساد والفسوق، التى ربما كان لها نظيرها فى أماكن أخرى، إلا أنها كانت تفوق كل ما عداها.

يخبرنا المؤرخ "سيوتونيوس – Suetonius" – طريًا – عن لواطة "تيبيريوس – Tiberius"، الذى كان يدرب أثناء سنوات تقاعده فى "كابرى – Capri" بعض الصبية على السباحة وهم يقرضون أجزاء جسده الحساسة تحت الماء، وعن نهم "فيتيلليوس

– Vitelleus''، الذى بحسب ''جيبون – Gibbon''، ''أنفق على الأكل ستة ملايين من أموالنا فى حوالى سبعة أشهر''[6] وعن وحشية «كاليجولا – Caligula'' – لقبه يعنى الحذاء الصغير – الذى لم يكتف بغشيان إحدى أخواته، بل إنه كان على نحو منتظم يقدم الأخريات ''للاغتصاب بواسطة غلمانه الشواذ''[7]، وأنشأ مبغى عامًا فى القصر الإمبراطورى، وكان يتسلى بمشاهدة أبرياء يتم تقطيعهم أمامه بمنشار وهو يتناول غداءه.

إلا أنه كان هناك أباطرة جيدون كذلك. امتد العصر الذهبى للإمبراطورية من 98 – 180 م، عندما «شملت الإمبراطورية الرومانية الجزء الأفضل من الأراضى والقسم الأكثر تحضرًا من البشرية».[8] بدأ ذلك بـ: «تراجان – Trajan'' الذى وسع حدود الإمبراطورية لتغطى ''داشيا – Dacia'' (التى تضم تقريبًا أراضى رومانيا الحالية)، و''بتراپا العربية – Arabia Petraea''، التى كانت ممتدة من فينيقيا فى الشمال نزولاً إلى شواطئ البحر الأحمر. كما أثرى عاصمته ببعض المبانى الرائعة، وأدار إمبراطوريته الشاسعة بحكمة وكياسة وإنسانية، وهى صفات نادرًا ما نراها فى روما فى القرنين الأول والثالث. استمر الحال كذلك مع خليفته وصنوه الإسپانى ''هادريان[9] – Hadrian''، الذى ربما كان أكثر الأباطرة الذين جلسوا على العرش مقدرة، والذى أمضى الكثير من فترة حكمه (استمر واحدًا وعشرين عامًا) يزور كل ركن من إمبراطوريته الكبيرة بما فى ذلك بريتنى؛ حيث أمر فى سنة 122 م ببناء السور الأعظم الممتد من ''سولواى – Solway'' إلى ''تاينى – Tyne''، والذى ما زال يحمل اسمه إلى اليوم. بعد موت هادريان جاء الأنتونيون: جاء أولاً ''أنتونينوس پيوس – Antoninus Pius'' الذى أعطت فترة حكمه، الطويلة الخالية من الاضطرابات، الرومان فرصة لالتقاط الأنفاس بعد الإجهاد الطويل في عهد سلفيه؛ وأخيرًا الإمبراطور الفيلسوف ''ماركوس أوريليوس – Marcus Aurelius''، الذى يعتبر عمله ''تأملات – Meditations''[10] (المكتوب باليونانية ربما خلال حملاته الطويلة ضد القبائل الجرمانية المتمردة)، العمل الوحيد الموجود الذى يمكننا من التعرف على عقل حاكم قديم. ولكن، من أسف أن هذا العصر الذهبى انتهى فجأة مثلما بدأ، بخلافة «كومودوس – Commodus'' ابن ماركوس أوريليوس الذى – بحريمه وغلمانه، (ثلاثمائة من كل فصيل) أعاد روما إلى أسوأ أيام التفسخ الإمبراطورى.

قصة الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث ليست مادة للقراءة الرفيعة. هناك روايات كثيرة للمؤرخين عن شهوة الدم عند ''كاراكالا – Caracalla'' – الذى

أعلن قيصرًا وهو فى الثامنة، والذى أمر فى 215 م بناء على نزوة بمذبحة كبيرة فى الإسكندرية راح ضحيتها ألوف الأبرياء من المواطنين، كما يحكون عن الازدواجية الجنسية لخليفته "إيلاجاباليوس – Elagabalus" الذى أخذ اسمه من إله الشمس عند السوريين (وكان يتشبه به لدرجة التماهى)، ودخل روما فى 219 م فى موكب احتفالى والأحمر على شفتيه ووجنتيه مزينًا بالجواهر متقلدًا الذهب والأرجوان. وهو الذى كتب عنه "جيبون – Gibbon" يقول: "ركب من المحظيات وسلسلة متعاقبة من الزوجات كانت إحداهن عذراء من المكرسات لخدمة ڤيستا[11]، أخذت عنوة من الحرم المقدس، ولم يكن ذلك كافيًا لإشباع عجزه الجنسى. كان سيد العالم الرومانى مولعًا بارتداء ملابس النساء والتشبه بطباعهن، كان يفضل الجانب النسوى على الصولجان، وأهان كرامته الإمبراطورية بتوزيع ألقابها على عشيقاته، فقد خلع – علنًا – على إحدهن لقب وسلطة الإمبراطور، أو كما كان يصف نفسه بزوج الإمبراطورة».

بحكام مثل هؤلاء، كان لا بد من أن ينتشر الفساد فى أوصال المجتمع الرومانى لدرجة تدمير القانون والنظام تمامًا، وأن تعم الفوضى فى نظام الحكم، وكان الإمبراطور «سبتيميوس سيڤيروس – Septimius Severus" الذى مات فى "يورك – York" فى سنة 211 م - آخر إمبراطور رومانى لمدة ثمانين عامًا يموت فى فراشه.

بعد خمسة وتسعين عامًا، شهدت هذه المدينة نفسها (يورك) موتًا إمبراطوريًا آخر، كانت عواقبه أكثر أهمية بالنسبة لتاريخ العالم. كان الإمبراطور الذى يحكم آنذاك هو "ديوقليتيان – Diocletian"، الذى سرعان ما وجد إمبراطوريته عبئًا كبيرًا لضخامتها وكثرة أعدائه وطول خطوط الاتصال بين أرجائها، ومن الصعب السيطرة عليها بواسطة عاهل واحد. قرر ديوقليتيان أن يقسم السلطة الإمبراطورية إلى أربعة. سيكون هناك أوجستان: هو نفسه ورفيق سلاح قديم محبوب اسمه "مكسيميان – Maxim-ian" – وحاكمان يحملان لقب "قيصر" الأدنى قليلاً فى المرتبة، سيمارسان سلطاتهما العليا فى المناطق المخصصة لهما، وفيما بعد يصبح كلاهما أوجست. أعطى السلطة العليا فى شمال غرب أوروبا – مع مسئولية إعادة فرض الحكم الرومانى فى بريتنى المتمردة – لواحد من أكثر جنرالاته نجاحًا: "كونستانتيوس كلوروس – Constantius Chlorus"، الذى كان أحد أول قيصرين. القيصر الثانى كان "جاليريوس – Galeri-us" وكان عسكريًا محترفًا من "تراقيا – Thrace"، معروفًا بالغلظة والقسوة، وتولى مسئولية البلقان.

بعد ذلك، وقع فى 305 م حدث ليس له مثيل فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية:

التخلى الطوعى عن العرش. كفى ! هكذا قرر دوقليتيان. انزوى فى القصر الكبير الذى كان قد بناه لنفسه فى "سالونا – Salona" (سبليت - Split الحديثة) على ساحل "دالماتيا – Dalmatia"، وأجبر مكسيميان – الذى كان مترددًا على التخلى كذلك. وهكذا بين عشية وضحاها وجد كونستانتيوس كلوروس نفسه الأوجسطس الأعلى، إلا أنه لم يستمتع بهذا الإرث طويلاً. بعد أشهر قليلة مات فى يورك (25 يوليو 306 م) بينما كان ابنه "كونستانتين – Constantine" (قسطنطين) يقف إلى جوار فراشه. ما كاد النفس الأخير يغادر صدره، حتى نادى صديقه وحليفه "كروكس" بـ "كونستانتين"؛ ليكون أوجسطس مكان والده، وسرعان ما تلقفت الجماهير النداء فشبكوا التوجا[12] الإمبراطورى الأرجوانى حول كتفيه وحملوه على تروسهم وهتفوا باسمه.

فى ذلك الوقت كان كونستانتين فى بداية الثلاثينيات من عمره. من ناحية الأب، يمكن أن يكون سليل حسب نبيل، أما من ناحية أمه (هيلينا – Helena)، فقد كانت من نسل صاحب نزل متواضع فى «بيتينيا»[13]، بصرف النظر عن محاولات بعض الكتاب إقناعنا بأنها كانت ابنة «كويل – Coel" مؤسس كولشستر. (هناك مؤرخون أقل شهرة يبالغون فيقولون: إنها – كفتاة – كانت إحدى وسائل الترفيه فى نزل أبيها، وإنها كانت متاحة لمن يريد من الزبائن مقابل مبلغ إضافى بسيط). فى وقت متأخر من حياتها، عندما وصل ابنها إلى موقع السلطة العليا، كانت قد أصبحت أرفع النساء منزلة وأكثرهن جلالة ومهابة فى الإمبراطورية؛ فى 327 م، وكانت قد جاوزت السبعين من العمر، قامت هذه المتحولة إلى المسيحية بالحج إلى الأرض المقدسة، وهناك – على نحو معجز – تخرج الصليب الحقيقى من باطن الأرض وتكتسب من جراء ذلك مكانة شريفة فى سجل القديسين... فتصبح «القديسة هيلانة».

عودة إلى «كونستانتين». أول ما يمكن أن يقال عنه: إنه لا يوجد حاكم فى التاريخ كله – لا الإسكندر ولا الفريد ولا تشارلز ولا كاترينا ولا فردريك ولا حتى جريجورى – كان أكثر استحقاقًا منه للقب «الكبير» أو «الأكبر»؛ حيث إنه فى غضون الفترة القصيرة التى تقدر بنحو خمسة عشر عامًا اتخذ قرارين، كان أيهما بمفرده كفيلاً بتغيير مستقبل العالم المتحضر. كان القرار الأول هو تبنى المسيحية دينًا رسميًّا للإمبراطورية الرومانية، وكان الثانى هو نقل عاصمة الإمبراطورية من روما إلى المدينة الجديدة التى كان يبنيها فى موقع المستوطنة الإغريقية القديمة «بيزنطة»، والتى ستعرف باسمه: «كونستانتينوبل»[14] (أى مدينة كونستانتين – Constantinople). هذان القراران معًا وما تمخضا عنه من نتائج يعطيانه الحق فى أن يعتبر أكثر الرجال تأثيرًا على مدى التاريخ، باستثناء يسوع المسيح والنبى محمد وبوذا.

فور إعلانه والهتاف باسمه رئيسًا، كان من الطبيعى أن يرسل كونستانتين كلمة إلى جاليريوس، الأوجسطس المشارك الذى كان آنذاك يحكم من "نيقوميديا – Nicome-dia" (إزميت – Izmit الحديثة) عبر البوسفور؛ إلا أن جاليريوس، بينما كان مترددًا فى الاعتراف به كقيصر رفض بشدة الاعتراف به كأوجسطس، بعد أن كان قد عين بالفعل "ڤاليريوس ليسينيانوس – Valerius Licinianus" (يدعى ليسينيوس – Li-cinius) أحد رفاق الشراب القدامى. لم يبد كونستانتين أى انزعاج لذلك. ربما لم يكن قد شعر بعد بأنه جاهز للسلطة العليا؛ فبقى على أية حال فى الغال Gaul وبريتنى – Britain ست سنوات أخرى يحكم المقاطعتين بحكمة وتعقل. بعد موت جاليريوس فى 311 م، بدأ يستعد لتحقيق مآربه، وفى صيف 312 م عبر الألب لمحاربة أول وأخطر منافسيه الألداء، صهره "ماكسنتيوس – Maxentius" ابن زميل ديوقليتيان القديم الإمبراطور مكسيميان.[15]

التقى الجيشان فى 28 أكتوبر 312 م عند «ڤيافلامينيا – Via Flaminia"، على بعد سبعة أو ثمانية أميال شرق روما، حيث يوجد جسر پونت ميلڤيو القديم[16] على نهر التيبر. ما زال الناس يتذكرون معركة جسر ميلڤيو إلى اليوم بسبب الأسطورة التى رواها الأسقف «إيوسيبيوس – Eusebius" (أسقف قيصرية – Caesarea ومعاصر كونستانتين)، الذى يزعم أنه كان قد سمعها من الإمبراطور نفسه، وهو أنه:

> **بعد منتصف النهار تقريبًا، والشمس تتأهب للمغيب، رأى بأم عينه آثار صليب من الضوء فى السماء فوق الشمس، عليه نقش يقول «افتح بهذا (hoc vinci). تملكه الذهول، وكذلك كل جيشه، أمام ذلك المنظر.[17]**

يقال: إن كونستانتين الذى أذهلته هذه «الرؤية» وكانت إلهامًا له، هزم جيش صهره هزيمة ساحقة، وجعله يفر جنوبًا صوب الجسر القديم. كان ذلك الجسر ضيقًا جدًّا، وكان ماكسنتيوس قد بنى – متوجسًا شرًّا – جسرًا أوسع إلى جواره محمولاً على عوامات، يمكن الانسحاب فوقه بشكل منظم، ثم كسره فى المنتصف لمنع العدو من مطاردة قواته. فوق هذا الجسر فرت فلول جيشه المهزوم مذعورة، وكان يمكن أن يتم كل شىء على ما يرام، لو لم يفقد مهندسو الجسر صوابهم ويسحبوا الرتاجات بسرعة. فجأة، انهار البناء كله ليسقط المئات فى الماء الجارف. هرع من كانوا ينتظرون دورهم للعبور إلى الجسر الحجرى القديم، إلا أن الكارثة الكبرى تكررت، كان ضيقًا فانسحق كثيرون وماتوا، ودهست الأقدام كثيرين، بينما سقط غيرهم فى الماء؛ وكان بين هذه الفئة الأخيرة ماكسنتيوس نفسه، الذى وجدوا جثته على الشاطئ فيما بعد. فى اليوم التالى، عندما دخل كونستانتين روما، كان رأس ماكسنتيوس المقطوع مرفوعًا على سن رمح أمام موكبه.

الانتصار الذى حققه كونستانتين عند جسر ميلڤيو جعل منه سيد العالم الغربى من الأطلنطى إلى الأدرياتيكى بلا منازع، من سور هادريان إلى جبال أطلس؛ أما إذا كان قد جعله يتحول إلى المسيحية فذلك ليس مؤكدًا؛ إلا أن ذلك الانتصار كان نقطة بدأ من عندها ليكون حاميًا وراعيًا نشطًا لرعاياه المسيحيين. عندما عاد إلى روما قدم من ماله الخاص إعانات لخمسة وعشرين كنيسة كانت موجودة بالفعل، ولعدد كبير من الكنائس الجديدة، كما أهدى البابا "ملكيادس – Melchiades"، المنتخب حديثًا، المنزل القديم لعائلة "لاتيرانى – Laterani" على تل "كويلى – Coeli"؛ ليظل قصرًا بابويًا لمدة ألف عام أخرى؛ كما أمر بأن تبنى إلى جواره – على نفقته الخاصة كذلك - أول "باسيليقا[18] – basilica" رومانية عظيمة (باسيليقا سان چون لاتيران) التى ما زالت إلى اليوم كاتدرائية المدينة. من المثير للدهشة كذلك أن نجد عملاته لمدة اثنتى عشرة سنة أخرى تربط بينه وبين العقيدة الشائعة فى تلك الأيام، الإيمان بـ "الشمس التى لا تقهر" – Sol Invictus – وليس بينه وبين المسيحية، كما أنه رفض المعمودية المسيحية التى راح يؤجلها إلى أن أصبح على فراش المرض بعد ذلك بربع قرن.

بادرة الحذر هذه نفسها، نجدها واضحة فى "مرسوم ميلان – Edict of Milan"، الذى أصدره كونستانتين بالاشتراك مع زميله الأوجسطس (الذى كان قد أصبح صهرًا آخر له)[19] "ليكينيوس – Licinius" فى 313 م واصفًا الهدف منه بأنه:

> **ضمان الاحترام والتوقير للمعبود، تحديدًا بمنح المسيحيين وسواهم من أتباع أسلوب العبادة التى يريدونها، بمعنى أنه أيًا كان الإله الموجود فى السماء، ينبغى أن يكون مقبولاً وأثيرًا بالنسبة لنا ولكل من يعيش فى كنفنا.**

ربما يكون الأوجستان الاثنان قد تكلما بصوت واحد عن التسامح الدينى، إلا أنهما لم يكونا متفقين فى أشياء كثيرة أخرى، فكان لا بد من عشر سنوات أخرى من الحرب الأهلية قبل أن يستطيع كونستانتين التخلص من آخر منافسيه. لم يتمكن من إرساء السلام فى أرجاء الجمهورية سوى فى عام 323 م عندما كان يحكم منفردًا.

كان كونستانتين الآن يبدو مسيحيًا فى كل شىء ماعدا اسمه، ولكن الكنيسة المسيحية انقسمت وشهدت أكبر شقاق فى تاريخها. كان ذلك نتيجة اجتهاد لشخص يدعى «آريوس – Arius"، شيخ كنيسة الإسكندرية الذى كان يؤمن بأن يسوع المسيح لم يكن شريكًا فى الأزلية ومن نفس مادة الأب الإله، وإنما كان من خلقه هو فى زمن ما وأداته لخلاص العالم. وهكذا، بالرغم من كونه إنسانًا كاملاً، لا بد أن يكون الابن دائمًا تابعًا لـ «الآب»؛ حيث إن طبيعته بشرية وليست إلهية. سرعان ما أصبح الخلاف الناجم دعوى مثيرة

للرأى العام، عقد كونستانتين العزم على حسمها، وبهذا الهدف دعا أول مجمع عام للكنيسة للانعقاد بين 20 مايو و19 يونيو 325 م فى «نيقية – Nicaea" (إزنك Iznik الحديثة) حيث شارك فيه ثلاثمائة أسقف. افتتح الإمبراطور نفسه الجلسة وكان هو الذى اقترح إدخال الكلمة الرئيسية "homoousios" التى تعنى بالإنجليزية Consubstan-tial – من مادة واحدة – لوصف علاقة الابن بـ «الآب». كان إدخال هذه الكلمة بمثابة إدانة «للآريوسية – Arianism"، وكانت قدرة الإمبراطور على الإقناع قوية، لدرجة أنه بنهاية جلسة المجمع لم يكن هناك سوى 17 أسقف فقط باقين على اعتراضهم، وهو العدد الذى انخفض إلى اثنين فى النهاية خشية النفى والحرم الكنسى – excommu-nication المحتمل.

إلا أن آريوس استمر فى الصراع حتى سنة 336 م، أثناء تحقيق أخير فى معتقداته عندما:

> **دخل متجاسرًا بفضل حماية أتباعه فى حوار أحمق إلى أن اضطر بدعوة من الطبيعة إلى التراجع، وفى الحال، كما هو مكتوب «سقط على رأسه لينفجر جسده فى الوسط وتخرج أحشاؤه»[20]**

لا بد من أن نعترف أن هذه القصة خطها قلم "أثناسيوس – Athnasius" أسقف الإسكندرية خصم آريوس الرئيسى، ولكن ظروف موته الغريبة متفق عليها من قبل كُتَّاب معاصرين، وتعزى حتمًا لعقاب إلهى، فالإشارة الكتابية هنا تشبه إلى حد ما مصير يهوذا الإسخريوطى – Judas Iscariot.

لم يتحقق حلم كونستانتين بالتوافق الروحى فى كل أنحاء العالم المسيحى فى حياته، والحقيقة أننا ما زلنا ننتظره إلى اليوم.

****

عندما رأى كونستانتين بيزنطة لأول مرة، كان عمر المدينة بالفعل نحو ألف عام؛ وحسب التقاليد كانت قد أنشئت فى 658 ق.م على يد "بيزاس – Byzas" كمستعمرة لـ: "ميجارا – Megara"، ويمكن أن يكون هناك قدر من الشك فى وجود مستوطنة إغريقية صغيرة مزدهرة، فى هذا المكان نفسه فى مطلع القرن السادس ق.م. أما ما لا شك فيه، فهو أن الإمبراطور كان موفقًا فى اختياره لها لتكون عاصمته الجديدة. منذ زمن طويل، كانت روما مكانًا منعزلاً، ولم يكن أى من حكام المقاطعات يتصور أنه يمكن أن يقيم هناك. كانت الأخطار الرئيسية على أمن الإمبراطورية مركزة الآن

على الحدود الشرقية: "الصرماط[21] – The Sarmatians" حول الدانوب الأسفل، و"القوط الشرقيون – The Ostrogoths" شمال البحر الأسود، ثم "الفرس – The Persians"، وهم الأكثر خطرًا وتهديدًا من الجميع، وكانت إمبراطوريتهم الساسانية العظيمة ممتدة فى ذلك الوقت من المقاطعات الرومانية السابقة فى أرمينيا وبلاد الرافدين إلى "هندوكوش – Hindu Kush". إلا أن أسباب الانتقال لم تكن إستراتيجية فحسب. كانت بؤرة الحضارة قد انتقلت بشكل نهائى إلى الشرق. كانت روما تبتعد أكثر وأكثر عن الفكر الجديد المتقدم للعالم الهيلنستى، ولم تعد الأكاديميات والمكتبات تضاهى مثيلاتها فى الإسكندرية أو برجامم أو أنطاكية. من الناحية الاقتصادية، كذلك كانت الثروات الزراعية والمعدنية أكثر جذبًا منها فى شبه الجزيرة الإيطالية؛ حيث كانت الملاريا تنتشر وعدد السكان يتضاءل. وأخيرًا، لم يكن للتقاليد الجمهورية الرومانية والوثنية القديمة مكان فى إمبراطورية كونستانتين المسيحية الجديدة. كان الوقت قد حان لبداية جديدة.

كانت مميزات بيزنطة، كموقع إستراتيجى، عن كل جيرانها الشرقيين واضحة كذلك. بموقعها على عتبة آسيا، واحتلالها قمة النتوء الجبلى المثلث فى أقصى الشرق، وجانبها الجنوبى الذى تغسله مياه "البروبونتس – Propontis" (الذى نطلق عليه بحر مرمرة)، وذلك الجون الواسع العميق الصالح للملاحة البالغ طوله نحو خمسة أميال فى الجزء الشمالى الشرقى منها (المعروف منذ القدم بـ: "القرن الذهبى – Golden Horn")، كل ذلك جعل الطبيعة تشكل منها مرفأ رائعًا وحصنًا منيعًا لا يحتاج إلى تقوية رئيسية سوى فى جانبه الغربى. حتى أى هجوم من البحر سيكون شديد الصعوبة؛ حيث إن بحر مرمرة محمى بمضيقين طويلين: البوسفور فى الشرق وهيلزبونت – Hellespont (أو الدردنيل) فى الغرب. لا عجب إذن أن يضرب بشعب "خلقدونيا – Chalcedon" المثل فى الحماقة؛ حيث كانوا قد أقاموا مدينتهم قبل نحو سبعة عشر عامًا على الشاطئ المسطح المقابل، الذى لا يحمل أى ملامح.

لم يدخر كونستانتين وسعًا لكى يجعل عاصمته الجديدة جديرة باسمها. كان عشرات الألوف من العمال المهرة والحرفيين يعملون ليل نهار. فى أحد المواقع على الأكروبولس القديم – كان يشغله فى السابق هيكل لأفروديت – قامت أول كنيسة كبرى فى المدينة، كنيسة "سان إيرين – ST Irene"، منذورة، ليس لأى قديس أو شهيد، وإنما "السلام الله المقدس". بعد سنوات قليلة لحقت بها – وفاقتها – جارتها الأكبر والأروع كنيسة "الحكمة المقدسة" أو "سان صوفيا – St Sophia". على مسافة ربع الميل فى اتجاه

مرمرة، كان مسرح الاحتفاليات الهائل – Hippodrome – حيث يوجد لمقصورة الإمبراطور مدخل مباشر إلى قصره القائم خلفه. كل المدن الكبرى فى أوروبا وآسيا، بما فى ذلك روما نفسها، تم تجريدها من تماثيلها ونصبها التذكارية وتحفها الفنية ونقلها لتجميل وإثراء كونستانتينوپل (القسطنطينية). وأخيرًا، بعد أن أصبح كل شىء معدًّا على خير وجه، حضر الإمبراطور قداسًا فى كنيسة سان صوفيا يوم الاثنين الموافق الحادى عشر من مايو 330 م، نذر فيه المدينة – رسميًّا – للسيدة العذراء. فى ذلك اليوم، ولدت الإمبراطورية البيزنطية.

لم يكن هناك فى الواقع أى تغير حقيقى. بالنسبة لرعاياها، كانت ما زالت هى الإمبراطورية الرومانية، إمبراطورية أوجسطس وتراچان وهادريان. وكانوا ما زالوا رومانيين، كل ما فى الأمر أن عاصمتهم انتقلت، ولم يحدث أى شىء آخر. وحيث إنهم كانوا قد عاشوا على مدى قرون محاطين بالعالم الإغريقى، كان حتمًا أن يتخلوا عن اللغة اللاتينية بالتدريج لصالح اليونانية، إلا أن ذلك لم يحدث أى فرق أيضًا. كانوا – بكل كبرياء – يصفون أنفسهم بأنهم رومان طيلة وجود الإمبراطورية، وعندما سقطت بعد 1123 عامًا من تأسيسها، كان أن ماتوا كذلك كرومان.

من هذه الفترة، كان أن عاش كونستانتين سبع سنوات أخرى، ثم وهو مريض فى ربيع 337 م، سافر إلى "هيلينوپولس – Helenopolis"، تلك المدينة التى كان قد شيدها تخليدًا لذكرى أمه، لعل حمامها الصحى الساخن يشفيه من علته. من أسف أن ذلك لم يحدث، وفى طريق عودته إلى العاصمة ساءت صحته وتدهورت فكان من الواضح أنه لن يستطيع إكمال الرحلة. كان فى نيقوميديا، وليس فى كونستانتينپول، أن حصل ذلك الرجل الاستثنائى، الذى كان لسنوات أسقفًا زائفًا للكنيسة المسيحية، على المعمودية. بعد انتهاء المراسم، كما يخبرنا "إيوسيبيوس – Eusebius" "ارتدى رداء كهنوتيًّا فخمًا أبيض اللون كان يشع مثل النور، واستلقى على حشية ناصعة البياض، رافضًا ارتداء الأرجوان ثانية".

ربما نتساءل: ولماذا أخر معموديته طويلاً هكذا؟ إلا أن الإجابة المرجحة هى الأكثر بساطة: هذا السر المقدس يمنح غفرانًا كاملاً لكل الخطايا، ولكن من أسف أن الاحتفال بذلك لا يتم إلا مرة واحدة. كان من المنطقى أن يطول إرجاؤه لتقليل فرصة السقوط فى الخطيئة مرة أخرى. ولعل ذلك المثال كان نهاية مناسبة لحكم كونستانتين الذى دام واحدًا وثلاثين عامًا، انتهت ظهر الأحد، الثانى والعشرين من مايو 337 م، وهى أطول فترة حكم لإمبراطور رومانى منذ أوجسطس. دفن فى كنيسة الرسل القديسين التى كانت قد

استكملت حديثًا؛ وبموجب هذا التكريس "أمر بوضع اثنى عشر ناووسًا (تابوتًا حجريًا) فى هذه الكنيسة مثل الأعمدة المقدسة؛ تكريمًا وإحياء لذكرى عدد القديسين، يتوسطها تابوته وستة على كل جانب".

لم يستمر حكم كونستانتين غير المقسم طويلاً. عندما مات الإمبراطور "ثيودوسيوس الأكبر – Theodosius the Great " فى سنة 395م انقسمت الإمبراطورية مرة أخرى، وبالرغم من أن السلطة العليا كانت مركزة فى كونستانتينيول، فإن سلسلة من الأباطرة، أشباه الدمى، كانوا يحكمون فى إيطاليا (وبخاصة فى رافينا – -Raven na) على مدى معظم قرن آخر. أثناء هذه الفترة حدثت تحولات فى شبه الجزيرة الإيطالية، وفى معظم أوروبا الغربية فى الحقيقة؛ أحدثتها تلك الشعوب التى كان مواطنو الإمبراطورية يعرفونهم – بازدراء – بالبرابرة. من بين هذه الشعوب يهمنا قبيلتان فى هذه المرحلة من تاريخنا: "القوط – The Goths" و"الهون – The Huns". لم تكونا مختلفتين فى الكثير. فى أواخر القرن الرابع، كان القوط شعبًا متحضرًا نسبيًا، وكان معظمهم من المسيحيين الآريوسيين. وبينما كان القوط الغربيون – Visigoths ما زال يحكمهم شيوخ قبائل من المحليين، كان الشرقيون – Ostrogoths قد تطوروا ليصبحوا مملكة أوروبية مركزية، متحدة ومزدهرة. من الناحية الأخرى كان الهون جماعة من الهمج البدائيين: قبيلة وثنية غير متحضرة، من أصول مغولية، جاءت من سهول آسيا الوسطى مخلفة الخراب والدمار فى طريقها. كلاهما، القوط والهون، كانا يشكلان خطرًا على الإمبراطورية فى أوقات مختلفة، ولعله من المثير للدهشة أن يكون القوط هم الذين هجموا أولاً.

فى السنوات الأخيرة من القرن الرابع، كان "ألاريك – Alaric" شيخ قبيلة القوط الغربيين قد نشر الرعب والإرهاب من أسوار كونستانتينيول (القسطنطينية) إلى جزر البيلوبونيز الجنوبية، وفى 401 م قام بغزو إيطاليا. استطاعت الإمبراطورية أن توقفه – إلى حد ما فى الخليج وحافظت على هذا الوضع بضع سنوات، إلا أنها وقعت فى أسر فكرتين خاطئتين إلى حد كبير: الأولى هى أن كل البرابرة كانوا سواء؛ جماعات همج غير منضبطة ولن يكونوا ندًا لجيش إمبراطورى منظم جيد الترتيب. هذا الوهم لم يدم طويلاً. الفكرة الخطأ الثانية – وهى أن ألاريك كان يريد إسقاط الإمبراطورية – من أسف أنها استمرت طويلاً، بينما كانت الحقيقة على عكس ذلك تمامًا. لم يكن ألاريك يقاتل لكى يدمر الإمبراطورية، وإنما لكى يؤسس وطنًا دائمًا لشعبه بداخلها، يتمتعون فيه باستقلال ذاتى ويحصل هو نفسه على مرتبة إمبراطورية عالية باعتباره شيخًا للقبيلة؛

ولو أن الإمبراطور الغربى "أونوريوس – Honorius" – الذى كان موجودًا فى راڤينا – ومجلس الشيوخ الرومانى استطاعوا أن يفهموا ذلك، لكانوا قد تجنبوا الكارثة النهائية؛ ولكنها كانت حتمية، بسبب عدم فهمهم.

حاصر ألاريك روما ثلاث مرات ما بين 408، 410 م. الحصار الأول جعلها تتضور جوعًا، واضطر الرومان لدفع فدية كبيرة تضمنت خمسة آلاف رطل من الذهب وثلاثين ألفًا من الفضة. الحصار الثانى انتهى بعد أن وافقوا على خلع الإمبراطور؛ الثالث، وكان قد بدأ عندما رفض أونوريوس التنازل وتحصن فى راڤينا، انتهى بسلب ونهب المدينة. حتى آنذاك، كان يمكن أن تكون الأمور أكثر سوءًا: ألاريك، باعتباره مسيحيًّا ورعًا كما كان، أمر بعدم المساس بأية كنيسة أو مبنى دينى وبمراعاة حرمة كل المقدسات. إلا أن السلب والنهب هما السلب والنهب، ولم يكن القوط برغم مسيحيتهم قديسين بأى حال. بعد انتهاء الأيام الثلاثة المسموح فيها بجمع الغنائم، زحف ألاريك جنوبًا، ولكنه لم يكن قد ابتعد كثيرًا عن "كوسنزا – Cosenza" عندما سقط صريع حمى شديدة – ملاريا على الأرجح – ليموت فى غضون أيام قليلة. كان فى الأربعين. حمل أعوانه جثمانه إلى نهر "بوسنتو – Busento"، الذى سدوه وحرفوه عن مجراه الطبيعى ودفنوا قائدهم فى مهده، ثم عادوا فكسروا السد لتنهمر المياه مرة أخرى وتغطيه.

الهون الذين كانوا – على خلاف القوط – برابرة بأكثر مما يوحى به الاسم، كانوا قد شقوا طريقهم اقتحامًا فى أوروبا فى 376 م ودمروا المملكة القوطية الشرقية، إلا أن هذا الاحتكاك الأول لهم بالعالم المتحضر لم يكن له تأثير كبير فيهم. كانت الأغلبية الساحقة منهم ما زالوا يعيشون وينامون فى العراء، يزدرون زراعة أى شىء، حتى الطعام المطهو – رغم أنهم يحبون أن يطروا اللحم النيئ بوضعه بين أفخاذهم وخواصر خيولهم وهم يركبونها. أما بالنسبة للملبس فكانوا يفضلون السترات القصيرة المصنوعة من جلد فئران الحقول، المخيطة فى بعضها على نحو فج. كانوا يرتدون هذه السترات دون أن يخلعوها حتى تتآكل وتسقط عن أجسادهم من تلقاء نفسها. كانت سروج الخيل بيوتهم، لا يبرحون صهوة الفرس حتى للأكل أو النوم. كان "أتيلا – Attila" نفسه نموذجًا لجنسه: قصير القامة، داكن اللون، أخنس، العينان خرزيتان تموران ببريق الجشع، مثبتتان فى رأس كبير الحجم لا يتناسب مع جسده، له لحية قليلة الشعر منتشرة فى غير نظام. فى غضون سنوات قليلة من ارتقائه العرش، أصبح معروفًا فى أوروبا بـ "سوط الله – The Scourge of God"؛ ولعله كان أكثر من يخشاه الناس من الرجال قبل ومنذ ذلك الوقت، ربما باستثناء نابوليون.

لم يطلق جيشه على إيطاليا إلا فى 452 م. أضرم النار فى كل المدن الڤينيسية. "ﭙاڤيا – Pavia" و"ميلانو – Milano" ثم نهبهما بعد الاستيلاء عليهما. بعد ذلك زحف جنوبًا على روما، ثم توقف فجأة دون سبب معلوم. لماذا؟ يظل السبب مجهولاً. يرجع الفضل فى ذلك - كما يقال - للبابا "ليو الأكبر – Leo the Great "، الذى سافر من روما للقائه على ضفاف نهر "منسيو – Mincio " (ربما فى مكان يقع بالقرب من "ﭙسكييرا – Peschiera" حيث ينبع النهر من بحيرة "جاردا – Garda") وأقنعه بألا يواصل تقدمه.[22] ولكن يبدو من الصعب أن يكون الهون قد أطاعوا البابا – وهم وثنيون – احترامًا لمقامه فقط. لا بد من أن يكون قد طلب إتاوة كبيرة فى المقابل. هناك آراء كثيرة على أية حال فى هذا الشأن. هناك ما يجعلنا نعتقد أن أتباعه لم يكن لديهم مؤونة كافية من الطعام، بعد أن كانوا قد دمروا كل المناطق المحيطة، وأن الأمراض كانت قد بدأت تتفشى فى صفوفهم. فى الوقت نفسه كانت هناك قوات قد بدأت تصل من القسطنطينية لدعم القوات الإمبراطورية المحلية. وأخيرًا، حيث من المعروف أن أتيلا كان ممن يؤمنون بالخرافات، هل يمكن أن يكون ليو قد ذكره بالطريقة التى مات بها ألاريك فى غضون أسابيع من تخريب روما ونهبها، وقال له: إن مصيرًا مماثلاً كان فى انتظار أى غاز يعتدى على المدينة المقدسة؟ لسنا متأكدين. كل ما نعرفه هو أنه إذا كان ملك الهون قد ظن أنه بالإبقاء على روما كان يبقى على حياته، فإنه يكون قد أخطأ. بعد عام، وفى الليلة التالية لزواجه، وكان له زوجات كثيرات بالفعل، كان الإجهاد الشديد سببًا فى نزيف مفاجئ. وبينما كان دم الحياة يسيل منه، كانت أوروبا كلها تتنفس مرة أخرى – رغم أن ذلك، كما اتضح سريعًا، لم يستمر لفترة طويلة.

مقارنة بالقوط والهون، فإن الوندال – The Vandals – آخر الشعوب البربرية الكبرى الذين ألقوا بظلالهم على القرن الخامس التعس، كان تأثيرهم المباشر على الإمبراطورية أقل، ولكن تأثيرهم فى البحر الأبيض كان أكبر من تأثير الشعبين الآخرين مجتمعين. هؤلاء القبليون الجرمان، بعقيدتهم الآريوسية المتعصبة، كانوا قد فروا غربًا أمام الهون قبل نصف قرن تقريبًا، ثم استقروا فى إسپانيا فى سنة 409م، بعد غزو وتخريب مساحة كبيرة من بلاد الغال – Gaul. بقوا هناك حتى سنة 428 م عندما قاد الملك "جايسيريك – Gaiseric " – وكان قد توج حديثًا – شعبه بالكامل (نحو مائة وثمانين ألف رجل وامرأة وطفل) عبر البحر الأبيض المتوسط متجهًا إلى شمال أفريقيا. بعد أحد عشر عامًا فقط استولى على قرطاج[23]، آخر حصن إمبراطورى على الساحل وجعلها بالفعل مركزًا للقرصنة. كان الآن قد بنى لنفسه أسطولاً قويًا – الحاكم الوحيد الذى فعل ذلك – وخاصة بعد أن غزا صقلية فى 470 م تقريبًا، ليصبح بذلك سيد البحر الغربى بلا منازع.

فى أوائل صيف 455 م، أطلق جايسيريك حملته الأكثر قوة ضد روما نفسها. كان رد الفعل هناك ذعر شديد. الإمبراطور المسن «بترونيوس مكسيموس – Petronius Maximus" القابع فى قصره، أصدر على غير المتوقع نداء يدعو فيه كل القادرين جسديًا، أن يهبوا للدفاع عن الإمبراطورية ويعلن فى الوقت نفسه أن أى شخص يريد أن يغادر، كان له أن يفعل. لم يكن رعاياه ينتظرون الإذن بذلك. كان الرومان المذعورون بالفعل يرسلون زوجاتهم وبناتهم إلى أماكن آمنة، وكانت الطرق المؤدية إلى الشمال مختنقة بالمركبات؛ حيث كانت الأسر الأكثر قدرة تتدفق خارجة من المدينة حاملة معها كل نفيس وغال تخشى عليه من الوندال. فى 31 مايو تمرد حرس القصر الإمبراطورى وقتلوا بترونيوس وقطعوا أوصاله وألقوا بأجزائه فى التيبر. للمرة الرابعة فى أقل من نصف قرن – ولولا البابا ليو الخامس لكانت الخامسة – يقف جيش بربرى على أبواب روما.

مرة أخرى، كان البابا الذى طالت معاناته يفعل ما فى استطاعته. لم يكن قادرًا على إيقاف جايسيريك نهائيًا، إلا أنه استطاع أن يحصل منه على وعد بألا يكون هناك قتل متعمد أو تدمير للمنشآت العامة أو الخاصة، وبناء على هذا التفاهم فتحت أبواب المدينة ودخل البرابرة مدينة لا تقاوم. لمدة أربعة عشر يومًا قاسية، كان يتم تجريد المدينة من كنوزها: الذهب والفضة من الكنائس، التماثيل من القصور، الأوانى المقدسة من المعبد اليهودى، حتى السقف النحاسى المذهب – أو نصفه – من معبد چوپيتر كاپيتولينيوس. تم نقل كل شىء إلى "أوستيا – Ostia" ثم تم تحميله على السفن المنتظرة وأخذوه إلى قرطاج. كانوا عند كلمتهم... فتركوا الناس والمنشآت ولم يمسوهم بسوء. هذه المرة تصرفوا كقطاع طرق بالتأكيد، وليس كوندال.

** ** **

قد يتبادر إلى الذهن أن الوندال ربما يكونون قد اكتفوا بذلك، إلا أنه تصور خاطئ. على مدى السنوات القليلة التالية كانوا يقومون بسلب ونهب "كامپانيا – Campania" على نحو منظم، واحتلوا جزر الباليرى Balearic Islands وكورسيكا وسردينيا. ثم جاء الدور على صقلية التى نهبوا بعدها الشواطئ الغربية لليونان.

كانت الإمبراطورية الرومانية، كما تصور هذه القصة الحزينة بكل وضوح، مريضة إلى درجة الموت، ولذا لن يدهشنا تخلى آخر أباطرتها عن العرش فى 476 م، ذلك الطفل المثير للشفقة، المكون اسمه من صيغتى تصغير: "رومولوس أوجستولوس – Romulus Augustulus". أسقطه بربرى چرمانى آخر يدعى "أودوآكر – Odoacer"[24]، رفض نظام تعدد الأباطرة القديم، ولم يعترف سوى بسلطة الإمبراطور

«زينو – Zeno» فى القسطنطينية. كل ما طلبه من زينو هو منحه لقب "شريف – Pa-trician"، واقترح أن يحكم إيطاليا تحت هذا اللقب وباسم الإمبراطور.

قبل خمس سنوات، كان شـاب فى السابعـة عشرة من العمر تقريبًـا، اسمـه "تيودوريك – Theodoric"، قد خلف والـده كقائد أعلـى للقوط الشرقيين فى سنة 471م. بالرغم من أنه لم يكن قد تلقى تعليمًا كافيًا خلال السنوات العشر الأولى من طفولته التى أمضاها كرهينة فى القسطنطينية (يقال: إنه كان يوقع باسمه طوال حياته بطريقة الاستنسل بواسطة شريحة ذهبية مثقبة)، كان قد فهم البيزنطيين وأساليبهم بالغريزة، وهو ما أفاده كثيرًا فيما بعد. كان هدفه الرئيس من اعتلاء العرش، مثل كثيرين من زعماء البرابرة قبله، هو أن يجد ويضمن وطنًا دائمًا لشعبه. ومن أجل هذا الهدف كرس معظم السنوات العشرين التالية: يحارب أحيانًا من أجل الإمبراطورية وأحيانًا أخرى ضدها، يناقش ويساوم ويهدد ويداهن، إلى أن توصل فى 487م إلى اتفاق ما مع زينو. سيقود تيودوريك شعبه كله إلى إيطاليا ويخلع أودوآكر ويحكم البلاد كمملكة قوطية شرقية تحت سيادة إمبراطورية. وهكذا باكرًا، كان الخروج الكبير فى 488م: رجال ونساء وأطفال بخيولهم وحيواناتهم التى تحمل أمتعتهم ... تحركوا جميعًا ببطء عبر سهول أوروبا الوسطى بحثًا عن مراع أكثر خضرة وسلامًا. قاتلهم أودوآكر إلا أن جيشه لم يكن ندًّا لجيش القوط، فانسحب إلى رافينا، حيث حاصره تيودوريك أكثر من عامين، إلى أن رتب الأسقف المحلى هدنة بينهما. تم الاتفاق آنذاك على أن يحكم الرجلان إيطاليا معًا وأن يتشاركا القصر الإمبراطورى. كان يبدو ذلك حلاً كريمًا من قبل تيودوريك، إلا أنه اتضح بعد قليل أنه كان يريد تهدئة خصمه وجعله يشعر بالأمان مؤقتًا. لم يكن لديه أى نية للحفاظ على وعده. فى 15 مارس 493 م، دعا أودوآكر وزوجه وابنه وكبار ضباطه إلى وليمة كبيرة، وهناك بعد أن اتخذ الرجل مكانه كضيف شرف تقدم تيودوريك ليشق جسده حتى الفخذين بضربة واحدة من سيفه. أما الحراس فتكفلوا بالضيوف الآخرين.. وبالأسلوب نفسه. أُلقى بزوجة أودوآكر فى السجن حيث ماتت جوعًا، أما ابنه الذى كان قد سلمه للقوط الشرقيين، فأرسل إلى الغال ليعدم هناك. وأخيرًا، خلع تيودوريك الجلود والفراء التى كانت الرداء الرسمى لبنى جنسه وارتدى – كما لم يفعل أودوآكر – الأرجوان الإمبراطورى واستقر ليحكم روما.

كان أن قام بذلك بهدوء وكفاءة على مدى الثلاث والثلاثين سنة التالية، ويرمز الضريح الذى بناه لنفسه، بعظمته المعمارية التى تجمع بين الكلاسيكية والبربرية إلى أنه كان يهيمن على حضارتين. هذا الضريح غير العادى ما زال موجودًا فى الضاحية الشمالية

الشرقية من راڤينا. لا يوجد قائد جرمانى آخر أقام عرشه على أطلال الإمبراطورية الغربية كان يمتلك ذرة من حنكة تيودوريك ورؤيته السياسية. بموته فى 30 أغسطس 526 م، فقدت إيطاليا أعظم حكامها فى العصور الوسطى. لم يكن له مثيل حتى أيام "شرلمان – Charlemagne".

** ** **

كان المسرح الآن معدًا لظهور – ربما – أعظم أباطرة البيزنطيين بعد كونستانتين (قسطنطين) نفسه. "چستنيان – Justinian"، من مواليد 482م فى قرية صغيرة من قرى تراقيا. ينتمى إلى أصول متواضعة. كان فى السادسة والثلاثين من العمر عندما خلف عمه "چستن – Justin" الإمبراطور "أناستاسيوس – Anastasius" (87 سنة) على عرش القسطنطينية. كان چستن عسكريًا على قدر محدود من التعليم، استطاع على نحو ما أن يصبح قائدًا لقوة من قوات القصر. أما كيف استطاع الوصول إلى العرش وخلافة أنستاسيوس فيظل أمرًا مجهولاً. يبدو أنه كان هناك انقلاب ما، والأكثر ترجيحًا أن يكون لابن أخيه يد فى ذلك.

لا بد أن يكون چستنيان قد جاء إلى القسطنطينية طفلاً، وإلا لما عرف عنه أنه كان على علم وثقافة من المتعذر تحصيلهما خارج العاصمة. كان عمه سعيدًا بأن يذعن لذكائه الخارق وبأن يسمح له بأن يحكم الإمبراطورية بالفعل باعتباره صفيه ومحل ثقته (his eminence grise). كان چستنيان يقوم بذلك بمقدرة تامة على مدى عامين أو ثلاثة قبل أن يلتقى "تيودورا – Theodora" زوج المستقبل. لم تكن – مع الترفق فى وصفها – كفئًا له بأى درجة. كان أبوها سائس دببة وأمها لاعبة فى السيرك. كانت هى نفسها تبذل جهدًا كبيرًا لتحسين درجة تقبلها فى المجتمع الراقى. مفاسدها الكثيرة التى رواها معاصرها "پروكوپيوس – Procopius" فى كتابه "التاريخ السرى – Secret History" يمكن – كما نتمنى – أن نتناولها بالتفصيل[25]، إلا أنه ليس هناك شك فى أنها، على الأقل فى شبابها، «لم تكن أفضل مما كان ينبغى لها أن تكون» كما يقول أجدادنا.

عندما خطفت عين چستنيان من أول نظرة، كانت فى منتصف الثلاثينيات من عمرها، كانت جميلة وذكية، وعلى درجة من التعقل والنضج كانا مفتقدين فى السنوات الأولى. هذه العقبات فى طريق الزواج سرعان ما تم التغلب عليها، وفى سنة 525 م، أعلن البطريرك[26] زواج چستنيان وتيودورا. عندما مات چستين بعد عامين، وجدا نفسيهما الحكام الوحيدين والأعلى للإمبراطورية الرومانية. كان الجمع أو الشراكة بينهما مهمة.

كان لا يمكن أن تكون تيودورا مجرد إمبراطورة مرافقة – Empress Consort، ونزولاً على إصرار زوجها كذلك كانت تحكم "معه" وتتخذ قرارات باسمه وتشارك فى الشئون العليا. كان لا بد من أن يكون ظهورها المستقبلى على المسرح العام مختلفًا عنه فى الماضى.

لعل ذلك الصراع الرائع الذى خلفه جستنيان: الكنيسة الثالثة، أيا صوفيا (سان صوفيا – St Sophia) هى أهم ما يذكرنا به اليوم، كانت الأخريان اللتان شيدهما فى خمس سنوات بين 532 و 537م، قد التهمتهما الحرائق.[27] من إنجازاته المدهشة كذلك كان جمع وتصنيف القوانين الرومانية وتنقيتها من كل التناقضات والتأكد من عدم وجود أى تعارض مع العقيدة المسيحية وتوخى الدقة والوضوح فى الصياغة؛ على أن ما يهمنا هنا هو أن أعظم إنجازاته كان استعادته إمبراطورية الغرب. كان من الواضح جدًّا بالنسبة له أن إمبراطورية رومانية بدون روما، سيكون ضربًا من العبث، وكان من حسن حظه أن يكون أداته لذلك أبرع جنرالات التاريخ البيزنطى كله، كان مثله من أبناء تراقيا وأصبح رومانيا، اسمه «بيليزاريوس – Belisarius".

كانت المنطقة الأولى التى تم اختيارها لإعادة إخضاعها هى "مملكة الوندال – Vandal Kingdom" فى شمال أفريقيا. تلقى بيليزاريوس الأمر، وانطلقت الحملة فى أحد أيام صيف 533 م: خمسة آلاف جندى خيالة وعشرة آلاف جندى مشاة – كان نصفهم على الأقل مرتزقة من البرابرة معظمهم من قبيلة الهون – حملتهم خمسمائة ناقلة فى حراسة اثنين وتسعين درومونة.[28] قاومهم «جيلمر – Gilmer" ملك الوندال ورجاله ببسالة، إلا أن الخيالة الهون – الهمج والأكثر شراسة – كانوا أقوى منهم. فى معركتين منفصلتين قام جنود الخيالة بالهجوم وفى المرتين كان الوندال يتقهقرون ويلوذون بالفرار؛ وفى يوم الأحد 15 سبتمبر 533 م، دخل بيليزاريوس قرطاج. جيلمر نفسه لم يستسلم على الفور. ظل شاردًا فى الجبال على مدى ثلاثة أشهر فى عز الشتاء، وعندما اكتشف فى يناير 534 م أنه كان محاصرًا أرسل يطلب ضمادة ورغيف خبز وقيثارة. شرح رسوله الأمر بأنه كان يحتاج الضمادة لعينه المقروحة، والرغيف لأنه كان فى حاجة إلى خبز "حقيقى" بعد أسابيع من العيش على "عجين" المزارعين غير الخامر، أما بالنسبة للطلب الثالث "القيثارة"، فاتضح أنه كان قد كرس وقته أثناء هربه لتأليف لحن حزين يندب فيه حظه ومآله. لم يسلم جيلمر نفسه إلا فى شهر مارس.

والآن كان دور إيطاليا القوطية الشرقة. بجيش حجمه أصغر نسبيًّا – 7500 جندى بينهم عدد كبير من الهون – أبحر بيليزاريوس إلى صقلية التى استولى عليها دون

مقاومة. بعد ذلك عبر مضايق مسينى متغلغلاً دون مقاومة حتى وصل إلى ناپولى، التى – عندما استسلمت فى النهاية – كانت قد دفعت ثمنًا كبيرًا لبطولتها. كان القتل والسلب والنهب الذى حدث بعد ذلك مرعبًا، حتى بمقاييس ذلك الزمان. لم يكن الهون الوثنيون يشعرون بوخزة ضمير واحدة وهم يقومون بإحراق الكنائس التى كان الضحايا يلجؤون إليها. سرعان ما انتقلت الأخبار إلى روما، حيث دعا البابا "سلڤيريوس – Silverius"، على الفور، بيليزاريوس لاحتلال المدينة، وفى 9 ديسمبر 536 م زحف الجيش البيزنطى عبر "پورتا أسيناريا – Porta Asinaria" بالقرب من "سان چون لايتران – St John Lateran"، بينما هرب القوط عن طريق "پورتا فلامينيا – Porta Flaminia".

ولكن لو أن سلڤيريوس كان يريد بذلك إنقاذ روما من حصار آخر، فإن أمله يكون قد خاب. بيليزاريوس نفسه كان يعرف جيدًا أن القوط سيعودون، وشرع من فوره فى بناء دفاعاته، وكان ما فعله أمرًا جيدًا؛ حيث اتخذ الجيش القوطى مواقعه حول أسوار المدينة فى مارس 537 م. الحصار الذى حدث – وبدأ بقطع جميع القنوات المائية، وبذلك وجه لروما ضربة لم تفق منها على مدى ألف عام – استمر عامًا وتسعة أيام، وكان يمكن أن يستمر أطول من ذلك، لو لم تصل تعزيزات مهمة من القسطنطينية فى الوقت المناسب. حتى ذلك الحين لم يكن الصراع قد انتهى. القوط رفضوا الاستسلام تمامًا، ولمدة ثلاث سنوات أخرى كانت الحرب مستمرة على شبه الجزيرة والدمار والخراب ينتشران من أقصاها إلى أقصاها.

جاءت النهاية على نحوٍ يقول كثيرون فيه: إن جزءًا منه كان الفضل فيه يعود إلى بيليزاريوس. كان قد اقترب ببطء من راڤينا – التى كانت الآن العاصمة القوطية مثلما كانت العاصمة البيزنطية – وبحلول ربيع عام 540 م كان قد تم تطويق المدينة، برًّا بواسطة الجيش وبحرًا بواسطة الأسطول الإمبراطورى. وذات ليلة، وصل رسول سرى من البلاط القوطى يحمل عرضًا غريبًا: سوف يقومون بتسليم التاج لـ "بيليزاريوس"، على تفاهم مفاده أن يعلن نفسه إمبراطورًا على الغرب. كان الكثير من الجنرالات الإمبراطوريين يمكن أن ينتهز مثل هذه الفرصة؛ وكان من المحتمل أن يؤيده معظم جيشه، وبوجود القوط وراءه كان يمكن أن يكون أكثر قدرة على التعامل مع أى حملة تأديبية من القسطنطينية. لم يهتز ولاء بيليزاريوس، ولكنه وجد على الفور وسيلة لكى يصل بالحرب إلى نهاية سريعة وظافرة. لوح بما يعنى أن العرض قد تم قبوله، وزحف الجيش الإمبراطورى ليدخل المدينة.

ولأن النبلاء القوطيين كانوا قد وقعوا فى الأسر، فلا بد أنهم كانوا يشعرون بمرارة شديدة بسبب غدر الجنرال الذى خانهم. من ناحية أخرى لم يتأثر بيليزاريو، فقد كان عرض القوط نفسه غادرًا وخائنًا. أفلم يكونوا كلهم متمردين على السلطة الإمبراطورية؟! الحرب هى الحرب، وباحتلال رافينا - كما فعل - فقد تجنب حمام دم فى كلا الجانبين. فى مايو 540 م حملته سفينة إلى البوسفور، يمكن أن نكون واثقين من أنه كان يشعر فى قرارة نفسه بالرضا عن عمل قام به على خير وجه. بعد أن فرغ من شمال أفريقيا، كان الإمبراطور قد أنعم عليه بموكب نصر رائع. ماذا كان يمكن أن يتوقع هذه المرة بعد أن سلم شبه الجزيرة الإيطالية كلها، بما فى ذلك رافينا وروما نفسها لبدى چستنيان؟

من أسف أنه لم يكن هناك أى شعور بالانتصار فى أجواء القسطنطينية عندما عاد إليها. لا چستنيان ولا رعاياه كانوا فى حالة تسمح بالاحتفال. فى يونيو 540 م، وبعد أسابيع قليلة من سقوط رافينا، غزت قوات الملك الفارسى "خوسرويس[29] - Chos-roes" الإمبراطورية ودمرت أنطاكية وذبحت معظم أهلها وأسرت الآخرين عبيدًا. كان حضور الجنرال مطلوبًا على وجه السرعة، ليس فى الهيپودروم، وإنما على الجبهة الشرقية. لحسن الحظ، اتضح أن الملك الفارسى كان قد خرج للسلب والنهب أكثر منه للغزو، وفى مقابل خمسين رطلًا من الذهب ووعدٍ بمثلها سنويًّا، عاد سعيدًا إلى فارس. حتى بالرغم من ذلك لم يتلق بيليزاريوس مكافأته. كان سيئ الحظ بما يكفى، فقد كان مكروهًا من الإمبراطورة "تيودورا - Theodora" كذلك. فى 542 م، عندما كان چستنيان بين الحياة والموت مريضًا بالطاعون، أعفته من قيادته للشرق وسرحت جيشه وصادرت كل ثروته. فى العام التالى، بعد أن استعاد الإمبراطور عافيته بدرجة ما ليعيد تأكيد سلطاته، تم العفو عن بيليزاريوس وأصبح مرضيًّا عنه تقريبًا، إلا أنه كان قد أصبح أكثر حزنًا... وحصافة. لم يكن قد وصل إلى الأربعين من العمر عندما عاد إلى إيطاليا فى مايو 544 م.

وجد أن كل أعماله هناك كانت معطلة. من الواضح أن چستنيان كان قد أحيط علمًا بعرض القوط العرش على بيليزاريوس، وكان يخشى أن يضعف أحد خلفاء الجنرال أمام نفس الإغراء، وبناء على ذلك عهد بحكم إيطاليا إلى ما لا يقل عن خمسة جنرالات دون أن يمنح أيًّا منهم سلطة على الآخرين، وعندما وجدوا أنفسهم هكذا قاموا باقتسام المنطقة فيما بينهم وتفرغوا لنهبها. فى غضون أسابيع قليلة كانت معنويات الجيش البيزنطى قد أصبحت فى الحضيض، وأصبح الطريق خاليًا أمام صعود أكثر حكام القوط جاذبية

شخصية وأعظمهم بعد تيودوريك. كان اسمه "بوديلا – Baduila" بحسب ما كان مكتوبًا على العملة، ولكن يبدو أنه طوال حياته كان معروفًا بـ "توتيلا – Totila" وبهذا الاسم سيدخل التاريخ.

عندما اعتلى توتيلا العرش القوطى فى سنة 541 م، كان ما يزال فى أوائل العشرينيات من عمره، إلا أنه كان أكبر من سنه عقلاً وإدراكًا. لم ينس قط أن غالبية رعاياه لم يكونوا من القوط وإنما كانوا إيطاليين. فى أيام تيودوريك وخلفائه كانت العلاقات بين الإيطاليين ودية ووثيقة، ومنذ انتصارات بيليزاريوس كانت الأرستقراطية الإيطالية قد ألقت بكل ثقلها مع الإمبراطورية. كان ميل الحاكم الشاب الجديد إذن إلى الفئات الأدنى من المجتمع الإيطالى – الطبقة المتوسطة وبروليتاريا المدن والمزارعين – فوعدهم بإنهاء الظلم البيزنطى وتحرير العبيد وتفكيك الإقطاعيات والعزب وإعادة توزيع الأراضى، وألا تكون الضرائب التى يدفعونها من أجل بلاط كبير فاسد، ولا من أجل بناء قصور كبيرة بعيدة، أو لدفع أموال حماية لقبائل بربرية بعيدة لم يسمع بها أى إيطالى من قبل. كان ذلك كله ضربًا على الوتر الحساس. فى غضون ثلاث سنوات – ليس أكثر – كانت شبه الجزيرة كلها قد أصبحت تحت سيطرته، وفى يناير 544م كان كل الجنرالات الإيطاليين فى مختلف مواقعهم قد استسلموا له. بكل أدب واحترام أبلغوا الإمبراطور أنهم لن يدافعوا بعد ذلك عن الإمبراطورية فى إيطاليا. كانت رسالتهم هذه – بالتأكيد – هى التى جعلت جستنيان يعيد بيليزاريوس.

فعل بيليزاريوس كل ما كان فى وسعه أن يفعله. أدرك من فوره أنه كانت هناك انشقاقات كثيرة بين القوات الإمبراطورية – كان كثيرون لم يتسلموا رواتبهم منذ أكثر من عام – كما أدرك أن القوط لم يكونوا وحدهم المعادين للإمبراطورية. كان معظم المواطنين كذلك. كان يعرف أنه يستطيع أن يحافظ على وجود إمبراطورى فى إيطاليا بواسطة ما لديه من قوات، لكنه كان يعرف كذلك أنه لا يستطيع أن يغزو شبه الجزيرة كلها. فى مايو 545 م كتب إلى الإمبراطور شخصيًا:

> سيدى. لا بد من إبلاغكم بأن الجزء الأعظم من جيشك قد تمت استمالته وأنهم يخدمون الآن تحت راية العدو. إذا كان مجرد إرسال بيليزاريوس إلى إيطاليا هو كل ما يلزم، فإن استعداداتك للحرب تكون بارعة، أما إذا كنت تريد أن تقهر أعداءك، فلا بد من أن تقوم بما هو أكثر من ذلك، فالجنرال لا يساوى شيئًا دون ضباطه. أولاً، وقبل كل شىء، لا بد من أن ترسل إلىّ حرسى الخاص سواء الخيالة أو المشاة، ثانيًا: عددًا كبيرًا من الهون والبرابرة الآخرين، ثالثًا: الأموال التى لا بد من دفعها لهم.

لم يأت رد من القسطنطينية. فى العام التالى، وبعد حصار طويل استولى توتيلا على روما، وأرسل من فوره سفراء إلى الإمبراطور يعرض السلام على أساس التوزيع القديم كما كان تحت تيودوريك، إلا أن جستنيان رفض أن يسمع ذلك. لو فعل، لكان ذلك يعنى حذف عشر سنوات من الحملات العسكرية والسماح بهزيمة طموحاته وليس جيوشه فقط. من ناحية أخرى، لن يعطى چنراله ما كان يريده من دعم.[30] هكذا تدهور الوضع فى إيطاليا، ووصل إلى طريق مسدود، وفى أوائل 549 م صدرت الأوامر إلى بيليزاريوس، المحبط خائب الأمل، بأن يعود.

عاد ليجد الإمبراطور فى حالة من الحزن الشديد واهن العزيمة. كانت تيودورا قد ماتت بالسرطان قبل أشهر قليلة، وكان على زوجها أن يعيش الحداد عليها حتى آخر العمر. كانت هناك أزمة لاهوتية رئيسية بين يديه كذلك – من النوع الذى ظهر كثيرًا فى بيزنطة – وبينما كان ما زال مصرًا على إعادة غزو إيطاليا لم يكن الآن قادرًا على أن يعطى الأمر ما يستحقه من اهتمام. فى سنة 551 م فقط حفزته الأخبار القادمة من شبه الجزيرة على العمل. أعاد توتيلا إحياء الألعاب التقليدية فى المسرح المدرج الكبير، وكان يشرف على ذلك بنفسه من المقصورة الإمبراطورية. فى الوقت نفسه كان أسطوله يخرب كلًا من إيطاليا وصقلية، وكان قد عاد مؤخرًا إلى روما محملًا بالغنائم. كانت هذه الإهانة المزدوجة أكثر مما يحتمل. أخيرًا استقر جستنيان على أن يكون هناك جهد واحد كامل. ليس مؤكدًا أن يكون قد عرض على بيليزاريوس قيادة حملة ثالثة، فمثل هذا العرض ليس مسجلاً فى أى مكان والاحتمال الأكبر أنه كان سيرفض. كان بيليزاريوس قد فاض به الكيل. وقع اختيار الإمبراطور على «چيرمانوس – Germanus»، أول أبناء عمه ولكن چيرمانوس مات بالحمى قبل أن يبحر. اختياره الثانى كان أكثر مدعاة للدهشة: خصى أرمينى فى السبعين يدعى "نارسيس – Narses".

لم يكن نارسيس عسكريًا. كان قد أمضى معظم حياته فى القصر؛ حيث صعد ليصبح قائدًا للحرس الإمبراطورى، ولكن تلك كانت وظيفة مدنية أكثر منها عسكرية. ثم كان أن أرسله چستنيان إلى إيطاليا فى 538 م على رأس قوات لتدعيم الجيش البيزنطى أثناء محاصرة القوط لروما. كان ذلك هو السبب الظاهر، إلا أن السبب الحقيقى كان بهدف وضع عينيه على بيليزاريوس الذى كان ذكاؤه وطموحه مصدر قلق للإمبراطور. هناك، أثبت نارسيس قدرة على التنظيم وقوة الإرادة والحزم، وبعد ثلاثة عشر عامًا لم يكن قد فقد شيئًا من طاقته أو قدراته. كان نارسيس، بالإضافة إلى ذلك، يفهم إمبراطوره أكثر من أى شخص آخر، فأقنعه بسهولة أن يكون جيشًا أكبر مما كان ينوى بالنسبة

لجيرمانوس: خمسة وثلاثون ألف جندى على الأقل معظمهم من البرابرة، كما يضم عددًا من الفرس الذين كان قد تم أسرهم فى الحرب الأخيرة مع خوسرويس (كسرى).

حتى أوائل صيف 552 م لم يكن نارسيس قد بدأ زحفه على إيطاليا. كان ما زال ينقصه السفن اللازمة لنقل جنوده، فاضطر لاتخاذ طريق البر متقدمًا حول رأس الأدرياتيكى إلى رافينا، وهناك أعطى ما كان قد تبقى من القوات المحلية رواتبهم المتأخرة. بعد ذلك قادهم جنوبًا عبر الأبنين نزولاً إلى فلامينيا فى اتجاه روما، بينما كان توتيلا يتقدم شمالاً على الطريق نفسه لكى يعترض مروره. التقى الجيشان بالقرب من قرية "تاچينيا – Ta-ginae" الصغيرة لتكون المواجهة الحاسمة فى حرب كاملة. تم تطويق الجيش القوطى ودحره، وبينما كانت الشمس تميل نحو الغروب كان جنوده قد فروا هاربين. توتيلا نفسه هرب مع الآخرين مثخنًا بالجراح القاتلة ليموت بعد ساعات قليلة.

الآن، كانت كل آمال القوط قد تبددت إلا أنهم لم يستسلموا. بالإجماع، أعلنوا "تيا – Teia" - أحد أشجع جنرالات توتيلا - خليفة له وواصلوا الصراع. فى الوقت نفسه كان نارسيس يواصل تقدمه جنوبًا لتفتح المدن أبوابها أمام الغزاة واحدة تلو الأخرى. روما نفسها سقطت بعد حصار قصير – وهكذا كانت تنتقل من يد إلى يد للمرة الخامسة منذ بداية حكم چستنيان – إلا أن الخصى العجوز كان مستمرًا فى زحفه. كان توتيلا – كما نما إلى علمه – قد أودع احتياطات ضخمة من الكنوز وسبائك الذهب وجدائل الفضة فى "كوماية – Cumae" على خليج نابولى، وكان نارسيس مصممًا على أن يضع يده عليها قبل غيره. تيا، بالمثل، كان مصرًا على أن يوقف زحفه. فى آخر أكتوبر، وعلى بعد ميل أو ميلين من مدينة پومپى المنسية فى وادى "سارنو – Sarno"، التقى الجيشان للمرة الأخيرة. سقط تيا قتيلاً برمح محكم التصويب، ولكن حتى بعد أن حمل خصومه رأسه على حربة لكى يراه الجميع، لم يكن هناك تراجع: استمر رجاله فى القتال حتى مساء اليوم التالى. بموجب شروط الاتفاق الذى تم التوصل إليه، تعهد القوط بمغادرة إيطاليا، وبألا يشنوا حربًا أخرى ضد الإمبراطورية. أخيرًا تحقق طموح چستنيان الكبير.

** ** **

لا يقدم لنا التاريخ سوى أمثلة قليلة لحملات سريعة وحاسمة مثل حملة نارسيس الناجحة، التى قادها جنرال فى منتصف السبعينيات من العمر – وبالتأكيد ليس فى ذلك أى محاولة للدفاع عن الإخصاء. إلا أنه – وهذا مما يكاد لا يصدقه عقل تقريبًا – أثناء ما كان الأرمينى العجوز يزحف بجيشه على إيطاليا فى ربيع 552 م، كانت قوات حملة بيزنطية أخرى أصغر حجمًا تحت چنرال أكبر سنًا - قد رست فى إسپانيا. كان اسمه

«ليبيريوس – Liberius"، ويقول تاريخه الشخصى: إنه كان "واليًا إمبراطوريًا – Praetorian Prefect" على إيطاليا قبل ستين عامًا فى أيام تيودوريك. فى ذلك الوقت الذى نتحدث عنه، من المحتمل ألا يكون عمره إذن أقل من خمس وثمانين سنة.

كانت إسبانيا آنذاك فى أيدى القوط الغربيين – Visigoths الذين وصلوا إلى هناك أولاً – بعد قبائل بربرية أخرى كثيرة – فى عام 416 م، والذين عقدوا حلفًا مع روما فى 418 م، وافقوا بموجب شروطه على الاعتراف بسيادة الإمبراطورية. كان الوضع فى إسبانيا مثل ذلك فى إيطاليا تحت حكم تيودوريك. أرستقراطية رومانية مالكة للأراضى تعيش فى إقطاعياتها فى دعة، راضية تمامًا بالأوضاع مثلما هى – دون شك – ممتنة لبعد المسافة التى تفصلهم عن القسطنطينية مما يقلل التدخل الإمبراطورى، ربما لدرجة عدم الإدراك. بالنسبة لهم ولسادتهم من القوط الغربيين، كان أول إنذار بالعاصفة القادمة قد جاء مع تخليص بيليزاريوس شمال أفريقيا من الوندال فى 533 م وطرد حامية القوط الغربيين من ميناء سبتم – Septem (كيوتا – Ceuta الآن) فى العام التالى. كانت محاولة "تيودس – Theodis" ملك القوط الغربيين استعادتها فى 547 م قد انتهت بكارثة. تعلله بأن الرومان قد خانوهم بقيامهم بالهجوم يوم أحد بينما كان يصلى فى الكنيسة، لا يغير شيئًا من حقيقة أن جيشه هزم تمامًا. هو نفسه لقى حتفه على يد أحد الحشاشين بعد وقت قصير.

فى 551 م، وجد الملك "أجيلا – Agila" (الخليفة الثانى لـ "تيودس") نفسه أمام تمرد بقيادة "أثيناجلد – Athenagild" (أحد أقاربه)، الذى لجأ للإمبراطور لكى يساعده. هنا تحديدًا كانت الفرصة التى كان چستنيان يتحينها. أمر باقتطاع قوة صغيرة من جيش نارسيس – ألف أو ألفا جندى على الأكثر – وإرسالها إلى إسبانيا تحت قيادة ليبيريوس. واجهت القوة مقاومة بسيطة: تم شق جيش القوط الغربيين من المنتصف، وقبل وقت طويل كان ليبيريوس يسيطر على المساحة كلها جنوب خط ممتد من "ڤالنسيا – Valencia" إلى كاديز (قادش) – Cadiz، بما فى ذلك "قرطبة – Cordova". فى 555 م قتل أجيلا بيد جنوده، واعتلى أثيناجلد العرش دون معارضة.

لو أن الملك الجديد كان قد وافق على أن يحكم كتابع إقطاعى إمبراطورى، فلربما كانت الأمور كلها قد سارت على ما يرام. لم يكن ذلك فى نيته، وجعل من الواضح لـ "ليبيريوس" أنه كان يتوقع انسحابه هو وجيشه بمجرد أن يكون ذلك مناسبًا. القائد العجوز، الذى كان من الواضح أنه دبلوماسى جيد مثلما هو چنرال جيد، وافق من حيث المبدأ؛ إلا أنه استطاع أن يقنع أثيناجلد – تدريجيًا – بأن يتفاوض، وفى النهاية توصل

الاثنان إلى تفاهم احتفظت بموجبه الإمبراطورية بجزء كبير من الأراضى التى غزتها. ولكن لم يكن هناك جنود على مسافة قريبة لتشكيل حامية، كما أن خطوط الاتصال كانت طويلة على نحو خطر: وسرعان ما كان چستنيان مضطرًا للاعتراف بأن نحو 80% من شبه جزيرة أيبيريا كان خارج نطاق سيطرته. من ناحية أخرى، كان يحتفظ بجزر الباليرى – Balearic Islands، التى كانت توفر له مع كورسيكا وسردينيا (التى أعيد غزوها على التوالى بواسطة بيليزاريوس ونارسيس) قاعدة قوية فى الحوض الغربى من المتوسط، وكان يستطيع أن يباهى بأن إمبراطوريته كانت الآن قد أصبحت مرة أخرى ممتدة من البحر الأسود إلى الأطلنطى.

كان ذلك صحيحًا، ولكن القوط الغربيين استمروا يلوحون بقوتهم. استطاع أثيناجلد، الذى كان يحكم الآن من طليطلة هو وحلفاؤه أن يبسطوا نفوذهم من خلال سلسلة من الحملات الناجحة على المزيد والمزيد من البلاد إلى أن تم، فى النهاية، تصفية آخر مقاطعة إمبراطورية متمركزة فى قرطاچ فى أوائل القرن السابع. بنهاية القرن نفسه، كانت الجماعتان المنفصلتان، الرومان والقوط، اللتان كانتا تميزان إسپانيا على مدى الثلاثمائة سنة الأخيرة، لم يعد لهما وجود. فى سنة 700م، كان هناك شعب قوطى نسبيًّا، هو الذى يعيش فى شبه جزيرة أيبيريا، ولكن ما كاد يمر عقد واحد من القرن الجديد حتى دعى هذا الشعب لمواجهة عدو جديد ... مرعب.

** ** **

يعتقد أن چستنيان كان آخر إمبراطور بيزنطى يستطيع أن يتحدث اللاتينية أسهل مما يتحدث اليونانية، بالرغم من إتقانه اللغتين. بعد قرنين من قيام كونستانتين الكبير (قسطنطين الكبير) بغرس إمبراطوريته فى العالم اليونانى كان تحويل الإمبراطورية إلى الهيلنستية قد تم تقريبًا. منذ تأسيس الإمبراطورية على يد أوجسطس، كانت تتبنى كلتا الحضارتين: اللاتينية واليونانية، ومع الوقت بدأت الحضارتان فى التباعد لتتخذ كلتاهما مسارها الخاص. اليونانيون على سبيل المثال، بعد نجاتهم من أسوأ الغزوات البربرية - تفوقوا على اللاتين فى المعرفة وكذلك فى الثقافة الرفيعة، وكانوا يشعرون بهذا التفوق إلى حد كبير، ولعلهم بالجدل والخلاف جعلوا الكنيسة الشرقية فى حال اختمار مستمر؛ مما أدى إلى نمو كثير من الهرطقات والبدع الخطرة. كذلك فإن البطارقة المتوالين كانوا يفعلون ذلك مع قدر من النفور، هذا إن كانوا يعترفون بسلطة البابا أصلًا. باستثناء البابوية، من المؤكد أن الإمبراطورية البيزنطية كانت أكثر دولة ذات توجه دينى فى تاريخ المسيحية. كان القديس «جريجورى النيسوى – St Gregory of Nyssa“ قد كتب بالفعل فى القرن الرابع:

إذا سألت شخصًا عن التغيير سيرد عليك بقطعة من الفلسفة، وإن سألت عن ثمن رغيف خبز، سيرد «الآب أعظم والابن أدنى منزلة»، وإن سألت إن كان الحمام جاهزا ستكون الإجابة أن الابن جاء من اللاشىء !

فى السنوات التالية لم يكن هناك ما يشير إلى أن هذه النزعة كانت فى طريقها للانحسار، والحقيقة أن هناك من يرى أن البيزنطيين ما كان لهم أن يطوروا فنهم الروحى العميق الذى عرفه عالم البحر الأبيض، دون تلك النزعة. الجدل البيزنطى. لقد تعلم فنانوهم كيف يصورون روح الله: ربما تكون مهمة عسيرة، ولكنهم كانوا يعبرون عنها فى أيقوناتهم وفسيفسائهم ورسومهم على الجدران والسقوف مرة تلو الأخرى.

عالم البحر الأبيض الذى كان موجودًا تحت حكم جستنيان، كان مختلفًا عنه تحت حكم أباطرة القرنين الأول والثانى، يشهد على ذلك كونستانتين الكبير والغزوات البربرية. إلا أن الكثير من البيزنطيين ربما يعترضون ويؤكدون العكس. لم يكن فى إمبراطوريتهم الرومانية سوى القليل المشترك مع إمبراطورية أوجسطس ومن جاؤوا بعده. كانت القوة والسلطة والنفوذ قد غادرت روما نفسها منذ أمد؛ أما القسطنطينية فلم تكن لتستطيع بسبب موقعها الجغرافى وحده أن تسيطر على الحوض الغربى من المتوسط كما كانت روما. لم يعد البحر الأبيض المتوسط ولا الأراضى المحيطة به عرضة لقوة منفردة، لم يعد بالإمكان وصفه بأنه بحيرة رومانية، ولا بـ «بحرنا "mare nostrum"»، حتى بعد إعادة غزو جستنيان لإيطاليا. مثل هذه المزاعم الملتبسة، بهذا الخصوص، فى القرن السادس، كان لا بد من إعادة النظر فيها سريعًا، وعلى نحو جذرى.

هوامش الفصل الرابع

(1) من المثير للدهشة أن الاسم اللاتينى الأكثر شيوعًا للبحر الأبيض كان "mare nostrum"؛ أى "بحرنا". لم يسبق أن كانت هناك قوة سابقة لديها القدرة على إعلان هذا الزعم، كما لم تستطع أى قوة أن تدعى ذلك منذ تلك الأيام.
(2) المعروف أن الملك "هيرود – Herod" مات فى القرن الرابع ق.م.
(3) ربما لا تكون الكلمة الإنجليزية "Odes" دقيقة فى هذا السياق، ولعل الكلمة اللاتينية "Carmina" أكثر ملاءمة لوصف هذا الجنس الأدبى.
(4) يعتقد أن هذا العمل الفنى الرائع الذى اكتشف فى سنة 1887 فى مقابر صيدا كان لحفظ جسد "أبدالونيموس – Abdalonymous" آخر ملوك المدينة، الذى عينه الإسكندر فى 332 ق.م، ويوجد على جوانبه رسوم تصور الإسكندر فى السلم والحرب.
(5) المسرح المدرج الكبير، ويرجع تأريخه إلى أواخر القرن الأول الميلادى، ويغطى شكله البيضوى أرضًا مساحتها ستة أفدنة تقريبًا ويسع خمسين ألف مشاهد. يتناثر حول محيطه نحو ثمانين بوابة معقودة. **(المترجم)**
(6) ويضيف "ليس من السهل وصف رذائله وخطاياه بأسلوب مهذب".
(7) عبارة "فيلمون هولاند – Philemon Holland" الملهمة، الذى ترجم سيوتونيوس فى 1606م.
(8) جيبون، مرة أخرى، من الجملة الأولى من كتابه: The Decline and Fall.
(9) كان هادريان محل سخرية طوال حياته بسبب لكنته الإسبانية.
(10) يقال: إن ذلك كان إلهامًا لـ "سيسل رودس – Cecil Rhodes" على نحو خاص.
(11) الربة فستا إلهة النار. **(المترجم)**
(12) الثوب الرومانى الفضفاض. **(المترجم)**
(13) Bithynia – مقاطعة بيزنطية ممتدة من الشاطئ الآسيوى للبوسفور على الساحل الجنوبى للبحر الأسود.
(14) Constantinople – القسطنطينية فى الترجمة العربية (المترجم)
(15) فى سنة 307م، كان كونستانتين قد تخلى عن زوجته الأولى ليتزوج "فوستينا – Faustina" ابنة مكسيميان.
(16) ما زال الجسر القديم موجودًا بعد أن تم تجريده أكثر من مرة وبقى يحملُ الكثير من ملامح القرن الثانى.
(17) Di Vita Constantini, I, 28 القصة ليست دقيقة كما قد تبدو؛ هناك رواية أخرى يقدمها الباحث "لاكتانتيوس – Lactantius" تثير عدة نقاط مخادعة، وقد قمت بتقصى الأمر على نحو أكثر تفصيلًا فى كتابى: Byzantium: The Early Centuries, pp. 38: 43.
(18) مبنى فخم على الطراز الرومانى مستطيل الشكل يوجد فى أحد طرفيه محراب أو جزء ناتئ نصف دائرى. **(المترجم)**.
(19) كان ليكينيوس متزوجًا من "كونستانتيا – Constantia" أخت كونستانتين غير الشقيقة.
(20) Acts, i, 18

(21) شعب من أصل إيرانى قام فى أواخر القرن الثالث ق.م ومستهل القرن الثانى بغزو جنوب روسيا، وطرد سكان المنطقة غربًا. **(المترجم).**

(22) هذا المشهد صوره "ڤيردى – Verdi" على نحو رائع فى أوبرا "أتيلا"، بالرغم من عدم ظهور شخصية البابا ليو صراحة، وإنما فى هيئة مواطن رومانى طاعن فى السن، كما اقتضت الرقابة.

(23) بعد تدميرها فى سنة 146 ق.م بقيت قرطاج مهجورة بالفعل أكثر من قرن من الزمان، إلى أن اتخذها أوجسطس عاصمة لمقاطعته الرومانية فى أفريقيا فى القرن التاسع والعشرين ق.م.

(24) يعرف أحيانًا بـ "أودوڤاكار – Odovacar" كان Scyrian، (أحد أبناء قبيلة جرمانية مغمورة لن تزعجنا مرة أخرى).

(25) "كانت أثناء أدائها ترقد على ظهرها ممدة على الأرض ويقوم مجموعة من العبيد بنثر حفنة من الشعير على أعضائها الحميمة، ثم تأتى مجموعة من الأوز المدرب فتلتقط حبات الشعير بمناقيرها" وهذا مجرد مثال.

(26) منذ أوائل القرن السادس كان لقب بطريرك يمنح لأساقفة الكراسى المسيحية الرئيسية الخمسة: روما والإسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية وأورشليم. ولكونه بابا، كان أسقف روما نادرًا ما يستخدمه، إن كان قد استخدمه على الإطلاق. وفى الأزمنة الحديثة أصبح اللقب يمنح كذلك لرؤساء كنائس أرثوذكسية معينة (روسيا – صربيا – رومانيا – بلغاريا)، وكذلك لأسقف ڤينيسيا بسبب الارتباط التاريخى بين المدينة وبيزنطة.

(27) كان حينذاك قد بنى بالفعل الكنيسة الصغيرة الرائعة كنيسة سان سرجيوس وسان باخوس أسفل الطرف الجنوبى للهيپودروم، وكانت نموذجًا لكنيسة سان ڤيتالى فى راڤينا. وهى الآن مسجد صغير معروف بـ "سان صوفيا الصغير" أو "كشك جامع أيا صوفيا".

(28) الدرومون – Dromon وهى أصغر أنواع سفن الحرب البيزنطية وتشتهر بخفتها وسرعتها، طاقم الدرومون مكون من نحو عشرين فردًا يقومون بالتجذيف.

(29) نعرفه فى المصادر العربية المترجمة بـ "كسرى الأول" أو "خسرو أنوشروان" **(المترجم).**

(30) كان موقف الإمبراطور من بيليزاريوس ملتبسًا دائمًا. كان للغيرة دورها بالتأكيد، وللشك كذلك. لم يكن چستنيان يثق به رغم كل ما كان يبديه من مظاهر الولاء. رواية Count Belisarius التى كتبها "روبرت جريڤز – Robert Graves" تلقى الضوء على حياة الاثنين، ولذا هى جديرة بالقراءة.

الفصل الخامس

الإسلام

● العرب يزحفون: ٧٣٢ م ● النبى محمد: ٦٣٤ م ● العرب فى شمال أفريقيا: ٧٥٠م ● إسپانيا الإسلامية: ٧٢٦ م ● الخلافة الإسپانية: ٩٢٩ م ● صعود المرابطين: ١٠٨٦ م ● إسپانيا الإسلامية.

حتى الربع الثانى من القرن السابع، كانت الجزيرة العربية أرضًا مجهولة بالنسبة للعالم المسيحى. ولأنها كانت منعزلة وذات طبيعة قاسية وغير منتجة لأى شىء يغرى تجار الغرب، لم يكن لها أى إسهام فى الحضارة ولم يكن يبدو أنها ستكون كذلك. وعلى قدر ما كان معروفًا عن شعبها، كان من المتصور أن يكون أرقى قليلًا من الهمج، يقتل بعضهم بعضًا من وقت لآخر فى صراعات قبلية عنيفة، وينقضون دون رحمة على أى رحالة يجرؤ على المجازفة بالتجارة معهم، كما أنهم لم يقوموا بأى محاولة للاتحاد أو حتى قيام حكم مستقر. وبصرف النظر عن عدد قليل من المستوطنات اليهودية حول الساحل وفى المدينة، ومجتمع مسيحى صغير فى اليمن، كانت الأغلبية العظمى تمارس عبادة عدة آلهة بدائية، كانت تبدو فى مدينة مكة – مركزهم التجارى – مركزة على الحجر الأسود، الكعبة القائمة فى معبدهم الرئيسى. لم يكونوا مهتمين بالعالم الخارجى ولم يكن لهم أى تأثير، والمؤكد أنه لم يكن يمثل أى خطر عليهم.

ثم – فى لمحة بصر – تغير كل شىء. فى سبتمبر 622 م، هاجر النبى محمد وأتباعه من مكة المعادية له إلى المدينة المرحبة به، وكانت تلك نقطة البداية للعهد الإسلامى كله؛ فبعد خمس سنوات لا غير، فى 633 م، مبدين انضباطًا ووحدة هدف لم تكن تبدو عليهم من قبل أى دلائل لها فاجأت خصومهم تمامًا، تدفق أتباعه خارجين من الجزيرة العربية. بعد عام، عبر جيش عربى الصحراء وهزم الإمبراطور البيزنطى «هيراكليوس – Heraclīus" (هرقل) على ضفاف نهر اليرموك؛ بعد ثلاث سنوات استولوا على دمشق، وبعد خمس على أورشليم، وبعد ثمان كانوا يسيطرون على كل سوريا وفلسطين ومصر. وفى غضون عشرين سنة، كانت كل الإمبراطورية الفارسية، حتى "أوكسس – Oxus"، قد سقطت أمام السيف العربى، وفى خلال ثلاثين سنة أخرى كانت أفغانستان ومعظم البنجاب.

بعد فترة قصيرة حول الغزاة اهتمامهم نحو الغرب لتثبيت أقدامهم؛ ولأن الإمبراطورية البيزنطية، لم تكن عقبة هينة – لم يحاولوا التقدم فى آسيا الصغرى – سلكوا الطريق الأطول – ولكن الأسهل – على امتداد الساحل الجنوبى للمتوسط. لم يستغرق غزو مصر سوى عامين، من 639 – 641 م، ثم تباطأ حيث كانت إدارة مصر بعد الغزو تمثل مشكلات كثيرة، ولولا مساعدة السكان المحليين – الأقباط واليهود والسامريون واليونانيون – لما استطاع العرب غير المحنكين أن يفرضوا سلطانهم.

وهكذا لم يتمكنوا من الوصول إلى الأطلنطى قبل نهاية القرن؛ وفى 711م فقط، كانوا قد أصبحوا قادرين على عبور مضايق جبل طارق إلى إسپانيا؛ إلا أنهم بحلول عام 732م، بعد أقل من قرن من خروجهم من وطنهم الصحراوى، شقوا طريقهم فوق جبال "البرانس – Pyrenees"، واندفعوا – بحسب الرواية – إلى "تورس – Tours"؛ حيث أوقفهم الملك الفرنجى "شارل مارتل – Charles Martel" على بعد مائة وخمسين ميلًا فقط من باريس، فى معركة ألهمت "جيبون – Gibbon" واحدة من أشهر شطحات خياله:

> **انتشر خط زحف منتصر على ألف ميل من صخرة جبل طارق إلى شواطئ «اللوار – Loire"؛ كانت مسافة مماثلة يمكن أن تحمل "العرب المسلمين (السراسنة The Saracens" إلى تخوم پولندا ونجاد اسكتلنده؛ "الراين The Rhine" ليس أكثر وعورة من النيل أو الفرات، وكان يمكن أن يبحر الأسطول العربى فى مصب "التيمز The Thames" دون قتال بحرى. ربما كنا لنجد تفسير القرآن يدرس الآن فى مدارس أكسفورد، وتلاميذها يشرحون لشعب مختتن قدسية وصدق الوحى الذى نزل على محمد.**

يسارع المؤرخون المحدثون للإشارة إلى أن موقعة تورس نادرًا ما يذكرها المؤرخون المعاصرون أو شبه المعاصرين، وإن ذكروها فإن ذلك يكون باعتبارها حدثًا ضئيل الأهمية نسبيًا، كما أن أدلة أولئك الكُتاب توحى بأن العرب الذين واجههم شارل مارتل، كانوا مجرد جماعة قامت بإغارة أمام الجيش الرئيسى بمئات الأميال، وأن ما يطلق عليه «موقعة» لم يكن فى حقيقة الأمر أكثر من مناوشة استطالت إلى حد ما. على أية حال، فإن نظرة على الخريطة ستبين لنا أن الخطر الإسلامى الحقيقى على أوروبا سيكون من الشرق، وهو الطريق الأقصر والأسرع بالنسبة لجيش كان بالفعل قد هزم المشرق هزيمة ساحقة. لم يكن الفضل لـ «شارل» ومن معه من الفرنجة، وإنما للمدافعين الشجعان عن القسطنطينية تحت كونستانتين الرابع فى 674 – 678 م، وليو الثالث فى 717 – 718 م، الذين حافظوا على كل من المسيحية الشرقية والغربية.

بالرغم من ذلك، فإن التاريخ يقدم لنا نظائر قليلة لمثل قصة الغزو أو التأسيس الهائلة هذه؛ إذ فى أقل من مائة عام كانت هناك إمبراطورية تمتد من الهملايا إلى البرانس. بالنسبة لهذه الظاهرة، فإن التفسير المعتاد هو أن العرب كانت تحملهم موجة حماسة دينية عارمة؛ ومن الجدير بالذكر أن هذه الحماسة لم يكن يشوبها أى اندفاعات تبشيرية. لم يكن القادة المسلمون يعتبرون أنفسهم قط مختارين لغزو العالم باسم الإسلام. القرآن

أحل القتال دفاعًا عن النفس ولكنه لم يقره كهدف فى حد ذاته، أضف إلى ذلك أنه نص بوضوح على أن «لا إكراه فى الدين»، فاليهود والمسيحيون كذلك «أهل كتاب».

ما جاء به الدين الجديد كان - قبل كل شىء - الشعور بالأخوة والوحدة. فى السابق، كانت القبائل العربية المختلفة فى حالة قتال مع بعضهم البعض. الآن كلهم «عباد الله»، وهذا بدوره جمع بينهم برباط قوى من الثقة بالنفس. كانوا مقتنعين تمامًا بأن الله معهم، حتى لو كانت مشيئته أن يموتوا فى القتال، فسوف يلقون جزاءهم الفورى فى الجنة – وهى جنة حسية، متعها الموعودة – لا بد من أن نعترف – أكثر إغراء من نظيرتها فى المسيحية. ومن ناحية أخرى، كانوا مستعدين لأن يعيشوا فى هذه الحياة الدنيا معيشة زهد وتقشف لم يعهدوها من قبل، مع طاعة تامة تتجلى فى الصلاة والصيام واجتناب الخمر.

لم يقم مؤسس دينهم بقيادة حملة خارجية قط. محمد المولود فى 570 م تقريبًا، الذى عاش اليتم فى طفولته ثم تزوج أرملة غنية أكبر منه سنًّا، كان مزيجًا نادرًا من الصوفى الحالم ورجل الدولة الذكى بعيد النظر. بصفته الأولى، نادى أولاً بواحدنية الله وثانيًا بأهمية خضوع البشرية التام والإسلام له ولمشيئته. لم تكن تلك عقيدة جديدة تمامًا – كلاهما، اليهود والمسيحيون كانوا يتبعونها على مدى قرون – ولكنها كانت تبدو كذلك لأولئك الذين كانوا يسمعون بها لأول مرة؛ فقد كانت براعة محمد فى تقديمها فى شكل جديد شعبى، فى ثوب من الحكمة وتراث ومعارف الصحراء وبلاغة موسيقية، وكل ذلك فى مجموعة من الإلهامات التى عرفت بعده بـ «القرآن». كان بالغ الذكاء لأسلوبه الذى ربط به وبين اسمه وشخصه والعقيدة التى جاء بها، بالرغم من أنه كان يعتبر نفسه مصلحًا أكثر منه ثائرًا: ليس بإسباغ الألوهية على نفسه كما فعل المسيح، وإنما بتقديم نفسه كآخر وأعظم الأنبياء من قبله، بمن فيهم المسيح.

أن يكون نبيًّا، لم يكن يعنى أن يكون لاهوتيًّا، ولعل الفارق البين بين محمد والمسيحيين الذين كانوا أتباعه ليغزوا أراضيهم بعد وقت قصير، كان عدم اكتراثه بالتأمل اللاهوتى. كان يجد المجادلة حول الأفكار الجامدة المستغلقة (مثلما كان يفعل الإغريق) أمرًا غير مجد، وذلك بالأساس لأن صدقها أو زيفها كان من المستحيل إثباته. الإسلام كما يصفه «اى. إم. فورستر – E. M. Forster“: ”ترك ذلك كله باعتباره سقط متاع غير ضرورى، لا يؤدى سوى إلى إبعاد المؤمن الحقيقى عن ربه“. كان الأهم من ذلك كله أسلوب حياة المرء فى المجتمع، أن يكون متمسكًا بالعدل والإنصاف والعطف على أقرانه، محافظًا على توزيع عادل ومعقول للثروة. كان لدى محمد حماسة روحية كبيرة ولكنه لم يكن متعصبًا، ومثل المسيح لم يأت ليهدم وإنما لكى يُعمِّر. كان يفهم الناس الذين

يعيش بينهم تمامًا، كما كان دائمًا حريصًا على ألا يجبرهم على أكثر مما كانوا مستعدين لفعله. كان يعرف مثلًا أنهم لن يتخلوا عن تعدد الزوجات فأبقى عليه، واتخذ هو نفسه أكثر من زوج بعد موت الأولى. كانت العبودية جزءًا آخر لا يتجزأ من حياة الجزيرة، وذلك أيضًا سمح به. كان حتى على استعداد للتوصل إلى تفاهم مع الدين الأرواحى القديم؛ ومنذ 624 م قضى بأن تكون مكة هى قبلة الصلاة بدلاً من أورشليم كما كان الأمر فى السابق. لم يتوقف عند تأكيد أحد الجوانب الجديدة – غير المحببة – من العقيدة، وهو حتمية الحساب الإلهى بعد الموت، وغالبًا ما كان يبدو أنه يصف عذاب النار بقوة أكثر من متع الجنة. هذا الخوف من العقاب ربما اتضح أنه كان مفيدًا عندما قرر أن يجمع بين أتباعه فى دولة سياسية.

مات محمد بالحمى فى مكة – التى كان قد عاد إليها منتصرًا – فى الثامن من يونيو سنة 632م. انتقلت القيادة الدينية والسياسية لشعبه إلى صديقه الصدوق أبو بكر، الذى حمل لقب خليفة رسول الله. فى العام التالى زحفت جيوش المسلمين. إلا أن أبو بكر الذى كان كبير السن، مات بدوره فى 634م – فى شهر مارس كما يقال، ويوم الاستيلاء على دمشق – وكان تحت الخليفة الثانى عمر أن بدأت سلسلة الانتصارات التاريخية. من زاوية معينة، كان الحظ إلى جانب العرب؛ لم تكن الشعوب المسيحية فى مصر وشمال أفريقيا وفلسطين تشعر بولاء حقيقى للإمبراطور فى القسطنطينية؛ إذ كان يمثل ثقافة يونانية/ رومانية غريبة، كان عدم تعاطفها مع بدعهم العديدة يؤدى إلى اضطهاد من وقت لآخر. بالنسبة للكثير منهم، كان المد الإسلامى المكون من ساميين مثلهم يعترف بتوحيد لا يختلف عن توحيدهم، كما يعد بالتسامح مع تنوعات العقيدة المسيحية، ولا بد أنه كان يبدو بالنسبة لهم أفضل من النظام الذى أزاحه.

** ** **

قبل الغزو الإسلامى كان شمال أفريقيا جزءًا من الإمبراطورية البيزنطية تحميه بحريتها، ومن ثم كان بالنسبة للعرب أرضًا معادية لا بد من الاستيلاء عليها. لم تكن مقاومة مصر كبيرة. لم يكن مع القائد العربى عمرو بن العاص[1] سوى أربعة آلاف مقاتل عندما غزا البلاد فى مطلع ربيع 640م، بعد عامين ونصف العام قامت الإمبراطورية – طواعية – بتسليم مدينة الإسكندرية العظيمة، أكثر مدن المتوسط مهابة، التى كان الإسكندر المقدونى قد شيدها، وكانت مقر كرسى أحد بطاركة المسيحية الشرقية الأربعة ما يقرب من ستة قرون. ما كان للإسكندرية أن تستعيد مجدها الغابر.[2] فى طريق عودته من الدلتا جنوبًا، أنشأ عمرو حامية الفسطاط نواة القاهرة الحديثة، أما إنجازه

الآخر فكان تطهير القناة المنسابة من النيل شرقًا إلى «القلزم – Klysma“، المرفأ البيزنطى السابق الذى يبعد نحو ميل تقريبًا عن السويس الحديثة، فاتحًا بذلك الطريق لمرور السفن المحملة بالقمح من وادى النيل إلى البحر الأحمر والجزيرة العربية.

فى زحفهم الأول، لم يكن لدى المسلمين أسطول – كان القليل منهم هم الذين سبق لهم أن رأوا البحر[3] – ولكن سرعان ما أدركوا أنه إذا كان لهم أن يوصلوا هذه القوة الدافعة، فلا بد لهم من أن يجيدوا فنون الملاحة. ومثلما كان الرومان يستخدمون اليونانيين لتسليح سفنهم كلما كان ذلك ممكنًا، كان العرب يجدون بين مسيحيى مصر وسوريا بناة سفن جيدين وبحارة مهرة، استطاعوا بمساعدتهم – تدريجيًّا – إنشاء أحواض لبناء السفن وتجهيزها، ومن ثم بناء أسطول قوى للحرب والتجارة، إلى أن أصبحوا قادرين على تحدى التفوق البحرى لبيزنطة نفسها. بحلول سنة 655م، كانوا قد شنوا غارات على قبرص وكريت ورودس وصقلية؛ وبعد أن قام المسلمون بتدمير القوة البحرية الرئيسية لبيزنطة، التى كان يقودها الإمبراطور «كونستانس الثانى – Constans II“ شخصيًّا، بالقرب من شواطئ ”ليسيا – Lycia“ فى تلك السنة نفسها، لم يكن مؤكدًا ما إذا كان ميزان القوة البحرية فى المتوسط سيعود كما كان. لحسن الحظ، كان البيزنطيون قد طوروا سلاحهم السرى الأكثر تأثيرًا – النار الإغريقية Greek Fire، التى كانت تنطلق من مقدمات سفنهم على شكل ألسنة كبيرة من اللهب. بفضل ذلك فحسب، استطاعت الإمبراطورية الاحتفاظ بقدر من السيطرة.

كان هناك بالإضافة إلى ذلك سبب آخر لبطء زحف العرب بعد غزو مصر. وكما يعرف جيدًا كل من قطع الستة الآلاف ميل بين بنغازى وطرابلس، فإن الصحراء هناك جرداء بلا ملامح أو معالم، والطريق يبدو بلا نهاية، والمؤكد أنه لم يكن يفى بأى فرصة للغنم أو السلب والنهب، ولذا لم يكن مغريًا للجيش العربى. كانت المنطقة كذلك مرتعًا لقبائل متناحرة. عاجلًا أو آجلًا ستكون مهمة المسالمة والغزو ماثلة، ولكن أزمة سياسية فى المدينة أجلت القرار الحاسم، كما أن قيام الإمبراطورية الأموية[4]، مع ما تبع ذلك من نقل كرسى الحكم إلى دمشق فى 661م، كان سببًا فى المزيد من التأخير. لم يبدأ الزحف الكبير إلا فى 667م، وبعد ثلاث سنوات أسس قائده عقبة بن نافع قلعة القيروان الكبيرة فيما يسمى اليوم تونس. على مسافة أبعد فى اتجاه الغرب واجه مقاومة شديدة من كل من البيزنطيين وقبائل البربر المسيحية، وفى 692م، بعد إرسال جيش آخر من قبل الخليفة عبد الملك، قوامه نحو أربعين ألف مقاتل، استؤنف الزحف. فى 693م سقطت قرطاج بالرغم من انتفاضة كبيرة لملكة – كاهنة غامضة، تدعى الكاهنة – Al Kahina (كأنها

شخصية خارجة من كتب رايدر هاجارد – Rider Haggard)، وهجوم برى – بحرى بواسطة جيش بيزنطى. هزم كلاهما فى النهاية، إلا أن الكاهنة واصلت حرب العصابات حتى سنة 701م. لم يتخذ العرب من قرطاج عاصمة لهم، فميناؤها كان عرضة للهجوم من البحر. قاموا بدل ذلك ببناء قلعة حصينة فى تونس، تصل بحيرة داخلية بالساحل، وهنا ستكون نقطة الانطلاق لإزعاج وتهديد سردينيا وصقلية وقبرص وجزر الباليرى. تواصلت الإغارات على تلك الجزر كلها – وغالبًا ما كانت تنتهى باحتلال مؤقت – حتى سنة 750م تقريبًا، عندما اشتدت المقاومة البيزنطية فجأة، ووجد العالم الإسلامى نفسه أمام أمور أخرى كثيرة جديرة بالتفكير فيها، كما سنرى لاحقًا.

من قرطاج، تسارع الزحف مرة أخرى فى اتجاه الغرب، وبعد أن أصبح الساحل كله من مصر إلى الأطلنطى فى أيديهم، بدأ العرب يفكرون جديًا فى إسبانيا؛ حيث الأرض أكثر غنى وخصبًا من تلك التى حاربوا طويلًا وبمشقة لكى يغزوها، والبلاد تعد بمكاسب هائلة. فى تلك اللحظة تحديدًا كانت المملكة القوطية الغربية الهرمة تذوى. نظريًا، كان عرشها دائمًا محل نزاع ودعوة مفتوحة للنبلاء الطموحين والصراع على الخلافة عليه. بعد سنوات من الاضطهاد كان المجتمع اليهودى الكبير هناك على شفا ثورة والاقتصاد مدمرًا. كانت إسبانيا - باختصار شديد - فاكهة ناضجة حان قطافها. فى 710م، تسلل ضابط عربى يدعى "طريف – Tarif"، ومعه جماعة استطلاع قوامها نحو خمسمائة رجل بالتسلل عبر المضايق واحتلال الحافة الجنوبية من شبه جزيرة أيبيريا؛ حيث ما زالت مدينة طريف (التى تحمل اسمه موجودة هناك). عادت السفن محملة بالغنائم... فكان أن اتخذ المسلمون القرار. فى العام التالى، أبحر طارق بن زياد من طنجة بجيش قوامه نحو تسعين ألفًا من البربر؛ ليرسوا هذه المرة فى ظل صخرة هائلة تخلد هى الأخرى اسمه إلى اليوم.[5]

بعد رسو طارق، وقعت معركة بالقرب من نهر «الجواداليت – Guadalete"، كانت كافية لسحق مقاومة القوط الغربيين، رغم ما يقال من أنها لم تستمر سوى أسبوع. بعد أن دفع بمفارز صغيرة من قواته لاستلام "ملقه – Malaga" و"مرسيا – Mur-cia" و"قرطبة – Cordova"، اتجه طارق إلى العاصمة "طليطلة – Toledo"، التى وجدها مهجورة من سكانها باستثناء اليهود. هنا، كانت غنائم كثيرة فى انتظاره بما فى ذلك – إن كان لنا أن نصدق رواية المؤرخ العربى "ابن الأزهرى Ibn Adhari" – مائدة سليمان المرصعة باللؤلؤ والياقوت الأزرق والأحجار شبه الكريمة على شكل دوائر متحدة المركز، كما وجد مجوهرات الإسكندر الأكبر وعصا موسى وأردية ملوك

القوط. ترك طارق اليهود يديرون الأراضى التى استولى عليها، وواصل زحفه شمالًا نحو "قشتالة – Castile" و"أستورياس – Asturias" و"ليون – Leon". كان يمكن أن تكون سرعة تقدمه أكبر، لولا أن الجيش "المورسكى – Moorish" كان محل ترحيب بشكل عام، كما كانت الأغلبية العظمى من المسيحيين المحليين سعداء بقبول سيادة أولئك الغزاة المتسامحين، وكان الكثير منهم يرون القادمين الجدد أفضل بمراحل من سابقيهم، القوط الغربيين.

وصلت أخبار انتصارات طارق إلى قائده الأعلى موسى بن نصير، الذى جاء إلى شبه الجزيرة فى يونيو أو يوليو 712م على رأس جيش من نحو ثمانين ألف رجل، كان معظمهم هذه المرة من العرب. اتخذ ابن نصير – عن عمد – طريقًا مختلفًا عن طريق سلفه حيث رسا عند "الچيسيراس – Algeciras" واستولى على "هيلڤا – Huelva" و"إشبيلية – Seville" قبل أن يلتقى بطارق فى طليطلة. العام التالى انقضى معظمه فى الاندماج وتثبيت قواعدهما، ثم استولت القيادة المشتركة على برشلونة فى 714م وعبرت "البرانس – Pyrenees" متقدمة فى وادى "الرون – Rhône" حتى "أڤينون – Avignon" و"ليون – Lyon"، وهنا سيتوقفون. كان طموح موسى بن نصير الرئيسى هو التقدم شرقًا إلى دمشق عن طريق القسطنطينية، إلا أنه أدرك أن ذلك كان مستحيلاً الآن. كانت المقاومة تشتد وخطوط الاتصال طويلة، فلم يكن أمامه سوى العودة إلى إسبانيا – حيث كان عازمًا على تقديم تقريره إلى الخليفة – ثم إلى أفريقيا. فى ذلك الشتاء نفسه، نقل مسئولية الأراضى المستولى عليها إلى ابنه عبد العزيز فى إشبيلية. بينما تقدم هو وطارق فى موكب أبهة وبطانة ضخمة تضم عددًا كبيرًا من القوط الغربيين الأسرى وعددًا كبيرًا من العبيد – ناهيك عن الذهب والفضة والأحجار الكريمة – على امتداد الساحل الشمالى الأفريقى مرورا بمصر وفلسطين، إلى دمشق. من أسف، كان أن مات الوليد عندما وصلا، وكان هو الخليفة الذى وافق على حملات إسبانيا. لم يكن انطباع خليفته سليمان إيجابيًا، فكانت خيبة أمل كبيرة.

** ** **

غزت الجيوش العربية فرنسا ثلاث مرات – فى 716 و 721 و 726م – ولكنها لم تتجذر هناك قط. كانت تقوم بالعمل المنوط بها فحسب؛ وتحت اسمها العربى "الأندلس"، أصبحت إسبانيا – أو الجزء الأكبر منها – جزءًا من الإمبراطورية الأموية. لن تعود كما كانت قط. من ذلك الحين، سوف تأوى البلاد ثلاثة شعوب مختلفة تمامًا (العرب واليهود والمسيحيون) فى الجنس والدين واللغة والثقافة. بكل تأكيد، سوف يؤثرون بعضهم فى

بعض، ويتفاعلون معًا بأساليب لا حصر لها وسيكون ذلك فى صالح ثلاثتهم، على مدى سبعمائة وخمسين عامًا هى عمر الاحتلال الإسلامى؛ وعلى مدى معظم – إن لم يكن كل ذلك الوقت – سوف يتعايشون فى وئام وأحيانًا فى وئام تام.

المشكلات التى حدثت جاءت بالأساس من داخل صفوف المسلمين. ارتكب عبد العزيز بن موسى بن نصير الخطأ الرئيسى بزواجه من ابنة "رودريجو – Rodrigo" القائد الأعلى للقوط الغربيين، وتحت تأثيرهم تم إغراؤه بأن يتقلد تاجًا على الطريقة المسيحية. أثار ذلك حفيظة أتباعه المسلمين وأغاظهم فقتلوه، وبعدها عمت الفوضى؛ وعلى مدى الأربعين سنة التالية سوف يتعاقب على الأندلس ما لا يقل عن واحد وعشرين حاكمًا. كان يمكن أن تتفسخ تمامًا لولا أن حدث تطور مثير لم يكن أحد يتوقعه أو يتصوره. سقطت الخلافة الأموية فى سنة 750م وقتل مروان الثانى آخر خلفاء بنى أمية، كما قُتل كل أفراد أسرته فى وليمة تذكرنا بتلك التى كان تيودوريك قد دعا إليها أسرة أودوآكر قبل قرنين ونصف القرن؛ وصعدت أسرة جديدة – العباسيون – لتحكم فى بغداد. أمير واحد فقط من أمراء بنى أمية، هو عبد الرحمن[6] البالغ من العمر تسعة عشر عامًا، كان هو الذى تمكن من الهرب. بعد تجواله مستخفيًا لمدة خمس سنوات فى فلسطين ومصر وشمال أفريقيا، رسا فى إسپانيا فى 755 م ليجد البلاد كلها فى حالة فوضى شاملة. لم يجد صعوبة فى أن يكون حاكمًا لها. فى العام التالى، وكان ما يزال فى السادسة والعشرين نودى به رسميًّا أميرًا على الأندلس، وكانت الأسرة التى أسسها لتحكم إسپانيا الإسلامية على مدى ثلاثمائة عام تقريبًا.

لم يكن هناك إجماع على عبد الرحمن. كانت هناك ثورات عديدة فى إسپانيا، ثم كانت أكبر وأخطر الأزمات عندما استطاعت مجموعة من الثوار الإسپان إقناع الملك الفرنجى «شارل الأكبر – Charles the Great" (شارلمان – Charlemagne) فى 778 م أن يحاربه. بسرعة، قام شارل باحتلال "پامپلونا – Pamplona"، إلا أنه – لحسن حظ الأمير – لم يكد يبدأ حصارًا على "سرقسطة – Saragossa"، حتى غير رأيه. يبدو أنه – لسبب ما – وجد الأمر لا يستحق، فأصدر أوامره بالعودة بذريعة وجود مشكلات لديه فى الداخل. فى 15 أغسطس، فى طريق عودته عبر البرانس، فوجئت قوة مؤخرته التى كان يقودها "رولاند، ماركيز بريتنى – Roland, Marquis of Brit-tany"، بقوة مشتركة من المسلمين والباسك فى ممر "رونسسڤال – Roncesvalles" الضيق. لم ينجح أحد فى أن يهرب، وكل ما بقى هو اسم رولاند باعتباره بطل إحدى الملاحم الأولى فى الأدب الأوروبى الغربى.

ستكون سنوات عبد الرحمن التالية أكثر هدوءًا. لم ينجح فى فرض وحدة سياسية على إسپانيا، ولكنه كان حاكمًا حصيفًا ورحيمًا وعميق الثقافة. أحدث تحولًا كبيرًا فى عاصمته قرطبة وبنى فيها قصرًا رائعًا وحديقة خلابة - والأهم من ذلك كله – المسجد الكبير الذى أصبح بعد اكتماله أروع مساجد العالم، وما زال موجودًا إلى اليوم.[7] كان عبد الرحمن كذلك شاعرًا ذائع الصيت كتب بإحساس وحنين شديد عن الوطن السورى الذى قد لا يراه مرة أخرى. ورث حبه للثقافة حفيد لابنه وخليفته الثالث عبد الرحمن الثانى الذى – حكم لمدة نصف قرن تقريبًا من 912 إلى 961م – ملأ بلاطه بالشعراء والموسيقيين والعلماء بالإضافة إلى توسيع مسجد جده الكبير، وبناء مساجد أخرى فى «جاين – Gaen" وإشبيلية. كما استورد كمية كبيرة من سلع الترف من الشرق وجلب الفنانين والحرفيين والصناع المهرة، ويقال: إنه هو الذى أدخل فن التطريز إلى البلاد وكان أول من سك عملته من الأمراء. كانت قرطبة فى عهده أكثر مدن أوروبا ثقافة. فى 940م جاء آخر تكريم له: وصلت بعثة دبلوماسية من القسطنطينية محملة بالهدايا، تعرض عليه التحالف ضد العباسيين، عدوهم المشترك.

ولكن العباسيين كانوا بعيدين، وبنقلهم عاصمتهم من دمشق إلى بغداد كانوا قد غيروا طبيعة الخلافة جذريًا. لم تعد الدولة العباسية إمبراطورية متوسطية، بوجود مركزها الآن فى قلب آسيا، لم تكن مهتمة كثيرًا – أو مهتمة على الإطلاق – بشؤون أوروبا أو البحر الأبيض. على مدى القرون السبعة التالية – حتى الاستيلاء على القسطنطينية فى 1453 م، سيكون تأثيرها فى الغرب ضئيلًا حيث سيكون مسلمو شمال أفريقيا وإسپانيا متروكين لإرادتهم إلى حد كبير. الفئة الأولى (مسلمو شمال أفريقيا) كانوا يطورون بحريتهم، على نحو خاص، بصفة دائمة، إلى أن أصبحوا يتصدرون القوة البحرية فى المتوسط فى النصف الأول من القرن التاسع، وذلك بالرغم من أن البيزنطيين كانوا يمثلون منافسة شديدة، وبالتأكيد لم يتركوهم يفعلون كل ما يريدون. والواقع أن الموازين انقلبت بعد اعتلاء الإمبراطور "بازيل الأول – Basil I" السلطة فى 867 م: أصبحت قوى الإسلام فى موقع الدفاع مرة أخرى.

فى سنة 929م، اتخذ عبد الرحمن الثانى لنفسه لقب "خليفة"[8]، ومنذ ذلك الحين لم تعد إسپانيا الإسلامية، التى أصبح لها خليفتها الخاص بها، تؤيد العباسيين حتى ولو بالكلام. هذه الخلافة الجديدة كان عليها أن تواجه كمًا من المشكلات يفوق طاقتها، إلا أنها من ناحية أخرى كانت متألقة ثقافيًا وفنيًا، كما تدل على ذلك آثارها الباقية التى ما زالت تبهرنا إلى اليوم. تم توسعة وتجميل المسجد الجامع الأول لعبد الرحمن على أيدى

الحكام المتعاقبين فى القرنين التاسع والعاشر، وفى 950م أهداه عبد الرحمن الثالث مئذنة جديدة طولها 240 قدمًا. وهناك فى إشبيلية الكازار – Alcazar، ذلك المبنى الرائع من القرن الثانى عشر، الذى سيصبح فى 1353 م قصرًا لـ "بِدرو – Pedro the Cruel"، و"الجيرالدا – Giralda" التى يبلغ ارتفاعها ثلاثمائة قدمًا، التى بنيت بين 1172 و 1195م لتكون مئذنة ومرصدًا. وفى غرناطة، ذلك التجمع المذهل من القصور المعروفة بالحمراء – Alhambra مع القصر الصيفى وحدائق الجنراليف – Generalife على التل فوقها، كل ذلك ما زال باهرًا مثيرًا للدهشة. هنا بكل تأكيد يكمن الإنجاز العبقرى لكل إسبانيا الإسلامية.[9]

** ** **

ربما كانت روعة العمارة هى التى أدت – إلى حد ما – إلى عمليات التحول الكثيرة المعروفة. نادرًا ما يتخلى اليهود عن تراثهم، ونادرًا كذلك ما كان المسلم يسعى إلى المعمودية المسيحية، ولكن على امتداد الاحتلال العربى – وبخاصة فى المدن والبلدات بين منتصف القرن التاسع وأوائل القرن العاشر تقريبًا – اعتنق عشرات الألوف من المسيحيين دين غزاتهم طواعية، كما اتخذ معظم من احتفظ بدينه منهم العربية لغة لهم فى تعاملاتهم اليومية. إلى يومنا هذا، تحتفظ اللغة الإسبانية الحديثة بعدد كبير من الكلمات العربية، كما أن زائر إسبانيا سوف يدهشه ذلك الكم من أسماء الأماكن التى ما زالت باقية. انتشرت أيضًا الثقافة العربية طولًا وعرضًا فى أرجاء البلاد. احتفظت الأندلس بشبكة تجارية واسعة مع شمال أفريقيا والشرق الأدنى وامتدت – حتى – إلى الهند وفارس، فلم يكن يصل إليها الحرير والتوابل (وبخاصة الفلفل والزنجبيل) والأرز وقصب السكر والموالح والتين والباذنجان والموز فحسب، بل وصلت كذلك أساليب العمارة والسيراميك والخط والموسيقى والرياضيات والفلك والطب.

لم تكن المعارف الجديدة الواسعة، بالطبع، مقصورة على العالم الإسلامى. كثير من المسيحيين الذين تأسلموا ظاهريًا، كما قد يبدو، كانوا عاجلًا أو آجلًا يجدون طريقهم إلى الأراضى المسيحية فى الشمال والشمال الشرقى إلى «جاليسيا – Galicia" و"نافار – Navarre" و"قطالونيا – Catalonia"، حاملين معهم ثقافتهم. هؤلاء "المستعربون – Mozarabs"، كما كان يطلق عليهم، كان لهم تأثير باق فى الشمال المسيحى على كلا جانبى البرانس – وفوق كل شىء فى مجال الرياضيات التى كانت مسيحية العصور الوسطى ما زالت تجهلها. كانوا هم – كما يعتقد – الذين أدخلوا الأرقام العربية إلى أوروبا الشمالية، إلى جانب "المعداد[10] – abacus" وهو الجهاز الذى كان له تأثير

كبير فى الحياة التجارية يمكن مقارنته بتأثير الحاسب الآلى فى حياتنا الحديثة.

سياسيًّا، كانت العلاقات بين مسيحيي الشمال ومسلمى الجنوب أقل تحديدًا. لم تكن واضحة المعالم تمامًا. انتهت الخلافة فى 1031 م وتبعها عدد من الدويلات التى عرفت بـ "الطوائف"، التى كان كل منها يتكون عادة من مدينة رئيسية والريف المحيط بها. لم تكن تختلف كثيرًا عن المدينة – الدولة التى انتشرت فى الشمال الإيطالى فى الوقت نفسه تقريبًا. ومثل الإيطاليين، كانوا يتنازعون كذلك فيما بينهم، بما كان يسمح للممالك المسيحية القوية فى "أراجون – Aragon" و"قشتالة – Castile" بأن توقع بينها وتستخدمها ضد بعضها الآخر، أو أن تفرض ما كان يعتبر بالفعل عمليات حماية تقدم العون العسكرى مقابل جزية سخية. هنا، كانت أرض خصبة لكثير من الجنود المرتزقة الأشبه بـ "الكوندوتييرى[11] – Condottierie" الإيطالية الذين كانوا يبيعون سيوفهم طواعية لمن يدفع أكثر، بصرف النظر عن الإيمان بأى قضية. كان أشهر أولئك المرتزقة إلى حد كبير الأرستقراطى القشتالى (فى القرن الحادى عشر) "رودريجو دياز دى ڤيڤار – Rodrigo Diaz de Vivar" المعروف بلقبه الإسپانى: "السيد – El Cid" (ومعناها الريس)، الذى جعلت منه الأسطورة فيما بعد ذلك الوطنى الإسپانى الأسمى، الذى كرس حياته لطرد غير المؤمنين (the infidel) من بلاده، وجعلته يقوم بذلك – حتى – بعد موته، عندما كان يضعون جثمانه مسندًا على حصانه (بابييكا – Babieca) ليقود جيشه فى المعركة. تقول القصة: إن الجثمان بقى كذلك محافظًا عليه تمامًا، لدرجة أنه وضع لمدة عشر سنوات على يمين المذبح مباشرة فى كنيسة دير "سان پدرو دى كاردينا – San Pedro de Cardena" بالقرب من "بيرجوس – Burgos". من أسف أن الحقيقة ليست بهذه الرومانسية. الواقع أن رودريجو كان مغامرًا عسكريًّا مثل كثيرين غيره، انتهى به المطاف بعد عمل مربح إلى أن يصبح أميرًا حاكمًا على ولاية "ڤالنسيا – Valencia" على شواطئ المتوسط.

لو أن السيد كان قد ولد بعد خمسين سنة؛ أى فى 1190 بدلًا من 1140 م تقريبًا، لكان ذلك الأمر مستحيل الحدوث. فى وقت ما بالقرب من منتصف القرن الحادى عشر جنوبى مراكش الحالية، تطور ما كان قد بدأ كعصبية بربرية مفككة ليصبح فى غضون سنوات قليلة حركة أصولية تنادى بأكثر المبادئ الإسلامية تشددًا. أطلقوا على أنفسهم اسم "المرابطون" – معرفون لدينا بالموراڤيد Almoravids – فأسسوا مدينة مراكش الكبيرة (Marrakesh) واستولوا على شمال المغرب (Morocoo)، وجزء كبير من غرب الجزائر، ثم وجهوا اهتمامهم صوب إسپانيا. فى 1086 م عبروا المضايق وهزموا

"ألفونسو السادس – Alfonso VI" ملك ليون – قشتالة فى "ساجراچاس[12] – Sa-grajas" بالقرب من "باداچوز – Badajoz"، وقضوا بسرعة على جميع الطوائف الإسلامية وكثير من المدن التى كان المسيحيون قد استردوها قبل سنوات قليلة. قبل أن ينتهى القرن كانت الأندلس قد توحدت مرة أخرى، ولكنها كانت الآن مرتبطة بالشمال الأفريقى تحت نظام غير متحضر إلى حد بعيد، وغير متسامح لدرجة التعصب.

لحسن حظ كل من يهمه الأمر، كان حكم المرابطين قصيرًا. كانوا يعانون من نقطة ضعف رئيسية: كأقلية بربرية صغيرة على رأس إمبراطورية إسپانية – أفريقية كانت كبيرة آنذاك، لن يكونوا إلهامًا بولاء حقيقى. حاولوا أن يحتفظوا بإسپانيا بواسطة قواتهم، وبالشمال الأفريقى بواسطة حرس مكون أساسًا من مسيحيين، ولكن بعد سقوط ساراقسطة فى يد ألفونسو الأول ملك أراجون فى 1118 م، بدأ المد فى التحول؛ وبعد سبع سنوات فقط ظهرت فى جبال "أطلس – Atlas" طائفة أكثر أصولية وتعصبًا هم "الموحدون – Almohads"؛ لتنفجر الأوضاع. الحرب الأهلية التى تلت ذلك، استمرت نحو ربع القرن وانتهت بسقوط مراكش فى 1147 م وبعدها انهارت سلطة المرابطين.

عبر الموحدون المنتصرون المضايق، وبنهاية القرن الثانى عشر كانت قبضتهم على البلاد من عاصمتهم إشبيلية قد أصبحت قوية مثلما كانت قبضة أسلافهم. قبل مرور وقت طويل، اكتشفوا هم كذلك أن قوتهم كانت تضعف لدرجة أنهم اضطروا للتراجع أمام العدو، لم يكن هذه المرة طائفة أو مذهبًا جديدًا، وإنما تحالفًا بين الممالك المسيحية الرئيسية الثلاث فى شبه جزيرة أيبيريا: قشتالة وأراجون والبرتغال. فى سنة 1212 م، حقق "ألفونسو الثامن – Alfonso VIII" ملك قشتالة انتصارًا كبيرًا فى "لاس ناڤاس دى تولوزا – Las Navas de Tolosa"، أمَّن على نحو مؤثر غلبة القضية المسيحية فى إسپانيا، أما حفيده "فرديناند الثالث – Ferdinand III"، فقد أكمل عهده الذى استمر خمسة وثلاثين سنة، مستعيدًا معظم الأندلس بما فى ذلك ميناء "قرطاجنة – Carta-gena"، مع طرد كل السكان المسلمين من البلاد عند الاقتضاء كما حدث فى إشبيلية فى 1248 م.[13] بحلول منتصف القرن، كانت إسپانيا الإسلامية قد تقلصت لتصبح إمارة واحدة هى إمارة غرناطة، وكانت حرب الاسترداد تمضى فى مسارها.

كان لعدم تسامح الموحدين أثر واحد مفيد. عندما وجدت جماعات كبيرة من اليهود والمستعربين الحياة فى كنف الموحدين غير محتملة فروا إلى قشتالة وأراجون المسيحية حيث كانوا يلقون ترحيبًا شديدًا. كان من بينهم فلاسفة وأطباء مثل «ابن ميمون – Mai-

monides" و"ابن رشد – Averroes" اللذين امتد تأثيرهما بطول العالم الغربى وعرضه، إلى جانب غيرهما من المفكرين الأقل وزنًا، الذين أدوا دورًا مهمًا كمترجمين محترفين عن العربية، فجعلوا حجمًا ضخمًا من المعارف العربية فى متناول الغرب. استقر عدد كبير من هؤلاء فى طليطلة – التى تم استردادها فى 1085 م وسط فرح شديد – حيث كانوا ينعمون برعاية وتشجيع الملك.

بقيت إمارة غرناطة أكثر من قرنين.. حتى سنة 1492م، وربما تكون تلك لحظة مناسبة نتوقف عندها لمحاولة تقييم الأثار: أثر الإسلام فى إسپانيا أولًا، ثم أثر إسپانيا الإسلامية فى بقية أوروبا الغربية. من الناحية الثقافية، ليس هناك أدنى شك فى أن البلاد قد تم إثراؤها بشكل كبير. لقد نجح الاحتكاك الوثيق بالإسلام فى توسيع العقل الإسپانى، كما أنه اجتذب مثقفين أوروبيين إلى إسپانيا؛ ولم يكن "جربرت الأوريلاكى – Gerbert of Aurillac" – الذى سيصبح البابا "سيلڤستر الثانى – Sylvester II" – مثقف العصور الوسطى الوحيد الذى جذبه ظمأ المعرفة عبر البرانس، تلك المعرفة التى ما كان ليحصلها فى أى مكان آخر فى القارة. كانت الرياضيات والطب والجغرافيا والفلك والعلوم الطبيعية ما زالت محل ارتياب فى العالم المسيحى، أما فى العالم الإسلامى فكانت متطورة بدرجة لا مثيل لها منذ الإغريق. أى دارس أو عالم جاد فى أى من هذه المعارف كان لا بد من أن يشعر بجاذبية الأندلس، وبمجرد أن يكون هناك كان يلزم نفسه بدراسة اللغة العربية؛ حيث إن ترجمة الأعمال العلمية الأساسية كانت قليلة وغير دقيقة. أحد الذين نجحوا فى ذلك، كان العالم الإنجليزى الكبير "أدلارد الباثى – Adelard of Bath"، الذى كان موجودًا فى إسپانيا فى مطلع القرن الثانى عشر متنكرًا كطالب مسلم، والذى قدم فى 1120م – أو نحو ذلك – أول نص لاتينى لـ : "إيوقليد – Euclid" (أقليدس) كان قد ترجمه عن نص عربى مترجم عن اليونانية.

من جوانب أخرى، كان تعايش العقائد الثلاث المختلفة تمامًا على الأرض نفسها - مصدرًا لمعاناة مستمرة. سفكت دماء كثيرة دون ما ضرورة فى الغزو العربى الأصلى، وأكثر منها فى حرب الاسترداد. يضاف إلى ذلك أنهم بالرغم من تواصليهم معًا على نحو جيد فى الحياة اليومية لم يكن الرعايا يعاملون بما يليق بهم من اعتبار سواء فى الولايات المسيحية أو الإسلامية. وصية النبى بمعاملة اليهود والمسيحيين كإخوة لهم باعتبارهم "أهل كتاب" لم تكن مرعية فى الممارسة العملية. فى 1066م كانت هناك مذبحة لليهود فى غرناطة، وفى 1126م كانت هناك عمليات ترحيل للمسيحيين كعبيد فى المغرب. لم تكن المجتمعات المسيحية – على قدر ما نعرف – مسئولة عن أعمال عدائية على هذا

المستوى، ولكن ما من شك فى أن اليهود والمودچار[14]، (وهو الاسم الذى كان يعطى للمسلمين تحت الحكم المسيحى) كانوا ينظر إليهم كمواطنين من الدرجة الثانية، وكانوا دائمًا مادة للتمييز ضدهم – على الأقل – إن لم يكن للاضطهاد.

عندما نفكر فى حجم ما كان ينبغى أن تقدمه إسپانيا الإسلامية، يدهشنا أن نجد أنها لم يكن لها تأثير كبير فى الغرب المسيحى، وربما كانت هناك أسباب كثيرة لذلك. السبب الأول معتقدى: كانت مسيحية العصور الوسطى تكره كل مظاهر ما تعتبره فى حكم الوثنية. قبلت اليهود – فى حدود – لأنهم كانوا موجودين هناك بالفعل وكذلك لأنهم لم يكن لهم دولة خاصة بهم وكانوا يتحدثون لغة من حولهم – مسلمو الأندلس كانوا مختلفين. كانوا معروفين بدرجة أقل، وربما مفهومين كذلك بدرجة أقل. لم تكن لغتهم، سواء المكتوبة أو المنطوقة مفهومة. كانوا يسكنون أبعد الأماكن فى أوروبا – أبعد كثيرًا فى تلك الأيام عن أراضى الحوض الشرقى للمتوسط؛ حيث كانت بيزنطة بمثابة قوة جذب ثقافية وتجارية، لا تجتذب العلماء والطلاب من قارة واحدة فحسب، بل كانت تجتذب التجار ورجال الدولة والدبلوماسيين من قارات ثلاث.

بعد تلك الأيام الباكرة عندما كان الناس يخشون أن يكون الإسلام فى طريقه لغزو العالم، وبمجرد أن توارى العرب وراء حدودهم المتواضعة نسبيًا، بدا من الحصافة والحكمة تركهم وشأنهم، مسالمين لا يهددون. كانوا، فى آخر المطاف منقوعين فى الخطأ ومن ثم لا يمثلون أى أهمية بالنسبة للعقل المسيحى المعاصر.

هوامش الفصل الخامس

(1) يقول إى. إم. فورستر: إن عمرًا كان "إداريًا وشخصية رائعة وشاعرًا وواحدًا من أقدر وأعذب الرجال الذين أنجبهم الإسلام". ثم يمضى ليروى قصة جميلة وهى كيف أن صديقًا لعمرو سأله وهو على فراش المرض: كنت تقول دائمًا: إنك كنت تبحث عن شخص ذكى لتسأله عن شعوره وهو على شفا حفرة من الموت، والآن أنا أسألك عن شعورك. رد عمرو: "أشعر بأن السماء تكاد تنطبق على الأرض وأنا بينهما أتنفس من خلال عين إبرة".

(2) ليس لقصة أن المسلمين أحرقوا مكتبة الإسكندرية أساس، كل ما نعرفه عن عمرو يوحى ويرجح أنه كان يكن لها احترامًا شديدًا.

(3) تذكر كتب التراث العربى أن عمرو بن العاص، فى كتاب له إلى عمر بن الخطاب قال: "البحر خلق عظيم يركبه خلق صغير كأنه دود على عود". (المترجم)

(4) وهى أولى الإمبراطوريتين العربيتين العظيمتين فى العصور الوسطى: كانت دمشق هى عاصمة الإمبراطورية الأموية التى استمرت من 661 م – 750 م، وكانت الإمبراطورية العباسية هى الثانية وعاصمتها بغداد. استمرت الإمبراطورية العباسية إلى أن دمرها المغول فى 1258 م.

(5) عُرفت هذه الصخرة عند العرب بـ "جبل طارق" ومن هنا كان اسمها الحديث "Gibraltar".

(6) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، الذى سيعرف بـ "عبد الرحمن الداخل". (المترجم)

(7) من أسف أنه تم تخريبه عمدًا وعلى نحو مخز فى أوائل القرن السادس عشر عندما بنيت كنيسة مسيحية فى ساحته (وهى الكاتدرائية الموجودة الآن). عندما رآه الإمبراطور شارل الخامس فى 1526م، لم يستطع كبح مشاعره فقال لجماعة الكهنة الملحقين بالكاتدرائية: "لقد بنيتم هنا ما كان بإمكانكم أو بإمكان غيركم أن يبنيه فى أى مكان آخر، ولكنكم دمرتم شيئًا فريدًا لم يكن له مثيل فى العالم".

(8) وجد عبد الرحمن أنه أولى بأن يتخذ لقب الخليفة من عبد الله المهدى صاحب القيروان، فأصدر بيانًا أعلن فيه نفسه خليفة واتخذ لقب "الناصر لدين الله". (المترجم)، عن: معالم تاريخ المغرب والأندلس، تأليف: حسين مؤنس – طبعة مكتبة الأسرة 2004 م.

(9) يُعتقد أن الفلامنكو، موسيقى الأندلس التقليدية من آثار الاحتلال الإسلامى، ربما تتضمن عناصر عربية، إلا أنها تبدو من إبداع الغجر الذين بدأوا الاستقرار فى المنطقة فى أواخر القرن الخامس عشر.

(10) لوحة ذات خرزات أو كرات صغيرة تستخدم للعد.

(11) فرقة مرتزقة بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر (المترجم).

(12) سهل متسع جنوب غربى مدينة بطليموس يسمى بالإسبانية "Sacrajas" وبالعربية "الزلاقة". (المترجم)

(13) كان معاصره "چيمس الأول – James I" ملك أرجوان قد فعل الشىء نفسه فى "ڤالنسيا – Valencia" قبل عشر سنوات.

(14) عن mudéjar الإسبانية وتعنى حرفيًا المسموح له بالبقاء، مع الاحتفاظ بدينه وقوانينه وعاداته، تحت حكم مسيحى. (الأصل كلمة "مدجن" العربية). (المترجم).

الفصل السادس

إيطاليا العصور الوسطى

- هبة القسطنطينية: 754م
- تتويج شارلمان: 800م
- شارلمان: 814م
- أوتو الأكبر: 966م
- مدن إيطاليا الحرة: 1000م
- النورمانديون: 1048م
- البابا جريجورى: المنفى والموت: 1085م
- روچر الصقلى: 1154م
- آرنولد البريسكى: 1155م
- الفشل الذريع فى سان پيتر
- موت وليم الصالح: 1189م
- مولد فردريك الثانى.

كانت حرب چستنيان مع القوط نذيرًا بقدوم عصر مظلم. بذل حكامه المحليون – الذين منحهم لقب «نائب الإمبراطور – exarch"، قصارى جهدهم لإعادة الرخاء إلا أنهم لم يصيبوا نجاحًا كبيرًا. كانت إيطاليا خربة تمامًا، وميلانو فى الشمال وروما فى الجنوب فى حالة من الدمار يرثى لها. والآن.. فى غضون سنوات قليلة من رحيل القوط ظهرت على المسرح قبيلة چرمانية جديدة. عبر "اللمبارديون – The Lombards" الألپ فى 568م وانتشروا بقوة فى الشمال الإيطالى والهضبة الكبرى التى ما زالت تحمل اسمهم، وفى النهاية أقاموا عاصمتهم فى "پاڤيا – Pavia". فى ظرف خمس سنوات، كانوا قد استولوا على ميلانو وڤيرونا وفلورنسا. الحكم البيزنطى الذى كان چستنيان وبيليزاريوس ونارسيس قد حققوه فى الشمال الإيطالى بثمن باهظ، سرعان ما انتهى بمجرد أن بدأ تقريبًا. خط تقدم اللمبارديين تم كبحه أخيرًا بواسطة روما وإكسرخوسية راڤينا – Exarchate of Revenna، ولكنْ رأسا حربة ظهرتا لتقيما الدوقيات الجنوبية الكبرى فى "سپوليتو – Spolito" و"بنيڤنتو – Benevento"، ومنهما كان يمكن أن تستمرا فى غزو بقية الجنوب، إلا أنهما لم تتحدا معًا بحيث يمكنهما عمل ذلك. بقيت "أپوليا – Apolia" و"كالابريا – Calabria" و"صقلية – Sicily" تحت السيطرة البيزنطية مثل معظم الساحل الإيطالى، وهو أمر مثير للدهشة. لم يكن اللمبارديون مهتمين كثيرًا بالبحر مثل الوندال، والحقيقة أنهم لم يصبحوا شعبًا متوسطيًّا قط.

عدم استسلام روما للمد اللمباردى كان معجزة، لا تقل غرابة عن تلك التى أنقذتها من أتيلا فى القرن السابق؛ ومرة أخرى، كانت تلك المعجزة من صنع أحد الباباوات – الذى كان هذه المرة أحد أبرز رجال الدولة فى روما فى العصور الوسطى، وهو "جريجورى الأكبر – Gregory the Great"، الذى اعتلى عرش "سان پيتر – St Peter" فى 590م ليظل عليه على مدى الأربعة عشر عامًا التالية، عندما وجد أن نائب الإمبراطور فى راڤينا لم يكن لديه قوات كافية لتقدم له الدعم الذى يحتاجه، تولى بنفسه السيطرة على الميليشيا، وقام بإصلاح الأسوار والقنوات المائية وأطعم الجائعين من العامة من مخازن الكنيسة. بعد أن اشترى "أجيلولف – Agilulf" ملك لمبارديا بالرشوة فى البداية فى 598م، عقد صلحًا منفردًا معه فأصبح بإمكانه أن يشرع فى العمل لتكون البابوية قوة سياسية واجتماعية كبيرة. (كان هو، بالمصادفة، الذى أرسل أوجستين – Augustine لهداية الإنجليز الوثنيين، حتى قبل الكنيسة البنيديكتية التى أنشأها هو على تل كويل فى

روما). لم يكن جريجورى مثقفًا – مثل معظم رجال الكنيسة فى زمنه، كان لديه شك عميق فى الأفكار العلمانية – ولكنه كان مستبدًا وجسورًا، وكان هو الوحيد الذى حفظ للمدينة هيبتها وكرامتها خلال تلك الفترة المضطربة.

إلا أن جريجورى كان يعترف بالإمبراطور فى القسطنطينية – حيث سبق أن خدم كسفير بابوى – باعتباره حاكمه الزمنى، وأصبحت روما تحت خلفائه أكثر بيزنطية على مدى القرن السابع. كان اللاجئون اليونانيون يتدفقون من الشرق الأوسط وأفريقيا على إيطاليا، عندما اجتاح الفرس ثم العرب أراضيهم. فى 663م كان هناك مهاجر بيزنطى، شديد التميز بشكل غير معهود: الإمبراطور "كونستانس الثانى – Constans II"، الذى صمم على نقل عاصمته مرة أخرى إلى الغرب. كان يرى أن روما – مثلها مثل القسطنطينية – لم تكن ملائمة، بينما كانت صقلية الهلنستية أقرب إلى ذوقه، وحكم لمدة خمس سنوات من "سيراكوزا – Cyracuse"، إلى أن كان أحد الأيام عندما فاجأه فى الحمام أحد المشرفين على حجرة نومه من الساخطين عليه، وعاجله بصحن الصابون (الصبَّانة) ليقتله.

عاد البلاط إلى البوسفور... وإيطاليا لمشكلاتها. كان اللمبارديون هم أخطر تلك المشكلات؛ إذ بعد أن زاد عددهم وقوتهم بدأوا يتلمظون على الأراضى المجاورة. كان تقدمهم بطيئًا. كانت الأرخوسية تمثل حماية متواضعة، إلا أن الضغوط على الحدود لم تهدأ. سوف يستمر هذا التوازن القلق حتى منتصف القرن، ثم كانت أزمة كبرى عندما أمر الإمبراطور "ليو الثالث[1] – Leo III" فى سنة 726م بتحطيم كل الأيقونات والصور المقدسة فى كل المناطق الخاضعة لسلطته باعتبارها وثنية.

كان الإمبراطور بيوريتانيا، إلا أنه لم يكن ثوريا بأى معنى. لا اليهودية ولا الإسلام كانا يسمحان باستخدام الصور أو الرسوم، وفى القرون الحديثة كانت إنجلترا وحدها هى التى شهدت هبتين كبيرتين لتحطيم الأصنام، وذلك تحت إدوراد السادس فى القرن السادس عشر، ثم أثناء الكومنولث. كان تأثير المرسوم الذى أصدره ليو الثالث فوريًا ومدمرًا. هاج الناس وماجوا فى كل مكان وفى الأديرة على نحو خاص. فى الأقاليم الشرقية؛ حيث كانت عبادة الأيقونات قد بلغت درجة عالية، وكانت تعتبر بمثابة عرابين عند التعميد أحيانًا، وجد ليو درجة من التأييد، ولكن فى الغرب الأكثر اعتدالًا، والذى لم يكن قد فعل شيئًا لكى يستحقها، لم يكن بالإمكان السماح بها. إيطاليا، التى كانت تحت قيادة بابوية قوية رفضت تمامًا تمادى البابا جريجورى الثالث لدرجة تحريمه كل الأيقونات. تم اغتيال "بول – Paul"، نائب الإمبراطور فى رافينا، وانخرط حكام الأقاليم التابعة

له فى قتال بعضهم البعض، وراحت الحاميات الإقليمية – كانوا كلهم من المجندين محليًا – تختار قيادات جديدة وتؤكد استقلاليتها. وفى المجتمعات الموجودة حول بحيرة ڤينيسيا وقع اختيارهم على شخص يدعى "أورسوس – Ursus" أو "أورسو – Orso" من "هرقليا – Heraclea" الذى أعطى لقب "دوكس – dux". لم يكن ذلك غريبًا؛ إذ كان الشيء نفسه يحدث فى سائر المدن المضطربة، أما ما يميز ڤينيسيا عن غيرها فهو أن تعيين أورسو استمر تقليدًا مرعيًا على مدى أكثر من ألف عام. هذا اللقب الذى تحول عبر العامية الڤينيسية إلى "دوج – doge" كان ليستمر مع مائة وسبعة عشر آخرين حتى نهاية الجمهورية الڤينيسية فى 1797م.

كان اللمبارديون هم المستفيدين الرئيسيين من نزاع عبادة الأيقونات فى إيطاليا. بنجاحهم فى تأليب روما وبيزنطة ضد بعضهما، استطاعوا أن يكسبوا أرضًا جديدة، إلى أن كان أن استولوا على رافينا فى 751م. كانت تلك نهاية الإكسرخوسية. كانت الأراضى البيزنطية التى بقيت فى إيطاليا معزولة ومقطوعة عن بعضها البعض بواسطة دوقيات اللمبارديين فى الشمال، وعليه فقد كانت ضعيفة ولا تستطيع تقديم أى مساعدة، وهكذا أصبحت روما مكشوفة أمام أعدائها.

إلا أن الوضع لم يستمر هكذا طويلًا. قبل أن ينتهى العام، وفيما وراء الألپ من جهة الغرب كان "پيپن (القصير) – Pepin the Short" قد حصل على موافقة البابا على خلع الملك "الميروڤنچى[2] – Merovingian" الصورى: "شيلدريك الثالث – Childeric III" وأن يتوج بدلًا منه. لم يكن الآن يستطيع أن يتجاهل رغبة الكنيسة. فى 754م، سافر البابا "ستيفن الثانى – Stephen II" إلى "سان دينيس – St Denis"؛ حيث ثبت وكرس "پيپن – Pepin" مع ابنيه "شارل – Charles" و"كارلومان – Carloman" ملوكًا على الفرنجة – The Franks، وبعد ذلك بعامين، واستجابة لرسالة يقال: إنها كانت – على نحو معجز – بخط سان پيتر نفسه، قامت قوات الفرنجة باجتياح إيطاليا وتركيع اللمبارديين؛ بعدها قام پيپن بتثبيت البابا رئيسًا لدولة مستقلة، ثم زحف عبر وسط إيطاليا ليضم روما وپيروجيا – Perugia ورافينا، كل أراضى الإكسرخوسية الميتة تقريبًا. ربما كان قد أسس ذلك الإجراء ما يسمى بـ "هبَة قسطنطين – Donation of Constantine"، التى كان من المفترض أن يكون قسطنطين الأكبر قد منح النظام البابوى بموجبها الحكم الزمنى "على إيطاليا وسائر المناطق الغربية"، ولو كان الأمر كذلك فلا بد أن يكون قد ضل الطريق. اتضح فيما بعد أن تلك الهبة كانت تزويرًا تم تلفيقه فى مجلس الشيوخ بطريقة مخزية، إلا أن الولايات – الدول البابوية

التى خرجت بموجبها إلى حيز الوجود، كان أن بقيت – رغم أن أسسها كانت مهزوزة – لأكثر من ألف عام... حتى سنة 1870 م.

نجحت روما، ولكن الحرب استمرت. على مدى الأربعين سنة التالية سيجد پيپن وابنه شارل نفسيهما الحماة الرئيسيين للنظام البابوى – The Papacy – ضد أعدائه؛ وبالرغم من أن شارل، المعروف لنا بـ "شارلمان – Charemagne" لم يظهر سوى مرة واحدة على هذه الصفحات، ربما لا يمكن اعتباره شخصية متوسطية. إلا أن تأثيره، على أية حال، فى كل أوروبا المسيحية كان واضحًا. فى سنة 771م أصبح الحاكم الوحيد على الفرنجة، وبعد ثلاث سنوات استولى على پاڤيا وأعلن نفسه ملكًا على لمبارديا ... كانت تلك بالفعل نهاية النفوذ اللمباردى على شمال أوروبا. أما فى الجنوب فقد بقيت دوقية بينيڤينتو اللمباردية الكبرى دولة مستقلة بعاصمتها "سالرنو – Salerno"، بينما كانت تحت السيادة الفرنجية من الناحية العملية.

عائدًا إلى ألمانيا، قام شارل بإخضاع الساكسون الوثنيين وتحويلهم إلى المسيحية قبل أن ينطلق ليضم "باڤاريا – Bavaria"، التى كانت مسيحية بالفعل. كان غزوه لإسپانيا، كما هو معلوم لنا – أقل نجاحًا، ولكن حملته التالية على "الأڤار – Avars" فى هنغاريا وأعالى النمسا، أسفرت عن تدمير مملكتهم كدولة مستقلة، واستيعابها فى مملكته؛ وهكذا، فى مدى أقل من جيل كان قد رفع مملكة الفرنجة من مجرد دولة أوروبية شبه قبلية – مثل كثيرات غيرها – إلى وحدة سياسية واسعة لا مثيل لها منذ أيام روما الإمبراطورية.

بعد عودة شارل إلى إيطاليا بعد ربع قرن (فى أواخر سنة 800م تقريبًا)، كانت أمامه مهام كثيرة لا بد من إنجازها. كان البابا "ليو الثالث – Leo III"، منذ تنصيبه قبل أربع سنوات - ضحية ضغائن وأحقاد عليه متزايدة من قبل مجموعة من النبلاء الرومان الشبان الذين كانوا مصممين على إزاحته. فى الخامس والعشرين من أبريل فى ذلك العام نفسه، كان قد تعرض لاعتداء عليه فى الشارع حتى فقد وعيه من الضرب، وكان من حسن حظه أن أنقذه بعض الأصدقاء وحملوه إلى أمان بلاط شارل فى "پادربون – Paderbon". بعد عدة أشهر أعيد إلى روما تحت حماية عملاء من الفرنجة؛ ليجد نفسه أمام اتهامات خطيرة من تلفيق أعدائه، بما فى ذلك السيمونية[3] والحنث باليمين والزنا.

من الذى يمكن أن يحاكمه إذن؟ من كان مؤهلًا لإصدار حكم على ممثل المسيح؟ الإجابة الوحيدة الممكنة عن هذا السؤال فى الظروف العادية، كان يمكن أن تكون: الإمبراطور فى القسطنطينية، ولكن العرش الإمبراطورى فى ذلك الوقت كانت تشغله امرأة هى الإمبراطورة «إيرين – Irene". لم يكن ما يشاع عنها من أنها كانت قد أعمت

ابنها أمرًا مهمًا فى نظر ليو وشارل، كان يكفى أن تكون امرأة. كانت النساء ممنوعات من الحكم بموجب "القانون الصالى القديم – Salic Law"[4]، وهكذا كان عرش الأباطرة فى حكم الخالى بحسب مفاهيم أوروبا الغربية. كان شارل الآن، عندما وصل إلى روما، على علم تام بأنه لم يكن لديه سلطة أكبر مما لدى إيرين للجلوس فى كنيسة سان بيتر وإصدار حكم، إلا أنه كان يعرف فى الوقت نفسه أن الاتهامات وإن ظلت قائمة غير مدحضة، فإن العالم المسيحى لم يكن ينقصه إمبراطور فحسب، وإنما كان ينقصه بابا كذلك، وكان كله إصرار على أن يبذل كل ما فى وسعه لتبرئة ليو. أما بالنسبة للطبيعة المحددة لشهادته فيمكن أن نخمن فقط؛ إلا أنه فى الثالث والعشرين من ديسمبر، وأمام المذبح العالى، أقسم البابا أنه كان بريئًا من كل التهم الموجهة إليه، وقبل المجمع الكنسى كلمته. بعد يومين، عندما نهض شارل بعد الانتهاء من قداس عيد الميلاد، وضع ليو التاج الإمبراطورى على رأسه بينما كان الجمع المحتشد يهتف باسمه. أما أعداؤه فكانوا يقولون: إنه «مجرد لقب»، حيث لم يأت التاج معه بتابع أو بجندى جديد، أو حتى بمتر واحد من أرض جديدة. إلا أن اللقب كان ذا أهمية باقية عن أى عدد من الغزوات. كان يعنى أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد ولت، وبعد أكثر من ثلاثمائة عام، كان قد أصبح هناك إمبراطور فى أوروبا الغربية مرة أخرى.[5]

إذا كان ليو قد خلع على شارل صباح ذلك الاحتفال بعيد الميلاد شرفًا عظيمًا، فإنه قد خلع على نفسه شرفًا أعظم: الحق فى أن يعين وأن يقلد بالتاج والصولجان إمبراطور الرومان. هنا كان كل شىء جديدًا وربما ثوريًا. لم يسبق أن أدعى أى حبر لنفسه مثل هذا الحق: ليس فقط اعتبار التاج الإمبراطورى هبته الشخصية، بل ومنح نفسه مرتبة أعلى ضمنيًا على الإمبراطور الذى صنعه فى ذات الوقت. من السهل أن نتخيل كذلك رد فعل القسطنطينية عندما وصلتهم أخبار تتويج شارل. بالنسبة لأى بيزنطى مستقيم التفكير، كان الأمر دلالة على عجرفة مثيرة، كما هو على الدنس. كانت الإمبراطورية، كما كان معروفًا للجميع، تقوم على أساس مزدوج: السلطة الرومانية من جهة، والإيمان المسيحى من جهة أخرى. كان العاملان قد اجتمعا لأول مرة فى شخص قسطنطين الكبير إمبراطور روما ونظير الرسل، واستمر هذا الاتحاد الرمزى مع كل خلفائه الشرعيين. كان يتبع ذلك حتمًا أنه مثلما كان هناك إله واحد فى السماء، يمكن أن يكون هناك حاكم أعلى واحد على الأرض، وكذلك فإن كل الآخرين المطالبين بهذا اللقب كانوا مدعين ومجدفين.

بالرغم من سمعة إيرين، ربما لا يكون تفكير شارل فى الزواج منها أمرًا مثيرًا

للدهشة. برغم كل شيء، كانت فرصة لن تتكرر: لو أنه استطاع أن يقنع الإمبراطورة بأن تصبح زوجته، لأصبح بالإمكان أن تتوحد كل أراضى الإمبراطورية شرقًا وغربًا تحت تاج واحد... تاجه بالطبع. عندما وصل سفراؤه إلى القسطنطينية فى 802م بهذا العرض، وجدوا ميلًا للقبول لدى إيرين. كانت – وهى مكروهة من رعاياها وخزانتها خاوية – تدرك احتمال حدوث انقلاب قريب عليها وأن حياتها كانت فى خطر. لم يكن يعنيها كثيرًا أن يكون المتقدم للزواج منها إمبراطورًا منافسًا مغامرًا مهرطقًا ولا أن يكون أميًا أو شبه أمى. (كان شارل يقرأ قليلًا ولكنه لم يخف أنه لم يكن يستطيع أن يكتب). كان اعتبارها الرئيسى هو أنها بالزواج منه سوف تحافظ على وحدة الإمبراطورية وتنقذ حياتها... وهو الأهم. ولكن ذلك لم يحدث. لم يكن لدى رعاياها النية لترك العرش يذهب إلى ذلك الفرنجى الجلف بردائه الرومانى الكتانى الغريب وكساء ساقه الأكثر غرابة، والذى يتحدث لغة غير مفهومة ولا يستطيع حتى أن يكتب اسمه. فى آخر يوم من شهر أكتوبر عام 802م، دعا جماعة من كبار المسئولين لاجتماع فى الهيپودروم وأعلنوا خلع أميرتهم، وهكذا نجت على أى حال من المصير الذى كانت تخشاه. أرسلت إلى المنفى.. إلى جزر الأمراء فى مرمرة فى البداية، ثم إلى «لسبوس – Lespos"؛ حيث ماتت بعد شهر.

** ** **

كان شارلمان يؤكد دائمًا – وربما كان صادقًا فى ذلك – أن تتويجه الإمبراطورى كان أمرًا مفاجئًا له، ويقول "إينارد – Einhard"، صديقه وأول كاتب لسيرة حياته: إنه ترك كنيسة سان بيتر فى الحال وهو فى حالة غضب شديد. لم يكن ممتعضًا فحسب من فكرة أن يكون صنيعة البابا كإمبراطور، بل إنه كان يعرف يقينًا أن ما قام به ليو لم يكن له أى سند قانونى. من ناحية أخرى كان النظام القديم يصبح أكثر تناقضًا بالتدريج. ربما كانت القسطنطينية هى المستودع النظرى للقانون الرومانى والحضارة والتقاليد الإمبراطورية، إلا أن روحها كانت إغريقية تمامًا. روما - بعد أن مزقها البرابرة - المحبطة على إثر قرون من الفوضى، كانت ما تزال بؤرة الثقافة اللاتينية، وكان شارلمان وليس نظراؤه البيزنطيون هو الذى دعم السلم الرومانى – Pax Romana فى الغرب؛ ومن أجل أوروبا العصور الوسطى الغارقة فى الفوضى.. لم يعد يكفى إمبراطور واحد. ربما كان البيزنطيون يشكون فى ذلك؛ لأن الأمر لم يأخذ من شارلمان أكثر من عشرين عامًا لكى يحصل على اعترافهم الرسمى. كان الثمن الذى دفعه هو ڤينيسيا.

كان قد مر أربعمائة عام منذ مجيء النازحين الأوائل من "أتيلا – Attila" ولجوئهم إلى الركن الشمالى الغربى من الأدرياتيكى، وسط ذلك العنقود من الجزر الصغيرة الراقدة فى حمى الشطآن الرملية والمياه الضحلة التى لا يصل إليها أحد سوى النوتية من أبناء المنطقة. كانت غزوات بربرية متوالية قد اجتاحت بقية إيطاليا، ولكن الدفاعات الطبيعية كانت تعوقها دائمًا، وهكذا كان أن استطاعت ڤينيسيا، دون بقية مدن الشمال الإيطالى، أن تنجو من التلوث التيوتونى. كانت جمهورية تتمتع بحكم ذاتى منذ انتخاب أول "دوج – Doge" فى سنة 726م، وبعد سقوط الإكسرخوسية وجدت نفسها القوة الوحيدة المتبقية فى الشمال الإيطالى الموالية لبيزنطة. كانت غنية وتجارتها تتطور وبحريتها هى الأفضل فى المتوسط. أدرك شارلمان على الفور أهميتها الإستراتيجية وقيمتها كرهان سياسى. أولى محاولاته لغزوها تصدى لها أسطول ڤينيسى – بيزنطى. المحاولة الثانية التى قام بها ابنه "پيپين – Pepin" فى 810م، نجحت جزئيًا، إلا أنه بالرغم من سقوط معظم المناطق النائية فى يد الفرنجة، استمرت مقاومة جزر "ريالتو – Rialto" إلى أن اضطر پيپين – الذى أصابته حمى شديدة – للانسحاب. فيما بعد، حولت الكرامة الوطنية الڤينيسية انسحابه إلى انتصار تاريخى، ولكن البيزنطيين الأقل تفاؤلًا كانوا مستعدين للتفاوض. هكذا حصل شارلمان على الاعتراف الذى كان يريده، واحتفظت القسطنطينية بروابطها القديمة مع ڤينيسيا، والسماح لها – عرفانًا بولائها – بمزيد من المزايا التفضيلية.

ربما يكون هناك اعتقاد بأن شارلمان، سواء أكان متلهفًا على الإمبراطورية البيزنطية أو لا، سيواصل اعتبار نفسه البطل الطبيعى للمسيحية ضد المد الإسلامى الصاعد. والحقيقة أنه بعد تلك الفترة القصيرة غير المؤثرة فى إسپانيا، التى كان قد قام بها فى شبابه – لأسباب سياسية أكثر منها دينية – لم يخرج لمحاربة جيش مسلم. ربما كان القس الأنجلو ساكسونى "الكوين - Alcuin"، الذى كان مديرًا لمدرسة القصر فى "آخن – Aachen"، قبل أن يصبح رئيسًا لدير الرهبان فى "تورس – Tours"، ربما كان يؤكد أنه كان من واجب الإمبراطور أن "يدافع عن كنيسة المسيح فى كل مكان ضد إغارات الوثنيين وتخريب غير المؤمنين، وأن يؤمن بالاعتراف الداخلى للعقيدة الكاثوليكية"، إلا أن شارل لم يكن صليبيًا. لقد حافظ – بقدر ما أتاحت وسائل الاتصال فى تلك الأيام – على علاقات ممتازة بالخليفة العباسى هارون الرشيد فى بغداد.

فى إنجازه، كما فى قامته وبنيته الجسدية، كان شارلمان أكبر من الحجم الطبيعى!

ولكن هذا الإنجاز كان قصير الأمد. هذا الشخص غير العادى - الأمى، اللاأخلاقى، الأقرب إلى الهمجية - حافظ على إمبراطوريته الجديدة اعتمادًا على قوة شخصيته فحسب. قصتها بعد موته فى 814م، هى قصة اضمحلال مضطرد، مع تفسخ فعلى على أثر انقراض أسرته. مرة أخرى، عاد الشمال الإيطالى ساحة صراع بين أمراء صغار تافهين يتشاجرون على تاج لا قيمة له، ويجرون بلادهم إلى مزيد من الفوضى؛ وفى الجنوب ظهرت أخبار جديدة. سقطت "كورسيكا - Corsica" فى أيدى المسلمين، ثم "كريت - Crete" فى 826م، وهذا الغزو الأخير غير الوضع الإستراتيچى كله فى المنطقة: على مدى مائة وثلاثين عامًا إلى أن تم غزوها مرة أخرى من قبل الإمبراطور البيزنطى "نيكيفوروس الثانى فوكاس - Nicephorus II Phocas"، كانت كريت وكرًا للقراصنة ومركزًا لتجارة الرقيق فى البحر الأبيض. بعد ذلك، غزا عرب شمال أفريقيا صقلية فى 827م بدعوة من الحاكم البيزنطى "إيوثيميوس - Euthymius"، الذى كان قد تمرد على القسطنطينية فى محاولة لتجنب عواقب هروبه مع راهبة محلية. بعد أربع سنوات استولوا على "پالرمو - Palermo". هكذا كانت شبه الجزيرة الإيطالية عرضة للأخطار دائمًا. سقطت "برنديزى - Brindisi" ثم "تارانتو - Taranto" و"بارى - Bari" (التى كانت مقرًا لإمارة على مدى ثلاثين عامًا)، وفى سنة 846م كان الدور قد جاء على روما نفسها. أبحر أسطول "ساراسينى - Saracen"[6] فى نهر التيبر، نهب كنيسة سان پيتر لدرجة خلع الألواح الفضية من أبواب البازيليقا التى يوجد بها المحراب؛ ومرة أخرى كان البابا هو الذى أنقذ الكنيسة. فى 849م، استدعى البحريات المشتركة لجيرانه الثلاثة - ناپولى وجايتاو وأمالفى - وتولى القيادة بنفسه، وتمكن ليو الرابع - Leo IV من تدمير الأسطول العربى بالقرب من شواطئ "أوستيا - Ostia". تم تسخير مئات الأسرى فى بناء سور ضخم حول الڤاتيكان لحمايته، يمتد حتى "كاسل سان أنجلو - Castle Sant Angelo"، وهو المعروف بالسور "الليونينى - Leonine Wall" الذى توجد أجزاء متبقية منه إلى اليوم. لحسن الحظ، كان أن هدأ الضغط الإسلامى مع دخول القرن ربعه الأخير. فى 871م سقطت "بارى - Bari" أمام الإمبراطور "لويس الثانى - Lewis –II"، وبعد موته ستصبح عاصمة لإيطاليا البيزنطية على مدى المائتى السنة التالية.

فى ذلك الوقت أيضًا كان هناك خطر دائم جهة الساحل الجنوبى لفرنسا. فى سنة 890م تقريبًا، رسا جماعة من القراصنة الأندلسيين فى "سان تروپيز - Saint Tro-pez" وحصنوا أنفسهم على قمة تل قريب يعرف اليوم باسم "لاجارد فرينت - La

"Garde Freinet". من هناك، كان يقومون بالإغارة غربًا على "مارسيليا – -Mar seille" وشمالًا على "ڤيينا – Vienne"، وحتى على دير "سان جول – St Gall" فى سويسرة. لم يتم طردهم نهائيًا إلا فى 972م. عدد السفن الغارقة من سفن المسلمين فى القرن العاشر، التى وجدت بالقرب من ساحل "بروڤنس – Provence"، يدل على أنه كان هناك تجارة واسعة مع بقية العالم الإسلامى.

كان ليو الرابع وخليفته الثانى "نيكولاس الأول – Nicholas I" آخر اثنين من البابوات البارزين الذين جلسوا على العرش على مدى قرن ونصف القرن، إلا إذا أضفنا إليهم المرأة الإنجليزية البابا چوان – Englishwoman Pope Joan"، التى تمكنت بكفاءة من أن تخفى جنسها على مدى ثلاث سنوات فى منصبها إلى أن – بسبب بعض التقديرات التعسة – وضعت طفلًا على سلم قصر اللاتيران.[7] من أسف أن قصة چوان تنتمى إلى عالم الأساطير، إلا أنها دلالة على فوضى وتفسخ فترة كانت حافلة بكثير من البابوات التاريخيين غريبى الأطوار: «چون الثامن – John VIII" على سبيل المثال، الذى ضربه أقاربه الحاقدون حتى الموت؛ "فورموسيوس – -Formo sus" الذى أخرجوا جثته من القبر ووضعوها للمحاكمة أمام مجلس كنسى من الأساقفة وجردوها من الكفن وألقوا بها فى التيبر، ثم تم استعادتها بمعجزة وأعيد تأهيلها وأعيدت إلى القبر، "چون العاشر – John X"، الذى خنقته ابنة عشيقته فى كاسل سان أنجلو؛ لكى تتمكن من وضع ابنها غير الشرعى من البابا "سرجيوس الثالث – Sergius III" على العرش البابوى، أو "چون الثانى عشر – John XII" الذى يقول جيبون: إنه خلال حكمه: "نعرف مدهوشين أن قصر اللاتيران تم تحويله إلى مدرسة للبغاء وأن اغتصابه للعذارى والأرامل كان رادعًا للنساء، فلم يكن يذهبن إلى كنيسة سان بيتر للحج خشية ألا يغتصبهن خليفته فى طقوسه المقدسة".

ولكن إذا كان چون الثانى عشر يمثل الدرك الأسفل من الفحش البابوى الداعر، فإنه كان كذلك مسئولًا عن إنقاذ إيطاليا. عندما وجد نفسه فى سنة 962م لا حول له ولا قوة أمام الملك الإيطالى "بيرنجر الثانى[8] – Berengar II"، لجأ إلى "أوتو – Otto" دوق "سكسونيا – Saxony" لمساعدته، كان أوتو قد تزوج حديثًا من أرملة سلف بيرنجر، وكان أكبر قوة فى الشمال الإيطالى آنذاك. هرع أوتو إلى روما حيث توجه چون إمبراطورًا. (كان ذلك الفعل هو سبب نكبة البابا الذى كان فسوقه قد بلغ شأوه، إلا أنه عندما تمرد بعد عامين على الإمبراطور الذى صنعه، جمع أوتو مجلسًا كنسيًّا

وخلعوه، وحصل على وعد من الأساقفة بأنهم سوف يحصلون على موافقة الإمبراطور من الآن فصاعدًا على أى بابا يقومون بانتخابه). رضخ بيرنجر بسرعة وترك أوتو ينفرد بالسلطة العليا... وولدت إمبراطورية الغرب مرة أخرى لتبقى حتى عصر ناپوليون.

كان لقب ''الأكبر'' الذى ألحق باسم أوتو مستحقًّا. كان لديه طموح واحد – أن يستعيد لإمبراطوريته القوة والازدهار اللذين كانا لها تحت شارلمان، وكان قاب قوسين أو أدنى من ذلك. فى سنوات حكمه الإحدى عشرة (التى قضى معظمها فى إيطاليا) عم السلام الشمال الإيطالى كما لم يحدث من قبل. روما كانت أكبر من مشكلة. فى الحمى الناجمة عن المكائد البابوية المستمرة لم تكن نقطة الاشتعال بعيدة، وفى 966م واجه الإمبراطور اضطرابات خطرة لم يستطع إخمادها إلا بعد أن علق حاكم المدينة من شعره فى تمثال الفارس أمام قصر اللاتيران.[9] كان فى الجنوب أن وجد أوتو نفسه محاصرًا بمشكلات جمة. كان يعرف أنه لن يستطيع السيطرة على شبه الجزيرة ما دامت «أبوليا – Apulia'' و''كالابريا – Calabria'' فى أيدي بيزنطة، ولكن سيطرة اليونانيين على مقاطعتهم الإيطالية كانت أقوى منه. ولما كانت الحرب غير مجدية، لجأ إلى الدبلوماسية، فزوَّج ابنه ووريثه من الأميرة البيزنطية الجميلة ''تيوفانو – Theophano''. كان مهرها سخيًّا، إلا أنه لم يكن يتضمن الشمال الإيطالى. مات أوتو محسورًا خائب الأمل. حلفاؤه السابقون، الدوقيات اللمباردية، بقيت قوية مثلما كانت، بينما بقيت أبوليا وكالابريا يونانيتين كعهدهما دائمًا.

مثل بطله شارلمان، كان أوتو سيِّئ الحظ فى خلفائه. ابنه أوتو الثانى بذل قصارى جهده، إلا أنه بعد هروبه بصعوبة شديدة من حملة عربية كانت قد دحرت جيشه فى كالابريا، مات فى سنة 983م (كان فى الثامنة والعشرين)، على إثر جرعة زائدة من الصبار وهو مريض بالحمى. (أوتو الثانى هو الإمبراطور الرومانى الوحيد المدفون فى كنيسة سان پيتر). ''أوتو الثالث – Otto III''، ابنه من تيوفانو كان على النقيض من أسلافه تمامًا، كان يجمع بين طموح سلسلة نسبه، وصوفية رومانسية مستمدة من أمه، وحلم دائم بثيوقراطية بيزنطية تضم كلًّا من الألمان والطليان واليونانيين والسلاف، يكون الرب على رأسها والبابا والإمبراطور نائبين. هذا الشاب غير العادى كان قد غادر روما بالفعل بعد تتويجه الإمبراطورى عندما هبت المدينة مرة أخرى فى ثورة عارمة، إلا أنه عاد بعد عامين قويًّا واستعاد النظام، كما أعاد الشاب الجرمانى الحالم جريجورى الخامس إلى منصب البابا، وبنى لنفسه قصرًا منيفًا على ''الأفنتاين – Aventine''.

هنا سيقضى بقية سنوات عمره فى كنف مزيج غريب من الأبهة والزهد! بلاط مسرف وطقوس احتفالية بيزنطية، يأكل فى عزلته من طبق من الذهب، يطرح رداءه الكهنوتى الأرجوانى أحيانًا ليرتدى بشكير حاج ويسير حافى القدمين إلى ضريح بعيد. فى 999م رقى معلمه العجوز "جربرت الأوريلاتى – Gerbert of Aurellac" إلى البابوية تحت اسم "سلڤستر الثانى – Sylvester II". لم يكن جربرت لاهوتيًا متميزًا فحسب، بل كان أكثر العلماء والرياضيين علمًا فى زمنه، وينسب إليه دائمًا فضل تعميم الأرقام العربية واستخدام الأسطرلاب فى الغرب المسيحى. كان لا بد من أن يكون الرومان ممتنين لإمبراطورهم لاختياره بابا بهذا الحجم، إلا أن أوتو ضاق ذرعًا بهم وهم به. فى 1001م طردوه من المدينة. مات فى العام التالى. كان فى الثانية والعشرين. وكما كان متوقعًا بالضرورة، لم يترك أثرًا.

فى إيطاليا نهاية الألفية الأولى، كانت ظواهر معينة قد تشكلت وكانت ظواهر أخرى تتشكل ببطء. الظاهرة الأولى والأهم كانت تلك العلاقة المتبادلة بين إيطاليا والبابوية والإمبراطورية الغربية. كانت إيطاليا قد عادت مرة أخرى جزءًا لا يتجزأ من الإمبراطورية، متحدة مع ألمانيا تحت حاكم واحد ولكنها تابعة، بمعنى أنها لم يكن لها رأى فى اختياره. هكذا كان الحاكم دائمًا أميرًا ألمانيًا ولم يحدث أن كان إيطاليًا قط. من ناحية أخرى، بالرغم من كونه حاكمًا اسميًا للرومان، كان بإمكانه أن تكون له مكانة الإمبراطور ولكن بعد تتويجه من قبل البابا فى روما، أما المطالبة الإمبراطورية بأحقية التعيين البابوى فلم تكن مقبولة فى إيطاليا بشكل عام، على الأقل بواسطة مجلس الشيوخ والأرستقراطية الرومانية. حتى الرحلة إلى إيطاليا عبر لمبارديا وتوسكانيا والولايات البابوية كانت صعبة بالنسبة لأى مرشح غير معروف.

فى الوقت نفسه، كانت المدن الحرة فى الشمال الإيطالى تزداد قوة باضطراد كما تزداد استقلالية. فوضى القرن التاسع وبداية القرن العاشر هى التى أعطتها هذا الشعور، كما أن السلام الذى نعمت به فى عهد أوتو الأكبر والثانى والثالث قد أفاد تطورها التجارى فأصبح الكثير منها مدنًا غنية – وبخاصة ميلانو Milan – التى كانت أول تقاطع طرق جنوبى ممرات الألب والجمهوريات البحرية المزدهرة فى جنوة وپيزا وڤينيسيا. كانت تلك ظاهرة إيطالية بامتياز. انتعاش التجارة وبدايات الصناعة المنظمة حركت فى أنحاء أوروبا الغربية تلك الاندفاعة البطيئة من الريف إلى المدن التى ما زالت مستمرة إلى اليوم، ولكن فى إيطاليا التى يوجد بها مفهوم جنينى للرابطة القومية

يتجاوز مفهوم التضامن المحلى، كانت العملية أسرع وأكثر وعيًا بنفسها منها فى أى مكان آخر. بالنسبة لمعظم الشمال الإيطالى كان الإمبراطور بعيدًا وممثلوه على درجة كبيرة من الضعف لكى يمثلوا عامل كبح مؤثر على تطورها المستقل. كانت النتيجة أن واصلت المدن الإفادة من الخلاف المتزايد بين الإمبراطورية والبابوية، البعض يستخدم دعمًا بابويًا لتمزيق ولائهم للإمبراطور والبعض الآخر يتودد له ويتعهد بدوام الولاء فى مقابل امتيازات إمبراطورية. وهكذا فى خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر ولدت الدولة – المدينة الإيطالية، التى تحكم نفسها ذاتيًا حسب نظام مجتمعى على النموذج الرومانى، قوى بما يكفى لكى – تحمى نفسها ضد كل القادمين – بما فى ذلك ضد بعضهم البعض – ولممارسة عملية شد تجاذبى على الأرستقراطية المحلية. وهكذا فى الوقت نفسه، بذرت بذور ذلك الصراع المقيت الذى ارتبط فيما بعد بأسماء "جيولف – Guelf" المناصر للبابوية و"جيبيلين – Ghibelline" المناصر للإمبراطورية، ذلك الصراع الذى كان من شأنه أن يمزق شمال ووسط إيطاليا لقرون تالية.

كان ذلك المزيج القديم من الاضطراب والفساد الأخلاقى ما زال سائدًا فى روما والولايات الإيطالية؛ حيث كانت الأسر الكبيرة المتنافسة: "الكريسنتى – Crescenti" وكونتات تاسكولم Tusculum وغيرها – يلتفون باستمرار حول عرش سان بيتر بلا توقف. على أنه هنا، وفى داخل مجلس الشيوخ نفسه أن كانت روح جديدة قد بدأت تظهر، وبدأ وعى ينمو بحاجة الكنيسة إلى أن تنفض عن نفسها عار القرن الماضى وتستعيد صعودها الفكرى والأخلاقى إن كان لها أن تبقى على قيد الحياة. كانت تلك روح "كلونى – Cluny"، الكنيسة الفرنسية الكبرى الأم للإصلاح. كانت هناك ملحقية كلونية فى روما على مدى الخمسين سنة السابقة، كان تأثيرها يبدو ضئيلًا فى البداية ولكن نموذجها وتعاليمها كانت قد بدأت فى الظهور.

وهكذا، فيما يتعلق بشمال ووسط إيطاليا، فإن التوجه الأهم الذى كان يشكل مجرى الأحداث فى القرن الحادى عشر – تسريع الصراع بين إمبراطورية متعجرفة وبابوية تستعيد نشاطها مع مدن لمبارديا وتوسكانيا التى كان اعتمادها على نفسها يتزايد – هذا التوجه كان يمكن تبينه فعلًا مع بداية القرن. من ناحية أخرى، لم يقدم الوضع فى الجنوب فى سنة 1000م أى خيط لحل لغز التطورات الهائلة المتوقعة. كان اثنان من أبطال المنطقة الأربعة فى القرن العاشر قد انسحبا: الإمبراطورية الغربية لم تبد اهتمامًا أبعد من هزيمة أوتو الثانى الكبيرة، بينما كان يبدو أن العرب قد تخلوا عن فكرة إقامة

مستوطنات دائمة على البر الرئيسى، برغم استمرار إغارتهم وأعمال القرصنة التى كانوا يقومون بها انطلاقًا من صقلية. هذا الغياب للإمبراطورية الغربية والعرب، أدى إلى استقطاب بين الطرفين الباقيين: اللمباردى والبيزنطى، اللذين كان من المتوقع أن يستمر قتالهما المتقطع إلى ما لا نهاية لو أنهما تركا لنفسيهما. على أية حال، كان هناك الآن قادمون جدد من الشمال، لا يقلون عنهم قوة وشجاعة وذكاء، تفوقوا عليهم ثم أطاحوا بهم فى أقل من خمسين عامًا.

قصة النورمانديين فى الجنوب الإيطالى تبدأ منذ 1015م تقريبًا بمجموعة مكونة من نحو أربعين حاجًا من الشباب النورمندى عند ضريح الملاك ميكائيل فى "مونت جارجانو – Monte Gargano"، ذلك البروز الصخرى الغريب الناتئ مما يمكن أن يطلق عليه حافر إيطاليا فى الأدرياتكى. عندما وجدوا فرصة فى تلك الأراضى الصعبة قليلة السكان، كان من السهل أن يقتنعوا برأى بعض زعماء اللمبارد بالبقاء فى إيطاليا كمرتزقة بهدف طرد البيزنطيين من شبه الجزيرة. انتقلت الأخبار بسرعة إلى نورمنديا، وبدأ توافد المغامرين من الشباب صغار السن ليصبح ذلك هجرة مضطردة. كانوا يحاربون لحساب من يدفع أكثر، ثم بدأوا يحصلون على أراض مقابل خدماتهم. فى 1030م، منح الدوق "سيرجيوس – Duke Sergius"، حاكم نابولى – وهو ممتن لدعمهم له – قائدهم "راينولف – Rainulf" مقاطعة أڤيرسا County of Aversa. بدءًا من تلك اللحظة، أصبح تقدمهم سريعًا، وعندما شكل البابا ليو التاسع جيشًا قويًا وقاده بنفسه ضدهم، هزموه فى ميدان سيڤيتات وأخذوه أسيرًا.

فى ذلك الوقت، كانت السيادة بين زعماء النورمنديين لأسرة "تانكريد دو هوتڤى – Tancred de Hauteville" وهو فارس نورمندى مغمور من شبه جزيرة "كوتنتين – Cotentin"، كان ثمانية من أبنائه الاثنى عشر قد استقروا فى إيطاليا ليصبح خمسة منهم من كبار القادة. بعد "سيڤيتات – Civitate"، تغيرت السياسة البابوية، وفى 1059م منح البابا "نيكولاس الثانى – Nicholas II" روبرت دو هوتڤى، المكنى بـ "جيسكار (المكار) – Guiscard (the Crafty)" دوقيات أبوليا وكالابريا وصقلية. فى هذه المناطق، كان جزء كبير من أبوليا ومعظم كالابريا قد ظل يونانيًا، بينما كانت صقلية فى أيدى العرب؛ ولكن روبرت المستقوى بشرعيته الجديدة لن يظل مقيدًا طويلًا. بعد عامين سيعبر هو وأخوه الأصغر روچر مضايق "مسينى" وسيستمران على مدى العقد التالى فى الضغط على العرب سواء فى صقلية أو البر الرئيسى. سقطت بارى فى

1071م وسقطت معها بقايا القوة البيزنطية فى إيطاليا. مع مطلع العام التالى، سقطت باليرمو وتحطمت قبضة المسلمين على صقلية إلى الأبد، وفى 1075م كان سقوط ساليرنو، آخر إمارة نورمندية. بنهاية القرن كان النورمنديون قد قضوا على المعارضة الأجنبية. كانوا يحكمون كل إيطاليا جنوب نهر جارجليانو ويبسطون سيادتهم منفردين، بينما كانوا ماضين فى طريقهم فى صقلية لتأسيس أرقى بلاط فى العصور الوسطى.

** ** **

كان الأباطرة الغربيون فى القرن الحادى عشر أقل اهتمامًا وانشغالًا بإيطاليا عن الأوتوز[10] – The Ottos. لم يترك "هنرى الثامن التقى – Henry II the Holy" ولا "كونراد الثانى – Conrad II" أى بصمة على شبه الجزيرة، كذلك لم يكن هناك أى احتمال أن يقوم "هنرى الثالث – Henry III" خليفة كونراد بأى شىء لو لم يتدهور الوضع فى روما، لدرجة أنه فى سنة 1045م كان ما لا يقل عن ثلاثة باباوات يتناحرون متنافسين على التاج الباباوى. هرع هنرى إلى روما وخلع الثلاثة، ولكن الاثنين اللذين عينهما على التوالى لم يفصل بينهما أكثر من سنة – الثانى منهما، "داماسوس الثانى – Damasus II" مات بعد ثلاثة وعشرين يومًا فى ظروف يحوم حولها دس السم له – ولم ينعقد مجلس للأساقفة إلا فى 1048م فى "ورمز – Worms"، ليصوت بالإجماع للأسقف "برونو التولى – Brono of Toul"، وهو ثانى أبناء عم الإمبراطور.

مع برونو، الذى اتخذ اسم "ليو التاسع – Leo IX" استعادت الكنيسة هيبتها. انكسرت الموجة الكريهة التى وصمت روما بالعار، وبالرغم من أن البابا مات بعد ست سنوات فقط (كان النورمنديون قد أسروه فى سيفيتات ولم يفق من ذلك الامتهان قط)، كان قد وضع الأساس بالفعل لباباوية تم إصلاحها وبث الحيوية فيها. كان فى إنجازه ذلك يحظى بدعم كامل من الإمبراطور، وهى ميزة لم يحظ بمثلها خلفاؤه؛ وبموته فى 1054م، وموت هنرى بعد عامين، انتهت فترة التعاون الوثيق السريعة بين الإمبراطور والبابا. كان من المفارقات الساخرة فى حياة هنرى أنه فى محاولته لجعل الباباوية حليفًا، نجح فى صنع خصم منافس. بعد أن استعادت الكنيسة قوتها وفعالية تأثيرها، بدأت الآن تبحث عن السلطة – المسعى الذى وضعها فى صراع مع المصالح الإمبراطورية، وخاصة عندما كان ذلك متبوعًا بالإصرار العنيد من رئيس أساقفة مثل "هيلدبراند – Hildebrand".

على مدى ثلاثين عامًا تقريبًا، قبل انتخابه ليكون البابا "جريجورى السابع – Gregory VII" فى 1073م، لعب هيلدبراند دورًا قياديًا فى الشؤون الكنسية. طوال عمله فى منصبه، كان هناك هدف واحد نصب عينيه: أن يفرض على جميع المسيحيين، بدءًا من البابا، طاعة عمياء للكنيسة. عاجلًا أو آجلًا إذن كان الصدام حتميًا، وهو ما حدث، على غير توقع، فى ميلانو. فى سنة 1073م أثناء صراع على منصب رئيس الأساقفة الخالى، فاقم "هنرى الرابع – Henry IV" ابن هنرى الأمور بإعطاء المنصب رسميًا لأحد المرشحين، بينما كان يعرف تمامًا أن ألكساندر الثانى، سلف البابا جريجورى، كان قد وافق بالفعل على تعيين شخص آخر طبقًا للقواعد الكنسية. كان ذلك فعل تحد واضح لم تستطع الكنيسة تجاهله، وفى 1075م أدان جريجورى كل عمليات التعيين الكنسية بواسطة الأشخاص غير الإكليركيين، ووضعها تحت طائلة عقوبة "الحرم الكنسى – Anathema"، وإذ ذاك قام هنرى الغاضب بتعيين أسقفين ألمانيين آخرين فى الأبرشيات الإيطالية، مضيفًا أسقفًا لـ: ميلانو، بالرغم من أن سابقه المعين كان ما زال على قيد الحياة؛ ثم رافضًا استدعاء بابويًا إلى روما لكى يفسر ما أقدم عليه، قام هو بدعوة مجلس عمومى لكل الأساقفة الألمان فى 24 يناير 1076م، وخلع جريجورى من منصب البابا.

كان من الواضح أنه قد تمادى إلى درجة الشطط. أدى خلع البابا وحرم هنرى كنسيًا وإعفاء كل رعاياه من الولاء للدولة، أدى كل ذلك إلى ثورات فى ربوع ألمانيا، كانت نتيجتها تركيع الإمبراطور بمعنى الكلمة. عابرًا الألب فى يناير 1077م فى عز الشتاء مع زوجته وطفله الرضيع كان أن وجد جريجورى فى قلعة "كانوسا – Canossa"، وهناك بعد ثلاثة أيام من المذلة والامتهان – حصل على الغفران الذى كان يريده.

قصة كانوسا، التى عادة ما يصحبها صورة للإمبراطور وهو عارى القدمين يرتدى الخيش ويرتعد من البرد أمام أبواب القلعة المعلقة، هذه القصة كانت دائمًا مادة لمؤلفى كتب التاريخ للأطفال، باعتبارها درسًا عن غرور الأطماع الدنيوية. الحقيقة أن انتصار جريجورى كان فارغًا وسريع الزوال، وكان هنرى يعرف ذلك. لم يكن لديه أية نية للوفاء بوعوده فى الخضوع؛ وفى 1081م، عبر إلى إيطاليا مرة أخرى – ولكن على رأس جيش هذه المرة. فى البداية ظلت روما قوية صامدة، إلا أن هنرى تمكن من اختراق دفاعاتها بعد عامين. جرت محاولات قليلة فاترة للتفاوض ولكنها توقفت، ويوم عيد الفصح فى 1084م ... تم تتويجه إمبراطورًا بواسطة البابا الزائف كليمنت الثالث، الذى كان هو قد عينه.

حتى الآن، كان جريجورى المتمرس فى كاسل سان أنجلو يرفض الاستسلام. كانت ما تزال فى يده ورقة واحدة أخرى يلعب بها. لم يهرع النورمنديون الذين كان يلجأ إليهم دائمًا فى الملمات لمساعدته. كان روبرت چيسكار مشغولًا تمامًا بحملة فى البلقان ضد الإمبراطورية الشرقية؛ ولكن فجأة .. ظهر روبرت فى مايو 1084م على رأس جيش قوامه ستة وثلاثون ألف مقاتل أمام أسوار روما. انسحب هنرى، الذى كانت قواته أقل عددًا، فى الوقت المناسب. اندفع النورمنديون عبر "پورتا فلامينيا – Porta Flaminia"، وعلى مدى ثلاثة أيام كانت المدينة مسرحًا لكل أعمال السلب والنهب والقتل. عندما عاد الهدوء، كانت المنطقة ما بين الكولوسيوم واللاتيران قد احترقت تمامًا. عانت روما من أبطال البابا أكثر مما عانت من القوط والوندال. روبرت الذى لم يكن يجرؤ على أن يترك جريجورى التعس تحت رحمة الجماهير، رافقه جنوبًا إلى ساليرنو حيث قضى نحبه فى العام التالى. كانت آخر كلمات البابا التى وصلتنا تقول ساخرة مع شعور بالأسى ورثاء الذات، "لقد أحببت الصلاح والاستقامة، وكرهت الظلم، ولذا أموت فى المنفى".

كانت وداعية مريرة، ولكن إنجاز جريجورى كان أعظم مما يعرف. لقد أقام فى النهاية سيادة بابوية تعتمد على التراتبية الكنسية – انتهت تمامًا ممارسات تعيين العامة فى المناصب الكنسية فى أوائل القرن التالى – حتى وإن لم يكن قد حقق انتصارًا مماثلًا على الإمبراطورية، فإنه على الأقل أكد مطالبه بحيث أصبح من المستحيل تجاهلها مرة أخرى. لقد كشرت الكنيسة عن أنيابها، وسيعمل أباطرة المستقبل لها ألف حساب.

** ** **

هيأت أحداث القرن الحادى عشر، وبخاصة ضعف القبضة الإمبراطورية عندما اكتسب صراع التعيين الكنسى زخمًا، هيأت المناخ المناسب لتطور الدول – المدن اللمباردية والتوسكانية. ولكن بينما كانت هذه التوجهات الانشطارية والجمهورية تشكل مصائر الشمال الإيطالى، كان الجنوب يتطور على خطوط متعارضة. هنا أيضًا، كانت توجد مدن تجارية مثل ناپولى وساليرنو وأمالفى، وكلها صاحبة تاريخ طويل من الاستقلال. خارج هذه المدن، كانت طاقة النورمنديين قد لحمت هذه الأراضى ببعضها البعض لأول مرة فى خمسة قرون، وفرضت عليها إقطاعًا أوتوقراطيًا أكثر تشددًا من أى نظام سبق أن عرفه الشمال. مات روبرت چيسكار فى 1058م، فى حملة على القسطنطينية[11] تاركًا ممتلكاته على البر الرئيسى لابنه، ولكن السيطرة الفعلية على صقلية كانت لأخيه (كان قد أصبح الآن الكونت روچر الأكبر)، الذى كان إلى حد كبير

هو المسئول عن غزوها. كان ذلك قرارًا صائبًا؛ حيث إنه مكن روجر من إحكام القبضة النورمندية على الجزيرة؛ حيث كانت المقاومة العربية على بعض أجزائها ما زالت على أشدها. فى السنوات الست عشرة التى أمضاها بعد أخيه، وضع أسس دولة منظمة آمنة، وهى الأسس التى سيبنى ابنه عليها بنجاح.

وجدت روما فى روجر الثانى واحدًا من أعظم وأبرع حكام العصور الوسطى. روجر، المولود لأم إيطالية، نشأ فى صقلية حيث – بفضل مبادئ أبيه فى التسامح الدينى – اندمج اليونانيون والعرب على قدم وساق مع النورمنديين واللاتين، فالمظهر جنوبى، والطباع شرقية ولكنه ورث الطموح والجسارة عن أسلافه النورمنديين، وجمع إلى ذلك كله موهبة فى الإدارة المدنية كانت أبرز ما يميزه. فى 1127م استولى على البر النورمندى الرئيسى من ابن عم له، كان فاشلًا عديم الكفاءة، وبذلك أصبح أحد قادة أوروبا البارزين. لم يكن ينقص روجر سوى مؤهل واحد قبل أن ينافس أقرانه من الأمراء: كان فى حاجة ماسة إلى تاج.

جاءته الفرصة فى فبراير 1130م فى ذلك الشكل المألوف: الصراع على خلافة البابا. كان البابا «أونوريوس الثانى – Honorius II» يحتضر. كان خليفته المتوقع هو الكاردينال "بيترو بييرليونى – Pietro Pierleoni"، الممثل البابوى السابق لدى "هنرى الأول – Henry I" ملك إنجلترا، وكان رجل دين يتمتع بقدرات متميزة وتاريخ لا غبار عليه، إلا أنه بالرغم من ذلك كله وبالرغم من أنه كان ينحدر من أسرة ذات أصول يهودية غنية ومتنفذة، لم يكن يلقى قبولًا من الجناح الإصلاحى المتطرف فى مجلس الشيوخ. وبينما كانت الأغلبية تنادى بـ"بييرليونى" ليكون البابا باسم "أناكليتوس الثانى – Anacletus II"، فإن الجناح المتطرف اختار مرشحه الذى اتخذ اسم "إنوسنت الثانى – Innocent II". وفى غضون أيام قليلة أصبح وضع إنوسنت شديد الخطورة لدرجة أنه اضطر لمغادرة روما – إلا أن رحيله كان إنقاذًا له. بمجرد أن وجد نفسه فوق الألب، وجدت قضيته التى كان يتصدى للدفاع عنها "سان برنار الكليرڤوى – St Bernard of Clairvaux"، أكبر الزعماء السياسيين المخربين وأكثرهم تأثيرًا فى عصره، وجدت هذه القضية دعمًا من كل أوروبا المسيحية. كانت روما ... وروجر هما كل ما تبقى لـ : أناكليتوس. كانت شروط روجر: دعم نورمندى مقابل تاج. وافق البابا فورًا، وكان أن تم تتويج روجر ملكًا على صقلية وإيطاليا فى كاتدرائية پاليرمو يوم عيد الميلاد فى 1130م، فى جو من الأبهة غير المسبوقة.

إلا أن متاعب روجر لم تنته. مات أناكليتوس فى 1138م، ثم مات إنوسنت فى

العام التالى، وبعد أن شعر أخيرًا بالاطمئنان على عرشه، قام شخصيًا بقيادة جيش ضد المملكة الجديدة. كانت غلطة الباباوات دائمًا أن يخرجوا لملاقاة النورمنديين فى ميادين القتال. وقع إنوسنت فى الأسر عند نهر جارجليانو - تمامًا مثلما كان قد حدث لـ: ليو التاسع فى سيڤيتات - ولم يحصل على حريته إلا بعد أن اعترف رسميًا بأحقية روچر فى التاج. إلا أن الملك كان يمثل خطرًا داهمًا على الحدود الجنوبية للدول البابوية لكى تقبل بتسوية حقيقية. كذلك، لم تكن علاقته بالإمبراطوريتين أفضل حالًا. كانت كلتاهما تراه خطرًا على استقلالها، وفى سنة 1146م فشلت حتى دبلوماسية روچر الملتوية فى منع تحالف القوى الثلاث ضده. لم ينقذه سوى الحملة الصليبية الثانية، تلك الحملة الفاشلة التى كانت ثمنًا دفعه أمراء أوروبا نتيجة تركهم سان برنار يتدخل فى شؤونهم.

بالرغم من كل مشكلاته، الخارجية والمحلية (حيث كان الإقطاعيون الأقوياء فى أبوليا فى حالة دائمة من العصيان أثناء حكمه)، كانت قوة روچر تتزايد، وكذلك أبهة بلاطه. البحرية التى أنشأها تحت قيادة الأدميرال[12] الممتاز «چورچ الأنطاكى - George of Antioch"، أصبحت قوة متفوقة فى البحر الأبيض بالرغم من عداء الجمهوريات البحرية الإيطالية. غزا مالطة والساحل الشمالى الأفريقى من طرابلس إلى تونس.[13] كما كانت هناك إغارات على القسطنطينية نفسها وكذلك على كورنثة وتيبس - Thebes، وكانت الأخيرة مركز صناعة نسج الحرير البيزنطية، ولذلك كان يتم جلب الحرفيين الأسرى من هناك للعمل فى ورش پاليرمو.

هنا فى قصوره واستراحاته وسط بساتين البرتقال، سيقضى روچر السنوات العشر الأخيرة من حياته، مع مساعديه ورجال بلاطه المتعدد اللغات - كانت اللاتينية واليونانية والعربية لغات رسمية للمملكة - يناقش العلوم والفلسفة مع أبرز علماء العصر فى العالم (حيث كانت صقلية آنذاك القناة الرئيسية التى مرت من خلالها العلوم والمعارف اليونانية والعربية إلى أوروبا)، أو مسترخيًا، مثل أى حاكم شرقى، فى جناح الحريم العامر.

مأثرته الرائعة هى الكنيسة البلاطينية - The Palatine Chapel التى بناها فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن الثانى عشر فى الدور الأول من القصر الإمبراطورى فى پاليرمو. الكنيسة حسب تصميمها مؤسسة على الطراز اللاتينى التقليدى، مع صحن رئيسى يحيط به من الجانبين ممران وبضع درجات تؤدى إلى حرم دائرى مقبب. الأرضية والجدران السفلية لاتينية كذلك رغم الفخامة التى تبدو عليها، رخامها الأبيض المائل للصفرة المطعم برقائق الذهب والزخارف، يشع روعة وجمالًا. كل بوصة مربعة من الجدران العليا تغطيها الفسيفساء البيزنطية الفخمة التى تعود إلى العصر نفسه.[14]

الواضح أن كل هذا الجمال كان من إبداع حرفيين يونانيين جيء بهم من القسطنطينية، وكان ذلك وحده كفيلًا بأن يجعل من الكنيسة جوهرة فريدة نادرة. يعلو هذه الجدران سقف تتدلى منه أعمدة على الطراز العربى أشبه بالحليمات، سقف هو مفخرة لفنون قرطبة أو دمشق.

كان أهم إنجاز سياسى لـ : «روجر»، هو أنه جمع حضارات المتوسط الثلاث معًا – اللاتينية واليونانية والعربية – وجعلها تعمل معًا فى سلام ووئام، ويحسب له أنه فعل ذلك فى قرن كان الصراع بينهم فيه على أشده، فى كل مكان: قرن الحملات الصليبية، وبعد مائة عام من ذلك الإنشقاق الكبير بين الكنيستين الشرقية والغربية.

هنا، فى هذا المبنى الصغير، نجد تعبيرًا بصريًا رائعًا عن ذلك الإنجاز. نراه كذلك فى منشأة الملك الكبرى الأخرى فى «كيفالو – Cefalú»، وهنا ربما يكون التأثير العربى أقل وضوحًا، إلا أن صورة المسيح المرسومة بالفسيفساء البيزنطية فى القبة الشرقية العليا - هى بالتأكيد أعظم صورة ليسوع المخلص فى كل الفن المسيحى.

** ** **

فى الوقت نفسه، كانت رياح التغيير بعد أن هبت عبر الشمال الإيطالى، تتحرك بهدوء فى اتجاه روما. فى 1143م، انفجر عصيان مدنى فى المدينة وتم إنشاء مجلس شيوخ مرة أخرى. النظام البابوى قاوم بشدة – فى 1145م مات البابا «لوقيوس الثانى – Lucius II" متأثرًا بجراح كان قد أصيب بها عند اقتحام الكابيتول – ولكن الحركة الطائفية كانت تكتسب أرضًا باضطراد، وبخاصة بعد وصول "أرنولد البريشى – Arnold of Brescia"، الذى كان راهبًا شابًا متقد الحماسة، امتزجت نزعة الزهد الشديدة فيه بتوجه جديد فى الفكر الدينى: الفلسفة السكولاستية.[15] كان هذا الضرب من التفكير قد نما خلال القرن السابق فى فرنسا، تحت لاهوتيين مثل «بيتر أبيلار – Peter Abelard"، معلم أرنولد القديم، وبدأ يتجذر فى إيطاليا. هذا الفكر فى جوهره توجه يبعد عن التأمل اللاعقلانى القديم ويتجه نحو روح جديدة للتساؤل المنطقى والعقلانى فى المسائل الروحية، وكان أحد مؤثريْنِ سائدين فى حياة أرنولد. الثانى كان الاهتمام المستعاد بالقانون الرومانى، الذى كان مطروحًا آنذاك فى جامعة "بولونيا – Bolog-nea". من هذين المؤثرين طور أرنولد نظريته التى كان يروج لها دون كلل أو ملل فى شوارع وساحات روما، ومفادها أن الكنيسة ينبغى أن تخضع نفسها كلية، فى كل ما هو زمنى، للسلطة المدنية للدولة، متخلية عن كل سلطة دنيوية، وتعود إلى الزهد الصافى للآباء الأوائل. كانت تلك مادة خطرة: بالنسبة لـ "سان برنار"، الذى كان

يبشر بآراء مناقضة لذلك تمامًا وبنفس الدرجة من القوة، والذى كان قد أدان بالفعل أبيلار وأرنولد معًا فى مجلس الشيوخ فى سنة 1140م، كانت هذه المادة لعنة بالنسبة له. لكن برنار نفسه لم يستطع أن يخفف من قبضة أرنولد على روما. سيكون ذلك هو الإنجاز المشترك لشخصين آخرين من أهم رجال القرن الذى ينتميان إليه: الإمبراطور "فردريك بربروسا – Frederick Barbarossa" و"نيكولاس بريكسبير – Nicholas Breakspear"، الذى كان الإنجليزى الوحيد الذى شغل عرش سان بيتر، بلقب "البابا أدريان – Pope Adrian" (أو هادريان).

من البداية، أوضح أدريان أنه لن يأخذ أوامر من أحد. وعندما وجد المجتمع الرومانى يمنعه – بدعم من أرنولد – من الوصول إلى اللاتيران، جاء رده سريعًا. فى وقت باكر من عام 1155م، تم وضع روما كلها تحت حرم كنسى، استمر حتى طرد أرنولد من المدينة. لم يكن أى بابا قد جرؤ على اتخاذ خطوة كتلك من قبل ... ولكنها أثبتت جدواها. كان "أسبوع الآلام – Holy Week" يقترب، ولم يكن من المتصور أن يكون هناك عيد للقيامة دون عراب. تأجج الشعور العام ضد المجمع. فجأة، اختفى أرنولد ليجد أدريان نفسه حرًّا مرة أخرى، وترأس يوم عيد القيامة قداسًا كبيرًا فى اللاتيران كما كان مخططًا.

"فريدريك هوهنشتوفن – Frederick of Hohenstaufen"، ملك الرومان ومن ثم الإمبراطور المنتخب منذ 1152م احتفل بالعيد فى "بافيا – Pavia". كان قد تلقى تاج لمبارديا الحديدى حديثًا فى احتفال أكثر رمزية من المعتاد – كان كثير من المدن اللمباردية على رأسها ميلانو قد أصبحت تعارض الإمبراطورية الآن بكل وضوح – وكان متجها إلى الجنوب من أجل تتويجه إمبراطورًا فى روما. بالقرب من "سيينا – Sienna" قابله موفدون رسميون من قبل البابا بطلب عاجل: كانت مساعدته مطلوبة فى الإمساك بـ "أرنولد البريشى"، الذى كان محتميًا بقلعة قريبة. لم يكن ذلك يمثل مشكلة بالنسبة لجيش فردريك. سلم أرنولد نفسه بسرعة وأعيد إلى روما، وبعد أن أدانه قاضى المدينة، شنق ثم أحرق جثمانه وألقى برماده فى التيبر.

إلا أن توقع وصول فردريك الوشيك إلى روما كان قد بدأ يثير القلق فى الإدارة البابوية. بصعوبة – ولانعدام الثقة المتبادل بين الطرفين – تم ترتيب لقاء بين الملك والبابا بالقرب من "سوترى – Sutri". انتهى اللقاء بالفشل تقريبًا؛ لأن بربروسا ظل على مدار يومين رافضًا أن يقوم بالعمل الرمزى، وهو الإمساك باللجام والركاب لأدريان وهو يترجل عن فرسه، وفى النهاية تم التوصل إلى اتفاق وانطلق الاثنان معًا إلى روما، وسرعان ما

اعترض طريقهما مندوبون عن العامة: إذا كان فردريك يريد أن يدخل المدينة فلا بد من أن يدفع إتاوة وأن يضمن لكل المواطنين حرياتهم المدنية. رفض الملك رفضًا باتًّا وعاد المندوبون شاعرين بالأسف؛ إلا أن أدريان الذى كان يستشعر متاعب قادمة، أرسل من فوره قوة متقدمة للاستيلاء على المدينة الأشبه بالأسد. عند أول ضوء فى الصباح التالى تسلل هو وفردريك سرًّا ودخلا روما، وبعد ساعات قليلة تم تتويج الإمبراطور الجديد. وصل الخبر إلى المجمع الذى كان منعقدًا لمناقشة أفضل الطرق لمنع التتويج. قام العامة والميلشيا بالهجوم على الفاتيكان بعد أن غضبوا لشعورهم بالخديعة. استمر القتال طوال اليوم مع سقوط ضحايا من الجانبين فى المذبحة، إلا أن القوات الإمبراطورية كانت قد تمكنت من السيطرة على الوضع فى المساء، وانسحبت فلول المهاجمين عبر النهر.

بعد أن حصل فردريك على بغيته عاد إلى ألمانيا، أما بالنسبة لـ : أدريان، فقد كان ذلك انتصارًا فارغًا عديم القيمة. بدون قوات الإمبراطور التى تحميه، لم يستطع البقاء فى روما، وكان قد فشل تمامًا فى حشد دعم فردريك ضد وليم الأول "الطالح" – William I (the bad) ملك صقلية، ابن روجر الثانى وخليفته، الذى كان ما زال رافضًا الاعتراف به. كان أمله الكبير فى إسقاط المملكة الصقلية، قد بات الآن فى يد بارونات أبوليا، الذين كانوا مرة أخرى فى حالة ثورة مدعومة هذه المرة بجيش بيزنطى. إلا أن الحظ لم يحالفه، ولم يكن وليم يستحق لقبه الذى يبدو أنه كان بسبب مظهره الشرير ولون بشرته الداكن وقوته الجسدية الهرقلية - أكثر مما هو بسبب أى عيوب فى شخصيته. صحيح أنه كان أكثر كسلًا من أبيه وأكثر حبًّا للملذات والمتع لكنه كان يحتفظ بموهبة "آل هوتڤى – Hauteville" فى قدرته على أن يفنى نفسه وكل من حوله عندما يواجه أزمة. فورًا، انطلق من صقلية على رأس قواته الصدامية المكونة من جنود عرب، سحق اليونانيين والمتمردين فى أبوليا وبرنديزى، ثم انطلق ليحاصر أدريان فى "بنيڤنتو – Benevento". للمرة الثالثة كان لدى النورمانديين بابا عظيم لنجدتهم. فى يونيو 1165م، عندما وجد نفسه مجبرًا على الاستسلام، قام أدريان بتثبيت وليم فى مملكته الصقلية.

فى هذا الموقف المخزى، سرعان ما وجد البابا سببًا ليكون سعيدًا بتصرفه؛ لأن بربروسا كان أكثر خطرًا على البابوية من وليم. خلال صيف 1158م عاد إلى روما، وفى مجلس رونكاجليا التشريعى – Diet of Roncaglia ترك المدن الإيطالية واثقة من مفهومه للسيادة الإمبراطورية؛ حيث هدم أربعة حكماء مشاهير من بولونيا – الجامعة التى كان كثيرًا ما يوليها عناية خاصة – كل مثلهم المحبوبة عن الاستقلال

المحلى مبينين أنه ليس له أى أساس قانونى. وعليه أعلن أن كل مدينة ستكون خاضعة للسيادة الإمبراطورية الكاملة من خلال حاكم (پودستا – Podesta) أجنبى. كان أثر ذلك شديدًا على لمبارديا كلها وكأنه شحنة كهربية، ولكن فردريك كان قد جاء مستعدًا لمواجهة المتاعب. فى 1159م، قام فى "كريما – Crema" بتقييد خمسين رهينة كان من بينهم أطفال وربطهم بآلات الحصار لمنع المدافعين من القيام بهجوم مضاد، وفى 1162م استطاع أن يُرَكِّع أهالى ميلانو وأن يدمر مدينتهم تمامًا، لدرجة أنها ستبقى خربة ومهجورة طوال السنوات الخمس التالية. إلا أن ما حدث أدى إلى زيادة مقاومة المدينة. بعد نسيان الخصومات القديمة شكلوا "الرابطة اللمباردية الكبرى – Great Lombard League" للدفاع عن حرياتهم.

كان البابا أدريان قد مات فى 1159م. كان من الواضح، من وجهة نظر فردريك، أن الكثير كان يتوقف على اختيار من يخلفه، كما كان على دراية تامة بأن المرشح الأكثر احتمالًا، كان هو الكاردينال "رولاند بانديللى – Roland Bandielli"، الذى كان مثل أدريان معارضًا صلبًا لمطالبه. لا نعرف إلى أى مدى كان مسئولًا عما حدث بعد ذلك، إلا أن كل ما يمكن أن يقال هو أن عملية تقليد المنصب التى تمت بعد يومين من انتخاب رولاند فى سان پيتر فى 7 سبتمبر، كانت الأكثر غرابة وإهانة فى تاريخ البابوية. جاؤوا برداء البابوية القرمزى، وبعد تظاهر البابا الجديد بالتردد، أحنى رأسه لكى يلبسه. فى نفس اللحظة اندفع أوكتاڤيان، كاردينال سان سيسيليا نحوه، وانتزع الرداء وحاول أن يرتديه. فى الشجار الذى حدث أفلت الرداء ولكن مساعده أخرج رداء آخر فى الحال – يبدو أن ما حدث كان متوقعًا – وهذه المرة تمكن أوكتاڤيان من ارتدائه ... بالمقلوب للأسف، قبل أن يستطيع أحد أن يوقفه.

بعد ذلك حدثت فوضى لا يمكن تصورها. بعد تخليص نفسه بصعوبة من أيدى مؤيدى رولاند الذين كانوا يحاولون تمزيق الرداء من الخلف، نجح أوكتاڤيان بجهد جهيد فى أن يستدير لكى تلتف شراشيب الرداء حول عنقه، ثم اندفع نحو العرش البابوى.. جلس عليه وأعلن نفسه البابا "ڤيكتور الرابع – Pope Victor IV". ثم خرج متثاقلًا من الباسيليقا، إلى أن وجد جماعة من رجال الدين الصغار – أمرهم بأن يهتفوا له ويؤيدوه – فنفذوا الأمر صاغرين لأنهم رأوا الأبواب تفتح ويدخل منها مجموعة من السفاحين المسلحين. سكتت المعارضة مؤقتًا – على الأقل – وتسلل رولاند وأتباعه خارجين حيث احتموا ببرج كنيسة سان پيتر. فى نفس الوقت، وبينما كان السفاحون يرقبون الموقف، كان يتم تتويج أوكتاڤيان على نحو أكثر رسمية منه فى المناسبة السابقة، ثم رافقوه منتصرًا إلى

اللاتيران – بعد أن بذل جهدًا كبيرًا كما يقال لكى يعدل وضع الرداء على كتفيه قبل المغادرة.

رغم تنفيذه على هذا النحو الشائن، يبدو أن الانقلاب كان مدبرًا وبدرجة لا تترك مجالًا للشك فى تورط الإمبراطورية بقوة. كان معروفًا عن أوكتاڤيان منذ زمن بأنه من مؤيدى الإمبراطورية، وعلى الفور تم الاعتراف بانتخابه من قبل سفيرى فريدريك فى روما، اللذين بدأا فى الوقت نفسه حملة محمومة ضد رولاند. فشلت هذه الحملة؛ إذ لم يمر وقت طويل حتى التف الرأى العام فى روما بقوة حول البابا الشرعى الذى تم تكريسه رسميًا فى العشرين من سبتمبر فى مدينة "نيفا – Nifa" الصغيرة ليصبح البابا "ألكساندر الثالث – Alexander III". بقيت الكنيسة فى حالة انقسام فعلى، إلا أن أوكتاڤيان بدأ يفقد دعمه بالتدريج. مات فى "لوكا – Lucca" فى 1164م؛ حيث كان يعيش على عائدات لصوصية فاشلة، وحيث لن تسمح الهيئة الكهنوتية المحلية بأن يدفن داخل أسوارها.

منحت ڤينيسيا وصقلية والبابا ألكساندر – بمجرد أن كان قادرًا على ذلك – تأييدهم النشط للرابطة اللمباردية، وسرعان ما بدأ فريدريك يشعر – ربما للمرة الأولى – بوزن المقاومة الإيطالية. سرعان أيضًا ما بدأ حظه ينقلب. فى 1167م فشل زحفه على روما عندما انتشر الطاعون فى الجيش الإمبراطورى واضطر الإمبراطور للتراجع. كان بلا دفاعات تقريبًا عندما عبر لمبارديا المعادية واستطاع بجهد جهيد أن يسحب من بقوا على قيد الحياة معه إلى الألب. عاد فى 1176م، إلا أن الزخم كان قد زال، وفى 29 مايو 1176م طوقت قوات الرابطة فرسانه بالقرب من "ليجنانو – Legnano"، وكانت تلك نهاية طموحات فريدريك فى لمبارديا. سيقبل قدم البابا ألكساندر على مرأى من الجميع على سلم كنيسة سان مارك[16] فى العام التالى، وفى 1183 فى «كونستانس – Constance" ستصبح هدنة ڤينيسيا معاهدة. بالرغم من أن السلطة الإمبراطورية العليا كانت محفوظة من الناحية الرسمية، فإن لمبارديا (وإلى حد ما توسكانيا) كانت حرة فى إدارة شؤونها. كان ذلك – بالكاد – هو الحل الذى كان فريدريك قد توقعه فى "رونكاجليا – Roncaglia"، إلا أن عزاءه لم يتأخر؛ فالإمبراطورية التى كانت قد حاربت عبثًا ولفترة طويلة للسيطرة على لمبارديا، كان لها الآن أن تستولى على صقلية بقليل من الجهد.

** ** **

كان "روچر الثانى – Roger II" الذى مات فى 1154م سيئ الحظ فى ذريته. ابنه

"وليم الطالح – William the Bad"، برغم انتصاره على البابا، لم تدم فترة حكمه الذى لم يتميز بشىء، سوى اثنى عشر عامًا فقط. بعدها خلفه ابنه "وليم الثانى – William II". من الناحية الوراثية، كان الملك الجديد مختلفًا عن أبيه الذى كان يوصف بأن له شكل غول كبير "تعطيه لحيته السوداء الكثة منظرًا وحشيًا مرعبًا يملأ الكثيرين بالخوف". كان وليم الأصغر أشقر ووسيمًا. إلى حد ما، كان لا بد من أن يسمى بـ "وليم الصالح – Willian the Good"، بالرغم من أنه كحاكم، اتضح فى الممارسة الفعلية أنه كان أسوأ من أبيه: كان ضعيفًا، غير كفء. يحاول دائمًا ولا يحقق شيئًا. كان الشىء الحقيقى الوحيد الذى ورثه عن روچر هو الولع بالبناء. الكاتدرائية الضخمة "Monreale"، التى بناها على التلال المطلة على پاليرمو، بامتداد جدرانها الداخلية الهائل بفسيفسائها الزاهية، هذه الكاتدرائية تبقى أثرًا خالدًا يشهد لآخر ملك نورمندى شرعى لصقلية.

أما كونه آخر ملك نورمندى، فذلك لأنه عندما مات فى الثامن عشر من نوفمبر 1189م وهو فى السادسة والثلاثين، انتهى خط نسب آل هوتڤى – Hauteville. زوجته "چوانا – Joanna"، - كانت ابنة هنرى الثامن[17] ملك إنجلترا – لم تنجب منه، وانتقل العرش - دون الكل - إلى عمته «كونستانس – Constance" ابنة روچر الثانى التى ولدت بعد موته – كانت تصغر ابن خالها الملك – وكانت قبل أربع سنوات تقريبًا، قد تزوجت من هنرى ابن فريدريك بربروسا ووريثه. ترى لماذا جاءت هذه الفكرة لـ "وليم" ومستشاريه؟ لن نعرف لأول وهلة، ولكنها كانت تعنى أنه إذا مات الملك دون أن ينجب، ستسقط صقلية فى حجر الإمبراطور. المؤكد أنه كان هناك وقت طويل كاف لكى تحمل چوانا، ففى 1186م كانت ما تزال فى العشرين من عمرها وزوجها فى الثانية والثلاثين. ولكن الحياة فى القرن الثانى عشر لم تكن مضمونة إلى حد كبير، أكثر مما هى عليه اليوم. كانت نسبة وفيات الأطفال كبيرة.

يمكن أن يقال: إنه كان هناك بارونات نورمنديون كثيرون معارضون بشدة لـ: "كونستانس"، وإنهم كانوا كلهم إصرار على القتال، عند الضرورة، فى سبيل استقلال المملكة. فى أوائل 1190م، وبتشجيع من البابا "كليمنت الثالث – Clement III"، قام رئيس أساقفة پاليرمو بوضع تاج صقلية على رأس "تانكرد – Tancred"، كونت "ليسى – Lecce"، الحفيد غير الشرعى لـ "روچر الثالث"[18]. كان تانكرد ضئيل الحجم شديد القبح وكان من المفترض أن تمنعه عدم شرعيته من اعتلاء العرش، إلا أنه كان قويًا وعفيًا، ولو أنه كان قد عاش حياة عادية واستطاع أن يجد، ولو حليفًا واحدًا

قويًا بصرف النظر عن البابا، لكانت هناك فرصة لإنقاذ بلاده من الضياع. من أسف أن نصف عدد الأمراء النورمنديين تقريبًا كانوا ضده، وأنه واجه تمردًا قويًا من البداية. يضاف إلى ذلك أنه مات فى منتصف العمر. ابنه وخليفته، الذى كان ما زال طفلًا، كان بلا حول ولا قوة عندما جاء هنرى (كان آنذاك الإمبراطور هنرى السادس) فى 1194م ليطالب بعرشه. سيموت هو الآخر فى ظروف غامضة بعد ذلك بوقت قصير. تم تتويج هنرى فى پاليرمو يوم عيد الميلاد سنة 1194م.

كانت أربع وستون سنة حياة قصيرة فى عمر مملكة، والحقيقة أن صقلية كان يمكن أن تبقى لو أن «وليم الثانى – William II" – من الأفضل أن ننسى لقبه – كان مدركًا أو منجبًا. بدل ذلك أهداها لعدوها القديم، الذى قام – بذريعة مؤامرة مشكوك فى حقيقتها – بذبح كل أهالى صقلية ونبلاء الجنوب الإيطالى المعارضين له، وذلك بعد أربعة أيام من تتويجه، مرسيًا بذلك عهد إرهاب استمر بقية حياته. لم تهزم قط مملكة صقلية النورمندية، كل ما حدث هو أنه قد ألقى بها.

على امتداد جيل آخر ظلت روحها باقية. لم تكن الملكة كونستانس موجودة عند تتويج زوجها فى پاليرمو. كانت حاملًا لأول مرة وهى فى الأربعين من العمر وكانت كلها إصرار على أمرين: أن يولد طفلها سالمًا وأن ينظر إليه باعتباره ابنها، دون أدنى شك فى ذلك. لم تؤجل رحلتها إلى صقلية ولكنها سافرت على مهل ولم تكد تصل إلى مدينة "چيسى – Jesi"، على بعد نحو عشرين ميلًا من "أنكونا – Ancona"، حتى شعرت بآلام المخاض. هناك، فى اليوم التالى للتتويج، فى خيمة نصبت فى الميدان الرئيسى (حيث كان مسموحًا لأى عقيلة من المدينة أن تشهد عملية الولادة)، وضعت ابنها الوحيد – الذى قدمته بعد يومين فى ذات الميدان للأهالى الذين تجمعوا، بينما كانت ترضعه.

عبر هذا الطفل فريدريك، الذى سيكنى فيما بعد بـ "Stupor Mundi" – أعجوبة الدنيا – سوف نسمع الكثير ... الكثير جدًا... فقصتنا لم تنته.

هوامش الفصل السادس

(1) يرجى الانتباه وعدم الخلط بينه وبين البابا الذى يحمل الاسم نفسه.
(2) المنتمى إلى أسرة "ميروڤيوس – Merovius" التى حكمت الفرنجة من القرن السادس إلى القرن الثامن.
(3) شراء وبيع المناصب الكهنوتية. (Simony).
(4) كان القانون الصالى – Salic Law يحظر على الإناث وراثة العصر، أما "الصاليون – Salians" فكانوا قبيلة من الفرنجة سكنت مناطق الراين الواقعة قرب بحر الشمال.(المترجم)
(5) يروى إميل لودڤيج القصة على النحو التالى: "ويحل عيد الميلاد لسنة 800م فيود هذا الملك النصرانى حضور القداس مع فرسانه فى كنيسة القديس بطرس القديمة بروما، ويقيم البابا القداس، ويتظاهر أنه مستغرق فى صلاته عندما ركع الملك أمام الهيكل، ولا يُعرف هل كان الملك يفكر فى مخلصه أو فى أعماله، ولكن الذى لا ريب فيه هو أنه لم يدر فى خلده أمر المفاجأة التى كان البابا قد أعدها له.

الواقع أن البابا أخرج فجأة تاجًا كان قد أعده سرًا للوقت الملائم ووضعه على رأس الملك الراكع، وأن كتيبة من فرسان الرومان تقدمت فى تلك الدقيقة وهتفت باللاتينية أو الإيطالية قائلة: "عاش إمبراطور الرومان شارل أوجست المتوج من الرب" [....] ويبدو شارل الذى كان مجاوزًا الستين من سنيه دهِشًا أسِفًا، ولكنه مع تعذر الرفض، ثم يأتى البابا حركة لا تقاوم... وهى أنه ركع أمام الإمبراطور المتوج من قبله.

ويعود شارل إلى قصره صامتًا، وفى الغد يعلم شارل من بلاغ رسمى أن البابا "نقل إليه سلطة الإمبراطور الرومانى وسلطة اليونان والفرنج ورفع الملك شارل إلى مرتبة الإمبراطور الثالث والستين من الإمبراطورية العالمية الرابعة". (المترجم) – عن كتاب "البحر المتوسط"، تأليف: إميل لودڤيج، ترجمة: عادل زعيتر. (دار المعارف – 1952).
(6) كان كتاب العصور الوسطى يصفون كل عربى بكلمة Saracen ويقصدون بها المسلم الشرقى.
(7) قصر فى روما كان مقرًا للباباوات لمدة عشرة قرون تقريبًا، عقدت فيه خمسة مجامع مسكونية بين القرن الثانى عشر والقرن السادس عشر، وتوجد بالقرب منه كنيسة مار يوحنا اللاترانى التى شيدها الإمبراطور قسطنطين فى 324 م – (المترجم).
(8) بعد موت شارل (السمين) – Charles the Fat، آخر سلالة الكارولنج فى 888م، تمزقت أوصال إمبراطورية الغرب، وانتخبت بيرنجر الفريولى Berengar of Friuli ملكًا على إيطاليا، إلا أنه لم يكن ملكًا قوميًا بأى معنى.
(9) تمثال ماركوس أوريليوس – Marcus Aurelius الذى نقل حديثًا إلى متحف الكابيتول.
(10) المقصود أوتو الكبير والثانى والثالث. (المترجم).
(11) من المثير للخيال تصور كيف كان يمكن أن يتغير وجه التاريخ، لو أنه كان قد بقى على قيد الحياة، ولو أن حملته كانت قد نجحت.
(12) كلمة أدميرال – Admiral مشتقة من الكلمة العربية "أمير – الـ - البحر"، ودخلت الإنجليزية من جزيرة صقلية النورمندية، حيث استخدم اللقب لأول مرة. (المترجم)
(13) لم تحتفظ صقلية بفتوحاتها الأفريقية طويلاً، حيث فقدت كلها بحلول عام 1160م.

(14) من أسف أن هناك قطعة أو قطعتين منها عليها تصوير بشع للسيدة العذراء لا بد من إزالتها فورًا.

(15) السكولستية أو السكولائية (Scholasticim) هى الاسم الذى يطلق على فلسفة المدرسة فى العصور الوسطى التى كان أتباعها – المدرسيون – يحاولون أن يقدموا برهانًا نظريًا للنظرة العامة الدينية للعالم. (المترجم) نقلاً عن (الموسوعة الفلسفية – ترجمة سمير كرم – دار الطليعة، بيروت – الطبعة السابعة، مارس 1997).

(16) توجد قطعة من الرخام الأسود، على شكل معين، مثبتة فى رصيف الممر الأوسط للباسيليقيا، تحدد المكان الذى تم فيه ذلك.

(17) ربما لذلك السبب يوجد رسم لسان توماس أسقف كانتربرى بين صور القديسين المرسومة بالفسيفساء فى قبة كنيسة مونريال. لا بد أن تكون هذه الصورة بطلب من الملكة تكفيرًا عن قتله. كانت قد عرفته فى طفولتها ومن المرجح أن تكون هى التى وصفته للرسام، وأن يكون الرسم قريب الشبه به إلى حد ما.

(18) كان ابنًا غير شرعى لأكبر أبناء روچر الثانى – الدوق روچر حاكم أپوليا، وكان قد مات قبل والده.

الفصل السابع

الهجوم المسيحى المضاد

• المقاومة المسيحية: 1071 م • الحملة الصليبية الأولى • الصليبيون يستولون على أورشليم: 1099 م • سقوط إيديسا: 1144 م • بدء الحملة الصليبية الثانية: 1147 م

• نهاية الحملة: 1147 م • سقوط أورشليم: 1187 م • قلب الأسد فى مسينى: 1190 م • غزو قبرص: 1191 م • موت بربروسا: 1190 م • البابا إنوسنت الثالث: 1200 م • الحملة الصليبية الرابعة تنطلق: 1203 م • الصليبيون فى القسطنطينية: 1203م • مكاسب ڤينيسيا: 1204 م.

بعد قيام العرب بغزو إسبانيا فى القرن الثامن ومعظم جزيرة صقلية فى القرن التاسع، لم يستحوذوا على أراض أكثر من ذلك، إلا أنهم كانوا باستمرار خطرًا داهمًا يهدد الأراضى المسيحية المحيطة بالبحر الأبيض أكثر منهم فى أى وقت مضى. كانت مستوطناتهم غير الرسمية فى الجنوب الإيطالى والجنوب الفرنسى هى الرعب الأكبر بالنسبة لجيرانهم المسيحيين. لم تكن هناك أى منطقة بعيدة على أساطيل قراصنتهم، وكان القليل من المدن الساحلية هو الذى لا يعيش فى رعب شديد من هجماتهم المفاجئة. ربما كانت ڤينيسيا وحدها، الآمنة فى بحيرتها الضحلة نسبيًّا، هى التى لم تكن فى حاجة إلى اليقظة والحذر بشكل دائم. روما نفسها - كما سبق أن رأينا - كانت قد نهبت فى 846م، وفى القرن التالى كان كلٌّ من جنوة وبيزا قد عانى مصيرًا مشابهًا.

لم يكن الخطر العربى مقصورًا على القرصنة. كان خطر مصر يتزايد كذلك على نحو مضطرد. فى 868م، كان جندى تركى مغامر يدعى أحمد بن طولون قد أصبح حاكمًا وبسط سلطانه عبر معظم الشرق إلى صقلية فى الركن الجنوبى الشرقى من ساحل آسيا الصغرى، ثم فى السنوات الأخيرة من القرن أرسل الخليفة العباسى أسطولًا تأديبيًّا إلى مصر لينتهى حكم الطولونيين[1] فى 905م. تلا ذلك ثلاثة عقود من الفوضى، بعدها كانت هناك أسرة أكثر تميزًا وأطول أمدًا هى الأسرة الفاطمية. الفاطميون، من الشيعة الإسماعيلية الذين ينحدرون من السيدة فاطمة ابنة النبى محمد. بعد أن وطدوا أركانهم فى تونس، غزوا مصر فى 969م، وبنوا لأنفسهم عاصمة جديدة هى القاهرة. فى ذلك الوقت، كانت الخلافة العباسية تحتضر وعاجزة عن منع الغزو الفاطمى، ليس عن فلسطين وسوريا فحسب، بل عن الحجاز قلب الأراضى العربية أيضًا.

من القرن التاسع فصاعدًا، كان الإمبراطور الغربى نظريًّا هو الذى يتحمل المسئولية كاملة فى الدفاع عن إمبراطوريته ضد هجوم غير المؤمنين بالنصرانية.. إلا أن الإمبراطور كان بلا حول ولا قوة. كانت العاصمة الإمبراطورية «آخن – Aachen" تقع على بعد مسيرة أسابيع من البحر الأبيض: حتى إن أى جيش كان يحاول الاتجاه جنوبًا، كان لا بد من أن يتقيد بالبر؛ حيث إن السفن القليلة التى تشكل البحرية الإمبراطورية كانت تجد نفسها عادة فى البلطيق. المسكين "أوتو الثانى – Otto II" حالة وثيقة الصلة بموضوعنا: فى ديسمبر 980م، كان قد قرر أن يقوم بتحرير الجنوب الإيطالى مرة وإلى الأبد من بلاء العرب. فى البداية، مضت حملته على نحو جيد، إلا أنه

فوجئ فى صيف 982م وهو متقدم فى اتجاه كالابريا، بقوة عربية بالقرب من "ستيلو – Stilo" تدمر جيشه تمامًا، ولم ينج هو شخصيًّا إلا بالهرب سباحة فى اتجاه سفينة مارة مخفيًا شخصيته، وعند اقتراب السفينة من "روسانو – Rossano"، قفز منها ليصارع الأمواج مرة أخرى نحو الشاطئ. كانت هزيمته هى أوضح تصوير لعجز الإمبراطورية أمام الضغط الإسلامى.

إلا أنه حتى ذلك الحين – مع تحفظنا على دقة ذلك – كان البندول قد بدأ حركته العكسية. من أواخر القرن العاشر وما بعده سوف نشهد نموًّا بطيئًا للمقاومة المسيحية. تم طرد المستوطنين المسلمين من جنوب فرنسا فى 975م. كانت جنوة وبيزا تبنيان قوة بحرية خاصة بهما، وفى 1016م، كان ذلك قد مكنهما من الاتحاد معًا لطرد العرب من جزيرة سردينيا، التى كانت قد عانت على الأقل من تسعة إغارات رئيسية منذ سنة 721م، كانت مصحوبة عادة بمذابح للسكان المحليين. بعد سنوات قليلة كان عرب شمال أفريقيا يجرعون دواءهم المر، عندما بدأت السفن الإيطالية بدورها تهدد المدن الساحلية. بنهاية حكم الإمبراطور البيزنطى، السفاح البلغارى، "بازيل الثانى – Basil II" الذى استمر خمسين عامًا، كانت إمبراطوريته قد استعادت السيطرة على كل شبه جزيرة البلقان تقريبًا، وكل آسيا الصغرى وأبوليا وكريت وقبرص. كانت نقطة التحول الكبرى فى 1087م، عندما قامت جنوة وبيزا بحملة مشتركة أخرى، كانت هذه المرة ضد المهدية – Mahdia – العاصمة العربية (موجودة الآن فى تونس) واستولوا على المدينة، وأحرقوا السفن الموجودة فى مينائها، وفرضوا شروط السلام على حاكمها. بعد أربع سنوات أكمل الكونت الأكبر روچر الأول غزو صقلية، وفى 1092م و1093م شاركت حملات أخرى من إيطاليا وجنوب فرنسا قوة رئيسية من النورمنديين لاسترداد معظم الشمال الإسبانى. كان العالم الإسلامى يتحطم من كل جوانبه، وسياسيًّا، كان المتوسط يعود بحرًا مسيحيًّا مرة أخرى.

ولكن كانت هناك أخبار سيئة كذلك. فى 1055م استولت الموجة الأولى من الغزاة الأتراك – السلاجقة على بغداد، وفى 1071م تدفقوا على آسيا الصغرى. قام الإمبراطور البيزنطى "رومانوس الرابع ديوچينيس – Romanus IV Diogenes" شخصيًّا بقيادة جيش ضدهم، إلا أنه هُزِمَ فى 26 أغسطس هزيمة ساحقة وأُسِرَ فى معركة "مانزكرت – Manzikert". صحيح أن القائد السلچوقى "ألب أرسلان – Alp Arslan"، الذى يقال: إن شاربه كان طويلًا لدرجة أنه كان يعقده خلف ظهره عندما كان يخرج للصيد – عامل الإمبراطور معاملة حسنة، وأعاده بصحبة مرافق إلى

القسطنطينية ... ولكن الضرر كان قد وقع. فى السنوات التالية سينتشر الترك فى كل من الأناضول الأوسط، تاركين أجزاء قليلة من الشاطئ فى أيدى البيزنطيين. بعد أربعة عشر عامًا من المعركة، فى 1085م سوف يستولون على أنطاكية، ثالث البطريركيات الخمس فى الكنيسة الشرقية – بعد الإسكندرية وأورشليم – التى سقطت فى يد المسلمين. لن يتبقى سوى روما والقسطنطينية.

كان لقصة هذه الموجة الأولى من التوسع التركى فى الأناضول نتيجة واحدة مهمة لم تكن متوقعة بالمرة: أدى الغزو السلجوقى لأرمينيا – الذى كان مركزًا على جبل "أرارات – Ararat" إلى هجرة سكانية واسعة فى اتجاه الجنوب، وفى سنة 1080م أسس شخص ما يدعى "روپين – Roupen"، كان أحد أقارب آخر ملوك "أنى – Ani"، معتمدية[2] – Principality صغيرة فى "كيليكيا – Cilicia" فى قلب "طوروس – Taurus". نمت قوتها وأهميتها تدريجيًا إلى أن أصبحت فى 1199م "مملكة أرمينيا الصغرى". كان الأرمن يفاخرون دائمًا بأنهم أول أمة فى العالم تبنت المسيحية، وهو ما كانوا قد فعلوه فى سنة 300 ق.م؛ فجأة أصبحت هنا مملكة مسيحية محاطة بدول إسلامية، كانت معادية لبيزنطة إلا أنها بعد وقت قصير سوف تقدم دعمًا مهمًا للصليبيين – وبصفة خاصة لصليبيي الحملة الأولى – وهم فى طريقهم عبر كيليكيا إلى الأراضى المقدسة.[3]

فى أعقاب معركة مانزكريت مباشرة، كان من المتوقع أن تحول المسيحية الغربية اهتمامها إلى الشرق الإسلامى. كان ما يجذب المدن الساحلية الإيطالية هو الإمكانيات التجارية، وكان ما يحفز النورمنديين دائمًا هو دافع الغزو والمغامرة المتأصل فيهم، ولكن المسيحيين المقاتلين أينما وجدوا، كانوا كلهم إصرار على وقف الزحف الإسلامى. ولذا عندما خاطب البابا «أوربان الثانى – Urban II» مجمع كليرمونت "Council of Clermant" فى 27 نوفمبر 1095م، وأنهى خطابه بدعوة حارة للقيام بحملة صليبية، إنما كان يناشد أناسًا شبه مهتدين بالفعل، مقدمًا تبريرًا دينيًا لمغامرة كان يمكن أن تنطلق بدونه. كان الاحتلال الدائم للأماكن المقدسة – وفى المقدمة منها أورشليم نفسها – بواسطة أعداء النصرانية، كان إهانة للمسيحيين كما قال، فقد كان الحجاج المسيحيون يتعرضون آنذاك لكل صور المهانة والإذلال. كان من واجب كل المسيحيين الصالحين أن يحملوا السلاح ضد أولئك الذين دنسوا الأرض التى مشى عليها المسيح، وأن يستعيدوها إلى عقيدتهم الصحيحة.

فى الأشهر التالية، سوف يحمل البابا نفسه كلمات أوربان عبر فرنسا[4] وإيطاليا بواسطة جيش كامل من الوعاظ والدعاة، إلى كل أركان أوروبا الغربية. كانت الاستجابة مذهلة. من بعيد... من اسكتلنده سارع الرجال لحمل الصليب. لم يكن الإمبراطور "هنرى

الرابع – Henry IV" ولا "فيليب الأول – Philip I" ملك فرنسا (الذى كان قد حرم كنسيًا من وقت قريب متهمًا بالزنا)، لم يكونا على وفاق كامل مع روما لكى يشاركا فى الحملة الصليبية، ولعل ذلك كان أمرًا جيدًا؛ فقد كان أوربان مصممًا على أن تكون العملية كلها تحت سيطرة إكليركية، وقام بتعيين أحد رجال الكنيسة القلائل الذين كان قد سبق لهم الحج إلى أورشليم وهو "أديمار– Adhemar of Le Puy" (أسقف لابوى)، قام بتعيينه قائدًا وممثلًا رسميًّا له. هذا الأسقف على أية حال سوف يصحبه عدد كبير من الأقطاب الأقوياء: "ريمون السان چيلى – Raymond of Saint – Gilles"، و"كونت تولوز – The Count of Toulouse"، الأكبر سنًّا وأكثرهم ثراء وأسماهم قدرًا، و"هيو – Hugh" كونت "ڤيرماندوا – Vermandois" شقيق الملك الفرنسى الذى وصل مهزوزًا بعد كارثة غرق فى الأدرياتيكى؛ و"روبرت الثانى – Robert II" كونت "الفلاندرز – Flanders"؛ و"روبرت – Robert" دوق نورمنديا (ابن وليم الفاتح)، وابن عمه "ستيفن – Stephen" كونت "بلوا – Blois"؛ و"جودفرى البويونى – Godfrey of Bouillon" ودوق "اللورين الأدنى – Lower Lorraine". ومع جودفرى أخوه "بلدوين البولونى – Baldwin of Boulogne"، الذى كان ابنًا أصغر بدون وقف كنسى، فجاء بزوجته وأطفاله وكان مصممًا على إنشاء مملكة له فى الشرق. ومن الجنوب الإيطالى جاء "بوهيمند – Bohemund" أمير تارانتو، ابن روبرت چيسكار، الذى كانت لديه طموحات مماثلة، ولأنه كان نورمنديًّا حقيقيًّا، لم تكن الأماكن المقدسة تعنيه كثيرًا، وكان يرى الحملة فى حد ذاتها أعظم مغامرة فى حياته.

أحد أشهر قادة الحملة وأكثرهم شعبية لم يكن من النبلاء أو علية القوم، كان مبشرًا جوالًا مسنًّا يدعى بيتر[5] المكنى بالناسك؛ إذ لم يكن أحد قد رآه قط بدون ذلك الرداء المطروح على كتفيه دون أكمام. كانت تفوح منه رائحته الكريهة ويقال: إنه كان يشبه الحمار الذى يمتطيه دائمًا، إلا أن أحدًا لم يكن ليستطيع أن ينكر ما له من جاذبية شخصية. وكما يقول المؤرخ «جيبرت النوچنتى – Guibert of Nogent»: "كان كل شىء يفعله أو يقوله يبدو وكأنه شبه إلهى". كان يدعو للحملة فى كل فرنسا ومعظم ألمانيا، وبحلول موعد قيامها ربما كان قد أصبح يتبعه نحو أربعين ألفًا من البشر. كان كثير منهم بلا شك مخلصين أتقياء، يريدون القتال فى سبيل القضية المقدسة، إلا أنه كان هناك كذلك عدد كبير من المرضى بينهم نساء وأطفال، يأملون فى شفاء معجز، بينما كانت تجذب الأغلبية الساحقة من الرعاع المترحلين فرص السلب والنهب والوعد بمكان فى الجنة، لكل من يكمل الرحلة.

** ** **

بعد تقدير الموقف على ضوء الأعداد المشاركة ونقاط الانطلاق المختلفة، غادر الصليبيون فى توقيتات مختلفة، متخذين طرقًا عدة نحو نقطة التجمع الأولى: القسطنطينية. يبدو أن أوربان كان يعتقد أنهم سيلقون ترحيبًا حارًا من الإمبراطور البيزنطى "ألكسيوس الأول كومنينوس – Alexius I Comnenus"؛ أفلم يكن كومنينوس الأول نفسه قد لجأ للغرب طالبًا المساعدة العسكرية ضد الأتراك؟ ما لم يفهمه البابا هو أنه كان هناك فارق شاسع بين وحدة عسكرية أو اثنتين من المرتزقة المدربين يأتون لمساعدة القوة المدافعة ويضعون أنفسهم دون شروط تحت أوامر قادتها، وعدد من الجيوش الكاملة غير المنضبطة فى معظمها، يتوقع أفرادها أن يقدم لهم الطعام والمأوى، غير مستعدين لتلقى أوامر من أحد. فى الوقت القصير المتيسر له، تصرف ألكسيوس بشكل جيد، رتب إمدادات كبيرة من المؤن فى المدن التى سيمر بها الصليبيون، وأمر بوضع وحدات عسكرية صغيرة تستقبل كل جيش عندما يعبر حدود الإمبراطورية وتصحبه إلى العاصمة. بمجرد وصولهم، تم تزويدهم بأماكن للراحة خارج الأسوار، وكان يسمح للزائرين بدخول العاصمة فى جماعات صغيرة للمشاهدة والصلاة فى الأضرحة الرئيسية.

وصلت الجيوش الصليبية إلى القسطنطينية بين أكتوبر 1096 ومايو 1097؛ وقبل أن تتمكن من مواصلة طريقها كان هناك الكثير من العمل الدبلوماسى المطلوب إنجازه. أولًا وقبل كل شىء كان ألكسيوس مصرًا على أن يؤدى كل قائد أمامه قسم الولاء، مع تقديم اعتراف – كتابة – بالاستحقاقات الإمبراطورية فى آسيا الصغرى وسوريا. تم ذلك – بدرجات مختلفة من التردد – من قبل الجميع باستثناء شخص واحد، هو "ريمون التولوزى – Raymond of Toulouse". كان ريمون قد وصل فى منتصف أبريل وكان ما زال يتآمر ويكيد لكى يتم الاعتراف به قائدًا أعلى، وأعلن أنه فى حال وضع الإمبراطور نفسه قائدًا للحملة، فإنه سيكون تابعه الوفى، وإن لم يكن، فإنه لن يقبل بسيد أعلى آخر سوى الرب. خشية أن يعرقل هذا التوجه نجاح الحملة، كان زملاؤه من الأمراء الآخرين يرجونه أن يلين. فى النهاية، وافق على حل وسط: أن يقسم (بحسب صيغة قسم شائع فى لغته المحلية) بأن يحترم حياة ومقام الإمبراطور، وأن يراعى ألا يحدث أى شىء قد يلحق به ضرر أو أذى. ألكسيوس، الذى وجد فى ذلك كل ما كان يتمناه، قبل تعهد ريمون، ولم يبد امتعاضه إلا بأن حجب عنه العطايا القيمة التى كان قد منحها للقادة الآخرين... مثل الأطعمة والخيول والأردية الحرير الفاخرة.

لا تستطيع أن تتخيل مدى ما كان يشعر به الإمبراطور من ارتياح وهو يشاهد

الصليبيين وهم يصعدون إلى السفن التى كانت ستحملهم إلى آسيا. لم يكن حتى ليستطيع أن يكون فكرة عن عدد الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا قد عبروا أراضيه فى الشهور التسعة السابقة: الإجمالى ما بين دهماء بيتر (بطرس) الناسك – الذين أبادهم الأتراك فى أكتوبر السابق كما كان متوقعًا قبل أن يصلوا أبعد من نيقية – والأمراء الإقطاعيين، كان لا يقل عن مائة ألف فرد. بفضل استعداداته وما اتخذه من تدابير دقيقة، لم تتسبب الجيوش فى كثير من المتاعب كما كان يخشى، كل القادة، باستثناء واحد، كانوا قد أدوا يمين الولاء له، ولكنه لم يكن لديه أى أوهام بشأنهم. الجيوش الأجنبية، مهما كانت صديقة من الناحية النظرية، لم يكونوا ضيوفًا محل ترحيب، أولئك البرابرة بقذارتهم وسوء خلقهم، كانوا بالتأكيد أسوأ من معظمهم. كانوا قد خربوا الأرض واغتصبوا النساء وسلبوا ونهبوا المدن والقرى، وكانوا يعتبرون ذلك من حقهم، وينتظرون أن يلقوا معاملة الأبطال والمخلصين. أحدث رحيلهم حالة من الفرج، وكان المزيد من السلوى فى أن تعرف أنهم إن عادوا، فسيكونون أقل عددًا منهم عندما بدأوا رحلتهم.

** ** **

على عكس توقعات كثيرين، نجحت الحملة الصليبية الأولى نجاحًا باهرًا، وإن كان غير مستحق. فى الأول من يوليو تم تدمير جيش السلاجقة فى "دوريلايم – Dory-laeum" (إسكيسير – Eskisehir الآن) فى الأناضول. وفى الثالث من يونيو 1098، استعاد الصليبيون أنطاكية، وأخيرًا شق جنود المسيح طريقهم إلى أورشليم فى الخامس من يوليو 1099م، حيث أعلنوا انتصارهم بذبح جميع مسلمى المدينة وإحراق كل اليهود فى المعبد الرئيسى. فى ذلك اليوم كان يغيب عنهم اثنان من قادتهم السابقين: بلدوين البولونى، كان قد أصبح كونت "إديسا – Edessa" (أورفا – Urfa الآن) فى الفرات الأوسط، بينما كان بوهيمند - أمير تارانتو - قد نصب نفسه أميرًا على أنطاكية بعد صراع مرير مع ريمون التولوزى.

فى أورشليم نفسها، جرى انتخاب للاستقرار على حاكمها المستقبلى. كان ريمون هو المرشح الأبرز إلا أنه رفض. كان مكروهًا وكان يعرف ذلك ولن يكون قادرًا على الاعتماد على طاعة ودعم زملائه. فى النهاية وقع الاختيار على "جودفرى البويونى – Godfrey of Bouillon" لورعه الحقيقى وحياته الخاصة التى لا غبار عليها، أكثر مما هو بسبب قدراته العسكرية والدبلوماسية. قبل المنصب متجنبًا فقط أن يحمل لقب "ملك" فى المدينة التى حمل فيها المسيح إكليل الأشواك. اتخذ بدل ذلك لقب "حامى

الضريح المقدس – Advocatus Sancti Sepulchri" وكان يخاطب دائمًا باعتباره (دوق – dux) أو (أمير – Princeps) وليس كملك أو عاهل (rex). عاش جودفرى عامًا واحدًا بعد الاستيلاء على المدينة، وكان حلفاؤه أقل دقة فى الالتزام بالواجب فتم تتويجهم ملوكًا على أورشليم اللاتينية.

كان أن بقيت هذه المملكة ثمانية وثمانين عامًا سيتغير حجمها خلالها أكثر من مرة، وعندما بلغ اتساعها أقصاه كانت تمتد من رأس خليج العقبة فى الجنوب، إلى نهر الكلب على بعد أميال قليلة من بيروت فى الشمال. كان حدها الشرقى وادى الأردن، والغربى البحر الأبيض المتوسط. بالنسبة للإمبراطور ألكسيوس، باعتباره مسيحيًّا مخلصًا، كان لا بد من أن يكون خبر تأسيس المملكة محل ترحيب، فقد كانت المدينة فى أيدى معادين للنصرانية على مدى معظم أربعة قرون، كما كانت بعيدة عن القسطنطينية لكى تكون ذات أهمية إستراتيجية كبيرة. من ناحية أخرى، كان الوضع فى أنطاكية يسبب له قلقًا كبيرًا. هذه المدينة، والبطريركية القديمة كذلك، كان لها تاريخ متغير: كان الفرس قد نهبوها بعد الاستيلاء عليها فى القرن السادس واحتلوها نحو عشرين عامًا فى أوائل القرن السابع قبل أن تسقط فى يد العرب فى 637 م. وفى 969م استردتها الإمبراطورية وبقيت جزءًا لا يتجزأ منها حتى سنة 1078م. كانت فى نظر ألكسيوس وكل رعاياه اليمينيين مدينة بيزنطية تمامًا. الآن كانت قد أصبحت فى يد مغامر نورمندى، لم يكن لديه النية، رغم اليمين الذى أقسمه، للتنازل عنها، ولم يعد يخفى عداءه. بل إنه تمادى فى ذلك وطرد البطريرك اليونانى ووضع مكانه آخر، كان رومانيًّا كاثوليكيًّا. كان هناك مصدر وحيد للعزاء: لم يكن بوهيمند محل ترحيب من قبل جيرانه فى الشمال من التركمان الدانشمنديين(6)، ويمكن أن نتصور مدى شعور ألكسيوس بالارتياح، عندما سمع فى صيف 1100م أن أمير أنطاكية كان أسيرًا لديهم. كان أن ظل أسيرًا لمدة ثلاث سنوات، إلى أن قام بلدوين، الذى خلف أخاه جودفرى على عرش أورشليم، بدفع فدية لتحريره.

خلال السنوات الأولى التالية لانتصار الصليبيين، أصبح من الواضح أن بوهيمند لم يكن وحده فى هذا الموقف من بيزنطة. بعد الاستيلاء على أورشليم كانوا قد بدأوا يعودون إلى ديارهم، كثيرون منهم كانوا شديدى الاستياء بسبب الأعمال العدائية والانتهاكات التى رأوها ترتكب باسم المسيح. الفرنجة الذين بقوا فى الـ Outremer (الشرق اللاتينى) – كما أصبحت تسمى أراضى الصليبيين فى الشرق الأوسط – هم المغامرون العسكريون، الذين كانوا يريدون الحصول على كل ما تقع عليه أياديهم، بعد استيلائهم على المدينة المقدسة. من بين كل قادة الحملة الصليبية الأولى، كان ريمون التولوزى –

الذى ويا للسخرية كان الوحيد الذى رفض أن يؤدى قسم الولاء فى القسطنطينية – هو الذى تصرف بإخلاص، وأعاد للإمبراطور بعض الأراضى المفتوحة من تلك التى كانت فى السابق تابعة للإمبراطورية. الباقون لم يكونوا أفضل من العرب الذين حلوا محلهم. كان بوهيمند أسوأ من الجميع. فى 1104م، بعد عام من قيام الدانشمنديين بإطلاق سراحه، أبحر إلى أبوليا حيث كانت تنتظره أعمال كثيرة فى ولاياته التى كان قد طال إهمالها. وفى سبتمبر 1105م، انتقل إلى روما حيث استطاع – دون جهد يذكر – أن يقنع البابا "باسكال الثانى – Paschol II" بأن العدو الأكبر للممالك الصليبية فى الشرق اللاتينى لم يكن العرب ولا الترك، وإنما ألكسيوس كومنينوس نفسه.

تلقى باسكال ما قاله بوهيمند بحماسة شديدة، لدرجة أنه عندما حان موعد ذهاب الأخير إلى فرنسا، وجد نفسه مصحوبًا بممثل بابوى يحمل تعليمات بالدعوة لشن حرب مقدسة ضد بيزنطة. هنا وجد ألكسيوس وأعوانه تأكيدًا لأسوأ شكوكهم. الآن اتضح أن الحملة كلها، لم تكن أكثر من ممارسة بشعة للنفاق، استخدم فيها الوازع الدينى قناعًا لاستعمار لا يعرف الخجل.

** ** **

تقع "إيديسا – Edessa"، الكونتية[7] الصليبية، فى الأناضول الجنوبى القريب من الحدود السورية، على بعد مائة وخمسين ميلًا تقريبًا من البحر الأبيض المتوسط. سقوطها يوم عيد الميلاد فى 1144م فى يد قوات عماد الدين زنكى - أتابك[8] الموصل – بعد حصار خمسة وعشرين يومًا، ووسط مشاهد ذبح وتقتيل، هذا السقوط لا يهمنا سوى فى نتيجته المباشرة: الحملة الصليبية الثانية. الأخبار الرهيبة أصابت كل العالم بالرعب. بالنسبة لشعوب الغرب الذين رأوا نجاح الحملة الأولى باعتباره «رضا إلهى»، أيقظت الأخبار كل الآراء المكتومة لتضعها موضع المساءلة. كيف بعد أقل من نصف قرن يسقط الصليب أمام الهلال؟ كان الرحالة الذين يذهبون إلى الشرق يعودون بأخبار عن الانحلال المنتشر بين الفرنجة هناك. هل كان ذلك لأنهم لم يعودوا فى نظر الرب جديرين بأن يكونوا حراسًا أوصياء على الأماكن المقدسة؟

كان لدى الفرنجة فهم أفضل. المشكلة بكل بساطة كانت أن الأغلبية العظمى من الصليبيين قد عادوا إلى بلادهم؛ كان الجيش الدائم الوحيد – إن جاز لنا أن نعتبره كذلك – مكونًا من الجماعتين العسكريتين: «فرسان سان چون[9] – Knights of St John» و"فرسان الهيكل[10] – Templars"، ووحدهم لم يكن لديهم أى أمل فى الصمود أمام هجوم جماعى منظم. كان الأمل الوحيد هو حملة صليبية أخرى. إلا أن البابا

"إيوجينيوس الثالث – Eugenius III" لم يكن أوربان؛ كان قد اضطر مؤخرًا للفرار من الفوران المعتاد فى روما العصور الوسطى، ولجأ إلى "ڤيتيربو – Viterbo". وقع عبء القيادة من ثم على "لويس السابع – Louis VII" ملك فرنسا. بالرغم من أنه كان ما زال فى الرابعة والعشرين، كان لويس بالفعل قد اتخذ سمت الورع الزاهد وهو ما جعله يبدو أكبر من سنه، كما أزعج زوجته الجميلة الجريئة "إليانور دو أكيتان – Eleanor of Aquitaine"، كان أحد حجاج الطبيعة، وكانت الحملة واجبًا باعتباره مسيحيًا، كذلك كانت هناك أسباب عائلية؛ حيث إن إليانور كانت ابنة أخت ريمون أمير أنطاكية.[11] فى عيد الميلاد فى 1145م، أعلن عن نيته فى استلام شارة الصليب، ولكى يملأ قلوب أتباعه ورعاياه بنيران الحماسة الصليبية، أرسل فى طلب رئيس دير رهبان «كليرڤو – Clairvaux".

كان "سان برنار – St Bernard" آنذاك فى الخامسة والخمسين من العمر وكان أكبر وأقوى سلطة روحية فى أوروبا. كان طويل القامة، مهزولًا، تكسو ملامحه آلام حياة طويلة من التقشف المبالغ فيه، وكانت تتملكه حماسة دينية متأججة لم تترك مجالًا للتسامح أو الاعتدال. على مدى السنوات الثلاثين السابقة كان دائم التنقل، يعظ ويجادل ويناقش ويكتب الرسائل العديدة، ويلقى بنفسه فى أتون كل ما هو أخلاقى، دينيًا كان أو سياسيًا. كانت الحملة الصليبية المقترحة مغامرة تلقى هوى شديدًا فى نفسه. يوم أحد السعف - Palm Sunday الموافق الثالث عشر من مارس 1146م، ألقى أهم خطبة فى حياته وأكثرها شؤمًا. كان الملك لويس يقف إلى جواره وعلى صدره الصليب الذى أرسله إليه البابا رمزًا لقراره؛ وبينما كان برنار يتكلم، كان كل من يستمعون إليه – كانوا بالألوف – يصيحون مطالبين بصلبان لهم. كانت هناك بالفعل حزم كثيرة من الصلبان من القماش الخشن قد أعدت سابقًا لتوزيعها، وعندما نفدت الكمية، خلع رئيس الدير (سان برنار) رداءه وراح يمزقه أشرطة لصنع صلبان منها. وفعل آخرون مثله، وظل هو ومساعدوه يخيطون الأشرطة صلبانًا إلى أن حل الظلام.

كان إنجازًا مدهشًا، لم يكن ليقوم به إنسان آخر فى أوروبا، وبالرغم من ذلك... وعلى ضوء ما جاءت به الأحداث... ليت ذلك ما حدث!

** ** **

هناك فى القسطنطينية كان مانويل الأول كومنينوس قد استوعب جيدًا حجم الكابوس الذى سببته الحملة الأولى لجده قبل نصف قرن. لم يكن يود أن يرى الكارثة تتكرر. أوضح من البداية أنه سوف يوفر الطعام والتموين للجيش، ولكن لا بد من أن يكون

كل شيء مدفوع الثمن. إلى جانب ذلك سيكون مطلوبًا من جميع القادة أن يؤدوا يمين الولاء له عند مرورهم بالأراضى التابعة له. كان الجيش الألمانى، الذى كان قوامه نحو عشرين ألف جندى وكان أول جيش يصل، كان هو أكثر من ينقصه الشعور بالمسئولية. كان كثير من قادته مثلًا سيئًا للجنود: بالرغم من أن "كونراد – Conrad" ملك الرومان[12] – الذى رفض فى البداية أن يكون له أى علاقة بالحملة، ولكنه ندم بعد تأنيب علنى قاس من برنار – تصرف بنبله المعتاد، فإن ابن أخيه ومن يليه فى القيادة الدوق الشاب «فردريك أمير سوابيا – Fredrick of Swabia" – المعروف فى التاريخ باسم الشهرة: "بربروسا – Barbarossa" – قام بإحراق دير كامل فى "أدريانوبل – Adrianople" (أدرنة الحديثة)، انتقامًا لهجوم قامت به كتائب محلية. كونراد الذى كان يشعر بالنقمة والغضب الشديدين، رفض اقتراحًا لـ: "مانويل" بأن يعبر جيشه إلى آسيا عن طريق "هيلزبونت – Hellespont" وبذلك يتفادى القسطنطينية تمامًا – وعندما أقام الصليبيون معسكرهم خارج أسوار العاصمة فى منتصف سبتمبر 1147م، كانت العلاقة بين الألمان واليونانيين قد بلغت مبلغها من السوء.

كان الجيش الفرنسى الذى وصل بعد أسابيع قليلة أقل حجمًا، كما كان حسن المظهر بشكل عام. كان أكثر انضباطًا، كما أن مجيء بعض السيدات المتميزات بمن فيهن الملكة إليانور – Eleanor نفسها، بصحبة أزواجهن مع الجيش، هيأ الفرصة لمزيد من الانضباط. حتى ذلك الحين لم يكن التقدم سهلًا. لم يكن غريبًا أن تجعل تجاوزات الفرنجة فلاحى البلقان يتخذون موقفًا معاديًا واضحًا: كانوا يطلبون أسعارًا غريبة لما تبقى لديهم من أطعمة يبيعونها. أصبح انعدام الثقة متبادلًا، وأدى إلى ممارسات عنيفة من كلا الطرفين؛ وهكذا قبل أن يصلوا إلى القسطنطينية بوقت طويل، بدأ الفرنسيون يشعرون باستياء كبير نحو الألمان والبيزنطيين على السواء.

كان مانويل يتملق ضيوفه بالحفلات والولائم، وبالرغم من ذلك كان يخشى الأسوأ. بعد عودته من حملة له فى الأناضول، عرف أن تلك القوات بطيئة الحركة، التى كانت تفتقر إلى الروح المعنوية والانضباط، لن تكون ندًا لخيالة السلاجقة. كان قد زودهم بالمؤن ووفر لهم الأدلاء ونبههم إلى ندرة الماء، كان قد نصحهم بألا يسلكوا الطريق المباشر عبر الأراضى الخلفية، بل أن يلتزموا الساحل لأن معظم الأراضى الخلفية كانت تحت سيطرة البيزنطيين. لم يكن بوسعه أن يفعل أكثر من ذلك. أما إذا كانوا مصرين، بعد كل هذا النصح، على أن يُقتلوا، فاللوم لن يقع إلا عليهم. من جانبه، سوف يأسف لذلك.. وإن بدرجة ما.

لم تكد تمر أيام قليلة على وداع الإمبراطور للجيش الألمانى، حتى جاءته الأخبار بأن الترك هاجموه على حين غرة ودمروه تمامًا. كونراد نفسه وفردريك دو سوابيا هربا وعادا لينضما إلى الفرنسيين الذين كانوا ما زالوا فى نيقية، ولكن تسعة أعشار رجالهم كانوا قد هلكوا أو يحتضرون بين حطام معسكرهم. كانت بداية سيئة، إلا أن الأسوأ كان فى الطريق. لم يتقدم كونراد أبعد من إفسوس، عندما سقط مريضًا. كان مانويل قد أبحر فورًا من القسطنطينية وأعاده سالمًا إلى القصر، كان يتباهى بمهاراته الطبية، وقام هو شخصيًا بتمريضه إلى أن استعاد عافيته. وفى النهاية، عندما كان كونراد قادرًا على إكمال رحلته، كان هناك سرب إمبراطورى تحت تصرفه لكى يواصل إلى فلسطين. فى الوقت نفسه كان الفرنسيون يواجهون مصاعب جمة على يد الترك وهم يتقدمون عبر الأناضول؛ وبالرغم من أن ذلك كان خطأ الملك لويس تمامًا، الذى تجاهل تحذير الإمبراطور ونصيحته بالتزام الساحل، كان مصرًّا على نسبة كل مواجهة مع العدو إلى إهمال البيزنطيين أو إلى الخيانة أو لكليهما، وسرعان ما تملكه امتعاض سيكوباتى ضد اليونانيين. أخيرًا، وفى حالة من حالات اليأس، اصطحب أهل بيته وعددًا كبيرًا من خيالته (بقدر ما استوعبت السفينة)، وأبحر من أتاليا (أنطاليا الآن)، تاركًا ما تبقى من الجيش والحجاج لكى يصارعوا قدر استطاعتهم. فى وقت متأخر من ربيع 1148م، كانت البقايا البائسة لجيش كان عظيمًا ذات يوم، تجر أذيالها إلى أنطاكية.

لم يكن ذلك سوى البداية. كان زنكى الملك القوى قد مات وانتقلت عباءته إلى نور الدين، الذى كانت قلعته فى حلب قد أصبحت مركز المقاومة الإسلامية ضد الفرنجة. وهكذا كان لا بد من أن تكون حلب أول هدف للصليبيين، ووجد لويس نفسه تحت ضغط شديد من ريمون أمير أنطاكية؛ لكى يقوم بهجوم فورى على المدينة. رفض، مبررًا رفضه بسبب مضحك، وهو أنه كان ينبغى أن يصلى أولًا فى الهيكل المقدس؛ وعليه أعلنت الملكة إليانور عن نيتها البقاء فى أنطاكية وطلب الطلاق. لم يكن حب إليانور لزوجها قد زاد، بسبب الأخطار ومشاق الرحلة، كما أن علاقتها بـ : "ريمون" (التى لم تكن فوق مستوى الشك) كانت قد زادت عن المدى الذى ينبغى أن تكون عليه علاقة بين عم وابنة أخ. كانت القرابة بينها وبين زوجها بعيدة، وعندما تزوجا تم إغفال مسألة القرابة، ولكنها كان يمكن أن تثير بعض المتاعب إذا أعيد إحياؤها، وكانت إليانور تعرف ذلك.

برغم مزاجه النكد، لم تكن الشجاعة تعوز لويس ساعة الأزمة. تجاهل احتجاجات زوجته وجرها جرًا إلى أورشليم؛ واستعدى ريمون لدرجة أن أمير أنطاكية رفض أن

يقوم بدور أكبر من ذلك فى الحملة، ووصل فى مايو إلى المدينة المقدسة تتبعه ملكته صامتة. بقى هناك حتى الرابع والعشرين من يونيو عندما عقد اجتماعًا حضره جميع القادة الصليبيين فى "عكا – Acre"؛ ليقرروا خطة القيام بالحملة. أما لماذا اختاروا آنذاك أن يهاجموا دمشق، فيظل لغزًا؛ حيث إنها كانت الدولة العربية الرئيسية الوحيدة التى كان يمكن أن تظل معادية لنور الدين، كان يمكن – وينبغى – أن تكون حليفًا لا يقدر بثمن. بالهجوم عليها، دفعوها ضد رغبتها إلى كونفدرالية الأمير الإسلامية – وجعلوا دمارها مؤكدًا. وصلوا ليجدوا دمشق قوية والمدافعون عنها كلهم إصرار وعناد. فى اليوم التالى، وبقرار من تلك القرارات الكارثية التى كانت تتصف بها الحملة كلها، نقلوا معسكرهم إلى منطقة على امتداد الجزء الجنوبى الشرقى للأسوار؛ حيث لا ظل ولا ماء. أدرك كونراد على الفور أن استمرار الحصار كان يعنى هلاك كل جيشهم بالتأكيد، وبعد خمسة أيام من بدء الحملة قرروا الانسحاب.

لا توجد منطقة فى الصحراء السورية أكثر تحطيمًا للروح من ذلك الامتداد الرملى أو المساحة البازلتية الواقعة بين دمشق و"طبرية – Tiberias". لا بد من أن يكون الصليبيون قد شعروا باليأس الشديد وهم يقطعونها منسحبين فى قيظ الصيف، تلفح وجوههم الشمس القاسية ورياح الصحراء الحارقة، تناوشهم سهام الرماة العرب من راكبى الخيول، مخلفين وراءهم رائحة نتنة تتصاعد من جنود وخيول ميتة. كانوا يعرفون أنها النهاية. كانت الخسائر فادحة، والأسوأ كان ما لحق بهم من عار. جيشهم الذى كان مجيدًا ذات يوم، والذى كان يزعم أنه يدخر كل المثل العليا للغرب المسيحى، تخلى عن المهمة كلها بعد قتال أربعة أيام وفشل فى استعادة شبر واحد من أراضى المسلمين. هنا يكمن الإذلال التام الذى لن ينسوه.. كما لن ينساه أعداؤهم.

** ** **

كتب سير "ستيفن رانسمان – Stephen Ransman" يقول: "إن فشل الحملة الثانية كان نقطة تحول فى قصة الشرق اللاتينى. كان أن بقيت مملكة أورشليم تسعة وثلاثين عامًا أخرى، ولكن بالنسبة لأى مراقب موضوعى بعد 1148م، فإن سقوط المدينة المدوى فى أيدى العرب كان لا بد من أن يبدو حتميًا. فى الجانب الإسلامى، كان يوجد بالفعل قائد عبقرى: نور الدين، الذى جعل منه الاستيلاء على دمشق فى أبريل 1154م سيدًا على سوريا الإسلامية. ثم سرعان ما كان هناك قائد عبقرى آخر هو صلاح الدين، أعظم أبطال المسلمين فى العصور الوسطى. صلاح الدين من مواليد 1137م لأسرة كردية بارزة، فى سن الواحدة والثلاثين عين قائدًا على القوات السورية

فى مصر، ووزيرًا للخليفة الفاطمى. بحلول عام 1171م، كان قد أصبح قويًا بما يكفى لإزاحة الخليفة الشيعى الضعيف، وإعادة الإسلام السنى لمصر، ومنذ ذلك الحين أصبح حاكم مصر الوحيد. بعد ثلاث سنوات نقل جيشه الصغير الجيد التنظيم إلى سوريا، وكرس جهده لمهمة توحيد كل الأراضى الإسلامية فى مصر وسوريا وشمال وادى الرافدين وفلسطين تحت رايته.

كانت فرصة ملوك أورشليم ضعيفة أمام هذين العملاقين: نور الدين وصلاح الدين. ربما كان يمكن أن ينقذ بلدوين الثالث وخليفته "أماليك الأول – Amalric I" الموقف، لو أنهما كانا على قيد الحياة؛ إلا أنهما كانا قد ماتا، الأول وهو فى الثانية والثلاثين والثانى فى الثامنة والثلاثين. الملك التالى بلدوين الرابع المجذوم، كان المرض قد هزمه فى 1185م وهو فى الرابعة والعشرين، فترك العرش لـ "بلدوين الخامس" ابن أخيه، الذى جلس عليه وهو طفل فى الثامنة... ومات قبل أن يبلغ التاسعة. فى مثل تلك الظروف قد يبدو موته نعمة، ولكن فرصة إيجاد قائد حقيقى ضاعت، وتم تمرير العرش إلى "جاى لوزينان – Guy of Lusignan" زوج أمه، وكان شخصية ضعيفة برمة، ذات سجل من الفشل، كما كان جديرًا بما يكنه له كل أقرانه من احتقار. كانت أورشليم على شفا حرب أهلية عندما أعلن صلاح الدين الجهاد الذى طال انتظاره، فى مايو 1187م، عبر الأردن ودخل الأراضى الفرنجية. تحت قيادة "جاى" البائس، كان لا بد أن تكون هزيمة الفرنسيين هى النتيجة. فى الثالث من يوليو قام بقيادة أضخم جيش جمعته مملكته فى تاريخها عبر جبال الجليل متجهًا إلى طبرية؛ حيث كان صلاح الدين يحاصر القلعة. بعد مسيرة يوم طويل فى أشد فصول العام حرارة، اضطر جيشه لإقامة معسكره على هضبة قاحلة لا ماء فيها ولا حياة؛ وفى اليوم التالى وهم منهكون من القيظ والعطش، قامت قوات المسلمين بتطويقهم تحت تلة تعلوها قمتان صغيرتان، تعرف بـ "قرون حطين".

كانت مهمة المسلمين بعد ذلك هى القضاء على القلاع المسيحية المتفرقة واحدة بعد الأخرى. سقطت طبرية فى اليوم التالى للمعركة، ثم عكا ونابلس ويافا وصيدا وبيروت... كلها استسلمت فى تتابع سريع. متجهًا جنوبًا، استولى صلاح الدين على عسقلان بهجوم عاصف، واستسلمت غزة دون مقاومة... والآن كان قد بات مستعدًا لأورشليم. صمد المدافعون عن المدينة المقدسة على نحو بطولى لمدة اثنتى عشر يومًا، ولكن فى الثانى من أكتوبر، وبعد أن قام جنود المسلمين بتلغيم أسوار المدينة، عرفوا أن النهاية كانت قد اقتربت. ذهب قائدهم "باليان الإبلينى – Balian of Ibelin" - كان الملك جاى قد وقع فى الأسر بعد حطين – شخصيًا إلى صلاح الدين ليبحث شروط الاستسلام.

صلاح الدين الذى لم يكن متعطشًا للدماء ولا محبًّا للانتقام، وافق على أن يفتدى كل مسيحى فى أورشليم نفسه بدفع فدية مناسبة. فى ذلك اليوم قاد جيشه داخل المدينة؛ ولأول مرة فى ثمانية وثمانين عامًا، فى ذكرى ليلة الإسراء والمعراج، كانت راياته الخضراء ترفرف على منطقة المعبد التى صعد منها النبى محمد. استتب النظام فى كل مكان، لم يكن هناك قتل ولا سفك دماء ولا سلب ولا نهب؛ ومن بين العشرين ألف فقير الذين لم يستطيعوا جمع الفدية، تم العفو عن سبعة آلاف بعد قيام السلطات المسيحية المختلفة بدفع مبلغ إجمالى. طلب "العادل" شقيق صلاح الدين ألفًا من الباقين كمكافأة له عن خدماته، ثم أطلق سراحهم فى الحال. حصل البطريرك على سبعمائة آخرين وحصل باليان على خمسمائة، وبعد ذلك قام صلاح الدين على الفور بإطلاق سراح كل كبار السن، وكل الزوجات اللائى دفع أزواجهن الفدية، وأخيرًا كل الأرامل والأطفال. كان عدد قليل من المسيحيين هم الذين وجدوا أنفسهم فى الطريق إلى العبودية. كان هدوء صلاح الدين وسيطرته على مشاعره أمرًا استثنائيًا بالرغم من أنه لم يكن قد نسى المذبحة التى حدثت بعد وصول الحملة الأولى فى سنة 1109م، كما لم يكن المسيحيون قد نسوها، ولا بد من أن يكون التناقض بين الموقفين قد أصابهم بالذهول.

** ** **

عندما وصلت أخبار سقوط أورشليم إلى الغرب، مات البابا "أوربان – Urban" من الصدمة، أما خليفته "جريجورى الثامن – Gregory VIII" فلم يضيع الوقت، دعا على الفور العالم المسيحى لحمل السلاح لاستعادتها. تم وضع الخطط على عجل. هذه الحملة (الثالثة) ستكون تحت قيادة الإمبراطور "فردريك بربروسا – Fredrick Barbaros-sa"، الذى كان قد خلف عمه كونراد فى 1152م. سيحمل الصليب كذلك ثلاثة ملوك غربيين آخرين: "ريتشارد قلب الأسد – Richard Coeur-de- Lion" ملك إنجلترا، و"فيليب أوجسطس – Philip Augustus" ملك فرنسا، و"وليم الصالح – William the Good" ملك صقلية. تم إعفاء الإمبراطور البيزنطى "إيزاك الثانى أنجيلوس – Issac II Angelus" من المشكلات اللوجستية الكبيرة، حيث كان بربروسا الذى يسلك الطريق البرى قد وافق على العبور إلى آسيا عن طريق هيلزبونت بدلًا من البوسفور، بينما اختار الملوك الثلاثة التحرك بحرًا. موت وليم غير المتوقع، تطلب إجراء تغيير رئيسى أو اثنين فى الترتيبات، إلا أن الخطة الرئيسية التى كانت تقضى بضرورة تجمع الأساطيل الثلاثة فى مسينى من أجل المرحلة الأخيرة من الرحلة، بقيت دون تغيير، وفى العاشر من سبتمبر 1190م، وصل ريتشارد وفيليب أوجسطس بفاصل عشرة أيام بينهما إلى صقلية.

كان ريتشارد فى حالة سيئة وكئيبة، كما كان يحمل حقدًا دفينًا لـ : "تانكريد – Tan-cred" ملك صقلية، وبالرغم من أن وليم الصالح كان قد مات دون أن يترك وصية، يبدو أنه كان فى ظرف ما قد وعد "هنرى الثامن – Henry VIII"، ملك إنجلترا ووالد زوجته بإرث مهم، كان من بينه طاولة ذهبية طولها نحو اثنتى عشرة قدمًا، وخيمة من الحرير تتسع لمائتى شخص، وكمية من أدوات المائدة الذهبية، وسفن إضافية كثيرة مزودة بالمواد التموينية ... كل ذلك من أجل الحملة. الآن وقد مات وليم وهنرى، كان تانكريد يرفض الوفاء بذلك الوعد. كانت هناك مشكلة الملكة "جوانا – Joanna" شقيقة ريتشارد: كان قد علم بأن تانكريد كان قد حجز على أموالها ومنع عنها بعض مستحقاتها كجزء من تسوية زواجها. ربما كان يرى كذلك صقلية جوهرة جديدة محتملة يمكن أن يضيفها إلى تاجه. تانكريد - برغم كل ذلك لم يكن شرعيًّا - بينما كانت "كونستانس – Constance" بسبب زواجها من وريث الإمبراطور تعنى موت المملكة. ولعله كذلك باعتباره زوج أخت الملك قد يكون من حقه أن يدعم مطلبه.

كان لدى تانكريد ما يكفيه من المتاعب لكى يخاطر بعداءات فى أماكن أخرى. بوضوح شديد، كان لا بد له من أن يخرج ضيفه الثقيل من الجزيرة بأسرع ما يمكن؛ وإذا كان ذلك يتطلب تنازلات... فسوف يتبعها تنازلات أخرى. بعد خمسة أيام من وصول ريتشارد لحقت به جوانا نفسها، وكانت قد أصبحت تتمتع بكامل حريتها بعد حصولها على تعويض كبير عن خسائرها الأخرى. إلا أن التخلص من قلب الأسد أو شرائه لم يكن بالأمر السهل. فى 30 سبتمبر، انطلق غاضبًا عبر مضايق مسينى ليحتل مدينة "باجنارا – Bagnara" الصغيرة الهادئة على ساحل كالابريا. وهناك فى كنيسة كان قد بناها الكونت روجر قبل قرن تقريبًا، أنزل أخته وتركها تحت حراسة حامية قوية. وفى طريق عودته إلى مسينى، كان أن وقع على أكثر مؤسسات المدينة قداسة، دير المخلص الذى كان يشغل موقعًا رائعًا على الميناء. قاموا بطرد الرهبان منه واحتل جيش ريتشارد ثكناته الجديدة.

كان أهالى مسينى، ومعظمهم من اليونانيين، قد ردعهم سلوك الجنود الإنجليز غير الأخلاقى وبخاصة مع النساء المحليات، إلا أن احتلال الدير كان هو القشة الأخيرة. فى 3 أكتوبر حدث تمرد وأعمال شغب هائلة، وفى اليوم التالى اقتحم جيش ريتشارد المدينة ليعم التخريب والسلب والنهب أرجاءها، وفى خلال ساعات قليلة كانت المدينة كلها تحترق. ڤيليب أوجسطس، الذى حاول جاهدًا أن يتوسط بين ريتشارد وتانكريد - أصابه الرعب عندما شاهد علم ريتشارد يرفرف على الأسوار، فأرسل من فوره رسالة عاجلة إلى تانكريد ينبهه لخطورة الوضع، ويعرض مساعدة جيشه له فى حال تمادى ريتشارد

فى غيه. لم يكن تانكريد فى حاجة لمثل هذا التحذير، ولكنه كان يفكر فى المستقبل الأبعد، كما كان يعرف أن "هنرى هوهنشتوفن – Henry of Hohenstaufen" كان خطرًا أكثر جسامة مما يمكن أن يكون عليه ريتشارد. عاجلًا أو آجلًا، سوف يغزو هنرى، وعندما يفعل ذلك سيكون تانكريد فى حاجة إلى حلفاء، ولهذا الغرض فإن الإنجليز برغم كل أخطائهم سيكونون أفضل من الفرنسيين. كان ريتشارد يكره آل هوهنشتوفن، ومن ناحية أخرى كان الملك الفرنسى على وفاق تام مع فردريك بربروسا. لو أن الألمان قاموا بالغزو الآن والصليبيون ما زالوا فى صقلية، فلن يكون التعاطف الفرنسى مؤكدًا. وجه تانكريد الشكر لـ: ڤيليب، وأرسل إليه بعض ما يليق به من الهدايا السخية. فى الوقت نفسه أرسل مبعوثًا مؤتمنًا إلى مسينى لكى يتفاوض مع ريتشارد.

كانت الشروط التى عرضها أكثر مما يمكن أن يقاومه ريتشارد: عشرون ألف أونصة من الذهب لأخته ومثلها له، وفى مقابل ذلك وعد بأن يقدم لـ: تانكريد عونًا عسكريًا كاملًا ما دام هو وجيشه فى المملكة، كما تعهد بأن يعيد للمضارين فى الاضطرابات الأخيرة كل ما سلب ونهب منهم. تم توقيع الاتفاق فى الحادى عشر من نوفمبر فى مسينى، كما تم إقراره نهائيًا بتبادل الهدايا: كانت هدية ريتشارد لـ: تانكريد سيف الملك آرثر الشهير، الذى كان قد تم العثور عليه فى "جلاستون برى – Glastonbury". لم يكن غريبًا أن تصبح العلاقات بين ريتشارد وڤيليب أوجسطس أكثر برودًا من ذى قبل، ولكن الملك الفرنسى – على خلاف الإنجليزى – كان يعرف كيف يسيطر على مشاعره. على نحو ما، مر الشتاء دون المزيد من الصدام بينهما، وفى الثلاثين من مارس أبحر ڤيليب بجيشه إلى فلسطين.

بعد أيام قليلة، ستصل سفينة تحمل إليانور أكيتان[13] أم ريتشارد، التى كانت فى السبعين من عمرها، تصحبها خطيبته الأميرة «برنجاريا ناڤار – Berengaria of Navarre». ربما كانت الخطة الأصلية أن يتزوجا فى صقلية، إلا أن الزواج كان محظورًا فى فترة الصيام الكبير – كانت رغبتهما على أية حال غير متسقة مع هذا التوجه – ولم يكن ريتشارد متعجلًا لإتمام الزواج. بناء عليه، تقرر أن تبحر معه برنجاريا إلى الأراضى المقدسة. إليانور التى كانت تحتفظ بذكريات غير سارة عن زيارتها الأخيرة، لم يكن لديها رغبة فى العودة: العروس الشابة سوف تصحبها الملكة چوانا، وعليه وضعت سفينة خاصة تحت تصرفهن. فى العشر من أبريل 1191م، سوف يبحر ريتشارد – الذى نعرف أن أسطوله كان لا يقل عن مائتى سفينة – إلى فلسطين.

** ** **

في اليوم الثالث بعد خروجها من مسيني، واجهت السفن الإنجليزية إحدى عواصف الربيع العاتية التي يشتهر بها الحوض الشرقي من المتوسط. تمكنت معظم السفن من أن تبقى على اتصال ببعضها – كان الملك قد احتفظ بفانوس مضاء على صاري سفينته كدليل للآخرين – ولكن الرياح الغاضبة دفعت عددًا كبيرًا من السفن على نحو كارثي خارج المسار، كما أغرقت عددًا آخر. لفترة ما، كان البعض يعتقدون أن سفينة برنجاريا وچوانا قد فقدت، ولكنهم وجدوها في النهاية وسفينتين أخريين بالقرب من ميناء ليماسول في قبرص.

بصرف النظر عن فترات احتلال العرب القصيرة لقبرص، كانت هذه الجزيرة دائمًا جزءًا من الإمبراطورية البيزنطية؛ قبل خمس سنوات فحسب، كان المدعو "إيزاك دوكاس كومنينوس – Isaac Ducas Comnenus" قد وصل حاملًا وثائق تفيد تعيينه حاكمًا على الجزيرة. فيما بعد، اكتشِف أن هذه الوثائق كانت مزيفة، ولكن ليس قبل أن يستولي إيزاك على كل الحصون الرئيسية. بعد ذلك أعلن نفسه حاكمًا مستقلًا واتخذ لقب إمبراطور، ولكي يقوي وضعه ضد الإمبراطور الشرعي في القسطنطينية عقد اتفاقًا مع صلاح الدين. في مثل تلك الظروف، لن يكون من الوارد أن يقدم مساعدة، أو حتى مأوى، للأسطول الصليبي، أما الناجون من الغرق فقد تم تجريدهم من كل ما معهم وزج بهم في السجون. عندما علم بوصول سيدتين من علية القوم، دعاهما إلى اليابسة ولكن چوانا – وكانت قد سمعت بمن وضعهم في السجون – لم تكن لتثق به قيد أنملة، ثم تأكدت شكوكها عن رفض طلب السفينة تزويدها بالماء، وبدأ في حشد قواته على امتداد الشاطئ.

وصلت الأخبار إلى ريتشارد الذي أبحر على عجل إلى ليماسول وأعطى أوامره بالهجوم الفوري. كان إيزاك قد فعل كل ما في استطاعته لتحصين الشاطئ، ولكن رجاله لم يكونوا ندًّا لرماة السهام الإنجليز، وسرعان ما لاذوا بالفرار. بحلول المساء كانت المدينة قد أصبحت في يد ريتشارد، وفي نفس الليلة تم تطويق معسكر إيزاك. هو نفسه تمكن من الهرب ولكنه ترك خلفه كل شيء: الأسلحة، الخيول، الثروة... وأخيرًا وليس آخرًا رايته الإمبراطورية، التي أهداها ريتشارد فيما بعد لكنيسة "بوري سان إدموندز – Bury St Edmunds". كان بذلك قد أعطى الملك "ذريعة للحرب – casus belli"، بمعنى الكلمة، ولم يكن ريتشارد ممن يضيعون فرصة تسنح له. الآن.. قرر أن تكون قبرص كاملة له. كانت هناك خطوة شكلية واحدة لا بد من اتخاذها: يوم الأحد في كنيسة سان چورچ، في القلعة، تزوج هو وبرنجاريا على يد أسقف "إڤروتس – Evreux"، الذي ذهب من فوره ليتم حفل تتويج العروس.[14] بعد ذلك راح يستعد للحرب.

لم يستغرق غزو قبرص وقتًا طويلًا. كان «جاى لوزينان»، الملك الاسمى لأورشليم، الذى كان الآن مجردًا من مملكته - قد لحق بـ «ريتشارد». عهد ريتشارد لـ «جاى» بجزء من جيشه مع تعليمات بمطاردة إيزاك وأسره، أما باقى الجيش تحت قيادته، فكان عليه أن يبحر مطوفًا حول الجزيرة – كل نصف منه فى اتجاه – للاستيلاء على المدن والقلاع الساحلية وما يقابلونه من سفن فى طريقهم. عاد ريتشارد ليجد أن «جاى» قد فشل – وكان ذلك متوقعًا – فى أن يجد إيزاك، الذى كان قد لجأ إلى إحدى القلاع الجبلية المنيعة العديدة على الساحل الشمالى. كانت خطته أن يبقى هناك إلى أن يغادر الصليبيون الجزيرة، وكان يمكن أن تنجح الخطة لو لم تسقط قلعة «كيرينيا – Kyrenia» – التى كان قد ترك فيها زوجه وابنته الصغيرة فى أيدى رجال جاى. بعد ذلك فقد إيزاك الأمل ووافق على أن يسلم نفسه مشترطًا فقط ألا يوضع فى الحديد. وعده ريتشارد – عن طيب خاطر – بذلك وصنعوا له أصفادًا خاصة من الفضة. بحلول الأول من يونيو، كان ملك إنجلترا كذلك قد أصبح سيد قبرص. تم تعيين حاكمين لإدارة الجزيرة باسمه من الإنجليز، وصدرت الأوامر لكل القبارصة من الرجال بحلاقة لحاهم دليلًا على الولاء للعهد الجديد.

فى الخامس من يونيو، أبحر الملك من فاماجوستا مصطحبًا معه إيزاك كومنينوس ليودعه سجينًا فى قلعة "مارجات – Margat" (قلعة المرقاب الحالية فى سوريا) الأسوأ والأكثر كآبة وظلامًا من بين كل قلاع الصليبيين، وهى القلعة التى كان فرسان سان جون قد استولوا عليها قبل خمس سنوات. بعد ذلك واصل تقدمه جنوبًا على امتداد الساحل إلى عكا ليحالفه الحظ فى الطريق فيقابل ويحطم سفينة للمسلمين كانت ترفع العلم الفرنسى وتحاول اختراق حصار الفرنجة. (وبحسب شائعة انتشرت على نطاق واسع بين الفرنجة، وجد أن السفينة كانت تحمل شحنة من مائتى أفعى سامة كان من المقرر إطلاقها فى المعسكر المسيحى). عندما وصل هو وأسطوله كانوا محل ترحيب كبير، إلا أن ريتشارد وجد نفسه فجأة متورطًا فى أزمة دبلوماسية، كانت تهدد ما تبقى من التحالف المسيحى.

بعد أحد عشر شهرًا من معركة حطين، كان صلاح الدين قد أطلق سراح "جاى" بشرط ألا يشارك مرة أخرى فى حرب ضده. وافق "جاى"، ولكن الكل كان يعرف أن الوعود التى تعطى لغير المؤمنين بالنصرانية كان يمكن تجاهلها بكل سهولة – وبخاصة بعد أن ظهر أنه كان لديه ما هو أكثر من الأماكن المقدسة لكى يحارب من أجله: كان عرشه هو شخصيًا فى خطر. أثناء سجنه كان قد ظهر قائد جديد يدعى "كونراد

المونتفراتى – Conrad of Monteferrat''، الذى كان قد دافع عن صور ببسالة ضد هجوم للمسلمين، وكان الآن يسيطر على المدينة بالرغم من أنها كانت جزءًا لا يتجزأ من مملكة أورشليم. جاى بعد أن حرم من صور كان يريد أن يظهر شجاعته، ولأنه كان متلهفًا على مدينة يحكم منها، تقدم مع مجموعة صغيرة من الجنود إلى عكا؛ حيث ضرب حصارًا حولها. لم يكن كما كان معروفًا عنه بشكل إجماعى تقريبًا شديد الذكاء، ولكن ما قام به كان عملًا أقرب إلى الخبل أو الجنون. كانت عكا أكبر مدن المملكة أكبر حتى من أورشليم، ولكن جيش ''جاى'' كان صغيرًا لدرجة الرثاء، ولم يكن هناك شيء يمكن أن يمنع صلاح الدين أن يوقفه عن أن يأتى بقوة إنقاذ ويقوم بتطويقه بدوره وهو ما قام به بالفعل. إلا أن ''جاى'' استطاع أن يحافظ على وضعه حتى وصل ريتشارد قلب الأسد فى مطلع صيف 1191م.

فى الثانى عشر من يوليو من العام نفسه، استسلمت الحامية الإسلامية فى عكا واستولى الصليبيون على المدينة. بعد ستة أسابيع أعطى ريتشارد أوامره بالقضاء على كل المسلمين الأسرى لديه – 2700 شخص بمن فيهم زوجاتهم وأطفالهم – كان من المفترض أن تكون مشكلات ''جاى'' قد انتهت لولا كونراد المونتفراتى، الذى كان قد عينه على عرش أورشليم. كان ''جاى'' قد وصل إلى العرش عن طريق زوجته ''سيبيللا – Sibylla''، ولكن سيبيللا وابنتيها الصغيرتين كن قد متن فى وباء خريف 1190؛ فهل يا ترى كان ما زال عند زوجها حق يطالب به؟ أيا كان الوضع القانونى فإن معظم بارونات الشرق اللاتينى الذين كانوا ما زالوا على قيد الحياة، كانوا يرونها فرصة مواتية تمامًا للتخلص من حاكم ضعيف لا يمكن الاعتماد عليه. كان كونراد هو مرشحهم للعرش. لم يكن صاحب حق قانونى يعتد به، ولكن كان هناك حل واحد بسيط لهذه المشكلة: أن يتزوج الأميرة ''إيزابيللا – Isabella'' ابنة الملك ''أماليك – Amalric''. ربما كانت هناك عقبة ثانوية، وهى أنها كانت متزوجة بالفعل من ''همفرى – Humphery'' لورد ''تورون – Toron''، ولكن همفرى رغم أنه كان مثقفًا كبيرًا وعالمًا فى الدراسات العربية، كان شاذًا جنسيًا، وكان الجميع يعرفون ذلك. وافق بكل ارتياح ودون تردد على الطلاق، وفى الرابع والعشرين من نوفمبر 1190 أعلن زواج كونراد وإيزابيللا.

إلا أن الزواج الملكى ليس تتويجًا على أية حال، استمرت الخصومة بين جاى لوزينان وكونراد المونتفراتى لمدة ثمانية عشر شهرًا أخرى، وكان يمكن أن تستمر أطول من ذلك لولا أن الملك ريتشارد – الذى كانت قوته ومكانته فى الأراضى المقدسة أكبر بكثير

من قوتهما ومكانتهما – جاءته أخبار من إنجلترا أقنعته بالعودة فورًا، إن كان له أن ينقذ تاجه. قبل رحيله؛ عقد مجلسًا حضره كل الفرسان والبارونات فى الشرق اللاتينى وأبلغهم بضرورة حسم موضوع الملكية مرة وإلى الأبد. من الذى يريدون أن يحكمهم: جاى أو كونراد؟ اختاروا كونراد بالإجماع، أما جاى فأُرسل إلى قبرص بأوامر من ريتشارد؛ حيث سمح له – على سبيل الترضية – بأن يحكم الجزيرة كما يريد. اتخذ لقب "ملك"، وأسس أسرة كان أن حكمت قبرص ما يقرب من ثلاثمائة عام.

** ** **

فى العاشر من يونيو 1190م، وبعد رحلة طويلة مضنية عبر جبال طوروس جنوبى الأناضول، قاد فردريك بربروسا قواته نحو الهضبة الساحلية المنبسطة. كانت الحرارة شديدة، ولا بد أن نهر "كاليكادنوس – Calycadnus" (يعرف الآن بنهر جوكسو Göksu) الذى كان يمر بـ "سيلوكيا – Seleucia" (سيليفكى الآن) حتى البحر، لا بد أنه كان يبدو جميلًا مغريًا بالتوقف عنده. فردريك الذى كان يركب حصانه منفردًا متقدمًا جيشه بمسافة قصيرة، مهمزًا حصانه نحو البحر... ولم يره أحد بعد ذلك. سواء أكان قد نزل من على الحصان ليشرب وزلت قدمه وسحبه التيار، سواء أكان حصانه قد انزلق وأطاحه، سواء أكانت صدمة سقوطه فى ماء الجبل الثلجى أكبر مما يتحمله جسده العجوز – كان فى السبعين من العمر – لن يعرف أحد. أنقذوه ولكن متأخرًا جدًّا، وعندما وصل معظم أعوانه إلى النهر كان إمبراطورهم يرقد ميتًا على الشاطئ.

على الفور تقريبًا، بدأ عقد جيشه ينفرط، عاد كثير من الأمراء الألمان الصغار إلى أوروبا، آخرون أخذوا السفن إلى صور التى كانت الميناء الرئيسى الوحيد الذى ما زال فى أيدى المسيحيين فى الشرق اللاتينى، واصلت العوامة التى كانت تحمل جثة الإمبراطور محفوظة – دون نجاح كاف – فى الخل، سيرها بكآبة، رغم أنها فقدت المزيد من رجالها فى كمين عند دخول سوريا. لم يكن لدى الناجين الذين وصلوا أخيرًا إلى أنطاكية مرهقين، لم يكن لديهم أى قدرة على القتال. فى ذلك الوقت أيضًا، حدث لما كان قد تبقى من فردريك، ما حدث لما كان قد تبقى من جيشه... تم دفن بقاياه المتحللة على عجل فى الكاتدرائية، لتبقى ثمانية وسبعين عامًا – إلى أن جاء جيش مملوكى بقيادة السلطان بيبرس[15] ليشعل النار فى المبنى كله... مع معظم المدينة الذى استحال رمادًا.

كان من حسن حظ الشرق اللاتينى أن يصل ريتشارد وفيليبى أوجسطس بجيوشهما سليمة، وكان بفضلهما كذلك أن كانت الحملة الثالثة أقل خزيًا ومهانة من الثانية نوعًا ما، رغم أنه من الصعب أن نعتبرها قد نجحت؛ حيث فشلت فى استعادة أورشليم. أصبحت

عكا عاصمة المملكة، ولكن هذه العاصمة التى أصبحت مختصرة فى الشريط الساحلى القصير بين صور ويافا، كانت ظلًا شاحبًا لما كانت عليه من قبل فلسطين الصليبيين. ستظل عكا صامدة على مدى قرن آخر، وعندما سقطت فى النهاية أمام بيبرس فى 1291م، كانت المفاجأة الوحيدة أنها بقيت تلك المدة الطويلة.

** ** **

فى تاريخ العالم المسيحى كله، لا يوجد فصل أكثر تضليلًا من ذلك الذى يروى قصة الحملات الصليبية. الأولى رغم نجاحها عسكريًا، كانت تتسم بدرجة من البربرية والوحشية فاقت كل الحدود حتى بمعايير العصور الوسطى؛ الثانية كانت فشلًا ذريعًا، ويعود ذلك - إلى حد كبير - إلى حماقة قادتها البالغة. الثالثة وبالرغم من أنها كانت أقل خزيًا من سابقتها، كانت عملًا أخرق؛ حيث فشلت هى الأخرى فى تحقيق أهدافها. ليس هناك أى أثر تاريخى لأى منها، بصرف النظر عن الدماء التى سفكت فيها عبثًا. ربما بنهاية القرن الثانى عشر، والمؤكد أنه بنهاية الثالث عشر كان الشرق الأدنى الإسلامى يختلف قليلًا عما كان عليه عندما أطلق البابا أوربان صيحته المدوية فى مجمع كليرمونت لجمع الشمل من أجل عمل مشترك. كان لا بد من أن تكون الحملة الرابعة مختلفة عن كل ما سبق. لقد حطم المشاركون فيها المعقل المسيحى الوحيد القوى، الذى كان ينبغى أن يقدموا حياتهم ليبقى قائمًا، ألا وهو دفاع أوروبا القوى الواحد ضد المد الإسلامى. بهذا الفعل، فإنهم غيروا مسار التاريخ.

جاءت نهاية القرن الثانى عشر لتجد أوروبا فى حالة فوضى. فى الثامن من أبريل 1195م، سقط الإمبراطور البيزنطى إيزاك الثانى أنجيلوس فريسة لانقلاب دبره شقيقه "ألكسيوس – Alexius"، الذى خلعه وأعماه وأعلن نفسه إمبراطورًا مكانه. كان إيزاك كارثة بالفعل... والحقيقة أن ألكسيوس كان أسوأ. فى الثامن والعشرين من سبتمبر، وبينما كان يجهز لحملة جديدة، مات الإمبراطور الغربى "هنرى السادس – Henry VI" بالحمى فى مسينى. كانت ألمانيا ممزقة بسبب الحرب الأهلية على الخلافة الإمبراطورية، وبالمثل كانت إنجلترا وفرنسا مشغولتين – وإن بدرجة أقل عنفًا – بمشكلات الوراثة بعد موت ريتشارد قلب الأسد فى 1199م. كان "نورمان سيسلى – Norman Cicily" قد رحل إلى الأبد، ومن بين كل الشخصيات البارزة فى العالم المسيحى، كان هناك شخص واحد فقط هو الذى يسيطر بحزم: البابا "إنوسنت الثالث – Innocent III".

تحت إنوسنت، وصلت البابوية ذروة قوتها ومجدها فى العصور الوسطى. اعتلى إنوسنت العرش البابوى فى 1198م، وخلال الأعوام التسعة عشر فى منصبه، رأس حملتين منفصلتين. إحداهما – إن كان لنا أن نلتزم الدقة فى التسلسل الزمنى كانت الثانية – كانت ذات أهمية عالية قليلة نسبيًا؛ حيث كانت مقصورة على جنوب غرب فرنسا. كان هدفها القضاء على المهرطقين "الألبيجنسيين[16] – Albigenses" المعروفين بـ "الكاثاريين[17] – Cathars" الذين كانوا يجاهرون بالعقيدة المانوية[18] – Manichaean" التى ترى أن مبدأى الخير والشر المتعارضين فى حال صراع دائم لكى تكون لأحدهما الغلبة؛ فالعالم المادى شرير، وواجب الإنسان هو تحرير روحه التى هى خيرة بطبيعتها، وهو ما لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال حياة زهد وتقشف وتجنب للفساد ولكل زينة الحياة الدنيا كما تقضى الكنيسة الكاثوليكية. لا شك أن هذه العقيدة كانت طعنة فى قلب المسيحية الأرثوذكسية وكذلك المؤسسات السياسية والكنسية فى العالم المسيحى، وكان أن تحرك إنوسنت ضدها بقوة. فى 1209م أمر الرهبان "السيسترسيين[19] – Cistercians" بأن يقوموا بحملة وعظ وتبشير استمرت على مدار القرن، بالرغم من أن الكاثاريين لم يفيقوا من الاستيلاء على معقلهم فى "مونت سيجر – Montségur" عند سفح البرانس فى 1244م، وكانوا مضطرين للعمل سرًا. عندما تم القضاء على هذه الهرطقة، كان قد تم تخريب وسلب ونهب مناطق "بروڤنس – Provence" و"اللانجيدوك – Languedoc" ومعظم الجنوب الغربى، وذبح كثير من الأهالى بدم بارد، كما تم تدمير حضارة التروبادور البروڤنسية.

كانت الحملة الأخرى هى المعروفة لنا بالحملة الرابعة. لم يقلق البابا عدم وجود رؤوس متوجة لقيادتها على أى نحو؛ حيث كانت التجربة السابقة قد بينت أن الملوك والأمراء كانوا يثيرون خصومات قومية ومشكلات لا حصر لها حول البروتوكول والأولويات وتصدر بعضهم البعض. أما المشكلات اللوجستية فكانت أكثر خطرًا. قبل مغادرته فلسطين، كان ريتشارد قلب الأسد قد أدلى برأى شخصى وهو أن مصر كانت النقطة الأضعف فى الشرق الإسلامى، وعليه فإن أى حملة مستقبلية لا بد أن تكون وجهتها هناك. كان ذلك يعنى أن الجيش الجديد سيكون عليه أن يسافر بحرًا، وسيكون فى حاجة إلى وسائل انتقال بكمية لا يمكن الحصول عليها إلا من مصدر واحد: جمهورية ڤينيسيا... وهذا ما كان.

فى الأسبوع الأول من الصوم الكبير (Lent) فى سنة 1201م، وصلت إلى ڤينيسيا مجموعة من ستة فرسان بقيادة "چيوفرى دى ڤيلهاردون – Jeoffrey de Villehar-

douin“ مارشال ”شمپانيا – Champagne“. تقدموا بطلبهم فى لقاء خاص وجاءهم الرد بعد أسبوع. ستوفر الجمهورية وسائل انتقال لأربعة آلاف وخمسمائة فارس بخيولهم وتسعة آلاف من حملة الدروع وعشرين ألف جندى مشاة، مع طعام يكفى تسعة أشهر. بالإضافة إلى ذلك ستقدم ڤينيسيا خمسين سفينة ”قادس[20] – Galley“، مجهزة تمامًا على نفقتها الخاصة.. بشرط الحصول على نصف الأراضى التى يتم غزوها. سيكون الثمن 84000 مارك[21] من الفضة.

نقل هذا الرد إلى چيوفرى وزملائه الدوچ "إنريكو داندولو – Enrico Dan-dolo“، ذلك الرجل الذى لا يوجد فى تاريخ ڤينيسيا كله من هو أكثر منه إثارة للدهشة. لا نعرف كم كان عمره بالتحديد عندما صعد فى الأول من يناير 1193 إلى عرش الدوقية. تقول القصة: إنه كان فى الخامسة والثمانين وإنه كان أعمى تمامًا، رغم أنه قد يبدو من الصعب تصديق ذلك وخاصة عندما نقرأ عن طاقته الهائلة – بل بطولته – بعد عقد من الزمان على أسوار القسطنطينية. ولكن حتى لو أنه كان فى منتصف السبعينيات من العمر، فلا بد أنه وقت الحملة الرابعة كان فى العقد التاسع. بعناية فائقة فسر تفسيرًا محرفًا حقيقة أن سفراءه فى تلك اللحظة كانوا فى القاهرة يبحثون اتفاقًا تجاريًّا مفيدًا، كان جزء منه تعهدهم أنهم لن يشاركوا فى أى هجوم على الأراضى المصرية؛ كان الاتفاق على ضرورة أن يلتقى الصليبيون فى ڤينيسيا فى عيد سان چون، 24 يونيو 1202 م؛ حيث سيكون الأسطول جاهزًا من أجلهم.

فى ذلك اليوم اجتمع العدد فى الليدو برئاسة قائدهم الجديد الماركيز ”بونيفاس المونتفراتى – Boniface of Monteferrat“، وكان عددهم أقل من ثلث العدد المتوقع. بعضهم كانت حماسته للقضية قد تبخرت، وآخرون رضخوا – بلا شك – لضغوط أسرية، ألا إن البعض كان قد سمع عن الوجهة الحقيقية للحملة ويرون أورشليم الهدف الشرعى الوحيد، ولذا رفضوا أن يضيعوا الوقت فى أى مكان آخر. بهذا العدد الذى انخفض إلى حد كبير، لم يكن الصليبيون قادرين على أن يسددوا للڤينيسيين المبلغ الذى وعدوهم به. فعلوا كل ما فى وسعهم ولكن بقى هناك عجز نحو 34000 مارك. وعندما تأكد داندولو أنه لن يتمكن من الحصول على أكثر من ذلك تقدم بعرض جديد. كانت ”زارا – Zara“ (زادار Zadar الحديثة على ساحل دالماشيا) قد سقطت قبل وقت قريب فى يد ملك هنغاريا، فإذا ساعد الصليبيون على استعادتها يمكن تأجيل تسوية الدين.

وهكذا فى الثامن من نوفمبر 1202م، أبحر جيش الحملة الرابعة من ڤينيسيا – 480 سفينة تتقدمها سفينة الدوچ نفسه، التى كانت كما يقول الصليبى الفرنسى المؤرخ ”روبير

الكلارى – Rober of Clary": "مصبوغة باللون القرمزى، مع مظلة من الحرير قرمزية اللون كذلك مفرودة عليها، بينما كانت الصناجات تعزف وأربعة أبواق تصدح فى مقدم السفينة". بعد أسبوع، كان قد تم الاستيلاء على المدينة ونهبها. اندلع الصراع على الفور بين الفرنجة والفرنسيين على تقسيم الغنائم، وعندما هدأت الأمور استقرت كل جماعة فى ركن من المدينة فى موسم الشتاء. بعد فترة قصيرة، وصلت أخبار ما حدث إلى البابا الذى استشاط غضبًا فعاقب الحملة كلها بحرمانهم كنسيًّا. كان القادم أسوأ؛ فى أوائل العام الجديد وصل مبعوث برسالة إلى بونيفاس من "ڤيليب السوابى – Philip of Swabia" الابن الأصغر لـ "فردريك بربروسا". كان ڤيليب قد تزوج من ابنة الإمبراطور التعس إيزاك، الذى كان ألكسيوس الثالث قد خلعه. ابن إيزاك الصغير (المربك أن اسمه أيضًا كان ألكسيوس) كان قد هرب من السجن حيث كان محتجزًا هو وأبوه، ولجأ إلى ڤيليب. كان العرض الذى يقدمه ڤيليب شديد البساطة: إذا وافق الصليبيون على اصطحاب ألكسيوس الصغير إلى القسطنطينية ووضعوه هناك على العرش مكان عمه مغتصب العرش، فإن ألكسيوس من جانبه سيقوم بتمويل غزو مصر، ويقدم علاوة على ذلك عشرة آلاف جندى ويتكفل بنفقات خمسمائة فارس بعد ذلك فى الأراضى المقدسة، كما أنه سوف يقوم بتسليم كنيسة القسطنطينية لسلطة روما.

كانت الفكرة بالنسبة لكل من بونيفاس وداندولو تحتوى على الكثير الذى يجعلها جديرة بالقبول. كان معظم أتباعهما كذلك سعداء بالخطة التى كانت تعد بتقوية وإثراء الحملة – وتمكنها بالمرة من تسديد دين ڤينيسيا – وتستعيد كذلك وحدة العالم المسيحى. وهكذا، كان فى يوم 24 يونيو 1203م، بعد عام من اليوم التالى للقاء ڤينيسيا أن أقلع أسطول الصليبيين من ميناء القسطنطينية. چيوفرى دو ڤيلهاردين الذى كتب وصفًا ممتعًا للقصة يقول:

> **لك أن تتخيل كيف كانوا يحدقون، أولئك الذين لم يكونوا قد رأوا القسطنطينية من قبل؛ عندما شاهدوا تلك الأسوار العالية والأبراج المحيطة بها، والقصور الرائعة والكنائس الكبيرة – كانت كثيرة ولولا أنهم كانوا يرونها بعيونهم لما صدقوا ذلك – وطول وعرض المدينة التى لا بد من أن تكون سيدة المدن، التى لم يدر بخلد أى منهم أنه كان يوجد مكان على الأرض بمثل هذا الثراء والقوة. لاحظ أنه لم يكن هناك أى إنسان أيًا كانت جسارته لم يشعر برجفة أمام المشهد، ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب؛ إذ لم يوجد مثل هذا الإنجاز منذ بدء الخليقة.**

فى البداية لم يواجه الصليبيون مقاومة تذكر، وفى الخامس من يوليو رست سفنهم بالقرب من «جالاتا – Galata" على الجانب الشمالى الشرقى من القرن الذهبى. ولأنها كانت مستوطنة تجارية وأغلب سكانها من التجار الأجانب لم يكن للمدينة أسوار ولم تزد دفاعاتها عن برج دائرى واحد. كان لذلك البرج أهمية كبيرة؛ إذ كان يوجد بداخله المرفاع الضخم الذى يستخدم لرفع وخفض السلسلة الحديدية الهائلة التى تستخدم فى الظروف الطارئة لإغلاق مدخل القرن. كانت الحامية البيزنطية قد أقامت دفاعات قوية، ولكن بعد أربع وعشرين ساعة تمكن البحارة الڤينيسيون من تحرير المرفاع فسقطت السلسلة الحديدية فى الماء محدثة صوتًا أشبه بالرعد، ثم اندفع الأسطول ودمر السفن البيزنطية القليلة التى كانت فى الميناء. كان الانتصار البحرى ساحقًا.

لكن القسطنطينية لم تكن قد سقطت بعد. لم تكن الأسوار الممتدة بطول شاطئ القرن الذهبى بمثل قوة استحكامات الجانب الغربى، إلا أن الدفاع عنها كان مستميتًا. وجه الصليبيون هجومهم على أضعف نقطة حيث التقاء الدفاعين فى أقصى الركن الشمالى الغربى من المدينة بالقرب من قصر "بلاشيرنا – Blacherna" الإمبراطورى. أول محاولة للفرنجة للنزول إلى اليابسة تم صدها. كان الڤينيسيون هم الذين حددوا اليوم، وربما إنريكو شخصيًا. قصة شجاعة يرويها چيوفرى:

> **.. وهنا كان عمل جسور بدرجة غير عادية؛ حيث كان يقف دوق ڤينيسيا، الذى كان رجلًا مسنًا وأعمى، بكامل سلاحه فى مقدمة السفينة وأمامه راية سان مارك، كان يصرخ فى رجاله لكى يدفعوا السفينة إلى الشاطئ إن كانوا حريصين على حياتهم. وهكذا فعلوا ودفعوها، ثم وثبوا وهو معهم ورشقوا الراية أمامه فى الأرض. وعندما رأى الڤينيسيون الآخرون راية سان مارك وسفينة الدوج ترسو على الشاطئ قبل سفينتهم، شعروا بالخجل وتبعوه إلى اليابسة.**

قبل مرور وقت طويل انهارت المقاومة البيزنطية: تدفق الصليبيون من ثغرات الأسوار إلى المدينة نفسها ليضرموا النار فى البيوت الخشبية إلى أن أصبح حى بلاشيرنا كله مشتعلًا. فى ذلك المساء فر ألكسيوس الثالث تاركًا زوجته وكل أطفاله – عدا ابنة مفضلة – يواجهون المستقبل المجهول وما يحمله لهم. لم يكن بالإمكان أن تبقى بيزنطة طويلًا بلا إمبراطور فى تلك الأزمة الأخطر فى تاريخها. تم إحضار أنجيلوس -Angelus من سجنه على عجل وإعادته إلى العرش. إلا أن ذلك لم يكن نهاية الأمر بأى حال. بفضل خدمات أخيه كان حتى أكثر عماء من الدوچ العجوز وكان قد أثبت أنه غير كفء، وبذلك بقيت التعهدات التى كان قد قدمها ابنه ألكسيوس لـ "بونيفاس ودواندالو. عندما جعل إيزاك من ألكسيوس إمبراطورًا مشاركًا له، باسم ألكسيوس الرابع، آنذاك فقط اعترف به الصليبيون رسميًا. بعد ذلك انسحبوا إلى جالاتا ينتظرون مكافآتهم الموعودة.

إلا أن هذه المكافآت لم تكن لتأتى قريبًا. كانت الخزانة الإمبراطورية خاوية، وبالفعل كانت سمعة الإكليروس قد شوهت عندما بدأ ألكسيوس يضع يده على طبق الكنيسة ويبدده، ثم إنهم أصبحوا أكثر غضبًا عندما سمعوا بخطته لجعلهم تابعين لروما. زاد التوتر بسبب الوجود المستمر للفرنجة الذين لم تكن لديهم النية للمغادرة قبل أن يفى الإمبراطور بتعهداته. ذات ليلة انقضت جماعة منهم على مسجد صغير فى الحى الغربى خلف كنيسة سانت إيرين ونهبوه وأحرقوه تمامًا. انتشرت النار، وفى اليومين التاليين كانت القسطنطينية كلها وسط أكبر وأسوأ حريق منذ أيام جستنيان قبل سبعة قرون تقريبًا.

المثير للسخرية أنه لا اليونانيون ولا الفرنجة كانوا يريدونها. اليونانيون كانوا يريدون فقط أن يتخلصوا من أولئك السفاحين الهمج مرة وإلى الأبد، والفرنجة لم يكونوا قد نسوا سبب تركهم ديارهم، وكان رفضهم لبقائهم الاضطرارى يتزايد بين من كانوا يعتبرونهم شعبًا عقيمًا ومهرطقًا، فى الوقت الذى كان ينبغى أن يكونوا فيه فى قتال مع غير المؤمنين. حتى إذا دفعت الأموال الموعودة كلها، فلن يستفيدوا منها، كل ما فى الأمر أنها كانت ستمكنهم من تسوية حساباتهم مع الڤينيسيين. كان مفتاح المسألة برمتها – باختصار – كان مع ڤينيسيا، أو إن شئنا الدقة كان مع إنريكو داندولو. كانت الفرصة متاحة أمامه فى أى لحظة لكى يعطى الأمر لأسطوله بالإبحار. لو أنه فعل ذلك لاستراح الصليبيون ولفرح البيزنطيون. أما لماذا لم يفعل، فلم يكن لذلك علاقة بالدين للفرنجة. كان ذهن داندولو مشغولًا بأشياء أكبر: إسقاط الإمبراطورية البيزنطية ووضع شخصية ڤينيسية أقرب إلى الدمية على عرش القسطنطينية.

وهكذا أخذت نصيحة داندولو لحلفائه الفرنجة لهجة مختلفة. لا شىء أكثر من ذلك، كما ألمح لهم، كان يمكن توقعه من الإمبراطورين المشاركين اللذين لم يكن فيهما أى أمل. أما إذا كان الصليبيون يريدون الحصول على مستحقاتهم فلا بد من الاستيلاء على القسطنطينية بالقوة. بمجرد وجودهم داخل المدينة وأحد قادتهم على العرش، كانوا يستطيعون أن يدفعوا لڤينيسيا الدين، وربما دون صعوبة، وسوف يتبقى لديهم ما هو أكثر من ذلك لتمويل الحملة. كانت تلك فرصتهم وكان لا بد من انتهازها؛ إذ ربما لا تتكرر. كان ذلك جدلًا خلافيًا زادت حدته عندما أزيح ألكسيوس الرابع فى الخامس والعشرين من يناير 1204 وقتل بعدها بقليل، ثم تبعه أبوه الطاعن فى السن بسرعة مريبة. قاتله كان نبيلًا يدعى "ألكسيوس دوكاس – Alexius Ducas" (المكنى بـ "ميرزوفلوس – Murzuphlus" بسبب حاجبيه اللذين كانا سوداوين مشوشين موصولين فى المنتصف) تم تتويجه فى كنيسة سانت صوفيا باسم "ألكسيوس الخامس – Alexius V"، وعلى

الفور بدأت تظهر عليه علامات القيادة التى كان الإمبراطور يفتقدها منذ فترة طويلة. كانت كتائب من العمال تعمل ليل نهار فى تقوية الدفاعات وزيادة ارتفاعها. أى محاولة كبيرة للاعتداء على المدينة - إن كان لا بد من أن يحدث ذلك - كان لا بد من أن تتم فورًا، فالإمبراطور الجديد لم يغتصب العرش فحسب، بل إنه كشف عن أنه كان قاتلًا، وكان الصليبيون أقوى معنويًّا مما لو أنهم كانوا قد تحركوا ضد سلفه الذى كان – على الأقل – شرعيًّا، إلى جانب أنه كان حليفهم السابق.

بدأ الهجوم صباح يوم الجمعة 9 أبريل 1204. قاد ميرزوفلوس مقاومة مستميتة ولكن بلا طائل. فر بدوره. وفى اليوم الثانى عشر من الشهر اقتحم الفرنجة والڤينيسيون الأسوار ودخلوا المدينة. كانت مذبحة رهيبة. حتى ڤيلهاردون أصابه الرعب. لم يضع انتظار الجيش الطويل أمام أغنى عاصمة فى العالم سدى، وبمجرد أن سمح لهم بالأيام الثلاثة لجمع الغنائم انقضوا عليها كالجراد. لم تشهد أوروبا منذ غزوات البرابرة أعمال تخريب ووحشية كتلك. لم يحدث فى التاريخ أن تم تدمير هذا الكم من الجمال والإبداع الفنى فى مثل ذلك الوقت القصير. كتب "نيكيتاس كونياتس – Nicetas Choniates" وهو شاهد عيان يونانى يقول:

> **حطموا الصور المقدسة وألقوا برفات الشهداء فى أماكن أخجل من ذكرها. بعثروا جسد ودم المخلص فى كل مكان.. أما عن تدنيسهم الكنيسة الكبيرة فلا يمكن ذكر ذلك دون الشعور بالرعب. دمروا المذبح العالى وكان عملًا فنيًّا بهر العالم ووزعوا قطعه بينهم، أدخلوا الخيل والبغال الكنيسة ليحملوا عليها الأوانى المقدسة وصفائح الذهب والفضة التى خلعوها من العرش والمنبر، والأبواب والأثاث وكل ما وجدوه، وعندما كانت بعض هذه الحيوانات تعثر وتقع كانوا يطعنونها بسيوفهم لتنهض ملوثة الكنيسة بروثها ودمها. وضعوا بَغِيًّا متوجة على كرسى البطريرك لتوجيه الإهانات ليسوع المسيح، كانت تتغنى بكلمات قبيحة وترقص بفجور وخلاعة فى الحرم المقدس... لم تكن هناك رحمة حتى بالعذارى المنذورات للرب... فى الشوارع والبيوت والكنائس لم تكن تسمع سوى أصوات البكاء والنحيب.**

هؤلاء الرجال - كما يضيف - كانوا يحملون الصليب على أكتافهم، الصليب الذى أقسموا عليه أن ينقلوه عبر الأراضى المسيحية دون سفك للدماء، وأن يحملوا السلاح ضد الوثنيين فقط، وأن يمتنعوا عن كل متع الجسد إلى أن يكملوا مهمتهم المقدسة.

بعد ثلاثة أيام من الرعب عاد الهدوء وهيأ الصليبيون أنفسهم لمهمتهم التالية: انتخاب إمبراطور جديد. كان يمكن أن يكون بونيفاس المونتفراتى المرشح المحتمل

أو الواضح، إلا أن ارتباطه بـ «ألكسيوس الرابع» المخلوع لم يكن بعيدًا، وكان يجد نفسه الآن سيئ السمعة بدرجة ما. بالإضافة إلى ذلك فقد كانت له صلات سرية بحكام جنوة وكان داندولو يعرف ذلك. لم يكن الدوج العجوز يجد صعوبة فى توجيه اللجنة الانتخابية - كان نصف عددها من الفينيسيين - نحو الكونت بلدوين أمير الفلاندرز وهاينولت الذى تم تتويجه فى حينه فى كنيسة سانت صوفيا. ولكن المناطق التى كان عليه أن يحكمها الآن كان لا بد من تقليصها إلى حد كبير. وبالفعل، كان الفينيسيون والفرنجة قد اتفقوا على أنه ينبغى أن يحتفظ فقط بربع المدينة والإمبراطورية، أما الثلاثة الأرباع الأخرى فيتم تقسيمها بالتساوى بين فينيسيا والفرسان الصليبيين. ومن ثم استولى داندولو للجمهورية على المناطق المحيطة بسانت صوفيا كلها حتى القرن الذهبى، وللباقين أخذ كل تلك المناطق التى كانت تعد بتقوية سيادة فينيسيا على المتوسط وتعطيها سلسلة كاملة من المستوطنات والموانئ التجارية، من البحيرة الضحلة إلى البحر الأسود. كانت تضم "راجوسا – Raguse" (دوبروفنك Dubrovnik الحالية)؛ و"دورازو – Durazzo" (ديورس – Dürres الحالية)؛ الساحل الغربى من البر الرئيسى اليونانى والجزر الأيونية Ionian Islands وكل جزر "البيلوبونيز – Peloponnese"؛ وجزر "ناكسوس – naxos" و"أندروز – Andros" ومدينتى "إيوبيا – Euboea"؛ والموانئ الرئيسية على "هيلزبونت – Hellespont" ومرمرة: "جاليبولى – Gallipoli" و"رايدستوم – Rhaedstom" و"هرقلية – Heraclea"، وساحل تراسى ومدينة "أدريانوبل – Adrianople" وأخيرًا - بعد تفاوض قصير مع بونيفاس - جزيرة كريت ذات الأهمية الكبيرة. مقابل كل ذلك، أصبح الدوج فى حل من تبعية الإمبراطور. ستكون الموانئ والجزر خاصة بـ"فينيسيا" تمامًا، أما بالنسبة للبر الرئيسى فى اليونان، أوضح داندولو أن فينيسيا كجمهورية تجارية لم يكن لها أى مصلحة فى احتلال ما هو أكثر من الموانئ الرئيسية.

هكذا يتضح بما لا يترك مجالًا للشك أن الفينيسيين كانوا المستفيدين الحقيقيين من الحملة الرابعة، وأن نجاحهم كان يعود - كلية - إلى إنريكو داندولو. برفضه التاج البيزنطى لنفسه، ضمن نجاح مرشحه؛ إذ إنه لو كان قد قبله لسبب مشكلات دستورية عصية على الحل فى فينيسيا ولربما كان قد أدى ذلك إلى سقوط الجمهورية. وفى النهاية، بينما كان يتم تشجيع الفرنجة على إخضاع الإمبراطورية للنظام الإقطاعى، وهى الخطوة التى كان يعرف يقينًا أنها ستؤدى إلى تفككها وتشظيها ويمكن أن تمنعها من أن تكون قوية لتواجه توسع فينيسيا، احتفظ بـ "فينيسيا" خارج الإطار الإقطاعى لتكون المناطق التابعة لها بموجب حق الغزو، وليست منطقة نفوذ إمبراطورى. بالنسبة لشخص أعمى كان يقترب من التسعين، كان ذلك إنجازًا هائلًا.

إنريكو داندولو، الذى كان قد لقب نفسه الآن بـ: "لورد ربع ونصف ربع الإمبراطورية الرومانية"، كان يستحق مدينته، ولكن فى الإطار الأوسع للأحداث العالمية.. كان كارثة. الحملة الرابعة، إن كان لنا أن نصفها هكذا؛ لأنها لم تدخل الأراضى العربية قط، فاقت الحملات السابقة فى الخيانة والرياء، وفى الوحشية والجشع. كانت القسطنطينية فى القرن الثانى عشر أهم عاصمة كبرى ثقافيًا وفنيًا وفكريًا، كانت مستودع التراث الكلاسيكى الأوروبى سواء الإغريقى أو الرومانى. بنهبها، خسرت الحضارة الغربية أكثر بكثير مما خسرته من جراء نهب روما فى القرن الخامس، ولعلها أكبر خسارة فى التاريخ كله.

سياسيًا كذلك، كان الضرر الذى وقع هائلاً. رغم أن حكم الفرنجة للبوسفور دام أقل من ستين عامًا، فإن الإمبراطورية البيزنطية لم تستعد قوتها ولا أى جزء مهم من ممتلكاتها. تركت منهارة اقتصاديًا، أراضيها ممزقة مقطعة الأوصال، ضعيفة لا حول لها ولا قوة فى مواجهة المد العثمانى. هناك فى التاريخ مفارقات أقل سخرية من حقيقة أن مصير أوروبا كان لا بد من أن يقرره رجال كانوا يحاربون تحت راية الصليب. (نصف أوروبا المسيحية خضع لخمسة قرون تحت الحكم العثمانى). أولئك الرجال كان الذى نقلهم وألهمهم وشجعهم ثم قادهم فى النهاية هو إنريكو داندولو باسم الجمهورية الڤينيسية، وحيث إن ڤينيسيا هى التى خرجت بالمزايا الرئيسية من المأساة، فلا بد من أن تتحمل هى ودوجها العجوز الرائع المسئولية الرئيسية عن ذلك الخراب الكبير الذى جروه على العالم.

هوامش الفصل السابع

(1) ترك الطولونيون خلفهم فى القاهرة جامع ابن طولون (القرن التاسع)، ولعله من أجمل جوامعها.

(2) ولاية أو مديرية. (المترجم)

(3) استمرت هذه الدولة لمدة 176 سنة (حتى 1375م) عندما طرد الأتراك والمماليك "ليو السادس – Leo VI"، آخر ملوك الأرمن الذى انتهت حياته فى المنفى فى باريس.

(4) الآن، بالإمكان أن نتكلم عن فرنسا ككيان سياسى. أدى انهيار وسقوط إمبراطورية شارلمان إلى تكوين عدد من الولايات الصغيرة كانت إحداها متمركزة حول محور باريس – أورليانز وكانت تعرف بالجزيرة الفرنسية. هنا نشأت أسرة الملوك الكابيتيان (Capetian Dynasty) نسبة إلى أول من جلس منهم على العرش فى 987م وهو "هيوكابيت – Hugues Capet". كانت تلك نواة فرنسا التى نعرفها اليوم، رغم أنه كان لا بد من أن تمر ثلاثمائة سنة أخرى قبل أن تغطى تقريبًا نفس المساحة من الأراضى.

(5) فى المصادر العربية هو "بطرس الناسك" الذى تقول حكاية شعبية عنه: إنه كان يقترح بالفعل القيام بعمل أشبه بالحملة الصليبية قبل الدعوة إليها فى كليرمون. (المترجم)

(6) أسرة تركمانية كان مؤسسها الأمير "دانشمند – Danishmend" قد ظهر فى آسيا الصغرى قبل نحو خمسة عشر عامًا، وحكم فى كاپادوكيا والمناطق المحيطة بـ "سيباستيا – Sebas-teia" (سيڤاس – Sivas الآن) و"ميليتين – Melitene". على مدار القرن التالى سيلعب الدانشمنديون دورًا بارزًا فى تاريخ المنطقة، إلا أنهم سيختفون فجأة، كما ظهروا، فى 1178م بعد استيلاء السلاجقة على ميليتين.

(7) County – إقليم خاضع لسلطة "كونت". (المترجم)

(8) "أتابك" لفظ تركى يعنى حرفيًا "والد الأمير"، كان الموت يصيب بكثرة أفراد الأسرة الحاكمة فى الإمبراطورية السلجوقية بسبب الحروب وأعمال القتل والإعدام، وغالبًا ما كانوا يتركون ورثة قاصرين. للحفاظ على مصالح أولئك الورثة، كان يعين الواحد منهم وصيًا، يتزوج بشكل عام والدة المُوصى عليه لتأدية دور الأب المتبنى على أكمل وجه. كان الأتابك يصبح صاحب السلطان الحقيقى وغالبًا ما كان يورث المنصب لأبنائه. (المترجم)

(9) فرسان سان چون أو فرسان الإسبتارية. تأسس نظام فرسان سان چون فى 1070م؛ أى قبل الحرب الصليبية الأولى وذلك لتنظيم مساعدة الحجاج المسيحيين عند زيارة الأراضى المقدسة. (المترجم بتصرف: عن كتاب «مفاتيح أورشليم القدس»، تأليف: ريمون ستامبولى، ترجمة: عايدة الباجورى، الطبعة الثانية – المركز القومى للترجمة – 2009)

كما نقرأ فى كتاب «تاريخ الحروب الصليبية» (الجزء الثانى – تحرير: چى. أر. سميث، ترجمة: قاسم عبده قاسم – المركز القومى للترجمة – 2009)، نقرأ (.. كان مستشفى سان چون، الذى أقيم بالقدس قبل الحملة الصليبية الأولى لرعاية الفقراء والمرضى يضطلع بمسئوليات عسكرية

بحلول ثلاثينيات القرن الثانى عشر)، وهو نظام رهبنة عسكرية عرف باسم الإسپتارية.

أما فى «سيرة صلاح الدين: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» لبهاء الدين بن شداد (تحقيق: د. جمال الدين الشيال – طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة – سلسلة الذخائر – 2002)، فيضيف المحقق هامشًا يقول: "الإسپتار" هى التسمية العربية لطائفة الفرسان الهسپتاليين وهو تحريف واضح للفظة الإنجليزية والفرنسية: Hospitallers، وكان يطلق فى عصر الحروب الصليبية على طائفة من الفرسان الدينيين، وقد أسس هذه الطائفة: Blessed Gerard فى سنة 1099م بعد استيلاء الصليبيين على أورشليم، وكانت الدار التى يسكنها أولئك الرهبان (-Hos pice) موجودة قبل ذلك فى أورشليم، وتتخذ مأوى للحجاج والمرضى المسيحيين. **(المترجم)**

(10) فرسان الهيكل (فرسان المعبد). فى عام 1115م، قام هيو دى پاين، فارس بورجينيون، وجودفرى دى سان أدهيمار، وهو فارس فلمنكى، بتجنيد سبعة فرسان لحراسة الحجاج الراغبين فى الذهاب من أورشليم وجنين لزيارة الأماكن التقليدية التى تم فيها تعميد المسيح فى الأردن، وفى عام 1118م، قامت هذه المجموعة الصغيرة من المتطوعين بنذر أنفسهم لحماية الحجاج. كان الفارسان المؤسسان يملكان جوادًا واحدًا يمتطيانه بالتناوب وأقسما أنهما لن يرتديا سوى الملابس التى ستمنح لهما ولن يمتلكا سوى أسلحتهما الشخصية، وتكونت بذلك جماعة "فرسان المسيح الفقراء" التى أصبحت فيما بعد "فرسان المعبد". **(المترجم بتصرف عن: «مفاتيح أورشليم القدس»**، مصدر سابق، الهامش 9).

ويورد الدكتور قاسم عبده قاسم فى الجزء الثانى من تاريخ الحروب الصليبية – ج2 (مصدر سابق – الهامش 9) أن تنظيم فرسان الهيكل (أو فرسان المعبد أو الداوية) كان أول نظم الرهبنة العسكرية وأنه تأسس فى القدس فى 1120م تقريبًا، وأنه أخذ اسمه من المبنى الذى أطلق عليه الصليبيون معبد أو هيكل سليمان؛ حيث تأسس مقر قيادة "الداوية". **(المترجم)**.

(11) كان الأمير بوهيمند الثانى أمير أنطاكية قد قتل فى 1130م، تاركًا معتمديته لابنته "كونستانس – Constance"، **التى كانت فى عامها الثانى. تزوجت كونستانس فى سن الثامنة من ريمون** أمير پواتييه – Poitiers الابن الأصغر للدوق وليم التاسع، دوق أكيتان – Aquitaine.

(12) كان هو الإمبراطور الرومانى المقدس بالفعل، ولكنه لم يكن يستطيع أن يطالب باللقب حيث لم يكن قد تم تتويجه فى روما.

(13) كان زواج إليانور ولويس السابع قد أبطل قانونًا فى 1152، وبعد شهرين فقط تزوجت من "هنرى پلانتاچينيه – Henry Plantagenet" كونت أنچو ودوق نورمانديا، الذى سيصبح هنرى الثامن فيما بعد. كانت العلاقة بينهما عاصفة – لم يطلق سراحها من السجن إلا بعد وفاة زوجها – ومع ذلك أنجبت له خمسة أولاد وثلاث بنات. كان ريتشارد ابنها الثالث.

(14) القلعة التى يوجد بها الآن متحف العصور الوسطى، كان قد بناها فرسان الهيكل – Templars فى القرن الثالث عشر؛ على أن هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن المذبح الموجود الآن فى الكنيسة الشرقية الحالية، ربما يكون هو الذى استخدم فى هذه الاحتفالية المزدوجة.

(15) انظر الفصل العاشر.

(16) سكان منطقة آلبى – Albi جنوبى فرنسا. **(المترجم)**

(17) الكاثاريون هم أتباع نحلة الكاثارية Catharism تفهم المسيحية من وجهة نظر مانوية. (المترجم)

(18) نسبة إلى مانى Mani الفارسى (216 : 274) الذى كان يدعو إلى الإيمان بعقيدة ثنوية قوامها الصراع بين الخير والشر، والنور والظلام، وأصبح مذهبه يعرف بـ "الثنوية" أو "المانوية Manichaeanism". (المترجم)

(19) نسبة إلى الرهبنة السيسترسية التى نشأت على أساس الرهبنة البندكتية كما عدلها "روبرت دو موليسم - Robert de Molesme" فى "سيتو – Citeaux" – فرنسا فى سنة 1098م. ويعرف المذهب أو النحلة بـ "السيسترسيانية – Cistercianism" (المترجم)

(20) سفينة شراعية كبيرة ذات مجاذيف (المترجم)

(21) وحدة وزن (المترجم)

الفصل الثامن
الشتاتان

• معاهدة نيمفايوم: 1214 • اليونان الفرنجية: 1205 • مكاسب ڤينيسية: 1205
• مايكل پلايولوجوس: 1260 • عودة اليونانيين: 1261

لم تكن الحملة الرابعة على وشك تدمير القسطنطينية فحسب، بل إنها هزت كذلك كل شرق المتوسط بقوة. هذا الجيشان القوى كان له تأثير كبير على كل من اليونانيين واللاتين. كل نبلاء البيزنطيين فروا من المدينة – أو تركوها مكرهين – بدلًا من أن يرضخوا لحكم الفرنجة واتجهوا صوب الممالك التى كانت الروح البيزنطية والإيمان الأرثوذوكسى موجودة بها. إحدى هذه الدول، أو ما يسمى بـ «إمبراطورية التريبيزوند – Empire of Trebizond» – وهى لا تهمنا كثيرًا هنا – كانت عبارة عن شريط ضيق على ساحل البحر الأسود. الثانية كان اسمها "إمبراطورية إبيروس – Despotate of Epirus" التى تأسست بسرعة بعد الغزو اللاتينى بواسطة شخص كان يدعى "مايكل كومنينوس دوكاس -Michael Comnenus Ducas"، كان حفيدًا غير شرعى لألكسيوس الأول كومنينوس. من عاصمته فى "آرتا – Arta"، بسط مايكل سيطرته بالتدريج على الساحل الشمالى الغربى من اليونان، وعلى جزء من "تيسالى – Thessaly". أما الدولة الأخيرة التى تم تأسيسها – وهى الأكثر أهمية من وجهة نظرنا، فكانت إمبراطورية "نيقية – Nicaea"، التى تم الاعتراف بـ "تيودور لاسكاريس – Theodore Lascaris"، صهر ألكسيوس الثالث - إمبراطورًا عليها فى 1206 وتتويجه هناك بعد عامين. كانت تشغل معظم الجزء الشمالى الغربى من الأناضول، الممتد من البحر الأسود إلى بحر إيجه. ناحية الشمال، كانت تقع إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية، وناحية الجنوب والشرق كانت "سلطنة السلاجقة – The Seljuk Sultanate"، وبالرغم من أن نيقية (إزنك – Iznik) كانت هى العاصمة الرسمية، فإن "چون الثالث – John III"، خليفة تيودور جعل إقامته الرئيسية فى "نيمفايوم – Nymphaeum" (الآن كمال باشا على بعد أميال قليلة من أزمير)، وعلى مدار معظم سنوات نفيه من القسطنطينية التى استمرت سبعة وخمسين عامًا، كانت إمبراطورية نيقية تحكم من هنا بالفعل كدولة بحر متوسطية.

حتى ذلك كان يمكن أن يكون مجرد هامش فى قصتنا، لولا القيصر "البلغارى كالوچان – Tsar Kalojan"، الذى كان يونانيو تراقيا قد وعدوه بالتاج الإمبراطورى إذا طرد اللاتين من القسطنطينية. فى الرابع عشر من أبريل 1205، كان كالوچان قد دمر جيش الفرنجة بالفعل. فشل فى الاستيلاء على المدينة لكنه نجح فى أسر الإمبراطور بلدوين نفسه، الذى لم يستعد حريته قط إلى أن مات بعد ذلك. بعد ستة أسابيع فقط، تبعه إلى العالم الآخر فى الأول من يونيو الدوچ العجوز داندولو، الذى كان قد حارب إلى

جواره رغم سنوات عمره التسعين. الغريب أنه لم يتم إعادة جثمانه إلى ڤينيسيا وإنما دفن فى كنيسة سان صوفيا. لم ينج التابوت الحجرى من الغزو التركى بعد ذلك، إلا أنه يمكن رؤية شاهد قبره هناك فى مكانه على أرض الرواق فوق الممر الجنوبى.

هكذا، بعد عام واحد من الاستيلاء على العاصمة، انكسرت شوكة اللاتين. بقوا فى القسطنطينية؛ وفى كل آسيا الصغرى، كانت المدينة الصغيرة "بيجايا – Pegae" (الآن كارابيجا – Karabiga) على الشاطئ الجنوبى لبحر مرمرة، هى التى بقيت فى أيدى الفرنجة. وأخيرًا كان بإمكان تيودور لاسكاريس أن يركز جهده على بناء دولته الجديدة – متبعًا النموذج البيزنطى بكل تفاصيله؛ حيث لم يكن يشك مطلقًا فى عودة أبناء وطنه عاجلًا أو آجلًا إلى المكان الذى كانوا ينتمون إليه. بفضله، كان أن أصبح هناك الآن إمبراطوران فى الشرق وبطريركان: اللاتينى فى القسطنطينية واليونانى فى نيقية. كان من الواضح أن فكرة العيش معًا فى سلام لم تكن واردة، كلا الطرفين كان يريد أن يدمر الآخر. ولكن كليهما كذلك لم يكن قويًا بما يكفى ليحقق ذلك دون مساعدة طرف ثالث. وهكذا كان أن أدخل "هنرى الهاينولتى – Henry Hainault" خليفة بلدوين عنصرًا جديدًا فى المعادلة غير مرغوب فيه: "كايكوسرو – Kaikosru" السلوقى سلطان "قونية – Konya".

فى تاريخ الحملات الصليبية الطويل المؤسف، كثيرًا ما كان المسيحى يحارب المسيحى. تجنيد حليف مسلم ضد عدو مسيحى كان أمرًا جديدًا تمامًا. كان الأتراك السلاچقة فى ذلك الوقت يسيطرون على مئات عديدة من الأميال من ساحل البحر الأبيض المتوسط، إذا كانوا قد مروا بطريق طويل منذ بداياتهم فى آسيا الوسطى. فى القرن الحادى عشر كانوا قد انتشروا بسرعة عبر فارس وأرمينيا ووادى الرافدين – حيث أصبحوا سادة على بغداد يحكمون باسم الخلفاء العباسيين، وكانوا قد تعلموا الكثير من غزواتهم. بعد أن غزوا الأناضول وانتصروا على البيزنطيين فى "مانزيكرت[1] – Manzikert" فى 1071، أسسوا عاصمتهم فى قونية (أيقونيوم – Iconium)، وفى أوج قوتهم فى القرن الثانى عشر كانوا قد بنوا دولة متميزة، سلطنة الروم، كما كانوا يدعونها بكل فخر... أفلم تكن جزءًا من الإمبراطورية الرومانية؟ كانت تضم عندما اتسعت كل آسيا الصغرى (نحو 250000 ميل مربع) وخليطًا من السكان الترك واليونانيين والأرمن. لم يستمر السلاچقة طويلًا – دمر "المغول Mongols" قوتهم قرابة آخر القرن – ولكنهم خلفوا تراثًا معماريًا غير عادى ما زال الكثير منه موجودًا إلى الآن: مساجد رائعة على أجنابها مآذن مزدوجة مزينة بحفر دقيق ونقوش كاليجرافية، وجسور بالغة الروعة، وحصون، وحوض لبناء السفن فى عاصمتهم الصيفية "ألانيا –

Alanya"، واستراحات رائعة على طول طريق القوافل، كل واحدة على مسافة عشرين ميلًا من الأخرى، يوجد بكل منها مسجد ونزل وإسطبل للخيول والجمال وإسكاف مقيم لإصلاح الأحذية بلا مقابل.

قد يكون مثيرًا للاهتمام أن نتصور ما كان يمكن أن يحدث لو أن الإمبراطور فى القسطنطينية والسلطان فى أيقونيوم كانا قد دعما تحالفهما بانتصار كبير، إلا أنهما فشلا فى أن يفعلا ذلك. كانت لهما معارك عديدة ضارية لم تكن حاسمة باستثناء واحدة منها. فى تلك المعركة التى وقعت فى ربيع 1210 بالقرب من أنطاكية على نهر الميندر، سقط كايكوسرو من على حصانه مقتولًا، حدث ذلك بواسطة الإمبراطور نفسه – إن كان لنا أن نصدق المصادر اليونانية – وذلك فى قتال فردى بينهما. خضع خليفته على الفور للشروط تاركًا تيودور حرًا ليركز قوته ضد الفرنجة، وأخيرًا تم حسم الموقف فى أواخر 1214، عندما وقع الإمبراطوران معاهدة سلام فى نيمفايوم. هنرى، بموجب الاتفاق، سيحتفظ بالساحل الشمالى الغربى لآسيا الصغرى، والباقى كله حتى الحدود السلجوقية سيذهب لـ: تيودور. هذه المعاهدة ستكون بداية ازدهار نيقية. أخيرًا ستحصل الإمبراطورية الصغيرة على اعتراف رسمى من خصمها اللاتينى بحقها فى الوجود.

** ** **

كتب "إدوارد جيبون – Edward Gibbon" يقول: "لن أتتبع الأسر الغامضة المختلفة التى صعدت وسقطت فى القارة أو الجزر". كمؤرخ للإمبراطورية الرومانية، ليس هناك سبب بذاته كان يجبره على أن يفعل ذلك، ولكن بالنسبة لمؤرخى البحر الأبيض، لا يمكن إهمال هذه المهام بمثل تلك السهولة. لا أحد ممن يتنقلون عبر ووسط اليونان والبيلوبونيز لا تدهشه كمية قلاع العصور الوسطى التى تتوج – كما يبدو أحيانًا – كل قمة أو مرتفع من تلك الأراضى الجبلية الرائعة. المؤكد أنه لا بد من بعض التفصيل لمن يشوقهم معرفة المزيد، وبالرغم من ذلك فإن الكتب التى تروى قصة هذه القلاع ما زالت قليلة إلى اليوم.

يرجع ذلك – إلى حد كبير – إلى أن ذلك التاريخ شديد التعقيد. الحقيقة البسيطة، وهى أن الشتات اليونانى الذى تلا الحملة الصليبية الرابعة كان يعادله توسع إقليمى أكثر درامية من جانب اللاتين. البارونات الفرنجة الذين أبحروا ليكونوا مع الحملة – مع كثيرين آخرين ممن لم يبحروا ولكنهم سمعوا عن الغنائم وكانوا مصرين على ألا تفوتهم الفرصة – كانوا يجولون فى أرجاء اليونان يستولون على كل ما يمكنهم الاستيلاء عليه من أراض، ويصنعون لأنفسهم إقطاعيات على نمط تلك التى كانوا يعرفونها فى الغرب،

ولكنهم كانوا يفعلون ذلك فى بلاد لم يكن النظام الإقطاعى معروفًا فيها كما يفهمونه. فى البلاد الغربية، كان ذلك النظام يقوم على هرم من الثروة والقوة وعلى رأسه الملك. فى الشرق، كانت إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية أضعف من أن تمارس أى سيطرة حقيقية، ومن هنا تظهر صورة العديد من المدن – الدول المستقلة، وفى غالب الأحيان تكون متحاربة، تتآمر وتحتال باستمرار لتثبيت أوضاعها. فى بحر إيجه؛ حيث كان نفوذ ڤينيسيا هو السائد، كان عدد الجزر يزيد الأمر تعقيدًا، ولذا لم يكن مستغربًا أن يحول كثير ممن كانوا يريدون القيام بالتأريخ للمكان وللفترة اهتمامهم إلى أمور أخرى.

تبدأ قصة هذا الشتات اللاتينى مع الماركيز بونيفاس المونتيفراتى. عندما كان غاضبًا بشدة بسبب تخطيه كأمير، زاد غضبه عندما عرض عليه بلدوين إقطاعية كبيرة فى الأناضول؛ وبدلًا من ذلك أشار إلى أن أخاه بزواجه من ابنة مانويل الأول كومنينوس قبل ربع قرن - حصل على لقب ملك "تيسالونيكا – Thessalonica"، ولذا قدم مطالبة رسمية بتلك المدينة. الآن كان دور بلدوين قد جاء لكى يعترض، ولكن تم تجنب هذه الحرب المكشوفة بفضل وساطة الدوج واندولو وعدد من قادة الفرنجة وبخاصة النبيل البوجندى "أوتو دى لاروش – Otho de la Roche". فى آخر الأمر، كان الإمبراطور مضطرًا للموافقة على مضض، على أساس أن يعترف بونيفاس بمملكته الاسمية ويحتفظ بها كإقطاعة إمبراطورية.

كانت مهمة الماركيز التالية هى غزو مملكته الجديدة، وبهذا الهدف نُصْب عينيه، انطلق فى خريف 1204 فى حملة طويلة جدًا عبر شمال ووسط اليونان. خرج معه فى الحملة مجموعة من البشر متعددى المشارب: فرنسيون وألمان وفلمنك ولومبارد، كل منهم كان مصرًا على أن يحصل على إقطاعة لنفسه. كان من بينهم – إن كان لنا أن نذكر أربعة منهم فحسب – الفرنسى "وليم الشامپليتى – William of Champlitte" حفيد كونت شمپانيا، وأوتو دى لاروش البورجندى، و"چاك داڤسنس – Jacques d'Avesnes" الفلمنكى، والماركيز الإيطالى الشاب "جيدو پالاڤيسينى – Guido Pallavicini". تحركوا جنوبًا عبر تيسالى مرورًا بـ "تيرموپايلاى – Thermopylae"؛ حيث كان "ليونيداس – Leonidas" الإسبرطى قد وقف وقفته البطولية قبل نحو سبعة عشر قرنًا. لم يعترضهم أحد، ولكن بونيفاس الذى كان مدركًا لأهمية المكان الإستراتيجية، قام هناك وآنذاك بتقليد پالاڤيسينى منصب ماركيز "بودونيتزا – Boudonitza" لكى يغطى مشارفها الجنوبية. هذه مع بارونية "سالونا – Salona" المجاورة ما كانتا لتبقيا مائتى سنة أخرى وتلعبا دورًا مهمًا فى تاريخ اليونان الفرنجية[2].

استسلمت «بويتيا – Boetia“ دون مقاومة وكذلك ”أتيكا – Attica“ – بما فى ذلك أثينا نفسها؛ حيث عين بونيفاس على الفور حامية على الأكروپولوس. فى ذلك الوقت كان الپارثينون يقوم مقام الكاتدرائية فى المدينة ولكن الجنود الفرنجة – لا بد من القول – لم يكونوا يكنون للمبنى احترامًا كبيرًا. تكررت القصة نفسها، وإن على نطاق أقل كما حدث فى سانت صوفيا: الخزانة نهبت، الأوانى الذهبية والفضية سلبت، المكتبة بددت ودمرت. تم منح الإقليمين معًا لـ ”أوتو دو لاروش“، ربما كمكافأة له عن توسطه أثناء نزاع بونيفاس مع الإمبراطور بلدوين. فى البداية، لقَّب أوتو نفسه بتواضع نسبى بـ ”أب أثينا - Sire d'Athènes“، وهو اللقب الذى عظمه رعاياه ليصبح ”العاهل العظيم“ - megas kyr، وحتى سنة 1260، أى بعد موته بفترة، لم تكن أثينا قد أصبحت دوقية بشكل رسمى.

فى الوقت نفسه كان المغامر الفلمنكى چاك داڤسنس قد ترك قوة الجيش الرئيسية واتجه شرقًا؛ حيث تسلم جزيرة ”إيوبيا – Euboca“ بعد استسلامها، (كانت هذه الجزيرة قد خصصت لڤينيسيا أثناء الانقسام، ولكن الڤينيسيين لم يكن عندهم وقت لها). بقى هناك فترة طويلة لكى يبنى قلعة صغيرة فى وسط ”إيوريپوس – Euripos“، تلك القناة الملغزة[3] التى تفصل الجزيرة عن بر اليونان الرئيسى، ويترك فيها حامية صغيرة. بعد ذلك، فى تلهفه على المشاركة فى غزو الپيلوپونيز القادم – وبالطبع فى الفوائد التى كانت ستتحقق من جراء ذلك – أسرع عائدًا إلى بونيفاس. كان الماركيز قد ذهب ليحاصر «نوپليا – Nauplia“، ولذا قام چاك مع أوتو دى لاروش الذى لحق به فى الطريق بهجوم مشترك على كورنتة. بصعوبة ما، تمكنا من الاستيلاء على المدينة الأدنى أما قلعة أنطاكية المرتفعة فكانت منيعة، وظل الحصار مستمرًا عليها إلى أن تمكن المدافعون عنها ذات ليلة من القيام بهجوم مفاجئ؛ ليحدثوا ضررًا بالغًا بالمعسكر الفرنجى، أصيب فيه داڤسنس نفسه بجراح خطيرة.

إلا أن حتف الپيلوپونيز كان مؤكدًا، ولن يكون ذلك على يد بونيفاس – الذى كان مضطرًا على أية حال للعودة إلى تيسالونيكا لمواجهة جيش البلغار بقيادة القيصر ”كالوچان – Tsar Kalojan“ – وليس چاك داڤسنس ولا حتى أوتو دى لاروش. سيكون غزو جزر الپيلوپونيز على يد چيوفرى دى ڤيلهاردون، ابن أخ وسمى مؤرخ أحداث الحملة الصليبية الرابعة. قبل نحو عام أو عامين، كان ذلك الشاب نفسه قد قام برحلة حج إلى فلسطين، وعندما سمع وهو فى سوريا باستيلاء الفرنجة على القسطنطينية، عاد

من فوره لكى ينضم إليهم. بعد مغادرته بوقت قصير، انحرفت سفينته بقوة عن مسارها بسبب عاصفة رعدية من عواصف المتوسط، واضطرت إلى اللجوء إلى ميناء "مودون – Mondone" جنوبى البيلوبونيز، وكان ما زال هناك عندما سمع بحصار بونيفاس لـ "نوپليا". بعد أقل من أسبوع، كان فى حضرة الأخير. أخبر الماركيز أن موريا[4] ربما تكون فينيسية من الناحية الفعلية، إلا أنها كانت ثمرة ناضجة حان قطافها، ولو أنه أعطى مئات قليلة من الجنود على أكثر تقدير، يمكن أن تصبح كل الأراضى لهم. لم ترق الفكرة تمامًا لـ «بونيفاس» الذى فضل التمسك بخطته للحملة، إلا أن چيوفرى وجد فى المعسكر حليفًا جديدًا، فى شخص صديقه القديم وليم الشامپليتى. وافق وليم على أن ينضم إليه بشرط أن يعترف به چيوفرى العاهل المخلص له فى أى غزوة يقومان بها. وباعتباره حفيدًا لكونت شمپانيا، لم يكن بالإمكان أن يفعل غير ذلك، ولم يعترض چيوفرى. بارك بونيفاس الحملة، وبرفقة مائة فارس ونحو خمسمائة جندى مدججين بالسلاح.. انطلق الصديقان نحو المجهول.

من البداية، كانوا يقومون بالاستيلاء على كل ما فى طريقهم، كان أول ما سقط مدينة وقلعة «پاتراس – Patras". بعد ذلك انطلقوا جنوبًا دون مواجهة تذكر حتى وصلوا إلى "كالاماتا – Kalamata" فى إقليم مسينى. كان اليونانيون فى ذلك الوقت قد حشدوا جيشهم المكون من أربعة أو خمسة آلاف جندى، والذى كان يتضمن قوة كبيرة بقيادة "مايكل دوكاس – Michael Ducas"، حاكم "إپيروس – Epirus"، وفى سنة 1205 تقابل الجيشان وجهًا لوجه بين بساتين الزيتون فى منطقة "كوندورا – Koundoura" فى الركن الشمالى الغربى من الإقليم. كان اليونانيون المدركون تمامًا لتفوقهم العددى واثقين من النصر، إلا أنهم كانت تنقصهم الخبرة بشكل مريع، فكان أن اخترقهم الفرنجة بسهولة شديدة. من ذلك اليوم، ستصبح البيلوبونيز أرضًا فرنجية. الفلكلور اليونانى ملىء بقصص البطولة المحلية: عن ذلك المقاتل العظيم "دوكساپاترس – Doxapatres" مثلًا، الذى لم يكن أحد ليستطيع أن يرفع القضيب الشائك الذى كان يستخدمه لتكسير الدروع، والذى كانت درعه الواقية تزن مائة وخمسين رطلًا، وعن ابنته التى ألقت بنفسها من برج القلعة بدلًا من الاستسلام لشهوات الغزاة. والحقيقة أنه كانت قد ظلت بعض جيوب للمقاومة من بينها "أكروكورنث – Acrocor-nith" و"نوپليا – Nauplia" (التى اضطر بونيفاس للتخلى عن حصارها) وصخرة "مونيمڤاسيا – Monemvasia" العظيمة، وقلعة "تايجيتوس – Taygetus" المظلمة

فى "مانى – Mani". إلا أن هناك رسالة من البابا إنوسنت الثالث بتاريخ التاسع عشر من نوفمبر 1205، تصف وليم الشامپليتى بـ "أمير كل أخايا – Achaia"[5]، بما يعنى أنه كان الكل فى الكل.

** ** **

هكذا كان أن اكتسح الصليبيون الفرنجة بالفعل - ودون جهد كبير - تسعة أعشار اليونان وجزر البيلوپونيز كلها، وذلك فى غضون ثلاث سنوات من الغزو اللاتينى للقسطنطينية. لم يكن هذا النجاح يعود لشجاعتهم بقدر ما هو لجبن السكان المحليين الذين لم يكونوا يبدون سوى مقاومة شكلية. من ناحية أخرى، كانت القصة مختلفة فى مقدونيا. كان الإمبراطور بلدوين – كما رأينا – قد وقع فى أسر القيصر البلغارى ليختفى فى بطن أحد السجون... ولا يظهر بعد ذلك. عندما سمع بونيفاس بذلك، ترك حصار نوپليا لكى يدافع عن ممتلكاته الشمالية، وقتل فى مواجهة ثانوية بعد أسابيع قليلة. بعد موته، قطعوا رأسه وأرسلوه هدية للقيصر. عندما كانت هناك حاجة ماسة لقيادة حازمة واثقة، انتقل عرشه لابنه الطفل، إلا أن ما أنقذ الموقف بالفعل كان مقتل كالوچان بدوره (بتحريض من زوجته) لتنكسر بالفعل قوة بلغاريا.

يكفى ما قلناه حتى الآن عن نجاحات وإخفاقات الفرنجة، ولكن ماذا عن الڤينيسيين؟ بفضل المهارات التفاوضية البارعة لـ «داندولو» كانوا قد حصلوا على نصيب الأسد من الغنائم، ولكنهم سرعان ما أدركوا أن ما حصلوا عليه كان أكبر من قدرتهم على الهضم، وعليه كانوا أكثر بطئًا من حلفائهم الفرنجة فى احتلال أراضيهم – وهو التأخير الذى كان قد كلفهم البيلوپونيز بالفعل. كان هناك فرق آخر بين الفلسفتين. كان الفرنجة، الذين نشأوا فى أحضان نظام إقطاعى، ينظرون إلى أراضيهم الجديدة باعتبارها إقطاعيات وإلى شاغليها كخدم تابعين. إلا أن النظام الإقطاعى كان يقوم على ملكية الأرض، وهى سلعة لم يكن الڤينيسيون يعرفونها باعتبارهم أبناء جمهورية بحرية. كان الڤينيسيون يعملون بالتجارة ولم تكن المستعمرات الخارجية ذات فائدة لهم إلا بقدر تحقيقها لمصالحهم التجارية. لهذا السبب، فإن داندولو قصر مطالبه على المناطق الساحلية بصرف النظر عن البيلوپونيز. حتى ذلك الحين كانت عيناه ما زالتا أوسع من معدته! لم يرفع إصبعًا عندما دخل چاك داڤسنس إيوبيا، ولا عندما أقام شامپليت وڤيلهاردون معتمديتهما فى أخايا. كل ما كان يهمه هو الميناءان فى «مودون – Mo-done" و"كورون – Coronc" عند الحافة الجنوبية للبيلوپونيز؛ وفى 1206 أرسل

ابنه بأسطول صغير ليستعيدهما للجمهورية. تم إنجاز ذلك سريعًا، وظل الميناءان تابعين لڤينيسيا عدة قرون بعد ذلك.

أما بالنسبة لجزر بحر إيجه العديدة، بما فى ذلك "السيكلاديس – Cyclades" التى كانت قد سقطت فى أيديهم، كان الڤينيسيون مرة أخرى مضطرين للاعتراف لأنفسهم بأن إدارة "سيرينيسيما – Serenissima" كانت مستحيلة بالرغم من مواردها الكثيرة. ولذا كان هناك اتفاق على أن يحكم أغلب الجزر عدد من سكانها باسم ڤينيسيا. كان من بين المشاركين فى حملة المجموعة الڤينيسية أحد أبناء عمومة الدوچ داندولو واسمه "ماركو سانودو – Marco Sanudo"، الذى لم يضيع وقتًا عند سماعه الخبر. قام بتجهيز ثمانية سفن على نفقته الخاصة وجمع مجموعة من المغامرين مثله من شباب ڤينيسيا وانطلقوا، وهناك على جزر "ناكسوس – Naxos" و"أندروز – Andros" و"پاروس – Paros" و"أنتيپاروس – Antiparos" و"ميلوس – Melos" و"إيوس – Ios" و"أمورجوس – Amorgos" و"سانتورينى – Santorini" وعشرات غيرها سيقيم كل منهم منطقته الخاصة، تتبع كلها – كإقطاعيات – ماركو سانودو، باعتباره دوق الأرخبيل.(6) كذلك اتخذت ترتيبات مشابهة بالنسبة لـ «كورفو – Corfu" والجزر الإيونية الأخرى على ساحل الأدرياتيكى.

بقيت هناك "كريت – Crete"، أكبر وأهم الجزر اليونانية التى كان على داندولو أن يساوم بونيفاس عليها. مرة أخرى، كانت چنوة هى المشكلة. حتى من قبل أن يستولى الڤينيسيون على الجزيرة، كان أهل چنوة قد أقاموا مستوطنة هناك، وكان واضحًا من البداية أنهم لن يتخلوا عنها دون قتال. وعليه، أرسلت ڤينيسيا أسطولًا، نجح مؤقتًا فى طرد القائد القرصان "إنريكو بسكاتور – Enrico Pescator"، كونت مالطة، الذى كان – بالرغم من ذلك – محل إعجاب من البابا إنوسنت، وكان أن استمر القتال خمس سنوات أخرى حتى سنة 1212، عندما أُجْبِرَ هو وجماعته فى آخر الأمر على الانسحاب. منذ ذلك الحين، ولمدة السنوات الأربع والنصف التالية، كانت الجزيرة يحكمها بالفعل ڤينيسى يحمل لقب دوچ، وهو دليل واضح على أهميتها بسبب سيرينيسيما.

** ** **

بموت هنرى الهاينولتى فى 1216 فى سن الأربعين، بدأت الإمبراطورية الفرنجية فى الانهيار. كان هنرى حاكمًا متميزًا. كان الإمبراطور اللاتينى الوحيد الذى أظهر

حنكة سياسية حقيقية، وكان قد ورث ما كان يبدو قضية خاسرة، وفى غضون عقد واحد تقريبًا حولها إلى شأن مهم. لو كان لدى خلفائه ذرة من قدراته فلربما ما كان قد وصل إلى العرش فى القسطنطينية حاكم يونانى، ولكن منذ أن أصبحت يده بعيدة عن دفة السفينة، بدا واضحًا أن الاستعادة النهائية لعاصمة الإمبراطورية الحقيقية ستكون مسألة وقت ليس إلا. فى الوقت نفسه كانت إمبراطورية نيقية تحت قيادة "چون فاتاتزس – John Fatatzes" صهر "لاسكاريس – Lascaris"، تمضى من قوة إلى قوة. بحلول العام 1246، كانت قد اتسعت أملاكه لتشمل معظم شبه جزيرة البلقان وجزءًا كبيرًا من بحر إيجه، وكان منافسوه قد ضعفوا أو أصابهم الإرهاق، أما هو فكان مصرًا على أن يحقق الهدف الذى نذر حياته له.

كان چون فاتاتزس أكثر من سواه أحقية فى أن يقود جيشًا بيزنطيًا ليحقق الانتصار فى القسطنطينية. من أسف أن صحته كانت مدعاة للقلق منذ وقت طويل. كان چون مصابًا بالصرع، وكلما كان يتقدم فى العمر كانت النوبات تتزايد عددًا وحدة، وكثيرًا ما كان ذلك يؤثر على قواه العقلية، وخصوصًا أنها كانت تجعله أكثر حقدًا على أكبر قياداته: "مايكل پالايولوجوس – Michael Palaeologus". الأكثر مأساوية كان أن نقل المرض لابنه وخليفته "تيودور الثانى – Theodore II" بدرجة أكثر حدة، عندما مات تيودور فى أغسطس 1258 وهو فى السادسة والثلاثين بعد حكم لم يدم سوى أربع سنوات تاركًا طفلًا صغيرًا يخلفه، قامت ثورة فى القصر ونصبت پالايولوجوس على العرش. رغم أنه كان ما زال فى الرابعة والثلاثين، وجد الچنرال الشاب نفسه أمام مهمة متشعبة. كان مضطرًا بداية لمسايرة إمبراطور معادٍ كان قد قام فى 1252 بسجنه وحرمانه كنسيًا، واستمرت مشكلاته بعد صعوده للعرش، عندما طلب منه أن يواجه تحالفًا كان يضم حاكم إيپيريوس، المعتمدية الصليبية فى أخايا فى الپيلوپونيز، ومانفريد الصغير فى صقلية (الابن غير الشرعى للإمبراطور الغربى فردريك الثانى). هنا كان يوجد عدو لدود بالفعل، ولكن عندما التقى الجيشان فى پيلاجونيا (بيتولج الآن) فى مطلع صيف 1259، انفرط عقد التحالف.

مصرًا على الاحتفاظ بالزخم، بدأ مايكل زحفه مبكرًا على القسطنطينية فى 1260. فشلت محاولته الأولى – لم يتمكن أحد عملائه السريين من فتح إحدى البوابات كما كان مدبرًا، كما فشلت خطة بديلة للهجوم على جالاتا فى الركن القصى من القرن الذهبى. فى ذلك الشتاء على أية حال، سجل مايكل انتصارًا دبلوماسيًا: ففى الثالث عشر من مارس

1261 وقع اتفاقية مع جنوة، بناء على شروطها أنه فى مقابل مساعدة أهلها له فى الصراع القادم، سيعطيهم كل الامتيازات التى كان ينعم بها الڤينيسيون فى القسطنطينية، بما فى ذلك الحى الخاص بهم فى كل من المدينة والموانئ الرئيسية الأخرى فى الإمبراطورية، وكذلك حق الوصول إلى موانئ البحر الأسود. كان ذلك بالنسبة لجنوة اتفاقًا تاريخيًا، يُرسى – كما حدث – دعائم إمبراطوريتها فى الشرق، أما بالنسبة لبيزنطة فاتضح أنه كان بمثابة كارثة؛ حيث إن الجمهوريتين البحريتين الإيطاليتين سوف تستغلان ما تبقى من قوتها البحرية وتواصلان خصوماتهما القديمة منذ قرون على كيانها الضعيف. إلا أن ذلك ما كان ليحدث فى المستقبل. فى ربيع 1261، كان لا بد من أن يبدو تحالف جنوة كأنه هبة من السماء لمايكل پالايولوجوس.

جاءت الاستعادة النهائية للقسطنطينية بالمصادفة. فى عز صيف 1261 كان مايكل قد أرسل أحد جنرالاته، "ألكسيوس ستراتيجوپولوس – Alexius Strategopou-lus" بجيش صغير إلى "تراقيا – Thrace". عندما وصل إلى "سيلمبريا – Selym-bria" (سيلڤرى – Silivri الحديثة)، التى تبعد نحو أربعين ميلًا عن القسطنطينية - علم ألكسيوس أن الحامية اللاتينية للعاصمة لم تكن موجودة؛ حيث كان الڤينيسيون قد استدعوها للقيام بهجوم على جزيرة "دافنوسيا – Daphnusia" فى نيقية، وكانت هذه الجزيرة تتحكم فى مدخل البوسفور من ناحية البحر الأسود. علم أيضًا أنه كانت هناك بوابة خلفية فى الأسوار يمكن أن يمر منها المسلحون بسهولة ليدخلوا المدينة. فى تلك الليلة قامت جماعة صغيرة باختبار صحة هذه المعلومات. تسلل أفرادها دون ملاحظة من أحد وفاجأوا حراسها الفرنجة القلائل وألقوا بهم من فوق المتاريس، ثم بهدوء شديد، فتحوا بوابات المدينة. فى فجر الخامس والعشرين من يوليو 1261 تدفق باقى الجيش داخل القسطنطينية دون مقاومة تذكر.

كان الإمبراطور بلدوين الثانى نائمًا فى قصره، أيقظته الجلبة وفر لينجو بحياته، وأخيرًا صادف سفينة تجارية ڤينيسية فهرب عليها إلى إيوبيا. فى الوقت نفسه كان ألكسيوس ستراتيجوپولوس ورجاله يضرمون النار فى كل الحى الڤينيسى من المدينة، لدرجة أن البحارة عندما عادوا من دافنوسيا ووجدوا منازلهم مدمرة وأسرهم البائسة مشردة بجوار أرصفة الميناء، لم تكن لديهم روح للقيام بهجوم مضاد، ولم يكن أمامهم من خيار سوى أن يبحروا بلا عزاء عائدين إلى البحيرة. أما من بقى من الفرنجة فكانوا فى حالة ذعر شديد، يمكن أن نجد لها وصفًا بليغًا فى الحوليات اليونانية، إلا أنهم ما

كانوا ليقلقوا طويلًا... فالمذبحة التى كانت متوقعة لم تحدث. سرعان ما خرجوا من مخابئهم وجمعوا كل ما يستطيعون حمله ومضوا يجرون الخطا نحو الميناء؛ حيث كان فى انتظارهم ثلاثون سفينة فينيسية. بمجرد صعودهم إلى السفن، تحرك الأسطول متجهًا كذلك إلى إيوبيا، ولسنا متأكدين إذا ما كان قد توقف فى الطريق للتموين؛ حيث إن المسجل أن عددًا كبيرًا من اللاجئين ماتوا جوعًا قبل الوصول إلى مقصدهم.

فى معسكره فى "ميتيوروم – Meteorum" فى آسيا الصغرى، الذى كان يبعد نحو مائتى ميل، كان الإمبراطور مايكل نائمًا كذلك عندما جاءته الأخبار الجسام. أخته الكبرى "إيولوجيا – Eulogia" (التى كانت تهدهده وهو طفل لكى ينام بأن تغنى له كيف سيصبح إمبراطورًا ذات يوم ويدخل القسطنطينية من البوابة الذهبية) أيقظته (بزغزغة أصابع قدميه كما يقول أحد المصادر) ونقلت له الأخبار. لم يصدق فى البداية، وعندما سلموه تاج بلدوين وصولجانه اللذين كان قد تركهما خلفه فى القصر، كان أن اقتنع. بعد ثلاثة أسابيع، فى الخامس عشر من أغسطس، مر فعلًا من البوابة الذهبية وتقدم سيرًا على قدميه بطول المدينة حتى كنيسة سانت صوفيا، وهناك كان حفل تتويج ثانٍ أقامه البطريرك له ولزوجته "تيودورا – Theodora" وابنهما الرضيع "أندرونيكوس – Andronicus"، الذى أعلن وريثًا محتملًا.

منذ البداية، كانت إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية اللاتينية أشبه بالهولة[7]. كانت نبتًا بائسًا للخيانة والجشع، لم تحقق شيئًا على مدى السبع والخمسين سنة لوجودها، لم تسهم بشىء، لم تتمتع بلحظة واحدة من المجد أو التميز. لم تقم بأى غزو بعد 1204، وقبل ذلك بوقت طويل كانت قد انكمشت فى المحيط المباشر للمدينة التى دمرت وخربت لكى تولد. من بين حكامها السبعة كان هناك واحد فقط أكبر من الآخرين متواضعى القيمة، هو هنرى الهاينولتى، لا أحد منهم حاول – ولو بقدر يسير – أن يفهم الرعايا اليونانيين أو يتبنى عاداتهم، ناهيك عن تعلم لغتهم. كان سقوط الإمبراطورية أكثر خزيًا من بداياتها، قهرتها فى ليلة واحدة فى لحظة مجموعة صغيرة من الجنود.

لو أن تلك الحالة المضحكة المبكية قد قصرت أعمالها السيئة على نفسها، لكنا قد مررنا عليها بما يزيد قليلًا عن نظرة رثاء. من أسف أن ذلك لم يكن. الموروث الأسود الذى خلفته لم يؤثر فى بيزنطة فحسب، وإنما امتد فى كل العالم المسيحى. لم تتعاف الإمبراطورية اليونانية مما لحق بها من ضرر على مدى تلك السنوات المشؤومة. كان ضررًا روحيًا وماديًا. ولا بعد أن جردت من الكثير من الأراضى التى بقيت معها بعد

كارثة مانزيكرت، بكثير من مبانيها الرائعة التى تحولت إلى أنقاض، وأعمالها الفنية البديعة التى دمرت أو نهبت وحملت إلى الغرب. لم تنجح فى استعادة روحها السابقة. كما سرق منها شىء آخر مهم. قبل الغزو اللاتينى كانت وحدة واحدة تحت حاكم واحد يقف فى منتصف الطريق إلى السماء ويضاهى الرسل مكانة. الآن ذهبت الوحدة. صحيح أن إمبراطورية نيقية لم تعد مندرجة أو مستوعبة – كما كانت تتوق دائمًا – فى إمبراطورية القسطنطينية، ولكن كان هناك أباطرة التربيزوند الذين كانوا ما زالوا مستقلين بعالمهم البيزنطى الصغير على شاطئ البحر الأسود الذى تجتاحه الأمطار، كما كان هناك حكام إيبيروس، الذين كانوا يصارعون دون توقف لاستعادة سنوات القوة القديمة، المستعدون دائمًا للترحيب بأعداء القسطنطينية وتقديم مركز للمقاومة. كيف، وهى على هذه الدرجة من التشظى تستطيع الإمبراطورية الرومانية مواصلة أداء مهمتها التى قامت بها طويلًا، مهمة أن تكون حصن العالم المسيحى الشرقى المنيع ضد المد الإسلامى؟

إلا أن العالم المسيحى كذلك كان قد تغير كثيرًا بعد الحملة الصليبية الرابعة. بعد أن انقسم طويلًا، كان يتم استقطابه الآن. على مدى قرون قبل وبعد الشقاق الكبير فى 1054، أصبحت العلاقات بين الكنيستين الشرقية والغربية متذبذبة بين البعيد بكياسة والمر بلذوعته. كانت خلافاتهما لاهوتية. بعد نهب القسطنطينية بأيدى الصليبيين الغربيين، لم يعد ذلك صحيحًا. فى أعين اليونانيين، كان من المستحيل اعتبار أولئك الذين دنسوا مذابح كنائسهم ونهبوا منازلهم واغتصبوا نساءهم، كان من المستحيل اعتبارهم مسيحيين بأى معنى. كيف يمكن الآن أن يقبلوا فكرة الوحدة مع روما؟ كانوا يقولون: «عمامة السلطان خير من قبعة الكاردينال»... وكانوا يعنون ما يقولون.

هوامش الفصل الثامن

(1) انظر الفصل السابع

(2) ما زالت سلالة لوردات بودونيتزا Boudonitza فى أسرة زورزى Zorzi العريقة فى فينيسيا. وفى سالونا Salona فإن بقايا قلعة "توماس دى سترومانكورت - Thomas de Stromon-court" هى أهم الآثار الفرنجية فى البلاد.

(3) هى قناة ملغزة بسبب طبيعتها الجغرافية الغريبة. فى مجراها الضيق البالغ نحو ثلاثين ياردة، تغير تياراتها اتجاهاتها ست أو سبع مرات فى اليوم إن لم يكن أكثر. ما زال السبب مجهولاً، ويقال: إن أرسطو أصيب بالإحباط لفشله فى حل تلك المشكلة التى كان قد تصدى لها.

(4) كانت تلك هى الكلمة المستخدمة اسمًا لجزر البيلوبونيز فى العصور الوسطى ولم تكن معروفة قبل بداية القرن الثانى عشر، ويعتقد أنها مشتقة من كلمة يونانية تعنى "شجرة التوت"، ربما بسبب شكلها أو لكثرة شجر التوت الذى ينمو هناك.

(5) الجزر الشمالية الغربية من البيلوبونيز على نحو خاص.

(6) للمزيد عن مصائر جزر بحر إيجه، يمكن الرجوع إلى كتاب: The Latins in the Levant تأليف: W. Miller الصفحات من 40 - 45

(7) الهولة: Monstosity: حيوان أو نبات مشوه الخلقة. (المترجم)

الفصل التاسع

أعجوبة الدنيا

• فردريك يقبل العرش الإمبراطوري: 1212 • تتويج فردريك: 1220 • ترحيل المسلمين: 1226 • يولاند ملك القدس: 1225 • فردريك يبحر إلى فلسطين: 1228 • فردريك في قبرص: 1228 • الغضب المسيحي: 1229 • دساتير ميلفي: 1231 • عزل فردريك: 1245 • إعدام كونرادين: 1268 • فشل فردريك.

بعد أن وضعت الإمبراطورة «كونستانس – Constance" وليدها فى قرية "چيسى – Jesi" فى اليوم التالى لعيد الميلاد عام 1194[1]، بعدها بأيام قليلة أخذته وواصلت الرحلة إلى الشمال؛ وفى پاليرمو، بعد الموت المبكر لأبيه بعد ذلك بأربع سنوات، كان أن تم تتويج الطفل – الذى حمل اسم فردريك على اسم جديه – ملكًا على صقلية.

أمضى فردريك طفولته هناك حيث تلقى تعليمًا أبعد ما يكون عن ذلك الذى كان يقدم للأمراء الألمان عادة. كان تعليمًا مختلفًا لدرجة كبيرة ربما تفوق الخيال. كانت اللاتينية واليونانية والعربية كلها لغات رسمية فى صقلية النورمندية، وإلى جانب تلك اللغات تعلم فردريك الألمانية والإيطالية والفرنسية. منذ أيام جده «روچر الثانى – Roger II"، كان هذا البلاط هو الأكثر ثقافة فى أوروبا، وملتقى علماء وجغرافيين وعلماء رياضيات سواء من المسيحيين أو اليهود أو المسلمين، ولعل معلمه الشخصى "مايكل سكوت – Michael Scot" (مترجم أرسطو وابن رشد)، المعروف عنه أنه أمضى عدة سنوات فى پاليرمو، أصبح صديقه المقرب. لم يكن يمضى الساعات الطوال فى الدراسة فحسب، بل وفى مناظرات عن الدين والفلسفة والرياضيات. كذلك غالبًا ما كان ينسحب إلى إحدى الحدائق أو أحد القصور التى يقال: إنها كانت تحيط بالمدينة مثل العقد، لكى يراقب الطيور والحيوانات، وهو ما أصبح هواية ملازمة له. بعد عدة سنوات سيؤلف كتابًا عن صيد الصقور[2]، سيصبح أحد المصادر الأساسية النادرة التى تعبر عن معرفة وفهم للحياة البرية فى القرن الثالث عشر.

كانت طاقته الجسدية تضاهى طاقته الفكرية تمامًا. يصفه أحد المعاصرين له فيقول:

> **لا تجده عاطلًا عن العمل أبدًا، وإنما يقضى اليوم كله فى عمل أو آخر. ولكى يزيد طاقته بالممارسة، كان يقوى جسده الرشيق بكل التمارين الرياضية بما فى ذلك استخدام السلاح. يستخدم أسلحته أو يحملها، يشهر سيفه القصير الخبير باستخدامه وكأنه يحمى نفسه من هجوم ما. يستخدم القوس بكفاءة وأحيانًا يمارس رمى السهام. يحب الخيل الأصيلة السريعة، وأعتقد أنه ليس هناك من هو أفضل منه فى معرفة كيف يكبح جماحها باللجام، ثم إطلاقها لكى ترمح. هكذا يقضى يومه من الصباح إلى المساء، ثم يبدأ من جديد فى اليوم التالى.**
>
> **يضاف إلى ذلك فخامة وهيبة وسيماء ملكية مع شكل سمح وطلعة بهية وعينان ذكيتان ووجه معبر وروح متقدة وبديهة حاضرة. إلا أنه يأتى أحيانًا أفعالًا غريبة وفظة، وليس ذلك لطبيعة فيه وإنما لصلته بالخشنين من العامة. بالرغم**

من ذلك فإنه يتحلى بكثير من الفضائل التى تسبق عمره، وبالرغم من أنه لم يبلغ سن الرشد بعد، فإن لديه معرفة واسعة، لديه موهبة الحكمة التى لا تأتى إلا مع الزمن. عدد السنوات بالنسبة له ليس فى الحسبان، وليس هناك حاجة لانتظار النضج؛ لأنه كإنسان غنى بالمعرفة، وكحاكم غنى بالعظمة والمهابة.

هذا الوصف كتب فى 1208 عندما كان فردريك فى الثالثة عشرة. بلغ سن الرشد فى عيد ميلاده الرابع عشر فى السادس والعشرين من ديسمبر، وبعد تسعة أشهر تزوج كونستانس ابنة «ألفونسو الثانى – Alphonso II» ملك أراجون. كانت أرملة.. تكبره بعشر سنوات. كان زوجها الأول هو "إيمرى – Imre" ملك هنغاريا. كان البابا إنوسنت الثالث هو الذى اختار كونستانس لفردريك الذى يبدو أنه لم يكن متحمسًا مثله لهذه الزيجة.. على الأقل فى الأيام الأولى من الزواج. جاءت كونستانس معها بخمسمائة فارس مسلح فى حاشيتها، على ضوء القلق المستمر فى المملكة. كان فردريك فى حاجة إلى كل ما يمكن الحصول عليه من مساعدة. كما أدخلت كذلك مع فرسانها وحاشيتها وخدمها ثقافة جديدة... دراية بشئون العالم والحياة لم تكن معروفة فى پاليرمو. بالنسبة لفردريك، المدرك دائمًا لكل جديد ومثير، كان عالم جديد يتفتح أمامه الآن.. عالم الحب المتملق. ظل الزواج نفسه زواج مواءمة سياسية... زواج مصلحة.. – رغم أن كونستانس أنجبت له طفلًا (هنرى) بعد عام أو عامين – إلا أنه أزال الحواف الحادة وهذب الطباع. قبل أن يصل إلى العشرين بوقت طويل، كان فردريك قد اكتسب الفضائل الاجتماعية والكياسة التى سيعرف بها بقية حياته.

فى وقت باكر من يناير 1212، وصلت بعثة سفراء من پاليرمو حاملة معها رسالة من وراء الألب. مرة أخرى كانت أوروبا الغربية تتعرض لأخطار الملكية الانتخابية؛ فمنذ وفاة "هنرى السادس – Henry VI" كانت الحرب الأهلية قد مزقت ألمانيا، بين مطالبين كثر باللقب. كان أحدهم "أوتو الولف – Otto the Welf" دوق "برنزويك – Duke of Brunswick" قد توج إمبراطورًا بالفعل من قبل البابا إنوسنت فى 1209، وبعد عامين استولى على الشمال الإيطالى وهو الجزء البرى بكامله من أراضى مملكة فردريك. ولسوء حظه، كان أن تمادى فى غيه: كان قيامه بغزو إقليم توسكانى البابوى سببًا فى حرمانه كنسيًا، وفى سبتمبر 1211 اجتمع مجلس من كبار الأمراء الألمان فى نورمبرج وأعلنوا عزله. كان أولئك هم الذين أرسلوا السفراء بدعوة فردريك لتولى العرش الخالى.

جاءت هذه الدعوة مفاجأة تامة، وأثارت قلقًا كبيرًا فى البلاط الصقلى. مستشارو

فردريك الرئيسيون نصحوا – بقوة – بعدم القبول، وكذلك زوجته. لم يكن هناك أى شيء يربطه بألمانيا، والحقيقة أن قدمه لم تطأ الأرض الألمانية من قبل، ثم إن قبضته على مملكته لم تكن قد أصبحت قوية بعد، ولم يكن قد مر عام على تهديد دوق برنزويك له عبر مضايق مسينى. هل كانت تلك فعلًا لحظة مناسبة يغيب فيها عن صقلية لفترة قد تمتد عدة شهور على الأقل من أجل مجد، مهما كان عظيمًا، ربما يتضح فى النهاية أنه كان وهمًا؟ من ناحية أخرى فإن عدم القبول – كما يعرف – قد يبدو فى نظر الألمان رفضًا مباشرًا وازدراء، وربما نجح فى تقوية وضع خصمه الرئيسى. كان دوق برنزويك ما زال يحظى بتأييد كبير فى كل من إيطاليا وألمانيا. وحيث إنه لم يكن قد تخلى عن أى من طموحاته بعيدة المدى، كان يستطيع القيام بحملة جديدة ولن يرتكب الخطأ نفسه فى المرة القادمة. مرة أخرى، كانت هنا فرصة لتوجيه ضربة قاضية له، فرصة ما كان له أن يضيعها.

بعد قليل من التردد وافق البابا إنوسنت. من المؤكد أن اختيار فردريك ملكًا كان سيقوى القبضة الإمبراطورية فى شمال وجنوب الولايات البابوية، ولكى يؤكد استقلال مملكة صقلية عن الإمبراطورية – على الأقل نظريًا – كان أن أصر البابا على أن يتنازل فردريك عن العرش الصقلى لصالح ابنه الوليد الجديد وأن تكون كونستانس هى الوصية. بمجرد الانتهاء من هذه الإجراءات الرسمية ومن أمور أخرى أقل أهمية، كانت الطريق قد أصبحت واضحة تمامًا أمام فردريك. فى آخر فبراير، أبحر هو وجماعة من الرفاق من أهل الثقة من مسينى. لم تكن وجهته المباشرة ألمانيا، وإنما روما؛ وهناك... يوم أحد الفصح 25 مارس، ركع أمام البابا وأدى فروض الولاء له نيابة عن ابنه الملك، باسم مملكة صقلية. ثم أبحر من روما إلى جنوة، على سفينة من جنوة كانت تحاول أن تضلل الأسطول الذى أرسله أهالى بيزا (المؤيدون الأشداء لدوق برنزويك) لكى يعترض طريقه. كان أهالى جنوة، على خلاف منافسيهم من أهالى بيزا، كانوا غيبلليين[3] متحمسين مثل عائلتهم القيادية «الدورياس – The Dorias»، الذين وضعوا قصرهم الرئيسى تحت تصرف الإمبراطور إلى أن أعيد فتح ممرات الألب ليتمكن من مواصلة رحلته. فى الوقت نفسه، تم التوصل إلى اتفاق بموجبه وعد فردريك – مقابل دعم كبير – بالإبقاء على كل المزايا الممنوحة لجنوة بواسطة أسلافه، عندما يصبح إمبراطورًا.

حتى ذلك الحين، لم تكن الطريق إلى ألمانيا سالكة. فى الثامن والعشرين من يوليو استقبل استقبالًا حارًّا فى "باڤيا – Pavia"، ولكن سهل لومبارديا كان بشكل دائم تحت رقابة دوريات عصابات من أهالى ميلانو الموالين لـ "جويلف – Guelf"، وكانت

إحدى تلك العصابات هى التى فاجأت الجانب الإمبراطورى وهم يغادرون المدينة فى الصباح التالى. كان فردريك محظوظًا بالفعل؛ إذ تمكن من القفز فوق حصان يخوض به نهر "لامبرو – Lambro" دون سرج، ويشق طريقه نحو "كريمونا – Cremona" الصديقة. لا نعرف أى الطرق سلك عبر الألب؛ إذ إن دوق برنزويك وجيشه كانوا عند "ترنتو – Trento". فى أوائل الخريف، كان فردريك قد وصل إلى ألمانيا بسلام.

** ** **

فى الخامس والعشرين من يوليو 1215، فى كاتدرائية "آخن – Aachen"، وعلى عرش شارلمان، قام رئيس أساقفة "ماينز – Mainz" بتتويج فردريك ملكًا على الرومان، وهو اللقب التقليدى للإمبراطور المنتخب. كان فى الحادية والعشرين. كل ما كان يريده الآن ليكتمل اللقب الإمبراطورى هو تتويج آخر بواسطة بابا روما. قبل عام بالتحديد، فى 27 يوليو 1214، كان جيش فيليب أوجسطس ملك فرنسا قد هزم جيش أوتو ملك برنزويك وچون John ملك إنجلترا فى ساحة قتال "بوڤيان – Bouviens" بالقرب من "ليل – Lille"، وقضى تقريبًا على كل آمال أوتو فى مقاومته. منذ ذلك اليوم أصبحت سيادته مؤكدة، والآن – ربما شكرًا لله وربما لكسب المزيد من رضا البابا – كان يعلن عن نيته الاشتراك فى حملة صليبية.

هناك بعض التصرفات أو المواقف فى حياة فردريك تبدو لنا اليوم غير مفهومة. لم يكن تقيًّا أو ورعًا على نحو خاص، بالإضافة إلى أنه كان قد شب بين علماء ومفكرين مسلمين كما كان يحترم دينهم ويتحدث لغتهم. كما أنه لم يكن فى ذلك الوقت تحت ضغط من البابا أو أى شخص آخر. الحقيقة أن هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أنه سرعان ما ندم على وعده، والمؤكد أنه لم يبد أى رغبة فى الوفاء به. كان عليه أن يبقى فى ألمانيا أربع سنوات أخرى أمضاها كلها تقريبًا فى تأمين الخلافة الإمبراطورية لابنه هنرى الذى وصل من صقلية مع الملكة كونستانس فى 1271. فى أواخر صيف 1220 عاد والداه إلى إيطاليا تاركين هذا الصغير ذا الثمانى السنوات خلفهم. بعد ذلك كانت هناك نهضة كبيرة فى إيطاليا كلها، وزع فيها فردريك العطايا والهبات الملكية بما هو معروف عنه من سخاء. فى منتصف نوفمبر، وصل إلى روما، وفى اليوم الثانى والعشرين من الشهر نفسه وضع البابا "أونوريوس الثالث – Honorius III" التاج الإمبراطورى على رأسه.

قبل خمس وستين سنة، كان جده بربروسا قد اضطر لقبول تتويج مهين انتهى بشكل أقرب إلى المذبحة.(4) كانت تلك الأيام على أية حال ماض انتهى أمره، والآن كانت

روما فى حالة سلام – يشهد على ذلك كرم فردريك الذى لا حدود له – وعليه فقد كان حفل التتويج على درجة عالية من الروعة وربما لم تشهده أى كاتدرائية من قبل. عندما تم، وظهر البابا والإمبراطور تحت شمس الشتاء، لوحظ أن الإمبراطور – على خلاف بربروسا – كان ممسكًا، دون تردد، بركاب البابا وهو يمتطى حصانه، بعدها اقتاده من اللجام خطوات قليلة قبل أن يمتطى حصانه هو الآخر. مثل تلك اللفتات لم تكن تعنى الكثير بالنسبة له. لم تكن الإمبراطورية إمبراطوريته فحسب، بل إنه كان قد انتزع من البابا تعهدًا كان له قيمة كبيرة عنده، وهو إعادة مملكة صقلية إليه. بعد ثمان سنوات فى ألمانيا، كان فردريك يتوق للعودة إلى پاليرمو.

تلك السنوات حققت له أكبر لقب علمانى يمكن أن يخلعه العالم على أحد، ولكنها كشفت له كذلك عن أنه كان جنوبيًا فى الصميم منه، كان رجلًا من صقلية. كانت ألمانيا صادقة معه، ولكنه لم يكن يشعر بحب نحوها، لم يشعر أنه فى وطنه قط. على مدى سنواته الثمانية والثلاثين كإمبراطور، لم يمض سوى تسع منها فى شمال الألپ، وعلى مدى حكمه كله، كان عليه أن يبذل قصارى جهده – رغم أنه لم يحقق فى ذلك نجاحًا واضحًا – أن يحول بؤرة الإمبراطورية إلى إيطاليا، وكان فى إيطاليا أن أنجز أعماله الرئيسية. بدأها فى أواخر ديسمبر 1220 حتى قبل أن يعبر مضايق مسينى، وذلك فى أول مدينة مهمة فى جبهته الشمالية: مدينة «كاپوا – Capua».

أما بالنسبة لدولة صقلية فلم يكن لديه أية أوهام، لمدة تزيد عن الأربعين عامًا – منذ وفاة وليم الصالح فى 1189 – كانت غارقة فى الفوضى. كان حكم والده الذى اتسم بالإرهاب قد زاد من العناد والسخط ثم كانت هناك الأقلية التابعة له – لم تنجح أمه فى الإمساك بزمام الأمور – وتبع ذلك غيابه الطويل فى ألمانيا، الذى بقيت أثناءه الدولة كاسم أكثر منها أى شىء آخر. كانت الأولوية لا بد أن تكون لإعادة النظام، وكانت الخطوات الأولى لتحقيق ذلك هى البدء بما عرف بـ "قوانين كاپوا – Assizes of Capua" التى جاءت فيما لا يقل عن عشرين فصلًا، وهى سلسلة القوانين التى لا بد أنه كان يفكر فيها قبل شهور. هذه القوانين وضعت أسس التجدد الوطنى الذى ما كان ليستمر بقية سنوات حكمه. كانت تتضمن بالأساس عودة إلى الأوضاع التى كانت قائمة عندما مات وليم، وإعادة تركيز السلطة تحت التاج. كان أهم القوانين الأبعد أثرًا قانون "استرجاع المزايا – de resignandis privilegiis" الذى نص على إعادة جميع المزايا التى منحت لأى شخص أو مؤسسة منذ ذلك الوقت، مهما كانت صغيرة أو تبدو ضئيلة الأهمية، إلى المحكمة الملكية للتصديق عليها، وذلك قبل ربيع 1221. لا شك

أن هذا المرسوم كان شديد الوطأة على كبار الحاصلين على تلك المزايا من الذين كانوا يمثلون أكبر خطر على سيادة التاج: طبقة النبلاء والكنيسة. بالنسبة لطبقة النبلاء، كان هناك ضربتان قويتان أخريان. لم يكن مسموحًا لأى مستأجر لإقطاعية بالزواج، ولا لأبنائه بالميراث دون موافقة عاهله، كما أن جميع القلاع التى بنيت فى أى مكان من المملكة منذ وفاة وليم، تعود بشكل تلقائى للتاج.

ما تم فى كابوا تكرر، وإن على نطاق أضيق قليلًا، فى الأشهر التالية فى مسينى وكاتانيا وپاليرمو، ثم انتقل الإمبراطور إلى "سيراكوزا – Cyracuse" ليكون له شأن آخر مهم مع أهالى جنوة. كانت جنوة صديقة دائمة، ولكن منذ 1204 كان تجار جنوة قد استحوزوا بالفعل على المدينة التى بسطوا نفوذهم منها على كل الجزيرة. كان أحد أهم أسباب انهيار تجارة صقلية على مدى السنوات الثلاثين السابقة هو أن معظمها كان قد أصبح فى أيدى أجانب، ولم تكن هناك أى فرصة للعودة إلى الازدهار بينما الغرباء هم المتحكمون. وهكذا بالرغم من المساعدات التى قدمها له أهالى جنوة أثناء رحلته إلى ألمانيا، تصرف فردريك بحزم شديد كما كان معروفًا عنه. أسقطهم من اعتباره تمامًا. أعطته قوانينه الجديدة كل السلطات التى كان يريدها. كل الامتيازات والمزايا التى كانت قد منحت لجنوة وليس فى سيراكوزا فحسب، بل وفى پاليرمو ومسينى وتراپانى وغيرها من المراكز التجارية... كلها تم سحبها فورًا، كما أعلن عن مصادرة كل مستودعات ومخازن جنوة بمحتوياتها لصالح التاج الصقلى. كذلك اتخذت إجراءات مماثلة فى پيزا رغم أن حضور هذه المدينة فى صقلية كان ضعيفًا وخسائرها صغيرة نسبيًّا.

ولكن... من أسف أن كان هناك عدو أكبر من جنوة لكى يواجهه: مسلمو غرب صقلية. قبل ثلاثة أرباع القرن، على أيام الملك روچر، كان المجتمع العربى هنا جزءًا لا يتجزأ ومحترمًا من المملكة. كان منه موظفو الخزانة بالكامل، كما كان منه معظم الأطباء والفلكيين والعلماء الذين بفضلهم ذاعت شهرة صقلية وسمعتها فى مجال العلم. إلا أن تلك الأيام كانت قد انقضت. كان جزء كبير من المنطقة العربية (حيث كان يوجد حكم ذاتى) قد منح لـ "دير مونريال - Abbey of Monreal" أثناء حكم وليم الصالح. بعد السقوط النهائى للقوة النورمندية، وجد العرب أنهم لن يعودوا مقبولين ولا حتى محترمين، ومن ثم تراجعوا ليتركزوا فى البرية والمناطق الجبلية الغربية؛ حيث كان قطاع الطرق والقراصنة منهم يلقون الرعب فى قلوب المجتمعات المسيحية المحلية. أول حملة لـ "فردريك" ضدهم فى 1221 لم تكن حاسمة، فى العام التالى فقط تمكنت قواته من الاستيلاء على قلعة العرب المسلمين فى "إياتو – Iato" ومعها القائد المسلم ابن عباد الذى سرعان ما انتهت أيامه على المقصلة.

حتى إعدام ابن عباد لم يكن حلًّا نهائيًا للمشكلة. الحل النهائى جاء فقط بين 1222 و 1226 عندما اتخذ فردريك إجراء أكثر تطرفًا. قرر نقل كل السكان المسلمين من المنطقة الغربية المتمردة – نحو خمسة عشر أو عشرين ألف نسمة – من الجزيرة نهائيًا وإعادة توطينهم فى الطرف الآخر من مملكته فى أپوليا الشمالية، التى أصبحت بالفعل مدينة مسلمة؛ حيث حل محل كل كنيسة من كنائسها مسجد. لم تكن أپوليا، وهذا أمر لا بد من تأكيده – مستوطنة عقاب بأى معنى. كان سكانها يتمتعون بكامل حريتهم، يمارسون شعائر دينهم، كما أن فردريك الذى كان قد نشأ مع مسلمين منذ طفولته الباكرة، بنى لنفسه قصرًا هناك على الطراز الشرقى وكان أحد الأماكن المفضلة لإقامته.

من جانبهم، أظهر مسلمو "لوكيرا – Lucera" ولاءهم الجديد بتقديم حرس شخصى له. كانوا أيضًا يعملون فى مصنع الأسلحة، وكان الحدادون منهم يصنعون نصال الصلب الدمشقية لسيوفه التى لم يكن ينافسها سوى سيوف طليطلة، كما كان النجارون يصنعون المنجنيق وغيره من الأدوات الحربية التى كانت عمليات الحصار مستحيلة بدونها. فى الوقت نفسه كانت نساؤهم يزودون الإمبراطور بما يلزم من الحريم والقيان اللانى كن يعشن حياة مترفة فى جناح خاص من القصر مع الخادمات والخصيان. عدد من أولئك البنات سوف يصاحب الإمبراطور فى أسفاره، وبالرغم مما كان يقال عن أنهن كن هناك لتقديم التسلية البريئة للبلاط، هناك قدر من الشك – كما يشير جيبون قياسًا على ما كان لدى الإمبراطور جورديان – بأنهن كن هناك فعلا بقصد الاستخدام وليس على سبيل التباهى والتفاخر.

فى وقت تتويجه الإمبراطورى فى نوفمبر 1220، أكد فردريك للبابا أونوريوس العهد الذى كان قد قطعه على نفسه بعد تتويجه ملكًا على الرومان: سيقوم شخصيًّا بقيادة حملة جديدة إلى فلسطين لاستعادة الأراضى المقدسة للعالم المسيحى. كان من الصعب أن ينكث بعهده، وبالرغم من ذلك يظل هذا التأكيد مثيرًا للدهشة؛ حيث كانت حملة، جمعها البابا من مصادر مختلفة، قد أبحرت بالفعل باتجاه الشرق تحت قيادة "چون البرينى – John of Brienne" الذى كان فى الثامنة والستين من عمره، والذى كان يحمل اللقب الفخرى "ملك أورشليم"، ولكن بعد وصول الفريق البابوى بقيادة الكاردينال الإسپانى "پيلاجيوس – Pelagius" أمير "سانتا لوتشيا – St Lucia"، أصر پيلاجيوس على أن تكون له القيادة كاملة.

هذه الحملة الخامسة[5]، كما يطلق عليها، كان هدفها الاستيلاء على مدينة دمياط المصرية، التى كان من المأمول أن تستبدل بالمدينة المقدسة نفسها. كان حصار دمياط

أصعب مما كان متوقعًا بكثير. استمر نحو سبعة عشر شهرًا، وقبل أن ينتهى مباشرة عرض عليهم السلطان الكامل - يائسًا - كل مملكة أورشليم غربى الأردن مقابل رحيلهم، وبكل غباء – كما اتضح فيما بعد – رفض الكاردينال بيلاجيوس هذا العرض؛ إذ كان مصممًا على غزو القاهرة... ومصر كلها. سقطت دمياط فى الخامس من نوفمبر 1219، ولكن الحرب استمرت نحو عامين آخرين، وكان يمكن أن تستمر أطول من ذلك، لو لا أن حاصر فيضان النيل جيش الصليبيين، ولم يخلصهم منه سوى الاستسلام. الحملة التى كانت قريبة من النجاح، تحولت إلى كارثة بسبب عناد قائدها الذى وصل إلى درجة الحماقة.

مع فشل الحملة، وجد الإمبراطور أنه كان ما يزال تحت ضغط أشد لكى يقوم بحملة أخرى – وأن يتخذ زوجة أخرى كذلك. كانت الإمبراطورة كونستانس قد ماتت فى يونيو 1221، وبعد عام، وصل المعلم الأعظم للفرسان التيوتون، «هيرمان فون سالزا» دوق سوابيا، حاملًا اقتراحًا من البابا بضرورة أن يتزوج فردريك الآن من «يولاند دى بريان – Yoland de Brienne»، الملكة الوريثة لأورشليم التى كانت فى الثانية عشرة من العمر.[6] كان اللقب قد انتقل إليها عن طريق أمها «ماريا – Maria»، حفيدة الملك أماليريك الأول، التى كانت قد تزوجت فى سن السابعة عشرة من "چون صاحب بريان – John of Brienne"، الذى كان فى العقد السابع من العمر. كان چون قد حمل لتوه لقب ملك. بعد موت زوجته الباكر بعد عام أو عامين، كانت مطالبته بالعرش أمرًا لا خلاف عليه، ولكنه كان قد استمر فى حكم البلاد وصيًّا على ابنته الصغيرة يولاند، وكما رأينا كان قد قاد الحملة الخامسة المنكوبة.

لم يكن فردريك متحمسًا فى البداية. كانت الخطيبة المقترحة له مفلسة، كانت طفلة تقريبًا وعمره ضعف عمرها، أما بالنسبة للقبها فكان بلا معنى تقريبًا؛ إذ إن أورشليم كانت فى أيدى المسلمين منذ نصف قرن تقريبًا. من ناحية أخرى، كان هناك على الأقل حجة واحدة قوية مع الفكرة. المنصب الملكى الذى كان يبدو شرفيًّا، يمكن أن يدعم مطالبته بالمدينة عندما يقوم فى النهاية بحملته التى تأجلت طويلًا. وهكذا بعد أخذ ورد وافق فردريك على العرض، كما وافق أثناء مناقشة مع البابا على أن تبدأ حملته – التى كان زواجه مرتبطًا بها – يوم "خميس الصعود – Ascension Day" الذى كان يوافق الخامس عشر من أغسطس 1227؛ وأوضح أونوريوس أن أى تأجيل سينجم عنه حرمانه كنسيًّا.

وكان أن وصلت أربع عشرة سفينة من الأسطول الإمبراطورى فى أغسطس 1225

إلى عكا، آخر القواعد الأمامية المتبقية فى الشرق اللاتينى؛ لكى تقوم بتوصيل يولاند إلى صقلية. حتى قبل رحيلها، كان قد تم تزويجها من الإمبراطور بالوكالة، وبعد ذلك تم تتويجها فى صور كملكة على أورشليم، بعد أن كانت قد بلغت سن الرشد. آنذاك فقط، بدأت الرحلة التى كانت لتأخذها إلى حياة جديدة بصحبة حاشية كان من بينها ابنة عم لها، كانت تكبرها بعدة سنوات. كان فردريك، مع أبيها، فى انتظارها فى برنديزى؛ حيث تم زواج آخر فى الكاتدرائية فى التاسع من نوفمبر. من أسف أنه كان زواجًا مشؤومًا. فى اليوم التالى غادر الإمبراطور المدينة مع عروسه فجأة ودون أن يبلغ والدها، عندما لحق بهم چون أبلغتـه ابنته باكية أن زوجهـا كان قد أغوى ابنة عمها! وعندما وصل فردريك ويولاند إلى پاليرمو، تم صرف الفتاة المسكينة بجفاء شديد على الفور لتكون ضمن الحريم، كما تم إبلاغ والدها فى الوقت نفسه بأنه لم يعد وصيًّا... ولم يعد له الحق فى لقب ملك.[7]

وسواء أكان غضب چون يعود أساسًا لمعاملة الإمبراطور لابنته أو لخسارته مملكته الشرقية، فالأمر ليس واضحًا. على أية حال، فإنه ذهب من فوره إلى روما حيث كان من المتوقع أن يقف البابا أونوريوس إلى جواره، ورفض أن يعترف باتخاذ فردريك اللقب الملكى. أدى ذلك إلى زيادة توتر العلاقات الإمبراطورية البابوية التى كانت بالفعل عند أدنى مستوى لها بسبب تباطؤ فردريك المستمر فى القيام بالحملة – التى كان قد وعد بها قبل أحد عشر عامًا – ورفضه الاعتراف بسلطة البابا على شمال ووسط إيطاليا. اتخذ الخلاف منحى أعمق عندما مات أونوريوس فى 1227 ليخلفه «هوجو – Hugo"، كاردينال أوستيا، الذى اتخذ اسم "جريجورى التاسع – Gregory IX"[8]. جريجورى الذى كان طاعنًا فى السن بدأ كما كان يقصد أن يسير. كتب إلى فردريك بعد تنصيبه مباشرة يقول: «انتبه ألا تضع فطنتك التى تشترك فيها مع الملائكة، فى مستوى أقل من حواسك التى تشترك فيها مع البهائم والنباتات». بالنسبة للإمبراطور الذى كان فسوقه قد أصبح أسطوريًّا فى وقت قصير، كانت تلك طلقة مؤثرة عبر الأقواس.

فى ذلك الوقت كانت الحملة تستجمع قواتها. كان سيل لا يتوقف من الفرسان الألمان يعبرون الألپ ويتدفقون على طريق الحج فى إيطاليا للانضمام إلى الإمبراطور فى أپوليا؛ حيث كان الجيش سوف يستقل السفن من هناك متجهًا إلى الأراضى المقدسة. ولكن آنذاك، فى الحرارة الشديدة فى أپوليا فى شهر أغسطس، كان أن انتشر وباء، ربما كان تيفودا أو كوليرا؛ ليجتاح معسكر الصليبيين بقوة. كان فردريك قد اصطحب يولاند إلى «أوترانتو – Otranto" أولاً، ثم إلى جزيرة "سانت أندريا – St Andrea" البعيدة

عن الشاطئ حرصًا على سلامتها؛ إذ كانت حاملًا؛ إلا أنه سقط هو نفسه أمام الفيروس اللعين، كما سقط كذلك كونت "ثرنجيا – Thuringia" الذى كان قد جاء معه بعدة مئات من جنود الخيالة. ركب الرجلان المريضان السفينة بالرغم من ذلك، وأبحرا من برنديزى فى شهر سبتمبر ولكن بعد يوم أو يومين مات الكونت، وهنا أدرك فردريك أنه هو نفسه كان مريضًا ولا يستطيع مواصلة الرحلة. دفع الناجين من أفراد الحملة أمامه، مع تعليمات بالقيام بكل ما يمكنهم من استعدادات على أن يتبعهم عندما يصبح قادرًا.. وعلى أكثر تقدير، قبل مايو 1228؛ كما أرسل فى الوقت نفسه السفراء إلى روما لإطلاع البابا على الموقف.

إلا أن جريجورى رفض أن يستقبلهم، وبدلًا من ذلك أصدر منشورًا بابويًا مقرعًا يتهم فيه الإمبراطور – صراحة – بحنثه بقسمه بالنسبة للحملة. لم يحدد هو شخصيًا موعدًا جديدًا لانطلاقه، بعد تأجيل أكثر من مرة. ألم يكن قد وافق على حرمانه كنسيًا إن لم يف بوعده؟ ألم يتصور أن يكون انتشار الوباء حتميًا بسبب تكدس كل تلك الألوف من الجنود والحجاج فى حر الصيف الشديد؟ ألم يكن هو شخصيًا مسئولًا عن هذا الوباء وعن حالات الوفاة الناجمة عنه بما فيها وفاة الكونت؟ ولكن من ذا الذى يستطيع أن يؤكد إصابته هو نفسه؟ ألم تكن تلك محاولة أخرى للتملص من تعهداته؟ فى التاسع والعشرين من سبتمبر، أعلن البابا حرمان فردريك كنسيًا.

بهذا الفعل، كان أن خلق فردريك لنفسه مشكلة جديدة. كان من الواضح بذاته أن المحرومين كنسيًا لا يمكن أن يقودوا حملات صليبية، وبمرور الأيام كان يتضح أكثر فأكثر أن ذلك تحديدًا هو ما كان فردريك ينوى فعله. كانت هناك حقيقة أخرى بدأت تظهر: لقد بالغ البابا فى استخدام سلطته. رد فردريك برسالة مفتوحة موجهة إلى كل من حملوا الصليب، يشرح موقفه بهدوء وروية متوسلًا التفهم والاسترخاء، ضاربًا بذلك مثالًا للأسلوب الذى كان ينبغى على الأب الأقدس أن يتبعه. كان للرسالة أثرها. عندما قام البابا جريجورى يوم عيد القيامة 1228 بعظة ضمنها غضبه على الإمبراطور، ثار عليه جميع المصلين، وطاردوه ليخرج من المدينة ويلجأ إلى "ڤيتيربو – Viterbo". واصل حملته من هناك. إلا أنه، بينما كان قبل أشهر قليلة يحث فردريك على القيام بالحملة، كان هو الآن فى الوضع المثير للسخرية... كان يعارض الحملة.. إذ كان يعرف أن عودة الإمبراطور منها منتصرًا، ستكون ضربة موجعة لمكانة البابا، لن تبرأ منها قبل وقت طويل.

** ** **

يوم الأربعاء الموافق للثامن والعشرين من يونيو 1228، أبحر الإمبراطور فردريك الثانى من برنديزى بأسطول قوامه نحو ستين سفينة متجهًا إلى فلسطين. كان الآن قد استعاد صحته، إلا أن علاقته بالبابا لم تكن قد تحسنت بالقدر نفسه. الحقيقة أن البابا عندما اكتشف أنه كان يستعد للمغادرة، أصدر حَرْمًا كنسيًّا آخر فى الثالث والعشرين من مارس. (وآخر فى الثلاثين من أغسطس). كان فردريك قد أصبح أبًا مرة أخرى. قبل شهرين كانت يولاند قد وضعت طفلًا ذكرًا، "كونراد – Conrad"، ماتت بعد أيام قليلة من ولادته بسبب حمى النفاس. مسكينة! لم تتمن قط أن تكون إمبراطورة، وعندما كان عليها أن تغادر فلسطين بكت بمرارة. فكريًّا، لم يكن لديها ما يمكن أن تقدمه لزوجها واسع الثقافة، وبدروه لم يكن هو أيضًا يوليها اهتمامًا كبيرًا.. على الأقل إلى أن عرف أنها كانت حاملًا فى طفل منه. يبدو أنها كانت قد أمضت الثلاثين شهرًا البائسة من زواجها وهى تتوق لرؤية الشرق اللاتينى، فهل يسمح لها فردريك بذلك لو أنها عاشت؟ هل شعر نحوها بأى درجة من الحزن؟ يبدو أننا لن نعرف. ربما كان فكره مشغولًا بحقيقة أن موتها قد أضعف بشدة من موقفه لكى يطالب بمملكة أورشليم؛ لأنه كان الآن – بالضبط – فى نفس وضع چون البرينى العجوز؛ إذ كان چون يحتفظ باللقب باعتباره زوجًا للملكة الشرعية... وهكذا كان هو أيضًا. بوفاتها سينتقل اللقب إلى ابنها كونراد الصغير.

لم يكن من المحتمل - على أية حال - أن يبحث كونراد دعوى أبيه فى المستقبل المنظور، كما أن الإمبراطور كان لديه مشكلات دبلوماسية أخرى تشغل تفكيره. كانت إمبراطورية صلاح الدين آنذاك تحت حكم ثلاثة إخوة من قبيلته: بيت أيوب. الكامل سلطان مصر، والأشرف الذى كان يعرف بسلطان بابل ومقره بغداد، والمعظم حاكم دمشق مع سلطة مباشرة على أورشليم والأراضى المقدسة. المعظم الذى كان يشك فى أخويه (وكانت هناك أسباب كافية لذلك) ويعتقد أنهما كانا يخططان للاتحاد ضده، كان قد تحالف مؤخرًا مع أتراك خوارزم وحاصر الأشرف فى عاصمته؛ أما الكامل فى القاهرة، الذى كان يخشى أن يكون التالى على القائمة فقد استنجد بفردريك سرًّا: إذا تمكن الإمبراطور من أن يطرد المعظم من دمشق، فسيصبح هو نفسه فى وضع يمكنه من أن يعيد له المنطقة المفقودة من أورشليم. جاء رد فردريك متعاطفًا. كان من الواضح أن من صالحه تشجيع مثل هذا الانشقاق فى الشرق الإسلامى قدر المستطاع، وحيث إنه كان قد أمضى شبابه فى بيئة شبه إسلامية ويفهم الذهنية العربية ويتحدث لغتهم، كان فى وضع ممتاز لكى يفعل ذلك. وهو على وشك المغادرة مع الحملة، جاءته أخبار موت المعظم، وبدا الأمر وكأن حماسة الكامل للتحالف كانت تذوى.

بعد ثلاثة أسابيع أو أكثر قليلًا، رسا الأسطول الإمبراطورى فى 21 يوليو فى ميناء ليماسول فى قبرص. كان ريتشارد قلب الأسد قد استولى عليه فى 1191 ويريد أن يبيعه فرسان الهيكل، وعندما وجد أنهم لا يستطيعون أن يدفعوا ثمنه، أعطاه لـ "جاى"، ملك أورشليم المخلوع.[9] أسس جاى مملكة إقطاعية، والغريب أنها بقيت حتى نهاية العصور الوسطى. ربما كانت تلك المملكة إقطاعة من الإمبراطورية الرومانية المقدسة؛ حيث أعلن «ألمريك – Almeric" – شقيق جاى وخليفته – الولاء لـ "هنرى السادس"، والد فردريك. إلا أنه كانت هناك صعوبات من بينها أن الملك الحالى كان قاصرًا لم يبلغ سن الرشد بعد، وأن الحاكم الفعلى بالوصاية وهو "چون الإيبلينى – John of Ibelin" كان فى الوقت نفسه حاكم بيروت، وواحدًا من أغنى وأقوى شخصيات الشرق اللاتينى. كان كثير من أبناء طبقة النبلاء القبارصة يمتلكون إقطاعيات وعزبًا كثيرة فى فلسطين وسوريا، وكان عدم استعدائهم مهمًا.

إلا أن فردريك تعامل معهم بما هو أسوأ من ذلك. كان فى البداية ودودًا ومجاملًا، دعا چون الإيبلينى مع الملك الصغير والقادة والبارونات المحليين إلى وليمة كبيرة فى قلعة ليماسول. كان كل شىء يبدو هادئًا... وفجأة اقتحم جماعة من الجنود القاعة واتخذوا مواقعهم حول جدرانها. وفى الصمت الرهيب الذى خيم على المكان، قام الإمبراطور ليبلغ چون الإيبلينى، بصوت أشبه بالرعد، أنه كان يريد منه أمرين، وكان رد چون بأنه كان يسعده الاستجابة ما دام يعتبر ذلك حقًّا. طلب فردريك: أولًا: مدينة بيروت التى زعم أنها لم تكن من حق چون؛ ثانيًا: كل عائدات قبرص منذ تسلم الملك الصغير العرش. لم تكن تلك المطالب معقولة، كما أن الغطرسة التى أعلنت بها ومحاولات الإكراه والتهديد الواضحة – بينما كان ينبغى أن يكون كل المعنيين مشمولين بتقاليد كرم الضيافة – كل ذلك جعل التأثير أكثر سوءًا. أجاب چون على قدر استطاعته فى هذا الموقف. سيحتفظ ببيروت من قبل ملك أورشليم. لم يكن لها صلة بقبرص؛ وبالرغم من اعترافه بسلطة الإمبراطور على الجزيرة، لم يستطع أن يقر بسلطة مماثلة على سوريا وفلسطين. أما بالنسبة لعائدات قبرص فقد كانت تسلم بانتظام وعلى النحو الصحيح لأم الملك، الملكة "آليس – Alice"، باعتبارها الوصية.

غضب فردريك ولكنه لم يصمم. لم يكن الوضع القانونى للبر الرئيسى واضحًا. كانت مملكة أورشليم مقطعة الأوصال – يمكن أن نقول: ممزقة – بسبب غزو صلاح الدين للمدينة المقدسة، كما أنها كانت قد ازدادت ضعفًا بسبب الكوارث التى جرها عليها سلسلة من الأقليات. كان كثير من البارونات بمن فيهم عائلة إيبلين قد أصبحوا أكثر ثراء وقوة

من ملكهم وكانوا يتصرفون غالبًا على هذا الأساس. لم يكن فردريك يستطيع أن يتدخل بقوة فى أمور كثيرة. كان بالإضافة لذلك متعجلًا ويعرف جيدًا أن البابا كان يضع عينه على مملكة صقلية، وأنه إذا بقى طويلًا فى الشرق فإن غزوها لن يتأخر كثيرًا. كان أمله الوحيد أن يتحرك بسرعة، يضرب ضربته ويعود إلى بلاده بأسرع ما يمكن. من هنا لم يكن أمامه من خيار سوى أن يكمل رحلته – مصطحبًا معه ملك قبرص الصغير.

رسا فى صور بالقرب من نهاية العام 1228. كانت هناك وحدات من فرسان الهيكل والإسبتارية لتحيته ولتزيد من حجم جيشه الذى كان قد أصبح كبيرًا، ولكن فردريك لم يكن لديه أى نية للقتال... إن كان بالإمكان تحقيق أهدافه عن طريق الدبلوماسية السلمية. أوفد سفيرًا للسلطان الكامل الذى كان قد استحوز بالفعل على أراضى شقيقه المتوفى، كما كان نادمًا بشدة على عرضه السابق. أشار السفير إلى أن الإمبراطور قد جاء بدعوة من السلطان، وحيث إن العالم كان قد عرف أنه هنا، فكيف له أن يعود خالى الوفاض؟ فقدان الثقة قد يكون قاتلًا، ولن يكون بمقدور الكامل أن يجد له حليفًا مسيحيًا بعد ذلك. أما بالنسبة لأورشليم، فكانت فى تلك الأيام مدينة عديمة الأهمية، بلا دفاعات، مهجورة تقريبًا؛ وحتى من وجهة النظر الدينية كانت أقل أهمية بالنسبة للإسلام منها بالنسبة للمسيحية. ألن يكون استسلامها ثمنًا قليلًا مقابل علاقات سلمية بين المسلمين والمسيحيين، ومن ثم لرحيله الفورى.

لم تكن هناك أى تهديدات صريحة على الأقل. ولكن الجيش الإمبراطورى كان مستعدًّا وقوته كبيرة، وكان السلطان فى وضع مستحيل. كان الإمبراطور هناك على عتبة بيته ينتظر الحصول على ما وعد به، ومن غير المرجح أن ينصرف قبل أن يحصل عليه. فى الوقت نفسه كان الوضع فى سوريا يسبب له إزعاجًا على نحو متزايد؛ حيث كانت محاولات الكامل الاستيلاء على دمشق لا تحقق أهدافها. أخيرًا، رضخ السلطان ووافق على اتفاقية مدتها عشر سنوات بشروط معينة: بداية، تظل أورشليم دون حماية. جبل الهيكل وقبة الصخرة والمسجد الأقصى المقابل لها تبقى فى أيدى المسلمين مع أحقية المسيحيين فى زيارتها، وكذلك "حبرون – Hebron" (الخليل). كذلك يحق للمسيحيين أن تكون لهم مزاراتهم المقدسة الأخرى فى "بيت لحم – Bethlehem" و"الناصرة – Nezareth"، مع تفاهم على أن تكون مرتبطة بالمدن المسيحية على الساحل بممر ضيق عبر ما سوف يظل أراضى إسلامية.

يوم السبت الموافق السابع عشر من مارس 1229 دخل فردريك أورشليم رسميًا،

وكان ما زال تحت الحرم الكنسى. فى اليوم التالى، وفى تحدٍّ واضح للبابا حضر قداسًا فى كنيسة "المذخر المقدس – The Holy Sepulcher" مرتديًا تاجه الإمبراطورى. كان قد حقق بالفعل كل ما يريد... فعل ذلك دون إراقة قطرة دم واحدة.. مسيحيًّا كان أو مسلمًا. كان المتوقع أن يعم الفرح المجتمع المسيحى ولكن رد الفعل كان غاضبًا. فردريك الذى كان ما زال تحت الحرم الكنسى جرؤ على أن تطأ قدمه الأراضى المسيحية المقدسة التى فاز بها بالتواطؤ مع سلطان مصر؛ أما بطريرك أورشليم الذى كان قد تجاهل الإمبراطور منذ وصوله، فكان الآن يعبر عن استيائه بوضع المدينة كلها تحت الحرم الكنسى. تم حظر الطقوس الدينية فى الكنائس؛ البارونات المحليون كانوا غاضبين لأنهم لم يستشاروا، زاد غضبهم عندما وجدوا الأراضى التى تم استعادتها فى الجليل تعطى للفرسان التيوتون[10] فى حاشية الإمبراطور، وليس لملاكها التقليديين من العائلات الكبيرة. كانوا يتساءلون: كيف يمكنهم الاحتفاظ بكل تلك الأراضى التى استحوز عليها فردريك بشكل مريب، بعد أن يكون الجيش الإمبراطورى قد عاد إلى الغرب؟!

كانت القشة الأخيرة سواء بالنسبة لرجال الدين أو العامة هى اهتمام الإمبراطور – وافتتانه – بعقيدة المسلمين وبالحضارة الإسلامية عمومًا. لقد أصر على سبيل المثال على زيارة قبة الصخرة – التى كتب دراسة تفصيلية عن معمارها[11]، وكذلك المسجد الأقصى حيث يقال: إنه عبر عن خيبة أمل شديدة لعدم سماعه الأذان. (كان السلطان قد أمر المؤذن بالسكوت علامة على الاحترام)، وكشأنه دائمًا كان يسأل كل عالم مسلم يقابله عن دينه وعمله وأسلوبه فى الحياة... وعن كل ما يعن له. كان ذلك التوجه صادمًا بالنسبة لمسيحيى الشرق اللاتينى. حتى لغة الإمبراطور العربية الفصيحة كانوا يأخذونها عليه. كانت شعبيته تنخفض مع كل يوم يمضيه فى أورشليم، وعندما تحرك للذهاب إلى عكا – ونجا بصعوبة من كمين كان قد أعده له فرسان الهيكل فى الطريق – وجد المدينة على شفا تمرد كبير.

فى ذلك الوقت كان هو أيضًا فى حالة نفسية سيئة مصدومًا بسبب الجحود الواضح من رفاقه المسيحيين رغم استعداده للعطاء قدر استطاعته. أمر جنوده بمحاصرة عكا ومنع أى شخص من الدخول أو الخروج. ضرب رجال الكنيسة الذين كانوا يعظون ضده بالفلقة. كذلك لم تتحسن حالته النفسية بسبب تقارير عن غزو مملكته الإيطالية بجيش بابوى بقيادة العجوز جون البرينى، وكان ذلك سببًا إضافيًّا لكى يغادر تلك الأراضى الجاحدة بأسرع ما يستطيع. أمر بتجهيز أسطوله لكى يبحر فى الأول من مايو. بعد فجر ذلك اليوم، وبينما كان مارًّا بحى القصابين إلى السفن المنتظرة كان الناس يرشقونه

بالنفايات. بصعوبة بالغة، استطاع جون الإيبلينى الذى كان قد جاء إلى رصيف الميناء ليكون فى وداعه - أن يعيد الهدوء للمدينة.

** ** **

بعد فترة توقف قصيرة فى قبرص، وصل الإمبراطور إلى برنديزى فى العاشر من يونيو؛ ليجد إمبراطوريته فى حالة فوضى شديدة. عدوه القديم جريجورى التاسع استغل غيابه ليشن عليه حملة شعواء، ويكتب لأمراء وكنائس أوروبا الغربية يطلب المال والعتاد للهجوم على وضع فردريك فى ألمانيا وإيطاليا. فى ألمانيا لم تترك محاولات البابا لتثبيت إمبراطور منافس فى شخص أوتو أمير برنزويك أثرًا كبيرًا؛ من ناحية أخرى قام فى إيطاليا بتنظيم غزو مسلح لطرد فردريك من الجنوب مرة أخرى وإلى الأبد؛ لكى يتم حكم المنطقة من روما مباشرة. كان القتال الضارى مستمرًا فى ذلك الوقت فى «أبروزى – Abruzzi» وحول "كابوا – Capua"، بينما كانت عدة مدن فى أبوليا – ممتلئة بعملاء البابا – قد صدقت الشائعات التى ترددت عن موت فردريك وكانت فى حالة تمرد. ولكى يشجع مدنًا أخرى لكى تحذو حذوها، أصدر جريجورى مرسومًا يعفى بموجبه كل رعايا الإمبراطور من يمين الولاء.

كان الموقف خطيرًا، ولكن منذ لحظة وصول فردريك بدأ المد يغير اتجاهه. هنا كان الإمبراطور مرة أخرى بين شعبه، لم يمت، بل ومنتصرًا بعد أن استعاد الأماكن المقدسة للعالم المسيحى دون إراقة دماء. ربما لا يكون إنجازه قد ترك انطباعًا جيدًا لدى المجتمعات المسيحية فى الشرق اللاتينى، ولكن شعب الشمال الإيطالى وصقلية كان ينظر إلى ما تحقق فى ضوء آخر. يضاف إلى ذلك أن فردريك نفسه بعودته إلى مملكته أصبح إنسانًا مختلفًا على الفور. ذهب عنه الغضب والعنف ولغة التهديد. ذهب عدم الشعور بالأمان وفقدان الفهم وعاد إلى الاتزان والسيطرة. أمضى ذلك الصيف كله فى الحملة لا يعرف التعب أو الكلل، وفى آخر أكتوبر كان الجيش البابوى قد انكسر.

إلا أن جريجورى التاسع لم ينكسر. كانت المصالحة النهائية بينهما طويلة جدًا، كانت عملية صعبة ومؤلمة. فى الشهور التالية سيقدم فردريك التنازل بعد التنازل، وكان أثناء ذلك يعرف أن البابا العنيد ما زال يحتفظ بسلاحه الأكثر تدميرًا. كان فردريك ما زال محرومًا كنسيًا: عائق جسيم، وخزى دائم، ومسئولية دبلوماسية خطيرة. وكمسيحى أيضًا – على قدر ما كان – لم يكن فردريك يريد أن يموت ملعونًا من الكنيسة. ولكن جريجورى كان مستمرًا فى المراوغة حتى يوليو 1230، عندما وافق على مضض على اتفاقية سلام – تم توقيعها فى "كبرانو – Ceprano"، فى آخر أغسطس – ورفع

حكمه. بعد شهرين كان الرجلان يتناولان العشاء معًا فى القصر البابوى فى "أناجنى – Anagni". كان العشاء، كما قد نتصور، لا بد أن يكون بعيدًا عن مشاعر المودة على الأقل فى البداية، ولكن فردريك كان يتمتع بسحر شخصى يستخدمه عندما يريد، ويبدو أن البابا كان يشعر بالرضا بحق؛ لأن الإمبراطور الرومانى المقدس تجشم مشقة زيارته بشكل غير رسمى بعيدًا عن كل مظاهر الأبهة، وهكذا انتهى أحد الصراعات الهرقلية بين إمبراطور وبابا، التى يبدو أن تاريخ العصور الوسطى يغفلها عادة.

** ** **

فى 1231 كان فردريك فى وضع يسمح له بإصدار ما أصبح يعرف بـ: "دساتير ميلفى – Constitutions of Melfi"، بعد جمع وتنظيم وتصنيف كامل للقانون على نطاق لم يحاوله أحد منذ أيام جستنيان قبل سبعة قرون. أصبح الإمبراطور يتحكم تمامًا فى القضاء الجنائى، وأنشأ هيئة من القضاة المتجولين تعمل باسمه، وقلص حريات البارونات ورجال الدين والمدن، ووضع أسس حكم حازم لا مثيل له سوى فى إنجلترا، مع تمثيل مماثل للنبلاء ورجال الكنيسة والمواطنين.

الحقيقة أن "ريجنو – Regno" (كما كانت تعرف مملكة صقلية) كانت الأقل إزعاجًا من بين كل ممتلكاته. كان قد ولد هناك وكان يعرف كل شبر منها ويفهم شعبها. كانت الأمور مختلفة فى المنطقتين الأخريين الكبيرتين الخاضعتين لحكمه: الشمال الإيطالى وألمانيا؛ حيث كانت القوة الإمبراطورية – التى لم يكن لها أساس قوى مثل ذلك الذى كانت إنجلترا وفرنسا ترسخه بفضل عروشها المتوارثة – قد انهارت بشكل كبير على مدى السنوات المائة السابقة. فى الشمال الإيطالى، على نحو خاص، كانت المدن والبلدات الكبيرة فى لمبارديا شوكة دائمة فى خاصرة الأباطرة المتوالين – لم يعان منهم أكثر من بربروسا جد فردريك، الذى كان قد لقى شر هزيمة فى "ليجنانو – Legna-no" قبل أكثر من نصف القرن بقليل. للمحافظة على استقلالها، كانت سياساتهم الأكثر نجاحًا دائمًا هى الوقيعة بين البابا والإمبراطور واللعب على هذا الوتر. أخبار المصالحة التى تمت فى 1230 أصابتهم بالفزع. كان قد تم إحياء الرابطة اللمباردية Lombard League على عجل، وكان أعضاؤها ينظمون صفوفهم ضد الخطر القادم.

كانوا محقين فى ذلك. لو أن فردريك كان على استعداد لتقسيم إمبراطوريته، مخصصًا ألمانيا لنفسه وإيطاليا لابنه هنرى – أو حتى فعل العكس – كان لا بد من أن يترك الشمال الإيطالى لرغبته الخاصة، إلا أن ذلك لم يكن توجه الإمبراطور. ولأنه كان مصرًّا على أن يحكم المنطقتين بنفسه، كان يعرف أن طريقًا آمنة بينهما ضرورة، كما كان هناك

سبب آخر. بالنسبة له كانت إيطاليا دائمًا أهم من ألمانيا. إنها فى النهاية الإمبراطورية الرومانية المقدسة وليست ألمانيا المقدسة. كانت عاصمتها روما، ولا بد من أن ينقلها إلى روما مرة أخرى.

كخطوة أولى نحو تحقيق هذا الهدف، قام الإمبراطور باستدعاء ابنه هنرى وكل الأمراء الألمان الكبار وممثلى المدن الكبرى فى الشمال الإيطالى لمجلس "رافينا – Ravenna" يوم "عيد جميع القديسين – All Saints' Day" الموافق الأول من نوفمبر 1231. بذل كل ما فى وسعه لكى يزيل مخاوف اللمبارد. تعهد بألا يأتى معه بأى حراسة عسكرية، حاشية شخصية فحسب، وأن تتم كل الإجراءات "على شرف الرب والكنيسة والإمبراطورية وصالح لمبارديا". كان بلا أى شك يعنى كل كلمة ولكن علامات الخطر ما كانت لتخفى على اللمبارد. لم يكونوا يريدونه، ولا يريدون جماعة من البارونات الألمان المشاكسين. قاموا على الفور بإغلاق ممرات الألب. لم يكن ذلك الإجراء ناجحًا تمامًا، (تمكن كثير من المندوبين من الدوران حول الحصار وشقوا طريقهم عبر مسار شرقى يمر بـ "فريولى – Friulii") ولكن المجلس تأخر نحو شهرين. على الرغم من ذلك احتفلت الوفود بعيد الميلاد، وأقاموا العروض بما فى ذلك عرض مجموعة حيوانات الإمبراطور الشهيرة التى كانت ترافقه فى كل أسفاره، بما فيها من الصقور الفريدة والأسود والفهود والجمال والقردة والنسانيس... وفيل، كان تأثيره على المزارعين المحليين يفوق الخيال. كان فردريك ماهرًا فى التباهى ويحبه. كان يدرك أن هناك مندوبًا غائبًا، هذا المندوب وهو الأهم كان ابنه هنرى ملك الرومان. لم يكن هنرى قد أرسل أى تفسير لغيابه – ناهيك عن اعتذاره – وسرعان ما اتضح أنه لم يحاول حتى الاستجابة لاستدعاء والده.

ربما كان السبب مجرد ارتباك. ليس هذا هو المكان لمناقشة الإدارة الإمبراطورية فى ألمانيا، يكفى القول: إن هنرى كان قد ترك بواسطة والده كصاحب لقب فخرى وهو فى الثامنة؛ ومن ثم عندما بلغ سن الرشد فى الثامنة عشرة لم يكن يشعر بكثير من الحب والولاء نحو أب لا يربطه به سوى ذكريات شاحبة من الطفولة. وباتباعه سياسة مواجهة مع الأمراء الألمان عكس تلك التى كان يتبعها فردريك، نجح فى استعدائهم عليه، ولذا عندما بلغ السيل الزبى فى 1231، انتزعوا منه سلسلة كاملة من الحقوق والمزايا فأضعفوا القوة الإمبراطورية فى ألمانيا.

وهو فى حالة غضب شديد، ودعا فردريك لمجلس آخر فى الصيف التالى فى "أكيليا – Aquilea"، موضحًا أن ابنه سوف يتجاهل الدعوة ويعرض نفسه للتهلكة. هذه

المرة لم يجرؤ هنرى على العصيان واضطر للقسم على أنه من الآن فصاعدًا سوف يدافع عن موقف وحقوق الإمبراطور، وقام بطرد المستشارين الذين كانوا قد شجعوه على سياساته الكارثية السابقة. ولكن إذا كان فردريك قد تصور أنه بابن مطيع وأمراء مستعدين للمساعدة يمكنه أن يخضع لمبارديا، فلا بد أن يكون قد أخطأ. معظم السنوات التسع عشرة الأخيرة من حياته ما كان ليقضيها فى حروب فى أرجاء شبه الجزيرة الإيطالية محاولًا بقوة، كما حاول جده من قبل، ترسيخ سلطانه. كان هناك على أية حال فارق كبير مهم بينهما. كان فردريك بربروسا ألمانيًّا قلبًا وقالبًا، إمبراطوريته كانت إمبراطورية ألمانية، أما بالنسبة لفردريك الثانى فقد كانت إيطاليا تأتى أولًا دائمًا، وبالرغم من المصالحة العارضة المؤقتة، فإن ذلك كان يضمن عداء البابا الذى كان يشعر أنه مضغوط بين المنطقتين الإمبراطوريتين: لمبارديا وريجنو.

على مدى تلك السنوات الأخيرة، كان هناك عدد كبير من الشخصيات القيادية لا بد من استبدالهم. هنرى، ملك الرومان أزيح عن العرش فى 1235 بعد عدة بوادر تدل على عدم الطاعة، ليخلفه بعد عامين أخوه غير الشقيق: كونراد.

فى ذلك العام نفسه، تزوج فردريك مرة أخرى، وستكون زوجته الثالثة هذه المرة هى "إيزابيلا – Isabella" شقيقة هنرى الثالث ملك إنجلترا. البابا جريجورى، بعد أن حرم فردريك كنسيًّا مرة أخرى فى 1239 مات فى 1241. ولو أن خليفته – العجوز البائس "سيلستين الرابع – Celestine IV" – كان قد بقى على قيد الحياة، فلربما كانت متاعب فردريك قد انتهت، ولكن بعد سبعة عشر يومًا تبع سليستين البابا جريجورى إلى العالم الآخر. على مدى العام ونصف العام التاليين، وبينما كان الإمبراطور يجهز أسطولًا ضخمًا ليبحر به ضد چنوة وڤينيسيا، كان فى نفس الوقت يبذل كل جهده ليسيطر على الانتخاب القادم... ولكن دون جدوى، فالكاردينال الچنوى "سينيبالدو دى فيشى – Sinibaldo dei Fieschie"، الذى أصبح إنوسنت الرابع فى يونيو 1243، ثبت أنه كان أكثر عداء من جريجورى. بعد عامين فحسب من توليه المنصب، وفى مجلس عام فى "ليون – Lyons"، أعلن عزل فردريك الذى كان محرومًا كنسيًّا، وتم تجريده من كل ألقابه ومناصبه.

إلا أن الأباطرة لا يلقى بهم بمثل هذه السهولة. كان اسم عائلة "هوهنشتوفن – Hohenstaufen" ما زال يحتفظ بمكانة رفيعة فى ألمانيا، بينما كانت جولات فردريك التى لا حصر لها قد حققت له سمعة رفيعة، لدرجة أنه كان يبدو كلى الحضور وكأنه جزء من الحياة نفسها. تجاهل القرارات البابوية بكل كبرياء وواصل الصراع، كان ما زال

مستمرًا فى ذلك عندما دهمته أزمة ديزنطاريا مفاجئة فى ديسمبر 1250 فى "كاستل فيورنتينو – Castle Fiorentino" فى أبوليا. مات بعد أيام قليلة، وكان ذلك يوم الثلاثاء الثالث عشر من ديسمبر، قبل عيد ميلاده السادس والخمسين بثلاثة عشر يومًا. حتمًا، كانت هناك شائعات عن سم ولكن لم يكن هناك دليل على ذلك. تم نقل جثمانه إلى باليرمو حيث دفن فى الكاتدرائية بناء على رغبته، وفى التابوت الحجرى السماقى الرائع الذى كان قد أعد لجده روچر الثانى فى مؤسسته فى «سيفالو – Cefalù»، وبقى غير مستخدم.

** ** **

كان فردريك قد سمى كونراد - ابن يولاند ملكة أورشليم - وريثًا له فى ألمانيا وريجنو، وأثناء غياب كونراد فى ألمانيا كان قد عهد بحكم إيطاليا وصقلية لـ "مانفريد – Manfred" الابن المفضل بين أبنائه الإحدى عشر غير الشرعيين. أثبت مانفريد أنه كان سليلًا جديرًا بوالده. أعاد إحياء بلاط فردريك الرائع وأنشأ ميناء مانفريدونيا الرائع فى أبوليا، وزوج ابنته "هيلينا – Helena" لمايكل الثانى حاكم إيبيروس، وهو التحالف الذى أكسبه جزيرة كورفو ومساحة كبيرة من الأراضى ممتدة على الساحل الألبانى، تضم مدينة (وميناء) "دورازو – Durazzo" التاريخية، كما أصبحت ابنته الثانية "كونستانس – Constance" زوجًا لـ «بيتر – Peter»، وريث عرش أراجون.

حتى بعد وفاة أخيه غير الشقيق كونراد فى 1254، لم يسع مانفريد للسيطرة على شمال أو وسط إيطاليا؛ الأمر الذى كان يسبب ارتياحًا شديدًا للبابا. إلا أن سلطته المتزايدة فى الجنوب أثارت القلق فى روما، وزادت المخاوف عندما ضغط على جماعة البارونات فى صقلية فى أغسطس 1258 لكى يعلنوه ملكًا. منذ خلع فردريك وإبعاده نظريًا فى 1245، كان البابا إنوسنت يبحث عن "بطل مسيحى" يمكن أن يخلص الشمال الإيطالى مرة وإلى الأبد من كل آل هوهنشتوفن، ويقود جيش الكنيسة إلى النصر فى شبه الجزيرة. فى مرحلة معينة كان "ريتشارد إيرل كورنول – Richard Earl of Corn-wall"، شقيق هنرى الثالث وأغنى أغنياء إنجلترا (كان قد انتخب ملكًا على الرومان فى 1257) كان يبدو الشخص المناسب للاضطلاع بالمهمة، ولكن إنوسنت لم يتمكن من إقناعه بقبول التحدى، وعندما مات البابا فى 1261، ليخلفه "أوربان الرابع – Urban IV" (أول فرنسى يشغل العرش البابوى)، كان ما زال يحاول أن يجد المرشح المناسب. ووقعت عينا أوربان على مواطنه "شارل الأنچوى – Charles of Anjou".

شارل هو شقيق لويس التاسع، وكان آنذاك فى الخامسة والثلاثين. فى 1246، كان قد حصل عن طريق زوجته على مقاطعة "پروڤنس – Provence"، التى جلبت له ثروة

طائلة بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة، كما أنه كان مديرًا لميناء مرسيليا المزدهر. كان البابا يقدم الآن لهذا الشخص الطموح.. الانتهازى البارد.. القاسى.. فرصة لا بد من اهتبالها. كان لا بد من أن يكون الجيش الذى سيقوده شارل ضد مانفريد، والذى كان قد بدأ يتجمع فى الشمال الإيطالى فى خريف 1265، كان لا بد من أن يكون حملة بالمعنى الرسمى؛ أى أن يكون – كالعادة – جماعة مختلطة من المزيج المعتاد: من المغامرين الذين يأملون فى الحصول على إقطاعيات فى الشمال الإيطالى، من الحجاج الذين يرجون الغفران لخطاياهم، من قطاع الطرق الذاهبين للسلب والنهب ليس إلا. كان معهم – برغم ذلك – عدد من الفرسان من كل أرجاء أوروبا الغربية: فرنسيون وإسبان وطليان وبروڤنسال... كما زج بعدد قليل من الإنجليز، وكان شارل يعتقد أنهم سيكونون أكثر من ند لأى شىء قد يلقى به مانفريد ضدهم.

فى السادس من يناير 1266 توج البابا أوربان شارل الأنجوى بتاج صقلية، وبعد أقل من شهر عبر جيش شارل الحدود فى الثالث من فبراير ودخل ريجنو. لم تكن هناك حملة طويلة هذه المرة. التقى الجيشان يوم السادس والعشرين خارج المدينة الرومانية القديمة "بنيڤنتو – Benevento" وانتهى كل شىء بسرعة. مانفريد شجاع كعهده دائمًا، صمد وقاتل، ولكن جنوده الذين كانوا أقل عددًا سرعان ما فروا من الميدان. كانت المعركة حاسمة: انتهت الحملة، وكذلك انتهى – تقريبًا – بيت آل هوهنشتوفن. بعد عامين، قام كونراد الرابع، ابن الملك كونراد، (المعروف بـ"كونراندين – Conrandin") والأمير "هنرى القشتالى – Henry of Castile"، قاما بمحاولة أخيرة لإنقاذ الموقف، فقادا جيشًا من الألمان والطليان والإسبان إلى ريجنو. أسرع شارل وقابلهم عند حدود قرية "تاجلياكوزو – Tagliacozzo". هذه المرة، كانت المعركة التى وقعت فى الثالث والعشرين من أغسطس 1268 أكثر صعوبة ونتج عنها مذابح رهيبة فى كلا الجانبين، وفى النهاية كان النصر مرة أخرى من نصيب "الأنجويين – The Angevins". هرب كونراد من الميدان ليقع فى الأسر بعد وقت قصير. بعد ذلك كانت هناك محاكمة صورية فى نابولى. فى التاسع والعشرين من أكتوبر تم اقتياد الأمير الصغير (كان فى السادسة عشرة) وعدد كبير من رفاقه إلى ساحة السوق حيث قطعت رؤوسهم فورًا.

كان مانفريد وكونراندين أبطالًا... كل على طريقته. لم يكن ذنبهما أن الأب والجد كانا قد ألقيا بظلهما عليهما فحجبا صورتيهما... هكذا كان الكثير من العالم المعروف. كانت إجادة ست لغات إنجازًا نادرًا فى القرن الثالث عشر، أكثر مما هو اليوم. أضف إلى ذلك أن فردريك كان شاعرًا غنائيًا شديد الحساسية، وفى بلاطه تم اختراع "السونيتة[12] – The Sonnet". كان راعيًا كريمًا للفنون ورجل دولة ماهرًا وأعظم علماء التاريخ الطبيعى فى زمنه. حب الاستطلاع الفكرى وفر له معرفة كبيرة بالفلك والهندسة والجبر

والطب والعلوم الطبيعية. كان من أبرز صفاته كذلك موهبته الكبيرة فى فن الاستعراض. قوة شخصيته وما لها من سحر خاص تؤكد أنه كان يترك أثرًا فى كل من له صلة به، إلا أنه كان قادرًا على بناء صورة ذهنية أبعد من ذلك بكثير، بتلك المجموعة النادرة من الوحوش... بمجموعته الشخصية من المسلمين.. حتى بمجموعة حريمه. كان الأمران الأخيران (المسلمون والحريم) مما يأخذه عليه أعداؤه دائمًا، إلا أنهما كانا يحملان رسالة واضحة: الإمبراطور ليس كغيره من الرجال... كان عملاقًا، نصف إله، لا يمكن أن تنطبق عليه قواعد السلوك المعروفة.

بكلمة واحدة، كان له أسلوبه، وقد كان الأسلوب دائمًا ومثلما هو اليوم خصيصة إيطالية. ربما كان فردريك أحد الأوائل - وما أقلهم فى التاريخ! - الذين وضعوا قدمًا فى كلا العالمين الإيطالى والألمانى، والذين كانوا يشعرون بالاطمئنان على كلا جانبى الألب. إلا أن قلبه ظل فى إيطاليا حيث أمضى معظم حياته، ولعله يجد مكانه هنا – فى هذا الكتاب – كإيطالى ثقافيًا أعطى البلاد الكثير ولو لم يفر التروبادور[13] البروفنسال من فظائع الحملة الألبيچسية ليجدوا ملاذًا دافئًا فى بلاط پاليرمو، ويلهموا الشعراء المحليين بقصائد الحب - فلربما كان الأدب الإيطالى قد اتخذ مسارًا مختلفًا، ولما كانت «الكوميديا الإلهية». فى مجال العمارة كذلك، كان فردريك مبدعًا. المدخل الحصين الهائل لمدينته الحدودية «كاپوا – Capua»، الذى شيده للدفاع عن جسرها على نهر "ڤالتورنو – Vulturno"، والذى قام بتصميمه بنفسه - لم يعد له وجود، إلا أن الكثير من منحوتاته ما زال محفوظًا فى المتحف المحلى، ويتضح منه أن الإمبراطور كان يعتمد لغة الديكور فى روما القديمة، وهى التى كانت إرهاصًا بالنهضة قبل قرون من حدوثها. المثلثات الكلاسيكية التى تعلو واجهات المبانى، الأعمدة ذات التيجان والقواعد الناتئة من الجدران... كل ذلك موجود فى استراحة الصيد فى "كاستل ديل مونتى – Castel del Monte"، ذلك المبنى الواسع ثمانى الأضلاع المشيد من الحجر الجيرى، الذى يتوج قمة أحد تلال أبوليا. لكن... لعلنا مخطئون فى شعورنا بالدهشة؛ حيث إن فردريك فى آخر الأمر إمبراطور رومانى... وكان مصرًا على ضرورة ألا ننسى ذلك.

إلا أنه كان فاشلًا من الناحية السياسية. كان حلمه أن يجعل من إيطاليا وصقلية مملكة متحدة داخل الإمبراطورية، عاصمتها روما، إلا أن الأهداف الملحة للبابوية التى كانت تدعمها مدن وبلدات لمبارديا، كل ذلك كان ليؤكد استحالة تحقيق هذا الحلم. كان من سوء حظ الإمبراطور أن ينافس اثنين من القادرين الذين كلهم إصرار مثل جريجورى وإنوسنت، إلا أن الصراع لم يكن له نتيجة أخرى على المدى الطويل. كانت الإمبراطورية قد فقدت قوتها وتماسكها حتى فى ألمانيا، ولم يعد بالإمكان التعويل على ولاء الأمراء الألمان. أما بالنسبة للشمال الإيطالى، فلن تخضع المدن اللمباردية مرة

أخرى للتهديد الإمبراطورى. لو أن فردريك قبل بهذه الحقيقة فقط لكان الخطر قد زال عن البابوية... ولبقيت ريجنو التى كان يحبها. من أسف أنه رفض ذلك، وبذلك لم يفقد إيطاليا فحسب، بل إنه وقع شهادة وفاة سلالته.

هوامش الفصل التاسع

(1) انظر الفصل التاسع.
(2) عن فن الصيد بالطيور: De Arte Venandi cum Avibus
(3) الفصائل السياسية التابعة لـ "جويلف – Guelf" و"غيبللين – Ghibelline" التى كان أن سيطرت على السياسة الإيطالية على مدى قرنين تقريبًا، وهى تستمد أسماءها من العشيرتين الألمانيتين العظيمتين: بيت ولف Welf وبيت ويبلنجن Waiblingen (أو شتوفن – Staufen). بمرور الزمن أصبحا مرتبطين بالبيوت البابوية والإمبراطورية على التوالى.
(4) انظر الفصل السادس.
(5) الحملة الألبيچنسية – Albegensian Crusade
(6) تعرف كذلك باسم "إيزابيلا – Isabella" ولكننا سنبقى عليها فى هذا الكتاب باسم يولاند، حتى لا يكون خلط بينها وبين إيزابيلا الإنجليزية زوجة فردريك الثالثة.
(7) حتى آنذاك لم يكن الأمر قد انتهى بالنسبة له. فى 1224، وهو فى منتصف العقد السابع من العمر، أصبح وصيًّا مرة أخرى فى إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية، عندما تزوج الإمبراطور الطفل بلدوين الثانى "ماريا" ابنة چون البالغة من العمر أربع سنوات. هذه المرة حمل ذلك الشرس العجوز لقب "إمبراطور" وليس لقب «ملك». وهو اللقب الذى ظل محتفظًا به حتى وفاته فى 1237.
(8) كان ذلك نذير شؤم أو فألًا غير حسن، فقد كان "جريجورى السابع – Gregory VII" – الكاردينال المرعب هيلد براند Hildebrand – هو الذى ركع عم هنرى الكبير فى كونسا قبل مائة وخمسين عامًا بالضبط.
(9) انظر الفصل السابع.
(10) من بين التشكيلات العسكرية الثلاث فرسان الهيكل والإسپتارية وفرسان التيوتون، كانت الأخيرة هى الأحدث؛ لأنها لم تشكل إلا فى زمن الحملة الصليبية الثالثة، وكانت هى الأخرى قد بدأت بمستشفى فى الأراضى المقدسة، ولكن اعتبارًا من 1230 أصبحت مرتبطة بغزو بروسيا وأراضى البلطيق.
(11) يقال: إن منتجع الصيد الرائع الذى بناه فى أبوليا المعروف باسم "كاستل ديلمونتى Castel del Monte قد بنى على نموذج شكلها المثمن، وهو قول مقنع.
(12) قصيدة غنائية مكونة من أربعة عشر بيتًا (المترجم).
الاحتمال الأكبر أن يكون ذلك قد تم على يد الصقلى چياكومو دا لنتينى Giacomo da Lentini، الذى وصلنا نحو خمسة وعشرين من سونيتاته. (المؤلف).
(13) Troubadors – طبقة من الشعراء الغنائيين "والشعراء الموسيقيين"، الذين اشتهروا فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا، من القرن الحادى عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر للميلاد. (المترجم).

الفصل العاشر

نهاية الشرق اللاتينى

• حملة لويس التاسع الأولى • الحملة السادسة: 1250 • القبيلة الذهبية: 1254
• عين جالوت: 1260 • لويس التاسع يعود إلى فرنسا: 1254 • الهلال منتصرًا: 1270 • أجراس صقلية: 1282 • اللامبالاة المسيحية: 1291 • سقوط عكا: 1291

لا يوجد اختلاف بين اثنين من حكام أوروبا المعاصرين أكثر مما هو بين الإمبراطور فردريك الثانى ولويس التاسع ملك فرنسا. كان فردريك مثقفًا ومفكرًا حرًّا. لم يكن لديه احترام كبير للدين، والحقيقة أنه أمضى شطرًا كبيرًا من حياته تحت الحرم الكنسى. صحيح أنه كان يبدى بعض التشدد أحيانًا مع المهرطقين وبخاصة عندما كانوا يهددون سلام وأمن الإمبراطورية، إلا أنه كان فى الوقت نفسه قد شب فى بلاط پاليرمو بين العرب واليونانيين، وكان يُكِنُّ احترامًا شديدًا وفهمًا عميقًا لكل من الإسلام والأرثوذوكسية الشرقية، ولم يكن يجد متعة ذهنية أكبر من مناقشة أدق القضايا اللاهوتية مع علماء من العقيدتين. كرجل دولة، لم يكن له مبدأ معين، ولكنه كان براجماتيًّا فى الوقت نفسه، وكان يعرف جيدًا أنه إن كان له ولإمبراطوريته أن يظلا موجودين، فإن الضمير النقى لن يكون صالحًا لذلك. فى مظهره لم يكن وسيمًا مطلقًا: كان عريض المنكبين، قصيرًا، ممتلئ الجسم، شعر رأسه قليل يميل إلى الحمرة. أما من الناحية الجسدية فكان صلبًا... مثل المسامير!

فى الناحية الأخرى، كان لويس التاسع قديسًا... وكان ذلك يبدو مناسبًا له. يصفه أحد الرهبان المعاصرين، كان قد رآه قبل أن يغادر إلى الأراضى المقدسة فيقول: «رفيع... نحيل.. مهزول، طويل القامة، له سيماء ملائكية وشخصية سمحة». أحيانًا كانت تشوه وجهه، تحت شعره الأشقر، علامات غضب بسبب حمرة مرض جلدى ظل يعانى منه طيلة حياته، وبالرغم من ذلك كان وجهه يشع طيبة. أما السير «ستيڤن رانسمان — Steven Runciman» فيكتب قائلًا: قليل من البشر كانوا فضلاء على هذا المستوى، إلا أن الغريب أنه لم يكن هناك تظاهر بالتقوى، كان لويس على العكس مملوءًا بالحيوية، شجاعًا فى القتال، صارمًا وحاسمًا عند الضرورة. أمضى معظم حياته المتسمة بالوعى واليقظة فى الصلاة، وغالبًا منبطحًا على الأرض ناسيًا نفسه تمامًا لكى يعود مشدوهًا، ذاهلًا عن مكانه، إلا أنه — كما كان هو نفسه يعترف — لم يكن لديه دموع "لكى يروى جدب قلبه". ربما كان ذلك أحد أسباب كبح شهوات الجسد بالصوم بشكل منتظم، والعناية الشخصية بالمرضى، وبخاصة أولئك الذين كانوا يعانون من أمراض خطرة. بالنسبة للخطيئة فهو لا يمكن تصور وجودها. كان عديم الشفقة مع المهرطقين وغير المؤمنين، وما كان بالإمكان أن يستعيد الأماكن المقدسة دون إراقة دماء، كما فعل فردريك على نحو رائع.

وهو مصاب بشدة بالملاريا فى أواخر العام 1244، أخذ الملك الذى كان فى الثلاثين من العمر آنذاك عهدًا على نفسه، وهو أنه فى حال بقائه على قيد الحياة ليقومن بقيادة حملة صليبية. كان عند كلمته دائمًا، وفور شفائه بدأ استعداداته. استمرت الاستعدادات ثلاث سنوات ولكن فى الخامس والعشرين من أغسطس 1248، ترك أمه "بلانش القشتالية[1] – Blanch of Castile" كوصية على العرش، وأبحر من ميناء "أيجيوس مورتس – Aigues Mortes" الذى كان قد شيد خصيصى لهذا الغرض، تصحبه زوجته "مارجريت البروڤنسية[2] – Margaret of Province" واثنان من أشقائه الثلاثة: "روبرت آرتوا – Robert of Artois" و"شارل الأنجوى – Charles of Anjou"؛ وفى الثامن عشر من سبتمبر رسوا فى ليماسول فى قبرص، المكان المحدد للقاء جيش الحملة؛ حيث عكف لويس على التخطيط لحملته. بالرغم من كارثة الحملة الخامسة، كان هناك إجماع على أن تكون مصر هى الهدف مرة أخرى، فهى الإقليم الأغنى والأكثر تعرضًا للهجوم فى إمبراطورية صلاح الدين. لسوء الحظ لم يكن الوقت مناسبًا لبدء العمليات فورًا – لم يكن بالإمكان اجتياز الممرات القريبة من النيل إلا فى حالة هدوء الطقس – ومع قدوم الربيع ظهرت مشكلة أخرى: نقص حاد فى عدد السفن. كان لويس قد اعتمد على الجمهوريات الإيطالية البحرية لتجهيز العدد اللازم منها، ولكن عندما جاءت اللحظة كانت بيزا وجنوة فى حالة حرب، وفى حاجة إلى كل السفن التى يمكن أن تحصلا عليها، بينما رفض الڤينيسيون تقديم أى شىء لأنهم كانوا رافضين للحملة كلها. كان فى مايو 1249 فقط أن استطاع الملك تدبير وسائل الانتقال اللازمة، حتى آنذاك هبت عاصفة شديدة بعثرت الجزء الأول الذى أبحر من الأسطول واضطرته للعودة – بصعوبة – إلى ليماسول.

تحسن الوضع بعد ذلك، وفجر الخامس من يونيو، أمام مواجهة شديدة، رسا الصليبيون على الرمال غربى مصر. كان القتال طويلًا وضاريًا، ولكن الانضباط الفائق للفرسان الفرنسيين حقق الانتصار فى ذلك اليوم، وعندما هبط الليل انسحب الجيش المصرى على جسر العوامات الدائم إلى دمياط. عند وصوله، صدر الأمر بالإخلاء التام وأطاع المسلمون الأمر، أما من بقى من الأقباط المسيحيين، فأبلغوا أن المقاومة كانت قد انتهت، فتقدم الصليبيون منتصرين على الجسر – الذى كان قد بقى سليمًا على غير المتوقع – ثم إلى داخل المدينة. كان ذلك كله على عكس ما حدث فى الحملة الخامسة التى كانت قد حققت نتائج مشابهة ولكن بعد حصار دام سبعة عشر شهرًا. ومثلما حدث فى 1219، تم تحويل المسجد الجامع إلى كاتدرائية، واستقرت التشكيلات العسكرية الرئيسية الثلاثة (فرسان الهيكل والإسبتارية والفرسان التيوتون) فى أماكن إيواء مريحة، كما خصص

لكل من أبناء جنوة وبيزا – ولأبناء فينيسيا كذلك (وهذا هو الأكثر مدعاة للاستغراب) شارعًا وسوقًا. أصبحت دمياط، باختصار، العاصمة الفعلية للشرق اللاتيني.

إلا أنه سرعان ما بدأت المشكلات فى الظهور. كان فيضان النيل السنوى وشيكًا. ولأن لويس كان يعى تجربة الحملة الخامسة، أصر على عدم التقدم إلا بعد انحسار الماء، وهو ما يعنى أن جيشه كان عليه أن يبقى خاملًا أثناء قيظ الصيف كله. بدأت مؤن الطعام فى النفاد وظهرت الديزنطاريا والملاريا فى المعسكر؛ ومثل أبيه من قبل عرض سلطان مصر الأيوبى – الذى كان يموت من السل – من على فراش مرضه مبادلة دمياط بأورشليم ولكن العرض رفض فورًا: رفض الملك لويس التعامل مع كافر بالمسيحية. وبعد انحسار الفيضان فى آخر أكتوبر أصدر الملك أوامره بالتقدم نحو القاهرة.

لم يكد الجيش يقطع ثلث المسافة إلى العاصمة تقريبًا، حتى وجد نفسه فى مواجهة جيش المسلمين عند المنصورة، وهى مدينة كان السلطان قد شيدها قبل سنوات قليلة فى موقع انتصاره على الحملة الخامسة. ثم كانت كارثة، وكانت الكارثة فى جملتها غلطة الكونت "روبير أرتوا – Robert of Artois". كان قد تحدى تعليمات أخيه الصارمة بعدم القيام بالهجوم إلا عندما يتلقى الأمر بذلك، وقام يتبعه فرسان الهيكل وفرقة صغيرة من إنجلترا بالهجوم على المعسكر المصرى؛ ليفاجئ من فيه ويذبح عددًا كبيرًا منهم ويجبر من بقى على الفرار. لو أنه كان قد توقف عند ذاك الحد، فلربما كانت قد سارت الأمور على ما يرام، ولكن المعسكر كان يبعد عن المنصورة نفسها نحو ميلين تقريبًا، فاندفع بقواته – مزهوًا بالانتصار – ليدخل المدينة. هذه المرة كان المصريون مستعدين له. كانت أبواب المدينة مشرعة، ووجد روبير ومن معه الطريق سالكة حتى أسوار القلعة. هنا فقط ظهر المدافعون وانقضوا عليهم من الشوارع الجانبية، غلقت الأبواب، وكانت مذبحة. روبير نفسه لقى حتفه مع معظم فرسانه، وكذلك كل الإنجليز تقريبًا، أما فرسان الهيكل المائتان والتسعون فلم يتبق منهم على قيد الحياة سوى خمسة.

لم تضع هذه الكارثة نهاية حاسمة للحملة. فى بداية أبريل 1250 فحسب، عندما كانت الديزنطاريا والتيفود يفتكان برجاله أكثر مما يحدثه المصريون بهم، كان أن قرر لويس العودة. الآن، كان هو الذى يعرض مبادلة دمياط بأورشليم، ولكن السلطان توران شاه – وكان قد خلف أباه أيوب قبل نحو ثلاثة أشهر – لم يكن مهتمًا بالأمر. كانت رحلة العودة كابوسًا لمن كان يستطيع أن يركب حصانًا أو يمشى على قدميه، أما سلوك الملك نفسه فكان أكثر من رائع وخاصة أنه كان مريضًا، وبشدة. وأخيرًا عندما وجد قائد حرسه الشخصى أنه لم يكن يستطيع السير أكثر من ذلك، أخذه إلى منزل قريب، ولكن سرعان

ما اكتشف المصريون مكانه فأخذوه مقيدًا إلى المنصورة؛ حيث تماثل للشفاء ببطء. كان فرسانه وجنوده يستسلمون جماعات ويتم اقتيادهم للأسر... ومن أسف أنهم كانوا سيئ الحظ. عندما وجد المصريون عددهم كبيرًا ومن الصعب حراستهم، قاموا بإعدام من لا يستطيع المشى منهم، أما الباقون فقطعت رؤوسهم فى غضون الأسبوع التالى... بمعدل ثلاثين رأس فى اليوم. لم يبقوا على أحد سوى كبار البارونات، ربما على أمل الحصول على فدية كبيرة.

وبالفعل، حصلوا على فدية. إلى جانب عودة دمياط نفسها، التى دفعت مقابل حرية الملك، تم الاتفاق على أن يتسلم المصريون مبلغ نصف مليون "جنيه تورى[3] – Livre Tournois" مقابل الباقين. كانت صفقة صعبة، وما كانت لتتم لولا الملكة مارجريت. فى أواخر مراحل الحمل، كانت قد بقيت فى دمياط؛ حيث وضعت مولودها بسلام – بمساعدة أحد الفرسان الذى قام بدور القابلة، وكان فى العقد التاسع من العمر – بعد ثلاثة أيام فقط من تلقيها خبر الاستسلام. أطلقت على وليدها اسم "جون تريستا – John Tristan" (أى طفل الأحزان). ثم كانت ضربة مزدوجة: كان الخبر بأن مخزون الغذاء كان قد بدأ فى النفاد بسرعة وأن أبناء بيزا وأبناء جنوة كانوا قد بدأوا يغادرون المدينة. قامت مارجريت باستدعاء قادتهم إلى جوار فراشها؛ لتتوسل إليهم أن يبقوا، مشيرة إلى أنها لن تستطيع الإبقاء على دمياط بدونهم، وفى حال سقوطها لن يكون لديها ما يمكن أن تفدى به زوجها. لم يوافقوا على البقاء إلا بعد أن عرضت شراء كل ما تبقى فى المدينة من غذاء، وجعلت نفسها مسئولة عن توزيعه. كانت التكلفة باهظة ولكن دمياط نجت إلى أن تم تدبير الفدية. فى آخر الأمر تم تسليمها فى السادس من مايو 1250، ودفع فرسان الهيكل بقية المبلغ فيما بعد على مضض. بعد أسبوع، أقلع لويس ومن كانوا يستطيعون المشى إلى عكا. أما المرضى بشدة والجرحى ومن لا يستطيعون السفر، فبقوا فى دمياط على وعد بتوفير رعاية جيدة لهم. بمجرد أن غادرت السفن الميناء، تم إعدام الجميع.

خلقت الحملة الصليبية السادسة الفاشلة حالة من الفوران فى العالم الإسلامى. كان معظم القوة الإسلامية المحاربة من المماليك، مجموعة كبيرة من الجند غالبيتهم من الچيورچيين أو الشراكسة الذين تم شراؤهم عبيدًا وهم أطفال فى القوقاز وتم تدريبهم كخيالة. كانت قوتهم ونفوذهم تتزايد باضطراد إبان حكم السلطان أيوب، وبعد وفاته فى نوفمبر 1249 حاول توران شاه أن يحجم قوتهم. كانت غلطة فادحة. فى الثانى من مايو 1250، كان يقيم مأدبة لأمرائه، وما أن هم بمغادرة المكان حتى اقتحمت القاعة مجموعة من المماليك وهجمت عليه. أصيب بجروح بالغة ولكنه تمكن من الفرار وألقى بنفسه فى

النيل، ولكن قائدًا مملوكيًا يدعى بيبرس تبعه ليجهز عليه، ومعه انتهت الأسرة الأيوبية.

الآن، أصبح المماليك هم الأعلى سلطة. تزوج قائدهم عز الدين أيبك من أرملة أيوب، ليسبغ على وضعه الصفة الشرعية ويعلن نفسه سلطانًا. إلا أن الزواج لم يكن ناجحًا من البداية، فى أبريل 1257 قامت السلطانة برشوة حرسه الخاص ليقتلوه فى الحمام – وهو الفعل الذى كان لا بد أن تندم عليه عندما ضربوها بالقباقيب حتى الموت بعد سبعة عشر يومًا. خلف أيبك ابنه البالغ من العمر خمسة عشر عامًا، وتم خلعه بدوره فى 1259 ليحل محله صفى الدين قطز. كان مقدرًا لقطز كذلك أن يحكم أقل من عام، إلا أنه أثناء تلك الفترة القصيرة، كما سنرى بعد قليل، كان أن حقق أحد أهم الانتصارات فى تاريخ الإسلام، وهو الانتصار الذى أنقذ العقيدة الإسلامية من الانطفاء شرقى المتوسط.

بحلول الربع الثالث من القرن الثالث عشر، لم يبد مسيحيو الشرق اللاتينى دليلًا كافيًا يعبر عن الروح الصليبية التى كانت وراء ميلاد مملكتهم: لم يعد الكثير منهم يفكر جديًا فى استعادة الأماكن المقدسة، ولكنهم كانوا ما زالوا يسيطرون على كل الساحل الشرقى للمتوسط تقريبًا، من غزة جنوبًا إلى أرمينيا الكيليكية شمالًا. بصرف النظر عما يطلق عليه مملكة أورشليم نفسها، وكانت عاصمتها الآن فى عكا بحكم الظروف، كانت هناك "معتمدية أنطاكية – Principality of Antioch"، و"كونتية طرابلس – County of Tripoli"، وكان يحمى الثلاثة من الشرق سلسلة من القلاع الرائعة، ما زال الكثير منها موجودًا إلى اليوم. على مسافة نحو ستين ميلًا من ساحل "قيليقية – Cilicia"، كانت توجد مملكة قبرص المسيحية. ربما كانت الحياة فى تلك الأراضى جميلة جدًا؛ حيث اعتدال الطقس وخصوبة التربة، بينما كان ميناء عكا – وكان أفضل من أى ميناء آخر على ساحل فلسطين وسوريا – يضمن لها عائدًا تجاريًا مستقرًا. إلا أن كل شىء كان يتوقف على العلاقات الطيبة بجيرانهم المسلمين، ولم يكن من السهل تحقيق ذلك دائمًا. حتى لو كان المسيحيون مستعدين للتخلى عن أهدافهم الصليبية، فإن المسلمين – بالتأكيد – كانوا يرفضون وجود أغراب وغير مؤمنين (كفار) يحتلون ما كانوا يعتبرونه أراضيهم.

كانت هناك مشكلة أخرى تمثلها الجمهوريات الإيطالية البحرية؛ إذ بدون أساطيل ڤينيسيا وچنوة وبيزا، كان من المستحيل أن يستمر الاتصال المنتظم بالحوض الغربى للمتوسط، ولا التجارة القادمة من الشرق. إلا أن الجمهوريات نفسها كانت متعجرفة وخائنة ولا يمكن الاعتماد عليها. كانت تحجب مساعداتها وقت الحاجة الماسة إليها، بل إنها أحيانًا كانت تقدم للمسلمين ما يلزمهم من إمدادات عسكرية ضرورية. كذلك كانت التشكيلات العسكرية شوكة إضافية فى خاصرة الحكومة: كان فرسان الهيكل،

وبخاصة الذين حققوا ثروات طائلة من أنشطتهم المصرفية، كانوا عادة سعداء بتقديم القروض الضخمة لعملائهم من المسلمين. لذلك، ولأسباب أخرى كثيرة، كان عدد قليل من المراقبين الموضوعيين هم الذين يتوقعون للشرق اللاتينى الفرنجى عمرًا أطول؛ ولكن نهايته - وهذا أمر مثير للدهشة - تأخرت من جراء سلسلة من الأحداث لم تكن متوقعة، غيرت غرب آسيا كله: وهى وصول "القبيلة الذهبية[4] - The Golden Horde" إلى ساحل المتوسط.

عندما مات "چنكيزخان - Jenghiz Khan"، أول حكام المغول العظام فى 1227، كان قد ترك لابنه إمبراطورية ممتدة من بحر الصين إلى شواطئ نهر "الدنيبر - Dnieper". وعندما مات ابنه "أوجوداى - Ogodai" فى 1241، كانت تلك الإمبراطورية تضم معظم روسيا الحديثة وهنغاريا وتمتد جنوبًا فى فارس. بعد عامين فقط فى موقعة "كوس داچ - Köse Dağ»، أنزل جيش مغولى بالأتراك السلاچقة - Seljuk Turks هزيمة ساحقة واضعًا بذلك نهاية حاسمة لاستقلال دولة السلاچقة.[5] كان حكام أوروبا يراقبون صعود هذا الشعب المرعب بدهشة بالغة، لدرجة أن لويس التاسع أرسل سفيرًا إلى البلاط المغولى فى «كاراكورام - Karakorum"، وعندما وصل إلى هناك فى 1254، وجد رسلًا وسفراء من قِبَل كل من إمبراطور بيزنطة اللاتينى، والخليفة العباسى فى بغداد، والسلطان السلچوقى، وملك دلهى، كما وجد بعثات من العديد من الأمراء الروس. (وبعد وقت قصير وصل مبعوث آخر من قبل ملك أرمينيا).

أفاد سفير لويس التاسع فى تقريره - وكان ذلك أمرًا لافتًا - أنه لم يجد هناك أى تمييز دينى على الإطلاق بين المغول: كان الخام الأعظم "كوبلاى - Kublai" ابن چنكيز يحضر الطقوس المسيحية والإسلامية والبوذية، بالرغم من أنه - نظريًا - كان "شامانيا[6] - Shamanist". كان يؤمن بأن هناك "إلهًا واحدًا"، أما أسلوب عبادة هذا الإله بالتحديد، فكانت مسألة تخص المتعبد وحده لأنها شأن شخصى.

إلا أن التسامح الدينى لم يكن يعنى السلام. فى يناير 1256 قاد "هولاكو - Hu-lagu" شقيق كوبلاى جيشًا ضخمًا ضد فرق الحشاشين، الذين كانت أعمالهم الإرهابية قد جعلت الأراضى الفارسية التى احتلوها خارج السيطرة. بنهاية 1257 لم يكن قد بقى على قيد الحياة من أعضائها، الذين كانوا يقدرون بالألوف، سوى نفر قليل. بعد ذلك تفرغ هولاكو لفريسته التالية: المستعصم الخليفة العباسى فى بغداد. سقطت المدينة فى العاشر من فبراير 1258. تم إعدام الخليفة، ولكن بعد أن كشف بنفسه لـ "هولاكو" عن

مكان كنوزه المخبأة. قتل كل أهالى المدينة من المسلمين (نحو ثمانين ألف رجل وامرأة وطفل) باستثناء بعض أجمل الفتيات والصبية الذين لجأوا للكنائس بمبادرة من "دوكوز خاتون – Dokuz Khatun"، زوجة هولاكو، التى كانت نسطورية[7] ملتزمة، وتم منح البطريرك النسطورى أحد القصور الرسمية القديمة لاستخدامه كنيسة وسكنًا خاصًا له.

بينما عمت الفرحة كل المجتمعات المسيحية فى آسيا، هزت أخبار سقوط بغداد كل العالم الإسلامى. كانت الخلافة العباسية قائمة منذ أكثر من خمسة قرون؛ أى منذ 747م. كانت قوتها السياسية قد زالت قبل وقت طويل، إلا أنها ظلت بؤرة الإسلام الأرثوذكسى وقوته الموحدة. بدونها فقدت العقيدة تماسكها، وكانت بالفعل قد أصبحت عرضة للاستيلاء عليها وبإمكان أى قائد مسلم لديه طموح وتصميم أن يختطفها. هولاكو لم يكن قائدًا مسلمًا على أية حال، وكانت عينه آنذلك على سوريا. كانت «مايا فارقين – Mayyafaraqin" أول مدينة تسقط، كما أجبر قائدها المأسور على أن يأكل لحمه إلى أن مات، وبعدها كانت حلب. أما أنطاكية فهى مدينة بنجاتها لأميرها "بوهيمند السادس – Bohemund VI" الذى ذهب إلى معسكر هولاكو ليبايعه. بعد ذلك كان دور دمشق التى استسلمت دون مقاومة. دخل الجيش المغولى بقيادة نائب هولاكو، وهو مسيحى نسطورى آخر كان يدعى "كيتبوكا – Kitbuqa"، دخل المدينة يوم الأول من مارس بوهيمند وحموه ملك أرمينيا؛ وبكلمات سير ستيفن رانسيمان: "كان مواطنو عاصمة الخلافة القديمة يشاهدون - للمرة الأولى منذ ستة قرون - ثلاثة حكام مسيحيين يجوبون شوارعهم منتصرين".

لا بد أن ذلك كان يبدو بمثابة ناقوس الإسلام فى آسيا بالنسبة لكثيرين، وما يؤكد ذلك أن الغزاة المغول – وكانوا معظمهم مسيحيين مثل كيتبوكا – كانوا يؤثرون المجتمعات المسيحية صراحة. الآن، وبعد أن أصبحت سوريا مُأمَّنة، بدأت أنظارهم تتجه إلى فلسطين. متجنبين أورشليم، تقدموا جنوبًا مكتسحين كل ما فى طريقهم إلى غزة تاركين عكا دون مساس، ولكنها كانت محصورة بين قواتهم والبحر.

كانت سرعة الغزو ودرجة نجاحه مثيرة للدهشة كذلك، ولكن خطوط اتصال المغول كانت طويلة بدرجة مقلقة. فى وقت ما من خريف 1259 وصلت أخبار إلى معسكر المغول تفيد أن الخان الأعظم كان قد قتل أثناء قيامه بحملة فى الصين. كانت الخلافة – كالعادة – موضوع صراع، وسرعان ما بات واضحًا لـ "هولاكو" أنه لكى يحافظ على وضعه، كان لا بد من أن يعود فورًا إلى الشرق، وهكذا انطلق فى أوائل 1260 مع الجزء الرئيسى من جيشه ليبدأ مسيرة أربعة آلاف ميل إلى كاروكورام، تاركًا "كيتبوكا" مع قوة صغيرة لحكم الأراضى المفتوحة على أفضل نحو يستطيعه.

قبل رحيله بوقت قصير، كان هولاكو قد أرسل مبعوثًا لسلطان مصر المملوكى يطلب منه الاستسلام. لم يقبل السلطان سيف الدين قطز ذلك، وأمر بإعدام مبعوث هولاكو، وشرع من فوره فى تجهيز حملة عسكرية ضد سوريا. فى السادس والعشرين من يوليو، عبر الجيش المملوكى بقيادة بيبرس الحدود واستولى على غزة دون مقاومة وتوغل شمالًا فى فلسطين؛ وفى يوم ما من سبتمبر(لا أحد يعرف التاريخ على وجه الدقة)، التقى الجيشان فى "عين جالوت – Ain Jalud" (عيون جولياث – The Pools of Goliath). كانت القيادة العليا للسلطان قطز، أما الطليعة المتقدمة فكانت – كالعادة – تحت قيادة بيبرس. فورا، تم تطويق المغول الذين كانوا يقاتلون بضراوة، ولكنهم كانوا أقل عددًا. تم أسر "كيتبوكا" وحمل مكبلًا إلى السلطان الذى أمر بإعدامه على الفور.

كانت تلك بالفعل نهاية المعركة التى لا يكاد يذكرها أحد اليوم تقريبًا، مع أنها قد تكون واحدة من أكثر المعارك حسمًا فى التاريخ؛ لأنها أنقذت الإسلام من أهم خطر واجهه. كانت أعظم ثلاث مدن فى العالم الإسلامى، بغداد وحلب ودمشق، فى يد المغول، ولو كان كيتبوكا قد انتصر وطارد عدوه فى مصر، لما كانت هناك دولة إسلامية جديرة باسمها فى شرق المغرب. من جانب آخر، أعطى الانتصار الإسلامى السلطنة المملوكية فى مصر مكان الصدارة فى الشرق الأدنى حتى صعود الإمبراطورية العثمانية، كما أنه قرر مصير الشرق اللاتينى.

** ** **

فى غضون أسبوع من موقعة عين جالوت كان قطز فى دمشق، وفى غضون شهر كانت القوات الإسلامية قد استعادت حلب. عندما قاد السلطان جيشه عائدًا إلى مصر منتصرًا، كان يبدو وكأنه تغلب على الجميع. إلا أنه كان يفقد الثقة سريعًا فى بيبرس، رجل القيادة الثانى شديد الذكاء، وعندما طلب الأخير أن يكون حاكمًا على حلب – وهو المنصب الذى كان يمكن أن يوفر له قوة تجعله يسيطر على كل سوريا – رفض قطز طلبه فورًا، وكان ذلك إبخاسًا بحق الرجل. فى الثالث والعشرين من أكتوبر 1260 قرر أن يخرج للصيد فى الدلتا مصطحبًا معه كبار أمرائه، وبمجرد أن أصبحوا على مسافة آمنة من المعسكر، اقترب بيبرس فى صمت وطعنه بسيفه من الخلف. بالرغم من أن يديه كانتا الآن ملوثتين بدماء سلطانية، لم يجرؤ أحد على مناقشة أحقية بيبرس فى الخلافة، وكان أن حكم على مدى سبعة عشر عامًا تالية. كان عملاقًا من الناحية الجسدية، وكان غدارًا شديد القسوة فظًّا غليظ القلب.. إلا أنه كان الأكثر مقدرة بين كل الحكام المماليك.

لم تضع عين جالوت نهاية كاملة لقوة المغول فى المنطقة. عاد هولاكو إلى سوريا

بأسرع ما يستطيع، وشن مقاومة قوية فى الشمال الشرقى، ولكنه مات فى 1265 تاركًا بيبرس حرًّا ليستأنف حملته ضد المسيحيين. كانوا هم أيضًا قد ظلوا قوة يعمل لها حساب: كان "هتهوم الثانى – Hethoum II" ملك أرمينيا، و"بوهيمند السادس – Bohem-nud VI" أمير أنطاكية وكونت طرابلس، كانا عدوين خطرين. ولكن بيبرس واصل الضغط بقوة. هاجم عكا نفسها أربع مرات وكان يرتد مدحورًا، إلا أنه فى 1267 استولى على "قيسارية – Caesarea" و"طورون – Toron" وخرب "قيليقية – Cilicia"، موجهًا للمملكة الأرمينية ما كان فى النهاية بمثابة الضربة القاضية. شهد العام التالى سقوط "يافا – Jaffa" – والأسوأ منه – أنطاكية أحد المراكز البطريركية الأصلية، وأول معتمدية مسيحية فى الشرق اللاتينى، وأكثر المدن الفرنجية ثراء وازدهارًا. لم يبد الغزاة أى درجة من الرحمة. تم توزيع الكنوز المكدسة على القوات، كما قتل معظم الأعيان ورجال الكنيسة، ولم تقم للمدينة قائمة بعد ذلك، وفى كل أرجاء عالم المسيحية الشرقية كان الأثر النفسى كارثيًا.

تبع سقوط أنطاكية هدنة كانت فرصة للطرفين - فيما نعتقد - فى كل من أوروبا وآسيا، وسيكون لها تداعياتها فى الشرق اللاتينى: إعدام كونرادين على سبيل المثال، الذى كان يعنى انقراض الخط الشرعى للبيت الملكى فى أورشليم، ثم – الأكثر إزعاجًا – تقارير عن قدوم وشيك للويس ملك فرنسا بحملته الثانية والأخيرة.

** ** **

كان قد مر الآن نحو عشرين عامًا منذ مجيء لويس إلى عكا بعد الكارثة التى حلت به فى دمياط. عاد ليجد فى انتظاره مناشدة عاجلة من أمه، الملكة "ريجنت بلانش – Re-gent Blanche"، تتوسل إليه أن يعود فورًا إلى فرنسا، ولكن ضميره لم يكن ليسمح له بذلك؛ إذ إن قبوله كان يصل فى نظره إلى درجة الاعتراف بالهزيمة. لم يكن شيء من أفكاره المثالية قد تحقق حتى الآن، وما حدث هو أنه لم يكن قد دمر جيشه فحسب، بل وكذلك كل القوى المقاتلة فى الشرق اللاتينى. قبل أن يعود إلى بلاده كان يشعر بأن الوضع كان فى حاجة إلى إصلاح، وإلى جانب ذلك.. ألم يكن بعض جنوده ما زالوا سجناء فى مصر؟ كان من الواضح أنه لا بد من أن يبقى فى الشرق لبعض الوقت من أجلهم كذلك.

وهكذا بقى أربع سنوات أخرى. منذ وصوله إلى الشرق اللاتينى وهو يتعلم الكثير. لم يعد يستطيع أن يحتقر غير المؤمنين بالمسيحية، ولو كان له أن يستعيد وضعه لعاملهم كأنداد، وبفضل الانقسام الجديد فى العالم الإسلامى – حيث كانت فلسطين وسوريا قد

بقيتا مواليتين بشدة للأيوبيين، كان يمكنه أن يفعل ذلك نجاحًا كبيرًا. كان قد تعامل مع الأيوبيين والمماليك، وتعامل مع الحشاشين لفترة قصيرة قبل اندحارهم النهائى على يد هولاكو، وبالطبع كان قد تعامل مع المغول. من الناحية العملية كان يعرف جيدًا أنه لم يكن من حقه التفاوض بالمرة؛ لأن المملكة الصليبية كانت قد أصبحت ملكًا لـ "كونراد" ابن فردريك منذ 1250، ولكن كونراد كان بعيدًا فى ألمانيا، والمرجح أن يبقى هناك، أما فى الشرق اللاتينى فكان لويس مقبولًا كملك أمر واقع. بفضله، تم إطلاق سراح سجناء فرنجة ممن بقوا فى مصر، كما أن المماليك وعدوه بأن يعيدوا للمسيحيين مملكة أورشليم القديمة كلها حتى نهر الأردن، بمجرد احتلالهم سوريا وفلسطين.

ولكن مسألة مواجهة عسكرية أخرى لم تكن واردة، وعندما قامت حرب أهلية فى بلاده بعد وفاة الملكة بلانش فى نوفمبر 1252، أدرك لويس أنه لم يكن يستطيع تأجيل رحيله أكثر من ذلك. فى الرابع والعشرين من أبريل 1254 أبحر من عكا ورسا فى أول يوليو فى "هيرس – Hyères" على الساحل الجنوبى لفرنسا. كان حزينًا خائب الأمل. كان من بين كل الصليبيين هو الأكثر استقامة وشرفًا.. والأكثر تقوى بمراحل، ولكن تدخله فى الشرق اللاتينى كان بمثابة كارثة أدت إلى فقدان ألوف الأبرياء الذين كانت نسبة كبيرة منهم من رعاياه. كان كذلك مرتبكًا مذهولًا. كانت الهزائم والعثرات الماضية التى واجهها الصليبيون تعزى لحياتهم اللاهية المليئة بالخطايا، وبالرغم من أنه كان يصلى بالساعات ويعيش حياة أخلاقية مستقيمة، لم يكن أسعد حظًا منهم. هل – يا ترى – كانت فكرة الحملات الصليبية برمتها غير مقبولة عند الرب؟

لم يستطع أن يجعل نفسه يصدق ذلك، وظل يحلم بمحاولة أخرى، برحلة واحدة وأخيرة إلى الأراضى المقدسة تتوج بالنجاح وتمحو وصمة الفشل من ضميره. لمدة ستة عشر سنة كانت تشغله المشكلات الداخلية لفرنسا، ولكن فى 1270 ظن أنه وجد فرصته. وبالرغم من أنه كان قد بلغ السادسة والخمسين من العمر ومعتل الصحة، راح يستعد للذهاب إلى فلسطين. لم يكن واضحًا له ما يريد أن يفعله عندما وصل إلى هناك، فاستعادة الأماكن المقدسة فى مثل ذلك الوقت كانت تتطلب أكثر من معجزة. ولكن.. أيًا كانت نواياه، فقد كانت فى الحقيقة محل استخفاف من شقيقه "شارل الأنجوى – Charles Anjou" ملك صقلية.

كانت الهزيمة التى ألحقها شارل بـ "مانفريد" وإعدامه كونرادين – مخلصًا بذلك إيطاليا إلى الأبد من بيت آل هوهنشتوفن – كانت قد أيقظت فيه طموحًا أوسع. كانت تلك الطموحات تشمل الآن السيطرة على كل إيطاليا، وتقليص وضع البابا ليصبح

مجرد دمية، وإعادة غزو القسطنطينية التى كانت قد عادت مرة أخرى إلى أيدٍ يونانية أعادتها إلى العقيدة اللاتينية، وفى النهاية إقامة إمبراطورية مسيحية تمتد بطول وعرض المتوسط. كانت فكرته الأولى إذن أن يقنع لويس بالزحف على بيزنطة، ولكن الملك رفض أن يفكر فى الهجوم على شركائه المتدينين، سواء أكانوا مهرطقين أو لا؛ وهكذا حاول شارل مرة أخرى، مشيرًا إلى أن أمير تونس كان يقال: إنه ميال للمسيحية وربما يكون مستعدًّا للتحول، ولو كان ذلك كذلك بالفعل، فإن العقيدة الصحيحة يمكن أن تنتشر فى كل الساحل الشمالى الأفريقى، وحتى إن لم يحدث فيجب أن يكون موطئ قدم دائم على ذلك الساحل فى الحسبان.

من سخريات التاريخ أن الورع نادرًا ما يكون مصحوبًا بالذكاء. من المستحيل أن نفهم لماذا صدق الملك لويس شقيقه للحظة، بالرغم من نصائح معظم أصدقائه ومستشاريه. صدقه... وبصحبة الثلاثة الباقين من أبنائه ركب هو وجيشه إلى "إيجوس – مورتس: Ai-gues – Mortes" فى أشد فصول العام حرارة مبحرين إلى تونس فى الأول من يناير.

هل تم أى تلمس للحقائق قبل الرحيل عن صدق ادعاء شارل؟ هل كان هناك أى دليل – ولو ضعيف أو عرضى – على أن يكون قد طرأ للأمير أن يتخلى عن دين آبائه؟ ولو كان... فهل كان لويس يتصور أن الهجوم المسلح هو أفضل الطرق للقيام بذلك؟ الحقيقة أن الجيش عندما رسا فى الثامن عشر من يوليو، اتضح على الفور أن ذلك كان أبعد ما يكون عن ذهن الأمير، الذى كان يحشد رجاله ويقوى دفاعات مدينته ويستعد للقتال.

من حسن حظه أنه لم يكن فى حاجة لبذل أى جهد. صيف شمال أفريقيا قام باللازم. بمجرد أن أقام جيش الصليبيين معسكره بدأ المرض ينتشر فى صفوف الجنود... وبدأ الموت يحصدهم. فى غضون أسبوع كان المرض قد أصبح عصيًّا على السيطرة وكان لويس من أوائل الضحايا. فى الأيام القليلة الأولى كان يقاوم ويحاول التقدم ليستمع للقداس، ولكن بعد أن أصبح ذلك مستحيلًا قبل مرور وقت طويل، كانت حركة ضعيفة من شفتيه هى كل ما يوحى بأنه كان ما زال قادرًا على متابعة الطقوس. عندما وصل شارل الأنجوى بجيشه فى الخامس والعشرين من أغسطس، أخبروه بأن أخاه كان قد قضى قبل ساعات قليلة. كان فيليب ابنه الأكبر، ووريث الملك، طريح الفراش مريضًا بشدة، إلا أنه تماثل للشفاء وبرأ من مرضه، وكان أن حكم تحت اسم فيليب (الشجاع) خمس عشرة سنة بعد ذلك؛ أما "چون تريستا – John Tristan"، الابن الأصغر لـ "لويس"، الذى كان فى الواحدة والعشرين (كان قد ولد فى دمياط أثناء الحملة السابقة) فلم يكن محظوظًا هكذا.

حارب شارل عدة أسابيع أخرى وفى النهاية توصل إلى تفاهم مع الأمير، وافق على أن يعود إلى إيطاليا مع ما تبقى من جيشه مقابل تعويض معتبر. أنقذ شارل شرفه.. ولا شىء آخر. كان المسمار الأخير قد دق فى نعش الصليبيين؛ حيث بصرف النظر عما تشير إليه دائرة المعارف البريطانية بـ "نهاية مختلفة مفككة"، كانت نهاية "سان لويس" هى الأخيرة. الصراع الكبير الذى استمر قرابة القرنين بين الصليب والهلال انتهى أخيرًا... وكان النصر للهلال.

كان لا بد من أن يمر بعض الوقت قبل أن يتقبل أمراء أوروبا هذه الحقيقة. أحد الذين فشلوا فى ذلك، كان الأمير "إدوارد – Edward" ابن ووريث هنرى الثالث ملك إنجلترا. كان هنرى نفسه قد سبق أن حمل الصليب، ولكن الحروب الأهلية كانت قد أصابت حكمه ولم تترك له فرصة لكى ينجز وعده. إدوارد الذى كان فى الثانية والثلاثين لم يكن لديه مثل هذا العائق، كما أن أخبار سقوط أنطاكية جعلته يقرر الذهاب مع نحو ألف من رجاله مكان أبيه. لم تكن المراحل الأولى من رحلته سعيدة. كان ينوى فى الأصل أن يلحق بـ "لويس" فى أيجوس – مورتس، وما أن وصل إلى هناك حتى وجد أن الملك قد غادر، وعندما تبعه إلى تونس علم بوفاة لويس. فى مايو 1271 وصل إلى عكا أخيرًا؛ حيث أصابه رعب شديد. كانت الحالة المعنوية متردية فى كل مكان. كان الود تامًا بين السلطان وبين أهالى جنوة وڤينيسيا، الذين كانوا يتاجرون فى كل شىء، ويحققون أرباحًا طائلة، من الأسلحة إلى العبيد. لم يكن أحد لديه رغبة فى القتال. بتحالفه مع المغول، سجل إدوارد انتصارات ضئيلة ضد الحاميات المملوكية، ولكن المؤكد أنه لم يكن مؤرقًا لبيبرس. كان من ناحية أخرى مصدر إزعاج لا بد من التخلص منه، ولذلك رتب السلطان لكى يقوم أحد الحشاشين المسيحيين بدخول غرفته ويطعنه بخنجر مسموم، فأصابه بجرح غائر فى ذراعه سرعان ما تعفن، إلا أنه نجا من الموت بفضل جراحة بدائية مؤلمة[8]، بعدها أقلع من عكا فى 1272 وعاد إلى إنجلترا ليصبح الملك إدوارد الأول.

بعد خمس سنوات، إن كان لنا أن نصدق الشائعات الملحة، تورط بيبرس فى محاولة اغتيال أخرى فشلت كذلك على نحو كارثى. يقال: إنه قدم وعاء من الكوميس[9] المسمم لأحد الأعداء ولكنه شرب منه فى غفلة. لم يعش ليرى نهاية الشرق اللاتينى؛ حيث كان ما زال هناك كثيرون من الفرنجة فى معظم المدن الرئيسية. فى مدة حكمه التى استمرت سبعة عشر عامًا، كان قد أزال معظم المناطق المسيحية حول الساحل. كانت أيام من تبقى من الفرنجة معدودة، وكانوا يعرفون ذلك جيدًا.

** ** **

فى منتصف المسافة تقريبًا عبر المتوسط، وقع حدث، يوم اثنين عيد الفصح 1282، لم يكن متوقعًا بالمرة، وكان له أثر هائل على المتوسط كله. يعرف هذا الحدث – بأسلوب شاعرى – بـ «حرب نواقيس المساء الصقلية».

لو أن شارل الأنجوى كان ليؤسس مشروعه العظيم، فالمؤكد أنه سيكون فى حاجة إلى بابا مناسب يساعده فى تحقيق هدفه. عند موت كليمنت الرابع فى 1268، كان قد استخدم نفوذه فى المجمع البابوى ليظل العرش البابوى خاليًا لمدة ثلاث سنوات (وهى مدة تغطى الفترة التى كان موجودًا فيها فى الخارج فى حملة أخيه)، لم تكد تنته فترة الفراغ حتى قامت السلطات فى «ڤيتيربو – Viterbo" بإزالة سقف القصر الذى كان يجتمع فيه الكرادلة لانتخاب البابا. وقع اختيارهم المتسرع على "جريجورى العاشر – Gregory X" الذى اتضح أنه لم يكن مفيدًا فأحبط محاولات شارل لكى يتم انتخاب فيليب الثالث ملك فرنسا، ابن أخيه، ليكون الإمبراطور الرومانى المقدس، والتحالف مع بيزنطة لدرجة التوصل فى مجمع ليون فى 1274 إلى عقد اتحاد مؤقت بين الكنيستين الشرقية والغربية. ولكن فى 1281، ومع انتخاب فرنسى آخر هو "مارتين الرابع – Martin IV"، كان أن حقق شارل مبتغاه. وحيث إنه كان حاكمًا على پروڤانس وعلى الجزء الأكبر من إيطاليا وملكًا اسميًا على أورشليم[10]، وأقوى – وأخطر – رجل فى أوروبا، كان بمقدوره الآن أن يحقق أعظم طموحاته بالزحف على القسطنطينية، التى كان «البابا مارتين – Pope Martin" قد أعلن إمبراطورها "مايكل الثامن بالايولوجوس – Michael VIII Palaeologus" منشقًا. لم يكن قد مر أكثر من عشرين عامًا على استرداد اليونانيين عاصمتهم من الفرنجة؛ ومع بداية 1282، كانت فرصة احتفاظهم بها تبدو ضئيلة.

كان شعب پاليرمو هو الذى أنقذهم. كان الفرنسيون مكروهين فى كل ريجنو، سواء بسبب إجحاف نظامهم الضريبى أو غطرسة سلوكهم، وذات مساء (فى الثلاثين من مارس) عندما راح جندى فرنسى يزعج امرأة صقلية بالقرب من كنيسة "سانتو سپيريتو – Santo Spirito" أثناء ما كانت الأجراس تدق لصلاة المساء، زاد غضب أبناء وطنها. انقض زوج المرأة على الجندى الفرنسى وقتله وتبع ذلك أعمال شغب تطورت إلى مذبحة. بمجيء الصباح كان ما يقرب من ألفى فرنسى قد لقوا مصرعهم. بعد ذلك دخلت پاليرمو وبعدها مسينى فى حالة من الفوضى العارمة والاضطرابات. كان التوقيت مناسبًا، وفى المراحل النهائية كانت الاضطرابات يقودها نبيل من سالرنو يدعى "چون البروكيدى – John of Procida"، كان صديقًا لـ "فردريك الثانى" و"مانفريد". كان چون قد أمضى فترة فى بلاط "پيتر الثالث – Peter III"، ملك

أراجون، زوج كونستانس ابنة مانفريد، وأثناء وجوده هناك كان يشجع بيتر على تجديد دعواه بأحقيته فى عرش صقلية. الآن كانت الفرصة المثالية لذلك. وصل بيتر إلى باليرمو فى شهر سبتمبر، وفى الشهر التالى كان قد استولى على مسينى، حيث كانت الوقفة الأخيرة للفرنسيين.

بالنسبة لـ "شارل الأنجوى" وبلاطه فى نابولى، كان فقدان صقلية بمثابة كارثة. رفض بالطبع الاعتراف بالهزيمة حتى إنه تمادى فى تحديه وعرض القيام بمبارزة فردية مع بيتر تحدد مصير صقلية، على أن يكون ذلك تحت حماية إنجليزية فى "بوردو – Bordeaux" التى تقع على بعد مسيرة أسابيع قليلة. المثير للدهشة أن بيتر قبل التحدى، رغم أنه فى المفاوضات التالية أن يصحب كل ملك مائة فارس يقاتل بجواره؛ حيث إن شارل كان فى الخامسة والخمسين – وهى سن كبيرة بمقاييس ذلك الزمان – وبيتر كان فى الأربعين. تحدد يوم الثلاثاء الأول من يونيو لتنفيذ المواجهة، ولسوء الحظ.. وربما لحسنه، لم تحدد الساعة. وصل الملك بيتر ورجاله مبكرين فى الصباح ولم يجدوا أى أثر لـ "شارل"، وعندما أعلن الناطقون باسمه عن حضوره، ترك بيتر الميدان وأعلن عندما عاد عن انتصاره؛ لأن خصمه الجبان لم يظهر. وصل شارل بعد عدة ساعات وفعل الشيء نفسه. لم يلتق الاثنان. كانت التكلفة باهظة بالنسبة للطرفين سواء من ناحية الوقت أو المال، ولكن الشرف ظل محفوظًا لكليهما.

وهكذا انقسمت ريجنو شقين. شارل يحكم (تحت لقب شارل الأول) فى نابولى، وبيتر فى صقلية، وكلاهما كله إصرار على طرد الآخر وتوحيد البلاد. لكن سمعة شارل كانت قد ضاعت. كانت إمبراطوريته المتوسطية تبدو مبنية على الرمال. لم تعد قوة عالمية. لم تعد الحملة على بيزنطة واردة. خذله أتباعه فى الشرق اللاتينى، فرسان الهيكل والڤينيسيون. قام على الفور باستدعاء نائبه من عكا وترك ضابطًا صغيرًا مكانه. بعد ثلاث سنوات – فى السابع من يناير 1285 – مات فى "فوجيا – Foggia". سيطر على المتوسط لمدة عشرين عامًا، كان يتملكه طموح لا يشبع وطاقة كبيرة لم تتركه يستريح. كان تقيًا فعلًا، ولكن تقواه لم تعلمه التواضع. كان يعتبر نفسه الأداة التى اختارها الرب. لم تعد عليه تقواه بأى شعور إنسانى أو رحمة، كان قيامه بإعدام كونرادين ابن السادسة عشرة صدمة لكل أوروبا، وبقيت هذه الفعلة محسوبة عليه طوال حياته. ربما كان محل إعجاب أحيانًا، ولكنه لم يحظ بحب أحد قط.

استمرت حرب أجراس المساء الصقلية – التى كان شارل مسؤولًا عنها إلى حد بعيد – فى القرن التالى. لم يكن فيليب الثالث (الشجاع) ملك فرنسا وابنه وخليفته فيليب

الرابع (الجميل) من بعده، لم يكونا هما فقط من استعاد الجزر المغتصبة لأسباب تتعلق بشرف العائلة، كانت هناك كذلك حقيقة أخرى، وهى أن صقلية وريجنوا كانتا قد منحتا لشارل بواسطة البابا، ولذا كان النظام البابوى يضع كرامته فى الحسبان. كان البابا مارتين الرابع قد أعلن لتوه القيام بحملة ضد الأراجونيين، أما الملك فيليب فكان قد بدأ – من جانبه – يحشد جيشًا. إلا أن المطلوب كان أكثر من هاتين القوتين لترويع بيت آل أراجون وحليفهم المخلص: جمهورية جنوة. كانت البعثات الموفدة من كلا الطرفين تذرع أوروبا جيئة وذهابًا إلى أن أصبحت كل دول المتوسط متورطة – بدرجة أو أخرى – فى القصة.

كان الاستثناء الوحيد الجدير بالملاحظة بالطبع هم مماليك مصر. لم يكونوا مهتمين كثيرًا بصقلية، كانت عيونهم على أراضى الشرق اللاتينى وتدمير الولايات الصليبية. تلك الولايات كان يمكن إنقاذها – ولو مؤقتًا – لو أن الدول المسيحية الغربية كانت قد نسيت شواغلها الأخرى وتقدمت للدفاع عن شركائهم فى الدين ولكنها لم تفعل. انطلق أول إنذار بالخطر، والغريب أنه جاء من المغول؛ فى 1287 أرسل الخان الأعظم – أرجون حفيد هولاكو – مبعوثًا مسيحيًا إلى الغرب كان يدعى "رابان سوما – Rabban Sauma"، زار القسطنطينية أولًا وبعدها نابولى وجنوة وباريس وبوردو؛ حيث كان إدوارد الأول ملك إنجلترا مقيمًا فى عاصمة أراضيه الرئيسية.[11] عاد عن طريق روما. كان يستقبل فى كل مكان كملك. فى باريس، رافقه فيليب الرابع شخصيًا فى جولة فى كنيسة القديسين ليريه – مزهوًا – التذكارات المقدسة التى كان جده سان لويس قد اشتراها من الإمبراطور البيزنطى، وفى بوردو دعاه إدوارد، الذى كان هو نفسه أحد الصليبيين القدامى، لحضور قداس مع بلاطه، وفى روما تناول من يد نيكولاس الرابع، البابا الذى كان قد تم انتخابه حديثًا. فى كل مكان، كان يؤكد الضرورة الملحة للقيام بحملة لاستعادة الأماكن المقدسة وإنقاذ الشرق اللاتينى، وفى كل مكان كانوا يستمعون إليه بتعاطف شديد ولكنه لم يحظ فى أى مرة بتعهد قاطع أو تاريخ محدد. كانت الروح الصليبية القديمة قد ذهبت، ولن تعود.

كان الخان الأعظم يجد ذلك عصيًا على التصديق. فى مطلع صيف 1289 أوفد مبعوثًا آخر إلى أوروبا من أبناء جنوة كان يدعى «بسكاريل – Buscarel"، حاملًا رسائل للبابا وللملوك الفرنسيين والإنجليز (لعل تأثيرها كان ضعيفًا؛ إذ إنها كانت مكتوبة بالمنغولية، ولكن بسكاريل كان يستطيع القيام بالترجمة). فى هذه المرة تمادى "أرجون – Arghun" لدرجة أنه اقترح عقد تحالف. كتب يقول: إنه كان شخصيًا ينوى القيام بجيش

قوامه نحو 20: 30 ألف فارس يصل إلى دمشق فى منتصف فبراير 1291، فإذا كان الملكان مستعدين لإرسال جيوش من قبلهما وتمت استعادة الأماكن المقدسة فإنه سيكون سعيدًا بتسليمها. من أسف أن هذه الدعوة لم تكن أكثر نجاحًا من سابقتها. قام الخان الأعظم بمحاولة أخرى ولكنها فشلت كذلك، وعندما عاد مبعوثوه كان قد قضى نحبه.

فى ذلك الوقت، وكأن ذلك كان قد جاء ليؤكد أسوأ مخاوف أراجون، كان السلطان المملوكى قلاوون قد حرك جيشه بكامله إلى سوريا. كانت ذريعته هى أن يمنع أبناء جنوة من الاستيلاء على كونتية طرابلس كما كانوا يهددون، رغم وجود بعض الشكوك فى أن يكون هدفه البعيد المدى أكثر لؤمًا. بالقرب من نهاية مارس 1289، اقترب بقواته من أسوار طرابلس، وفى السادس والعشرين من أبريل اندفعوا داخل المدينة. قتلوا كل من وجدوه فى طريقهم من المسيحيين... أخذوا كل امرأة وطفل عبيدًا، أحرقوا كل مبنى ليستحيل رمادًا. الآن، كان الغرب قد بدأ يتنبه. بفضل حث وتحفيز البابا نيكولاس تحرك الفينيسيون – الذين كانوا سعداء برؤية طرابلس تضيع من أيدى أبناء جنوة، وإن كانوا بدأوا يشعرون بالقلق خوفًا على مصالحهم فى عكا – فأرسلوا اثنين وعشرين سفينة حربية، ثم لحقت بها خمس أخرى، أرسلها جيمس ملك أراجون. لسوء الحظ أيضًا، كان يصحب هذا الأسطول جماعة من رعاع الفلاحين والمغامرين الذين قدموا من الشمال الإيطالى، كل يسعى للحصول على ما يستطيع، ومنذ اليوم الأول لوصولهم إلى عكا، كانوا سكارى لا يقدرون المسئولية؛ وفى يوم شديد القيظ من أيام أغسطس 1290 أحدثوا حالة من الفوضى والشغب وراحوا يعربدون فى الشوارع ويقتلون كل من يصادفونه من المسلمين فى طريقهم.

بعد سقوط طرابلس، قَبِلَ قلاوون بهدنة مع المسيحيين، ولو كان كل شىء قد مضى على ما يرام، لنعموا ببضع سنوات من الاستقلال؛ إلا أنه بعد مذبحة عكا لم يعد للهدنة قائمة، ولم يكن هناك مجال للشك فى ذهن السلطان: لا بد من القضاء على الفرنجة. فى السادس من مارس 1291، وتحت قيادة ابنه وخليفته الأشرف خليل انطلق الجيش الكبير مرة أخرى. كان حجمه يقدر بستين ألفًا من الخيالة ومائة وستين ألفًا من المشاة. قد يكون فى ذلك بعض مبالغة، ولكن لا شك أنه كبير فى أن مسيحيى عكا كان لا بد أن يجدوا أنفسهم فى مواجهة قوة تفوقهم عددًا بمراحل؛ إذ كان تعدادهم الكلى أقل من أربعين ألف نسمة وثمانمائة فارس وأربعة آلاف جندى مشاة، منهم من هو من أبناء فينيسيا، ومن هو من أبناء جنوة، ومن ينتمون للتشكيلات العسكرية الثلاثة.

بدأ الحصار يوم السادس من أبريل. قاتل المدافعون ببسالة وقام فرسان الهيكل

والإسبتارية بالكثير من الإغارات الفاشلة. من أسف أنهم كانوا ما زالوا يسيطرون على البحر، ولذلك لم يكن ينقصهم الغذاء ولكن كان ينقصهم السلاح، وقبل كل شيء كانت تنقصهم القوة البشرية اللازمة لحماية السور الممتد لمسافة تفوق الميل.

ارتفعت الروح المعنوية كثيرًا عندما وصل هنرى الثانى ملك أورشليم (كان فى العشرين من العمر ومصابًا بالصرع) من قبرص فى الرابع من مايو برفقة أربعين سفينة ومائة فارس وألفين من جنود المشاة، ولكن برغم أهمية ذلك، لم يكن ذلك العدد ليمثل أى فرق. بعد أسبوعين فحسب، أصدر السلطان أمره بالهجوم الشامل.

القصة الكاملة لسقوط عكا مرعبة.[12] لم يكن هناك استسلام، ولم يكن السلطان على أية حال ليقبل ذلك. كل ما كان على الناس أن يفعلوه هو أن يموتوا وهم يقاتلون أو وهم يحاولون الهرب بالبحر. قليل منهم، كان من بينهم الملك هنرى وشقيقه أماليك، هم الذين نجحوا فى العودة إلى قبرص، وانتهى الأمر بعدد من النساء والأطفال فى الحريم أو أصبحوا عبيدًا فى الأسواق... ولكن الأغلبية هلكوا. فى الوقت نفسه تم تدمير عكا نفسها.. وبشكل منظم، كما لقيت المستوطنات الفرنجية المتبقية – صور وصيدا وطرطوس وبيروت وعدد من القلاع – المصير نفسه. كانت النهاية.

استمر الشرق اللاتينى الصليبى أكثر من مائة واثنين وتسعين عامًا. كانت قصته، منذ بدايته كنموذج لعدم التسامح والطموح الإقليمى، قصة سقوط مادى وأخلاقى وعجز مستمر. لم يذرف الدمع فى أوروبا على زواله، أو أسفًا على رؤيته يضيع سوى قلة.

هوامش الفصل العاشر

(1) كانت حفيدة هنرى الثانى ملك إنجلترا الذى تروجت ابنته إليانور من ألفونسو التاسع القشتالى، وكانت وصية بالفعل على ابنها قبل أن يبلغ سن الرشد، وأثبتت كفاءة وحنكة سياسية.
(2) كانت شقيقتها، إليانور، متزوجة من الملك هنرى الثالث.
(3) نسبة إلى "تور – Tours" التى كانت تسك فيها هذه العملة فى القرن الثالث عشر وكانت مفضلة على تلك التى تسك فى باريس.
(4) Horde: قبيلة أو جماعة من البدو الرحل. (المترجم)
(5) بقيت حتى نهاية القرن ولكنها كانت أشبه بدمية مغولية.
(6) "المؤمن بالشامانية – Shamanism" وهى عقيدة بدائية تقول بوجود عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف، لا يستجيب إلا للشامان وهو الساحر أو الكاهن الذى يستخدم السحر للعلاج وكشف المخبأ والسيطرة على الأحداث. (المترجم)
(7) يؤمن النسطوريون Nestorians بأن المسيح كان شخصين منفصلين (الإنسانى والإلهى). (النظرة الأرثوذكسية هى أنه كان شخصًا واحدًا، الرب والإنسان). يوجد عدد قليل من أتباع هذا المذهب إلى الآن يعيش معظمهم فى العراق ويعرفون بالمسيحيين الأشوريين.
(8) القصة الشهيرة عن إنقاذ حياة إدوارد بواسطة زوجته إليانور القشتالية، التى يقال: إنها قامت بمص السم من الجرح، مأخوذة عن "بطليموس لوسنسز – Ptolomaeus Lucensis" أحد المؤرخين الدومينيكان غير المعروفين، وهى بحسب "قاموس السير الوطنية – Dictionary of Ntional Biography" القديم، شهادة غير دقيقة ولا يمكن تصديقها، وهو ما يؤكده قاموس أكسفورد الجديد (DNB). الحقيقة أن إليانور لم ترافق إدوارد فى الحملة.
(9) شراب من لبن الفرس المخمر كانت تصنعه فى الأصل قبائل الأتراك والمغول فى آسيا الوسطى.
(10) كان قد اشترى اللقب فى 1277 من الأميرة ماريا، أميرة أنطاكية، ابنة أماليك الثانى ملك أورشليم، وكان قد أرسل على الفور إلى عكا شخصًا يدعى روجر السان سڤرينى – Roger of San Severino ليكون نائبًا له.
(11) فى ذلك الوقت كان الملوك الإنجليز ما زالوا يحكمون جزءًا كبيرًا مما يعرف الآن بـ "فرنسا".
(12) أفضل وصف لذلك هو رواية سير "ستيڤن رانسيمان – S. Runciman" كما جاءت فى كتابه "A History of the Crusades" – المجلد الثالث، الصفحات من 412 : 423.

الفصل الحادى عشر

نهاية العصور الوسطى

لم تكن حرب أجراس المساء الصقلية هى سبب سقوط الشرق اللاتينى؛ إذ منذ صعود المماليك فى 1250 – وربما حتى منذ أن استولى صلاح الدين على أورشليم فى 1187، كان ذلك مسألة وقت. إلا أنه كان أمرًا يشغل بال أمراء أوروبا، لدرجة أنهم لم يركزوا على محنة رفاقهم المسيحيين فى الشرق. وكما حدث، فإن الحرب استمرت أحد عشر عامًا أخرى بعد تدمير عكا. فى 1302، وبعد محاولة فاشلة لوضع «شارل الڤولوازى – Charles of Valois" شقيق "فيليب الجميل – Philip the fair" على عرش صقلية، كان البابا "بونيفاس الثامن – Boniface VIII" مضطرًّا - وعلى مضض - أن يعترف بـ "فردريك" ابن الملك "بيتر" حاكمًا على الجزيرة ليلقب بـ "ملك ترينا كريا[1] – King of Trinacria"، وهو لقب عزيز؛ حيث كان "الأنجوڤيون – The Angevins" فى ناپولى ما زالوا يحتفظون بالتاج الصقلى. إلا أنه حتى ذلك الحين، لم يكن انتصارهم كاملًا كما كان "الأراجونيون – The Aragonese" يتمنون؛ بموجب شروط الاتفاقية، كان على فردريك أن يتزوج "ليونورا – Leonora"، ابنة شارل الڤالوازى، وبعد موته تعود الجزيرة إلى بيت "آنچو – Anjou".

كان البابا بونيفاس قد انتخب فى 1294 بعد تنحى – وهو التنحى الوحيد فى تاريخ البابوية – الناسك الورع غير الكفء "ڤيليستين الخامس – Celestine V"، الذى كان مؤهله الوحيد للبابوية هو أنه كان ذات مرة – فى بلاط جريجورى العاشر – قد علق رداءه على شعاع من أشعة الشمس! كان البابا الجديد نقيضه فى كل شىء. كانت المراسم الكبرى للكنيسة، بالنسبة له موجودة فحسب؛ لتعزيز أهدافه الدنيوية وإثراء أسرته، "آل كايتانى – The Caetani". كان يعامل الحكام الأجانب كخدم أكثر منهم رعايا، وفى الوقت نفسه كان آل بيت "جيبيلين الكولونى – Ghibelline of Colonna" المنافس، الذى كان شديد الحقد عليهم ويخشى قوتهم - محرومين كنسيًّا وأراضيهم فى "پاليسترينا – Palestrina" مستولًى عليها ومدمرة بدعوى حملة صليبية.

مثل هذا السلوك أحط بقدر البابوية، لدرجة أنه كان لا بد من أن تمر عدة سنوات لكى تبرأ من ذلك الوضع المهين، كما جعل ذلك بونيفاس مكروهًا ومذمومًا فى أوروبا كلها. عندما فر "آل كولونا" جميعًا إلى فرنسا، أصبح "الفرنسيسكان الروحانيون – Spiritual Franciscans" (الفراتيشللى – The Fraticelli)، هم الأعداء الرئيسيين فى إيطاليا، الذين ثاروا على الدنيوية المتزايدة لنظامهم، للعودة إلى مؤسسهم فى الزهد والتقشف،

كانوا يكرهون بونيفاس، ليس بسبب ثرائه الفاحش فحسب، بل وبسبب غطرسته، ولأنهم كانوا يعتبرونه مسئولًا – بحق – عن تنحى "ﭭيليستين" ثم سجنه وموته بعد ذلك.

كان عداء فيليپ الجميل ما زال يشكل خطورة على بونيفاس، وكان بونيفاس قد حرمه كنسيًّا بعد أن منع الإكليروس الفرنسى من تلبية استدعاء بابوى إلى روما. فى ربيع 1303 انتقم فيليپ بأن دعا إلى مجلس تشاورى عام، كان يريد به أن يتم استدعاء البابا نفسه ومساءلته، وتم بالفعل إرسال جيش قوامه ألف وستمائة جندى إلى إيطاليا، مع أمر بالقبض على بونيفاس وإحضاره إلى فرنسا، بالقوة، إذا لزم الأمر. وجدوه فى موطنه "أناچنى – Anagni"؛ حيث كان يضع اللمسات النهائية لرسالة بابوية، تعفى رعايا فيليپ من ولائهم، وأخذوه أسيرًا. بعد ثلاثة أيام كان هناك رد فعل شعبى لصالحه، أجبرهم على الانسحاب، إلا أن مهمتهم لم تكن بلا طائل. كان ما فعلوه أشبه بضربة قاضية لكرامة البابا. رافقه أصدقاؤه "الأورسين – The Orsini" ليعود إلى روما؛ حيث مات هناك بعد شهر.

كان بونيفاس وفيليپ عدوين لدودين، إلا أن مساعيهما المشتركة هى التى كسرت فى النهاية معنويات النظام البابوى، ودمرت البقية الباقية من مكانته فى روما. عندما تم انتخاب فرنسى آخر فى 1305 ليكون البابا "كليمنت الخامس – Clement V"، جعل تتويجه فى "ليون – Lyons" ولحقت به هناك إدارته البابوية، وعلى مدى الاثنين والسبعين سنة التالية، لم يكن هناك بابا فى روما. كانت تلك هى الفترة التى وصفها "پترارك – Petrarch" بـ "الأسر البابلى – The Babylonian Captivity"... إلا أن العبارة مضللة. لم يكن الباباوات أسرى بأى معنى. كان كليمنت هو الذى ذهب إلى ليون بمحض إرادته، ولم يكن لديه أى نية ليكون مخلب قط للملك الفرنسى. بعد أربع سنوات، وعلى أثر شجار مع فيليپ، نقل بلاطه إلى "أڤينون – Avignon"، وتحديدًا لأن المدينة لم تكن فرنسية آنذاك، وإنما داخل مناطق النفوذ البروڤنسية الخاضعة لمملكة نابولى، وعليه فقد كان يمكن المحافظة على الاستقلال البابوى بسهولة أكبر. كذلك لم يحدث أن خفف هو أو أى من خلفائه من قبضتهم على الشئون الإيطالية طوعًا، أو اعتبروا أڤينون أكثر من مقر مؤقت للإقامة إلى أن يحين الوقت للعودة فى أمان – وراحة – إلى إيطاليا.

السبب هو أن روما كانت قد أصبحت بغيضة وخطرة فى الوقت نفسه. لم يكن هناك إمبراطور مقدس منذ فردريك الثانى (1250)، وكانت مدن لمبارديا وتوسكانيا متروكة لتنمو على طريقتها بعيدًا عن الاعتداءات الإمبراطورية. كانت نظم الحكم فى معظمها

استبدادية؛ حيث كانت أسرة أو أخرى تمارس سيادتها المطلقة - "الڤيسكونت – The Visconti"، و"الديلاتور – Della – Torre" فى ميلانو، "المونتيشى – The Montecchi" (مونتاجيو – Montagues شكسبير) و"السكاليجرى – The Scal-igeri" فيما بعد فى ڤيرونا، و"الجونزاجا – The Gonzaqa" فى مانتوا – هذا الكم من الدكتاتوريات المطلقة برغم حجمها الصغير، التى كانت مفروضة على صراع تقليدى ضروس وتواجه عداء برجوازيات ذات توجهات تجارية، أسفر عن اضطرابات عميقة تخللت كل مناحى الحياة فى الشمال الإيطالى. أحيانًا، وهو ما لا يمكن إنكاره، كان ذلك يوفر حافزًا للروح الجديدة، روح التساؤل الفنى الذى كان إرهاصًا بعصر النهضة (ولد "جيوتو – Giotto" فى نفس العام الذى مات فيه "مانفريد – Manfred")، إلا أن القصة كانت ذات القصة... استبداد وسفك دماء.

من بين الجمهوريات البحرية الشمالية الكبرى، كانت جنوة وبيزا فى حالة قتال مستمر، انتهى بانتصار جنوة الحاسم بالقرب من "ميلوريا – Meloria" فى 1284؛ ولم يكن هناك سوى ڤينيسيا التى بقيت دون أن تمسها الفوضى القائمة – نسبيًا – وذلك بسبب عزلتها البحرية وأوليجاركيتها[2] المنظمة، وبعدها عن الصراع الحزبى، وذلك النظام الذى يعتمد على المراجعة والتوازن، الذى جعل من حكم أكثر الجمهوريات هدوءًا وصفاء أعجوبة ورعب أوروبا.

فى هذا الجو المضطرب، كان هناك ملاذ آخر، آمن نسبيًا، هو فلورنسا. فى ذلك الوقت، كانت أبرز مدينة – دولة إيطالية فى الإبداع الفنى، وكانت ما تزال الأكثر تميزًا، من حيث إنها استطاعت أن تكون نظام الحكم الوحيد – الذى شهده العالم – بواسطة الفنانين والحرفيين البارعين. هنا، كانت الإدارة الناجحة فى أيدى ستة من رؤساء النقابات الفنية يدعون بـ «أسطوات الفنون – Priors of the Arts" وكانت سلطاتهم قوية. كانت فلورنسا تستطيع كذلك أن تستند إلى تراث راسخ هو تراث "الجيولف[3] – Guelf" الذى ربما يكون قد حفظها من الضغائن والإحن التى ابتليت بها المدن الأخرى الأقل حظًا؛ ولكن بالقرب من نهاية القرن حدث شقاق بين الجيولف، وفى 1302 – بعد أن تحالف البابا بونيفاس مع "السود" الرجعيين – تم نفى قادة حزب "البيض" الأكثر اعتدالًا.

كان من بينهم "دانتى اليجييرى – Dante Alighieri"، صاحب "الكوميديا الإلهية"، أعظم إنجاز بالإيطالية؛ والذى يعد بين أعمال أخرى كثيرة تعليقًا لاذعًا وعميقًا، يزعم فيه الشاعر أنه يلتقى شخصيات عصره الرئيسية فى طريقه إلى العالم الآخر، بينما هو فى حقيقة الأمر يصدر أحكامًا عليهم. عظمة التصوير فى هذا العمل مدهشة، وكذلك

البراعة فى التعبير بلغة عامية كانت فى مرحلة التطور، وإن كانت الأفكار السياسية التى ينطوى عليها، تبدو أكثر تذكرة بالقرن الحادى عشر، أكثر مما هى بالقرن الرابع عشر. هذه الأفكار التى يطورها دانتى بشكل أعمق فى – De Monarchia، هى فى جوهرها عودة إلى الحلم القديم بإمبراطورية مسيحية باتساع العالم، يحكمها إمبراطور وبابا فى ترادف متآلف.

لم تتضح عملية هذه الأفكار إلا فى سنة 1310، عندما ذهب الكونت "هنرى اللكسمبورجى – Henry of Luxemburg"، أهم معبر عنها، إلى إيطاليا كإمبراطور منتخب. كشخص مثالى، حسن النية، تلقى هنرى أول تتويج له فى ميلانو بنسخة طبق الأصل من تاج لومبارديا الحديدى (كان التاج الأصلى مرهونًا)، وكان ما زال يؤكد حياديته بين الجيولف البابويين والجيبيليين الإمبراطوريين[4]، ولكن أهالى مدن الجيولف فى لومبارديا وتوسكانيا لم يتركوه فى شك من مشاعرهم نحو إمبراطورية عفا عليها الزمن؛ كما كان «جيبيلينيا» قلبًا وقالبًا عندما جاء إلى روما، لدرجة أنه منع من دخول كنيسة سان بيتر، وأجبر على قبول تاج الإمبراطور فى اللاتيران من ممثلين للبابا.

فى الوقت نفسه، كان «كليمنت الخامس – Clement V»، بضغط من الملك فيليپ، قد انقلب عليه فى أڤيون، كما فعل حفيد شارل الأنچوى، الذى كان يحكم فى ناپولى، باسم الملك "روبرت الحكيم – King Robert the Wise". فى 1313، مات بالحمى، بعد أن أثبت عدم قيمة آمال دانتى بشكل قاطع.

لم يكن دانتى يحب الملك روبرت، الذى كان يصفه دائمًا بـ "ملك الكلام – re da sermone"، والحقيقة أن روبرت كان لديه كل مقومات الحاكم العظيم. كان عالمًا، جعله حبه الحقيقى للآداب والفنون راعيًا سخيًّا للشعراء والكتاب، وبخاصة پترارك الذى كان صديقًا شخصيًّا له وكان معجبًا به، لدرجة أنه عبر عن أمله أن يكون يومًا ما عاهلًا لإيطاليا كلها. كان يمكن، فى ظروف أكثر أمنًا وسلامًا، أن ينقذ ريجنو من العفن التى كانت تبدو غارقة فيه، ومن أسف أن الفرصة لم تتح له. استنزفت الحروب المستمرة مع الأراجونيين خزانته، وحتى فى الداخل كانت حياته صراعًا دائمًا مع البارونات المتمردين الذين لم يتوقفوا عن إزعاجه.

مات روبرت فى 1343 لتخلفه حفيدته "چوانا – Joanna"، زوجة أندرو أمير هنغاريا، وعلى مدى نصف القرن التالى سيصبح تاريخ ناپولى كابوسًا. (ليس من المتوقع أن يتابع القارئ بقية هذه الفقرة والفقرة التالية لها، الواردة لمجرد تصوير المستوى الذى كانت السياسة قد انحدرت إليه فى ناپولى). فى سنة 1345 تم اغتيال أندرو بتواطؤ من

عمة والد زوجته "كاترينا الڤولوازية – Catherine of Valois"، ولكن چوانا نفسها لم تكن فوق مستوى الشك. بعد ذلك طالب شقيقه لويس ملك هنغاريا بالمملكة لنفسه بذريعة الثأر. طرد چوانا وزوجها الثانى، ثم قتل شقيق زوجها أخذًا بالأحوط، ولكنه سرعان ما عاد إلى المجر واستدعى البارونات المحليون چوانا، ثم قام ابن عمها "شارل الدورازى – Charles of Durrazo" بغزو المملكة وسجنها، وبعد وقت قصير كان أن قتلت هى الأخرى. بعد موت شارل، تسبب صراع على خلافته فى حرب أهلية... وهكذا انزلقت المملكة مرة أخرى إلى الفوضى القديمة.

مع بداية القرن التالى، كان يبدو أن "لاديسلاس – Ladislas" ابن شارل قد حسم الصراع لصالحه. وبحلول العام 1410 – وبفضل الانشقاق البابوى المستمر[5] – كان قد احتل روما نفسها ثلاث مرات، روما التى لم يكن البابا الشرعى جريجورى الثانى عشر قادرًا على أن يحافظ عليها. فى المرة الأخيرة نهب المدينة وأحرقها. مر موته فى 1414 غير مأسوف عليه، على الأقل، إلى أن انحدرت أخته وخليفته «چوانا الثانية – Joanna II» بالمملكة إلى حضيض الحضيض. فى 1415 تزوجت "چيمس البوربونى – James of Bourbon"، الذى وضعها فى حالة أقرب ما تكون إلى الاعتقال. قتل عشيقها وسجن "سفورزا – Sforza" قائد حرسها، ولكن غطرسته جعلت البارونات يتمردون عليه ويطردونه. بعد ذلك ستبدأ سلسلة من المؤامرات والمكائد أكثر سوءًا بين چوانا وسفورزا وعشيقها الجديد "چيوڤانى كاراكيولو – Jiovani Caracciolo" ووريثها المتبنى "ألفونسو الأراجونى – Alfonso of Aragon" و"لويس الثالث الأنچوى – Louis III of Anjou"، الذين كانوا يتآمرون ضد بعضهم الآخر بكل الصور الممكنة؛ وبالرغم من أن چوانا ماتت فى 1435، كان لا بد من أن تمر ثمان سنوات أخرى قبل أن ينتصر ألفونسو فى النهاية، ويحصل على الاعتراف البابوى به كملك على نابولى.

** ** **

كانت مملكة أورشليم قد تم تدميرها على يد جيوش المماليك، ولكن التنظيمات العسكرية الثلاثة للفرسان بقيت وإن لفترات مختلفة. أحدثها التنظيم الألمانى: الفرسان التيوتون – Teutonic Kniqhts، انتقل بعد 1291 إلى ڤينيسا ليبقى هناك سنوات قليلة، ثم إلى مارينبورج على نهر "الڤستولا – Vistula" فى 1308؛ حيث سيخرجون من قصتنا، بينما واصل فرسان الهيكل والإسبتارية القيام بدورهم فى شؤون البحر الأبيض، رغم أن فرسان الهيكل لم يقوموا بذلك لفترة طويلة.

لنتناول فرسان الهيكل أولاً. من الصعب علينا فى أيامنا هذه أن نفهم – أو حتى نصدق – تأثيرهم فى العصور الوسطى المتأخرة. كان ذلك التنظيم قد أنشئ فى أوائل القرن الثانى عشر لحماية الحجاج الذين يفدون إلى الأماكن المقدسة بعد الحملة الصليبية الأولى، وفى غضون خمسين سنة كانوا قد أصبحوا راسخين فى كل ممالك العالم المسيحى تقريبًا، من الدانمرك إلى إسپانيا، ومن أيرلنده إلى أرمينيا؛ وفى غضون قرن كان "جنود يسوع المسيح الفقراء"، بالرغم من تعهدهم البنديكتى بالتقشف والطهارة والورع والطاعة، كانوا يمولون نصف أوروبا، كانوا قد أصبحوا أكبر الصيارفة ورجال المال فى العالم. بحلول العام 1225، كان يعتقد أنهم يملكون تسعة آلاف قطعة أرض فى كل من پاريس ولندن، وكانت منازلهم تستخدم كقلاع لحفظ الكنوز الضخمة. من فرسان الهيكل الإنجليز، اقترض هنرى الثالث الأموال التى اشترى بها جزيرة "أوليرون – Oleron" سنة 1235، ومن فرسان الهيكل الفرنسيين اقترض فيليپ الجميل مهر ابنته إيزابيلا عند زواجها من إدوارد الثانى ملك إنجلترا. كذلك دفعوا للويس التاسع الجزء الأكبر من الفدية، وأقرضوا إدوارد الأول ما لا يقل عن خمسة وعشرين ألف جنيه تورى – Livers Tournois، تنازلوا بعد ذلك عن أربعة أخماسها.

كان فرسان الهيكل أقوى ما يكونون فى فرنسا، كانوا بالفعل دولة داخل الدولة، ومع تزايد نفوذهم كان لا بد من أن يتزايد قلق فيليپ الجميل، إلا أنه كان هناك سبب آخر – أكثر مهانة – يجعله يتصدى لهم: كان فى حاجة ماسة للمال. كان قد جرد اليهود ورجال البنوك فى لومبارديا من ممتلكاتهم وطردهم، وتعامل مع فرسان الهيكل بالطريقة نفسها – وكان ذلك يعد بأن تكون ثرواتهم وممتلكاتهم فى مملكته لنفسه؛ لكى يحل مشكلته المالية مرة وإلى الأبد. هذا التنظيم، كما كان يعرف - سيكون عدوًا لدودًا، ولحسن حظه كان فى يده سلاح يمكنه أن يتصدى به لذلك. على مدى سنوات عدة، كانت هناك شائعات عن الطقوس السرية التى يمارسها الفرسان فى لقاءاتهم التى كانوا يعقدونها فى منتصف الليل. كان كل ما يحتاجه الآن هو أن يقوم بتحقيق رسمى، ولن يكون من الصعب أن يجد شهودًا عليهم، لقاء مكافآت مالية صغيرة، يقدمون له الدليل المطلوب. سيكون هذا الدليل أكثر من كاف لتحقيق هدفه. فرسان الهيكل من عبدة الشيطان الذين ينكرون المسيح ويمتهنون الصليب، كانوا يشجعون اللواط وليس السماح به فحسب. الأطفال غير الشرعيين الذين يولدون، يتم التخلص منهم بشوائهم أحياء.

فى يوم الجمعة، الثالث عشر من أكتوبر 1307 تم القبض فى پاريس على "چاك دى مولاى – Jacques de Moloy" المعلم الأعظم (The Grand Master) أو الرئيس

الأعلى للهيكل ومعه ستون من "الإخوة" القياديين[6]. ولإجبارهم على الاعتراف، تم تعذيبهم بداية بواسطة سلطان القصر، ثم سلموا للمحققين الرسميين لتعذيبهم مرة أخرى. على مدى ستة أسابيع تالية، خضع ما لا يقل عن 138 فارسًا للتحقيق، اعترف منهم 123 – ولم يكن ذلك مفاجئًا ولا مثيرًا للدهشة – بمن فيهم مولاى نفسه، ببعض الاتهامات الموجهة إليهم، على الأقل. فى الوقت نفسه كتب فيليب إلى زملائه الملوك يحثهم على التصرف مثله. إدوارد الثانى ملك إنجلترا، الذى ربما كان يشعر بالأرض ضعيفة تحت قدميه، كان أكثر ميلًا للمماحكة وإثارة الاعتراضات التافهة مع والد زوجته، ولكن عندما جاءت تعليمات حازمة من البابا كليمنت – الذى كان على استعداد لمساعدة الملك الفرنسى بكل ما يستطيع من وسائل – لم يعد مترددًا. تم اقتياد المعلم الأعظم للتنظيم إلى السجن فى التاسع من يناير 1308 ليلحق به فرسانه بعد ذلك.

كان لفرسان الهيكل – كذلك- أبطالهم. أثناء استجواب دى مولاى بواسطة ثلاثة كاردينالات، كان البابا قد أوفدهم إلى باريس، سحب دى مولاى اعترافه، وكشف صدره لتظهر آثار التعذيب الذى تعرض له، وفى أول اجتماع لمجمع الكرادلة، هدد ما لا يقل عن عشرة من أعضائه بالاستقالة احتجاجًا على سياسته، إلا أنه كان من المستحيل عكس اتجاه التيار. فى أغسطس، جدد المعلم الأعظم اعترافاته السابقة عند استجوابه مرة أخرى.

بدأت المحاكمات العلنية للتنظيم فى الحادى عشر من أبريل 1310، مع الإعلان بأن أية محاولة من أى من المتهمين للتراجع عن أى اعتراف سابق ستعرضه للإعدام حرقًا بالشد على خازوق؛ وفى الثانى عشر من مايو لقى أربعة وخمسون فارسًا المصير نفسه، وفى الأسبوعين التاليين تبعهم تسعة آخرون. مضى الأمر على هذا النحو لمدة أربعة أعوام أخرى، كان الملك والبابا أثناءها يتشاوران – وهو ما يؤكد الشكوك التى لم تتوقف – حول كيفية التصرف فى ثروة التنظيم الطائلة. فى الوقت نفسه كان «چاك دى مولاى» يذوى فى سجنه فى انتظار تقرير مصيره، وفى الرابع عشر من مارس 1314 ستأتى به السلطات إلى المقصلة، أمام كاتدرائية نوتردام؛ ليكرر اعترافاته للمرة الأخيرة.

كان هناك سبب يجعلهم يندمون على قرارهم. كرئيس أعلى للتنظيم، من الصعب أن نقول: إن چاك دى مولاى كان قد أبلى بلاء حسنًا على مدى السنوات السبع السابقة. اعترف، سحب اعترافه، ثم اعترف مرة أخرى؛ لم يُبدِ أى بطولة ولا حتى ظهرت عليه بعض صفات القيادة. ولكنه كان الآن شيخًا فى خريف العمر، كان فى منتصف العقد

السابع وقدمه فى القبر. لم يكن لديه ما يخسره. وهكذا، مدعومًا من صديقه «چيوفروى الشارنارى – Geoffroy de Charnari» تكلم دون تردد وبوضوح: يعلم الله أنه هو وتنظيمه كانوا أبرياء من التهم التى نسبت إليهم. على الفور، قام القيمون على السجن بترويعهما، وهرع الرسل إلى فيليب. لم يؤخر الملك قراره. فى ذلك المساء نفسه، نُقِلَ الفارسان إلى جزيرة صغيرة فى السين حيث كانت الخوازيق معدة لإعدامهما حرقًا.

بعد ذلك، أشيع أنه دعا الله قبل موته مباشرة أن يقصف عمر البابا والملك قبل انقضاء العام، وحدث أن مات البابا فعلًا قبل مرور أقل من شهر، وقتل الملك فى حادث فى أواخر نوفمبر تقريبًا.[7] واجه الرجلان عملية الحرق بشجاعة وماتا بشكل نبيل. وبعد أن حل الليل جاء رهبان دير القديس أوغسطين من الشاطئ المقابل؛ ليجمعوا عظامهما فى وقار وتبجيل مثل عظام القديسين والشهداء.

** ** **

بالرغم من أن الإسپتارية (فرسان سان چون) لم يكن لهم أى دور فى اضطهاد فرسان الهيكل وإبادتهم – وربما يكون من الظلم حتى أن نقول: إنهم أبدوا أى قدر من الشماتة - لا شك أنهم كانوا أكبر المستفيدين من نكبة إخوانهم. برسالة بابوية بتاريخ الثانى من مايو 1312، قرر البابا كليمنت أن تؤول كل ثروة فرسان الهيكل وممتلكاتهم – خارج مملكة قشتالة وأراجون والبرتغال ومايوركا التى شملها بقراره – إلى تنظيم الإسپتارية؛ وبالرغم من أن الملك فيليپ حصل على معظم مكافأته المقررة، كان الإسپتارية هم الذين وجدوا أنفسهم فجأة أغنى مما كانوا يتوقعون.

كان تنظيم الإسپتارية فى الأصل أقدم من تنظيم فرسان الهيكل. كان شارلمان قد أنشأ نزلًا (تكية) ظل مستخدمًا حتى سنة 1010 عندما دمره الخليفة الحاكم، الذى كان متعصبًا معاديًا للمسيحيين. فى سنة 1023 تقريبًا اشترى جماعة من تجار أمالفى الموقع وأعادوا بناء النزل تحت سلطة «البندكتيين – The Benedictines». بعد ذلك نذروا المكان لـ "يوحنا المعمدان – St John the Baptist"، وبعد الغزو اللاتينى لأورشليم فى 1099، جعله مديره "الأخ چيرار – Brother Gerard" مركزًا لتنظيمه الدينى بهدف وحيد، وهو رعاية وعلاج المرضى، إن أمكن. ثم جاء خليفته "ريمون البيوى – Remond of the Puy" الذى قام بمراجعة قوانينه وحدد له هدفه الثانى: الحماية العسكرية للحجاج المسيحيين. من ثلاثينيات القرن الثانى عشر، سيقوم فرسان الهيكل والإسپتارية بدور منتظم فى حروب الصليب. كلاهما (فرسان الهيكل والإسپتارية) كان تنظيمًا عسكريًا. لم ينس الإسپتارية أنهم كانوا فى الأصل "إخوة ممرضين" واجبهم

هو تقديم المساعدة للمرضى، وعندما لا يكونون فى حالة قتال سيشغلون أنفسهم ببناء وتجهيز مستشفياتهم التى كان مستوى العلاج الذى يقومون به فيها، الأرقى من نوعه فى العصور الوسطى.

بعد سقوط عكا والشرق الفرنجى، لجأ فرسان الإسبتارية إلى ليماسول، ولكنهم لم يكونوا يريدون أن يكونوا تحت سيادة أو رعاية "بيت لوزينان – Lusignan"، وفى 1306 توصل "فولك دى ڤياريه – Foulques de Villaret" معلمهم الأعظم، بإذن من البابا كليمنت، إلى اتفاق مع قرصان من جنوة يدعى "ڤيجنولو دى ڤيجنولى – Vi-gnolo de Vignoli" للقيام بهجوم مشترك على جزيرة رودس التى كانت آنذاك جزءًا من الإمبراطورية البيزنطية. جغرافيًّا، كان ذلك اختيارًا مثاليًّا. كانت على بعد عشرة أميال من شاطئ آسيا الصغرى، الطريق الذى يمر به كثير من السفن التجارية المتحركة بين موانئ غرب أوروبا وموانئ الشرق اللاتينى. كانت مرتفعاته الجبلية التى تصل إلى نحو أربعة آلاف قدم، توفر عدة نقاط ممتازة لمراقبة آسيا الصغرى وجزر الدوديكانيز؛ حيث كان يمكن فى الأيام التى تصفو فيها الرؤية، أن تشاهد منها تخوم جبل "أيدا – Ida Mount" فى كريت، الواقعة على بعد أكثر من مائة ميل ناحية الجنوب الغربى. كانت الأراضى غنية بالبساتين ومزارع الكروم بما يضمن توفير الكثير من الغذاء والنبيذ، وكانت غابات الصنوبر الشاسعة تنتج كميات كبيرة من الأخشاب لبناء السفن، بالإضافة إلى أن الناس هناك كانوا يعتزون بتراث ملاحى منذ القدم. كان عالم الملاحة الرومانية فى الشرق يضم الكثيرين من أهالى رودس، وكذلك كل الأساطيل البيزنطية المتوالية. فإذا كان الفرسان سوف يتشبثون بهذه الأراضى ليصبحوا رجال بحر، فسوف يجدون هنا أفضل من يقوم بتعليمهم بناء السفن والملاحة وفنون الحرب.

بداية، كان لا بد من غزو الجزيرة. قاوم شعبها ببسالة، وبعد عامين من القتال العنيف سقطت مدينة رودس نفسها، بمينائها الرائعين، فى أيدى الفرسان. فى الخامس عشر من أغسطس فتحت أبوابها وبعد عام أصبحت المركز الرسمى لقيادة التنظيم. على الفور، تم التوصل إلى اتفاق مع ڤيجنولو كانت فحواه أنه فى مقابل ثلث العائد، يحتفظ الفرسان بالجزيرة بكاملها باستثناء قريتين صغيرتين إلى جانب الجزر المجاورة "كوس – Kos" و"كاليمنوس – Calymnos" وجزر أخرى عديدة من الدوديكانيز. كانت صفقة ممتازة. بعد تسعة عشر عامًا أصبح لهم وطن دائم – على جزيرة أصبحت بموجب مرسوم بابوى لاحق ملكًا لهم بشكل نهائى. فى ظل هذه الظروف المستجدة، لم يكونوا تنظيمًا للفرسان فحسب، بل أصبحوا دولة ذات سيادة. أخيرًا، أصبح بإمكانهم

استئناف حربهم ضد "الكفار"، بهدفها المعلن وهو "إسكات أعداء المسيح"، وحتى وهم يقومون بذلك لم ينسوا قط أنه كان لديهم واجب آخر، ما زال أكثر إلحاحًا. كانت إحدى مهامهم الأولى بعد أن استقروا فى رودس هى الشروع فى بناء مستشفاهم الجديد، وكان أن أصبح أشهر مستشفى فى العالم. الجناح الرئيسى الباقى إلى الآن، مثلما تركه التنظيم تقريبًا قبل خمسة قرون، يتسع لما يقل عن خمسة وثمانين مريضًا، كلهم تتم رعايتهم بواسطة الفرسان أنفسهم.

أنشأوا كذلك هيكلًا إداريًّا جديدًا، على رأسه "المعلم الأعظم – The Grand Master"، وتحته كان التنظيم مقسمًا بناء على ثمان لغات أو ألسن: هى لغات فرنسا وبروفنس وأوفيرجن وإنجلترا وإيطاليا وألمانيا وأراجون وقشتالة – لكل منها درجة كبيرة من الاستقلالية؛ ولربط هذه المجموعة المتعددة الأجناس واللغات، تقرر أن يتحمل كل "لسان" مسئولية القيام بمهمة واحدة. وهكذا كان الأدميرال، دائمًا، إيطاليا؛ والقائد الأعلى بروفنساليا، والمارشال أوفيرجينيا، والمساعد الأول ألمانيا، أما قائد القوات فكان إنجليزيًّا ومسئولًا عن الدفاعات الساحلية للجزيرة. كان لزامًا على كل فارس أن يرتدى فوق ردائه أو عباءته الصليب الثمانى، "لكى يشعر باستمرار بأنه يحمل فى قلبه صليب المسيح، مزينًا بفضائل ثمانية ترعاه".

داخل اللغات، كان الفرسان مقسمين إلى ثلاث طبقات رئيسية: أولًا: فرسان العدل وكانوا يجندون من أبناء العائلات الأرستقراطية الأوروبية وعليهم أن يقدموا ما يثبت نبالة أصولهم. يأتى بعدهم فى المرتبة: "الإخوة"، الذين يقومون بالخدمة، وكانوا من درجة اجتماعية أقل قليلًا، بعضهم قد يكونون جنودًا أو دبلوماسيين أو موظفين، وآخرون يعملون بالمستشفى. المستوى الثالث كان من القساوسة الملحقين للخدمة فى الكنائس وأماكن العبادة. كان على كل فارس أن يخدم لمدة عامين أولًا على سبيل الاختبار، يقضى عامًا منهما على السفن الحربية، كما كان عليه أن يؤدى هذا القسم:

> **إنك تتعهد وتقسم أمام الرب وبسيدتنا وسيدنا القديس يوحنا المعمدان أن تعيش وتموت على الطاعة، كما تتعهد أن تعيش بلا ملكية خاصة بك. وهناك عهد آخر يقدمه التنظيم فقط: أن تكون عبدًا لسادتنا المرضى.**

ظل الكثيرون منهم فى الخارج فترة طويلة من حياتهم فى مراكز القيادة المحلية للتنظيم، ولكنهم جميعًا وبلا استثناء كان لا بد من أن يعودوا إلى رودس فور استدعائهم.

مع مرور القرن الرابع عشر، لم يكن غريبًا إلى حد كبير أن يبدأ الفرسان فى التخلى

عن بعض مثلهم الأولى. بالرغم من بقاء مستشفاهم مزدهرًا واجتذابه مرضى من كل أنحاء الشرق الأوسط، فإن ثروتهم التى كانت تتزايد باضطراد – مصحوبة ربما بالمناخ الأقرب للكمال الذى كانوا يعيشون فيه – أدت إلى تراخٍ تدريجى فى عاداتهم الرهبانية التقشفية، إلا أنهم لم يهملوا واجباتهم العسكرية قط. استمروا فى ضبط أمن البحار الضيقة، وكان قناصلهم فى مصر وأورشليم يرعون مصالح الحجاج المسيحيين، كما استمروا فى ضغطهم على الأتراك، وبخاصة تعطيل تطورهم كقوة بحرية من الدرجة الأولى. تحالفوا فى 1348 مع ڤينيسيا وقبرص واستولوا على سميرنا (أزمير)، ونجحوا فى حمايتها من هجوم تركى مضاد بعد عشر سنوات، وفى 1365 أسهموا فى الجهد الأخير لإنقاذ الأراضى المقدسة من "الكفار".

كان حليفهم وملهمهم فى هذا الظرف "بيتر الأول – Peter I" ملك قبرص، أول ملك منذ القديس لويس تلهب الروح الصليبية مشاعره. كلهم وعدوه بالمساعدة: البابا أوربان الخامس فى أڤينون، الإمبراطور شارل الرابع فى براغ، چون الثانى فى فرنسا، إدوارد الثالث فى إنجلترا، كما كانت هناك مشاركة بحرية من ڤينيسيا. تجمعت الحملة فى رودس فى أغسطس 1365 مع قوة بحرية - تقدر بـ 165 سفينة من بينها 108 من قبرص – كانت أكبر قوة مشتركة منذ الحملة الثالثة. بعد إقلاع الأسطول بكامله تم الإعلان أن الوجهة الأولى كانت الإسكندرية. رست الحملة هناك فى التاسع من أكتوبر، وبعد يومين، كانت المدينة فى أيديهم.

ما حدث بعد ذلك لا يمكن وصفه سوى أنه كان مذبحة، أسوأ من تلك التى كان جنود الحملة الأولى قد ارتكبوها فى أورشليم 1099، وتلك التى ارتكبها الفرنجة فى القسطنطينية فى 1204. كان القتل بلا تمييز. الجماعات المسيحية واليهودية المهمة... مثلها مثل الأغلبية المسلمة. كان الهم واحدًا. الكنائس والمعابد كلها سواء... كلها أحرقت. خمسة آلاف أسير تم بيعهم عبيدًا. مذعورًا للوجهة التى أخذتها الأحداث، بذل الملك بيتر قصارى جهده لإعادة الهدوء للمدينة والحفاظ على البقية الباقية منها، ولكن الجيش كان مستمرًّا فى السلب والنهب والتدمير قبل أن يصل جيش مملوكى من القاهرة لينتقم. لم يكن هناك خيار أمام الملك سوى أن يأمر أسطوله بالعودة إلى قبرص. حتى آنذاك، كان يتمنى أن يعود إلى الشرق فى حملة ثانية، ولكن عندما وصل الأسطول إلى فاماجوستا كان الجيش قد تشرذم وتفسخ، وكان الفرسان والجنود على السواء لا يفكرون فى شيء سوى العودة على وجه السرعة، كل إلى بلده بما غنم.

كانت تلك هى الحملة الأخيرة وأكثرها مدعاة للعار، فقد عرقلت فكرة التقدم فى

المتوسط فى أفضل مرحلة من القرن الذى حدثت فيه. عندما حدثت، كان الفرنجة والمماليك فى حالة سلام لمدة خمسين عامًا أو يزيد. كان الحجاج يسافرون بكل حرية إلى الأماكن المقدسة. كانت التجارة بين الغرب والعالم الإسلامى مزدهرة. الآن.. استيقظت كل العداءات والثارات القديمة فجأة: بدأت المجتمعات المسيحية المحلية مرة أخرى تعانى من الاضطهاد، ومرة أخرى أُغلِقت كنيسة الذخائر المقدسة فى وجه الحجاج. أما بالنسبة للمماليك فى مصر، فقد أصبحت قبرص المسيحية مرة أخرى عدوهم اللدود، وكان لا بد من أن يثأروا لأنفسهم.

لن نكون منصفين إذا ألقينا باللوم على الإسبتارية لهذه الكارثة؛ إذ إن حياتهم كانت مكرسة قبل كل شىء لإنقاذ الحياة وليس للقضاء عليها، كان قَسَم الفقر يستبعد أى شكل من أشكال السلب والنهب، كما أنهم كانوا قد عاشوا طويلًا فى الشرق وفهموا معنى ومبادئ التعايش، ولا شك كبيرًا فى أن يكونوا قد صدموا، مثل أى شخص آخر، لسلوك حلفائهم، ولا بد من أن يكونوا قد بذلوا كل ما فى وسعهم لممارسة تأثير معتدل. كان كل ذنبهم هو الربط بينهم وبين ما حدث. بالرغم من ذلك، فمذبحة الإسكندرية تشير إلى مرحلة الحضيض فى تاريخهم، وتلطخ سجلهم ببقعة هى الأكثر سوادًا. بالنسبة للباقين، فهم ككسالى وغير مؤثرين كشأنهم دائمًا، يظل صحيحًا أنهم طوال فترة بقائهم فى رودس التى استمرت 231 سنة، ومعظم فترة احتلالهم لمالطة التى استمرت 268 سنة بعدها، كانوا قوة مفيدة فى أورشليم، وحاسمة – أحيانًا - فى شؤون المتوسط.

** ** **

يعد قصر الحمراء فى غرناطة أحد المعالم الإسلامية الرائعة الباقية فى أوروبا، يخلب ألباب كل زائريه جمال معماره وروعة نقوشه وسحر الأضواء والظلال فى ساحته وحدائقه. أقواسه المصممة على شكل حدوة الحصان، والخطوط العربية الملتفة كالدوامة، والقباب والأعمدة المدلاة من السقوف المعقودة.. كل ذلك يعبر عن روح الإسلام على أجمل ما يكون. ثم فجأة، تجد نفسك أمام شىء غير متوقع. فى ثلاث قباب من "صالة العدل" تجد نقوشًا غير عادية فى السقف مرسومة على الجلد وهو ما قد يعتبر غريبًا، وإن كان يجعلها متميزة فى مادتها. ترى فى القبة الوسطى عشرة رجال، يبدو عليهم من مظهرهم أنهم عرب فى مجلس، وعلى كل جانب مناظر صيد وقتال ولعب شطرنج ومطارحات غرامية كلها على الطراز المسيحى الأوروبى فى العصور الوسطى المتأخرة. الطراز ينتمى إلى القرن الرابع عشر، ولذا لا بد من أن يكون معاصرًا للقصر نفسه الذى اكتمل بناؤه نحو عام 1350، ولكن كيف تم تصوير ذلك؟

المعروف أن عقيدة الإسلام تحرم الرسم الفنى وبخاصة البشر.[8] كان أمام غرناطة الإسلامية قرن ونصف القرن لكى نصل إليها. ما يمكن استنتاجه هو أنه لا بد أن يكون حاكم إسلامى قد كلف فنانًا مسيحيًا برسم تلك الصور، وهذا بدوره يدل على أنه كان هناك تعايش ووئام بين العقيدتين.

أحد أسباب ذلك أن حروب الاسترداد كانت قد انتهت بحلول الربع الثالث من القرن الثالث عشر، وكان الملك «بدرو الثالث – Pedro III" ملك أراجون مشغولاً بمغامراته الصقلية، بينما كان معاصره "ألفونسو العاشر – Alfonso X" حكيم قشتالة، المثقف واسع الاطلاع أكثر اهتمامًا بالتفاوض من أجل تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة وتدعيم مطلبه الأسرى بـ "جاسكونى – Gascony" أكثر من اهتمامه بقتال غير المؤمنين. أما بالنسبة لـ "سانشو الرابع – Sancho IV" ابن ألفونسو و"ألفونسو الحادى عشر – Alfonso XI" حفيد سانشو – الذى أدى طول الفترة قبل أن يبلغ السن القانونية إلى حرب أهلية وثلاث عشرة سنة من الفوضى، إلى أن أعلن بلاط قشتالة عن بلوغه السن القانونية فى 1352 – فقد كان عليهم أن يفعلوا الكثير لصد غزوات بربر المغرب، وكانت نجاحاتهم محل ترحيب من حكام غرناطة المسلمين أكثر من التفجع عليها.

بصعود بدرو الأول ابن ألفونسو الحادى عشر عرش قشتالة (كان أكثر شهرة بلقبه "بدرو المؤذى" وهى تسمية مستحقة) فى 1350، بدا الأمر فى لحظة ما وكأن التعايش المسيحى – الإسلامى قد بات مهددًا. ولكن بدرو كان مهتمًا فى الفترة الأولى من حكمه بحياته الأسرية فى المقام الأول؛ إذ قام بسجن زوجته المنكودة "بلانش البوربونية – Blanche of Bourbon"، التى يرجح أن يكون قد قتلها (رغم أن ذلك لم يتم إلا بعد زواج على ضر)، وفيما بعد تم التحفظ عليه من قبل أعدائه فى القصر. بعد إطلاق سراحه فى 1356، ارتكب سلسلة من أعمال القتل قبل أن يواجه فى 1360 بحرب أهلية بقيادة أخيه، غير الشقيق وغير الشرعى، "إنريك التراستامارى – Enrique of Trastamara".

فى المحاولات المبذولة من كلا الطرفين للحصول على دعم عالمي، انزلقت قشتالة بسرعة فى "حرب المائة عام – The Hundred Years War"، الإنجليز يدعمون بدرو – وبخاصة الأمير الأسود إدوارد – والفرنسيون يدعمون إنريك. لم يستمر التحالف الإنجليزى طويلاً. عاد إدوارد الذى أثارت اشمئزازه خيانة بدرو ووحشيته إلى إنجلترا سريعًا، مصابًا بالمرض الذى سيقضى عليه بعد فترة قصيرة. أما بدرو الذى بقى بمفرده، فانهزم أمام إنريك وحليفه الفارس الفرنسى الشهير "برتران دى چيسكلا

Bertrand de Guesclin –"، وفى الثالث والعشرين من مارس 1369 قام إنريك بطعن پدرو ليقتله فى خيمة چيسكلا؛ ليصبح فى الوقت نفسه إنريك الثانى ملك قشتالة، وباعتباره خليفة لـ "پدرو"، كان لا بد من أن يكون ذلك تغيرًا إلى الأفضل.

فى 1371، عقدت إحدى صلات المصاهرة الإسپانية القليلة مع إنجلترا، عندما تزوج "چون الجونتى – John of Gaunt" دوق لانكستر، الابن الأكبر الباقى من أبناء إدوارد الثالث، من "كونستانس – Constance"، ابنة پدرو غير الشرعية، غيابيا، ولقب نفسه بـ "ملك قشتالة". كان ذلك قبل خمسة عشر عامًا من ذهابه إلى إسپانيا مطالبًا بميراثه؛ وأخيرًا فى السابع من يوليو 1386، أبحر من "بليموث – Plymouth" بصحبة زوجته وابنتين وجيش قوامه نحو عشرين ألف جندى. بعد شهر، رسا فى "كورونا – Co-runna"، وسرعان ما نصب نفسه سيدًا على معظم "جاليسيا – Galicia" فى الجانب الشمالى الغربى من البلاد. بعد ذلك شارك بقواته فى ربيع 1387 مع صهره چون الأول ملك البرتغال (الذى كان متزوجًا آنذاك من ابنته "فيليپا – Philippa") فى عملية غزو مشتركة لقشتالة. فشلت الحملة وانتشر المرض بسرعة فى المعسكر وأصيب الملك نفسه، وضاعت مرة أخرى الأراضى التى كان قد تم الاستيلاء عليها، وأجبر الجيش على الانسحاب عبر البرانس. وأخيرًا، وقع "جونت – Gaunt" اتفاقية فى 1389، تنازل فيها عن مطالبته بالعرش مقابل مائتي ألف كراون ومعاش سنوى كبير وزواج ابنته "كاترينا – Catherine" من ملك قشتالة المستقبلى إنريك الثالث، وبذلك حصل بشكل عام على أكثر مما كان يستحق.

خلال تلك الفترة، كان مسلمو غرناطة يعيشون فى سعادة وفى سلام نسبى، إلا أننا – وبكل أسف – لا نستطيع أن نقول الشىء نفسه عن اليهود. ماليا، كان إنريك يعتمد عليهم مثل كل الآخرين، ولكنه أثار الأحقاد عليهم أثناء الحرب الأهلية صراحة، وبمرور الوقت زادت حدة مشاعر معاداة السامية التى اشتعلت مثل نار الغابة فى 1391. بدأت فى "سيڤيل – Seville" (إشبيلية) فى السادس من يونيو. فر عدد كبير من اليهود للنجاة بحياتهم؛ ومثل المعابد تم تحويل كثيرين آخرين عنوة إلى المسيحية. انتشر اللهب بسرعة عبر الأندلس أولًا ثم إلى بقية شبه الجزيرة، حتى إلى ما وراء البرانس لتصل النار إلى "پيرپچنان – Perpignan". بعد فترة ساد هدوء مؤقت، إلى أن وقع "فرديناند – Fer-dinand" و"إيزابيلا – Isabella" المرسوم المشئوم فى 1492، بطرد كل اليهود من الأراضى الإسپانية.

** ** **

فى بداية الـ "ديكاميرون – Decameron" لـ "بوكاشيو"، يفر عشرة شبان من فلورنسا بسبب الوباء. كان الجو الخانق لما اصطلح على تسميته بـ "الموت الأسود – The Black Death" يخيم على النصف الثانى من القرن الرابع عشر. كان الوباء قد ظهر أولًا فى القسطنطينية فى ربيع 1347، والمؤكد أن السفن الهاربة من مستوطنة "كافا – Caffa" التجارية فى جنوة هى التى كانت قد حملته؛ (الآن فيودوسيا – Feodosiya فى القرم) وكانت آنذاك تحت حصار المغول. كانت المدينة قد عانت أوبئة كثيرة على مر القرون، إلا أن ذلك كان الأكثر ضراوة والأوسع انتشارًا. كان البكتير القاتل المسبب للمرض – كما نعرف الآن – قد انتقل من البراغيث التى بدورها (رغم عدم حصرية ذلك) كانت الفئران التى امتلأت بها السفن القادمة من الشرق تحملها. الغريب أن تلك الفئران نفسها كانت قادمًا جديدا نسبيًّا على أوروبا، وصلت الأعداد الأولى منها ربما مع سفن الصليبيين العائدة من فلسطين، ولكنها كانت سريعة التكاثر، وبحلول منتصف القرن كان يوجد ما يكفى مثلها لنشر المرض فى أرجاء القارة الأوروبية. لسنا فى حاجة بالضرورة لأن نصدق مؤرخ مدينة "إيستى – Estc" الإيطالية المجهول، الذى يزعم أن الوباء أدى إلى وفاة ثمانية أتساع عدد السكان، وربما كان ذلك يبدو للبيزنطيين البرهان الأخير على ما ظلوا يشكون فيه لفترة طويلة، وهو أن السيدة العذراء راعيتهم، وحاميتهم كانت قد تخلت عنهم بعد أكثر من ألف عام.

البحر الأبيض المتوسط، على نحو خاص، كان قد عرف الموت الأسود مبكرًا فى 1347، عندما وصلت 12 سفينة من مسينى إلى جنوة. الاحتمال الأكبر أنها كانت قد جاءت من كافا، والمؤكد أن أسطولًا جنويًّا آخر كان قد نقل العدوى من هناك إلى جنوة وڤينيسيا وصقلية فى يناير 1348. ومن هذه المناطق انتشر الوباء شمالًا إلى كورسيكا، وجنوبًا إلى تونس وشمال أفريقيا، وغربًا إلى الجزر الباليرية، ثم إلى برشلونة وڤالينسيا على الساحل الإسبانى، ثم حتمًا إلى الشمال الإيطالى عبر المضايق؛ لينتشر بسرعة فى شبه الجزيرة.

من بين كل المدن الإيطالية كانت فلورنسا هى الأكثر معاناة. التقديرات المعاصرة لا يعتد بها، ولكن هناك دلائل كثيرة تبين أن ما بين خمسين وستين ألفًا من إجمالى سكانها الذين كانوا يقدرون بخمسة وتسعين ألف نسمة - قد لقوا حتفهم فى غضون ستة أشهر من بداية ظهور الوباء. بوكاشيو نفسه يزودنا – فى هذا السياق – بصورة وصفية لا تنسى: الفرار العشوائى لكل السكان من المدن والبلدات المختلفة تاركين وراءهم بيوتهم وممتلكاتهم، الطريقة التى كانوا يتركون بها المرضى والأطفال يلقون حتفهم دون أن يجرؤ أحد على الاقتراب منهم، عمليات الدفن الجماعى فى حفر يتم تجهيزها على

عجل، الماشية الطليقة التي تركها أصحابها هائمة في المناطق الريفية. يقال: إن ستمائة مواطن كانوا يموتون يوميًا في ڤينيسيا عندما كان الوباء في ذروته، وفي "أورڤيتو – Orvieto" كان أمرًا متوقعًا أن يموت أحد الوالدين أو أحد الأبناء في كل أسرة مكونة من أربعة أفراد. في "سيينا – Siena" – حيث قدر عدد الموتى بخمسين ألفًا؛ أي ثلثا عدد السكان. كانوا يقومون ببناء الكاتدرائية التي ستكون واحدة من أعظم الكاتدرائيات في العالم المسيحي. كل العمال ماتوا. توقفت عملية البناء، وبالرغم من استئناف العمل قرب نهاية القرن، لم يكتمل إلى يومنا هذا ما كان مخططًا. أما بالنسبة لإيطاليا ككل، فإذا قلنا: إنها فقدت ثلث، أو أكثر قليلًا من ثلث سكانها، فلن نكون بعيدين عن الصواب كثيرًا. في فرنسا، كانت القصة نفسها. بدأ الوباء، كما يعتقد، في مرسيليا. بعد أسابيع قليلة كان قد وصل إلى البرانس، وبحلول أغسطس 1348 كان قد انتشر في "بوردو – Bordeaux". في الشرق، ضرب أڤينون البابوية في شهر مارس ليقضي على الأقل على نصف السكان، بمن في ذلك كل فرد من المجتمع الإنجليزي في "أوستن فرايارز – Austin Friars" في المدينة. البابا كليمنت السادس نفسه آوى إلى مسكنه الخاص؛ حيث لم يكن يستقبل أحدًا، وكان يقضي نهاره وليله "يحمص" نفسه بين مدفأتين (نجحت الطريقة ولم يمت البابا). في الوقت نفسه كان البكتير قد انتشر في "وادي الرون – Rhone Valley" كله حتى ليون، وبحلول يونيو كان يشق طريقه نحو پاريس نفسها.

أثناء انتشاره، كان الأكثر تقوى من الأهالي ينسحبون للصلاة وخاصة في مدن الشمال الرئيسية، وعلى أية حال كان رد الفعل السائد على الموت الوشيك أشبه ببهجة محمومة مجنونة. ولم لا؟ إذا كان الرب قد تخلى عن شعبه، فلماذا يطيعون وصاياه؟ إذا كانت حياتهم سوف تنتهي بهذه القسوة وبهذه السرعة، فلتكن الأيام الأخيرة من العمر مكرسة للملذات والمتع الحسية... سواء في ذلك متع المائدة أو الزجاجة أو الفراش.. أو الثلاثة وذلك أفضل ! في پاريس؛ حيث لم يكن أحد يستخف بمثل تلك المباهج، كان هناك شبه انهيار أخلاقي على المستويين العام والخاص. بطول وعرض المتوسط كانت القصة هي ذات القصة. في قبرص، حيث كانت بداية الوباء قد تصادفت مع زلزال شديد تبعته موجة بحرية قوية، كانت مذبحة رهيبة قام بها ملاك الأراضي ضد عبيدهم العرب؛ خشية أن يستغل العبيد ظروف الفوضى العامة للتمرد عليهم. على ساحل دالماشيا، كان أمام مواطني "سالونا – Salona" (سپليت – Split) خطر مختلف كان عليهم مواجهته: كانت أعداد هائلة من الذئاب الضارية قد نزلت من الجبال على المدينة لتهاجم المرضى والناجين على السواء. كان الهلاك كبيرًا وشديدًا لدرجة أن الشوارع كانت تظل مكدسة بالجثث بالأسابيع قبل أن يتم دفنها.

في إسپانيا، بعد أن كان الوباء قد انتشر أولًا في المدن الساحلية، كان يتحرك بطيئًا،

ولكن بقوة، ليجتاح مملكة أراجون. ملكها بدرو الرابع الذى نجا شخصيًا، فقد إحدى بناته أولًا، ثم ابنة عم له، وفى أكتوبر فقد زوجته الثانية "إليانور البرتغالية – Eleanor of Portugal". انتقل الوباء بعد ذلك إلى الأراضى الإسلامية ثم إلى جيش قشتالة الذى كان يقوم آنذاك بحملة استرداد فى الجنوب بقيادة الملك ألفونسو الحادى عشر شخصيًا. فى 1344 كان قد استولى على "الچيسيراز[9] – Algeciras" ويقف الآن أمام جبل طارق. على خلاف المدافعين عن الصخرة، كانت قوات الحصار بعيدة عن خطر الوباء طوال فصل الصيف، إلا أن المرض بدأ فى الانتشار فى صفوفهم مع بداية مارس 1350. كان چنرالات ألفونسو يتوسلون إليه أن ينسحب إلى عزلة تقيه المرض إلا أنه رفض أن يترك رجاله. مات يوم "الجمعة الحزينة[10] – Good Friday" الموافق للسادس والعشرين من مارس، ليكون الملك الحاكم الوحيد الذى قضى بالطاعون أو "الموت الأسود". چوانا، ابنة إدوارد الثالث ملك إنجلترا، ماتت فى بوردو، وهى فى طريقها للزفاف إلى "بدرو المؤذى – Pedro the Cruel"، ابن ألفونسو. لم تنج منطقة قشتالة ذاتها من الوباء، إلا أن إصابتها كانت خفيفة، وذلك بفضل (كما كان يعتقد آنذاك) رغبة الطبقات الإقطاعية فى نقل ممتلكاتهم للكنيسة. عندما انقضت فترة الطوارئ، اتضح أنهم كانوا قد فعلوا ذلك، وعلى هذا النطاق، لكى يخلوا بالتوازن الاقتصادى للبلاد؛ وفى 1351 اضطر الملك بدرو الأول إلى إصدار أوامره للسلطات الإكليركية بإعادة ما كانوا قد حصلوا عليه.

أحدث الطاعون أو الموت الأسود خسائر فى الأرواح أكثر من أى حرب معروفة أو أى وباء آخر فى التاريخ. كان تأثيره كبيرًا على التجارة العالمية ولكنه كان قصيرًا، أما الذى استمر لفترة أطول فكان تقلص الرقعة الزراعية وذلك بسبب موت أعداد كبيرة من العمال الزراعيين. اضطر ذلك ملاك الأراضى لزيادة الأجور، وهو ما أدى بدوره إلى إضعاف البنية الطبقية الصارمة التى كانت موجودة فى المجتمع؛ حيث بدأت الأيدى العاملة – لأول مرة – التنقل بحثًا عن عمل أو أجر أعلى.

فى مجال الفنون، وبخاصة فى التصوير والنحت، كان هناك انشغال أكبر بالموت عن ذى قبل، أما بالنسبة للجوانب الروحية، فقد اهتز إيمان كثير من المسيحيين بسبب عدم الجدوى الواضح للصلاة، وعجز الكنيسة أمام الوباء.

بعد 1350، لن تكون أوروبا كما كانت.

** ** **

عندما ذهب الإمبراطور الرومانى المنتخب لويس الرابع من باڤاريا إلى إيطاليا لتتويجه فى 1327، كان ذلك بتوجه مختلف تمامًا عن توجه سلفه "هنرى اللكسمبورجى[11] – Henry of Luxemburg". هذه المرة لم يكن هناك أى تعلق بالمثل العليا، ولا ادعاء نزاهة أو تجرد، ولا إيماءة نحو أڤينون. ذهب لويس بدعوة من الجيبيليين فى إيطاليا، مصطحبًا معه "مارسيليوس البادوى – Marsilius of Padua" أشد المعادين لأتباع البابا فى زمنه. قبل عامين فحسب، كان رئيس الجامعة (السوربون) السابق هذا قد نشر عمله الذى يحمل عنوان: "Defensor Pacis" الذى كان يجادل فيه بأن البنية الكاملة للسيادة البابوية والقانون الكنسى كانا مخالفين لمبادئ المسيحية الأساسية. لم يكن من المرجح أن تزيد هذه الرفقة من شعبية لويس فى أڤينون، وقبل وصوله إلى روما بوقت طويل كان قد جلب على نفسه حكمًا مزدوجًا من البابا چون الثانى والعشرين بحرمه كنسيًّا وعزله؛ إلا أن المكانة البابوية آنذاك كانت قد هبطت فى إيطاليا، وربما أكثر من المكانة الإمبراطورية، ومر المرسوم البابوى دون التفات أو اهتمام. عندما تم تتويج لويس من قبل "سكيارا كولونا – Scarra Colonna" ممثلًا لشعب روما فى كنيسة سان پيتر فى يناير 1328، وبعد ثلاثة أشهر أعلن رسميًّا أن البابا كان مهرطقًا وعزله، وبدا الأمر أنه كان يريد أن يعيد السيطرة الإمبراطورية، إلا أنه عندما تقدم جنوبًا فى الأراضى النابولية، اتضح له أن روبرت ملك نابولى، حفيد شارل الأنچوى، كان عدوًّا أكثر خطرًا. كان روبرت ندًّا له من الناحية العسكرية، وعندما عاد لويس إلى روما وجد أن حركة البندول كانت قد انعكست. أدرك كذلك أنه لا يستطيع أن يأمل فى إقامة نظام مستقر فى إيطاليا، إلى أن يتأكد من ألمانيا؛ حيث كان الوضع يتدهور بسرعة. فى 1330، كان قد ذهب إلى ما هو أبعد من الألپ وكان قد استوعب الدرس: إيطاليا كبرت على الاستعمار، إن لم تكن جاهزة لوحدة من صنعها.

كان الفارق ما زال هائلًا بين الشمال والجنوب، وكان عميقًا لدرجة أنه يمكن الشعور به اليوم. كان يمكن أن تتباهى نابولى، تحت حكم روبرت وخليفته الطائشة "چوانا الأولى – Joanna I"، ببلاط مستنير مثقف، وباثنتين من أفضل الجامعات الإيطالية: مؤسسة فردريك الثانى فى نابولى نفسها ومدرسة الطب ذات الشهرة العالية فى "ساليرنو – Salerno" التى كان عمرها يزيد عن الخمسة القرون. خارج هذه المراكز، كان يسيطر على الأراضى، كما كان الوضع أيام النورمان، جماعة من البارونات الجامحين الذين كان يعوزهم الشعور بالمسئولية. كانت صقلية تحت حكم آل أراجون أقل إرهاقًا بسبب الإقطاع، وأكثر تماسكًا من الناحية الاقتصادية، ولكنها كانت مشبعة بجو الركود والجمود نفسه.

فى الشمال، لم يكن بالإمكان إلا أن تشعر بالحيوية المفرطة. مع تقدم القرن الرابع عشر، والدول/ المدن الأصغر منجذبة إلى مدار تلك الأكبر منها، كانت مناطق النفوذ قد بدأت فى الظهور: ڤينيسيا التى كانت أغنى وأروع مما كانت، بدأت تتفوق على چنوة التى كانت قد أصبحت أكبر منافس بحرى لها، ولأول مرة نجدها تضم أجزاء مهمة من الأراضى الإيطالية الرئيسية ("پادوا – Padua" و"ڤيسنزا – Vicenza" و"تريڤيزو – Treviso" و"ڤيرونا – Verona") بينما كان نفوذها ما زال ممتدًا إلى ما وراء الأدرياتيكى، كواحدة من القوى العظمى الأوروبية؛ ميلانو تحت حكم "آل ڤيسكونتى – Visconti"، كانت تفيض مثل مد هائل على "لومبارديا – Lombardy" و"پيدمونت – Piedmont"، وفى النهاية تغمر – حتى – "بولونيا – Bolognia" مركز القوة البابوية فى الشمال الإيطالى؛ و"فلورنسا الجيوتو – Florence of Git-to" و"أوركاجنا – Orcagna" و"أندريا پيزانو – Andrea Pisano"، كان حكمها الجمهورى القوى يستطيع أن يحبط أى محاولة قد يقوم بها أى مستبد محتمل، كما كان تجارها الكبار ورجال الأعمال والبنوك يطورون أساليب تدبير الموارد المالية الدولية إلى مستويات من الكفاءة والتقدم لم يكن يحلم بها أحد. كانت إحدى ميزات القانون الرومانى أن جعل الفائدة أمرًا محترمًا، وكانت الطريق الآن مفتوحة أمام نمو اقتصادى كامل، وأمام اعتمادات طويلة المدى صنعت الثروة والأبهة التى ما زالت باهرة على مدى القرون.

فى وسط شبه الجزيرة كله، وفيما وراء السيطرة المؤثرة للمالك الغائب فى أڤينون، كانت الولايات البابوية مذعنة بدورها لنموذج الاستبداد السائد. ربما كان "آل إيستى – Este" فى "فرارى – Ferrare"، و"آل پيپولى – Pepoli" فى بولونيا، و"آل مالاتستا – Malatesta" فى "ريمنى – Rimini" وأمثالهم، ربما كانوا يعتبرون أنفسهم ممثلين أو وكلاء عن البابا، ويعترفون بسلطة سان پيتر، إلا أن سلطة كل منهم فى داخل مدينته ظلت مطلقة. فى روما وحدها فحسب، بالرغم من محاولات "آل Colonna"، ومنافسيهم "آل أورسينى – Orsini"، كان الشعور الجمهورى العام قويًا لكى يظل متماسكًا، إلا أن روما كانت قد أصبحت آنذاك أكثر الأماكن تعاسة فى إيطاليا، مهجورة من البابوات، انخفض عدد سكانها بسبب الملاريا والمجاعة والصراع الطائفى، ليصل إلى عشرين ألف نسمة، كانت عاصمة المسيحية الغربية قد انحدرت إلى مستوى لم تعرفه من قبل. أكثر من أى مدينة أخرى، كانت روما الآن فى حاجة إلى قائد يبلور أحلامها ويعيد لها اعتدادها بنفسها، وفى ذروة لحظات يأسها المظلمة وجدت واحدًا.

كان "كولا دى رينزو – Cola di Rienzo" ابن غسالة رومانية، كان شخصًا حالمًا، متعصبًا، استعراضيًّا، ودهماويًّا عبقريًّا. فى 1344، وكان فى الحادية والثلاثين، شن حملة على أرستقراطية روما، ملهبًا الخيال العام باستثارة واستعادة أمجاد الماضى وتنبؤاته بعودة مجيدة لها. كان نجاحه كبيرًا، لدرجة أنه بعد ثلاث سنوات، أنعم عليه فى الكابيتول بلقب "تريبون"[12] وبسلطات دكتاتورية لا حدود لها، وبعد الدعوة لبرلمان «قومى» منح المواطنية Citizenship الرومانية لكل مدن إيطاليا وأعلن عن خطط لانتخاب إمبراطور إيطالى. ولكن الدعوة لوحدة إيطالية، كان مصيرها الفشل، سواء أكان المعبر عن ذلك أميرًا ألمانيًّا أو دهمويًّا رومانيًّا. بنهاية العام 1347، كان الدهماء الرومان أنفسهم، وليس المدن الأخرى، قد انقلبوا على كولا وطردوه منفيًّا. بعد سبع سنوات تمكن من العودة، ولكن السحر القديم كان قد ذهب عنه وتصدى له الدهماء المتقلبون كعادتهم. ظهر بشكل عبثى فى شرفة الكابيتول مرتديًا درعًا لامعة، وهو يلوح بعلم روما.. فارتفعت أصوات الدهماء بالسخرية منه. تنكر كشحاذ وحاول الهرب، إلا أن الأساور الذهب التى كانت تتلألأ تحت الأسمال فضحته. بعد دقائق قليلة، كان جسده معلقًا من قدميه فى ميدان عام. مصير غريب يشبه ذلك الذى حدث فى منتصف القرن العشرين لأقرب مقلديه وأكثرهم نجاحًا.

إلا أن كولا بعمله الذى لمع وانطفأ كالشهاب، استطاع أن ينقى عقول أبناء وطنه من مخلفات العصور الوسطى المعوقة، وأن يعطيهم وعيًا جديدًا بماضيهم الكلاسيكى. ما أنجزه فى المجال السياسى كان له ما يماثله فى عالم الأدب على يد صديقه ومؤيده "فرانشيسكو بترارك – Francesco Petrarch". فى 1341، بعد عشرين عامًا فحسب من موت "دانتى – Dante"، تم تتويج بترارك شاعرًا رسميًّا للكابيتول، ولكن هذه السنوات العشرين كانت تنطوى على كل الفوارق بين سكولاستية[13] العصور الوسطى المتأخرة وهيومانية[14] عصر النهضة (Renaissance) لم يكن لدى بترارك شىء من رؤية دانتى الواسعة، ولكن عبقريته الأكثر حساسية قادت الطريق نحو رؤية طازجة غير مشوشة، قائمة إلى حد ما على شعراء التروبادور فى صقلية وبروفانس، ولكنها كانت تستلهم بعمق شعراء اللاتين القدامى.

** ** **

المفهوم الجديد للماضى الكلاسيكى باعتباره معلمًا على الطريق نحو المستقبل، أدى إلى إحياء مماثل للاهتمام بأدب اليونان القديمة الذى غفلوا عنه طويلًا فى الغرب، وتم إهماله حتى فى الإمبراطورية البيزنطية. كان ذلك أساسًا إنجاز جيوڤانى بوكاشيو تلميذ

بترارك، الأكثر موهبة، الذى استضاف فى منزله لمدة ثلاث سنوات يونانيًا هرمًا ذا عادات شخصية مقززة، ليعد واحدة من أول – وأسوأ – الترجمات لأعمال هوميروس إلى اللاتينية، إلا أننا لا نتذكر بوكاشيو اليوم بسبب دراساته الكلاسيكية، فعمله ديكاميرون عمل شبابى نسبيًا، ولكنه حقق للنثر الإيطالى بهذا الإنجاز ما حققه دانتى وبترارك للشعر، فقد بَسَّطه وجعله أكثر سلاسة وحوله إلى أداة أدبية جديدة. الأسلوب الذى طوره مفعم بالحيوية.. لاذع... وأعطى دى كاميرون شهرة أوروبية وأعاد إحياء تقليد سردى يمكن تتبعه لدى "تشوسر – Chaucer" وشكسبير إلى "لافونتين – La Fontaine" ومن بعده.

بالنسبة للباباوات فى أفينون، كان لا بد من أن يكون تأثير كولا دى رينزو ونجاح الـ "ديكاميرون" ناقوس خطر. إذا لم يتم تأكيد السلطة البابوية فى إيطاليا، ستضيع إلى الأبد. تصادفت عودة كولا إلى روما مع تعيين الكاردينال "جيل ألبورنوز – Gil Albornoz" ممثلًا بابويًا لدى إيطاليا، مع مهمة محددة وهى إعادة كنائس الدولة إلى الحظيرة البابوية. هذا الإسبانى، المرعب، المقتدر، نجح لدرجة أن البابا "أوربان الخامس – Pope Urban V" استطاع فى 1367 أن يعيد ترسيخ وضعه فى اللاتيران. لقِى ترحيبًا قويًا من الناس فى روما، وسرعان ما أصبح أول وآخر بابا يستقبل زائرين من أباطرة الشرق والغرب. ولكنه كان شيخًا هرمًا سرعان ما شعر بالحنين إلى موطنه، وفى 1370 بالرغم من تحذيرات "سان بريدچت السويدى – St Bridget of Swe-den" من أن عودته إلى پروفنس قد تكون قاتلة، كانت إغراءات أفينون قوية بالنسبة له، وكان سان بريدچت محقًا، ففى غضون أسابيع قليلة مات.

كان أوربان قد كشف بوضوح مؤلم سبب الغياب الطويل للبابوية عن موطنها الشرعى. كل باباوات أفينون ومعظم كبار مساعديهم كانوا فرنسيين – ولم يكونوا يحبون الترحال غالبًا – وكانت أطلال روما غير الملائمة للصحة وذات الرائحة الكريهة لا تمثل إغراء بالنسبة لهم. لو استيقظ الضمير البابوى بعد سبعين سنة ستكون أزمة خطيرة فى إيطاليا. لم تكن الأزمة بعيدة. خَلَفَ ألبورنوز فى ولايات الكنيسة مجموعة من الممثلين البابويين الفرنسيين الجشعين، الذين لم يخفوا رغبتهم فى الحصول على كل ما يمكنهم الحصول عليه، وسرعان ما دفعوا المدن البائسة إلى حالة تمرد. لم يترددوا فى الاستفادة مما كان يسمى بالشركات الحرة – عصابات من المرتزقة الأجانب الذين كانوا لا يجدون عملًا، كانوا يجولون المناطق الزراعية ويعيشون على الابتزاز وقطع الطرق وحماية الناس مقابل أموال يدفعونها لهم. فى 1375 أرسل ممثل البابا فى بولونيا واحدة

من أسوأ تلك الشركات، لصاحبها "سير جون هوكوود – Sir John Hawkwood"، لتخريب المحاصيل في فلورنسا. بالنسبة للمدن الإيطالية، كان يبدو أن المظالم البابوية لا يمكن أن تستمر أكثر من ذلك. اجتاحت "توسكاني – Toscany" و"أمبريا – Umbria" والولايات البابوية موجة محمومة من مقاومة الإكليروس، وبنهاية العام كان ما لا يقل عن ثمانين مدينة قد طردت بعثاتها البابوية.

هناك في أفينون، تصرف جريجوري الحادي عشر بسرعة وحزم. وضعت فلورنسا، التي كانت قد تزعمت الانتفاضة، تحت الحرم الكنسي، كما صدرت الأوامر لكل الأمراء المسيحيين في أوروبا بالاستيلاء على بضائع فلورنسا أينما كانت، وأن يبيعوا جميع تجار فلورنسا المحليين كعبيد. كانت إجراءات مخيفة، ولكن لم يكن لها أي تأثير. كان جريجوري يرى أمله الوحيد في العودة الفورية إلى روما. عجل بذلك توسلات "سانت كاترينا السيناوية – St Catherine of Siena" – التي واصلت من حيث كان قد انتهى سان بريدچت – فاستقل السفينة مع معاونيه الذين كانوا مترددين في أواخر 1376، وفي السابع عشر من يناير 1377 كان أن دخل المدينة رسميًّا. كانت عودة حزينة إلى الوطن؛ في فلورنسا كانت قواته تقوم بانتقام بشع، بينما كان وضعه غير آمن بأي حال في روما. كان يفكر بالفعل في العودة إلى أفينون، عندما مات في العام التالي، وكان ذلك لحسن حظ روما. لم يكن أهالي روما يعاملون باباواتهم بحب واحترام دائمًا، ولكنهم كانوا مصرين على تركهم يذهبون ثانية. كانوا يهتفون طوال اجتماع الكرادلة السري لانتخاب البابا: "نريد رومانيًّا أو على الأقل إيطاليًّا – Romano lo volemo, o almeno italiano". البابا الجديد أوربان السادس قدم كل ما يدل على أنه كان مشوش التفكير بالفعل، فقد قام بتعذيب أربعة كاردينالات، على الأقل، لدرجة الموت... ولكنه كان على الأقل إيطاليا.

كانت فترة باباوات أفينون هي نهاية العصور الوسطى. عندما غادر كليمنت الخامس إيطاليا، كان النظام القديم يحتضر، ولكن القليل كان قد ظهر ليحل محله. ورغم أن العرش الإمبراطوري كان شاغرًا مؤقتًا، كان الناس ما زالوا يتذكرون فردريك العظيم ويبكون مانفريد وكونرادين. كانت المكانة البابوية قد تدهورت. كانت الفلسفة السكولاستية قد وصلت ذروتها وغايتها المنطقية مع "سان توماس الإكويني – St Thomas Aquinas". (توما الإكويني). كان ما تبقى هو أن يقوم دانتي في "الكوميديا الإلهية" بتلخيص إنجازات وإخفاقات وحكمة وجهالة ومُثُل وآمال ومخاوف إيطاليا العصور الوسطى.

عاد جريجوري الحادي عشر إلى بلاده، رغم أنها كانت قد تغيرت من بعض الأوجه؛

ما كانت لتعود كما كانت قط. كانت الوحدة أمرًا بعيدًا كما كانت دائمًا: كان الجيولف والجيبيليون ما زالوا يتبادلون العنف برغم نسيان خلافاتهم الأصلية، وكان نزيف الدم ما زال مستمرًا... فياضًا ومجانيًّا. كانت سبعون عامًا بدون بابا أو إمبراطور مؤثر قد أزالت الاستقطابات القديمة، وفى 1347 – 1348 كان يبدو أن الموت الأسود قد أسدل ستارًا آخر على الماضى ليعرض الحاضر – بلا رحمة – لرياح التغيير. لم تكن الروح العلمانية المتسائلة التى تنتشر الآن عبر البلاد جديدة فى حد ذاتها. كانت جذورها تعود إلى روچر ملك صقلية وحكمائه من اليونانيين والعرب، وإلى فردريك وصقوره، وإلى مانفريد وشعراء التروبادور، وإلى أرنولد ملك "برشيا – Brescia" والسكولاستيين، وإلى أطباء ومحامى ساليرنو وبولونيا، ولكن القرن الرابع عشر أعطى تلك الروح زخمًا جديدًا – فى المجال السياسى مع كولا دى رينزو وأباطرة الشمال، وفى المجال الثقافى مع پترارك والإنسانيين، وفى المجال اللاهوتى مع مارسيليوس الپادوى – وفى الوقت نفسه فإن المعوقات البابوية التى طويلًا ما وقفت فى طريق تقدمها اختفت فجأة. كانت النهضة قد انطلقت فى مدارها.

هوامش الفصل الحادى عشر

(1) "أرض الرعن الثلاثة"، إشارة إلى الشكل المثلث لجزيرة صقلية. كان الإغريق يماثلونها بـ "تريناكيا" هوميروس؛ حيث كان هليوس الإله الشمس، يأوى غنمه وماشيته. (الأوديسا – XI, 121)

(2) الحكم الذى تهيمن عليه جماعة صغيرة، جل همها هو تحقيق المنافع الذاتية. **(المترجم)**

(3) Guelfo بالإيطالية. فصيل سياسى إيطالى (بين القرنين الثانى عشر والخامس عشر) كان يعارض سلطة الأباطرة الألمان فى إيطاليا، وكان مكونًا من حزب كنسى يؤيد استقلالية البابا عن الإمبراطور، وحزب المعتمديات والمدن – الجمهوريات المطالبة بحقوقها وحرياتها. والجيبيليون (Ghibellino بالإيطالية) حزب سياسى أرستقراطى (بين القرنين الثانى عشر والخامس عشر فى إيطاليا كذلك) كان يدعم سلطة الأباطرة الألمان. **(المترجم)**.

(4) انظر الهامش السابق.

(5) انظر الفصل الثانى عشر.

(6) يعتقد أن ذلك هو سبب السمعة الكريهة لهذا التاريخ.

(7) يروى الكاتب الفرنسى "موريس درو – Moris Druon" فى سلسلة رواياته "Les Rois Maudits" أن دى مولاى لعن الملك فيليب كذلك وهو على الخازوق، وأنه كان لذلك بعض التأثير: كان فيليب وأسلافه الخمسة السابقون قد حكموا إجمالًا لمدة 177 سنة، بينما حكم ملوك فرنسا الستة التالون لهم 66 سنة.

(8) على عكس الاعتقاد الشائع، لم يكونوا يحرمونه تمامًا، لا الفرس ولا الأتراك العثمانيون كانوا يحرمونه، ولكن ذلك لم يكن واردًا أن يفكر فيه فنان مسلم فى شمال أفريقيا وإسبانيا الإسلامية.

(9) رأس بارز فى البحر، أطلق عليه العرب اسم "الجزيرة الخضراء"، وستنشأ هنا مدينة إسلامية زاهرة تحمل اسم "الجزيرة". **(المترجم)**.

(10) يوم الجمعة السابق لعيد الفصح. **(المترجم)**.

(11) انظر الفصل الحادى عشر.

(12) Tribune – المدافع عن الحق العام ومصالح الشعب. **(المترجم)**.

(13) scholasticism – الفلسفة النصرانية السائدة فى القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة. **(المترجم)**.

(14) Humanism - الفلسفة الإنسانية التى تؤكد قيمة الإنسان وقدراته وتعزيز النزعة الفردية وروح النقد، كما تجلى ذلك فى عصر النهضة. **(المترجم)**.

الفصل الثانى عشر

سقوط القسطنطينية

• معركة شيوجيا: ١٣٨٠ • البابوات المتنافسون: ١٤١٠ • چون الثامن پالايو لوجوس فى إيطاليا: ١٤٣٨ • انتهاء الحملة الصليبية الأخيرة: ١٤٤٤ • محمد وقسطنطين: ١٤٥١ • مدفع السلطان: ١٤٥٣ • الحصار يبدأ: ١٤٥٣ • المعركة النهائية: ١٤٥٣ • ڤينيسيا وچنوة: ١٤٥٣ • الفرسان تحت الحصار: ١٤٨٠

عندما تقوضت فى النهاية إمبراطورية السلاجقة الراكدة بسقوط «قونية – Konya" فى يد "الأتراك الكارامان – Karaman Turks" فى 1308، نهض من وسط الرماد كثير من الدول التركمانية الصغيرة، التى كان حجم بعضها لا يزيد كثيرًا عن حجم القبائل التى تمثلها. كان من بينها دولة شاب مقاتل يدعى عثمان، الذى أعلن استقلاله كحاكم على ذلك الطرف القصى من جنوب الأناضول بعد قيامه بحملة مدمرة. حكم عثمان تلك المنطقة بكفاءة وحكمة إلى أن مات فى 1326، وهو العام الذى استولى فيه ابنه وخليفته أورهان – الذى اتخذ لقب سلطان – على مدينة بورصة وجعلها عاصمة له.[1] بعد ثلاث سنوات استولى على نيقية (ازنك) المدينة البيزنطية العظيمة، ثم عبر سليمان بن أورهان الدردنيل فى 1354 ليستولى على حصن «جاليبولى – Gallipoli" الذى حوله إلى قلعة دائمة.

هنا كانت أول قاعدة تركية على الأرض الأوروبية، كما كانت رأس جسر بالغ الأهمية؛ وفى الحال تقريبًا، بدأ العثمانيون تقدمهم الذى لم يفتر. فى 1359 وصلت قوة حراسة متقدمة إلى أسوار القسطنطينية. لحسن الحظ لم تكن كبيرة بحيث تشكل أى خطورة مباشرة على المدينة، ولكن بقية "تراقيا – Thrace"، التى كانت أقل حماية وأكثر إنهاكًا بسبب الحرب الأهلية، كانت فريسة سهلة. فى 1362 استسلمت "أدريانوبل – Adrianople" لتصبح عاصمة أورهان الأوروبية باسم "أدرنة – Edrine". كان موقعها على الطريق الكبير المؤدى من بلجراد إلى القسطنطينية، يمثل قاعدة يمكن الانطلاق منها عميقًا نحو البلقان، كما كان يعزل القسطنطينية عن ممتلكاتها الأوروبية. فى كل المدن والقرى التى تم الاستيلاء عليها، كان يتم نقل قطاع كبير من السكان لبيعهم كرقيق فى آسيا الصغرى، وإحلال أتراك مكانهم.

فى ذلك العام نفسه – 1362 – مات أورهان، وخلفه كسلطان ابنه الثانى مراد (كان سليمان قد مات قبل عامين على أثر وقوعه من على حصانه)، الذى سرعان ما بدا أكثر طاقة ومقدرة كقائد، سواء من أبيه أو أخيه الأكبر، فقام بحملات، ليس فى تراقيا فحسب، بل وفى بلغاريا كذلك واستولى على "فيليبوبولس – Philippoplis" (بلوفديف – Plovdiv) فى 1363، ومارس ضغطًا شديدًا على "چون ألكساندر – John Alexander" قيصر البلغار لكى يتعاون معه ضد بيزنطة. بعد معركة فاصلة على نهر "ماريتسا – Maritsa" فى 1371، أصبحت بلغاريا إقطاعية تركية وسرعان

ما تم استيعابها تمامًا. كان الإنجاز الكبير الآخر لمراد هو تخفيض مرتبة أمراء غرب الأناضول ليجعلهم فى وضع التبعية التامة؛ لتأمين مؤخرة قوات السلاطين العثمانيين عندما يتقدمون فى أوروبا.

اغتيل مراد أثناء معركة كوسوڤو التاريخية "ميدان الطيور السوداء"، فى الخامس عشر من يونيو 1389. فى ذلك اليوم، تحت القيادة الملهمة لابنه بايزيد، الذى أعلن سلطانًا فى الميدان، تم تدمير الجيش الصربى تمامًا، وحل الدمار بالدولة الصربية بالفعل لمدة أربعة قرون. كان بايزيد المعروف لرعاياه بلقب "يلديرم" (الصاعقة)، صاحب طاقة خارقة تجعله أحيانًا شديد العنف عديم الرحمة بكل من يقف فى طريقه. فى فترة حكمه الذى استمر ثلاثة عشر عامًا تسارع معدل الغزو. فى ربيع 1394 زحف جيش تركى جرار على القسطنطينية نفسها، ومع بداية الخريف بدأ الحصار الجدى. أصدر السلطان أوامره بحصار كامل، وفى غضون وقت قصير نفدت المؤن الضرورية فى المدينة. كان الحصار يستمر على نحو أو آخر على مدى ثمان سنوات، ولكن من حسن حظ أهلها أن بايزيد – الذى كان من الصعب التنبؤ بالخطوة التالية التى يخطوها – كانت تشغله عمليات أخرى تحقق له مكاسب فورية، ولذا تراخى الضغط على المدينة.

بالرغم من أن القسطنطينية نجت لفترة طويلة، فإن المدن الأخرى كانت أقل حظًّا. سقطت تيسالونيكا فى 1394؛ وفى 1396 قام السلطان بتدمير جيش عند نيقوپولس (نيقوپول – Nikopol) على الدانوب، كان يقدر بمائة ألف مقاتل (الأكبر فى تاريخ الحشد ضد الكفار) كان قد جمعه "سيجسموند – Sigsmund" ملك هنغاريا؛ وهكذا بنهاية القرن الرابع عشر كان أن حقق الغزو العثمانى لأوروبا الشرقية وآسيا الصغرى زخمًا لم يكن بالإمكان إيقافه. لم يعد هناك وجود لصربيا أو بلغاريا بين أعداء السلطان المسيحيين. بقيت بيزنطة، ولكنها كانت قد أصبحت بيزنطة مختزلة وفقيرة وذليلة ومكسورة ولا يمكن أن تقول: إنها سبق أن كانت ذات يوم إمبراطورية الروم المجيدة. بالرغم من ذلك لم تكن لتتخلى عن النضال. على نحو لا يمكن تصديقه، كان عليها أن تنتظر ستين عامًا لكى تقوم مرة أخرى لتحارب.

** ** **

بالنسبة لڤينيسيا، الجمهورية الأكثر صفاء ودعة، كان الربع الأخير من القرن الرابع عشر مؤلمًا بالفعل. الخصومة القديمة مع جنوة وصلت أوجها. بدءًا بصراع على جزيرة "تينيدوس – Tenedos"، الواقعة عند باب الدردنيل وتتحكم فى مدخل المضيق، اقترب القتال من الوطن بحصار شيجويا ثم الاستيلاء عليها فى أغسطس 1379، وهى مدينة

حصينة داخل البحيرة الڤينيسية تتحكم فى قناة مائية تؤدى إلى ڤينيسيا نفسها مباشرة. على مدار تاريخها لم تكن الجمهورية قد واجهت خطرًا بهذا الحجم، والحقيقة أنه لو كان القائد الجنوى "بيترو دوريا – Pietro Doria" قد أتبع انتصاره هجومًا فوريًّا على المدينة، لما كان يمكن أن يفشل. من حسن حظ أهالى المدينة أنه قرر أن يحاصرها ويجوعهم حتى يستسلموا، فكان أن وجد القائد الڤينيسى "ڤيتور بيزانى – Vettor Pisani" فى ذلك فرصته. كانت شيجويا المحاطة باليابسة تقريبًا من كل الاتجاهات، تعتمد على ثلاث قنوات ضحلة؛ وفى ليلة من ليالى منتصف الشتاء (21 ديسمبر)، تَمَّ قطر ثلاثة هياكل سفن كبيرة قديمة محملة بالأحجار وإغراق إحداها فى كل من القنوات الثلاث، وهكذا تم حصار من كانوا يقومون بالحصار. فى الرابع والعشرين من يونيو 1380، أعلن نحو أربعة آلاف من أهالى جنوة، كانوا على وشك الموت جوعًا استسلامهم غير المشروط.

لم تكن تلك نهاية الحرب، فى العام التالى قبل الطرفان المنهكان عرضًا من "أماديوس – Amadeus" كنت ساڤوى بالتوسط بينهما، فكانت اتفاقية تورين التى تضمنت استمرار التجارة فى البحر الأبيض والشرق اللاتينى بواسطة كل من ڤينيسيا وجنوة جنبًا إلى جنب، ولكن بمرور الوقت اتضح أن انتصار ڤينيسيا كان أكبر مما كانت تعرف. ثم كانت لتدهش الأصدقاء والأعداء، ولم يكن ذلك لأول مرة، بسرعة تعافيها الاقتصادى والمادى. أما جنوة فبدأت فى التدهور. بدأ نظامها الجمهورى ينهار وتمزقت الجمهورية بفعل الصراعات الطائفية، فكان أن خلعت عشر دوجات فى خمس سنوات، ثم سرعان ما وقعت تحت سيادة فرنسية سوف تستمر قرنًا ونصف القرن. فى 1528، فحسب، وتحت "أندريا دوريا – Andrea Doria"، سوف تستعيد استقلالها، ولكن العالم كان قد تغير. لن تمثل خطرًا على ڤينيسيا بعد ذلك.

على العكس، كانت "سيرينيسيما – Serenissima" قد خرجت من حرب دامت ست سنوات، هى الأشد ضراوة فى تاريخها، خرجت ببنيتها السياسية مستقرة. لم يكن هناك دولة فى إيطاليا يمكن أن تتباهى بمثل ذلك الاستقرار أو بما يقترب منه. وراء حدودها، كانت إيطاليا قد خضعت كلها لعصر الاستبداد، ووحدها بقيت سيرينيسيما جمهورية منظمة قوية، لها دستور نجا من كل العواصف السياسية الخارجية والمحلية التى تعرضت لها. كانت أغلبية الشعب قد تم تجريدها – فى الحقيقة – من قوتها المؤثرة على مدى المائة عام السابقة[2]، ولكن الخدمة العامة كانت مفتوحة أمام الجميع، كما كانت التجارة والصناعات الحرفية مزدهرة وكان معظم الناس يعترفون بكفاءة الإدارة وحسن نوايا المسؤولين.

الآن، وبعد أن أصبحت الحرب مع جنوة وراءها بزمن طويل، شرعت ڤينيسيا فى بناء وتوسيع إمبراطوريتها التجارية، وبحلول السنوات الأولى من القرن الخامس عشر، بفضل تضافر الانتهازية السياسية، والكياسة الدبلوماسية، والمهارة التجارية، وقدر من الابتزاز، بفضل هذه «الخلطة السحرية» استحوزت ڤينيسيا على مناطق كثيرة من البر الإيطالى الرئيسى. بما فى ذلك مدن پادوا وڤيسنزا وڤيرونا، وزحفت غربًا حتى شواطئ بحيرة جاردا، بالإضافة إلى سكوتارى ودورازو جنوبى دالماشيا، ونوپليا وآرجوس وقواعدها القديمة فى مودون وكورون والدوديكانيز؛ وفى آخر الأمر أصبح يتم التعامل معها كند لدول مثل إنجلترا وفرنسا والنمسا، وكواحدة من دول أوروبا الكبرى عن جدارة.

** ** **

لم يحدث أن اعتبر أبناء ڤينيسيا أنفسهم إيطاليين قط، ولأنهم كانوا معزولين فى بحيرتهم عن اليابسة، كانت نظراتهم منذ القدم موجهة نحو الشرق... مصدر كل ثروتهم وتجارتهم تقريبًا. هكذا كان وضعهم مختلفًا عن وضع بقية مدن البر الإيطالى الرئيسى إلى حد كبير. كانت تلك المدن هى الأخرى جمهوريات مستقلة، ولكن كان ينقصها دستور ڤينيسيا الفريد، بما فيه من نظام محكم للمراجعة والضبط، يجعل من المستحيل على أى فرد أو أسرة تشكيل قوة خانقة على الدولة.

لذلك كان حتميًا عاجلًا أو آجلًا أن تشعر كل جمهورية فى لحظة ما من لحظات الخطر الأجنبى أو الأزمة المحلية - بالحاجة إلى قائد، والأكثر ترجيحًا أنه عند زوال الخطر أو الأزمة أن يكون التخلص من مثل هذا القائد أكثر صعوبة مما كان استدعاؤه. آنذاك، وقبل أن يعرف الناس ذلك، سيكون قد أسس سلالة.

هذا النموذج الذى سنجده بتنويعات مختلفة متكررًا فى المدن – الجمهوريات الرئيسية فى شمال ووسط إيطاليا، كانت له مزاياه. قد يصبح الحاكم الفرد طاغية، ولكنه قد يعتمد على أمور أخرى للحفاظ على وضعه ومكانته، كأن يحيط نفسه مثلًا ببلاط باهر يجعله يبدو راعيًا للفنون والآداب، وبذلك يهيئ الظروف للنهضة. كان أحد الأوائل الذين فعلوا ذلك: «كان جراند ديللا سكالا – Can Grande della Scala“ حاكم ڤيرونا، الذى قدم دعمًا سخيًا لـ ”دانتى“ و”جيوتو“، وهناك أسماء أخرى لحكام من آل ڤيسكونتى وسفورزا فى ميلانو، وجونزاجا فى مانتوا، وإيستى فى فيرارا، ومالاتيستا فى ريمينى، ومونتيفلترو فى أربينو، وقبل كل هؤلاء آل ميديشى فى فلورنسا.

ما أضاف إلى بلاطات النهضة هذه عظمة وأبهة هو أن الحكام على اختلافهم برغم حالة الحرب المستمرة، كانوا نادرًا ما يقودون المعارك بأنفسهم. كان ذلك عمل المرتزقة من المحاربين (The Condottieri)، الذين كانوا يبيعون سيوفهم لمن يدفع أكثر. كانوا مجردين من أى شعور بالولاء لأى قضية، بل عادة ما كانوا معوقين، ومنافقين أحيانًا، ولكنهم كانوا يوفرون على مستخدميهم القيام بالحملات ويوفرون لهم الوقت لمتابعة فنون السلام، وكانوا مؤثرين قدر استطاعتهم.

إلى الجنوب من بلاطات النهضة تلك، كانت البابوية – مع عودة الباباوات من أڤينون – على عتبة تحول كبير. كان الكاردينال "ألبورنوز – Albornoz"، ممثل البابا فى إيطاليا - قد أعاد تنظيم ودعم الولايات البابوية؛ وإلى جانب ڤينيسيا وميلانو وفلورنسا ونابولى، كانت روما قد أصبحت مرة أخرى إحدى الدول الخمس الرئيسية فى إيطاليا. بالرغم من ذلك، كان من سوء الحظ أن الكنيسة فى ذلك الوقت كان يمزقها شقاق عنيف. كان "أوربان السادس – Urban VI" قد استعدى كارديناﻻت الجناحين الفرنسى والإيطالى[3]، لدرجة أنهما أعلنا بطلان انتخابه، وانتخبوا بابا منافسًا ليحل محله وهو البابا «كليمنت السابع – Clement VII". أوربان، الذى كان متمترسًا فى روما رفض الرضوخ، واستمر الخلاف وزادت حدته مع انتخاب باباوات جدد فى كلا الجانبين عند الضرورة. وأخيرًا اجتمع مجلس عموم الكنيسة فى پيزا فى مارس 1409 ورفض الاعتراف بكل الباباوات المتنافسين واختار خليفة واحدًا. وقع اختيار المجلس الأعلى على كاردينال كان رئيسًا لأساقفة ميلان، وكان قد بدأ حياته طفلًا يتيمًا شحاذًا فى كريت، وانتهى به المطاف ليصبح البابا إلكساندر الخامس. ولكن المجلس ارتكب غلطة كارثية. عندما طلب أن يَمْثُل الباباوان المتنافسان أمامه – وأعلن أنهما كانا عصاة عندما رفضا ذلك – كان بموقفه ذلك يلمح إلى وضع يجعله فوق النظام البابوى، وهو المبدأ الذى لم يكن يتوقعه أى من الأساقفة المتنافسين. قبل أن يمر وقت طويل، كان من الواضح أن الأثر الوحيد لذلك هو إرهاق عالم المسيحية بثلاثة باباوات بدلًا من اثنين، ولكنها لم تكن غلطة لا تغتفر؛ إذ بعد موت البابا إلكساندر فجأة فى مايو 1410، لم يضيع المجلس وقتًا فى اختيار خليفة له.

كان الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت أن "بالداسار كوسا – Baldassare Cossa"، الذى انضم إلى الزمرة البابوية باسم "چون الثالث والعشرين[4] – John XXIII"، كان قد دس السم لسلفه. الأمر ليس مؤكدًا على أية حال، أما المؤكد فهو أنه كان قد بدأ حياته قرصانًا... وبقى قرصانًا. انحدر بالبابوية إلى مستوى من الفسق لم يكن معروفًا

منذ «فحش ودعارة» القرن العاشر. يسجل مؤرخ معاصر فى دهشة أقرب إلى الصدمة تلك الشائعة التى انتشرت فى بولونيا (حيث كان كوسا حاكمًا من قبل البابا) بأنه أثناء العام الأول فى منصبه، قام باغتصاب ما لا يقل عن مائتى عقيلة[5] وأرملة وعذراء، ناهيك عن عدد لا حصر له من الراهبات، ومن أسف أن عدد اللائى اغتصبهن فى السنوات الثلاث التالية لم يسجل، ولكن يبدو أنه حافظ على معدل كبير، حيث إنه استدعى فى التاسع والعشرين من مايو 1415 للمثول أمام مجلس عام آخر، وكانت تلك المرة فى كونستانس – وكما يذكر جيبون Gibbon مبتهجًا: "تم التكتم على الاتهامات الأكثر فضائحية: كان ممثل المسيح متهمًا بالقرصنة والقتل والاغتصاب واللواط وسفاح القربى... فقط...".

بعد ذلك، فى أوائل يوليو، تم إقناع البابا جريجورى الثانى عشر بالتخلى عن منصبه بشرف، مع وعد بأن يحل فى المرتبة الثانية فى الترتيب بعد البابا الحالى، وهو امتياز ساعد عليه أنه كان على مشارف التسعين ويبدو أكبر من ذلك، وكان الظن أنه لن ينعم بذلك طويلًا، وحدث أن مات فعلًا بعد عامين. فى ذلك الحين كان البابا الزائف "بينيدكت الثالث عشر – Benedict XIII" قد خُلِعَ من منصبه بدوره، وباختيار "أوتو كولونا – Otto Colonna" ليكون البابا "مارتين الخامس – Martin V"، انتهى الشقاق البابوى.

كان مارتين قبل سواه هو المسؤول عن بابوية عصر النهضة. دخل روما فى 1420 ليكمل من حيث كان ألبورنوز قد انتهى، تسلم مقاليد الأموال البابوية التى كانت فى حالة فوضى، فى مدينة خربة كان عدد سكانها قد انخفض إلى نحو خمسة وعشرين ألف نسمة، وبدأ برنامجًا لتجديد وإعادة بناء الكنائس والمنشآت العامة، كما قوى السلطة البابوية بحل مجلس كونستانس، ونجح – إلى حد ما على الأقل – فى أن يعيد الكنيسة فى فرنسا لتكون تحت سيطرته، وكانت فى سنوات باباوات أفنيون قد أصبحت مستبدة بدرجة لا تحتمل. كان هو نفسه من أسرة رومانية عريقة ومتميزة، فاتخذ الخطوات المهمة الأولى فى تحويل مجمع الكاردينالات والإدارة البابوية من الوضع الذى كانت عليه حتى ذلك الحين كهيئات تابعة للولايات؛ لتصبح مؤسسات إيطالية بشكل عام. صحيح أن ذلك أثار عاصفة من النقد فى حينه إلا أنه مكنه من إنشاء أول مجلس كفء، وفى النهاية أعاد النظام إلى الولايات البابوية.

هذه الولايات البابوية ما كان يجب أن توجد أصلًا. كانت قد قامت على أساس ما يسمى بـ "هِبَة قسطنطين[6] – Donation of Constantine"، وهى قصة كان قد اختلقها المجلس فى أوائل القرن الثامن، كان قسطنطين الأكبر عندما نقل عاصمته إلى

القسطنطينية فى 330م، قد أنعم على البابا "سيلفستر الأول – Slyvester I" بحق السيادة على روما "وكل الأقاليم والأماكن والمجتمعات فى إيطاليا والمناطق الغربية". لم يكن أحد قد فكر فى صحة ذلك حتى 1440، عندما أثبت "لورنزو فالا – Lorenzo Valla"، المفكر الإنسانى للنهضة أن الوثيقة التى تأسست عليها هبة قسطنطين كانت مزيفة، ولكن الولايات الست كانت قد أصبحت أمرًا واقعًا منذ فترة طويلة. كانت السيادة البابوية عليها متنوعة: فيرارا وبولونيا مثلًا كان مسموحًا لهما بحكم ذاتى، بينما كانت "بيسارو – Pisaro" و"فورلى – Forli" مقيدتين وكان الباباوات يفرضون عليهما وكلاء عنهم. كانت الولايات الست مجبرة، على نحو أو آخر، على دفع إتاوة مالية سنوية لخزينة البابا، وكان ذلك يمثل المصدر الرئيسى لدخل البابوية.

كان موت البابا مارتين فى 1431 سببًا فى عدم اكتمال عمله. المسؤوليتان الكبيرتان لديه: إعادة ترسخ السيطرة البابوية على المجالس (وكانت نتيجة حتمية للشقاق الأخير)، والدفاع عن الأراضى البابوية ضد جيرانه والكثير من المرتزقة النهابين، هذه المسؤولية المزدوجة لم تترك له وقتًا كثيرًا للقيام بأعمال أخرى. خليفته "إيوجينيوس الرابع – Eu-genius IV" طُرِدَ من روما بعد ذلك بثلاث سنوات بواسطة ثورة جمهورية ليقضى السنوات التسع التالية فى المنفى فى فلورنسا. إلا أنه سجل هناك ما بدا فى ذلك الوقت انتصارًا دبلوماسيًا مهمًا. فى أوائل 1438، جاء الإمبراطور البيزنطى "چون الثامن پالايولوجوس – John VII Palaeologus" إلى إيطاليا بصحبة أنصار كثر – كان منهم بين آخرين البطريرك الأرثوذكسى للقسطنطينية وثمانية عشر مطرانًا واثنا عشر أسقفًا منهم الشاب اللامع "بيساريون – Bessarion" مطران نيقية و"إيزيدور – Isidor" أسقف كييف وعموم روسيا – وذلك بهدف التوصل إلى نوع من التوافق مع كنيسة روما. لم يكن لدى چون ولا أى من رعاياه أدنى رغبة فى تسوية خلافاتهم على أرضية لاهوتية، ولكن إمبراطوريته كانت تبدو موشكة على الهلاك، كما كان يعرف أنها بينما كانت فى نظر الرومان هرطقية، لم يكن هناك أى أمل فى إقناع الغرب بإرسال حملة عسكرية ضد الأتراك الذين كان خطرهم فى ازدياد. بدأ المؤتمر مداولاته فى فيرارا ثم انتقل بعد ذلك إلى فلورنسا؛ حيث تم فى الخامس من يوليو 1439 توقيع مرسوم اتحاد رسمى بواسطة الجميع فيما عدا واحدًا من كبار رجال الكنيسة اليونانية. كان النص اللاتينى للمرسوم يبدأ بعبارة: "فلتفرح السماء – Laetentur Coeli" إلا أنه – كما اتضح سريعًا – لم يكن هناك سبب لكى تفرح السماء.

عاد الإمبراطور چون خائب الأمل، وفى القسطنطينية وجد مجلس فلورنسا مدانًا

بالإجماع. كان بطاركة أورشليم وأنطاكية والإسكندرية قد أنكروا بالفعل المندوبين الذين وقعوا المرسوم نيابة عنهم وتبرؤوا منهم. أدين الموقعون باعتبارهم خونة للعقيدة، وكان يتم انتقادهم بشدة فى أرجاء العاصمة، كما وقعت اعتداءات كثيرة عليهم، لدرجة أن عددًا كبيرًا منهم أصدر بيانًا عامًا فى 1441، يبدون فيه ندمهم؛ لأنهم وضعوا أسماءهم على المرسوم، ويعلنون سحب موافقتهم عليه. فجأة، أصبح وضع الإمبراطور نفسه على العرش غير مؤكد. صحيح أنه كان هناك مؤيدون للاتحاد وكان بإمكانهم أن يدعموه، ولكن بيساريون مطران نيقية الذى كان قد تحول إلى الكاثوليكية فى 1439 وأصبح كاردينالًا على الفور، كان قد غادر القسطنطينية مستاء بعد أشهر قليلة من مجيئه، وأخذ أول سفينة إلى إيطاليا ولم تطأ قدمه الأراضى البيزنطية بعد ذلك. صديقه إيزيدور أسقف كييف وعموم روسيا، الذى دخل الكاردينالية كذلك، كان أقل حظًا؛ حيث تم خلعه فور عودته إلى موسكو وألقى القبض عليه، وإن كان قد تمكن من الهرب إلى إيطاليا فيما بعد.(7)

أما بالنسبة للبابا إيوچينيوس فلم يكن هناك أى شك. كان اتحاد الكنيسة قائمًا على الورق على الأقل، وكان من واجبه الآن أن يجمع حملة صليبية ضد أعداء بيزنطة. لو لم يفعل ذلك سيكون قد تراجع عن وعده للإمبراطور، وسيكون ذلك إعلانًا للجميع عن فشل مجلس فلورنسا، وأن مرسوم «فلتفرح السماء» كان بلا قيمة. وجد البابا فى أوروبا الشرقية، إن لم يكن فى الغربية، من كانوا على استعداد لتجنيدهم، وفى 1443 انطلق جيش قوامه خمسة وعشرون ألفًا من الجنود الصرب والهنغاريين تحت قيادة «لاديسلاس – Ladislas» ملك هنغاريا، و"چورچ برانكوفتش – George Brancovich" ملك الصرب، و"چون هنيادى – Hunyadi" حاكم ترانسلڤانيا. كانت البداية مبشرة؛ إذ بحلول عيد الميلاد كانت مدن "نيش – Nish" و"صوفيا – Sofia" قد سقطتا، وفى الوقت نفسه فإن السلطان العثمانى مراد الثانى، الذى كان مهددًا من انتفاضات قوية للأتراك الكارامان – Karaman Turks فى الأناضول بقيادة "چورچ كاستريوتس – George Castriotes" – سكاندربيرج الشهير – فى ألبانيا، ومن قسطنطين پالايولوجوس شقيق الإمبراطور وحاكم موريا(8)، وجد أنه كان لا بد من التوصل إلى اتفاق ودعا القادة الثلاثة إلى بلاطه فى أدريانوپل. كانت النتيجة هدنة لمدة ثلاث سنوات منحها لهم السلطان مقابل بعض التنازلات غير المهمة فى شبه جزيرة البلقان.

عندما وصلت الأخبار إلى روما فزع إيوچينيوس ومجلسه. كانت الحملة تستهدف طرد الأتراك من أوروبا، وبحسب شروط الهدنة، كانوا يبدون أكثر تحصينًا وثباتًا. غادر الكاردينال «جوليانو سيزارينى – Giuliano Cesarini»، اليد اليمنى للبابا فورًا،

متجهًا إلى بلاط لاديسلاس فى "زجيدن – Szegedin"؛ حيث أحل الملك رسميًا من عهده للسلطان، وأمر الحملة بالانطلاق فى طريقها. كان لا بد من أن يرفض لاديسلاس. إحلال أو لا إحلال، كان بذلك يتملص من عهده للسلطان، إلى جانب ذلك، فإن قواته آنذاك كانت قد تقلصت إلى حد كبير. كان كثير من أفراد الحملة السابقين قد غادروا عائدين إلى بلادهم، وكان برانكوفيتش، الذى أعيدت إليه أراضيه الصربية سعيدًا بالهدنة وقرر الحفاظ عليها. ولكن الملك الشاب قرر أن يفعل ذلك كما كان مطلوبًا منه.

فى سبتمبر، عاد بما كان قد تبقى من جيشه إلى البحر الأسود بالقرب من ڤارنا؛ حيث كان يتوقع أن يجد أسطوله فى انتظاره. كانت السفن الحليفة، ومعظمها ڤينيسية مشتبكة. عندما سمع مراد بخيانة لاديسلاس عاد مسرعًا من الأناضول بجيش قوامه نحو ثمانين ألف مقاتل، وفى تلك اللحظة كانت السفن تحاول منعه من عبور البوسفور. فشلت. شق السلطان الغاضب طريقه عبر المضيق وأسرع للوصول إلى ساحل البحر الأسود، وفى العاشر من نوفمبر 1444، أمام ڤارنا، والاتفاقية المعطلة مشبوكة برايته، هجم بعنف على جيش الحملة. حارب المسيحيون ببسالة فائقة، إلا أنه لم تكن لديهم فرصة أمام تفوق عددى بنسبة أكثر من اثنين إلى واحد. سقط لاديسلاس، وبعد فترة قصيرة لقى سيزاريني نفس المصير؛ أبيد الجيش. من بين كل قادته، كان چون هنيادى هو الوحيد الذى تمكن من الهرب مع مجموعة صغيرة من رجاله. هكذا انتهت آخر حملة ضد الأتراك فى أوروبا نهاية كارثية.

إلا أن المقاومة لم تتوقف. فى الصيف التالى عكف الإمبراطور قسطنطين على حملة غزو تزحف على وسط اليونان وتصل إلى جبال "پندوس – Pendus". فى ألبانيا كانوا يستقبلونه بترحاب أينما حل، فى الوقت نفسه كان حاكم "آخايا – Achaia" التابع له، مع مجموعة صغيرة من جنود الخيالة والمشاة قد عبروا إلى الشاطئ الشمالى من خليج كورنثة وطردوا الأتراك من "فوقيا – Phocis" الغربية (المنطقة المحيطة بـ "دلفى – Delphi"). كانت تلك الإهانة الأخيرة أكثر مما يحتمل مراد. قبل أشهر قليلة كان قد تنازل عن العرش لابنه، إلا أنه استعاد سلطاته ليثأر من أولئك اليونانيين الذين ظهروا فجأة. فى نوفمبر 1446، انطلق إلى موريا على رأس جيش من خمسين ألف مقاتل. مرة أخرى سقطت فوقيا، وهرع قسطنطين عائدًا إلى "الهكساميليون – The Hexamilion"، وهو حصن دفاعى كبير يمتد لمسافة ستة أميال عبر برزخ كورنثة، على طول ممر القناة الحالية تقريبًا، مصرا على الاحتفاظ به بأى ثمن. إلا أن مراد كان قد جاء معه بشىء لم يكن قد سبق لليونانيين رؤيته: مدفعية ثقيلة. على مدى خمسة أيام

كان مدفع السلطان الضخم يدق الأسوار بقوة، وفى العاشر من ديسمبر أعطى الأمر بالهجوم النهائى. وقع معظم المدافعين فى الأسر أو سقطوا قتلى، واستطاع قسطنطين نفسه أن يعود بصعوبة بالغة إلى عاصمته "ميسترا – Mistra".

من ناحية، كان قسطنطين محظوظًا؛ إذ نجت عاصمته. أنقذها شىء واحد. كان شتاء شديد قد جاء مبكرًا على غير المعتاد. لو أن السلطان كان قد شن حملته فى مايو أو يونيو وليس فى نوفمبر مثلًا، فما كان لجيشه أن يجد صعوبة فى الوصول إلى ما هو أبعد من البيلوبونيز، ولربما كانت ميسترا قد دمرت تمامًا، وقتل الحاكم وحرمت بيزنطة من آخر أباطرتها.

** ** **

فى الواحد والثلاثين من أكتوبر 1448، مات چون الثالث فى القسطنطينية. من بين كل أباطرة بيزنطة، چون هو الأكثر شهرة، وذلك بسبب صورته فى لوحة "بينوزو جوزوللى – Benozzo Gozzoli" الجصية الشهيرة التى تزين قصر "المديشى ريكاردى – Medici Riccardi" فى فلورنسا. لم يكن يستحق شهرته بعد موته، ولكنه كان قد بذل كل جهده وعمل فى سبيل ما كان يعتقد أنه الصواب. إلى جانب أن الوضع كان قد تجاوز كل أمل، فإن أى شىء كان يحاول القيام به، كان لا بد من أن يكون مصيره الفشل، وربما كان ذلك عدلًا. كانت بيزنطة متآكلة من الداخل، مهددة من الخارج، ولم تكن الآن قادرة على القيام بأى فعل مستقل. بيزنطة التى كانت قد أصبحت مختزلة فى نقطة تكاد تكون غير مرئية على خريطة أوروبا، كانت الآن فى حاجة – ربما أكثر من أى دولة كان لها شأن يومًا ما – إلى رصاصة الرحمة. كان قد طال انتظارها.. وكانت فى الطريق.

فى الثالث عشر من فبراير 1451، بعد أربعة أشهر من وفاة چون، مات مراد فى أدريانوپل على إثر سكتة دماغية. خلفه ابنه الثالث محمد – كان الابنان الأكبران قد ماتا قبل سنوات. أحدهما على الأقل فى ظروف مريبة – كان فى الثامنة عشرة. كان محمد شابًا جادًّا مثقفًا، ويقال: إنه عندما بدأت خلافته لأبيه كان يجيد العربية واليونانية واللاتينية والفارسية والعبرية، إلى جانب التركية – لغته الأم – بالطبع. عندما جاءته الأخبار، هرع إلى العاصمة؛ حيث ثبت وزراء أبيه فى مناصبهم أو فى مناصب جديدة. وسط هذه المراسم، جاءت أرملة مراد الرئيسية لتهنئته بالخلافة، استقبلها محمد بحرارة وانشغل بالحديث معها لفترة، وبعد أن عادت إلى الحرملك اكتشفت مقتل ابنها فى الحمام الخاص به. يبدو أن السلطان الجديد لم يكن ممن ينتظرون المصادفات.

في غضون أشهر قليلة من ولايته، أبرم محمد معاهدات مع هينادى وبرانكوڤيتش ودوچ ڤينيسيا وفرانشيسكو فوسكارى، كما بعث برسائل المودة وحسن النية إلى أمير "ڤالاشيا – Wallachia"، وفرسان سان چون فى رودس، وإلى القادة الچنويين فى ليسپوس وخيوس. كما يقال: إن السلطان رد على مبعوثى قسطنطين الحادى عشر ردودًا متملقة، كان يقسم بالله ورسوله بأن يعيش فى سلام مع الإمبراطور وشعبه، وأن يحافظ معه على روابط الصداقة نفسها التى كانت بين أبيه وچون الثامن؛ وربما يكون هذا الوعد الأخير هو الذى جعل الإمبراطور متيقظًا وحذرًا. كان يبدو أنه واحد من أوائل الحكام الأوروبيين الذين شعروا بأن السلطان الشاب لم يكن كما يبدو. على العكس، كان بالفعل فى منتهى الخطورة.

ربما كانت لدى محمد نفس المشاعر تجاه قسطنطين، الذى كان فى تلك الأيام بمثابة شوكة دائمة فى خاصرة أبيه مراد، باعتباره إمبراطور المورية. كان "قسطنطين دراجاسس – Constantine Dragases" – رغم أنه كان پالايولوجوسًا قلبًا وقالبًا كان يفضل أن يستخدم هذه الصيغة اليونانية من اسم أمه الصربى – كان فى منتصف العقد الرابع، وترمل مرتين – وحيث إنه لم ينجب فى المرتين – وكان يبحث عن زوجة ثالثة. عندما علم بوفاة مراد فى 1451 جاءت الفكرة "الألمعية".. أن يتزوج إحدى أرامل مراد: ماريا الابنة المسيحية لچورچ برانكوڤتش العجوز.

بعد خمسة عشر عامًا فى الحرملك لم تنجب، وكان الاعتقاد الشائع هو أن الزواج لم يكتمل؛ أى: إن السلطان لم يبنِ بها. كانت على أية حال زوجة أبي السلطان الشاب، فهل كان أفضل من ذلك فرصة لكى يكون الصبى تحت السيطرة؟

لا يهم كثيرًا كيف كان يمكن أن يتغير التاريخ لو أن قسطنطين دراجاسس تزوج ماريا برانكوڤتش. ربما لا تكون هناك أهمة كبيرة. ربما يكون من المتصور أنها كان يمكن أن تنجح فى إقناع ابن زوجها بأن يتخلى عن مشروعاته بالنسبة للقسطنطينية، لو حدث ذلك فلربما كان يمكن للإمبراطورية البيزنطية أن تظل تقاوم على مدى جيل أو جيلين آخرين. ولكنها ما كانت لتستعيد قوتها. ولأنها كانت بحيرة مسيحية واحدة، ضعيفة ومفلسة فى محيط إسلامى واسع، كان يمكن أن تكون أيامها معدودة ودمارها النهائى مؤكدًا. الحقيقة أنه بالرغم من أن والديها كانا قد وافقا بكل الرضا على المشروع، كان الأمر يتوقف على ماريا نفسها. كانت قد نذرت بقية حياتها للتبتل والعفة وفعل الخير لو نجت من أيدى "الكفار"، وجاءت الأحداث اللاحقة كلها لكى تبرر قرارها.

فى الوقت نفسه لم يضيع محمد الوقت. قرر أن يبنى قلعة أخرى عند تلك النقطة؛

حيث أكثر مناطق البوسفور ضيقًا، وفى الجهة المقابلة تمامًا للقلعة التى كان جده الكبير بايزيد قد بناها على الشاطئ الآسيوى. القلعتان سوف تحققان له السيطرة التامة على القناة المائية. (صحيح أن الأرض التى ستبنى عليها هذه القلعة الجديدة كانت بيزنطية، ولكن محمد، كما أشار، لم يكن ليستطيع أن يمنع نفسه من ذلك).

فى مطلع ربيع 1452، تم هدم كل الكنائس والأديرة لتوفير مواد للبناء، وفى الخامس عشر من أبريل بدأ العمل فى بناء القلعة. بعد تسعة عشر أسبوعًا ونصف الأسبوع، فى الواحد والثلاثين من أغسطس كانت قلعة "روميلى هيزار – Rumeli Hisar" قد اكتملت لتبدو كما هى اليوم. ثم قام السلطان بتركيب ثلاثة مدافع ضخمة على البرج الأقرب للشاطئ وأصدر إعلانًا بأن تتوقف كل السفن المارة أيًا كان مصدرها أو جنسيتها للتفتيش. فى أواخر نوفمبر، تجاهلت سفينة فينيسية محملة بالمواد الغذائية والتموينية كانت متجهة إلى القسطنطينية تلك التعليمات. تم تفجيرها فى الماء، كما تم إعدام طاقمها، أما قائدها "أنطونيو ريزو – Antonio Rizzo" فأعدم على الخازوق، وعرض ليكون عبرة لأى قائد قد يفكر فى تكرار ذلك.

فى مطلع العام التالى بدأ الأسطول التركى يتجمع بالقرب من شبه جزيرة "جاليبولى – Gallipoli". يبدو أن الأسطول كان يحتوى على ما لا يقل عن عشرة سفن "بيريم – Bireme" وستة "تريريم – Trireme"[9]، وخمسة عشر «جالية – Galley» ذات مجاذيف، ونحو خمسة وسبعين قاربًا طويلًا وعشرين بارجة ثقيلة للنقل وعددًا من "السلوب – Sloops" و"القطر - Cutters" الخفيفة.[10] ويقال: إن حتى مستشارى السلطان أنفسهم كانوا مدهوشين لحجم هذا الأسطول الضخم، إلا أن رد فعلهم لم يكن ليقارن برد فعل البيزنطيين الذين شاهدوه بعد أسبوع أو أسبوعين يشق طريقه ببطء نحو بحر مرمرة ليرسو تحت أسوار مدينتهم.

فى الوقت نفسه، كان الجيش العثمانى يتجمع فى «تراقيا – Thrace". تقدير اليونان كان أنه يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة ألف جندى، تقدير مضحك؛ إذ تقدره المصادر التركية – التى يمكن الاعتماد عليها إلى حد ما – بنحو ثمانين ألفًا من القوات النظامية وعشرين ألفًا من غير النظاميين أو "الباشى بوزوق[11] – Bashi-bazouks". كانت القوات النظامية تضم نحو اثنى عشر ألفًا من الإنكشارية، صفوة قوات السلطان الذين كان يتم تجنيدهم من الأسر المسيحية فى أرجاء الإمبراطورية وهم أطفال، وإخضاعهم لتدريب عسكرى وتعليم دينى شاق، كما كان يتم تدريب بعضهم على حفر الخنادق ورص الألغام وغير ذلك من الأعمال الهندسية. من الناحية القانونية، كانوا عبيدًا

لا يتمتعون بأى حقوق شخصية خارج حياتهم العسكرية، ولكنهم كانوا يتقاضون رواتب منتظمة ولم يكونوا أكثر من رقيق، وفى 1451 تمردوا مطالبين بأجور أعلى، كما بقيت تمرداتهم ملمحًا منتظمًا فى التاريخ العثمانى حتى القرن التاسع عشر تقريبًا.

كان محمد فخورًا بجيشه، وأكثر فخرًا بقوته البحرية، ولكنه كان شديد الزهو بتسليحه. كان المدفع بصورته البدائية مستخدمًا بالفعل فى القتال منذ مائة عام تقريبًا، وكان إدوارد الثالث قد استخدم نوعًا من المدافع فى حصار "كاليه – Calais" فى 1347، كما كانت المدافع معروفة فى الشمال الإيطالى قبل ذلك بنحو ربع القرن، ولكنها فى تلك الأيام كانت ضعيفة أمام المبانى المصمتة القوية. بحلول العام 1446، كما رأينا، كانت المدافع قد تطورت بما يكفى لهدم الهكساميليون فى كورنتة، ومع ذلك حدث أن تقدم مهندس ألمانى يدعى "أوربان – Urban"، للسلطان وعرض عليه أن يصنع له مدفعًا يمكن أن يدمر أسوار بابل نفسها. كان المدفع الأول من أجل السفينة الفينيسية التى كانت تقف بالقرب من روملى هيزار، ثم أمر محمد بصنع مدفع آخر بضعف قوة المدفع الأول. تم الانتهاء من المدفع الجديد فى يناير 1453. يقال: إن طوله كان نحو سبعة وعشرين قدمًا، وقطر ماسورته نحو قدمين ونصف القدم. كانت سماكة البرونز نحو ثمانية بوصات. عند تجربته، انطلقت منه كرة يبلغ وزنها نحو 1340 رطلًا عبر الفضاء، لمسافة تربو على الميل قبل أن تسقط على الأرض بعمق ستة أقدام. أرسل مائتا مهندس للتجهيز لرحلة هذا الكيان المرعب إلى القسطنطينية، راحوا يمهدون الطريق ويقومون بتقوية الجسور، وفى الأول من مارس تحرك، يجره ثلاثون زوجًا من الثيران، مع مائة رجل آخرين للحفاظ عليه ثابتًا مستقرًا أثناء الطريق.

السلطان نفسه غادر أدريانوبل فى الثالث والعشرين من مارس. كانت جيوش العصور الوسطى تتحرك بطيئة، وخاصة إذا كانت تحمل معدات تستخدم للحصار، ولكن فى الخامس من أبريل، كان أن نصب السلطان خيمته أمام أسوار القسطنطينية؛ حيث كان الجزء الأكبر من جيشه الضخم قد وصل قبل ثلاثة أيام. مصرًا على ألا يضيع الوقت، أرسل من فوره، تحت علم الهدنة، رسالة إلى الإمبراطور كما كانت توجب الشريعة الإسلامية، يتعهد فيها بأن كل رعايا الإمبراطورية سيكونون فى أمان مع أسرهم وممتلكاتهم فى حال استسلامهم طوعًا. أما إذا رفضوا فلن تكون رحمة أو شفقة.

وكما كان متوقعًا، لم يأت رد على الرسالة. باكرًا، فى صباح السادس من أبريل، فتحت مدفعيته نيرانها.

** ** **

كان أهالى القسطنطينية يعملون أيضًا: يقومون بإصلاحات وبتقوية الدفاعات، يطهرون الخنادق المائية حول المدينة، ويخزنون الأغذية والسهام والأدوات والأحجار الثقيلة وكل ما قد يحتاجونه. فى الوقت نفسه كان إمبراطورهم قد أرسل المزيد من الاستغاثات للغرب، ولكن الاستجابة – كالعادة – كانت فاترة. فى فبراير وافق مجلس النواب فى ڤينيسيا على إرسال سفينتين على متن كلتيهما أربعمائة جندى، بالإضافة إلى خمسة عشر جالية، بمجرد الانتهاء من تجهيزها، ولكن هذا الأسطول لم يغادر البحيرة حتى العشرين من أبريل. تعهدت المستوطنة الڤينيسية فى سيرينيسيما بأن سفنها لن تعود إلى بلادها؛ إجمالًا، كان الڤينيسيون يستطيعون تقديم تسعة سفن تجارية من بينها ثلاث من مستوطناتهم فى كريت.[12]

كان من بين المدافعين كذلك قوة صغيرة من چنوة. كان كثير منهم قد جاؤوا – كما كان متوقعًا – من المستوطنة الجنوبية فى «جالاتا – Galata"، أكبر الأحياء الأجنبية فى القسطنطينية الواقع شمال شرقى القرن الذهبى؛ إلى جانب ذلك كانت هناك مجموعة رمزية من چنوة نفسها، نحو سبعمائة شخص كان قد روعهم جبن حكوماتهم – إذ كانت قد وعدت قسطنطين بسفينة واحدة – وقررت أن تحارب من أجل المسيحية. كان قائدهم "چيوڤانى چوستنيانى لونجو – Giovanni Giustiniani Longo" ابنًا لواحدة من أكبر عائلات الجمهورية وخبيرًا بفنون الحصار العسكرى. كان حلفاء من هذا القبيل محل ترحيب كبير، ولكن بالرغم من أنهم قد يكونون منحوا الإمبراطور قدرًا من الشجاعة، فإنهم لم يقدموا له أى أمل حقيقى. كان عدد سفنه فى القرن الذهبى ستة وعشرين سفينة، وهو رقم لا يذكر مقارنة بالأسطول العثمانى. بالقرب من آخر مارس، كان قد أمر سكرتيره "چورج سفرانتز – George Sphrantzes" – الذى ترك لنا وصفًا كاملًا للحصار – أن يقوم بحصر كل أقوياء البنية من أبناء المدينة؛ بمن فيهم القساوسة والرهبان، الذين يمكن استدعاؤهم لحماية الأسوار. كان عدد سكان المدينة قد تناقص بشدة بسبب الطاعون (الموت الأسود) الذى كان قد هاجم المدينة عشر مرات فى القرن الماضى، إلا أن الرقم النهائى كان أسوأ مما يتصور: 4983 يونانيًا وأقل من 2000 أجنبى. لكى يدافع عن أسوار ممتدة على مسافة ما يقرب من أربعة عشر ميلًا، ضد جيش محمد الذى يصل إلى مائة ألف مقاتل تقريبًا، لم يستطع حشد أكثر من سبعة آلاف شخص.

كانت الأسوار البرية محل ثقة بيزنطة فى ذلك الربيع المشؤوم من عام 1453 - تمتد من شواطئ بحر مرمرة إلى مرتفعات القرن الذهبى، وتشكل الحدود الغربية للمدينة.

كان عمرها أكثر من ألف عام. كانت تعرف بأسوار ثيودوسيوس نسبة للإمبراطور "ثيودوسيوس الثانى – Theodosius II" التى بنيت فى عهده، واكتملت فى سنة 413 عندما كان طفلًا. كانت الأسوار منيعة، وذلك من منظور أعمال الحصار العسكرى فى العصور الوسطى. أى جيش مهاجم كان لا بد بداية من اجتياز خندق عميق عرضه ستون قدمًا، يملأ الماء جزءًا كبيرًا منه بعمق يصل إلى ثلاثين قدمًا فى حالة الطوارئ. خلف ذلك كان هناك متراس منخفض مزود بفرجات وخلفه شقة من الأرض شبه المستوية عرضها نحو ثلاثين قدمًا، بعد ذلك يأتى السور الخارجي وسمكه سبعة أقدام وارتفاعه ثلاثون قدمًا تقريبًا، مع ستة وتسعين برجًا على امتداده تفصل بينها مسافات متساوية.

بداخل هذا السور، كانت تمتد شقة أخرى من الأرض، ثم عنصر الدفاع الرئيسى، السور الداخلى الكبير بسمك ست عشرة قدمًا عند قاعدته وارتفاع نحو أربعين قدمًا فوق مستوى المدينة. كان يوجد به كذلك ستة وتسعون برجًا، تتعاقب مواقعها مع مواقع أبراج الحصن الخارجية. كانت محصلة ذلك كله أقوى حصن عرفته العصور الوسطى.

إلا أن العصور الوسطى كانت قد انقضت. على مدى الأسابيع الثمانية التالية، أخضع السلطان هذه الأسوار القوية لقصف غير مسبوق فى تاريخ الحصار العسكرى، وخلف حظائر خشبية بديلة كان المدافعون يعملون دون توقف لإصلاح الأضرار، ولكن كان من الواضح أنهم لن يستطيعوا الاستمرار فى ذلك إلى ما لا نهاية. واحد فقط من دفاعاتهم كان يبدو منيعًا ومحصنًا ضد أى هجوم قد يقوم به العدو: تلك السلسلة العظيمة الممتدة عبر مدخل القرن الذهبى من برج أسفل "الأكروبولوس – Acropolis" على ما هى الآن "سيراجليو پوينت – Seraglio Point"، إلى آخر على الأسوار البحرية لـ "جالاتا". بعد أيام قليلة من بدء الحصار، قام القائد البحرى التركى بقيادة عدد من أثقل سفنه لكى يدكه، إلا أنه كان راسخًا.

كان من صفات السلطان المميزة تركيز الاهتمام فجأة على هدف معين إلى أن يحققه، وفى منتصف أبريل كان قد أصبح كله إصرار على الاستيلاء على القرن الذهبى. ربما لا تبدو الطريقة التى اقترح أن يتم بها ذلك قابلة للتصديق اليوم: جعل مهندسيه يعملون على شق طريق يمر خلف جالاتا من نقطة على شاطئ البوسفور على التل القريب فيما يسمى اليوم بـ "ميدان تقسيم"، إلى القرن الذهبى حتى "قاسم باشا". تم صب العجلات الحديدية والعوارض المعدنية، فى الوقت الذى كان فيه النجارون منهمكين فى عمل هياكل خشبية تتسع لقواعد السفن ذات الحجم المتوسط. صباح الأحد الثانى والعشرين من أبريل كانت المستوطنة الجنوبية فى جالاتا تراقب، مشدوهة، نحو سبعين سفينة

تركية محملة على عربات تجرها ببطء مجموعات كثيرة من الثيران، على تل يبلغ ارتفاعه نحو مائتى قدم، ويتم إنزالها برفق فى القرن مرة أخرى.

بحلول أول مايو، كان الإمبراطور قد أدرك أنه لن يستطيع الصمود أكثر من ذلك. كان هناك أمل واحد قد تبقى: أن تأتى حملة إنقاذ من ڤينيسيا. هل كان هناك بالفعل أسطول فى الطريق؟ وإن كان... فكيف سيكون حجمه وماذا يحمل معه؟ الأهم من ذلك كله كان: متى يصل؟ كان مصير القسطنطينية يتوقف على الإجابة عن هذه الأسئلة. ثم كان قبل أن تنتصف ليلة الثالث من مايو مباشرة أن انسلت بريجنتية[13] رافعة علمًا تركيًّا، وتحمل طاقمًا مكونًا من اثنى عشر متطوعًا متنكرين كأتراك، وانزلقت تحت السلسلة العائمة. ليلة الثالث والعشرين، عادت تطاردها مجموعة من السفن العثمانية. من حسن الحظ أن السفينة البخارية الڤينيسية كانت ما زالت أفضل من التركية، وسرعان ما نجحت فى دخول القرن بعد هبوط الليل. على الفور، طلب قائدها لقاء الإمبراطور. قال: إنه كان قد أبحر فى أرجاء بحر إيجه ولم يجد أثرًا لحملة موعودة أو لأى سفينة ڤينيسية. عندما أدرك أن لا فائدة من مواصلة البحث، طلب عقد اجتماع مع البحارة وسألهم ماذا هم فاعلون؟ كان أحدهم مع العودة إلى ڤينيسيا، مجادلًا بأن القسطنطينية ربما كانت بالفعل فى أيدى الأتراك، ولكنهم أسكتوه. بالنسبة للباقين، كانت المهمة واضحة... لا بد من العودة والمثول أمام الإمبراطور كما وعدوا أن يفعلوا، ولذا عادوا وهم يعلمون تمامًا أنهم قد لا يغادرون المدينة أحياء. شكر قسطنطين كلًّا منهم شخصيًّا... كان صوته مختنقًا بالبكاء.

فى السادس والعشرين من مايو عقد السلطان مجلس حرب. قال لمن حوله: إن الحصار كان قد طال بما يكفى، وإن الوقت حان للقيام بالهجوم النهائى. سيكون اليوم التالى للتحضير، الذى بعده سيكون للراحة والصلاة. الهجوم سيبدأ فى الساعات الأولى من صباح الثلاثاء الموافق للتاسع والعشرين من مايو. لم تجر أى محاولات لإخفاء الخطة عن المدافعين عن المدينة، لدرجة أن بعض المسيحيين فى المعسكر التركى قاموا بإطلاق السهام عبر الأسوار حاملة رسائل تبلغهم بنوايا محمد. إلا أن مثل تلك الإجراءات لم يكن لازمًا تقريبًا، فقد كان للنشاط المحموم ليلَ نهارَ فى المعسكر الآخر شأن آخر.

فى آخر يوم اثنين فى تاريخ الإمبراطورية، ترك شعب القسطنطينية – بمن فيهم الإمبراطور – منازلهم وتجمعوا من أجل شفاعة جماعية أخيرة، وبينما كانت أجراس الكنائس تدق، كانت أقدس الأيقونات وأنفس التذكارات قد حملت للحاق بالموكب التلقائى الذى كان يضم اليونانيين والإيطاليين، الكاثوليك والأرثوذكس على السواء، وهو يشق

طريقه عبر الشوارع وعلى امتداد الأسوار. عندما انتهى كان الغسق قد حل. من كل فج فى المدينة، وكما لو كان بالغريزة، كان الناس يشقون طريقهم نحو كنيسة الحكمة المقدسة. على مدى الأشهر الخمسة السابقة كان اليونانيون قد تجنبوا ذلك المبنى معتقدين أن الممارسات اللاتينية، التى لا يقبلها أى بيزنطى ورع - كانت قد دنسته. الآن، لأول وآخر مرة، كانت الفوارق الدينية قد تم نسيانها. كانت كنيسة «سان صوفيا - St Sophia»، كما لم تكن أى كنيسة أخرى - هى المركز الروحانى للبيزنطيين. فى تلك اللحظة، لحظة الأزمة القصوى، لم يكن هناك مكان آخر يمكن الذهاب إليه.

كانت الصلاة الجامعة مستمرة عندما وصل الإمبراطور للتناول مع رعاياه. بعد وقت متأخر، وبعد أن أطفئت كل الشموع ما عدا تلك القليلة الدائمة، وبعد أن غمر الظلام الكنيسة، انسل الإمبراطور ليصلى بمفرده. ثم رجع إلى الأسوار. لن يتذوق طعم النوم فى تلك الليلة؛ لأن محمدًا لم ينتظر حتى الفجر ليبدأ هجومه. فى الواحدة والنصف صباحًا أعطى الإشارة. فجأة تمزق صمت الليل، دوى الأبواق وهدير الطبول وصيحات الحرب التركية المروعة كانت كفيلة بأن توقظ الموتى ! فى الوقت نفسه انطلقت أجراس كل كنائس القسطنطينية تدق لتعلن لكل المدينة أن المعركة النهائية قد بدأت.

كانت موجات الهجوم تتوالى: أولًا: الباشى بوزوق غير النظاميين، ورغم أنهم لم يكونوا مدربين وقدرتهم على الاحتمال ضعيفة، كانوا مستعدين للتضحية وملائمين لهدم الروح المعنوية للمدافعين ليصبحوا فرائس سهلة بالنسبة للمحاربين الأكثر كفاءة الذين سيأتون بعدهم؛ بعد ذلك تأتى كتائب أتراك الأناضول جيدة التدريب شديدة الانضباط، التى تضم مسلمين شديدى التدين بلا استثناء، وكلهم مصرون على الحصول على ثواب فى الجنة بأن يكونوا أول من يدخل أكبر مدن العالم المسيحى؛ وأخيرًا، الإنكشارية، الذين يتقدمون عبر السهول فى صفوف متراصة، برغم ما يطلقه عليهم المدافعون من قذائف. بعد الفجر بوقت قصير، أصيب چيوڤانى چيوستنيانى لونجو بسهم اخترق صدره. عمت الفوضى صفوف الجنويين ليفر كثير منهم، ولكن حتى ذلك الحين، لم يكن لذلك أهمية كبيرة. فى غضون ساعة واحدة، كان الأتراك قد أحدثوا ثغرة فى السور وراحوا يتدفقون على المدينة؛ وعندما وجد الإمبراطور أن كل شىء قد ضاع، ألقى بنفسه فى المعركة حيث كان القتال على أشده.. ولم يره أحد بعد ذلك.

كان الصباح قد جاء والقمر شاحب فى السماء وساعات الرعب تتوالى، وبحلول الظهيرة كانت شوارع القسطنطينية قد تحولت إلى بحار من الدماء. المنازل نهبت، والنساء والأطفال اغتصبوا وقتلوا على الخوازيق، والكنائس نهبت ودمرت، الأيقونات

تم انتزاعها من أطرها الذهبية، والكتب مزقت من أغلفتها الفضية. فى كنيسة الحكمة المقدسة كانت صلاة الفجر ما زالت مستمرة عندما سمعت أصوات قدوم الغزاة تقترب. الأكثر فقرًا والأقل جاذبية من بين المصلين تم ذبحهم فورًا، الباقون تم اقتيادهم إلى معسكرات من قاموا بأسرهم لاستخدامهم كما يحلو لهم. القساوسة الذين كانوا يرأسون القداس واصلوا الصلاة لأطول وقت ممكن قبل أن يذبحوا فى أماكنهم على المذبح العالى، هناك بين بعض الأرثوذوكس المؤمنين من لا يزال يعتقد أن واحدًا أو اثنين منهم قاموا بجمع الآنية المقدسة، واحتفظوا بها على نحو غامض فى الحائط الجنوبى للحرم المقدس، وأنها ستبقى هناك إلى يوم أن تعود القسطنطينية مدينة مسيحية، وحينذاك سوف يستأنفون الطقس من النقطة التى توقفوا عندها.

كان السلطان قد وعد رجاله بمنحهم ثلاثة أيام يجمعون فيها الغنائم كما هو متبع عندهم فى التراث الإسلامى، ولكن أعمال العنف كانت فظيعة لدرجة أن أحدًا لم يحتج عندما أوقف السلطان ذلك فى نفس اليوم الذى بدأ فيه جمع الغنائم. هو نفسه انتظر توقف التجاوزات قبل أن يدخل المدينة. وفى وقت متأخر من المساء كان يتهادى راكبًا حصانه فى الطريق المؤدية إلى كنيسة سان صوفيا. ترجل عن حصانه أمام البوابة الرئيسية، وانحنى ليتناول حفنة تراب لينثرها على عمامته فى تواضع، وبعد ذلك – فحسب – دخل المبنى. بأمر منه، صعد كبير الأئمة المنبر وبعد أن حمد الله الرحمن الرحيم، أعلن أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. كانت تلك هى اللحظة. تخلى الصليب عن مكانه للهلال وأصبحت كنيسة سان صوفيا مسجدًا، وحلت الإمبراطورية العثمانية محل الإمبراطورية البيزنطية بعد أن استأصلتها. القسطنطينية أصبحت إسطنبول، وحقق محمد البالغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا أعلى طموحاته.

** ** **

استقبلت أخبار سقوط القسطنطينية ومعها الإمبراطورية البيزنطية مصحوبة بالرعب فى أرجاء العالم المسيحى. مع انتشار اللاجئين فى اتجاه الغرب كانوا يحملون معهم تفاصيل القصة التى لم يضع منها شىء. ولكن أوروبا الغربية، برغم ما أصابها من فزع حقيقى وعميق، لم تتغير تغيرًا كبيرًا. الدولتان اللتان تأثرتا فورًا، ڤينيسيا وجنوة، لم تضيعا وقتًا للتوصل إلى أفضل الشروط للتعامل مع السلطان.

أسطول النجدة الڤينيسى، الذى كان قد جهزه البابا نيكولاس الخامس بشكل أساسى، كان قد رسا بالقرب من "خيوس – Chios" فى انتظار ريح مواتية لكى يكمل رحلته إلى القسطنطينية، عندما اقتربت بعض السفن الجنوية التى تمكنت من الهرب من

"جالاتا" حاملة معها الأخبار. انسحب قائده "چياكومو لوريدان – Gicomo lore-dan" على الفور إلى إيوبيا فى انتظار أوامر. فى الوقت نفسه، تم إيفاد رسول خاص، هو "بارتولوميو مارشيللو – Bartolomeo Marcello"، لتهنئة محمد بانتصاره، وتأكيد نية الجمهورية الصادقة فى الحفاظ على معاهدة السلام، التى كانت قد عقدت مع والده وأكدها هو شخصيًا، ويطلب إعادة كل السفن الڤينيسية التى كانت قد بقيت فى القسطنطينية، موضحًا أنها لم تكن سفنًا حربية وإنما تجارية. وإذا وافق السلطان على تجديد المعاهدة يمكن أن يطلب مارشيللو السماح لڤينيسيا بالاحتفاظ بمستوطناتها التجارية فى المدينة، بنفس الحقوق والمزايا التى كانت تتمتع بها تحت الحكم البيزنطى. أثبت محمد أنه كان مساومًا صعب المراس؛ إذ بعد تفاوض استمر على مدى العام، أطلق سراح السفن والسجناء وسمح بعودة المستوطنة الڤينيسية، إلا أنها لن تتمتع مرة أخرى بالامتيازات الإقليمية والتجارية التى كانت أساس قوتها وازدهارها فى السابق. كان الوجود اللاتينى فى الشرق يتدهور.

كان لدى الچنويين ما يعتمدون عليه أكثر مما كان لدى الڤينيسيين؛ لكى يواصلوا دورهم المزدوج. فى جالاتا، كان الحاكم (البودستا – Podesta) قد فتح البوابات لحظة دخول الأتراك، كما كان قد فعل كل ما فى وسعه لمنع الهجرة الجماعية غير الملائمة لمواطنيه. بعد فترة، تلقى تأكيدات بأن چنويى جالاتا سوف يحتفظون بممتلكاتهم، وأنهم يمكنهم ممارسة طقوسهم الدينية ما دام لم يدقوا أجراسًا أو يبنوا كنائس جديدة، إلا أنهم كان لا بد من أن يسلموا أسلحتهم ويقوموا بتدمير تحصيناتهم وقلعتهم. نظريًا، كانت المستوطنات التجارية الچنوية على طول الشاطئ الشمال للبحر الأسود، بما فى ذلك ميناء "كافا – Caffa" المزدهر فى القرم، كان سوف يسمح لها بالبقاء، ولكن منذ موت أنطونيو ريزو، كان قليل من البحارة هم الذين يغامرون بالمرور عبر المضايق، وكان قليل من التجار هم المستعدين لدفع الرسوم الباهظة المطلوبة. باستثناء جزيرة خيوس، التى كانت تبقى چنوية حتى 1566، كانت إمبراطورية چنوة قد انتهت بنهاية القرن.

فى روما، لم يبد البابا نيكولاس أى اهتمام بالمصالح الشخصية للجمهوريات التجارية. كان يبذل قصارى جهده لكى يستحث الغرب من أجل حملة صليبية جديدة، وهى القضية التى كان يؤيدها بحماسة شديدة الكاردينالان اليونانيان بيساريون وإيزيدور، وكذلك ممثل البابا فى ألمانيا "إينياس سيلڤيوس پيكولومينى – Aeneas Sylvins Piccolo-mini" الذى سيصبح البابا "پيوس – Pius" فى المستقبل، ولكن مسعاه كان بلا جدوى. قبل مائتى أو ثلاثمائة عام، كانت الحماسة المسيحية قوية للقيام بحملات عسكرية لإنقاذ

أماكن الحج المقدسة. مع قدوم أفكار النهضة الإنسانية انطفأت جذوة الحماسة الدينية. كان الارتباك قد أصاب أوروبا وبيزنطة قد ماتت. مع وصول الجيش العثمانى إلى ذروة قوته، لم يكن هناك أمل فى أن تقوم للإمبراطورية قائمة.

شهد العقد التالى لسقوط القسطنطينية عددًا من عمليات التطهير وبخاصة فى اليونان؛ حيث انتهت الدوقية اللاتينية فى أثينا فى 1456 باستيلاء الأتراك على المدينة. الدوق الأخير "فرانكو أكياجولوى – Franco Acciajuloi" قتل بعد أربع سنوات عندما آلت إمارة موريا التى كان قد لجأ إليها إلى نفس المصير. مستوطنة نيجروبونتى، المعروفة لنا باسم جزيرة إيوبيا، سقطت فى 1470. المراكز المسيحية المتقدمة كانت تتضمن كريت وقبرص وقلعة أو اثنتين من موريا وعددًا قليلًا من الجزر الإيونية، أهمها كورفو وشيفالونيا وزانتة، مع شريط ضيق على ساحل دالماشيا. كل تلك المواقع بقيت فينيسية. ولكن فى المناطق الخلفية من البلقان كان جزء من البوسنة قد سقط باكرًا فى 1438، والباقى بالإضافة إلى الهرسك فى الجنوب كان قد تفتت بين 1463 و 1480.

كان هناك على أية حال موقع حصين آخر: جزيرة رودس؛ حيث منذ 1306، كان فرسان سان جون يديرون مستشفاهم ويشنون فى الوقت نفسه حربهم الخاصة ضد "الكفار"، بالنسبة للغرب، كانوا هم الآن خط الدفاع الأول ضد الإسلام. لم يعودوا مفارقة تاريخية من مفارقات العصور الوسطى، بل كانوا يعتبرون مخلصى العالم المسيحى. من جهة أخرى، بالنسبة للسلطان محمد، كانوا مصدر إزعاج وقلق مستمر، وفى ربيع 1480 تحرك ضدهم. كان جيشه قوامه نحو سبعين ألف مقاتل، نقله إلى الجزيرة على أسطول مكون من نحو خمسين سفينة. على متن هذه السفن كان هناك عدد من تلك المدافع المرعبة التى أفادته كثيرًا فى القسطنطينية. فى مقابل هذا الجيش الضخم تصدى الفرسان بنحو ستمائة مقاتل من تنظيمهم، مع ما يقرب من ألف وخمسمائة مقاتل من الأجانب والميليشيات المحلية. كانوا يعتمدون أيضًا على تعاون الروديسيين أنفسهم وكانوا كلهم مسيحيين. كان الجميع تحت قيادة قائدهم الأعلى "بيير دو بوسو – Pierre d›Aubsson" وكان فى السابعة والخمسين من العمر. قبل عدة سنوات، وكان يعرف أن الهجوم حتمى، قام باستدعاء أكبر المهندسين العسكريين لتحصين مدينة رودس وجعلها مدينة منيعة، والآن حيث كان الأتراك فى الطريق، كان مستعدًّا لهم.

بدأ الحصار فى الثالث والعشرين من مايو، وبحلول منتصف يونيو كانت أجزاء من سور المدينة الذى انهمر عليه ألف قذيفة تقريبًا من كرات المدافع، كانت قد بدأت تتساقط، إلا أن الفرسان ظلوا صامدين. فى السابع والعشرين من يوليو كان الهجوم

النهائى. كالعادة، كان الباشى بوزوق غير المدربين، الممكن التضحية بهم فى المقدمة، يتبعهم الإنكشارية. اندفعوا عبر الأجزاء المتبقية من السور عن طريق ما يسمى بالبرج الإيطالى وتمكنوا من أن يرفعوا راية النبى داخل المدينة، ولكن الفرسان قاموا بهجوم مضاد. أصيب القائد الأعلى بجراح شديدة بعد قليل، وفجأة انتشر الذعر بين الباشى بوزوق. فاستداروا ولاذوا بالفرار. أما السبب فسيظل لغزًا. قيل: إنهم أصيبوا بالرعب عندما رأوا الرايات المسيحية المزينة بصور السيدة العذراء والقديسين ترفرف فى الهواء، كانوا من المسلمين ولم يكن قد سبق لمعظمهم أن رأى تمثيلات ثنائية البعد للوجه أو الجسد البشرى. أيًا كان السبب فإنه شيء نادر بالفعل فى تاريخ الحروب أن يفر جيش قائم بالحصار، بعد أن يكون قد نجح فى اختراق أسوار مدينة. بالنسبة للجيش التركى كان الانتصار يتحول بين لحظة وأخرى إلى كارثة. قُتِلَ ما يقرب من أربعة آلاف من بينهم ثلاثمائة من الإنكشارية الذين كانوا قد احتلوا الحى اليهودى وتم احتجازهم هناك.

كان الفرسان قد انتصروا فى معركة، ولكنهم لم يكسبوا الحرب. كان السلطان محمد غاضبًا أشد الغضب لهزيمته، فبدأ من فوره فى إعداد جيش جديد، وقرر أن يقوده بنفسه ضدهم فى العام التالى ولو أنه فعل ذلك لما كانت أمامهم فرصة؛ حيث كان من المستحيل أن يتم إصلاح الدفاعات فى الوقت المناسب. ولكن فى ربيع 1481، أصيب السلطان بحمى شديدة مصحوبة بإسهال. بعد يوم أو يومين قضى نحبه، وكان فرسان سان چون يحتفظون بجزيرتهم الجميلة لمدة أربعين سنة أخرى، ولكنها كانت قد أصبحت جزيرة بأكثر مما يحمل المعنى الجغرافى للكلمة.

كان الحوض الشرقى للمتوسط قد أصبح بحرًا إسلاميًا تمامًا.

هوامش الفصل الثانى عشر

(1) لم يعمر عثمان ليراها، ولكن أورهان نقل جثمان والده ليتم دفنه فى القلعة، وأصبحت المدينة أشبه بمزار ومكانًا لدفن أوائل سلاطين آل عثمان.

(2) منذ ١٢٩٨ عندما أصبح المجلس الأعلى مقصورًا على العائلات المدرجة أسماؤها فى كتاب الجمهورية الذهبى.

(3) انظر الفصل الحادى عشر.

(4) لم تحفظ له ظروف اختياره وخلعه بعد ذلك مكانًا على قائمة البابوات المعتمدين، كما أنه من المثير للدهشة كذلك أن الكاردينال "أنجيلو رونسالى – Angelo Roncalli" اتخذ اللقب نفسه عند اختياره للبابوية فى 1958.

(5) العقيلة، كهلة متزوجة وذات مقام رفيع. (المترجم)

(6) انظر الفصل السادس.

(7) فى روما، أسس بيساريون أكاديمية لترجمة ونشر الأعمال اليونانية الكلاسيكية، وعند موته فى ١٤٧٢ كان قد ترك مكتبة مهمة من المخطوطات اليونانية تركها كلها لڤينيسيا لتصبح نواة مكتبة مارسيانا – Biblioteca Marciana الشهيرة.

(8) كانت موريا – Morea، المعروفة لنا باسم البيلوبونيز، قد شهدت محتليها الفرنجة يتدهورون تدريجيًا، وكانت ولاية تتمتع بالحكم الذاتى فى إطار الإمبراطورية البيزنطية منذ منتصف القرن السابق. كان يعهد بها دائمًا لأحد أقرباء أسرة الإمبراطور.

(9) على خلاف السفن القديمة التى تحمل نفس الأسماء، كان يوجد بالبيريم والتريريم التركية جانب واحد من المجاذيف. كان على التريريم ثلاثة أفراد لكل مجذاف، أما على البيريم فكان كل اثنين يجلسان معًا.

(10) * البيريم – Bireme، مركب بصفى مجاذيف فى كل جانب.

* التريريم – Trireme، سفينة قديمة فى كل من جانبيها ثلاثة صفوف من المجاذيف.

* الجالى - Galley، سفينة شراعية ذات مجاذيف ويطلق عليها قادس.

* السلوپ – Sloop، مركب شراعى وحيد الصارى.

* القطر – Cutter، مركب شراعى صغير وحيد الصارى ويكون تابعًا للسفينة الحربية يستخدم لنقل الأشخاص والمؤن من السفينة وإليها. (المترجم)

(11) قوات الفرسان العثمانية المشهورة بالوحشية. (المترجم)

(12) لا بد من أن نسجل هنا – بأسف – أنه، فى تحد لوعدهم، تسللت سبع سفن ڤينيسية تحمل سبعمائة إيطالى من القرن الذهبى عائدة إلى بلادها.

(13) بريجنتية – Brigantine، سفينة ڤينيسية صغيرة ذات صارين. (المترجم).

الفصل الثالث عشر

الملوك الكاثوليك والمغامرة الإيطالية

• كريستوفر كولومبوس: 1492 • ڤاسكو دى جاما: 1498• شارل الثامن يغزو إيطاليا: 1494 • شارل يصل إلى فورنوڤو: 1495 • تولى لويس الثانى عشر العرش: 1499 • كاترينا كورنارو: 1473 • تخلى كاترينا: 1489 • رابطة كامبراى: 1509 • ڤينيسيا تقف وحيدة: 1509 • البابا چوليوس ينقلب على الفرنسيين: 1512 • موت لويس وفرديناند: 1516

فى الجانب الغربى من المتوسط، كانت المسيحية فى صعود مرة أخرى. كانت حرب الاسترداد الإسبانية ماضية فى طريقها ببطء، ولكن السابع عشر من أكتوبر 1469 كان يومًا مهمًا بالنسبة لإسبانيا، وربما الأهم فى التاريخ الإسبانى كله. هو اليوم الذى شهد زواج «فرديناند الثانى – Ferdinand II" ملك أراجون من ابنة عمه "إيزابيلا – Isa-bella" ملكة "قشتالة – Castile". لم يكن أيهما متوجًا ملكًا آنذاك، كما لم تسفر الزيجة عن إسبانيا متحدة، لم تكن المملكتان قد أصبحتا مملكة واحدة. "كان الملوك الكاثوليك – Los Reyes Catholics"، بحسب اللقب الذى خلعه عليهم "البورجيا" (Borgia) الإسبانى، البابا "ألكساندر الثالث – Alexander III"، كانوا أقرانًا لبعضهم فى بلد كل منهم الآخر، بالرغم من أن السيادة ستكون لكل منهم فى بلده. بالنسبة لأراجون وقشتالة، كانت قشتالة هى الشريك الأعلى مقامًا، وفى شروط الزواج تعهد فرديناند بمراعاة قوانينها وأعرافها، وبأن يقيم هناك (ولا يغادرها إلا بموافقة زوجته)، وبأن يعترف بها دائمًا ملكة على قشتالة. أما هو فيحمل لقب الملك شرفيًا، وليس بحكم الحق الرسمى. وبالرغم من ذلك، عندما تولى عرش أراجون فى 1479، امتدت سلطته كذلك على "قطالونيا – Catalonia" و"ڤالينسيا – Valencia" و"الجزر الباليرية[1] – Bale-aric Islands"، كما شملت بالطبع مدينة برشلونة العظيمة التى كانت قد تطورت – حيث إن سقوط القسطنطينية كان قد جعل مكانة كل من چنوة وڤينيسيا تتراجع – لتصبح ذات أهمية تجارية لها مراكز وقنصليات منتشرة حتى الإسكندرية وربما إلى ما هو أبعد من ذلك.

وهكذا، منذ بداية حكمهما المشترك، كان فرديناند وإيزابيلا يحكمان مساحة من شبه جزيرة أيبيريا، أكبر منها وهى موحدة على مدى عدة سنوات. إلى جانب ذلك، فإنهما بذلا جهدًا كبيرًا لإظهار متانة علاقتهما؛ إذ كانت كل الوثائق الرسمية تقريبًا تصدر باسميهما، كما أن الدعاية التى لا نهاية لها – وعى نحو مبالغ فيه – كانت تؤكد دائمًا الحب الذى يجمع بينهما. هكذا يبدو مشروعًا النظر إلى زواجهما باعتباره حجر الأساس لإسبانيا الحديثة، كما أن الفتوحات الواسعة التى أضافاها للملكة فى حياتهما ساعدت كثيرًا فى تأكيد وحدة أراضيها.

كان أول هذه الفتوحات الانتصار على مملكة غرناطة الإسلامية، التى رغم حجمها الصغير كانت نموذجًا لترف حضارى لا مثيل له فى إسبانيا، كما لا يوجد كثير مثله فى

أى مكان آخر. بالرغم من الجذور العربية لثقافتها، كان عدد سكانها العرب قليلًا؛ ذلك لأن الهجرة العربية كانت قليلة فى القرون الحديثة. كان أغلب سكان المدن من بربر شمال أفريقيا، أما فى الريف فكان الغالبية من الإسپان المحليين الذين كانت أسرهم قد تحولت إلى الإسلام قبل وقت طويل، ومع مضى حرب الاسترداد فى طريقها، تقلص حجم المملكة؛ إذ سقطت قرطبة فى 1236، وأشبيلية فى 1248، وبحلول نهاية القرن الخامس عشر لم يكن هناك سوى مدينتين مهمتين: قرطبة ذاتها بتعدادها البالغ نحو ستين ألف نسمة وميناء "ملقة – Malga"، الذى كان يمر عبره الذهب والقوات والعتاد، الذى كان يجمع من أفريقيا والشرق الأدنى لمواصلة الحرب المقدسة ضد إسپانيا المسيحية.

فى الثامن من يناير 1492، بعد عشر سنوات من المقاومة، سلم آخر حاكم مسلم، أبو عبد الله محمد الحادى عشر (المعروف للغربيين بـ "Boabdil") مملكته وذهب إلى فارس. (رغم أن زوجته فاطمة وأولادها تم تعميدهم واستقروا فى مدريد). كان استسلامه بداية أهم أربعة أشهر فى التاريخ الإسپانى؛ حيث اتساع ظاهرة الاضطهاد الدينى، الذى كان له أثر كارثى على قوة وحيوية إسپانيا، وبدء أشهر رحلات الاستكشاف فى التاريخ.

لم يشهد التاريخ الأوروبى حكامًا كثيرين أضيق أفقًا وأكثر تعصبًا من إيزابيلا. كانت قد طلبت هى وزوجها تصريحًا بابويًّا (فتوى) فى 1478 لإدخال محاكم التفتيش فى قشتالة. فى ذلك الوقت كانت فى الأساس (وهو أمر مثير للدهشة) موجهة ضد اليهود المتحولين – الذين يدل لقبهم الشائع: "المارانوز – Marranos" (الخنازير) على أن تحولهم لم يفدهم كثيرًا. بعد ثلاث سنوات، طلب من كل أولئك المارانوز المتهمين بالهرطقة الاختيار بين التخلى عن معتقداتهم أو الإعدام على الخازوق. تم تنفيذ أول "فعل إيمان"[2] – «*auto – da – fé*» فى 1481 وكان هناك ست ضحايا، وعندما ماتت إيزابيلا فى 1504 كان عدد الضحايا قد بلغ أكثر من ألفين.

بعد أقل من ثلاثة أشهر من استسلام غرناطة، أصبحت الملكة تشعر بالقوة التى تجعلها تتمادى فى سياساتها. بتشجيع من «توركيمادا – Torquemada»، قاضى التحقيق العام (وكان هو نفسه من أصول يهودية)، أصدرت مرسومًا فى الثلاثين من مارس يقضى بمصادرة أملاك من يبقون دون تحول إلى المسيحية من اليهود قبل آخر يونيو وطردهم من المملكة، وتم طرد أكثر من مائة ألف يهودى، ونجم عن ذلك شتات ضخم لليهود الشرقيين فى شمال أوروبا والشرق الأدنى. استقبلتهم دول عدة – وبخاصة هولندا – بترحاب، بل إن السلطان التركى بايزيد الثانى أرسل أسطولًا من السفن لإنقاذهم.[3]

ثم جاء الدور على المسلمين. بحسب شروط استسلامهم كانت سلامتهم الشخصية

وحريتهم الدينية مكفولة، لم تحاول إيزابيلا أن تطردهم. ربما لأنها لم تكن تريد أن ترى البلاد خاوية من السكان، وزراعتها وتجارتها كاسدة. بدل ذلك، وافقت على ما كان بالفعل «دولة داخل دولة»: مجتمع مسلم له عقيدته وشريعته وعاداته وتقاليده التى لا مساس بها. وبالرغم من ذلك لجأ كثير من المسلمين إلى المنفى الاختيارى عبر المضايق، وخاصة فى «أوران – Oran" (وهران) والجزائر؛ أما بالنسبة للألوف من الآخرين، فلم تكن تنازلات الملكة تبدو صادقة، وهو ما اتضح قبل مرور وقت طويل. هذه المرة تحركت إيزابيلا وهى أكثر حرصًا، كانت تضيق الخناق تدريجيًّا؛ ولكن مع كل شهر يمر، كان المسلمون يجدون أنفسهم يعاملون معاملة المنبوذين. كانت ممارسة شعائرهم تزداد صعوبة وكذلك الضغوط عليهم لقبول التعميد المسيحى. نتج عن محاولات التحويل الإجبارى تلك ثورات خطيرة، وفى 1502 أوضح مرسوم ملكى الخيار مرة أخرى على نحو لا لبس فيه: التحول أو الطرد أو الإعدام. على خلاف اليهود، قبل غالبية المسلمين الخيار الأول، وبحلول العام 1503 نظريًّا على الأقل، لم يكن قد بقى أحد فى قشتالة، ولكن حيث إن قليلين فقط هم الذين كانوا يعتقدون فى صدق تحولهم، كان "الموريسكوس – Moriscos" (كما كان يطلق على المتحولين) وقودًا جديدًا لمحاكم التفتيش.

كانت الحرب مع غرناطة باهظة التكلفة، وعندما انتهت أصبحت هناك موارد متوفرة، وذلك ما جعل رحلة الچنوى "كريستوفر كولومبوس – Christopher Co-lumbus" الطويلة ممكنة، وهى التى انتهت باكتشاف الأمريكتين، وبالرغم من أن كولومبوس كان عليه أن يدافع عن اقتراحاته أمام لجنتين منفصلتين، الأولى مكونة فى معظمها من رجال الكنيسة واللاهوت، والثانية من فلاسفة وفلكيين وكوزموجرافيين، فإن سبب التصريح النهائى له من قبل الملوك الكاثوليك لكى يستمر، لم يكن من الصعب اكتشافه: كان استيلاء الأتراك على الحوض الشرقى للمتوسط قد أغلق طريق التجارة التقليدى إلى الشرق. لحسن الحظ، كان قد أصبح من المتفق عليه أن الأرض كروية، وأنه كان بالإمكان الوصول إلى جزر الهند الشرقية بالإبحار فى أى من الاتجاهين. كان السؤال المهم المطلوب حسمه الآن: أى الطريقين أقصر؟ كان البرتغاليون قد تعلموا فنون الملاحة من الچنويين؛ والآن - مستلهمين أميرهم هنرى الملاح - كانوا يضعون أموالهم على طريق الشرق ويتحسسون طريقهم على الساحل الأفريقى.

لم يكن هناك جديد بالنسبة لفكرة الإبحار حول أفريقيا؛ وإن كان لنا أن نصدق "هيرودوتس – Herodotus"، فإن الفينيقيين كانوا قد حققوا ذلك نحو عام 600

ق.م[4]، كما أن جنوة كانت قد قامت بمحاولة أخرى فى 1219 عندما أرسلت الأخوين «أوجولينو – Ugolino" و"جيدو ڤيڤالدى – Guido Vivaldi" بسفينتين فى محاولة للوصول إلى الهند عن طريق المحيط. (ڤينيسيا لم تحاول؛ حيث إن تقاربها الوثيق مع مصر المملوكية وسيطرتها الفعلية على طريق الإبحار عبر البحر الأحمر - جعلا ذلك غير ضرورى بالنسبة لها). لم يكن الإخوة ڤيڤالدى محظوظين، وجاء القرن الرابع عشر – وكان هناك تقدم كبير فى بناء السفن وفنون البحر والملاحة – وكانت القصة مختلفة. فى 1488 دار البرتغالى "بارتولوميو دياز – Bartholomew Diaz" حول "رأس العواصف – The Cape of Storms" (أعيد تسميتها بـ "رأس الرجاء الصالح – The Cape of Good Hope" بواسطة چون الثانى ملك البرتغال)، بعد ذلك كان التأكد من أن الطريق إلى الهند مسألة وقت.

كان من الطبيعى أن تجعل الخصومة القديمة بين إسپانيا والبرتغال، الإسپان يفضلون البديل الثانى وهو الاتجاه غربًا، وعندما راح كولومبوس يقنع فرديناند وإيزابيلا بمزاياه، كانا مهيأين لذلك إلى حد بعيد. ولكن الهدف الرئيسى من رحلته كان كما هى العادة دائمًا بالنسبة للمستكشفين الإسپان - مكونًا من شقين: الذهب والإنجيل. من جزر الهند الشرقية (التى كان يعتقد أن جزءًا منها قد تم تنصيره على يد سان توماس) كان يعتقد أن بالإمكان بدء تجارة مربحة فى سلع الشرق الخرافية بمساعدة الخان الأعظم (وكان شخصية أسطورية ويعتقد أنه كان محبًّا للمسيحية وإن لم يكن هو نفسه مسيحيًّا)، وكذلك نشر المسيحية فى شبه القارة المجهولة تلك. من هنا كان العرض الذى وجد طريقه إلى قلب الملكة مباشرة. صحيح أن مملكتها كانت – نظريًّا – قد خلت من "وصمة الإسلام"، ولكن التقدم العثمانى فى شرق ووسط البحر الأبيض كان ما زال قويًّا، ولم تكن هناك أى مؤشرات على أنه سيهدأ. كان قد وصل إلى إيطاليا حيث كانت جماعات الأتراك غير النظامية قد اجتاحت "فريولى – Friuli" وتخرب الريف وتقترب من ڤينيسيا؛ حيث كان يمكن رؤية اللهب المتصاعد من القرى المشتعلة، من أعلى برج كنيسة سان مارك. فى 1480 كان السلطان قد أطلق أسطولًا قوامه مائة سفينة على ميناء "أوترانتو – Otranto" فى "كالابريا – Calabria" وطوقه دون صعوبة. الآن كانت ناپولى مهددة، حتى روما نفسها. كان لا بد إذن من أن يتصرف العالم المسيحى بشكل حاسم، وكان ذلك واضحًا، ولكن كيف؟ كان البابا پيوس الثانى قد حاول مرتين القيام بحملة صليبية أخرى ولكنه لم يجد استجابة، على أية حال كان الجيش العثمانى مكونًا من جنود محترفين وعلى مستوى عال من التدريب، ولن يقهر فى مواجهة مباشرة.

ربما كان حل المشكلة هنا: الاقتراب من الجيش التركى من جهة الشرق والهجوم على مؤخرته؛ حيث يمكن أن يكون ضعيفًا وربما بلا حماية. لم تتردد إيزابيلا. كانت كما تعتقد لا تمول تدشين طريق جديد ومهم للتجارة فحسب، وإنما كانت تتخذ أول خطوة استكشافية ضرورية نحو ما قد يكون آخر حملة صليبية ضد "الكفار". كان فرديناند متحمسًا كذلك، وفيما بعد سوف يزعم كولومبوس أنه هو الذى رسم ابتسامة على شفتى الملك، عندما قال: إن أرباح هذه العملية كبيرة وسوف تغطى نفقات غزو أورشليم. ربما كانت تلك الابتسامة بالطبع ابتسامة ساخرة، ولكن فرديناند لم يكن قد نسى النبوءة القديمة عن ذلك "الأمير المنتظر" الذى سيرفع رايته على المدينة المقدسة ويحكم العالم. أعطى هو وإيزابيلا موافقتهما الرسمية فى السابع عشر من أبريل 1492، واضعين تحت تصرف كولومبوس المراكب الشراعية الصغيرة الثلاث – كان أكبرها أطول من مائة قدم بقليل – التى كانت قد غيرت ذلك العالم على نحو غير مسبوق.

قصة كريستوفر كولومبوس ورحلته الملحمية ليست قصتنا، إلا أنها مهمة بالنسبة لنا لما لها من أثر على مصائر المتوسط. قبل خمس سنوات فحسب، كانت قد أبحرت "نينا – Nina" و"پنتا – Pinta" و"سانتا ماريا – Santa Maria"، وكان "دياز – Diaz" قد أبحر حول "الرأس – The Cape"، وبعد ذلك بست سنوات؛ أى فى العشرين من مايو 1498، كان مواطنه "ڤاسكو دا جاما – Vasco da Gama" قد رسا فى "كالكوتا – Calicut" (كوچيكود – Kozhikode) على ساحل مالابار فى الهند. لم تكن زيارة دا جاما ناجحة تمامًا، لم يكن أحد يريد البضائع الرديئة التى عاد بها، ويبدو أنه كان قد استعدى مضيفه بسبب عجرفته وعدوانيته. كذلك فإن رحلة العودة لم تنج من سوء الحظ. لم يلحق بالرياح الموسمية التى كان يمكن أن تساعده، ومات ثلاثون من بحارته بالأسقربوط، ولا نعرف حتى تاريخ عودته إلى لشبونة، ولكن المؤكد أنه عاد وسط تهليل صاخب. لم يكتشف طريقًا بحريًا يصل إلى الهند فحسب، بل أثبت كذلك أن السفن البرتغالية كانت قادرة – فقط – على الذهاب إلى هناك والعودة.

كان لا بد من أن يمر قرن وربما أكثر قبل أن يستخدم طريق رأس الرجاء الصالح بانتظام، وعلى مدى القرن السادس عشر ستكون هناك حركة مرور كبيرة عبر المتوسط. ولكن، من الآن فصاعدًا كانت الكتابة على الحائط. حتى عندما كان الأتراك لا يسببون مشاكل – وكانوا غالبًا ما يفعلون – فإن كل الشحنات المتجهة إلى الشرق اللاتينى وما وراءه، وبعد ذلك كانت إما أن تنقل بالبر إلى البحر الأحمر المبتلى بالقراصنة، أو أن يعهد بها لبعض قوافل الجمال البطيئة التى قد تقضى عامين وربما ثلاثة أعوام قبل أن

تبلغ مقصدها. الآن، كان التجار يستطيعون التطلع إلى وقت يمكنهم فيه الإبحار من لندن أو لشبونة، ويصلون إلى الهند أو "كاتاى – Cathay" على نفس السفينة. فى الوقت نفسه، كان العالم الجديد – بفضل كولومبوس ومن جاؤوا بعده – يبدو أكثر فائدة من القديم، يمتلك ثروة خرافية، كان نصيب الأسد منها يذهب إلى إسبانيا وبشكل قانونى كذلك. فى غضون سبعة أشهر فقط من أول هبوط لـ كولومبوس على اليابسة، أصدر البابا ألكساندر أول مرسوم من مراسيمه الخمسة لتسوية الادعاءات المتنافسة لكل من إسبانيا والبرتغال بخصوص المناطق المكتشفة حديثًا[5]، وفى غضون خمسة وعشرين عامًا، كانت السفن الشراعية الضخمة (الغليونات – Galleons) تعود بانتظام إلى مواطنها محملة حتى حوافها بالغنائم. لا عجب إذن، أن تكون أعين خلفاء فرديناند وإيزابيلا على الغرب وبإصرار، أما أورشليم فكان يمكن أن تنتظر.

لم يكن واضحًا آنذاك أن هذا الفتح المفاجئ للمحيط من الجانبين قد وجه ضربة لتجارة المتوسط قد تصيبها بالشلل. بالتدريج، بدأ الناس يدركون، على الأقل من وجهة النظر التجارية - أن البحر الأبيض المتوسط قد بات منطقة مائية معزولة. كان المرور إلى شرق الأدرياتيكى صعبًا ويعتمد على حسن الحظ، وكان المرور إلى غربه ما زال ضروريًّا بالنسبة لإيطاليا ولا غنى عنه، أما فرنسا فكانت فى تلك الأيام تجد موانئها الشمالية على القنال الإنجليزى أكثر فائدة من مرسيليا أو طولون، بينما كانت إسبانيا، التى كانت تدخل آنذاك سنوات عظمتها، لديها الآن سمك آخر أفضل للشى. سيكون على المتوسط أن ينتظر ثلاثمائة سنة أخرى، إلى أن يتم شق قناة السويس، لكى يستعيد أهميته القديمة.

** ** **

ظل البحر الأبيض المتوسط كما كان دائمًا ساحة قتال. فى إيطاليا كذلك كان العام 1492 معلمًا مهمًّا. شهد ذلك العام موت كل من "لورنزو دى ميديشى – Lorenzo de Medici" (لورنزو العظيم)، وحاكم فرنسا، وبعد ثلاثة أشهر شهد موت البابا إنوسنت الثامن. لورنزو، الذى نتذكره أساسًا بسبب رعايته للفنون والآداب. كان هو المسؤول كذلك - إلى حد كبير - عن الحفاظ على التوازن بين الدول الإيطالية، وكان توازنًا ضعيفًا دائمًا، فبالإبقاء على التحالف بين فلورنسا وميلانو ونابولى، وفر بؤرة للقوى الصغرى مثل مانتوا وفيرارا وبعض الدول البابوية، كما لجم طموحات فلورنسا الخطرة. بموته وخلافة ابنه الصغير " بييرو – Piero"، ضاع هذا النفوذ المعتدل. رغم كل فساد البابا إنوسنت، ومحاباته لأهله وأقاربه، كان قوة سلام. الإسبانى "رودريجو بورجيا – Ro-

drigo Borgia"، الذى خلفه ليكون البابا إلكساندر السادس، كان كل همه أن يحصل على كل ما تقع عليه يده. مرة أخرى أصبحت إيطاليا معرضة للهجوم... ولم يكن ذلك الهجوم لينتظر طويلًا.

كانت ناپولى هى "ذريعة الحرب – The Casus belli". بالرغم من أنها كانت ما زالت تطالب بـ "صقلية" كجزء من أملاكها، كان قد تم فصلها عن الجزيرة منذ "صلوات المساء الصقلية – The Sicilian Vespers" عندما تم طرد "آل أنچو – Anjou" من قبل "آل أراجون – Aragon"، وانسحبوا إلى البر الرئيسى. فى 1435 كان خط النسب الأنچوى قد انقرض مع الملكة چوانا الثانية، أما عرش البر الرئيسى فى ناپولى، الذى كانت قد تركته لقريب لها من آل أنچو، فكان قد استولى عليه ألفونسو الأراجونى حاكم الجزيرة. الآن كانت المملكتان فى حكم المتحدتين وإن احتفظت كلتاهما بهويتها الخاصة، وعند موت ألفونسو فى 1458 انفصلتا مرة أخرى، أما البر الرئيسى فقد آل إلى ابنه غير الشرعى فرديناند.[6] ورث فرديناند ما استمر أن يكون عرشًا ينتمى إلى العصور الوسطى فى كل المجالات المهمة. كانت المبادئ الإقطاعية ما زالت سائدة، ولم يكن أحد قد سمع بالحريات المحلية على النموذج الشمالى. كان الملك الجشع، القاسى، القادر فى الوقت نفسه، كان مرهوب الجانب مكروهًا من رعاياه، مثلما كان ابنه ألفونسو الذى خلفه فى يناير 1494. ولكن ذلك الحفيد غير الشرعى لمغتصب العرش، لم يكن لمطالبته بالعرش أى أساس قوى بإجماع الكل. كان وضع ألفونسو عرضة لتحد كبير، وجاء هذا التحدى فى الواحد والعشرين من سبتمبر 1494، عندما قاد «شارل الثامن – Charles VIII» ملك فرنسا، البالغ من العمر اثنين وعشرين عامًا - جيشًا قوامه نحو ألف مقاتل إلى إيطاليا، مطالبًا بعرش ناپولى، باعتباره من نسل شارل الأنچوى. كان شارل الثامن ملك فرنسا هذا، يوصف بأنه "شاب أحدب فاسق مشكوك فى سلامة قواه العقلية"، وذلك على حد تعبير المؤرخ "إتش. إيه. إل. فيشر – H. A. L. Fisher". على الفور، اندلعت مرة أخرى الخصومة القديمة بين آل أنچو وآل أراجون.

لم يكن مظهر شارل هو ذلك المظهر المتوقع لمغامر عسكرى شاب. فى تقرير للسفير الڤينيسى فى ذلك العام نقرأ: "سموه ضئيل الحجم، مشوه، قبيح الملامح، له عينان قبيحتان قصيرتا النظر، وأنف أكبر من الطبيعى، وشفتان غليظتان منفرجتان دائمًا، ويأتى بيديه بحركات تشنجية تجعل منظرهما مقززًا، ويتكلم ببطء شديد". كان العام 1492 عامًا مهمًّا كذلك بالنسبة له؛ لأنه كان العام الذى تحرر فيه من السيطرة الصارمة للوصية السابقة: شقيقته الكبرى "آن دو بوچو – Anne de Beaujeu". المؤكد أنها

ما كانت لتشجع على مغامرة من ذلك النوع الذى كان شقيقها عازمًا عليه، والذى كان وزراؤه يبذلون كل جهدهم لإثنائه عنه، بينما كان هو يعتقد أن لديه ما يبرره. كان يقول: إنه لم تكن لديه أى رغبة فى غزو أراضى الآخرين، ولكنه كان يدعى أن تلك الأراضى من حقه، ومن بينها – بلا شك – مملكة نابولى. وكان هناك اعتبار آخر: على مدى القرون الثلاثة السابقة، كان لقب ملك أورشليم مرتبطًا بتلك المملكة، وهو ما قد يحقق له المكانة الضرورية بمجرد أن تتأكد ممتلكاته الإيطالية؛ لكى يقوم بقيادة حملة صليبية كان يحلم بها وكانت قد تأخرت طويلًا.

عندما بدأت الحملة كانت مبشرة بالنجاح. شارل وابن عمه دوق أورليانز وجيشه – خيالته من النبلاء وعلية القوم فى فرنسا – حملة الرماح الألمان، الرماة الجاسكون(7)، مدفعيته الخفيفة سريعة الطلقات كلهم عبروا الألب دون حوادث عن طريق ممر مونت چينيفر، وكان قد تم نقل مدفعيته الثقيلة بالبحر إلى جنوة. استقبلته ميلان بقيادة حاكمها اللامع القوى «لودوڤيكو سفورزا – Ludovico Sforza» بحماسة، وكذلك "لوكا – Lucca" و"پيزا – Pisa"؛ وفى فلورنسا استقبله المبشر الدومينيكانى "جيرولامو ساڤونا رولا – Girolamo Savonarola" باعتباره محررًا، واستغل الملك الفرصة لطرد "پييرو دى ميدشى – Pierode‹ Medici" الذى لم تكن تبدو عليه أى سمة من سمات رجل الدولة مثل والده لورنزو. فى الواحد والثلاثين من ديسمبر، فتحت روما أبوابها، بينما انزوى البابا ألكساندر مرتعدًا فى "كاستيل سانت أنجلو – Castel Sant Angelo"، قبل أن يصل فجأة إلى اتفاق، وأخيرًا فى الثانى والعشرين من فبراير 1495، دخل شارل نابولى، بينما استقبله شعبها - الذى لم يكن يرى فى بيت آل أراجون سوى أنهم مستبدون أجانب – بحماسة شديدة. فر خصومه الأراجون إلى صقلية، وفى الثانى عشر من مايو، تم تتويج شارل ملكًا للمرة الثانية.

لم يبق طويلًا فى مملكته الجديدة؛ إذ كان نجاحه قد بدأ يتحول إلى مرارة. أهالى نابولى، الذين كانوا سعداء بتخلصهم من آل أراجون، سرعان ما اكتشفوا أن لا فرق بين محتل أجنبى و آخر. كلهم سواء بسواء. انتشر القلق والاضطرابات بين سكان الكثير من المدن الصغيرة، الذين اكتشفوا أنه كان عليهم أن يتحملوا – دون سبب معقول يمكن فهمه – حاميات فرنسية ساخطة وفاسقة غالبًا. خارج مملكة نابولى كذلك، كان الناس قد بدأوا يشعرون بالقلق. حتى تلك الدول الإيطالية والأجنبية التى كانت فى السابق قد اعتبرت تقدم شارل لا يمثل خطورة، حتى تلك الدول بدأت تتساءل عن المدى الذى ينوى ذلك الفاتح الشاب الوصول إليه. قرر فرديناند وإيزابيلا إرسال أسطول إلى صقلية، وقام

الإمبراطور الرومانى المقدس المنتخب مكسميليان(8) هو الآخر باستعداداته مرعوبًا من فكرة أن تؤدى نجاحات شارل به إلى المطالبة بالتاج الإمبراطورى؛ البابا ألكساندر الذى لم يكن سعيدًا قط بـ «شارل»، أصبح أكثر توترًا؛ حتى لودوڤيكو سفورزا، ملك ميلان، الذى كان قد بات منزعجًا مثل الآخرين، أصبح قلقًا بسبب الوجود المستمر لدوق أوليانز فى «آستى – Asti" القريبة، الذى كان يطالب بـ "ميلان" عن طريق جدته الدوقة "ڤالينتينا ڤيسكونتى – Valentina Visconti"، وكان يدرك أن تلك المطالبات ليست أقل قوة من مطالبات شارل بـ "نابولى"، كانت النتيجة هى تكوين ما سمى بـ "الرابطة المقدسة – The Holy League"، التى كانت مسالمة فى الظاهر، بيد أنه كان لها فى الحقيقة هدف واحد، وهو أن يحمل الملك الجديد عصاه ويرحل.

** ** **

عندما وصلت أخبار الرابطة إلى شارل فى نابولى استشاط غضبًا، ولكنه لم يهون من شأن الخطر الذى كان يواجهه آنذاك، بعد أسبوع واحد من تتويجه، ترك مملكته الجديدة إلى الأبد واتجه شمالًا، متخذًا الساحل الغربى لشبه الجزيرة إلى "لاسپيزيا – La Spezia"، ثم انعطف إلى اليمين على امتداد الطريق الجبلى الذى سيوصله إلى السلسلة الشمالية من "الأپنين – The Appennines"، ثم ينحدر مرة أخرى إلى لومبارديا. حتى فى منتصف الصيف، لا بد من أن يكون القيام بجر مدفعية ثقيلة فوق ممر جبلى أشبه بكابوس ثقيل. كان الصعود شديد الصعوبة، وكذلك كانت رحلة النزول، وربما كانت أسوأ. كان الأمر يحتاج أحيانًا إلى ما يقرب من مائة جندى ممن أصابهم الإرهاق الشديد، كل اثنين منهم موثقين معًا، يعملون على منع مدفع واحد من المدافع الثقيلة من الاندفاع بسرعة من أعلى جرف شديد الانحدار، وإن لم يتصرفوا بسرعة، كان لا بد من أن يجرفهم معه. وأخيرًا، فى الخامس من يوليو، كان شارل يستطيع أن يطل على مدينة "فورنوڤو – Fornovo" الصغيرة، التى كان ينتشر خلفها نحو ثلاثين ألف جندى من الرابطة، تحت قيادة "فرانسيسكو كونزاجا Franncesco Conzaga"، ماركيز مانتوا.

كان جيش جونزاجا متفوقًا فى كل شىء، كان يفوق الجيش الفرنسى عددًا بنسبة ثلاثة – وربما أربعة – إلى واحد، وكان مستقرًا فى مكانه، ولديه ما يكفيه من المؤن، وكان لديه وقت كاف لاختيار مواقعه والاستعداد للمواجهة القادمة. على العكس من ذلك، كان الجيش الفرنسى منهكًا وجائعًا وغير راغب فى القتال. ولكنهم قاتلوا. الملك نفسه قاتل بشجاعة مثل الآخرين. كانت المعركة هى الأكثر دموية فى تاريخ إيطاليا على مدى مائتى عام. على أية حال، لم تستمر طويلًا، وبحسب رواية "فيليپ دى كومين –

"Philippe de Commines"، السفير الفرنسى فى ڤينيسيا، الذى كان موجودًا، انتهى كل شىء فى غضون ربع ساعة. حاول كونزاجا أن يعتبر ذلك انتصارًا، لدرجة أنه عندما عاد إلى مانتوا، بنى "كنيسة انتصار – Chiesetta de Vittoria"، مزودة بلوحة مذبح خاصة بواسطة "مانتجنا – Mantegna"، رغم عدم موافقة كثيرين. الفرنسيون اعترفوا بأنهم خسروا قافلة تموينهم، ولكن خسائرهم كانت لا تذكر مقارنة بخسائر الإيطاليين الذين فشلوا تمامًا فى إيقافهم، كما ظهر عندما واصل شارل ورجاله تقدمهم فى تلك الليلة نفسها؛ ليصلوا إلى "آستى – Asti" دون عقبات بعد أيام قليلة.

وهناك، كانت أخبار سيئة فى انتظارهم. كانت حملة بحرية فرنسية على چنوة قد فشلت، ونتج عنها أسر معظم الأسطول. كان لويس ملك أورليانز محاصرًا فى "نوڤارا – Novara" من قبل جيش ميلان، ولم يكن من المحتمل أن يصمد طويلًا، وكان فيرانتينو ابن ألفونسو قد رسا فى "كالابريا – Calabria" حيث كان يتقدم بسرعة نحو ناپولى، مدعومًا بقوات إسپانية من صقلية. فى السابع من يوليو 1495 أعاد احتلال المدينة، فجأة تبخرت كل انتصارات العام السابق الفرنسية. وفى شهر أكتوبر، نجح شارل فى التوصل إلى اتفاق مع سفورزا أنهى تأثير الرابطة، بعد أسبوع أو اثنين قاد جيشه عائدًا عبر الألپ تاركًا أورليانز خلفه لكى تحافظ على وجود فرنسى على قدر ما استطاع.

على العكس من ذلك، كان أن تركت مغامرة شارل الإيطالية أثرها الدائم فى أوروبا الشمالية. عندما سرح جيشه من الخدمة فى ليون فى نوفمبر 1495، تشتت جنوده فى القارة مع حكايات عن بلاد دافئة تغمرها الشمس، يسكنها شعب رفاهيته الثقافية أكثر مما هو معروف فى المناخات الباردة الكنيبة فى الشمال، ولكنهم كانوا مفككين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد كل محتل عنيد. عندما انتشرت الرسالة، وعندما بدأ الرسامون والنحاتون وعمال الجص والحفر على الخشب الذين عاد بهم شارل معه من إيطاليا يحولون قلعته القديمة فى "أمبواز – Amboise" إلى قصر من قصور النهضة، أصبحت إيطاليا مرغوبة أكثر فى عيون جيرانها الشماليين، مقدمة لهم دعوة وتحد، لم يكونوا بطيئين فى تبنيها فى السنوات التالية.

المرتزقة الذين كان قد تم تسريحهم حملوا معهم كذلك شيئًا آخر، كان مهلكًا أكثر من أى من أحلام الغزو. سفن كولومبوس الثلاث التى عادت إلى إسپانيا من الكاريبى فى 1493، جاءت معها بأول حالات الزهرى التى عرفها العالم القديم، وعن طريق المرتزقة الإسپان الذين أرسلهم فرديناند وإيزابيلا لمساعدة الملك ألفونسو، كان المرض

قد انتشر بسرعة فى نابولى؛ حيث كان قد تفشى عند وصول شارل، بعد ثلاثة أشهر من الاسترخاء والخلو من الهم (dolce far nient)، كان لا بد أن يصاب رجاله بدورهم بالعدوى، وكل الدلائل المتاحة كانت توحى بأنهم كانوا المسؤولين عن جلب المرض إلى شمال الألب، وبحلول عام 1497 كانت التقارير تفيد أن المرض كان قد وصل إلى "أبردين – Aberdeen". فى ذلك العام وصل ڤاسكو دا جاما إلى الهند؛ حيث سجل دخول المرض فى 1498، وبعد سبع سنوات كان قد انتقل إلى "كانتون – Canton".

ولكن مهما كانت سرعة انتشار "المرض الفرنسى" – morbo gallico – كما أطلق عليه، فإن الموت جاء شارل الثامن على نحو أكثر سرعة. فى "إمبواز – Amboise"، ليلة أحد السعف فى العام 1498، وبينما هو فى طريقه لمشاهدة فعالية رياضية فى ملعب القلعة ارتطم رأسه بعرقة باب منخفضة، مضى فى طريقه وشاهد المباراة، وفى طريق عودته إلى مقر إقامته سقط على الأرض عند المكان الذى وقع فيه الحادث. رغم أن المكان كان أقذر أركان القلعة و"مكانًا للتبول"، كما يقول "كومينيس – Commines" بازدراء، كان من رأى مرافقيه ألا يحركوه، وهناك أرقدوه على حشية خشنة لمدة تسع ساعات.. وقبل منتصف الليل كان قد فارق الحياة.

وحيث إن ابن شارل الوحيد كان قد مات فى طفولته، انتقل العرش إلى ابن عمه دوق أورليانز، الذى سيعرف باسم لويس الثانى عشر. بالنسبة لحكام إيطاليا الذين كان لهم دراية واسعة بـ "لويس" فى سنواته الحديثة، كانت خلافته تعنى شيئًا واحدًا فحسب: غزوًا جديدًا لشبه الجزيرة، وهذه المرة ليس لتبرير مطالبة آل أنجو بـ "نابولى" فحسب، بل وتبرير مطالبة الأوليانز بـ "ميلان". لم يدهشهم على الإطلاق أن يسمعوا أن الملك الجديد كان قد اتخذ لنفسه لقب دوق ميلان عند تتويجه. كان تفوق الأسلحة الفرنسية قد ظهر فى فورنوڤو، كما أن الجيش الذى كان لويس يجهزه كان مبشرًا بأن يكون أكبر وأفضل تجهيزًا وتنظيمًا من جيش سلفه. كان البابا ألكساندر يمكن أن يعترض، ولكن لويس تمكن من شرائه دون صعوبة، بأن أعطى ابنه "سيزار – Cesare" (الذى كان قد سئم منصب الكادرينال وقرر أن يترك الكنيسة مفضلًا حياة المغامرة العسكرية) دوقية "ڤالينتنوا – Duchy of Valentinois" الغنية، وساعده فى الزواج من "شارلوت دالبرت – Charlot d'Albret" شقيقة ملك "ناڤار – Navarre".

فى منتصف أغسطس 1499 كانت غزوته الثانية. فى الثانى من سبتمبر هرب الدوق لودوڤيكو سفورزا بكنزه إلى "تيرول – Tyrol"، وفى السادس من أكتوبر كان الدخول المهيب للملك لويس إلى فرنسا، عاد سفورزا إلى المدينة – ولكن جيش الملك كان قويا

بكل تأكيد، وفى أبريل تم أسر الدوق ولم يستعد حريته بعد ذلك. إلا أن ذلك لم يكن كافيا لكى يشعر لويس بالرضا. كانت نابولى تلوح له وكأنها تناديه؛ وكان شارل ابن عمه فاز بالمدينة ثم فقدها، أما هو، فكان لا بد من أن يكون أكثرا حذرا. فى نوفمبر 1500، وقع مع فرديناند ملك أراجون اتفاقية غرناطة السرية، التى سيقوم بموجبها الحاكمان بغزو نابولى مشاركة. فى مقابل تحالفه، أو على الأقل عدم تدخله، سيحصل فرديناند على نصف المملكة بما فى ذلك إقليما "أبوليا – Apolia" و "كالابريا – Calabria". أما لويس، فستكون نابولى نفسها و"جايتا – Gaeta" و "أبروزى – Abruzzi" من نصيبه. أعطى البابا موافقته فى الوقت المناسب، وفى مايو 1501 كان الجيش الفرنسى فى طريقه، مدعوما بأربعة آلاف من المرتزقة السويسريين.

أولى أخبار التحالف التى وصلت إلى "فيديريكو – Federico" ملك نابولى شقيق وخليفة "فيرانتينو – Ferrantino"، الذى كان قد مات بعد عودته إلى مدينته مباشرة، جاءت من روما، كانت على هيئة مرسوم بابوى بإزاحته من منصبه وتقسيم مملكته حسب الشروط التى كان قد تم الاتفاق عليها فى غرناطة. آوى إلى جزيرة "إسكيا – Is-chia"، وبعد فترة قَبِلَ عرض لويس باللجوء إلى فرنسا. بعد يومين من رحيله، احتلت الحاميات الفرنسية قلاع نابولى، بينما اتجهت قوات أخرى شمالًا إلى أبروزى. فى الوقت نفسه احتل القائد الإسبانى الشهير "جونزالو القرطبى – Gonzalo de Cor-doba" حصة سيده فى المملكة.

ولكن من أسف أن اتفاقية غرناطة خلفت أسئلة كثيرة دون إجابة. لم تذكر أى شىء عن إقليم "كابيتاناتا – Capitanata" الواقع بين أبروزى وأبوليا، ولا عن "الباسيليكاتا – Basilicata" الواقعة على مشط قدم إيطاليا بين أبوليا وكالابريا. قد يعتقد المرء أنه كان بالإمكان تسوية تلك الأمور الخلافية بأساليب ودية ولكن ذلك لم يحدث: وبحلول يوليو، كانت الحرب بين فرنسا وإسبانيا مشتعلة. استمر القتال على نحو متقطع قرابة عامين، وفى النهاية كان النصر حليف الإسبان الذين سحقوا الجيش الفرنسى فى 1503 فى "سيريجنولا – Cerignola"، وفى السادس عشر من مايو دخل "جونزالو – Gonzalo" نابولى. فى الأيام الأخيرة من ديسمبر، هجم على الفرنسيين مرة أخرى عند نهر "جارجليانو – Garigliano"، وكانت المعركة هذه المرة حاسمة لكى تنهى الوجود الفرنسى فى نابولى. استسلمت "جايتا – Gaeta"، آخر حامية فرنسية فى المملكة للقوات الإسبانية فى الأول من يناير 1504. منذ ذلك أصبح حكم آل أراجون فى أراضى المملكة الرئيسية، كما فى صقلية وإسبانيا، دون منافس.

عند هذه المرحلة من القصة يتحول الضوء مؤقتًا إلى قبرص. قبل نحو قرنين ونصف القرن، كان ريتشارد قلب الأسد، قد منح الجزيرة لـ "جاى اللوزينانى – Guy of Lusignani"، وبالرغم من أنها من وقت لآخر كانت تتع تحت نفوذ أجنبى – وبخاصة النفوذ الجنوى فى 1426 – فإن بيت آل لوزينان كان مستمرًا فى حكمها. فى 1460 على أية حال، كان "چيمس اللوزينانى – James of Lusignan"، الابن غير الشرعى للملك السابق چون الثانى قد استولى على العرش من أخته الملكة "شارلوت – Charlotte" وزوجها "لويس ملك ساڤوى – Louis of Savoy"، مجبرهما على اللجوء إلى قلعة "كيرينيا – Kyrenia" لمدة ثلاث سنوات، قبل أن يتمكنا من الهرب إلى روما. بمجرد أن أصبح ملكًا، كان چيمس فى حاجة لحلفاء، وعندما عاد إلى ڤينيسيا طلب رسميًا يد "كاترينا – Catherina" الابنة الصغرى الجميلة لـ "ماركو كورنارو – Marco Cornaro" (أو كورنر – Corner كما ينطقها الڤينيسيون)، الذى كان لأسرته ارتباط طويل بالجزيرة. كان ماركو نفسه قد عاش هناك عدة سنوات وأصبح صديقًا حميمًا لـ "چيمس"، الذى قام بعدة مهام دبلوماسية دقيقة له، بينما سيصبح "أندريا – Andrea" عم كاترينا بعد وقت قصير مدققًا لحسابات المملكة. من ناحية الأم، كانت سلسلة نسبها متميزة؛ حيث كان لها أن تزهو بجد لا يقل منزلة عن "چون كومنينوس – John Comnenus" إمبراطور "تريبيزوند[9] – Trebizond".

توقع ملكه ڤينيسية لقبرص، كان أكثر ما يمكن أن تقاومه حكومة "سيرينيسيما – Serenissima"، وخشية أن يغير چيمس رأيه، تم الترتيب لزواج بالوكالة. فى العاشر من يوليو 1468، وبكل الأبهة والفخامة التى تعرفها الجمهورية، جاءت كاترينا ذات الأربعة عشر ربيعًا برفقة حاشية من أربعين عقيلة من النبلاء من "پالازو كورنر – Palazzo Corner" فى سان پولو إلى قصر الدوچ، وهناك سلم الدوچ "كريستوفرو مورا – Cristofro Mora" خاتمًا للسفير القبرصى ليضعه فى إصبع العروس نيابة عن مليكه. أعطيت لقب "ابنة سان مارك" وهو تكريم غير مسبوق، جعل رئيس أساقفة تورين يعلن ساخرًا أنه لم يكن يعرف أن سان مارك كان متزوجًا؛ وحتى لو كان، فلا بد من أن زوجته كانت أكبر من أن يكون لها ابنة فى الرابعة عشرة. بعد أربع سنوات، فى العاشر من نوفمبر 1472، أبحرت كاترينا ترافقها أربع سفن إلى مملكتها الجديدة.

فى العام التالى، على أية حال، مات الملك چيمس فجأة فى سن الثالثة والثلاثين تاركًا زوجته حاملًا. لم يكن هناك أساس للشك فى موته مسمومًا، ولكن ڤينيسيا التى كانت تخشى حدوث انقلاب يطيح بـ "كاترينا" وينصب "شارلوت"، لم تكن لتخاطر بترك

الأمور للمصادفة. فورًا، أرسل الچنرال "پيترو موسينيچو – Pietro Mocenigo" أسطولًا إلى قبرص، ظاهريًّا لحماية الملكة الصغيرة ولكن الحقيقة كانت حماية مصالح ڤينيسيا، مع أوامر بإزاحة كل المشكوك فى ولائهم من مواقع السلطة والنفوذ. كون قبرص دولة مستقلة ذات سيادة لم يكن مؤرقا للجمهورية على الإطلاق، وكان لدى موسينيچو تعليمات بأن يعمل من خلال الملكة بقدر الإمكان، ولكنه كان مفوضًا كذلك باستخدام القوة عند الضرورة.

من أسف أن الإجراءات التى اتخذها لم تسفر سوى عن زيادة الاستياء الذى كان يشعر به نبلاء قبرص، بسبب تدخل الڤينيسيين المستمر فى شؤونهم؛ وسرعان ما تجسدت مؤامرة تحت قيادة رئيس أساقفة نيقوسيا، فقبل ثلاث ساعات من فجر اليوم الثالث عشر من نوفمبر 1473، شقت جماعة صغيرة – تضم كبير الأساقفة نفسه – طريقها نحو القصر فى فاماجوستا وقتلت ياور الملكة وطبيبها أمام عينيها. بعد ذلك قامت بمطاردة عمها أندريا كورنر وابن عمها "ماركو بمبو – Marco Bembo"، ليلقى كلاهما المصير نفسه، وألقيت جثتاهما فى الخندق الجاف تحت نافذتها حيث بقيتا حتى أتت كلاب المدينة عليها. فى آخر الأمر أُجبِرَت كاترينا على الموافقة على خطوبة الابن غير الشرعى لملك ناپولى، وعلى أن تعترف بالأخير وريثًا لعرش قبرص، رغم حقيقة أن چيمس كان قد أورثها المملكة، وكانت قد أنجبت طفلًا من صلبها.

تمكن موسينيچو بسرعة من أن يلقى القبض على المسئولين، وكان واحد أو اثنان – منهما رئيس الأساقفة – قد هربا. تم إعدام زعماء الفتنة الآخرين وسجن الباقون. تم إبطال الترتيبات الجديدة للخلافة وأرسل مجلس النواب الڤينيسى اثنين من نبلاء الأرستقراطية الموثوقين، بلقب مستشار، لتولى إدارة شؤون حكم الجزيرة باسم كاترينا. ظلت الملكة البائسة على العرش ولكن دون صلاحيات. ابنها الرضيع چيمس الثالث، مات فى 1474، بعد عام بالتحديد من مولده؛ ومنذ ذلك الحين كان عليها أن تواجه مكائد سلفتها شارلوت من ناحية، ومكائد ألفونسو الشاب ملك ناپولى من ناحية أخرى، بينما كان نبلاء الجزيرة الذين كانوا يرونها دمية ڤينيسية أكثر منها ملكة، يحيكون المؤامرات ضدها باستمرار. بقاؤها، كما كانت تعرف جيدًا، كان فى أيد ڤينيسية. فى مرحلة ما، كانت تشكو هى ووالدها من أن حُماتها كانوا قد أصبحوا أقرب إلى السجانين؛ إذ كان محظورًا عليها مغادرة القصر. تم سحب خدمها، وكانت مجبرة على تناول وجباتها وحيدة على طاولة خشبية صغيرة. ابنة سان مارك، أو ليست ابنة سان مارك، كان الآن واضحًا بالنسبة لها أنها لم تعد سوى عبء، سواء على رعاياها أو على الجمهورية، وأنهم لن يترددا فى التخلص منها فى الوقت المناسب.

منذ 1462 كانت قبرص خاضعة لسلطان مصر الذى كانت تدفع له جزية سنوية قيمتها ثمانية آلاف دوكاتيه[10]؛ وكان يمكن أن يؤدى ضمها المباشر إلى تعقيدات دبلوماسية قد لا تقدر عليها ڤينيسيا، ولكن ما حدث هو أن سلطان مصر أرسل إلى كاترينا يحذرها، بأن السلطان العثمانى بايزيد كان يجهز لحملة كبيرة ضده، وكان من المرجح أن يقوم بمحاولة على قبرص فى طريقه. هذا التطور الذى كان يحمل أفق تحالف بين مصر وڤينيسيا ضد عدو مشترك، ربما يكون قد شجع مجلس النواب على القيام بعمل حاسم. ما ساعد على ذلك بالتأكيد، كان اكتشاف مؤامرة أخرى فى صيف 1488، كانت هذه المرة بهدف تأمين زواج كاترينا وألفونسو ملك نابولى. كان ذلك احتمالًا لا يمكن أن يطرأ على بال أحد. فى أكتوبر 1488 تم اتخاذ القرار. يتم دمج قبرص رسميًّا فى الإمبراطورية الڤينيسية وتعود ملكتها – فى حفاوة رسمية إن أمكن، وبالقوة إذا لزم الأمر – إلى مسقط رأسها.

مع توقع قدر من التردد من جانب كاترينا – حيث إن الزواج من ألفونسو ربما كان يبدو لها بديلا مرغوبا عن وضعها الحالى – تحدث مجلس ڤينيسى من عشرة أعضاء مع شقيقها «جيورجيو – Giorgio» لكى يقنعها بأن تنازلًا طوعيًّا عن العرش سيكون فى صالح كل الأطراف. قبرص، وكانت ما زالت معرضة للخطر، ستكون فى حمى من الجشع التركى، بينما ستحصل هى شخصيًّا على الشرف والمجد بأن تقدم هذه الهدية لوطنها الأم. فى مقابل ذلك، سيتم استقبالها بحفاوة رسمية، وتحصل على إقطاعة غنية ودخل سنوى كبير يمكنها من العيش فى هدوء ورغد كملكة كما تتمنى. أسرتها كذلك سوف تحصل على السلطة والمكانة، بينما سيكون رفضها كارثة عليهم وخرابًا شديدًا لهم جميعًا.

احتجت كاترينا بقوة، إلا أنها رضخت فى آخر الأمر. فى أوائل صيف 1489 فى فاماجوستا، كلفت القائد الأعلى بأن يرفع راية سان مارك فى كل ركن من المدينة، وفى الأسبوع الأول من يونيو وصلت إلى ڤينيسيا. أبحر الدوچ فى بارجته الرسمية إلى الليدو لتحيتها بصحبة بعض النبيلات من علية القوم. لسوء الحظ هبت عاصفة واضطرت البارجة للقيام بمحاولات لتفاديها فكان أن تأخرت بضع ساعات، وعندما تمكنت كاترينا من النزول إلى اليابسة لم يكن ضيوف البارجة فى أحسن حالاتهم؛ ولكنهم استطاعوا أن يقوموا بواجبهم الرسمى، بينما كانت الأبواق تدوى وأجراس الكنائس تدق وشعب ڤينيسيا – الذى لم يكن مهتمًا أصلًا بـ "كاترينا" ولكنه محب للاحتفال – يهتف كما كان متوقعًا.

فيما بعد، تنازلت الملكة عن العرش فى طقس أقيم خصيصى لذلك فى كنيسة سان مارك؛ حيث تخلت عن مملكتها لڤينيسيا. فى شهر أكتوبر، وضعت يدها على مدينة "أسولو – Asolo"، الواقعة على رابية صغيرة؛ حيث ستبقى على مدى العشرين سنة التالية وسط بلاط مثقف – إن لم يكن مضجرًا – مستمتعة بحياة كلها موسيقى ورقص و"كلام مثقفين"، حياة كانت تستحق أن تعيشها بعد بلايا ومحن كثيرة. فى 1509، بعد أن شعرت بالخطر أمام جيش الإمبراطور "مكسيمليان – Maximil-ian"، كانت مضطرة للعودة إلى مدينتها الأم، وهناك قضت نحبها فى يوليو 1510. كانت فى الخامسة والستين.

** ** **

فى فبراير 1508، داخل الإمبراطور مكسيمليان أراضى ڤينيسيا على رأس جيش جرار، ظاهريًا، كأنه ذاهب إلى روما للتتويجه إمبراطورًا. كان قد أعطى الإمبراطورية إنذارًا سابقًا بما كان ينتويه فى العام السابق، طالبًا سلوكًا آمنًا ومؤنًا لجيشه على طول الطريق، ولكن العملاء الڤينيسيين فى بلاطه ومن حوله لم يتركوا سادتهم فى شك من أن هدفه الأول كان طرد الفرنسيين من جنوة وميلان، وطردهم هم أنفسهم من ڤيروثا وڤيسنزا؛ وبذلك كان يعيد المزاعم الإمبراطورية القديمة فى ملكية المدن الأربع كلها. آنذاك رد الدوج بأدب أن سموه كان مرحبًا به وأنه سيلقى كل ما يليق به من تقدير واحترام، إن هو جاء "دون جلبة الحرب وقعقعة السلاح"، أما إذا كان سيأتى مصحوبًا بقوة عسكرية، فإن التزامات الجمهورية بموجب الاتفاقية وسياساتها الحيادية، تجعل تلبية طلبه مستحيلة.

غاضبًا بسبب هذا الرد، زحف مكسيمليان على ڤيسنزا ليقابَل بمقاومة أقوى بكثير مما كان يتوقع. بمساعدة فرنسية، لم يرده الڤينيسيون على أعقابه فحسب، بل إنهم احتلوا ثلاث مدن إمبراطورية مهمة على رأس الأدرياتيكى: "جوريزيا – Gorizia" و"تريستا – Triesta" و"فيوم – Fume" (الآن ميناء ريچيكا الكرواتى). بحلول شهر أبريل، وبانقضاء فترة عقد جيشه وكانت ستة أشهر، ولأنه لم يكن يملك من المال ما يكفى لتمديد فترة العقد، اضطر الإمبراطور لقبول هدنة ثلاثة أشهر، وسمح لڤينيسيا بالاحتفاظ بالأراضى التى استولت عليها. كان ذلك بالنسبة له درسًا مفيدًا، من ناحية أخرى كان ذلك بالنسبة للبابا چولويوس الثانى، الذى كان يكره ڤينيسيا وحادبًا على تدميرها، كان ذلك ضربا من الغطرسة التى لا تغتفر، وعندما رفضت الجمهورية فى غضون أشهر قليلة، أن تسلم اللاجئين البولونيين، وعينت أسقفها، بدلًا من المعين من

قبل البابا، فى المنصب الشاغر فى فيسنزا، قرر أن يتصرف. تم إيفاد عدد كبير من الرسل من روما: إلى الإمبراطور، وإلى فرنسا وإسپانيا، وإلى ميلان وهنغاريا وهولندا، كانوا كلهم يحملون الرسالة ذاتها: دعوة لحملة مشتركة ضد الجمهورية وفصلها عن إمبراطوريتها. سوف يستعيد مكسيميليان كل الأراضى وراء نهر "مينسيو – Min-cio"، التى كانت تابعة لبيت "آل هابسبورج – The House of Habsburg" والتى تتضمن ڤيرونا وڤيسنزا وپادوا و"تريڤيزو – Treviso" و"استريا – Istria" و"فريولى – Friuli"؛ وتحصل فرنسا على "برماجو – Bermago" و"بريشيا – Brescia" و"كريما – Crema" و"كريمونا – Cremona"، وكل الأراضى والمدن والقلاع الواقعة شرق نهر "آدا – Adda"، وشمالًا حتى التقائه بنهر "پو – Po". فى الشمال، ستعود "ترانى – Trani" و"برنديزى – Brindisi" و"أوترانو – Otrano" إلى آل أراجون، أما هنغاريا فسوف تستعيد دالماشيا، وتذهب قبرص إلى سافوى، كما تستعيد كل من فيرارا ومانتوا أراضيها السابقة. باختصار، كل سيحصل على شىء ما، باستثناء ڤينيسيا التى سيتم تجريدها من كل شىء.

كان البابا نفسه ينتوى استعادة "كيرڤيا – Cervia" و"ريمينى – Rimini" و"فاينزا – Faenza"، ولكن هدفه البعيد كان يتخطى أى سؤال بخصوص الحدود الإقليمية. كانت إيطاليا، كما كان يراها آنذاك، مقسمة إلى ثلاثة أجزاء. فى الشمال، كانت هناك ميلان الفرنسية، وفى الجنوب ناپولى الإسپانية، وبين الاثنتين كان هناك متسع لدولة ثالثة – واحدة فقط – قوية ومزدهرة، هذه الدولة كان لا بد من أن تكون – حسب تصميمه – البابوية. يمكن أن تبقى ڤينيسيا كمدينة، ولكن لا بد من تدميرها كإمبراطورية.

لم يكن الأمراء فى أوروبا مهتمين بتلك القصة كلها، كانوا يعرفون جيدًا أن ڤينيسيا لها حق قانونى فى المناطق التى يخططون للاستيلاء عليها، حق تتضمنه الاتفاقيات التى وقعتها فرنسا وإسپانيا، ومكسميليان نفسه مؤخرًا. ورغم أى محاولات قد يقومون بها ليكون عملهم ضربة بالإنابة عن الشرعية التى يمكن أن تضع أى معتد جشع أمام العدالة، كانوا كلهم مدركين أن سلوكهم كان مستهجنًا أكثر من أى سلوك لـ "ڤينيسيا". إلا أن الإغراء كان عظيمًا والمكاسب الموعودة كبيرة. قبلوا. وهكذا كان أن تم توقيع ما اتضح أنه شهادة وفاة الإمبراطورية الڤينيسية. كان ذلك فى العاشر من ديسمبر 1508 فى "كامبراى – Cambrai" فى هولنده. كانت ڤينيسيا تواجه الآن عددًا كبيرًا من القوى الأوروبية أكثر ضراوة مما واجهته أى دولة إيطالية فى التاريخ. لم يكن لها حلفاء، وفى السابع والعشرين من أبريل 1509، أصدر البابا حكمًا بالحرم الكنسى والعزل، على كل الأراضى الڤينيسية.

ولكن القادم كان أسوأ. فى التاسع من مايو، وبالقرب من قرية "أجناديللو – Agn-adello"، لقى الجيش الڤينيسى هزيمة كارثية على يد الملك لويس. ضاع معظم أراضى البر الرئيسى، وما تبقى منها كان بلا حول ولا قوة. معظم الأهداف التى وافقت عليها "عصبة كامبراى – The League of Cambrai" تحققت بضربة واحدة. ولولا المياه الضحلة المحيطة بها، لكانت فرصة ڤينيسيا فى البقاء ضئيلة جدًّا. قبل قرن من الزمان، كان يمكن أن تستمر بدون اليابسة، (terra firma)، ولكن الزمن كان قد تغير. لم تتعاف تجارتها مع الشرق اللاتينى على أثر سقوط القسطنطينية فى 1453. لم تعد سيدة الحوض الشرقى من المتوسط، تقلصت إمبراطوريتها الكولونيالية لتصبح موطئ أقدام قليلة وضعيفة فى عالم عثمانى واسع. إذا أغلق الأتراك موانئهم أمامها، فلن تعود قادرة على الاعتماد على الأسواق الشرقية البعيدة لإنقاذها، وكان البرتغاليون حريصين على ذلك. باختصار، لم تعد قادرة على الحياة اعتمادًا على البحر وحده. فى تلك الأيام أصبح الڤينيسيون ينظرون غربًا أكثر منهم شرقًا، إلى سهول لومبارديا وڤينيتو الخصبة، إلى الصناعات المزدهرة فى پادوا وڤيسنزا وڤيرونا وبرشيا، وإلى شبكة الطرق البرية والمائية التى تصلهم بالمدن التجارية الغنية فى أوروبا. كان على البر الرئيسى الآن أن استثمروا ثروتهم وعقدوا آمالهم، وكان ممثلو مكسيمليان المدعومون يستقبلون استسلام مدينة بعد الأخرى: ڤيرونا، ڤيسنزا، پادوا، "روڤيرتيو – Rovereto" و"ريڤا – Riva" و"سيتاديللا - Cittadella" إلى أن ارتد الڤينيسيون إلى "ميستر – Mistre". وهكذا ضاع كل لومبارديا وڤينيتو.

أو هكذا كان يبدو الأمر على الأقل. ولكن بحلول شهر يوليو، كانت الأمور قد بدأت فى التحسن. كان كثير من الدول التى استسلمت راضين بكونهم تحت الحكم الڤينيسى وبدأوا يشعرون بالاستياء من القبضة الثقيلة والقاسية للسادة الجدد. بعد أقل من شهرين من الهزيمة بالقرب من أجناديللو، جاءت التقارير الأولية عن انتفاضات عفوية لصالح ڤينيسيا؛ وبعد اثنين وأربعين يومًا، عادت پادوا مدينة إمبراطورية تحت الجناح الحامى لأسد سان مارك، وحذا حذوها كثير من المدن الأصغر حجمًا فى المنطقة. فى الوقت نفسه، استولى قائد مرتزقة (Condottiere)، يدعى "لوسيو مالڤيزو – Lucio Malvezzo"، كان يعمل لحساب ڤينيسيا مؤقتًا، على "ليجنانو – Legnano"، وهى مدينة رئيسية على نهر "أديج – Adige"، ومنها كان يهدد ڤيرونا وڤيسنزا... وبالرغم من ذلك، ربما لم يكن الأمر قد بات ميؤوسا منه.

حتى ذلك الحين، لم يرفع الإمبراطور إصبعًا باسم الرابطة بعد أن كان قد أعطاها اسمه. لم يرسل جيشًا، ولم يعلن الحرب صراحة حتى التاسع والعشرين من مايو؛ أى بعد ثلاثة أسابيع من أجناديللو. ما حفزه على التحرك، على أية حال، كان أخبار استرداد پادوا. وبحلول أغسطس بدأ جيش، مترهل غير متجانس، زحفه على المدينة ليلحق به فى مراحل مختلفة من رحلته قوة مكونة من بضع ألوف من الفرنسيين، ومجموعة من الإسپان ومجموعات أصغر من مانتوا وفيرارا ومن قبل البابا. مكسميليان نفسه قرر فى ذات الوقت أن ينشئ مركز قيادة مؤقت فى أسولو، فى قصر ملكة قبرص، التى كانت قد فرت إلى ڤينيسيا عند سماع الأخبار الأولى لاقترابه.

مر شهر كامل قبل جمع الجيش الإمبراطورى وتجهيزه، وخلال تلك الفترة كان قد أصبح لدى أهالى پادوا وقتًا يكفى لتقوية دفاعاتهم وتخزين كميات كبيرة من الغذاء والماء والذخيرة. وعندما بدأ الحصار جديًّا فى الخامس عشر من سبتمبر كانوا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم. أسبوعان كاملان والمدفعة الألمانية والفرنسية الثقيلة تدق الأسوار الشمالية وتحولها إلى أنقاض، وبالرغم من ذلك فشلت كل محاولات الهجوم. فى النهاية تخلى الإمبراطورية عن المحاولة، وقام بترتيبات سريعة لترك جزء من جيشه فى إيطاليا تحت قيادة دوق "أنالت – Anhalt"، لاحتلال المدن الأخرى الأقل قوة وعزيمة، وليكون قوة طوارئ إذا لزم الأمر، وقام هو بقيادة جيشه الذى كان يجر أذياله عبر الألپ عائدًا من حيث جاء.

كان الڤينيسيون فى حالة سعادة غامرة. كانت استعادة پادوا، فى حد ذاتها، انتصارًا، أما الاحتفاظ بها بنجاح ضد جيش قوامه أربعين ألف مقاتل فكان انتصارًا أكبر. كان المزيد من الانتصارات فى الطريق. فى نوفمبر قامت أنالت بتسليم ڤسينزا دون مقاومة تذكر، وفى الأسابيع التالية أعلن المزيد من المدن – طواعية – تبعيتهم لڤينيسيا. عندما سمع البابا چوليوس باسترداد پادوا انتابه غضب شديد، وعندما علم بعد حصار مكسميليان أن ڤيرونا هى الأخرى كان من المرجح أن تنشق، وأن ماركيز مانتوا وقع أسيرًا فى أيدى الڤينيسيين، عندما سمع ذلك، يقال: إنه ألقى بقبعته وسب سان پيتر. إلا أنه استمر على عناده، وبدأ الڤينيسيون يدركون أن الموقف لم يتغير كثيرًا برغم انتصاراتهم الأخيرة. كانت العصبة[1] ما زالت قوية والجيش الإمبراطورى ما زال سليمًا. كان الفرنسيون فى ميلان يشحذون سيوفهم، وفى الوقت نفسه كانت ڤينيسيا تقف وحيدة: جيشها مهزوم، وخزانتها خاوية، ومعظم دخلها من البر الرئيسى مقطوع، ودون أى حليف. عندما طلبت مساعدة إنجلترا، أبدى الملك الجديد تعاطفه ولكنه لم يقدم أى مساعدة مادية. وأخيرًا،

وفى حالة من حالات اليأس كان أن ابتعلت كبرياءها ولجأت – حتى – إلى السلطان، ولكنها لم تتلق أى رد.

بنهاية العام، كان قد بلغ السيل الزبى، فكان لا بد من قبول شروط البابا چوليوس للسلام. كانت شروطًا بالغة القسوة. لا بد من أن تتوقف الجمهورية عن تعيين الأساقفة والإكليروس. لا بد من أن تعوض البابا عن كل النفقات لاستعادة مناطقه وعن كل العائدات التى خسرها. لا بد من أن يكون الأدرياتيكى مفتوحًا من الآن أمام الجميع، وخاليًا من الضرائب الجمركية التى كانت ڤينيسيا تحصلها عن السفن الأجنبية؛ وفى حال الحرب ضد الأتراك لا بد من أن تقدم الجمهورية خمسة عشر سفينة (جالية – Gally) على الأقل على نفقتها. فى الرابع والعشرين من فبراير 1510، وفى احتفال طويل، ومذل، أمام بوابة كنيسة سان پيتر الرئيسية، تم تركيع خمسة مبعوثين ڤينيسيين لمدة ساعة كاملة حتى الانتهاء من قراءة بنود الاتفاق كاملة، وبعد ذلك كان من المفترض أن يجلد كل منهم اثنتى عشر جلدة رمزية بواسطة الإثنى عشر كاردينال الحاضرين. (من باب الرحمة، تم إلغاء هذا الإجراء). وبعد أن قبلوا قدم البابا وتلقوا الغفران فتحت الأبواب الكبرى وتقدم الجمع فى شكل رسمى نحو المذبح العالى للصلاة قبل الذهاب إلى القداس فى كنيسة "سيستين – Cistine Chapel"، ذهبوا كلهم ما عدا البابا الذى – كما يروى أحد الڤينيسيين – "لم يكن له جلد على مثل تلك الطقوس الطويلة".

** ** **

لم يستقبل أعضاء العصبة أخبار تصالح البابا چوليوس مع ڤينيسيا استقبالًا حسنًا. الفرنسيون، بخاصة، بذلوا كل ما فى وسعهم لإثنائه عن اتخاذ مثل تلك الخطوة، وأثناء طقس الغفران كان سفيرهم، مع زملائه من الإمبراطوريين الإسپان الذين كانوا فى روما فى ذلك الوقت، كانوا مستائين للغاية، ولو أنه كان يعرف ما كان ينذر به ذلك الطقس لأصابه الذعر أكثر من الرفض. حساب البابا مع ڤينيسيا كان قد تم تسويته، والآن كان دور فرنسا.

بكل المقاييس الموضوعية كان ذلك التغير المفاجئ والكامل فى موقف البابا جديرًا بالازدراء. بتشجيعه الفرنسيين على حمل السلاح ضد ڤينيسيا، كان چوليوس الآن يرفض أن يسمح لهم بالمزايا والفوائد التى كان هو شخصيًا قد وعدهم بها، وبذلك كان ينقلب عليهم بكل العنف والحقد اللذان أبداهما تجاه الڤينيسيين من قبل. وعلى عكس ما كان من قبل، المهندس الرئيسى لإفقار ڤينيسيا وامتهانها، أصبح الآن مخلصها. لم يتقدم كبطل قوى كانت تنتظره طويلًا فحسب، بل أخذ زمام المبادرة. سوف تنسحب

الجمهورية الآن من وسط المسرح، ومن هنا ستكون الحرب أساسًا بين البابا والملك لويس – مع دوق فيرارا، الحليف الإيطالي الرئيسي للويس. كانت ملاحات الدوق في "كوماكيو – Comaccio" في حالة تنافس مباشر مع أعمال البابا التجارية في "كيرڤيا – Cervia"، بالإضافة إلى ذلك، فهو باعتباره زوج "لوكريشيا بورجيا – Lucerzia Borgia"، كان صهر البابا ألكساندر السادس، وكان ذلك سببًا أكثر من كاف لإدانته.

كالعادة، كان البابا يحارب أعداءه بكل ما في يديه من وسائل: العسكرية والدبلوماسية والروحانية. أول تصرف عسكري له ضد الفرنسيين – محاولة في يوليو 1510 لطردهم من جنوة – انتهت بالفشل؛ إلا أنه دبلوماسيًا وجه ضربة قوية بعد أسابيع قليلة عندما اعترف بـ "فرديناند الأراجوني" ملكًا على نابولي متجاهلًا ادعاءات لويس الأنچوية. بعد ذلك بوقت قصير، في رسالة بابوية شديدة اللهجة استنزل اللعنة على دوق فيرارا وحرمه كنسيًا. في ذلك الوقت كان يقترب من السبعين؛ وفي شهر أكتوبر، وهو مصاب بحمى شديدة في بولونيا، نجا بصعوبة من أسر الفرنسيين الذين استولوا على المدينة بعد ذلك بأشهر قليلة.[12] ثم كانت نوبة مرض أخرى في صيف 1511، جعلت حياته أمرًا ميئوسًا منه. إلا أن الطاقة التي واصل بها سياسته الانتقامية الحاقدة لم تنطفئ؛ وفي الخريف كان قد استعاد قدرًا من صحته ليعلن عن عصبة مقدسة جديدة. هذه المرة كانت موجهة ضد فرنسا.

ولكن الملك لويس كان يلعب الآن بورقة جديدة: هي ابن أخته «جاستون دو فوا – Gaston de Foix» دوق "نيمورس – Nemourss"، الذي كان قد أظهر كفاءة كقائد عسكري بارع في زمنه وهو في الثانية والعشرين من عمره. في فبراير 1512، قام نيمورس بحملة مدمرة على القوات البابوية والإسبانية، انتهت يوم أحد الفصح في راڤينا بأكثر المعارك دموية منذ غزو شارل الثامن قبل نحو عشرين عامًا. بعد انتهائها كان هناك نحو عشرة الآف قتيل من الإسبان والإيطاليين على أرض الميدان، إلا أنها كانت انتصارًا رهيبًا. فقدت قوات المشاة الفرنسية وحدها نحو أربعين ألف جندي. معظم القادة شاركوا في القتال بمن في ذلك نيمورس نفسه، ولو أنه عاش فلربما كان استطاع أن يلملم بقايا جيشه ويزحف على روما ونابولي، مجبرًا البابا على الموافقة على شروط بعينها، وإعادة الملك لويس إلى عرش نابولي، ولتغير تاريخ إيطاليا تمامًا.

في ذلك الوقت، كان الأبطال الثلاثة الرئيسيون في حرب عصبة كامبراي قد مروا بتغيرين رئيسيين في نمط حلفائهم. أولًا: تحالفت فرنسا والنظام البابوي ضد ڤينيسيا، بعد ذلك اصطفت ڤينيسيا والنظام البابوي ضد الفرنسيين، وكان قد بقي فقط أن تتحد ڤينيسيا

وفرنسا ضد النظام البابوى، وهو ما حدث بالفعل بموجب اتفاقية "بلوا – Blois" فى مارس 1513. بعد أن أكدت ڤينيسيا وضعها على البر الرئيسى، كانت مصرة على ألا يزيحها البابا والإمبراطور جانبًا، وحيث إن الفرنسيين كانوا قد أصبحوا لا يشكلون أى خطر عليها، فقد كانوا بمثابة حلفاء محتملين. ولكن الحقيقة أن الوضع تغير حتى قبل التوقيع على الاتفاقية: ففى الواحد والعشرين من فبراير 1513، مات چوليوس الثانى – كان فى السبعين من عمره – فى روما. وفى واحد من أكثر أفعال الإفساد والتخريب الرسمى للمتلكات العامة، كان قد أكمل هدم كنيسة سان بيتر. لم يكن المبنى الجديد الذى صممه "برامانتيه – Bramante" قد ظهر، وكان ما تبقى من المبنى القديم عبارة عن مصلى صغير اجتمع فيه الكرادلة لانتخاب خليفة له. كانت مداولاتهم بطيئة على حراس الخلوة، الذين فى محاولة جهيدة للإسراع بالمهمة كانوا يخفضون خدمة تقديم الطعام ليجعلوها فى البداية مقصورة على طبق واحد فى الوجبة، وفيما بعد مقصورة على وجبة نباتية. حتى مع هذا الإجراء لم يعلنوا عن اختيارهم إلا بعد أسبوع كامل: كان الكاردينال چيوڤانى دى ميديشى، الذى اتخذ اسم ليو العاشر

"لقد أعطانا الرب البابوية، فلننعم بها". سواء أكان البابا الجديد قد نطق بهذه العبارة المعيبة المنسوبة إليه أو لم يكن، فإن القليل من الإيطاليين فى ذلك الوقت كان لا بد من أن يبدوا دهشتهم. كان ليو فى السابعة والثلاثين. كان فاحش الثراء وقويًّا جدًّا، كانت عائلته قد أعيدت إلى فرنسا فى 1512 بعد نفى دام ثمانية عشر عامًا، وكان يبدى ولعًا بالأبهة أكثر من أبيه "لورنزو – Lorenzo". كان كذلك على خلاف چوليوس، رجل سلام، وكان معروفًا بين الإدارة البابوية بـ "صاحب السمو الحرص" وكان اختياره مقبولًا بحق. من ناحية أخرى، كان شديد الواقعية لكى يصدق أن الملك لويس سيكون على طريق الحرب مرة أخرى، وبسرعة، كما كان مصرًّا على حماية المصالح البابوية حيثما كان ذلك ضروريًّا.

ولكن مغامرات لويس فى إيطاليا كانت قد انتهت. بعد أن انضم الإمبراطور مكسميليان للعصبة المقدسة أعلن الآن أن كل الرعايا الإمبراطوريين الذين يحاربون مع الجيش الفرنسى لا بد من أن يعودوا فورًا إلى بلادهم وإلا عوقبوا بالموت، بينما كان الفرنسيون أنفسهم مستدعين إلى بلادهم للتعامل مع الإنجليز – وكانوا هو أيضًا أعضاء فى العصبة – الذين قاموا بغزو فرنسا، وكانوا قد أسروا "تورناى – Tournai" بالفعل. لم يكن هناك جنود لكى يواصلوا النضال الإيطالى، هذا بالإضافة إلى أن الملك لم يكن قد بقى لديه رغبة فى الاستمرار. مرهقًا، وفى الثانية والخمسين مع ضعف شيخوخة مبكرة،

كان قد تزوج فى الخريف السابق من الأميرة الإنجليزية مارى، شقيقة الملك هنرى الثامن. كانت فى الخامسة عشر، فاتنة، ولديها طاقة – مثل شقيقها – لا تنفد. بذل لويس قصارى جهده معها، ولكن الجهد كان كثيرًا عليه، فلم يتحمل أكثر من ثلاثة أشهر، وقضى نحبه فى باريس فى الأول من يناير 1515. كان قد أصبح يلقب فى فرنسا بـ "والد البلاد"، وفى إيطاليا لم يحقق شيئًا.

بعد عام واحد، فى الثالث والعشرين من يناير 1516، لحق به فرديناند ملك أراجون. من بين كل الملوك المتورطين فى هذه القصة المتشابكة المتداخلة، خرج وحده ليكون الفائز الوحيد. كان قد عقد مع لويس اتفاقية غرناطة السرية لتقرير مصير نابولى: وبحسب شروطها فاز بأكثر من نصف مساحتها، إلى جانب أبوليا وكالابريا وهى مناطق ذات قيمة. بعد ذلك بوقت قصير، كانت المملكة كلها له، وستبقى تحت السيادة الإسبانية على مدى القرنين التاليين. بعد موت زوجته إيزابيلا فى 1504، كان يحكم كذلك كلا من قشتالة (كوصى على ابنته المجنونة جوانا) وأراجون، إلى جانب "نافار – Navarre" و"روسيللون – Roussillon" ومملكة غرناطة السابقة، ناهيك عن المناطق غير المحددة فى العالم الجديد. ترك وراءه إسبانيا، التى رغم أنها كانت ما زالت غير متحدة، كانت غنية بلا حدود وأقوى منها فى أى وقت سابق، وعلى عتبة عصرها الذهبى.

هوامش الفصل الثالث عشر

(1) تجدها فى ترجمات أخرى "جزر البليار"، وهى "ميورقة" و"منورقة" و"يابسة". (المترجم)

(2) كان فعل الإيمان – auto – da – fé احتفالاً يرافق إصدار الحكم بالموت من قبل إحدى محاكم التفتيش على المتهم بالهرطقة، ويتبعه التنفيذ من جانب السلطة الزمنية. (المترجم)

(3) اضطر كولومبوس، الذى كان قد بدأ لتوه رحلته التاريخية من جنوة، لتغيير مساره، عندما وجد البحر مزدحمًا أمامه بالسفن التركية العائدة باليهود إلى مكان آخر.

(4) انظر الفصل الأول.

(5) قضى البابا بمنح الملوك الكاثوليك كل الأراضى والجزر التى تم اكتشافها أو ستكتشف فيما بعد، الواقعة غرب الخط الممتد من القطب إلى القطب، الممتد هو نفسه نحو مائة فرسخ إلى الغرب من الأزور وجزر رأس ڤيرد – Cape verde Island. أما الأراضى الواقعة إلى الشرق من هذا الخط فخصصت للبرتغال (وهو التنازل الذى سيسمح فيما بعد للبرتغاليين بالمطالبة بالبرازيل). تم التصديق على هذا المرسوم فى 1494 بموجب اتفاقية "توردیسلاس – Tordesillas" بين الدولتين.

(6) ينبغى عدم الخلط بينه وبين فرديناند الإسپانى زوج إيزابيللا.

(7) أبناء جاسكونيا، جنوب غربى فرنسا. (المترجم)

(8) لم يتزوج مكسيميليان كإمبراطور من قبل البابا، إلا أنه أصدر إعلان ترنت – Proclamation of Trent فى 1508، الذى مكنه من اتخاذ لقب إمبراطور بدون ذلك، وهو ما قبله البابا "چوليوس الثانى – Julius II" على مضض.

(9) انظر الفصل الثامن.

(10) الدوكاتية (من الكلمة الإيطالية دوكاتو – ducato)، وهى عملة فضية قديمة ثم ذهبية، (من ثلاثة إلى أربعة جرامات) ظهرت فى ڤينيسيا فى 1140 ثم سكت فى معظم دول غرب أوروبا بعد ذلك باسم التسيخين أو الفلورين. (المترجم).

(11) المقصود عصبة كامبراى – The League of Cambrai (المترجم).

(12) احتفل البولونيون بتحررهم بأن قاموا بإسقاط التمثال البرونزى الرائع الذى كان مايكل أنجلو قد صنعه للبابا، وباعوه خردة لدوق فيرارا، الذى قام بدوره بإعادة صبه ليصنع منه مدفعًا ضخمًا دشنه باسم "المدفع چوليوس".

الفصل الرابع عشر

الملك والإمبراطور والسلطان

- شارل وفرانسيس: 1515 • وفاة محمد الثانى: 1481 • سليمان المعظم: 1521
- حصار رودس: 1522 • معركة بافيا: 1525 • اليأس ينتاب البابا: 1526
- استكشاف كولونا: 1526 • نهب روما: 1526 • تتويج شارل الخامس: 1529

دفع موت لويس الثانى عشر وفرديناند ملك أراجون خلال أقل من عام بينهما، بشابين كانا ما زالا مجهولين نسبيًا إلى واجهة الأحداث. كان الشابان مختلفين تمام الاختلاف. «فرانسيس الأول- Francis I» ملك فرنسا، كان فى العشرين عندما اعتلى العرش مفعمًا بالحيوية والنشاط، وكان يمكن أن يكون زوجًا أفضل للشابة "مارى تيودور- Mary Tudor"، من ابن عمه المسكين لويس، مثلما كان يمكن أن تكون هى زوجة أفضل من "كلود- Claud" ، الورعة المتزمتة ابنة لويس، كان فرانسيس بالفعل زير نساء، ربما لم يكن وسيمًا ولكنه كان أنيقًا وجسورًا، وسريع البديهة، ولديه شغف فكرى بلا حدود، وذاكرة قوية مدهشة لكل من يعرفونه. كان يحب الاستعراض ولفت الأنظار، مغرمًا بالمظاهر والأبهة، كما أحبه شعبه الذى كان قد سئم سلسلة طويلة من الملوك الذين اشتهروا بالكآبة والتفاهة.

"شارل الهابسبورجى- Charles of Halbsburg"، المولود فى 1500، كان ابن "فيليب الوسيم- Philip the handsome"، ابن الإمبراطور مكسميليان و"چوانا المجنونة- Joanna the Mad"، ابنة فرديناند وإيزابيلا. شارل هذا، لم يرث أيًا من صفات والديه المميزة. كان بشع المنظر: ذقن هابسبورجية ضخمة وشفاة سفلى غليظة منفرة، وكان يعانى من صعوبة فى الكلام فيتلعثم ويمطر من يستمع إليه برذاذ فمه. كان عديم الخيال، لا أفكار لديه... ولا جاذبية شخصية. ما أنقذه كان طيبة قلب طبيعية، وعندما تقدم به العمر كان قد أصبح حصيفًا وداهية. كان كذلك، بأسلوبه الهادئ، متماسكًا يرهق معارضيه بقوة وإصرار. وبالرغم من أنه كان أقوى رجل فى العالم المتحضر، لم يستمتع بإمبراطوريته على النحو الذى كان فرانسيس الأول يستمتع فيه بمملكته - أو ربما ليو العاشر بمنصبه البابوى- وعندما تخلى عن العرش أخيرًا ليذهب إلى الدير، لم يكن ذلك أمرًا غريبًا بالنسبة لكثير من رعاياه.

كان ميراثه كبيرًا، ولكن بعضه كان محل نزاع، كما أن ذلك الميراث لم يصل إليه كله فى الوقت نفسه. فى البداية كانت البلاد الواطئة، البورجندية سابقًا، التى كانت قد آلت لجده مكسميليان بزواجه من مارى البورجندية. بعد موت والده فى 1506 تعهدته "عمته السافوية- Margaret of Savoy"، الوصية على عرش هولنده، وبداية من عمر الخامسة عشرة كان يحكمها بنفسه. فى ذلك الوقت كانت أمه چوانا (وكانت قد فقدت قواها العقلية تمامًا) تحت التحفظ (محجورًا عليها) الذى كان عليها أن تتحمله

لأكثر من نصف القرن، إلا أنها من الناحية الشكلية ظلت ملكة على قشتاله، بينما كان فرديناند يحكم باسمها كوصى على العرش. عند موت فرديناند، بالرغم من حالتها، ترك لها مُلك أراجون وجزيرتى صقلية، ومَنَح الوصاية لـ "شارل". حُكْم قشتاله، من ناحية أخرى، عهد به للكاردينال رئيس أساقفة طليطلة "فرانسيسكو خيمينيث- Francisco Ximenes" (وكان فى العقد التاسع من العمر)، رغم أن إحدى المهام الأولى لكبير الأساقفة كانت أن يعلن شارل ملكا على نحو مشترك مع أمه.

الملك الشاب الذى رسا على ساحل "استورياس- Asturias" فى عمر السابعة عشرة، ورأى مملكته الإسبانية لأول مرة، كان ما زال هولنديا قلبًا وقالبًا، يجهل عادات وتقاليد وحتى لغة رعاياه الجدد. لم تكن بداية جيدة. كان الإسبان يرون فيه "ذلك الغريب"، كما كانوا مستائين من التدفق الكبير من المسئولين الفلمنك الذى كان ينهمر على البلاد. خيمنيث الذى كان قد فعل كل ما فى وسعه لتمهيد طريق شارل، أزاحه الفلمنك جانبًا ولم يسمحوا له حتى بلقاء سيده الجديد، وبكل بساطة أمروه بأن يعود إلى أبرشيته. بعد عامين مات وأصبح شارل مطلق السلطة فى كل البلاد. بذل كل ما فى وسعه كعهده دائمًا، ولكنه كان ما زال غير قادر على السيطرة على طموح وجشع أبناء بلده، بينما تركته الحاشية الإسبانية على علم كبير بأنه كان هناك مكرهًا، وأنهم سوف يتسامحون معه ما دام طيعًا.. ليس إلا.

فى مستهل حكم فرانسيس الأول كانت إدارة الأمور أكثر سهولة بالنسبة له منها بالنسبة لـ شارل: نجاحاته الباكرة فى إيطاليا تتناقض تمامًا مع خطوات شارل الأولى وبداياته السيئة فى إسبانيا. كان فرانسيس قد كشف عن نواياه الإيطالية بوضوح تام عندما اتخذ لنفسه رسميًا عند تتويجه لقب "دوق ميلان"؛ وبحلول يوليو 1515 كان قد جمع جيشًا قوامه أكثر من مائة ألف مقاتل ليثبت حقه، وفى الثالث عشر من سبتمبر أنزل هو والفينيسيون هزيمة ساحقة بجيش بابوى إمبراطورى- كان مكونًا أساسًا من مرتزقة سويسريين- فى "ماريجنانو- Marignano" (الآن ميليجنانو- Melegnano) على بعد بضعة أميال من ميلان. كان فرانسيس نفسه يحارب وسط المعركة وكوفئ فى الميدان بلقب "بايارد- Bayard" الأسطورى: chevalier sans peurs et sans reproche.[1] بعد ثلاثة أسابيع تسلم ميلان رسميًا. ثم التقى البابا ليو فى بولونيا؛ حيث قام البابا، على مضض بتسليم «بارما وبياكنزا- Piacenza"؛ وفى صيف 1516 عقد صلحًا منفصلًا مع شارل فى "نويون- Noyon"، اعترفت بموجبه إسبانيا بحقه فى ميلان مقابل اعتراف الفرنسيين بحق إسبانيا فى نابولى.

وهكذا كان قد أتم تسوية علاقاته باثنين من الأبطال الثلاثة الرئيسيين على نحو مقبول. بقى الإمبراطور مكسميليان. الآن، وقد بات معزولًا سياسيًا، كان هو الآخر مضطرًا للتواصل إلى تفاهم مع فرنسا ومع ڤينسيا كذلك، التى تخلى من أجلها عن مطالبته بكل الأراضى التى كان قد وعد بها فى كامبراى، بما فى ذلك ڤيرونا التى كان متمسكًا بها. (لا بد أن يقال: إن ذلك كله تم مقابل مبلغ دفعته الجمهورية مقدمًا تحت الحساب). وهكذا بعد ثمان سنوات من تكوين العصبة، كانت ڤينيسيا قد استعادت كل ممتلكاتها السابقة تقريبًا، واستأنفت وضعها باعتبارها الدولة الإيطالية العلمانية القائدة. هذه الاتفاقيات، إن لم تكن قد جلبت السلام الدائم لإيطاليا، فإنها قد وفرت على الأقل فضاء للتنفس: كان العام 1517 هو العام الأكثر هدوءًا الذى يتذكره الإيطاليون. ليس معنى ذلك أنه كان خلوًا من أى أمور مهمة؛ فالعام الذى بدأ باستيلاء الأتراك على القاهرة وانتهى بتلفيق "مارتن لوثر- Martin Luther" فرضياته الخمسة والتسعين على باب الكنيسة فى "ويتنبرج- Wittenberg" مثل هذا العام لا يمكن أن يشطب بهذه السهولة. ولكن تأثير هذه الأحداث رغم أهميتها لم يكن فوريًا، وكانت شعوب لومبارديا وڤينيتو قادرة آنذاك، وفى الشهور الاثنى عشر التالية، على إعادة بناء منازلها المدمرة وإعادة زراعة حقولها المهجورة، والنوم ليلًا دون خوف من جيوش غازية ومن أعمال سلب ونهب وسفك دماء.

فى الثانى عشر من يناير 1519، مات الإمبراطور مكسميليان فى قلعته فى "ولز- Wels" فى أوستريا العليا. لم تكن خلافة حفيدة شارل نهاية. ظلت الإمبراطورية انتخابية. كان هناك كثيرون يفضلون الأرشيدوق فرديناند، الشقيق الأصغر لـ شارل. كان فرانسيس الأول ما زال خصمًا عنيدًا، وكان فى المراحل الأولى لترشحه يحظى بتأييد كبير من البابا. (هنرى الثامن ملك بريطانيا كذلك ألقى بقبعته فى الحلبة فى لحظة ما، ولكن أحدًا لم يأخذه على محمل الجد). لحس حظ شارل، كان الناخبون الألمان يكرهون فكرة إمبراطور فرنسى: قام "آل فجر- The Fuggers" - تلك الأسرة المصرفية فاحشة الثراء فى أوجسبورج - قامت بتأمين الكثير من الجيوب، وفى اللحظة الأخيرة، كف البابا ليو عن معارضته. فى الثامن والعشرين من يونيو انتخب شارل وتم تتويجه فى الثالث والعشرين من أكتوبر فى العام التالى، وليس فى روما وإنما فى "آخن- Aachen" العاصمة الكارولنجية القديمة- ليكون الإمبراطور شارل الخامس. وبالإضافة إلى هولنده وإسبانيا ونابولى وصقلية والعالم الجديد، آلت إليه الآن كل الإمبراطورية القديمة التى كانت تضم معظم النمسا الحديثة وألمانيا وسويسرة. وبعد وقت قصير سوف تتبعها ميلان وبوهيميا وهنغاريا الغربية. كان ذلك إرثًا ثقيلًا بالفعل على رجل متواضع الموهبة متوسط القدرات.

كان لتتويج شارل الإمبراطورى أصداؤه الواسعة سواء فى إسبانيا أو فى أوربا ككل. فى إسبانيا زاد ذلك من شعبيته. لم تكن الطبقة الحاكمة فى قشتالة كما رأينا شديدة الحماسة فى البداية للهابسبورج الأجانب، ولكن عندما تحول ملكهم فجأة، بمثل فعل السحر، ليصبح بين عشية وضحاها إمبراطورًا على نصف القارة، حصل على احترام جديد بين رعاياه الذين أصبحوا منذ ذلك التاريخ يربطون مصيرهم بمصيره وقدرهم بقدره. لم يعودوا مبعدين فى الركن القصى جنوب غرب القارة الأوروبية. حارب جنودهم فى ألمانيا وهولنده، وتوحد كتابهم وفلاسفتهم مع "النزعة الإنسانية- Humanism" الجديدة لـ "إراسموس- Erasmus" وأتباعه. فى الوقت نفسه كانوا على وعى شديد بأنهم الصخرة الثابتة الوحيدة للعقيدة الكاثوليكية القويمة، التى يمكن أن تدعم الكنيسة ضد الهرطقات التى كانت تنمو فى الشمال.

كذلك فإن التتويج أكمل استقطاب القارة الأوروبية. كان ملك فرنسا مطوقًا بالإمبراطورية، أما الإمبراطور فكان على العكس قد وجد نفسه سيدًا على مملكة مقسمة، جزءاها منفصلان أحدهما عن الآخر بواسطة ولاية معادية ولا يربط بينهما سوى بحر محايد. اعتبارًا من تلك اللحظة، سيدخل الرجلان فى صراع قاتل من أجل السيطرة على أوربا والسيادة على الحوض الغربى للمتوسط.

بعد موت السلطان محمد الثانى فى 1481، تنفست أوروبا مرة أخرى. كان محمد واسع العلم والثقافة. كان قد أمر "چيناديوس- Gennadius"، الذى عينه بطريركًا أورثوذوكسيًّا للقسطنطينية - أن يكتب له رسالة عن الدين المسيحى، وكان لديه معرفة واسعة باليونانية ويدعو العلماء اليونانيين باستمرار إلى بلاطه، واستدعى "چنتايل بيللينى- Gentile Bellini" من ڤينيسيا ليرسم صورة له.[2] عرف بـ «محمد الفاتح» عن جدارة. كان أول وأعظم انتصار له هو الاستيلاء على القسطنطينية فى 1453، ولم يكن ذلك سوى بداية سلسلة طويلة من التوسع فى الحوض الشرقى من المتوسط، وكما رأينا، كان يجهز لهجوم كبير آخر على فرسان سان چون فى رودس، عندما مات فجأة. خليفته بايزيد الثانى- الذى رغم أنه كان الأكبر لم يصل إلى العرش إلا بعد صراع كبير مع شقيقه «چيم[3]- Cem» كان مختلفًا تمام الاختلاف عن أبيه. ثبت فتوحات محمد على فى البلقان واستولى على القلاع الفينيسية فى المورة، ولكنه- لضيق أفقه - لم يكن مهتمًا بأوربا، فقد أزال مثلًا الرسوم الإيطالية التى كان محمد على قد أعدها للقصر الإمبراطورى، مفضلًا المساجد والمستشفيات والمدارس التى كانت عناصر شديدة الأهمية بالنسبة لعقيدته الإسلامية المتوقدة. وصف السفير الفرنسى له بأنه كان

"سوداوى المزاج إلى حد بعيد، مؤمن بالخرافة وعنيد"[4] يلخص شخصيته جيدًا.

فى 1512، تمرد سليم بن بايزيد على والده وأجبره على التخلى عن العرش. (ربما يكون قد دس له السم أيضًا؛ حيث إن الرجل العجوز مات بعد ذلك مباشرة على نحو مريب). كان سليم الأول يعرف بـ «الشرس – Ya vuz (The Grim)»، وكان أول إجراء اتخذه بعد أن أصبح سلطانًا أن تخلص من أخويه ومن خمسين من أبناء عمومته الأيتام – كان أصغرهم فى الخامسة من عمره – كمنافسين محتملين على العرش، وذلك بأن خنقهم بواسطة وتر قوس، ويقال: إنه كان يستمع من غرفة مجاورة إلى صراخهم وهو يشعر بالرضا. بعد ذلك وجه اهتمامه صوب الشرق موجهًا طاقته المرعبة ضد إسماعيل الأول مؤسس "الأسرة الصفوية – Savafid Dynasty" فى إيران، وذبح نحو أربعين ألفًا من أتباعه، وضم العديد من المعتمديات الكردية والتركمانية فى شمال الأناضول إلى إمبراطوريته. ثم كان هدفه التالى سوريا، التى كانت ما زالت فى أيدى المماليك. سقطت حلب ودمشق وبيروت وأورشليم أمامه فى تتابع سريع، وفى الرابع والعشرين من أغسطس 1516 قضى على الأسرة المملوكية فى موقعة مرج دابق، وهى المعركة التى مات فيها الغورى سلطانهم قبل الأخير. فى مصر أعلن طومان باى ابن عم الغورى نفسه سلطانًا، ورفض الاستسلام، بينما زحف سليم بجيشه عبر صحراء سيناء، وبعد مواجهة دامية أخرى فى يناير 1517، عند الريدانية بالقرب من الأهرام، أسره وشنقه على باب زويلة فى القاهرة. بعد ستة أشهر استسلم شريف مكة بدوره طواعية، وأرسل إلى سليم راية وبردة النبى ومفاتيح المدن المقدسة. وفى آخر الأمر عاد إلى البوسفور منتصرًا بعد أن اعترفت به مصر وسوريا والحجاز سلطانًا عليها. لم تكبر إمبراطوريته فحسب، وإنما تغيرت كذلك. جعل منها الاستحواذ على مكة والمدينة خلافة إسلامية، ومن الآن فصاعدًا سيعتبر السلاطين العثمانيون أنفسهم حماة العالم الإسلامى.

** ** **

بعد موت السلطان سليم فى سبتمبر 1520 خلفه سليمان، الابن الوحيد الذى تركه حيًا أثناء فترة خلافته وكان فى السادسة والعشرين. من بين الملوك الأربعة الكبار الذين هيمنوا على أوروبا خلال النصف الأول من القرن السادس عشر – الثلاثة الآخرون هم الإمبراطور شارل الخامس، وهنرى الثامن ملك إنجلترا، وفرانسيس الأول ملك فرنسا – ربما كان سليمان هو الأعظم. كان ابنًا للنهضة على طريقته الشرقية: رجل علم وثقافة واسعة، كان شاعرًا رقيق الحس، وفى عهده بلغت ورش الصناعات الخزفية فى "إزنك – Iznik" (نيقية) أوجها، وبفضل المعماريين البارعين – وعلى رأسهم

سنان – عمرت مدن الإمبراطورية بالمساجد والمنشآت الدينية واستراحات القوافل والمدارس التى ما زال بعضها موجودًا إلى الآن. إلا أن سليمان مثل كل أسلافه كان كذلك فاتحًا، وكان طموحه الأهم هو أن يحقق انتصارات فى الغرب تضاهى انتصارات أبيه فى الشرق. وهكذا كان عليه أن يزيد حجم إمبراطوريته، الواسعة بالفعل، بفتوحات فى المجر والبلقان ووسط أوروبا، ناهيك عن شمال أفريقيا حيث سقطت طرابلس أمامه فى 1551.

إلا أن ذلك كله كان من أجل ما هو قادم. مثل كل السلاطين العثمانيين السابقين، كان سليمان مسلمًا شديد التقوى والورع، وبعد أن تولى العرش بوقت قصير حول اهتمامه نحو العدو المسيحى الذى كان يكرهه بشدة: فرسان سان چون، الذين كانت قلعتهم فى جزيرة رودس تقع على بعد عشرة أميال من ساحل الأناضول؛ أى إنها كانت على عتبة إمبراطوريته. كان الفرسان قليلى العدد نسبيًا، ليس لديهم جيش ولا بحرية يمكن أن يكونا ندًا لما لديه، إلا أنهم كانوا مقاتلين أقوياء الإرادة؛ حيث كان محمد، جده لأبيه، قد خبرهم قبل أربعين عامًا. فى تلك السنوات الأربعين، كان الفرسان قد عملوا كثيرًا لتقوية دفاعاتهم، وبناء أبراج هائلة ذات زوايا تمكن من تغطية كل المناطق المكشوفة من الأسوار بالنيران، وتقوية الاستحكامات ضد المدافع الثقيلة التى دمرت أسوار القسطنطينية فى 1453، وكانوا هم أنفسهم عرضة للهزيمة فى 1453 بسببها. سيكون من الصعب إزاحتهم بالفعل.

كان معلمهم ومرشدهم الأعظم "ڤيليپ ڤيلييه دى ليزلى آدم – Philippe Villierse de L'isle Adam"، وهو نبيل فرنسى شديد التدين فى السابعة والخمسين، وكان قد أمضى معظم حياته فى رودس، كان أن تلقى بعد أسبوعين من تسلم منصبه فى 1521 رسالة من السلطان. فى هذه الرسالة كان سليمان يتباهى بفتوحاته التى قام بها، بما فى ذلك تلك فى بلجراد وغيرها "الكثير من المدن الرائعة الحصينة، التى قتلت معظم سكانها، وحولت من بقى منهم إلى عبيد". كانت متضمنات الرسالة شديدة الوضوح، ولكن دى ليزلى آدم لم يخف، وتكلم فى رده على الرسالة عن انتصاره الحديث على القرصان التركى "كورت أوغلوا – Cortoğlo"، الذى حاول – وفشل – أن يأسره عند عودته الأخيرة إلى رودس.

ثم جاءت فى أوائل صيف 1522 رسالة أخرى:

إلى فرسان رودس،

> **لقد أثارت فى نفسى الفظائع التى ارتكبتموها بحق شعبى الذى طالت معاناته، كل مشاعر الأسف والغضب، وعليه فإننى آمركم بأن تتخلوا عن جزيرة وقلعة رودس فورًا، وإننى لأضمن لكم مغادرة آمنة مع كل ممتلكاتكم الثمينة. سيكون من الحصافة أن تؤثروا الصداقة والسلام على أهوال الحرب.**

كان يمكن أن يبقى منهم من يريد أن يدفع الجزية، بشرط واحد وهو الاعتراف بسيادة السلطان. لم يرد المعلم الأعظم على الرسالة الثانية هذه.

تشكل جزيرة رودس قطعًا وعرًا غير مكتمل، يمتد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى، أما المدينة نفسها فتقع فى الطرف الشمالى الشرقى. فى السادس والعشرين من يونيو 1522، ظهرت السفن الأولى من الأسطول العثمانى المكون من سبعمائة قطعة[5] فى الأفق الشمالى، وعلى مدى اليومين التاليين كان المزيد والمزيد يلتحق بهذه الطليعة، بما فى ذلك بارجة القائد التى كانت تحمل السلطان نفسه وصهره مصطفى باشا، الذى كان قد زحف بالجيش عبر آسيا الصغرى. كان حجم الجيش كبيرًا، لدرجة أنه كان لا بد من شهر للنزول إلى البر وتنظيمهم مرة أخرى: لا بد من أن تكون تلك قوة كبيرة مقارنة بنحو سبعمائة فارس، حتى بعد أن زاد عددهم بقوات أخرى من أفرع التنظيم المختلفة فى أنحاء أوروبا. كان أن التحق بهم خمسمائة من رماة السهام من كريت، ونحو ألف وخمسمائة من الجنود المرتزقة، وبالطبع عدد آخر من مسيحيى رودس. من ناحية أخرى، كانت دفاعات المدينة قوية، وربما منيعة تمامًا، وكان الفرسان قد أمضوا العام السابق يخزنون ما يكفى من المواد الغذائية والماء والذخيرة، تكفيهم عدة أشهر.

يضاف إلى ذلك أنه فى مثل هذا النوع من الحروب، تكون حياة من يقومون بالحصار أكثر صعوبة من حياة المحاصَرين؛ حيث إنهم يكونون معرضين لشمس الصيف الحارقة وبرد ومطر الشتاء. أما بالنسبة للمدافعين الذين يكونون مجبرين على القيام بدور سلبى، فكان العبء نفسيًّا أكثر منه ماديًّا، إلا أنه – ولحسن الحظ – كانت هناك أعمال كثيرة لا بد من إنجازها. كان لا بد من أن يكونوا شديدى اليقظة وعيونهم على كل قدم من السور، وأن يقوموا بإصلاح أى ضرر فور وقوعه، ورصد أى حركة للعدو تحتهم قد توحى بأى نشاط لجنود رص الألغام – حيث كان التلغيم قد أصبح من الأمور التى تفوقت فيها الجيوش العثمانية، التى كانت تعرف جيدًا أن الكثير من التحصينات القوية كانت أقل عرضة للاختراق من الواجهة منها من الخلف.

بنهاية الشهر كان قصف المدفعية قد بدأ بشكل جدى، وكانت المدافع الأقوى من تلك التى استخدمت ضد القسطنطينية تستطيع إطلاق قذائف يبلغ قطرها نحو ثلاثة أقدام تقريبًا، لمسافة ميل أو أكثر. كان الجيش التركى آنذاك موزعًا على شكل هلال ضخم جنوبى المدينة، أما جيش الفرسان فكان مقسمًا إلى ثمانى مجموعات، كل منها على شكل لسان، تدافع عن جزء من السور. سرعان ما وقع لسان أراجون تحت ضغط شديد، عندما بدأ الأتراك يقيمون سواتر ترابية مقابلة يمطرون منها المدينة بنيرانهم. فى الوقت نفسه كان جنود حفر الأنفاق ورص الألغام (اللغمجية) يعملون، وبحلول منتصف سبتمبر كانت أسوأ مخاوف الفرسان قد تحققت: كان هناك نحو خمسين نفقًا تحت السور فى مختلف الاتجاهات. لحسن الحظ استطاعوا تأمين خدمات واحد من أبرز المهندسين العسكريين فى تلك الأيام، يدعى «جابرييل تادينى – Gabriele Tadini". قام تادينى بإنشاء شبكة أنفاقه الخاصة التى كان بإمكانه أن يسمع منها – بواسطة طبول من الجلد، مشدودة – أصوات ضربة أى فأس أو مجراف تركى، ويقوم بإبطال وسائل تفجير ألغام العدو. بالطبع لم يكن النجاح ممكنًا فى كل مرة، وفى أوائل سبتمبر انفجر لغم تحت الجزء الإنجليزى ليحدث ثغرة فى السور أكبر من ثلاثين قدمًا. من هذه الثغرة تدفق الأتراك ليبدأ بعد ذلك قتال متلاحم عنيف استمر نحو ساعتين، قبل أن يتغلب الفرسان على خصومهم، ويعود المرهقون ممن بقوا أحياء إلى معسكرهم.

وذات يوم فى أواخر شهر أكتوبر، تم القبض على برتغالى كان يعمل لدى "أندريا دامارال – Andrea d'Amaral"، أمين سر التنظيم – وهو الذى يلى المعلم الأعظم فى الأهمية – وهو يطلق رسالة نحو خطوط العدو، فحواها أن وضع المدافعين كان ميئوسًا منه، وأنه لا أمل لهم فى الصمود أكثر من ذلك. وعندما وضعوه على "المخلعة[6] – reck" أدلى باعتراف غريب: كان يعمل بأوامر من دامارال شخصيًا. من الصعب تصديق مثل هذا الادعاء. يبدو أن أمير السر كان مكروهًا، وكان يتوقع أن يشغل هو منصب المعلم الأعظم، كما كان يكره دى ليزلى آدم شخصيًا. ولكن، هل كان يمكن أن يخون التنظيم الذى كرس حياته له بالفعل؟ لن نعرف. وعند محاكمته رفض أن يدافع عن نفسه على أى نحو، ولم يقل شيئًا وهم يقتادونه إلى مكان الإعدام، رافضًا حتى التعزية الدينية قبل التنفيذ.

كان مضمون الرسالة صحيحًا على أية حال. بحلول شهر سبتمبر، كان الفرسان قد أصبحوا عاجزين عن فعل أى شىء، أو لعلهم كانوا قد فقدوا أى أمل، ورغم أن السلطان كان يعرض عليهم شروطًا مشرفة، فإن معلمهم الأعظم ظل معظم الوقت مترددًا ولم

يتخذ أى قرار. كان يرى من الأفضل أن يموت آخر فارس وسط أنقاض القلعة من أن يستسلم لذلك "الكافر". وفى آخر الأمر، كان الرودسيون هم الذين استطاعوا إقناعه بأن الاستمرار فى المقاومة كان يعنى المذبحة... مذبحة للفرسان وللأهالى على السواء. وهكذا أرسل دى ليزلى آدم رسالة إلى السلطان، يدعوه شخصيًا للحضور إلى المدينة لمناقشة الشروط، وقبل سليمان الدعوة. يقال: إنه عندما اقترب من أبواب المدينة طرد حرسه الشخصى قائلًا: إن سلامتى تضمنها كلمة المعلم الأعظم للإسبتارية، وهى أكثر ثقة من كل جيوش العالم.

طالت المفاوضات، وفى اليوم التالى لعيد الميلاد 1522، أعلن المعلم الأعظم الاستسلام رسميًا. يقال: إن سليمان عامله بما يليق به من احترام، وهنأه وفرسانه على صمودهم وشجاعتهم. بعد أسبوع، فى مساء الأول من يناير 1523، أبحر الناجون من واحدة من أكبر عمليات الحصار فى التاريخ إلى جزيرة كريت. يروى أن سليمان، وهو يشهد رحيلهم، أدار وجهه نحو إبراهيم باشا وزيره الأعظم، قائلًا: "يؤسفنى أن أجبر هذا الكهل الشجاع على مغادرة وطنه".

** ** **

فى الوقت نفسه كان الصراع القديم بين فرنسا وإسبانيا ما زال مستمرًا. وربما يكون الأصح أن نقول: إنه كان "بين فرنسا والإمبراطورية"، ولكن اهتمام شارل الحقيقى بشبه الجزيرة كان مؤسسًا على ميراثه الإسبانى. كان قد ورث صقلية ونابولى وسردينيا عن جده فرديناند، وكان مصممًا على أن يورثها كاملة لخلفائه. لم يكن لديه رغبة فى الاستحواذ على أى أراض أخرى فى إيطاليا، وكان سعيدًا بأن يظل الحكام المحليون مسؤولين عن ولاياتهم، ما داموا يعترفون بالوضع الإسبانى ويبدون احترامهم له.

إلا أنه كان من المستحيل السماح بالنفوذ الفرنسى أو قبوله، فالملك فرانسيس، طوال بقائه فى إيطاليا، كان يمثل تحديًا للسيادة الإمبراطورية على نابولى، كما كان خطرًا على العلاقة بين الإمبراطورية وإسبانيا. النظام البابوى، الذى كان مستميتًا لكى يمنع أى طرف من أن يكون قويًا، كان متقلبًا فى موقفه بين الطرفين. وهكذا فى 1521، تم توقيع اتفاقية سرية بين شارل والبابا ليو، قامت بموجبها قوة بابوية إمبراطورية مشتركة بطرد الفرنسيين مرة أخرى من لومبارديا، مستعيدة بيت آل سفورزا فى شخص "فرانسيسكو ماريا – Francesco Maria" (ذو الرسغ الضعيف) ابن "لودوڤيكو – Ludovico". بعد ثلاث سنوات؛ أى فى 1524، سوف يزحف البابا الجديد كليمنت السابع(7)، بالاشتراك مع ڤينيسيا وفلورنسا فى تحالف سرى مع فرنسا، سوف يزحف

على الإمبراطورية، وفرانسيس، بجيش قوامه نحو عشرين ألف مقاتل على إيطاليا عن طريق «مونت سينس – Mont- Cenis».

فى أواخر أكتوبر، أعاد فرانسيس الاستيلاء على ميلان، ثم اتجه جنوبًا إلى پاڤيا؛ حيث بقى هناك طوال الشتاء محاولًا – دون طائل – تحويل نهر "تيكينو – Tici-no"، كوسيلة للاستيلاء على المدينة، وبقى لمدة أربعة أشهر حيث وصل إلى هناك جيش إمبراطورى، ليس تحت قيادة إسپانى أو نمسوى، وإنما تحت قيادة أحد مواطنيه: شارل، دوق البوربون الثانى، أحد أكثر أبناء طبقة النبلاء الفرنسية رفعة الذى كان يحكم بالوراثة. كان ينبغى أن يكون شارل إلى جوار ملكه فى الحرب، وكان يمت له بصلة قرابة بعيدة، ولكن "لويزا الساڤوية – Louisa of Savoy"، أم فرانسيس، كانت قد اعترضت على ميراثه، وفى نوبة غضب كان قد باع سيفه للإمبراطور. كان هو الآن القائد الإمبراطورى فى إيطاليا. قابل جيشه جيش فرانسيس بالقرب من پاڤيا، وفى يوم الثلاثاء الموافق للواحد والعشرين من فبراير 1525 بدأت المعركة.

كانت معركة پاڤيا واحدة من أكثر المواجهات حسمًا فى تاريخ أوروبا، وربما كانت كذلك أول إثبات نهائى لتفوق الأسلحة النارية على الرماح. المرتزقة السويسريون – وكانوا يقاتلون هذه المرة إلى جانب الفرنسيين – حاربوا بشجاعة، ولكن رغم قوة أسلحتهم، لم تكن ندًا للنيران الإسپانية. عندما انتهى القتال، كان الجيش الفرنسى قد انتهى بالفعل. كان هناك ما يقرب من ألف وربعمائة جندى – فرنسى وسويسرى وألمانى وإسپانى – موتى على أرض المعركة. فرانسيس نفسه – وكعادته دائمًا – أظهر شجاعة نادرة، وبعد أن قتل حصانه تحته استمر فى القتال على قدميه حتى النهاية، وعندما بلغه الإرهاق اضطر لتسليم نفسه. كتب إلى أمه يقول: "لقد ضاع كل شىء عدا الشرف... وحياتى".

تم إرساله أسيرًا إلى مدريد، ومرة أخرى عاد شارل الخامس سيدًا على إيطاليا. أحدث انتصاره الحاسم ارتجافة شديدة فى أرجاء شبه الجزيرة التى كانت تعتمد – أو هكذا كانت تعتقد – على توازن القوى، ولكن الإمبراطور كان مشغولًا بأمور أخرى. قبل ثمان سنوات، كان مارتن لوثر (فى 1517) قد علق رسائله الخمسة والتسعين على باب الكنيسة فى ويتنبرج، وبعد ذلك بثلاث سنوات كان قد أحرق علنًا – إعلان البابا بحرمه كنسيًا؛ وفى 1521، فى الاجتماع الكبير لمستشارى الإمبراطورية، كان قد رفع راية العصيان على البابا والإمبراطور على السواء. كان الأمل الوحيد فى إرضائه – فى رأى شارل – هو دعوة مجلس عام للكنيسة لمناقشة الإصلاح، ولكن ما جدوى مجلس عام، إذا كان كل مندوبى فرنسا وحلفائها غائبين؟

ثم كان هناك سليمان، الذى كان لا بد من أخذه بالاعتبار. كانت أخبار سقوط رودس قد استقبلت بكثير من الرعب فى أرجاء الغرب، وكان الناس يتساءلون: أين ستكون ضربة السلطان التالية؟ المؤكد أنه سيواصل زحفه على قوات العالم المسيحى. كيف يمكن إيقافه إن لم يكن بواسطة حملة صليبية منسقة بقيادة الإمبراطور تدعمها كل القوى المسيحية؟ ولكن، كيف فى مثل تلك الظروف السائدة، كان يمكن إقناع فرانسيس ملك فرنسا، لتقديم يد العون لمثل هذا الجهد المشترك؟ كيف كان يمكن شن مثل هذه الحملة، بينما أوروبا – هكذا – منقسمة على نفسها بحدة؟

لعل مثل تلك الاعتبارات هى التى أقنعت شارل بأن يثق بأسيره. وبأن يطلق سراحه بعد عام من أسره "المريح"، حسب شروط الاتفاق الذى لم يكن لدى فرانسيس أى نية لمراعاته، حتى برغم تركه ابنيه رهائن دليلًا على حسن سلوكه. فيما عرف باتفاقية مدريد التى وقعها بتاريخ الرابع عشر من يناير 1526، تخلى الملك عن كل مطالباته بدوقية بورجندى ونابولى وميلان. (كما أعاد – بالمرة – كل الأراضى المتنازع عليها إلى دوق البوربون بشرط "ألا نراه مرة أخرى"). عندما عاد فرانسيس إلى باريس وأعلنت شروط الاتفاقية، كان هناك احتجاج عام. أصبحت كل السلطات والطبقات فى بورجندى؛ حيث لم يكن من حق الملك أن ينقل ملكية مقاطعة من المملكة لشخص آخر دون موافقة شعبها. كذلك أصاب الذعر البابا كليمنت؛ إذ كيف يتبقى له أى أمل فى الدفاع عن نفسه ضد شارل، دون وجود فرنسى فى أى مكان فى إيطاليا؟ على نحو السرعة، استطاع أن يجند كلا من ميلان وفينيسيا وفلورنسا لتكوين عصبة مضادة للنزعة الإمبراطورية، للدفاع عن إيطاليا حرة مستقلة، ودعا فرنسا للانضمام إليها. ورغم أن الملك كان متحفظًا بشدة على اتفاقية مدريد، ورغم أنه كان شديد الاختلاف فى الرأى مع البابا بخصوص ميلان – كان البابا محابيًا لآل سفورزا، بينما كان فرانسيس يريد المدينة لنفسه – فى الثانى والعشرين من مايو 1526، وافق الملك ووقع باسمه.

أدخلت "عصبة كونياك – The League of Cognac" – كما أطلق عليها – مفهومًا جديدًا مثيرًا فى الشئون الإيطالية. ربما لأول مرة يكون هناك اتفاق مكرس لفكرة أن ميلان، وكل الدول الإيطالية الأخرى بالتبعية، ينبغى أن تكون متحررة من الهيمنة الأجنبية. كانت "الحرية" هى كلمة السر. من الواضح أنه لم تكن هناك حرية لإيطاليا بعد، فهى لم تكن أكثر من تعبير جغرافى. فى الوقت نفسه كان من الواضح لكل الموقعين الإيطاليين الأعضاء فى العصبة، أن الأمل الوحيد فى مقاومة شارل الخامس أو فرانسيس الأول، كان يكمن فى تسوية خلافاتهم الداخلية، وتجميع مواردهم وتقديم

جبهة قوية متحدة، تتصدى لأى غاز محتمل. كانت ثلاثة قرون – وربما أكثر – قد مضت على "الريزورجيمنتو – Resorgimento"، ولكن ربما كانت هناك – كذلك – الومضات الأولى للشعور القومى الذى أججها.

** ** **

لا بد من القول: إن شارل الخامس لم يكن يرى "عصبة كونياك" على هذا النحو. كانت بالنسبة له تحديًا مباشرًا وصريحًا، وعلى مدى الأشهر القليلة التالية كانت العلاقة بينه وبين البابا تتدهور باضطراد. وأخيرًا، خرجت فى سبتمبر رسالتان من البابا إلى روما. لو أن لوثر نفسه هو الذى كتبهما لما كانتا أكثر صراحة. الأولى، وكانت موجهة للبابا شخصيًّا، اتهمه فيها بالفشل فى القيام بواجبه تجاه العالم المسيحى وإيطاليا وحتى تجاه الكرسى المقدس. الثانية، وكانت موجهة لكاردينالات المجمع المقدس، ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك. كانت الرسالة تقول: إنه فى حال رفض البابا دعوة مجلس عام لبحث أمور إصلاح الكنيسة، فإن مسؤولية المجمع المقدس أن يقوم بذلك دون انتظار موافقته. كان ذلك تحديًا صريحًا للسلطة البابوية، وفى الواقع كان بالنسبة للبابا كليمنت بمثابة إعلان حرب.

لم يكن القتال قد توقف فى ميلان ومحيطها، ولا بد أنه كان هناك من أبناء ميلان من استيقظ فى الصباح؛ ليجد من الصعب عليه أن يتذكر ما إذا كان يدين بالولاء لآل سفورزا، أم للإمبراطور، أم لملك فرنسا.

كان جيش إمبراطورى قد زحف على المدينة فى نوفمبر 1525 وأمضى الشتاء وهو يحاصر فرانسيسكو ماريا سفورزا – سيئ الحظ – فى القلعة. أرسلت العصبة جيشًا بقيادة دوق أوربينو لنجدته، ولكنها فشلت بسبب ضعف عزيمة الدوق إلى حد كبير، واستسلم سفورزا فى آخر الأمر فى الخامس والعشرين من يوليو 1526. أدخلت أخبار استسلامه البابا فى حالة يأس شديد. كانت خزانته خاوية ولم يكن محبوبًا فى روما، كما أن حليفه "النظرى" فرانسيس، لم يرفع إصبعًا لمساعدته. فى الوقت نفسه كان الإصلاح يكسب أرضية جديدة كل يوم، وكان الخطر العثمانى ما زال يلوح فى الأفق؛ والآن، مع اقتراب الخريف كانت هناك شائعات بأن الإمبراطور كان يجهز أسطولاً ضخمًا يمكن أن يحمل مائة ألف مقاتل إلى بر مملكة نابولى – أى إلى عتبة بابه. الأخطر من ذلك أن كليمنت كان يعرف أنه كان هناك عملاء للإمبراطورية فى المدينة، يبذلون قصارى جهدهم لإثارة القلاقل ضده، وذلك بمساعدة حماسية من أحد أعضاء مجمعه المقدس، وهو الكاردينال "پومپيو كولونا – Pompeio Colonna".

على مدى أكثر من قرنين من الزمان، كانت روما تعانى من المنافسة بين اثنين من الأسر العريقة: "آل كولونا – The Colonna" و"آل أورسينى – The Orsini". بعيدًا فى "كامپانا – Campagna" كانت الأسرتان فى حالة حرب بينهما باستمرار. كلتاهما كانت تحشد الجيوش ضد الأخرى. كلتاهما كانتا فاحشة الثراء وتحكم ممتلكاتها الواسعة وكأنها دولة مستقلة ذات سيادة. كان لكل منهما بلاط رفيع المستوى، وكانت الثروة بدورها تمكن كلتيهما من مصاهرات مفيدة مع أسر قوية، وكان الناس ما زالوا يتندرون بحفل زفاف "كلاريس أورسينى – Clarice Orsini" على "لورنزو دى ميديسى – Lorenzo de' Medici"، عم كليمنت، باعتباره حفل الزفاف الأكثر فخامة وترفًا فى القرن الخامس عشر. حتى قبل ذلك كان آل أورسينى ينعمون بما يمكن وصفه بأنه كان علاقة خاصة بالنظام البابوى، بسبب أن كل الطرق الرئيسية المتجهة من روما شمالًا، كانت تمر عبر أراضيهم. من هنا، كان الباباوات المتوالون يحرصون دائمًا على كسب ودهم.

كان ذلك وحده يكفى لاستعداء منافسيهم الذين كان پومپيو كولونا أبرز ممثليهم فى عشرينيات القرن السادس عشر. كان الكاردينال قد بدأ حياته جنديًا، وربما كان لا بد من أن يظل كذلك. دخل الكنيسة بسبب ضغوط عائلية فحسب، وكان من المستحيل وصفه بأنه "رجل متدين". حدث أن رفض چوليوس الثانى ترقيته، واستغل پومپيو فرصة المرض الخطير للبابا فى 1511 لإثارة عصيان شعبى، ولكن محاولته فشلت: عندما تعافى چوليوس جرده من كل مناصبه وألقابه. المثير للدهشة أن يكون البابا الميديسى ليو العاشر هو الذى سمح بدخوله المجمع المقدس، فذلك هو ما جعله يضع عينه على الكرسى البابوى، ولم يمتد أى شعور بالامتنان كان يشعر به نحو البابا ليو، إلى ابن عم ليو وخليفته الثانى. أما بالنسبة لـ "كليمنت"، فكان يكن له كرهًا لا حدود له، كان وقوده الحقد والإصرار على استئصاله، إما بإزاحته أو بالقتل إذا دعت الضرورة.

فى أغسطس 1526 جاء "ڤسپاسيانو كولونا – Vespasiano Colonna"، أحد أقارب پومپيو، إلى روما ليتفاوض على هدنة بين أسرته من جانب، وأسرة أورسينى من الجانب الآخر. البابا كليمنت الذى استراح كثيرًا لذلك، قام بتسريح قواته، بينما هجم جيش كولونا فى الحال على مدينة "أناجنى – Anagni" وقطع كل وسائل الاتصال بين روما ونابولى. قبل أن يفيق البابا من هول المفاجأة أو أن تكون لديه فرصة لإعادة التعبئة، اندفع ذلك الجيش نفسه عبر بوابة "سان چون لاتيرا – St John Lateran"، فجر العشرين من سبتمبر وتدفق على روما.

فى حوالى الخامسة من بعد ظهر اليوم نفسه، وبعد ساعات من القتال الضارى، تمكن كليمنت من الفرار عبر الممر المغطى المؤدى إلى الفاتيكان، إلى قلعة سانت أنجلو. فى الوقت نفسه كانت أعمال السلب والنهب قد بدأت، وكما يصف أحد العاملين فى الإدارة البابوية المشهد:

«تم تجريد القصر البابوى من كل محتوياته تقريبًا، حتى غرفة نوم البابا وخزانة ملابسه، حتى غرفة مقدسات سن بيتر ومساكن الأساقفة والعاملين بالمكان، حتى إسطبلات الخيل تم إفراغها مما فيها، وأبوابها ونوافذها حطمت؛ كؤوس القربان والصلبان وعصى الأساقفة والزخارف والنقوش، كل ما طالته أيدى أولئك الرعاع».

حتى «كنيسة سيستاين – Sistine Chapel» تم اقتحامها حيث انتزعوا مطرزات رافائيل من على الجدران وكؤوس القربان المذهبة المرصعة بالجواهر.. كل كنوز الكنيسة تم الاستيلاء عليها، كانت قيمتها تقدر بثلاثمائة ألف دوكاتية.

مع الاستعدادات الضرورية المتخذة كان يمكن للبابا أن يصمد فى قلعة سانت أنجلو عدة أشهر، إلا أنه فى تلك الحالة ولعدم كفاءة آمر القلعة جيوليو دى ميديسى، لم تكن القلعة مزودة بما يكفى من المؤن. لم يكن أمام كليمنت من خيار سوى أن يفرض ما يريده من شروط. كانت المفاوضات التى تلت ذلك صعبة، ولكن نتائجها كانت أقل من المقبولة بالنسبة لـ "بومبيو كولونا"، الذى أدرك فى النهاية أن انقلابه فشل؛ حيث إن البابا لم يظل على عرشه فحسب، بل إن الرأى العام كذلك انقلب ضده وضد أسرته تمامًا. تم نهب روما، وكان آل كولونا هم المسؤولين عن ذلك بلا جدال. فى شهر نوفمبر تم تجريد بومبيو – للمرة الثانية – من كل ألقابه ومناصبه الكنسية، كما لقى كبار أبناء الأسرة المصير نفسه. فقدت أسرة كولونا كل ممتلكاتها فى الولايات البابوية باستثناء ثلاث قلاع. صحيح أن كليمنت نجا، ولكن ذلك لم يكن كل شىء.

«البابا لا يتوقع شيئًا سوى الدمار، ليس دماره هو فحسب؛ حيث إن ذلك لا يعنيه كثيرًا، وإنما دمار الكرسى الرسولى، دمار روما، دمار بلاده وكل إيطاليا. فى الوقت نفسه لا يرى وسيلة لدرء ذلك. لقد أضاع كل أمواله وأموال أصدقائه.. وخدمه، مكانتنا كذلك ضاعت».

كان ذلك ما كتبه مسؤول آخر من الإدارة البابوية يدعى «چيان ماتيو – Gian Matteo" بالقرب من آخر نوفمبر 1526. كان لدى البابا من الأسباب ما يجعله يصاب

بالاكتئاب. إستراتيجيًا، كان البابا ضعيفًا، وعرضة للهجوم عليه من عدة جوانب، وكان يستغل هذا الوضع تمامًا. ثم كانت أخبار عن انشقاق فيرارا – التى التحق دوقها "ألفونسو ديستى – Afonso d' Este" بالقوات الإمبراطورية. كتب "لاندريانو – Landria-no" موفد ميلان يقول: "يبدو البابا وكأنه قد خر صريعًا. كل محاولات سفراء فرنسا وإنجلترا وفينيسيا لاستعادته ضاعت هباء.. يبدو مثل حالة مرضية فقد فيها الأطباء الأمل". وبالرغم من ذلك لم تكن كل بلاياه قد انقضت. فى الثانى عشر من ديسمبر سلم مبعوث إسپانى رسالة خاصة من الإمبراطور يكرر فيها طلبه بعقد مجلس عمومى للكنيسة، متحديًا بذلك رغبة البابا كليمنت فى العكس. وفى مطلع العام التالى جاءت الأخبار بأن جيشًا إمبراطوريًا بقيادة دوق البوربون كان يزحف باتجاه الولايات البابوية.

بالرغم من خيانته لمليكه، كان "بوربون – Bourbon" شخصية كاريزمية يحظى بإعجاب رجاله لشجاعته. لم يحدث أن تراجع عن معركة، وكان دائمًا موجودًا حيث يكون القتال على أشده، ويسهل التعرف عليه وتمييزه بمعطفه الأبيض الفضى الذى كان يرتديه دائمًا، ومن رايته ذات الألوان، الأسود والأبيض والأصفر المزينة بكلمة "Espérance" (الأمل)؛ الآن، وهو يتقدم من ميلان فى اتجاه الجنوب على رأس جيش قوامه نحو عشرين ألف مقاتل من الألمان والإسپان، كان مواطنو كل المدن التى يمر بها فى طريقه: پياكنزا وپارما وريجيو ومودينا وبولونيا، كلهم كانوا يعملون بكل جهد لتقوية دفاعات مدنهم. كان بإمكانهم أن يوفروا على أنفسهم هذه المشقة. لم يكن لدى الدوق النية لأن يضيع وقته عليهم. قاد جيشه مباشرة نحو روما صاعدًا به تل "الچانيكول – The Janiculum hill"، شمالى سور المدينة مباشرة، وفى الرابعة من صباح السادس من مايو 1527 بدأ الهجوم.

فى غياب مدفعية ثقيلة، قرر بوربون تسلق أسوار المدينة، وهو أسلوب أكثر صعوبة من دكها لكى تسقط. كان هو نفسه من أوائل المصابين. قام بقيادة مجموعة من جنود المشاة الألمان المرتزقة – Landsknechts حتى أسفل السور، وبينما كان يقوم بوضع سلم للتسلق أصيب فى صدره بطلقة من "هركوبة – harquebus".(8)

لم يكن سقوط هذا المقاتل الذى يرتدى الأبيض لتخطئه عين أى من القائمين بالحصار أو المدافعين، ولمدة ساعة تقريبًا، كان مصير الحصار عرضة للتغير بين لحظة وأخرى، إلى أن حفزت فكرة الثأر الألمان والإسپان، فكانت دافعًا لبذل المزيد من الجهد. وبين السادسة والسابعة صباحًا تدفق الجيش الإمبراطورى مندفعًا واقتحم المدينة. اعتبارًا من تلك اللحظة قلت وتيرة المقاومة. اندفع أهالى روما من بين الأسوار يحاولون تحصين

منازلهم وانضم كثير من قوات البابا إلى الأعداء للنجاة بحياتهم. لم يواصل القتال ببطولة سوى الحرس السويسرى وبعض ميليشيات البابا الخاصة إلى أن أبيدوا هم كذلك.(9)

عندما اقترب الغزاة من الڤاتيكان، أخرجوا البابا مرة أخرى من كنيسة سان پيتر، واقتادوه عبر الممر المغطى إلى قلعة سانت أنجلو، وسط حشد من الأسر المذعورة التى كانت تبحث عن ملجأ. كان الزحام شديدًا، لدرجة أنه كان من الصعب رفع الجسر المتحرك. فى الخارج، فى «البورجو – Borgo» و "تراستيڤير – Trastevere"، وبالرغم من الأوامر المشددة من القادة، كان الجنود يقومون بقتل كل من يقابلهم من الرجال والنساء والأطفال والتمثيل بجثثهم. فى تلك المذابح، قتلوا تقريبًا كل نزلاء مستشفى سانتو سپيريتو، ولم يبقوا على أحد من الأطفال الأيتام فى الملجأ.

عبر الجيش الإمبراطورى نهر التيبر قبل منتصف الليل، واستقر جنود المشاة من المرتزقة الألمان فى معسكر "دى فيورى – Campo dei Fiori"، والإسپان فى "پيازا ناڤونا – Piazza Navona"، أما عمليات السلب والنهب التى تلت ذلك فقد وصفت بأنها كانت من أكثر الأعمال فظاعة فى التاريخ.(10) استمر حمام الدم الذى بدأ فى الناحية الأخرى من التيبر ولم يهدأ، كانت المخاطرة بالخروج إلى الشارع تعنى الموت المؤكد، أما البقاء داخل البيوت فلم يكن عاصمًا من الخطر كذلك؛ حيث لم تنج كنيسة واحدة أو قصر أو منزل أيًا كان حجمه من النهب والتدمير. الأديرة نهبت، أديرة الراهبات انتهكت، وكانت الراهبات يبعن فى الشوارع بأثمان بخسة. لم يكن هناك أى احترام، حتى من قبل الإسپان، للكبار فى الإدارة البابوية؛ حيث تم جر اثنين – على الأقل – من الكاردينالات فى الشوارع وتعذيبهما ليموت أحدهما، وكان شيخًا قد تجاوز الثمانين.

كانت أربعة أيام وأربع ليال قبل أن تهدأ روما، وفى العاشر من مايو فحسب، بوصول پومپيو كولونا وأخويه وثمانية آلاف من رجالهم، كان أن استعادت المدينة بعض الهدوء. حتى آنذاك، لم يكن هناك شارع فى روما لم يصبه الدمار أو لا يمتلئ بجثث القتلى. فيما بعد، كان أحد جنود رص الألغام الإسپان يروى أنه قام هو وزملاؤه بدفن نحو عشرة آلاف جثة على الشاطئ الشمالى لنهر التيبر، كما ألقوا بألفين أخرى فى النهر. بعد ستة أشهر، وبسبب المجاعة وانتشار الأوبئة، كان عدد سكان المدينة قد أصبح أقل منه قبل الحصار، وكان معظم المدينة قد أصبح ممتلئًا بالجثث المتروكة فى العراء فى أشد فصول العام حرارة. أما الخسائر الثقافية فكانت بلا حصر: رسوم، تماثيل، مكتبات كاملة بما فى ذلك مكتبة الڤاتيكان نفسها، سرقت وأتلفت. تم نهب الأرشيفات البابوية

والأسقفية. حطمت مدرسة رافائيل، سجن الرسام «بارمجيانينو – Parmigianino» ولم ينقذ حياته سوى أنه كان يرسم سجانيه قبل أن يساعدوه فى الهرب إلى بولونيا.

فى الوقت نفسه، كانت معاناة الجيش الإمبراطورى لا تقل عن معاناة أهالى روما. كان كذلك لا يجد الطعام، وجنوده لم يتسلموا رواتبهم لعدة أشهر، ومعنوياته منهارة؛ ولذا كان كل هم الجنود هو السلب والنهب. انهار الانضباط. دبت الوقيعة بين المرتزقة الألمان والمرتزقة الإسبان، وكان الأمل الوحيد فى جيش العصبة تحت قيادة "دوق أربينو – Duke of Urbino"، ذلك الرجل غريب الأطوار. على ضوء الحالة التى كان عليها الإمبراطوريون، كان بإمكانه أن يدخل المدينة وينقذ البابا، ولكنه رعديد كشأنه دائمًا، لم يفعل شيئًا. فى آخر الأمر، كان كليمنت مضطرًا مرة أخرى للاستسلام، وكان الثمن الرسمى الذى دفعه هو مدن أوستيا وسيفيتافيكيا وبياكنزا ومودينا، بالإضافة إلى أربعمائة ألف دوكاتية، أما الثمن الفعلى فكان أعظم؛ حيث استولى الڤينيسيون – رغم ولائهم – على رافينا وكيرفيا، بينما انتهز دوق فيرارا الفرصة ليستحوز على مودينا. أما الولايات البابوية التى كانت قد تطورت بها أنظمة حكم ذات كفاءة لأول مرة فى التاريخ، فقد تقوضت.

حتى آنذاك، كان القتال مستمرًا بعد أن أصبح مستقطبًا بين فرنسا والإمبراطورية، أما السلام عندما جاء فكان نتيجة للمفاوضات التى بدأت فى شتاء 1528 – 1529 بين "مارجريت الساڤوية – Margarat of Savoy" عمة شارل، وسلفتها "لويز – Louise" أم الملك فرانسيس. التقت الاثنتان فى "كامبراى – Cambrai" فى الخامس من يوليو 1529 وتم توقيع الاتفاقية فى الأسبوع الأول من أغسطس. "سلام السيدات – The Ladies Peace"، كما سيطلق عليه فيما بعد، أكد الحكم الإسبانى لإيطاليا. تنازل فرانسيس عن كل مطالباته هناك، وحصل فى مقابل ذلك على تعهد من شارل بعدم الإصرار على المطالب الإمبراطورية فى بورجندى؛ إلا أن حلفاء فرنسا فى عصبة الكونياك خرجوا من الحسبة، وعليه فقد اضطروا لقبول الشروط التى فرضها شارل فى آخر العام – تلك الشروط التى كان من بينها أن تتنازل ڤينيسيا عن كل ممتلكاتها فى الجنوب الإيطالى لمملكة نابولى الإسبانية. أعيد فرانسيسكو ماريا سفورزا إلى ميلان (رغم احتفاظ شارل بحق إقامة حامية فى قلعتها)، كما أعيد كذلك آل ميديشى، الذين كانوا قد طردوا من فلورنسا فى 1527 (رغم أن ذلك تطلب حصارًا استمر عشرة أشهر لتحقيق العودة)، كما أعطيت جزيرة مالطة لفرسان سان چون فى 1530.

كانت تسوية محزنة ومهينة لأولئك الذين كانوا يشعرون بأن ملك فرنسا قد خانهم،

إلا أنها أعادت السلام لإيطاليا فى آخر الأمر، ووضعت نهاية لفصل طويل وكئيب فى تاريخها، كان قد بدأ بغزو شارل الثامن لها فى 1494، ولم يجلب عليها سوى الخراب والدمار. وختامًا لكل ذلك، عبر شارل الخامس الألب لأول مرة ليذهب إلى حفل تتويجه الإمبراطورى. لم يكن ذلك طقسًا يمكن الاستغناء عنه أو لازمًا، فجده مكسيمليان كان قد استغنى عنه تمامًا، كما أن شارل نفسه، منذ تتويجه فى "آخن – Aachen"، كان يجلس على العرش منذ عشر سنوات بالفعل، دون هذا التثبيت النهائى لسلطته. ومع ذلك، بقيت حقيقة أن البابا منذ أن وضع التاج على رأسه، لم يكن هناك أى مبرر للقب "الإمبراطور الرومانى المقدس"، أما بالنسبة لواحد كان يمتلك إحساسًا بمهمة مقدسة، فقد كان اللقب والسر المقدس مهمين.

كانت مراسيم التتويج الإمبراطورى تتم عادة فى روما. وبعد رسوه فى جنوة أغسطس 1529، تلقى شارل تقارير عن تقدم سليمان الحثيث نحو ڤيينا، وعلى الفور وجد أن رحلة طويلة عبر شبه الجزيرة فى مثل ذلك الوقت ستكون عملًا أحمق، فالرحلة سوف تستغرق وقتًا طويلًا، بالإضافة إلى أنها ستبعده عن موقع الأحداث فى حال وقوع أزمة. خرج الرسل بسرعة إلى البابا كليمنت وتم الاتفاق على أن يكون احتفال التتويج فى بولونيا، وهى المدينة التى كان من السهل الوصول إليها، وكانت ما تزال تحت السيطرة الكاملة للبابا. حتى آنذلك، لم يكن الشك قد زال؛ إذ بينما هو فى طريقه إلى بولونيا فى سبتمبر، تلقى شارل استغاثة عاجلة من شقيقه فرديناند فى ڤيينا، وكان أن يلغى مشروع التتويج على الفور، وبعد تفكير طويل قرر ألا يفعل. عند وصوله إلى ڤيينا، فإما أن تكون المدينة قد سقطت، أو يكون السلطان قد تراجع حتى ينتهى فصل الشتاء، وفى كلتا الحالتين لن تكون القوة الصغيرة المرافقة له فى إيطاليا كافية لترجيح كفة الميزان.

وهكذا، فى الخامس من نوفمبر 1529، دخل شارل بولونيا رسميًّا؛ حيث كان البابا كليمنت فى انتظاره أمام كنيسة سان بترونيو القديمة. بعد مراسم الاستقبال السريعة انتقل الاثنان إلى "قصر البودستا – Plazzo del Podesta" فى الجهة المقابلة من الميدان؛ حيث قد تم تجهيز مكان مجاور لهما. كان هناك عمل كثير فى انتظارهما ومشكلات معلقة لتناقش ويتم حلها قبل التتويج. لم يكن قد مر غير عامين على نهب وتخريب روما بأيدى القوات الإمبراطورية، وعلى كليمنت نفسه أسيرًا – تقريبًا – لدى شارل فى قلعة سانت أنجلو. كان لا بد من استعادة العلاقات الودية بينهما. بعد ذلك ستكون اتفاقيات السلام الفردية مع كل أعداء الإمبراطورية السابقين من الإيطاليين، الذين كان من أبرزهم – بصرف النظر عن البابا نفسه – ڤينيسيا وفلورنسا وميلانو. آنذاك، فحسب،

وبعد أن عم السلام أرجاء شبه الجزيرة سيكون هناك مبرر لركوع شارل أمام كليمنت ليتلقى التاج الإمبراطورى. تم تحديد يوم التتويج ليكون الرابع والعشرين من فبراير 1530، وأرسلت الدعوات إلى كل حكام العالم المسيحى. أعطى شارل وكليمنت نفسيهما أربعة أشهر لتقرير مصير إيطاليا.

المثير للدهشة أن يكتشف أن هذه الفترة كانت كافية. قبل اليوم المحدد، كان شارل قد وضع أسس عصبة تشمل إيطاليا كلها – عصبة كانت شهادة على امتداد السلطة الإمبراطورية على أرجاء إيطاليا طولًا وعرضًا – لا تقارن بما كانت عليه الأوضاع قبل قرون. وهكذا تم توقيع اتفاق السلام. عصبة الكونياك، التى أسسها كليمنت، وعملية نهب روما بقيادة شارل، كانا قد أصبحا فى عالم النسيان أو على الأقل لم يعودا فى الأذهان. وفى الرابع والعشرين من فبراير 1530، فى سان بيترونيو – S. Petronio، ثم تكريس شارل ومسحه بالزيت لأول مرة، ثم تسلم من البابا: السيف و"الكرة السلطانية – The Orb"، والصولجان... وأخيرًا تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة. ثم فجأة، نزل على مراسم اليوم شىء أشبه بالغمامة. عندما انهار جسر خشبى كان قد أقيم مؤقتًا ليصل بين الكنيسة والقصر. سقط الجسر أثناء مرور الإمبراطور عليه، ولكن عندما تم إسعاف المصابين الذين لم يكن بينهم شخصيات مهمة، ارتفعت الروح المعنوية مرة أخرى، واستمرت الاحتفالات حتى وقت متأخر من الليل.

كانت تلك آخر مرة فى التاريخ يقوم فيها أحد الباباوات بتتويج إمبراطور. فى ذلك اليوم انتهى ذلك التقليد الذى كان عمره سبعمائة عام، كان قد بدأ عام 800م عندما وضع البابا ليو الثالث التاج الإمبراطورى على رأس شارلمان. انتهت السلطة الإمبراطورية التى لن يتم تسليمها بعد ذلك قط، ولو رمزيًا، من نائب المسيح على الأرض.

هوامش الفصل الرابع عشر

(1) الفارس الذى لا يخاف، صاحب السجل النظيف.
(2) موجودة الآن فى قاعة الأعمال الفنية الوطنية فى لندن.
(3) هرب "چيم" بعد هزيمته إلى مصر أولًا، ثم إلى رودس؛ حيث دفع بايزيد خمسة وأربعين ألف قطعة ذهبية للفرسان لإزاحته من طريقه. كان بلا شك رهينة ثمينة فى يد العالم المسيحى. مات فى نابولى فى ١٤٩٥. وهناك احتمال كبير فى أن يكون البابا ألكساندر السادس هو الذى دس له السم بتواطؤ من شقيقه السلطان.
(4) "Molto melancolico, Supertizioso e Ostinato"
(5) كالعادة، لا بد من أخذ مثل هذه الأرقام التى تذكرها الحوليات عن تلك الفترة بشىء من التحفظ.
(6) أداة تعذيب قديمة، كان يمط عليها الجسم وتسبب آلامًا مبرحة. (المترجم)
(٧) كان ليو العاشر قد مات فى أواخر ١٥٢١. خليفته "أدريان السادس – Adrian VI" (هولندى من أوترخت وآخر بابا من غير الإيطاليين حتى "چون پول الثانى –John Paul II") استمر فى منصبه أقل من عامين قبل أن يخلفه ابن عم ليو: "چوليو دى ميديشى – Giulio de Medici" أو "كليمنت السابع – Clement VII".
(٨) الهركوبة سلاح نارى قديم. (المترجم).
(٩) يوجد بالقرب من كنيسة "سانتو سپيريتو – Santo Spirito" نقش إحياء لذكرى "بيرناردينو پاسيرى – Bernardino Passeri" صائغ البابا الذى سقط فى ذلك المكان دفاعًا عن روما.
(10) انظر: "J.Hook "The Sack of Rome.

الفصل الخامس عشر

البربر وآل بربروسا

• عروج يزحف على الجزائر: 1516 • موت عروج: 1518 • الاستيلاء على الـ «پينون»: 1560 • بربروسا يبدأ الهجوم على إيطاليا: 1534 • الاستيلاء على تونس: 1535 • حصار كورفو: 1537 • التفكك الأوروبى: 1538 • دوريا مضطربًا: 1538 • تحالف بربروسا وفرنسا: 1543

عدوان الناس بعضهم على بعض قديم، ومنذ أن عرف الناس صناعة السفن الصالحة للملاحة، كانت القرصنة موجودة، وقد عرفها البحر الأبيض. مارسها المسيحيون والمسلمون على السواء منذ العصور المظلمة، أحيانًا بدواعى الحرب وأحيانًا بدونها.. وغالبًا بضمير مستريح. بالنسبة للأتراك كانت أعمال فرسان سان چون أثناء وجودهم فى رودس جديرة بهذه التسمية، بينما كان من الصعب أن يعتبر فرديناند وإيزابيلا – بعد أن هزما مملكة غرناطة – تحرش المسلمين المستمر بالسفن الإسپانية فى شمال أفريقيا استمرارًا مشرفًا للحرب من جانب المهزوم. إلا أن الأمر كان كذلك من جانب المعتدين؛ ومع دخول القرن السادس عشر أخذت أعمال التحرش والاعتداءات هذه بعدًا جديدًا، وأصبح الساحل المغربى – أو ساحل البربر – مقرونًا بأعمال القرصنة.

بعد أول ظهور للعرب قبل نحو تسعمائة عام، كان ساحل شمال أفريقيا – باستثناء «مليلة – Melilla"، التى كان الإسپان قد احتلوها فى 1497 وبقيت إلى الآن أرضًا إسپانية – تحت حكم الخلافات الأموية والعباسية والفاطمية، والمرابطين والمهدية، إلى جانب أسر أخرى أصغر مثل بنى حفص فى تونس، وبنى زيان فى المغرب الأوسط، وبنى مرين فى مراكش. فى معظمها، لم تكن تلك الأنظمة بعيدة عن الاستنارة، فقد كانت تسمح بحرية العبادة للمجتمعات المسيحية الصغيرة الموجودة بها، حتى إنه كان هناك فى القرن الثالث عشر مطران فى "فاس – Faz"، التى كان يعمل بها "ليون الأفريقى – Leo Africanus"، أمينًا لسجل "مستشفى الغرباء"، وقد بقيت كتابات ليون هذا أحد أهم مصادر المعلومات الأوروبية عن الإسلام على مدى أربعة قرون تقريبًا، كما أن له شهادات تعود إلى عام 1526 عن "تحضر وإنسانية وحسن تعامل البربر... أناس متحضرون يطبقون القوانين والأعراف على أنفسهم"، وكيف كانوا على دراية بالعلوم والفنون والآداب، ويبدو أنهم إلى جانب ذلك يقيمون علاقات تجارية وثيقة مع صقلية والجمهوريات التجارية الإيطالية، وكانوا معروفين جيدًا حتى لتجار القرن الخامس عشر الإنجليز، الذين كان الوصول إلى الجزائر أكثر سهولة بالنسبة لهم، منه إلى القسطنطينية، أو حتى ڤينيسيا. ولكن بالرغم من أن حكامها استطاعوا أن يحظروا القرصنة، فلم يكونوا قادرين على منع القراصنة من الخروج إلى البحر، وكان الضحايا المسيحيون – وخاصة من سردينيا ومالطة وچنوة واليونان – يدفعون الكثير، حتى نهاية القرن الرابع عشر، كانوا يدفعون أفضل، وكانوا هم، وليس المسلمين، الإرهابيين

الرنيسيين فى البحر الأبيض، ولكن مع ظهور الأساطيل التجارية الكبيرة، فقدت حرفتهم بعض مكانتها؛ ليحتل القراصنة المسلمون مركز الصدارة.

كان القرن الخامس - كما رأينا - قد شهد حدثين جللين، فى كل من طرفى المتوسط: فى الشرق كان سقوط القسطنطينية فى 1453 – وتبع ذلك إغلاق البحر الأسود أمام الملاحة المسيحية – وفى الغرب، كان الطرد التدريجى للمسلمين من إسپانيا فى السنوات التالية لعام 1492. كلا الحدثين أدى إلى انتشار عدد كبير من المشردين الذين لم يعرفوا الاستقرار – مسيحيون فى الشرق ومسلمون فى الغرب – كلهم تعساء وساخطون ويتطلعون إلى الثأر، ولجأ معظمهم لحياة القرصنة والمغامرة. كان من الطبيعى أن يرسى المسيحيون قواعدهم فى الحوض الأوسط من البحر الأبيض: فى صقلية أو مالطة، أو حول الجزر العديدة القريبة من ساحل دالماشيا. من الناحية الأخرى، لم يكن اهتمام المسلمين سوى أن يلحقوا بإخوانهم فى الدين فى الشمال الأفريقى. كان هناك بين طنجة وتونس نحو 1200 ميلًا، معظمها شريط خصب تصل إليه المياه، وعليه عدد كبير من الموانئ الطبيعية المثالية لخدمة أهدافهم. هكذا ولدت أسطورة ساحل البربر.

بين قراصنة هذا الشاطئ، كان الأخوان بربروسا، "عروج – Aruj" و"خضر – Khizr"، هما الأكثر شهرة وخطرًا، وكان الثانى معروفًا بـ "خرالدين بربروسا". كانا من مواليد "ميتيلين – Mytilene" (ليسبوس – Lesbos الحديثة) لواحد من الإنكشارية اليونانيين المتقاعدين كان يعمل بصناعة الأوانى الخزفية، وامرأة كانت قبل الزواج منه أرملة قس يونانى. (وحيث إن كل الإنكشارية كانوا مسيحيين أصلًا قبل تحولهم القسرى، لم يكن فى الأخوين بربروسا قطرة واحدة من الدم التركى أو العربى أو البربرى، كما أن لحاهم الحمراء شهادة أخرى على ذلك). فى بواكير شبابه كان عروج أكبر الأخوين، قد شارك فى حملة فاشلة ضد فرسان سان چون وأسر خلالها وأجبر على العمل على جالياتهم (سفنهم الشراعية الكبيرة). بعد دفع فديته (ولا نعرف من قام بذلك)، عهد إليه تجار القسطنطينية بمركب قرصنة ليعمل تحت إمرة حاكم مصر المملوكى.

وفى وقت ما من سنوات القرن الأولى، ظهر هو وشقيقه فى تونس بسفينتين من نوع "الجاليوت[1] – galleot"، وفى 1504 حصل عروج على أولى جوائزه الكبرى فى القناة التى تربط بين جزيرة "إلبا – Elba" والبر الإيطالى: سفينتان بابويتان محملتان عن آخرهما ببضائع نفيسة من جنوة. كانت السفينتان متجهتين إلى "شيڤيتاڤيكيا – Ci-vitavecchia" ولكنهما لم تصلا إليها، وبعد اقتحامهما وأسرهما أعيدتا بكل فخر إلى تونس.

فى السنوات التالية، سيتم اقتحام العديد من السفن الإسپانية وسيكون لذلك نفس النتائج، وفى آخر الأمر سيرسل "الكاردينال خيمينيث – Cardinal Ximenes" فى 1509 "دون پدرو ناڤارو – Don Pedro Navarro" الشهير، بما لا يقل عن تسعين سفينة، وجيش قوامه نحو أحد عشر ألف مقاتل، بذريعة نشر المسيحية على امتداد الساحل الإفريقى الشمالى، بينما كان السبب الحقيقى هو تأديب أولئك الأوغاد. عندما تم الاستيلاء على "أوران – Oran" (وهران) فى قتال سقط فيه ثلاثون إسپانيًا فقط، تم ذبح أربعة آلاف من سكانها بدم بارد، وحمل خمسة آلاف آخرين إلى إسپانيا، إلى جانب عمليات سلب ونهب تقدر بخمسمائة ألف دوكاتية ذهب، وفى العام التالى لقيت كل من "بوجيا – Bougia" و "طرابلس – Tripoli" نفس المصير. ولكن عروج الذى كان فى ذلك الوقت قد استولى على جزيرة "چربه – Djerba" كقاعدة لعملياته كان يزداد قوة، وفى 1512 استجاب لنداء من حاكم بوجيا المنفى – مطرودًا بواسطة دون پدرو – لكى يعيده مقابل استخدام الميناء مجانًا. وبعد أسبوع من القصف المكثف، كانت الحامية الإسپانية على وشك الاستسلام عندما أصابت طلقة مباشرة ذراع عروج اليسرى لتقطعها. تم رفع الحصار وعاد الأسطول إلى تونس، ولكن ليس قبل أن يأسر إحدى سفن چنوة وهو فى طريقه.

سينتقم أبناء چنوة بعد وقت قصير؛ حيث سيسرع قائدهم البحرى "أندريا دوريا – Andrea Doria" باثنتى عشرة جالية إلى تونس للاستيلاء على القلعة ونهبها وأسر نصف أسطول القراصنة. إلا أن عروج عاد إلى الهجوم بعد التئام جرحه، وفى 1516 تلقى نداء استغاثة آخر. كان النداء هذه المرة من الأمير الجزائرى "سالم". لم يكن دون پدرو قد احتل المدينة بعد، ولكن قبل عامين، فى محاولة لمنع الهجمات الجزائرية المتواصلة على السفن الإسپانية، كان الإسپان قد حصنوا جزيرة قريبة من الشاطئ فى الخليج المعروف بـ "الپينون – The Penon"، الذى كانوا يستطيعون منه التحكم فى الميناء وتهديد المرور فى كلا الاتجاهين. لم يتردد عروج. كان سوء الحظ قد منعه من استعادة بوجيا، ولكن الجزائر كانت جائزة أكبر، ويمكن أن تكون عاصمة فخمة لمملكة البربر الكبرى.. ذلك الحلم الذى كان يداعب خياله منذ أمد بعيد.

الآن، كان عروج قويًا ويستطيع تعبئة أسطول من ستين سفينة تحت قيادة شقيقه خضر، وجيش من ستة آلاف مقاتل. زحف بهذه القوة بحذاء الشاطئ إلى الجزائر، متوقفًا لفترة قصيرة – فحسب – عند "تشرشل – Cherchel" بعد بضعة أميال غربًا؛ حيث كان قرصان بحرى آخر، تركى اسمه "كارا حسن – Kara Hassan" قد اقتطع لنفسه سلطنة صغيرة وجمع جيشًا صغيرًا من المسلمين والأتراك مع عدد من السفن.

كان بربروسا فى حاجة إلى هذه الإمكانيات، ولكنه بدلًا من التوصل إلى تحالف مع كارا حسن، وجد أن الأكثر سهولة هو ضربة من سيفه المعقوف تطير رأس الرجل. بمجرد وصوله إلى الجزائر بدأ قصفه المكثف للقلعة إلا أنه لم يتمكن من تحقيق انتصار حاسم على مدى ثلاثة أسابيع، وهكذا كان أمام خطر ضياع هيبته واعتباره أمام الأمير، فقرر تغيير خطته. بعد أيام قليلة، وجدوا الأمير مقتولًا فى الحمام الخاص به، وأعلن عروج نفسه سلطانًا بشكل رسمى.

الآن، كان الجزائريون يدركون خطأ دعوتهم بربروسا لمساعدتهم، ولم يمر وقت طويل حتى بدأوا محادثات سرية مع الحامية الإسپانية فى الپينون لإسقاطه. ولكن عروج بما لديه من شبكة جواسيس واسعة فى أرجاء المدينة علم بما كان يجرى من حوله؛ وبينما كان كل أعيان المدينة من المواطنين فى الجامع الكبير، غلقت الأبواب ليجد المصلون أنفسهم محاطين بمسلحين قيدوهم بعماماتهم واقتادوهم إلى الباب الرئيسى لمشاهدة قطع رؤوس قادة المؤامرة.

سرعان ما وصلت أخبار الانقلاب إلى إسپانيا؛ حيث انزعج خيمينيث غاية الانزعاج، وفى مايو 1517 أرسل حملته الثانية ضد عروج. كانت الحملة مكونة من عشرة آلاف مقاتل بقيادة القائد البحرى للبلاد "دييجو دى ڤيرا – Diego de Vera". مرة أخرى، تصرف عروج بسرعة وانقض على الإسپان أثناء عملية إنزال معداتهم من السفن وقبل أن ينظموا صفوفهم، وقتل ثلاثة آلاف منهم؛ أما من بقى فعاد إلى السفينة على وجه السرعة لينجو بحياته. حتى فى مثل تلك الظروف كان الحظ يعاندهم؛ إذ هبت عاصفة عاتية فى آخر اليوم تقريبًا؛ لتعيد عددًا كبيرًا من السفن إلى الشاطئ حيث كان رجال بربروسا فى الانتظار؛ أما البقية الباقية من الأسطول المدمر فكانت تشق طريقها بصعوبة، عائدة إلى بلادها.

بعد شهر، كان حاكم "تنيس – Tenes"، وهى مدينة تقع إلى الغرب من الجزائر بنحو تسعين ميلًا، كان من الحماقة والطيش بأن يزحف على القرصان، وكانت النتيجة تدمير جيشه تمامًا. وبالرغم من تمكنه من الهرب إلى التلال، سقطت مدينته فى يد عروج الذى أعلن نفسه سلطانًا مرة أخرى. بعد ذلك تبعتها مدينة تلمسان على بعد مائتى ميل غربًا، وعندما دخلها عروج فى سبتمبر، جاؤوا له برأس حاكمها السابق على رمح. باستثناء وهران وبوجيا والپينون وعدد قليل آخر من الحصون الساحلية، كان عروج بربروسا الآن سيدًا على كل المساحة – تقريبًا – التى تشكل الجمهورية الجزائرية الحديثة. لم يتطلب ذلك منه سوى ثلاثة عشر يومًا.

إلا أن وهران كما اتضح فيما بعد كانت كعب أخيل[2] بالنسبة له. بعد وصول شارل الأول – الإمبراطور شارل الخامس فيما بعد – إلى إسبانيا فى سبتمبر 1517، سرعان ما عاد محافظ المدينة، «ماركيز كوماريس – Marquis of Comares» إلى إسبانيا؛ لكى يقدم فروض الولاء والطاعة ويبحث الوضع العام فى شمال أفريقيا، الذى كان قد وصل إلى مرحلة تبعث على اليأس. كان آل بربروسا يزدادون قوة كل يوم، وكانت الممتلكات الإسبانية الباقية على الساحل عرضة لأخطار وتهديدات تتزايد باضطراد؛ والآن... كان الوقت المناسب للضرب مرة أخرى قبل فوات الأوان؛ وهذه المرة كان ينبغى عدم التهوين من شأن العدو وقوته ومهاراته مثلما حدث، على نحو مأساوى، فى مناسبات سابقة. وافق الملك الشاب بسرعة، وأصدر أوامره على الفور بتجهيز حملة الشتاء القادم، على أن تبحر فى الربيع لتعقب بربروسا والقضاء عليه.

كانت القوة هذه المرة مكونة من "آرمادا[3] – Aramada" حقيقى وصل إلى وهران فى الأشهر الأولى من عام 1518، وجيش جيد التدريب انطلق متجهًا إلى تلمسان. لم يكن عروج واثقًا من دفاعات المدينة، فأرسل استغاثة عاجلة إلى سلطان فارس، يطلب جنودًا ومعدات إضافية، إلا أن السلطان راوغ بينما كان جيش الإسبان يقترب وليس هناك وقت لإضاعته. سيكون عليهم أن يضحوا بـ "تلمسان"، ولم يكن أمام عروج سوى التقهقر إلى الجزائر. ولكن، ربما بسبب الانتظار بلا طائل لنجدة من فاس لم تأت، كان أن غادرها متأخرًا جدًّا. عرف كوماريس بذلك وانطلق يطارده. كان لدى عروج خيول ممتازة إلا أنها لم تكن ندًّا للخيول الإسبانية الأصيلة التى انطلقت وراءه عبر المستنقعات. يقال: إن عروج كان يلقى وراءه بذهب وجواهر لكى يعطل مطارديه، ولكن كوماريس كان يمنع جنوده من النزول من على خيولهم؛ لكى يلحق به فى النهاية بينما كان يخوض بجيشه نهرًا جبليًا. كان عروج ومجموعته المتقدمة قد عبروا النهر بالفعل، إلا أنه عاد ليكون مع الباقين الذين لم يكونوا قد عبروه بعد، وبذلك كان يقدم جبهة متحدة للقوة الإسبانية. على ذلك الشاطئ، كانت وقفته الأخيرة، وهناك قاتل بضراوة بذراع واحدة[4] إلى أن لقى لحتفه. كان فى الرابعة والأربعين.

كانت نهاية تليق بكل ما سبق. كان عروج جسورًا دائمًا، أخرق أحيانًا، ولعله كان أول وأعظم القراصنة المتهورين الذين تركوا أثرًا باقيًا على مدى القرون التالية. من بين كل معاصريه، لم يكن هناك من يضارعه شجاعة وجسارة سوى القرصان «هيرنان كورتيس – Hernán Cortés"، كما كان يقال. لا بد أن نضيف أنه فى إنجازه المدهش – عندما بدأ هو مجرد شخص أجنبى بلا حليف ولا يثق به أحد، وسط عداء محلى وكل

ما يمكن أن ترميه به إسبانيا، ويتمكن اعتمادًا على قوة شخصيته فحسب من إقامة دولة قوية في شمال أفريقيا في غضون سنوات قليلة، بقيت لفترة طويلة – لا بد من أن يكون مثل هذا الرجل صنوًا لأعظم الفاتحين.

** ** **

بالنسبة لماركيز كوماريس، فإن موت أول بربروسا وتدمير جيشه، فتح الطريق إلى الجزائر، ولو أنه زحف على المدينة لكانت قد سقطت بالتأكيد، وعندما تكون الجزائر في يد إسبانيا، سيصبح باقي الشمال الأفريقي ملكًا له. إلا أنه لم يفعل شيئًا من ذلك. بل إنه عاد مباشرة إلى وهران وبذلك ضاعت الفرصة على إسبانيا.. لمدة ثلاثمائة عام. في الوقت نفسه كان خضر (أو خير الدين كما ينبغي أن نطلق عليه) قد تسلم عباءة أخيه.

كانت المهمة صعبة، ولكن خير الدين لم تكن لتنقصه الثقة. ربما لم يكن له نفس حيوية عروج ولكنه كان لديه كل طموحه، كل شجاعته، وربما حنكة سياسية وحكمة أكبر. لم يكن من الوارد - على سبيل المثال - أن يفكر عروج في إرسال سفراء إلى القسطنطينية لإهداء الإقليم الجديد (الجزائر) للسلطان بشكل رسمي. بالنسبة لـ "سليم الأول"، الذي كان قد غزا مصر قبل عام، كان ذلك يعتبر توسعًا بالغ الأهمية لإمبراطوريته الأفريقية في اتجاه الغرب. على الفور، قام السلطان سليم بتعيين خير الدين حاكمًا عامًا باسم "بايلرباي[5] – Beylerbey"، وزوده بحرس شرف من ألفي جندي من الإنكشارية، وبمساعدة هؤلاء، تم استعادة كل الفتوحات الإسبانية باستثناء وهران وحصن البنيون المنيع بالقرب من ميناء الجزائر.

بعد ذلك كانت هناك تحالفات مع كل القبائل العربية والبربرية داخل البلاد، وفي وقت قصير كان بربروسا الثاني، الأقوى من الأول كثيرًا، قد أصبح يسيطر على الحوضين الأوسط والغربي من البحر الأبيض المتوسط. جمع حوله جماعة من كبار قراصنة البحر، كان من بينهم "دراجوت – Dragut"، وهو مسيحي آخر متحول، أصبح يعرف فيما بعد بـ "سيف الإسلام المسلول" وسنان، يهودي سميرنا، الذي كان متهمًا بأعمال السحر الأسود والشعوذة، و"أيدين رايس – Aydin Reis" الرهيب، ونحو ستة آخرين، كانوا كلهم من رجال البحر الممتازين. لم تكن هناك سفينة أجنبية بمأمن من هجومهم بين شهري مايو وأكتوبر من كل عام، كما أنهم لم يكونوا يترددون في المرور عبر المضايق والخروج إلى براح الأطلنطي انتظارًا لعودة السفن الإسبانية من الكاريبي إلى "كاديز – Cadiz" (قادش). لم يكونوا يتطلعون للحصول على ثروات فحسب؛ إذ إن كل شيء كان له قيمة، فالأسرى المسيحيون مثلًا كان يمكن استبعادهم للعمل على السفن أو تحريرهم فيما بعد مقابل فدية من الذهب.

هناك حدث بعينه يصور مدى تأثير القراصنة البربر فى البحر الأبيض المتوسط، ففى عام 1529 انطلق أيدين رايس بأربع عشرة سفينة صغيرة من نوع الجاليوت، فى حملة إغارة على جزيرة "مايوركا – Mallorca"؛ حيث كان قد سمع عن جماعة كبيرة من "الموريسكيين – Moriscos" (مسلمون متحولون) يريدون الهرب من سادتهم الإسپان، وكانوا على استعداد لدفع مبالغ كبيرة مقابل توصيلهم إلى شمال أفريقيا. بعد أن رسا بسفنه سرًا فى الليل، قام بتحميل مائتى أسرة وأبحر عائدًا بكمية كبيرة من الأموال والنفائس، وحدث أن وصل أسطول من ثمانية سفن إسپانية كبيرة بقيادة الجنرال "پورتوندو – Portundo" إلى المكان فى الوقت نفسه. كان الأسطول عائدًا من جنوة؛ حيث كان پورتوندو قد رافق شارل الخامس لتتويجه إمبراطورًا فى بولونيا بواسطة البابا. كان الأسطول يحمل عددًا كبيرًا من النبلاء الإسپان الذين حضروا الاحتفال. قام أيدين بإنزال ركابه على وجه السرعة وعاد من فوره إلى البحر؛ ليهاجم سفينة قائد الأسطول ويقتحمها. قتل پورتوندو فى القتال المتلاحم الذى دار، وبعد انتهاء المعركة تمكنت إحدى السفن من الهرب إلى "أيبيزا – Ibiza"، وتم أسر السفن السبع الأخرى. تم إطلاق سراح العبيد المسلمين الذين كانوا يعملون على السفن وتحريرهم من السلاسل وإحلال سادتهم السابقين محلهم، وبعد إصلاح السفن المعطوبة أعيد تحميل الموريسكيين، وتم اقتياد السفن المأسورة بما عليها من مسافرين من علية القوم والعودة بها فى موكب نصر مع توقع الحصول على فدية كبيرة.

أخيرًا، كان بربروسا يشعر بأنه يستطيع الهجوم على حصن الپينون. كان الحصن على الجزيرة الصغيرة فى مدخل ميناء الجزائر تمامًا وكان يشكل خطرًا على سفنه باستمرار، بيد أنه كان لديه الآن ما يكفى من المدفعية الثقيلة لإنجاز المهمة. فى السادس من مايو 1560 بدأ الهجوم. بقى الحصن تحت القصف المتواصل ليل نهار لمدة خمسة عشر يومًا قبل أن يصدر الأمر بالهجوم النهائى، وعندما كانت القدرة القتالية للحامية الإسپانية قد نفدت. تم تفكيك المبنى وتجريده من كل وسائل الدفاع، كما تم استخدام العبيد المسيحيين على مدى العامين التاليين فى البناء، واستخدام الأحجار وحاجز الأمواج الضخم الذى يصل الجزيرة بالبر ويحمى الميناء من الجهة الغربية.

ولكن، لماذا كان للعالم الإسلامى كل هذه السيادة البحرية فى البحر الأبيض المتوسط فى النصف الأول من القرن السادس عشر؟ أولًا: لأن منافسيهم المسيحيين كانوا قلة. كانت ڤينيسيا وجنوة تسيطران على الأدرياتيكى مع "البحر الأيونى – Ionian Sea" مباشرة إلى الجنوب، ولكن فرسان سان چون – أبرع مقاتلى البحر فى تلك الأيام –

كانوا قد طردوا من رودس فى 1522، ووجدوا وطنًا جديدًا لهم فى مالطة بعد ذلك بسبع سنوات، وكان لا بد من أن يمر وقت طويل قبل أن يأملوا فى استعادة نفوذهم وقوتهم السابقة. إسپانيا - كما رأينا - لعبت دورًا كبيرًا، ولكن طاقاتها الرئيسية كانت موجهة نحو العالم الجديد، إلى جانب أن المسيحية ظلت منقسمة، ولو أن إسپانيا وفرنسا، البابا والإمبراطور، الكنيستان الشرقية والغربية، مملكتا ناپولى وصقلية، أمراء الشمال الإيطالى، لو كان أولئك كلهم قد تجمعوا حول قضية مشتركة فلربما كانت النظرة إلى رعايا السلطان قد أصبحت صارمة بالفعل. كان الأوروبيون أكثر اهتمامًا بقتال بعضهم البعض، منهم بالوقوف متحدين ضد الأتراك؛ وعلى النقيض من ذلك، ظل الإسلام متحدًا.

كان هناك قائد مسيحى واحد يبدو قادرًا على البقاء محتفظًا بقوته. فى 1532 حقق "أندريا دوريا – Andrea Dorea" الچنوى عدة انتصارات على الأساطيل العثمانية فى المياه اليونانية. إلا أن هذه الانتصارات – على عكس المتوقع – كانت هى التى جلبت لـ "بربروسا" أثمن لحظات تاريخه وأكثرها مجدًا. كان من الواضح للسلطان سليم أن البحرية التركية أضعف من بحرية القراصنة، وأنه كان لا بد من إعادة تنظيمها، إذا كان هناك رجل واحد هو الذى يستطيع تحقيق ذلك. وهكذا كان أن وصلت إلى الجزائر فى سبتمبر 1533 بعثة من "الباب العالى[6] – Sublime Porte"، تدعو خير الدين للحضور إلى القسطنطينية فى أقرب فرصة. قبل القرصان الدعوة بكل سرور وارتياح. وباعتباره أحد التابعين الأوفياء للسلطان – وكان كذلك دون شك – لا بد من أن يكون قد قدر ذلك الشرف الذى حظى به حق قدره، ولا بد كذلك من أنه كان لديه أسبابه التى دعته لقبول الدعوة. فى مرحلة ما، كانت عينه على تونس الجارة الشرقية مباشرة. كانت تونس مركز القيادة بالنسبة له ولأخيه، ولكنهما لم يكونا يعيرونها أى اهتمام فى السنوات الأخيرة. فى 1526 كان قد وصل إلى العرش حاكم جديد من أسرة بنى حفص بعد مقتل اثنين وعشرين من إخوانه، (كما يقال).[7] على الفور، أثبت هذا الحاكم الجديد أنه كان كارثة، وبحلول 1532 كان بربروسا يتلقى استغاثات عدة من أصدقائه فى تونس ليأخذ السلطة هناك. قبل أن يتخذ مثل تلك الخطوة، كان فى حاجة إلى مباركة السلطان، وإذا استطاع أن يقنع سليمان بإمداده بالسلاح والرجال فسيكون ذلك أفضل كثيرًا.

فى أغسطس التالى انطلق مبحرًا، حاملًا معه ما يليق بالسلطان من هدايا، كان من بينها (إن كان لنا أن نصدق «ساندوڤال – Sandoval» أسقف پامپلونا – Pamplona) مائتا فتاة مسيحية للحرملك الخاص بالسلطان، كانت كل منهن تحمل فى يدها هدية من الذهب أو الفضة، وتم استقباله بمثل ذلك الأسلوب. بعد أيام قليلة عين عضوًا فى الديوان

بلقب باشا، وقائدًا عامًا للأسطول، وكان أن بقى فى القسطنطينية لمدة عام تقريبًا، أسس فيه البحرية العثمانية الحقيقية. فى تقرير له يعود إلى عام 1543 كتب الوزير الفرنسى فى المدينة يقول:

بدأ التفوق التركى البحرى منذ الشتاء الأول لخير الدين فى أحواض بناء السفن فى هذه المدينة.. عند «بيرا – Pera» (فى الجانب الجنوبى الغربى من القرن الذهبى)، يوجد مكان على الشاطئ حيث يقومون ببناء وإصلاح الجاليات وغيرها من السفن. هناك تقريبًا مائتا عامل ماهر يعملون.. أما المسؤول عن ذلك كله فهو قائد عام يدعوه الأتراك بايلرباى البحر، وهو كذلك المسؤول عن البحرية عند خروجها.. قبل أن يتولى هذه المهمة، لم يكن الأتراك يعرفون شيئًا عن فنون الملاحة. عندما كانوا يحتاجون أطقمًا للأسطول، كانوا يذهبون إلى جبال اليونان والأناضول ويأتون بالرعاة ويضعونهم على المجاذيف فى الجاليات أو للخدمة على السفن الأخرى. كان ذلك بلا فائدة؛ لأنهم لم يكونوا يعرفون كيف يجذفون أو كيف يصبحون ملاحين، ولا حتى كيف يقفون منتصبى القامة فى البحر. لهذا السبب لم يبرز الأتراك فى هذا الفن. ولكن، فجأة.. غير بربروسا النظام كله... ملهمًا رجاله بواسطة طاقته التى لا تنفد، استطاعوا أن يصنعوا إحدى وستين جالية فى فصل الشتاء، واستطاع أن يخرج إلى البحر فى فصل الربيع بأسطول مكون من أربع وثمانين سفينة.

فى يوليو 1543 قاد خير الدين أسطوله الجديد، وانطلق من القرن الذهبى عبر بحر مرمرة نزولًا إلى «هيليزبونت – Hellespont" فى البحر الأبيض المتوسط. ملتفًّا حول مقدم الحافر الإيطالى، قام بالاستيلاء على "ريجيو – Reggio" التى قام جنوده بنهبها، ثم عبر مضايق مسينى وانطلق بحذاء الساحل نحو نابولى. الغريب أنه لم يكن هناك أى رد فعل من جانب نائب الملك الإسبانى، فهل يا ترى كانت قد وصلته أى رسالة سرية من القرصان تعده بعدم التعرض للمدينة فى حال عدم المقاومة؟ على أية حال، لم تمس نابولى بسوء، وأكمل الأسطول طريقه إلى "سبير لونجا[8] – Sperlonga"، التى كانت أقل حظًّا؛ حيث تم أسر صفوة نسائها وحملهن على السفن.

كان بربروسا قد وضع عينه على امرأة بعينها، كان يراها هدية خاصة تليق بالسلطان. كانت "جيوليا جونزاجا – Giulia Gonzaga"، الفاتنة أرملة "فسپاسيانو كولونا – Vespasiano Colonna"، التى كان هناك إجماع على أنها أجمل نساء عصرها. رسم "سيباستيانو ديل پيومبو – Sebastiano del Piombo" و"تيتيان – Titian" پورتريهات لها، وكتب فيها "أريوستو – Ariosto" و"تاسو – Tasso" شعرًا يتغنى بجمالها، وكان لديها بلاط رفيع الثقافة فى قصرها فى "فوندى – Fondi". كانت فوندى

تقع على بعد نحو اثنى عشر ميلًا من تيراسينا، وكان خير الدين يأمل فى الاستيلاء عليها وعلى جيوليا بعملية مفاجئة. لحسن الحظ، كان قد بلغها تحذير قبل دقائق من وصولهم فاستطاعت أن تهرب مع حاجبها، وكانت ما زالت بثياب النوم، وأمرت بقتله بعد ذلك بدعوى استغلاله ظروف تلك المحنة ولأنه كان "وقحًا" معها (ولعله كان كذلك فعلًا بحسب الظروف) وكما كان متوقعًا، كان أن دفعت فوندى الثمن المعتاد.

عاد عدد قليل من السفن إلى القسطنطينية محملًا بالأسيرات من النساء اللاتى كان مصير معظمهن أسواق العبيد التركية، وبالغنائم من المدن المنهوبة. كانت السفن كذلك تحمل الجزء الأكبر من جنود الإنكشارية الذين كان السلطان سليم قد وفرهم – ربما كانوا عائدين بأوامر من سليمان الذى كان قد خرج لمحاربة فارس، وكان فى حاجة إلى كل القوى البشرية التى يمكن أن يضع يده عليها. اتجه الجزء الرئيسى من الأسطول على أية حال إلى تونس. بالنسبة لـ "بربروسا" كانت حملته الإيطالية مجرد خطوة تمهيدية، كانت تمرينًا صغيرًا لا ضرر منه؛ لكى يترك انطباعًا جيدًا لدى السلطان عن أسطوله الجديد بعامة، وقائده الجديد بخاصة. والآن، كان قد حان وقت العمل الأكثر أهمية وجدية: إسقاط "مولاى حسن – Moulay Hassan" وضم مملكته التونسية. وصل بالقرب من الميناء فى السادس عشر من أغسطس، وبدأ القصف بالمدفعية ليكتشف أن مولاى حسن قد تمكن من الهرب. بعد يومين، قام الحاكم الهارب، بواسطة مائة ألف من الجنود المحليين غير النظاميين، بمحاولة فاترة للعودة، ولكنه انسحب مسرعًا عندما فتح القرصان النار مرة أخرى. طوال موسم الشتاء، كان بربروسا حريصًا على أن يشغل رجاله، كانوا يقومون بتقوية دفاعات الميناء وبناء قلعة جديدة تكفى لإيواء حامية من خمسمائة مقاتل.

ما كان ينبغى له أن يربك نفسه، فقد كان هذه المرة شديد التلهف أكثر مما يجب على تحقيق غايته. ربما، وهو يخطط لعملية تونس، لم يقدر رد الفعل المحتمل لشارل الخامس أو لعله قلل من أهميته، وكذلك من قدرة الأمير على الانتقام. ارتكب بربروسا – على أية حال – خطأ جسيمًا، فنظرة إلى الخريطة ستوضح أنه لا يمكن تصور أن يقبل شارل قيامه بضم دولة لا تبعد أكثر من مائة ميل عن الميناءين المزدهرين "تراپانى – Tra-pani" و"مارسالا – Marsala" فى صقلية الغربية، وأبعد من ذلك بقليل عن پاليرمو نفسها. لم يكن مولاى حسن، ذلك اللاهى الساعى وراء الملذات بكل شكل، يمثل أى خطورة. ولكن، بعد أن أصبح بربروسا فى تونس، كانت قبضة الإمبراطور على صقلية قد باتت مهددة... وبشكل خطر. بمجرد أن وصلته الأخبار بدأ التخطيط لحملة كبيرة

لاستعادة المدينة. سوف يحتوى أسطول الغزو على سفن من إسپانيا وناپولى وصقلية وسردينيا ومالطة – حيث كان فرسان سان چون قد استقروا بعد طردهم من رودس – وچنوة؛ ومرة أخرى سيكون أندريا دوريا هو القائد. أبحر الإمبراطور نفسه مع القوة الإسپانية - كانت تقدر بأربعمائة سفينة – من برشلونة فى أواخر مايو 1535 إلى المكان المتفق عليه فى "كاجليارى – Cagliari" فى سردينيا؛ حيث وصلوا فى العاشر من يونيو؛ لتنضم إليهم مائة سفينة أخرى. بعد ذلك اتجهوا جنوبًا فى اليوم الثالث عشر، وفى اليوم التالى اتجهوا نحو المكلأ[9] خارج ميناء تونس.

فى مواجهة أسطول ضخم كهذا، كان خير الدين يعرف أن الأمل كان ضعيفًا فى الاحتفاظ بالمدينة تحت سيطرته. ولأنه لم يكن يريد أن يفقد سفنًا أكثر مما يجب، حرص على إرسال خمسة عشر من أفضلها على امتداد الساحل إلى «بونة – Bône" فى منتصف المسافة إلى الجزائر تقريبًا، لتبقى آمنة هناك كقوة احتياطية. قاتل هو ورجاله ببسالة كعادتهم، ولكن فى الرابع عشر من يوليو – بعد شهر بالضبط من وصول شارل – قام فرسان سان چون بالهجوم على قلعة "لاجوليتا – La Goletta" التى كانت تحمى الميناء الداخلية، وبعد أسبوع كان الاثنى عشر ألف أسير المحتجزين فى المدينة، قد تمكنوا من تحرير أنفسهم والانقضاض على آسريهم السابقين. كانت النتيجة أن ضاعت تونس وكان الدور على بربروسا لكى يفر. انسل من المدينة بصحبة اثنين من زملائه القادة: أيدين رايس وسنان، وبعض رجاله الذين استطاعوا أن يتبعوه، واتجهوا نحو بونة.

عند هذه المرحلة، كان ينبغى أن يأمر شارل جيشه بالقيام بالمطاردة وإجبار خير الدين على معركة ضارية، ولو فعل لكان قد دمر القرصان وجنوده إلى الأبد، ولما كانت سفن الإمبراطور الستمائة قد وجدت صعوبة فى منعه من الهروب بالبحر. ولكن الجنود – وربما البحارة كذلك – كانوا مشغولين بالسلب والنهب كما كانت قواعد الحرب تسمح لهم بالقيام بذلك لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال. بعد موافقته على أن يدفع للإمبراطور جزية سنوية، أعيد مولاى حسن رسميًا إلى قوقعة مدينته الخاوية، وبعد قيام الإسپان بإصلاح وإعادة تحصين لاجوليتا، أعلنوها أرضًا إسپانية وزودها بحامية دائمة. كانت الحملة، بإجماع المسيحيين المنتصرين، ناجحة تمامًا. أصبحت تونس مرة أخرى فى أيد صديقه، وصقلية كانت آمنة، والألوف من شركائهم فى الدين قد تحرروا من الأسر، وربما كان أفضل ما تحقق هو الهزيمة النهائية التى حاقت بـ "بربروسا" الذى لم يكن قد ذاق طعم الهزيمة من قبل. الآن، كانوا يستطيعون كلهم العودة إلى أوطانهم المختلفة التى جاؤوا منها، راضين تمامًا بما حققوا.

أو هكذا كانوا يعتقدون. قام الإمبراطور بإرسال أندريا دوريا غربًا فى حملة على امتداد الساحل بحثًا عن القرصان الهارب والإتيان به لمحاسبته. لم يكن يعرف رجله حق المعرفة. كان مما يتسق مع شخصية بربروسا أنه بدلًا من أن ينسل عائدًا إلى الجزائر، كما كانوا يتصورون أنه لا بد فاعل، بقى بعض الوقت فى بونة لكى يجمع المزيد من السفن والمؤن قبل أن ينطلق إلى جزر البليار. عندما اقترب أسطوله، ظنه سكان الجزر جزءًا من الأسطول الإمبراطورى عائدًا إلى برشلونة، وهو الانطباع الذى تأكد عندما رأوه يرفع الأعلام الإمبراطورية، ولذا لم تكن هناك مقاومة عندما رسا بهدوء فى ميناء "ماهون – Mahon" على الطرف الجنوبى الشرقى من "مينوركا – Minorca". كانت هناك سفينة تجارية برتغالية راسية قامت بإطلاق نيرانها تحية، ثم فجأة فتح الأسطول النار. قام البرتغاليون الذين فوجئوا تمامًا بالدفاع عن أنفسهم قدر استطاعتهم، ولكن تم أسر سفينتهم بسهولة. لم يستغرق الأمر أكثر من ساعات قليلة قبل أن يبدأ نهب وتدمير الميناء والمدينة كلها.

** ** **

فى أواخر صيف 1553، قام بربروسا برحلته الثانية إلى القسطنطينية. لم يعد إلى شمال أفريقيا بعد ذلك. أمضى سنوات عمره الأخيرة قائدًا للأسطول العثمانى أكثر منه قرصانًا. كان مربكًا لأعداء السلطان وبخاصة الإسبان والڤينيسيين والچنويين. حتى ذلك الحين كان مسموحًا لڤينيسيا بمزاولة نشاطها التجارى دون التعرض لها. ويعتقد أن إبراهيم باشا الوزير الأول لدى سليمان، كان مواطنًا ڤينيسيًّا بالميلاد على ساحل دالماشيا، ولكن المؤكد أنه بعد تحوله القسرى إلى الإسلام، كان ما زال يحمل فى قلبه ضعفًا عاطفيًّا لڤينيسيا، وكان يبذل كل ما فى وسعه لاحترام ممتلكاتها فى المتوسط. إلا أن إبراهيم قتل فى 1536 بتحريض من "روكسلانا – Roxelana" زوجة سليمان التى كانت تريد المنصب لصهرها رستم باشا[10]؛ ومنذ ذلك التاريخ ستصبح «سيرينيسيما – Serrinissima» عرضة للهجوم مثلما كانت إسپانيا وچنوة دائمًا.

فى ذلك العام نفسه، قام أسطول إمبراطورى بقيادة أندريا دوريا بالاستيلاء على عشر سفن تجارية تركية بالقرب من مسينى، وتبع تلك الضربة الناجحة إغارة قوية على جزء من الأسطول العثمانى بالقرب من "پاكسوس – Paxos" فى البحر الإيونى. أصر السلطان على الثأر للإهانتين ووضع خطة جسورة لذلك. فى ربيع 1537 سيقوم هو شخصيًّا على رأس جيش من عشرين ألف مقاتل ويتقدم عبر تراقيا نزولًا إلى شبه جزيرة البلقان حتى "ڤالونا – Valona" فيما يسمى الآن ألبانيا؛ فى الوقت نفسه

سيبحر بربروسا بأسطول من مائة سفينة إلى الميناء نفسه. هناك سينزل الجيش ويتقدم حتى برنديزى، التى كان قد تم رشوة حاكمها فوعد بأن يفتح أبواب المدينة. لسوء حظ سليمان، كان أن فشلت الخطة عندما تم اكتشاف خيانة حاكم المدينة فى الوقت المناسب. بوجود جيشه وأسطوله فى الأدرياتيكى، كان على السلطان أن يستقر بسرعة على خطة بديلة. وبينما كان يتدبر الأمر، قام بربروسا بسلسلة من الإغارات الخاطفة على امتداد ساحل أبوليا؛ ليعود بأحمال الغنائم المعهودة وبأعداد من العبيد، ليجد أن سيده قرر حصار جزيرة "كورفو – Corfu".

كورفو هى الأكبر بين جزر البحر الإيونى، وكانت مستعمرة ڤينيسية منذ الحملة الصليبية الرابعة.[11] فى تقسيم الأراضى البيزنطية السابقة، الذى تم فى 1204، كان الدوج العجوز «داندولو – Dandolo» قد ادعى لنفسه نصيبًا كبيرًا، ولم يكن لدى الجمهورية أى شهية حقيقية ولا وسيلة لهضم ذلك. لم يكن أمامها سوى أن تترك الجزر الإيونية للمغامرين اليونانيين والإيطاليين الذين كانوا يحتلونها. منذ ذلك الحين كانت قد تناوبت على كورفو أياد كثيرة. فى البداية احتلتها أسرة "ڤينيير – Venier" الڤينيسية، وفى أوقات مختلفة كانت تحت سيطرة حكومة "إمپيريوس – Empirus" و"مانفريد – Manfred" الصقلى وبيت آل أنجو، ثم عادت لڤينيسيا فى 1386.

على خلاف كل الجزر المجاورة لها فيما عدا باكسوس، لم يكن العثمانيون قد استولوا عليها يومًا ما (وللمصادفة لم يحدث ذلك قط). فى السنوات الأخيرة كانت محمية بوضعها الڤينيسى، ولكن إبراهيم باشا كان قد مات، وربما كانت تبدو فريسة سهلة لسليمان وجيشه الجرار. أنزل جيشه كله بكل عتاده – نحو ثلاثين مدفعًا بما فى ذلك مدفع هائل (يطلق قذائف تزن خمسين رطلًا) كان الأضخم فى العالم آنذاك – وأحاط بالقلعة الرئيسية فى المدينة وبدأ يدكها لكى تستسلم.

لحسن الحظ كانت دفاعات كورفو قوية، كانت المدينة فى منتصف المسافة على الساحل الشرقى للجزيرة، تقع خلف وتحت القلعة المرتفعة التى تتوج شبه الجزيرة الصخرية البارزة نحو شواطئ ألبانيا وتسيطر على طرق الاقتراب برًا وبحرًا. بداخل تلك القلعة كانت توجد حامية من نحو ألف إيطالى ونفس العدد تقريبًا من أهالى كورفو، بالإضافة إلى أطقم بعض السفن التى تصادف وجودها فى الميناء آنذاك. كان مخزون الذخيرة والغذاء كبيرًا والروح المعنوية ممتازة. كان لا بد من أن يكون الأمر كذلك؛ لأن المدافعين وجدوا – ويا لهول ما وجدوا – أنهم لم يكونوا فى مواجهة هجوم بحرى فحسب، وإنما عملية عسكرية بحرية وبرية مخططة جيدًا.. وعلى نطاق واسع.

كان الدمار الذى لحق بالمزارعين المحليين وغيرهم من المواطنين العاديين مروعًا، ولكن القلعة ظلت صامدة إلى حد ما، بالرغم من القصف المتواصل بالمدفعية التركية برًّا وبحرًا، والمحاولات العديدة لاقتحامها. ثم كان من حسن الحظ أن هطلت الأمطار. كانت كورفو مشهورة دائمًا بقوة عواصفها، ويبدو أن تلك التى هبت عليها فى أوائل سبتمبر 1537 كانت استثنائية حتى بالمقاييس المحلية. كان من المستحيل تحريك المدافع فى الطين، انتشرت الديزنطاريا والملاريا فى معسكرات الأتراك، وبعد حصار دام ثلاثة أسابيع، أقلع الأسطول العثمانى فى الخامس عشر من سبتمبر تاركًا خلفه حامية صغيرة تحتفل بانتصارها.. إن كان لنا أن نقول ذلك.

ولكن الحرب لم تنته. كان أسطول بربروسا ما زال نشطًا، والموانئ والجزر المتوسطية التى كانت ما زالت فى أيدى الڤينيسيين لم تكن منيعة مثلما كانت كورفو. وبالرغم من أن معظمها كان يعتبر، من الناحية النظرية، تحت حماية الجمهورية، كانت تحكمها عائلات خاصة ولم يكن لديها أى وسيلة لدرء أى هجوم متواصل. إلا أن بربروسا لم يكن يعرف الرحمة. سقطت كلها واحدة تلو الأخرى. "ناپوليا – Napu-lia" و"مالڤاسيا – Malvasia" (الآن "مونمڤاسيا – Monemvasia" على الساحل الشرقى من الپيلوپونيز) – وبعد ذلك جزر "سكيروس – Skyros" و"أيجينا – Ae-gina" و"پاتموس – Patmos" و"إيوس – Ios" و"پاروس – Paros" و"أستيپالايا – Astipalaia"، وكانت كلها أقرب إلى الأراضى التركية منها إلى ڤينيسيا، التى كان أسطولها محاصرًا بواسطة حشد من السفن العثمانية، فى المناطق الضيقة من الأدرياتيكى.

هكذا تم تركيع أكثر الجمهوريات هدوءًا وسكينة. كان خير الدين بربروسا هو المسؤول عما لحق بها من إذلال ومهانة، ولا عجب فى أنه عندما عاد إلى القسطنطينية استقبلوه استقبال الأبطال، وكما لم يحدث من قبل. ولكنه أعطى مثلما أخذ: أربعة آلاف قطعة ذهبية، ألف امرأة شابة، ألف وخمسمائة صبى. كانت هناك كذلك هدية سخية للسلطان: أربعمائة صبى آخرين فى لباس قرمزى يحملون آنية من الذهب والفضة وبالات الحرير النفيس وأكياسًا مطرزة مكتنزة بالعملات الذهبية.

** ** **

أما بالنسبة للڤينيسيين، فعندما كان بربروسا المنتصر يبحر فى القرن الذهبى كان انتصار كورفو قد تبدد وضاع بريقه، كان كل أسبوع يأتيهم بأخبار عن هزائم جديدة وخسائر جديدة. فى 1538 كان بربروسا مرة أخرى على طريق الحرب؛ يروع

أولًا جزر "سكيروس – Skyros" و"سكياتوس – Skiathos" فى "سبوراديس – Sporades"، ثم أندروز فى "سيكلاديس – Cyclades" وغيرها الكثير من الجزر الصغيرة المجاورة. أما بالنسبة للجزر الأكبر حجمًا والأكثر أهمية، ففرض عليها جزية سنوية. كانت الجزر الصغيرة مجبرة على تقديم القوة البشرية اللازمة للجاليات؛ حيث كان الأسطول الكبير الذى يقوم ببنائه فى حاجة إلى آلاف المجذفين، وكان هناك نقص شديد فيهم. بعد ذلك اتجه شمالًا نحو كريت التى كانت ما زالت المستوطنة الڤينيسية الرئيسية فى الحوض الشرقى للمتوسط. كانت تحصينات العاصمة (كانديا – Candia) تبدو منيعة، ولكن ما يزيد عن ثمانين قرية على امتداد الساحل، وعددًا كبيرًا من الجزر الصغيرة النائية لم تكن حسنة الحظ كذلك.

فى الوقت نفسه، كانت القوى الأوروبية تبدو عاجزة عن عقد تحالفات لا تسممها الشكوك المتبادلة والخلافات الصغيرة حتى قبل أن تبدأ. فى صيف 1538 جرت محاولة من هذا القبيل عكف عليها الإمبراطور والبابا وڤينيسيا، مع حماسة شديدة لحملة صليبية ودرجة من التفاؤل، لدرجة أن المشاركين وضعوا خططًا سابقة لتقسيم الإمبراطورية العثمانية بينهم؛ لم تنته كما كانوا يتصورون بالاستيلاء على القسطنطينية، وإنما بانتصار عدو لـ "بربروسا".

حدث أنه بينما كان يصول ويجول على طول الساحل الجنوبى لـ "كريت"، أن جاءته أخبار عن أسطول مشترك كان متجهًا صوب الجنوب فى الأدرياتيكى نحو "الجزر الإيونية – Ionian Islands". كانت القوة الڤينيسية وحدها مكونة من إحدى وثمانين سفينة بعضها شراعى ومعظمها جاليات ذات مجاذيف. أما إسهام البابا فكان عبارة عن ستة وثلاثين جالية أخرى بقيادة الڤينيسى "ماركو جريمانى – Marco Grimani"، ثم لحقت بذلك كله بعد وصولهم إلى كورفو ثلاثون سفينة أخرى من إسپانيا، ومع ذلك لم يكن كل هذا الحشد سوى طليعة الأسطول؛ إذ كان من المتوقع أن تصل بعد وقت قصير تسع وثلاثون سفينة أخرى، مرسلة من قبل الإمبراطور وكانت قد تأخرت انتظارًا لوصول سلاحه السرى: خمسون جالية كبيرة ذات أشرعة مربعة، مجهزة بتسليح ثقيل، كانت قد أثبتت كفاءتها فى الأطلنطى والعالم الجديد، ولم يسبق لها أن ظهرت فى البحر الأبيض المتوسط. كان المتوقع أن يعهد شارل بقيادة هذه القوة كلها للأدميرال أندريا دوريا، الذى كان محل ثقته.

لمواجهة ذلك، استطاع بربروسا أن يحشد نحو مائة وخمسين سفينة مما لديه، تحت قيادة دراجوت وسنان وعدد آخر من القراصنة السابقين ذوى الخبرة والشجاعة. هنا

كانت أيضًا قوة كبيرة إذا كان الكم هو كل شيء، ولكنها لم تكن ندًا للخصم. كان الأسطول التركى متحدًا بينما لم يكن المسيحى كذلك على الإطلاق. لا أحد من الڤينيسيين كان سيقبل طواعية - من البداية – أن يكون قائد الأسطول من أبناء جنوة، كذلك لم يكن هناك أى ود مفقود بين الإيطاليين والإسبان. كان هناك كذلك خلاف حول الأهداف البعيدة. كان "كاپيللو – Cappello"، قبل أى شيء مهتمًا بحماية الجزر الإيونية التى كانت تتحكم فى مدخل الأدرياتيكى، أما اهتمام "جريمانى – Grimani" الرئيسى فكان الساحل الغربى لإيطاليا وموانئ "شيڤيتاڤيكيا – Civitavecchia" و"أوستيا – Os-tia" وروما نفسها، وهى على بعد أميال قليلة من أوستيا أعلى التيبر. لم يكن الإسبان مهتمين بشيء من ذلك كله. إسبانيا بعيدة جدًا. لا شك أنهم كانوا يريدون أن يلقنوا الأتراك درسًا، وبعد ذلك كانوا – قبل أى شيء – يريدون العودة إلى بلادهم بأى جائزة يمكن الحصول عليها. الخلاف باختصار، كان يمكن احتواؤه ولكن النفوس لم تهدأ بسبب تأخر دوريا وأسطوله، وهو ما أدى إلى استمرار حالة السكون من أيام إلى أسابيع.

وأخيرًا لم يكن ماركو جريمانى يستطيع أن يتحمل أكثر من ذلك، فقام بقيادة الأسطول البابوى وخرج من كورفو متجهًا جنوبًا صوب "پريڤيزا – Preveza" عند مدخل "جون آرتا – Arta". كان ذلك المنفذ الضخم للبحر الإيونى فى الواقع خليجًا متسعًا أكثر منه جونًا. يمتد على مساحة مائتين وخمسين ميلًا مربعًا، وتمر به قناة ضيقة متمعجة فى مناطق لا يزيد اتساعها عن ربع الميل. كانت بذلك توفر ميناء طبيعيًا غير عادي، وكان هدف جريمانى هو أن يقنع نفسه بأن الأسطول التركى لم يكن قابعًا هناك فى الانتظار. اتضح أن الأمر كان على العكس من ذلك، من ناحية أخرى كانت قلعة پريڤيزا محمية تمامًا وعازمة على القتال، وأصابت مدفعيتها المعتدين بخسائر كبيرة قبل أن يلوذوا بالفرار.

لو أن جريمانى كان قد أخر حملته أيامًا قليلة لتأكدت أسوأ مخاوفه، لم يكد أسطوله يغيب فى الأفق الشمالى حتى أبحر أسطول بربروسا من الجنوب متجهًا صوب الجون مباشرة، وهنا بالقرب من "أكتيوم – Actium"، عند نفس النقطة التى تقابل فيها أوكتاڤيان ومارك أنتونى قبل ألف وخمسمائة وسبعين عامًا، بدأ يستعد للمعركة.

لم يصل أندريا دوريا بغلايينه إلى كورفو إلا فى الثانى والعشرين من سبتمبر. آنذاك، كانت أخبار تحركات حملة بربروسا قد وصلت الجزيرة، ويوم الخامس والعشرين اتجه كل الأسطول إلى مكان قريب من پريڤيزا. ولكن ماذا كان عليه أن يفعل بعد ذلك؟ لو أنه أبحر فى القناة الضيقة فى طابور واحد تحت قصف مدافع القلعة، ثم قصف الأسطول

التركى بعد ذلك، لكانت عملية انتحارية؛ فى مثل تلك الظروف ربما كان الأفضل أن يقوم بالهجوم على القلعة ويستولى عليها ويوجه مدافعه نحو الأعداء. إلا أن دوريا رفض التفكير فى هذا الاتجاه. أى خسائر كبيرة على البر سوف تضعف أسطوله بدرجة كبيرة لو تبع ذلك معركة بحرية؛ كان يعرف أيضًا أن ذلك كان موسم العواصف الاستوائية الشديدة عندما يبلغ غدر المتوسط أقصى مدى له. فى حال حدوث عاصفة مفاجئة - وكانت عواصف سبتمبر يمكن أن تهب فجأة وبعد أن تكون السماء زرقاء صافية – فلربما اضطر لسحب الأسطول إلى شاطئ محمى نوعًا ما من الرياح، تاركًا أى قوة برية دون دعم. كان الوضع أقرب إلى الورطة.

لهذا السبب، ودون شك فى ذلك، أعطى دوريا أوامره ليلة السادس والعشرين لرفع المراسى والإبحار جنوبًا فى المياه التركية. لن يكون أمام بربروسا، الذى كان يعى تمامًا قوة عدوه ولكنه يجهل وجهته، لن يكون أمامه من خيار سوى أن يطارده، ولربما تقابل الأسطولان فى عرض البحر. إلى هذه الدرجة كان دوريا محقًّا؛ إذ عندما أبحرت سفنه بالقرب من الساحل الغربى لجزيرة "ليوكاس – Leucas" ظهر الأتراك من خليج آرتا لكى يتبعوه. كانت مشكلته أن أسطوله الذى كان جزء منه جاليات ذات مجاذيف، وجزء آخر غلايين شراعية، كان من المستحيل أن تكون كل سفنه معًا أثناء الإبحار لاختلاف إمكانياتها الفنية. عندما تكون الرياح مواتية كانت الغلايين تتقدم بسرعة، وعندما تتغير فجأة أو تهدأ، كانت الجاليات إما أن تسبقها أو تنتظرها حتى تلحق بها. وهكذا عندما كانت سفينة القيادة تدور حول الحافة الجنوبية الغربية لجزيرة ليوكاس، كانت بعض الغلايين الثقيلة هاجعة على مسافة أميال قليلة من نقطة انطلاقها.

تغيرت الرياح بالفعل. صباح الثامن والعشرين، كانت تهب من ناحية الجنوب، واصطف الأسطول فى خط على امتداد الساحل الغربى للجزيرة. من المؤكد أن تلك كانت اللحظة المواتية لـ دوريا لكى يعود وكل أشرعته فى اتجاه الشمال؛ ليعيد تجميع سفنه ويقابل الأتراك رأسيًا. ولكنه بقى حيث كان، وهو ما لا يمكن تفسيره. فى الوقت نفسه قام الأسطول العثمانى – وكانت كل سفنه تقريبًا بمجاذيف – بتطويق الطرف الشمالى من ليوكاس، وكان بربروسا فى المنتصف ودراجوت يقود الجناح الأيمن، وصلاح رايس الأيسر. وهناك أمامهم مباشرة، كانت السفينة الأكبر والأقوى والأثقل – فى مثل تلك الظروف – ومن ثم الأكثر بطئًا فى كل سفن الحلفاء. كانت تعرف بـ "غليون ڤينيسيا"، تحت قيادة قبطان من ألمع شباب الجمهورية هو "أليساندرو كوندلمر – Alessandro Condulmer"، ومسلحة بكمية كبيرة من المدفعية – بقدر ما قد

يوجد فى القلعة الساحلية عادة – وكانت قادرة على الدفاع عن نفسها، ولكن حيث إنها كانت مستترة بجبال ليوكاس، كانت ثابتة فى مكانها. أرسل قبطانها قاربًا سريعًا إلى قائده يطلب نجدة عاجلة.

قام بربروسا بالهجوم، ولكن أداء كوندلمر كان باهرًا، انتظر حتى أصبحت السفن التركية المهاجمة داخل مرمى النيران، ثم بدأ يقصفها واحدة تلو الأخرى. إلا أنه كان يعرف أنه لن يستطيع الصمود إلى ما لا نهاية ضد عدو كهذا. كان كل شىء يتوقف على سرعة وصول جاليات دوريا، ولكنها لم تصل. عندما تكون الرياح من خلفهم، وهو ما كان فعلًا، كان يمكن أن تستغرق رحلتهم ثلاث ساعات على الأكثر، ونحن نعرف كذلك أن " ڤينسنزو كاپيللو – Vincenzo Cappello" و"ماركو جريمانى – Marco Grimani" كانا يحثان قائدهما بقوة لكى يبحر بأسطوله كاملًا لنجدتهما؛ وعندما وافق فى النهاية كانت قد بدأت ظلمة أول الليل، وحتى آنذاك أصر على إقلاع الأسطول متخذًا مسارًا قوسى الشكل فى اتجاه الغرب.

وهكذا كان على كوندلمر أن يحارب معتمدًا على نفسه؛ ليثبت بالمصادفة أن الغليون القوى مع طاقم جيد التدريب منضبط حتى وإن كان لا يتحرك، كان سلاحًا أكثر فعالية من أى عدد من الجاليات ذات المجاذيف. وبناء على ذلك، فإنه وسفنه ومعظم رجاله قد نجوا. ولكنه لم يستطع أن يحسم نتيجة المعركة، وعندما أعاد توجيه سفنه إلى بريڤيزا عند الغروب كان قد استولى على الأقل على جاليتين، واحدة ڤينيسية والأخرى من الأسطول البابوى وخمسة سفن شراعية إسبانية. كان يمكن لـ دوريا، والرياح خلفه، أن يقوم بمطاردة عدوه عند أول ضوء فى الصباح التالى. كانت قواته أفضل ونيرانه أكثر تفوقًا. كان يمكنه، دون صعوبة على الإطلاق، أن يقلب الموازين وأن ينزل خسائر فادحة بالأسطول التركى، إلا أنه بدلًا من ذلك كله تجاهل الأمر تمامًا واتجه عائدًا إلى كورفو.

ترى لماذا كان تصرف أبرز قائد بحرى چنوى على ذلك النحو؟ بكلمات مؤرخ بحرى فرنسى – كان هو الآخر أدميرالا - : "لقد قام الإنجليز بإعدام الأميرال "بينج – Bying" فى 1756 لأسباب أوهى من ذلك".[12] هل كان ذلك مجرد حقد من دوريا على ڤينيسيا؟ وحيث إنه لم يكن جبانًا أو أحمق، كان لا بد من أن تكون هناك خيانة أو خبث. أيًا كان السبب، فإن رفضه الاشتباك مع عدد أقل منه قوة بكثير قد أضاع فرصة انتصار حاسم. وبسببه فقط كان الانتصار من نصيب بربروسا، أما الخاسر المباشر، دون أدنى شك، فكان ڤينيسيا.

كان قد بات واضحًا الآن أن ڤينيسيا لا بد من أن تدخل فى مفاوضات سلام مع السلطان بأى شروط تستطيعها. بين كل خسائرها الأخيرة، كان أكثر ما أصابها بالشلل ما حدث لـ «نوپليا – Nauplia» و"مالڤاسيا – Malvasia"، آخر مراكزها التجارية مع البيلوپونيز، التى كانت مستعدة لدفع فدية (ثلاثمائة ألف دوكاتية) لاستعادتها. كان ذلك مبلغًا كبيرًا بكل المقاييس، وكان يُعتقد أن سليمان سيكون سعيدًا ويقبل بذلك. اتضح أنه لم يكن من ذلك النوع، وفى 1540 كانت ڤينيسيا مضطرة لقبول اتفاقية بشروط أكثر قسوة مما كانت تتصور. كان المبلغ الذى عرضته من قبل مطلوبًا الآن منها كتعويض عام، أما مسألة عودة نوپليا ومالڤاسيا أو غيرها من المناطق التى فقدت فى السنوات الثلاث السابقة، فلم تكن مطروحة للنقاش. فى المستقبل كذلك، لن يكون مسموحًا للسفن الڤينيسية بدخول الموانئ التركية أو مغادرتها دون تصريح، كانت ضربة لن تفيق منها الجمهورية، ولكنها كانت تعبر عن وضع يحمل المزيد من القلق للبحر الأبيض المسيحى. فى كل مكان، كان يزداد وضوحًا أن زمن التوسعات قد انتهى، وأن أيام الانكماش بدأت. كان شكل التجارة يتغير بسرعة، وحتى بالرغم من أن الآثار الاقتصادية غير المواتية لم تكن بالسوء الذى كان يخشاه المتشائمون، لم يكن هناك بوادر تؤدى إلى التفاؤل – كان "التركى" على الأبواب، يزحف، شهيته مفتوحة؛ أما الغرب المسيحى فكان قد فشل فى مواجهته بأى قدر من المقاومة الجماعية.

** ** **

بربروسا الآن فى الخامسة والخمسين تقريبًا. ما زال أمامه نحو سبع سنوات فى خدمة سلطانه، سوف يبرهن فيها على ذكائه كما كان دائمًا، ولكنه من الآن فصاعدًا سيكون عليه أن يقاتل إلى جانب حليف جديد... غير متوقع. فرانسيس الأول ملك فرنسا!

قبل عامين؛ أى فى 1536، كنا نرى أسطولًا تركيًا يقضى فصل الشتاء فى ميناء مرسيليا، وفى السنوات التالية كانت العلاقات بين القوتين – وهو ما كان مثيرًا لامتعاض بقية أوروبا المسيحية وعدد كبير من الفرنسيين أنفسهم فى الحقيقة – تبدو أكثر مودة على نحو مضطرد. بالنسبة لـ "فرانسيس"، كان هناك الآن حليف ثمين على استعداد أن يحارب له معركته مع الإمبراطور، وبالنسبة لـ "سليمان المعظم"، كانت تلك فرصة نادرة لشق صفوف العالم المسيحى، على نحو غير مسبوق.

ثم كان فى 1543 أن تحرك هذان الحليفان غير المتوقعين ضد عدوهما المشترك، ولكنهما عندما فعلا ذلك تحركا بقوة. فى مطلع صيف ذلك العام نفسه، قام أكثر من مائة سفينة تركية بالهجوم على شارل فى الجنوب الإيطالى، أكثر أماكن وجود قواته ضعفًا.

اندفعت السفن جنوبًا لتكتسح ريجيو (حيث قام بربروسا بأسر ابنة حاكمها، ثم تزوجها بعد ذلك، كما تقول إحدى الروايات)، ثم تعبر مضايق مسينى وتهجم، بلا رحمة، على ساحل كالابريا، مع عمليات سلب ونهب أينما ذهبوا. عند وصولهم إلى "جاييتا – Gaeta" اقتحموا القلعة واستولوا عليها ونشروا الخراب والفوضى فى المدينة. بعد أيام قليلة ظهروا عند مصب نهر التيبر؛ ليقتحموا شيڤيتاڤيكيا قبل أن يتجهوا صوب الشمال الغربى إلى مكان لقاء فى مرسيليا، كان قد سبق الاتفاق عليه مع الفرنسيين.

إلا أن المتاعب بدأت. لم يكن هناك أى دليل على وجود مخازن ومواد تموينية، كان بربروسا قد طلبها وكان يعتمد عليها، وهو ما كان فرانسيس قد وعده بأن يجدها فى انتظاره هناك. حاول ممثل الملك وقائد جالياته دوق إنچيا – Duke of Enghien أن يعتذر، وكذلك كل من حاول بربروسا الاتصال بهم من كبار القادة الفرنسيين، الذين كانوا يظهرون للقرصان السابق احترامًا وتوقيرًا مبالغًا فيه. إلا أن بربروسا لم يكن ليخفى استياءه ولا احتقاره لذلك الإهمال الذى لا يغتفر. كان غاضبًا لدرجة أنه رفض اقتراح إنچيا بأن يبحر الأسطول المشترك شرقًا بحذاء الساحل إلى "نيس – Nice". هذه المدينة، التى كانت تنعم بالسلام والرفاهية منذ أواخر القرن الرابع عشر تحت حكم دوقات ساڤوى، أصبحت هى سبب وموضوع الخلاف بين شارل وفرانسيس منذ بدأت المنافسة بينهما. كانت هذه المدينة تواجه الآن أعنف قصف فى تاريخها.

إذا كان هناك فى تلك المدينة من يتذكر حصار أغسطس 1543، فلا بد من أن يكون ذلك بسبب بسالة بطلتها المحلية. فى الصباح الباكر يوم الخامس عشر من أغسطس قام بربروسا وإنچيا بفتح ثغرة فى سور المدينة بالقرب من أحد الأبراج الرئيسية، وكانت الحامية على وشك الفرار عندما قامت امرأة محلية تدعى "كاترينا سيجورانا – Caterina Segurana" وعدد من الرجال الشجعان الذين دعتهم لمساعدتها، بسد الطريق أمام أفراد الحامية وأجبرتهم على التوقف. تم إنقاذ المدينة مؤقتًا، ولكن كان كل ما فعلته كاترينا أن أخرت ما كان حتميًا، لبعض الوقت. بعد أسبوع واحد فحسب، استسلم القائد رسميًا يوم الثانى والعشرين من أغسطس. بهذا الفعل، كان من حقه – كما كان متوقعًا دون شك – أن يحصل على شروط غير مهينة، غير أن المدينة، فى غضون يومين، كانت عرضة للسلب والنهب... ثم أضرمت فيها النيران. سيقع اللوم، حتمًا على الأتراك، ولكن المؤكد أن الجنود الفرنسيين كانوا هم المسؤلين. كان ذلك أيضًا هو رأى "الماريشال دى ڤييڤى – Maréchal de Vieilleville" عندما أملى مذكراته فى 1571، قبل وفاته بوقت قصير:

«نهبت مدينة نيس وأحرقت، وهو أمر لا يمكن أن يكون بربروسا أو المسلمون مسؤولين عنه؛ لأنه عندما حدث ذلك كانوا بعيدين... ألقيت مسئولية هذه الفظائع على بربروسا المسكين لحماية شرف فرنسا.. وشرف المسيحية فى الحقيقة».

وبالرغم من أن الأسطول العثمانى عاد إلى طولون للبقاء هناك حتى انقضاء فصل الشتاء، فإن الاستيلاء على نيس، كان أول وآخر عملية مشتركة بين التحالف الفرنجى – التركى. فى 1544، عقد فرانسيس حلفًا مع عدوه القديم شارل الخامس، وعاد خير الدين بربروسا إلى القسطنطينية عودة الأبطال – ناهبًا ومخربًا فى طريقه «إلبا – Elba» و"بروكيدا – Procida" و"إسكيا – Ischia" و"ليبارى – Libari" و"الجزر الإيولية – Aeolian Islands"، وكانت كلها أراضى إمبراطورية. بعد عامين؛ توفى وكان فى الثالثة والستين. بعد فترة قصيرة، أصبح حسن - الابن الوحيد المعروف لنا - حاكمًا على الجزائر، المملكة التى كان أبوه وعمه قد أسساها، ولكن الخليفة الحقيقى للرجل العجوز كان "دراجوت – Dragut"، الذى كان نائبًا له لفترة طويلة، والمعروف بـ "الخريطة الحية للبحر الأبيض المتوسط"، وهو الذى أكمل عمله. كان دراجوت هو الذى انتزع طرابلس من أيدى فرسان سان چون[13]، وهو الذى بعد تسع سنوات سيهزم أسطولًا إسپانيًا، كان قد أرسل لإزاحته هزيمة منكرة. بعد ذلك سيكافأ بسلطنة طرابلس، لن يعلق سيفه قط: ففى 1565، وهو فى الثمانين من العمر، سيقتل فى الميدان أثناء حصار مالطة.

أما حصار مالطة هذا... فتلك قصة أخرى.

هوامش الفصل الخامس عشر

(1) الجاليوت: قارب مفتوح، على كل جانب منه نحو سبعة عشر مجذافًا، وعلى كل مجذاف اثنان أو ثلاثة مجذفين. (المترجم)

(2) أى نقطة ضعفه. (المترجم)

(3) أسطول حربى ضخم. (المترجم)

(4) كان قد فقد ذراعه اليسرى فى معركة سابقة، كما ورد فى بداية هذا الفصل. (المترجم)

(5) بايلرباى – كلمة تركية تعنى "باى البايات" وهو لقب ومركز إقطاعى. كان البايلرباى، إبان الإمبراطورية العثمانية، يحكم إقليمًا. (المترجم)

(6) حكومة الإمبراطورية العثمانية.

(7) حيث إن تعدد الزوجات كان هو القاعدة، لن يكون هذا العدد من الإخوة فى أسرة واحدة مثيرًا للدهشة، بل ربما يكون العكس.

(8) حيث كان للإمبراطور "تيبيريوس – Tiberus" فيللا هناك، وقام بتحويل كهف مجاور (يمكن رؤيته اليوم) إلى قاعة للولائم، وذات ليلة (حسب رواية "سيوتونيوس – Suetonius")، بينما كان يولم لرفاقه، انهار جزء من السقف فجأة ليقتل عددًا من ضيوفه ومن رجال الخدمة، إلا أن الإمبراطور نجا.

(9) المكلأ – roadstead: موضع بالقرب من الشاطئ تستطيع السفن الرسو فيه. (المترجم)

(10) هناك تخليد لكليهما فى إسطنبول الحديثة: إبراهيم باشا بقصره على الجانب الشمالى من ميدان سباق الخيل (الآن متحف الفن التركى والإسلامى)؛ ورستم باشا بأحد المساجد الصغيرة الأنيقة فى المدينة، الذى بناه المعمارى الكبير سنان باشا فى 1561. جدرانه مغطاة ببلاط إزنك الرائع.

(11) انظر الفصل الرابع.

(12) انظر: "Doria et Barbarousse", Jurien de la Gravière, Paris 1886" والاقتباس عن: The Sultan's Admiral. (وحكم حكم الإعدام قد نفذ بحق بينج فى 1757).

(13) كانت طرابلس قد سقطت فى 1510 فى يد الإسبان، الذين أعطوها لفرسان سان جون لحمايتها.

الفصل السادس عشر
مالطة وقبرص

• مالطة: 1556 • الأسطول يظهر: 1565 • الهجوم على سان إلو: 1565 • تأسيس ڤاليتا : 1565 • قبرص تحت الخطر: 1570 • شقاق متحالف: 1570 • قبرص تحت سيادة ڤينيسيا: 1570 • الاستيلاء على نيقوسيا: 1570 • مصير براجادين: 1570

يبدأ تاريخ مالطة – حقيقة – بالفينيقيين نحو سنة 800 ق.م، ولعله من المثير للدهشة ألا تكون هناك مستوطنة يونانية على الجزيرة. برزت أهمية مالطة فى «الحروب البونية – The Punic Wars» وقد تصارع عليها كل من روما وقرطاج، اللتان تناوبتا السيطرة عليها عدة مرات، إلى أن سقطت فى يد روما أخيرًا فى 218 ق.م.

على مدى الألفية التالية، ونصف الألفية بعدها، كان يمكن التنبؤ بتاريخها: رومانى، بيزنطى، عربى، نورمندى. أول الحكام النورمنديين لصقلية، "الكونت روچر الأول – Count Roger I"، فتحها فى 1090، وبحسب التقاليد قطع جزءًا من رايته القرمزية وأعطاه للمالطيين ليكون علمًا لهم، ولما وجدوا ذلك صغيرًا أضافوا إليه جزءًا أبيض. الأحمر والأبيض مع إضافة الصليب الچورچى الذى منحه الملك چورچ السادس للجزيرة؛ اعترافًا ببطولتها فى الحرب العالمية الثانية، هو لون علمها إلى يومنا هذا.

مع انهيار صقلية النورمندية فى أواخر القرن الثانى عشر، مُنِحت مالطة كإقطاعة لأمير البحر الأعظم فى البلاد، إلا أنها سقطت بعد وقت قصير فى يد "شارل الأنچوى – Charles of Anju"؛ ثم بعد "صلوات المساء الصقلية – The Cicilian Vespers"، سقطت فى يد الأراجونيين؛ وحوالى سنة 1250، قام الملك الأراجونى چيمس الأول بطرد جميع المسلمين – الذين كانوا يشكلون حتى ذلك الحين غالبية السكان – وبقيت الجزيرة تحت الحكم الإسبانى إلى أن أهداها شارل الخامس للفرسان فى 1530. بعد خمس وثلاثين سنة بالتحديد، كان أن وجدت الجزيرة نفسها فى الوسط من مسرح البحر الأبيض المتوسط.

** ** **

فى المشهد السياسى الدولى، فى خلال السنوات التسع عشرة بين موت خير الدين بربروسا فى 1546 وحصار مالطة فى 1565، حدث تغير رئيسى فى طاقم اللاعبين على المسرح. هنرى الثامن ملك إنجلترا وفرانسيس الأول ملك فرنسا، ماتا بفاصل شهرين بينهما فى 1547؛ وفى 1556 تنازل الإمبراطور شارل الخامس عن العرش وذهب إلى دير "أوستى – Yuste" فى "إكستريمادورا – Extremadura"، وبعد عامين.. إلى القبر. ترك إسبانيا لابنه فيليب الثانى والإمبراطورية لأخيه فرديناند، إلا أن فرديناند مات هو الآخر فى 1564؛ ليخلفه ابنه "مكسميليان الثانى – Maximilian

II". لاعب واحد فقط من النجوم القدامى كان هو الذى بقى على المسرح. كان السلطان سليمان المعظم آنذاك فى عامه السبعين، إلا أن قواه البدنية والذهنية لم تضعف.. وكذلك طموحه.

كان لدى سليمان ما يكفى من الوقت لكى يندم على معاملته الرحيمة لفرسان سان چون بعد سقوط رودس. كان قد منحهم حق المرور فى المنطقة مقابل عدم حمل السلاح ضده مرة أخرى. الآن، كان قد أصبح من الواضح أن الوقت قد حان لطردهم من مالطة كما كان قد طردهم من رودس قبل ذلك. كان الفرسان الآن قد استقروا فى موطنهم الجديد، وكانوا ينذرون بأن يصبحوا مصدر قلق دائم، كما كانوا دائمًا. من جانبه، كان لدى السلطان أسبابه هو الآخر. مالطة تقع فى مكان رئيسى من الحوض الأوسط للمتوسط، مكونة بذلك درجة سلم طبيعية بين طرابلس التى يسيطر عليها الأتراك، وصقلية التى كانت تابعة لـ "فيليپ" ملك إسپانيا. ما أن تقع فى يد سليمان، فسوف تكون نقطة انطلاق ممتازة لغزو صقلية، وسيتبع ذلك الوصول إلى بر الجنوب الإيطالى... هكذا مثلما يتبع النهار الليل.

كان شارل الخامس على علم بذلك تمامًا، عندما جعل الجزيرة فى متناول يد تنظيم الفرسان فى 1530. وهل كانت هناك وسيلة يتمناها أفضل من ذلك – لا تكلفه شيئًا – لحماية المسالك الجنوبية المؤدية إلى الإمبراطورية؟ صحيح أن الفرسان لم يكونوا متحمسين فى البداية: كانوا قد فكروا فى إمكانية الانتقال إلى مالطة قبل ست سنوات، وأرسلوا ثمانية مفوضين لبحث ذلك، وكانت الجزيرة كما أفاد أولئك المفوضون:

> **مجرد صخرة من الحجر الرملى المعروف بالـ «توفة»[1] – Tufa، طولها نحو ستة أو سبعة فراسخ وعرضها ثلاثة أو أربعة؛ يغطى سطح الصخرة نحو ثلاثة أو أربعة أقدام من التربة، وهى تربة صخرية كذلك لا تصلح لزراعة القمح أو غيره من الحبوب؛ إلا أنها تنتج كميات لا بأس بها من التين والبطيخ وغيرها من الفاكهة. التجارة الرئيسية للجزيرة هى العسل والقطن وبذور الكمون ويبادلها أهالى الجزيرة بالحبوب – وفيما عدا بعض العيون فى وسط الجزيرة، لا توجد مياه جارية، ولا حتى آبار ولذا يقومون بتخزين مياه الأمطار فى صهاريج. الأخشاب هنا نادرة لدرجة أنها تباع بالرطل، ويضطر الأهالى لاستخدام روث الماشية المجفف أو أشواك النباتات لطهى الطعام.**

بإقرار الكل، لم تكن مالطة مكانًا يمكن أن يتحمل الحصار. من ناحية أخرى، كانت تتباهى بثلاث مزايا كبيرة: كمية لا حدود لها من أحجار البناء المصقولة ذات اللون العسلى، وتراث عريق من رجال المحاجر والبنائين والنقاشين، وربما أفضل مرسى فى

العالم. إلى يومنا هذا، فإن نظرة أولى على المرفأ الكبير من مرتفعات «ڤاليتا – Valletta“ تأخذ بالألباب. كان ذلك دون شك هو الذى جعل الفرسان – بعد ثمانى سنوات من التشرد يقبلون عرض الإمبراطور بعقد إيجار سنوى، كانت قيمته معقولة.

لم ينس الفرسان قط أنهم كانوا "إسبتارية – Hospittalers“، ورعاية المرضى كانت مبرر وجودهم على مدى أكثر من خمسة قرون. بمجرد أن استقروا فى "بيرجو – Birgu“ (المعروفة الآن بـ "ڤيتوريوزا – Vittorioza“)، اللسان الأرضى الطويل إلى الشمال من اللسانين الموجودين على الطرف البعيد من الميناء الكبير، حتى شرعوا فى بناء مستشفى.[2] كانت سابقتها فى رودس ذات شهرة كبيرة فى كل العالم المسيحى، وكان المرضى يأتون إليها من أرجاء العالم الغربى، وكان الفرسان مصرين على إنشاء مؤسسة مماثلة فى مالطة، وهو ما حدث بالفعل فى وقت قصير. كانت الأولوية الثانية بالنسبة لهم هى الدفاع: تحصين مينائهم الرائع وبحريتهم. لم يكن بناء السفن أمرًا سهلًا على جزيرة لا يوجد بها أشجار، إلا أنهم بفضل الواردات الكبيرة من الأخشاب من صقلية تمكنوا على مدى الثلاثين سنة التالية من بناء أسطول كبير، وبحلول سنة 1560 كانت قوتهم البحرية قد أصبحت كبيرة، وربما بالقدر الذى كانت عليه فى أيام رودس القديمة؛ لذا عندما وصلتهم أخبار عن مقدم حملة سليمان، كانت بحريتهم مستعدة على الأقل.

المؤكد أنه لم يكن لديهم أية أوهام بالنسبة للخطر الذى كانوا يواجهونه. كانوا بدون تحصينات قوية، ويعرفون أنهم أقل عددًا فى الرجال والعتاد، كما كانوا يتوقعون القليل من القوت الذى تجود به أرضهم الحجرية الفقيرة. كانوا يعرفون كذلك أن تلك الأرض لم تكن مغرية بالعيش عليها أو التماس المأوى بها بالنسبة لجيش يقوم بالحصار، وبينما كانت رودس لا تبعد سوى عشرة أميال عن الساحل التركى، كانت مالطة بعيدة بنحو ألف ميل. كان بالإمكان جلب بعض التحصينات من الشمال الأفريقى: غير أنه كان من الواضح أن القوة التى سيدفع بها سليمان ضدهم لا بد بداية أن يكون لديها ما يكفيها من احتياجات الإعاشة؛ لذا لم يكن مستغربًا أن يحمل هذا الأسطول الغازى جيشًا قوامه نحو أربعين ألف مقاتل بخيولهم ومدافعهم وذخيرتهم ومؤونتهم العسكرية، وكذلك الطعام والماء والوقود اللازم للطهى؛ كما يقال: إنه كان أضخم أسطول يخرج إلى أعالى البحار. كان مكونًا من أكثر من مائتى سفينة، من بينها مائة وثلاثون جالية ذات مجاذيف وثلاثون سفينة من نوع «الجلياس[3] – Galleass“، وإحدى عشرة سفينة لها شكل الحوض، كانت تعتمد مثل الغلايين على السير بالشراع. السفن الأخرى كانت من أنواع مختلفة معظمها مراكب شراعية صغيرة ثلاثية الصوارى وسفن حربية شراعية. ما زاد

العدد ضخامة هو مراكب القرصنة التى كانت تحوم حول الأسطول مثل النسور، رغم أنها لم تكن ضمن الحملة الرسمية.

فى سنة 1557، كان "چان پاريزوت دى لاڤاليتا – Jean Parisot de la Valita"، قد انتخب معلمًا أعظم لتنظيم فرسان سان چون. كان فى الثالثة والستين، نفس عمر سليمان تقريبًا. كان جاسكونيًا.[4] يصفه «الراهب دى برانتوم – Abbé de Brantôme" بأنه كان وسيمًا، يتكلم عدة لغات بطلاقة، من بينها الإسپانية والإيطالية واليونانية والتركية والعربية. كان كذلك مدافعًا صلبًا عن العقيدة المسيحية. كان قد حارب وهو فارس صغير فى حصار رودس، ثم أسر فيما بعد وعمل عبدًا لدى الأتراك على السفن التركية. كان شديد الإخلاص فى خدمة التنظيم. كان رجلًا - كما يقال - "قادرًا على جعل أى پروتستانتى يتحول، وأن يحكم مملكة بنفس الدرجة". كان الإخلاص والقوة والقيادة والانضباط الحديدى كلها من صفاته، وكان يحتاجها كلها فى محنته القادمة.

كان للفرسان – دون شك – جواسيسهم فى القسطنطينية. عرفوا متى يبدأ السلطان استعداداته، ومنذ لحظة انتخابه جعل لاڤاليتا كل من هو قادر جسديًا فى مالطة، يستعد للمعركة القادمة. كان قد طلب تعزيزات ودعمًا بالرجال والعتاد والمواد التموينية من أفرع التنظيم المنتشرة فى أرجاء أوروبا المسيحية، وحتى مع ذلك، كان بإمكانه أن يعتمد فى بداية الحصار على نحو خمسمائة ألف جندى من المشاة وحملة الهركوبة[5] الإسپان، ونحو أربعمائة من أفراد الميليشيا المالطية المحلية. كان كذلك قد طلب مؤونة احتياطية من الحبوب من صقلية، وأسلحة وذخيرة إضافية من فرنسا وإسپانيا. كانت كل خزانات المياه لديه ممتلئة، ولم يكن لديه أى تردد أو وخز من ضمير لكى يرتب لتسميم مياه «مارسا[6] – Marsa" بالحيوانات الميتة فى الوقت المناسب.

ظهر الأسطول الكبير فى الأفق فى الثامن عشر من مايو 1565. كان السلطان قد رأى أنه كان متقدمًا فى العمر ولا يستطيع أن يقوده شخصيًا، كما كان الأمر فى الهجوم السابق على رودس. وبدل ذلك، قسم القيادة بين اثنين: ستكون القوة البحرية مسئولية صهره الشاب "پيالى باشا – Piale Pasha" (الذى كان قد أعاد انتزاع "چربة – Djerba" من أيدى الإسپان قبل بضع سنوات)، أما القوة البرية فستكون مسئولية الچنرال مصطفى باشا زوج أخته. ثبت أن ذلك كان قرارًا كارثيًا؛ حيث إن كلا الرجلين كان يكره الآخر. كان مصطفى حاقدًا على نجاح الشاب وقربه من السلطان. كان الميناء يبدو حصينًا ودفاعاته قوية؛ ليكون موقعًا للرسو، وفى آخر الأمر اختار پيالى ميناء

"مرساسكيروكو – Marsascirocco" (الآن "مرساكسلوك – Marsaxlokk")، عند الطرف الشمالى الشرقى الذى يبعد نحو خمسة أميال عن بيرجو. لم يحاول الفرسان التصدى له. كان تأثيرهم سيكون ضعيفًا على مثل تلك القوة الضخمة فى البحر، أو حتى عند رأس الشاطئ. كان أملهم الوحيد فى قوة تحصيناتهم، التى لم يكن لديهم النية لإظهار سوى ما هو ضرورى منها. أما الأتراك، فبمجرد نزولهم إلى الشاطئ، تقدموا صوب المدينة ونصبوا معسكرهم على المنحدر فى اتجاه المرسى، ومن هنا كانوا يستطيعون رؤية كل عمليات الرسو بوضوح. أمامهم، كان يمتد مجرى الماء الرئيسى الطويل بخلجانه الثلاثة الضيقة المتجهة يمين ويسار القمة الطويلة لجبل "سكيبيراس – Sciberras" – حيث توجد ڤاليتا الآن – التى تظهر أسوار قلعة "سان إلمو – Fort st Elmo" عند حافتها البعيدة.

لو أن بيالى باشا كان قد اختار – وكان ينبغى له ذلك – أن يبقى أسطوله فى الجنوب (حيث كان يمكن أن يظل فى أمان تام أثناء فصل الصيف)، لما كانت قلعة سان إلمو قد بدت كبيرة فى حسابات الأتراك. قرر بدل ذلك أن يأتى بسفنه إلى الساحل الشمالى الشرقى وإلى ميناء "مارساماسكيتو – Marsamuscetto" (مارسامكست – Mars-amxett) الممتد على الجانب الشمالى لجبل سكيبيراس. المؤكد أن ذلك وفر مأوى أفضل، ولكنه – لسوء الحظ – أدخله مرة أخرى فى خلاف مع مصطفى باشا. كان ذلك يتضمن أيضًا ملاحة تحت مدافع القلعة، فكان تدميرها قد أصبح أولوية.

نظرة سريعة على قلعة سان إلمو كانت كافية للتأكد من أن تدميرها لن يكون أمرًا شديد الصعوبة. كانت قلعة تقليدية على شكل نجمة؛ ولكن المشكلة الرئيسية كانت فى صعوبة جر المدافع الثقيلة لمسافة ميلين تقريبًا على امتداد حرف الجبل؛ حيث يمكن أن تكون داخل المدى المؤثر للمدافع الموجودة على لسان "بيرجو – Birgu" و"سنجليا – Singlea" على الشاطئ المقابل. كان حفر الخنادق هنا عملية مستحيلة؛ إذ بعد بوصات قليلة، كانت أدوات الحفر ترتطم بصخور صلبة. وإذا كان لا بد من حماية القوات التى تعمل على المدافع الضخمة على المنحدرات وعلى امتداد حرف الجبل، فإن ذلك لم يكن ممكنًا إلا بجلب كميات هائلة من التربة من المرسى، وإقامة سواتر ترابية. هذه الأعمال استهلكت معظم طاقة جيش السلطان، وأعطت فرصة لـ "ڤاليتا" ورجاله لالتقاط الأنفاس وهم يعملون على مدار الساعة؛ لتقوية دفاعات قلعة "سانت أنجلو – Fort St An-gelo"، حاجز دفاعهم الرئيسى عند طرف بيرجو.

بدأ الهجوم جديًّا على سان إلمو فى الثالث والعشرين من مايو. تواصل القصف ليل نهار. بعد أيام قليلة وصل أشهر قائد عثمانى فى البر والبحر. وصل دراجوت الذى لم يكن يبدو عليه أنه فى الثمانين من العمر. تولى بنفسه قيادة عملية الحصار، وقام بوضع بطاريات جديدة شمال وجنوب القلعة، التى كانت آنذاك تحت قصف شديد من ثلاثة اتجاهات فى الوقت نفسه. بنهاية الشهر كانت علامات انهيار وشيك تبدو على الأسوار. كانت قوارب صغيرة تنسل كل ليلة تحت جنح الظلام، من قلعة سان أنجلو عبر مخرج الميناء، لإحضار قوات ومؤن جديدة للحامية، وتعود بالجرحى إلى المستشفى فى بيرجو، وبفضل هؤلاء فحسب، كان أن صمدت القلعة كل تلك الفترة. ذات ليلة جاء قارب بما هو أكثر من ذلك: كان يحمل مفوضين من الواقعين تحت الحصار لإبلاغ المعلم الأعظم بأنهم لن يستطيعوا الاستمرار. نظر إليهم لافاليتا بفتور وقال: إنه سوف يستبدلهم بغيرهم ممن يقدرون، وإنه سوف يقودهم بنفسه، فعادوا إلى مواقعهم خجلين. قد تهلك سان إلمو، ولكنها لن تستسلم.

على نحو ما، صمدت القلعة واحدًا وثلاثين يومًا إلى أن اقتحمها الأتراك ودخلوها، لم يتبق على قيد الحياة من المائة والخمسين مدافعًا عنها سوى ستين تقريبًا. على الفور، قطعت رؤوسهم فيما عدا تسعة منهم، وسمرت جثثهم على صلبان خشبية – استهزاء – وتم تعويم الصلبان بما عليها فى المصب لكى تجرفها الأمواج إلى أسفل قلعة سان أنجلو. عندما رآها لافاليتا أمر بإعدام جميع الأسرى الأتراك على الفور، ثم حشر رؤوس القتلى فى ماسورتى المدفعين الكبيرين على الجزء العلوى من الحصن، وأطلق المدفعين باتجاه أطلال سان إلمو. كانت الرسالة واضحة. اعتبارًا من الآن لن تكون رحمة ولا هوادة.

الآن، كان الأتراك قد حققوا هدفهم الأول. كانوا قد أنجزوا ذلك بتكلفة كبيرة. شهر من الزمن، ونحو ثمانية آلاف من أفضل جنودهم. ربع الجيش تقريبًا. كذلك كانوا قد فقدوا دراجوت الذى قتلته قذيفة مدفع فى المراحل الأخيرة من حصار سان إلمو. كان قد عاش ليسمع بسقوط القلعة، وكما يقال: "عبر عن فرحه بعدة إيماءات. رفع عينيه إلى السماء كما لو كان يعبر عن شكره لرحمة الله، ثم أسلم الروح". أما مصطفى باشا، فيقال: إنه وقف بين الأطلال يحدق وسط حرارة الصيف اللاهبة وهو يهمهم: "إذا كان ابن صغير قد كلفنا كل ذلك، فكم سيكون علينا يا ترى أن ندفع ثمنًا للأب؟".

** ** **

أما الأب الذى كان يقصده فلم يكن سوى قلعة سان أنجلو نفسها. كان خلفها لسان من اليابسة داخل البحر؛ حيث توجد بيرجو مدينة الفرسان الحصينة، وخلف المدخل الضيق

إلى الشمال الغربى كان لسان "سنجليا – Singlea" المجاور، كان بقاء فرسان سان چون على قيد الحياة يتوقف على الدفاع عن شبه الجزيرتين هاتين، اللتين كانتا مطوقتين بالجيش العثمانى تمامًا. كانت الجزيرتان متصلتين بجسر ضعيف عبر الجون (يعرف الآن بـ "جون" حوض بناء السفن)، وبواسطة سلسلة ممتدة على عوامات طافية عبر المصب. عند الطرف الآخر من ناحية اليابسة، كان قد تم تثبيت سياج من الأوتاد الخشبية القوية فى القاع الطينى. بعد سقوط سان إلمو لم يكن مدخل الميناء الكبير نفسه قد أغلق، وكانت السفن التركية تستطيع أن تبحر بطوله، ولم يكن يعوقها سوى مدافع سان أنجلو.

إلا أنه كانت هناك أمور أخرى قد يكون بها قدر من السلوى أو العزاء للمالطيين، فلكى يتحرك الأتراك إلى مواقعهم الجديدة جنوبى سنجليا وبيرجو، كان عليهم أن يبحروا بمدفعيتهم الثقيلة وذخيرتهم ومؤونتهم عائدين، على امتداد جبل سكيبيراس، ثم حول الميناء لمسافة نحو أربعة أميال، على طرق ليست أكثر من مدقات لعربات تجرها أحصنة أو بغال، وكل ذلك فى صيف مالطة الحارق. يضاف إلى ذلك أنه يوم سقوط سان إلمو، فإن السفن القادمة من صقلية حاملة قوة نجدة قوامها نحو ألف مقاتل من بينهم اثنان وأربعون فارسًا، استطاعت أن ترسو، ثم تمكنت بعد أسبوع من أن تشق طريقها ليلًا إلى ما يسمى الآن بـ "كالكارا – Kalkara"، خلف جسر آخر شمال شرقى بيرجو. ليس وصول القوة نفسها فحسب، ولكن نجاحها الباهر فى تجنب الجيش التركى، هو ما كان له الأثر البالغ فى الروح المعنوية للفرسان.

ولكن الصراع استمر. فى منتصف يوليو كان هناك هجوم منسق من البحر على سنجليا، أفشلته بسالة المالطيين المحليين الذين كانوا سباحين مهرة، قلبوا الأتراك من قواربهم وقاتلوهم قتالًا متلاحمًا فى الماء، ثم أكمل العملية مربض للمدفعية كان مستترًا. فى السابع من أغسطس كتب "فرانسيسكو بالبى دى كوريجيو – Francesco Balbi di Correggio"، وكان مدفعيا إيطاليا يعمل مع الجيش الإسپانى، فى رواية شاهد عيان على الحصار، كتب يقول:

> **7 أغسطس: هجوم شامل. ثمانية آلاف على قلعة سان أنجلو، أربعة آلاف على الميناء، ولكن عندما غادروا خنادقهم كنا نحن بالفعل فى مواقعنا، الأطواق مشتعلة والأرض تغلى... عندما صَعَّدوا أعمالهم واجهناهم وكأننا كنا نتوقعهم.. استمر الهجوم تسع ساعات، من أول ضوء إلى ما بعد الظهيرة، أثناءه كان الأتراك يستبدلون جنودهم أكثر من عشر مرات، بينما كنا نحن ننعش أنفسنا ببعض الماء والنبيذ وبعض الخبز. كان النصر حليفنا مرة أخرى، رغم أنه كان من الصعب أن يقف الواحد منا على قدميه بسبب جرح أو بسبب الإرهاق.**

آنذاك، كان يتضح شيئًا فشيئًا أن الجيش التركى بدأ يصيبه الضعف. كانت الحرارة قاسية، وهناك نقص فى الطعام وأكثر منه فى الماء؛ حيث إن الحيوانات الميتة التى سمم بها الفرسان عمدًا آبار المرسى، كان قد زاد عليها الآن أعداد كبيرة من جثث القتلى الأتراك. بنهاية أغسطس، انتشرت الديزنطاريا فى معسكر الأتراك، وكانوا يحملون الضحايا فى الشمس الحارقة إلى خيام المرضى ليموتوا بالمئات. كان الأتراك يعرفون كذلك أن موسم هبوب الرياح الاستوائية قد اقترب، وسوف تتبعه أول رياح الشتاء. كان مصطفى باشا على استعداد لأن يمضى الشتاء على الجزيرة إذا تطلب الأمر، على أمل تجويع المحاصرين، أما پيالى فلم يكن قد سمع بذلك. كانت البحرية - كما قال - أهم من الجيش وإنه لن يغامر بترك سفنه فى الشتاء دون رسو مناسب وخدمات صيانة كاملة، كان يمكن أن يكون الأسطول مستعدًّا بحلول منتصف سبتمبر على الأكثر، أما إذا كان الجيش يريد البقاء فذلك شأنهم، هم فليقرروا يرونه مناسبًا لهم.

فى حال بقاء قوات سليمان، لن يكون معروفًا على وجه اليقين ما إذا كان الفرسان سوف يستطيعون الصمود، ولكن فى السابع من سبتمبر جاء الخلاص: «الفرج العظيم – Gran Soccorso» كما أطلق عليه، وهو الذى أرسله الملك الإسپانى فى صقلية. جاء تسعة آلاف مقاتل. صحيح أن العدد كان أقل مما كان لاڤاليتا يتوقع، إلا أنه كان كافيًا. لم يتردد مصطفى أكثر من ذلك. فجأة سكتت المدافع وتوقفت الجلبة، وبدل الدخان لم يكن هناك سوى الغبار من أثر أقدام ما تبقى من الجيش الذى كان يتباهى به ذات يوم، وهم يجرون الخطى عائدين إلى السفن المنتظرة. كانوا أقل من الربع. ولكن المسيحيين تحملوا – بالمثل – خسائر كبيرة. مات أكثر من مائتى وخمسين فارسًا، ومن بقى كان جريحًا أو مقعدًا. لم يكن هناك سوى ستمائة فرد يقدرون على حمل السلاح. بالنسبة لمدينة بيرجو، لم يكن قد بقى فيها حجر على حجر وكانت معرضة للاحتراق من كل جانب، ومن الناحية الإستراتيجية كانت كارثة. وهكذا، عندما كان لاڤاليتا العجوز يتقدم متثاقلًا ليضع أول حجر فى عاصمته الجديدة، لم يفعل ذلك على أطلال المدينة القديمة، ولكن بعيدًا، على مرتفعات جبل سكيبيراس المقابل المطل على الميناء الكبير. وكما كان يستحق عن جدارة، سميت المدينة "ڤاليتا – Valletta" على اسمه.[7] بعد ذلك بثلاث سنوات، فى الواحد والعشرين من أغسطس 1568 مات ڤاليتا. «السير أوليڤر ستاركى – Sir Oliver Starkey"، سكرتيره – وهو بالمصادفة الشخص الإنجليزى الوحيد الذى حارب معه أثناء الحصار – نقش كلمة تذكارية على ضريحه باللاتينية، ما زالت موجودة فى كاتدرائية سان چون. تقول ترجمتها:

«هنا يرقد لافاليتا الجدير بالمجد الأبدى. ذلك الذى كان ذات يوم سوط أفريقيا وآسيا ودرع أوروبا، عندما طرد الوثنيين بقوة سيفه المقدس، وهو أول من دُفِنَ فى هذه المدينة المحبوبة، التى كان هو مؤسسها».

كان المستشفى أحد الأبنية الرئيسية التى ارتفعت فى المدينة الجديدة بالطبع. ومثل سابقه فى بيرجو ما زال موجودًا. ولكنه كان مصممًا على نحو أكثر طموحًا: الجناح الكبير الذى يبلغ طوله 155 مترًا هو أكبر صالة (ذات سقف غير مرفوع على أعمدة) فى أوروبا كلها. فى سنة 1700، وعندما كان يمكن أن يستوعب نحو ألف مريض، كانت جدرانه تغطى فى الشتاء بمطرزات من الصوف، وفى الصيف بلوحات من أعمال «ماتيا بريتى[8] – Mattia Preti". المستشفى يغمره الضوء والهواء المنعش والمكان فسيح، وكلها مواصفات كان الفرسان – وحدهم بين كل المشتغلين بالطب فى القرن السادس عشر – يولونها أهمية كبيرة. إلى جانب ذلك، فهو على خلاف كل مستشفيات تلك الأيام التى كانت تقدم الطعام لنزلائها فى أطباق من الخشب مليئة بكل أنواع البكتريا، كان التنظيم يقدم أطباقًا وأكوابًا من الفضة، وهكذا كانوا – وربما دون أن يدروا – يقللون احتمالات نقل العدوى إلى حد كبير. كانت كل قطعة تحمل رقمًا وعلى جانبها شعار "الروح القدس". أخيرًا، فإن الفرسان كانوا يعرفون قيمة التمريض الجيد، فكل منهم أيا كانت درجته فى سلم القيادة، كان يقوم بدوره فى الخدمة فى الجناح، وكان المعلم الأعظم نفسه يقوم بورديته أيام الجمعة. كان الكل يبذل كل جهده لخدمة "سادتنا المرضى".

** ** **

"معى فحسب، يكون النصر حليف جيوشى"، كان ذلك هو تعليق سليمان عندما جاءته أخبار الكارثة، وكان ذلك صحيحًا. فلو أن القيادة كانت له بمفرده، كما حدث فى 1522، لما كانت هناك تلك الخصومة والمنافسة المهلكة بين پيالى ومصطفى، كان يمكن أن تنفذ سلطته العليا وقيادته الملهمة الموقف. كان أول رد فعل له أن أقسم بأن يقوم شخصيًّا بقيادة حملة جديدة على مالطا فى الربيع التالى، إلا أنه غير رأيه وقرر أن يقوم بحملة أخرى على المجر والنمسا. ما حدث هو أنه يوم الخامس من سبتمبر 1566، وأثناء وجوده فى معسكره بالقرب من قلعة "تسيجتڤار – Szigetvar" المجرية، مات على أثر أزمة قلبية مفاجئة. كان عاشر سلطان عثمانى وأعظمهم. لم يوسع إمبراطوريته فحسب، وإنما كان قد أقامها على أساس مؤسسى وقانونى راسخ، ومن خلال مكانته الشخصية رفعها إلى مكانة قوة عالمية، ولو كان لدى خلفائه بعض قدراته لكان تاريخ البحر الأبيض قد اختلف بالتأكيد.

في الغرب المسيحي، الذي كان ما زال مبتهجًا بالمقاومة البطولية للفرسان في مالطة، كان استقبال نبأ وفاة السلطان بفرح غامر. إلا أن السؤال بقي معلقًا: هل توقف زحف الأتراك إلى الأبد، أم تراه كان توقفًا مؤقتًا على الطريق؟ خلف سليمان ابنه الأكبر من زوجته المفضلة المعروفة للأوروبيين بـ "روكسلانا – Roxelana" وكانت ابنة قسيس من أوكرانيا. سليم الثاني "السكير"، وكان ذلك لقب الشهرة الذي يستحقه، كان على النقيض تمامًا من أبيه المهيب. كان قصير القامة، سمينًا، منغمسًا في الملذات تمامًا، غير عابئ بشؤون الدولة، مفضلًا ترك الإمبراطورية لوزيره الأول – الذي سرعان ما سيصبح صهره – "سوكوللو محمد باشا – Sokollu Mehmet Pasha". كان سوكوللو محمد من أصول صربية بوسنية، وباعتباره آخر وزراء السلطان – وهو الذي أغمض عيني السلطان العجوز عندما مات – كان مؤهلًا تمامًا لمواصلة سياسات سيده السابق في نظام الحكم الجديد. كان لديه طموح قديم لإنشاء قناة عبر برزخ السويس تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر. ذلك أيضًا، لو أنه نجح في تنفيذه قبل "فرديناند دي ليسبس – Ferdinand de Lesseps"، لكان قد غير مجرى التاريخ، ولكان سليمان السكير فرض سلطانه عليه لأول وآخر مرة في الحياة.

كانت عين سليم على قبرص. كان يقال دائمًا – وربما كان ذلك صحيحًا – إن إصراره على الاستيلاء على الجزيرة كان يرجع لولعه بنبيذها الممتاز، والحقيقة أن أهميتها الإستراتيجية كانت واضحة مثل خصوبة تربتها؛ الغريب أن سليمان لم يكن قد عمل قبل سنوات لكي يخلص نفسه من وجود مسيحي غير مرغوب فيه يقع على مسافة أقل من خمسين ميلًا من شواطئه الجنوبية. كانت قبرص مستعمرة تابعة للجمهورية الفينيسية، وكان أن جاءت لفينيسيا عدة تقارير مثيرة للقلق في فبراير 1568. كان عملاء الأتراك نشطون على الجزيرة، ينشرون بذور السخط بين السكان المحليين الذين كان معظمهم لا يحبون حكامهم الفينيسيين. كانت السفن التركية ترصد الأحوال في الموانئ القبرصية. كان الأكثر مدعاة للقلق أن السلطان كان قد عقد مؤخرًا هدنة لمدة ثماني سنوات مع الإمبراطور الجديد "مكسميليان الثاني – Maximilian II"، وبذلك كان يستطيع أن يكرس كل اهتمامه لمشروع جديد. كان صحيحًا أنه عند توليه العرش كذلك، كان قد عقد اتفاق سلام مع فينيسيا، ولكنه كان مجهولًا حتى ذلك الحين، هذا إلى جانب شائعات كثيرة عن عدم اتزانه العقلي والعاطفي الذي كان يتزايد.

كل هذه الشائعات وغيرها من النوع نفسه، استمرت في الانتشار خلال سنة 1569، وقرب آخر يناير 1570 وصلت فينيسيا أخبار تكشف عن نية السلطان دون أدنى شك.

قام سوكوللو باستدعاء "البايلو – Bailo"[9] الڤينيسى فى إسطنبول، الذى أبلغه بكل وضوح أن السلطان كان يعتبر قبرص – تاريخيًّا – جزءًا من الإمبراطورية العثمانية. بعد يوم أو يومين، كانت هناك عمليات قبض جماعية على التجار الفينيسيين واستيلاء على السفن الڤينيسية فى الميناء، وفى الثامن والعشرين من مارس قام سفير، أرسل خصيصى من البلاط العثمانى، بتسليم إنذار للدوچ: إما أن تستسلم قبرص طواعية، أو سيتم الاستيلاء عليها بالقوة. كان الرد الڤينيسي قصيرًا ومحددًا. كانت ڤينيسيا مندهشة لأن السلطان كان يريد أن يخرق الاتفاق الذى سبق توقيعه قبل وقت قصير، وكانت، على أية حال، هى القيِّمة على شؤون قبرص؛ وببركة يسوع المسيح سيكون لديها الشجاعة لكى تدافع عنها.

كانت الجمهورية قد أرسلت مناشدات إلى كل الدول المسيحية للمساعدة، ولكن الاستجابة كانت فاترة. أشار الإمبراطور مكسميليان إلى أن الهدنة الرسمية كان ما زال أمامها ثمانى سنوات تظل فيها سارية، ومن فرنسا؛ حيث كانت «كاترين دى ميديسى – Catherine de' Medici» هى الوصية الفعلية، وكانت فى نزاع مع إسبانيا على "الفلاندرز – The Flanders"، وملتزمة بتحالفها القديم مع السلطان. ملك البرتغال زعم أنه كان مشغولاً فى الشرق، وأن بلاده كانت – على أية حال – تعانى من الطاعون. فرسان سان چون، الذين كانوا أكبر ملاك الأراضى فى قبرص، كانوا أكثر استجابة وقدموا خمس سفن، ومن أسف أن أربعًا منها وقعت فى أيدى الأتراك بعد مغادرتها مالطة بوقت قصير. لم تقدم أى مناشدة لـ "اليزابيث – Elizabeth" ملكة إنجلترا التى كانت محرومة كنسيًّا.

بقى البابا "بيوس الخامس – Pope Pius V" و"فيليب الثانى – Philip II" ملك إسبانيا. وافق البابا على تجهيز خمس سفن إذا وفرت ڤينيسيا الهياكل، فيليب قدم أسطولاً من خمسين سفينة بقيادة "چيان أندريا دوريا – Gian Andrea Doria"، حفيد شقيق ووريث أندريا ذاك، الذى جعله حقده على ڤينيسيا يخون ثقة الجمهورية مرتين فى كورفو وپريڤيزا قبل نحو ثلاثين عامًا. حتى ذلك، كان إسهامًا هزيلاً، كانت ڤينيسيا نفسها قد حشدت 144 سفينة من بينها 126 جالية. ولكن فيليب – كعادته - لم يكن يثق بالڤينيسيين الذين كانوا موضع شك منه (وكان لديه أسبابه)، ويراهم مستعدين دومًا للتفاهم مع السلطان كلما سنحت الفرصة، وكما أظهرت الأحداث فيما بعد، كان قد أعطى "دوريا – Doria"، الذى كانت مشاعره تجاه الجمهورية لا تقل عداء عن مشاعر عم والده تعليمات سرية بأن ينأى عن المشكلات وأن يترك الڤينيسيين يقومون بالقتال، وأن يعود بالأسطول الإسبانى سالمًا إلى بلاده بأسرع ما يمكن.

من البداية، كانت الحملة سيئة الطالع. الجنرال الڤينيسي "جيرولامو زاني – Girolamo Zani"، الذى كان قد فهم أن القوات الإسپانية والبابوية كانت ستنضم إليه فى "زارا – Zara" (زادار – Zadar) على ساحل دالماشيا، ظل منتظرًا هناك دون جدوى لمدة شهرين، إلى أن اجتاح أسطوله وباء مجهول؛ مما أدى إلى وفاة عدد كبير، وانهيار عام فى الروح المعنوية، كان نتيجته فرار المئات من رجاله. فى الثانى عشر من يونيو 1570، أبحر إلى كورفو، ومن هناك اصطحب "سيباستيانو ڤينيير – Sebastiano Venier"، المفوض العام "Proveditor – General" السابق للجزيرة، الذى كان قد عين مؤخرًا فى نفس المنصب فى قبرص. هنا، سمع أن الأسطول البابوى تحت قيادة "ماركانتونيو كولونا – Markantonio Colonna" كان ينتظر الإسپان فى "أوترانتو – Otranto"، ولكن لم يكن هناك أى خبر عن أسطول فيليپ الموعود. حتى يوليو، لم يكن قد علم أن چيان أندريا دوريا كان قد بقى فى صقلية بذريعة أنه لم يتلق أى تعليمات لكى يواصل. بعد اعتراضات عاجلة من البابا، أرسل فيليپ أوامره للأدميرال التابع له بالإبحار. وصلت الأوامر فى الثامن من أغسطس، وحتى آنذاك لم يغادر الأسطول الإسپانى مسينى إلا بعد أربعة أيام، ليصل إلى أوترانتو بعد ثمانية أيام أخرى – رحلة ما كانت لتستغرق أكثر من يومين فى الطقس الملائم الذى كان سائدًا آنذاك.

بعد أن انضم لحلفائه البابويين، لم يحاول دوريا أن يقوم بزيارة كولونا أو أن يتصل به، وعندما قرر كولونا أن يتجاهل هذه الصلافة المتعمدة ويبادر هو، كان نصيبه حديثًا طويلًا ينطوى على ما يفيد أنه كان الأفضل إلغاء الحملة. كنا قد أصبحنا فى آخر الموسم، ولم تكن السفن الإسپانية فى حالة تسمح لها بالقتال، ومثلما كان دوريا يزعجه أن يشير إلى أن لديه تعليمات بالإبحار تحت العلم البابوى، كان بالإضافة إلى ذلك يعمل تحت أوامر قائده بالمحافظة على الأسطول سليمًا. كولونا، نوعًا ما، أحجم عن أن يُذكِّره بالمسؤول عن الكارثتين الأوليين، ولم يفعل سوى أن كرر أن كلا من الملك والبابا كانا يتوقعان أن يبحر الأسطولان التابعان لهما مع الڤينيسيين إلى قبرص، ولذا كان لا بد من أن يبحرا. وفى النهاية وافق دوريا على كره منه.

كان جيرولامو زانى قد تحرك إلى كريت؛ حيث انضمت إليه أساطيل البابا وإسپانيا فى الأول من سبتمبر؛ أى بعد خمسة أشهر بالضبط من مغادرته ڤينيسيا. تم عقد اجتماع أثار فيه دوريا مجددًا مشكلات أخرى. هذه المرة كانت الجاليات الڤينيسية هى غير الصالحة للقتال، بالإضافة إلى أنه بمجرد أن يغادر الأسطول المشترك كريت، فلن يكون هناك ميناء آخر يمكن اللجوء إليه. والآن، أيضًا، كشف الأدميرال عن حقيقة لم يكن قد

ظن قبل ذلك أن من الضرورى ذكرها، وهى أنه كان لديه تعليمات بالعودة إلى الغرب قبل آخر الشهر على أكثر تقدير.

ولكن كولونا ظل ثابتًا. رغم أننا كنا فى آخر الموسم، لم يكن ذلك عقبة كبيرة. كان ما زال هناك شهران قبل أن يدخل الشتاء، وقبرص غنية بالموانئ الجيدة الصالحة للرسو. كانت السفن الڤينيسية تعانى من نقص فى الأفراد بعد الوباء، وبعد أن كان عدد كبير من العاملين عليها قد ترك العمل؛ إلا أن الانتظار الطويل وفر لهم الوقت لإيجاد من يحل محلهم، فعادت الأطقم إلى قوتها مرة أخرى. كان الأسطول المشترك الآن يضم مائتين وخمسين سفينة، أما الأسطول التركى فكان يقدر بمائة وخمسين على الأكثر. لماذا، إذن، يخشون مواجهة مسلحة؟ إن التقاعس الآن لن يكون أقل من سلوك شائن. كان دوريا ما زال يراوغ، وكان زانى قد بعث برسالة غاضبة إلى ڤينيسيا يتهمه فيها بإفساد المهمة كلها؛ وفى السادس عشر من سبتمبر، بعد اللجوء إلى عدة أساليب مختلفة للتأخير، وصل تقرير يفيد أن الأتراك كانوا قد رسوا فى قبرص. كان لا بد من أن يحدث ذلك الآن وإلا فإنه لم يكن ليحدث قط؛ وفى ليلة السابع عشر، أبحر الأسطول متجهًا نحو الجزيرة المحاصرة.

على الفور جاءت أخبار أكثر سوءًا: نيقوسيا سقطت. دعى لاجتماع تشاورى آخر. الآن، ولأول مرة، كان "ماركيز سانتا كروز – Marquis of Santa Cruz" (الذى باعتباره قائدًا لقوة نابولى، وكان من الناحية الفعلية تابعًا لـ "دوريا" وإن كان قد اتخذ خطًّا متشددًا أكثر من رئيسه) ينصح هو الآخر بالرجوع، أشار إلى أن الاستيلاء على نيقوسيا كان يمكن أن يعنى زيادة سريعة فى عدد المقاتلين المتوفرين للأسطول التركى، وارتفاعًا مماثلًا فى معنويات العدو – كل ذلك فى أكثر الأوقات سوءًا، عندما كانت الأطقم المشتركة تزداد يأسًا وإحباطًا. كان كولونا متفقًا معه فى الرأى، وكذلك زانى، وإن على مضض. الصوت الوحيد الذى ارتفع مؤيدًا التقدم، كان صوت سيباستيانو ڤينيير، الذى كان يرى أنه مهما كانت قوة الأتراك، فالمؤكد أنهم سيكونون أكثر قوة فى العام التالى؛ حيث ليس من المرجح أن يكون لدى الحلفاء أسطول يضم أكثر من مائتى سفينة للتصدى لهم. كلمات جريئة ولكنها لم تقنع أحدًا، وعاد الأسطول القوى الذى كان يرفع أعلام العالم المسيحى دون أن تقع عينه على العدو.

فى محاولة يائسة لإنقاذ البقية الباقية من مكانته، اقترح زانى المسكين أن يحاول الحلفاء - على الأقل - إنزال أى ضرر بأراضى العدو أثناء العودة، ومرة أخرى أحبطت آماله بسبب استعجال دوريا وتلهفه على العودة. بوصول سفنه إلى كورفو فى السابع عشر من نوفمبر، كان وباء جديد قد تفشى، كما كان هو شخصيًّا قد أصبح محطمًا نفسيًّا

وجسديًا. فاقدًا حتى الرغبة فى العودة إلى الوطن، كتب إلى مجلس الشيوخ فى ڤينيسيا يرجو إعفاءه من منصبه، وتمت الاستجابه لطلبه، وفى الثالث عشر من ديسمبر عين سيباستيانو ڤينيير قائدًا عامًا مكانه. فيما بعد، سيتم استدعاء زانى إلى ڤينيسيا ليرد على اتهامات خطيرة عديدة تتعلق بسلوكه أثناء الحملة. بعد تحقيق طويل تمت تبرئته.. وإن كان متأخرًا جدًا، وفى سبتمبر 1572 مات فى السجن.

كان مصير چيان أندريا دوريا مختلفًا نوعًا ما. لم يكن فيليپ الثانى فى شك من مشاعر المرارة التى أثارها قائده البحرى؛ كان البابا پيوس قد أرسل إليه شكوى رسمية عند استلامه تقرير كولونا، ولكن فيليپ قرر أن يتجاهلها. كان دوريا قد نفذ تعليماته حرفيًا وكوفئ بترقية فورية إلى رتبة الچنرال متخطيًا كل قادة أساطيل إسپانيا ونابولى وصقلية، وبهذه الصفة كان يستطيع أن يسبب المزيد من الأضرار للقضية المشتركة قبل أن تنتهى وظيفته الكارثية.

** ** **

فى 1570، سيكون قد مر على قبرص واحد وثمانون عامًا وهى فى قبضة ڤينيسيا. فى 1487 كان قد حل حاكم ڤينيسى – يعرف بالقائم مقام – محل الملكة كاترينا، وكان مركزه نيقوسيا. من ناحية أخرى كان مركز القيادة العسكرية موجودًا فى "فاماجوستا – Famagusta"؛ حيث كانت الحامية المقيمة والأسطول المتمركز فى قبرص تحت قيادة قائد ڤينيسى. كانت هى الميناء الرئيسى للجزيرة بالرغم من أن "سالينس – Sa-lines" (لارناكا – Larnaca الآن) حلت محلها فى 1570 من ناحية الحركة التجارية. كان إجمالى تعداد السكان نحو مائة وستين ألف نسمة، وما زالوا يعيشون تحت نظام إقطاعى تجاوزه الزمن، ربما لم تبذل الجمهورية أى جهد لتغييره. على القمة، كان النبلاء وبعضهم من أبناء ڤينيسيا ومعظمهم من بقايا السلالة الفرنسية الصليبية مثل بيت "آل لوزينان – Lusignan" الملكى السابق، وفى أسفل السلم الاجتماعى كان هناك المزارعون، وكان معظمهم ما زالوا رقيقًا يعملون فى أراضى الملاك. بين القمة والقاع، كانت هناك طبقة التجار والبرجوازية المدينية، التى كانت بمثابة بوتقة انصهار، يمتزج فيها اليونانيون والڤينيسيون والأرمن والسوريون والأقباط واليهود.

باختصار، لم تكن مكانًا من السهل حكمه، بالرغم من أنه لا بد من الاعتراف بأن الڤينيسيين – الذين كانت إدارتهم الداخلية الخاصة محل إعجاب وربما حسد العالم المتحضر – كان يمكن أن يحكموها على نحو أفضل مما فعلوا. عندما رسا فيها الأتراك فى صيف 1570، كانت الجمهورية قد حققت مستوى قياسيًا كئيبًا من سوء الإدارة

المحلية والفساد، وفقدت شعبيتها لدى رعاياها القبارصة. وهكذا، حتى لو كانت الحملة المشتركة لنجدة قبرص قد جاءت فى الوقت المناسب وحاربت ببسالة، لما تمكنت من إنقاذ الجزيرة. انتصار حاسم فى البحر، ربما يكون له تأثيره المؤقت الذى يؤخر ما هو حتمى عامًا أو عامين، ولكن منذ مجيء أسطول الغزو التركى الذى رسا فى الثالث من يوليو فى لارناكا، بما لا يقل عن ثلاثمائة وخمسين سفينة – أكثر من ضعف تقدير كولونا – فإن انتصارًا كهذا لم يكن من المرجح أن يتحقق. الحقيقة هى أنه منذ لحظة أن قرر السلطان سليم ضم الجزيرة إلى إمبراطوريته، كان أن بدأ قدر الجزيرة المشؤوم.

أما شؤم قدرها، فكان للأسباب الأساسية نفسها، التى نجت منها مالطة قبل خمس سنوات: الحقيقة التى لا مهرب منها، وهى أن قوة أى جيش فى الميدان تختلف عكسيًا مع طول خطوط مواصلاته وإمداداته. وحيث إن قبرص لم يكن لديها الوسائل ولا القدرة، ولا الإرادة ربما – للدفاع عن نفسها، كان يمكن الدفاع عنها بواسطة ڤينيسيا فحسب، التى كان ينبغى أن تأتى منها كل المؤن العسكرية والذخيرة والكم الرئيسى من المقاتلين والخيول. ولكن ڤينيسيا كانت على بعد ألف وخمسمائة ميل عبر المتوسط، الذى كان الأتراك يسيطرون على معظمه. من ناحية أخرى، كان أمامهم خمسون ميلًا لكى يبحروا من موانئ الساحل الجنوبى للأناضول؛ حيث يمكنهم الاعتماد على قوة بشرية ومادية غير محدودة.

كان نجاحهم يبدو مؤكدًا؛ حيث إن الدفاعات القبرصية فيما عدا تلك فى فاماجوستا لم تكن كافية. صحيح أن نيقوسيا كانت تمتاز بشبكة من أسوار العصور الوسطى طولها تسعة أميال، ولكنها كانت تحيط بمساحة أكبر من المدينة وفى حاجة إلى عدد كبير من الأفراد للدفاع عنها، بالإضافة إلى أنها لم تكن سميكة – كانت أساليب الحصار فى القرن السادس عشر مختلفة تمامًا عنها فى القرن الرابع عشر – وبالرغم من جهود اللحظات الأخيرة المحمومة للمهندسين الڤينيسيين لتقويتها، كانت فرصة صمودها ضعيفة أمام المدفعية الكثيفة التى كان الأتراك قد برعوا فيها منذ فترة طويلة. كانت "كيرينيا – Kyrenia" قلعة منيعة ذات يوم، ولكنها أصبحت أطلالًا منذ زمن بعيد، ولم تكن لتصمد أمام أى هجوم كبير. كانت دفاعات كل المدن القبرصية إما مهملة أو لم يعد لها وجود. كان هناك نقص شديد فى الأسلحة والمؤن. يروى "فرا أنجيلو كاليبيو – Fra Angelo Calepio" الذى عاصر تلك الفترة أنه كانت هناك 1040 هركوبة فى المخازن ولكن لم تكن هناك تعليمات باستخدامها، والنتيجة أن كثيرًا من الجنود كانوا يجدون صعوبة فى إطلاقها دون أن تشتعل لحاهم.

لذلك، ولعيوب أخرى، كان لا بد من أن يقع اللوم الرئيسى على "نيكولو داندولو – Niccolo Dandolo". كان مترددًا، جبانًا، يتأرجح طول الوقت بين نوبات نشاط محموم وفترات كسل وفتور، لم يكن الشخص المناسب لامتلاك زمام القيادة العليا. على مدى الأشهر الموجعة التى جاءت بعد ذلك كان عقبة باستمرار، عدم قدرته على التمييز وحذره الزائد فتحا باب الشك بأن يكون فى خدمة العدو، ولكن ذلك لم يكن مؤكدًا. لحسن الحظ، كان هناك شخص أفضل منه فى فاماجوستا، قائدها "ماركانتونيو براجادين – Markantonio Pragadin".

كان الأسطول التركى قد ظهر بالقرب من الساحل فى الأول من يوليو، وها هو مرة أخرى تحت قيادة بيالى باشا. من ناحية أخرى كان هناك قائد جديد للجيش: لالا مصطفى باشا – Lala Mustafa Pasha، الذى تمكن، بفضل جبن داندولو، من أن ينزل كل قواته فى لارناكا دون أية مقاومة. بحلول اليوم الرابع والعشرين من الشهر، كان هو ورجاله يعسكرون أمام أسوار نيقوسيا. مرة أخرى ضاعت فرصة: طلب قائد المشاة الإيطالى الإذن للقيام بهجوم فورى عندما كان جنود العدو ما زالوا مرهقين بعد مسيرة ثلاثين ميلًا فى صيف قبرص الحارق، ومدفعيتهم وخيالتهم غير مستعدة، ولكن داندولو لم يقبل القيام بالمخاطرة، وبقى الأتراك فى خنادقهم دون إزعاج.

وهكذا بدأ الحصار، كان داندولو يخشى حدوث نقص فى البارود فقنن استخدامه، لدرجة أنه حتى من كان لديهم أسلحة من جنوده ويعرفون كيف يستخدمونها، كان محظورًا عليهم فتح النيران على أى عدد من الأتراك يكون أقل من مائة. صمدت المدينة خمسة وأربعين يومًا فى حرارة أغسطس الشديدة. وفى التاسع من سبتمبر، بعد أربعة عشر هجمة رئيسية، وبعد استقبال قوات لالا مصطفى باشا لعشرين ألف مقاتل جديد من البر الرئيسى، كان أن استسلمت المدينة. داندولو، الذى كان قد لجأ إلى قصر القائم مقام قبل ساعات، بينما كان رجاله ما زالوا يقاتلون أمام الاستحكامات - سوف يظهر أمام المدخل بردائه المخملى القرمزى، وعلى أمل أن يلقى المعاملة التى تليق بقدره؛ وبمجرد أن يهبط إلى آخر درجة من السلم، سوف يطيح ضابط تركى رأسه.

بعد ذلك كانت الأعمال الوحشية المعهودة: الذبح والقتل على الخازوق وتدنيس الكنائس واغتصاب الشباب من الجنسين. كانت نيقوسيا مدينة غنية، يوجد بها الكثير من الكنوز الكنسية والمدنية، الغربية والبيزنطية. لم يمض أكثر من أسبوع حتى كان كل الذهب والفضة والأحجار الكريمة وأوعية الذخائر الدينية المطلية بالميناء والأردية الكهنوتية المرصعة بالجواهر، والمخمل والبروكاد.. لم يمض أسبوع واحد وكان كل

ذلك قد تم تحميله على عربات خفيفة ذهبت به، كانت أكبر وأثمن كمية من الغنائم تقع فى أيدى الأتراك منذ الاستيلاء على القسطنطينية قبل أكثر من قرن. لم يكن لدى لالا مصطفى أية نية لكى يفقد هذا الزخم الذى تحقق. فى الحادى عشر من سبتمبر، بعد يومين فقط من سقوط نيقوسيا أوفد رسولًا إلى القادة فى فاماجوستا يدعوهم للاستسلام، حاملين معهم كدافع إضافى، رأس نيكولو داندولو فى وعاء. كان المعنى واضحًا. سيكون الدور عليهم.

سببت نيقوسيا للأتراك من المتاعب أكثر مما كانوا يتوقعون، ولكن تحدى فاماجوستا كان ما يزال أكثر جسامة. بكل تحصيناتها الجديدة كانت تبدو شديدة المنعة مثل أى مدينة أخرى. خلف هذه الأسوار الهائلة كان عدد المدافعين قليلًا – نحو ثمانية آلاف شخص مقارنة بقوة تركية كانت تتدفق عليها أعداد جديدة باستمرار من البر الرئيسى؛ ليصل العدد الإجمالى إلى ما لا يقل عن مائتى ألف مقاتل. من ناحية أخرى كانوا يجدون فى ماركانتونيو براجادين وفى القائد البيروجى: "آستور باجليونى – Astorre Ba-glioni" قائدين من الطراز الرفيع، سيزيد إعجابهم بهما أثناء المحاكمات القادمة.

بدأ الحصار فى السابع عشر من سبتمبر واستمر طوال الشتاء، كان المدافعون – على خلاف أولئك فى نيقوسيا – يشنون غارات عديدة خارج الأسوار، وأحيانًا كانوا ينقلون المعركة إلى معسكر الأتراك. فى آخر أبريل تقريبًا، أمر لالا مصطفى فرقة جنود الحفر الأرمينية لديه بحفر شبكة هائلة من الخنادق فى الشمال. وحيث إن عددهم كان نحو أربعين ألفًا وأضيف إليهم قوة عمل من المزارعين المحليين، مضى العمل بسرعة شديدة، وبحلول منتصف مايو كانت المنطقة كلها قد أصبحت أشبه بقرص العسل، مليئة بالحفر لمسافة ثلاثة أميال من الأسوار، وكانت الأنفاق تكفى لاستيعاب كل الجيش القائم بالحصار، وعميقة بحيث يمكن للخيالة أن يمروا بها، ولا يظهر سوى رؤوس حرابهم الدقيقة لمن يراقبهم من المتاريس. من جانبهم، أقام الأتراك عشرة أبراج على مسافات قريبة بالتدريج من المدينة، يستطيعون إطلاق النيران منها على المدافعين، وكان من هذه الأبراج أن بدأ القصف النهائى فى الخامس عشر من مايو.

كان الفينيسيون يقاتلون بشجاعة وإصرار، ولكن مع مرور الأسابيع كانوا قد بدأوا يفقدون حماستهم. ضعف الأمل فى وصول دعم ومساندة فينيسية إسبانية كبيرة. كان البارود يتناقص والغذاء ينفد على نحو أسرع. بحلول شهر يوليو كانوا قد أكلوا الخيول والحمير والقطط، لم يكن قد تبقى شىء سوى الخبز والفول. من بين المدافعين، لم يكن هناك سوى خمسمائة فرد قادرين على حمل السلاح وكانوا يتساقطون نتيجة قلة النوم،

ومع ذلك واصلوا القتال. حتى اليوم الأخير من ذلك الشهر الأشبه بالكابوس، لم يكن براجادين وباجليونى يستطيعان مواجهة حقيقة أنهما لن يستطيعا الصمود أكثر من ذلك. بالاستسلام الطوعى وحده، وحسب قواعد الحرب المقبولة، كان يمكنهما تفادى السلب والنهب وكانت كلها أمورًا حتمية، وجاء فجر الأول من أغسطس ليكشف عن راية بيضاء ترفرف فوق أسوار فاماجوستا.

كانت شروط السلام سخية بدرجة مثيرة للدهشة. سيكون مسموحًا لكل الإيطاليين بأن يستقلوا السفن رافعة أعلامها إلى كريت، بصحبة من يريد أن يذهب معهم من اليونانيين والألبان والأتراك. اليونانيون الراغبون فى البقاء ستكون حريتهم الشخصية وممتلكاتهم مكفولة، وسيمنحون فترة عامين يقررون فيها ما إذا كانوا سيبقون بشكل دائم أو لا. من يريد أن يرحل سوف يُمكَّن من ذلك بأمان إلى أى بلد يختار. وقع الوثيقة التى نصت على هذه الشروط لالا مصطفى شخصيًا، وختمت بخاتم السلطان، ثم أعيدت إلى براجادين. وباجليونى مع خطاب تغطية يثنى على شجاعتهم ودفاعهم المجيد عن المدينة.

فى الخامس من أغسطس، أرسل براجادين رسالة إلى لالا مصطفى يعرض عليه أن يزوره لكى يسلمه مفاتيح فاماجوستا، وجاء الرد بأن الجنرال يسعده أن يستقبله. انطلق براجادين فى ذلك المساء ذاته مرتديًا ثوبه القرمزى الرسمى يصحبه باجليونى وعدد كبير من الضباط، فى حراسة مجموعة مختلطة من الجنود الإيطاليين واليونانيين والألبان، واستقبله لالا مصطفى بكل احترام. ثم دون سابق إنذار اربدَّ وجهه وتغير أسلوبه، وفى غضب شديد، راح يكيل اتهامات لا مبرر لها للمسيحيين الواقفين أمامه – لقد قتلوا الأسرى الأتراك وأخفوا الذخيرة بدلًا من تسليمها حسب شروط الاستسلام. وفجأة، استل سكينًا وقطع أذن براجادين اليمنى، وأمر أحد الحجاب بقطع أذنه الأخرى وجدع أنفه. ثم استدار ناحية حراسه وأمرهم بإعدام جميع أفراد الوفد على الفور. قطعوا رأس باجليونى وكذلك رأس قائد المدفعية "لويجى مارتينجو – Luigi Martinengo". تمكن واحد أو اثنان من الهرب ولكن الأغلبية ذبحوا مع عدد آخر من المسيحيين الذين تصادف أن كانوا قريبين. وأخيرًا وضعوا كل الرؤوس المقطوعة فى كومة أمام خيمة لالا مصطفى. يقال: إن عددها كان ثلاثمائة وخمسين رأسًا.

المصير الأسوأ كان من نصيب ماركانتونيو براجادين. أودع السجن لمدة أسبوعين، وفى تلك الفترة تقيحت جروحه وساءت صحته، وآنذاك فقط بدأ تعذيبه. أولًا: سحلوه حول أسوار فاماجوستا حاملًا على ظهره أكياسًا مملوءة بالأحجار والطين، ثم ربطوه بكرسى وعلقوه على طرف عارضة شراع سفينة تركية، وعرضوه لسخرية وتوبيخ

البحارة، وأخيرًا أخذوه إلى مكان الإعدام فى الميدان الرئيسى وربطوه عاريًا فى عمود وسلخوا جلده بالفعل. يقال: إنه تحمل كل ذلك العذاب فى صمت لمدة نصف الساعة، وعندما وصل الجلاد إلى نصف جسده كان قد فارق الحياة. بعد الانتهاء من ذلك، فصلوا رأسه وقطعوا جسده أربعة أجزاء وحشوا جلده بالقش والقطن وأركبوه بقرة طافوا بها شوارع المدينة.

عندما أبحر لالا مصطفى عائدًا إلى بلاده فى الثانى والعشرين من سبتمبر، كان يحمل معه – كتذكار – رؤوس كبار الضحايا وجلد ماركانتونيو براجادين، التى قدمها مزهوًّا للسلطان. مصير الرؤوس غير معروف، ولكن بعد تسع سنوات تمكن أحد الناجين من الحصار، واسمه "جيرولامو پوليدورو – Girolamo Polidoro"، من سرقة الجلد من ترسانة القسطنطينية وأعاده إلى أبناء براجادين الذين أودعوه كنيسة سان جريجورى فى ڤينيسيا. ومن هنا، انتقل فى 1596 إلى كنيسة القديسين سان چيوڤانى وپاولو – SS. Giovanni e Paolo؛ حيث وضع فى كوة الممر القريب من الباب الغربى خلف جرة حفظ الرماد، التى تشكل جزءًا من نصب البطل التذكارى.

فى الرابع والعشرين من نوفمبر 1961، وبموافقة أقرب أقارب براجادين، فتحت الكوة، ليجدوا بها علبة صغيرة من الرصاص بها عدة قطع من الجلد البشرى لونها أسمر ضارب إلى الصفرة.

هوامش الفصل السادس عشر

(1) التوفة – Tufa حجر رملى مسامى. (المترجم)

(2) ما زال هذا المستشفى موجودًا فى "ترك سانتا سكولاستيكا – Triq Santa Scholastica"، وهو الآن دير للراهبات البنديكت.

(3) الجلياس – Galleass سفينة حربية شراعية ضخمة ذات مجاذيف. (المترجم).

(4) Gascon – من أبناء جاسكونيا فى جنوب غرب فرنسا (المترجم)

(5) حملة الهركوبة – Arquebusiers. والهركوبة سلاح نارى قديم له شكل البندقية. (المترجم)

(6) منطقة منخفضة خلف الميناء الكبير، وكان يعرف أنها لا بد من أن تكون المصدر الرئيسى للمياه بالنسبة لأى جيش يقوم بالحصار.

(7) حرف "I" الزائد فى اسم المكان لا يمكن تفسيره

(8) "Preti"، (1613 – 1699) فنان ينتمى لمدرسة نابولى الفنية، أمضى السنوات الثمانى والثلاثين الأخيرة من حياته فى مالطة.

(9) دليل الأعمال التجارية. (المترجم)

الفصل السابع عشر
ليپانتو والمؤامرة الإسپانية

• المعركة تبدأ: 1571 • ليپانتو: الخلاصة: 1571 • أهمية ليپانتو: 1571 • ڤينيسيا تتوصل إلى تفاهم: 1573 • معركة الملوك الثلاثة: 1578 • طرد الموريسكيين: 1609 • دوق أوسونا: 1615 • مصير الأوسكوكس: 1617 • المؤامرة الإسپانية: 1618

كان فشل حملة قبرص ضربة مهينة لكل من ڤينيسيا والنظام البابوى، إلا أن المفاوضات كانت مستمرة بالفعل من أجل تحالف أكثر قوة وتأثيرًا. كان المحرك الأول لهذه المبادرة هو البابا پيوس الخامس، الذى كان قد فكر طويلًا وبعمق فى الخطر التركى، وأدرك أن العقبة الرئيسية أمام أى تفاهم وثيق بين ڤينيسيا وإسپانيا - هى أن ڤينيسيا كانت ترى المشكلة فى علاقتها بمستعمراتها فى الشرق اللاتينى، بينما كانت إسبانيا أكثر قلقًا بسبب الخطر الذى يمثله ولاة السلطان المسلمون على ممتلكاتها فى شمال أفريقيا. من هنا، كان قد توصل إلى أن الهدف الأول للعالم المسيحى لا بد من أن يكون هو إعادة السيطرة على الحوض الأوسط من البحر الأبيض، لعزل أراضى السلطان الأفريقية عن تلك فى أوروبا وآسيا، وبذلك يتم شق إمبراطوريته إلى قسمين. فى يوليو 1570، دعا لمؤتمر لوضع مسودة ميثاق عصبة مسيحية جديدة، وعلى مدى الأشهر التالية تمكن، بعد حوار متأن ودعم ڤينيسى قوى من أن يكسب الملك فيليپ إلى صفه.

أعلنت الاتفاقية التى توصلوا إليها رسميًّا فى الخامس والعشرين من مايو 1571 فى كنيسة سان پيتر. ستكون هذه الاتفاقية هجومية كما هى دفاعية، وليست موجهة ضد الأتراك العثمانيين فحسب، وإنما ضد ولاتهم المسلمين وشركائهم فى الدين كذلك، على امتداد الساحل الشمالى الأفريقى. كان على الموقعين (إسبانيا وڤينيسيا والنظام البابوى، وترك الباب مفتوحًا أمام الإمبراطور وملوك فرنسا وپولنده للانضمام إن رغبوا فى ذلك)- أن يجهزوا مائتى سفينة (جالية)، ومائة سفينة نقل، وخمسين ألف جندى مشاة، وأربعة آلاف وخمسمائة جندى خيالة، بالإضافة إلى المدفعية والذخيرة اللازمة. سوف تلتقى هذه القوات فى شهر أبريل من كل عام، على أكثر تقدير، لتنسيق حملة صيفية أينما وجدوا ذلك مناسبًا، وكل شتاء ستكون هناك مشاورات فى روما للاتفاق على نشاط العام التالى، وفى حال تعرض إسپانيا أو ڤينيسيا لأى هجوم تقوم الدولة الأخرى بمساعدتها، كما تتعهد كلتاهما بالدفاع عن الأراضى البابوية بكل الوسائل المتاحة. سيكون القتال كله تحت راية العصبة، أما القرارات المهمة فسيتم اتخاذها بأغلبية الأصوات بين الجنرالات الثلاثة المسئولين عن القيادة: سيباستيانو ڤينيير عن ڤينيسيا، وماركانتونيو كولونا عن النظام البابوى، و»دون چون النمساوى – Don John of Austria“، القائد العام للأسطول المشترك والأخ غير الشقيق للملك، عن إسپانيا.

كان دون چون ابنًا غير شرعى للملك شارل الخامس من سيدة ألمانية تدعى "باربرا بلومبيرج – Barbara Blomberg". كان فى السادسة والعشرين من العمر، شديد الوسامة، ولديه قدرات قيادية، وكان قد حقق درجة من الشهرة – أو سوء السمعة – فى العام السابق، بعد أن نجح فى إخماد انتفاضة موريسكية فى إسپانيا. عبر الڤينيسيون عن سعادتهم بهذا الاختيار، وكانوا محقين فى ذلك؛ حيث إن الاختيار الأول للملك قد وقع على أندريا دوريا، ولكنه تراجع عنه لحسن الحظ. لكن سعادتهم كانت ستكون أقل، لو أنهم علموا أن ڤيليب الذى كانت لديه شكوك فى أن تكون شجاعة الأمير الصغير أكبر من حكمه، كان قد أمره بألا يدخل معركة تحت أى ظرف دون موافقة صريحة من دوريا.

بالرغم من أن الوقت كان قد تأخر لمراعاة الجدول الزمنى الذى حددته الاتفاقية، كان الحلفاء مجمعين على ضرورة ألا يضيع صيف 1571، وأن قوات الحملة كان لا بد من أن تتجمع على وجه السرعة فى مسينى لكى تبحر منها بحثًا عن الأسطول العثمانى. بحلول شهر أغسطس، كان الكل قد وصلوا، وكان دون چون قد صاغ أوامره بالإبحار. سيكون هو نفسه مع ڤينيير وكولونا فى وسط التشكيل بأربعة وستين جالية. الجناح الأيمن سيكون تحت قيادة دوريا بأربعة وخمسين أخرى، والأيسر بثلاثة وخمسين، سيكون تحت قيادة الڤينيسى "أوجستينو بارباريجو – Augustino Barbarigo"؛ وإلى جانب ذلك ستكون هناك طليعة صغيرة متقدمة مكونة من ثمانية جاليات، ومؤخرة من ست، سيقودها على التوالى "دون چوان دو كاردونا – Don Juan de Cardona" و"ماركيز سانتا كروز – Marquis of Santa Cruz"، مع تخصيص ست جاليات لكل مجموعة. الغليونات وسفن النقل الثقيلة (التى لم يكن لها مجاذيف مثل الجاليات وكانت تعتبر أقل قدرة على المناورة) ستشكل قافلة مستقرة.

كانوا متجرئين ومستقوين بسقوط فاماجوستا وبرحيل الأسطول الڤينيسى بالفعل من مسينى، كان الأتراك يدخلون الأدرياتيكى بقوة. رسوهم فى كورفو وعلى امتداد ساحل دالماشيا أثار خوفًا متزايدًا فى ڤينيسيا من غزو مفاجئ يمكن أن يجد المدينة دون دفاعات تقريبًا. عند اقتراب الأسطول المشترك، كانوا قد انسحبوا بسرعة إلى قواعدهم فى اليونان ولم يكونوا يريدون أن يحاصرهم العدو من كل جانب فى البحر الضيق. وهكذا كان أن أبحروا خارجين من "ليبانتو – Lepanto" (نوپاكتوس – Naupactos الحديثة على خليج پاتراس – Patras) فى السادس من أكتوبر؛ لكى يقابلوا المسيحيين الزاحفين.

** ** **

كان المسيحيون يعيشون حالة حرب. قبل يومين، كانوا قد سمعوا فى "شيفالونيا – Chephalonia" بسقوط فاماجوستا، وبخاصة عن موت ماركانتونيو، وكانت القلوب ممتلئة بالغضب والحقد. وفى اليوم نفسه وقع حادث كارثى؛ إذ قام ضابط إسبانى وعدد من الرجال على سفينة سيباستيانو ڤينيير بسب بعض الڤينيسيين وإهانتهم؛ ليدور قتال عنيف مات فيه عدد كبير منهم. ڤينيير، بمبادرة شخصية منه ودون استشارة أحد، أمر بشنق جميع المتورطين على الصارى، وعندما علم دون چون بذلك استشاط غضبًا وأمر بالقبض على الكابتن – وهو أمر لو تم تنفيذه لكان قد أدى إلى تمزق الأسطول كله - ولحسن الحظ تدخلت أصوات أكثر تعقلًا (ربما كولونا) فسحب الأمر وإن كان لم يغفر لـ "ڤينيير" فعلته؛ ومنذ ذلك الوقت ستصبح كل اتصالاته بالقوة الڤينيسية من خلال القائد الثانى.

تقابل الأسطولان فجر السابع من أكتوبر على بعد ميل أو ميلين شرقى "رأس سكروفا – Cape Scropha" عند مدخل خليج پاتراس. لم تكن الغليونات قد وصلت، ولكن دون چون كان مصرًا على أن يشتبك مع العدو فورًا. قام بسرعة بتعديل أمر القتال – حيث تسلم كل من باربايجو ودوريا عشرة جاليات أخرى، ووضع سفنه فى تشكيل قتال وأبحر بنية الهجوم. كان الأتراك مستعدين له بأسطول كان ندًا لأسطوله تقريبًا، على شكل هلال ممتد بين شاطئ الخليج. كان على باشا، قائد الأسطول، يقود المجموعة الوسطى المكونة من سبعة وثمانين جالية، وعلى يمينه كان "محمد سولاك – Mehmet Saulak" حاكم الإسكندرية بأربعة وخمسين سفينة أخرى، أما على اليسار فى مواجهة دوريا، فكان "أولك على – Uluch Ali" بواحد وستين سفينة.

بدأت المعركة فى العاشرة والنصف صباحًا تقريبًا، عند الحد الشمالى للخطوط؛ حيث اشتبك جناح دون چون الأيسر بقيادة بارباريجو مع جناح على الأيمن بقيادة سولاك. كان القتال ضاريًا، وفى لمح البصر هاجمت خمس سفن تركية سفينة قيادة بارباريجو وأطلقت عليها وابلًا من السهام، أصاب أحدها الأدميرال الڤينيسى إصابة مباشرة فى عينه ليقتله. تسلم القيادة بعده "ماركو كونتارينى – Marco Contarini" ابن أخته، الذى قتل هو الآخر بعد خمس دقائق. غير أن القتال انتهى بانتصار حاسم للمسيحيين الذين نجحوا فى آخر الأمر فى دفع الجناح الأيمن التركى إلى الشاطئ. هجر الأتراك سفنهم وحاولوا الهرب فى التلال القريبة إلا أن الڤينيسيين قاموا بمطاردتهم ومزقوهم أثناء فرارهم. وقع سولاك أسيرًا ولكنه كان مصابًا بجراح شديدة فلم يعش طويلًا.

بعد ذلك انتقل التركيز إلى الوسط، ففى الساعة الحادية عشرة تقريبًا، كانت جاليات دون چون تتقدم جنبًا إلى جنب فى تشكيل خطى بسرعة منتظمة، اقتربت من سفن على باشا، وكانت سفينتا القيادة تتجهان رأسًا كلتاهما صوب الأخرى. اشتبكت السفينتان وحدث الشىء نفسه بين بقية الجاليات من الجانبين بعد أن اقتربت كلها من الوسط لدرجة أن أصبح البحر غير مرئى. كان الناس يقفزون ويتدافعون فى قتال متلاحم بالسيوف على اختلاف أنواعها. أكثر من مرة، قفز جنود الإنكشارية فوق سفينة دون چون "The Real" وأكثر من مرة كان الإسپان يردون الهجوم. كانت الهجمة الأخيرة تحت غطاء نيران كثيفة من كولونا الذى كان قد أصاب سفينة "پيرتو باشا – Pertau Pasha" القائد الثانى لقوة على. كان فى هذه المرة أن أصيب على فى جبهته بقذيفة مدفع بمجرد سقوطه، وقام جندى من ملقة بقطع رأسه الذى رشقه على سن رمح وأخذ يلوح به تحفيزًا لرفاقه. بعد مقتل قائدهم وأسر سفينتهم القيادية كان الأتراك يشعرون باليأس. تحطم عدد كبير من سفنهم فى هذه المعمعة، وما نجا منها استدار وهرب.

فى الجنوب، كانت الأمور فى الوقت نفسه أكثر سوءًا. منذ بداية التقدم فى العاشرة من صباح ذلك اليوم، كان چيان أندريا دوريا قلقًا على موقفه. كان الجناح الأيسر التركى بقيادة أولك على الذى يواجهه أقوى، وتشكيله الخطى أكثر طولًا، وممتدًّا فى اتجاه الجنوب لمسافة أبعد من خطه ويهدد بتطويق سفنه. (كان لديه 64 سفينة مقابل 93 سفينة لعلى). لتفادى هذا الخطر، كان أن غير مساره إلى الجنوب، وهو القرار الذى تسبب فى إحداث ثغرة، راحت تتسع، بينه وبين دون چون. كان ينبغى أن يحسن التصرف أكثر من ذلك. عندما وجد أولك على هذه الثغرة، غير خططه على الفور، وحول وجهته إلى الشمال الغربى بهدف اختراق خط التشكيل المسيحى والهجوم على مؤخرته. وضعه هذا المسار الجديد فى مواجهة الحد الجنوبى لقوة دون چون، التى كانت مكونة من عدد قليل من السفن، التى كان فرسان مالطة قد شاركوا بها. حارب الفرسان بشجاعة ولكن لم تكن لديهم فرصة، وسط تلك الظروف، فقتلوا عن آخرهم. تم قطر سفينة قيادتهم ورفع أولك على علمهم المأسور على سفينته.

فى ذلك الوقت، كان دون چوان دى كاردونا، الذى كانت جالياته الثمانية مدخرة على سبيل الاحتياط، كان يسارع لنجدة الفرسان، وعندما اقترب، هاجمته ست عشرة سفينة تركية؛ لتكون أعنف مواجهة وأكثرها دموية فى ذلك اليوم. عندما انتهت كان هناك أربعمائة وخمسين جنديًّا، من بين جنود سفن كاردونا الخمسمائة، بين قتيل وجريح، وكان كاردونا نفسه على وشك الموت. وعندما رسا عدد كبير من السفن فيما بعد،

وجدت مليئة بالجثث. كانت سفن أخرى تحاول القيام بعمليات إنقاذ: قوة الاحتياط الثانية بقيادة سانتا كروز (بمجرد أن تمكن من مغادرة موقعه فى المعركة) ودون چون نفسه. لم ينتظر أولك على طويلًا، فأمر 13 سفينة من سفنه بالإسراع، واندفع بها فى اتجاه الشمال الغربى بأقصى سرعة نحو "ليوكاس – Leucas" وپريڤيزا. انصرفت السفن الباقية فى الاتجاه الآخر لتعود إلى ليپانتو.

** ** **

بالرغم من الارتباك والخسائر الفادحة الناجمة عن جبن چيان أندريا دوريا وضعف كفاءته البحرية، (كان هناك كثير من رفاقه الذين اتهموه بالنقيصتين بعد المعركة) كانت معركة ليپانتو انتصارًا حاسمًا للعالم المسيحى. وبحسب تقديرات موثوقة، لم يفقد المسيحيون سوى 12 جالية غرقت، وسفينة واحدة وقعت فى الأسر؛ أما خسائر الأتراك فكانت 113 سفينة غارقة و117 مأسورة. كانت الخسائر فادحة فى الجانبين، وكان ذلك حتميًّا؛ حيث دار القتال متلاحمًا، ولكن بينما كانت خسائر المسيحيين لا تزيد عن خمسة عشر ألف مقاتل تقريبًا، يعتقد أن خسائر الأتراك كانت ضعف ذلك، بالإضافة إلى الثمانية الآلاف الذين وقعوا فى الأسر.[1] إلى جانب ذلك كان هناك الكثير من أعمال السلب والنهب؛ إذ وجدوا فى سفينة على باشا وحدها مائة وخمسين ألف سكوينة[2]. وأخيرًا – يجيء الرقم الذى كان أكثر مدعاة للفرح بين الأرقام: خمسة عشر ألف من العبيد المسيحيين الذين كانوا يعملون على الجاليات التركية، تم تحريرهم. لذلك كله، لا بد أن يعود الفضل لـ «دون چون» نفسه، الذى كانت إدارته لأسطوله الضخم، غير المتجانس بارعة، والذى كان استخدامه الرائع لقوة نيرانه ذا تأثير كبير فى تطور الحرب البحرية. فى المستقبل، ستكون المدافع هى التى تقرر مصير معارك البحر أكثر من السيوف، وهو ما يعنى بدوره أنه ستكون هناك سفن أكبر وأثقل، لا يمكن دفعها سوى بالشراع. كانت ليپانتو آخر اشتباك بحرى كبير تخوضه الجاليات ذات المجاذيف، التى تنطح بعضها البعض رأسًا برأس. لقد بدأ عصر نيران مدفعية السفن.

كان الثامن عشر من أكتوبر، عندما وصلت الجالية «أنجلو – Angelo" بالأخبار إلى ڤينيسيا. كانت المدينة ما زالت فى حالة حداد على ضياع قبرص، غاضبة على المعاملة الوحشية التى لقيها براجادين، وتخشى ما يخبئه المستقبل من المزيد من النكسات. فى غضون ساعة من ظهور "أنجلو" وهى تجرجر الأعلام التركية خلفها فى الماء، وسطحها محمل بالغنائم وتذكارات النصر، تغيرت الحالة المعنوية تمامًا. لقد ثارت ڤينيسيا لنفسها ولم يكن عليها أن تنتظر طويلًا لكى تحقق ذلك. فجأة، دب الفرح

فى كل مكان، وأسرع الجميع إلى الميدان الكبير ليقفوا على تفاصيل المعركة... ويحتفلوا بالنصر. فتحت بوابات سجن المدينين بموجب عفو عام، بينما انسحب التجار الأتراك إلى داخل "وكالة الأتراك – Fondaco dei Turchi" إلى أن انتهت الاحتفالات حفاظًا على سلامتهم؛ وفى كنيسة سان مارك كانت هناك ترنيمة شكر – Te Deum تبعها قداس شكر كبير. فى تلك الليلة لم يكن هناك مبنى فى المدينة لم تضئه من الداخل والخارج الشموع والمصابيح. وفى احتفال – أكثر دوامًا – بالحدث، تم تكبير المدخل الرئيسى للترسانة وتزيينه بإضافة أسد مجنح آخر لـ "سان مارك"، مع نقش ملائم. بعد عام أو اثنين، سيقام تمثال لـ "سان چستينا – St. Justina" فى المثلث الذى يعلو الواجهة؛ حيث إن الانتصار فى المعركة كان قد تحقق يوم عيده؛ ومن 1572 حتى سقوط الجمهورية فى 1797 سوف يتم الاحتفال بهذا اليوم (السابع من أكتوبر) سنويًا؛ حيث يمر موكب للدوچ وعلية القوم – Signoria، إلى كنيسة ذلك الراعى المبارك، التى تعرض أمامها الأعلام التركية التى تم الاستيلاء عليها.

هكذا يتم تذكر ليبانتو باعتبارها إحدى المعارك الفاصلة فى العالم. كانت أعظم مواجهة بحرية بين أكتيوم، التى كانت قد وقعت على بعد نحو ستين ميلًا، و"ترافالجار – Trafalgar". فى إنجلترا وأمريكا، هناك اعتراف بأن شهرتها الباقية تستند إلى حد كبير إلى قصيدة "چى. ك. تشسترتون – G. K. Chesterton" الشهيرة (وإن كانت غير دقيقة)، ولكن فى دول البحر الأبيض الكاثوليكية فقد كسرت حدود التاريخ ودخلت عالم الأسطورة، فهل تستحق هذه الشهرة؟ من الناحية الفنية والتكتيكية .. "نعم". بعد 1571 لم تعد المعارك الحربية مثلما كانت. أما من الناحية السياسية فالإجابة "لا". لم تكن ليبانتو – كما كان يتمنى المنتصرون فيها – نهاية لحركة البندول، ولا النقطة التى تحولت عندها مصائر المسيحيين فجأة لحشد القوة التى تدفع الأتراك وتردهم إلى قلب آسيا الذى جاؤوا منه. ڤينيسيا لم تستعد قبرص، بعد عامين كان عليها أن توقع سلامًا منفصلًا مع السلطان تتنازل بموجبه عن مطالبتها بالجزيرة. لم تكن ليبانتو كذلك تعنى آخر خسائرها، ففى القرن التالى سيكون ذلك هو نفس مصير كريت. بالنسبة لإسپانيا، لم يؤد انتصار ليبانتو إلى زيادة سيطرتها على الحوض الأوسط من البحر الأبيض، بعد سبعة عشر عامًا، ستكون الهزيمة التاريخية لأسطولها العظيم (الأرمادا) على يد البريطانيين ضربة قاصمة لقوتها البحرية، لن تفيق منها بسرعة؛ ولن تكون قادرة على كسر الروابط بين القسطنطينية والأمراء المسلمين الولاة فى الشمال الأفريقى؛ وفى غضون ثلاث سنوات سيقوم الأتراك بطرد الإسپان من تونس، ويجعلون من الحكام المحليين إقطاعيين تابعين لهم، وسوف يحيلون المنطقة – كما أحالوا بالفعل معظم

الجزائر فى الجزء الغربى وتريبوليتانيا فى الشرق – إلى وضعية ولاية عثمانية.

ولكن بالنسبة لكل أولئك المسيحيين الذين فرحوا فى أيام أكتوبر تلك، لم تكن الأهمية الحقيقية لمعركة ليبانتو تكتيكية ولا سياسية، كانت معنوية فى المقام الأول. كانت السحابة السوداء الثقيلة التى خيمت عليهم على مدى قرنين، والتى كانت تتزايد إنذارًا بخطر مضطرد، لدرجة جعلتهم يشعرون بأن أيامهم كانت معدودة، كانت تلك السحابة قد انقشعت الآن. من لحظة لأخرى كان الأمل يولد من جديد. ربما يكون المؤرخ الڤينيسى "پاولو پاروتا – Paolo Paruta" هو أفضل من لخص الشعور العام، فى الخطاب الذى ألقاه فى جنازة قتلى المعركة فى كنيسة سان مارك. يقول:

> **لقد علمونا من خلال المثل الذى ضربوه لنا أن الأتراك ليسوا فوق الهزيمة، كما كنا نعتقد من قبل.. وهكذا يمكن أن نقول: إنه مثلما كانت بداية تلك الحرب بالنسبة لنا لحظة غروب تتركنا فى ليل دائم، فإن شجاعة أولئك الرجال، تبدو الآن مثل شمس حقيقية، جاءت لنا بأسعد نهار وأجمل نهار عرفته المدينة فى تاريخها.**

وبالنسبة لكل ڤينيسى وطنى، كان يبدو من الضرورى أن يتواصل هذا الانتصار العظيم دون إبطاء. ينبغى عدم ترك الأتراك يستريحون، ينبغى عدم السماح لهم بالتقاط أنفاسهم، لا بد من مطاردتهم وجرهم للقتال مرة أخرى قبل أن تتهيأ لهم فرصة لاستجماع قوتهم، وما دام الدافع لدى الحلفاء ما زال قويًا. كانت تلك هى الرسالة التى كانت حكومة الإمبراطورية تقدمها الآن لحلفائها الإسپان والبابويين، ولكن نداءها لم يلق آذانًا مصغية. دون چون نفسه، ربما يعتقد المرء ذلك، وافق سرًا، وكان يسعده أن يضغط فى الشتاء، ولكن الأوامر الصادرة إليه من فيليپ كانت واضحة. كان الحلفاء سوف يجتمعون فى الربيع حسب اتفاق العصبة، وكان عليه أن يودعهم إلى أن يلتقوا؛ وعليه، عاد بأسطوله إلى مسينى.

بحلول ربيع 1572، كان قد بات واضحًا بالنسبة للڤينيسيين أن مخاوفهم كانت صحيحة. كانت إسپانيا كالعادة تراوغ وتماطل مبدية اعتراضًا تلو الآخر. فعل البابا پيوس ما فى وسعه لكى يحفزهم على العمل، ولكنه كان رجلًا مريضًا ومات فى الأول من مايو. بموته، فقدت العصبة الروح. وأخيرًا، ويأسًا من المساعدة الإسپانية، قررت ڤينيسيا القيام بحملة من جانبها، انضم إليها ماركانتونيو كولونا طواعية، بمجموعة سفنه البابوية. كان ذلك فحسب هو ما حفز الإسپان على المشاركة. لم يكونوا يريدون أن يكونوا بعيدين عن انتصار آخر. تبددت اعتراضات فيليپ، وفى يونيو صدر الإذن لـ «دون چون» بالانضمام إلى حلفائه.

تجمع الأسطول فى كورفو وأبحر جنوبًا بحثًا عن العدو. كان الحلفاء قد عرفوا، مع قدر من الاستياء، أن السلطان سليم كان قد استطاع أن يبنى فى خلال الشهور الثمانية التالية بعد ليبانتو أسطولًا جديدًا قوامه 150 جالية و8 جلياسات، وكان ذلك النوع من السفن اختراعًا جديدًا بالنسبة للأتراك الذين أدهشهم استخدام دون چون الرائع لها فى ليبانتو. كما انتشرت شائعات كذلك عن أن بناة السفن الذين كانوا يعرفون ما ينتظرهم لو أنهم لم يلتزموا بالتوقيتات التى حددها السلطان، كانوا مضطرين لاستخدام خشب أخضر (لم يجف جيدًا بعد) وأن المدافع كان قد تم صنعها على عجل، ولذا كان معظمها عديم الفائدة، وأن الأطقم التى تم إدخالها الخدمة بسرعة بعد الهزائم الفادحة، لم يكن من المرجح أن تسبب متاعب كبيرة للحلفاء. كانت المشكلة الأكبر هى جعلهم يشاركون فى المعركة.

وهذا ما حدث. التقى الأسطولان بالقرب من «مودون – Modone"، التى كانت على مدى 250 سنة أحد المراكز التجارية الرئيسية فى جزر البيلوپونيز، إلى أن سقطت فى يد السلطان فى سنة 1500؛ وعلى الفور سارع الأتراك باللجوء إلى الميناء. تبعهم الحلفاء واحتلوا مواقعهم فى المكلأ[3] بالقرب من «ناڤارينو – Navarino» (پيلوس – Pylos الحديثة) واستقروا هناك منتظرين. كانوا يعرفون جيدًا أن مودون لا يمكن أن تستوعب ذلك الحجم لمدة طويلة، فالجبال الخلفية فى المنطقة مقفرة وليس بها طرق، وكانت المؤن كلها لا بد من أن تأتى عن طريق البحر. كانت مسألة وقت فحسب، قبل أن يضطر العدو للظهور لكى تقع ليبانتو أخرى.

ولكن ڤينيسيا – مرة أخرى – كانت ترى آمالها تتحطم، وكان الإسپان هم السبب. فى السابع من أكتوبر – الذكرى الأولى للمعركة الكبرى – أعلن دون چون فجأة أنه لن يستطيع البقاء فى المياه اليونانية أطول من ذلك، وأنه سيعود إلى الغرب. سأل القائد العام الڤينيسى "چياكومو فوسكارينى – Giacomo Foscarini" مشدوهًا عن السبب، وعندما جاءت إجابة الأمير غير مقنعة، وهى أن مؤونته كانت قد أوشكت على النفاد، عرض عليه على الفور أن يزوده من مخزونه وأن يطلب المزيد من ڤينيسيا إذا لزم الأمر. ولكن دون چون، الذى كان يعمل بناء على أوامر من إسپانيا، لم يهتز، كما انحاز له كولونا لسبب غير معروف. كان على فوسكارينى أن يواجه حقيقة أن أسطوله لم يكن بتلك القوة لكى يتحدى الأتراك بمفرده. غاضبًا بشدة لفكرة ضياع الفرصة، لم يكن أمامه من خيار سوى أن يصدر أوامره بالعودة.

طوال فصل الشتاء، كان سفير ڤينيسيا لدى مدريد يحاول إقناع الملك فيليپ. كان يقول: إن الأتراك كانوا حادبين على السيطرة على العالم، وأنهم كانوا يوسعون أراضيهم

منذ أكثر من خمسمائة عام ومستمرين فى ذلك، وكلما ترك لهم الحبل على الغارب لكى يتقدموا أصبحوا أكثر قوة بحيث لا يمكن مقاومتهم. بالتأكيد، كان من واجب الملك إزاء العالم المسيحى – وأمام نفسه إن كان يريد أن يحتفظ بالعرش – أن يحاربهم، وألا يهدأ حتى يكمل الإنجاز الذى بدأ فى ليبانتو. ولكن فيليب كان يرفض أن يستمع. كان يكره ڤينيسيا ولا يثق بها؛ أما بالنسبة للأتراك فهو قد أدى واجبه فى العام الفائت.. وبنجاح كبير. بعد انتصار كذلك، فإنهم لن يستطيعوا أن يرفعوا رأسهم قبل مرور وقت طويل. فى الوقت نفسه كان مشغولًا بتمرد "وليم الصامت – William the Silent" فى الأراضى الواطئة، لم يذهب منتحبًا مثل الأطفال إلى ڤينيسيا لكى تساعده على حل مشكلاته، ولم يكن يجد سببًا يجعله يساعدها أكثر من ذلك فى حل مشكلاتها.

يضاف إلى ذلك أن شارل التاسع ملك فرنسا، كان مشغولًا فى أشهر ذلك الصيف نفسه، بالتآمر على فيليب والكيد له على ثلاث جبهات. فى الأراضى الواطئة، كان يقدم للمتمردين عليه كل ما يستطيع من دعم، وفى البحر الأبيض كان يناور للاستيلاء على الجزائر؛ حيث كانت مكائده هى السبب فى استدعاء دون چون من ناڤارينو، وفى ڤينيسيا والقسطنطينية كان سفراؤه يعملون بكل طاقتهم لتحقيق سلام بين السلطان والجمهورية. بحلول أوائل الربيع كانوا قد نجحوا. لم تكن ڤينيسيا تريد شيئًا من ذلك، فمنذ ليبانتو وهى تبذل قصارى جهدها لكى تبقى على العصبة متماسكة وإقناع أعضائها للاشتراك معها فى هجوم صريح لا يتوقف – بعون الرب – إلا عند القسطنطينية نفسها. إلا أنها فشلت. لم يكن فيليب – صراحة – مهتمًا بذلك، ولا البابا الجديد جريجورى الثالث عشر. وبعد أن تخلى عنها حلفاؤها، ولأنها أدركت تمامًا أن مواصلة الحرب بمفردها كان يعنى استدعاء غزو تركى جديد للأدرياتيكى مع احتمال كبير أن يتم الاستيلاء على كريت – آخر معاقلها فى الشرق اللاتينى، بعد ذلك كله لم يكن أمام ڤينيسيا من خيار سوى القبول بالشروط التى كانت معروضة عليها. وفى الثالث من مارس 1573 تم توقيع الاتفاقية. تعهدت ڤينيسيا، بين أشياء أخرى، بأن تدفع للسلطان ثلاثمائة ألف دوكاتية على ثلاث سنوات، وأن تتخلى عن مطالبتها بقبرص.

فى المناطق الخاضعة للملك الأكثر كاثوليكية، تعالت صيحات الرعب والاستياء. فى مسينى نزع دون چون مغضبًا علم العصبة من صاريته ورفع علم إسپانيا، وكان رعايا فيليپ يتساءلون عن مدى سلامة موقف فيليپ فى عدم ثقته بالڤينيسيين. كان لا بد من أن يخذلوه عاجلًا أو آجلًا، وكأن معركة ليبانتو لم تنته بانتصار، كما كانوا يقولون محتجين.

كان الأمر كذلك بالفعل؛ إذ بالرغم من كل الابتهاج والهتاف والتهليل وبناء أسطورة ضخمة عن ليبانتو ما زالت موجودة إلى اليوم، فقد ثبت أن إحدى المعارك البحرية الأشهر فى التاريخ لم يكن لها أهمية إستراتيجية طويلة المدى على الإطلاق، أما أولئك الذين كانوا أكثر بكاء عليها، فكان ينبغى ألا يلوموا سوى أنفسهم.

** ** **

بعد معركة ليبانتو، خيم صمت غريب على البحر الأبيض المتوسط. كان الأمر يبدو وكأن ذلك الحوض الشاسع قد استهلك نفسه. حتى الربع الأخير من القرن السادس عشر – رغم أن دول أوروبا الشمالية مختلفة حول هذه الحقيقة مؤخرًا – كان البحر الأبيض بمعنى حقيقى تمامًا مركز العالم الغربى. لكنه لم يعد كذلك.

بالنسبة لإسبانيا، فتح كريستوفر كولومبوس ومن جاؤوا بعده آفاقًا جديدة مثيرة. بعد استيلائها على نابولى وصقلية فى الجنوب وبعد أن انتهى النزاع على ميلانو فى الشمال[4]، وبعد أن أصبحت جزيرة سردينيا كذلك ملكًا لها، وأصبحت نابولى ميناء إسپانيًّا، بعد ذلك كله لم تعد بقية إيطاليا والبحر الأبيض تهمها فى شىء. صحيح أنها فى 1601 ومجموعة من الدول الإيطالية – ولكن ليس ڤينيسيا – أرسلت قوة كبيرة مكونة من سبعين جالية وعشرة آلاف رجل لتفاجئ الجزائر وتستولى عليها، (وحيث إنها كانت بقيادة چيان أندريا دوريا، كان فشلها مؤكدًا)، ولكن اهتمامها الرئيسى الآن كان مركزًا على الغرب والشمال؛ حيث كانت مشكلاتها الدائمة فى الأراضى الواطئة وخصومتها مع إنجلترا تأخذ كل وقتها تقريبًا.

بالنسبة لفرنسا، فإنها لم تعد تلك المملكة التى كانت تحت حكم فرانسيس الأول. كانت المغامرة الأجنبية فى الجنوب بالنسبة لها الآن شيئًا من الماضى، وبدل ذلك كانت ممزقة بالحروب الدينية التى سوف تستمر أكثر من ثلاثين سنة وتضع البلاد على حافة الدمار. حتى إيطاليا كانت هادئة – على الأقل بالمقاييس الإيطالية. بصرف النظر عن نابولى والنظام البابوى، كانت هناك قوة رئيسية وحيدة فى شبه الجزيرة، وكانت جمهورية ڤينيسيا حريصة دائمًا على التجارة ولا يمكن أن تخوض حربًا إلا مضطرة. استمر القتال الداخلى بين المدن – الدول المختلفة فى الشمال الإيطالى كما كان دائمًا، ولكن معظم هذه الحروب لم يكن له أهمية كبيرة فى عالم البحر الأبيض.

ثم كانت هناك الإمبراطورية العثمانية، وحتى القوة التركية الماحقة كانت تبدو الآن بلا قوة ! كانت أيام سليمان المعظم قد انقضت وكان خليفته سليمان «السكير» قد

مات فى 1574 – على نحو يليق به تمامًا، بعد أن شرب قنينة كاملة من نبيذ قبرص القوى دفعة واحدة، وزلت قدمه على أرضية الحمام. صحيح أنه فى ذلك العام نفسه، قام الأدميرال القرصان القديم «كيليج على – Kilij Ali“ بالاستيلاء على تونس من الإسپان – وأصبحت المدينة والمنطقة الواقعة خلفها ولاية عثمانية – ولكن تلك كانت هى كل مكاسب الأتراك فى البحر الأبيض. كان ”مراد الثالث – Murad III“، ابن سليم – كان قد جاء إلى العرش بعد أن أمر بخنق أشقائه الخمس – أكثرهم اهتمامًا بما وراء حدوده الشرقية، وفضل أن يركز اهتمامه على چورچيا والقوقاز. ويبدو أن خلفاءه كان لديهم الشعور نفسه، ولذلك ظل الأتراك قرابة القرن، لا يفعلون سوى القليل لتغيير خريطة البحر الأبيض.

المحاولة الوحيدة لعمل ذلك بعد الاستيلاء على تونس، جاءت من جهة غير متوقعة، ففى 1578 استجاب ”سيباستيان – Sebastian“ ملك البرتغال الشاب الجامح، لأسباب ما زالت غامضة – لطلب مساعدة من شريف فاس، الذى كان قد طرد مؤخرًا من مدينته بواسطة أحد منافسيه. لجأ سيباستيان بدوره لخاله، الذى وافق على مضض على أن يساعده، وبذلك تمكن من عبور مضيق جبل طارق بجيش من الإسپان والبرتغاليين قوامه نحو خمسة عشر ألف مقاتل. فى الثالث من أغسطس وصل إلى مدينة ”ألكاسركيڤر – Alcacerquivir“، ليجد فى اليوم التالى جيشًا مراكشيًا أكبر حجمًا فى مواجهته. لم يكن أمامه سوى أن يقاتل، وفى المعركة التى نشبت مات هو ومنافسوه أتباع شريف فاس، كما قتل ثمانية آلاف من رجاله. من بين الباقين، الذين وقعوا كلهم فى الأسر، تمكن نحو مائة رجل من الفرار.

كان فيليپ ملك إسپانيا هو المنتصر الوحيد فى معركة الملوك الثلاثة كما أطلق عليها. وحده، استطاع سيباستيان أن يوصل البرتغال إلى حالة من الضعف وانهيار الروح المعنوية، لدرجة أن فيليپ تمكن بعد عامين من ابتلاعها، مضاعفًا بضربة واحدة حجم إمبراطوريته والحصول على موانئ أطلنطية ذات أهمية كبيرة. لم تسترد البرتغال استقلالها إلا فى 1640.

سيظل فيليپ على قيد الحياة عشرين عامًا أخرى ليموت فى 1598. كان فى السبعين. لم يحدث أن تناول ملك آخر شؤونه على ذلك النحو الجاد، ولم يكن أحد أكثر منه بذلاً للجهد. ولأنه لم يكن يثق بأحد، أمضى الأربعين عامًا الأخيرة من حياته فى مدريد أو فى قصره فى ”الإسكوريال – Escorial“، مهتمًا بكل تفاصيل الحكم والإدارة بشكل شخصى، لم يعط نفسه فرصة لكى يخرج من مكتبه أو أن ينظر نظرة أوسع للعالم من

حوله. ولأنه كان ورعًا شديد التقوى، كان كله إصرار على تنفيذ ما كان يراه واجبه المقدس المنوط به، للحفاظ على العقيدة الكاثوليكية الصحيحة، التى كان يمكن أن يكون مندفعًا ومستبدًا وشديد القسوة فى سبيلها، ولكنه كان محبًا للكتب والصور، وزوجًا وأبًا عطوفًا عندما تسمح الظروف. تزوج أربع مرات، كانت زوجاته على التوالى: برتغالية وإنجليزية وفرنسية ونمساوية. ترمل أربع مرات، وأنجب منهن ابنين. كانت الأولى مجنونة، ماتت فى السجن فى ظروف غامضة وكانت فى الثالثة والعشرين. كان إنجازه الرئيسى، من وجهة نظرنا، أنه بنى بلاده كقوة عسكرية وبحرية مهمة. بحلول سبعينيات القرن السادس عشر، كانت قواته البحرية أقوى بأربعة أضعاف ما كانت عليه فى زمن أبيه، إلا أنه كان رجلًا حزينًا، وحيدًا، لم يأسف رعاياه على رحيله.

** ** **

السكون غير العادى لقوى البحر الأبيض الكبرى، ترك المجال مفتوحًا للقراصنة الذين أصبحوا أعظم خطرًا مع دخول القرن الجديد. كانوا فى الأساس من المسلمين البربر، ولكن كان بينهم الكثيرون من رجال البحر الأوروبيين مثل سيئ الذكر القبطان "جون وورد – John Ward". الذى جاء إلى تونس فى 1605 تقريبًا، وهناك توصل إلى اتفاق مع "الباى – Bey" تعهد له فيه بمهاجمة كل المسيحيين، ما عدا الإنجليز منهم – على أن يقتسم الغنائم معه. كان نجاحه كبيرًا – وبخاصة ضد الڤينيسيين وفرسان سان چون – لدرجة أنه استطاع أن يبنى لنفسه قصرًا فاخرًا فى تونس، زينه بالرخام الثمين، ولم يكن يضارعه سوى قصر الحاكم نفسه. وفى 1609، حصل حتى على منصب نائب القائد الأعلى: "سير فرانسيس ڤيرنى – Sir Francis Verney of Claydon" فى "بكنجهام شاير – Buckingham shire"، الذى كان قد ترك عائلته العريقة مستاء فى العام السابق ليصبح بسرعة – بكلمات مؤرخ إنجليزى – "مدمرًا لأبناء بلده.. تجار پوله Poole أو پليموث – Plymouth".[5] ولكى لا يكون الجزائريون متخلفين عنهم، حصلوا على خدمات شخص يدعى «سيمون دانزر – Simon Danzer" أو "دانسكر – Dansker" (لسنا متأكدين من جنسيته)، الذى حقق نجاحات مماثلة. كان القراصنة البربر قد تعلموا من أمثال هؤلاء فنون الإبحار بالشراع بعد أن كانوا لا يستخدمون سوى الجاليات ذات المجاذيف. وفى 1609 شن الأدميرال الإسپانى "دون لويس فاچاردو – Don Luis Fajardo" إغارة قوية على أساطيل القراصنة "وورد – Ward" و"ڤيرنى – Verney" وغيرهما، أثناء وجودها فى ميناء تونس، فكانت ضربة قاصمة لها، غير أن الأدميرال لم يسمح له بالاستمرار فى القضاء عليهم؛ إذ

جاءته أوامر من مدريد – فى اللحظة الحرجة – بالعودة للمشاركة فى عملية الطرد الجماعى للموريسكيين من إسپانيا.

كانت عملية طرد الموريسكيين من إسپانيا واحدة من أكبر الكوارث فى تاريخ إسپانيا، وكانت نظريًا إحدى بنات أفكار الملك فيليپ الثانى، بينما هى فى الحقيقة من وحى مستشاره المفضل "دوق ليرما – Duke of Lerma". كان فيليپ قد خلف أباه فى 1598 وهو فى العشرين من العمر. ولأنه كان قد نشأ تحت رعاية القساوسة والرهبان، لم يكن يعرف شيئًا عن شؤون الدنيا كما لم يكن على قدر كبير من الذكاء، وعليه فقد كان فريسة سهلة للدوق، الذى سرعان ما أصبح "المتسلط الخفى – emi-nence grise" عليه. هذا الرجل المتعصب دينيًا، قصير النظر، كان أحد نبلاء مملكة ڤالينسيا السابقة (أدمجت فى قشتالة فى 1479)، التى كان معظم سكانها فى ذلك الوقت من "الموريسكيين – Moriscos": وهم إسپان كانت عائلاتهم مسلمة لعدة قرون، وكان الكثير منهم – رغم تحولهم إلى المسيحية نظريًا – قد ظل محتفظًا بمشاعره الإسلامية. كان الموريسكيون ناجحين ومجتهدين واستطاعوا بما بذلوه من جهد أن يجعلوا من هضبة ڤالينسيا واحدة من أكثر مناطق البلاد خصبًا ونماء؛ ولكن ذلك أثار عليهم حقد جيرانهم، وعلى مدى قرن أو أكثر كانوا هدفًا لحملة كراهية بلغت ذروتها بمحاكم التفتيش التى كانت ترى أنهم كانوا ما زالوا على معتقداتهم فى داخلهم. فى 1566 أصدر فيليپ الثانى مرسومًا يحظر على موريسكيى غرناطة لغتهم ولباسهم وثقافتهم، وبعد ثلاث سنوات من الاضطهاد الذى لا يحتمل، كان أن ثاروا وسببوا للملك كثيرًا من المشكلات، قبل أن يقوم دون چون النمساوى بقمع ثورتهم، إلا أن ذلك لم يؤد سوى إلى زيادة رفضهم شعبيًا. كان "ليرما – Lerma" يمقتهم، ولم يجد صعوبة فى إقناع الملك الأحمق بأنه كان من واجبه أن يخلص إسپانيا منهم مرة وإلى الأبد.

كان تفريغ ما كان مملكة كاملة ذات يوم من سكانها عملية ضخمة، كما كان الكثيرون (من الكنسيين والعلمانيين على السواء) ممن كانوا سعداء باضطهاد الموريسكيين، منزعجين لفكرة ذلك الإبعاد الجمعى لهم. ولكن ليرما كان مصرًا على الاستمرار فى سياسته إلى النهاية. فى الثانى والعشرين من سبتمبر 1609 أعلن المرسوم: باستثناء ستة من "الأكبر سنًا والأكثر مسيحية" من موريسكيى كل قرية (سيتم استبقاؤهم لتعليم الآخرين نظام الزراعة)، كان لا بد من إبعاد الجميع، ذكرًا كان أو أنثى، إلى شمال أفريقيا دون أن يحملوا معهم أى أموال. كان مسموحًا لهم بحمل ما يستطيعون من متعلقاتهم الشخصية. مع بداية الخريف، كانت هناك أساطيل ضخمة من الجاليات قد تجمعت فى موانئ المتوسط. وأخيرًا كان السبب قد بات معروفًا.

على مدى الأشهر الستة التالية، تم طرد نحو مائة وخمسين ألفًا من موريسكيى ڤالينسيا من أراض كان أسلافهم قد زرعوها، واقتيادهم إلى حيث كانت السفن تنتظرهم لتحملهم عبر البحر وتلقى بهم على شاطئ شمال أفريقيا. ما بدأ فى ڤالينسيا، استكمل فى كل إسپانيا. فى قشتالة وأراجون، فى الأندلس وإكستريماندورا، كان يتم طرد كل من يشتبه بأنه موريسكى – كان من المستحيل تمييز المسيحيين الجدد من القدامى – ومصادرة ممتلكاته وطرده. كان من المستحيل تقدير الأعداد، ولكن العدد الإجمالى لا يمكن أن يكون أقل من نصف المليون وربما أكثر من ذلك. لم يكن المطرودون من هذه المناطق ممن يعملون بالزراعة فحسب، بل كان بينهم أعداد كبيرة من الفنانين والحرفيين والصناع الذين أسهموا فى الاقتصاد الإسپانى. لا يمكن اتهام فيليپ الثالث ومستشاره الشرير بالقيام بمذبحة جماعية لمجرد أنهم لم يصدروا صراحة مرسومًا بالقتل الجماعى لمن طردهم، ولكن كمثال على ما قد يعرف اليوم بالتطهير العرقى، فلم تشهد أوروبا نظيرًا لذلك الفعل قبل ثلاثة قرون.

** ** **

ربما كان من الأفضل لإسپانيا لو لم يولد دوق ليرما، إلا أنه كان هناك دوق آخر، معاصر ليرما القريب، الذى يدين له بلده بدين هائل. كان هو "دون پدرو تيليز جيرون – Don Pedro Tellez Giron"، الدوق الثالث، "أوسونا – Osuna"، الذى استطاع أن يغير البحرية الإسپانية بمفرده. فى 1603، كان أوسونا الشاب قد زار إنجلترا حيث أسر لب الملك چيمس الأول بحلو حديثه اللاتينى، وعكف جادًا على دراسة البحرية الإنجليزية. وبعد عودته إلى إسپانيا فى 1607، عين عضوًا فى مجلس شورى الملك، الذى كان بعد عام أو اثنين يناقش تعيين نائب جديد للملك فى صقلية. تحدث أوسونا معبرًا عن رأيه بكل حرية، مشيرًا إلى أن القراصنة البربر كانوا قد أغاروا على الجزيرة أكثر من ثمانين مرة على مدى الثلاثين عامًا السابقة. وفى كل مرة كان يمضى ذلك بلا عقاب، مضيفًا إلى أنه لا يمكن السماح باستمرار مثل ذلك الوضع. كان أمام الملك مسلكان: إما أن يشترى القراصنة بأن يرشوهم، أو أن يجعل من صقلية قاعدة لبحرية جديدة متطورة يمكن أن تمحوهم من البحر. متأثرًا بهذه الفكرة الجديدة، منحه الملك منصب النائب... وبدأ أوسونا العمل.

عندما وصل إلى الجزيرة فى 1611، وجد بها أربعة وثلاثين جالية (12 من ناپولى و10 من چنوة و7 من صقلية و5 من مالطة) وكلها تحت الإدارة الرديئة للماركيز سانتا كروز ابن قائد الأرمادا سيئ الحظ السابق. كان أول إجراء يتخذه أوسونا هو تجهيز

ست سفن، يمكن أن يستخدمها كما يريد مستقلًا عن الأدميرال؛ بعد ذلك ركز اهتمامه على الأطقم، فزاد رواتبهم وحسن غذاءهم وظروفهم المعيشية، ونظم لهم تدريبًا جيدًا وانضباطًا جيدًا بحيث كانوا على النقيض من أقرانهم على السفن الأخرى. نجحت أول عملية إغارة صاعقة على تونس، ونتج عنها احتراق عشرة من سفن القراصنة فى مراسيها، كما تم الاستيلاء على عدد كبير آخر. كانت تلك هى البداية فحسب، وشهدت السنوات التالية انتصارات متوالية لتنتشر موجة فرح غامرة فى الأسطول. ولكن ذلك لم يكن ليكفى أوسونا. كان ذلك الأسطول ما زال مكونًا بالكامل من جاليات تعمل بالمجاديف، أما المستقبل فكان للشراع، كما كان يعرف جيدًا. الآن، كان أن قام بتجهيز غليونين خاصين به، ثم استطاع أن يقنع حكومته بأن ترسل إليه عشرين آخرين بقيادة الأمير "فيليبيرت ساڤوى – Philibert of Savoy" وهو أسطول كان يكفى تحت قيادة قائد كفء أن ينظف البحر من القراصنة. للأسف، اتضح أن فيليبيرت كان قائدًا من طراز دوريا، لا يستطيع الاضطلاع بعمل حاسم، ويفضل دائمًا أن يعود إلى الميناء بعد أيام قليلة من مغادرته دون إطلاق طلقة واحدة. حتى مع هذا الأسطول الضخم، فشل فى إغلاق ميناء ناڤارينو؛ حيث كان عدد كبير من سفن القراصنة قد لجأ، وتمكنت كلها من الهرب.

كالعادة، كان أوسونا يعرف ما يريد جيدًا. كان قد رأى فى الأراضى الواطئة السفن الشراعية الهولندية الصغيرة موجودة بالقرب من الموانئ الإسبانية وتغلقها بإحكام، ولكن الحكومة فى مدريد رفضت كل طلباته. بالرغم من ذلك كان لديه على الأقل غليونان خاصان به، أحدهما عليه عشرون مدفعًا والثانى ستة وأربعون مدفعًا، فأرسلهما إلى الأراضى المصرية؛ حيث قاما على الفور بأسر قافلة من ست سفن تركية كانت فى طريقها إلى القسطنطينية. كان ذلك إنجازًا كبيرًا ينبغى أن يكون محل حفاوة فى مدريد، ولكن الحكومة الإسبانية ظلت غير مؤيدة كالعادة، مشيرة إلى أن أوسونا كان قد خرق تعليمات عمرها قرن من الزمان، تحظر تجهيز السفن الشراعية للقرصنة. عبثًا، ظل يقول: إن الحرب البحرية لم تعد مثلما كانت قبل مائة عام، وظلوا يتجاهلونه.

استمر الحال كذلك حتى سنة 1615، ثم فجأة تغير الموقف كله. تم تعيين أوسونا نائبًا للملك فى نابولى. هنا، كان أكثر استقلالية – ولديه إمكانيات مالية أكبر – عما كان فى صقلية، فطلب خمس جاليات جديدة – أطلق عليها اسم "الجراح الخمسة"، بالإضافة إلى خمسة أخرى من السفن الخفيفة، ومركب شراعي صغير يستخدم لتأمين الاتصالات. كل السفن باستثناء المركب الأخير كانت مسلحة تسليحًا ثقيلًا، أثقل فى الحقيقة مما كان

يمكن أن يكون لدى البحرية الإنجليزية، إلا أنها كانت كلها منظمة بالأسلوب الإنجليزى. كذلك وضع نهاية لمبدأ القيادة المزدوجة – لفترة طويلة كان ذلك المبدأ هو آفة القوات المسلحة الإسپانية – الذى بموجبه كان كل جنود حملة ما مسئولين أمام قائد، والبحارة أمام قائد آخر. من الآن سيكون ضابط واحد هو المسئول عن السفينة بالكامل. فى يوليو 1616 خاض الأدميرال الأحدث منه "فرانسيسكو دى ريبيرا – Francisco de Ribera"، بسرب مكون من ستة غليونات - معركة كبيرة مع أسطول تركى، كان مكونًا من خمسة وأربعين جالية. استمرت المعركة ثلاثة أيام، وفى فجر اليوم الرابع لم يكن للعدو أى أثر؛ اعترف الأتراك بالهزيمة، ولجأ ما تبقى من سفنهم إلى مياه أكثر أمانًا. هنا - بكل المقاييس - كان انتصار كبير، ولكنه كان يحمل درسًا. لقد تحقق هذا الانتصار بواسطة أسطول تم بناؤه وقيادته حسب النظام الإنجليزى وليس الإسپانى، وأثبت تفوقه على الأتراك. أفلا يمكن الآن استخدامه ضد جمهورية ڤينيسيا، عدو إسپانيا اللدود، فى شبه الجزيرة الإيطالية؟

** ** **

لن يكون مستبعدًا أن يفكر دون أوسونا فى مثل ذلك الأمر. كان هو مهندس إعادة قوة إسپانيا البحرية، ولكنه بالإضافة لذلك كان شخصًا وطنيًّا نذر نفسه لتدمير أعدائها، وبفضله – إلى حد كبير – كان شبح إسپانيا يلوح فى الأفق مع دخول القرن السابع عشر، ويبدو أكثر خطورة فى الحوض الأوسط من البحر الأبيض. على مدى قرن أو أكثر، كانت طموحات إسپانيا محجمة بواسطة فرنسا، إلا أن اغتيال هنرى الرابع فى 1610، الذى أخلى العرش لابنه "لويس الثالث عشر – Louis XIII"، ابن التاسعة، وأعطى الوصاية لأرملته "مارى دى ميديشى – Marie de Medici" ذات الميول الإسپانية، كل ذلك كان يؤكد أن الملك الأكثر كاثوليكية لن يواجه معارضة من تلك الجبهة. كانت إسپانيا ما زالت صاحبة السيادة فى ميلان وناپولى؛ وفى فلورنسا كان الدوق الأعظم "كوزيمو الثانى – Grand Duke Cosimo II"، ابن عم مارى خاضعًا لسيطرة الإسپان إلى حد كبير، ومثله كان البابا فى روما، بفضل نفوذ الچيزويت والكاردينالات الإسپان. كانت هناك دولتان إيطاليتان فقط عازمتان على مقاومة الخطر المتزايد. كانت إحداهما دوقية ساڤوى؛ حيث كان الدوق "شارل إيمانويل الثانى – Charles Emmanuel II" قد حشد جيشًا قوامه أكثر من عشرين ألف مقاتل، وكان جاهزًا للتصدى لأى قوة قد يدفع بها ضده حاكم ميلانو الإسپانى. أما الثانية فكانت ڤينيسيا.

وبينما كانت ميلان تسبب إزعاجًا لـ "ساڤوى" (والعكس بالعكس)، كانت ڤينيسيا

تواجه مشكلات أصعب مع الفك الآخر للكماشة الإسبانية: "الأرشيدوق الهابسبورجى فرديناند – Habsburg Archduke Ferdinand" فى النمسا. أما السبب وراء ذلك فكان "القراصنة الأوسكوك – Piratical Uskoks"، وكانوا جماعة غير متجانسة شديدة الإزعاج – وليست كلها – من المسيحيين الهاربين من الزحف التركى، وكانوا قد استقروا فى "سجنا – Segna" (سنج – Senj الآن) ومناطق أخرى على ساحل دالماشيا، وكرسوا أنفسهم للحرفة التقليدية لمعظم السكان هنا. لم تكن المشكلة جديدة تمامًا، فالقرصنة التى كانت تنطلق من الجزر البعيدة والخلجان المستورة على امتداد الشواطئ الشرقية للأدرياتيكى، كانت تمثل خطرًا على التجارة الڤينيسية على مدى تاريخ الجمهورية نفسها. مع الأوسكوك، كانت هناك تعقيدات جديدة: كان نشاطهم يستفز الأتراك ويثير غضبهم؛ إذ بعد كل هجوم على سفنهم، كانوا يتقدمون بشكوى رسمية إلى ڤينيسيا، مشيرين إلى ضرورة قيامها بواجبها فى ضبط الأمن، باعتبارها القوة التى تدعى السيادة على الأدرياتيكى. وحيث إن دالماشيا كانت الآن من أراضى الإمبراطورية، والمخالفين رعايا إمبراطوريين، كان لا بد من أن تلح على فرديناند لاتخاذ إجراءات حاسمة ضدهم، إلا أن الأرشيدوق، برغم الوعود المتكررة، لم يفعل شيئًا، وظل الأوسكوك يمثلون قلقًا دائمًا.

بلغت أعمالهم العدائية أوجها فى 1613 بقطع رأس "كريستوفرو ڤينيير – Christofro Venier" الأدميرال الڤينيسى. ظل فرديناند، كذلك، لا يحرك ساكنًا؛ والحقيقة أنه بدأ ينظر إلى الأوسكوك نظرة أكثر تعاطفًا مع بدء تدهور العلاقات الڤينيسية الإمبراطورية؛ وبينما كان يتظاهر بقيامه ببعض الاعتراضات الهينة، كان فى الحقيقة يشجعهم فى السر بكل الوسائل. وفى النهاية، لجأت ڤينيسيا للقانون – ولم يكن ذلك للمرة الأولى – وأطلقت حملة تأديبية. اعترض فرديناند بدوره، بينما بقيت الحرب الناجمة عن ذلك متقطعة حتى خريف 1617 عندما توصلت ڤينيسيا وساڤوى والإمبراطورية إلى سلام صعب، بعده سوف يتقرر مصير الأوسكوك مرة وإلى الأبد. دمرت موانئهم وقلاعهم وأحرقت سفنهم، ومن نجا منهم من مصير أكثر بؤسًا تم نقله مع أسرته إلى الداخل الكرواتى؛ حيث اندمجوا مع السكان المحليين مع الزمن، وفقدوا هويتهم الخاصة.

كان لذلك الانتصار الصغير أثره الكبير فى تحسين الحالة الأمنية فى الأدرياتيكى، وفى كل الحوض الأوسط من البحر الأبيض فى الواقع، إلا أنه لم يغير كثيرًا من الوضع السياسى الرئيسى. ظلت إسبانيا هى الخطر الدائم على السلام فى المنطقة، ولم تكن تنظر إلى القوة المسلحة فحسب، ولا إلى الدبلوماسية الماكرة لتحقيق مصالحها. كانت نهايات

القرن السادس عشر وبدايات السابع عشر هى عصر الخداع والتآمر قبل كل شىء. الفكرة فى حد ذاتها لم تكن جديدة، ففى فلورنسا الميديشى، وميلان ڤيسكونتى، وروما بورجيا، كانت هناك مؤامرات كثيرة اعتمدت على الاغتيال بالسم وأعمال التجسس والتجسس المضاد وأسلوب الخنجر تحت العباءة. ولكن الآن، فى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا، كانت المؤامرة قد أضحت أسلوب حياة. كانت ذاكرة من هم فى منتصف العمر ما زالت قوية، تحتفظ بعمليات اغتيال "الأدميرال كوليجنى – Admiral Coligny" وهنرى الرابع نفسه، والمكائد العديدة التى صبغت الحياة العنيفة البائسة لـ "مارى ملكة الإسكتلنديين – Mary Queen of Scots"، ثم مؤامرة البارود فى الخامس من نوفمبر.

لم تكن هناك حكومة فى أوروبا أكثر تورطًا فى عالم التآمر، أكثر من حكومة "الجمهورية الأكثر هدوءًا". كل سفارة، وكل بيت أجنبى، كان مخترقًا بعملاء ڤينيسيين يقدمون تقاريرهم "لمجلس العشرة – Council of Ten" الرهيب، عن كل من يأتى ومن يذهب، عن الرسائل التى يتم فتحها بوسائل سرية، عن المحادثات التى يتم التنصت عليها. كانت هناك رقابة دائمة على كل شىء وأى شىء... حتى على الداعرات اللائى كان يتردد عليهن الأثرياء، كما كانت هناك رواتب لكل منهن تدفعها الدولة مقابل نقل الأحاديث والأخبار التى قد تكون ذات أهمية، وذلك لاستخدامها فى عمليات الابتزاز والضغط. إلا أن مجلس العشرة كان يفضل أن يؤدى مهامه بشكل سرى، ولذلك لم تصب الدهشة المارة فى الساحة الرئيسية فى الصباح الباكر يوم الثامن عشر من مايو 1618، عندما رأوا جثتى رجلين معلقتين، كلتاهما من ساق واحدة – ما يدل على أن الجريمة كانت خيانة – من مشانق نصبت على عجل بين عمودين عند الطرف الجنوبى للساحة. الأكثر مدعاة للدهشة هو أنه حتى بعد أن أضيفت جثة ثالثة كانت تحمل آثار التعذيب، لم يصدر أى بيان يفصح عن شخصية أى من أولئك البؤساء أو يوضح السبب. كان لا بد من أن تنتشر الشائعات التى كان معظمها يركز على احتمال وجود مؤامرات ضد الجمهورية، لا يمكن إلا أن يكون وراءها مثير واحد. هبت التظاهرات العدائية أمام السفارة الإسبانية مجبرة السفير "ماركيز بيدمار – Marquis of Bedmar" على أن يطلب من الحكومة حماية شرطية خاصة، وفى الوقت نفسه كتب إلى مدريد يقول:

> **إن اسم أكثر الملوك كاثوليكية واسم الدولة الإسبانية هما أكثر الأسماء التى ينطق بها بكل البغض فى ڤينيسيا... مجرد لفظة «إسبانى» تعتبر إهانة هنا بين الناس الذين يبدون متعطشين لدمائنا. إنها غلطة حكامهم الذين كانوا يعلمونهم دائمًا أن يكرهونا.**

لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا. على مدى سنوات، كانت السفارة الإسبانية أكثر مراكز التآمر نشاطًا فى المدينة. كانت غرف الانتظار والطرقات تعج دائمًا بأشخاص يبدو عليهم الشر، على رؤوسهم قبعات مهترئة، يتهامسون فى جماعات وهم ينتظرون لقاء السفير. وعندما كشف مجلس العشرة، فى أكتوبر التالى، لمجلس الشيوخ ما حدث فى تقرير مفصل، تم الكشف عن أن السفير – كما كان يعرف الجميع – كان أحد الشخصيات الرئيسية فيما سيعرف فيما بعد ذلك بـ «المؤامرة الإسبانية».

هذه المؤامرة، سيكون من المناسب تمامًا أن تلهم – بطريق غير مباشر – «توماس أوتواى – Thomas Otway» بمادة لأفضل وأشهر مسرحياته "...وبقيت ڤينيسيا". القصة الحقيقية تحتوى على كل عناصر ميلودراما القرن السابع عشر. هنا، الشرير "دون پدرو – Don Pedro"، ودوق أوسونا ونائب الملك الإسبانى فى نابولى، كلهم يصممون على تدمير قوة ڤينيسيا فى البحر الأبيض. هنا "الماركيز بدمار – Marquis of Bedmar"، والسفير الإسبانى المثقف صاحب الشخصية الآسرة، الذى فى حقيقته "أحد أخطر الشخصيات التى أنجبتها إسبانيا"، الممتلئ عداءً وحقدًا على ڤينيسيا، والموافق تمامًا على هدف أوسونا. هنا الأداتان الرئيسيتان للمتآمرين: "چاك پيير – Jacques Pierre"، وهو مغامر وقرصان نورمندى، والآن عميل إسبانى سرى مع الأسطول الڤينيسى، أمى، ولكنه من أذكى رجال البحر فى أيامه، ونقيضه الذى لا ينفصل عنه "نيكولاس ريجنولت – Nicolas Regnault" المتعلم، ذو اللغة الإيطالية السلسلة والخط الجميل. وهنا أخيرًا، البطل: الفرنسى الشاب "بالتازار چيڤن – Baltasar Juven"، الذى جاء إلى ڤينيسيا ليلتحق بالخدمة الجمهورية.

المؤامرة نفسها كانت كذلك طموحة جدًا لتفى باحتياجات أى كاتب دراما. كانت من ذلك النوع المعقد الملتف إلى أقصى درجة. ربما تكون روايتها بالتفصيل عملية مملة، وليس هنا مجالها على أية حال.(6) قبل عدة أسابيع من اليوم المحدد، سوف يتسلل جنود إسبان، فى ثياب مدنية، مثنى أو ثلاث، إلى ڤينيسيا؛ حيث سيقوم «بدمار – Bedmar" بتسليحهم. بعد ذلك، عندما يكون كل شيء قد أصبح معدًا، سوف تتقدم غليونات أوسونا رافعة علمه الخاص فى الأدرياتيكى، وتقوم بإنزال قوة على الليدو، ومع أسطول من البوارج مسطحة القاع، ستنقل هذه القوة إلى المدينة عبر البحيرة. سيتم الاستيلاء على الساحة الرئيسية وقصر الدوچ والمركز التجارى والترسانة وما بها من سلاح لتزويد المتآمرين ومن يرغب فى معاونتهم من الڤينيسيين. سيتم قتل صفوة وأعيان ڤينيسيا أو احتجازهم للحصول على فدية. ڤينيسيا نفسها سوف تنتقل إلى ملكية أوسونا، أما الأموال المنهوبة وأموال الفدية فستعود إلى المتآمرين الآخرين لكى يقتسموها فيما بينهم.

كان نجاح مثل هذا المشروع العنيف يبدو مستبعدًا، وعلى أية حال، لم تكن هناك

فرصة لمدبريه لكى يضعوه موضع التجربة. أما اكتشاف المؤامرة فيرجع إلى "ﭼيڤن – Juven"، الذى اتصل به مواطن من بلده يدعى "جابرييل مونكاسين – Gabriel Moncassin"، كان على علم بكل ما يدور، ودعى للمشاركة. ما لم يكن مونكاسين يعرفه هو أن ﭼيڤن كان "هوجونوتيا[7] – Huguenot". ولأنه كان يكره فرنسا والعقيدة التى تمثلها، قام على الفور بإبلاغ السلطات الڤينيسية ليقوم مجلس العشرة بعمله على وجه السرعة. ألقى القبض على ﭼاك پيير وتم إعدامه بسرعة: وضعت جثته فى كيس من الخيش وألقى بها من سفينة فى عرض البحر. تم القبض على "ريجنولت – Regnault" وغيره من المتآمرين، وعلى الأخوين "ديزبولو – Desbouleaux" وتعذيبهم. وبعد أن اعترفوا تم تعليقهم من أرجلهم فى الساحة الرئيسية. كذلك تم تصفية نحو ثلاثمائة آخرين من المتآمرين الصغار سرًّا. وحدهما، أوسونا وبدمار، كانا أقوى من أن يمسهما أحد. كلاهما استمر فى التآمر من خلف أسوار قصره، ولكن فرصتهما الكبرى ضاعت... وبقيت ڤينيسيا.

هوامش الفصل السابع عشر

(1) كان "ميجويل دى سرڤانتس – Miguel de Cervantes" من بين المجروحين المسيحيين، وكان على ظهر السفينة Marquesa. أصيب مرتين فى صدره، وبترت إصابة ثالثة ذراعه اليسرى، وقد وصف ذلك بأنه كان "لمجد الذراع اليمنى". كما وصف ليبانتو بعد ذلك بأنها كانت أعظم مناسبة شهدتها العصور الماضية والحاضرة، وربما تلك التى قد يشهدها المستقبل". كما أكد أنه سيظل فخورًا بدوره فيها أكثر من أى شىء فى حياته.

(2) السكونية – Sequin، قطعة ذهبية (إيطالية أو تركية) قديمة. (المترجم)

(3) موقع بالقرب من الشاطئ؛ حيث تستطيع السفن الرسو. (المترجم)

(4) بعد الموت المفاجئ لـ "فرانسيسكو الثانى سفورزا"، عادت دولة ميلان لتكون تحت سيطرة شارل الخامس، الذى منح الدوقية لابنه فيليب الثانى فيما بعد (فى 1540). ستبقى ميلان تحت الحكم الإسپانى حتى 1706.

(5) انظر: Gardiner, "History of England", Vol. 3

(6) يمكن لمن يهمه التفاصيل الاطلاع على المجلد الثانى من كتاب "هوراتيو براون – Horatio Brown" بعنوان: Studies in the History of Venice من ص245 : 295.

(7) نسبة إلى البروتستانتى الفرنسى هوجونوت – Huguenot.

الفصل الثامن عشر

كريت والپيلوپونيز

• المعركة تبدأ: 1645 • الدوچ فرانسيسكو إيريزو: 1646 • بدأ حصار كانديا: 1647 • المتطوعون الفرنسيون: 1668 • الحملة الفرنسية: 1645 • التوصل إلى سلام: 1669 • حملة ڤينيسيا اليونانية: 1684 – 1685 • موروسيني فى اليونان: 1688 • معركة خيوس: 1695 • اتفاقية كارلوڤتز: 1698.

استمر البحر الأبيض هادئًا، على نحو غريب، على مدى ربع قرن بعد الأحداث التى وصفناها فى الفصل السابق. ربما كانت رياح خفيفة تكدر سطحه من وقت لآخر، إلا أنه لم تكن هناك عواصف شديدة ولا أحداث جلل، بحجم ما جرى فى مالطة وقبرص وليبانتو. قد يبدو ذلك دالًا، فى إطار التاريخ السابق للبحر، ولكن يبقى الأكثر إثارة للدهشة أن عام المؤامرة الإسپانية نفسه (1618) شهد كذلك بداية حرب الثلاثين عامًا، التى كانت تمزق معظم أوروبا الشمالية والشرقية.

بالرغم من ذلك كله، كان السلام قد جاء فى الوقت المناسب، من وجهة نظر ڤينيسيا، ففى أكتوبر من العام نفسه وقع حدث، بالرغم من أن ڤينيسيا لم تتحمل جزءًا من مسئوليته، أدى إلى فقدانها أهم ما كان قد تبقى من مستعمراتها السابقة: جزيرة كريت. عاجلًا أو آجلًا، كان ينبغى أن تعرف أن الحرب كانت حتمية، وكانت كريت جائزة مغرية، ولم يكن الأتراك، كخصم طامع فيها، لينتظروا طويلًا. يظل مدعاة للسخرية أن يأتى أول هجوم تركى ردًا على استفزاز واضح من قوة ثانوية كانت، بعد الجمهورية نفسها، قد خسرت أكثر من غيرها من جراء استسلام آخر وأهم مركز مسيحى متقدم فى حوض المتوسط الشرقى.

بالرغم من أن فرسان سان چون كانوا يمتلكون ديرًا للرهبان[1] فى ڤينيسيا — ورثوه عن فرسان الهيكل بعد حل تنظيمهم فى 1312 — فإنهم والڤينيسيون كانوا يكرهون بعضهم بعضًا بشدة على مدى قرون. كان من المستحيل أن يكون الأمر غير ذلك. وحيث إن تنظيمهم كان غنيًا بما لديه من ممتلكات فى أرجاء أوروبا المسيحية، فإن الفرسان كانوا يزدرون الأعمال التجارية. وكرجال دين مقيدين بقيم التقشف والطهارة والطاعة الرهبانية، كانوا يستهجنون دنيوية الڤينيسيين وعشقهم لمباهج الحياة؛ وأخيرًا، كرجال سيف وأبناء للصليبيين، فإن هدفهم المعلن — بصرف النظر عن علاج ورعاية المرضى — كان قتال غير المؤمنين أينما وجدوهم، وأدانوا رغبة الڤينيسيين الملحة فى عقد سلام مع السلطان، وكانوا يعتبرون ذلك التوجه خيانة مخزية بالنسبة للقضية المسيحية.

بحلول أربعينيات القرن السابع عشر، كان الفرسان قد أصبحوا مجرد بقايا، وظلًا ضعيفًا لما كانوا عليه فى الأيام المجيدة السابقة قبل ثمانين عامًا، عندما نجحوا فى حماية جزيرتهم ضد الأسطول الهائل الذى هاجمهم به سليمان المعظم. استمروا فى إدارة مستشفاهم الشهير؛ حيث كانوا يحافظون على مستوى من التمريض والعلاج، متقدمًا

عنه فى أى مكان آخر؛ ولكن الروح الصليبية كانت قد بدأت تتلاشى، كما أن عملياتهم البحرية قد أصبحت أقرب إلى القرصنة منها إلى الحرب المقدسة. لم يقصروا عمليات السلب والنهب على سفن المسلمين، كما أن هجماتهم غير المبررة تكررت ضد السفن التجارية الڤينيسية وغيرها، وكان ذلك كثيرًا ما يتم بذرائع وهمية.

باختصار، أصبح فرسان مالطة مصدر إزعاج للڤينيسيين، وإن كان بدرجة أقل من «الأوسكوك – Uskoks» فى الأيام السابقة. أسوأ ما فى الأمر أنهم كانوا ينتهجون أسلوب الأوسكوك القديم فى التحرش بالسفن التركية فى الأدرياتيكى، وهو السلوك الذى كان السلطان يعتبر ڤينيسيا مسؤولة عنه – مع ما يسببه ذلك من أضرار بالغة بالعلاقات الودية التى كان الڤينيسيون يحاولون الإبقاء عليها، مهما كلفهم ذلك، مع الباب العالى. أكثر من مرة بالفعل، كان الدوج يجد نفسه مضطرًا لأن يرسل إلى الدير المحلى للتنظيم احتجاجاته الشديدة، كما فعل فى سبتمبر 1644، عندما هدد بمصادرة كل ممتلكات الفرسان فى أراضى الجمهورية إن لم يُحسّنوا من سلوكهم؛ وكالعادة، لم يهتم الفرسان.

وبينما كان أسطول من ست سفن تابعة للتنظيم يجول فى بحر إيجه فى شهر أكتوبر، قام بالهجوم على غليون تركى فخم، كان يحمل عددًا من كبار المسؤولين الذين كانوا فى طريقهم إلى مكة للحج، كان من بينهم قاضى قضاة المدينة وكبير الأغوات فى بلاط السلطان، ونحو ثلاثين امرأة من الحريم، ونحو خمسين عبدًا يونانيًا. ثم أبحر الأسطول إلى كريت بالغنيمة، ورسا على شاطئ جنوبى بعيدًا عن الحراسة؛ حيث تم إنزال العبيد وعدد من الخيول. سرعان ما جاء الحاكم المحلى الڤينيسى، ولأنه لم يكن يريد أن يبدو متورطًا، حتى بعد الحدث، فيما كان عملية قرصنة مخجلة، قام بطردهم. بعد عدة محاولات فى موانئ أخرى كثيرة على الجزيرة قوبلت كلها بالرفض، ترك الفرسان السفينة التركية (التى كانت قد أصبحت غير صالحة للإبحار) بركابها وعادوا إلى مالطة.

كان على العرش العثمانى فى ذلك الوقت السلطان إبراهيم[2] شبه المجنون. عندما جاءته الأخبار استشاط غضبًا وأمر بذبح كل المسيحيين فى إمبراطوريته. لحسن الحظ أنه تراجع عن ذلك فيما بعد، إلا أن عملاء ڤينيسيا فى القسطنطينية كانوا يرسلون تقاريرهم عن تجهيز أسطول حربى ضخم على البوسفور، وسرعان ما اتضح أنه كان هناك تفكير فى عملية تأديبية على نطاق واسع. فى البداية، كان هناك ظن بأن الأسطول سيكون موجهًا ضد مالطة، وهو الافتراض الذى أكده إعلان رسمى فى مارس 1645، ولكن رسائل «البايلو[3] – Bailo» الڤينيسى فى القسطنطينية حذرت بأن ذلك كله كان مجرد خدعة. قال فى تقريره: إن السلطان كان مقتنعًا بأن الڤينيسيين كانوا وراء ما

حدث، وإلا فلم اتجه المعتدون فورا إلى كريت؟ لم يكن أعداؤه الرئيسيون هم الفرسان وإنما ڤينيسيا نفسها، أما هدفه فلم يكن مالطة، بل كريت.

سرعان ما اتضح أن البايلو الڤينيسى كان محقًا؛ ففى الثلاثين من أبريل، عبر الدردنيل أسطول تركى من أربعمائة سفينة تحمل نحو خمسين ألف جندى. اتجه الأسطول فى البداية صوب مالطة كما سبق أن أعلن، وتقدم متجاوزًا كريت، ليتوقف فى ناڤارينو فى أقصى الجنوب الغربى من جزر البيلوبونيز للتزود بإمدادات ومؤن إضافية. عند مغادرته فى الواحد والعشرين من يونيو، ظهر أنه كان قد غير خط سيره. بعد أربعة أيام رسا الجيش الغازى على مسافة قريبة غربى "كانيا – Canea" (خانيا – Khania الحديثة) ليتقدم نحو المدينة. لقد بدأت الجولة الأولى من المعركة.

** ** **

كانت كريت – أو "كانديا – Candia" (هيراكليون – Heraklion)، كما كان يطلق عليها الڤينيسيون مثل عاصمتها، كانت أول مستعمرة ڤينيسية فيما وراء البحار منذ 1211، وبعد أن أصبحت نصيبها من الإمبراطورية البيزنطية بعد الحملة الصليبية الرابعة. كانت حكومتها تعتمد على تلك فى المدينة الأم ولكنها لم تكن تعمل بسهولة أو على نحو جيد. كانت الأجزاء الخصبة من الجزيرة قد ابتلعتها إقطاعيات الأسر الڤينيسية العريقة، التى باعدت ثرواتها الطائلة وأساليبها الملتوية بينها وبين السكان اليونانيين المحليين، بالإضافة إلى أن تلك الأسر كانت مستاءة لعدم وجود أى سلطة سياسية فى يدها؛ حيث كان يتم إبعاد كبار المسئولين من ڤينيسيا، مركز اتخاذ القرارات الرئيسية. فى الظروف العادية، كان جباة الضرائب من الإقطاعيين يكلفون بمهام الدفاع على حساب أصحاب الأرض، كما كانت تلك أيضًا مهمة المليشيات المحلية من سكان المدن والمزارعين، ولكن كلا الطرفين كان يتملص من التزاماته باستمرار. كان الفساد منتشرًا والمستعمرة تمثل استنزافًا دائمًا للموارد الڤينيسية.

لحظة أن أدركت الخطر المحدق، أقرت حكومة الجمهورية برنامجًا دفاعيًا صارمًا للجزيرة، وأرسلت إلى "أندريا كورنر – Andrea Corner" – البروڤيديتور العام – Proveditor General[4] – حوالة مالية بمائة ألف دوكاتية، وجيشًا قوامه ألفان وخمسمائة مقاتل بينهم مهندسون عسكريون، وأسطولًا من ثلاثين جالية، وجلياستين، إضافة إلى ما كان موجودًا بالفعل على الجزيرة. كما تم إبلاغ كورنر كذلك بأنه كان يجرى تجهيز أسطول آخر سوف يرسل إليه على وجه السرعة. كان ذلك أفضل من لا شىء، ولكن موارد المفوض العام كانت ما زالت غير كافية، والوقت المخصص له

قصير، ولا بد أنه عندما أسرع إلى رأس الشاطئ فى ذلك اليوم من أيام منتصف فصل الصيف، كان يعرف أن فرصة المستعمرة فى البقاء ضئيلة.

كان الكثير يتوقف على سرعة وصول الأسطول الڤينيسى الموعود، فلو أنه وصل فى غضون أسبوع أو اثنين، لأمكن إنقاذ كانيا. إلا أنه لم يصل. كان لا بد من أن يصاب كورنر بالفزع، عندما علم بأنه كانت لديه أوامر بالانتظار فى «زانته – Zante" (زاكينتوس – Zakynthos)، حتى يلحق به أسطول مشترك من خمسة وعشرين سفينة من توسكانيا ونابولى ومن قبل الفرسان والبابا، كان المهم الآن هو عامل الزمن وليس القوة العددية. فى الوقت نفسه، كان الأتراك يحصنون أنفسهم فى خنادقهم بقوة مع كل يوم يمر. سقطت قلعة "سان تيودور – St Theodor" الموجودة على الجزيرة فى أيديهم، رغم أن ذلك لم يحدث إلا عندما وجد قائدها "بياجيو زوليان – Biagio Zolian" أن المقاومة لم تكن مجدية، انتظر إلى أن تم اجتياحها ثم أشعل النار فى مستودع البارود ثم فجر نفسه ورجاله والأتراك المهاجمين والمبنى نفسه.. كل ذلك فى انفجار واحد هائل دوى فى أرجاء كانديا. كانت كانديا تضعف بسرعة، الذخيرة والمؤونة تنفد، الدفاعات نفسها يتم نسفها بواسطة المهندسين العسكريين الأتراك، وفى الثانى والعشرين من أغسطس كان الاستسلام. آملين، من خلال استعراض للقوة فى التوقيت المناسب، وبغرض التشجيع على المزيد من الاستسلام أثناء تقدمهم، كان الأتراك يقدمون الوعود باحترام حياة وشرف وممتلكات السكان المحليين، كما سمحوا للحامية بمغادرة المدينة بأعلامها مرفوعة، وبأن يخرج أفرادها آمنين إلى "سودها – Soudha" خلف "أكروتيرى – Akrotiri"[5] فى اتجاه الشرق.

الآن، وأكثر من أى وقت سبق، كان الحظ حليف الغزاة. فى سودها، فقد الأدميرال الڤينيسى «أنطونيو كاپللو – Antonio Cappello" صوابه فجأة وهجر المدينة، ولم ينقذها من الأسر سوى موقعها الطبيعى الممتاز وتحصيناتها التى كان قد تم تجديدها. بعد ذلك، قام الأسطول المشترك، الذى كان قد وصل أخيرًا (فى منتصف سبتمبر) إلى المياه الكريتية، بمحاولتين لاستعادة كانيا بهجوم مفاجئ؛ إلا أنه كان يرتد على أعقابه فى المرتين بسبب العواصف الاستوائية. أخيرًا، أعلن الجزء غير الڤينيسى منه، بقيادة الأدميرال البابوى "نيكولو لودوڤيسى – Nicolo Ludovisi" أمير "پيومبينو – Piombino"، الذى كان قد أبدى منذ البداية عدم ارتياحه للحملة كلها، أعلن عن نيته فى العودة إلى بلاده. لم تكن تلك هى المرة الأولى التى يكون فيها حلفاء ڤينيسيا سببًا فى إلحاق الضرر بها. كان يمكن أن يكون وضعها أفضل بدونهم.

كانت حكومة ڤينيسيا فى الوقت نفسه مستعدة للحرب تمامًا، ولأنها لم يكن لديها سبب يجعلها تعتقد أن السلطان إبراهيم كان ينوى أن يكرس نفسه لمسرح عمليات واحد، قامت بإرسال حامية إضافية إلى كورفو، بل وشرعت فى تقوية دفاعات البحيرة الڤينيسية. ولكن الأولوية المطلقة بالطبع، كانت لـ "كريت". كانت الجاليات وسفن النقل تبحر الآن فى طريقها إلى الجزيرة بشكل يومى محملة بالعتاد والمؤن من كل نوع. كان هناك احتياج واحد، على أية حال بقى دون أن يتحقق، وهو وجود قائد أعلى. كانت هناك حاجة لشخص يمكن أن تضعه مكانته وسمعته فوق كل الأحقاد والخصومات التى كانت خطرًا قائمًا باستمرار، وبخاصة عندما يكون الأمر متعلقًا بالعلاقات بين كريت وڤينيسيا. كان تعيين قائد على هذا المستوى موضوع جدل طويل فى مجلس النواب، وعند التصويت النهائى برز اسم الدوچ "فرانسيسكو إيريزو – Francesco Erizzo" نفسه بأغلبية ساحقة.

كان صوت واحد فحسب هو الذى ارتفع معارضًا هذا الاقتراح. كان "چيوڤانى بيسارو – Giovani Pesaro" – الذى سيصل إلى عرش الدوقية فيما بعد – هو الذى يجادل قائلًا: إن تكلفة إرسال رأس الدولة مع مجلسه وطاقم سكرتاريته أمر لا يمكن تبريره فى وقت كانت الجمهورية محتاجة فيه إلى كل پنس لتمويل الحرب، وإن خطوة كتلك، كان من شأنها أن تشجع السلطان بالمثل لكى ينزل إلى الميدان هو شخصيًا وبذلك يعظم المجهود الحربى التركى. كان هناك اعتبار آخر جدير بالتدبر: كان إيروزو أمامه شهران فقط قبل أن يبلغ الثمانين من العمر؛ إلا أن أحدًا لم يستمع، وكان كل الاهتمام منصبًا على الدوچ العجوز، الذى أعلن فى كلمة جعلت عين كل من كان يستمع إليه تدمع، عن استعداده للقيام بهذا الواجب الهائل الذى ألقى على كتفه. لحسن حظ ڤينيسيا أنه لم يفعل. كانت الاستعدادات وحدها كثيرة عليه، وبعد ثلاثة أسابيع فحسب مات، وكان ذلك فى الثالث من يناير 1664. تم دفنه فى كنيسة "سان مارتينو – S. Martino"، ولكن قلبه إقرارًا بفضله لقبوله التكليف الأخير دون تردد، وضع تحت سطح كنيسة سان مارك نفسها. وحيث إنه لم يكن هناك شخص آخر فى ڤينيسيا كلها بمثل تلك المنزلة، تم التخلى عن فكرة القائد العام، ولم يعد أحد يسمع بها بعد ذلك.

يبدو أن كل شىء كان يتوقف على احتواء الأتراك فى كانيا، الميناء الوحيد فى كريت الذى كانوا قد استولوا عليه حتى ذلك الحين. فلو أمكن محاصرتهم هناك إلى أن تبنى ڤينيسيا قوتها العسكرية فى القلاع على امتداد الساحل، لما كان من الصعب طردهم فى آخر الأمر. تم الدفع بـ "توماسو موروسينى – Tommaso Morosini" الأصغر، مع ثلاث وعشرين سفينة فى محاولة لإغلاق الدردنيل، وبذلك يمكن حبس أسطول الدعم

التركى فى بحر مرمرة، وقد تمكن على الأقل من تأخيره لفترة طويلة. هذا التعطيل أغضب السلطان بشدة، لدرجة أن أمر بقطع رأس الأدميرال. إلا أن المنحوس الذى خلف الأدميرال، الذى حفزه الخوف من أن يلقى مصيرًا مماثلًا، كما حفزته رياح مواتية من خلفه، شق طريقه عبر التشكيل الخطى الڤينيسى واندفع فى بحر إيجه نحو كانديا؛ حيث كان القائد العام الهرم "چيوڤانى كاپللو" (75 عامًا) شديد البطء وغير حاسم فى منعه من دخول الميناء. ارتدت السفن الڤينيسية إلى "ريتيمو – Rettimo" (ريثيمنون – Rethymnon)، إلا أنها لم تكن لتبقى هناك فترة طويلة. بعد صراع طويل، اضطرت المدينة للاستسلام فى الثالث عشر من نوفمبر.

كان لسقوط ريتيمو أثر واحد مفيد، وهو أنه كان سببًا فى طرد كاپللو عديم الفائدة، والمجىء بـ "باتيستا جريمانى – Battista Grimani" الذى كان قائدًا محبوبًا ويصغره بأربعين عامًا، فدبت بذلك حياة جديدة فى الأسطول. فى وقت باكر من 1647، وجد توماسو موروسينى نفسه فجأة محاطًا بما لا يقل عن خمسة وأربعين سفينة تركية، فكانت فرصة للانتقام لفشله فى العام السابق، وفى المعركة غير المتكافئة التى اندلعت بعد ذلك، حارب هو وأطقمه ببطولة. حبسوا نيرانهم حتى اقترب العدو منهم تمامًا ثم أطلقوها وابلًا عن كثب، وقبل أن يمر وقت طويل كان الڤينيسيون واقعين فى قبضة ثلاث من السفن التركية فى وقت واحد ليدور القتال متلاحمًا، إلى أن تمكن أحد الجنود الأتراك من حملة الهركوبة من التسلل خلف موروسينى، الذى كان وسط المعركة؛ ليفجر رأسه. فى نفس الوقت تقريبًا، سقط الأدميرال التركى مصابًا بجراح بليغة إلا أن المعركة استمرت. وفجأة شاهد الڤينيسيون المرهقون ثلاث سفن تركية أخرى تقترب فى تشكيل قتال، رافعة علم سان مارك على صواريها، وعندما سمع جريمانى صوت إطلاق نار جاء يستطلع الأمر. دخلت هذه السفن هى الأخرى المعركة، مجبرة الأتراك على التقهقر. غرقت أربع سفن تركية ولاذت الأخرى بالفرار. أُعطِبت سفينة موروسينى ولكنها كانت ما تزال طافية، فتم قطرها لتعود إلى كانديا، بينما أعيدت أشلاء قائدها لتدفن فى ڤينيسيا على نحو يليق ببطل.

إلا أن بطولته، بالرغم من أنها كانت ملهمة، لم تحسن وضع ڤينيسيا الرئيسى فى كريت. من بين الحصون الأربعة الرئيسية على امتداد الساحل الشمالى للجزيرة – كان الخامس بعيدًا ناحية الشرق، فكان بالإمكان تجاهله مؤقتًا – كان اثنان فى أيدى العدو بالفعل، أما بالنسبة للآخرين فقد كان حصن سودها محاصرًا من البحر منذ عام تقريبًا ويعانى من نقص فى المواد الغذائية، ومثل كانديا كان الطاعون متفشيًا به؛ الأمر

الذى كان محبطًا للروح المعنوية ويجعل حمايته مستحيلة. أما بالنسبة للأتراك خارج الأسوار، فكانوا بعيدين عن ذلك الوباء. فى صيف 1647 أحكموا الحصار على كانديا التى كان مستقبل المستعمرة يتوقف عليها باعتبارها العاصمة.

** ** **

كان أن استمر حصار كانديا نحو اثنين وعشرين عامًا، كانت ڤينيسيا تدافع فيها – منفردة – عن المدينة الصغيرة (كان عدد سكانها يتراوح بين 10 : 12 ألف نسمة – ضد القوة البرية البحرية المشتركة للإمبراطورية العثمانية. فى الماضى، كان لا يمكن تصور مقاومة طويلة كتلك، ربما لأن الاعتماد المتبادل بين الأتراك والڤينيسيين فى الأمور التجارية كان يتطلب أن تكون الأعمال العدائية بينهم قصيرة وحادة، ولكن الآن ومعظم تجارة النقل فى أيدى الإنجليز والهولنديين، لم تكن تلك الاعتبارات ما زالت مطبقة، وكان السلطان يستطيع أن يتحمل الوقت. أما قدرة ڤينيسيا على الصمود طويلًا، فلم تكن بسبب إصرار المدافعين عنها داخل الأسوار – رغم أهمية ذلك – بقدر ما كانت بفضل أسطولها، الذى كانت دورياته المستمرة فى الحوض الشرقى من المتوسط تحبط كل محاولات الأتراك لحصار كانديا من البحر، وتزيد من سيطرتها على بحر إيجه، لدرجة جعلت الأتراك يبذلون كل جهدهم لتجنب مواجهة بحرية مباشرة طوال السنوات العشر الأخيرة من الحصار.

لا يعنى ذلك أنه لم تكن هناك مواجهات من هذا النوع، فقصة الحرب ملحمة وطنية بالمعنى الكامل للكلمة، هناك قصص عن معارك لا حصر لها كبيرة وصغيرة، متعمدة أو غير مقصودة، فى مواقع متفرقة حول مدخل الدردنيل؛ حيث كان الأسطول الڤينيسى يتجمع كل ربيع على أمل محاصرة العدو فى المضايق، أو عبر أرخبيل بحر إيجه إلى مكلأ كانديا نفسه. إنها قصة طويلة، غنية كذلك بحكايات بطولية: مثل حكاية "چياكومو ريڤا – Giacomo Riva" فى 1649، الذى طارد أسطولًا تركيًا فى ميناء صغير على الساحل الإيونى ليمزقه إربًا، وحكاية "لازارو موسينيجو – Lazzaro Mocenigo" فى 1651 بالقرب من "پاروس – Paros"، الذى أبحر متحديًا أوامر قائده للهجوم على أسطول كامل للعدو، رغم إصابته بجراح بليغة من سهام عدة وطلقة بندقية اخترقت ذراعه فأجبر الأسطول على الفرار، وحكاية "لورنزو مارسيللو – Lorenzo Marcello"، الذى قاد سفنه إلى الدردنيل فى 1656، ولكنه لم يبق على قيد الحياة ليشهد واحدًا من أكمل وأعظم الانتصارات فى الحرب كلها، وحكاية لازارو موسينيجو (مرة أخرى) فى 1657، وكان قد أصبح قائدًا عامًا، عندما قام أسطوله المكون من 12 سفينة

بمطاردة أسطول العدو المكون من ثلاث وثلاثين سفينة فى المضايق، مجتازًا بحر مرمرة خلفهم حتى أسوار القسطنطينية نفسها.

إلا أنه بالرغم من الإنجازات العظيمة والشجاعة الفائقة، يبدو أنه لم تكن هناك خطة شاملة؛ لأن دفاعًا أكثر تنظيمًا على طرق الاقتراب من المدينة المنكوبة، كان ينبغى أن يكون أكثر نجاحًا فى عزل المهاجمين عن مصادر تعزيزاتهم وإمداداتهم. بالرغم من كل جهود الڤينيسيين، استمرت التعزيزات والإمدادات فى الدخول، وحتى فى لحظات الانتصار كان المدافعون يعرفون جيدًا أن سقوط كانديا كان مسألة وقت.

شىء واحد فحسب كان هو الذى يمكن أن ينقذها: الدعم السخى والحماسى من قبل القوى الأوروبية. قد يرى البعض أن تاريخ التوسع العثمانى فى أوروبا، يمكن إرجاعه بأكمله إلى عجز الأمراء المسيحيين الدائم عن الاتحاد دفاعًا عن قارتهم وعقيدتهم، إلا أن ذلك مسألة جدلية وقابلة للنقاش؛ ولكن ما يمكن قوله هو أنهم لم يقوموا بذلك بإخلاص منذ الحملة الصليبية الثالثة قبل نحو خمسة قرون، كما أنهم لم يكونوا يقومون بذلك الآن. مرة تلو الأخرى، كانت ڤينيسيا تلجأ إليهم، مؤكدة دائمًا أن أمن العالم المسيحى نفسه، وليس مستعمرة ڤينيسية صغيرة - هو الأهم، وأن ضياع كريت كان يعنى ضياع نصف البحر الأبيض المتوسط. ومرة تلو الأخرى كانوا كشأنهم دائمًا يرفضون الاستماع. من ألمانيا، كان الإمبراطور يقول: إنه كان قد وقع حديثًا هدنة لمدة عشرين عامًا مع الباب العالى؛ ومن إسپانيا، لدهشة الجميع، كان صاحب السمو الملك، "الأكثر كاثوليكية"، يرسل سفيرًا إلى القسطنطينية الكافرة؛ أما فرنسا المتسقة مع دورها المزدوج فكانت تمرر إعانات صغيرة سرًّا فى بعض الأحيان، لڤينيسيا. كانت تمرر الإعانات بيد، وتمد يدها الأخرى فى صداقة للسلطان. إنجلترا، التى لم يكن متوقعًا منها الكثير؛ حيث لم تكن قد أصبحت قوة فى البحر الأبيض، كانت مسرفة فى وعودها... ولا شىء أكثر من ذلك. الباباوات المتوالون، الذين كانوا يرون نكبة ڤينيسيا وسيلة مفيدة لتحقيق مزايا لأنفسهم، كانوا يعرضون المساعدة مقابل تنازلات فحسب: إنوسنت العاشر مقابل السيطرة على الأسقفيات الڤينيسية، وخليفته ألكساندر السابع مقابل إعادة السماح بدخول الچزويت الذين كان محظورًا عليهم دخول أراضى الجمهورية منذ پول الخامس بموجب أمر كان قد أصدره فى 1606.

ما لا يمكن إنكاره، هو أنه بمرور السنوات، وبعد أن أصبحت قصة مقاومة كانديا حديث كل أوروبا، كان الدعم الأجنبى على شكل أفراد وأموال وسفن ما زال يأتى، ولكنه كان قليلًا جدًّا... ويصل متأخرًا جدًّا. مثال على ذلك تلك القوة التى أرسلت من فرنسا

فى 1660، تحت قيادة الأمير "ألميريجو ديستى – Almerigo d'Este"، المكونة من أربعة آلاف مقاتل. لم تصل فى الربيع، عندما كان يمكن أن يكون ذلك توقيتًا مناسبًا، وإنما وصلت فى أواخر أغسطس، أول هجوم لها ضد العدو على أراض لم تحاول أن تستطلعها، انتهى بالذعر والفرار، وبعد أسبوع أو أسبوعين، بعد أن ضربت الديزنطاريا أفرادها، كان لا بد من إرسالها بكاملها إلى جزر أكثر راحة حتى تستعيد قوتها، بعد ذلك عاد من بقوا منها على قيد الحياة – لم يكن من بينهم الأمير، بكل أسف – إلى أوطانهم دون أن يحققوا شيئًا.

كثيرة وجديرة بالتذكر كانت بطولات القادة الڤينيسيين فى البحر، لدرجة تنسينا بسهولة الدفاع البطولى عن كانديا بواسطة الحامية نفسها، التى كان مقدرًا لها أن تواجه اثنين وعشرين عامًا من الاستنزاف – فى كل الأعمال العسكرية المخيبة للآمال – وأن تعانى خيبة أمل مستمرة فى وعود كاذبة بالمساعدة ممن كانوا يدعون أنهم حلفاء ڤينيسيا. مثل هذه القوات، كما كان يتضح دائمًا، كانت إما أن تحرص على حياتها فقط، أو أن تحقق أمجادًا شخصية، وبذلك كانت تغامر بحياتها وحياة الآخرين نتيجة النقص الشديد فى القوة البشرية.

تكررت هذه الظاهرة الأخيرة كثيرًا فى المراحل الأخيرة من الحصار. فى ذلك الوقت، كان اسم كانديا يتردد فى كل أوروبا؛ ومن بين الفرنسيين على وجه الخصوص، كانت جماعات من سلالة النبلاء قد بدأت تتدفق على الجزيرة فى محاولة لإثبات شجاعتهم فى ساحة قتال مجيدة كتلك. كان أبرز تلك التدفقات ما حدث فى 1668، عندما اقتنع لويس الرابع عشر أخيرًا بالحصار وبدأ اهتمامه الشخصى به. حتى ذلك الحين لم يكن قد دخل الحرب، ولا – حتى – قطع العلاقات الدبلوماسية مع السلطان. كان التجار الفرنسيون فى الشرق اللاتينى قد أفادوا كثيرًا من الرحيل المفاجئ لبعض منافسيهم الڤينيسيين، وكان نجاحهم كفيلًا بأن يجعل الملك يحلم بأى قطيعة واضحة. لقد تخلى حتى عن مبادئه لدرجة أن سمح لڤينيسيا بجمع قوات من الأراضى الخاضعة له، تحت قيادة "ماركيز سانت – أندريه مونت برن – Marquis of Sainte-Andrė Montbrun" القائد العام لجيوشه، وكانت النتيجة قوة متطوعين قوامها خمسمائة مقاتل، أبعد ما تكون عن قوة احترافية. تحت قيادة مونت برن، كان هناك أولًا "دوق دى لا فوياد – Duc de la Feuillade"، الذى رغم أنه لم يكن ثريًا، كان مصرًا على أن يتحمل شخصيًا نصيب الأسد من التكلفة، ثم كان هناك دوقان آخران، دوق "شاتو تييرى – – Château Thierri" ودوق "كاديروس – Caderousse" و"ماركيز أوباسو – Aubusson"

وكونتا "ڤيمور – Villemor" و"تاڤان – Tavanes" وأمير "نيوشاتيل – -Neuchâ tel"، (الذى لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة)، وعدد كبير آخر من شباب النبلاء من كبريات العائلات الفرنسية.

عند وصولهم إلى كريت فى أوائل ديسمبر، عهد القائد العام الجديد "فرانسيسكو موروسينى – Francesco Morosini" للنبلاء الفرنسيين بالدفاع عن أحد الأسوار الخارجية على الجانب المواجه لليابسة من المدينة. رفضوا؛ قالوا: إنهم لم يقطعوا تلك الرحلة المضنية إلى كريت لكى يطلب منهم أن يزحفوا فى الطين حتى موقع خارجى – وينتظرون هناك صامتين إلى أن يقرر الأتراك الهجوم، واقترحوا بدل ذلك القيام بهجوم شامل "يجبر العدو على رفع الحصار". موروسينى، بتعقل شديد، لم يوافق على ذلك. كان قد قام بالفعل بعشرات الإغارات ولم يسفر أى منها عن أى نتيجة. كان من بقى من رجاله (أقل من خمسة آلاف آنذاك) يكفون بالكاد للدفاع عن الثغرات التى كان الجنود الأتراك يفتحونها فى الأسوار، إلا أن أحدًا لم يستمع لرأيه. وكما وصف مؤرخ فرنسى الوضع:

> **كان المسيو فوياد يسعى وراء العمل الجسور والمجد الشخصى فحسب، لم يكن يضيره كثيرًا مقتل سبعمائة أو ثمانمائة من رجال الجمهورية، ما دام سوف يحظى عند عودته إلى فرنسا بشرف القيام بعمل جسور على جزيرة كريت؛ وبمجرد وجوده خارج موقعه، فإن ضياعها بسبب نقص الرجال الذين يدافعون عنها لن يسبب له الكثير من الحزن.[6]**

وعندما وجد أن القائد العام لن يتزحزح عن موقفه، أعلن لافوياد، شاكيًا بصوت عال، من الجبن الڤينيسى، عن نيته القيام بهجوم انفرادى على مسئوليته، وهو ما فعله فى السادس عشر من ديسمبر، عندما قام مسلحًا بسوط – رمزيًا – على رأس قوة، يقال: إن عددها كان قد انخفض خمسمائة (عددها الأصلى) إلى مائتين وثلاثين جنديًا. كان الأتراك يقاومون بشراسة، إلا أن الفرنسيين برغم تهورهم وطيشهم أبدوا شجاعة خارقة وطردوهم ليتراجعوا نحو مائتى ياردة، وكان عددهم نحو ثمانمائة فى البداية، وبالرغم من وصول كتيبة جديدة من جنود الإنكشارية، أجبرهم الفرنسيون فى آخر الأمر على الانسحاب. قتل كونتا ڤيمور وتاڤين ونحو أربعين آخرين، وجرح أكثر من ستين جراحًا خطرة، كان من بينهم ماركيز أوباسو، وكان آخر الناجين فوياد نفسه الذى كان مصابًا بثلاثة جروح نافذة.

كان ذلك رائعًا، ولكنه لم يكن ليساعد كريت أو ڤينيسيا. بعد أن انقضت لحظة المجد،

لم يكن من بقى من الأبطال قادرًا على ترك الجزيرة بسرعة. غادروها فى غضون أسبوع بالرغم من أن الكثير منهم – حتى الذين هربوا دون أن يصيبهم أذى – لم ير فرنسا بعد ذلك. كانوا قد حملوا بكتير الطاعون معهم.

بعد أن رسا الناجون فى «طولون – Toulon"، سرعان ما أبحرت قوة أخرى (أكبر حجمًا، وأكثر احترافًا، وأفضل تجهيزًا) من فرنسا، متجهة صوب كانديا. أخيرًا، كان السفير الڤينيسى – چيوڤانى موروسينى، أحد أقارب القائد العام – قد استطاع أن يقنع لويس الرابع عشر بأن يضطلع بمسئولياته الأكثر مسيحية على نحو أكثر جدية، وفى ربيع 1669 كان إسهامه المهم جاهزًا: ستة آلاف جندى، ثلاثة آلاف حصان، خمسة عشر مدفعًا.. كانت كلها محمولة على أسطول من سبع وعشرين سفينة نقل تحرسها خمس عشرة سفينة حربية. إلا أن لويس، حتى ذلك الحين، كان يحاول أن يخفى إخلاله بعهده عن أصدقائه الأتراك، فلم يبحر الأسطول تحت راية زهرة السوسن[7]، وإنما تحت راية البابوية التى تحمل المفاتيح المتصالبة.

وصلت القوة الرئيسية للجيش، وكانت تحت القيادة المشتركة لدوقى «دى بوفور – de Beaufort" و"دى نواى – de Noailles"، وصلت إلى كانديا فى التاسع عشر من يونيو. روعهم ما رأوه. كتب أحد الضباط يقول:

> **كانت المدينة فى حالة يرثى لها: الشوارع مغطاة بالطلقات والقذائف وشظايا الألغام والقنابل. لم يكن هناك كنيسة واحدة، أو أى مبنى آخر، لم تخرب القذائف جدرانه أو حولته إلى أنقاض. منازل الناس لم تكن أكثر من زرانب بائسة. كانت الروائح الكريهة تتصاعد من كل مكان، والجثث والجرحى والمصابون عند كل منعطف.**

على الفور، بدأت قصة لافوياد تكرر نفسها، كان القادمون الجدد متلهفين على القتال، لدرجة أن رفضوا أن ينتظروا وصول باقى الجيش، بدأوا هجومهم الخاص فجر الخامس والعشرين من يونيو. كانت البداية سيئة، اتضح أن الجزء الأول من القوات التى فتحوا النار عليها كان وحدة ألمانية وصلت مؤخرًا لدعمهم. وبعد استعادة النظام هاجموا مرابض المدافع التركية ونجحوا فى البداية. ثم فجأة، أشعلت قذيفة تركية طائشة براميل البارود فى إحدى البطاريات التى كانوا قد تركوها على عجل. كانت مهارة جنود التلغيم الأتراك معروفة، وكانت العمليات التى يقومون بها من ملامح الحصار، كما كانت معظم الأضرار التى لحقت بدفاعات المدينة نتيجة للتفجيرات التى تتم تحت الأرض. فجأة، انتشرت الشائعات بين صفوف الفرنسيين بأن كل الأراضى التى يقفون عليها كانت

ملغومة، وأن البطارية لم تكن سوى حفرة انفجار مموهة، وأن صوت الانفجار الذى سمعوه قبل قليل كان الأول فى سلسلة انفجارات مماثلة سوف تنسفهم جميعًا وتحولهم إلى فتات ! مع الشائعات كان الذعر، فبدؤوا يفرون خائفين يدهس بعضهم بعضًا. عندما شاهد الأتراك ذلك الفرار المفاجئ الذى عجزوا عن تفسيره، أعادوا تنظيم صفوفهم وقاموا بهجوم مضاد. مات خمسمائة فرنسى، وفى غضون دقائق معدودة كانت رؤوسهم معروضة أمام الوزير الأول «أحمد»، وسط كل مظاهر الاحتفال بالنصر. كان من بينها رأسا دون دى بوفور وأحد الرهبان، الذى كان قد صحب الجيش لجمع الصدقات.

لم يكن فقدان خمسمائة رجل من بين ستة آلاف بالخسارة الهينة، وبعد أربعة أيام وصلت بقية جيش الملك لويس، وبدأ موروسينى التخطيط لهجوم جديد على كانديا من الغرب، إلا أن روح حلفائه الجدد كانت كسيرة. فى الرابع والعشرين من يوليو، اقتربت سفينة حربية فرنسية مزودة بسبعين مدفعًا من بطارية شاطئ تركية، فتم تفجيرها فى الماء. بعد أيام قليلة كان نواى يبلغ القائد العام، بكل لامبالاة، بأنه كان يعيد الجيش إلى السفن ويستعدون للرجوع إلى بلادهم. لم تُجْدِ الاحتجاجات ولا التوسلات ولا التهديدات ولا مناشدات الباقين على قيد الحياة. حتى التنديد بذلك من على منابر الكنائس لم يؤد إلى تغير الموقف، وفى الواحد والعشرين من أغسطس أقلع الأسطول الفرنسى. وسط حالة اليأس التى عمت بعد ذلك، أبحرت كذلك القوات الإضافية الصغيرة التى كانت موفدة من قبل البابا والإمبراطورية، حتى فرسان مالطة أيضًا أبحروا فى اتجاه الغرب. بقى موروسينى وحاميته وحدهم، وأصدر الوزير الأول أمرًا بالهجوم الشامل.

كانت هناك محاولات لصده، إلا أن القائد العام كان يعرف أنه لا بد من أن يلقى هزيمة فى آخر الأمر. كان عدد حاميته قد تقلص إلى ثلاثة آلاف وستمائة رجل، ولن تكون هناك تعزيزات إضافية ذلك العام. كانت الدفاعات مدمرة، وكان يعرف جيدًا أن لا أمل فى صمود كانديا لموسم شتاء آخر. من ناحية أخرى، فإن الاستسلام الآن بدلًا من الانتظار إلى أن تسقط المدينة عنوة، ربما يمكنه من الحصول على شروط أفضل، وربما غير مهينة. كان واضحًا أنه لا يملك أى صلاحيات للتفاوض باسم الجمهورية، ولكنه كان يعى أنه على الأقل فى ثلاث مناسبات سابقة (فى 1647 و 1657 و 1662) كانت مسألة التفاوض موضوعًا للبحث فى مجلس الشيوخ، وكانت فى كل مرة تجد قدرًا من الدعم. على أية حال، كان الخيار صعبًا.

تمت الموافقة على المعاهدة فى السادس من سبتمبر 1669. بدا الوزير الأول، وكان يكن إعجابًا شخصيًا بـ «موروسينى»، كريمًا. سيغادر الڤينيسيون المدينة بكل حرية

ودون تحرش من أحد، فى غضون اثنى عشر يومًا، ويمكن تمديد هذا الشرط – كما حدث – فى حال سوء الأحوال الجوية. كل المدفعية التى كانت موجودة من قبل بدء الحصار لا بد من تركها فى مواقعها، أما الباقى فيمكن أن يحملوه معهم. سيبقى الأتراك كحكام، ولكن ڤينيسيا يمكن أن تحتفظ بجزر «جرامڤوزا – Gramvousa" فى الطرف الشمالى الغربى من كريت، وقلعة "سپينالوجنا – Spinalogna" وبمدينة "سيتيا – Sitia" فى أقصى الشرق، التى لم تكن قد استسلمت.

وهكذا فى السادس والعشرين من سبتمبر، بعد 465 سنة من الاحتلال، و22 سنة من الحصار، تم إنزال راية سان مارك من فوق ما كان قد تبقى من قلعة كانديا، وعاد آخر ممثلى الجمهورية الرسميين إلى مدينتهم الأم. ومعهم ذهب كل السكان المدنيين الذين كانوا فى المدينة، فلا أحد منهم كان يرغب فى البقاء تحت حكم سادتهم الجدد. كان ذلك بالنسبة لڤينيسيا نهاية مرحلة. احتفظت بمراكزها الثلاثة المتقدمة، وبقيت هناك نقطة أو نقطتان صغيرتان جدًا على خريطة بحر إيجه؛ حيث ما زال الأسد ذو الجناحين يحكم، رغم أن زئيره كان قد توقف وزمجرته لم تعد مسموعة؛ ولكن كريت كانت آخر ممتلكاتها الرئيسية خارج البحر الأدرياتيكى. بضياعها انتهى وجودها المؤثر فى الحوض الشرقى من المتوسط، وليس قوتها فحسب.

لقد ماتت فى عظمة ومهابة على الأقل. لم يحارب الڤينيسيون هكذا فى تاريخهم لفترة أطول، ولا على نحو بطولى برًا أو بحرًا. لم يسبق أن واجهوا أعداء أكثر قوة وإصرارًا. كانت التكلفة المالية باهظة.. وأكثر من باهظة فى الأرواح. فوق ذلك، على مدى ربع القرن تقريبًا، كانوا يحاربون وحدهم. كانت مساعدات حلفائهم فى المناسبات النادرة ضنينة، وعلى مضض، وغير كافية أو نفعية إذا جاءت؛ وأحيانًا – عندما كانت تسبب تأخيرًا طويلًا أو تسحب فجأة دون سابق إنذار – كانت شديدة الضرر على القضية المشتركة. حتى فى السنتين أو الثلاث الأخيرة، عندما تحولت سياسة الاستنزاف السابقة إلى تدمير محموم وسفك دماء، كانت التدخلات الأجنبية تضعف الروح المعنوية وتثبط الهمة. إلا أن ضعف الروح المعنوية وتثبيط الهمة لم يكونا سبب استسلام فرانسيسكو موروسينى؛ كان السبب هو إدراكه المفاجئ أن فقدان كانديا كان حتميًا، وأن الخيار الوحيد أمامه كان بين الرحيل بشروط مشرفة الآن، أو المذبحة الكاملة والدمار بعد وقت قصير. ربما كان من المتوقع أن يجد نفسه فى موقف صعب عند عودته إلى ڤينيسيا. لقد اتهم، ليس بتجاوز سلطاته المشروعة وتعامله مع العدو كما حدث فحسب، وإنما بالجبن والخيانة كذلك.. بل وبالاختلاس والفساد. لحسن حظه أن كان هناك من سارع للدفاع

عنه، وعندما عرض الأمر على المجلس الأعلى جاء التصويت لصالحه، لقد خرج من المسألة خروج الشعرة من العجين... مصممًا، حتى، على أن ينتقم.

** ** **

وقبل أن يتحرك البندول، كان أن حدث ذلك. بعد عشرين عامًا فحسب، ثار الرعايا البروتستانت المجريون للإمبراطور "ليوپولد الأول – Leopold I" على ما كانوا يعتبرونه اضطهادًا كاثوليكيًا من جانب الهابسبورج، وبناء على ذلك استنجدوا بالسلطان. لم يكن محمد الرابع يحلم بأكثر من ذلك، وفى ربيع 1683 انطلق إلى "أدرنه – Ed-irne"؛ حيث كان فى انتظاره هناك جيش جرار. كان الجيش يضم كتائب كاملة من المدفعية والمهندسين وعددًا من الوحدات غير النظامية المكونة أساسًا من تتار القرم. عندما وصلوا إلى بلجراد، سلم السلطان زمام القيادة لوزيره الأول "كارا مصطفى – Caramustafa" (مصطفى الأسود)، وانطلق آخر جيش عثمانى كبير ضد أوروبا المسيحية متجهًا صوب ڤيينا.

كانت تلك هى ثانى محاولة تركية ضد العاصمة الإمبراطورية. كان سليمان المعظم قد أقام معسكره أمام أسوار ڤيينا فى سبتمبر 1529 ولكنه أخفق؛ وبعد أقل من ثلاثة أسابيع كان مجبرًا على الانسحاب نتيجة المقاومة القوية غير المتوقعة، ونقص المؤن، وقبل كل شىء بسبب حلول فصل الشتاء. أما كارا مصطفى فكانت لديه ميزة الوصول الباكر فى الفصل المناسب: كنا فى الثالث عشر من يوليو، عندما رتب جيشه واتخذت قواته مواقعها أمام المدينة. من ناحية أخرى لم يكن لديه مدفعية ثقيلة – حيث إن نقلها هذه المسافة الطويلة كان مستحيلًا – وكان مضطرًا للاعتماد إلى حد كبير على مهندسى وجنود رص الألغام تحت الحصون والدفاعات على أمل تفجيرها من أسفل. كان ذلك تخصصًا تركيًا ثبت نجاحه دائمًا. كان لا بد من أن تسقط ڤيينا لولا وصول جيش پولندى فى الوقت المناسب، بقيادة الملك "چون سوبيسكى – King John Sobieski". فجأة، وجد الأتراك أنفسهم محصورين فى تقاطع نيران مهلكة، بين حامية يائسة وقوة إنقاذ تحت قيادة ماهرة، فكان أن هربوا وسط حالة من الفوضى والارتباك بعد معركة استمرت يومًا كاملًا. كان سليمان فى المرة الأولى – على الأقل – قد انسحب بشكل منظم محافظًا على جيشه متماسكًا، أما وضع كارا مصطفى فكان كارثيًا. فى ذلك اليوم الواحد ضاعت إلى الأبد سمعة الإمبراطورية العثمانية كقوة لا تقهر. لن تشكل خطرًا على العالم المسيحى مرة أخرى.

ڤيينا بعيدة عن البحر الأبيض المتوسط بأكثر من مائتى ميل، وما كان حصارها

الفاشل ليجد مكانًا فى هذا الكتاب، إلا لأنه شجع البابا والإمبراطور وسوبيسكى على الزحف على الأتراك المحطمين. ڤينيسيا التى كانت ما زالت حسيرة على ضياع كريت، كانت المناشدات ما زالت تنهمر عليها لكى تنضم إلى عصبة هجوم جديدة، تستخدم قوتها البحرية بالاشتراك مع قواتهم الأرضية لطرد السلطان من أوروبا إلى الأبد – ذلك الطرد الذى ستكون أكثر الجمهوريات هدوءًا وصفاء هى أكثر المستفيدين منه.

لم ترد ڤينيسيا بسرعة. على مدى عقد كامل كانت تحاول جاهدة أن تفيق من آثار حرب كريت، فهل كانت مستعدة الآن لكى تغامر مرة أخرى بكل شىء، وتدخل فى مواجهة جديدة ؟ من ناحية أخرى، كان الوضع قد تغير دون شك منذ هزيمة الأتراك فى ڤيينا. المرحلة التالية من الحرب كان لا بد من أن تكون فى البحر، فى جزء منها على الأقل، أفلا تتطلب منها مصالحها – ناهيك عن سمعتها – أن تنتهج سياسة أكثر فعالية؟ كان الأتراك فى حالة ضعف ومعنوياتهم فى الحضيض: وزيرهم الأول، كارا مصطفى المكروه، كان قد تم إعدامه بأوامر من السلطان بمجرد عودته إلى القسطنطينية، أما الجيش فكان ممزقًا. ألم يكن ذلك هو الوقت المناسب للهجوم، ليس بهدف الثأر لـ "كريت" فحسب، بل لاستعادتها، وربما لاستعادة مستعمراتها السابقة كذلك؟ بعد جدال طويل، تم إخطار السفير الإمبراطورى فى التاسع عشر من يناير 1684 بأن ڤينيسيا كانت ستنضم للعصبة.

كان قائدها العام آنذاك – مرة أخرى – هو فرنسيسكو موروسينى. بالرغم من تسليمه التام والنهائى لـ "كانديا"، كان ما زال وهو فى الرابعة والستين أكثر قادة ڤينيسيا مقدرة وكفاءة، تولى قيادة أسطوله المكون من ثمان وستين سفينة حربية – بالإضافة إلى عدد من السفن الاحتياطية المساعدة من البابا وفرسان مالطة ودوق توسكانيا الأعظم - تولى قيادة الأسطول بكل حماسة وعزيمة. بمجرد خروجه من الميناء اتجه صوب هدفه الأول مباشرة: جزيرة "ليوكاس – Leucas" واستولى عليها فى السادس من أغسطس بعد حصار ستة عشر يومًا. بعد الغزوات السريعة كان يمكن أن يكون لها أهمية إستراتيچية أبعد: من موقعها بين كورفو و"كيفالونيا – Cephalonia"، كانت ليوكاس تتحكم فى مدخل كل من البحر الأدرياتيكى وخليج كورنته، كما كانت توفر رأس جسر، عبرت عليه بعد أسابيع قليلة قوة برية صغيرة إلى البر الرئيسى وأجبرت قلعة پريڤيزا على الاستسلام. فى الوقت نفسه، وفى منطقة فى أقصى شمال الساحل، ثار الأهالى المسيحيون فى "البوسنة – Bosnia" و"الهرسك – Herzegovina" ضد الحكام الأتراك، وانتقلت الثورة إلى ألبانيا و"إيپيريوس – Epirus". ثم فى منطقة

قصوى من الشمال – مرة أخرى – كانت جيوش الإمبراطور وچون سوبيسكى تواصل تقدمها فى المجر، وبحلول فصل الشتاء كان لدى ڤينيسيا وحلفائها من الأسباب ما يجعلهم يفخرون بنجاحهم.

مع مقدم ربيع 1685، أبحر موروسينى ضد "كورونه – Corone"، الميناء القينيسى القديم – كان الأتراك قد استولوا عليه فى 1500 – وقام بإنزال نحو تسعة آلاف وخمسمائة رجل من القوات الإمبراطورية والبابوية والتوسكانية، بالإضافة إلى نحو ثلاثمائة من ڤينيسيا ومائة وعشرين من فرسان سان چون. فى هذه المرة، قاومت الحامية العثمانية باستماتة، ولم تظهر الراية البيضاء على القلعة إلا فى أغسطس؛ ثم عند مناقشة شروط الاستسلام، فتح مدفع تركى النار ليقتل عددًا كبيرًا من القينيسيين. توقفت المفاوضات على الفور، واندفع جنود الحلفاء غاضبين فى المدينة، وكانت مذبحة. بعد ذلك، توالى سقوط سلسلة كاملة من القلاع؛ وفى غضون شهرين أو ثلاثة، كان كثير من جزر البيلوپونيز الجنوبية قد أصبح تحت سيطرة الحلفاء، ووصل چنرال سويدى هو "الكونت أوتو وليم ڤون كونيجزمارك – Count Otto William Königsmark" – بعد أن كانت الجمهورية قد استأجرته مقابل راتب قدره ثمانية عشر ألف دوكاتية – ليكون قائدًا عامًا للقوات البرية.

فى أوائل 1686، التقى موروسينى وكونيجزمارك فى ليوكاس فى مجلس حرب. كانت هناك أربعة أهداف للاختيار من بينها: خيوس وإيوبيا وكريت وبقية البيلوپونيز، ويبدو أن الاختيار وقع على بقية البيلوپونيز نتيجة إصرار كونيجزمارك؛ وفى حملات الصيفين التاليين، قبلت قوات العصبة استسلام مودون وناڤارينو وآراجوس ونوپليا وليپانتو وپاتراس وكورنته. فى الوقت نفسه كان موروسينى قد أبحر بأسطوله نحو "أتيكا – Attica" وبدأ يحاصر أثينا؛ وهنا ستقع المأساة الكبرى الثانية فى التاريخ، التى ستعلق مسؤوليتها – بكل أسف – فى رقبة ڤينيسيا. لقد روينا القصة البائسة للحملة الرابعة فى الفصل السابع، والآن لا بد من أن نسجل هنا – بكل أسف أيضًا – ما حدث فى السادس والعشرين من سبتمبر 1687. فى الساعة السابعة تقريبًا، أطلق ملازم ألمانى مدفع هاون، كان موروسينى قد وضعه على تل "موسيون – Mouseion" مقابل "الأكروپولوس"، الذى كان الأتراك، فى لعنة أكبر من لعنات القدر، يستخدمونه كمخزن للبارود. كانت الطلقة مباشرة، فأدى الانفجار الناجم إلى تدمير "المَقْدِس[8] – Cella" وإفريزها تمامًا، بالإضافة إلى ثمانية أعمدة من الجانب الشمالى وستة من الجنوبى بالجزء القائم عليها من السطح. لم يكن ذلك – حتى – آخر ما حدث من دمار؛

إذ بعد الاستيلاء على المدينة، حاول موروسينى – الذى لم يكن قد نسى الاستيلاء على الأحصنة البرونزية الأربعة من مضمار القسطنطينية فى 1205 – إزالة الأحصنة والمركبة ذات العجل التى كانت جزءًا من القوصرة[9] الغربية للمعبد، وأثناء المحاولة سقطت المجموعة كلها وتحطمت تمامًا، إلا أن الغازى الذى كان كله إصرار، كان عليه أن يرضى نفسه بتذكارات أكثر تواضعًا: الأسدان الجانبيان من الأربعة الواقفين عند مدخل ترسانة ڤينا.

ليس من المرجح أن تكون دموع كثيرة قد أريقت فى ڤينيسيا حزنًا على مصير البارثينون. كان أهالى أثينا مشغولين بالاحتفال. كان قد مر على آخر انتصار كبير لهم فى ليپانتو أكثر من مائة عام، والأهم أن الانتصارات التى كان يحققها موروسينى الآن – والتى لم يكن لها مثيل منذ القرن الخامس عشر – كانت تبشر بانقشاع تلك السحابة العثمانية السوداء التى خيمت عليهم طويلًا، وربما بعودة تلك الأيام البعيدة، أيام الاستعمار التجارى. لم يكن مستغربًا أن يفرحوا كذلك بانتخاب فرانسيسكو موروسينى من أول تصويت، خليفة للدوچ «ماركانتونيو چستنيان – Marcantonio Justinian"، عندما مات فى مارس 1688.

إلا أنه حتى آنذاك، لم يكن ليمكنه أن يعود إلى ڤينيسيا مباشرة على هذا النحو المهين. انتصار واحد آخر، وإن كان متواضعًا، سيكون كافيًا لرد شرفه ويُمكِّن رعاياه من تحيته كبطل بعد كل ذلك، ويمكن أن تكون قلعة "مالڤاسيا – Malvasia" – (مونمڤاسيا – Monemvasia) فى الجزء الجنوبى الشرقى من البيلوپونيز، أحد الحصون البرية القليلة التى تركت للأتراك، يمكن أن تكون صالحة تمامًا لهذا الغرض. إلا أنه كانت هناك مشكلة. لم يكن بالإمكان الوصول إلى هذه القلعة التى تعلو صخرة حصينة إلا عن طريق ممر ضيق، عرض معظمه أقل من ياردة واحدة، لا يمكن أن يفيد منه جيش يقوم بالحصار. كان الأمل الوحيد هو القصف، فأمر موروسينى ببناء مربضين للمدفعية، ولكن حتى قبل اكتمال البناء، داهمه المرض. تاركًا القيادة لـ "چيرولاموكورنر"، أبحر عائدًا إلى بلاده فى يناير 1690 مريضًا وحزينًا، فلم يكن قادرًا حتى على الفرح بحفاوة استقباله.

أثبت كورنر أنه كان جديرًا بوراثة المنصب، كما اتضح أنه كان أكثر حظًّا. استولى على مالڤاسيا وارتفعت راية سان مارك على الأسوار للمرة الأولى فى مائة وخمسين عامًا، ثم عندما علم أن أسطولًا عثمانيًا كان فى طريقه إلى الأرخبيل، أبحر مرة أخرى شمالًا لكى يقابله ويفرق شمله بالقرب من "مايتيلين – Mytilene" (ليسبوس – Le-

spos) ملحقًا به أضرارًا جسيمة. بعد عودته مرة أخرى إلى الأدرياتيكى، شن هجومًا عنيفًا على "ڤالونا – Valona" فاستولى عليها ودمر دفاعاتها. كان ما زال هناك، عندما دهمته الحمى ليموت بعد يوم أو يومين، أما خليفته فأثبت أنه كان قصبة مكسورة.

مع توقف الحرب التركية التى كانت قد بدأت بداية رائعة ثم انتهت إلى توقف شائن، كان الڤينيسيون يتطلعون مرة أخرى إلى الدوچ ليكون قائدًا فاعلًا. موروسينى، الذى كان الآن فى الرابعة والسبعين لم يكن قد استعاد صحته تمامًا، إلا أنه عندما دعى لاستئناف القيادة لم يتردد. أبحر من ڤينيسيا، وسط كل مظاهر العظمة والأبهة، فى الخامس والعشرين من مايو 1693 – ولكن حملته الأخيرة كانت خيبة أمل كبيرة أخرى. كان الأتراك قد استغلوا فصلى الشتاء والربيع لتقوية دفاعات كل من إيوبيا وكانيا فى كريت، كما أن رياحًا معاكسة أعاقت محاولة أخرى لـ "موروسينى" فى الدردنيل. قام بتعزيز دفاعات كورنته ونقطة حصينة أو اثنتين فى البيلوپونيز، وقام بمطاردة قلة من القراصنة الجزائريين، وأخيرًا، لكى لا يعود خالى الوفاض تمامًا، قام باحتلال "سالاميس – Salamis" و"هيدرا – Hydra" و"سپتساى – Spetsai"، قبل أن يدخل ميناء نوپليا ليبقى هناك فى الشتاء. فى ذلك الوقت، كان من الواضح أن كل جهوده قد استنفدت. كان يعانى آلامًا مبرحة طوال شهر ديسمبر نتيجة الحصى الصفراوية واختلال وظائف الكبد، وفى السادس من يناير 1694 مات، وحتى سقوط الجمهورية لم يحدث أن خرج أى دوچ آخر للحرب مرة أخرى.

** ** **

يبقى هناك فصل واحد فى تاريخ محاولة ڤينيسيا المأساوية لاستعادة السيطرة على البحر الأبيض. كانت جزيرة "خيوس – Chios"، أحد الأهداف المحتملة التى فكر فيها موروسينى والكونت ڤون كونيجزمارك فى 1686. كانت خيوس تباهى بأغلبية مسيحية من السكان، سواء من الكاثوليك أو الأرثوذوكس وكان لكل طائفة أسقفها، كما كان تعداد الحامية التركية يقدر بنحو ألفى نسمة على الأكثر. لم يكن "أنطونيو زن – Antonio Zen"، القائد العام الڤينيسى الذى أنزل تسعة آلاف رجل على الجزيرة فى السابع من سبتمبر 1694، لم يكن يتوقع أى صعاب.

لم يواجه أى مشكلة فى البداية. بدأ القصف فورًا، تم الاستيلاء على الميناء وعلى ثلاث سفن تركية تصادف أن كانت راسية فيه. حدث ذلك كله دون قتال واستسلمت الحامية فى الخامس عشر، مع ضمان بخروج آمن إلى البر الرئيسى. كانت الروح المعنوية للڤينيسيين مرتفعة، وارتفعت أكثر بعد أن وصلت أخبار إلى خيوس، عن

أسطول تركى من نحو خمسين سفينة كان يقترب بسرعة. على مدى سنوات، كان الأتراك يبذلون كل ما فى وسعهم لتجنب مواجهات بحرية، وكان ضباط زن لا يكنون إعجابًا كبيرًا لمهارتهم البحرية ولا لشجاعتهم. لسوء الحظ، عندما كان القائد العام على وشك اجتياز المضايق التى تفصل خيوس عن البر الرئيسى ويخرج إلى البحر المفتوح، خمدت الرياح. فى الهدوء التام الذى ساد، لم يكن بالإمكان حدوث أى مواجهة، وعندما هبت نسمة خفيفة فى اليوم العشرين أصيب الأتراك بالفزع. مدركين الخطر الوشيك، اتجهوا صوب بلادهم ليصلوا إلى ميناء سميرنا قبل أن يلحق بهم الڤينيسيون. زن، الذى كان ما زال مستعدًا للقتال، رسا بسفنه فى المكلأ خارج الميناء، ولكنه لم يكد يفعل ذلك، حتى جاء القناصل المحليون الذين يمثلون القوى الأوروبية خارج العصبة – إنجلترا وفرنسا وهولندا – إلى سفينة القيادة، وراحوا يتوسلون إليه ألا يخاطر بحياة المسيحيين وممتلكاتهم فى المدينة بالقيام بأى هجوم غير ضرورى، مدعمين توسلاتهم – كما قيل – بمبلغ كبير من المال. ولأنه كان يعرف أن مؤونته كانت قد أوشكت على النفاد، وافق زن، وعاد إلى خيوس.

إلا أن المعركة البحرية الكبيرة التى كان معظم القادة الڤينيسيين ينتظرونها بلهفة - لم تكن لتتأخر طويلًا؛ فالسلطان الذى كان غاضبًا لضياع أهم جزيرة لديه، أصدر أوامره باستعادتها فورًا، وفى وقت باكر من فبراير 1695، خرج أسطول عثمانى جديد، مكونًا من عشرين من أثقل سفنه الرئيسية (كانت تسمى السفينة السلطانة)، تدعمها أربعة وعشرون جالية. فورًا، أبحر أنطونيو زن ليقابله بأسطول مثله تقريبًا – كان مكونًا من عدد معقول من السفن وفرها فرسان مالطة - فى صباح اليوم التاسع وقعت المعركة بالقرب من الطرف الشمالى للمضايق. كان القتال طويلًا وضاريًا، تجلت فيه مظاهر الشجاعة والبسالة من جانب الڤينيسيين – وربما من جانب الأتراك كذلك، رغم أنه لم يرد ذكر لذلك فى التقارير الڤينيسية، ولكن بعد أن انفصل الأسطولان عند الغروب، بالرغم من الخسائر الكبيرة فى كلا الجانبين (كان هناك 465 قتيلًا و603 جرحى من الڤينيسيين) لم تكن النتيجة حاسمة أو مؤكدة.

لم تكن تلك سوى المرحلة الأولى. رسا الأسطولان بالقرب من خيوس، كلاهما خارج مرمى نيران مدفعية الآخر، وبقيا على مدى عشرة أيام كاملة، كلاهما يراقب الآخر ويترصده. وفى التاسع عشر من فبراير، تظاهرهم رياح شمالية قوية، هجم الأتراك مرة أخرى على خصومهم. أثناء القتال زادت الرياح وزاد اضطراب البحر إلى أن أصبحت المناورة عن قرب مستحيلة. حاول الڤينيسيون باستماتة تعديل أوضاعهم لكى يكونوا مع

اتجاه الرياح ولكنهم كانوا مجبرين على دخول القناة الضيقة المؤدية للميناء. فى مثل تلك الظروف الجوية، كان دخول الميناء مستحيلًا، فبقيت السفن فى المكلأ لتكون عرضة لهجوم الأتراك مرارًا وتكرارًا. كانت كارثة. كانت خسائر الڤينيسيين فادحة، أما خسائر الأتراك فكانت قليلة نسبيًا. عقد القائد العام مجلس حرب، ولكن يبدو أن النتيجة كانت قد تقررت. لم يكن قد بقى هناك ما يكفى من الرجال لحراسة القلعة، والدفاعات فى حالة يرثى لها، والخزانة خاوية، والمؤن قاربت على النفاد. وقبل توقع أى مساعدة، هجم الأتراك مجددًا لتكون النتائج أكثر كارثية.

هكذا كان الاستيلاء على جزيرة خيوس وفقدانها فى غضون أقل من ستة أشهر. ليلة العشرين من فبراير، تم تحميل كل ما يمكن حمله من عتاد الحرب على السفن، وتدمير أو تفكيك ما كان قد تبقى من الدفاعات والاستحكامات، وصباح اليوم الواحد والعشرين أبحر الأسطول مغادرًا الميناء، ولتفادى انتقام الأتراك خرجت معه معظم الأسر الكاثوليكية الكبيرة فى الجزيرة، الذين منحوا إقطاعيات جديدة فى البيلوپونيز تعويضًا عما تركوه وراءهم. حتى وهى ترحل، كان سوء الحظ يرافق ڤينيسيا. بمجرد أن كانت آخر سفينة قد وصلت عند حاجز الأمواج، ارتطمت واحدة من أهم سفن زن الباقية (Abbondanza Richezza) المحملة بالأسلحة والذخيرة بصخرة لم تكن ظاهرة. فشلت كل جهود إنقاذها فكان لا بد من تركها وعليها معظم حمولتها.

بالنسبة لأهالى ڤينيسيا، الذين كانوا قد احتفلوا مؤخرًا باستعادة خيوس، كان خبر فقدانها مدعاة للغضب أكثر منه للأسى. طلب مجلس النواب إجراء تحقيق فورى، تم أثناءه إحضار البائس زن، وعدد كبير من ضباط الأسطول مكبلين بالسلاسل. مات زن فى السجن ولم يكن التحقيق قد انتهى. لم يعلن عن نتائجه.

** ** **

لم ينهزم الأتراك، ولكن الذى لا شك فيه أنهم أصيبوا بأضرار بليغة، وبدوا مرحبين بفرصة للتفاوض على السلام. من جانبه، كان الإمبراطور ليوپولد متلهفًا على ذلك، ويتمنى أن يقدموا على تلك الخطوة؛ لأنه كان يدرك أن هناك كارثة جديدة فى الطريق – ليس على حدوده الشرقية هذه المرة وإنما فى الغرب؛ حيث كان شارل الثانى ملك إسپانيا شبه المجنون (لم يكن له أولاد) يقترب من الموت. كان هناك متنافسان رئيسيان على عرشه – ليوپولد نفسه، ولويس الرابع عشر ملك فرنسا، وكلاهما حفيد فيليپ الثانى وصهر فيليپ الرابع – وكان المفهوم أن ليوپولد كان يريد أن يتفرغ للصراع القادم. ولأن إنجلترا وهولندا المذعورتين كانتا تخشيان أن تتحد فرنسا وإسپانيا تحت قيادة

لويس، عرضتا التوسط لدى السلطان؛ أما پولندا وڤينيسيا، على افتراض أنهما سوف تحتفظان بالأراضى التى قامتا بغزوها، فكانتا سعيدتين بترك السلاح بعد خمسة عشر عامًا من الحرب. تمت الترتيبات بسرعة، وفى الثالث عشر من نوفمبر 1698، التقت كل القوى المعنية فى "كارلوڤيتز – Karlowitz" فى المجر (الآن مدينة "سريمسكى كارلوڤيشى – Sremski Karlovici" الصربية).

لم تمض المفاوضات بسهولة كما كان متوقعًا؛ حيث أشار ممثلو السلطان إلى أن سيدهم الذى لم يستسلم لا يجد سببًا يجعل المطلوب منه أن يتخلى عن كل الأراضى الموجودة الآن فى أيد مسيحية. كان فى ذهنه ممتلكاته فى البحر الأبيض بشكل خاص. ڤينيسيا يمكن أن تأخذ الپيلوپونيز ولن تكون تلك مشكلة بالنسبة له، كما يمكنها الاحتفاظ بـ "ليوكاس" من جهة، وببحر إيجه من جهة أخرى، وبعدد من القلاع على ساحل دالماشيا. أما هو فكان مصرًا على الاحتفاظ بـ "أثينا" و"أتيكا" وكل الأراضى اليونانية شمال خليج كورنته. اعترض ممثل ڤينيسيا بشدة، ولكن أحدًا لم يدعم موقفه بقوة. الإمبراطور، بعد أن أصبح متأكدًا من المجر وترانسلڤانيا، كان متلهفًا على العودة إلى وطنه بأسرع ما يمكن، وأفهم الڤينيسيين أنهم إذا صمموا على إثارة قلاقل، فإنه لن يتردد فى توقيع سلام منفرد. ظلت الإمبراطورية تجادل فترة من الزمن، وعند توقيع الاتفاقية فى السادس والعشرين من يناير 1699 لم تكن بين الموقعين. إلا أن الحكمة انتصرت فى آخر الأمر على المكابرة، وفى النهاية وضع الدوچ ختمه فى السابع من فبراير.

كان أمرًا طيبًا أن يفعل ذلك؛ حيث إن اتفاقية كارلوڤيتز كانت الوسيلة الدبلوماسية قبل غيرها، التى تسجل اضمحلال القوة العثمانية، وكان لـ "ڤينيسيا"، التى واجهت تلك القوة مباشرة أكثر مما فعلت أى دولة مسيحية أخرى، كان لها الحق أكثر من غيرها فى أن تكون جزءًا منها. من ناحية أخرى، فإن تخليها الاضطرارى عن جزء مهم من فتوحاتها لم يكن مجرد لطمة لاحترامها لنفسها، بل إن ذلك جعل من الصعب عليها بالقدر نفسه أن تدافع عن الجزء الباقى. لم يكن هناك الآن شىء يمنع الأتراك من غزو الپيلوپونيز من أتيكا، ولا – فى الحقيقة – من أى مكان على امتداد الشاطئ الشمالى لخليج كورنته، وهو ما سوف يثبتونه قبل مرور وقت طويل.

هوامش الفصل الثامن عشر

(1) ما زال هذا الدير موجودًا إلى الآن بجوار: Scuola di S. Giorgo degli Schiavoni

(2) حتى جلوسه على العرش فى 1640، كان إبراهيم قد أمضى حياته كلها سجينًا فى "السيراجليو – Seraglio"، قصر السلطان. وبعد فترة حكم قصيرة تميزت بالقسوة الشديدة والطيش والفساد، قام رعاياه بإعدامه فى 1648.

(3) مندوب أو ممثل. (المترجم)

(4) المفوض العام من قبل الجمهورية للإشراف على الإدارة والخدمات العامة، وكان فى الوقت نفسه بمثابة مستشار عسكرى. (المترجم)

(5) كلمة يونانية تعنى "رأس – Cape"، وتطلق على الأراضى البارزة شمال شرقى كانيا، وتحمى المرسى الموجود فى خليج "سودها – Soudha" خلفها مباشرة.

(6) للمزيد، انظر: Philibert de Jarry; Histoire du siege de Candie.

(7) شعار ملوك فرنسا. (المترجم)

(8) حجرة داخلية فى الهيكل. (المترجم)

(9) القوصرة – pediment: المثلث الموجود أعلى واجهة المبنى. (المترجم)

الفصل التاسع عشر

حروب الخلافة

• وصية الملك شارل الأخيرة: 1700 • الأمير إيوچين فى إيطاليا: 1701 • القتال فى إيطاليا وإسپانيا: 1706 - 1707 • الاستيلاء على مينوركا: 1708 • جبل طارق ومينوركا: 1712 • معاملة القطالونيين: 1714 • إبعاد ألبيرونى: 1719 • حصار كورفو: 1716 • باساروڤيتز: 1718 • دون كارلوس يطالب بـ «ناپولى وصقلية»: 1734 • الخلافة النمساوية: 1740 • معاهدة أيكس لاشاپيل: 1748 • كورسيكا وپاولى: 1755 • انتهاء حرب السبع السنوات: 1763

فى يوم الجمعة، الأول من نوفمبر 1700، مات الملك شارل الثانى فى قصره فى مدريد. كان قد جاء إلى العرش ضعيف الجسد والعقل وهو فى الرابعة من عمره بعد موت والده فيليب الرابع، وكانت نظرة واحدة على هذا الطفل سيئ الحظ تكفى لإقناع البلاط بعدم كفاءته للقيام بما كان ينتظره من مهام. كان شارل يبدو صورة كاريكاتورية للهابسبورج، ذقن وفك بارزان لدرجة أن الأسنان السفلى لا تلامس العليا. كان مريضًا بشكل دائم، لدرجة أن كثيرين كان يخامرهم الشعور بوجود سحر وراء ذلك. لم يكن عدد كبير من رعاياه يتصور للحظة واحدة أنه سيشب ليتولى حكم أملاكه الواسعة. إلا أنه كبر، وبعد وصاية أمه «ماريانا – Mariana" (ابنة الإمبراطور فرديناند الثالث) التى استمرت عشر سنوات، تولى مقاليد الحكم، ولو نظريًا – وهكذا منذ توليه، كانت إسپانيا بالفعل بمثابة مملكة بلا ملك.

لم يكن هناك ما يدل على أن شارل كانت له سياسة خاصة به. لم يكن يجلس غالبًا إلى مكتبه إلا عندما تكون هناك أوراق لتوقيعها، ودائمًا لم يكن يقرؤها؛ وفى أحد أيام شهر مايو 1694، عندما اضطر لإغفال موعد تناوله الغداء، كان ذلك حدثًا أثار دهشة بالغة لدرجة أن سجلته إحدى الصحف المعاصرة. كانت إدارة البلاد متروكة برمتها لسلسلة من رؤساء الوزارات من ذوى القدرات المختلفة، ولنبلاء إسپانيا.

قبل أولئك جميعًا، كانت هناك الكنيسة وأداتها الرئيسية: محكمة التفتيش: The Inquisition. لم يكن الملك يتدخل فى المسائل الدينية، كما أخبر السفير البريطانى، وكان اليهود والپروتستانت أكثر ضحايا تلك المحكمة، ولكن الحقيقة أنه لم يكن هناك أى أجنبى بمأمن من اتهاماتها. عندما مات القس الملحق بالسفارة البريطانية فى 1691 اضطروا لدفنه سرًا، وبالرغم من ذلك تم استخراج جثته فيما بعد والتمثيل بها، وليس هناك شك فى أن طرد الموريسكيين[1] فى 1610 – الذى تم بواسطة محكمة التفتيش ودوق ليرما – كان بمثابة ضربة قوية لإسپانيا لم تفق منها إلا بعد قرون. كان معظم الإنتاج الزراعى للبلاد يعتمد على الموريسكيين: الحبوب والأرز والقطن.. حتى الورق. كانت الصناعات القليلة التى كان يمكن أن تباهى بها إسپانيا فى أيديهم كذلك. وهكذا بحلول العام 1700، كانت أشبيلية وطليطلة وسيجوڤيا وبيرجوس، قد أصبحت ظلالًا شاحبة لما كانت عليه قبل مائة عام. أما بالنسبة للمزارعين والعمال من السكان، فكانت الأمور تزداد سوءًا بمرور السنين: ففى 1699 حدثت مجاعة كبيرة، وتجمع حشد من نحو عشرين ألف

مواطن أمام القصر الملكى، وكاد الأمر يتطور إلى ثورة شاملة.

لم يكن مفاجئًا أن يفشل شارل الثانى فى الإنجاب بالرغم من زيجتين، وبالقرب من نهاية القرن أصبحت مسألة خلافته أكثر إلحاحًا. المشكلة هى أن العرش الإسپانى كان مطمعًا، بل إنه كان فى الحقيقة موضوع صراع بين أسرتين أوروبيتين، كلاهما كانت تدعى أحقيتها به. «آن – Anne» كبرى ابنتى الملك فيليپ الثالث، كانت متزوجة من لويس الثالث عشر ملك فرنسا، وكانت الصغرى "ماريا – Maria" متزوجة من فرديناند الثالث إمبراطور النمسا. كانت "آن" قد أنجبت من سيصبح لويس الرابع عشر، وماريا من سيصبح الإمبراطور ليوپولد الأول. كان يمكن أن يكون لويس صاحب حق فى العرش كذلك عن طريق زوجته "ماريا تريزا – Maria Teresa"، الشقيقة الكبرى لـ "شارل الثانى"، إلا أنها – لسوء حظه – كانت قد اضطرت للتنازل رسميًا عن كل حقوقها الوراثية فى الممتلكات الإسپانية عند زواجه منها.

"مارجريت – Margaret"، الأخت الصغرى لـ "شارل"، من الناحية الأخرى، لم تكن قد قدمت مثل هذا التنازل عندما تزوجت الإمبراطور ليوپولد الأول، ومن ثم كان حفيدها الأصغر "چوزيف فرديناند – Joseph Ferdinand" (ابن ابنتها "ماريا أنتونيا – Maria Antonia" و"ماكس إيمانويل – Max Emanuel" الحاكم المنتخب لـ "باڤيا") هو المطالب الهابسبورجى بالعرش. هكذا كان المسرح يبدو معدًّا للصراع. عندما كتب شارل وصيته فى 1698 يثبت چوزيف فرديناند وريثًا وخليفة له، بدت الأمور وكأنها قد استقرت، إلا أن الأمير الصغير مات فجأة فى 1699. صحيح أن موته المفاجئ نسب إلى مرض الجدرى، إلا أن ذلك لم يكن مقنعًا لأحد؛ إذ كان هناك كثيرون – من بينهم والد الطفل نفسه – يشكون أنه قد مات مسمومًا، ولم يترددوا فى قول ذلك. مرة أخرى، بدأت المفاوضات الدبلوماسية المعقدة – ليس بين القوى الثلاث المعنية بالأمر مباشرة فحسب، وإنما بمشاركة من إنجلترا وهولندا كذلك.[2] كانت هاتان الدولتان البحريتان مستمرتين فى تعاملاتهما التجارية المربحة مع إسپانيا، وكان هناك كثير من التجار البريطانيين والهولنديين المقيمين بصفة دائمة فى «كاديز – Cadiz" (قادش) وغيرها من الموانئ الإسپانية. وخلال معظم سنوات القرن السابع عشر، كانت الدولتان فى حالة خصام دائم، أما الآن فكان يجمع بينهما هم مشترك: إبعاد الفرنسيين. إذا كان الإسپان يريدون أن ينتقلوا من يد العرش الأضعف فى أوروبا، إلى يد العرش الأقوى، فأى فرصة يمكن أن تكون هناك لكى تسمح للتجارة بالاستمرار؟

كان السفراء يتنقلون جيئة وذهابًا بين العواصم الأوروبية إلى أن تم توقيع ما عرف

باتفاقية "التقسيم الثانية – Second Treaty of Partition" (دعك من الأولى) بواسطة وليم الثالث ملك إنجلترا ولويس الرابع عشر ملك فرنسا، وكان المأمول أن يعطى البرلمان الهولندى والإمبراطور ليوپولد موافقتهما فيما بعد. بحسب شروط هذه الاتفاقية، كانت الممالك الإسپانية السابقة فى ناپولى وصقلية من نصيب فرنسا، بالإضافة إلى الأراضى الإسپانية على امتداد ساحل توسكانيا ودوقية اللورين بدلًا من ميلان؛ أما إسپانيا وباقى ميراث شارل الثانى فستكون من نصيب الأرشيدوق شارل، الابن الأصغر للإمبراطور. فى مارس 1700، وقع البرلمان الهولندى ولكن ليوپولد وحده أحجم. لم يجد سببًا يجعل فرنسا تحصل على أى أراض إمبراطورية، وكان مستاء – على نحو خاص – لفكرة أن يتنازل عن ميلان. كان كل ما يهمه هو أن يؤول كل الإرث الإسپانى إلى ابنه، وكان على استعداد للقتال فى سبيل ذلك.

كان رد فعل ليوپولد معتدلًا حتى بالمقارنة برد فعل البلاط الإسپانى، عندما تم إبلاغ مدريد بشروط الاتفاقية فى يونيو. جاءت التقارير تقول: إن الملك "كان فى حالة من الغضب غير العادية"، وإن الملكة الغاضبة هى الأخرى "راحت تحطم كل شىء فى غرفتها" عند سماع تلك الأخبار. كان من الواضح أن إسپانيا كانت تعلق كل أملها على النمسا لكى تدعمها كحليف طبيعى ضد قوى التقسيم. طارت الرسائل بين الملك والإمبراطور وبدأت نذر الحرب تلوح فى الأفق مرة أخرى، إلا أن شارل كان يدخر مفاجأة أخرى. بحلول ربيع 1700، كان قد أصبح من الواضح أنه لن يعيش طويلًا، وفى الثالث من أكتوبر، وضع توقيعه المرتعش على وصية جديدة، تاركًا بموجبها كل ممتلكاته – دون استثناء – لـ "فيليپ" دوق أنچو – Duke of Anju، ابن السابعة عشرة، حفيد لويس الرابع عشر. وبعد شهر.. مات.

ترى ما الذى غير مشاعره لصالح فرنسا. كانت الكنيسة – قبل أى شىء آخر – هى السبب. كانت محكمة التفتيش، وكل أساقفة وإكليروس إسپانيا فى الحقيقة، مع حل فرنسى، وكان البابا "إنوسنت الثانى عشر – Innocent XII" – الذى مات قبل الملك بخمس سنوات – قد كتب إليه يزكى دوق أنچو. مع دنو الأجل، وصوت كاهن الاعتراف يهمس فى أذنه، لم يكن لدى شارل قدرة على الجدال.

فى السادس عشر من نوفمبر 1700، كتب وليم الثالث ملك إنجلترا: "لم أعول كثيرًا قط على صراع مع فرنسا، إلا أننى لا بد من أن أعترف بأننى لم أتصور أنهم يمكن أن ينتهكوا اتفاقية جادة أمام العالم كله قبل إقرارها". الحقيقة أن ذلك ما كان ينبغى أن يصيبه بهذه الدرجة من الدهشة، فقد كان المعروض على لويس – أو على حفيده على

الأقل – أكثر مما كان يتمنى، ولم يكن الملك – بالتأكيد – من ذلك النوع الذى يمكن أن يمرر ذلك كله من أجل اتفاقية، لم يكن الحبر الذى كتبت به قد جف بعد. وحيث إنه كان يعرف تمامًا أن ليوپولد لن يقبل هذا التدبير الجديد دون اعتراض، لم يضيع وقتًا، فأرسل من فوره الشاب المطالب بالعرش إلى مدريد لكى يتسلمه دون إبطاء، وأرسل برفقته مجموعة من المسؤولين الفرنسيين لتولى المناصب الرئيسية فى الحكومة، ومرشدته ومعلمته الخاصة المهيبة الأميرة "دى أورسين – Princes des Ursins"[3]. الحقيقة أن فيليپ الخامس كان مقبولًا فى مملكته الجديدة، كانت «قطالونيا – Catalonia" وحدها هى المناوئة، ولكن ذلك كان كافيًا لضمان خلافة غير متنازع عليها. أما ما لم يكن لويس يعرفه، فهو مدى وحجم الحرب القادمة، أو الثمن الذى سيكون عليه أن يدفعه مقابل عرش حفيده.

لم يكن لاتفاقية التقسيم قيمة أكبر من قيمة الورق الذى كتبت عليه، وكان من الواضح أنه لا بد من استبدالها. وهكذا، فى السابع من سبتمبر 1701، فى "هاجو – Hague"، وقع ممثلو إنجلترا وهولندا والإمبراطورية ما أصبح يعرف بـ "التحالف الكبير – The Grand Alliance". فى مجالات معينة، تُرِكَت شروطها غامضة عمدًا، ولكن أهدافها بالنسبة للحرب القادمة – لم يكن قدومها الوشيك محل شك – كانت واضحة تمامًا. كانت الأهداف الإمبراطورية سياسية بشكل صريح: كان ليوپولد يريد أن يعيد للإمبراطورية كل الممتلكات الإسپانية فى إيطاليا. من ناحية أخرى، كانت ممتلكات إنجلترا وهولندا كلها تجارية تقريبًا، كان كل ما يريدونه هو ضمان مستقبل ملاحتهم وتجارتهم.

ولكن، قبل ذلك بسبعة أشهر، فى فبراير من العام نفسه، كان "فيليپ الأنچوى – Philip of Anju" قد دخل مدريد باعتباره فيليپ الخامس الإسپانى، وكانت القوات الفرنسية قد احتلت "الأراضى الواطئة الإسپانية – Spanish Netherlands".[4] بالنسبة لمعظمنا، فإن حرب الخلافة الإسپانية مرتبطة بـ «دوق مارلبورو الكبير – Duke of Marlbrough"، الذى كان أن صنع أسطورته الكبرى فى شمال أوروبا وليس فى جنوبها. ميادين القتال تلك المروية بالدماء فى "بلينيم – Blenheim" و"رامى – Ramillies"، فى "أودينارد – Oudenard" و"مالپلاكيت – Malpaquet" بعيدة عن البحر الأبيض بمئات الأميال ولا تعنينا هنا. ولكن البحر المتوسط كان له دوره أيضًا، فالحقيقة أن الحرب بدأت بحملة برية قصيرة على الأراضى الإيطالية، تمكن فيها الفرنسيون من تحرير كثير من الممتلكات الإسپانية السابقة فى لومبارديا ووادى "پو – Po"، وفى بداية تشوب الأعمال العدائية فى 1701، كان جيش تحالف كبير قد

احتشد فى "تيرول – Tyrol" الجنوبية بقيادة "إيوچين – Eugene" أمير سافوى[5] بهدف طردهم. فى الوقت نفسه نظم القائد الفرنسى المكنى بالمارشال «نيكولاس كاتينات دى لافوكونيرى – Nicholas Catinat de la Fauconnerie"، الذى لم يكن لديه النية أن يطرد، وتوقع أن يتبع الأمير وادى "أديچ – Adige"، نظم جيشه على شواطئ بحيرة "جاردا – Garda" وراح ينتظر الهجوم. إلا أن إيوچين كان أذكى من ذلك. دفع بوحدة صغيرة على طول الضفة اليمنى لنهر أديچ على سبيل الخداع، ثم جاء بالجزء الرئيسى من الجيش – ستة عشر ألف جندى مشاة ونحو ستة آلاف من الخيالة – عبر الممرات الجبلية الضيقة غير المكشوفة، إلى "مونت بالدو – Monte Baldo" وفاجأوا الفرنسيين من الجانب الأيمن.

فقد "كاتينات – Catinat" صوابه. مأخوذًا بالمفاجأة على حين غرة، وجاهلًا تمامًا بنوايا إيوچين، قام بنشر جيشه فى وحدات صغيرة على مساحة ستين ميلًا تقريبًا. كان خطأ فادحًا استغله الأمير جيدًا؛ إذ بعد أن قام بالهجوم على وحدة تلو الأخرى، حقق عدة انتصارات أخرى، ربما كانت صغيرة إلا أنها حاسمة، كانت ذروتها إغارة كبيرة فى منتصف فصل الشتاء على "كريمونا – Cremona"؛ حيث أسر مارشالا آخر، هو "دوق ڤيلليريو[6] – Duc de Villerio"، وترك الفرنسيين فى حالة من الفوضى التامة. لم يفيقوا سوى فى العام التالى: بعد كاتينات، تولى القيادة "دوق ڤاندوم – Duc de Vendôme" – الذى كان قائدًا أفضل – وتلقى جيشه دعمًا كبيرًا من ناپولى أرسله فيليپ ملك إسپانيا. أما إيوچين، الذى خطوط الاتصال بينه وبين ڤيينا قد انقطعت فجأة، فأصبح – لأول مرة – فى موقف الدفاع. آنذاك، كان مركز الحرب قد انتقل، ودخلت إيطاليا عالم النسيان إلى حد كبير. ولكن ليس البحر الأبيض.

أثناء اتفاقية التقسيم كان مستقبل البحر هو الشغل الشاغل تقريبًا للملك وليم. لم يكن ما يشغله هو استمرار التجارة مع إسپانيا فحسب، بل والتأكد من أن إسپانيا لو كان لها أن تنتقل إلى يد البوربون، فإن إنجلترا ستكون مستبعدة من حوض البحر الأبيض بكامله، إن لم تجد لنفسها معقلًا آمنًا بداخله. لفترة طويلة كانت عينه على مينوركا، كما كان يخطط مع قائده البحرى "سير چورچ روك – Sir George Rooke" لاحتلال كاديز (قادش) قبل أن يغفلها الفرنسيون. موت وليم فى مارس أضاف صعوبة للفكرة الأخيرة، لم يكن لدى روك حماسة كبيرة لها، كما أن هجومه على الميناء فى الخريف التالى انتهى بفشل ذريع. إلا أنه استرد المدينة كاملة بعد عامين، عندما استولى على جبل طارق بواسطة أسطول إنجليزى – هولندى.

كانت صخرة جبل طارق فى أيدى الإسبان منذ 1462، وفى 1502 قامت الملكة إيزابيلا بضمها رسميًا إلى إسبانيا؛ إلا أن دفاعاتها كانت ضعيفة ولم تكن الحامية الموجودة بها متحمسة للمقاومة. استسلمت لـ "روك" فى الرابع من أغسطس، بعد صمود ثلاثة أيام، انتهت بسقوط ستين قتيلًا من المهاجمين وجرح مائتين. ثم كانت فرصة حقيقية للأدميرال لإثبات همته، بعد ثلاثة أسابيع، عندما قابل فى الثالث والعشرين من الشهر نفسه أسطولًا فرنسيًا من خمسين سفينة بقيادة "كونت تولوز – Count of Toulouse" بالقرب من "ملقة – Malaga". ما حدث بعد ذلك، بعبارة روك فيما بعد "كان أكثر الأيام عنفًا على مدى فترة خدمتى". كانت خسائر الطرفين فادحة. لم يكن هناك شك فى أن الصراع انتهى لصالح البريطانيين، ومع طلوع فجر اليوم السابع والعشرين، لم يكن هناك وجود لأى فرنسى. كان الأسطول الفرنسى قد انسحب إلى طولون، ولم يحاول على مدى بقية الحرب أن ينازع سيطرة التحالف على البحر الأبيض.

الاستيلاء على مضيق جبل طارق لم يجعل منه مستعمرة بريطانية على الفور. من الناحية العملية، كان روك قد استولى عليه بالإنابة على الأرشيدوق شارل المطالب الإمبراطورى به، وبعد عام بالضبط من سقوطه، نزل الأرشيدوق من سفينة بريطانية فى الثانى من أغسطس 1705 ليتم الاعتراف به هناك ملكًا على إسبانيا باسم "الملك شارل الثالث – King Charles III". فى الوقت نفسه، تم تعيين كتيبتين بريطانيتين وأخريين هولنديتين لحراسة الصخرة، وبالرغم من أن حاكمها الماچور چنرال "سير چون شرمتون – Sir John Shrimpton" كان إنجليزيًا، ظل هو والعاملون معه يعترفون بسيادة شارل. أطلقت المدفعية ثلاث دفعات من الطلقات (من خمسة وثلاثين مدفعًا) تحية فى عيد ميلاد الملك فى 1705، أما يوم عيد ميلاد الملكة آن، الذى حل بعد خمسة أشهر، فلم يكن هناك سوى دفعة واحدة من واحد وعشرين مدفعًا. إلا أن تلك كانت أيام باكرة عندما كان شارل ما زال ينتظر فرصة جيدة للجلوس على العرش الإسبانى. فيما بعد، ومع تضاؤل تلك الفرص، كان مستقبل جبل طارق قد اتخذ شكلًا مختلفًا أكثر تعقيدًا. المؤكد أن انتقاله إلى فيليب الخامس المكروه، كان أمرًا مفروغًا منه، ثم ينتقل عن طريقه – كما كان يعلم الجميع – إلى جده لويس الرابع عشر، الذى كان مكروهًا أكثر منه. كان وضعه سيكون أكثر أمانًا لو أنه بقى بشكل دائم فى يد بريطانيا...

** ** **

لم تبدأ الحملة الإيطالية الكبيرة إلا فى 1706. كان الأمير إيوچين يدرك أن أى تقدم آخر كان مستحيلًا دون تعزيزات قوية، وكان قد عاد إلى ڤيينا بحثًا عن ذلك. استغل

"ڤاندوم – Vendôme" غيابه وقام بهجوم على الجيش الإمبراطورى فى معسكره بالقرب من "برشيا – Breacia" ورده إلى "تيرول – Tyrol"، إلا أنه قام بتصفية حسابه مع دون إيوچين، الذى (بواسطة قوات قوامها أربعة وعشرون ألف جندى من ألمانيا جمعها بفضل دعم مالى إنجليزى قدره مائتان وخمسون ألف جنيه إسترلينى) استطاع أن يدخل إيطاليا فى وقت باكر من يوليو عبر وادى أديچ، وأن يتقدم فى اتجاه نهر الـ "پو – Po". وبعد عبوره، زحف غربًا على طول الضفة اليمنى مطاردًا العدو أمامه. وعند "ڤيللا ستيلونا – Villa Stellona"، المجاورة لـ "باڤيا" من جهة الجنوب، انضم إلى جيش آخر بقيادة دوق ساڤوى؛ ليتقدما معًا صوب تورين؛ حيث – رغم قلة عددهم – أنزلوا هزيمة كبيرة بالقوات الفرنسية. كانت تلك هى النهاية. وفى مارس 1707، وبحسب اتفاقية ميلان، تخلى لويس الرابع عشر عن الشمال الإيطالى.

من ناحية أخرى، كان يواصل القتال فى إسپانيا؛ حيث لم يكن أمامه خيار آخر. فى ربيع 1706 تصدى أسطول بقيادة الأدميرال سير "كلاودزلى شوڤيل – Clowdisley Shovell" لقوة بقيادة "إيرل پيتربورو – Peterborough" وقام بمطاردتها عبر مضيق جبل طارق حتى الساحل الشرقى؛ حيث كانت برشلونة قد قبلت عن طيب خاطر المطالب الإمبراطورى، الملك شارل الثالث. فى الوقت نفسه، كان جيش إنجليزى هولندى – برتغالى، بقيادة "إيرل جالواى[7] – Earl of Galway" قد غزا "إكستريمادورا – Extremadura" من البرتغال، وتقدم شرقًا نحو مدريد. دخل المدينة فى 26 يونيو ليجلو عنها بعد أسابيع قليلة؛ اعترافًا بحقيقة لا خلاف عليها: وهى أن إسپانيا، خارج قطالونيا وڤالينسيا، كانت بكاملها مؤيدة للملك فيليپ. كانت هناك خيبة أمل فيما يتعلق بـ "مدريد" إلا أنه تم تجاوزها بالانتصارات التى حققها الحلفاء فى شمال أوروبا، لدرجة أن أعلن الملك لويس فى أغسطس أنه كان مستعدًا للتوصل إلى تفاهم: كان يمكن أن يترك إسپانيا لـ "شارل"، مقابل الاعتراف بأحقية فيليپ فى ميلان ونابولى وصقلية.

فى ذلك الوقت، كان يمكن أن نقول: إن لا إنجلترا ولا الإمبراطورية كانتا مستعدتين للاستماع إلى مثل ذلك، ولكن بعد اثنى عشر شهرًا سوف تندمان على ذلك. لم يشهد العام 1707؛ أى انتصارات مهمة فى الشمال، أما فى الجنوب فكانت هناك كارثتان. وقعت الأولى فى الخامس والعشرين من أبريل، عندما لقيت قوة جالواى، المتعددة العناصر، المكونة من خمسة عشر ألف مقاتل - هزيمة ساحقة فى "ألمانسا – Almansa" على بعد ستين ميلًا، تقريبًا، جنوب غرب ڤالنيسيا. كانت الهزيمة على يد جيش رفيع المستوى من الفرنسيين والإسپان تحت قيادة "دوق برويك – Duke of Berwick" أبرز چنرالات

الملك لويس، وابن چيمس الثانى ملك إنجلترا، من ''أرابيلا – Arabella'' شقيقة دوق مارلبورو.[8] بضربة واحدة، سقطت ڤالينسيا ومورسيا وأراجون فى يد الحلفاء؛ والأسوأ من ذلك – ربما – أنهم لم يكونوا قادرين على دعم قوات الأمير إيوچين، عندما قام بالهجوم على طولون فى شهر يوليو. كان إيوچين چنرالًا عظيمًا مثل قائده الدوق مارلبورو، ومن أسف فى الواقع أن مغامراته الأخيرة فى البحر الأبيض ألقت بسحابة كدرت سمعته؛ لأسباب لم يكن مسؤولًا عنها، وإذا كانت محاولته فى طولون قد فشلت، فإن ذلك يرجع إلى حليفيه الرئيسيين: الإمبراطور ليوپولد، ودوق ساڤوى. فى اللحظة الحرجة، وجد ليوپولد من المناسب أن يرسل نحو ثلاثة عشر ألف مقاتل للقيام بالهجوم على ناپولى؛ أما ساڤوى فقد ظهر ضعيفًا مترددًا، لدرجة أنه عندما كان إيوچين قد رسا على أرض پروڤنس فى السادس والعشرين من يوليو، كانت المعركة قد انتهت بالهزيمة. لقد تمت التضحية بعشرة آلاف جندى دونما ضرورة، ولعل كان هناك بعض العزاء أن يعرفوا أن الفرنسيين، بدلًا من ترك طولون تسقط فى يد الحلفاء، قاموا عمدًا بإغراق أسطولهم المكون من خمسين سفينة فى مينائها؛ وبقيت الحقيقة أن ميناءهم الجنوبى الرئيسى الذى كان ينبغى أن يكون مع إيوچين، ضاع بسبب التخبط وعدم الكفاءة، وكان الأسطول الإنجليزى ما زال محرومًا من الشىء الذى كان يريده أكثر من سواه: ميناء جديد آمن فى البحر الأبيض، يمكن أن يحتمى فيه من عواصف الشتاء، ويستطيع أن يخزن فيه مواده التموينية واحتياجاته فى آمان، ويعيد تجهيز سفنه على نحو ملائم.

عندما تكشفت الأمور، تطورت الأحداث بسرعة. كانت مينوركا، وهى أبعد «جزر البليار – Balearic Islands'' إلى الشمال الشرقى والأقرب إلى فرنسا، كانت دائمًا محل اهتمام البريطانيين؛ وفى صيف 1708، تلقى الماچور چنرال ''چيمس ستانوپ – James Stanhope'' (الذى كان قد تم إيفاده سفيرًا إلى إسپانيا، ولكنه خلف جالواى كقائد أعلى) أوامر بالاستيلاء على ''پورت ماهون – Port Mahon'' عاصمة الجزيرة. مدعومًا بأسطول من أربع وثلاثين سفينة بقيادة الأدميرال ''چون ليك – John Leake''، (الذى هرع إلى مينوركا من سردينيا؛ حيث كان يقوم بقصف كاجلياري[9]) الذى رسا فى مينوركا فى الرابع عشر من سبتمبر على رأس قوة مكونة من ألف ومائتى بريطانى وثمانمائة إسپانى وستمائة برتغالى، وبعد أسبوعين آخرين، كان قد أصبح مستعدًا للقيام بالهجوم. كان لا بد من إنشاء طريق لنقل المدافع والعتاد من مكان الرسو إلى الهدف الأول وهو قلعة «سان فيليپ – Fort St Philip''، وحتى آنذاك كان موقع القلعة الحاكم الذى يطل على الميناء، يجعلها منيعة تقريبًا. تعامل ستانوپ مع المشكلة بأن عرض شروطًا سخية لاستسلامها، مهددًا بقتل كل الحامية فى حال رفضها. كان

يمكن أن يواصل القادة الفرنسيون والإسپان المقاومة، لولا وجود عدد كبير من النساء والأطفال الذين كانوا قد لجأوا إلى القلعة. وهكذا قرروا الاستسلام – وهو القرار الذى سيندمون عليه فيما بعد. تم سجن كليهما؛ لينتحر القائد الإسپانى بعد ذلك.

سرعان ما حذت القلاع الأخرى حذو سان فيليپ، أما سرعة تقدم ستانوپ فكانت راجعة - إلى حد كبير - إلى حسن نية السكان المحليين الذين كانوا قد تحملوا الفرنسيين والإسپان أكثر من طاقتهم: بمجرد اقتراب القوات الغازية، قام حكام ماهون بتسليم مفتاح المدينة، وبنهاية الشهر، كانت الجزيرة كلها قد أصبحت فى يد البريطانيين، وستظل كذلك نحو قرن من الزمان – تقريبًا – باستثناء فترة بينية قصيرة من 1756 إلى 1763. بالنسبة لـ "ستانوپ"، لم يكن استسلام الجزيرة – مثل جبل طارق – لـ "شارل الثالث" ملك إسپانيا أمرًا كبير الأهمية، وكان قد تم رسميًّا إعلان شارل ملكًا عليها فى الثامن من نوفمبر. كتب يقول: "ما كان ينبغى أن تتخلى إنجلترا عن هذه الجزيرة قط، الجزيرة التى سوف تقرر قانون البحر الأبيض المتوسط، سواء فى زمن السلم أو الحرب". ولتأكيد ذلك، ترك حامية مكونة من قوات بريطانية بالكامل، أما الإسپان والبرتغاليون فأعيدوا إلى إسپانيا ليساعدوا الملك شارل. بحلول يونيو 1709، كان قد أنفق أحد عشر ألف جنيه إسترلينيا على دفاعات الجزيرة.

فى الوقت نفسه، كانت الأوضاع على البر الرئيسى الإسپانى تبدو خطرة بالنسبة لـ "جالواى"، وكانت خطورتها تتزايد. كان يلقى بمسؤولية انتكاساته على قواته البرتغالية أساسًا – كانت بمثابة عبء عليه فى ألمانسا – وفى أوائل 1708 أعاد أفرادها إلى بلادهم ليحل محلهم جنود ألمان ممن توفروا بعد الهدنة فى إيطاليا، بقائدهم "الكونت ڤون ستاريمبرج – Count von Starhemberg"؛ ولكن حتى آنذاك كان من الواضح استحالة منع الإمبراطوريين من الاستيلاء على "تورتوسا – Tortosa" قاطعين بذلك الاتصال بين برشلونة وڤالينسيا. لم يحدث أى تقدم حتى العام 1710، عندما زحف الحلفاء للمرة الثانية على مدريد. سقطت المدينة فى الثالث والعشرين من سبتمبر، ولكن شارل فشل مرة أخرى فى الاحتفاظ بها، وبنهاية العام كان عليه أن ينسحب إلى قطالونيا. حتى هناك، كانت قبضته فى غاية الضعف: فى يناير 1711، استولى الفرنسيون على "جيرونا – Gerona".

ثم بعد ثلاثة أشهر، فى السابع عشر من أبريل، مات الإمبراطور "جوزيف الأول – Emperor Joseph I" فى چنيف، وكان فى الثالثة والثلاثين من العمر، وكان سبب الوفاة المؤكد هذه المرة هو الجدرى. بموته تغير المشهد السياسى الأوروبى برمته بين

عشية وضحاها. كان چوزيف قد خلف والده ليوپولد فى 1705 وكان قد بذل جهدًا كبيرًا لإصلاح الأوضاع المالية المتدهورة فى الإمبراطورية، ويتبنى بشدة مطالبة شقيقه الأصغر شارل بـ "إسپانيا". إلا أن شارل لم يكن الآن مجرد مطالب إسپانى بالعرش، كان الخليفة المتوقع لشقيقه على العرش الإمبراطورى. كان "التحالف الكبير – The Grand Alliance" قد تكون فحسب، لمنع أسرة واحدة (البوربون – The Bour-bons) من أن يصبحوا أقوياء أكثر من اللازم، وإذا أصبح شارل إمبراطورًا (كما حدث بالفعل بعد انتخابه فى العام التالى) سيكون هناك خطر أن يصبح الهابسبورج أكثر قوة بمجرد أن تتحد كل الأراضى التابعة لهم مرة أخرى، (كما كان الحال أيام عمه الأكبر، شارل الخامس). كان لا بد من أن تمر شهور كثيرة قبل أن تتوصل القوى الأوروبية إلى تفاهم حول الوضع الجديد، فلم تبدأ المفاوضات بين الحلفاء وفرنسا إلا فى أول العام الجديد، 1712، فى مدينة أوترخت الهولندية.

** ** **

قبل أن نذهب إلى أوترخت، لا بد من أن نعود قليلًا إلى مينوركا وجبل طارق؛ حيث كان وضعهما ما يزال غامضًا. فى إنجلترا، كان "الهويج[10] – The Whigs"، الذين كانوا مسيطرين على النصف الأول من فترة حكم "الملكة آن – Queen Anne"، كان قد حل محلهم حكومة "تورية[11] – Tory Government". كانت الحكومة الجديدة قد ارتأت أن الإمبراطور شارل السادس يمثل خطرًا أكبر مما كان للبوربون فى أى وقت، ولم يعد يستحق التأييد البريطانى، وهذا بالإضافة إلى أن البوربون كانوا قد أصبحوا مستعدين للسلام، كانت الحرب فى الشمال تنذر بكارثة لفرنسا - كان مارلبورو ما زال مستمرًا فى إزالة كل ما يعترض طريقه – وكان الملك لويس يزداد تلهفًا على التوصل إلى تفاهم، وعليه كان لا بد من أن تكون هناك تنازلات وبخاصة عن ممتلكات الآخرين كما كان لويس يفضل (لويس هو لويس)، وهل كان هناك تنازل يمكن أن يلقى قبولًا لدى البريطانيين أكثر من الاعتراف بأحقيتهم فى جبل طارق؟ فى الواحد والثلاثين من مايو، قام الملك بإبلاغ الملكة آن: "لدينا وعد من ملك إسپانيا بأن يبقى جبل طارق مع الإنجليز، كضمان حقيقى لتجاربهم فى إسپانيا والبحر الأبيض المتوسط".[12] الحقيقة أنه لم يكن لديه شىء من هذا القبيل، إلا أن فيليپ لم يكن ليعترض. حتى الآن، كان أكثر حظًا من جده: كانت الحرب فى إسپانيا ضد شارل وحلفائه ناجحة إلى حد ما، ولكن إلى متى سيظل الحظ حليفه؟ كانت خلافة شارل للإمبراطورية تعنى أن تصبح كل موارد الإمبراطورية تحت تصرفه. كذلك كانت هناك شائعات عن احتمال إرسال إيوچين

ليتسلم القيادة فى إسپانيا، كما كان فيليپ يعرف أنه لا يوجد لديه چنرالات يملكون نصف خبرة الأمير أو ذكائه، لكى يضعهم فى مواجهته. وأخيرًا، إذا عقدت فرنسا وبريطانيا سلامًا منفصلًا، فسوف يُحْرَمُ من كل الدعم العسكرى الفرنسى. لم يكن يرى أى خيار آخر أمامه، ولذا أبلغ الملك لويس – على مضض – بأن كان على استعداد أن يعرض على الإنجليز فتوحاتهم الحديثة.

انطلقت مفاوضات السلام فى تكتم وهدوء ومضت فى تسلسل: اعترفت بريطانيا بـ «فيليپ الخامس» ملكًا على إسپانيا، بينما كانت إسپانيا وفرنسا مضطرتين لقبول أن تظل مينوركا وجبل طارق فى يد بريطانيا. فى البداية، كان لويس هادئًا بشأن مينوركا. لم تكن صخرة جبل طارق ذات أهمية إستراتيچية كبيرة بالنسبة له؛ من ناحية أخرى كانت الجزيرة على مسافة إبحار يوم من فرنسا، وكان يمكن أن تستخدم – كما ارتأى مؤخرًا – كقاعدة انطلاق للهجوم على طولون وساحله المتوسطى، ولذا لم يكن لديه النية لتسليمها إلا إذا كان مضطرًا لذلك. ما لم يكن يعرفه هو أن النصيحة التحذيرية التى كانت قد أعطيت للمفاوضين البريطانيين قبل أن يغادروا أوترخت: أنهم كان لا بد من أن يصروا على أن «جبل طارق وپورت ماهون مع جزيرة مينوركا سوف يتم ضمها فى المستقبل إلى تاج تلك الممالك» – وألا يقبلوا بغير الموافقة على ذلك.

كانت ما تزال هناك مشكلة بسيطة مع الهولنديين. كانوا قد قاموا بدورهم فى الاستيلاء على الصخرة فى 1704، كما قدموا جزءًا من الحامية منذ ذلك الوقت، وكانوا - كما هو متوقع - ينتظرون المكافأة على ذلك. الآن كانوا – بنفس القدر – يشعرون بأنه قد غُرِّرَ بهم. فى البداية، رفضوا أن يسحبوا قواتهم من جبل طارق، وهددوا بمواصلة الحرب وحدهم، إلا أن أحدًا لم يأخذهم على محمل الجد. الحقيقة أنهم كانوا فى أمس الحاجة لدعم البريطانيين لحمايتهم فى الأراضى المنخفضة، وكانوا يعرفون ذلك هم والبريطانيون.

** ** **

ما يعرف بمعاهدة أوترخت، كان فى الحقيقة سلسلة كاملة من الاتفاقيات حاولت فيها فرنسا وإسپانيا، بعد فوران أوروبى استمر إحدى عشرة سنة - أن تضبطا علاقتهما بجيرانهما. معظم الرعايا الذين تم الاتفاق بشأنهم لا يعنونا هنا، أما فيما يخص البحر الأبيض، فقد قدمت كلتا الدولتين تنازلات مهمة. فرنسا وإسپانيا اعترفتا رسميًّا بـ «ڤيكتور أماديوس الثانى – Victor Amedeus II“ – الذى تصادف أن كان حما الملك فيليپ – ملكًا على صقلية، وأن يمتد ملكه الشمالى ليشمل مدينة نيس، الفرنسية سابقًا. بالإضافة إلى ذلك قبلت إسپانيا نقل المناطق الإسپانية السابقة من إيطاليا والأراضى المنخفضة

إلى الإمبراطورية، وسلمت مينوركا وجبل طارق بالفعل لبريطانيا؛ وبالطبع، لم تفعل ذلك دون شروط. بالرغم من أن المعاهدة منحت التاج البريطاني حقوق ملكية دائمة على جزء من منطقة جبل طارق الحالية، (قامت بريطانيا، بكل وقاحة بتوسيعها منذ ذلك) شرط أن تستمر العقيدة الكاثوليكية بكل حرية، وأن يحظر على اليهود والمسلمين الاستقرار هناك، كما احتفظت لنفسها صراحة بالسيادة التامة على الصخرة.[13] وما ليس معروفًا كذلك على نطاق واسع أنها وضعت اسمها على ما يسمى بـ «اتفاق آسينتو – Asiento Agreement" الذي أعطت بموجبه البريطانيين الحق الحصري بتزويد مستعمراتها فيما وراء البحار بالعبيد الأفارقة، بمعدل 4800 عبد في السنة... لمدة ثلاثين سنة!

ظل الإمبراطور شارل يحارب حتى 1714، وتم توقيع السلام النهائي بدونه، كان باسمه أن استمر الصراع على مدى الاثنى عشر عامًا السابقة، وبالنأي بنفسه عن صناع السلام، يكون قد ألحق بإمبراطوريته أذى دائمًا. لم يتم تجاهل مصالحه تمامًا أثناء المفاوضات الطويلة في أوترخت، ولكن حيث إنها كانت تتعارض مع مصالح فرنسا وإسبانيا البوربونية والمقاطعات المتحدة – كما كان الهولنديون يطلقون على أنفسهم آنذاك – بينما بقيت بريطانيا غير مبالية إلى حد كبير، كان من الحتمي أن يتم إهمالهم بدرجة ما. إلا أنه عندما عاد المتفاوضون إلى بلادهم، وجد شارل نفسه سيدًا، ليس على مجمل إمبراطوريته فحسب، وإنما كذلك على الأراضي المنخفضة الكاثوليكية وميلان ونابولي وسردينيا. لم يكن هناك ما يشكو منه، ولكن بقدر قليل من اللباقة الدبلوماسية، كان يمكن أن يتصرف على نحو أفضل من ذلك.

ولكن ماذا عن العرش الإسباني؟ كان ذلك بالطبع أهم الأمور، كان الذريعة الأصلية للحرب وسبب موت مئات الألوف من الرجال في أرجاء القارة. هذا الأمر تم حسمه في النهاية – كما كان ينبغي آنذاك – لصالح فيليب. كان قد تم بتر مملكته إلى حد كبير – رغم أنه لن يفقد بلاد الأراضي المنخفضة التي طالما كانت بمثابة حجر رحى حول رقبة إسبانيا.[14] على أية حال، كانت هناك تعويضات، فقد احتفظ بأمريكا الإسبانية وكل ما كانت تجلبه له من ثروات، ومنذ ذلك الحين وعلى مدى الثلاثين سنة التالية كان ليحكم باعتباره فيليب الخامس ملك إسبانيا دون منازع.[15]

** ** **

ما يستحق فيليب الإدانة بسببه هو معاملته «للقطالونيين – The Catalans". بالرغم من حقيقة كونهم مؤيدين أشداء لـ "شارل" هابسبورج، فإن فيليب منحهم رسميًا،

بموجب المادة الثالثة من المعاهدة الأنجلو – إسپانية، وبموجب احترامه لملكة بريطانيا العظمى، منحهم عفوًا عامًا، وكذلك كافة المزايا التى كانت آنذاك للقشتاليين "الذين كانوا محل رعاية الملك من بين كل شعوب إسپانيا". كان واضحًا من البداية أنه لم يكن ينوى العفو عنهم بسبب ما كان يعتبره عدم وفاء منهم، وفى وقت باكر من 1713 كان قد طلب خضوعهم غير المشروط، لم يكن مفاجئًا أن يرفضوا، وشكلوا حكومة مؤقتة خاصة بهم؛ وإذ ذاك أرسل فيليپ فى يوليو 1714 وحدة عسكرية لمحاصرة برشلونة. قاومت المدينة وصمدت نحو شهرين، وحتى بعد أن تم دعم القائمين بالحصار بجيش فرنسى بقيادة "دوق بروك – Duke of Berwick" وأسطول فرنسى، رفضت الاستسلام. ليلة الحادى عشر من سبتمبر، كان هناك هجوم شامل. دافع القطالونيون عن كل شارع... عن كل بيت.. إلى أن أصبحوا عاجزين تمامًا عن المقاومة. من بقى على قيد الحياة تم بيعه فى سوق العبيد، وبأوامر من الملك أحرقت أعلام قطالونيا فى السوق العامة بواسطة الجلادين.

** ** **

ليس مؤكدًا أن يكون فيليپ قد شعر بأى تأنيب ضمير بسبب معاملته للقطالونيين، إلا أنه سرعان ما كان لديه من الأسباب ما يجعله يشعر بالندم لتنازله عن إيطاليا الإسپانية. بعد وقت قصير من وفاة زوجته "ماريزا لويزا الساڤوية – Maria Louisa of Savoy" فى 1714، تزوج "إليزابيث فارنيز – Elizabeth Fornese" ذات الاثنين والعشرين ربيعًا ابنه "دوق پارما – Duke of Parma" من زوجة أخرى. الملكة الجديدة، التى لم يكن يميزها أى جمال أو تجربة أو تعليم، بدأت مثلما كانت تقصد أن تستمر. حتى من قبل وصولها إلى مدريد، افتعلت مشاجرة مع "أميرة أورسين – Princess des Ursins" – التى كانت قد قطعت نصف الطريق عبر البلاد لكى تكون فى استقبالها – على سلم فندق على الطريق، وتركتها بخشونة وفظاظة؛ لتبقى وحيدة فى برد البرانس الشديد لتعود إلى فرنسا. عند وصولها إلى العاصمة استدعت وكيل عمها فورًا: "جيوليو ألبيرونى – Giulio Alberoni"، وكان كاهنًا ذكيًا وإن كان مجردًا من المبادئ الخلقية، ابن بستانى فى "پياكنزا – Piacenza" للمثول أمام القضاء. منذ ذلك اليوم، اختفى كل نفوذ سياسى فرنسى من البلاط الإسپانى يصبح إيطاليا قلبًا وقالبًا، أما ألبيرونى – الذى أقنعت البابا "كليمنت الحادى عشر – Clement XI" بعد ثلاث سنوات بأن يعينه كاردينالا – فشرع بسرعة فى إعادة بناء إسپانيا مع الاهتمام الخاص ببناء أسطول.

وحيث إن الملكة ماريا لويزا كانت قد تركت ثلاثة أبناء، لم يكن لدى إليزابيث أمل كبير فى عرش إسبانيا. كان هدفها البعيد المدى هو تأمين خلافتها لـ "پارما وپياكنزا" وربما توسكانى كذلك بعد موت عمها، وذلك بموجب أنها تنتمى إلى آل ميديشى. لم تكن هى الوحيدة التى تتطلع إلى العرش. كان الإمبراطور شارل ما زال مستاء من التدابير الأخيرة. كان غاضبًا على نحو خاص لمنح صقلية لبيت سافوى، وكان معروفًا أنه على اتصال بـ "ڤيكتور أماديوس – Victor Amadeus" مع فكرة استبدالها بـ "سردينيا". كانت إليزابيث وألبيرونى مصرين على ضرورة عدم إقدامه على مثل هذه الخطوة: فبمجرد أن تصبح صقلية جزءًا من الإمبراطورية، ستمثل خطرًا دائمًا على الساحل المتوسطى لإسپانيا. كان أول تحرك لهما على أية حال، ضد سردينيا الإمبراطورية. فى أغسطس 1717، أبحرت حملة من برشلونة إلى كاجليارى، وبنهاية نوفمبر كانت الجزيرة قد أصبحت ملكها. آنذاك فحسب، بعد أن تشجعا بهذا الانتصار السهل، قررا التحرك نحو صقلية مباشرة، وفى الأول من يوليو 1718 رست قوات إسپانية بالقرب من الجزيرتين، اللتين كانتا ضمن حيازة أراجون منذ القرن الثالث عشر، وهكذا لمدة تزيد عن مائة عام قبل اتحاد تلك المملكة مع قشتالة، كانتا أكثر إسپانية من معظم إسپانيا.

وهكذا كانتا فى ذلك الوقت. ولكن تلك الحجة ما كانت لتروق لـ "شارل السادس – Charles VI"، وكان الأخير قد عقد مع بريطانيا وفرنسا ما كان يوصف آنذاك – على نحو مخادع – بـ "التحالف الرباعى[16] – The Quadruple Alliance". لم يكن لدى الإمبراطورية بحرية، ولكن بريطانيا كان عندها، ولذا كان أن أسرع أسطول بريطانى تحت قيادة الأدميرال سير "چورچ بينج – George Byng" إلى صقلية؛ حيث قام بتدمير الأسطول الإسپانى تمامًا بالقرب من "كيپ پاسيرو – Cape Passero" أقصى جنوب شرق الجزيرة. لسوء الحظ، لم تكن بريطانيا آنذاك فى حالة حرب مع إسپانيا، كانت تعمل، فحسب، نيابة عن حليفها الإمبراطور. ما قام به بينج أحدث موجة عارمة من العنف شعرت بآثارها كل أوروبا ليصل مداها إلى سويد شارل الثانى عشر، وروسيا "بطرس الأكبر – Peter the Great". كان على ڤيكتور أماديوس أن يخضع لما هو حتمى. انتزعت منه صقلية وأعطيت لـ "شارل"، وحصل على سردينيا بدلًا منها. أما فيما يتعلق ببريطانيا فكان غضب ألبيرونى شديدًا لدرجة أنه أطلق أسطولًا ضخمًا (Ar-mada) ثانيًا، وكان ذلك تهديدًا أخذته لندن على محمل الجد. فى السابع عشر من ديسمبر 1718، أعلن البرلمان الحرب، وبعد أقل من شهرين حذت فرنسا حذوه.

عندما أبحر ذلك الأسطول الهائل فى صيف 1719، لم يكن أكثر نجاحًا من سابقه الشهير: دخل فى عواصف شديدة فى خليج "بسكاى – Biscay" وتحطم بالقرب من "فينيستير – Finisterre"، ولم يصل حتى إلى المياه الإنجليزية. انطلقت حملة منفصلة نحو إسكتلنده وأنزلت بالفعل قوة إسبانية فى "النجاد الغربية – Western Highlands"، أما الأكثر خطورة والأكثر مدعاة للدهشة بالنسبة لإسبانيا، فكان وصول جيش فرنسى بقيادة دوق برويك – Duke of Berwick. كان من الصعب أن يصدق فيليب الخامس أن وطنه يمكن أن يحمل السلاح ضده، أو أن يحارب برويك صديقه القديم، إلا أنه سرعان ما تحرر من أوهامه. لم يكن بإمكانه أن يفعل شيئًا حيال ذلك وجيشه بعيد فى صقلية. كان عليه أن يرقب الأوضاع بلا حول ولا قوة، بينما يتم غزو قطالونيا واحتلال "ڤيجو – Vigo".

أما ألبيرونى، الصانع الوحيد لكل هذه المصائب، فلم يستطع الصمود أكثر من ذلك. فى ديسمبر 1719، كان ضحية لمؤامرة بقيادة دوق پارما ولى نعمته القديم، فتم طرده ونفيه من إسبانيا. كان مغامرًا ومتآمرًا ونافد الصبر وجامح الطموح فى كل ما يتعلق بالشؤون الخارجية، أما بالنسبة للشؤون الداخلية فكان مديرًا ممتازًا، ورغم أنه كان إيطاليًا صميمًا، كان يعمل بكل جد، وبكفاءة شديدة، من أجل وطنه بالتبنى. بعد رحيله، لم يكن هناك ما يدعو لاستمرار العداء، وكان فيليپ يأمل فى تفاهمات أفضل. خاب أمله. رفضت بريطانيا وفرنسا تمامًا أن تستمعا إليه، حتى تنضم إسبانيا إلى التحالف الرباعى، وهو ما قامت به على مضض فى السابع عشر من فبراير 1720.

** ** **

عندما وقعت هذه الاتفاقيات الدولية، المعروفة إجمالًا بمعاهدة أوترخت، فى الأشهر الأربعة الأولى من العام 1713، كان قد مر أكثر من ربع القرن على جزر الپيلوپونيز وهى ضمن ممتلكات ڤينيسيا. لم تكن تجربتها الجديدة فى الإمبراطورية ناجحة. كانت سنوات الاحتلال التركى التى سبقت استردادها قد حولت الأراضى المزدهرة إلى مكان قفر وخراب، وسرعان ما أدركت أن عبء الإدارة سيكون مكلفًا وشاقًا إلى حد بعيد، كان السكان المحليون، بوطنيتهم التى نشأت وتكرست كالعادة على يد رجال الدين الأرثوذكس، كانوا يحلمون بدولة لهم، ولم يكونوا يجدون ميزة كبيرة فى أن يحل محل سادتهم غير المؤمنين مسيحيون انشقاقيون لا يتعاطفون مع طموحاتهم. كان الدفاع مشكلة أخرى فى السابق، عندما كان الوجود الڤينيسى مقصورًا على عدد قليل من المستوطنات التجارية المهمة ومدن الحاميات، كان يمكن الاضطلاع به، ولكن كيف يمكن الآن تأمين

نحو ألف ميل من الساحل المتعرج وحمايته من الغزو؟ حتى تلك الدفاعات التى كانت تعتبر لازمة ولا يمكن الاستغناء عنها، مثل قلعة "أكروكورنت – Acrocorinth" الكئيبة – ما زالت موجودة إلى اليوم نموذجًا للعمارة العسكرية الڤينيسية – كانت بمثابة زيادة استعداء للسكان المحليين بسبب الضرائب التى كانت تجمع لأجلها وبنائها عن طريق السخرة؛ ولذا لا عجب أنه عندما ظهرت القوات التركية مرة أخرى فى 1715 على أراضى الپيلوپونيز، كانت محل ترحيب كقوات تحرير.

قام "داماد على – Damad Ali"، الوزير الأول فى بلاط السلطان أحمد الثالث، بالتخطيط لعملية مشتركة، بحيث تتقدم قوة برية عبر "تيسالى – Thessaly"، بينما يبحر أسطول فى الوقت نفسه فى اتجاه الجنوب الغربى عبر بحر إيجه، وخلال فصل الصيف حقق كلا فرعى الهجوم انتصارات متوالية، وعندما وصل الأسطول إلى وجهته، كان قد أجبر "تينوس – Tinos" و"أيچينا – Aegena" على الاستسلام، بينما استولى الجيش على كورنته بعد حصار دام خمسة أيام. بعد ذلك، كانت نوپليا ثم مودون و"كورون – Corone" و"مونيڤاسيا – Monevasia" (مالڤاسيا – Mal-vasia) وجزيرة "كيتيرا – Cythera". فى الوقت نفسه، كان الأتراك فى كريت بعد أن شجعتهم أخبار انتصارات مواطنيهم قد قاموا بالهجوم على المواقع الڤينيسية المتقدمة الباقية واستولوا عليها. بنهاية العام 1715، وبعد أن كانت كريت والپيلوپونيز قد ضاعت، وبعد أن كانت كل انتصارات فرانسيسكو موروسينى قد انتهت إلى لا شىء، كان الأتراك مرة أخرى على أبواب الأدرياتيكى. أما بالنسبة لڤينيسيا فلم يكن قد تبقى لها سوى قلعة واحدة... "كورفو – Corfu".

كان الجيش الذى دفع به الوزير الأول ضد قلعة كورفو فى أوائل 1716 مكونًا من ثلاثين ألف جندى مشاة وثلاثة آلاف من الخيالة، أما بالنسبة للڤينيسيين فالتقديرات تختلف. كانوا أقل عددًا بكل تأكيد، ولكن القوة النسبية فى حروب الحصار تكون أقل أهمية منها فى حالات الهجوم والدفاع المتقدمة، وهنا كان بإمكان ڤينيسيا أن تعول على مهارة وخبرة أحد أبرز المحاربين فى زمنه. كان المارشال "ماتياس يوهان ڤون دير شولينبيرج - Matthias Johann von der Schulenburg" قد حارب تحت قيادة مارلبورو فى "أودينارد – Odenarde" و"ماليلاكيت – Malplaquet"، ثم بعد حلول السلام طلب أن يخدم مع ڤينيسيا. كان قد أمضى معظم الشتاء فى تحسين دفاعات كورفو، ورغم أنه لم يستطع أن يمنع الجيش التركى من الإبرار، استطاع مواجهته بنظام دفاعى لم يواجه مثله من قبل.

استمر الحصار طوال فصل الصيف شديد الحرارة، وأخيرًا جاءت فى أغسطس التقارير التى زادت من شجاعة المدافعين وزرعت الغم فى قلوب الأتراك. أبرمت ڤينيسيا تحالفًا مع الإمبراطورية التى كانت قد دخلت الحرب. كان الأمير الأسطورى إيوچين يزحف مرة أخرى. كان قد هزم جيشًا تركيًا هزيمة منكرة فى "كارلوڤيتز – Karlowitz"، نفس المدينة التى كان الأتراك قد وقعوا فيها تلك المعاهدة التى كانوا يخرقونها الآن على نحو شائن، وبعد وقت قصير حقق انتصارًا كبيرًا آخر فى "بيتروارداين – Peterwardein"؛ حيث قتل عشرين ألفًا من جنود الأعداء واستولى على مائتى مدفع منهم، مقابل خسارة أقل من ثلاثة آلاف جندى من قواته.

هذه الضرورة غير المتوقعة للقتال على جبهتين فى وقت واحد، ربما تكون قد أقنعت القائد التركى بأنه إن لم يستول على كورفو بسرعة، فلربما لن يكون قادرًا على ذلك قط؛ وفى ليلة الثامن عشر من أغسطس أصدر أوامره بالهجوم الشامل الذى صحبه هدير الطبول ودوى الأبواق الذى يصم الآذان مع نيران المدافع والبنادق وصيحات الحرب. فورًا، كان شولينبيرج فى موقعه يدعو كل قادر على القتال – النساء والأطفال وكبار السن والقساوسة والكهنة – لكى يدافع عن المدينة. بعد عدة ساعات كان القتال ما زال مستعرًا، فقرر أن يغامر بكل شىء ويقوم بإغارة مفاجئة. قبل الفجر بوقت قصير، قام على رأس قوة من ثمانمائة جندى اختارهم بعناية، وانسلوا من خلال ممر صغير وانقضوا على مؤخرة الجيش التركى. كان انتصارًا فوريًا وحاسمًا. لاذ الأتراك الذين فوجئوا بالهجوم بالفرار، تاركين وراءهم أسلحتهم وذخيرتهم. زملاؤهم، على الأجزاء الأخرى من السور، الذين أصابتهم الدهشة وجدوا أن الهجوم قد فشل، فانسحبوا هم أيضًا وإن كان على نحو أكثر تنظيمًا. فى الليلة التالية، وكأن الطبيعة كانت تؤكد الانتصار الڤينيسى، هبت عاصفة قوية – كانت من العنف لدرجة أن فى غضون ساعات قليلة كان المعسكر التركى قد أصبح أشبه بمستنقع، تحولت الخنادق إلى قنوات مائية وتمزقت الخيام واقتلعتها الرياح بحبالها وأوتادها. فى الخارج، كانت السفن التركية ترتطم ببعضها فى المكلأ لتتحطم وتتناثر أجزاؤها قطعًا من الخشب.

عند الفجر، وبعد أن تكشف حجم الدمار، كان القليل من القائمين بالحصار هم الذين يريدون البقاء لحظة أخرى على جزيرة، كان يبدو أن الآلهة ضدهم، والحقيقة أن القائد التركى تلقى، بعد أيام قليلة، أوامره بالعودة فورًا. تم إنقاذ كورفو وكوفئ شولينبيرج بسيف مرصع بالجواهر ومعاش مدى الحياة قدره خمسة آلاف دوكاتية، كما تم تكريمه بإقامة تمثال له فى حياته فى القلعة القديمة.[17] انسحب الأتراك لكى لا يحاولوا مرة أخرى أن يوسعوا إمبراطوريتهم على حساب أوروبا المسيحية.

كان أثر ذلك على الروح المعنوية للڤينيسيين كبيرًا. فى أوائل الربيع من العام التالى، انطلق من «زانته – Zante“ أسطول جديد من سبعة وعشرين سفينة صوب الدردنيل، بقيادة الأدميرال الشاب اللامع ”لودوڤيكو فلانچينى – Ludovico Flangini“. فى الواحد والعشرين من يونيو 1717 قابل الأتراك رأسيًا، وبعد معركة استمرت عدة أيام حقق انتصارًا ساحقًا، ولم يلحق به أى أضرار سوى موت فلانچينى، الذى أصابه سهم إصابة بليغة، ولكنه أصر على أن يُحمَلَ إلى مكانه على سطح مؤخر المركب ليراقب المراحل الأخيرة من القتال من خلف الزجاج. بعد شهر، لحقت هزيمة أخرى بالأسطول التركى بالقرب من ”كيپ ماتاپان – Cape Matapan“ ولاذ بالفرار. آنذاك، كان الأمير إيوچين قد أعاد احتلال قلعة بلجراد البحرية البالغة الأهمية، وكان الأتراك ينسحبون على كل الجبهات.

لو أن الحرب استمرت فصلًا آخر واستطاع الڤينيسيون أن يحافظوا على هذا الزخم، لكانت البيلوپونيز قد عادت لهم مرة أخرى، وإن كان ليس مؤكدًا أن ذلك كان يمكن أن يكون فى صالحهم على المدى الطويل. ولكن الأتراك قرروا التماس السلام، والآن كانت ڤينيسيا تكتشف كم كانت مخطئة عندما أبرمت تحالفها النمساوى. مواجهة بأخطار جديدة من إسپانيا، كانت الإمبراطورية متلهفة على التوصل إلى تسوية سريعة، ولم تكن مهتمة كثيرًا بمطالب ڤينيسيا الإقليمية. استنادًا إلى أساس واهٍ، وهو أن انتصار كورفو وصعود نجم ڤينيسيا الذى تلاه كانت كلها نتائج مباشرة لانتصار الأمير إيوچين فى پيتروواردين. وهكذا، عندما التقت الأطراف فى مايو 1718 فى پاساروڤيتز – مع ممثلى إنجلترا وهولندا كوسطاء – وجد المندوب الڤينيسى ”كارلو روزينى – Carlo Ruzzini“ أنه لم يترك انطباعًا جيدًا لدى زملائه. ظل لمدة ست ساعات يدافع ويبرر، مطالبًا باستعادة ڤينيسيا لـ ”سودها – Soudha“ و”سپينالونجا – Spinalonga“ و”تينوس – Tinos“ و”كيثيرا – Cythera“ والبيلوپونيز، أو فى حال عدم وجود الأخيرة، توسيع الأراضى الڤينيسية فى ألبانيا جنوبًا حتى ”سكوتارى – Scutari“ و”دلسينجو – Dulcingo“ وهى حصن قرصنة كانت تريد إزالته، ولكن توسلاته تصادفت مع أخبار بأن ثمانية عشر ألف جندى إسپانى كانوا قد نزلوا فى سردينيا، ولم يستمع إليه أحد.

تم توقيع المعاهدة فى الواحد والعشرين من يوليو 1718، بعد ذلك بشهرين بالتحديد، وفى خضم إحدى العواصف الصيفية المرعبة فى البحر الأبيض، ضربت صاعقة برق مخزن البارود فى قلعة كورفو القديمة ليشعل الانفجار ثلاثة مخازن ذخيرة أخرى... فكانت النتيجة دمار القلعة بالكامل. تحول قصر الحاكم إلى أنقاض ليقتل القائد العام

وعددًا من العاملين معه. فى لحظة أو أقل كانت الطبيعة قد حققت أكثر مما عجزت القوات التركية مجتمعة أن تحققه فى عدة أشهر... وتأكدت عبثية الحرب الأخيرة.

فى پاساروڤيتز، تم ترسيم حدود الإمبراطورية الڤينيسية للمرة الأخيرة. لن تكون هناك مكاسب أخرى ولا خسائر ولا مبادلات، وفى البحر الأبيض، بصرف النظر عن المدينة التاريخية والبلدات وجزر البحيرة، كانت الإمبراطورية تضم "إستريا – Istria" ودالماشيا والجزر التابعة لها، ثم ألبانيا الشمالية بما فى ذلك "كاتارو – Kattaro" (كوتور – Kotor) و"بترنتو – Butrinto" و"پارجا – Parga" و"پريڤيزا – Pre-veza" و"ڤونيتسا – Vonitsa"؛ ثم "الجزر الإيونية – Ionian Islands": كورفو وپاكسوس وأنتيپاكسوس وليوكاس وشيفالونيا وإيثاكا وزانته، وأخيرًا جزيرة "كيتيرا – Cythera" جنوبى البيلوپونيز. كان ذلك هو كل شىء. كان زمن العظمة الإمبراطورية قد ولى، إلا أنه كانت ما تزال هناك تعويضات. لم تجلب غزوات موروسينى لـ "ڤينيسيا" سوى المصائب. كانت أفضل بدونها، قامت پاساروڤيتز على نحو ربما يبدو شائنًا بتسوية خلافاتها مع الأتراك، وأعلنت صداقة خالدة مع نمسا الهابسبورج، القوة الوحيدة الأخرى التى كان يمكن أن تمثل خطرًا سياسيًا كبيرًا. كان السلام هو النتيجة... السلام الذى سيدوم قرابة قرن كامل حتى مجىء ناپوليون... الذى وضع نهاية للجمهورية نفسها.

** ** **

عندما خلف چورچ الأول الملكة آن على العرش البريطانى فى 1714 – وكان قد جاء من هانوڤر على مضض – أبدى استعدادًا تامًا لإعادة جبل طارق إلى إسپانيا. ذلك أيضًا، ولعله أكثر إثارة للدهشة، كان رأى ستانوپ بطل مينوركا، الذى كان يشغل الآن منصب وزير الخارجية، وكان قد سبق أن صرح أكثر من مرة أن الصخرة كانت عبئًا أكثر منها ميزة. عندما عبر عن ذلك فى البرلمان، واجه عاصفة شديدة من الاحتجاجات جعلته يتراجع بسرعة، خشية صدور قرار رسمى يجعل التخلص منها أكثر صعوبة. بعد ذلك، فى مارس 1721، تم توقيع اتفاقية دفاع مشترك فى مدريد بين إسپانيا وفرنسا، تعهد فيها لويس الخامس عشر (كان فى الحادية عشرة من العمر) بدعمه الكامل لاستعادة جبل طارق. كان ستانوپ قد مات قبل ستة أسابيع، ولكن سياسته استمرت على يد خليفته. كتب الملك چورچ بالفعل إلى فيليپ يعده بإعادتها مقابل تنازلات معينة، بمجرد الحصول على موافقة البرلمان؛ الأمر الذى لم يكن سريعًا كما ظهر فيما بعد. وفى شهر يونيو وضع اسمه على الاتفاقية. مرة أخرى، فى لعبة الكراسى الموسيقية العالمية توقفت الموسيقى: الآن كانت بريطانيا وفرنسا وإسپانيا وپروسيا[18]، كلها مصطفة ضد الإمبراطور والقيصر.

ثم سرعان ما عادت الموسيقى واستؤنفت اللعبة. كانت الملكة «إليزابيث فارنيز – Elizabeth Farnese" دائمًا شريك فراش لا يحتمل، وكانت أبعد ما تكون عن السعادة عندما رفض الملك الصغير لويس الخامس عشر بسرعة الأميرة الإسپانية الصغيرة التى كان من المفترض أن يتزوجها. فى أبريل 1725 وقع ممثلو النمسا وإسپانيا معاهدة فى ڤيينا. الآن كان الإمبراطور هو الذى وعد ببذل كل مساعيه لإقناع البريطانيين بالتنازل عن جبل طارق ومينوركا لإسپانيا. ولكن البريطانيين كانوا قد أصبحوا أكثر تشددًا: أبدى وزير الخارجية لورد "تاونزهند – Townshend" موقفًا مختلفًا تمامًا عن موقف سلفه ستانوپ. كتب فى يونيو 1725 يقول:

> **«إن الإمبراطوريين يدركون تمامًا مدى اعتزاز البرلمان، وربما الأمة كلها، بجبل طارق، ويعرفون كذلك أننا بموجب الدستور والقوانين لدينا أن التاج لا يستطيع أن يتنازل لأى قوة أجنبية، أيًا كانت، عن أى جزء من المناطق الخاضعة له دون موافقة من البرلمان، وأن جبل طارق الذى آل لبريطانيا العظمى بموجب اتفاقية أوترخت - مرتبط تمامًا بالتاج مثل أيرلنده، أو أى جزء من إنجلترا».**

لم يكتف بذلك، بل إنه كرس العام التالى كله لتكوين عصبة جديدة من القوى الشمالية – كانت تضم السويد والدانمرك وكثيرًا من الإمارات الألمانية الصغيرة – وبحلول العام 1727 كانت أوروبا قد أصبحت معسكرًا مسلحًا. وفى فبراير من العام نفسه، كانت إسپانيا قد أعلنت الحرب على إنجلترا وفرضت حصارًا – غير ناجح – على جبل طارق، بينما ركزت بريطانيا، محققة نتائج أفضل، على اعتراض سبيل الأسطول الإسپانى السنوى الذى كان يأتى بالثروات من الأمريكتين. لم يكن أى من الطرفين يبدى حماسة كبيرة للحرب، وتم تعليق الأعمال العدائية فى وقت باكر من العام 1728.

إلا أن الملكة إليزابيث غيرت انحيازاتها. فى التاسع من نوفمبر 1729 فى أشبيلية، وقع ممثلو إنجلترا وفرنسا وإسپانيا معاهدة، تم التوصل فيها – ربما لأول مرة – إلى انتزاع اعتراف صريح من إسپانيا بكامل نتائج معاهدة أوترخت، بما فى ذلك احتلال بريطانيا لجبل طارق. فى مقابل ذلك، تعهدت إنجلترا وفرنسا بتسهيل دخول الحاميات الإسپانية إلى توسكانيا وپارما – وهو ما نفذتاه بعد عام. فى سنة 1731 مات «أنطونيو فارنيز – Antonio Farnese"، عم الملكة إليزابيث فجأة، وتحقق طموحها الأكبر فى مارس 1732، عندما تم تنصيب ابنها "دون كارلوس – Don Carlos" رسميًا دوقًا على پارما وأميرًا أعظم على توسكانيا. بالرغم من اسمه، كان دون كارلوس إيطاليًا أكثر منه إسپانيًا بفضل أم مثل إليزابيث. فى ذلك العام نفسه، الذى كانت قد تزايدت فيه

القرصنة فى البحر الأبيض، أرسلت إليزابيث حملة كبيرة قوية إلى أمريكا الشمالية. تم الاستيلاء على "أوران – Oran" (وهران)، ولكن سرعان ما تم إيقاف التقدم الإسپانى بعد ذلك، وقتل قائد الحملة فى المعركة.

إلا أن الملكة لم تيأس، والحقيقة أن نجاح ابنها فى إيطاليا فتح شهيتها للمزيد. الدبلوماسية البارعة مع لويس الخامس عشر الآن، أمنت موافقة فرنسا على أن يطالب دون كارلوس كذلك بـ "ناپولى" وصقلية على حساب الإمبراطور، وبناء على ذلك زحف جنوبًا فى ربيع 1734 عبر الولايات البابوية، وفى العاشر من مايو دخل ناپولى منتصرًا؛ وفى نهاية الخريف، وبرغم بعض المقاومة من قلاع مسينى و"تراپانى – Trapani" و"سيراكوزا – Syracuse" رحبت صقلية كذلك بغزاتها الجدد. (بعد أربع سنوات فحسب، ستكون النمسا مضطرة للتخلى رسميًّا عن الصقليتين، وسوف يتمكن دون كارلوس من عرش ناپولى؛ ليكون الملك شارل الثالث – Charles III).

الآن، ستوجه إليزابيث كل اهتمامها لبريطانيا العظمى أكثر من كانت تشعر نحوه بالبغض من أعدائها، كانت جبل طارق ومينوركا هى أهم القضايا التى ظلت عالقة بين الدولتين، إلا أنهما لن تكونا الموضوع الوحيد للصراع بينهما؛ إذ كانت هناك خلافات ومنازعات أخرى على كلا جانبى الأطلنطى. فى إسپانيا، كان التجار والبحارة الإنجليز يلقون مضايقات باستمرار من محاكم التفتيش وحتى من كتائب التجنيد[19]، التى كانت منتشرة فى كل مكان. كذلك كانت السفن الإنجليزية التى تزود جبل طارق بالمؤن عرضة للانتهاكات والعرقلة. فى الأمريكتين كانت هناك خلافات ونزاعات على الحدود وحق قطع أشجار الغابات وقضايا أخرى كثيرة، ولكن أهمها كانت تجارة التهريب المربحة التى كان البريطانيون يقومون بها بكل وقاحة بين چامايكا – التى كانت فى أيديهم منذ 1655 – والمستعمرات الإسپانية فى الكاريبى.

كانت إسپانيا تحمى مصالحها قدر استطاعتها بواسطة قافلة من حرس الشواطئ؛ كان بعضهم، كما ظهر، أقل إنسانية من البعض الآخر. فى 1738 وقف بحار إنجليزى يدعى «روبرت چنكنز – Robert Jenkins" أمام البرلمان يلوح بأذنه المبتورة التى قطعها حرس الشواطئ. ربما كان ذلك مجرد عمل عدائى بسيط، ولكن معارضة الهويج كانت تزأر مطالبة بالدم، كما تعالت الصيحات المطالبة بالثأر فى طول البلاد وعرضها. كانت النتيجة إعلان "حرب أذن چنكنز – War of Jenkin's Ear" فى 1739.[20] مرة أخرى كان جبل طارق ومينوركا فى خطر، إلا أنهما كانا فى حماية أسطول البحر الأبيض بقيادة – طيب الذكر – الأدميرال «نيكولاس هادوك – Nicholas Had-

dock"، الذى حاصر كلا من كاديز (قادش) وبرشلونة بنجاح، وانطلق ليستولى على اثنتين من سفن الكنوز الإسبانية، كان يقدر ثمن الواحدة منهما بمليون دولار. ما كان لحرب قامت بسبب قضية تافهة كتلك أن تستمر طويلًا، ولكن فى العشرين من أكتوبر 1740، مات الإمبراطور شارل السادس فى ڤيينا فى سن الخامسة والخمسين، لتدخل أوروبا كلها فى حالة من الفوضى مرة أخرى.

** ** **

لسوء حظ قراء – وكتاب – التاريخ الأوروبى فى القرن الثامن عشر أن يتبع الصراع الكبير على عرش إسپانيا بعد سبع وعشرين سنة فحسب، صراع آخر، كان هذه المرة على عرش النمسا. حرب الخلافة النمساوية على أية حال كان تأثيرها أقل على البحر الأبيض، وعليه فلن تستهلك الكثير من وقتنا.

حيث إن الإمبراطورية النمساوية لم تكن وريثًا للإمبراطورية الرومانية المقدسة بقدر ما كانت استمرارًا لها، فقد بقيت انتخابية من الناحية النظرية؛ خلال القرون الثلاثة لحكم آل هابسبورج، كانت واجبات الناخبين احتفالية وطقوسية أكثر منها أى شىء آخر، وكان العرش آنذاك وراثيًا قصدًا وهدفًا. لسوء الحظ، كان الهابسبورج النمساويون فى تلك المرحلة من التاريخ – مثل أبناء عمومتهم الإسپان – يعانون نقصًا كبيرًا فى الورثة من الذكور، لدرجة أن يصدر ليوپولد الأول مرسومًا فى 1703 ينص على السماح بتولى الإناث العرش فى حالة عدم وجود ذكور، وكان من الطبيعى أن تكون الأولوية لبنات ابنه الأكبر چوزيف قبل بنات ابنه الأصغر شارل. ولكن كل شىء تغير – كما رأينا – بوفاة چوزيف المفاجئة فى 1711 وخلافة شارل فى العام التالى. وبترتيب عائلى سرى عرف لسبب ما بـ "إجازة پراجماتية – Pragmatic Sanction"، أعطى شارل (شارل السادس آنذاك) الأولوية لبناته قبل بنات أخيه، مصرًا فى الوقت نفسه على بقاء ممتلكات الهابسبورج فى شمال ووسط أوروبا غير قابلة للتقسيم فى المستقبل.

عندما مات ابنه الوحيد قبله، كان شارل هو الذكر الوحيد على قيد الحياة من آل هابسبورج، ومن ثم كان مصرًا على أن تخلفه ابنته "ماريا تريزا – Maria Theresa" على عرش النمسا. وبحسب الإجازة الپراجماتية، كان ينبغى ألا يكون ذلك سببًا فى مشكلة. وبالفعل، كان كل شىء يبدو جيدًا فى الأشهر القليلة الأولى بعد وفاة والدها فى 1740. كان شارل قد حرص على الحصول على ضمانات قانونية جادة من كل القوى الأوروبية الرئيسية بأنهم سيحترمون خلافة ابنه: النظام البابوى وجمهورية ڤينيسيا وإنجلترا وهولندا... كلهم اعترفوا عن طيب خاطر بالملكة التى كانت فى الثالثة

والعشرين من العمر.[21] كانت «فرانس – France“ ودودة ويمكن الاطمئنان إليها برغم عدم وضوح شخصيتها إلى حد ما. لم يعترف بها فردريك الثانى ملك بروسيا الجديد فحسب (سيعرف فيما بعد بـ "فردريك الأكبر")، بل إنه عرض عليها المساعدة العسكرية متى احتاجتها. كان يتكلم بلسان متشعب لم تفهمه ماريا تريزا إلا فى السادس عشر من ديسمبر 1740، عندما غزا جيش بروسى من ثلاثين ألف جندى ولاية "سيليسيا – Silesia“ الإمبراطورية... وبدأت حرب الخلافة النمساوية.

كان أن استمرت الحرب حتى 1748، ومثل سابقتها دارت أساسًا فى شمال ووسط أوروبا – لم يكن البحر الأبيض المتوسط مسرحًا رئيسيًّا فى أى مرحلة من مراحلها. الحقيقة أنه لم يكن له أهمية بالنسبة لـ "فردريك" ملك بروسيا أحد بطلى الحرب الرئيسيين. ولكنه كان بالغ الأهمية بالنسبة لحاكمين آخرين على المسرح الأوروبى، هما فيليپ الخامس ملك إسپانيا و"شارل إيمانويل – Charles Emmanuel“ ملك سردينيا. وكما نعلم، كان ڤيكتور أماديوس الثانى ملك سافوى قد أُجْبِر فى سنة 1718 على التنازل عن صقلية لهابسبورج النمسا، وأُعطِى بدلًا منها جزيرة سردينيا ذات الأهمية الأقل نسبيًّا، ومن 1720 – عندما تسلم مملكته الجديدة رسميًّا – حتى 1861 – عندما أصبح ڤيكتور الثانى (أحد أبناء عمومته) أول ملك لإيطاليا موحدة – كان يُعرف هو وحلفاؤه بملوك سردينيا، وذلك رغم أنهم كانوا قد ظلوا يحكمون من تورين، عاصمتهم الموروثة.

كان شارل إيمانويل حاد الذكاء، وحكم رعاياه بحكمة ودراية؛ من ناحية أخرى لم يكن ليوقفه شىء، كرجل دولة أوروبى، عن أن يوسع حدود بلاده ويزيد من قوتها، فما كانت سردينيا – أو سافوى – لتعرف بـ "بروسيا إيطاليا" بدون سبب. كان "الكاردينال فليرى – Cardinal Fleury“، رئيس وزراء لويس الخامس عشر (وكان العقد التاسع من العمر)، قد تنبأ بأن يأتى ملك من سردينيا يلقى بالبوربون خارج شبه الجزيرة كلها، بينما كان أبرز وأذكى المراقبين الرئيس "شارل دى بروسيس[22] – Charles de Brosses“ يقول ما هو أكثر من ذلك. كان يقول "من بين كل الولايات الإيطالية، لا يخشى الإيطاليون سوى ملك سردينيا، فهو كما يزعمون ممسك بحلوقهم وسوف يخنقهم عاجلًا أو آجلًا".

لم يكن جسد شارل السادس قد برد، قبل أن تجبر إليزابيث فارنيز زوجها، المذعن دائمًا، على أن يطالب بكل ممتلكات آل هابسبورج الوراثية. كانت الأسس التى يعتمدون عليها ضعيفة، وكانت تعرف ذلك. كان أهم ما تسعى إليه هو الأقاليم الإيطالية ووجدت على الفور حليفًا مهمًا: كان ابنها دون كارلوس الآن هو ملك نابولى "شارل الثالث".

فى غضون أسابيع قليلة كان جيش إسبانى قد عبر البرانس وتقدم صوب "لانجيدوك – Languedoc" وبروفنس، بينما أرسل "دوق مونتيمر – Duke of Montemar" وحدة أخرى بالبحر إلى "أوربيتللو – Orbetello" (بالقرب من بورتو إيركول – Porto Ercole الحديثة)؛ حيث لحقت بها قوات من نابولى.

فى نفس الوقت تقريبًا، ومع المزاعم الإسبانية، أعلن شارل إيمانويل أن إقليم ميلان كان من حقه قانونًا – ألم تكن جدة جدته هى ابنة فيليب الثانى ملك إسبانيا؟ - ولكن بمجرد أن وجد أن إسبانيا كانت تستعد للحرب بهذا الهدف نفسه نصب عينيها، أعاد التفكير، وقرر أن يلقى بكل ثقله مع ماريا تريزا. من الآن فصاعدًا، ستحمل كل من النمسا وسردينيا على مملكتى البوربون فى فرنسا وإسبانيا. كان لهما حلفاء آخرون كذلك، ففى أغسطس 1742 ظهر بالقرب من نابولى أسطول بريطانى بقيادة الأدميرال "توماس ماتيوز – Thomas Mathews" (66 سنة) وهدد بقصف المدينة إذا لم ينسحب الملك شارل من تحالف البوربون فورًا. كان لذلك التهديد أثره الجيد؛ حيث انقض ماتيوز على أسطول من السفن الفرنسية والإسبانية ليردها على أعقابها إلى طولون، قاطعًا بذلك كل اتصال بحرى بين إيطاليا وإسبانيا. ولكن الحلفاء لم يقابلوا ذلك على طريقتهم، ففى الشهر نفسه، قام جيش إسبانى بقيادة "دون فيليب – Don Philip"، شقيق شارل الثالث بغزو سافوى، بالرغم من المقاومة الباسلة من الأهالى المروعين، كان أن بقى الجيش هناك ست سنوات.

كان يمكن أن تستمر الحرب لفترة أطول بكثير، لولا موت فيليب الخامس ملك إسبانيا فى التاسع من يوليو 1746. كان فيليب نفسه أبعد ما يكون عن الرغبة فى القتال، وكان يقضى معظم وقته إما فى العبادة أو فى الاستماع للموسيقى التى يحب. منذ اللحظة الأولى للزواج كانت زوجته مسيطرة عليه تمامًا، وكانت طموحاتها الوطنية سببًا فى تفاقم العداء، كما أن نوبات الجنون التى كانت تنتابه فى أواخر حياته بشكل متزايد - أدت إلى زيادة إحكام قبضتها عليه. كان الملك الجديد "فرديناند السادس – Ferdinand VI"، الوحيد الذى بقى على قيد الحياة من أبناء فيليب الأربعة من زوجته الأولى ماريا لويزا ملكة سافوى، كان قد ورث عن أبيه كل كسله وتراخيه واستعداده للانقياد لزوجته، ومن ناحية أخرى لم تكن ملكته البرتغالية "ماريا باربرا البراجانزية – Maria Barbara of Braganza" تملك شيئًا من حمية وحماسة الزوجة السابقة. منذ اللحظة الأولى، استمرت الحرب، ولكن العلاقات الوثيقة كانت ما زالت قائمة بين بريطانيا والبرتغال منذ أيام "جون الجونتى – John of Gaunt" فى القرن الرابع عشر،

وبدأت المفاوضات بين بلاطى "لشبونة – Lisbon" ولندن من أجل التوصل إلى تسوية سلمية. كان من أول الأعمال التى قام بها فرديناند بعد توليه العرش أن طرد "الماركيز ڤيللارياس – Marquis Villarias" وزيره الأجنبى الموالى للفرنسيين بوضوح؛ ليحل محله "دون جوزيه دى كارڤاجال ى لانكاستر – Don José de Carvajal y Lancaster" الذى كان محبًا للإنجليز ومن نسل الـ "جونت".

وأخيرًا تم توقيع اتفاقية "أيكس لاشابيل – Axi-la- Chapelle" فى 1748 بفضل جهود الملكة وكارڤاجال، ووضعت الحرب أوزارها. كان المنتصر الوحيد هو فردريك إمبراطور بروسيا، وهو الذى كان قد أشعلها. احتفظ شارل إيمانويل بكل من ساڤوى ونيس، مع شريط من لومبارديا أوصل حدوده إلى نهر "تيكينو – Ticino"، أما دون فيليپ فقد حصل على كل من پارما وپياكنزا. أخذت الإجازة البراجماتية ضمانات جديدة، وتم الاعتراف رسميًا بزوج ماريا تريزا باعتباره "الإمبراطور فرانسيس الأول – Emperor Francis I"، صحيح أن العلاقات الأنجلو إسپانية كانت الآن ودية أكثر منها على مدى نصف قرن أو أكثر، وبالرغم من ذلك، فإن حرب الخلافة النمساوية – فى نظر كثيرين – لم يكن لها مبرر تقريبًا.

** ** **

كان الإنجليز كما نعرف يضعون أعينهم على جزيرة مينوركا منذ مطلع القرن، وكانوا قد صمموا على ذلك – بنجاح – فى أوترخت، واثقين من أنها لا بد من أن تكون إضافة دائمة لإمبراطوريتهم. الواقع أن هذه الفترة الأولى من الحكم البريطانى ما كانت لتدوم أقل من خمسين عامًا، وعند اندلاع حرب السبع السنوات فى 1756، كان من أول ما فعل لويس الخامس عشر هو إرسال حملة تحت قيادة المتحرر الشهير "الدوق دى ريشيليو – Duc de Richelieu" للاستيلاء على الجزيرة. بواسطة حاميتها المكونة بالكاد من ثلاثة آلاف جندى، أبدى حاكمها الأيرلندى "وليم بلاكنى – William Blakeney" (كان فى الرابعة والثمانين) مقاومة باسلة، إلا أنه كان يعرف أنه لن يستطيع الصمود طويلًا دون تعزيزات قوية. لحسن الحظ، كان مثل تلك التعزيزات موجودًا، كان هناك أسطول من عشر سفن فى جبل طارق تحت قيادة "الأدميرال سير چون بينج – Admiral Sir John Byng"، الذى كان لديه تعليمات واضحة بأن "يستخدم كل الوسائل المتاحة له لإنقاذ مينوركا" فى حال تعرضها لأى هجوم.

بالرغم من أن حاكم جبل طارق كان قد رفض فى آخر لحظة أن يرحل بكتيبة المشاة التى كان قد أمر بإرسالها – وهو القرار الذى سيؤدى بعد ذلك إلى تقديمه لمحاكمة

عسكرية، وإلى ما لحق به من عار - أبحر بينج فى الثامن من مايو ليصل إلى "پورت ماهون - Port Mahon" بعد أحد عشر يومًا. بعد ظهيرة اليوم التالى، 20 مايو، هاجم الأسطول الفرنسى. من ناحية العدد كان الطرفان متساويين، إلا أن السفن الفرنسية كانت أكبر حجمًا وتحمل تسليحًا أثقل وجنودًا أكثر. مثل هذا التفوق فى حد ذاته لم يكن حاسمًا، ولكن بينج وقع فى خطأ تكتيكى كارثى فى بداية القتال، بأن ترك تشكيل قتاله عرضة لمدفعية العدو. استغل الفرنسيون ذلك جيدًا وأعطبوا الأسطول البريطانى تماما. لم يحاولوا مواصلة الانتصار، وبالرغم من ذلك، قرر بينج بعد عقد مجلس حرب، أن يعود إلى جبل طارق تاركًا مينوركا تواجه مصيرها.

كان بلاكنى ما زال يقاوم رافضًا الاستسلام، بالرغم من أن حاميته فى قلعة سان فيليپ كانت تحت نيران متواصلة. آنذاك، كان القائمون بالحصار يعانون كذلك، سواء من الديزنطاريا - وهو الخطر الذى كان دائم التكرار فى ظروف الحصار - أو شدة الحرارة. كانوا كذلك يعرفون أن أسطولًا بريطانيًا آخر يفوق أسطول بينج، كان فى طريقه للجزيرة تحت قيادة "الأدميرال سير إدوارد هوك - Admiral Sir Edward Hawke"، وكان ريشيليو يريد أن ينهى الأمر قبل وصوله. وبناء على ذلك، أصدر أوامره بهجوم ليلى. وفى مجلس حرب عقده بلاكنى فى الصباح التالى، يوم 29 يونيو، أجمع كل الحاضرين باستثناء ثلاثة (قدموا شروطًا معقولة)، على أن الاستسلام كان هو السبيل الوحيد المعقول. عند اقترابه من ماهون بعد أيام قليلة، مر هوك بقافلة فرنسية كانت تحمل الناجين من أفراد الحامية عائدة بهم إلى جبل طارق.. حينذاك فقط أدرك أنه كان قد تأخر كثيرًا.

عندما وصلت الأخبار إلى لندن، كانت هناك موجة عارمة من الحماسة لـ "بلاكنى" - الذى قيل: إنه لم يخلع لباسه العسكرى طوال الحصار الذى استمر سبعين يومًا - وأنعم عليه الملك چورج الثانى بلقب "فارس"، ثم بلقب "كولونيل فخرى" لفيلق عسكرى، وأخيرًا كان لورد بلاكنى ضمن طبقة نبلاء أيرلنده. أما الأدميرال بينج فكان أقل حظًا. فى السابع والعشرين من يناير 1757 أدانته محكمة عسكرية بالإهمال فى أداء واجبه وحكمت عليه بالإعدام، ثم أضافت المحكمة توصية قوية بالرأفة ليكون السجن بدلًا من الإعدام، على اعتبار أن تصرف الأدميرال لم يكن بدافع من الجبن، ولكن الملك رفض تخفيف العقوبة. فى الرابع عشر من مارس 1757 تم إعدامه رميًا بالرصاص فوق إحدى السفن الملكية فى ميناء "پورتسموث - Portsmouth". كورسيكا هى الجزيرة الرابعة الأكبر فى المتوسط، بعد صقلية وسردينيا وقبرص. تاريخها القديم مثلما هو

متوقع، بعد فترة نشطة فى عصر ما قبل التاريخ، توالت عليها احتلالات من اليونانيين والقرطاجنيين والإتروسك والرومان والوندال والقوط واللمبارد والعرب، فى القرن الثامن، وهو الأكثر إثارة للدهشة، سقطت فى يد النظام البابوى، الذى عهد بها فى 1077 لأسقف بيزا. تحت حكم البيزيين، عرفت كورسيكا الإدارة المستنيرة الكفء لأول مرة. تطور اقتصاد الجزيرة، وبدأت الفنون فى الازدهار: هاتان الزهرتان الرائعتان من الطراز الرومانيسكى: كاتدرائية "نيبيو – Nebbio" وكنيسة "لا كانونيكا – La Ca-nonica"، تعودان إلى أوائل القرن الثانى عشر. كان من المحتم أن تثير تلك الدرة فى تاج بيزا جشع جنوة، خصمها العتيد فى وأثناء الصراعات المريرة بين الجمهوريتين البحريتين طوال العصور الوسطى المتأخرة – التى لحقت بهما فيها مملكة أراجون – عادت الفوضى. وأخيرًا، فى منتصف القرن الخامس عشر، أحكمت جنوة سيطرتها على الجزيرة واحتفظت بتلك السيطرة – مع انقطاعات قليلة – ثلاثمائة سنة.

ثم كان أن ظهر على المسرح الكورسيكى "پاسكوال پاولى – Pasquale Paoli". كان أبوه "چياكنتو – Giaquinto" قد تزعم انتفاضة ضد جنوة فى 1735، ولكن بعد قتال دام أربع سنوات فشل فى النهاية. كان من حسن حظه هو وپاسكوال أن يهربا من مصير أسوأ من النفى، إلى ناپولى، وهنا سيعد نفسه لمواصلة الكفاح من أجل الاستقلال؛ ليكون جاهزًا فى 1755. عاد إلى كورسيكا، تغلب على الجنويين – الذين كانوا يرفضون التخلى عن مطالبهم – وأعلن دولة مستقلة، وانتخب رئيسًا فى ظل دستور ليبرالى ديمقراطى، مثل أى دستور فى أوروبا. على مدى السنوات التسع التالية، سوف يتمكن من تهدئة الأوضاع فى الجزيرة المضطربة، ويشجع الصناعة، ويبنى أسطولًا، ويؤسس نظامًا للتعليم الوطنى كاملًا حتى المستوى الجامعى. خلال هذه الفترة، كان فى حالة حرب دفاعية غير حاسمة ضد جنوة التى سعت للحصول على دعم فرنسا، وفى سنة 1768 باعت حقوقها للفرنسيين. قامت فرنسا بتقوية الحاميات الكورسيكية لتصل إلى ست كتائب كاملة وفى 1769، بعد اثنى عشر شهرًا من حرب العصابات، اضطر پاولى للفرار إلى إنجلترا.

فى الخامس عشر من أغسطس من العام نفسه، سيولد طفل فى منزل ما فى شارع سان شارل فى "أچاسيو – Ajaccio". سيكون اسمه – بالإيطالية التى كانت اللغة القومية لـ "كورسيكا" آنذاك – "ناپوليون بوناپارت – Napoleone Buonaparte".

** ** **

قبل عشر سنوات بالتمام والكمال من مولد بونابارت فى أغسطس 1759، كان الملك الإسبانى فرديناند السادس قد مات فى سن السادسة والأربعين. لم تكن قدراته العقلية قوية، وكان موت زوجته المحبوبة قبل عام قد أثر فيه بشدة. أصبح أكثر عزلة وتوحدًا وكان يرفض الكلام، وفى النهاية دخل فى حالة كاملة من الخبل. الغريب أنه كان ملكًا جيدًا. كان، بمساعدة الملكة باربرا، قد استعاد الأموال الوطنية وبنى أسطولًا قويًا وشجع العلوم والفنون وشدد القيود على محاكم التفتيش واضعًا نهاية لعمليات ما كان يسمى بـ "فعل الإيمان[23] – auto-de-fé» التى كانت صادمة لأوروبا القرن الثامن عشر. كان أكثر من ملك يفعلون ما هو أسوأ من ذلك.

انتقلت الآن مملكته إلى أخيه غير الشقيق شارل الثالث ملك نابولى، وأصبحت الملكة «دوواجر إليزابيث فارنيز – Dowager Elizabeth Farnese" وصية حتى وصول شارل إلى إسبانيا. وحيث إن الابن الأكبر للملك الجديد كان معتوهًا، قرر شارل – كجزء من هذا التعديل الملكى – أن يعين ابنه الثانى – كان اسمه شارل أيضًا – أميرًا على "أستورياس – Asturias" ووريثًا للعرش الإسبانى، وتنازل عن عرش نابولى والصقليتين لابنه الثالث فرديناند الذى كان آنذاك طفلًا فى الثامنة. بعد الانتهاء من هذه التدابير، أبحر هو وزوجته "أماليا – Amalia" الساكسونية Amalia of Saxony إلى برشلونة بأسرتهما. وصلا مدريد فى التاسع من ديسمبر حيث اجتمع شمل الملك بأمه لأول مرة منذ رحيله قبل ثمانية وعشرين عامًا. تعانق الاثنان بحرارة، ولكن سرعان ما كشف شارل عن شخصيته المستقلة، وأنه ليس لديه النية للسماح بأى نفوذ لـ "إليزابيث" فى شؤون الدولة، وسرعان ما أوت هى إلى قصرها فى "سان إلديفونسو – San Ilde-fonso"، ولم تعد إلى مدريد قط، حتى بعد موت الملكة أماليا بعد ثلاثة أشهر.

بالرغم من أن شارل لم يكن استثنائى الذكاء، فإنه كان مجدًا وصاحب ضمير حى وأمينًا وورعًا، ذلك كله إلى جانب خبرة أكثر من ربع قرن فى الحكم. فى الوقت نفسه كان بوربونيا قلبًا وقالبًا، لم يغفر ولم ينس التهديد البريطانى بقصف نابولى قبل سبعة عشر عامًا. الآن، وبينما كانت حرب السبع السنوات قد قطعت نصف الشوط، كان يكره أن يرى الأسلحة البريطانية فى أى مكان منتصرة على الأسلحة الفرنسية. وكإسبانى، كان على إلمام جيد بشكوى بلاده المستمرة من إنجلترا عن التهريب وقيام البريطانيين بتفتيش السفن الإسبانية، ناهيك عن النزاعات الأخرى التى كانت تتراوح بين المطالبة بساحل "هندوراس – Honduras" وحقوق الصيد بالقرب من مياه "نيوفوندلاند – Newfoundland". لذا عندما أوحى له وزير الخارجية الفرنسى "الدوق دى شوازيل

– Duc de Choiseul“ بأن انتصارًا إنجليزيًّا سيكون كارثيًّا على الممتلكات الإسبانية فى الأمريكتين، كان يجد مستمعًا جيدًا.

كانت النتيجة توقيع اتفاقيتين عرفتا بـ ”العهد العائلى – The Family Compact“، وذلك فى أغسطس 1761. وافقت فرنسا على أن يكون أى اتفاق سلام مشروطًا بتسوية الشكاوى الإسبانية، بينما تعهدت إسبانيا فى المقابل بأن تدخل الحرب فورًا فى حال رفض هذه الشروط. عند هذا الحد – وقبل أن يكون هناك أى شىء يخص السلام بين بريطانيا وفرنسا – طلبت الحكومة البريطانية تفسيرًا للاستعدادات العسكرية الواضحة التى كانت تقوم بها إسبانيا. رفضت إسبانيا الرد، وطردت السفير البريطانى ”لورد بريستول – Lord Bristol“، وفرضت حظرًا على جميع السفن البريطانية فى الموانئ الإسبانية. الآن، دخلت حرب السبع السنوات مرحلة متوسطية جديدة. كانت قصيرة المدى، وإن كانت أصداؤها وتداعياتها قد وصلت إلى الكاريبى والباسيفيكى. فى أغسطس 1762 قام أسطول بريطانى بالاستيلاء على ”هاڤانا – Havana“، وبعد شهر أو أكثر بقليل، قبل أسطول آخر استسلام ”مانيلا – Manila“. لا عجب إذن أن تكون فرنسا وإسبانيا مستعدتين للسلام بنهاية العام.

تم توقيع الاتفاقية التى وضعت نهاية لحرب السبع سنوات فى باريس فى العشرين من فبراير 1763. كانت تحتوى على بند واحد له علاقة مباشرة بالبحر الأبيض: إعادة مينوركا إلى بريطانيا. من ناحية أخرى، كانت الأمريكتان قد شهدتا تحولات كبيرة. حصلت بريطانيا على كندا و”نوڤاسكوتيا – Nova Scotia“ و”كيپ بريتون – Cape Breton“ وعدد من الجزر، من فرنسا، التى تنازلت كذلك عن ”السنغال – Senegal“، وفى المقابل احتفظت فرنسا بجزر ”المارتينيك – Martinique“ و”جوديلوپ – Gaudeloupe“، وحصلت على حق الصيد فى مياه نيوفوندلاند.[24] كما أعيدت لها مستعمراتها السابقة فى الهند بشرط عدم تحصينها. أما إسبانيا فاستعادت هاڤانا من بريطانيا، وكان عليها أن تتخلى عن فلوريدا مقابل ذلك، كما استعادت مانيلا والفيلبين. كان أهم جديد ضمته إليها هو منطقة لويزيانا الفرنسية سابقًا. كان ذلك بعض التعويض عن فقدان فلوريدا؛ ولكن بالنسبة لـ «شارل الثالث»، كان لا بد من أن يكون واضحًا أنه ارتكب أول خطأ كبير له كحاكم لإسبانيا: وهو أنه استمع إلى «شوازيل – Choiseul“.

كانت سياسة سلفه فى الحياد الصارم هى السياسة الصحيحة. كان بالإمكان مواصلة حرب السبع السنوات على نحو أكثر حكمة من كل الأطراف... بعبارة أخرى، دون تورط مباشر.

هوامش الفصل التاسع عشر

(1) المسلمون (سابقًا)، الذين تحولت أسرهم إلى المسيحية – على الأقل نظريًا – نتيجة لاضطهاد الملكة إيزابيلا. (انظر الفصل 13)

(2) فى النصف الأول من القرن السادس عشر، كانت هولندا قد أصبحت مقاطعة تابعة للهابسبورج الإسبان. ثم فى فترة "الإصلاح – Reformation" بعد ذلك تحولت المقاطعات الشمالية إلى "الكالڤينية – Calvinism" وكان الأمير وليم الأورانچى (وليم الصامت) قد قادهم فى تمرد على إسبانيا. فى 1579 تخلصوا من الحكم الإسبانى ليصبحوا "المقاطعات الهولندية المتحدة" – بالرغم من أن إسبانيا لم تعترف باستقلالها حتى 1648. ظلت المقاطعات الجنوبية إسبانية.

(3) ولدت "مارى – آن دى لاتريموى – Marie – Anne de la Tremouille" فى 1642، تزوجت فى 1675 وحيث إن زوجها الثانى "فلاڤيو ديجلى أورسينى – Flavio degli Or-sini"، دوق "براكيانو – Bracciano"، أصبح قصرهما فى روما مركزًا للنفوذ الفرنسى فى إيطاليا. بعد أن ترملت مرة أخرى فى 1698 عادت إلى فرنسا، فرنست اسمها، أصبحت إحدى وصيفات الملكة. منذ يوم وصولها إلى إسبانيا، كانت تدير البلاد بالفعل.

(4) الأقاليم الجنوبية، التى بقيت إسبانية بعد انفصال الأقاليم الشمالية.

(5) كان الأمير ايوچين (1663 – 1736) هو الفيلد مارشال الإمبراطورى، واشتهر بأنه أعظم جنود عصره. حارب معركته الأولى – أثناء الحصار التركى لـ "ڤيينا" فى 1683 – وهو فى العشرين من عمره. كان معلمًا لـ "فردريك الأكبر"، وهو القائد الإستراتيچى الوحيد الذى كان نابوليون يعتبر حملاته جديرة بالدراسة.

(6) لا يعرف أحد كيف أصبح ڤيلليريو مارشالا: خسر كل المعارك التى خاضها، بعد أسره كان الجنود الفرنسيون يرددون الأغانى التى تسخر منه.

(7) ماركيز دى روڤيچنى – Marquis de Ruvigny سابقًا وأحد أبناء عائلة Huguenot العريقة. كان جالواى قائدًا لقوة فرنسية فى إنجلترا بعد إلغاء مرسوم نانتس – Edict of Nantes فى 1658 وأصبح بريطانيًا. بعد ذلك بخمس سنوات خدم فى العسكرية الإنجليزية برتبة ماجور – چنرال فى الخيالة. عين فى 1692 قائدًا للقوات فى أيرلنده ومنح بعدها رتبة النبالة.

(8) لعلها المعركة الوحيدة التى قاد فيها فرنسى قوات بريطانية.

(9) اضطرت كاليجارى نفسها للاستسلام، وإن كان البريطانيون لم يقوموا بغزو سردينيا بالكامل، إلا أنها أصبحت ورقة مساومة فى السنوات التى تلت معاهدة "أوترخت – Treaty of Utrecht".

(10) الهويج – Whig: حزب بريطانى مؤيد للإصلاح سيعرف فيما بعد بـ "حزب الأحرار". (المترجم).

(11) نسبة إلى "تورى – Tory"، وهو حزب بريطانى مؤيد للسلطة الملكية، مقاوم للتغيير والإصلاح (أنشئ حوالى عام 1679، سيعرف بعد ذلك باسم حزب المحافظين. (المترجم).

(12) "On a Parole du Roi d'Espagne de Laisser aux Anglais Gibraltar pour la Sûrete réelle de leur Commerce en Espagne et dans la Méditerrane."

(13) هذا التمييز الغامض هو أساس مطالبة إسبانيا بالصخرة: كانت جزءًا من الأراضى الإسبانية ذات السيادة منذ أيام فرديناند وإيزابيلا، وهذا الوضع لم يتأثر بمعاهدة أوترخت. يتهم الموقف الإسبانى غالبًا بالنفاق بسبب تشابه مزعوم بين جبل طارق والمدن الإسبانية سبتة ومليلة على

ساحل أفريقيا الشمالى. رد الإسبان بأن هاتين المدينتين ليستا مستعمرتين، وأنهما كانتا دائمًا إسبانية مثلها مثل جزر البليار أو جزر كنارى، وأنها لم تكن جزءًا من الدولة المراكشية قط.

(14) المقصود أنها كانت عبئًا ثقيلًا عليها. (المترجم)

(15) كانت هناك فترة انقطاع قصيرة فى 1724 عندما تنحى فيليب لصالح ابنه الأكبر لويس – فى نوبة من نوبات الهوس الدينى – ولكنه عاد إلى العرش عندما مات ابنه بالجدرى بعد ذلك بسبعة أشهر.

(16) كانت هولندا بالفعل جزءًا منه وإن كان اسمًا فقط؛ إذ إن سياسة طبقة التجار الهولنديين المعادية للحرب قوية جدًا.

(17) نقل أثناء الاحتلال البريطانى للجزيرة إلى مكانه الحالى فى المتنزه المجاور.

(18) كانت بروسيا قد أصبحت دولة فى 1701 عندما توج فردريك (ابن مرشح براندينبرج) نفسه ملكًا فى "كونيجزبرج – Königsberg".

(19) Press – gangs، كتائب يقودها ضباط كانت مكلفة بإكراه الناس للالتحاق بالجيش أو الأسطول (المترجم)

(20) ابتهجت لندن على نحو خاص لهذا الإعلان. فردريك أمير ويلز، الذى كان يعربد فى إحدى الحانات (Rose Tavern) أفرط فى الشراب مع أصدقائه مما أثار دهشة وارتباك الكاثوليكيين، ودقت الأجراس من أبراج كل الكنائس. كانت تلك هى المناسبة التى اتهم فيها رئيس الوزراء سير روبرت والبول – Robert Walpole بالذنب بسبب عبارته الشهيرة التى تذكر به دائمًا وتنطوى على تورية ساخرة: "إنهم يدقون ring الأجراس الآن، بعد وقت قصير سوف يعصرون wring أيديهم".

(التورية بين الفعلين "يدق ring" و"يعصر wring"؛ حيث إن النطق واحد. حرف w فى الفعل الثانى غير ملفوظ. – المترجم)

(21) لم تصبح إمبراطورة إلا فى 1745. عند موت والدها شارل السادس انتقلت الإمبراطورة إلى ابن عمها (من الفرع البافارى من العائلة) الذى أصبح شارل السابع، وبعد موته انتخب زوجها فرانسيس اللورينى – Francis of Lorraine للعرش الإمبراطورى.

(22) كانت رئاسة شارل دى بروسيس لبرلمان ديجو – Digon فحسب إلا أنه استطاع على نحو ما أن يحتفظ باللقب، وبصرف النظر عن ذلك فقد كان كاتبًا ممتعًا تحظى آراؤه بالاحترام.

(23) الاحتفال الذى يرافق إصدار الحكم بالموت من قبل محكمة التفتيش على المتهم بالهرطقة وكان يتبعه إحراق المهرطق. (المترجم)

(24) سوف يعاد توزيع بعض جزر الكاريبى مرة أخرى، بموجب معاهدة «سلام ڤرساى – Peace of Versailles" فى 1783.

الفصل العشرون

حصار جبل طارق

• القصف يبدأ: 1781 • تلك الآلات الجهنمية الحراقة: 1781 • مينوركا تستسلم: 1782 • «غير قابلة للاحتراق.. غير قابلة للغرق»: 1782 • هجوم الحامية: 1782 • التخلي عن البطاريات العائمة: 1782 • وصول أسطول الإغاثة: 1782

فى الرابع من يوليو 1776، كما يعرف العالم أجمع، أعلنت المستعمرات البريطانية فى أمريكا الشمالية استقلالها. فى خلال عامين فحسب، تطور الصراع الذى كان قد بدأ كنزاع على الشئون الكولونيالية البريطانية، إلى أزمة لن يكون العالم بعدها مثلما كان قبلها. فى مارس 1778، دخلت فرنسا ساحة الصراع إلى جانب أمريكا، كان لويس السادس عشر – الذى كان قد خلف والده قبل أربع سنوات – يفعل كل ما فى وسعه لإقناع شارل الثالث ملك إسبانيا بأن يحذو حذوه. كان شارل متشككًا من البداية. كانت مشاركته فى اللحظة الأخيرة فى حرب السبع السنوات كارثية، بعد ذلك ستكون الحملة ضد القراصنة الجزائريين فى 1774 عارًا أكثر منها كارثة. كان إذن يتطلع لبعض الانتصارات العسكرية. أضف إلى ذلك أنه كان يمتلك مستعمرات شاسعة فى العالم الجديد – هل كان فعلًا يريد أن يشجع على الثورة بينها؟ فى النهاية كان غاضبًا من لويس. بحسب شروط «العهد العائلى – The Family Compact"، كان ينبغى أن يتشاور معه الملك الفرنسى قبل تحالفه الأمريكى، والآن كان يطلب من إسبانيا أن تنضم إليه باسم ذلك الحلف نفسه.

من هنا، عرض شارل خدماته كوسيط بين الطرفين. اقترح أن تعلق بريطانيا أعمالها العدائية لمدة عام، وأن تعامل المستعمرات الأمريكية أثناء تلك الفترة كأنها مستقلة، وأن يكون هناك مؤتمر سلام فى مدريد يشارك فيه الأمريكيون، على قدم وساق، مع ممثلى بريطانيا. يمكن أن نقول: إن جبل طارق سيكون هو ثمن هذه الوساطة.

رفضت الحكومة البريطانية ذلك من البداية، ولم يكن فى رفضها مفاجأة كبيرة، وأعلنت أن اقتراحه كان "نابعًا من كل المبادئ التى تم إسقاطها ويحتوى على كل الشروط المرفوضة". فى مواجهة ذلك، أعلن شارل الحرب فى يونيو 1779. لم يكن مستقبل مستعمرات بريطانيا فى أمريكا يعنيه على الإطلاق، ولكن جبل طارق ومينوركا كانا يستحقان الفوز بهما، وكان السؤال هو: كيف؟ درس أكثر من تسعة وستين اقتراحًا منفصلًا على الأقل. كان أحد الاقتراحات الأولى – وربما أحد أفضلها – هو غزو إنجلترا. كان بإمكانه أن يقوم هو والفرنسيون بحشد أسطول ضخم يكفى لقهر البحرية الملكية فى القناة، وجيش يمكنه إلحاق الهزيمة بالقوات البريطانية القليلة نسبيًا، التى لم تكن تحارب فى أمريكا. إلا أن الفكرة لم ترق له تمامًا: كان شارل يفضل القيام بعمل أكثر مباشرة. قرر أن يحاصر جبل طارق.

بدأ الحصار فى الحادى عشر من يوليو 1779، عندما أطلق القائد الإسپانى "مارتن ألڤاريز دى ستومايور – Martine Alvarez de Stomayor"، الذى كان قد وصل حديثًا، طلقة واحدة من قلعة "سانت باربرا – Fort St Barbara" عبر الحدود، وقام الچنرال البريطانى "سير وليم جرين – Sir William Greene" بالرد. كانت تلك هى المرة الأولى التى تُطْلَقُ فيها مدافعه – غاضبة – على مدى نصف القرن، واستمر وابل النيران نحو أربع وعشرين ساعة. على مدى الشهرين التاليين كان القائمون بالحصار يحصنون مواقعهم ويبنون المزيد من مرابض النيران ويستعدون لفصل الشتاء القادم، بينما كانت القوات تتجمع ليصل عددها فى آخر أكتوبر إلى أكثر من أربعة عشر ألف ضابط وجندى. فى المقابل، كانت الحامية البريطانية نحو أربعة آلاف ضابط وجندى، بالإضافة إلى ألف وثلاثمائة من أبناء هانوڤر، وكان الحاكم الچنرال "چورچ أوجستوس إليوت – George Augustus Eliott"، يضع فى حسبانه كذلك نحو ألف وخمسمائة من زوجات وأبناء الجنود، ونحو ألفين آخرين من الأهالى. كان يرى أن الطعام سيكون مشكلة كبيرة. وحيث إن الحصار الإسپانى لم يكن كليًّا بعد، كان يشجع كل من يستطيع مغادرة الصخرة على أن يفعل ذلك بأقصى سرعة. وافق عدد من اليهود ومن الچنويين على ذلك واستقلوا عددًا من السفن والقوارب الصغيرة، قاصدين البرتغال أو "الساحل المغربى – The Barbary Coast"، واضطر الباقون إلى انتظار وصول قافلة من بريطانيا – إن أمكن.

من البداية، قدم "جرين – Greene" نموذجًا لرجاله، فلتوفير الطعام، ولكى يزيد الاحتياطى المخزون منه، أمر بقتل أحد خيوله، ولكى يقدر الحد الأدنى من الاحتياجات الغذائية، عاش لمدة أسبوع على أربع أوقيات من الأرز يوميًّا. لم يكن يسمح بأى عمل أو سلوك أحمق: سجل أحد ضباطه، الكابتن "چون سپلزبرى – John Spilsbury"، فى يومياته:

> **3 أكتوبر. يبدو أنهم سمعوا رجلًا فى الثامنة والخمسين يقول: اللعنة على من لا ينضم إلى الإسپان إن هم جاءوا؛ قال الحاكم: إن ذلك الرجل كان لا بد أن يكون مجنونًا، وأمر بحلق شعر رأسه وجلده وفصده وإيداعه السجن الحربى ليعيش على الخبز والماء، وأن يرتدى صدرية ضيقة، وأن يصلى من أجله فى الكنيسة.**

وأخيرًا، جاءت أخبار طيبة فى السادس عشر من يناير 1780. قام أسطول من واحد وعشرين سفينة[1]، بقيادة الأدميرال «سير چورچ رودنى – Sir George Rodney" بالهجوم على أسطول من عشر سفن إسپانية بالقرب من "كيپ سان ڤانسا – Cape

"St Vincent"، ودمر اثنتين منها وأسر أربعًا، وأجبر الأخريات على الفرار، وفى اشتباك منفصل، كان قد أسر خمسة عشر سفينة تجارية. تم كسر الحصار وإنزال المؤن والإمدادات مع نحو ألف من سكان الجبال، كما تم إنقاذ زوجات وأطفال معظم الجنود ونقلهم إلى أماكن آمنة. كان هناك سبب واحد فحسب للضيق. لم تأت حملة الإغاثة معها بأى نبيذ أو روم. ومثلما أشار الحاكم:

> **ربما يشعر الجندى بالحاجة إلى شراب كحولى قوى، أكثر من شعوره بتخفيض جزء صغير من تموينه، وربما يؤثر ذلك على صحته أكثر من تغيير عادة لازمته.**

فى الوقت نفسه، لم يكن الحصار قد انتهى، وفى أوائل الربيع، انتشر وباء الجدرى فى الصخرة على نحو شديد الخطورة، كان الحصار الإسپانى يزداد إحكامًا مع تناقص شديد فى مخزون المؤن. فى الوقت نفسه، كان الإسپان هادئين، بينما كان على المدافعين أن يعانوا خطرًا كبيرًا آخر على معنوياتهم: السأم.

بدأ العام الجديد (1781) بداية سيئة. فى الحادى عشر من يناير، شوهدت جاليتان من سفن المسلمين قادمتين تحت علم الهدنة. كانتا تقلان قنصل طنجة – Tangier وزوجته ونحو مائة وثلاثين من الرعايا البريطانيين، كانوا كلهم مطرودين من مراكش بعد أن كان سلطانها قد أجَّر طنجة وتطوان لإسپانيا. كان ذلك يعنى عدم توقع وصول المزيد من التموين من المغرب، وأنه كان على إليوت أن يدبر طعامًا لمائة وثلاثين فمًا أخرى. إلا أنه ظل مستمرًا فى مقاومته، إلى أن جاء الأدميرال "چورچ داربى – George Darby" بأسطوله إلى خليج "ألچيسيارز – Algeciars"، فجر الثانى عشر من أبريل. فى البداية كان الضباب قد حجبه عن الأنظار، ولكن شاهد عيان آخر، هو الكابتن "چون درنكووتر – John Drinkwater" كتب:

> **عندما اشتدت الشمس، بدأ الضباب يرتفع تدريجيًا مثل ستارة مسرح كبير؛ ليكشف لحامية القلعة عن واحد من أكثر المشاهد جمالاً ومدعاة للفرح التى يمكن تصورها، كانت القافلة المكونة من نحو مائة سفينة تبدو مثل كتلة متراصة تقودها عدة سفن حربية، أشرعتها جاهزة للتوجيه، بينما كانت هناك أوامر لسفن تشكيل القتال على ساحل باربرا بألا تدخل الميناء حتى لا تتحرش بها حراقات[2] العدو، كانت فرحة الأهالى لرؤية هذا المنظر البهيج لا توصف، أما تعبيرهم عن سعادتهم فقد فاق كل مشاعر البهجة السابقة.**

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة إلا الربع عندما رست أول سفينة، وفى التو واللحظة فتحت المرابض الإسپانية النار. على الفور، انقلب الفرح إلى دهشة... والدهشة

إلى ذعر. كان خطر القصف المدفعى قائمًا منذ بدء الحصار، ولكن على مدى ثمانية عشر شهرًا لم يكن هناك سوى طلقات متقطعة، وكان الناس قد نسوا الخطر. الآن، كان الخطر فوقهم فجأة، وابل من الطلقات والقذائف ينشر الخراب والدمار فى أرجاء المدينة الصغيرة. هدأ القصف قليلا بعد الظهر ثم توقف تمامًا – حتى ومصير جبل طارق على كف عفريت، لم يكن الإسبان ليتخلوا عن قيلولة بعد الظهر – وفى الخامسة استؤنف القصف ليستمر طوال الليل.

انبلج الصباح التالى عن مدينة تحولت إلى أطلال، كما كشفت جدران المنازل المنهارة عن مخازن للتجار، وكان معظمها مكدسًا بمواد تموينية من كل نوع، كانت مخبأة لكى تباع بأسعار باهظة. كان لا بد من انتشار أعمال السلب والنهب وبخاصة من مخازن تجار المشروبات الكحولية. صباح الأحد، الخامس عشر من أبريل أشار الكابتن سپلزبرى ممتعضًا: «لم يسبق أن رأى أحد مثل مشاهد السكر والعربدة والدمار تلك»؛ وفى محاولة لاستعادة النظام قام مجموعة من الضباط المسلحين بالبُلط بجولة على مخازن التموين، وراحوا يهشمون البراميل إلى أن تحولت الشوارع إلى أنهار من النبيذ والبراندى.

أثناء ذلك كله، كانت عمليات تفريغ حمولات السفن مستمرة بمعدل عشرة سفن فى اليوم. كان لدى الأدميرال داربى أوامر بأن يبحر مع أول رياح مؤاتية، ولم يكن لدى القائمين بالتموين رغبة فى البقاء، ولكن سرعان ما اكتشف أن الحكومة البريطانية كانت قد غفلت عن إرسال سلعة بالغة الأهمية وهى البارود. لم يكن أمام إليوت سوى أن يطلب أكبر كمية منه من الأدميرال داربى، الذى كان سعيدًا بأن يستجيب لذلك بتقديم 2280 برميلًا منها، وكتب يقول: إن الدفاع النبيل الذى تستعد للقيام به، هو ما جعلنى أقدم أقصى ما أستطيع من هذه المساعدة، وإنه ليسعدنى حقًا أن أبذل كل ما فى وسعى لخدمة الحامية، التى تتطلع إليها كل أنظار العالم».

فى العشرين من أبريل، كان الأدميرال مستعدًا للإبحار، وبينما كانت كل سفن الرحلة المتجهة إلى الخارج محملة حتى حوافها بالمؤن التموينية، كانت حمولتها وهى عائدة بشرية فى معظمها: معظم زوجات وأبناء الضباط وكل من كان قد بقى من اليهود وأبناء جنوة، الذين كان معظمهم قد دفع الكثير ليكونوا على متنها. ربما كان عددهم يصل إلى نصف عدد سكان الصخرة.

** ** **

7 مارس 1781

سيدى اللورد،

ينبغى ألا أخفى عنك حقيقة التسيب والفوضى المخزية للكتائب البريطانية المكونة لهذه الحامية منذ أن فتح العدو نيران بطارياته، باستثناء الاغتصاب والقتل لم تكن هناك جريمة أخرى لم ترتكب.. وبكل وقاحة. لقد بلغت الأمور درجة من السوء بحيث لم يكن هناك خفير فى موقعه لا يشارك أو يساعد فى سرقة كل ما هو مسؤول عن حمايته... حتى لو كانت مخازن الملك.

هذه الرسالة التى كتبها إليوت للورد أمهرست – Lord Amherst، قائد القوات البريطانية، توضح تمامًا كيف أن مدينة جبل طارق التى كانت قد دمرت إلى حد كبير، كانت الآن عرضة للنهب المنظم من قبل كان يفترض أنهم يدافعون عنها. اتخذ الحاكم إجراءات حازمة ضدهم: الصانعان الماهران، "صمويل ويتاكر – Samuel Whitaker" و"سيمون پراتس – Simon Pratts" شنقا يوم الثلاثين من مايو، "وليم رولز – William Rolls" (من الكتيبة 58)، جلد ألف جلدة علنًا فى ساحة العرض العسكرى. بصرف النظر عن العقوبات القانونية كان اللصوص ومن يقومون بالسلب والنهب مستمرين فى ذلك ويخاطرون بحياتهم أثناء القصف المتواصل. لم يكن كل ما حدث من أضرار نتيجة لقصف بطاريات الشواطئ، كان هناك أعداد كبيرة من الزوارق الحربية الإسپانية الصغيرة، كامنة بالقرب من الصخرة، تقوم بإطلاق نيرانها على أى جسم يتحرك. هذه الزوارق كانت شديدة الخطر ليلًا. تصف السيدة "كاترين أپتون – Catherine Upton" (زوجة أحد الضباط)، كيف أن "امرأة كانت فى خيمة مجاورة لخيمتى شطرتها قذيفة إلى نصفين بينما كانت تلبس جوربها" وتضيف "كانت نافثات اللهب تلك تستطيع الهجوم على أى مكان تريد من الحامية. وسجلت فى يومياتها فى 23 مايو:

عند الواحدة صباحًا تقريبًا، بدأت الزوارق الحربية – همنا القديم – فى إطلاق نيرانها علينا. غطيت نفسى والأطفال ببطانية وركضنا للاحتماء بصخرة.. أصيبت السيدة تورال – Toural (الجميلة حسنة المظهر) بقذيفة حولتها إلى أشلاء. لم يجدوا منها سوى ذراع واحدة. لقى شقيقها الذى كان يجلس إلى جوارها والكاتب الذى يعمل معه المصير نفسه.

كانت الأخبار الطيبة هى أن القائمين بالحصار قد تخلوا عنه، لم يكن ناجحًا بدرجة كبيرة، وحيث إنه كان قد فشل فى توصيل المؤن والاحتياجات التى تكفى عامين، لم يكن هناك ما يدعو لاستمراره. عادت الاتصالات مع العالم الخارجى، وأصبح الطعام والشراب متوفرين... إلا أن الحصار استؤنف.

كانت حرارة الصيف كذلك، وهى أصعب ما واجه الكابتن سيلزبرى على مدى الاثنى عشر عامًا التى أمضاها فى جبل طارق، قد بدأت وطأتها تزداد على الجانبين. وبحلول آخر يوليو لم يكن الإسپان يطلقون سوى ثلاث دفعات من المدفعية كل يوم، وكان ذلك يتم بشكل منتظم لدرجة أن أفراد الحامية كانوا يشيرون إلى ذلك بـ «الآب والابن والروح القدس». (لعل انفجارًا كبيرًا كان قد حدث فى مخزن البارود لديهم فى التاسع من يناير، فكان المسؤول جزئيًّا عن ذلك). بدأ المحاصَرُون يضيقون ذرعًا بوضعهم كما زاد التوتر بينهم. فى الثانى والعشرين من يوليو دخل ضابط برتبة ماچور مع مساعد ضابط فى مبارزة بثلاثة مسدسات مع كليهما، ولحسن الحظ أخطأ كلاهما الرمى بالأسلحة الستة. بعد أيام قليلة كانت الحامية تراقب فى صمت أسطول غزو فرنسى – إسپانى متقدمًا فى اتجاه الشرق عبر المضيق قاصدًا مينوركا. لم يكن هناك شك فى أن يكون الچنرال «چيمس موراى – James Murray" حاكم الجزيرة، كان فى حاجة إلى كل ما يستطيع الحصول عليه من مساعدة.

مع مقدم الخريف تحسن الجو العام فى الصخرة ماديًّا ومعنويًّا، وفى أكتوبر، بالرغم من ذلك، كان المدافعون يرقبون الإسپان بقلق وهم يقومون ببناء حصنى مدفعية جديدين متوازيين على امتداد البرزخ. كانا قريبين من الحدود تحميهما ضفتان من الرمال المرتفعة التى لا يمكن للمدفعية البريطانية اختراقها.

وهكذا، فى الثالثة إلا الربع من صباح اليوم السابع والعشرين من نوفمبر، كان أكثر من ألفى جندى ومائة بحار – ثلث الحامية تقريبًا – تسبقهم مجموعة من رماة القنابل اليدوية من هانوڤر، يخرجون فى طابور، فى هدوء، من القلعة عبر المدينة المدمرة قاصدين البرزخ. كان من بينهم الحاكم الذى كان سيبلغ الخامسة والستين يوم عيد الميلاد. كان غيابه عن الحامية أمرًا لا يليق، إلا أنه لم يستطع أن يقاوم. كانت هناك بعض النيران المضادة ولكنها – ويا للغرابة – كانت قليلة. بعد طلقات رمزية قليلة، فر الإسپان، الذين أربكتهم المفاجأة، أمام الغزاة. تم تدمير المرابض الإسپانية واحدًا تلو الآخر واشتعلت النيران فى مخازن البارود. بحلول الساعة الخامسة، كان كل شىء قد انتهى، وعادت القوة بثمانية عشر أسيرًا إلى الصخرة. نجحت العملية تمامًا. ربما كان تأثير ذلك فى معنويات أفراد الحامية على نفس الدرجة من الأهمية. توقفت أعمال السرقة والنهب، وكأن ذلك تم بفعل السحر. كانت كل الخسائر خمسة قتلى، وخمسة وعشرين جريحًا، وقيل: إن أحد سكان الجبل فقد تنورته.

** ** **

بينما كانت جبل طارق صامدة، كانت مينوركا تقاتل من أجل البقاء، فى أوائل أغسطس، كان ثمانية ألف جندى إسبانى قد نزلوا على الجزيرة. بقيادة "دوق دى كريو – Duc de Crillon"، الذى كان فى العقد السابع من العمر، وكان قد التحق بالجيش الإسبانى عندما دخلت إسبانيا حرب السبع سنوات. أمام قوة كتلك، لم يكن أمام رجال الحاكم موراى (27000 جندى)، ومعظمهم مرضى، سوى الانسحاب إلى قلعة سان فيليپ؛ حيث بعث كريو برسالة إلى الحاكم يسأله فيها صراحة عن الثمن الذى يريده مقابل استسلام فورى. رفض موراى العرض ناقمًا، وبدأ الحصار.

بالرغم من وصول أربعة آلاف جندى فرنسى فى سبتمبر لتدعيم صفوف الإسپان، كان تقدم كريو محدودًا. فى نهاية العام، على أية حال، ظهر الأسقربوط[3] فى القلعة، وفى غضون أسابيع قليلة كان قد نشر الهلاك فى صفوف البريطانيين. لم يكن هناك مكان لنمو الخضراوات أو الفاكهة، لم تكن هناك موانئ صديقة قريبة يمكن أن تأتى منها هذه المواد بسبب الحصار الإسبانى. كان الأمل الوحيد هو وصول حملة إغاثة من إنجلترا... إلا أن ذلك لم يحدث. فى غضون شهر، كان لا بد من حمل كثير من الرجال إلى مواقعهم، وفى مناداة على الأسماء لتفقد الغائبين يوم الأول من فبراير 1782، لم يرد سوى سبعمائة وستين فردًا من بين ألفين وسبعمائة، وبعد ثلاثة أيام كان هناك مائة منهم فى المستشفى. فى الخامس من فبراير، وبعد مقاومة بطولية استمرت خمسة أشهر ونصف الشهر، استسلم موراى. عادت مينوركا إسبانية.[4]

لم تصل الأخبار إلى جبل طارق حتى الأول من مارس، عندما ظهر ضابط إسبانى تحت علم هدنة، حاملًا تقريرًا مفصلًا. تم استقباله برباطة جأش؛ حيث كان متوقعًا منذ وقت طويل، ولم يكن لذلك تأثير على الروح المعنوية. كان الشتاء قاسيًا جدًا، وكانت الصخرة – كذلك – قد شهدت تفشيًا كبيرًا لمرض الأسقربوط، وبحلول العشرين من ديسمبر، كان أكثر من ستمائة شخص قد نقلوا إلى المستشفى – إلا أنه فى وقت باكر من فبراير، كانت ثلاث سفن قد وصلت من البرتغال محملة بالبرتقال والليمون، وكان التأثير المفيد لذلك قويًا. كان الطقس كذلك يتحسن تدريجيًا، وفى وقت باكر من مارس وصلت السفينة الملكية «ڤيرنون – Vernon" مع فرقاطتين وأربع سفن نقل حاملة إمدادات عسكرية، من بينها عشرة زوارق مدفعية وكتيبة جديدة كاملة. بفضل هذا الدعم، كانت الجزيرة تستطيع مواجهة العام القادم بثقة وأمل.

ما لم يكن أفراد الحامية يدركونه هو أن العالم الخارجى كان قد تغير بينما كانوا يدافعون عن صخرتهم. كانت الحرب الأهلية الأمريكية قد انتهت، وكانت أوروبا – مثل

أمريكا – تريد السلام. وحدها إسپانيا كانت هى الرافضة. كان شارل الثالث قد دخل الحرب لسبب واحد فقط: استعادة مينوركا وجبل طارق. الآن كانت مينوركا معه، أما جبل طارق فكانت تبدو بعيدة كما كانت دائمًا، بالرغم من قربها المكانى الواضح من مملكته. فى فرنسا، كان لويس السادس عشر وحكومته لا يكترثون كثيرًا بجبل طارق؛ من جانب آخر، وبموجب اتفاقية "آرانچيز – Aranjuez" السرية، التى لم يكونوا حذرين بما يكفى عند توقيعها فى 1779، كان عليهم أن يواصلوا القتال إلى أن استعادتها إسپانيا. كانوا مستعدين، على مضض كبير إذن، أن يجعلوها ترى كيف ينبغى أن يكون التصرف.

فى الأول من أبريل 1782، وصل شخص غامض اسمه "شيكاردو – Chicar-do" من البرتغال على متن سفينة صغيرة، برواية تقول: إن الإسپان كانوا قد استولوا على 12 سفينة فى "كاديز – Cadiz" (قادش)، وأنهم كانوا يقومون بتبطينها بالفلين وخيوط الحبال القديمة لاستخدامها ضد جبل طارق. بعد عشرة أيام جاءت تأكيدات أكثر: تلك السفن سيتم استخدامها كبطاريات مدفعية عائمة تحت قيادة مهندس عسكرى فرنسى شهير، ويوم التاسع من مايو ظهرت فى ميناء "الچيسيراز – Algeciras" سفن شراعية ضخمة فى حالة بالية، لدرجة أن أحد المراقبين وصفها قائلًا: "كان معظم الناس يعتقدون أنها أكثر ملاءمة لأن تكون خشبًا للوقود أكثر منها للهجوم على قلعة". فى ذلك الوقت، كان الميناء والمكلأ يمتلئان بسرعة؛ حيث كانت تصل كل يوم تقريبًا سفن إسپانية أخرى. تحول الربيع إلى صيف حارق، ولم يكن بوسع المدافعين أن يفعلوا شيئًا أكثر من الانتظار والمراقبة ومحاولة فهم ذلك النشاط المحموم الذى كان مستمرًّا على الخطوط الإسپانية. فى السابع عشر من يونيو، تملكهم الرعب عندما شاهدوا وصول أسطول من ستين ناقلة تحرسه ثلاث فرقاطات فرنسية، كانت تلك أول وحدة من جيش لويس، وكانت تقدر بما لا يقل عن خمسة آلاف جندى. ثم بعد خمسة أيام، ودون سابق إنذار، توقف القصف. بعد نحو عام من الرعد المتواصل، كان الصمت التام المفاجئ مثيرًا للأعصاب. لم يفهم أحد مغزاه إلا فيما بعد: كان إيذانًا بخلافة الدوق دى كريو، الذى خرج مفعمًا بالنشاط من انتصاره فى مينوركا إلى قيادة جيوش فرنسية مشتركة.

فى الرابع عشر من يوليو، تسلل أحد الجنود الإسپان الفارين (ربما كان هاربًا من العدالة) عبر الخطوط، وسلم نفسه لمركز الحراسة. كان لديه الكثير الذى يدلى به. كان يجرى تركيب أسطح للبطاريات العائمة، التى كان هناك عشرة منها الآن؛ لكى تكون جاهزة بنهاية أغسطس. كان الجيش الرابض أمام جبل طارق الآن مكونًا من سبع

وثلاثين كتيبة مشاة إسبانية، وثمان فرنسية، وسريتَىْ مدفعية إسبانية، وأربع فرنسية، وعدة سرايا من جنود الفرسان والخيالة: كان العدد الإجمالى نحو ثمانية وعشرين ألف جندى. أما الأخبار الطيبة، فكانت عن وجود تذمر كبير وحالات فرار من الخدمة بشكل يومى تقريبًا. بعد عشرة أيام، فى الخامس والعشرين من يوليو، وصلت سفينتان من "لجهورن – Leghorn" مع "السنيور ليونتى – Signor Leonetti"، أحد أبناء إخوة پاسكوال پاولى، برفقة ضابطين من كورسيكا وقس وثمانية وستين متطوعًا. جاء هؤلاء، كذلك، بأخبار طيبة عن انتصار الأدميرال رودنى على الفرنسيين فى جزر الهند الغربية فى "موقعة القديسين – Battle of Saints". فى ذلك المساء أمر الحاكم بإطلاق مدفعية تحية، على أن تطلق المدفعية الثقيلة نيرانها أولًا فى الساعة الواحدة، ثم تليها فى السادسة الوحدات المختلفة: يصحب ذلك "انطلاق صيحات بعد الانتهاء من إطلاق النار، تبدأ من اليمين وتستمر بالأسلوب نفسه الذى تم به إطلاق النار". لا بد أن يكون الفرنسيون والإسپان الذين كانوا يراقبون ما يجرى من مواقعهم أسفل الصخرة، الذين كانوا كلهم ثقة من أن الصخرة ستكون فى أيديهم بعد قليل، لا بد أن يكون أولئك الفرنسيون والإسپان قد أكدوا رأيهم القديم، وهو أن الإنجليز مجانين.

** ** **

تجرى فى إسپانيا استعدادات كبيرة على قدم وساق للهجوم على الحامية؛ حيث شاهدناهم فى ألچيسيراس يعملون بكل طاقتهم لتجهيز ما يطلقون عليه «سفن الفلين – Cork Ships". أجناب هذه السفن مبطنة بمكعبات من الخشب الأخضر والحديد الخردة؛ ليصبح سمك الجذب نحو ثمانية أقدام. سيكون السطح مضادًا للرصاص والقنابل، أو لعلهم يحاولون أن يجعلونا نصدق ذلك. هذه السفن جاهزة للاصطفاف على طول واجهة الحامية لكى تقوم بفتح ثغرات فى السور، عندما يتم إنزال القوات بواسطة قوارب، يتم بناؤها فى قرطاجنة لهذا الغرض. فى الوقت نفسه شاهدناهم يشحنون مدافع نحاسية من أشبيلية.

كان ذلك ما كتبه شخص ما (يدعى مستر آندرسون – Mr Anderson) من تاڤيرا (على الساحل الجنوبى للبرتغال أمام الحدود مع إسپانيا) فى الأول من يونيو 1782. كانت الهياكل الضخمة التى يصفها، من بنات أفكار مهندس فرنسى هو الفارس أو النبيل "چان كلود إليونور دوميشو دارسو – The Chevalier Jean- Claude Eléonor Le Michaud d'Arçon". يبدو أن دارسو كان قد نجح فى إقناع شارل الثالث وكل الحكومة الإسپانية بأن تلك السفن (البطاريات العائمة) ستجعل الحامية بلا حول ولا قوة وتضمن استسلامها السريع، وذلك لأنها غير قابلة للاحتراق وغير قابلة للغرق:

"incombustibles et insubmersibles". شخص واحد فحسب، كما نعرف الآن، هو الذى لم يكن مقتنعًا بذلك. لسوء الحظ، كان ذلك الشخص هو القائد المعين للجيش الفرنسى – الإسپانى، بطل مينوركا: الدوق دو كريو. يروى فى مذكراته عن مقابلتين عاصفتين فى مدريد فى شهر مايو، مع دارسو، ثم مع وزير الخارجية الإسپانى "الكوند دو فلوريدابلانكا – Conde de Floridablanca". فى المقابلة الثانية أوضح موقفه تمامًا وقدم استقالته الفورية، ولكن فلوريدابلانكا رفض أن يستمع لذلك، وأقنعه بأن يستمر باعتباره غير موافق رسميًا، وعلى أن يتم الإعلان عن ذلك فى حال فشل الخطة.

الحقيقة أن كريو ذهب إلى مدى أبعد من ذلك؛ إذ كتب آنذاك وهناك مذكرة أرسلها مع صديق على أن تفتح وتنشر لحظة وصول الأخبار إلى العاصمة بأن الهجوم قد بدأ:

> **بمغادرتى إلى جبل طارق، أعلن أننى أقبل الأمر تنفيذًا لأوامر الملك ليس إلا، لقد بذلت كل ما فى وسعى لكى أشرح لسموه أسباب اعتراضى على الخطة، وها أنا ذا أعلن أنه إذا تم الاستيلاء على المكان بواسطة البطاريات العائمة حاملة المدفعية، وهو ما أشك فيه كثيرًا، فإن كل المجد والفضل فى ذلك سيكون للمسيو دارسو، المهندس الفرنسى، وهكذا إذا فشلت البطاريات، فلا ينبغى لأحد أن ينحو باللائمة علىّ؛ حيث لا دخل لى بذلك.**

ترك الدوق ما لا يقل عن عشرين نسخة من الرسالة لكى توزع فى فرنسا وإسپانيا، وبكلمات مؤرخ معاصر للحصار[5]، «لم يحدث من قبل أو من بعد أن قام چنرال، يتقدم للهجوم، بتغطية نفسه بمثل هذا الحرص، أو الكشف عن عدم أمانته ونفاقه بقبول أمر لم يكن يثق به».

عندما وصل كريو إلى «سان روك – San Roque" – المدينة الإسپانية الصغيرة المواجهة للحدود وأقام مركز قيادته بالقرب منها، كانت القوة التى تحت إمرته قد زادت؛ لتصبح أكثر من اثنين وثلاثين ألف جندى، كما كانت، برغم الهاربين والمرضى، أضخم قوة يتم نشرها ضد قلعة واحدة فى ذلك الوقت. كان ضعفها الوحيد فى بنية قيادتها. لم يكن كريو ودارسو يخفيان كرههما المتبادل. لم يكونا متفقين سوى على بغضهما الشديد للأدميرال "دون بنڤنتورا دى مورينو – Don Buenventura de Morino"، الذى كان يصغرهما، وشديد الغرور بدرجة لا تحتمل. كان هو الذى قام بقيادة البحرية الإسپانية فى بورت ماهون، وكان الآن يتبجح بأن جبل طارق سوف تسقط فى يده فى أربع وعشرين ساعة بما أن أسطوله كان قد اتخذ مواقعه. كما يقال: إن كريو صرخ، فى لحظة ما، قائلًا: "أزمة.. تناقض.. نزاع.. غيرة"[6] وهو ما يبدو أنه كان وصفًا صائبًا.

فى الوقت نفسه، كان المدافعون - نحو سبعة آلاف فرد بالإضافة إلى أربعمائة كانوا فى المستشفى - ينتظرون: كانوا يتوقعون الهجوم الكبير الذى لن يتأخر كثيرًا، كما ينتظرون أسطول الإغاثة الموعود الذى كان مجيئه قد أصبح موضع شك. فى لندن كانت الحكومة مستمرة فى المراوغة. كانت إدارة «لورد نورث - Lord North“ قد سقطت فى شهر مارس بعد اثنى عشر عامًا كارثية، أما الحكومة الجديدة برئاسة ”لورد شلبيرن - Lord Shelburne“، فكانت مشلولة بسبب ترددها وعدم القدرة على الحسم. وكنتيجة لحث الملك المتكرر للتصرف على نحو فورى، كان رد شلبيرن الوحيد، الذى جاء فى أوائل أغسطس:

> **بالنسبة لإغاثة جبل طارق... فإن ذلك يتوقف كثيرًا على الظروف المحلية والبحرية للخليج، إلى غير ذلك من الأمور الأخرى التى لا أجرؤ على اتخاذ قرار بشأنها، وحيث إننى مدرك لكون رجال الحكومة ليسوا رجال بحرية، فإننا سنجد صعوبة كبيرة للقيام بذلك، ويبدو لى أن الكثير لا بد أن يعتمد على خبرة وقناعات الضابط القائد.**

هذا التردد المستمر، كان الأكثر مدعاة للدهشة فى كون حصار جبل طارق يشغل التصور العام لأوروبا الغربية. كان «خليج الچيسيرز - Bay of Algeciras“ بكامله يشكل مسرحًا واسعًا يمكن مراقبة المشهد عليه من مسافة آمنة، وكان المشاهدون فى ذلك الوقت يفدون من كل أرجاء فرنسا وإسپانيا لمشاهدة الدراما القادمة. كان من بين من جاؤوا أميران فرنسيان من سلالة ملكية، هما ”الكومت دارتوا - Comte d'Artois“ و”الكومت دى بوربون - Comte de Bourbon“، وكانا قد وصلا حديثًا إلى سان روك؛ وربما تكريمًا لهما، تم تحديد تاريخ الهجوم الكبير ليكون الخامس والعشرين من أغسطس الموافق ليوم القديس لويس - St Louis's Day. تسربت المعلومات لتنتشر فى الصخرة بطريقة أو بأخرى، وعند الفجر كانت الحامية مستعدة.. ولكن شيئًا لم يحدث. يبدو أن البطاريات العائمة لم تكن جاهزة بعد.

يوم الأحد، الثامن من سبتمبر قامت الحامية بالهجوم. على مدى الأشهر القليلة السابقة، كان الإسپان قد قاموا ببناء سور كبير عبر البرزخ عبارة عن نحو مليون ونصف المليون كيس رمل وبراميل خشبية مملوءة بالرمال، وكان العمل مستمرًا لإحضار المدافع والهاونات إلى المرابض الجديدة. لم يكن ذلك العمل قد انتهى، عندما خطرت للحاكم الچنرال ”روبرت بويد - Robert Boyd“ فكرة أن يطلق على السور دفعات متواصلة من الطلقات المتوهجة والقنابل الحارقة. كانت العملية صعبة من الناحية الفنية، ونادرًا ما كان يتم اللجوء لمثل ذلك فى الحرب البرية، رغم أنها كانت معروفة فى

العمليات البحرية. كانت قذائف المدافع توضع نحو ثلاث ساعات كاملة على مشواة هائلة لتسخينها إلى درجة الحرارة المطلوبة، كانت عملية تحميلها بعد ذلك تمثل صعوبة بالغة. من ناحية أخرى، كان تأثيرها رهيبًا؛ حيث كانت تشعل النار فى الخشب بمجرد أن تلمسه محدثة حروقًا شديدة بأى شخص يضعه حظه السيئ فى طريقها. بدأ القصف فورًا بعد منتصف الليل، واستمر الوابل دون توقف نحو تسع ساعات. تم إطلاق نحو خمسة آلاف وخمسمائة دفعة، بمعدل عشرة دفعات فى الدقيقة. كانت النار تسرى في الخطوط الإسبانية مثل فتيل يفجر كمية من البارود. لم تكن استجابة الإسبان الذين أُخِذُوا على حين غرة سريعة، ولم يكونوا مدركين فى البداية لشدة سخونة القذائف، وعندما أفاقوا من هول المفاجأة كانوا يقاتلون مثل النمور. كانوا ينزعون الأخشاب المشتعلة بأيديهم العارية بينما القذائف تنهمر كالمطر من حولهم. لم يكن الجنرال بويد، الذى كان يراقب المشهد من البطارية الكبيرة، ليستطيع أن يخفى إعجابه. كتب يقول: "لم أشهد فى حياتى أشجع من أولئك الرجال".

إلا أن الشجاعة الشخصية لم تستطع أن تحجب الكارثة... ولا العار، ولكى يحفظ ماء الوجه قدر استطاعته، أمر كريو برد فورى من نفس النوع: قصف متواصل من خمس بطاريات جديدة يبدأ عند الفجر التالى. وبالرغم من إطلاق دفعات كثيرة وكثيفة من النيران فى اليوم التاسع مثلما حدث فى اليوم الثامن – نحو 5403 دفعات – فإن القذائف كانت باردة، كما أن صخرة جبل طارق كانت شيئًا مختلفًا تمام الاختلاف عن البرزخ الرملى المنخفض. استمر القصف طوال اليوم التالى سواء من البطاريات الشاطئية أو من سفن الأدميرال مورينو، إلا أن الضرر لم يكن كبيرًا.

بعد ذلك، فى الثامنة من صباح اليوم الثانى عشر، أبلغت نقاط المراقبة عن رؤية أشرعة أسطول قادم من جهة الغرب وارتفعت المعنويات: هل جاءت الإغاثة من إنجلترا فى اللحظة الحرجة؟ لم يحدث. كانت أشرعة قوة حربية فرنسية إسبانية ضخمة، مكونة من سبعة وأربعين سفينة ترفع أعلام ما لا يقل عن عشرة أدميرالات. مع وصولها، وجد المدافعون عن الصخرة أنفسهم فى مواجهة جيش قوامه نحو أربعين ألف جندى ومائتى قطعة من المدفعية الثقيلة. حتى أسطول الإغاثة لن تكون له فائدة... وإن وصل؛ لأنه لن يتمكن من دخول الميناء. كان شعور معظم المدافعين الآن أقرب إلى اليأس.

لا بد أنهم كانوا سيصبحون أكثر ارتياحًا لو كان لديهم أدنى فكرة عن التشاحن والارتباك المتزايد فى معسكر العدو. كان كريو يحث على القيام بهجوم فورى، كان شرفه على المحك؛ الخريف يقترب والتأجيل استمر طويلًا. كان دارسو يتحجج بأن

بطارياته العائمة لم تكن جاهزة بعد. لم تكن قد وضعت أى علامات، لإرشادها إلى مواقعها، لم يكن قد تم أى سبر للأغوار أو رصد عن المياه الضحلة المحتملة أو الشواطئ الرملية، لم يكن قد تم تثبيت أى مراسٍ، تمكن من تحويل خط سير السفن عند الضرورة. واجدًا نفسه محصورًا بين الرجلين، كان مورينو يشعر بالإحباط وبالتجاهل والإهمال. إلا أن كريو هو الذى فاز. قبل السابعة بقليل من صباح الثالث عشر من سبتمبر، تحركت الثلاث الأولى من البطاريات العشرة العائمة من مواقعها المخصصة لها بطول الشاطئ الغربى، رفع مورينو علمه على "الپاستورا – Pastora" ذات الأربعة والعشرين مدفعًا. دارسو، الغاضب لأنه كان يعرف أنها كانت كلها متجهة نحو شاطئ رملى، كان مضطرًا لأن يستقل "تاللا پيدرا – Talla Piedra"، الثانية من حيث الحجم وذات الثلاثة والعشرين مدفعًا، والتى كان يقودها "دون چوان مندوزا – Don Juan Mendoza" أمير "ناسو – Nassau". القادة السبعة الآخرون سوف يتبعوهما فيما بعد، سواء أكانت سفنهم جاهزة أو لا. بعد ثلاث ساعات كانت السفن العشر قد اصطفت، ومدافعها الجانبية تنطلق فى وقت واحد من على بعد نحو ثلاثمائة ياردة من الشاطئ؛ لتغطى بنيرانها مسافة المائة ياردة بين حاجز الأمواج القديم فى الشمال والحصن الجنوبى، وبدأت المعركة.

فى وقت متأخر من تلك الليلة، كتب "صمويل آنسل – Samuel Ancell" (أحد ضباط الإمداد والتموين) إلى أخيه:

> **أجلس وأنا فى غاية التعب والإرهاق لكى أبلغك بأن المعركة معركتنا، وأننا أضرمنا النار بسفن الأعداء، عندما جاءت اليوم فى التاسعة صباحًا كانت تتقدم متتابعة إلى مواقعها، ثم بدأت فى إطلاق النار بقوة أثناء رسوها، وفى الوقت نفسه كنا نحن كذلك نطلق النار عليها، إلا أننا، مندهشين، كنا نراها ترتد من أجناب السفن وأسطحها. حتى تلك القذائف من عيار العشر البوصات كانت عاجزة عن اختراقها. بالرغم من ذلك لم تفتر عزيمتنا، وبرغم سقوط قتلى كثيرين من جانبنا، كنا نقوم بإشعال أفراننا بسرعة لنضع فيها عبوات من ذات الاثنتين والعشرين رطلًا لتحميصها. لو تيسر لك النظر إلى الصخرة ورأيت من يعملون معنا لما استطعت أن تمنع نفسك من الابتسام، كان البعض يعمل مثل الأحباش لتشغيل المدافع، لونهم أسود، يحكون وجوههم بأيديهم الملوثة بالبارود – كان أبناء إله النار ينفخون ويعرقون، بينما يقوم آخرون بنقل القذائف الملتهبة على أداة حديدية صنعت خصيصى لهذا الغرض، ولما لم يوفر ذلك إمدادًا كافيًا للبطاريات، أحضرنا عربات صغيرة ذات عجلات مليئة بالرمل، كنا نضع فى كل منها ست قذائف. كنا نرد على النار بالنار دون توقف، وهم**

كذلك، ولكن الإطلاق المتواصل لقذائفنا الملتهبة كان قويًا ليقضى على كل ما كان العدو قد احترس ضده عند بناء تلك البطاريات العائمة؛ حيث إن القذائف التى كانت ترتطم بالأجناب نجحت مع الوقت فى أن تجعل النار تمسك بها. رأينا ذلك يتكرر طوال اليوم، رغم أن العدو كان يحاول باستمرار أن يتفادى ذلك، وفى النهاية كانوا عاجزين عن تشغيل مدافعهم. عند آخر ضوء، لاحظنا أن واحدة من أكبر البطاريات كانت مشتعلة فى عدة أماكن.. ثم أخرى مثلها. أعطى ذلك قواتنا المزيد من الشجاعة، وضاعفوا النيران على السفن الثماني الأخرى.

14 سبتمبر. الواحدة صباحًا.

توقفت البطاريات العائمة عن إطلاق النار، دمرت النيران إحداها.. أطلق العاملون عليها الصواريخ طلبًا للنجدة...

وصل الآن تقرير يفيد أن الأمواج قد حملت إلى الشاطئ ضابطًا وأحد عشر جنديًا متعلقين بقطعة من الخشب، كانت جزءًا من قلعة عائمة غرقت نتيجة قذائف الحامية، كانت متجهة لمساعدة البطاريات.

ماذا حدث؟ أولًا، وكما رأينا: لم يكن هناك قيادة حازمة. كان هناك ثلاثة أشخاص يتنازعون، يأنف كل منهم أن يعمل تحت إمرة سواه. ثانيًا، وذلك نتيجة للسبب الأول: كان الأسطول المشترك قد تخلى عن البطاريات العائمة. لم يكن المفروض أن تعمل منفردة، كانت الخطة الأصلية تقضى بأن يتخذ ثلاثون قارب هاون مواقعهم بينها وعلى أجنابها، وتقوم بإطلاق نيران متواصلة ضد بطاريات الشواطئ. لو أنها فعلت ذلك، فلربما كان مسار المعركة كلها قد تغير. لم يكن هناك أثر لتلك القوارب. لأسباب تخصه، رفض الأدميرال «دون لويس دو كوردوبا – Don Luis de Cordoba» أن يتحرك. ثالثًا: كان شيڤالييه دارسو قد بالغ كثيرًا فى تقدير قوة اختراعه. ربما كانت تلك السفن (البطاريات) غير قابلة للغرق، إلا أنها لم تكن غير قابلة للاحتراق. كانت سماكة دفاعاتها تعنى أن قذيفة مدفع متوهجة يمكن أن تخترق السطح لتستقر وتبقى غير مكتشفة دون خروج لهب منها، وفى النهاية تشعل الخشب حولها.

ما الذى كان ينبغى عمله آنذاك إذن؟ بالنسبة للإسپان كان اليوم بمثابة كارثة، وفى المساء كان هناك ذعر فى مركز قيادة كريو. كان القلق الأول بخصوص البطاريات العائمة، التى كان ما زال هناك نحو خمسة آلاف مقاتل على متنها. فى اثنتين منها – بما فى ذلك تاللا پيدرا الأسوأ إصابة – كانت هناك نيران حرائق كبيرة، إلا أن البارود كان قد أصبح رطبًا وكان انفجارها مستبعدًا. فى الوقت نفسه، كانت أشرعتها وعدة

صواريها قد طارت بفعل القصف وأصبحت عاجزة عن الحركة. كان يمكن إنقاذها لو قطروها إلى مكان آمن، ولكن كيف؟ وهل كان كريو يريد ذلك على أية حال؟ كان يكره تلك الاختراعات دائمًا، وطوال بقائها دون غرق ودون احتراق، كان دارسو يجدها فرصة لادعاء قدر من النجاح ينسبه لنفسه. كان هناك كذلك احتمال أن يستولى عليها البريطانيون كغنيمة. كان من الأفضل تدميرها – ولكن بعد إخلائها أولًا. فى العاشرة والنصف تقريبًا من تلك الليلة، انطلق الچنرال ومعه أمير ناسو (وكان الأخير قد ترك تيللا پيدرا فورًا بعد اشتعالها) ليطلب من كوردوبا أن يرسل فرقاطة لنقل الأطقم. ولكن الچنرال العجوز رفض تمامًا، فهو لن يعرض سفنه لنيران العدو من أجل هدف كذلك. زوارقه الصغيرة فحسب، هى التى ستكون جاهزة للقيام بهذا العمل.

وصلت الزوارق الأولى إلى الهياكل العشرة الضخمة فى منتصف الليل تقريبًا، حاملة أوامر لكل من قادة البطاريات العشر بإحراق سفينته قبل تركها. كانت هناك فوضى عارمة. كان الرجال المرهقون الذين صمدوا وقاتلوا بشجاعة تحت القصف الشديد لمدة 12 ساعة، يحاولون الهرب الآن وهم فى حالة من الرعب الشديد. بعض الزوارق كانت تحمل أعدادًا أكثر من طاقتها فغرقت، زوارق أخرى دمرتها بطاريات الشواطئ قبل أن تبدأ عملها، ثم سرعان ما اتضح أن ما بقى من الزوارق كان فى حالة يرثى لها ولا بد من أن يقوم بأكثر من رحلة إلى الشاطئ؛ إلا أن القادة كانوا قد نفذوا الأوامر وكانت البطاريات العشرة تشتعل بالفعل. كان على متن كل منها بعض من لم يستطيعوا المغادرة، ولم يكن أمامهم سوى أن يقفزوا منها... كان الغرق أفضل من الاحتراق.

عند فجر السبت، الرابع عشر من سبتمبر، كان السيد آنسل Mr. Ancell يكمل رسالته:

> **يبدو الخليج من هنا مشهدًا للرعب.. قطعة من الجحيم.. العدو يتفجع على وضعه المهلك بينما زوارقنا الحربية مشغولة بمحاولة إنقاذ الضحايا التعساء من النار والموت المحدق بهم، وذلك برغم استمرار بطاريات العدو الأرضية فى إطلاق مدفعيتها على ملاحينا لمنع تقديم المساعدة. وبالرغم من الأخطار الشديدة، فإن زوارقنا كانت تقترب من أجناب البطاريات العائمة لإنقاذ من عليها وسط اللهب المندفع من الفتحات الجانبية. سيظل ازدراء الملاحين البريطانيين لنيران العدو الكثيفة شرفًا لإنجلترا العجوز.**
>
> **الساعة السابعة:**
>
> **سفن العدو تتفجر واحدة تلو الأخرى وهى نصف ممتلئة بالرجال تقريبًا، زوارقنا صمدت أطول فترة ممكنة، وهى الآن عائدة بعدد من الأسرى.**

الساعة العاشرة:

لم تنفجر البطاريات العائمة كلها – احترقت إحداها حتى مستوى سطح البحر، وكان الطاقم قد ألقى بالبارود من عليها. تواصل بطاريات العدو الأرضية قصف الحامية بينما تبدو الفوضى ومظاهر الارتباك على الشاطئ المقابل. النبلاء الذين كانوا قد تجمعوا لمشاهدة الاستيلاء على المكان، ينسحبون الآن من المعسكر الإسبانى لنقل الأخبار المشؤومة إلى بلاط فيليب... لا بد أن يكون من دواعى الغيظ الشديد لأعدائنا أن يروا علمهم الملكى وهو معروض على سفينتنا South Parade مربوطًا فى مدفع فى وضع معكوس...

فشل الهجوم الكبير، ولكن الصخرة كانت ما تزال فى خطر. كان الأسطول المشترك فى الخليج وجيوش فرنسا وإسبانيا ما تزال فى معسكراتها فى البرزخ؛ حيث استؤنف القصف.. وكأن شيئًا لم يكن. كان هناك الآن درجة من الأخذ والرد بين الجانبين تحت رايات الهدنة، وفى السادس من أكتوبر كان هناك تبادل للأسرى؛ وكان عن طريق أحد أولئك الأسرى أن عرف المدافعون أن أسطول الإغاثة بقيادة الأدميرال «لورد هاو – Admiral Lord Howe" كان فى الطريق أخيرًا.

لقى هاو صعوبة شديدة فى أن يصل بسفنه إلى جبل طارق، كانت العواصف الاستوائية، على أشدها، تدفع الأسطول بقوة فى البحر الأبيض والعدو يطارده، إلا أنه أمكن تجنب الدخول فى معركة، وأخيرًا وصلت كل السفن البريطانية سالمة إلى الميناء. من تلك اللحظة، بدأت القوات الفرنسية والإسبانية تختفى تدريجيًا. استمر إطلاق النار المتقطع ولكن دون حماسة. جبل طارق، كما كان الكل يعلم، لن يتم الاستيلاء عليها بالقوة، ولو حدث أن تم التخلى عنها لإسبانيا فلا بد من أن يكون ذلك بناء على اتفاق ودى... وليس عنوة.

بدأت المفاوضات التمهيدية فى العشرين من أكتوبر، كانت طويلة وشديدة التعقيد واستمرت حتى عيد الميلاد تقريبًا. فى المراحل الأولى بدت بريطانيا مستعدة للتخلى عن جبل طارق – ولكن بالثمن المناسب: كان من الطبيعى أن تتوقع عودة مينوركا وجزيرتى فلوريدا[7] وعدد كبير آخر من جزر الكاريبى كذلك. عند افتتاح البرلمان فى الخامس من ديسمبر، عرج تشارلز جيمس فوكس – Charles James Fox على الموضوع فى سياق رده على كلمة الملك؛ حيث أعلن: "كانت جبل طارق دائمًا مفيدة لهذا البلد لإلهاء جزء كبير من قوات أعدائنا، الذى كان يمكن أن يزعجنا كثيرًا لو أنه استخدم فى أماكن أخرى"، ويستمر التقرير البرلمانى:

إن قلعة جبل طارق كان لا بد من أن تعتبر من أهم ممتلكات هذا البلد، فهى التى حققت لنا الاحترام فى نظر الدول... تخلوا عن جبل طارق لإسپانيا، وسيصبح البحر الأبيض بالنسبة لهم بحيرة يبحرون فيها كما يشاؤون ويتصرفون فيها دون رقيب أو حسيب. احرموا أنفسكم من هذا الموقع، ولن تنظر إليكم دول أوروبا المطلة على المتوسط بعد ذلك للحفاظ على حرية الملاحة فيه، إذا فقدتم القدرة على الإفادة منها، فلا تتوقعوا أن يكون لكم حليف.

صفقوا له بحماسة. وبفضل كلماته، كان أن قررت الحكومة التمسك بالصخرة بأى ثمن. وبدلًا منها، عُرِضَت مينوركا وشرق وغرب فلوريدا على الإسپان وهو ما قبلوه بعد تردد. إلا أن الملك چورچ الثالث كان ما زال غير راض. فى نهاية المحادثات فى التاسع عشر من ديسمبر، كتب إلى «لورد جرانتام – Lord Grantham" وزير الخارجية: "كنت أفضل مينوركا وجزر فلوريدا وجودلوپ – Gaudeloupe على تلك القلعة الضخمة، التى أراها سببًا لقيام حرب أخرى، أو على الأقل عداء محتملًا باستمرار". كانت كلمات حكيمة؛ إذ إن عددًا قليلًا من الجزر الخصبة كان يمكن أن يكون أكثر فائدة من أكبر صخرة جرداء. ولكن... لم يكن البرلمان وحده هو الذى ظل عنيدًا فى موقفه، فليس من شك أن يكون الشعب البريطانى كذلك كان له نفس الموقف. كانوا قد فقدوا مستعمراتهم الأمريكية، ولم يكن لديهم أى نية للتخلى عن موضع القدم الوحيد لهم فى أوروبا؛ إذ إنه ليس رمزًا لتفوقهم البحرى فى المتوسط فحسب، وإنما كان رمزًا – فى السنوات الأربع السابقة – لقوة التحمل والجلد والشجاعة.

هوامش الفصل العشرين

(1) كان على إحدى هذه السفن (السفينة Prince George)، طالب البحرية "برايس وليم هنرى – Price William Henry"، الابن الثانى لـ "جورج الثالث" الذى سيكون الملك وليم الرابع فيما بعد.
(2) الحراقة – Fire-ship: سفينة مزودة بالمتفجرات تعمل وسط السفن المعادية لإضرام النار بها.
(3) الأسقربوط (أو الحفر) – Scurvy، داء من أعراضه تورم فى اللثة مصحوب بنزيف. (المترجم)
(4) هناك فى سان بطرسبورج كانت كاترينا – Catherine العظمى، - عملًا بنصيحة مستشارها وحبيبها الأمير بوتمكين – Potemkin – يقال: إنها اقترحت على جورج الثالث التنازل عن مينوركا لروسيا، مقابل خروج أسطول روسى لمساعدته على الفور: وهذا مجرد مثال – بين أمثلة كثيرة فى التاريخ – على سعى موسكو لكى يكون لها وجود فى البحر المتوسط.
(5) Jack Russell, Gibraltar Besieged الذى اعتمدنا عليه فى هذه القصة.
(6) "Crise, contradiction, fâcherie et jalousie"
(7) فلوريدا الشرقية وفلوريدا الغربية، وهما ممتدتان إلى ما وراء حدود الولاية الحالية، وتضمان كذلك أجزاء من ألاباما والمسيسبى ولويزيانا.

الفصل الحادى والعشرون

ناپوليون الصغير

• الثورة تنتشر: 1792 • طولون: 1793 • الحملة الإيطالية: 1796 • چنوت فى ڤينيسيا: 1797 • السلام فى ليوبن: 1797 • سقوط الـ «سيرينيسيما»: 1797 • ناپوليون فى مالطة: 1798 • الإسكندرية: 1798 • الفرنسيون فى مصر: 1798 • مارينجو: 1800.

نابوليون بوناپارت[1] كورسيكى المولد، وبذلك فهو من أبناء البحر الأبيض المتوسط. عندما ولد فى 1769 كانت كورسيكا قد أصبحت فرنسية قبل أشهر قليلة، وبصرف النظر عن لكنة محلية مميزة، كانت قد بقيت إيطالية اللغة والثقافة تمامًا، كان أبوه «كارلو ماريا- Carlo Maria" أحد ضباط پاسكوال پاولى المخلصين، ونشأ الطفل كورسيكيا وطنيًا متحمسًا، يكره الفرنسيين باعتبارهم مغتصبين لبلاده. بالمقاييس الكورسيكية، كانت الأسرة غنية وعلى مستوى راق من التعليم: كان لدى والده ميول أدبية قوية رغم أن ذلك لم يمنعه من اللجوء إلى التلال مع پاولى للمشاركة فى حرب عصابات طويلة ضد الفرنسيين، وكان بعد انتصارهم النهائى فقط أن قبل بما هو حتمى. لم يكن "آل بوناپارت The Bonapartes" من النبلاء - كانت طبقة النبلاء الكورسيكية شيئًا مختلفًا - ولكنهم كانوا ملاك أراض، لديهم ضياع زراعية متناثرة، واستطاع كارلو ماريا - على نحو ما - أن يتمكن من تأهيل ابنه وهو فى التاسعة، لتعليم ابتدائى مجانى فى مدرسة عسكرية فى "برين- Brienne"، كانت تدار بأسلوب الأديرة.

كان نابوليون محتقرًا من أقرانه الذين كانوا يعتبرونه من أصول كورسيكية متواضعة، وبسبب لكنته الفرنسية الثقيلة؛ ولذا لم يكن غريبًا أن يصبح نكد الطبع منطويًا على نفسه، وأن تنتابه أحيانًا نوبات من العنف. إلا أنه كان طالبًا متفوقًا يعمل بجد، كما حقق له نبوغه فى الرياضيات مكانًا فى "المدرسة العسكرية - Ecole Militaire" الوطنية[2] فى پاريس، فى أكتوبر 1784. حتى هنا، لم يكن يخفى وطنيته الكورسيكية، كان يضرب بقبضته أو بأى سلاح يقع فى يده كل من يسخر منه، إلا أنه كان يعمل بجد أكثر من أى وقت مضى. فى سبتمبر 1785، تخرج ضابطًا وكان ما زال فى السادسة عشرة. أرسل أولًا إلى مدرسة تدريب المدفعية فى «ڤالينس- Valence"، ثم إلى "أوكسون Auxonue" فى "بورجندى- Burgundy" فى 1788، وكان هنا أن سمع الأخبار التى كانت لتغير حياته. فى الرابع عشر من يوليو 1789 كان الباستيل قد سقط وكانت فرنسا فى حالة ثورة. بعد شهر، أعلنت كتيبته العصيان.

ولأنه كان بطبيعته كارهًا "للنظام القديم- ancien regime"، ألقى نابوليون بنفسه فى خضم القضية الثورية. فكر فى أن يذهب إلى پاريس مباشرة، إلا أنه على ضوء الفوضى العارمة فى العاصمة، فضل العودة مؤقتًا إلى وطنه؛ حيث كان واثقًا من قدرته على تشكيل الأحداث. كان أبوه قد مات فى 1784 وهو فى الثامنة والثلاثين فحسب،

وبعد أن عاد إلى كورسيكا، وبالرغم من وجود شقيقه الأكبر "جوزيف- Joseph"، جعل نابوليون من نفسه رب العائلة، مواصلًا اهتمامه بالأسلوب الكورسيكى بكل ما يستطيع من سبل. فى وقت قصير، كان نفوذه قد تجاوز حدود العائلة. كان أول من صاغ ووقع رسالة "للجمعية الوطنية-National Assembly" فى باريس يطلب اتخاذ إجراءات ضد "الملكيين [3]- Royalists" الذين كانوا ما زالوا مسؤولين عن الجزيرة، وهى رسالة يبدو أنها كانت - إلى حد كبير- سببًا فى قرار الجمعية الذى صدر بعد وقت قصير، يعلن كورسيكا جزءًا من الدولة الفرنسية. بقى هناك طوال العام 1790 فى الوقت الذى تم فيه انتخاب البلديات التى سادها الجمهوريون فى "أجاشيو- Ajaccio" وغيرها من المدن الرئيسية؛ وعندما تأسس "نادى أجاشيو اليعقوبى[4]- Aiaccio jacobian Club" فى يناير 1791، كان أحد الأعضاء المؤسسين. فى شهر أكتوبر، وبعد انتخابات غير نزيهة، أصبح قائدًا لميليشيا محلية مكونة من متطوعين. من أسف أنه اختلف هو وعائلته مع پاولى العائد، الذى بينما كان يناضل من أجل استقلال كورسيكا، كان هو حاكم الأمر الواقع للجزيرة تحت الفرنسيين، ولم يكن ليستطيع الصبر الآن على المغامرين الثوريين الذين كان يعتبر آل بوناپارت منهم.

كان پاولى محقًّا فى موقفه من نابوليون، ووصلت الأمور إلى ذروتها عندما اقترح الضابط الشاب المغرور أن تحل كتيبة الميليشيا التى يقودها محل الحامية الفرنسية فى قلعة أجاشيو. رفض پاولى الفكرة غاضبًا بشدة، بينما قام نابوليون - بمبادرة شخصية - بالهجوم على القلعة. استمر القتال ثلاثة أيام ومات فيه عدد كبير، ثم جاءت تعزيزات فرنسية فاضطر القائمون بالحصار إلى الانسحاب. أرسل پاولى تقريرًا إلى وزارة الحربية فى پاريس يفيد أن نابوليون كان قد تجاوز إجازته المحددة، وأنه إذا كان يريد الاستمرار فى عمله العسكرى، فلا بد أن يعود لتفسير ما حدث. فى آخر مايو 1792 عاد إلى پاريس.

كان استقباله فى الوزارة أكثر دفئًا مما كان يتوقع. كانت السلطات أكثر ميلًا إلى قبول الوثائق المزيفة المختلفة التى جاء بها من كورسيكا لتفسير غيابه الطويل، ولم يكن أمامهم سوى خيار واحد: فرنسا فى حالة حرب، وهى فى حاجة إلى كل فرد. منذ قيام الثورة، كان عدد كبير من الضباط الملكيين قد تركوا الجيش مستائين، وكانت قوة الجيش الآخذة فى الضعف- وبخاصة فى وحدات الخيالة والمدفعية - مدعاة لقلق كبير. من الستة والخمسين ضابطًا (بمستوى نابوليون) لم يكن قد بقى سوى ستة ضباط.

كان كذلك يعتبر فى حكم المفقود، ولكن إذا كان هذا الابن الضال قد عاد، فلم يكن لدى السلطات النية أن تفقده مرة أخرى. تناسوا حدث قلعة أجاشيو، وأعادوه للعمل، وتمت ترقيته إلى رتبة «كابتن- Captain".

قام بزيارة لـ "كورسيكا" مرة أخرى- لا يوجد أى تفسير لحصوله على تلك الكمية من الإجازات التى كانت تتجاوز الأشهر- ولكنها هذه المرة كانت بزعم مرافقة أخته "ماريانا- Marianna"، التى كانت عائدة من مدرسة الراهبات الملكية فى "سان كير- Saint-Cyr"، وكانت مجبرة على الإغلاق بسبب الظروف - أبحر من مرسيليا فى العاشر من أكتوبر. لم يكن هناك ترحيب من پاولى... وكان ذلك متوقعًا؛ إلا أن ناپوليون تجاهله تمامًا وعين نفسه برتبة مقدم فى كتيبة المتطوعين، وهى الرتبة التى كان عليه أن يتخلى عنها عند عودته إلى الجيش فى پاريس. بعد ذلك، انغمس بكل قوة فى حملة لانتخابات أخيه چوزيف نائبًا عن كورسيكا فى الجمعية الوطنية.

ولكنه كان يدرك أن كورسيكا كانت تتحول باضطراد إلى منطقة خلفية معزولة، لم تعد الثورة فرنسية محضة: كانت قد بدأت تصبح شأنًا أوروبيًا. فى أبريل 1792، وبالرغم من الحالة المزرية للأوضاع المالية وتدهور أحوال القوات المسلحة والفوضى السائدة فى أرجاء البلاد، أعلنت فرنسا الحرب على النمسا، وبعد شهرين على بروسيا وسردينيا. كان أحد أسباب هذه الأعمال العدوانية - ويا للتناقض - اقتصاديًا: كانت الوسيلة الوحيدة لكى تدبر الجيوش الفرنسية احتياجاتها من الطعام وغيره، هى الحصول على ذلك من البلاد التى تقوم بغزوها، وحتمًا كانت المثالية الثورية تلعب دورها بالرغم من ذلك: فكرة أن كل شعوب أوروبا سوف تثور على حكامها فى ظل صدمة الحرب، وأن روح الثورة سوف تنتشر فى العالم. لحسن الحظ لم يحدث ذلك، ولكن النجاح الأولى للجيوش الفرنسية فاق - بكل تأكيد - كل ما كان يمكن توقعه. فى سبتمبر تم صد جيش نمساوى بروسى غاز فى "ڤالمى- Valmy"، فى أكتوبر اجتاح جيش فرنسى "أراضى الراين- Rhinel Land"، وبعد شهر ألحق جيش آخر الهزيمة بالنمساويين فى "چيماپز- Jemappes" واحتل بروكسل وجزءًا من هولندا، بينما قام جيش رابع بضم ساڤوى. فى فبراير 1793 أعلنت الجمعية الوطنية الحرب على إنجلترا.. وبعد شهر على إسپانيا. فى الوقت نفسه تم إعدام الملك لويس السادس عشر على المقصلة فى ساحة الكونكورد، أمام حشد يهتف ويهلل، فى الواحد والعشرين من يناير.

** ** **

وسط كل هذه الدراما العالمية المثيرة، كان أول دور لـ «ناپوليون بوناپارت» تافهًا لدرجة مضحكة. كان پاسكوال پاولى قد تلقى تعليمات من پاريس بدعم غزو سردينيا، ولكنه كان يكره أن يقوم بشىء من هذا القبيل. كانت سردينيا جارة لكورسيكا وحليفًا طبيعيًا، وكان ملكها صديقًا دائمًا لأبناء كورسيكا وقضيتهم، كما كان سخيًّا معهم فى الماضى ويقدم لهم المؤن والمواد التموينية. إلا أن الأوامر كانت هى الأوامر، فأعطى موافقته على مضض لقيام كتيبة ميليشيا أجاشيو بحملة للاستيلاء على جزيرة «لا مادلينا- La Maddelena» الصغيرة المواجهة لكورسيكا من ناحية ساحل سردينيا الشمالى، وحمايتها، كما أسرَّ لابن أخيه قائد الحملة الكولونيل "كولونا سيزارى- Colonna-Cesari" بأنه سيكون من الجيد أن تكون العملية كلها شكلية ولا تسفر عن شىء.

فهم الكولونيل الإشارة. أبحرت الكتيبة - التى كانت سيئة التجهيز- فى العشرين من فبراير، وفى الرابع والعشرين كانت قد اتخذت مواقعها للاستيلاء على الجزيرة. كان الكابتن بوناپارت أحد ضباط تلك الكتيبة. كان منذ بداياته يتمتع باحترافية عالية- وكانت صفة نادرة بين أقرانه - وكان كله ثقة من أن لامادلينا ستكون فى أيديهم فى غضون ساعات قليلة؛ إلا أن سيزارى فسر تذمر عدد قليل من البحار على أنه بداية تمرد، وأمر بعودة الحملة فورًا إلى كورسيكا. اعترض ناپوليون بشدة ولكنه فشل فى أن يفرض رأيه. وفى امتهان أخير له، وأجبر على تعطيل اثنين من مدافعه مؤقتًا بوضع مسمارين كبيرين فى فوهتيهما وإعادتهما بالبحر، ثم وجه رسالة احتجاج غاضبة إلى پاولى وأرسل نسخًا منها إلى وزير الحربية فى پاريس وإلى النائبين الكورسيكين. فى ذلك الوقت نفسه تقريبًا، كان پاولى هدفًا لهجوم آخر، هذه المرة من "لوسيان بوناپارت- Lucien Bonaparte" شقيق ناپوليون، وذلك فى كلمة ألقاها فى النادى اليعقوبى فى طولون. أعلن لوسيان أن پاولى كان خائنًا لفرنسا، وأن هدفه الوحيد كان تسليم كورسيكا للبريطانيين. تركت كلماته تأثيرًا كبيرًا فى الجمعية الوطنية فى پاريس؛ الأمر الذى أدى إلى صدور أمر بالقبض على الچنرال فورًا وإرسال ثلاثة مفوضين للتحقيق فى الاتهامات المنسوبة إليه.

وجد المفوضون أن الجزيرة كانت معادية بشكل صحيح. كان پاولى إلى حد ما هو كورسيكا، وكان شعبه مستعدًّا للقتال من أجله ضد البوناپارتيين وضد الجمعية... وضد أى أحد. وما زاد الطين بلة أن لوسيان، بكل غباء، أرسل إلى أخيه رسالة كان من ضمن ما فيها: "لا بد من إلقاء القبض على پاولى وپوزو[5]- Pozzo. إن مصيرنا يتقرر". كانت شرطة پاولى قد اكتشفت هذه الرسالة قبل وصول المفوضين، ونتيجة لذلك كان

آل بونابارت قد أدينو بـ "اللعن والخزى الدائم"، وهى تهمة تعادل حكم الإعدام بحسب ميثاق الشرف الكورسيكى. كان البقاء على الجزيرة يعنى المخاطرة بأن يكون عرضة للقتل، هذا بالإضافة إلى أن باولى كان قد بدأ عصيانًا مسلحًا ضد الفرنسيين، وكانت الجزيرة على شفا حرب أهلية. للحظة، طرأ على ذهن نابوليون القيام بتمرد جمهورى مضاد لصالحه بهدف الاستيلاء على أجاشيو، وقلب الطاولة على أعدائه، إلا أن الوقت كان قد فات. كان من الواضح أنه لم يعد له مستقبل فى كورسيكا. بحلول منتصف يونيو، كان هو وكل عائلته فى الطريق إلى فرنسا.

التحق بعد عودته بالجيش مرة أخرى، وعندما وجد نفسه فى نيس فى مطلع سبتمبر اتصل بصديقه القديم، رفيقه الكورسيكى "چان كريستوف ساليسيتى - Jean Christophe Saliceti". كان ساليسيتى أحد اثنين هما "ممثلا الشعب" مع جيش الثورة فى إيطاليا؛ فى ذلك الوقت كان يحاصر طولون التى كانت القوات البريطانية والإسپانية قد احتلتها قبل نحو أسبوعين. تصادف ذلك مع كون قائد المدفعية كان قد أصيب بجراح شديدة قبل بضعة أيام، وكان من الضرورى إيجاد بديل له، ووجد ساليسيتى فى الكابتن بونابارت الرجل المناسب. لم يكن بونابارت يتمنى ما هو أفضل من ذلك. تدريجيًّا، كانت وطنيته الكورسيكية قد بدأت تدخل عالم النسيان. من الآن فصاعدًا، سيصبح فرنسيًّا.. فرنسيًّا بالفعل كما لم يحدث من قبل.

كانت حالة الجيش التى وجده عليها أمام طولون كفيلة بجعل أى ضابط محترف يبكى حسرة. كان معظم الملكيين القدامى قد هاجروا ليحل محلهم متطوعون جمهوريون بلا خبرة، وكانت المدفعية عبارة عن عدد صغير من المدافع والهاونات القديمة غير الصالحة، ولم تكن هناك ذخيرة لمعظمها. من الناحية الإيجابية لم يكن هناك سوى نابوليون نفسه، أحد قلة من المحترفين بين ضباط الجيش الإيطالى كله. صحيح أنه كان مجرد كابتن (نقيب) إلا أنه كان يحظى بدعم ساليسيتى... وكانت عبقريته كفيلة بالباقى. كان من بين أولى إجراءاته أن أرسل يطلب مدافع ثقيلة من نيس ومرسيليا (التى قدمت كذلك خمسة آلاف كيس رمل)، كما طلب معدات أخرى من قلاع "مارتيجيوس- Martigues" و"أنتيب- Antibes" و"موناكو- Monaco"، وطلب الأخشاب من "لى كيوتات- Le Ciotat" لبناء أرصفة ملائمة، وأنشأ ترسانة حقيقية، وورشة إصلاح زودها بالحدادين والنجارين. إلا أنه سرعان ما وجد نفسه، من البداية، فى خلاف مع قائده الجنرال "كارتو- Carteaux" الذى كان معقولًا من الناحية السياسية، وأحمق من الناحية العسكرية؛ إذ كان كل همه أن يطلق على المدينة أكبر كمية من النيران. أما

نابوليون، فعندما وجد أن مفتاح مقاومتها المستمرة كان هو الأسطول البريطانى بقيادة "الأدميرال لورد هود - Admiral Lord Hood"، الذى كان موجودًا بالقرب من الساحل، فقد صمم بكل قوة على الاستيلاء على شبه الجزيرة الصغيرة "لوكير- Le Caire"، التى يمكنه أن يطلق منها قذائف مدافعه الملتهبة على سفن هود. وأخيرًا، بمساعدة ساليسيتى، استطاع أن يحصل على موافقة كارتو- المتردد دائمًا - على القيام بذلك.

فشلت المحاولة الأولى للاستيلاء على لوكير؛ حيث كان كارتو - الغاضب لتخطيه - قد وافق على أن يقوم أربعمائه فرد فقط بالمهمة، وبفضل نفوذ الماچور بوناپارت (كان قد رقى مؤخرًا) تم طرد الچنرال العجوز، الذى لا رجاء منه، من الخدمة فى شهر أكتوبر ليخلفه الچنرال "چاك فرانسوا دوچومييه --Jacques Francois Dugommier"، الذى كان قد التحق بالجيش فى سن الثالثة عشرة. كان دوچومييه ضابطًا محترفًا، وسرعان ما فطن لعبقرية مرؤوسه ودعمه بقوة، وكانت النتيجة القيام بهجوم واسع على "قلعة مالجريف - Fort Mulgrave"، التى كان البريطانيون قد شيدوها حديثًا على أعلى نقطة فى لوكير. حدث ذلك فى السابع عشر من ديسمبر أثناء مطر غزير، إلا أن الهجوم نجح تمامًا، وفى الصباح الباكر أخلت الحامية البريطانية القلعة، بينما رفعت سفن هود مراسيها بسرعة وولت الأدبار فى البحر. فى اليوم التالى، التاسع عشر من ديسمبر 1793، كانت طولون قد عادت فرنسية.

لم يكن لدى أحد شك بخصوص صاحب الفضل فى ذلك. نابوليون بوناپارت الذى قتل حصانه تحته، وجرح بطعنة حربة فى فخذه، ثبت أنه كان محقًّا. كان دوچومييه قد بعث بالفعل بتوصية عاجلة – ونبوئية - إلى وزير الحربية فى پاريس:

> «Rècompensez, avancez ce jeune home, car, silon ètait ingrant envers, luI il S, avancerait de lui- mème»(6)

بعد ثلاثة أيام من استعادة "طولون" تم تعيينه "بريجاديرا – Brigadier"، ولم يكن قد تجاوز الرابعة والعشرين.

فشلت حملة كورسيكا فى مارس 1795، وكانت قد تأخرت طويلًا. كان الأسطول البريطانى يقف بالقرب من الجزيرة مستعدًا، وكان من الصعب على ناقلات الجند والمعدات العسكرية الفرنسية أن ترسو. مرة أخرى، فى لحظة ما، كان يبدو أن الحظ قد تخلى عن نابوليون. عاد إلى پاريس فى إجازة مرضية رسمية، وراح ينتظر فرصته التالية، التى جاءت فى الخامس من أكتوبر - الثالث عشر من "ڤيندميير - -Vendèmi

air" بالتقويم الجمهورى الجديد - عندما أمره "پول باراس - paul Barras"، قائد "جيش الداخل- Army of the Interior" بإخماد تمرد ملكى كان متوقعًا. لم يتردد، كانت الانتفاضات الكورسيكية ما زالت فى ذاكرته. لن يكون هناك تفاوض، وفضّل أن يضع ثقته فى المدفعية الثقيلة. انفجر قتال ضار فى "تويلرييه – Tuileries" مع خسائر فادحة فى الطرفين، إلا أن النتيجة النهائية لم تكن محل شك. عندما تأسست "حكومة الإدارة - The Directory"، بعد أسبوع أو أسبوعين، تم تعيين باراسى ليكون أول أعضائها الخمسة، كما عين بوناپارت قائدًا لجيش الداخل. وفى مارس 1796، عندما قررت حكومة الإدارة أن تشن حملة جديدة على النمسا عبر إيطاليا، كان ذلك الشاب الكورسيكى المهيب الذى يجيد لغتين إيطاليين، هو الاختيار الواضح لقيادتها.

قبل مغادرته بوقت قصير، وفى احتفال مدنى فى الثامن من مارس 1796، تزوج ناپوليون بوناپارت من إحدى "أرامل المقصلة" الكثيرات: "چوزفين دو بوهارنيه - Josephine de Beauharnais"، التى كانت عشيقة سابقة لصديقه باراس. (كلاهما كذب عن عمره؛ حيث قدم ناپوليون الذى كان فى السادسة والعشرين شهادة ميلاد شقيقه الأكبر چوزيف). بعد يومين، ودع عروسه وانطلق قاصدًا نيس لتولى منصبه الجديد. كانت تلك بداية حملة طويلة ستكون واحدة من أعظم حملاته، أما المهمة فكانت اجتياح الشمال الإيطالى ثم التقدم عبر الـ "تيرول - Tyrol" فى النمسا؛ لكى تقابل فى النهاية جيش الراين وتنقل الحرب إلى "باڤاريا - Bavaria". بدأت الحملة بتقدم فى "پيدمونت – Piedmont". لا أحد، ربما باستثناء بوناپارت نفسه - كان يمكن أن يتصور سرعة وحجم النجاح: كل يوم تقريبًا، كان يأتى بأخبار انتصارات جديدة وفى آخر أبريل كانت پيدمونت قد ضُمت إلى فرنسا، وشارل إيمانويل الرابع قد تخلى عن العرش وأوى إلى سردينيا التى كانت قد بقيت تحت سلطته. فى الثامن من مايو، عبر الفرنسيون نهر الـ "پو- Po "، وبعد يومين استولوا على الجسر الضيق على نهر "آدا – Adda" عند "لودى – Lodi"، وفى الخامس عشر من الشهر نفسه، دخل بوناپارت ميلان رسميًا.

كان جيشه – بالطبع - يعيش اعتمادًا على الأراضى التى تم غزوها، يستولى على ما يريد من مؤن ويصادر الأغذية وأماكن الإيواء المطلوبة، ولكن ذلك لم يكن كافيًا بالنسبة لحكومة الإدارة. كانت تعليماتهم تقضى بفرض جباية سواء على الولايات الإيطالية أو الكنسية، ليس لإعالة القوات فحسب، وإنما لإرسالها إلى پاريس كذلك. كان ناپوليون ينفذ تلك التعليمات حرفيًا. كان دون "پارما – Parma" – المحايد - على سبيل المثال مجبرًا على تسليم مليونى كتاب فرنسى، وعشرين من أفضل صوره التى يختارها القائد العام

بنفسه، كما لم يستطع سوى عدد قليل من المدن الرئيسية الإفلات من تسليم مقتنياتها من رسوم "رافائيل- Raphael" و"تيتيان- Titian" و"ليوناردو- Leonardo". وجد كثير من هذه الأشياء طريقه إلى اللوڤر وغيره من المتاحف الفرنسية حيث ما تزال موجودة إلى اليوم.

باحتلال ميلان، كانت لومبارديا كلها قد أصبحت فى يد الفرنسيين باستثناء مانتوا- Mantua، ولكن النمساويين كانوا ما زالوا يقاتلون بإصرار، لدرجة أن نجد بونابارت يعترف، في الثالث عشر من نوفمبر، لحكومة الإدارة - في لهجة بين الإرهاق واليأس- بمخاوفه من أن تضيع إيطاليا كلها فى غضون وقت قصير. لم ترتفع روحه المعنوية مرة أخرى سوى في أوائل العام 1797. في الرابع عشر من يناير حارب النمساويين في "ريڤولي- Rivoli"، وهى قرية تقع شمالى ڤيرونا بنحو أربعة عشر ميلًا، بين نهر "أديج – Adige" وبحيرة "جاردا- Garda" فقد 2200 جندى ولكن جيشه قتل 3300 جندى للعدو وأسر 7000 آخرين. في اليوم التالى أسر قائده الچنرال "چوبير- Joubert"، الذى كان يطارد النمساويين الفارين، ستة آلاف آخرين، في الوقت نفسه كان "أندريه ماسينا - André Masséna"، زميل چوبير، قد زحف جنوبًا طوال الليل فطوق وأسر طابورًا نمساويًّا آخر ليصبح معزولًا خارج مانتوا. منذ ذلك اليوم، أصبحت مانتوا معزولة تمامًا، دون أمل فى أى إنقاذ أو نجدة، وفى الثامن من فبراير استسلمت حاميتها التى كانت تتضور جوعًا، وتم أسر ستة عشر ألف جندى والاستيلاء على ألف وخمسمائة مدفع أخرى. وأخيرًا كان الطريق قد أصبح مفتوحًا لغزو النمسا. صحيح أنها كانت تقع عبر أراضى ڤينيسيا المحايدة، ولكن ذلك لم يكن مهمًا. لم يكن النمساويون يضعون مثل تلك الأمور فى الاعتبار، فقد كانوا يعبرون الأراضى الڤينيسية باستمرار دون عوائق. ولكن إذا كانت ڤينيسيا لم تحتج - وكانت أهواؤها الملكية معروفة - فالمؤكد أن ناپوليون كان لا بد من أن يحتج، مستغلًا كل فرصة لتوعد، وربما تهديد، السلطات الڤينيسية المحلية. ما لم يكونوا يعرفونه هو أن غضبه فى مثل تلك الظروف لم يكن سوى ادعاء أو تظاهر، وأن معظم تهديداته كانت فارغة، لم يكن هدفه الرئيسى فى تعاملاته مع الڤينيسيين فى ذلك الوقت هو استغلال مساعدتها ولا حتى إقناعها باتخاذ خط أكثر حيادية، كان هدفه بالأحرى إرهابها أن يجعلها تشعر بالذنب وعدم الكفاءة، أن يجرح كبرياءها وثقتها بنفسها، بحيث تنخفض مقاومتها المعنوية إلى نفس مستوى مقاومتها المادية.

بالقرب من أواخر مارس 1797، قاد ناپوليون جيشه صوب الشمال إلى "تيرول- Tyrol" عبر "ممر بركسن- Brixen Pass"، ومن هناك اتخذ طريقه إلى ڤيينا تاركًا

خلفه حاميات صغيرة فى "بيرجامو- Bergamo" و"بريشيا – Brescia"، وقوة أكبر قليلًا فى ڤيرونا. يبدو أنه كان يضمر أمرًا: أن يخلق حالة ثورية بين الڤينيسيين، وأن يدعم انتفاضات ضد ڤينيسيا أينما كان ذلك ممكنًا. كان الخطر- بالطبع - أن تنقلب هذه الانتفاضات ضد الفرنسيين أنفسهم، وهو ما حدث بالفعل؛ ففى يوم السابع عشر من أبريل، وكان يوم اثنين الفصح، خرج الناس فى ڤيرونا فى عصيان مدنى بالرغم من قوة الحامية. عرف ذلك العصيان الذى سقط فيه عدد كبير من العسكريين والمدنيين الفرنسيين بـ "الفصح الڤيرونى- Paques Véronaises". وقعت أحداث مماثلة - وإن أقل حجمًا - فى بيرجامو وبريشيا، رغم أنها كانت موجهة ضد ڤينيسيا. إذا كان ذلك كله من تدبير المحرضين و"عناصر الإثارة - agents provcateurs" - كما يعتقد، فإن ناپوليون كان يرى أن الخسائر تستحق العناء المبذول فى سبليها؛ إذ إنها كانت تقدم له ذريعة إضافية للهجوم على جمهورية ڤينيسيا، التى كان قد عقد العزم الآن على محوها من الوجود.

عندما وصلت أخبار هذه الانتفاضات وغيرها إلى ڤينيسيا، كانت هناك حالة أقرب إلى الذعر. كل اليابسة -Terra firma غربى نهر "مينسيو – Mincio" قد ضاعت بالفعل، وكان لا بد من حماية الحدود الجديدة بأى ثمن، وكانت الميليشيات المسلحة المكونة من المزارعين المحليين هى الأمل الوحيد. تم إبلاغ القائد الفرنسى المحلى الجنرال "بالاند – Balland" بنوايا ڤينيسيا، كما تم التأكيد له أن الإجراءات المقترحة ستكون دفاعية وأنها ليست موجهة ضد الفرنسيين، وإنما ضد المتمردين من مواطنى الجمهورية. ما يبدو أن الجميع لم يكونوا يتوقعونه، هو أن أولئك المزارعين –كان لا يقل عددهم عن عشرة آلاف - عندما يجدون فى أيديهم أسلحة لأول مرة، لن تكون ضمائرهم حية عن استخدامها؛ من ناحية أخرى كانت هناك حسابات كثيرة معلقة لا بد من تسويتها مع الفرنسيين، الذين كانت جماعات السلب والنهب من جنودهم، مطلقة اليد فى الاستيلاء على محاصيلهم وماشيتهم - وغالبًا زوجاتهم وبناتهم - فى مساوماتهم معهم. لم يمر وقت طويل، حتى بدأت عمليات القنص الخطرة. كان انتقام بالاند سريعًا ووحشيًّا إلا أنه لم يكن مؤثرًا. فى أوائل أبريل كانت كل مظاهر المجاملة والمعاملة المهذبة بين الفرنسيين والإيطاليين قد اختفت.

فى الطريق إلى ڤيينا، كان يتم إبلاغ ناپوليون بتطورات الوضع الذى كان يزداد سوءًا. فى العاشر من أبريل أملى إنذارًا موجهًا للدوج على أن يتم تسليمه له شخصيًّا بواسطة مساعده الجنرال "أندوك چنوت - Andoche Junot". وصل چنوت إلى

ڤينيسيا مساء الرابع عشر من أبريل وكان موافقًا ليوم "الجمعة الحزنية[7] - Good Friday ". وطلب لقاء الدوچ فى وقت باكر من صباح اليوم التالى. جاء الرد مهذبًا وحاسمًا. يوم "سبت النور[8] - Holy Saturday" مكرس تقليديًا للشعائر الدينية، ولا يمكن ممارسة أى نشاط حكومى يوم السبت، ولا يوم أحد الفصح نفسه. أبلغوه أن الدوچ ومجلسه[9] Collegio يسعدهم استقبال الچنرال فى أى وقت باكر صباح الاثنين. إلا أن چنوت لم تكن الشعائر الدينية تعنيه، كما قال صراحة. كانت أوامره بأنه لا بد من مقابلة الدوچ فى غضون أربع وعشرين ساعة، وكان يعنى أنه لا بد من تنفيذ ذلك، وهدد بأنه إن لم يحدد له موعد كما يريد، فسوف يغادر وسيكون على ڤينيسيا أن تتحمل العواقب، وأن تلك العواقب لن تكون محمودة.

وهكذا، عندما استقبله المجلس على مضض صباح السبت كانت كرامته مجروحة بالفعل. بقى الچنرال واقفًا متجاهلًا المقعد الذى طلبوا منه التفضل بالجلوس عليه على يمين الدوچ، ودون أى مقدمات جذب رسالة نابوليون من جيبه وبدأ يقرأ:

چودينبرج - 20 چيرمينال- عام 5 .

البر الرئيسى كله لأكثر الجمهوريات سكونًا مسلح حتى الأسنان. فى كل ركن تدوى هتافات الزارعين الذين سلحتهم وتردد «الموت للفرنسيين!»، يزعمون أن بضع مئات من الجنود من الجيش الإيطالى هم السبب. عبثًا تحاول إبعاد المسؤولية عن الميليشيات التى صنعتها. هل تتصور أننى بسبب وجودى فى قلب ألمانيا عاجز عن تحقيق الاحترام لأفضل شعب فى الوجود؟ هل تتوقع أن تتسامح فيالق إيطاليا مع المذابح التى تسببت فيها؟ لا بد من الثأر لدم إخوتى فى السلاح، ولا توجد كتيبة فرنسية واحدة، إن هى كلفت بمثل هذا الواجب، إلا وستشعر بمضاعفة قوتها وشجاعتها. لقد رد مجلس النواب الڤينيسى على ما أبديناه من كرم بأبشع صور الغدر... حرب أم سلام هى؟ إن لم تتخذ إجراءات فورية لحل هذه الميليشيات، إن لم يتم القبض على المسئولين عن المذابح الأخيرة وتسليمهم إلى، فسوف نعلن الحرب ـ الأتراك ليسوا على أبوابكم. لا عدو يهددكم. لقد اختلقتم ذرائع لتبرير حشد الناس ضد جيشى. سيتم تفريقهم فى خلال أربع وعشرين ساعة. لم نعد فى عصر حكم شارل الثامن، ولو أنك ضد المطالب الواضحة المحددة للحكومة الفرنسية فسوف تضطرنى لإعلان الحرب. لا تظن أن الجنود الفرنسيين سوف يتبعون أسلوب ميليشياتك فى سلب ونهب ريف أهالى اليابسة المساكين الأبرياء. سوف أحمى أولئك الناس، وسيأتى اليوم الذى يباركون فيه الجرائم التى اضطرت جيش فرنسا لتخليصهم من استبدادك.

بوناپارت.

فى الصمت المطبق الذى ساد، ألقى چنوت بالرسالة على الطاولة أمامه، واستدار خارجًا من القاعة.

** ** **

فى الوقت نفسه كان نابوليون يواصل زحفه. كان أسلوبه مع رجاله كالعادة مرحًا وواثقًا، إلا أن قلقًا كان يتنامى بداخله لسببين، كان أولهما إستراتيچى: كانت إمدادات الجيش ضعيفة؛ إذ إنه كان محصورًا فى وديان جبلية ضيقة ولم يكن هناك أمل كبير فى التماس مؤن أو طعام - ناهيك عن عمليات السلب والنهب - مع وجود سكان معادين من حوله، وجيش نمساوى أمامه فى الانتظار، أما السبب الثانى فكان أكثر خطرًا. كان جيشه يكوِّنُ شعبة واحدة فحسب من شوكة الهجوم الفرنسى؛ إذ كان هناك أيضًا جيش الراين بقيادة منافسه الرئيس الشاب الذكى «لازار هوش - Lazare Hoche"، الذى كان الآن يتقدم شرقًا بسرعة مخيفة عبر ألمانيا، وينذر بالوصول إلى ڤيينا قبله. كان ذلك احتمالًا لا يريد أن يفكر به. لا بد من أن يكون هو، وليس سواه، قاهر إمبراطورية الهابسبورج. كان كل مستقبله يتوقف على ذلك. لن يسمح لـ "هوش" بأن يسرق انتصاره.

كان ذهنه فى صراع مع هاتين المشكلتين عندما - فجأة وعلى نحو أشبه بالمعجزة - طلبت الحكومة الملكية هدنة وهى مذعورة. لا بد أنه كان من الصعب عليه إخفاء ابتهاجه: توقيعه وثيقة كتلك سوف يوقف هوش فى مكانه. وهكذا حدث فى الثامن عشر من أبريل 1797، فى قلعة "إسكنولد - Eckenwald" المجاورة لـ "ليوبن – Leoben" - أن تم توقيع اتفاق سلام مؤقت بين نابوليون بونابارت باسم حكومة الإدارة الفرنسية – The French Directory – رغم أنه لم يحاول استشارة أحد – والإمبراطورية النمساوية، بحسب شروط الاتفاق (بقيت التفاصيل سرية إلى أن تم تأكيدها فى "كامپو فورميو – Campo Formio" بعد ستة أشهر)، كان على النمسا أن تتنازل عن كل مطالباتها بـ بلچيكا ولومبارديا، وتحصل فى مقابل ذلك على "إستريا – Istria" و"دالماشيا – Dal-matia" وكل أراضى اليابسة الڤينيسية التى تحدها أنهار "أوجليو – Oglio" و"پو – Po" والأدرياتيكى. أما ڤينيسيا، فيتم تعويضها – وهذا غير كاف تمامًا – بالمناطق البابوية السابقة فى "رومانا – Romagna" و"فيرارا – Ferrara" و"بولونيا – Bo-logna".

لا بد من القول أنه لم يكن من حق بونابارت أن يتنازل على هذا النحو عن أراضى ولاية محايدة، ربما كان من المحتمل أن يجادل بأن ڤينيسيا كانت لم تعد ولاية محايدة، إلا أن قوانين الدبلوماسية الدولية لم تكن تنظر بعين الرضا لتسويات سلمية من هذا القبيل.

وبالرغم من أن حياد ڤينيسيا المعلن قد يبدو فارغًا، سيكون عليها أن تخرج منه، وإذا ظهرت أثناء هذه العملية بشكل غير ملائم وربما عدوانى، سيكون ذلك أفضل. والآن، بفضل الإحباط المعنوى لحكومتها، كانت تقدم لـ بونابارت فرصة مثالية.

لا يمكن إلا أن نشعر بالرثاء لكل من "فرانسيسكو دونا – Francesco Dona" و"ليوناردو جستنيان – Lunardo Giustinian"، المبعوثين الڤينيسيين اللذين أرسلا إلى بونابارت حاملين الرد على رسالته وتعليمات لاسترضائه وتهدئته قدر المستطاع. حتى الجانب المادى من هذه المهمة كان كريهًا بما يكفى. كان نابوليون معروفًا بسرعة تنقلاته. الأيام والليالى المرهقة التى أمضياها وهما يحاولان اللحاق به، وعورة الطرق الجبلية السيئة، التى لم يكن يقطعها سوى ساعات قليلة للراحة فى أماكن رديئة... كل ذلك كان بالتأكيد كابوسًا ثقيلًا بالنسبة لاثنين مثلهما فى منتصف العمر. كذلك، فإن معنوياتهما لم تتحسن بسبب ما كانا يتوقعانه من مشاهد عاصفة، كانا يعرفان أنها فى انتظارهما فى النهاية. ولم يكن ذلك هو كل شىء، ففى كل قرية أو مدينة كانا يتوقفان فيها كانت الشائعات نفسها تحاصرهما. فرنسا عقدت صلحًا مع النمسا، وعلى مذبح هذا الصلح سوف يتم التضحية بڤينيسيا.

استمر السعى خلف نابوليون أكثر من أسبوع، وفى 21 أبريل كان المبعوثان المرهقان يقفان فى "جراز – Graz" أمام المعسكر الفرنسى. استقبلهما بونابارت باحترام شديد واستمع صامتًا إلى تأكيدهما الصداقة بين الجانبين، ثم تغير مزاجه فجأة. راح يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، ثم انفجر فى تقريع شديد لڤينيسيا وحكومتها وشعبها، متهمًا إياهم بالغدر والنفاق والظلم وعدم الكفاءة و"بربرية العصور الوسطى" والعداء الشديد الذى يضمرونه له ولفرنسا، وهو الأكثر خطورة من وجهة نظره. طلب بونابارت الإفراج الفورى عن السجناء السياسيين، متوعدًا أنه إن لم يتم ذلك سيقوم باقتحام السجون بنفسه، واستمر غضبه وهو يتساءل عن الفرنسيين الذين قتلهم الڤينيسيون. قال: إن جنوده مصرون على الثأر، وأنه لن ينكر ذلك عليهم، مضيفًا أن أى حكومة تعجز عن كبح جماح رعاياها لا بد أن تكون حكومة حمقاء، وليس من حقها أن تبقى. ثم أنهى كلامه بالعبارة المرعبة، التى سرعان ما راح صداها يتردد فى قلب كل ڤينيسى: "Io Saro un Attila per lo stato Veneto" : "سوف أكون أتيلًا بالنسبة لدولة ڤينيسيا".

عندما عاد المبعوثان إلى ڤينيسيا بروايتهما، شعر الدوج "لودوڤيكو مانن – Lodovico Manin" وزملاؤه بأن مصير الجمهورية المشؤوم كان قد تقرر. كانت الحرب وشيكة لا ريب فيها، والتفاوض غير وارد، واليابسة مفقودة مفقودة. كان الأمل

الوحيد فى إنقاذ المدينة نفسها من الدمار هو الرضوخ لمطالب الغازى، وكانت تلك المطالب مرعبة بالفعل، ليس أقل من تنحى الحكومة كلها والتخلى عن الدستور الذى كان قد استمر أكثر من ألف عام... أى انتحار الدولة بالفعل.

يوم الجمعة الموافق للثانى عشر من مايو 1797، اجتمع مجلس الشورى لآخر مرة. كان معظم أعضائه قد غادروا المدينة، وكان عدد الحاضرين يقل عن النصاب القانونى (600 عضو) بثلاثة وستين عضوًا، ولكن وقت هذه التفاصيل الصغيرة كان قد فات. كان الدوج على وشك الانتهاء من كلمته الافتتاحية عندما سُمع صوت إطلاق نار خارج القصر. فجأة دبت الفوضى. كان ذلك الصوت يعنى شيئًا واحدًا بالنسبة للحاضرين: الانتفاضة الشعبية التى كانوا يخشونها منذ فترة طويلة قد بدأت. كان أملهم الوحيد فى النجاة هو الهرب من القصر ما دام هناك وقت. فى دقائق، عُرف مصدر إطلاق النار: بعض قوات دالماشيا، الذين كان قد تم إجلاؤهم من ڤينيسيا بأوامر من نابوليون، كانوا يقومون بتفريغ بنادقهم القديمة فى الهواء تحية وداع للمدينة. ولكن الفزع كان قد بدأ ولم تعد التهدئة مجدية. تاركين أروابهم الرسمية خلفهم، انسل الباقون من أعضاء المجلس التشريعى من الأبواب الجانبية للقصر. كانت تلك نهاية السيرينيسيما – Serenis-sima.

لم يحاول لودوڤيكو مانن نفسه أن يهرب. فى الهدوء المفاجئ الذى ساد بعد انفضاض الاجتماع، جمع أوراقه ببطء وانسحب إلى مقر إقامته. وهناك خلع تلك القلنسوة غريبة الشكل، التى كانت الرمز الرئيسى لمنصبه، وأعطاها لخادمه الخاص قائلًا: خذ هذه.. لن أحتاجها ثانية".

** ** **

منذ تولى أول دوج فى سنة 726 إلى استقالة الدوج الأخير فى 1797، تكون الجمهورية الڤينيسية قد عاشت 1071 سنة، وهى فترة تقل عن تلك التى عاشتها الإمبراطورية البيزنطية بنصف القرن. على مدى معظم تلك الفترة، كانت ڤينيسيا باعتراف الجميع هى سيدة المتوسط سياسيًا ودستوريًا وتجاريًا وفنيًا ومعماريًا. كانت أعجوبة العالم. كان يمكن أن يكون من دواعى السرور تسجيل نهاية أقل خزيًا، لو أن شعبها كان قد أظهر – عندما بدأت جمهوريته تترنح – ومضة من الثبات والشجاعة التى أظهروها فى الدفاع عن مستعمراتهم ضد الأتراك، أو تلك التى سيبديها أحفادهم ضد النمساويين بعد ذلك بنصف القرن. إن المرء لم يكن ليطلب – وبالتأكيد ما كان ليتوقع – مقاومة بطولية مثل تلك التى شوهدت على أسوار القسطنطينية فى 1543 : مجرد ومضة من الروح

الڤينيسية القديمة التى كان يمكن أن تجعل السيرينيسيما تدخل التاريخ بأقل القليل من الشرف، ولكن حتى ذلك لم يكن موجودًا. المأساة الأخيرة لڤينيسيا لم تكن موتها... وإنما الطريقة التى ماتت بها.

وهكذا كان أن حصلت النمسا على أكثر مما كانت تتوقع بموجب اتفاقية كامپو فورميو – Campo Formio التى وقعتها فى السابع عشر من أكتوبر: ليس اليابسة الڤينيسية فحسب، بل والمدينة نفسها. كان ناپوليون سعيدًا. كان يعتقد دائمًا – وربما عن حق – أن بإمكانه السيطرة على إيطاليا ما دامت بقيت مقسمة. وبالفعل، أنشأ فى ديسمبر 1796 جمهورية سيسپادان[10] Cispadane Republic، بدمج دوقيات ريجيو ومودينا والولايات البابوية بولونيا وفيرارا. وفى يونيو التالى، أسس الجمهورية الليجورية – Ligurian Republic فى ميلان وعاصمتها چنوة، وفى يوليو الجمهورية السيسالپينية – Cisalpine فى ميلان. أما بالنسبة لڤينيسيا نفسها فلم تطأ قدمه أرضها ولم يكن لديه الرغبة فى ذلك. كان يراها – خطأ – بعين عقله دولة پوليسية قمعية، سجونها تحت الأرض مليئة بالسجناء السياسيين. فى الوقت نفسه كان هناك سلام فى كل القارة الأوروبية. كانت إنجلترا الآن هى ما ينبغى غزوه وتدميره. وافقت حكومة الإدارة وعينت بوناپارت قائدًا لجيش إنجلترا، ولكن بعد تفكير استمر نحو عام، رفض الفكرة على مضض. ستكون التكلفة باهظة، كما أن القوة البشرية اللازمة ليست متوفرة، وقبل ذلك كله كانت البحرية الفرنسية فى حالة متردية، وليست ندًّا للبريطانية، وبلا قائد يمكن مقارنته بـ "هود" أو "رودنى" أو "سان ڤانسانت – St. Vincent"... وكلهم أقل من "نلسون – Nelson".

كان البديل هو مصر. منذ 1797، كان وزير الخارجية "شارل موريس دى تاليران – پيريجور[11] – Charles – Maurice de Talleyrand – Perigord" قد اقترح إرسال حملة إلى مصر، وبعد ذلك بسبعة أشهر أصدر مذكرة مفصلة عن هذا الأمر. كان لا بد من أن تحتوى هذه المذكرة على جزء يدين وحشية الحكام المحليين، ويؤكد ضرورة تخليص المصريين من الظلم الذى تعرضوا له طويلًا، أما الجدير بالاهتمام أكثر من ذلك، فكان اقتراحه إرسال جيش من 20 : 25 ألف جندى يمكن إبراره فى الإسكندرية واحتلال القاهرة، وبعد ذلك تتجه حملة أخرى ضد الهند – ربما عبر قناة السويس التى يتم إنشاؤها على عجل. فى الثامن من مارس 1798 وافقت حكومة الإدارة رسميًّا. لن تكون هذه الفكرة مفيدة فحسب؛ لأنها ستجد للجيش عملًا يقوم به، بل إنها كذلك سوف تبعد الچنرال الصغير ليكون على مسافة مأمونة من پاريس، كانت الفكرة

أيضًا توفر فرصة لاستلام الدور البريطانى فى الهند وتحقق لفرنسا مستعمرة جديدة مهمة فى شرق المتوسط. وأخيرًا، وإن كان أكثر إشكالية على نحو ما، سيحقق ذلك تحولًا رئيسيًا للقوة البحرية الإنجليزية نحو الشرق؛ الأمر الذى قد يجعل الغزو المؤجل ممكنًا فى آخر الأمر.

بلا أدنى شك، تلقى نابوليون الأمر بحماسة شديدة. كان منذ طفولته مفتونًا بالشرق، كما كان مصرًا على أن تكون للحملة أهداف أخرى غير تلك السياسية والعسكرية، ولذا جند ما لا يقل عن 167 عالمًا لمرافقته، كان من بينهم علماء فى العلوم الطبيعية ورياضيون وفلكيون ومهندسون ومعماريون ومصورون ورسامون. كانت مصر قد احتفظت بأسرارها القديمة طويلًا.. كانت فاكهة حان قطافها. كانت البلاد فعليًا تحت حكم المماليك منذ 1250. فى 1517 كان الأتراك قد غزوها وضموها إلى الإمبراطورية العثمانية، وكانت ما زالت جزءًا منها من الناحية العلمية، وبحلول منتصف القرن السابع عشر كان زعماء المماليك (الباكوات) هم المسيطرين، لا شك أن غزو فرنسا كان سيثير حفيظة واحتجاج السلطان فى القسطنطينية، ولكن إمبراطوريته رغم أنها لم تكن قد عرفت بعد بـ "رجل أوروبا المريض" كانت قد غدت ظلًا مضمحلًا لماضيها وليس من الوارد أن تمثل خطرًا كبيرًا. لسوء الحظ كانت هناك أخطار أكثر أهمية. كان تسليح سفن النقل الفرنسية الثلاثمائة هزيلًا وأطقمها غير مدربة. صحيح أنه كانت هناك حراسة من 27 سفينة حربية كبيرة وفرقاطة، ولكن من المعروف أن نلسون كان يجوب المتوسط، ولو أنه اكتشف وجودهم فلن تكون أمامهم فرصة للهرب، ولا أمام الواحد والثلاثين ألف جندى الذين كانوا عليها.

أبحر الأسطول على أربع دفعات منفصلة، كانت الدفعة الأكبر هى تلك التى خرجت من طولون، أما الثلاث الأخرى فانطلقت من مرسيليا وجنوة وشيفيتافيكيا شمالى روما. غادر نابوليون نفسه على سفينة العلم: "الشرق- Lorient"، من طولون فى التاسع عشر من مايو 1798. كانت مالطة محطته الأولى. كانت الجزيرة فى يد تنظيم فرسان سان جون منذ العام 1530، وكان الفرسان يديرون مستشفاهم بكفاءة وإتقان، كما كانوا قد صمدوا ببطولة نادرة أمام حصار الأتراك فى 1565، أما كمقاتلين من أجل المسيحية، فكانوا قد أصبحوا أقل حماسة. عندما وصل بونابارت إلى الجزيرة يوم التاسع من يونيو، وأوفد رسله إلى المعلم الأعظم - كان ألمانيًا يدعى "فرديناند هومبيش- Ferdinand Hompesch" - ليطلب الإذن بدخول كل سفنه الميناء، تلقى ردًا يقول: إنه طبقًا لتعليمات التنظيم (تنظيم فرسان الهيكل)، فإن الدول التى تكون فى حالة حرب مع

دول مسيحية أخرى ليس مسموحًا لها بإرسال أكثر من أربع سفن فى المرة الواحدة، وجاء الرد سريعًا من السفينة "الشرق" يقول: "إن الجنرال بونابارت مصمم على أن يحصل بالقوة على كل ما ينبغى أن يحصل عليه بموجب حسن الوفادة، وهى القاعدة الأساسية لتنظيمكم."

بدأ الهجوم على الجزيرة فجر العاشر من يونيو، كان نصف الخمسمائة والخمسين فارسًا من الفرنسيين ومعظمهم من كبار السن غير القادرين على القتال. لم يقاوموا أكثر من يومين. صباح اليوم الثانى عشر من الشهر طلبوا هدنة، وفى تلك الليلة نفسها وصل وفد إلى سفينة العلم (سفينة القيادة). سوف يتخلى التنظيم عن سيادته على مالطة وجوزو- Gozo، ما دامت الحكومة الفرنسية تبذل مساعيها الحميدة لتجد للمعلم الأعظم معتمدية صغيرة يأوى إليها، مع معاش ثلاثمائة ألف فرانك يمكنه من العيش بمستوى يتناسب مع مركزه. قبل ناپوليون، وشرع على الفور فى وضع برنامج للإصلاح. فى غضون أقل من أسبوع، كان قد استطاع أن يحول الجزيرة إلى شىء آخر أشبه بمقاطعة فرنسية. صدرت أوامر بأن ترتدى الناس قبعات عليها شريط من الأحمر والأبيض والأزرق، ألغيت العبودية، تم ترحيل ستمائة تركى وألف وأربعمائة مسلم، تم تخفيض عدد الأديرة وتقييد سلطة رجال الدين إلى حد كبير، تم جمع كل الذهب والفضة من جميع الكنائس وكل الكنوز من قصور الفرسان، بما فى ذلك الآنية الفضية التى كان التنظيم يستخدمها فى إطعام المرضى، وتحويلها إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة جديلة لاستخدامها من أجل صديرية ناپوليون المضادة للرصاص، كما تركت حامية من ثلاثة آلاف جندى فرنسى بقيادة الجنرال "كلود ڤوبوا - Claude Vaubois"، وفى غضون أسبوع من وصوله، كان الأسطول مستعدًّا لمواصلة رحلته. ناپوليون نفسه أبحر فى التاسع عشر من الشهر.

إلا أن فرنسا لم تكن لتحتفظ بالجزيرة المنكوبة طويلًا. فى سنة 1800، ونتيجة غضب واستياء شديدين إزاء تصرفات ڤوبوا، الذى حاول أن يجعل الفرنسية اللغة الرسمية، وحاول أن يبيع بالمزاد كل مقتنيات الكنيسة الكرملية فى "مدينا – Mdina"، ثار أهالى مالطة وقاموا - بقيادة رجال الدين - وألقوا بقائد الميليشيا الفرنسية من النافذة. استدعى ڤابوا كل رجاله إلى "ڤاليتا – Valleta" حيث أغلق أبواب المدينة، منذ ذلك الوقت وجد الفرنسيون أنفسهم تحت الحصار. فى الوقت نفسه، لجأ المالطيون إلى البريطانيين لكى يساعدوهم، ووصلت عدة سفن لمحاصرة أى سفن فرنسية قد تحاول إنقاذ الحامية. بعد ذلك بوقت قصير، كان أن وصلت قوة بريطانية تقدر بنحو ألف وخمسمائة جندى. ظل

ثابوا صامدًا على نحو بطولى إلى أن أصبح ما تبقى من المؤن لا يكفى إلا لثلاثة أيام، وذلك بسبب الحصار. بعد ذلك سمح له باستسلام مشرف وخروج آمن للحامية معه - مما زاد من غضب المالطيين الذين لم يستشاروا- حاملًا جزءًا كبيرًا من الكنوز التى كان رجاله قد نهبوها أثناء إقامتهم على الجزيرة.

بعد رحيل كل الفرسان والفرنسيين، كان أن وجد المالطيون أنفسهم تحت سلطة مفوض بريطانى مدنى، إلى أن يتقرر مصيرهم على المدى الطويل. فى سنة 1802 نصت اتفاقية "أميان[12]- Amiens" التى أعلنت السلام بين بريطانيا وفرنسا (رغم أن نابوليون لم يكن ينوى تنفيذها إلا إذا كانت تناسبه)، نصت على عودة الجزيرة إلى تنظيم فرسان سان جون، إلا أن المالطيين لم يكونوا يحسبون أن الفرسان كانوا يبدون تفضيلهم للأمان الذى يوفره لهم التاج البريطانى، وهو ما حصلوا عليه أخيرًا فى 1814، بموجب معاهدة الصلح فى باريس- Peace of Paris.

** ** **

ليلة الأول من يوليو 1798، بعد نحو أسبوعين من مغادرته مالطة، ألقى الأسطول الفرنسى مراسيه بالقرب من "مارابوت- Marabout"، التى تبعد نحو سبعة أميال عن الإسكندرية. كان إبرار ذلك العدد الكبير من الجنود وذلك الكم الهائل من العتاد بواسطة سفن صغيرة (لم يكن متيسرًا سواها)، كان عملية طويلة وشاقة. بدأ ذلك فى وقت متأخر بعد الظهر، عندما كانت عاصفة قد بدأت تتجمع. كان نائب الأدميرال فرانسوا - پول بريز ديجالبير - Francois- Paul Bryes d'Aigailliers - قد نصح بتأجيل العملية إلى الصباح التالى، ولكن ناپوليون رفض أن يستمع إليه. هو نفسه لم يتمكن من الوصول إلى الشاطئ إلا قبل منتصف الليل بقليل. لحسن حظه، لم تكن هناك مقاومة إلى أن وصل الجيش إلى الإسكندرية، وحتى هناك لم تكن الأسوار المتهالكة ولا الحامية الصغيرة ذات جدوى كبيرة لتأجيل ما كان محتومًا. كانت المدينة كلها فى حالة متردية. كان عدد سكانها قد تناقص من ثلاثمائة ألف (وهو ما كانت تزهو به أيام الرومان) إلى نحو ستة آلاف من البشر.. وكانوا فى حالة يرثى لها. بصرف النظر عن عمود پومپى- Pompey Pillar (الذى لم يكن له علاقة بـ پومپى) ومسلة كليوپاترة[13] (التى لم يكن لها علاقة بـ كليوپاترة)، لم يكن هناك أى شىء يذكِّر بأيام مجدها وعزها.

بالنسبة للجيش الفرنسى إذن، جاء الاستيلاء على الإسكندرية بمثابة خيبة أمل مفاجئة. كان قيظ يوليو مثبطًا للروح المعنوية، ولكن الرجال الذين كانوا يتوقعون مدينة رائعة الجمال - مع فرص وفيرة للسلب والنهب - ولم يجدوا سوى ركام من الكواخ الموبوءة،

هؤلاء الرجال لم يشعروا بخيبة الأمل فحسب، بل بأنهم خدعوا. وجد نابوليون أن من الأفضل ألا يعطيهم وقتًا للتفكير فى ذلك، وأنه كان لا بد من التقدم نحو القاهرة. متقدمين بحذاء الضفة الغربية من دلتا النيل، استولوا على رشيد دون مقاومة، وفى الواحد والعشرين من يوليو واجهوا القوة الرئيسية لجيش المماليك عند إمبابة. نصيحة نابوليون لقواته «أيها الجنود، إن أربعين قرنًا من الزمان تطل عليكم من قمم هذه الأهرامات»، هذه النصيحة دخلت التاريخ، إلا أنها لم تكن ضرورية، فقد كانت موقعة الأهرام أشبه بنزهة. لم تكن سيوف المماليك - رغم حدتها وحسن استخدامها - ندًّا لبنادق الفرنسيين. دخل القاهرة فى اليوم التالى، كانت أفضل من الإسكندرية نوعًا ما، بالنسبة لجنوده، إلا أنها لم تكن رحلة سهلة.

فى الوقت نفسه كان نلسون يطارد السفن الفرنسية عبر المتوسط. مُضَلَّلًا نتيجة معلومات من سفينة من جنوة بأن بونابارت كان قد غادر مالطة يوم السادس عشر من يونيو - أى قبل موعد مغادرته الحقيقى بثلاثة أيام - أسرع نلسون إلى الإسكندرية، ولما لم يجد أثرًا للأسطول الفرنسى، أبحر مرة أخرى يوم التاسع والعشرين؛ ليبحث عنه، على امتداد سواحل سوريا. نتيجة لهذا الارتباك، كان أن عاد إلى مصر فى الثانية والنصف مساء الأول من أغسطس، ليجد 13 سفينة حربية فرنسية - كان لديه 14 سفينة - وأربع فرقاطات راسية فى تشكيل قتال خطى على طول ميلين فى خليج أبو قير، أحد مصبات النيل. إلا أنها كانت ما تزال على بعد تسعة أميال، وكان يلزمه ساعتين أخريين لكى يصل إليها، ووقتًا أطول من ذلك بكثير لكى ينظم سفنه فى تشكيل قتال مناسب. كانت المواجهات الليلية فى تلك الأيام محفوفة بالمخاطر، وهناك خطر أن تجنح السفن فى مياه مجهولة، وخطر أسوأ وهو احتمال إطلاق النار بالخطأ على سفنٍ صديقة. فى مثل تلك الظروف كان معظم قادة البحر يفضلون الانتظار حتى الصباح؛ إلا أن نلسون عندما وجد أن الفرنسيين لم يكونوا مستعدين، وأن هناك رياحًا شمالية غربية تسرى، قرر أن يقوم بالهجوم فورًا. بدأ بإرسال أربع سفن بالقرب من الشاطئ على امتداد أحد أجناب خط القتال الفرنسى، بينما قام هو نفسه (من سفينة القيادة Vanguard) بقيادة هجوم مواز من الجانب الآخر البعيد عن الشاطئ، وهكذا كانت كل سفينة معادية معرضة لقصف مدفعى متزامن من الجانبين. كان ذلك نحو الساعة السادسة، واستمرت المعركة طوال الليل. عند الفجر، كانت كل السفن الفرنسية عدا أربع منها، قد دمرت أو وقعت فى الأسر، بما فى ذلك سفينة القيادة - L'orient ، التى قتل عليها الأدميرال برييز – Brueys بقذيفة مدفع. ما زالت السفن إلى الآن راقدة هناك تحت مياه خليج أبو قير، مع كل الكنوز المنهوبة من قصور وكنائس مالطة.

كانت موقعة النيل - كما أطلق عليها - أحد الانتصارات الكبرى فى تاريخ نلسون[14]. بضربة واحدة، لم يتم تدمير الأسطول الفرنسى فحسب، ولكنه قطع اتصال ناپوليون بفرنسا وتركه معزولًا وأحبط كل خططه لغزو الشرق الأوسط. كان لانتصاره كذلك تأثير بالغ الأهمية فى الروح المعنوية الفرنسية، بالرغم من أن هذا التأثير فيما يبدو لم يقع على معنويات بوناپارت. حتى قبل أن تبرد مدافع السفن، كان ناپوليون منهمكًا فى تحويل مصر إلى قاعدة إستراتيچية. ما كان البريطانيون يحاولون تحقيقه فى الهند شيئًا فشيئًا، كان هو يريد أن ينتهى منه فى أشهر قليلة. وضع أنظمة جديدة للإدارة والضرائب أكثر كفاءة، أنشأ سجلات للأراضى الزراعية، أعطى أوامر بإنشاء مستشفيات، حسَّنَ خدمات الصحة العامة وإضاءة الشوارع. كان العلماء والمهندسون الذين جاء بهم يعملون على حل مشكلات كثيرة مثل تطهير مياه النيل وصناعة البارود محليًّا.

ما فشل فيه، ولم يكن ذلك مفاجئًا، كان محاولاته كسب ثقة وتأييد المصريين. بذل كل ما في وسعه، وانتهز كل فرصة للتعبير عن إعجابه بالإسلام، أصدر حتى بيانًا لشعب مصر ذهب فيه إلى مدى أبعد:

> **أنا - أكثر من أى من المماليك - أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن الكريم، ... أيها المشايخ والقضاة والأئمة، قولوا لشعبكم: إن الفرنسيين أيضًا مسلمون مخلصون...**

تبقى حقيقة أن رجاله كانوا يتصرفون وكأنهم قد امتلكوا البلاد. كانت هناك هبات وانتفاضات على نطاق ضيق باستمرار، وعمليات هجوم على حاميات فرنسية منعزلة، أو اعتداءات على أفراد فرنسيين فى الشوارع. فى شهر أكتوبر تم إخماد ثورة أكثر خطرًا بطريقة وحشية؛ حيث قتل أكثر من ثلاثة آلاف مصرى، كما نُهِبَ الجامع الأزهر، ومنذ ذلك اليوم أصدر بوناپارت مرسومًا بقطع رأس أى مصرى يحمل سلاحًا ناريًّا وإلقاء جثته فى النيل، لم يكن غريبًا أن تزداد كراهيته مع استمرار الاحتلال.

وراء الحدود المصرية كذلك، كان الأعداء يتجمعون، ففى الثانى من سبتمبر 1798، أعلن السلطان سليم الثانى الحرب على فرنسا، وبدأ الجزار الحاكم التركى لسوريا، فى حشد جيش. كان من السهولة بمكان أن يتقدم هذا الجيش فى اتجاه الجنوب ثم ينعطف عبر شبه جزيرة سيناء ليغزو مصر من ناحية الشرق، والأسوأ أنه كان يمكن أن تحمله السفن الإنجليزية إلى دلتا النيل مباشرة. وبدلًا من المغامرة بمواجهة مثل هذا الاحتمال، قرر بوناپارت أن يبادر بالفعل ويقوم بتدمير جيش الجزار قبل أن يكتمل تشكيله. فى الأول من فبراير 1799، زحف بجنوده عبر صحراء سيناء ودخل فلسطين. فى السابع

من مارس سقطت جدة؛ قتل 2000 تركى وفلسطينى وتم اقتياد 2000 آخرين إلى البحر حيث أطلق عليهم الرصاص. وفى محاولة لتحسين صورته بعد هذه الفظائع، زار القائد الأعلى إحدى المستشفيات، ويقال: إنه قام – بناء على نصيحة سيئة – بنقل أحد موتى الطاعون لدفنه، لم يصب بالعدوى، ولكن يبدو أن أسلوب العلاقات العامة هذا، لم يكن له أى جدوى.

كانت «عكا – Acre» هدفه الثانى، ولكن دفاعاتها كانت قوية بعد أن كان الحاكم التركى قد حصل على مساعدات إضافية من البحرية البريطانية بقيادة الكومودور سير "سيدنى سميث – Sidney Smith" الشهير بهروبه من سجن المعبد فى باريس إبان الثورة. كان سميث قد جاء معه بصديقه الكولونيل "فيليبو – Phélippeaux"، وهو مهندس عسكرى كان قد درس فى المدرسة العسكرية مع بونابارت، وكان يستطيع الإسهام بخبرته العسكرية القيمة فى الدفاع عن المدينة. حاصر الجيش الفرنسى المدينة لمدة شهرين، إلا أن سميث نجح فى أسر السفن العسكرية الثمانية التى كانت تحمل مدفعية الحصار ومخازن التموين والذخيرة. لم يكن لدى بونابارت سوى مدفعية الميدان، ولم يتمكن من إحضار ستة مدافع ثقيلة من يافا – Jaffa إلا فى الخامس والعشرين من أبريل. فى العاشر من مايو، شن هجومه الأخير، ومثل سابقه منى بخسائر فادحة فلم يكن أمامه سوى الانسحاب. آنذاك، كان الطاعون قد تفشى فى الجيش. كان هو نفسه مع قتل كل المرضى باستخدام جرعة زائدة من الأفيون إلا أن كبير أطبائه العسكريين رفض ذلك منذ البداية. كانت مئات النقالات التى تحمل المرضى والجرحى سببًا فى بطء رحلة العودة، أما أفواج الجنود العائدين الذين كانوا يجرون أقدامهم إلى القاهرة، فلم يكونوا أقل بؤسًا.

كالعادة، بذل بونابارت كل ما كان فى وسعه لكى تبدو الهزيمة وكأنها انتصار، تم عرض الأسرى الأتراك والأعلام التركية التى كان قد تم الاستلاء عليها بكل تفاخر، ما كان قد تبقى من الجيش تم تنظيفه قدر المستطاع للقيام بعرض انتصار عسكرى فى المدينة، وفى الخامس والعشرين من أبريل أحبط عملية لقوة تركية صغيرة كانت قد رست عند أبو قير بمساعدة بريطانية. لم ينخدع أحد وبخاصة المصريون. فشلت حملة الشرق الأوسط ولم تحقق الكثير لسمعة نابوليون. أزعجته كذلك التقارير التى كانت تصل إلى القاهرة عن أن أوروبا كانت فى حالة حرب مرة أخرى، وأن الجمهورية السيسالبينية الإيطالية التى كان قد أقامها قبل عامين كانت تحت الاحتلال النمساوى الآن، وأن الجيش الروسى كان يتقدم، وأن الوضع الداخلى فى فرنسا نفسها كان قد

عاد حرجًا، للمرة الأولى فى تاريخه – وليست الأخيرة – ترك جيشه ليعود إلى بلاده، وفى الخامسة من صباح الثانى والعشرين من أغسطس 1799، انسل سرًا من معسكره وأبحر إلى فرنسا. حتى خليفته فى القيادة الجنرال "چان باپتست كليبر – Jan Baptiste Kleber" لم يعرف بمغادرته إلا بعد أن كان قد رحل فى أمان.

** ** **

فى باريس، كان انقلاب الثلاثين من بريريال – Prairial (18 يونيو) 1799 قد أطاح بالمعتدلين فى حومة الإدارة، وجاء بآخرين ممن كانوا يعتبرون يعاقبة متطرفين، إلا أن الفوضى ظلت هى السائدة، وأعلن أحد المديرين "إيمانويل سيس – Emmamuel Sieyes" أن الدكتاتورية العسكرية فحسب هى التى كان يمكن أن تمنع عودة الملكية، كما عبر عن ذلك بقوله: "إننى أبحث عن سيف" – Je Cherch un Sabre . لم يمر وقت طويل حتى كان ذلك السيف فى متناول اليد. منذ لحظة وصول بوناپارت إلى باريس فى الرابع عشر من أكتوبر – بعد أن هرب بمعجزة من الجيش البريطانى – بدأ هو وسيس فى التخطيط لانقلاب لحسابها. حدث ذلك فى الثامن عشر والتاسع عشر من "برومير – Brumaire" (التاسع والعاشر من نوفمبر)، فأسقط حكومة الإدارة وأنشأ حكومة جديدة هى "القنصلية – The Consulate"، أو ما عرف بحكومة القناصل. شكليًا، كان هناك ثلاثة قناصل، والفعلى أنه كان هناك قنصل واحد، ومنذ ذلك كان ناپوليون بوناپارت – القنصل الأول – هو "سيد فرنسا".

أمضى الشتاء فى إعادة تنظيم جيشه – كانت روسيا قد انسحبت من التحالف المضاد لفرنسا – والإعداد لحملة ضد عدوه الرئيسى الباقى: النمسا. فى ذلك الوقت كان النمساويون يحاصرون چنوة عاصمة إحدى صنائعه الأقصر أجلًا: الجمهورية الليجورية. كان چنرال أقل منه يمكن أن يتقدم جنوبًا من باريس عبر وادى "الرون – Rhone"؛ ولكن ناپوليون انعطف شرقًا عند الألپ، وقاد رجاله عبر ممر سان برنار الكبير قبل ذوبان الجليد، وظهر فى إيطاليا خلف الجيش النمساوى ليفاجئه. لم يكن أمام الچنرال النمساوى "مايكل ڤون ميلاس – Michael von Melas" سوى أن يترك چنوة ويعيد تنظيم قواته ويركز على "أليساندريا – Alessandria"، تَتَبَّعه ناپوليون، ليصل إلى قرية "مارينجو – Marengo" مساء الثالث عشر من يونيو 1800 - كانت فى الحقيقة أقرب إلى مزرعة – على بعد ميلين ونصف الميل تقريبًا، جنوب غرب المدينة.

كان يمكن أن تضع المواجهة التى حدثت نهاية لسيرة ناپوليون. لم ينتظر ميلاس

حتى يهاجمه جيش بونابارت، ففى صباح اليوم التالى، وبقوة قوامها نحو واحد وثلاثين ألف جندى، فتح مدافعه الثمانين بكل عنف على الفرنسيين الذين كان يقدر عددهم بنحو ثلاثة وعشرين ألفًا، واستمر القصف أكثر من خمس ساعات. بعد الظهيرة بقليل، بدأ خط قتالهم ينهار، وأُجبروا على التقهقر مسافة أربعة أميال تقريبًا، حتى قرية سان جيليانو – San Giuliano . بدا انتصار النمساويين مؤكدًا، إلا أنه – ويا للغرابة! – ربما كان ميلاس البالغ من العمر واحدًا وسبعين عامًا قد آوى إلى أليساندريا تاركًا القيادة لمرؤوس غير كفء نسبيًّا، فكانت مطاردتهم بطيئة وبلا حماسة؛ مما أعطى ناپوليون الفرصة لإعادة تنظيم قواته وتلقى تعزيزات مهمة، تحت قيادة الچنرال "لويس ديزيه – Louis Desaix"، التى جاءت - لحسن الحظ - من جهة الجنوب الشرقى. مع اقتراب المساء، شن هجومًا مضادًا. قتل ديزيه فى الحال، ولكن جنوده البالغ عددهم نحو ستة آلاف جندى، وكانوا قد استراحوا واستعادوا نشاطهم، بثوا روحًا جديدة فى زملائهم، وبحلول الليل كان النمساويون يولون الأدبار، عندما انتهت المعركة، كانوا قد فقدوا تسعة آلاف وخمسمائة جندى، بينما كانت خسائر الفرنسيين أقل من ستة آلاف جندى.[15]

لم يكن أمام ميلاس الآن سوى التوصل إلى تفاهم، ساحبًا كل قواته شرق نهر «منسيو – Mincio» وشمال الـ "پو – Po"، تاركًا للفرنسيين السيادة الكاملة على وادى الـ پو – Po ، حتى نهر أديچ. أما ناپوليون، الذى لم تتلوث سمعته برغم انتصاره الذى تحقق بشق الأنفس، فعاد إلى پاريس؛ حيث تولى السلطتين العسكرية والمدنية. فى 1801، أجبرت النمسا على توقيع اتفاقية "لونيڤى – Luneville" التى استعادت فرنسا بموجبها التخوم القديمة التى كان "يوليوس قيصر – Julius Caesar" قد أعطاها لـ "جول – Gaul" الراين والألپ والبرانس.

كان نجم ناپوليون الآن عاليًا فى السماء ومستمرًا فى الصعود.

هوامش الفصل الحادى والعشرين

(1) سيكتب اسمه Napoleone Bonaparte حتى 1796 عندما ترجمه إلى الفرنسية، وأعتقد أنه سيكون من الأسهل والأكثر بساطة أن نلتزم بالصيغة الفرنسية له ولأسرته طوال الكتاب.
(2) جاء عنه فى تقرير امتحان القبول: "قيادى، مهيب، عنيد، متشبث برأيه".
(3) المؤيدون للحكم الملكى.
(4) تأسس النادى اليعقوبى الأصلى لحماية مكاسب الثورة ضد رد الفعل الأرستقراطى المتوقع، إلا أنه سرعان ما أصبح مقترنًا بنزعة المساواتية egalitarianism المتطرفة والعنف، التى أدت إلى قيام الحكومة الثورية من منتصف 1793 حتى سقوط روبسبيير – Robespieroe فى يوليو 1794 . بحلول شهر يوليو 1790، كان هناك 152 فرعًا للنادى اليعقوبى فى أرجاء فرنسا.
(5) بوزو دى بورجو – Pozzo di Borgo زميل باولى والعدو اللدود لآل بونابارت.
(6) "كافئ هذا الشاب ورقه؛ لأنك لو لم تقدر خدماته فسوف يقوم هو بترقية نفسه".
(7) الجمعة السابقة لعيد الفصح. (المترجم)
(8) السبت السابق لعيد الفصح. (المترجم)
(9) مجلس أشبه بمجلس الوزراء الحديث، كان يضم 13 عضوًا بمن فيهم الدوج نفسه، وكان بمثابة الذراع التنفيذى للحكومة. كان رئيسه – الذى يشغل المنصب بالتناوب أسبوعيًا – يعتبر رئيس وزراء الجمهورية.
(10) التمييز الوحيد لهذه الدولة عديمة القيمة كان اختيار الألوان الأحمر والأبيض والأخضر لعلمها، والغريب أن أحد التجليات الباكرة للغزو الفرنسى هو الذى أدى إلى ظهور العلم الوطنى الإيطالى.
(11) كان تاليران قد نأى بنفسه عن الثورة واعتزل عنها بعد إعدام العائلة الملكية فى 1793، وذهب إلى – أمريكا – المنفى الاختيارى. عاد فى 1795 بعد سقوط اليعاقبة – The Jacobins وأصبح رئيسًا للوزراء فى 1797 .
(12) استمرت أقل من 14 شهرًا بسبب غضب نابليون لعدم مغادرة البريطانيين الجزيرة فورًا، وقلق البريطانيين لقيامه بضم بيدمونت وإلبا وبارما وبياكنزا فى 1802 .
(13) يعود العمود فى الحقيقة إلى زمن ديوقلتيان - Diocletian فى نهاية القرن الثالث، أما المسلة فتعود إلى عهد تحتمس الثالث – حوالى 1500 سنة قبل عهد كليوباترة، وأهداها محمد على للحكومة البريطانية فى 1819، وإن كانت لم تصل إلى لندن سوى فى 1878 .
(14) فى رسالته قال نلسون: إن الاشتباك حدث فى مكان بالقرب من مصب النيل عند رشيد. الأكثر دقة أن يطلق عليها موقعة أبو قير.
(15) وصلت أخبار انتصار نابليون فى مارينجو إلى روما، بعد ساعات من تقارير هزيمته. التغير المفاجئ من الاحتفال إلى مناحة يضيف درامية إلى الفصل الثانى من توسكا – Tosca بوتشينى – Puccini .

الفصل الثانى والعشرون

حاشية عن ناپولى

• الجمهورية الپارتينوپية: 1799 • عصيان فى ناپولى: 1799 • يا له من إنسان يستحق الرثاء ! : 1800

استُقبِلت أخبار انتصار نلسون على النيل فى إنجلترا بفرح، وربما بفرح أكبر فى نابولى. كان ملكها "فرديناند الرابع[1] Ferdinand IV" قد جاء إلى العرش فى 1759 وهو فى الثامنة من العمر. كان هو وملكته "ماريا كارولينا – Maria Carolina" – ابنة الإمبراطورة "ماريا تريزا – Maria Theresa" ملكة النمسا والشقيقة الكبرى لسيئة الحظ "مارى أنطوانيت – Marie Antoinette" – كانا زوجين غير سعيدين. كان فرديناند – "الملك الوغد" كما كان يعرف (il rè lazzarone) – صبيًّا أخرق شغله الشاغل الصيد واللهو، لم يكن لديه أى ذرة من الكرامة الفطرية، وكان يفاخر بأنه لم يقرأ كتابًا. أما الملكة فكانت مثقفة نسبيًّا، ورغم وعيها بمنزلتها ومكانتها، كانت شديدة التسامح مع زوجها الذى لا يطاق،[2] والذى أنجبت له ثمانية عشر ابنًا، وبالرغم من أنها كانت فى السادسة عشرة عند زواجها، لم يمر وقت طويل حتى كانت تدير المملكة بكفاءة. أما سياستها الخارجية فكانت تمليها عليها كراهيتها المفهومة للثورة الفرنسية وكل ما كانت تمثله.

منذ 1797 كانت الأهداف الفرنسية فى جنوب إيطاليا واضحة تمامًا بالنسبة لـ ماريا كارولينا، وحتى لرعاياها وللملك فرديناند. فى الثانى والعشرين من ديسمبر من العام نفسه وفى روما، قام اليعاقبة - The Jacobins المحليون بمظاهرة مسلحة ضد البابا، قتل فيها ضابط فرنسى، كان فى السابعة والعشرين ويدعى "ليونارد دبيو – Leonard Duphot"، بعد أن أطلق عليه جندى من أتباع البابا النار. رفض السفير الفرنسى چوزيف - الشقيق الأكبر لـ "نابوليون" - أن يستمع إلى إيضاحات الڤاتيكان، وقام بإبلاغ حكومة الإدارة بأن القساوسة قتلوا أحد ألمع ضباطه الشبان، وكانت النتيجة أن صدرت الأوامر للچنرال "لويس بيرتييه – Louis Bertier" بالزحف على روما. لم يقابل بأى مقاومة، وفى العاشر من فبراير 1798 كان قد احتل المدينة، وبعد خمسة أيام أعلنت الجمهوريـة الجديدة من الساحة العامة. عومل "البابا پيوس السادس –Pope VI Pius" (80 سنة) معاملة فظة شديدة القسوة؛ حيث كانت تنزع الخواتم من أصابعه عنوة، ونقل إلى فرنسا ليموت بائسًا فى "ڤالنس – Valence" فى أغسطس 1799.[3]

ماذا كان بوسع نابولى أن تفعل؟ كان الفرنسيون الآن على الأبواب، فمن ذا الذى يستطيع أن يمنعهم من اجتياز الحدود، أو يوقفهم إن هم فعلوا ذلك؟ باحتلال نابوليون لمالطة فى 1798، كان الخطر يلوح أكثر وضوحًا. لا عجب إذن أن يكون أهالى نابولى

قد فرحوا لأخبار معركة النيل، أو حتى عندما وصل نلسون على سفينته «ڤانجارد- Vanguard" فى أواخر سبتمبر ليستقبل استقبال الأبطال، وفى التاسع والعشرين من الشهر، أقيم حفل رائع حضره نحو ألف وثمانمائة ضيف بمناسبة عيد ميلاده الأربعين، بواسطة الوزير المفوض البريطانى سير "وليم هاملتون - William Hamiton" وزوجته "إما - Emma" فى "پالازو سيسا - Palazzo Sessa"، ولكن الحفل لم يكن ناجحًا بالنسبة لـ نلسون. صباح اليوم التالى، كتب إلى "لورد سان ڤانسا Lord St Vincent" يقول:

> **أثق يا سيدى أننا، فى غضون أسبوع، سنكون قد عدنا كلنا إلى البحر. أنا معتل الصحة تمامًا، وليس من المرجح أن يساعد السلوك البائس لهذا البلاط فى تهدئة مزاجى السيئ، هذه بلاد شعراء وعازفين وبغايا وأوغاد.....**

كانت الأشهر التالية بالفعل أشبه بكابوس ثقيل. فى أوائل أكتوبر، وصل الفيلد مارشال النمساوى "البارون كارل ماك ڤون ليبرش - Baron karl Mack von Leib- erich"؛ ليتولى قيادة جيش نابولى المكون من خمسين ألف مقاتل، الذى زحف شمالًا فى حينه، وبين صفوفه ملك يرتعد. غنى عن القول أنهم كانوا عاجزين عن إيقاف تقدم الفرنسيين، وبأوائل سبتمبر كان المزيد منهم ضباطًا وجنودًا قد خلعوا لباسهم العسكرى وعادوا إلى بلادهم. الملكة التى لم يكن المصير التعس لأختها قد بارح خيالها، كتبت عدة مرات إلى ليدى هاملتون تأسى لجبنهم، ولكن عندما ترك زوجها الجيش بدوره لم تكن هناك رسائل أخرى بخصوص ذلك. فى الثامن عشر من ديسمبر، وصلت رسالة من "ماك - Mack" الذى كانت معنوياته فى الحضيض، يعترف فيها بأن جيشه- الذى لم يكن قد خاض معركة واحدة - كان ينسحب الآن بكامله، ويناشد سموهما المغادرة؛ حيث كان ما زال هناك وقت لذلك. كتب نلسون إلى الوزير المفوض فى القسطنطينية يقول: "لا أعرف أن العائلة الملكية كلها، مع ثلاثة آلاف مهاجر من نابولى لن يكونوا تحت حماية علم الملك هذه الليلة".

وهو ما كان بالفعل، رغم أن فانجارد لم تغادر نابولى حتى مساء اليوم الثالث والعشرين بسبب سوء الطقس والارتباك النابولى المعتاد، وليلة عيد الميلاد سجل نلسون: "كانت أشد عاصفة خبرتها منذ عرفت البحر". كان الكل فى حالة رعب على متن السفينة. وحدها، من بين كل الركاب، كانت إما هاملتون رابطة الجاش، أما سير وليم فقد وجدوه فى قمرته ممسكًا بكلتا يديه بمسدس محشو بالطلقات؛ لأنه - كما أوضح لزوجته - كان قد قرر ألا يموت "وقرقرة الماء المالح فى حلقه". الأمير "ألبرت - Albert" الصغير

(6 سنوات) مات من الإرهاق بين ذراعى إما، ولكن السفينة رست أخيرًا فى الثانية من صباح السادس والعشرين فى ميناء پاليرمو، وبعد ساعات قليلة، دخل سمو الملك الصقلى رسميًا العاصمة الثانية لمملكته.

استقر الملك والملكة فيما أصبح يعتبر القصر الملكى، وفى الوقت نفسه انتقل نلسون مع آل هاملتون. كان مرهقًا تمامًا، ولم يكن قد برأ من جرح فى رأسه من أثر معركة أبو قير، كان يتشاجر مع القيادة البحرية دائمًا، كما كانت علاقته بزوجته كذلك مصدر إزعاج شديد له. كان فى حاجة إلى دعم عاطفى، وهو ما وفرته له إما هاملتون، كما أوفت خبرتها السابقة كمحظية بالباقى! كان فى صقلية أن بدأت علاقتهما الشهيرة.

عندما وصلت القوات الفرنسية بقيادة الچنرال "چان- إيتيان شامپيونيه Jean- Etienne Championnet" إلى ناپولى فى منتصف يناير، وجدوا الروح المعنوية لدى العامة أكثر ارتفاعًا منها بين صفوف الجيش. كان الدهماء (أو اللازارونى- lazzroni كما كان يطلق عليهم) على استعداد للهجوم على الغزاة بضراوة، وكان هناك قتال عنيف يدور من بيت لبيت. فى آخر الأمر، كان لا بد من أن يستسلم الدهماء، ولكن ليس قبل أن يقتحموا القصر الملكى وينهبوه. قاموا بذلك بكل ضمير مستريح تقريبًا.... ألم يكن ملكهم قد تخلى عنهم؟ ثم ألم يكن من الأفضل أن يترك كنوزه لرعاياه بدلًا من أن يتركها لأعدائه الفرنسيين؟

عندما استتب الوضع فى النهاية وساد الهدوء، كان أحد الضباط الفرنسيين يلمح بما معناه أن بونابارت لو كان هناك شخصيًا، لما ترك حجرًا على حجر فى المدينة، ولكن لحسن الحظ أن شامپيونيه كان شخصًا معتدلًا... كان إنسانًا طيبًا. بهدوء ودبلوماسية، أسس ما عرف بـ "الجمهورية البارتينوپية - Parthenopean Republic"[4][(4)] على النموذج الفرنسي الثورى. أعلنت رسميًا فى الثالث والعشرين من يناير 1799 واكتسبت عددًا من الموالين الإيطاليين، وثم إنه كان من الواضح للجميع أن ذلك كان نتيجة للغزو وأن الجيش الفرنسي كان الداعم الوحيد لها.

** ** **

بالنسبة للملكة كارولينا، كانت الحياة فى صقلية «أسوأ من الموت». كانت تعتقد أنها وزوجها قد أهينا ولحق بهما العار. كان شتاء 1798- 1799، شديد البرودة والثلج يغطى الشوارع - وكانت تلك ظاهرة نادرة فى پاليرمو - ولم يكن بالقصر وسائل تدفئة... ولا حتى سجاجيد. كذلك فإن زوجها كان قد انقلب عليها ويلومها؛ لأنها هى التى ورطته

فى تلك الحملة المخجلة، وأثقلت كاهله بذلك الجنرال البائس ماك. إلا أن روحها لم تضعف. كانت تمنى نفسها بثورة مضادة، ورحبت – بحماسة - بفكرة عملية من هذا النوع، بالرغم من أنها جاءت من شخص كان أبعد ما يكون عن هذا التصور.

كان الكاردينال «فابريزيو رافو- Fabrizio Ruffo" قد تخطى الستين من العمر. كان قد عمل وزيرًا للمالية لدى البابا پيوس الثالث، ولكن كل مشروعاته للإصلاح فى روما كانت قد قوبلت بالرفض باعتبارها شديدة الراديكالية. كان على أثر ذلك أن تقاعد فى ناپولى، ومن هناك كان أن تبع البلاط فى پاليرمو. الآن كان الكاردينال يقترح القيام بعملية إبرار فى وطنه كالابريا، أولًا: لحمايتها من أى زحف فرنسى (ومن النظام الجمهورى الإيطالى كذلك، وثانيًا: استعادة ناپولى لملكها. كان يرى أن ذلك لن يتحقق سوى بحملة صليبية، ولم يكن لديه أدنى شك فى أن كل أبناء بلده (كالابريا) سوف يتجمعون حول الصليب.

رسا رافو، كما كان مخططًا، فى السابع من فبراير مع ثمانية رفاق. انضم إليه ثمانون من اللازارونى (الدهماء) المسلحين على الفور، وفى نهاية الشهر، كان عدد قوة "جيش الإيمان المسيحى المقدس" قد ارتفع إلى سبعة عشر ألف رجل. كان رافو قائدًا بالفطرة، وسرعان ما اكتسب ثقتهم وحبهم. فى سنة 1799 كتب سكرتيره وكاتب سيرته "ساشينيللى- Sacchinelli": "لم يكن هناك أى مزارع مسكين فى كالابريا كلها إلا وكان هناك صليب يمثل المسيح مصلوبًا على أحد جانبى سريره، وبندقية على الجانب الآخر". فى 31 مارس، كان الكاردينال قد أقام مركزًا رئيسيًّا فى مدينة "مونتليون- Monteleone"، وكانت إحدى المدن المهمة، ثم فى "كاتنزارو- Catanzaro"، ثم فى "كوترون- Cotrone"، ولكن الذى لا شك فيه أنه كانت لديه مشكلاته كذلك. كان جيشه المستهتر يفتقر إلى الانضباط، لم يكونوا صليبيين يتصرفون على نحو أفضل من أسلافهم فى العصور الوسطى. على سبيل المثال، كانت مدينة كوترون عرضة لعمليات سلب ونهب لم تبرأ منها قط. تلك الفظائع كان لا بد من أن تدمر سمعته، رغم أنه شخصيًّا كان معتدلًا وإنسانًا طيبًا، ويفضل التحول الديني السلمى على العنف. ولكن زخم نجاحاته استمر، وشجع ذلك على انتشار حركات مماثلة فى الجنوب الإيطالى. هو نفسه، بعد أن استعاد كالابريا كاملة، زحف شرقًا على "أپوليا- Apulia"؛ حيث أحرز انتصارات مماثلة. بحلول الأول من يوليو كان على أبواب ناپولى - التى بفضل حصار أسطول بريطانى بقيادة الأدميرال "السير توماس تروبردج - Sir Thomas Troubridge" للخليج، كانت على شفا مجاعة.

فى الحادى عشر من يونيو، وبعد أن سمعوا بقرب وصول الكاردينال، هب أهالى ناپولى وأعلنوا العصيان، ونشب القتال فى أرجاء المدينة؛ بحثًا عن الطعام، وتحت القصف الفرنسى الرهيب من قلاع "سانت إلمو – St Elmo" و"نوفو- Nuovo" و"أوڤو-Ovo"، كان اللازارونى ينقضون بكل وحشية على أى من اليعاقبة يمكن أن يقع فى أيديهم فرنسيًا كان أو إيطاليًا، وهناك روايات كثيرة عن فظائع رهيبة: عن بتر الأعضاء وأكل لحوم البشر وقطع الرؤوس ورفعها على أسنة الرماح أو ركلها بالأقدام مثل الكرة فى الشوارع، وعن نساء اتهمن باليعقوبية، كن عرضة لأسوأ صور الامتهان. كان الكاردينال المفزع يحاول التصدى لذلك بكل جهده، ولكنهم كانوا قد أوغلوا فى حمام الدم؛ وباختصار، لم يكن له حول ولا قوة أمام هيستريا الدهماء تلك. استمرت عمليات العربدة والتخريب نحو أسبوع. كانت المفاوضات معطلة بسبب عدم قدرة قادة القلاع الثلاث على الاتصال بعضهم ببعض، وفى التاسع عشر من الشهر تسلمت القلعتان الفرنسيتان رسميًا، وبقيت سانت إلمو وحدها صامدة. حتى فى ذلك الوقت كانت هناك مشكلات: كان الملك والملكة - وآل هاملتون بالطبع - مصرين على عدم إبداء أى رحمة حيال أى من اليعاقبة الباقين على قيد الحياة، بينما كان رافو وأصدقاؤه يرون بوضوح خطر عودة ثنائى ملكى لا يفكر سوى بالثأر.

نلسون، لأسباب غير مفهومة ولسوء الحظ كذلك، انحاز إلى الجانب الملكى. سياسيًا، كان ساذجًا بدرجة غير عادية، كما أن درايته بالأوضاع فى ناپولى كانت محدودة بالآراء المنحازة التى كان يلتقطها من الملك والملكة وآل هاملتون من وقت لآخر. لم يكن يعرف كلمة واحدة من أى لغة أخرى غير لغته. وكبروستانتى إنجليزى يمينى عملى، لم يكن يثق بالكاردينال، وعندما وصل إلى ناپولى لم يتردد فى فرض نفوذه عليه - مصرًا كما كان أصدقاؤه ذلك مصرين - على استسلام غير مشروط. بناء على ذلك، خرج نحو ألف وخمسمائة متمرد من الذين كان رافو قد أنقذهم من الدهماء ووفر لهم مأوى فى مخازن القمح التابعة للبلدية. كانوا يتوقعون خروجًا آمنًا إلى بلادهم، إلا أن الحكومة الملكية الجديدة أمسكت بهم وأعدمت الكثير منهم. هل خانهم نلسون؟ الأرجح أنه لم يفعل. كل ما نعرفه عن شخصيته يدل على أنه ما كان ليفعل ذلك، ولكن تأثير آل هاملتون عليه كان من القوة بالدرجة التى تجعله يقبل بوجهة نظرهم دائمًا.

أدين نلسون كذلك، مع مبررات أكبر، بسبب معاملته للكومودور فرانسيسكو كاراكيولو- Commodore Francesco Carraciolo كبير الضباط السابق فى بحرية ناپولى، الذى كان قد نقل ولاءه للجمهوريين. بعد عشرة أيام من الهرب متنكرًا،

وُجِدَ كاراكيولو مختبئًا فى حفرة عميقة، وجاؤوا به ليمثل أمام نلسون على ظهر السفينة "فودرويانت - Foudroyant"، وفى العاشرة من صباح الثلاثين من يونيو جرت محاكمته عسكريًا وحكم عليه بالإعدام. فى الخامسة بعد الظهر شنق على طرف عارضة الشراع. بقيت جثته معلقة حتى الغروب - كنا فى منتصف الصيف - عندما قطعوا الحبل لتسقط فى البحر. لم يسمح له بشهود للدفاع عنه، ولا بقس ليستمع إلى اعترافه الأخير. كانوا قد رفضوا طلبه بأن يعدم بإطلاق النار عليه بدلًا من الشنق. ربما كان خائنًا، ولكن المؤكد أنه كان يستحق معاملة أفضل. لماذا سمح نلسون بذلك؟ بكل بساطة، سمح بذلك بسبب غرامه بـ "إما – Emma". كان مفتونًا بها. كان نلسون أكثر ما يكون جموحًا وإقدامًا عندما يكون على سفينته والبحر من تحته، خارج عالمه وبين ذراعى عشيقته لم يكن أكثر من طفل.

فى الأسبوع الأول من يوليو، عاد الملك إلى نابولى تاركًا ماريا كارولينا، إلا أنه لم يمكث هناك طويلًا. لم يحدث قط على مدى الأربعين عامًا التى كان فيها على العرش - أن خطر بباله أن يكون له أعداء فى المدينة، الآن كان متأكدًا من وجودهم، وهزه ذلك بشدة. من هنا، كان يفضل أمان پاليرمو؛ حيث كان ما زال يستطيع أن يخدع نفسه ويتصور أنه محبوب. فى الثامن من أغسطس، أبحر عائدًا إلى مينائها مع نلسون على متن فودرويانت ومعه الملكة. هبط الاثنان على الشاطئ وسط طقس رسمى؛ حيث أطلقت 21 طلقة مدفعية تحية لهما، قبل أن يذهبا للصلاة شكرًا فى الكاتدرائية.

بالنسبة لـ "فرديناند" و"ماريا كارولينا" و"آل هاملتون"، مضت الحياة كما كانت فى السابق - باستثناء أنه لم يكن هناك الآن أى سبب قوى يدعوهم للبقاء فى پاليرمو. كانت الملكة تهفو إلى نابولى بينما كان الملك يمقت تلك المدينة. لم يقل قط: إنه كان على استعداد أو يريد أن يعود، وبينما كان آل هاملتون - من وجهة نظر سياسية - مع العودة، إلا أنهم كانوا راضين تمامًا حيث هم. أما بالنسبة للسير وليم فكان عليه أن يبقى مع فرديناند باعتباره موفدًا شخصيًا له، كذلك فإن نابولى كانت تحمل ذكريات أليمة بالنسبة له؛ إذ كانت المجموعة الثانية من مقتنياته من المزهريات اليونانية قد فقدت فى حادث غرق سفينة فى أغسطس 1798.

كان المصير الأسوأ هو مصير نلسون. كان عليه أن يبقى على البر فى پاليرمو حتى يونيو 1800. عشرة أشهر استنزف فيها غرامة بـ إمًا روحه المعنوية، ويبدو كذلك أن هذا الهيام أثر فى ضميره وشعوره بالواجب. على مدى النصف الأول من تلك الفترة، كان المفترض أنه قائد أسطول البحر الأبيض، إلا أنه – عمليًا - كان يترك كل شىء

لمرزوسيه. لم يكن موجودًا لكى يكتشف بوناپارت عندما انسل خارجًا من مصر... لو حاول ونجح، فلربما كان مسار التاريخ قد تغير. كان زملاؤه قلقين عليه، وكانت التقارير المرتبكة تصل إلى لندن؛ حيث كان صبر القيادة البحرية قد بدأ ينفد وكان اللورد الأول "سپنسر - Spenser" على وشك أن يصدر قرارًا بإعفائه من قيادة الأسطول. فى يناير 1800، عاد لورد "كيث- Keith"، (وكان أقدم منه) إلى العمل، وأمر نلسون بأن ينضم إليه للقيام بتفتيش على حصار مالطة، ولكن الچنرال عاد فورًا إلى پاليرمو؛ حيث كانت إمّا – كانت حاملًا آنذاك دون أى شعور بالخزى – فى استقباله بالأحضان.

عاد نلسون وآل هاملتون إلى مالطة فى أبريل 1800، بالرغم من أن رحلتهم كانت نزهة أكثر منها زيارة بحرية مهمة. فى تلك اللحظة، تسلم سير وليم رسالة استدعائه، وهكذا أبحر ثلاثتهم أخيرًا إلى إنجلترا فى شهر يوليو – وحيث إن كيث كان قد رفض إعطاء نلسون سفينة حربية، قام هو بالاستيلاء على بعض سفن حصار مالطة دون إذن – ومعهم فى أول مرحلة من الرحلة الملكة ماريا كارولينا، التى كانت فى طريقها لزيارة عائلتها فى ڤيينا. أنزلوها فى ليڤورنو – Livorno؛ حيث التقوا مصادفة بالچنرال سير چون مور – General Sir John Moore، الذى كان فى طريقه إلى مصر. كان تعليقه: "إنه لأمر مؤسف فعلًا أن أرى رجلًا شجاعًا بارعًا، كان يستحق من وطنه الكثير، وقد أصبح هكذا إنسانًا يستحق الرثاء".

فى آخر الأمر، استقر آل هاملتون فى لندن؛ حيث ولدت "هوراشيا – Horatia" ابنة نلسون فى يناير التالى. فى ذلك اليوم نفسه، عُيِّنَ قائدًا لأسطول البلطيق، الأمر الذى ربما يكون قد أنقذ سمعته وتاريخه.

هوامش الفصل الثانى والعشرين

(1) بالنسبة لصقلية كان "فرديناند الثالث"/ أما بالنسبة للصقليين فكان "فرديناند الأول". لا بد من أن ينتبه المؤرخ والقارئ لذلك.

(2) قالت عنه لأخيها الإمبراطور جوزيف عندما جاء إلى نابولى: "Er ist eim recht gutter Narr" (إنه أحمق حقيقى). تترك جوزيف شهادة ساخرة عن هذه الزيارة. انظر: H. Acton, The Bourbons of Naples, pp. 135 – 49.

(3) أخرج جثمانه بعد ذلك من القبر وأعيد إلى روما؛ حيث كان كانوفا – Canova قد صمم له مقبرة رائعة.

(4) كانت بارتينوب – Parthenope مستوطنة يونانية قديمة مكان نابولى فى القرن السادس ق. م.

الفصل الثالث والعشرون

مصر بعد نابوليون

• حملة أبركرومبى: 1800 • موقعة الإسكندرية: 1801 • الفرنسيون يسلمون القاهرة: 1801 • حصار الإسكندرية: 180 • الحملة المصرية: الخلاصة: 1801 • محمد على

انسل نابوليون خارجًا من مصر بطريقة شائنة فى أغسطس 1799؛ ليترك نائبه كليبر فى وضع لا يحسد عليه. كان الوضع شديد الاضطراب، وكانت الحالة المعنوية بعد الحملة الفاشلة على سوريا متردية أكثر منها فى أى وقت مضى. كان كثير من جنود الجيش مرضى والطعام شحيحًا والماء الصالح للشرب أكثر ندرة. إلا أن كليبر نجح فى التوصل إلى هدنة مع سير سيدنى سميث - Sir Sidney Smith، كان من بين شروطها أن يعود جيشه إلى فرنسا على نفقة السلطان وحلفائه - ولم يحدث. كان كلا الطرفين يعصى الأوامر. وكما كان كليبر يعرف جيدًا، كان القنصل الأول قد أعطى تعليماته الصريحة بأن يبقى الجيش فى مصر، إلى أن يتم توقيع اتفاقية سلام شاملة، وبينما كان سميث متلهفًا على خروج الفرنسيين من البلاد، كان بالمثل قد تجاهل ذلك الأمر الصريح من لندن، بعدم وضع أى شروط لا تتضمن الاستسلام الكامل للقوات الفرنسية كأسرى حرب. لم يكن هناك ما يدعو للاستغراب؛ لأن اللورد كيث قائد قوات البحر الأبيض، رفض تمامًا التصديق على الوثيقة.

فى الوقت نفسه، كان الإنكشارية الأتراك يزحفون مرة أخرى. لم يكن أمام كليبر من خيار سوى أن يضع جنوده على أهبة الاستعداد للقتال، وفى النهاية برهن على أنه كانت ما تزال فيهم حياة. فى العشرين من مارس 1800، هزم الأتراك عند هليوبوليس، وبعد شهر قبل استسلام حامية القاهرة. فى ذلك الوقت، كانت الحكومة البريطانية قد قررت أخيرًا أن تصدق على هدنة سميث، إلا أن هذه النجاحات الأخيرة أضافت تعقيدات مختلفة. رغم إرهاق الفرنسيين وحنينهم للعودة إلى بلادهم، كانوا قد عادوا إلى الانضباط وأصبحوا تحت السيطرة. لم يعد الجلاء عن مصر قضية تشغل معظم كبار الضباط، كان كليبر نفسه أحد الذين ما زال لديهم شكوك، ولكن فى الرابع عشر من يونيو- نفس يوم مارينجو - تم اغتياله فى القاهرة على يد مسلم متعصب ليخلفه المغرور البطين (عظيم البطن) "چاك مينو- Jack Menon" (أو عبد الله مينو كما أصبح يفضل أن يدعى). كان مينو قد تحول إلى الإسلام حديثًا - وكما كان يعتقد إلى حد كبير- لكى يتزوج من مصرية، كانت ابنة أحد أصحاب الحمامات العامة فى رشيد، المدينة التى كان حاكمًا عليها قبل ذلك. رغم أن كليبر كان شجاعًا إلى حد ما ولا يعوزه الذكاء، فإنه لم يكن يحسن الإدارة. باختصار، لم يكن كفئًا لما كان ينتظره من مسئوليات.

بعد أن انزاحت النمسا عن كاهله، عادت أفكار نابوليون مرة أخرى إلى النيل، فى ديسمبر 1800، كتب إلى شقيقه "لوسيان- Lucien" يقول: "القضية الكبرى الآن هى مصر... لتقوية الشعور لدى القوات هناك بأهمية مهمتهم". كانت مصر هى رأس الجسر ونقطة الانطلاق وبوابة الشرق. أعيد إحياء الحلم القديم: حملة مجيدة من السويس تكتسح البحر الأحمر، وفى عملية واحدة، تطرد البريطانيين من الهند إلى الأبد. بذلك سيصبح - نابوليون طبعًا - سيد مملكته الشرقية القوية، سيصبح الإسكندر الأكبر لعصره.

فى الوقت نفسه كان الحلم ذاته يأخذ شكل الكابوس فى إنجلترا، وكان هناك من يأخذون هذا الخطر على محمل الجد بالفعل. من بين هؤلاء، كان هناك "هنرى دانداس- Henry Dundas" رئيس الدائرة الحربية، المحامى الإسكتلندى الصارم، الذى كان رئيسه "وليم بت - William Pitt" يقول عنه: "إن إلمامه الشامل بتاريخ الهند... رغم وجود من يضارعه فى الحكومة، ليس هناك ما يفوقه". كان واضحًا بالنسبة لـ "دانداس" أن الحل الوحيد يكمن فى ضربة استباقية، كما كان واضحًا بالدرجة نفسها أن مثل تلك الضربة لا بد من أن تقوم بها القوة البريطانية المكونة من اثنين وعشرين ألف جندى، تحت قيادة أحد أقاربه، الجنرال الإسكتلندى سير "رالف أبركرومبى - Ralf Aber-cromby "، التى كانت آنذاك موجودة فى جبل طارق. لن يكون هدفها احتلال مصر، وإنما مجرد طرد الفرنسيين. بذل دانداس جهدًا لإقناع بعض زملائه - كان الملك چورچ الثالث نفسه ما زال يتذكر جيدًا الحرب الأمريكية قبل ربع قرن، وكان يتوقع بأسًى أن أى جيش يرسل إلى مصر سوف يموت من الجوع أو المرض أو من كليهما - وبدعم قوى من "بت - Pitt" تم اتخاذ القرار.

كان أبركرومبى آنذاك فى السادسة والستين. كان نزيهًا، ورفض رتبة نبيل وأراضى على سبيل الهبة فى جزر الهند الغربية، وكان قد رفض كذلك تنفيذ أمر فى أيرلندة تمسكًا بمبدأ، كما تجنب الخدمة فى أمريكا بسبب تعاطفه مع الثوار. إلا أنه كان قد حارب فى الأرضى المنخفضة والكاريبى؛ حيث قاد فى 1796 أكبر حملة أرسلت إلى الخارج، وبالرغم من الأوبئة المختلفة مثل الملاريا والحمى الصفراء، استطاع أن يستعيد الكثير من الجزر المهمة من الفرنسيين، بما فى ذلك "ترينيداد - Trinidad". كانت أحدث عمليات لمحاولة تدمير الأسطول والترسانة الإسپانيين فى "كاديز cadiz" (قادش) قد فشلت فى 1800: فشلت القوات البريطانية حتى فى أن ترسو. كان الخطأ الرئيسى هو خطأ قائده الأعلى "لورد كيث - Lord Keith"، ثم كانت عاصفة استوائية عاتية قد تكلفت بالباقى. كان أبركرومبى قد وصل إلى جبل طارق مجروح الكرامة إلا أن سجله كان نظيفًا.

بالرغم من أنه كان مصرًا على أن الحملة المصرية القادمة سوف تستعيد له كرامته، لم يكن لديه أية أوهام بالنسبة لصعوبتها. لم يكن لديه عربات ولا ماشية للجر، كان لديه عدد قليل من الخياله وكمية أقل من المدفعية. لم يكن لديه خريطة واحدة للمنطقة، ولكن الفرنسيين كان لديهم الكثير منها بفضل علماء المساحة لديهم. الماء كذلك سيكون مشكلة. كما كان البريطانيون لا بد من أن يعتمدوا على البحرية فى عمليات الإمداد والتموين. نظريًا، سيكون لديه دعم كبير من الجيش التركى، ولكن الميجور جنرال "چون مور John Moore"، الذى كان قد أوفده فى مهمة لتقصى الحقائق إلى مراكز القيادة التركية في "يافا - Jaffa"، كان قد عاد ليقول فى تقريره: إن الأتراك كان لديهم القليل من المؤن، إلى جانب أنهم غير منضبطين، وأن وزيرهم الأول كان عجوزًا أعور، ويفتقد كل صفات القيادة والمعرفة العسكرية، مضيفًا أن البريطانيين سيكونون أفضل حالًا إن هم اعتمدوا على أنفسهم.

تجمعت القوتان البرية والبحرية فى شتاء 1800- 1801 على ساحل آسيا الصغرى، وعند فجر الثانى والعشرين من فبراير أعطى الأدميرال لورد كيث الأمر برفع المراسى ليبحر الأسطول على مدى الساعات العشر التالية، خارجًا من الميناء سفينة بعد أخرى. كان عددها لا يقل عن 175 سفينة. فى هذا السياق، كتب "روبرت - Robert" ابن أبركرومبى من على ظهر السفينة الملكية "كنت- Kent" يقول: "لم يحدث قط أن كان شرف الجيش البريطانى على المحك مثلما كان آنذاك، كما لم يجتمع عدد مماثل من البريطانيين أكثر إصرارًا على أن تبقى كرامة بلادهم وكرامتهم عالية". فى الثانى من مارس 1801، اتجه الأسطول صوب خليج أبو قير، ولكن الطقس كان يزداد سوءًا بشكل مضطرد، ولم يهدأ قبل مرور أسبوع آخر لكى تتمكن السفن من الرسو. وبفضل الخبرة المستمرة فى "مارماريس- Marmaris"، تم ذلك فى اليوم الثامن، لينزل إلى البر نحو ثلاثة عشر ألف جندى مشاة وألف جندى خيالة وستمائة جندى مدفعية... كلهم فى يوم واحد. كان الفرنسيون ينتظرونهم. ولكن مينو، الذى كان قد بقى على اعتقاده بأن الرسو فى أبو قير لن يكون سوى عملية تمويه أو مجرد صرف للانتباه عن عملية أخرى كبيرة، كان قد احتفظ بالقوة الرئيسية لجيشه فى الإسكندرية على سبيل الاحتياط، وأرسل أحد مرؤوسيه، الجنرال "لويس فريان - Louis Friant" على رأس قوة صغيرة من ألفى جندى لمواجهة الغزاة. فريان الذى كان معه ثلاثة مدافع حديدية ونحو عشرة مدافع ميدان، كان كله ثقة فى قدرته على التعامل مع خط مهلهل من السفن، وجماعات صغيرة من الجنود، يصارعون على الشاطئ قدر استطاعتهم، ولكن التدريب الواسع التى كانت القوة البريطانية قد مارسته فى مارماريس لم يكن هباء. متجاهلًا النيران الفرنسية، قاد مور

قوته بلا خوف فى تشكيل كأنه عرض عسكرى على الشاطئ؛ حيث قاموا بسرعة بتنظيم خط، وثبتوا حرابهم وبدؤوا القتال. الفرنسيون الذين كانوا أقل عددًا تفرقوا ولاذوا بالفرار.

ولكن خسائر البريطانيين كانت كبيرة فى ذلك الصباح. فقد الجيش 625 مقاتلًا والبحرية نحو مائة. كانت خسائر العدو أقل إلى حد ما، إلا أن نتيجة المعركة كانت محسومة. كان ذلك أكبر انتصار على الفرنسيين تحتفظ به الذاكرة، كما أن ثبات الجنود البريطانيين وبسالتهم تحت النيران فاقت الوصف. لقد انتصروا... وعلى نحو بطولى... وفازوا بأول موضع قدم على أرض مصر. ارتفعت الروح المعنوية إلى عنان السماء. بدؤوا يتطلعون إلى المستقبل بثقة. تقدم أبركرومبى فى شبه الجزيرة إلى الإسكندرية بحذر شديد. كان لا بد من أن يدخل المدينة، ولكن الأرض كانت مجهولة تمامًا بالنسبة له، ولم يكن الفرنسيون ليكرروا خطأهم. فى الثالث عشر من مارس وقع هجوم على قواته، ثم تكرر الهجوم فى الثامن عشر، إلا أن ذلك لم يكن أكثر من مناوشات صغيرة. بعد ثلاثة أيام من الهجوم الثانى جاءت لحظة الحقيقة.

بدأت معركة الإسكندرية عند فجر السبت 21 مارس لتستمر أربع ساعات. حارب الطرفان بشجاعة، كان القادة - باستثناء مينو - أمثلة تحتذى لجنودهم. فى الجانب الفرنسى، ربما كان الجنرال "فرانسوار لانوس- François Lanusse"- قتل فى المعركة وكان فى التاسعة والعشرين - هو الأكثر شجاعة، كما كان واحدًا من أكثر القادة وضوحًا للرؤية[1]. فى الجانب البريطانى، كان مور - مرة أخرى - هو بطل الساعة. أصيب فى بداية المعركة بجرح خطر فى ركبته، وبعد ذلك قُتِلَ حصانة تحته، ولكنه واصل القتال على نحو «يفوق الوصف»، كما قال شاهد عيان. أما بالنسبة لـ «أبركرومبى» نفسه فقد أصيب فى المراحل الأولى من المعركة بطلقة بندقية استقرت فى مفصل فخذه، وكان الأطباء يعجبون كيف كان يتحرك فى الميدان، ولم يسمح بحمله على نقالة إلا بعد توقف القتال. أخذ أحد صغار الضباط بطانية جندى ليضعها تحت رأسه كوسادة، فتمتم الجنرال: «ما هذا؟»، أجاب الضابط: «إنها بطانية أحد الجنود يا سيدى»، فكان رده: «بطانية جندى؟! بطانية الجندى شىء بالغ الأهمية بالنسبة له، أعدها إليه فورًا». وبعد أسبوع مات.

كان خليفته الميجور جنرال «چون هيلى هتشنسون - John Hely Hutchin-son" مكروهًا فى الجيش بقدر ما كان أبركرومبى محبوبًا، لدرجة أن مجموعة من كبار الضباط كانوا يتآمرون للإطاحة به، وكان من المحتمل أن ينجحوا فى ذلك لولا المعارضة الشديدة من جانب مور، الذى كان ما زال يتماثل للشفاء. كتب سير "هنرى

بنبرى- Henry Bunbury" زميل هيلى هتشنسون، وكان يعرفه جيدًا، كتب يقول:

كان فى الرابعة والأربعين ولكنه كان يبدو أكبر من ذلك بكثير، ملامح خشنة زاد المرض من قسوتها، قصر نظر شديد، وجسد منحن، ومشية مترهلة... وإهمال تام لملبسه... كان ينفر من الناس – مهملًا - خشن الطبع، حاد المزاج.

من البداية، وجد الميجور جنرال نفسه فى وضع صعب. البريطانيون حققوا انتصارًا آخر، كان ذلك مؤكدًا، أوقعوا خسائر كبيرة بالفرنسيين، بلغت ثلاثة آلاف قتيل مقابل ألف وأربعمائة فى صفوفهم. ولكن الإسكندرية ظلت فى أيدى الأعداء، ليس فى يد حامية صغيرة محبطة فحسب، ولكن فى يد القوة الرئيسية فى الجيش الفرنسى فى مصر، الذى ربما كان ما زال أكثر عددًا من جيشه تحت قيادة قائد لم يكن لديه النية للمغادرة. لم يكن بالإمكان كذلك تجويع ذلك الجيش، كان الطريق إلى الغرب مفتوحًا. قليل من المساعدة المؤثرة كان متوقعًا من الأتراك. كان هناك دائمًا احتمال أن يقوم الفرنسيون أنفسهم بالمبادرة، ولكن مينو كان يبدو حادبًا على لعب دور الانتظار.

كان من الواضح أنه لا بد من فعل شيء لكسر ذلك الجمود، وفى النهاية قرر هيلى - هتشنسون إرسال قوة صغيرة مكونة من كتيبتين ونصف كتيبة، بالإضافة إلى أربعة آلاف جندى تركى، كانوا قد وصلوا حديثًا، وذلك للهجوم على رشيد على الفرع الغربى لدلتا النيل. نجحت الحملة، واستسلمت حامية «قلعة چوليان- Fort Julien"[2] فى التاسع عشر من أبريل، بعد مقاومة لمدة ثلاثة أيام. كان الطريق الآن مفتوحًا للإبحار فى النيل، وربما للقيام بعملية بحرية أخرى. من ناحية أخرى، فإن عملية كتلك كان يمكن أن تستنزف الحامية، التى كان ينبغى أن تترك خارج الإسكندرية تمامًا؛ وبغرض حمايتها - وكذلك لقطع خطوط اتصال مينو - قرر هيلى هتشنسون أن يتم غمر بحيرة مريوط، جنوبى المدينة، بالماء. تم قطع سياج القناة فى موضعين، فاندفعت مياه أبو قير فى شلالات قوية بارتفاع عشر أقدام لتزيل ثلاثمائة قدم من الشطآن. تاركًا وراءه الجنرال «إير كوت - Eyre Coote" لقيادة الجبهة فى الإسكندرية، انطلق هتشنسون فى 21 أبريل إلى رشيد، وفى 5 مايو زحف بمحاذاة شاطئ النيل صوب القاهرة.

استمر الزحف سبعة أسابيع، كان خلالها الجنود، ومعظمهم مصاب بالديزنطاريا، لتحمل درجة حرارة شديدة نهارًا، وعناكب وعقارب متوحشة ليلًا. كانت هناك مناوشات عدة مع الفرنسيين على طول الطريق – وكذلك - وهذا مدهش - كانت هناك مواجهة غير متوقعة مع الجيش التركى الذى فاجأ الجميع، وتقدم تحت قيادة وزيره الأول الأعور من يافا، وهزم قوة عسكرية فى طريقه. كتب هيلى - هتشنسون يقول: كان أسوأ جيش

فى الوجود، إلا أنه برغم ذلك كان يقاتل بكل قوة أثناء تقدمه". فى السابع من يونيو، هبت عاصفة رملية، وبعد أن سكنت كانت الأهرام تلوح من على البعد. بحلول يوم 21 من الشهر، كانت آخر قوة قد وصلت، وكان البريطانيون والأتراك معًا يحاصرون القاهرة. من أسف أنه لم يكن قد تبقى مع هيلى- هتشنسون الآن سوى نحو أربعة آلاف جندى يصلحون للقيام بالمهمة. كانت حامية القاهرة، كما عرف من الأسرى الفرنسيين، قد بلغ عددها نحو خمسة آلاف، رغم أن روحهم المعنوية كانت منخفضة.

كانت على أية حال أقل مما كان يعتقد، ويوم الثانى والعشرين، يوم أن كان عليهم أن يتخذوا مواقعهم، فتحت أبواب المدينة. انتهى حصار القاهرة قبل أن يبدأ.

** ** **

لم يكن أمام الجنرال "أوجستان دانييل بيليار – Augustin-Daniel Belliard" خيارات كثيرة. لم يكن قد تبقى سوى تموين مؤونة فى المدينة ولم يكن بالإمكان البحث عن طعام. كان هناك كذلك نقص شديد فى الذخيرة... أقل من 150 طلقة لكل مدفع. لم يكن الجنود راغبين فى القتال، وكل ما كانوا يريدونه هو العودة إلى بلادهم. كان عليه كذلك أن يتذكر السكان المحليين الذين لم يكونوا يكنون أى حب لجيشه ولن يترددوا فى الثورة عليه عند أول فرصة. ربما كان هناك أمل فى التقهقر إلى مصر العليا ومواصلة المقاومة من هناك، ولكن شائعة سرت بأنه كانت هناك قوة بريطانية أخرى قادمة من الهند فى طريقها إلى القصير على الساحل الغربى للبحر الأحمر، وأنها سوف تتقدم من هناك – جنوبًا – باتجاه القاهرة.

كان الأكثر مدعاة للقلق هو تحققه من أن قائد قواته كان قد فقد صوابه. قبل أسبوع، كان قد جاء رسول من الإسكندرية وسلم رسالة من مينو تفيد أنه كان قد أبلغ بونابارت بأن البريطانيين كانوا قد منوا بهزيمة ساحقة وهم فى طريقهم خارجين من رشيد. بيليار نفسه، بحسب التقرير، كان قد دمر الجيش التركى، ويتقدم الآن على امتداد النيل نحو الإسكندرية. فى الوقت نفسه كانت هناك تعزيزات فى الطريق قادمة من فرنسا، ولا بد من التشبث بالقاهرة إلى أن تصل.[3]

كان واضحًا الآن للجنرال المنكود أنه لا يمكن أن يأمل فى الحصول على أوامر معقولة من رئيسه، وعليه فقد كان يتصرف وفق هواه. وحيث إنه لم يكن له أى سلطة لوضع أى شروط، عقد مجلس حرب، وبعد تأكده من تأييد كبار ضباطه له، أرسل أحدهم تحت علم هدنة للإبلاغ باستعداده للتفاوض، وعلى الفور تم الاتفاق على هدنة وتمت

الموافقة على الاستسلام فى الثامن والعشرين من يونيو. سيتقدم الفرنسيون بمتاعهم وعتادهم فى حراسة فرنسية إلى رشيد، ومن هناك يستقلون السفن عائدين إلى فرنسا فى غضون خمسين يومًا.

خلال الفترة التالية لذلك، وكانت فترة راحة واستجمام مستحقة بالنسبة للبريطانيين – وفترة تحضير بالنسبة للفرنسيين – قام هيلى – هتشنون بتنظيم رحلة للضباط والجنود لمشاهدة الأهرام، وبحسب روايات كثيرة معاصرة قام كثير بحفر أسمائهم على حجارتها للذكرى. كتب رقيب يدعى «دانييل نيكول – Daniel Nicol» فى يومياته: "نقشت بمدية على الحجر: د. نيكول – الوحدة رقم 92 ، وكسرت منى المدية وأنا أسجل ذلك، وذلك فى الجانب الجنوبى الشرقى، وأعتقد أن هذا النقش سيبقى لبعض الوقت".[4] ويبدو أن قلة – والحمد لله – هم الذين شاركوا كولونيلا يدعى «كاميرون – Cameron» (من الوحدة رقم 79) حماسته؛ إذ كان متلهفًا على أن يعود إلى بلاده بذكرى ما، فأمر أحد جنوده بضرب التابوت الملكى بمرزبة.

بالنسبة لأهالى القاهرة، كان التاسع من يوليو 1801 أسوأ يوم يمكن أن يتذكره أى منهم، كان ذلك يوم جلاء الفرنسيين عن المدينة، واليوم الذى اجتاحتها فيه جحافل الجنود الأتراك، الذين لم يخفوا أن السلب والنهب كان السبب الوحيد وراء عبورهم الصحراء قادمين من سوريا. كان جيش الوزير الأول معروفًا بالفوضى، والآن مع بدء طقوس العربدة وحمامات الدم، اختفت كل الآمال فى الانضباط. لم يكن البريطانيون يستطيعون عمل أى شىء بعد أن استولوا رسميًّا على الحامية؛ إذ إن الأتراك كانوا حلفاءهم. كما كانوا قد أظهروا بوادر كثيرة عن نواياهم. أما بالنسبة للفرنسيين – الذين كانوا قد تقهقروا إلى الجيزة – فكانوا يشعرون بالارتياح... لأنهم تمكنوا أخيرًا من الخروج من المدينة.

بريطانيون وفرنسيون وأتراك، أبحروا كلهم معًا فى النيل فى الرابع عشر من يوليو. كان البريطانيون فى غاية الدهشة عندما وجدوا أن عدد الفرنسيين لم يكن نحو خمسة آلاف كما كانوا قد قدروا، وإنما كانوا ثلاثة أضعاف ذلك تقريبًا، وكان معهم نحو ثلاثمائة قارب صغير تحمل المرضى والجرحى والأمتعة وكميات كبيرة من الغنائم والأسلاب... وجثة كليبر لإعادة دفنها فى نصب تذكارى لائق فى فرنسا.[5] بعد ثلاثة أسابيع، فى الخامس من أغسطس، كان قد تم الانتهاء من ركوب السفن وتحميل الأمتعة لتبحر آخر سفينة من رشيد فى اليوم التاسع من الشهر متجهة إلى طولون. الآن، كان البريطانيون يستطيعون أن يوجهوا كل اهتمامهم إلى الإسكندرية، وعليه فقد كانوا يأملون – بقوة – أن يجروا خطًّا تحت المغامرة المصرية بكاملها.

أثناء الرحلة إلى الساحل، كان الجيش تحت قيادة مور. كان هيلى – هتشنسون قد سقط مريضًا وأمضى معظم شهر يوليو يعالج فى الجيزة. فى التاسع والعشرين وصل بالبحر إلى رشيد؛ حيث صعد إلى السفينة «فودرويان – Foudroyant" ليبقى عليها نحو أسبوعين آخرين. كان لا بد من أن يستعيد صحته تمامًا قبل الزحف على الإسكندرية، وعلى أية حال، لم يكن هناك أى عمليات رئيسية لكى تبدأ، قبل أن ينتهى مور من الإشراف على ركوب الفرنسيين العائدين إلى بلادهم. فى ذلك الوقت كانت خطط الميجور چنرال جاهزة، سيقوم بالهجوم على المدينة من الشرق والغرب فى وقت واحد. كانت المدينة فى منتصف برزخ ضيق يفصل البحر الأبيض من الشمال عن بحيرة مريوط، التى كان قد تم غمرها بالماء حديثًا. كان يمكن أن يتقدم بمدفعيته الثقيلة من رشيد التى تبعد عن الإسكندرية بنحو أربعين ميلًا من جهة الشرق، فى الوقت نفسه سيبحر "كوت - Coote" بثلاث فرقاطات عبر البحيرة ويتخذ موقعًا على البرزخ خلف المدينة بمسافة عشرة أميال تقريبًا من جهة الغرب، ثم يتقدم الاثنان بأسلوب الكماشة التقليدى.

بدأ الهجوم مساء يوم السادس عشر من أغسطس، وتحت جنح الظلام، أبحر نحو ثلاثمائة قارب عسكرى تحمل أربعة آلاف جندى عبر بحيرة مريوط متجهة غربًا. عند فجر السابع عشر تقدمت فرقتان بقيادة مور والچنرال سير "چون كرادوك – John Cradock" على امتداد البرزخ وهاجمتا المواقع الفرنسية المتقدمة. كانت عملية ناجحة، ولكن مور الذى أعطته الحملة فرصة لرؤية التحصينات الشرقية لأول مرة، وجدها قوية بالفعل، وكان فى شك ما إذا كان بمقدوره التغلب عليها بما هو متوفر لديه من إمكانيات. لحسن الحظ، كان من المعروف أن دفاعات الناحية الغربية أضعف بكثير، ولذا كان يبدو أن نجاح العملية سوف يعتمد على كوت.

** ** **

كان كوت يحب دائمًا أن يثبت أنه جدير بالثقة ويمكن الاعتماد عليه، بحلول مساء 21 أغسطس، وبعد جهد خارق من رجاله فى طقس شديد الحرارة، استولى على قلعة "مارابوت – Marabout Fort"، على جزيرة صغيرة تشرف على الطرف البعيد من البحيرة الطويلة الضحلة، المعروفة بالميناء القديم، غربى المدينة. عند فجر يوم 22 أغسطس بدأ تقدمه بامتداد البرزخ، تحميه البحرية فى البحر الأبيض من جهة اليسار، والقوارب الحربية فى البحيرة من جهة اليمين. لم يكن يبدو هناك ما يمكن أن يوقف تقدمه، كانت المواقع الفرنسية المتقدمة قد انهارت عندما وصل. بحلول الساعة العاشرة

من صباح اليوم نفسه، كانوا قد فقدوا نحو مائتى جندى بين قتيل وجريح وأسير، أما خسائر البريطانيين فكانت ثلاثة قتلى وأربعمائة جريح. بعد الظهيرة، أبحر هيلى - هتشنسون عبر البحيرة ليجتمع بـ "كوت"، ويعاين التحصينات الغربية بنفسه. لم يكن هناك مجال للشك أن ما كان يراه أمامه كان أضعف بكثير من تلك الموجودة على الجانب الآخر من المدينة. هناك وفى تلك اللحظة استقر على أن تكون قوة الهجوم الرئيسية من ناحية الغرب.

تم بسرعة جلب المزيد من المدافع الثقيلة ونقلها إلى معسكر كوت. بمجرد أن اتخذت مواقعها، بدأ القصف متزامنًا مع تقدم حثيث نحو المدينة. بدل الاتجاه مباشرة إلى الإسكندرية، كانت خطة كوت هى احتلال نقطة ممتازة على الأرض المرتفعة الواقعة أعلى عمود پومپى جنوب شروق المدينة، بحيث يمكن إطلاق النيران على دفاعاتها من أعلى. اتضح أن ذلك لم يكن ضروريًا، ففى نحو الرابعة والنصف مساء السادس والعشرين، وصل ضابط فرنسى إلى أحد مراكزه المتقدمة بطلب هدنة. على الفور، أوقف كوت إطلاق النار، ونقلت الرسالة إلى القائد الأعلى، وبعد أن عرف بموافقة هتشنسون بعد منتصف الليل بقليل، قام بسحب رجاله، وانتهى القتال.

صحيح أنه كانت هناك لحظات فى الأيام القليلة، يبدو فيها وكأن القتال سوف يتجدد. بعد أن حصل الجنرال مينو على الهدنة التى طلبها، كان الآن يبذل كل جهده للتملص من التزاماته. فى البداية، طلب تمديد فترة الهدنة لمدة قصيرة أخرى، ثم اقترح عقد اتفاقية بدلًا من الاستسلام، ثم اقترح إعادة كل السفن الحربية ومعظم قطع المدفعية إلى فرنسا، ثم الإبقاء على كل الممتلكات العامة المصرية فى أيدى الفرنسيين. وفى النهاية حاول حتى تمديد فترة الهدنة مرة أخرى إلى 17 سبتمبر، على أمل أن يستأنف الفرنسيون أعمالهم العدائية فى حال وصول التعزيزات التى كانت متوقعة. ولكن هيلى - هتشنسون لم يبتلع الطعم. أرسل شروطه إلى مينو: إعادة جيشه بأسلحته الشخصية وعشر قطع مدفعية، أما كل الممتلكات البحرية وغيرها فتظل فى مصر. فى حال عدم قبول هذه الشروط فورًا، سيتم تدمير الإسكندرية تمامًا.

رضخ مينو. لم يكن قد بقيت لديه قدرة على القتال، وكان جنوده أكثر منه إرهاقًا وإحباطًا. تم توقيع وثيقة استسلام بشروط كريمة نوعًا ما. فى الحادية عشرة من صباح الثانى من سبتمبر تسلم البريطانيون الإسكندرية، بينما كانت الفرقة الموسيقية التابعة للوحدة 54 تعزف السلام الوطنى حول عمود پومپى. فى لحظة الانتصار تلك، كان أن وصلت القوة القادمة من الهند إلى رشيد بعد مسيرة طويلة من البحر الأحمر. لم

يصدق رجال هيلى – هتشنسون – الذين كانوا يتضورون جوعًا، ولم يكونوا قد خلعوا ثيابهم نفسها فى الحرارة الشديدة منذ ستة أشهر – أنفسهم عندما رأوها: كان ضمن القوة مجموعة كاملة من الطباخين وأطعمة وأنبذة ومشروبات أخرى. كان الجنود الهنود أنفسهم مصدومين لرداءة منظر القوات البريطانية، ولذا لم يكن غريبًا أن يرى هتشنسون حكمة فى عزل القوتين عن بعضهما.

وهكذا أبحر الجزء الرئيسى من الجيش البريطانى فى الوقت المناسب. فى إصرارها لمنع أى محاولة من جانب الفرنسيين للعودة، أمرت الحكومة البريطانية، بالرغم من ذلك، ببقاء حامية كبيرة فى الإسكندرية – ستة آلاف جندى على الأقل – إلى أن يعم الهدوء، تحت قيادة الچنرال مور الغاضب المتردد، الذى كان ما زال متعطشًا للقتال بالرغم من جرحه الخطر. كان هناك سبعة آلاف جندى آخرون لم يذهبوا إلى ما هو أبعد من مالطة؛ حيث كان وجود قاعدة بحرية هناك يبدو أمرًا ضروريًّا، ولكن مالطة – حيث كان كثير من الجنود قد تركوا زوجاتهم – كانت تعتبر جنة بعد الخروج من مصر، ولم يكن هناك كثير من الشكوى.

كانت تكلفة الحملة المصرية باهظة، ليس من الناحية المالية فحسب، فقد خلفت 633 بريطانيًّا بين قتيل ومفقود ونحو 1000 آخرين جرحى أو مرضى. كان عدد الجرحى المطلوب ترحيلهم أكثر من 3000 جريح بينهم 160 كانوا قد فقدوا بصرهم بسبب الرمد. من ناحية أخرى كانت الحملة ناجحة سياسيًّا وإستراتيجيًّا. فى غضون ستة أشهر، كانت القوات البريطانية قد حققت هدفها: أثبتت لناپوليون أن مصر لن تكون له، ولذلك استولوا على كل من القاهرة والإسكندرية، وخلال العملية كلها أظهروا ثباتًا وانضباطًا مذهلًا، كان محل إعجاب ضباطهم أنفسهم، وكذلك الفرنسيون، كما أثبتوا خطأ المتشائمين فى الوطن. هناك قصة مؤثرة تروى عن الملك چورچ الثالث الذى ذهب إلى منزل دانداس العجوز فى ويمبلدن ليرفع كأسًا من الماديرا[6]، فى صحة المتسبب الوحيد فى الحملة، ويعلن «عندما يكون شخص ما مخطئًا تمامًا، فإن أنبل وأعدل شىء بالنسبة له، هو أن يعترف بذلك علنًا».

عندما كتب ناپوليون «عندما تعتقد الجيوش أن بالإمكان الهرب من وضع حرج باتفاقية لا تلحق بهم أى عار، يضيع كل شىء»[7]، فهو لم يقل غير الحقيقة. انتصر الإنجليز وهُزِمَ الفرنسيون. ولكن ماذا – إن كان لنا أن نسأل – عن المصريين أنفسهم، الذين ربما يكونون قد عانوا من قتال استمر ثلاث سنوات، أكثر من أى طرف آخر؟ برحيل الفرنسيين، عادوا إلى الوضع نفسه الذى كانوا عليه من قبل: من الناحية النظرية،

كانوا تحت الحكم الردىء للإمبراطورية العثمانية، والواقع أنهم كانوا تحت ظلم واستبداد بكوات المماليك. ولكن ذلك الوضع لن يستمر طويلا. فى 22 أكتوبر 1801 تمت دعوة كل كبار البكوات إلى حفل على سفينة قبطان باشا أدميرال الأسطول العثمانى، التى كانت راسية على ساحل الإسكندرية، وقبل أن يصلوا إليها، كان قارب عسكرى تركى قد قتل معظمهم، وبمجرد وصول من بقى منهم إلى السفينة تم أسرهم. بالرغم من نجاة عدد قليل منهم – بعضهم كان فى القسطنطينية، وآخرون كانوا قد بقوا فى القاهرة – وبالرغم من مقاومتهم نحو عامين أو ثلاثة، فإن شوكتهم كانت قد كسرت. لم يعودوا قادرين على تجنيد رجال من أسواق العبيد فى الشرق؛ حيث كان الباب العالى قد منع تصدير الشبان لمصر فى 1802. لسوء الحظ كذلك أن الإمبراطورية العثمانية المحتضرة كانت عاجزة عن تعيين حكومة فعالة مكانهم، وهكذا أصبحت مصر بين عشية وضحاها فراغًا، ولم تعد موضوع نزاع. فى سنة 1803 كتب الليفتنانت كولونيل «روبرت ويلسون – Rob-ert Wilson“ – الذى كان يسجل يومياته طوال الحملة بدقة، ثم نشر تاريخًا مفصلًا لها فيما بعد – يعبر عن دهشته ”كيف لم يحاول مغامر، لديه قدر من الجرأة والموهبة والطموح أن يقود مجموعة للتصدى للمماليك“، بينما كتب أمريكى مجهول من القاهرة للأدميرال سير ”ألكساندر بول – Alexander Ball“، حاكم مالطة: إن ”مصر ليس بها سيد... لا بد من سيد جديد، وسوف يكون أول قادم محل ترحيب“.

ما حدث هو أن ذلك القادم الجديد لم يكن إنجليزيًا أو فرنسيًا، كان أحد أبناء جنس لم يستحق أى ذكر فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا حتى الآن. كان كما يُعتقد ألبانيًا اسمه **محمد على**.

** ** **

محمد على من مواليد 1769 فى «قولة – Kavalla“ شرق ”مقدونيا – Macedo-nia“. بعد وفاة أبيه كفله حاكم المدينة. فى الثامنة عشرة تزوج من إحدى قريبات الحاكم، التى أنجبت له خمسة أبناء. (ستكون مجموعة أخرى من النساء أمهات لتسعين آخرين). يبدو أن تجارة التبغ المربحة شغلته عدة سنوات، وبعدها التحق بالجيش العثمانى – الذى شغل فيه منصبًا راقيًا؛ ليجد نفسه فى الوقت المناسب يحارب الفرنسيين تحت قيادة الوزير الأول. على مدى وجود الأوروبيين فى مصر، كان يحارب بشجاعة، ولكن بعد رحليهم، فإن كتيبته الألبانية بقيادة طاهر باشا، التى ربما كانت أكثر وحدات الجيش التركى انضباطًا - قامت بتمرد كبير.

ليس هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن محمد على شخصيًا كان هو مدبر التمرد (إذ كان مثل تلك الانتفاضات يحدث كثيرًا فى التاريخ العثمانى من قبل الجنود الذين لم يكونوا يحصلون على رواتبهم)، ولكن بعد صراع مع طاهر باشا، تولى القيادة، وبعد سلسلة من المؤامرات والمكائد عين نائبًا للسلطان فى مصر. على مدى الأربع والأربعين سنة التالية، حكم البلاد حكمًا دكتاتوريًا، فقضى على الآثار المتبقية لحكم المماليك، وصادر أملاك الطبقات القديمة من أصحاب الأراضى، كما سحق بقوة عددًا من الانتفاضات المتوالية. بحلول العام 1815 تقريبًا، كانت الأراضى الزراعية على امتداد شاطئ النيل والدلتا تقريبًا، قد تم مصادرتها، كما كانت كل عائدات الزراعة تذهب إلى خزائنه مباشرة. قام محمد على بتحسين نظام الرى الشديد الأهمية للبلاد، وأدخل محاصيل زراعية جديدة – وبخاصة القطن - كما بنى أسطولًا وجيشًا قويًا كان جنوده من أبناء الفلاحين وقياداته من الأتراك وغيرهم من الأجانب. فى البداية، استخدام أولئك باسم السلطان لإخماد الثورات والانتفاضات فى الجزيرة العربية واليونان، ثم بعد ذلك استخدمهم لحسابه، فقام بغزو السودان بنفس الدرجة من النجاح.

سيعيش محمد على حتى العام 1849، إلا أن هناك الآن – مؤقتًا – شخصية أخرى أكثر أهمية، تسترعى اهتمامنا.

هوامش الفصل الثالث والعشرين

(1) انظر P. Mackesy «British victory in Egypt, 1801 الذى اعتمدنا عليه كثيرًا بالنسبة للمعلومات الواردة فى هذا الفصل.

(2) كان فى أحد أبراج هذه القعلة أن اكتشف الفرنسيون حجر رشيد الشهير فى 1799، وهو أحد أهم معروضات المتحف البريطانى، وكان مفتاح فك شفرة الهيروغليفية المصرية القديمة.

(3) فى 17 يونيو جمح خيال مينو أبعد من ذلك فأكد لوزير الداخلية أن بيليار - Belliard كان قد حقق انتصارًا كبيرًا على البريطانيين على مشارف القاهرة وأن هيلى – هتشنسون قتل.

(4) قبل أن ندين نيكول وأقرانه ونتهمهم بالتخريب، علينا أن نتذكر أن لورد بيرون - Lord Byron سيفعل الشىء نفسه فى معبد پوسيدون - Temple of Poseidon فى سنيون - Sunion.

(5) نقل الجثمان أولًا إلى ستراسبورج - Strasbourg مدينة كليبر؛ حيث بقى لمدة عشرين عامًا فى الكاتدرائية. بعد ذلك نقل إلى باريس ليدفن تحت النصب فى الميدان الذى يحمل اسمه.

(6) نبيذ منسوب إلى جزر ماديرا. (المترجم)

(7) Quand les armées croient possible de sortir d'une position critique avec une convention sans déshonorer, tout est perdu».

الفصل الرابع والعشرون
التسوية الأوروبية

• معركة مايدا- 1806 • إلقاء القبض على بيوس السابع: 1809 • إلبا: 1814
• الجزر الإيونية: 1815 • على باشا: 1815 • موت على باشا: 1822.

فشل نابوليون بونابارت فى مصر، إلا أن قوته فى أوروبا كانت تتزايد. فى ديسمبر 1804، وفى حضور البابا «بيوس السابع- Pius Vii"، قام بنفسه بوضع التاج الإمبراطورى على رأسه فى باريس، ثم نظم حفل تتويج لنفسه بعد خمسة أشهر (فى مايو 1805) فى كاتدرائية ميلان كملك لإيطاليا. هذه المرة كانت جمهورياته الإيطالية الصغيرة قد أصبحت فى عالم النسيان. قراره بأن يستخدم فى الاحتفال تاج لومبارديا الحديدى القديم، الذى كان من ممتلكات الإمبراطورية الرومانية المقدسة لقرون، كان مبعث ضيق شديد للإمبراطور النمساوى فرانسيس- Francis، الذى انضم نتيجة لذلك إلى التحالف الذى كانت بريطانيا وروسيا قد كونتاه قبل أسبوع.

وهكذا بعد أن ثبَّت دعائم غزواته السابقة، عكف نابوليون على حملة جديدة ضد النمسا، وكان هناك ابتهاج عظيم فى "الجيش الكبير Grande Armeé"، عندما استسلم أمامه جيش نمساوى قوامه ثلاثة وثلاثون ألف مقاتل فى "أولم - Ulm"؛ مما يدعو للسخرية أن نلسون قام فى اليوم التالى بتدمير أسطول فرنسى - إسپانى مشترك فى "ترافالجار- Trafalgar"، وأصيب هو نفسه بجروح خطرة لحظة الانتصار؛ إلا أن- حتى- كارثة كتلك لم تبق طويلًا فى ذاكرة الإمبراطور؛ حيث إنه بعد ستة أسابيع فقط (فى الثانى من ديسمبر) انتصر جيشه المكون من ثمانية وستين ألف مقاتل على قوة مشتركة، من أكثر من تسعين ألف نمساوى وروسى، فى "أوسترلتز- Austerlitz" فى موراڤيا. فى اليوم التالى لعيد الميلاد، وطبقًا لشروط اتفاقية تم توقيعها فى "پرسبورج- Pressburg" (براتسلاڤا- Bratislava الآن)، كانت النمسا مجبرة عن أن تعيد لفرنسا - بين أشياء أخرى - كل الأراضى الڤينيسية التى كانت قد استحوزت عليها فى 1797 فى "كامپوفورميو- Campo Formio"- لكل تشكل مع سواحل "إستريا - Istria" ودالماشيا جزءًا من مملكة إيطاليا النابوليونية الجديدة.

كان الإمبراطور قد رفض أن يُضَمِّن اتفاقية پرسبورج أى شروط نيابة عن بوربون نابولى، والحقيقة أنه يوم توقيع الاتفاقية، كان قد أعلن عن نيته أن "يخلع عن العرش تلك المرأة المجرمة التى انتهكت على نحو شأئن كل ما هو جدير بالإجلال بين الرجال". ربما يكون هذا الحكم على ماريا كارولينا يتسم ببعض الغلظة، إلا أنه لا بد من الاعتراف بأن توصله إلى اتفاقية حياد مع نابولى فى وقت سابق من العام لم يمنعها من طلب مساعدة حلفائها، وبالقرب من أواخر نوفمبر 1805 كان ما لا يقل عن ثلاثة عشر ألف

جندى روسى وسبعة آلاف بريطانى من مالطة - قد تم إنزالهم فى خليج نابولى. ثم انضم إليهم بضعة آلاف من أبناء نابولى، وبحلول منتصف ديسمبر كان الجيش المشترك قد زحف نحو الحدود البابوية. آنذاك جاءت أخبار أوسترلتز، وانتهت الحملة قبل الأوان على نحو مفاجئ. كانت فكرة رديئة منذ البداية؛ حيث إنه بإرسالها أوقعت الملكة نفسها فى قبضة الإمبراطور. فى إعلانه التالى لجيشه، كان بمقدوره أن يقول: هل نثق مرة أخرى ببلاط لا يعرف الوفاء ولا الشرف ولا العقل؟ كلا... ثم كلا! إن السلالة الحاكمة فى نابولى قد انقطعت عن الحكم، ووجودها ليس متسقًا مع سلام أوروبا ولا مع شرف تاجى".

لم تكن تلك السلالة قد انقطعت عن الحكم بالطبع، ولن تنقطع لمدة نصف قرن قادم، ولكنها لم تكن تستطيع أن تتصدى للجيش الفرنسى الذى بلغ نحو أربعين ألف جندى، كانوا يزحفون الآن عبر الدول البابوية[1]، ويدخلون الجنوب الإيطالى تحت قيادة «المارشال ماسينا - Marshal Masséna"، ومعه چوزيف بوناپارت باعتباره الممثل الشخصى للإمبراطور. فى الحادى عشر من فبراير 1806، فرت العائلة الملكية للمرة الثانية لتواجه بؤس شتاء پاليرمو، وفى الرابع عشر وتحت أمطار شديدة، دخلت نابولى فرقة فرنسية بقيادة الجنرال "پارتونو- Partouneaux". لم تكن هناك مقاومة، وبينما كان اللازارونى - الدهماء - قبل سبع سنوات يقاتلون مثل النمور ويحدثون مجازر رهيبة، كانوا هذه المرة لامبالين، ولم يبدوا أى اعتراض أو احتجاج عندما تقدم چوزيف بوناپارت موكبه فى اليوم التالى ليتخذ من القصر الملكى مقرًا له. فى وقت لاحق من ذلك العام وبموجب مرسوم إمبراطورى سيتم إعلان چوزيف ملكًا.

"إذا تم الاستيلاء على نابولى سيسقط كل شىء"، كان ناپوليون قد كتب ذلك إلى چوزيف فور الفرار الثانى للعائلة الملكية. لم تكن تلك هى المرة الأولى، على أية حال، التى يُهوِّن فيها من قوة عدوه. أثبتت كالابريا أنها كانت عقبة كؤود ومشكلة شديدة الصعوبة. فى الأول من يوليو 1806، نزلت قوة بريطانية من پاليرمو بقيادة السير "چون ستيوارت - John stuart"، مكونة من أربعة آلاف وثمانمائة جندى مشاة وستة عشر مدفعًا، نزلت على الساحل الغربى لـ كالابريا، وبعد ثلاثة أيام هاجمت قوة فرنسية بالقرب من قرية "مايدا- Maida"، وبعد هجوم وحشى بالحراب هزمتها هزيمة منكرة. استقبل الانتصار بحماسة شديدة فى إنجلترا وليس محليًا فحسب؛ حيث ما زالوا يتذكرون ميدان القتال باسم "مايدا ڤيل- Maida Vale".[2] لسوء الحظ أن سقوط مدينة «جايتا - Gaeta"- بعد مقاومة بطولية - بالإضافة إلى قرار "ماسينا Masséna" بتركيز أكبر

قوات ضده، اضطر ستيوارت إلى إعادة قواته إلى السفن فى سبتمبر. كان ذلك يعنى أن حرب العصابات قد بدأت، مع ما يتضمنه ذلك من فظائع معتادة سوف ترتكب من كلا الجانبين. لم يكن أهالى كالابريا يحبون البوربون، وإن كانوا يفضلونهم على الغزاة الفرنسيين، ألم يكن البابا، بالإضافة إلى ذلك قد رفض الاعتراف بـ جوزيف بوناپارت ملكًا عليهم؟. كانوا من أصول فلاحية، وعندما بدأ القتال شاركوا فيه.

أما بالنسبة لصقلية، وهى الجزيرة التى كان يحكمها الملك فرديناند والملكة ماريا كارولينا منفردين، فلم تكن مصدر مشاكل كثيرة لـ ماسينا. كان نلسون قد مات، والعائلة الملكية لم تُستقبل بحرارة عند وصولها كما كان الأمر عند زيارتهم السابقة. كان أهالى صقلية قد أصبحوا يعرفون ملوكهم جيدًا، ويدركون تمامًا حقيقة أن الملك لم يكن يرى فى جزيرتهم أكثر من منطقة للصيد والاستجمام من وقت لآخر. كان قد حطم عددًا من قطع الموزاييك، من القرن الثانى عشر، فى الكنيسة المقدسة فى پاليرمو[3]، لمجرد أن يبنى لنفسه مدخلًا مناسبًا لقصره، كما وجد كثير من أبناء صقلية - بمن فى ذلك الأبناء الصغار لطبقة النبلاء على وجه الخصوص - أنفسهم بلا عمل. فى ظروف كتلك، فإن غزوًا فرنسيًا ما كان ليواجه مقاومة كبيرة.

إلا أن الموقف الحقيقى كان مختلفًا. أولًا: دعا فرديناند البريطانيين لتولى مسؤولية الدفاع عن الجزيرة - وهو ما كانوا سيفعلونه على أية حال - وكانت مضايق مسينى تحت حراسة مستمرة بواسطة القوارب الحربية البريطانية. ثانيًا: كان الإنجليز قد تولوا ما هو أكثر من الدفاع عن صقلية. كانوا قد أصبحوا الآن سادة الجزيرة نفسها، بما لهم فيها من سبعة عشر ألف جندى ونحو ثلاثين قنصلًا أو نائب قنصل. كانت صقلية كذلك تحصل على إعانة من بريطانيا، ناهيك عن قروض كثيرة واستثمارات خاصة، ولك أن تتخيل حجم تأثير ذلك فى اقتصاد صقلية الذى كان يتصف بالركود.[4]

زاد النفوذ البريطانى بشكل كبير بعد 1811، عندما عين لورد «وليم كافنديش- بنتنك - William Cavendish- Bentinck" مبعوثًا خاصًا إلى بلاط الصقليتين، بالإضافة إلى كونه القائد الأعلى للمتوسط. رغم أن بنتيك كان ما زال فى السابعة والثلاثين من العمر، فإنه كان قد عمل حاكمًا على "مادراس- Madras" ومن ثم شارك فى حرب شبه الجزيرة، وحيث إنه كان قديرًا ونشطًا، فقد كان حاكمًا جيدًا أجرى عدة تغييرات دستورية مهمة. فى ذلك العام نفسه، كان الملك قد ألقى القبض على خمسة من كبار خصومه فى مجلس النواب الصقلى وقام بترحيلهم إلى خارج البلاد، إلا أن "بنتيك" هدد بسحب جيشه وإيقاف المعونة، فاضطر فرديناند لإعادتهم، وإحلال وزارة أكثر ليبرالية

محل وزارته التى كان معظمها من أبناء نابولى، وكان من بين أعضاء الوزارة الجديدة ثلاثة من المبعدين. فى سنة 1812، وضع دستورًا ليبراليًا على النمط البريطانى، وبعد ذلك بوقت قصير مضى إلى ما هو أبعد من ذلك: وجدت الملكة ماريا كارولينا، التى كانت عقبة فى طريقه، نفسها فى المنفى، لا عجب إذن أن تصفه بأنه "حيوان وحشى- una bestia feroce".

*** *** ***

بالرغم من أنه لم يكن مسموحًا للبابا "بيوس السابع - Pius VII" بأداء المراسم، كان مدعوًا لحضور حفل تتويج نابوليون فى باريس، وهى الدعوة التى كان يرغب فيها، وبنفس الدرجة لم يكن يستطيع أن يرفضها. فى السنوات التالية لذلك مباشرة، زادت العلاقة بين البابا والإمبراطور سوءًا. كان نابوليون قد وضع يده على كل الموانى المهمة فى شيفيتافيكيا وأوستيا، وبحلول أوائل العام 1808، (وفى ذلك الوقت كانت كل الدول البابوية فرنسية فى كل شىء ما عدا الاسم) دخل الجيش الإمبراطورى روما واحتل قلعة سانت أنجلو. وأخيرًا، فى 17 مايو 1809، ومن قلعة "شونبرون - Schonbrunn" فى فيينا، أصدر الإمبراطور مرسومًا بضم روما، ويقال: إن البابا عندما سمع بذلك تمتم قائلًا: "إنها النهاية!". فى العاشر من يونيو ارتفع العلم الفرنسى على القعلة مكان العلم البابوى، أما من سلبوا المدينة المقدسة فتم حرمانهم كنسيًا بشكل رسمى.

كان البابا حريصًا على ألا يذكر الإمبراطور بالاسم؛ حتى ذلك كان خطوة شجاعة منه، ولم يتأخر الجزاء طويلًا. فى ليلة الخامس من يوليو ألقى القبض عليه، وتم اقتياده عبر طريق دائرى مرورًا بجرينوبل وفالينس ونيس إلى "سافونا- Savona"؛ وهنا سيبقى لمدة ثلاث سنوات إلى أن ينقل، وهو فى حالة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة، فى عربة محكمة القفل إلى "فونتان بلو- Fontainebleau". كان يعانى من حمى شديدة لدرجة أنه تلقى المسح الأخير بالزيت. على خلاف سلفه الذى مات فى منفاه الفرنسى، سيعود إلى روما فى مايو 1814. عاش حتى 1823 وكانت المسيحية قد اتخذت آنذاك طبيعة مختلفة عن تلك التى كان قد عرفها فى السنوات الباكرة فى منصبه.

فى خريف 1807، عندما رفض البرتغاليون إغلاق موانئهم أمام السفن البريطانية، أرسل نابوليون الجنرال "جنوت - Junot" الذى كان آخر لقاء لنائبه فى فينيسيا قبل عشر سنوات، بجيش قوامه ثلاثون ألف جندى عبر إسبانيا ليدخل البرتغال. فرت العائلة الملكية إلى البرازيل على الفور، تاركة البلاد للفرنسيين. بعد ذلك تحرك معظم جيش الغزو إلى شمال إسبانيا، وفى الوقت نفسه أرسل نابليون زوج شقيقته، جنرال الخيالة

اللامع "چواكيم ميورا - Joachim Murat"[(5)] ليحتل مدريد ويأتى بالملك شارل الرابع وابنه فرديناند للقائه فى «بايون - Bayonne"، وهناك، تنازلا فى الخامس من مايو 1808 عن أحقيتهما فى العرش، ومقابل ذلك وعدهما ناپوليون بأن تظل إسپانيا رومانية كاثوليكية، ومستقلة تحت حاكم سوف يعينه فى وقت قريب، وسرعان ما فعل ذلك، وكان الحاكم هو شقيقه چوزيف. إلا أن حكم چوزيف كان قد انتهى قبل أن يبدأ، ففى الثانى من مايو، قام شعب مدريد بانتفاضة ضد المحتلين.

كان چوزيف بوناپارت قد بدأ بداية جيدة جدًا فى ناپولى، فبأوامر من شقيقه بدأ برنامجًا لتفكيك الملكيات الإقطاعية الكبيرة فى المملكة، وأجرى إصلاحات على نظم الرهبنة، وبذل كل ما فى وسعه لتنظيم الأمور المالية والتعليمية والقضائية. ولكنه لم يكن سعيدًا هناك، وعندما عرض عليه ناپوليون تاج إسپانيا قبله بكل سرور. شغل الإمبراطور مكانه فى ناپولى بـ "چواكيم ميورا"، الذى أحاط نفسه ببلاط كله بذخ وترف. كان بلاطًا شاذًا وغريبًا نوعًا ما، إلا أنه واصل ما كان چوزيف قد بدأه، منفذًا عددًا من الإصلاحات المهمة، وفتت الملكيات الزراعية الكبيرة، وأحل "قانون ناپوليون - Code Napoléon" محل قوانين ناپولى القديمة، التى كانت متراخية نوعًا ما. كان أن بقى فى ناپولى إلى أن خرج فى 1812 على رأس الحملة الروسية التى أثبت فيها - مرة أخرى - شجاعته فى "بورودينو- Borodino"، ولكن ناپوليون تركه ليكون مسؤولًا عن الجيش الكبير الممزق أثناء الانسحاب، وهو بدوره تركه، فى محاولة لإنقاذ مملكته الناپولية. عندما وصلت أخبار هروب الإمبراطور من "إلبا- Elba" إلى إيطاليا، كان ميورا الذى كان قد عاد إلى ناپولى، أحد الأوائل الذين أعلنوا تأييدهم له، واضعًا نفسه فورًا على رأس جيش إيطالى، ولكن فى الخامس من مايو 1815 متحديًا تعليمات الإمبراطور، كان من الحماقة لكى يعترض قوة نمساوية كبيرة. ولقى هزيمة كبيرة فى "تولنتينو- Tolentino". طلب اللجوء إلى كورسيكا، وفى أكتوبر قام بمحاولة أخيرة لاستعادة ناپولى، ولكن أهالى ناپولى آنذاك كانوا قد تحملوا ما يكفى... فأسروه وأعدموه.

*** *** ***

تم قمع انتفاضة مدريد بسرعة وبوحشية بالغة، ولكن غيرها من الانتفاضات والهبات اجتاح إسپانيا، التى أظهر شعبها قدرة فائقة على خوض حرب العصابات. طُرِدَ الفرنسيون من "ڤالينسيا- Valencia" وأجبر الچنرال "پيير ديپو- Pierre Dupont"، الذى كان قد دخل "أندلسية - Andalusia" إلى الاستسلام هو وجيشه بالكامل فى "باليان- Balién" فى الثالث والعشرين من يوليو. تقدم المتمردون نحو مدريد، وبعد أسابيع قليلة

كان قد تم طرد جوزيف. فى ذلك الوقت، كان البريطانيون قد دخلوا حلبة الصراع بعد أن رست قوات بريطانية بقيادة "آرثر ولسلى - Arthur Wellesly"- دوق "ولنجتون – Wellington" القادم - فى البرتغال فى الأول من أغسطس. كان بفضلهم إلى حد كبير أن فشل الهجوم الفرنسى المضاد الواسع فى سحق التمرد تمامًا فى الشتاء التالى.

استمرت حرب شبه الجزيرة حتى 1814 فى أنحاء البرتغال وشمال غرب إسپانيا - ولكن بالرغم من أن إسپانيا دولة متوسطية، فإن الحرب لم تكن متوسطية بأى معنى، ولا كان ناپوليون بوناپارت متورطًا فيها على نحو مباشر. لا يهمنا تاريخه بعد رحيله من مصر كثيرًا. كان قد نقل مسرح عملياته عائدًا به إلى شمال ووسط أوروبا؛ حيث سيبقى هناك على مدى الخمس عشرة سنة التالية. أثناء الشطر الأكبر من تلك السنوات سيظل نجمه فى صعود، ولكن فى سنة 1812 جاءت الحملة الروسية الكارثية، وبعدها لم يكن الكثير فى صالحه. كان الحلفاء الآن يسحبون الشبكة إلى مكان أقرب، وفى أكتوبر 1813 كانت هزيمة الإمبراطور فى "ليبزج - Leipzig" هى نهايته الفاجعة. كانت هناك حملة واحدة أخرى يائسة، ولكن فى الثلاثين من مارس 1814، أجبر المارشال "مارمون - Marmont" على تسليم پاريس للحلفاء - بعد أقل من أسبوعين، أعلن ناپوليون تخليه عن السلطة رسميًّا؛ لتبدأ بعد قليل فترة المنفى على جزيرة "إلبا- Elba".

كان لـ "إلبا" تاريخ مختلف الألوان. فى الأزمنة القديمة كانت مشهورة بخام الحديد الذى كان "الإتروسك - The Etruscans" أول من استخرجه ومن بعدهم الرومان. فى العصور الوسطى الباكرة كانت الجزيرة تابعة لـ "پيزا"، ولكن فى 1290 انتقلت تبعيتها لـ "جنوة"، وفى 1399 لدوقات "پيومبينو- Piombino"، الذين تخلوا عنها فى 1548 لـ "كوزيمو دى ميديشى- Cosimo dé Medici" الفلورنسى. منذ ذلك الحين، كانت تحت حكم إسپانيا ثم تحت حكم ناپولى، وفى 1802 آلت لفرنسا. بعد وصول ناپوليون، أصبحت "معتمدية - Principality" مستقلة وهو حاكمها.[6] رسا ناپوليون فى إلبا فى الرابع من مايو 1814، وعلى الفور بدت وكأن تيارًا كهربائيًّا قد سرى فيها. كتب المفوض البريطانى «سير نيل كامپل- Sir Neil Campbell" يقول: "لم أر رجلًا فى أى مجال من مجالات الحياة قط، بمثل هذا النشاط والدأب الذى لا يهدأ". تناول ناپوليون كل الأمور على إلبا بجدية، فلم يكن يرى الجزيرة سجنًا وإنما ولاية يحكمها. وجه سكانها (نحو 12000 نسمة) للعمل فى إنشاء طرق وجسور جديدة، وأسس بلاطًا مصغرًا - مع إيتيكيت صارم كان مصرًّا عليه - ورفع على قصره فى "پورتو فيرايو- Porto Ferraio" علمًا جديدًا زينه بنحله الإمبراطورى. وصلت أمه

وشقيقته "پولين- Pauline" فى يوليو، وبعد وقت قصير وصلت "ماريا ڤاليسكا- Maria Waleska"، عشيقته البولندية مع ابنهما الصغير. على قدر اهتمامه، كان هناك غائب واحد: زوجته الثانية "مارى لويز- Maria Louise" الابنة الكبرى للإمبراطور النمساوى "فرانسيس الأول- Francis I"، التى كان يحبها حبًا حقيقيًا ويفتقدها بشدة، والتى كان قد أعد لها القصر الريفى فى "سان مارتينو- San Martino"، ولكن والديها كانا قد أصرا على أن تبقى فى ڤيينا. لن يراها بعد ذلك.

فى الوقت نفسه، كان يرقب منتظرًا. كانت هناك بوارق أمل. كان معظم جيشه قد ظل مواليًا له، وفى پاريس كان الرجعى العتيد لويس الثامن عشر يحقق المزيد من كراهية الناس له باضطراد، وكان مؤتمر ڤيينا قد أخفق. من ناحية أخرى، كانت موارده المالية فى إلبا تتضاءل، كما كانت أمه تشجعه دائمًا على "تحقيق قدره"، وهكذا قرر ناپوليون فى فبراير 1518. فى اليوم التالى لرحيل كامپل فى زيارة لإيطاليا، أصدر أوامره بتجهيز سفينته البريجية[7] الوحيدة، (إنكونستانت- Inconstant). وفى السادس والعشرين أبحر ليرسو فى الأول من مارس دون أى مقاومة، فى "جولف – چوان - Golfe- Juan" بين "فريچوس- Fréjus" و"أنتيب- Antibes". كان الطريق المباشر إلى پاريس هو ذلك عبر وادى الرون، إلا أن پروڤنس كانت متعصبة للملكية، وكانت قد استقبلته بمظاهرات عدائية وهو فى طريقه إلى الجنوب فى العام السابق. يضاف إلى ذلك أنه كان الطريق الذى يمكن أن يتخذه أى جيش ملكى قد يتم الدفع به لمواجهته. اختار بدل ذلك الطريق الجبلى الذى يمر عبر "ديجن - Digne" و"سيستيرون- Sisteron" و"جرينوبل- Grenoble" الذى بات يعرف منذ ذلك الحين بطريق ناپوليون. هذا الطريق الذى حمل الإمبراطور عائدًا إلى پاريس- وبعد المائة اليوم إلى "ووترلو- Waterloo" - يحمله كذلك خارجًا من قصتنا.

آنذاك فقط، كان البوربون يستطيعون العودة إلى ناپولى، ولكن الملكة ماريا كارولينا لم تكن بينهم على أية حال. بعد أن تخلى عنها زوجها البائس- الذى لم يرفع إصبعًا لمساعدتها عندما قام "بنتينك- Bentinck" بترحيلها- عادت إلى النمسا بلدها الأصلى، وهناك فى صباح الثامن من سبتمبر 1814 كان أن وجدوا جثتها فى "هوتزندورف- Hotzendorf" بالقرب من ڤيينا. كانت امرأة قوية وشجاعة ولكنها كانت عنيدة تتشبث دائمًا برأيها الخطأ، ويرجع إليها - إلى حد كبير - الانهيار والسقوط النهائى لمملكة البوربون فى ناپولى.

** ** **

قبل أسبوع أو أكثر قليلًا من "ووترلو- Waterloo"، فى التاسع من يونيو 1815 عقد مؤتمر ڤيينا جلسته الأخيرة، كان قد بدأ دورته فى سبتمبر السابق؛ أى بعد خمسة أشهر من تخلى نابوليون عن السلطة، وكان قد مر بلحظة شديدة الصعوبة عندما جاءت أخبار هروبه من إلبا؛ إلا أنه كان قد استمر فى الانعقاد - ناظرًا بعين القلق ناحية الغرب - وكانت تسويته الأخيرة هى الاتفاقية الأكثر شمولًا فى تاريخ أوروبا. كان "القيصر ألكساندر الأول - Tsar Alexander I" هناك ليدافع عن مصالح روسيا، وكان الإمبراطور النمساوى فرانسيس الثانى ممثلًا بوزيره الأول الأمير "ڤون ميترنخ - Von Metternich"، وملك بروسيا ممثلًا بالأمير "ڤون هاردنبيرج - Von Hard-enberg"، وچورچ الثالث ملك إنجلترا باللورد "كاستلريج - Castlereagh"، وكان قبول مشاركة بوربون فرنسا فى المؤتمر، هو الذى جاء إلى ڤيينا بالأمير "تاليران – Talleyrand"، الأكثر ذكاء بين الجميع.[8]

كانت إسبانيا والبرتغال والسويد ممثلة كذلك، وكان هناك، إلى جانب ذلك عدد كبير من النبلاء الأوروبيين وزوجاتهم، جاؤوا جميعًا لكى ينعموا بأرقى مناسبة اجتماعية تشهدها أوروبا.

كان لمعظم القرارات التى تم التوصل إليها فى ڤيينا تأثير على دول أوروبا الشمالية، إلا أنها لن تستوقفنا. أما بالنسبة للبحر الأبيض، فقد وجدت ڤينيسيا - ولومبارديا وڤينيتو - نفسها مرة أخرى فى يد النمسا؛ تم استيعاب چنوة فى «پيدمونت - Piedmont"؛ توسكانيا ومودينا كانتا من نصيب أرشيدوق نمساوى، بينما أعطيت پارما لنمساوية أخرى هى الإمبراطورة مارى لويز، تلك التى كانت من الطيش لتتزوج من نابوليون قبل خمس سنوات. الولايات البابوية، التى كانت تشكل جزءًا فى 1798 - 1799 من الجمهوريات السيسالپينية[9] والرومانية فى المملكة الإيطالية - أعيدت إلى البابا عن طيب خاطر.

كانت قد تبقت بعض الترتيبات التى ينبغى القيام بها، وبخاصة بالنسبة للجزر الإيونية السبع بالقرب من الساحل الغربى لليونان. لكل من هذه الجزر تاريخها المختلف إلى حد ما، وإن كان الطابع العام يظل واحدًا: كانت فى البداية بيزنطية، ثم صقلية نورمندية، بعد أن استولى عليها «روبرت چيسكار- Robert Guiscard"، ثم ڤينيسية بعد الحملة الصليبية الرابعة، ثم تركية (ما عدا كورفو وپاكوس التى بقيت ڤينيسية حتى 1797) بعد أن احتل نابوليون ڤينيسيا فى ذلك العام، كان من بين أول ما قام به هو إرسال نحو ألفى شخص إلى الجزر، التى كان يعتقد أن امتلاكها ضرورى بالنسبة لخططه الشرقية

وخاصة تلك المتعلقة بمصر. بحلول شهر أغسطس، كانت الجزر كلها قد أصبحت فى يد فرنسا، وبعد شهرين كان قد تم تقنين الحكم الفرنسى فى "كامپو فورميو- Campo Formu"، وكما حدث فى ڤينسيا، كان يتم إحراق السجلات الذهبية للنبالة المحلية على نحو منتظم، ويتم محو أسود سان مارك من على البوابات، إلا أن الفرنسيين سرعان ما جعلوا أنفسهم مكروهين، بداية بسبب معاداتهم للإكليروس، ثم بإصرارهم على منح اليهود مكانة متساوية مع مكانة المسيحيين الأرثوذكس. ولذلك عندما انضمت روسيا وتركيا للتحالف الثانى ضد ناپوليون فى 1798 - واستغلتا هزيمة الفرنسيين فى معركة النيل - وأرسلتا أسطولًا مشتركًا بقيادة الأدميرل "فيودور أوشاكوڤ - -Feodor Usha kov" لاستعادة الجزر، عندما حدث ذلك كله، كان هناك ترحيب بالروس الأرثوذكس (إن لم يكن بالأتراك) باعتبارهم محررين. فى كورفو فقط، كان للفرنسيين حامية كبيرة للقيام بالقتال، ولكن بعد حصار استمر عدة أشهر، كانت مجبرة على الاستسلام.

بموجب شروط اتفاق روسى - تركى عقد فى مايو 1800، أصبحت الجزر جمهورية فيدرالية مستقلة تحت حماية القيصر، تدفع جزية سنوية للباب العالى، وعندما استؤنفت الحرب بين بريطانيا وفرنسا فى 1803، كان يبدو أن استقلالها سيكون محل احترام، إلا أن هاجس كورفو بقى مسيطرًا على ناپوليون. وبموجب ملحق لمعاهدة "تلست- -Til sit"، التى وقعت مع القيصر على منصة عائمة وسط بحر "نيمن - Niemen" فى يوليو 1807 - انتقلت حماية الجزر من الروس إلى الفرنسيين. بعد عام، كانت هناك انتكاسة أخرى لاحترام الكرامة البريطانية، عندما استولى الفرنسيون على "كاپرى- Capri"؛ إذ عندما سمع القائد الأعلى للمتوسط، لورد "كولنجوود - Collingwood" من عدد من التجار من "شيفالونيا - Cefalonia" وزانته أن سكان الجزر كانوا يتطلعون إلى الحصول على استقلالهم، قرر الانتقام بالقيام بالاستيلاء على أكبر عدد من الجزر الإيونية. القوة الكبيرة التى أبحرت من صقلية فى 1809، استعادت شيفالونيا وزانته وإيثاكا و"كيتيرا - Cythera"، وتم ذلك بسهولة شديدة، ولكن دفاعات كورفو كانت قوية أمام أى هجوم مباشر. كان الحصار هو الخيار الوحيد، وهو ما ثبت أنه كان أقرب ما يكون إلى المهزلة: قام بالحصار فرقاطتان صغيرتان فقط، وبمجرد أن كانتا تغيبان عن الأنظار، كانت السفن الفرنسية تعبر المضايق إلى ألبانيا وتعود بكل ما تريد من تموين. وهكذا على مدى السنوات الست التالية كان الممثلون العسكريون للقوتين - المستعدتين للقتال فى أوروبا - ينتهجون سياسات سلمية مماثلة، على جزر على مرأى منهم.

لم يجد أى من الطرفين حكم الجزر بالأمر الهين، كانت عداءات الدم جزءًا من أسلوب الحياة المعتاد، والقتل عملًا يوميًا والجهل والخرافة فى كل مكان. يروى رحالة إنجليزى أنه عندما حاول أحد حكام شيفالونيا إدخال البطاطس للجزيرة "كان بعض القساوسة يحاولون بكل قوة إقناع المزارعين بأن تلك الثمرة كانت هى التفاحة التى أغوت بها الحية آدم وحواء فى الجنة". بالتدريج، تمت السيطرة على الجزر على أية حال، وبحلول مارس كان الميجور "ريتشارد تشيرش - Richard Church" قد نجح فى أن يشكل فى زانته ما أطلق عليه الكتيبة الأولى، كانت كتيبة مشاة يونانية خفيفة تابعة لدوق يورك. كانت هناك كتيبة ثانية، تم تشكيلها فى شيفالونيا، كان ضباطها تقريبًا من اليونانيين، وشاركت فى الاستيلاء على "پاكسوس- Paxos" فى 1814. رغم تسريح الكتيبتين بعد انتهاء حروب نابوليون، فإن الكثير من ضباطهما وجنودهما اليونانيين حولوا خبراتهم إلى فائدة كبيرة كقادة فى حرب استقلال اليونان - وبخاصة "تيودور كولوكوترونس - Theodore Kolokotronis" العظيم، الذى يظهر فى كل صوره وتماثيله تقريبًا بخوذته البريطانية.

فى نوفمبر 1815، تم الاتفاق بين مبعوثى بريطانيا وبروسيا وروسيا والنمسا على أن تكون الجزر الإيونية، من الآن فصاعدًا، دولة مستقلة تحت الحماية البريطانية يحكمها مندوب سامى بريطانى. بعد شهر، وصل السير "توماس ميتلاند - Thomas Maitland"، حاكم مالطة آنذاك، لشغل ذلك المنصب. يصفه السير "تشارلز نابيير- Charles Napier"، وكان قد عمل تحته بأنه: "جلف، عجوز، مستبد... وقح، وفظ، ولا يمكن احتماله... شخصية قذرة... مخمور باستمرار.. يحيط به جماعة من المتملقين". رغم كل هذه المثالب، ورغم اللكنة الأسكتلندية التى لم يكن أهالى كورفو ومواطنوه على السواء يفهمونه بسببها، حكم "الملك توم - King Tom" الجزر على مدى السنوات العشر التالية بيد حازمة، إلا أنها كانت مستنيرة بدرجة مثيرة للدهشة.

فى الوقت نفسه، عبر المضايق هناك فى البر الرئيسى الألبانى، كانت دراما أخرى قد بدأت تتكشف، وكانت حبلى بالمزيد من الأحداث والتطورات. انطلق عنان هذه الدراما بسبب المدعو على باشا. عندما زاره "بيرون - Byron" فى 1809 كتب:

> **«سموه فى الستين من العمر، سمين جدًا وليس طويلًا، ولكن له وجه جميل وعينان تميلان إلى الزرقة ولحية بيضاء، حسن الطباع ويتحلى فى الوقت نفسه بالوقار الذى أراه سمة عامة بين الأتراك... ولا يبدو عليه أى من صفات شخصيته الحقيقية؛ حيث إنه طاغية لا يعرف قلبه الرحمة، وهو المسؤول عن كل الفظائع الرهيبة. شجاع، ومقاتل جيد لدرجة أنهم يدعونه: بونابارت المسلم».**

كان على قد بدأ حياته قاطع طريق... وظل كذلك. فى شبابه، كان هو وأتباعه قد أسسوا ما يشبه عهد إرهاب فى ألبانيا و"إبيريوس - Epirus"، بذلت السلطات العثمانية قصارى جهدها لدحره، إلا أنه كان يتفوق عليهم أو يهزمهم، وفى النهاية قرروا، بعد أن استبد بهم اليأس رشوته بمنصبه الرفيع. أصبح حاكمًا على إيانينا منذ 1787، ومن تلك القاعدة بسط هو وأسرته سلطانهم على كل اليونان وألبانيا تقريبًا، بصرف النظر عن "أتيكا - Attica" وأثينا نفسها. أحدث على تغييرات كبيرة فى عاصمته. كانت إيانينا دائمًا جميلة بموقعها الساحر بين بحيرات وجبال. أصلح الطرق وكان يقيم فى كل عام سوقين كبيرتين للتجارة، بنى استراحات للقوافل التجارية وحفر قناة للسفن. كان يوجد بقصره المنيف أكبر سجادة جوبلين تم صنعها، كانت قبل ذلك معلقة فى قصر ڤرساى - Versailles.

كانت المصائر المتغيرة للجزر الإيونية أمرًا بالغ الأهمية بالنسبة لـ "على"... وأحيانًا كانت مصدر قلق. فى سنوات الحكم الڤينيسى، كانت ڤينيسيا تحكم المدن الساحلية الأربع الرئيسية على البر المقابل: "بوترنت - Butrint" (الآن ضمن ألبانيا) مقابل المضيق تمامًا من جهة كورفو، و"پريڤيزا - Preveza" و"ڤونيتاس- Vonitas" على جانبى مدخل "خليج آرتا - Gulf of Arta"، و"پارجا - Parga" المواجهة لـ "پاكسوس- Paxos". عندما أصبحت الجزر فرنسية فى 1807، استولى "على" على الجزر الثلاث الأولى قبل أن يتمكن أحد من إيقافه، ولكن الروس الذين كانوا يحتفظون بحامية قوية فى پارجا، كانوا قد سلموها لفرنسا حسب الاتفاق. لم يكن أمام السكان المحليين، الذين لم يكونوا يكنون أى حب للفرنسيين؛ أى خيار فى البداية سوى أن يصبروا عليهم قدر الأستطاعه، ولكن عندما بدأ نجم ناپوليون فى الأفول، رفعوا علم الاتحاد وطلبوا دعم البريطانيين. وهكذا كان أن قامت قوة عسكرية بريطانية صغيرة، فى الثانى والعشرين من مارس 1814، بالاستيلاء على المدينة. كان من المفترض أن يكون كل شىء قد أصبح على ما يرام؛ لسوء الحظ، عندما قرر مؤتمر ڤيينا فى العالم التالى أن تكون الجزر الإيونية محمية بريطانية، تم استثناء المدن الموجودة على البر الرئيسى تحديدًا من القرار وإعطائها للأتراك، مع شرط السماح لكل من يريد من سكان پارجا بالعبور إلى الجزر.

لو أن المؤتمر كان قد ترك الأمر عند هذا الحد، فلربما كان معظم أهالى پارجا قد بقوا حيث كانوا، إلا أن المؤتمر فعل ما هو أكثر من ذلك. اشترط أن تقوم الحكومة العثمانية بتعويض كل المهاجرين عن ممتلكاتهم التى تركوها على البر الرئيسى. نتيجة

لذلك، اختار الجميع أن يغادروا، أما الأتراك الذين واجهتهم مشكلة المبالغ الطائلة التى كان عليهم أن يدفعوها كتعويضات، فأعطوا پارجا لـ "على". فى آخر الأمر، قدرت التعويضات بمائة وخمسين ألف جنيه إسترلينى قام "على" بدفعها بعد فترة قصيرة، ويوم "الجمعة الحزينة -[10] Good Friday" من العام 1819، عبر نحو ثلاثة آلاف من أهالى پارجا بأيقوناتهم وتذكاراتهم المقدسة، وربما بعظام ورفات أسلافهم، عبروا المضايق إلى كورفو؛ حيث تم تقسيم المبالغ عليهم. وكما نعرف، لم يكن ذلك عزاء كافيًا، وأصبحت قصتهم إحدى الأساطير الكبرى عن معاناة اليونانيين تحت الحكم التركى، وكثيرًا ما يقال: إنهم تركوا موطنهم طواعية وإنه تم تعويضهم عن ذلك، وإنهم لو كانوا قد بقوا فى پارجا لما كان مصيرهم ليكون أسوأ من مصير أبناء المدن المجاورة الذين حرموا فرصة المغادرة.

لم يعمر على باشا طويلًا لكى ينعم بمكتسباته الجديدة. نسبت إليه محاولة اغتيال أحد أقاربه فى فبراير 1820، كان يدعى إسماعيل باشا الذى كان قد أساء إليه وفر إلى القسطنطينية، فأعطى ذلك السلطان محمود الثانى فرصة كان ينتظرها طويلًا. قام بتعيين إسماعيل حاكمًا على إيانينا بدلًا من على، وأعطاه جيشًا صغيرًا وأمره بأن يقوم بالباقى. فى فصل الخريف ذلك نفسه، ومع اقتراب إسماعيل، أضرم على النار فى المدينة، وآوى إلى قلعته التى كانت تقع على نتوء جبلى على البحيرة يحميها خندق مائى عريض. هنا، كان يبدو أنه سوف يصمد أبدًا، ولكن فى يناير 1821 والمأزق مستمر، قام السلطان محمود بعزل إسماعيل وعين مكانه خورشيد باشا، الأكثر قوة وكفاءة حاكمًا على "موريا- Morea". عندما وجد خورشيد أن جيش إسماعيل المختلط لم يكن يرجى منه (كان مكونًا من قوات منفصلة تتصرف كل منها على هواها تحت إمرة قائدها الباشا)، أمضى العام التالى فى إعادة تنظيمه، وفى مطلع العام 1822، شق طريقه نحو القلعة.

تعددت الروايات حول نهاية على. بعد أيام قليلة كان رأسه المقطوع مرفوعًا على سن رمح فى إيانينا، قبل إعادته إلى القسطنطينية وسط فرحة الانتصار.

هوامش الفصل الرابع والعشرين

(1) عندما أبدى بيوس السابع اعتراضًا عصبيًا إلى حد ما، جاءته رسالة شخصية من الإمبراطور لكى تعيده إلى حجمه: "لا بد من أن يكن لى قداستكم كل الاحترام فى سلطتى الزمنية، بنفس القدر الذى أكنه لكم فى سلطتكم الروحية... قداستكم عاهل روما... ولكننى إمبراطورها".

(2) حتى وقت قريب كانت ما تزال هناك حانة فى الركن الجنوبى من مايدا تُبل تحمل اسم "بطل مايدا"، على لافتتها صورة للجنرال ستيوارت.

(3) انظر الفصل السادس.

(4) كان التأثير شديدًا لدرجة أن علية القوم كانوا يتكلمون لغتهم الصقلية المحلية بلكنة إنجليزية.

(5) كان متزوجًا من كارولين – Caroline صغرى شقيقات الإمبراطور.

(6) بعد رحيله ستعود إلى توسكانيا التى ستعود معها فى 1860 إلى إيطاليا الموحدة.

(7) سفينة شراعية ذات صاريين. (المترجم)

(8) كان تاليران آنذاك فى الستين من العمر وكانت مسيرته الحياتية قد شهدت تطورات غريبة. دخل الكنيسة أولًا وتدرج إلى مستوى الأسقف. فيما بعد مثل حكومته فى لندن وبذل جهدًا كبيرًا فى سبيل العلاقات الإنجليزية – الفرنسية، ولكنه بعد إعدام الملك والملكة لجأ إلى أمريكا حيث بقى عامين. بعد عودته إلى باريس عين وزيرًا للخارجية فى عهد حكومة الإدارة، ثم أصبح مستشار نابوليون الرئيسى للشؤون الخارجية، وبعد أن أزعجه طموح الإمبراطور الجامح، بدأ يخطط سرًا لعودة البوربون. بعودة لويس الثامن عشر فى 1814، كان أن وجد تاليران نفسه وزيرًا للخارجية مرة أخرى.

(9) Cisalpine : المجاورة للألب. (المترجم)

(10) الجمعة السابقة على عيد الفصح. (المترجم)

الفصل الخامس والعشرون

الحرية لليونان

• ألكساندر إبسيلانتس: 1820 • الانتفاضة تبدأ: 1821 • معارك على البر وفى البحر: 1821 • ديمتريوس إبسيلانتس: 1821 • مذبحة فى خيوس: 1822
• دراماليى: 1822 • بيرون: 1823 • وفاة بيرون: 1824
• محمد على يدخل القوائم: 1824 • ميسولونجى: 1825 • سقوط ميسولونجى: 1825
• تشيرش وكوشران: 1827 • نافارينو: 1827 • أوتو الباڤارى: 1833

يمكن أن نقول: إن بداية النضال اليوناني من أجل الاستقلال عن الحكم التركى، كانت فى سبتمبر 1814، عندما أسس ثلاثة شبان يونانيين جمعية سرية فى «أوديسا- Odessa». ولتفادى الشك فى أمرهم، أطلقوا عليها اسمًا ملتبسًا غير دال وهو "Phi-liki Eteria" أى "جمعية الصداقة". لم يكن أى من الشبان الثلاثة متميزًا فى شىء ما، أو يحمل ما يجعله شخصية استثنائية: نيكولاس سكوفاس - Nikolas Skouphas كان صانع قبعات، وإيمانويل زانتوس – Emmanuel Xanthos كان تاجر زيت زيتون مفلسًا، أما ثالثهم أثناسيوس تساكالوف - Athan asios Tsakalov فلم يكن صاحب مهنة ثابتة. بدؤوا العمل على مهل، وبالرغم من أنهم كانوا كلهم من مواليد اليونان، فإنهم، كمغتربيين، لم يكونوا يستطيعون الحصول على شىء من موارد البر الرئيسى، حتى بين الشتات اليونانى حول البحر الأسود، كانوا يعتبرون ضئيلى الشأن لكى يأخذهم أى من التجار الأغنياء على محمل الجد. فى الوقت نفسه، كانوا هم فى حاجة إلى دعم أولئك التجار.

شيئًا فشيئًا، أصبح عدد أعضاء الجمعية يتزايد. قام مؤسسوها بنقل قاعدتهم إلى القسطنطينية؛ حيث كان يوجد هناك فى تلك الأيام يونانيون كثيرون مثل الأتراك، ومن هناك أرسلوا مبعوثيهم إلى اليونان نفسها: ذهب واحد إلى مقدونيا - Macedonia وتيسالى - Thessaly، وآخر إلى البيلوبونيز وجزر هيدرا - Hydra وسبتساى - Spetsai الغنية، واثنان إلى مانى- Mani (الجزيرة الوسطى بين النتوءات الثلاثة فى البيلوبونيز الجنوبية). كانت مانى بؤرة انتفاضة فاشلة فى السابق، هبت فى 1770 بواسطة كاترين العظمى- Catherine the Great عن طريق عشيقها الكونت جريجورى أورلوف[1] - Gregory Orlov، وكنتيجة، ربما يبدو ظاهرية التناقص مع ذلك الحدث، كانت السلطات العثمانية قد أبعدتها عن صلاحيات حاكم البيلوبونيز، وجعلت تبعيتها المباشرة لقبطان باشا - Capitan Pasha قائد القوات المسلحة التركية وسيد بحر إيجه، وكان بدوره قد نقل سلطاته لكبير إحدى العائلات المحلية مع لقب "بيه - Bey". ثامن أولئك البهوات (البكوات)[2]، الذى عين فى 1815، سيكون أحد أبطال الثورة اليونانية، وسوف يسقط ما لا يقل عن تسعة وأربعين شخصًا من عائلته فى القتال خلال النضال اللاحق، كان اسمه بتروبيه ماڤروميكالس - Petrobey Mavromichalis.

كان پتروبيه مثل كل عائلته بالغ الوسامة كما هو متوقع، ربما يكون جده الأعلى جيورجى - Georgy قد تزوج من إحدى حوريات البحر! وكان يجمع إلى تلك السمة حسن الخلق والذكاء الشديد والشجاعة الفائقة كما سيتجلى فيما بعد. ومثل أى قائد قَبَلى، كان يمكن أن يكون بالغ القسوة عند الضرورة، إلا أنه فى الوقت نفسه كان كريمًا - فى أرضه - ورجل سلام يحقن الدماء ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ويبذل قصارى جهده لإرساء أواصر التضامن، الذى كان يعرف أنه سيكون ضروريًّا فى القادم من السنوات، عندما اتصلت به الجمعية منحها تأييده على الفور.

قبل التفكير فى حمل السلاح، كان لا بد من أن تجد الحركة قائدًا لها، فى ذلك الوقت، كان اليونانى الأكثر تميزًا - والاختيار الأول الواضح - هو إيانس كاپودستريا س - Ian-nis Kapodistrias، المعروف خارج اليونان بـ كاپودستريا - Capodistria. كان من مواليد كورفو لأسرة عريقة هاجرت من إيطاليا إلى الجزر الإيونية فى القرن الرابع عشر. فى شبابه، كان نشطًا فى الحياة السياسية، كما كان قد ترك انطباعات إيجابية شديدة لدى المحتلين الروس، لدرجة أن دعوة للمشاركة فى الإدارة فى سان بطرسبورج - St Petersburg. فى الظروف العادية، لم يكن وضعه كموظف فى الإمبراطورية الروسية يمنعه من رئاسة الجمعية، إلا أن القيصر ألكساندر - لسوء الحظ - كان قد عينه وزير خارجية مساعد فى 1815؛ ولذلك عندما طلب إيمانويل زانتوس مقابلته فى 1820، وقدم له الدعوة، رفضها مباشرة.

بعد ذلك وقعت عين الجمعية على ضابط جسور يدعى ألكساندر إپسيلانتس- Al-exander Ipsilantis، كان أحد مرافقى الإمبراطور. كان ما زال فى العشرينيات من عمره، وكان قد فقد ذراعه اليمنى أثناء خدمته مع القيصر. كان اثنان من إخوته عضوين فى الجمعية بالفعل، وقَبِلَ المنصب دون تردد. كان الطريق ما زال طويلًا، وكانت عضوية الجمعية قد بلغت نحو ألف شخص. إلا أن إپسيلانتس كان متعجلًا نافد الصبر، فأصدر بيانًا فى الثامن من أكتوبر 1820 يدعو فيه كل اليونانيين للاستعداد للنضال القادم، معلنًا أن الثورة لا بد من أن تنطلق من البيلوپونيز قبل نهاية العام. كان قد فشل فى استشارة مصادره على الفور؛ فكانوا مضطرين لإبلاغه بأن البيلوپونيز لم تكن مستعدة بعد، ولذا قرر أن تكون البداية فى الشمال بدلًا من الجنوب، فى معتمديات الدانوب: مولداڤيا - Moldavia وڤالاشيا - Wallachia.

كان اختيارًا مفاجئًا ومثيرًا للدهشة من عدة أوجه، لم يكن أى من هذه المناطق - كلاهما اليوم ضمن رومانيا الحالية - جزءًا من اليونان كما لم تكونا عمليًّا جزءًا من

الإمبراطورية العثمانية؛ إذ كانتا بحكم وضعهما القانونى إقطاعيات تابعة، وبموجب الاتفاقية لم يكن السلطان يستطيع أن يرسل قوات إلى هناك دون موافقة الروس. كان معنى ذلك ضرورة إقناع القيصر بمنع القوات التركية من التصدى للثوار، لصالح شركائه فى العقيدة الأرثوذكسية، كانت هناك ميزة أخرى وهى أن المنطقتين كانتا على مدى القرن السابق، تحت حكم يونانيين من القسطنطينية، وكان المتوقع أن يقدموا كل ما يستطيعون من دعم، كل هذه الاعتبارات شجعت إبسيلانتس، الذى قام فى السادس من مارس 1821 باجتياز الحدود إلى مولداڤيا مع اثنين من إخوته الصغار وعدد من المرافقين. مساء اليوم نفسه، دخلوا العاصمة إياسى- Iasi؛ حيث أصدر بيانًا آخر يعد فيه بتدمير الأتراك تمامًا "بأقل القليل من الجهد؛ حيث إن هناك إمبراطورية قوية تحمى صفوفنا".

الحقيقة أنه كان هناك ما يدل على أن "الإمبراطورية القوية" لن تفعل شيئًا من هذا القبيل؛ إذ كان كابودستريا والقيصر نفسه قد أوضحا لـ إبسيلانتس أنهما كانا ضد الفكرة، ولن يكون لهما دخل بها، وأن الحملة - إن جاز اعتبارها كذلك - منذ تلك اللحظة، كانت كارثة محققة. فى جالاتس - Galatz، وهى مدينة تقع على بعد مائة ميل تقريبًا جنوبى إياسى، قام الثوار بذبح الحامية التركية وكل التجار الأتراك، وعندما وصلت الأخبار إلى إياسى، تم قتل الحراس الأتراك (نحو خمسين شخصًا)، الذين كانوا قد تركوا أسلحتهم بعد وعد بالإبقاء على حياتهم وتأمين ممتلكاتهم. بالإضافة إلى ذلك، فإن إبسيلانتس عندما وجد أن الدعم الذى كان يتوقعه من إياسى لم يأت، كان يلجأ إلى اغتصاب الأموال من أصحاب البنوك الأثرياء. فى الوقت نفسه، كان الجنود الذين جمعهم، ولا يدفع لهم رواتب، يقومون بسلب ونهب القرى المحلية. كل تلك الظروف جعلت إبسيلانتس فى حالة انزعاج شديد، فزحف على بوخارست - Bucharest؛ ليجد أن مغامرًا محليًا يدعى تيودور ڤلاديميريسكو- Theodore Vladimirescu كان قد سبقه إلى هناك واحتل المدينة، داعيًا أهالى ڤالاشيا للثورة، ليس على الأتراك، وإنما على اليونانيين الفناريين[3] - The Phanariot Greeks، أو "التنانين التى تبتلعنا أحياء" كما وصفهم.

ولكن الضربتين القويتين كانتا فى الطريق. أولًا: حكم البطريرك الأرثوذكس - مدعومًا من اثنين وعشرين أسقفًا - على إبسيلانتس وغيره من زعماء الثورة بـ "الحرم الكنسى واللعنة وعدم الغفران، واستنزال اللعنة عليهم بعد الموت والمعاناة الأبدية". بعد ذلك، استنكر القيصر نفسه الثورة. وفى بيان صاغه كابو دستريا، تم طرد إبسيلانتس من الجيش باعتباره "قد خالف كل مبادئ الدين والأخلاق". لن يحصل هو أو أى من رفاقه على أى دعم من روسيا، التى مُنِعَ من العودة إليها.

من حسن الحظ، سرعان ما ألقى القبض على ڤلاديميرسكو ونقله إلى معسكر إبسيلانتس؛ حيث تم إعدامه بسرعة. زاد عدد الثوار بعد أن انضم إليهم المضارون من أتباع ڤلاديميرسكو، فقرروا مواجهة الأتراك رأسيًا، وفى التاسع عشر من يونيو، قابلوا قوة عثمانية كبيرة بالقرب من قرية دراجاسانى - Dragasani، وفى المعركة، قتل نصفهم تقريبًا ولاذ النصف الآخر بالفرار. هرب إبسيلانتس إلى النمسا، إلا أنه ألقى القبض عليه وهو يحاول عبور الحدود، وتم إيداعه السجن فى موهاكس - Mohacs حتى العام 1827 ليموت فى العام التالى. تتغنى به الأساطير الشعبية اليونانية بطلًا وشهيدًا.. وقد كان كذلك على نحو ما. إلا أنه لم يكن يملك الذكاء ولا الخبرة اللازمين لقيادة ثورة ناجحة، كما يعزى فشل الحملة الأولى فى حرب الاستقلال اليونانية لعدم كفاءته، كما هو لأى شىء آخر.

** ** **

فى البيلوپونيز، كانت احتمالات الانتفاضة التالية تبدو أكبر، وبخاصة بعد خروج خورشيد باشا حاكم موريا - Morea فى يناير 1821 لمواجهة على باشا حاكم إيانينا. كان خورشيد قوة لا يستهان بها فى المنطقة، وأدى إحلال نائب غير كفء مكانه إلى تراخى السلطة التركية على الفور. بعد أيام قليلة وصل من زانته تيودور كولوكوترونس- Theodore Kolokotronis العربيد، ذى الشاربين الأسودين الكبيرين، قاطع الطريق السابق ذى الخمسين ربيعًا، الذى يجسد الثورة اليونانية أكثر من سواه. بحضوره الطاغى، بضحكته المجلجلة وثورات غضبه المرعبة، كان قائدًا بالفطرة، وفى غضون أيام قليلة من وصوله فرض شخصيته على كل من حوله.

كان الفتيل قد تم وضعه، ولكن كولوكوترونس هو الذى سيشعله، عندما قرر أن يكون الخامس والعشرين من مارس هو يوم انطلاق الثورة.[4] حتى آنذاك، كانت قلة هى التى تركت السلاح. كان يمكن أن تقرأ على لافتة فى ساحة كنيسة سان مايكل فى مدينة أريوپوليس - Areopolis عبارة تقول: "من هذه الساحة التاريخية، انطلقت الانتفاضة العظيمة تحت قيادة پتروبيه. 17 مارس 1821".

شرف لـ ماڤروميكاليس - Mavromichalis إذن أن يكون أول من نزل إلى الميدان، ولكن كوكلوكوترونس لم يكن متخلفًا فى المؤخرة، فقد قام يوم 20 مارس بتنظيم مسيرة قوامها نحو ألفى مسلح، طافت شوارع كالاماتا - Calamata وسط هتاف الجماهير. بعد ثلاثة أيام، قبلوا استسلام الحامية التركية مع وعد بالإبقاء على حياتهم. (من أسف أن ذلك لم يحدث؛ إذ "ابتلعهم القمر"، على حد تعبير كاتب معاصر).[5] فى غضون أقل

من أسبوع، كانت الثورة قد عمت البيلوبونيز.

إلا أن الأمور لم تكن تسير على هوى الثوار فى كل مكان. فى پاتراس - Patras، المدينة الرئيسية والميناء، واجهت الانتفاضة مقاومة شديدة فى الأيام الأخيرة من شهر مارس. كان الأتراك متمترسين فى القلعة ويطلقون نيران مدافعهم على من يحاصرونهم من تحتهم، وفى غضون أيام قليلة كانت خيبة أمل أخرى. لجأ الأسقف جرمانوس - Bishop Germanus (الجالس على كرسى پاتراس وأكبر شخصية كنسية والقائد الرمزى للثورة كلها) إلى كل القوى المسيحية طلبًا للمساعدة، وفى التاسع والعشرين من مارس تلقى ردًا من سير توماس ميتلاند - Thomas Maitland فى كورفو، كان محظورًا على رعايا الجزر الإيونية - كما كتب ميتلاند - أن يورطوا أنفسهم فى الصراع من جانبهم، وإن فعلوا فسوف يفقدون حماية حكومتهم.

ثم فى يوم أحد السعف - Palm Sunday، وكان الثالث من مارس، كان أن وصلت إلى پاتراس قوة تركية من بضع مئات بقيادة شخص يدعى يوسف باشا. كان يوسف قد ترك حصار إيانينا قبل فترة قصيرة ليشغل منصب حاكم إيوبيا- Euboea، وعند توقفه فى ميسولونجى - Missolonghi (ميسولونجيون - Mesolongion الآن) فى طريقه، عرف بالاضطراب فهرع من فوره لنجدة المدينة. دخل المدينة هو ورجاله فجرًا بينما كان سكانها اليونانيون ما زالوا نائمين. نهض معظمهم مذعورين ليفروا للنجاة بحياتهم، بينما أصدر يوسف باشا أوامره بإحراق منازل كل الشخصيات الرئيسية من الأهالى، ومع هبوب رياح شديدة انتقلت النيران بسرعة لكى تلتهم نحو سبعمائة منزل. فى الوقت نفسه، كانت الشوارع قد امتلأت بالأتراك الهائجين المتعطشين للدم اليونانى، وشهدت الساعات القليلة التالية قطع رؤوس أربعين من اليونانيين الذين كانوا قد بقوا فى المدينة.

ستظل پاتراس ساحة قتال حتى نهاية الحرب، يتناوب السيطرة عليها اليونانيون والأتراك دون أن يحسم طرف منهما الأمر وينتهى القتال، وبالرغم من القصف المستمر من المدافع اليونانية، لم يفقد الأتراك السيطرة على القلعة ولم يتركوا القلعتين الكبيرتين الأخريين: الروملى - Roumeli وموريا - Morea، المتواجهتين عند أضيق نقطة من خليج كورنته. لولا رأس الجسر هذا، الذى لا يقدر بثمن؛ حيث كان اليونانيون مستقرين فى كورنته، لبقيت شبه الجزيرة الشاسعة عصية على الاختراق من جهة الشمال، ولكان مقر الحكم الخاص بهم فى ترابيولس - Tripolis قد بات معزولاً؛ فبواسطته جعلوا حياة المتمردين صعبة بالفعل.

لم يكن هناك شك الآن فى أن البيلوپونيز ستكون الساحة الرئيسية للصراع. كان هناك أن كسب كولوكوترونس (وكان قد أصبح القائد الأعلى بصفة رسمية) معركته الضارية الأولى فى ڤالتسى - Valetsi، التى لا تبعد سوى خمسة أميال عن مقر الحكومة التركية فى ترايپولس؛ حيث خسر الأتراك نحو سبعمائة جندى بين قتيل وجريح، واليونانيون نحو ألف وخمسمائة. كان هناك كذلك أن استولى اليونانيون على أول حصن قوى للأتراك، وهو حصن مونيمڤاسيا - Monemvasia، فى الركن الجنوبى الشرقى، الذى كان يعتقد أنه غير قابل للاختراق بسبب الطبيعة الصخرية القاسية للمكان. من ناحية أخرى، كان القتال المتقطع فى الروملى يستهدف فى أوقات قصيرة إيقاف تقدم الأتراك شمالًا. كان هناك - على سبيل المثال - انتصار يونانى كبير فى ڤاسيليكا - Vasilika. كان الطريق يمتد عبر ممر ضيق يشبه ممر تيرموپيلاى Thermopylae وليس بعيدًا عنه؛ حيث كان ليونيداس - Leonidas ملك إسبرطة قد هلك هو وجيشه فى مقاومتهم البطولية ضد الفرس، قبل ثلاثة وعشرين قرنًا.(6)

شهد البحر الأبيض كذلك نصيبه من المعارك. لم تكن القوى المتنافسة متساوية أو متكافئة دائمًا. السفن اليونانية مثلًا، كانت فى الغالب تجارية بالرغم من أنها كانت تحمل أحيانًا مدافع لحماية نفسها من القراصنة الذين كان يعج بهم البحر. من ناحية أخرى، كان لدى الأتراك بحرية قوية. كان ذلك، وبحسب الظاهر، لا بد من أن يجعل مفهوم الحرب البحرية مختلفًا بالنسبة للطرفين إلى حد بعيد، إلا أن اليونانيين كان لديهم ميزة كبيرة: كانوا رجال بحر بمعنى الكلمة، بينما الأتراك - ومنبعهم آسيا الوسطى التى تكتنفها اليابسة - لم يكونوا كذلك. كان ذلك يعنى أنه بينما كان المقاتلون على سفينة حربية تركية من الأتراك، كانوا يعتمدون على اليونانيين فى شؤون البحر والملاحة. بعد نشوب الثورة لم يعد ذلك ممكنًا. يضاف إلى ذلك أن صغر حجم السفن اليونانية كان يجعلها أكثر سرعة وقدرة على المناورة، مثلما كانت السفن الإنجليزية المنتصرة قبل قرنين ونصف القرن، عندما خرجت لمواجهة الأرمادا الإسپانية.

لن يكون مثيرًا للدهشة إذن أن نعرف أن حملتين من الحملات التركية الثلاث التى خرجت من القسطنطينية فى 1821 فشلتا تمامًا. كان لتلك الحملات هدف مزدوج: إعادة فرض السيادة التركية على الجزر اليونانية المتمردة، وجلب تعزيزات ومؤن للحاميات التركية حول البيلوپونيز. الحملة الأولى انسحبت بعد تدمير ثانى أكبر سفينة فيها بواسطة حراقة(7) يونانية، عندما انتقلت ألسنة اللهب إلى مخزن البارود لتنفجر السفينة وتتحول إلى شظايا ويقتل أكثر من خمسمائة شخص. الحملة الثانية، التى كانت تستهدف إخضاع

جزيرة ساموس بالقرب من ساحل الأناضول، عادت مرتدة دون أن تحقق شيئًا. لم ينجح سوى الحملة الثالثة التى أبحرت حول البيلوبونيز والبحر الإيونى؛ حيث كانت السلطات البريطانية ما زالت تسمح للأتراك باستخدام موانى الجزيرة. تزودت بالمؤن من زانته وواصلت هجومها بواسطة أسطول صغير، كان معظمه سفنًا مصرية، على ميناء چالاكسيدى - Galaxidi على الشاطئ الشمالى لخليج كورنته. تم أسر أربعة وثلاثين سفينة يونانية ببحارتهم وإحراق المدينة تمامًا. بعد ذلك، عاد الأسطول إلى البوسفور متخذًا المسار نفسه الذى جاء منه؛ ليرسو فى القرن الذهبى تتبعه السفن المأسورة التى غنمها، وجثث الأسرى معلقة على عوارض الصوارى.

** ** **

مع تدهور العلاقات بين اليونانيين والأتراك، كان المتوقع أن يعانى المدنيون والمحاربون كذلك. كان هناك حدث مؤسف بالغ البشاعة وقع فى سميرنا - Sumyrna (إزمير- Izmir) فى يونيو 1821؛ إذ فى أثناء هجوم على جماعة كبيرة من اليونانيين تم قتل واغتصاب عدد كبير من الرجال والنساء، إلا أن أكثر الأعمال فظاعة، كان ما حدث فى القسطنطينية، وبأوامر من السلطان محمود الثانى شخصيًّا. بعد فجر يوم أحد الفصح الثانى والعشرين من أبريل 1821، تم تجريد البطريرك جريجوريوس الخامس - Grigorios V من مرتبته رسميًا - والمؤكد أنه لم يكن قد نطق بكلمة واحدة تأييدًا للثورة - وعند ظهيرة اليوم نفسه، كانت جثته معلقة على المدخل الرئيسى للبطريركية. يقول القس الملحق بالسفارة البريطانية، روبرت وولش - Robert Walsh تعليقًا على ذلك الحدث"..... وحيث إنه كان مهزولًا بسبب التقشف وضعيفًا بحكم السن (كان يقترب من الثمانين)، لم يكن وزنه ثقيلًا لكى يموت على الفور. ظل يتألم فترة طويلة، ولم تجرؤ أى يد صديقة على أن تمتد لإنقاذه؛ ليحل ظلام الليل قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة". يقال: إن السلطان جاء بعد ساعات قليلة لكى يشاهد بنفسه الجثة التى بقيت معلقة ثلاثة أيام.

لم يكن البطريرك العجوز الضحية الوحيدة، ففى أرجاء الإمبراطورية العثمانية كلها كان يتم الهجوم على الكنائس المسيحية وإحراقها، كما تم إعدام كثير من الإكليروس، من بينهم سبعة أساقفة على الأقل. إلا أنه برغم صدمة العالم الغربى كله لذلك، لم يرفع صوته بالاحتجاج سوى روسيا الأرثوذكسية - وزيرا الخارجية النمساوى والبريطانى مترنخ - Metternich وكاستلريج - Castlereagh اللذان كان يمكن الثقة بهما دائمًا بأنهما يعارضان أى حركة للتحرر الوطنى، تغلبا بسهولة على التردد الأولى لبروسيا وفرنسا، وعليه كان القيصر مضطرًا للتصرف منفردًا، ولكنه لم يحاول أن يلون كلماته

أو يخفف من حدتها، وفى إنذار أعد مسودته كابودستريا أعلن:

«لقد وضعت الحكومة العثمانية نفسها فى حالة عداء واضح مع العالم المسيحى، لقد شرعت دفاع اليونانيين الذين سيقاتلون من الآن من أجل هدف واحد، وهو إنقاذ أنفسهم من هلاك مؤكد. على ضوء طبيعة هذا الكفاح، تجد روسيا نفسها مضطرة لتقديم العون لهم؛ لأنهم مضطهدون، والحماية لأنهم فى حاجة إليها، والمساعدة مع كل العالم المسيحى؛ لأنها لا يمكن أن تترك إخوانها فى الدين تحت رحمة التعصب الأعمى».

قُدِّم هذا الإنذار للحكومة التركية فى الثامن عشر من يوليو، وفى الخامس والعشرين، عندما لم يتسلموا ردًّا، قطع السفير الروسى الكونت ستروجانوف - Count Stroganoff العلاقات الدبلوماسية مع الباب العالى وأغلق سفارته.

فى الوقت نفسه، كان كولوكوترونس وجيشه فى البيلوبونيز يستعدون للاستيلاء على أكبر غنيمة حتى ذلك الحين: ترابيولس. بالرغم من وجود حامية بها، كان عددها نحو عشرة آلاف - من بينهم نحو ألف وخمسمائة من المرتزقة الإسبان- كانت المدينة تبدو هدفًا سهلًا. ولأنها كانت تقع وسط سهل منبسط، لم تكن تعتمد على دفاعات طبيعية، مجرد سور حجرى بارتفاع نحو أربعة عشر قدمًا. كذلك لم يكن بالإمكان إمدادها وتموينها من البحر. كان معروفًا عنها أيضًا ازدحامها بالسكان. كان سكانها المدنيون نحو خمسة عشر ألف نسمة، ثم زاد عددهم بسبب من نزحوا إليها من الأتراك المحليين، الذين لم تعد الحياة فى المناطق الريفية المجاورة آمنة بالنسبة لهم. فى صيف اليونان اللاهب، لم يكن من المحتمل أن تصمد أمام حصار طويل.

بحلول منتصف يوليو، كان قد تم سحب القوات اليونانية إلى الشمال والغرب. كان كولوكوترونس هو القائد، وكانت هناك قوة احتياطية أخرى مستعدة تحت قيادة ماڤروميكاليس. وهم على أهبة الاستعداد الهجوم، وصل زائر غير متوقع: ديميتريوس إبسيلانتس- Dimitrios Ipsilamtis، شقيق المشؤوم ألكساندر. لم يكن ذلك وحده يبدو شيئًا محمودًا، رغم أن أخبار كارثة ألكساندر الأخيرة لم تكن قد وصلت إلى البيلوبونيز بعد. من الناحية الجسدية كذلك، لم يكن ديميتريوس يترك انطباعًا جيدًا: كان قصير القامة لا يصل طوله إلى خمسة أقدام، نحيلًا إلى حد كبير كأنه هيكل عظمى، إلى جانب عيوب خلقية تجعله يتكلم بصعوبة. بالرغم من ذلك كان فيه شىء ما يوحى بالثقة. منذ لحظة ظهوره لم يكن هناك شك فى نزاهته، وعندما تقدم بعد أيام قليلة لتولى زمام حكومة جديدة للبيلوبونيز، بالإضافة إلى توليه القيادة العليا المسلحة، لقى دعمًا كبيرًا من القيادات

الثورية. كان من بينهم كولوكوترونس نفسه، مدركًا كما كان دائمًا أن اليونان الجديدة التى كانت تتشكل، كانت أكثر احتياجًا إلى رئيس معترف به، وربما يجد إسپيلانتس مرشحًا مناسبًا بامتياز لن يكون من الصعب عليه إخضاعه لإرادته. بعد جدال لم يستمر طويلًا، تم الاتفاق على أن تستمر الحكومة المؤقتة، التى كانت قد شكلت قبل نحو شهر باسم مجلس شيوخ البيلوپونيز-The Peloponnesian Senate، بـ إپسيلانتس رئيسًا له وقائدًا أعلى للقوات المسلحة.

بدأ الحصار، ومضى كما كان اليونانيون يتوقعون إلى حد كبير. قبل مرور وقت طويل كانت ترابيولس تعانى نقصًا شديدًا فى الغذاء والماء... ثم كان المرض بعد ذلك. فى آخر أغسطس جاءت الأخبار بأن قوة تركية كانت قادمة من الشمال عبر تيرموپيلاى- Thermopylae، وأن اليونانيين كانوا قد نجحوا فى إيقافها، وبعد أيام قليلة أعلن الأتراك المتحصنون فى المدينة عن استعدادهم للتفاوض. كانت هناك ورقة وحيدة فى أيديهم: مجموعة من الرهائن اليونانيين عددهم ثمانية وثلاثون شخصًا، كانوا قد أسروهم مع خدمهم فى بداية الحصار. كانوا محتجزين كلهم فى زنزانة واحدة، السادة مكبلون فى سلسلة واحدة من رقابهم، والخدم فى سلسلة أخرى والسلاسل مشدودة بحيث إذا أراد أحد المكبلين الجلوس أو القيام، كان لا بد من أن يفعل الباقون كلهم الشىء نفسه. ربما كان ذلك العمل غير الإنسانى هو الذى زاد من غضب القائمين بالحصار. كانت أعدادهم تتزايد مع تهديدات بالسلب والنهب، كما زادت الحالة الأخلاقية سوءًا عندما بدأوا يتجادلون حول توزيع الغنائم.

قبل الاستسلام المتوقع بوقت قصير، استطاع كولوكوترونس إقناع إسپيلانتس بترك المعسكر. كان العذر الذى قدمه هو أن الأسطول التركى كان قد ظهر بالقرب من الساحل الغربى، وأنه كان من واجبه أن يمنعه من الرسو. (الحقيقة أن المدفع الوحيد الذى كان يطلق قذائف من زنة الرطلين، الذى أخذه معه، كان تأثيره سيكون ضعيفًا على البحرية العثمانية التى كانت قد تقدمت إلى جالاكسيدى، كما نعرف، دون مقاومة) كان يبدو أن السبب الحقيقى هو أن الاستيلاء على ترابيولس كان سينتهى - كما كان كولوكوترونس يعرف جيدًا - بحمام دم. سيكون من الأفضل ألا يكون إسپيلانتس، صاحب العقل الراجح هناك ليشهد ذلك أو ليخاطر بأن يعتبر مسؤولًا باعتباره رئيس الحكومة. لا شك أنه كان محقًا. كانت مباحثات السلام ما زالت مستمرة عندما اقتحم اليونانيون ترابيولس فى الخامس من أكتوبر ليجدوا جثث من ماتوا من الجوع والمرض مبعثرة فى الشوارع، وفى غضون ساعات قليلة كان فوقها مئات الجثث الأخرى... كانت هذه المرة جثث

ضحايا شهوة الذبح العشوائى. لم يحدث ذلك فى المدينة فحسب؛ إذ كان قد تم ذبح نحو ألفى لاجئ؛ معظمهم من النساء والأطفال كانوا قد خرجوا طواعية بعد وعد بتأمينهم. بعد أيام قليلة من انتهاء هذا الكابوس عاد إسبيلانتس ليصاب بالفزع من هول ما رأى. قيل: إنه كان لا بد من أن يبقى لكبح جماح أبناء جلدته، إلا أن نفوذه الذى لم يكن قويًّا كان قد بدأ فى الانهيار، وعلى أية حال لم يكن بإمكانه أن يفعل الشىء الكثير. الحرب كما نعرف من السهل أن تجرد المتورطين فيها من إنسانيتهم، كما أن التاريخ مليء بمثل تلك الفظائع. لم يكن ترابيولس الأول ولا الأسوأ من نوعه، ومن أسف أن تلطخ تلك الوصمة الباقية الملحمة البطولية لحرب الاستقلال اليونانية.

** ** **

كان اليونانيون يقاتلون من أجل الحرية والقومية، ولكنهم لم يكونوا قد أصبحوا دولة بعد. كان مجلس شيوخ البيلوبونيز أمرًا جيدًا، إلا أن عضويته لم تكن بالانتخاب، وكان معظم أعضائه يفرضون أنفسهم فرضًا، وبحسب تعريفه كان مقصورًا على جنوب اليونان. فى الشمال من خليج كورنته، كانت توجد هيئات مشابهة فى كل من شرق وغرب الروملى - Roumeli، وكان المجلس الثانى فى ميسولونجى تحت سيطرة حازمة من ألكساندر ماڤروجورداتوس - Alexander Mavrogordatos، الذى كان شخصًا متغربنًا، يتكلم سبع لغات، وكان قد جاء من بيزا من وقت قريب. كان صديقًا مقربًا للشاعر شيللى – Shelly، وكان يعطى مارى شيللى دروسًا فى اللغة اليونانية. بمجرد أن سمع بالثورة هرع إلى اليونان ليرسو فى ميسولونجى فى منتصف أغسطس، ومنذ تلك اللحظة سيكون صاحب التأثير الأكبر فى الثورة.

كان المطلوب الآن على نحو عاجل وجود كيان أعلى يوحد تلك الكيانات الثلاثة مع مجموعات أخرى كثيرة أصغر منها، كانت قد تشكلت فى مدن وبلدات مختلفة. بهذا الهدف، التقى ممثلون لكل تلك التنظيمات فى الأسابيع الأخيرة من العام فى بيادا - Pia-da، وهى قرية صغيرة تقع على بعد خمسة أميال تقريبًا من مسرح إبيدوراس - Epi-daurus الكلاسيكى الكبير. كان على مجلس شيوخ إبيدوراس- The Assembly of Epidaurs، كما أطلق عليه، أن يضع مسودة أول دستور يونانى. بعد أن أعلن عن الوجود والاستقلال السياسى للدولة اليونانية، متخذًا الأرثوذكسية اليونانية دينًا للدولة، شرع فى وضع قائمة بالحقوق المدنية التى ينبغى ضمانها، وفى آخر الأمر وضع أسس الآلية الإدارية، ومجلس تنفيذى من خمسة أفراد ومجلس شيوخ. انتخب ماڤروجورداتوس رئيسًا للمجلس التنفيذى، أو بمعنى أدق رئيسًا للدولة؛ أما إسبيلانتس، الذى كان بعيدًا

يقوم بحصار كورنته، فتم استرضاؤه برئاسة مجلس الشيوخ، وماڤروميكاليس نائبًا له.

ولكن إعلان الاستقلال ووضع الدستور شيء، والخروج بذلك إلى حيز الوجود وقبولهما على المستوى العام شيء آخر. كان المندوبون الذين اجتمعوا فى إبيدوراس قد وقعوا فى خطأ كبير بإغفالهم اختيار عاصمة. ربما كان قرارًا مثل ذلك يبدو سابقًا لأوانه فى مرحلة باكرة كتلك، إلا أنه كان يعنى عمليًا أن كلا منهم قد عاد إلى مقر سلطته بعد الانتهاء من مداولاتهم، دون اتخاذ أى قرارات إدارية مهمة تجعل من الحكومة القومية حقيقة واقعة. ماڤروجورداتوس نفسه، الذى كان على علم تام بأن الأسطول التركى كان ما زال يتسكع فى جنوب الأدرياتيكى، غادر مباشرة إلى هيدرا وسپتساى- وهما اثنتان من الجزر الثلاث، (كانت الثالثة هى پسارا - Psara فى جنوب بحر إيجه) اللتان كانت البحرية الثورية تعتمد عليهما من أجل سفنها وأطقمها، والتى سيكون دعمهما ضرورى فى الصراع البحرى القادم. لم يرجع إلا فى مايو 1822، عندما ذهب إلى ميسولونجى مباشرة لتقوية دفاعات المدينة.

ما حدث هو أن الدستور اليونانى لم يكن فى نظر اليونانيين والأجانب على السواء أكثر من حلم. لعلنا نأسف، وإن كان ذلك لا يدهشنا كثيرًا، لرد توماس ميتلاند فى كورفو على الحكومة اليونانية، عندما طلبت إعادة سفينة كان قد تم احتجازها:

> **لقد تلقى سموه رسالة من أشخاص يطلقون على أنفسهم اسم حكومة اليونان، وذلك عن طريق مندوب موجود الآن فى هذا الميناء... إن سموه لا يعرف شيئًا على الإطلاق عن وجود «حكومة يونانية مؤقتة»، وعليه فهو لا يمكنه الاعتراف بمثل هذا المندوب، ولن يشرع فى مراسلات مع أى سلطة اسمية لا يعرف عنها شيئًا...**

** ** **

بالنسبة لليونانيين، كانت السنة الأولى لثورتهم ناجحة بشكل مدهش، وكانت الانتفاضة اليونانية قد استحوذت على اهتمام أوربا. من إنجلترا وفرنسا، من ألمانيا وإسپانيا، من پيدمونت وسويسرة، حتى من پولندا والمجر... كانت جماعات الشباب المولع بالثقافة الإغريقية - بذكريات حديثة من تعليم كلاسيكى - تنتهز فرصة وجود أى سفينة لتأخذهم إلى موقع النضال.

من أسف أن الكثير منهم قضى نحبه. كان العام 1822 أقل سعادة من سابقه. معظم المتطوعين الأجانب، الذين لم يكونوا يتكلمون كلمة واحدة من اليونانية، الذين وجدوا

أنفسهم محاطين بجماعات من قطاع الطرق، معظم أولئك المتطوعين شكلوا كتائب خاصة بهم، وتمت تعبئتهم فى يوليو عندما واجه ماڤروجورداتوس - بكل طيش - الأتراك فى معركة ضارية على هضبة بيتا - Peta بالقرب من آرتا – Art. وقعت المعركة فى السادس عشر من يوليو وأسفرت عن نتيجة كارثية. كان من بين القتلى ما لا يقل عن سبعة وستين من محبى الثقافة الإغريقية. لم ينج أكثر من ثلاثين تقريبًا - كان معظمهم مثخنين بالجراح - لكى يعودوا إلى ميسولونجى، ليموت عدد آخر منهم فى الشتاء التالى، إما من أثر الجروح أو بسبب المرض. انتهى الحلم.

على أن كارثة بيتا لم تكن شيئًا، مقارنة بالمأساة التى كانت دائرة على بعد مائة وخمسين ميلًا من ناحية الغرب على جزيرة خيوس. من بين كل جزر اليونان، كانت خيوس حتى قيام الثورة هى الجزيرة الأكثر ثراء وسعادة. على خلاف الكثير من جيرانها كانت أرضها خصبة، وبعد عدة قرون من الاحتلال الإيطالى كانت قد تطورت كثيرًا، وتزهو بعدد كبير من الأسر التجارية - بمن فى ذلك آل ماڤروجورداتوس - الذين ذاعت شهرتهم فى أرجاء الحوض الشرقى للمتوسط. بفضل نفوذها وثرائها (كانت اثنتان وعشرون قرية من قراها المنتجة للمصطكاء، التى كان الطلب شديدًا عليها فى القسطنطينية مملوكة لشقيقة السلطان) كان القمع العثمانى لها هينًا. لو كان أهالى هذه الجزيرة الوادعة قد تركوا وشأنهم، لما كانوا قد فكروا فى الثورة أو حتى حلموا بها؛ والحقيقة أنه عندما وصل أسطول من هيدرا فى مايو 1821 يدعوهم للانضمام للثورة، رفضوا تمامًا. كان فى العام التالى فحسب، عندما رسا أسطول آخر، كان هذه المرة قادمًا من جزيرة ساموس المجاورة، كان أن وجد أهالى الجزيرة أنفسهم منجرفين فى الكابوس. كان ذلك الأسطول قد رسا بشكل غير رسمى لينزل قوة من نحو ألف وخمسمائة جندى وكمية كبيرة من المدفعية الثقيلة على شواطئ الجزيرة.

كان أهالى ساموس وليس أهالى خيوس هم المسؤولين عن الهجوم على قلعة كورا - Chora (المدينة الرئيسية على الجزيرة) التى كانت فى يد الأتراك. كانوا هم الذين أضرموا النار فى مبنى الجمارك ونزعوا الرصاص من أسقف المساجد ليصهروه ويصنعوا منه طلقات. ولكن أهالى خيوس كانوا هم الذين قاسوا من نتائج ذلك. تم أسر ثمانين من أبرز مواطنيها وإرسال ثلاثة منهم رهائن إلى القسطنطينية. فى الحادى عشر من أبريل 1822، وصل أسطول عثمانى بقيادة الأدميرال كارا على- Kara Ali لينزل نحو خمسة عشر ألف "جلف" من الأناضول، وتركهم يفعلون ما شاء لهم على الجزيرة. فر أهالى ساموس... وبدأت المذبحة. كانت ترابيولس أخرى، ولكن الجزارين هذه المرة

كانوا الأتراك، واليونانيون الضحايا. لم يتركوا رجلًا ولا امرأة ولا طفلًا على قيد الحياة، ولم تكن بقية الجزيرة بمنأى عن ذلك كله. لجأ نحو ألفى شخص من المرعوبين إلى دير نيا مونى- Nea Moni للاحتماء به. قتلوا كلهم. تم إحراق دير آخر هو دير أجيوس ميناس- Agios Minas يوم أحد الفصح الموافق للرابع عشر من أبريل بمن فيه، وكان يأوى نحو ثلاثمائة شخص. بعد شهر تم شنق تسعة وأربعين من الرهائن الثمانين علنًا، وعلقت جثث ثمانية منهم على عوارض صوارى سفينة القيادة التركية، وجثث الباقين على الأشجار على جانبى الطريق الذى ما زال يعرف بـ "طريق الشهداء".

حقق اليونانيون انتصارًا واحدًا. ليلة الثامن عشر من يونيو، أرسلوا حراقات - Fire-ships ضد الأسطول التركى الموجود بالقرب من كورا، مستهدفين سفينة القيادة التى كانت تقل كارا على نفسه. نجحت العملية تمامًا، ففى غضون دقائق معدودة، اشتعلت النيران فى السفينة، وحاول كارا على الهرب فى قارب نجاة ولكنه أصيب فى رأسه بشظية طائرة ليلقى حتفه فى اليوم التالى. يقال: إن خسائر الأتراك كانت أكثر من ألفى قتيل، ولكن حتى ذلك الحين كان من بقوا أحياء من أهالى خيوس لا يبالون بشىء. كانوا قد فقدوا نحو سبعين ألفًا من مواطنيهم: خمسة وعشرين ألف قتيل، ثم خمسة وأربعين ألفًا أخرى (نصف عدد السكان تقريبًا) أخذوا كعبيد. اللوحة الشهيرة التى رسمها ديلاكروا - Delacroix، (الابن غير الشرعى لـ "تاليران") بعنوان "مذابح خيوس"[8] ليست سوى إشارة واحدة لموجة الاستهجان والرعب التى اجتاحت كل أوروبا الغربية بمجرد انتشار أخبار المذبحة. لم يغفر أحد للأتراك فعلتهم.

كانت هناك أخبار أفضل بالنسبة لليونانيين فى أماكن أخرى. أكثر نجاحاتهم إثارة - رغم أنه قد لا يكون الأهم من الناحية الإستراتيجية - كان الاستيلاء على أكروبوليس أثينا. باستثناء هذا البناء المهيب، ما كان لأحد ممن عرفوا المدينة أيام بيركليس- Peri-cles أن يتعرف عليها، فما بالك بمن يعرفها اليوم. لم يكن عدد سكانها يزيد عن عشرة آلاف نسمة، نصفهم على الأقل من الألبان. الباقون كانوا يونانيين وأتراكًا. فى صيف 1821، كان اليونانيون قد بدأوا محاصرة الحامية التركية على الأكروبوليس، إلا أنهم لم يتقدموا كثيرًا حتى نهاية العام عندما تمكنوا من الاستيلاء على البئر الموجودة خارج الأسوار مباشرة ناحية الجنوب وسمموها على الفور. جعل ذلك الحامية تعتمد على مياه الأمطار، وتصادف أن كان شتاء وربيع العام 1822 من بين أكثر الفصول جفافًا. كانت كل محاولات الاستيلاء على الصخرة الكبيرة عنوة قد باءت بالفشل، إلا أنه لم يكن لذلك أهمية كبيرة. كان العطش وما تبعه من أمراض أكثر تأثيرًا. فى الثانى والعشرين من

يونيو، استسلم من كانوا قد بقوا من الحامية. كان عددهم نحو ألف ومائة وخمسين جنديًا.

كان الاستسلام مشروطًا مع تعهد بخروج آمن والعودة إلى بلادهم على نفقة اليونانيين، ولكن بالرغم من قَسَم اليونانيين أمام رئيس الأساقفة على احترام العهد، كان شعور السكان اليونانيين مختلفًا. كان مصير خيوس قبل أسابيع قليلة ما زال ماثلًا فى الذاكرة. كانوا يتذكرون كذلك ما كان يسمى بـ "الصيد اليونانى- Greek hunts" فى العام السابق، عندما قاد القائد التركى عمر ڤريونس- Omer Virionis مجموعات من خمسين إلى مائة من الخيالة بحثًا عن المزارعين اليونانيين، وكانوا يأمرونهم بالجرى ثم يطاردونهم ويصوبون عليهم، ويقطعون رؤوسهم فى حال الإمساك بهم؛ لذا لم يكن أهالى أثينا يشعرون بأى شفقة. بحلول منتصف يوليو، كان قد تم ذبح نصف عدد أفراد الحامية تقريبًا، وكان من حسن حظ الباقين أن هربوا.

بعد أسبوعين فحسب من استسلام حامية الأكروبوليس، غادر جيش تركى لاميا- Lamia- مقابل الطرف الشمالى لجزيرة إيوبيا - متجهًا جنوبًا، أولًا: لاستعادة قلعة أكروكورنثة المشرفة على مدينة كورنثة، وكان اليونانيون قد استولوا عليها قبل أشهر قليلة، وثانيًا: نجدة رفاقهم المحاصرين فى نوپليا- Nauplia. كانت قوة ضخمة، وكان موت على باشا قد أطلق عدة ألوف من الرجال من إيانينا، ليزيد عدد الجنود إلى أكثر من عشرين ألفًا، وكان ذلك أضعاف عدد اليونانيين الذين أرسلت القوة ضدهم. كان قائد القوة شخصًا يدعى محمود وكان باشا على دراما - Drama (الواقعة شرقى تيسالولينكا بعدة أميال)، وكان يكنى بـ "درامالى- Dramali"

فى الأسابيع الأولى القليلة له، اكتسح درامالى كل ما فى طريقه، وبعد استسلام أكروكورنثة، اتجه جنوبًا صوب نوپليا؛ حيث أعلنت هدنة تمهيدًا للتفاوض على استسلام الحامية التركية. كانت أول حكومة وطنية يونانية قد انتقلت من كورنثة قبل أسبوعين تقريبًا؛ لتستقر فى آرجوس- Argos، الواقعة إلى الداخل بنحو عشرة أميال. الآن ستفر الحكومة مرة ثانية فى السفن اليونانية التى كانت منتظرة فى نوپليا لتحمل الأتراك، ولن تستعيد سمعتها بعد ذلك. من ناحية أخرى كان القباطنة اليونانيون شجعان كعادتهم، فجعلوا الرجال يتدفقون على قلعة آرجوس؛ حيث لحق بهم هناك ديميتريوس إپسيلانتس، وبعد قليل جاء كولوكوترونس، الذى كان قد عين قائدًا أعلى من قبل مجلس شيوخ الپيلوپونيز. كان يعرف أن درامالى سوف يزحف على مراكز القيادة السابقة فى ترابيولس، وكانت خطته إذن أن يغلق الطريق أمامه، ثم يرسل قوات صغيرة إلى الشعاب الجبلية الضيقة بين آرجوس وكورنثة، ليقطع عليه خط الانسحاب كذلك.

بعد بداية جيدة كتلك، فقد دراماللى الزخم الذى كان قد حققه. فى قيظ وجفاف الصيف اليونانى، كانت هناك مشكلة أمامه هى غذاء الجنود ناهيك عن مياه الشرب قبل أى شىء آخر. فى الوقت نفسه كان إسبيلانس صامدًا فى آرجوس، بينما كانت المفاوضات فى نوبليا قد فشلت ووقعت الحامية التركية فى القلعة تحت الحصار ثانية. لم يكن أمامهم سوى العودة إلى كورنثة، ومن سوء الحظ كما أدرك دراماللى آنذاك أنه كان قد أغفل وضع حراسة على الشعاب والوهاد التى كان لا بد من أن يجتازها. أما خطة كولوكوترونس فقد نجحت تمامًا. بمجرد دخول الحرس التركى المتقدم وادى ديرڤيناكيا- Dervenakia الضيق يوم السادس من أغسطس، فتح اليونانيون النار عليهم من المرتفعات الجبلية، وكانت النتيجة مذبحة أخرى. وعندما اتخذ دراماللى طريقًا مختلفًا بعد يومين، تكررت القصة نفسها. نجا بمساعدة حرسه الشخصى، ولكنه فقد سيفه وعمامته.. كما فقد الاحترام. كانت غنائم اليونانيين وأعمال السلب والنهب التى قاموا بها مرضية لهم أكثر من عدد قتلى وجرحى العدو، التى كانت تقدر بنحو ألفى شخص، فقد استولوا على قافلة أمتعة كاملة تركها الأتراك بما فيها من أربعمائة حصان، وألف وثلاثمائة حيوان حمل، ومئات الجمال. فى شهر ديسمبر استسلمت الحامية التركية فى نوبليا، وكانت الطرق مغلقة أمام من بقى على قيد الحياة من الحملة ويحاول العودة إلى كورنثة؛ كانت الفرصة الوحيدة المتاحة هى الاتجاه غربًا صوب پاتراس- Patras، التى كانت ما تزال فى حوزة الأتراك. تم إرسال المرضى والجرحى بالبحر وكانوا قرابة ألف شخص، أما من تمكنوا من الهرب، وكانوا نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص، فقد انطلقوا سيرًا على الأقدام. فى منتصف المسافة، على الشاطئ الشمالى؛ حيث يضيق الطريق لعبور نهر كراتيس- Krathis، قام اليونانيون فجأة بهجوم قاطعين الطريق عليهم من الأمام ومن الخلف. صمدوا نحو ستة أسابيع. أكلوا خيولهم فى البداية، وفى آخر الأمر كانوا - كما يقال - يأكلون لحم بعضهم البعض. فى مارس التالى فحسب، نجح أسطول تركى صغير فى إنقاذ نحو ألفين منهم، كان معظمهم أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة.

كان للفشل الذريع لأكبر قوة ظهرت فى اليونان على مدى أكثر من قرن - تأثير كبير فى الثورة. هذا الفشل قوى من عزيمة اليونانيين، إلا أنه بالرغم من أهمية انتصاراتهم العسكرية، فإن الحركة نفسها كانت تزداد انقسامًا وانشقاقًا على نحو خطر، كان المفترض أن يستمر مجلس إبيدورس عامًا واحدًا فحسب، ولكن خلفه الذى اجتمع فى أبريل 1823 بالقرب من آستروس- Astros (على الساحل الشرقى للپيلوپونيز، نحو عشرين ميلًا جنوبى نوپليا) بمائتى وستين مندوبًا، كان حجمه أربعة أمثال المجلس السابق... ومن ثم كان أكثر فوضى.

كان الثوار منقسمين حول الوسط؛ السياسيون المحيطون بـ ماڤروجورداتوس فى ناحية، والمحاربون الذين يقودهم كولوكوترونس فى ناحية أخرى. كانت هناك انقسامات إقليمية كذلك: لم يكن أهالى البيلوپونيز والروملى وإبيپريوس وأهالى الجزر... كلهم، لم يكونوا يحبون بعضهم البعض، وكان يزعجهم ما يتصورونها معاملة تفضيلية لمنافسيهم. فى كل مرة كان يعين فيها مسؤول فى موقع مهم كان يواجه بتحديات كبيرة، وفى النقاش، كانت تلتهب المشاعر ويتم تحسس المسدسات. فى إحدى المرات استبدت مشاعر الغضب بـ كولوكوترونس الذى هدد المجلس كله ولم يهدأ، إلا بعد أن عُرِضَ عليه منصب فى اللجنة التنفيذية؛ حتى آنذاك كان ما زال يرغى ويزبد بين أصدقائه وأعدائه على السواء، وهو يغلى بالحقد والحنق.

** ** **

هكذا كان الوضع باختصار، عندما رسا چورج جوردون لورد بايرون - George Gordon, Lord Byron فى شيفالونيا فى الثالث من أغسطس عام 1823. لم يكن بايرون غريبًا عن اليونان؛ إذ كان قد جاء إلى هناك قبل نحو خمسة عشر عامًا (فى 1809 - 1810) عندما زار على باشا فى إيانيتا. فى تلك المناسبة كان محل ترحيب من المندوب السامى البريطانى، الذى وعده آنذاك بتقديم كل المساعدات الممكنة ما دامت لا تخل بسياسة بريطانيا المحايدة بين الطرفين. كانت مشكلة بايرون الأولى هى اكتشاف ما كان يجرى هناك بالضبط بنفسه. لم يقل له البريطانيون شيئًا مهمًا، ولذا قام باستئجار قارب صغير يدخل به عبر الحصار التركى، مع رسالة إلى ماركوس بوتساريس- Marcos Botsaris، الذى كانوا قد وصفوه له بأنه "واحد من أشجع قادة البحر اليونانيين وأكثرهم أمانة". جاء رد بوتساريس سريعًا، مع دعوة لـ "بايرون" لكى ينضم إليه، مضيفًا أنه كان سيدخل معركة فى اليوم التالى.

المؤكد أن بايرون كان سيقبل الدعوة، ولكن لخيبة أمله جاءته أخبار موت القبطان قبل أن يبدأ رحلته. سيبقى فى شيفالونيا وينتقل إلى بيت ريفى صغير فى قرية ميتاخاتا - Metaxata. هنا سيقضى فصل الخريف كله محاولًا قدر استطاعته أن يحمى نفسه من طوفان الاستجداءات والمناشدات للمساعدة بالأموال والمعونات. كتب الشاب چورج فنلاى- George Finlay، المولع بالثقافة الإغريقية، الذى سيكتب فيما بعد تاريخًا دقيقًا للثورة اليونانية، كتب يقول:

> دعاه كولوكوترونس لحضور مؤتمر قومى فى سالامس- ، أبلغه ماڤروكورداتوس أنه لن تكون له فائدة فى أى مكان سوى فى هيدرا؛ لأن ماڤروكورداتوس كان

آنذاك على تلك الجزيرة. كتب كونستانتين ميتاخاـ ، الذى كان حاكمًا على ميسولونجى، يقول: إن الخراب سيحل باليونان إن لم يقم لورد بايرون بزيارة القلعة. پتروبيه استخدم لغة أكثر وضوحًا؛ حيث أبلغ لورد بايرون أن الطريق الصحيح لإنقاذ اليونان، كان أن يقرضه (البيه) ألف جنيه... .

كان من الواضح أن الثوار لا يتكلمون لغة واحدة. بلغت الأمور ذروتها فى ديسمبر، عندما اقتحم پانوس- Panos - ابن كولوكوترونس - مجلس الشيوخ وهو منعقد وطرد النواب من المبنى وتبعهم ليحطم منازلهم. فشلت كل محاولات رأب الصدع، وبحلول العام 1824 كان فى اليونان حكومتان متنافستان، واحدة فى كرانيدى -Kranidi فى آرجوس، والثانية - مدعومة من عصابة كولوكوترونس - فى تراپيولس.

فى ذلك الوقت، كان بايرون قد بدأ يعمل. كان اقتراب أسطول الأتراك فى البحر الإيونى يوحى بأنهم سوف يعاودون الهجوم. فى الثالث عشر من نوفمبر تعهد بايرون بإقراض الحكومة اليونانية - كما كانت تسمى - أربعة آلاف جنيه إسترلينى بهدف محدد، وهو تمويل أسطول من هيدرا وسپتساى لخفارة المياة الإقليمية بالقرب من الساحل. وصل الأسطول إلى ميسولونجى فى منتصف ديسمبر، حاملًا معه ماڤروجورداتوس، الذى عُهِدَ إليه بالدفاع عن المدينة، وبعد عيد الميلاد بأربعة أيام أبحر بايرون من شيفالونيا لينضم إليه مع كلبه الضخم ليون[9] - Lyon، وخادمه الخاص وليم فلتشر - William Fletcher، ووصيفه، وكان صبيًا وسيمًا من البيلوپونيز فى الخامسة عشرة من العمر يدعى لوكاس كالاندريتسانوس - Loukas Chalandritsanos.

كانت رحلة خطرة حيث كان الأسطول التركى مستنفرًا، كانت هناك لحظة تعاسة خاصة عندما قابلوا سفينة تركية ضخمة فى الساعات الأولى من صباح 31 ديسمبر مندفعة نحوهم. أدار القبطان سفينتهم واستطاعوا أن يبتعدوا عن السفينة التركية، ولكن بايرون قام بسرعة بعد ذلك بإنزال كالاندريتسانوس على الشاطئ، مع تعليمات بأن يعود إلى ميسولونجى برًا. وكما كتب للكولونيل ستانوپ - Colonel Stanhope، ممثل اللجنة اليونانية فى لندن، الموجود فى اليونان:

أشعر بالقلق لوجودى هنا، وليس على نفسى بقدر ما هو على صبى يونانى معى؛ لأنك تعرف أى مصير ينتظره، فلربما فضلت أن أقتله وأقتل نفس كذلك على أن يأخذه أولئك البرابرة.

عند ظهيرة الرابع من يناير 1824، دخلوا ميناء ميسولونجى. بقى بايرون على متن السفينة حتى الصباح التالى، عندما دخل المدينة رسميًا فى زى عسكرى كامل كان قد

صممه بنفسه. يتذكر ذلك أحد شهود العيان فيقول:

> **كانت جموع من الجنود والمواطنين العاديين من كل الطبقات والفئات والأعمار قد تجمعت على الشاطئ تعبيرًا عن ابتهاجهم. علامات الرضا والأمل على كل الوجوه. رسا فخامته بقاربه مرتديًا زيًّا رسميًّا أحمر اللون. كان يبدو فى صحته ممتازة، وقد أثر فيه المشهد الذى رآه أمامه.**

لعلها كانت أكثر اللحظات مجدًا فى زيارة بايرون لليونان؛ لأن قصة الأشهر الثلاثة الأخيرة منها مؤسفة. لم يحقق شيئًا من الأهداف التى جاء من أجلها. فكرة أن يقوم شخصيًّا بقيادة حملة على نوپاكتوس (ليپانتو) انتهت إلى لا شىء. خطته للقاء الزعماء اليونانيين فى شيفالونيا فشلت. المبالغ الطائلة التى أنفقها - إلى جانب الأربعة الآلاف جنيه فى نوفمبر ونفقات المعيشة لحاشيته الضخمة، وكان كذلك قد منح فرقة عسكرية من منطقة سولى[10] ألفى جنيه، وكانت الفرقة عديمة الفائدة، ومنح ماڤروجورداتوس قرضًا شخصيًّا (550 جنيهًا)، ودفع ثمانمائة جنيه لمغامر يدعى وليم پارى- William Parry، كان سكيرًا ولم يفعل شيئًا من أجل القضية اليونانية. البيت الريفى الذى كان يعيش فيه، كان بلا أثاث تقريبًا وكان مطلًّا على بركة آسنة كئيبة موحلة ومليئة بالملاريا. كان مطر الشتاء ينهمر يوميًّا، فيعود من جولاته غارقًا فى الماء حتى العظم. لم يكن غريبًا أن تتأثر صحته بذلك كله لكى تبدأ رحلة معاناته.

دهمته أول نوبة مرض فى التاسع من أبريل، كان يرعاه طبيب يدعى چوليوس ڤان ميلنچن[11] - Julius van Millengen كان يعمل جراحًا مع اليونانيين آنذاك. زاد من ضعف صحته فصد دمه مرة أو مرتين فى اليوم، وفى الوقت نفسه كانت كل العقاقير والأدوية المعروفة للعالم اليونانى تقحم فى حلقة. كانت بنيته الجسمانية المهدمة، من فعل سنوات الشراب والانغماس فى الملذات - تجعله يبدو أقرب إلى الخمسين من العمر بينما كان فى السادسة والثلاثين ولم يعد قادرًا على تحمل الإجهاد. مات فى السادسة من مساء التاسع عشر من أبريل يوم اثنين الفصح. سيظل سبب موته لغزًا: الملاريا؟ التيفود؟ اليوريميا[12]؟ الزهرى؟ خفقان القلب؟ لا أحد يعرف على وجه الدقة. لم يكن بايرون يتوقع أن يعود من اليونان، ولم يكن يخشى الموت، ولكن أمله كان أن يموت فى المعركة من أجل استقلال بلاد كان يحبها - وليس كما كتب قبل أيام من وفاته - «موتًا بطيئًا على فراش من عذاب».

إلا أنه لم يمت عبثًا، فقد سلط الأضواء العالمية على الكفاح اليونانى كما لم يفعل غيره. بفضله تبنت أوربا كلها القضية، وسار شبان لا حصر لهم على الدرب نفسه بحثًا

عن المجد أو الموت. ربما نكون واثقين من أن اليونان كانت ستحصل على حريتها حتى لو لم يكن بايرون موجودًا، كما فعلت صربيا وجارتاها الأخريان، رومانيا وبلغاريا، فيما بعد؛ ولكنها كانت ستفعل ذلك – مثلهما - دون ذلك العنصر الرومانسى الذى لم يكن سوى بايرون ليطبعه فى النفس. ينبغى ألا ننسى أن العقدين الأولين من القرن التاسع عشر شهدا بدايات الحركة الرومانتيكية - The Romantic Movement، وقد كانت حرب الاستقلال اليونانية رومانتيكية الطابع. كانت هناك البطولة، ولكن كانت هناك كذلك الوحشية والبربرية والقسوة... وعلى نطاق لم تشهده قرون سابقة. بالرغم من ذلك، كانت تلك الحرب تجسد كل ما كانت تمثله الرومانتيكية، ولذا ينظر إليها الغرب بإعجاب، ويتذكرها اليونانيون بفخر واعتزاز، ولا يسقط من ذاكراتهم اسم بايرون.

** ** **

فى أوائل العام 1824، كانت اليونان بالفعل فى حالة حرب أهلية. فى مناطق معينة شرقى البلاد، وفى أماكن أخرى من المتوسط ظل الأتراك قوة يحسب لها حساب، ولكن فى البيلوبونيز والروملى الجنوبية كان هناك يونانيون يحاربون يونانيين. عندما مات بايرون فى شهر أبريل، كانت القوات الحكومية قد استعادت آرجوس وترابيولس وكورنثة، بينما كانت عصابة كولوكوترونس وأتباعهم ما زالوا يحتفظون بـ "نوپليا". بحلول منتصف الصيف، كان قد تم التخلى عن نوپليا كذلك، وانتقل إليها مجلس الشيوخ والإدارة. لم يضع ذلك نهاية دائمة للعداءات، إلا أنه هيأ فضاء لالتقاط الأنفاس، شهدت فيه الحكومة اليونانية وصول مبلغ ثمانين ألف جنيه إسترلينى، الدفعة الأولى من قرض مقداره نحو خمسمائة ألف جنيه، كان قد تم الاتفاق عليه فى لندن. سيتم تبديد معظم هذا المبلغ، كما كان متوقعًا، أو ربما يجد طريقه إلى الجيوب الخطأ، إلا أنه - بالرغم من ذلك - سيجعل الحكومة تشعر بالقوة.

انفجر الصراع الداخلى مرة ثانية فى أواخر أكتوبر، عندما هب أهالى أركاديا - Arcadia (الآن كيپاريسا- Kiparissa جنوب غرب البيلوپونيز)؛ احتجاجًا على ما كانوا يعتبرونه جبايات ظالمة كانت تتقاضاها الحكومة. جاءت قوة من خمسمائة جندى بقيادة قبطان يدعى ماكريانس- Makriyannis لإعادة الهدوء. كان يمكن ألا يجدوا صعوبة فى قمع التمرد لو لم ينضم إليه تيودور وپانوس كولوكوترونس، الذى جاء معه بعدد كبير من الجنود المضارين من حصار پاتراس، الذى كان ما زال قائمًا. لم يكد ماكريانس يعود إلى نوپليا التى كانت فى حماية قوات من الروملى. فورًا، اتخذ القتال وجهة إقليمية، وفى إحدى المواجهات بالغة العنف، سقط پانوس كولوكوترونس قتيلًا.

آنذاك فحسب، أدركت الحكومة أنها كانت أمام حرب أهلية ثانية، وليس مجرد انتفاضة أو تمرد محلى، وأنها لا بد من أن تقضى عليها قبل فوات الآوان. فى تلك الظروف، لم تكن القوات البيلوبونيزية جديرة بالثقة، ومن ثم لجأت إلى قوات الروملى عارضة عليهم الأموال - من القرض - وأتاحت لهم فرصة للقيام بعمليات سلب ونهب شاملة للبيلوبونيز. بنهاية العام، كان قباطنة الروملى، وخلف كل منهم جيشه الصغير، يتدفقون عبر خليج كورنثة لاهتبال الفرصة التى جاءتهم.

** ** **

بالرغم من أن المتمردين كانوا أقل عددًا الآن، ظلوا يقاتلون حتى فبراير 1825، عندما استسلم كولوكوترونس وبعده اثنا عشر من ضباطه. تم سجنهم كلهم فى دير النبى إيليا- Elijah فى تلال هيدرا. انتصرت الحكومة ولكن الثمن كان باهظًا. كان أهالى الروملى قد قاموا بالسلب والنهب أينما حلوا، كانوا يسلبون الكل... مؤيدى الحكومة والمحايدين والمتمردين، الأغنياء والفقراء، أصحاب الأراضى الزراعية... لم يستثنوا أحدًا. ماكريانس، الذى يبدو أنه كان لديه حس أخلاقى أكثر من معظم أقرانه، أصابه الفزع، ليس بسبب أعمال العنف فحسب، وإنما لإدراكه كذلك أن بلاده قد أصبحت منقسمة على نفسها أكثر منها فى أى وقت مضى: لن يغفر شعب البيلوبونيز قط لجيرانه الشماليين.

** ** **

حتى فى سنة 1824، لم يكن الأتراك قد تراخوا تمامًا، وبالرغم من أن نفوذهم لم يكن ملحوظًا بقوة فى البر اليونانى الرئيس، قام أسطول تركى فى شهر يوليو بالاستيلاء على جزيرة پسارا - Psara الصغيرة فى بحر إيجه - وكانت القاعدة الشرقية الرئيسية للبحرية اليونانية - كما كان يهدد المركزين البحريين الرئيسيين الآخرين، وهما جزيرتا هيدرا وسپتساى، ولكن العدو الإسلامى الكبير الذى كان على اليونان أن تواجهه الآن لم يكن تركيًا، كان مصريًا.

سبق أن ظهرت شخصية محمد على القوية على صفحات هذا الكتاب عندما رأيناه وقد عُيِّنَ نائبًا إمبراطوريًا فى مصر 1805، وهو فى السادسة والثلاثين من العمر. بعد تسعة عشر عامًا، أو فيما كان يعتقد أواخر منتصف العمر، كان قد بلغ ذروة قوته. كان قد أحدث تحولات كبرى فى البلاد، وبخاصة بعد أن أصبح لها لأول مرة جيش قوى وبحرية مدربة على النمط الأوربى بواسطة ضباط أوروبيين. كان قد أصبح من الواضح

للسلطان محمود الثانى أن تلك القوة لا بد من أن تستخدم بسرعة، إن كان لليونان أن تظل جزءًا من إمبراطوريته. كان من السهل إيجاد حافز لذلك: لو ساعده محمد على فى استعادة البيلوبونيز، يمكن تولية ابنه إبراهيم حاكمًا عليها.

كان الأسطول الذى قام محمد على وإبراهيم بتجهيزه مكونًا الآن مما لا يقل عن خمسة وخمسين سفينة حربية، وأكثر من ثلاثمائة سفينة نقل تحمل نحو أربعة عشر ألف جندى مشاة، وألفين من الخيالة بخيولهم، ومائة وخمسين مدفعًا يقوم عليها نحو خمسمائة جندى. أبحر الأسطول من الإسكندرية يوم التاسع عشر من يوليو 1824 والتقى بالأسطول التركى فى بودرام - Bodrum (هاليكارناسوس- Halicarnassus القديمة)، على الساحل الغربى لآسيا الصغرى، ولكن اليونانيين فى انتظارهم بأسطول من نحو سبعين سفينة من هيدرا وسپتساى وپسارا. نشبت المعركة فى الحال - بالقرب من كيب يورندا - Cape Yeronda، التى تبعد نحو ميل أو أكثر قليلًا إلى الشمال من شبه جزيرة بودروم، وبالرغم من أنها لم تكن حاسمة، كانت كافية لإقناع إبراهيم بتأجيل حمتله إلى العام التالى. سحب سفنه إلى كريت - التى كانت تحت الحكم العثمانى منذ قرن ونصف القرن تقريبًا - بينما عاد الأتراك إلى القسطنطينية حتى ينتهى الشتاء.

كانت تلك نيتهم على الأقل، ولكن ما حدث هو أن قبطانًا فرنسيًّا أشار على إبراهيم برأى جيد. كانت هناك ثلاث قلاع فى البيلوبونيز ما زالت فى أيدى الأتراك: پاتراس، والمستوطنات الڤينيسية السابقة فى ميتونى - Methoni، وكوروني[13] - Koroni. اقترح القبطان على إبراهيم أن يكون تركيزه على ضخ أكبر حجم ممكن من القوات فى أحد هذه المواقع الثلاثة، وأن ميثونى يمكن أن تكون هى الاختيار الأمثل؛ نظرًا لاتصالها المباشر بالشاطئ؛ كما أشار بضرورة القيام بذلك على الفور دون انتظار الأتراك، أو حتى الانتظار إلى فصل الربيع، وبذلك يمكن أن تفيد سفنه الثقيلة من رياح الشتاء. وهكذا أبحر إبراهيم فى الثالث والعشرين من فبراير 1825، وفى اليوم التالى أنزل جنوده وخيالته فى ميتونى؛ حيث حصنوا أنفسهم جيدًا. بعد أيام قليلة، دخلوا كورونى، فى الوقت نفسه انتشر الجيش المصرى كله على شكل مروحة باتجاه الشمال الشرقى لإخضاع باقى البيلوپونيز.

كانت الحكومة اليونانية الآن فى حاجة إلى كل فرد، إن كان لها أن تأمل فى إيقاف زحف إبراهيم. تم إطلاق سراح كولوكوترونس وزملائه من القباطنة من سجنهم فى هيدرا، ومرة أخرى أسندت إليه قيادة القوات اليونانية، بينما صدر مرسوم يلزم كل منطقة من البلاد بتقديم مجندين بنسبة 1% من عدد سكانها. إلا أن الوقت كان متأخرًا

جدًا؛ إذ كان المصريون ينتشرون بسرعة فى أرجاء شبه الجزيرة. كولوكوترونس، الذى كان يعتقد أن ترابيولس كانت مفتاح كل البيلوبونيز، قرر أن يدمر المدينة قبل وصول المصريين... ومرة أخرى لم يحالفه الحظ: وصلت قوات إبراهيم قبل أن يلحق بالمدينة أضرارًا كبيرة، وسرعان ما تمت السيطرة على النيران قبل أن يقوم الجنود بالسلب والنهب والغنم.. والتدمير... ثم أعادوا إضرام النار. مرة أخرى، كانت الأعمال الوحشية مرعبة. يسجل الدكتور "صمويل جريدلى هاو[14] – Samuel Gridley Howe" فى يومياته:

خرجت إلى الشاطئ عند شروق الشمس، كنت أسير فأرى جثث جنود من حولى وخيولاً مقتولة، لم يكن العدو قد تمكن من إخلائها، كانت الرؤوس مقطوعة، وكان اليونانيون قد مثلوا بالجثث، لم يتركوها دون دفن فحسب، ولكنهم تعاملوا معها بكل وحشية.

ويضيف بعد يومين:

ولكن ماذا يمكن أن تفعل اليونان المنكودة؟ لقد اجتاز إبراهيم باشا بجيشه كل المورة من مودون إلى نابولى (نوبليا)، مر دون أذى عبر الشعاب؛ حيث كان يمكن لخمسمائة من ذوى العزيمة القومية أن يصدوا جيشه كله، أحرق أرجوس وتريبو لتزا وكالاماتا أكبر ثلاث مدن فى المورة، ليست خسارة هذه الأماكن هى الأهم، ولا الممتلكات التى دمروها فى طريقهم، الأهم أن ذلك يدل - بكل أسف - على ضعف البلاد التى لا تستطيع مقاومة جيش لا يشكل خمس ما يستطيع العدو أن يأتى به.

لم يسجل الدكتور هاو سوى الحقيقة. لم يكن يعرف أن الكارثة الكبرى كانت فى الطريق.

** ** **

فى القصة الكاملة لحرب الاستقلال اليونانية، يبرز اسم «ميسولونجى – Missolonghi» بين كل الأسماء الأخرى، وليس بسبب مقاومتها لهجومين منسقين جيدًا (فى 1822 و 1823)، فكانت المدينة الوحيدة شمالى خليج كورنثة التى بقيت فى أيدى اليونانيين منذ أن بدأ العداء، ولا لأن ذلك يعود فى مجمله إلى موت لورد بايرون هناك فى 1824 بالرغم من أنه كان سببًا فى ذيوع شهرتها فى أرجاء أوروبا. لقد أصبحت ميسولونجى رمزًا، دون سواها، نتيجة للتجربة الفريدة التى مرت بها عشية أحد السعف – Palm Sunday عام 1825، وهو ما أسر خيال العالم الذى أصابه الرعب.

اصطف الجيش التركى، الذى زحف من أرتا – Arta جنوبًا قبل فترة من ذلك العام بقيادة رشيد باشا، أمام المدينة فى أواخر أبريل، كان قوامه نحو ثمانية آلاف جندى فى مواجهة حامية ميسولونجى التى كانت بالكاد نصف ذلك العدد. على خلاف القوة التركية المجمعة، كانت تلك الحامية مكونة من نحو اثنتى عشرة جماعة مختلفة... لكل منها قيادتها الخاصة بها. كان من الصعب تنسيق العمل بينها، إلى أن برز قائد موهوب من سولى – Souli[15] يدعى "نوتيس بوتساريس – Notis Botsaris". بفضله – بمعنى الكلمة – صمد المدافعون بنجاح فى المرحلة الأولى من الحصار، أمام كل ما قام به رشيد باشا وقواته. كانوا يعرفون كذلك أنهم لن يموتوا جوعًا؛ حيث كان ما زال لديهم خط إمداد من "زاكينتوس – Zakynthos" والجزر الإيونية الأخرى عبر بحيرتهم الصغيرة ذات المياه الضحلة، التى لا تسمح بمرور السفن التركية الثقيلة. عندما بدأت أمطار أكتوبر وانسحب الأتراك من أمام الأسوار إلى أن ينتهى فصل الشتاء، سرت روح التفاؤل بين القادة اليونانيين. إلا أنهم لم يحسبوا حساب المصريين. منذ مغادرة إبراهيم للإسكندرية، كان أبوه قد شرع فى بناء أسطول جديد كامل: نحو 135 سفينة من كل الأحجام، ويضم مجموعة سفن أخرى من تركيا، وغيرها من تونس والجزائر. كان إبراهيم قد عاد ليتولى القيادة، وفى الأيام الأولى من عام 1826، كان هذا الأسطول الجديد الهائل يرسو فى مياه ميسولونجى حاملًا على متن سفنه نحو عشرة آلاف جندى وكمية كبيرة من المدفعية الثقيلة. بعد أسبوعين من التحضير، وعند فجر الرابع والعشرين من فبراير، فتحت المدفعية نيرانها، ويقدر حجم ما أطلق على المدينة من نيران على مدى الأيام الثلاثة التالية، بنحو ثمانية آلاف وخمسمائة قذيفة مدفع وهاون. كان حجم الدمار هائلًا، إلا أن المدينة بقيت صامدة.

إبراهيم – الذى تسلم زمام القيادة العليا، والذى لم يكن يخفى ازدراءه لزميله التركى – حول اهتمامه الآن إلى البحيرة الضحلة. بمجرد أن يسيطر على تلك المياه الضحله سيجوع أهالى ميسولونجى فيستسلموا، إلا أن المهمة لم تكن سهلة. كان رشيد قد حاول ذلك فى العام السابق، عندما أطلق ستة وثلاثين سفينة جر مسطحة للهجوم على المدينة، ولكن النيران الكثيفة التى انهمرت عليها من جزيرة "ڤاسيلادى – Vasiladi" لتردها على أعقابها. سيجرب إبراهيم وسيلة أقوى: أسطول من اثنتين وثمانين سفينة أخف نوعًا ما، مع خمس رماثات (منصات عائمة) ضخمة تحمل مدفعية ثقيلة. مرة أخرى كان أداء مدفعية ڤاسيلادى رائعًا، ولكن عند المساء تقريبًا، دوى انفجار كبير فى مخزن البارود لديهم، فانتهت مقاومتهم. بعد ذلك استسلمت بقية الجزر الصغيرة فى البحيرة واحدة تلو الأخرى، إلى أن بقيت واحدة هى جزيرة "كليسوڤا – Klisova"، التى تبعد نحو نصف

الميل جنوب شرق المدينة. هنا، كان القائمون بالهجوم مجبرين على الرسو على بعد عدة ياردات من الشاطئ والخوض فى الطين، فكانوا أهدافًا سهلة للمدافعين. جرح رشيد وإبراهيم، وفشلت محاولة الاستيلاء على الجزيرة، إلا أن ذلك لم يحسم الموقف. كان الأتراك يسيطرون على البحيرة. انقطع حبل الحياة عن ميسولونجى ليصبح استسلامها مسألة وقت، إلا إذا فر سكانها عبر السهل إلى شمال شرق المدينة، وكان ذلك تحديدًا ما حاولوا أن يفعلوه، كانوا نحو تسعة آلاف نسمة، رجالًا ونساء وأطفالًا، عند حلول ليل الثانى والعشرين من أبريل، قرروا أن يقوم كل الشباب والصبية القادرين جسمانيًا بحمل الأطفال الصغار الذين سيتم تخديرهم باللودانوم (مستحضر أفيونى)، وتسلق الأسوار بسرعة وعبور الخندق الدفاعى على جسور مؤقتة، ثم يقومون بالاحتماء بسواتر منتظرين خلف الاستحكامات الخارجية إلى أن يسمعوا صوت إطلاق نار، سيكون مصدر تلك النيران إحدى المجموعات بقيادة ضابط يدعى "جيورجى كارايسكاكيس – George Karaiskakis"، الذى سيقوم بهجوم تمويهى يشغل به القائمين بالحصار، بعد ذلك سيتحركون معًا، كبار السن والمرضى ومن لا تمكنهم صحتهم من المغادرة سيتم تجميعهم فى عدة منازل قريبة من شحنة متفجرات تحتها، يمكن إشعالها فى حال اقتراب الأتراك.

كانت خطة يأس من الصعب توقع نجاحها... وقد كان. لم يحدث إطلاق نار من قبل مجموعة كارايسكاكيس. بعد انتظار نحو ساعة خلف المتاريس نفد صبر اللاجئين واندفعوا خارجين إلى السهل. فجأة، كانت هناك صيحات: "Opiso ... Opiso"، ارجعوا.. ارجعوا". ودبت الفوضى. واصل البعض طريقهم وتراجع البعض. كان التزاحم والتدافع شديدين على الجسور فسقط عدد كبير فى الخندق، أما من تمكنوا من العودة إلى المدينة، فقتلتهم القوات التركية، التى كان أفرادها قد اندفعوا داخل المدينة عندما وجدوا الأسوار بلا حماية. من بقوا فى السهل كانوا عرضة لهجوم الخيالة الأتراك، ثم الجنود الألبان. قتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال. خلفهم، كانت ميسولونجى جحيمًا مشتعلًا. كتب مستر هاو، الذى لم يستطع أن يسيطر على مشاعره، فى 30 أبريل:

> سقطت ميسولونجى، ألقى مقاتلوها الشجعان بأنفسهم يأسًا على حراب أعدائهم؛ هلك أطفالها ونساؤها فى النيران التى التهمت مساكنهم والتى أشعلوها بأيديهم. تبقى جثثهم المحترقة والمشوهة دليل إدانة وشاهدًا على لا مبالاة وأنانية العالم المسيحى... على مدى عشرة أشهر كانت عيون أوروبا الغربية على ميسولونجى، كانوا يرون أبناءها يصارعون أهوال الحرب والجوع، كانوا يرون رجالها يضمرون وينزفون ويتساقطون موتى، ونساءها

يقرضون عظام الخيول والبغال النافقة، وأسوارها محاصرة بواسطة العرب المتعطشين لدم مقاتليها ولإشباع شهواتهم من نسائها وأطفالها. لقد رأوا ذلك كله ولم يرفعوا إصبعًا دفاعًا عنها...

أما بالنسبة للخسائر، فمن من المستحيل حصرها، بنهاية تلك الليلة المروعة من المرجح أن يكون نصف عدد سكان ميسولونجى (نحو أربعة آلاف) قد قتلوا، ونحو ثلاثة آلاف (معظمهم من النساء والأطفال) قد أسروا. من تمكنوا من الفرار كانوا أقل من ربع عدد السكان، (2000 شخص على أكثر تقدير).

كان أثر ما حدث فى ميسولونجى على أوروبا كلها أكثر كآبة وحزنًا من أثر مأساة خيوس. مرة أخرى سيمسك ديلاكروا الغاضب بفرشاته احتجاجًا، كان للوحته الكبيرة المروعة بعنوان: «La Gréce sur les ruines de missolonghi» أثرها الكبير فى إبراز الغضب الشديد لكى يحذو حذوه معاصروه من نحاتين ورسامين وكتاب وشعراء فى أنحاء أوروبا. لن تبقى القوى الغربية مكتوفة اليد باسم الحياد، فقد حان الوقت لشحذ سيوفها والإسراع لنجدة اليونان.

** ** **

تركت كارثة ميسولونجى اليونان كلها فى حالة معنوية شديدة الضعف والتشوش، وسرعان ما تبعتها كارثة أخرى أكبر. فى يونيو 1826، قام رشيد باشا بهجوم منسق على أثينا بجيش من سبعة آلاف مقاتل. بسبب موقعها، لم تكن أثينا قط عاصمة لليونان إلا أنها كانت مدينة استثنائية، وذلك لسببين: الأول هو السبب الواضح: كانت مسرح أعظم منجزات العصور القديمة وما زالت، وبسبب فترة التدهور الطويلة بقيت رمزًا للتميز الفنى والثقافى والفكرى الذى كان الإغريق عليه ذات يوم، وكان المأمول أن تكون عليه مرة أخرى، السبب الثانى، وهو أقل رومانسية، له علاقة بالوضع الحالى. بعد سقوط ميسولونجى كانت أثينا هى المدينة الوحيدة فى يد اليونانيين شمالى خليج كورنثة. بالرغم من الانتصارات الأخيرة للأتراك والمصريين، كان يبدو محتملًا أن يؤدى النضال المتواصل، إلى جانب التعاطف المتزايد من القوى الأوروبية الغربية على الأقل إلى درجة ما من استقلال اليونان، بعد عودة أثينا إلى أيدى المسلمين، قد يصبح الاستقلال مقصورًا على البيلوپونيز، ومن ناحية أخرى فإن الحدود ستصبح بعيدة جدًّا فى أقصى الشمال فى حال تمكن اليونانيين من التشبث بالمدينة.

بحلول منتصف أغسطس، كان رشيد يسيطر على المدينة كلها ما عدا الأكروپوليس؛ حيث كانت توجد حامية يونانية (من خمسمائة شخص) صامدة فى الشتاء التالى، وأثناء

ذلك، وقعت الحكومة اليونانية ضحية شقاق طائفى آخر كان قد تفجر. مرة أخرى، يبدو أن كولوكوترونس كان هو المسؤول عن ذلك إلى حد كبير، وعندما حل صيف 1827 كان هناك ما لا يقل عن سبع صراعات منفصلة أخرى متأججة. الغريب أن بريطانيين هما اللذان استطاعا فرض قدر من الهدوء، رغم أن كليهما فشل فى النهاية فى أن يكتسب شهرة أو شرفًا لذلك. كان الأول هو الجنرال سير ريتشارد تشيرش - Richard Church، الذى كان قد حشد الكتيبة الإنجليزية - اليونانية فى زاكينتوس قبل ستة عشر عامًا. أثناء ذلك، كان قد خدم فى جيش ملك نابولى إلا أن قلبه ظل معلقًا باليونان. عاد إلى هناك فى مارس 1827 وعُرض عليه منصب القائد العام للقوات البرية اليونانية - ولأنه كان أجنبيًا، كان المأمول أن يعيد النظام لبلد دبت فيه الفوضى - ولكنه رفض تولى المنصب إلى أن تتوصل الحكومتان المتنافستان إلى تسوية للخلافات بينهما.

بعد أسبوع، جاء شخص آخر أكثر تميزًا، كان توماس، لورد كوشرين - Thomas, Lord Cochrane - الإيرل العاشر لـ: دندونالد - Dundonald، فيما بعد - كان فى بداية حياته العملية قد حوكم عسكريًا بسبب تمرده، كما حوكم فى 1814 متهمًا بالغش والاحتيال فى بورصة الأوراق المالية. بالنسبة للأمر الأول تم تبرئة ساحته، ولكنه أدين فى قضية البورصة.[16] وبالرغم من ذلك كان يعتبر أعظم أدميرالات إنجلترا منذ نلسون. كان قد أمضى سبع سنوات فى أمريكا الجنوبية؛ حيث حارب من أجل استقلال شيلى- Chile وبيرو- Peru والبرازيل - Brazil، ومنذ نوفمبر 1825 كان يعرض عليه منصب قيادة البحرية اليونانية. حدث التأخير بسبب إصراره - كشرط لشغل المنصب - على توفير ست بواخر وفرقاطتين من تصميم فرانك أبنى هيستنجز - Frank Abney Hastings، وهو أرستقراطى بريطانى آخر، كان قد عمل ملاحًا فى ترافالجار- Trafalgar، ووصل إلى رتبة قبطان عندما تم الاستغناء عن خدماته.

كانت البواخر ما زالت فى بدايتها، وكانت ما زالت تسير بالشراع مستخدمة ماكيناتها البدائية فى حال سكون الرياح أو فى المعارك فحسب. كان من المفترض أن يُسدد ثمن تلك البواخر من قرض ثان مقداره 566000 جنيه إسترلينى، كان قد تم الاتفاق عليه فى لندن ولكنه لم ينفذ، وعليه كان لا بد من بيع إحدى الفرقاطتين للحكومة الأمريكية لسداد ثمن الثانية. لم تصل سوى اثنتين من البواخر الست إلى اليونان، ولم يكن بالإمكان الثقة بهما على أى نحو بسبب سوء التصميم والبناء الهزيل والفساد ونشاط الجواسيس المصريين. عندما وصل كوشرين إلى اليونان - على اليخت الخاص به - فى ربيع 1827، اتخذ خطًا أكثر تشددًا من تشيرش. تساءل: كيف يكون اليونانيون على هذه

الدرجة من الغباء، فيختلفون على مكان انعقاد المجلس القادم، بينما ينبغى عليهم أن يقوموا بالهجوم على الأتراك والمصريين وطردهم من البلاد قبل أن يتم تدميرها نهائيًّا؟ كان لكلماته أثرها: اضطر الطرفان لعقد اتفاق جديد يقضى بضرورة انعقاد مجلس جديد فى تريزينى- Trizini (أو ترويزن- Troezen القديمة). بنهاية مارس كان كلاهما (تشيرش وكوشرين) قد سحب اعتراضاته، وقبلا المنصبين المعروضين عليهما، وبعد أسبوع قرر المجلس عرض رئاسة اليونان على كابودستريا، الذى كان قد ترك الخدمة لدى الروس ويعيش فى هدوء چنيف.

فى الوقت نفسه، كان الأكروبولس فى أثينا ما زال تحت الحصار، وفى محاولة لكسر جمود الموقف، تقرر فى أوائل 1827 إرسال قوة من 2300 جندى، تحت قيادة الضابط الإنجليزى توماس جوردون - Thomas Gordon، المولع بالثقافة الإغريقية. على الفور، انضم إليه كارايكاكيس مع مجموعات كثيرة من القوات المحلية، ليصل العدد إلى إلى ما لا يقل عن عشرة آلاف، عندما وصل كوشرين إلى پيرايوس- Piraeus بسفينة القيادة الخاصة به (هيلاس- Hellas)؛ ليتبعه تشيرش فى مركب شراعى كان قد تم الاستيلاء عليه عنوة. تم وضع خطط متعددة للعمل، ولكن كوشرين أصر على الزحف على أثينا مباشرة، وكعادته كان خشنًا أمام معارضيه متشبثًا برأيه. يروى أنه كان يقول دائمًا: "عندما تكون القيادة لى، فلتكف كل سلطة أخرى يدها". على الفور، لم يقبل كارايكاكيس هذا الرأى؛ إذ وجد أن التقدم على النحو الذى كان يريده كوشرين كان يتضمن عبور سهل منبسط تحيط به خيالة الأتراك من كل جانب. بعد يومين، أطلق جندى تركى الرصاص عليه فقتله.. ولم يعد هناك اعتراض من أحد. وهكذا تم الاتفاق على إبرار قوة من نحو ألفين وخمسمائة جندى على الجانب القريب من خليج فاليرون- Phaleron ليلة الخامس من مايو 1827، تزحف على أثينا، بينما تبقى بقية القوة الرئيسية - ثلاثة أضعاف الأولى تقريبًا - فى پيرايوس فى انتظار الأوامر. لا شك أن كارايكاكيس كان محقًّا تمامًا، ولكن إذا كانت الخطة متهورة، فإن تنفيذها كان – كذلك - مؤسفًا. بعد ذلك علق جوردون قائلًا:

> حيث إن الأدميرال لم يكن له علاقة بتحركات القوات عندما نزلت إلى الشاطئ، والچنرال (تشيرش) راض بأنه قد حسم الأمر وبقى على سفينته حتى طلوع النهار، كان كل من الضباط يتصرف كما يحلو له، ويقف أينما يريد. تبعثر التشكيل على مساحة تبلغ أربعة أميال تقريبًا. كانت المقدمة فى مرمى نيران أثينا، والمؤخرة قريبة من البحر، والجنود غير المذودين بمعاول أو مجارف كانوا يستخدمون خناجرهم فى الحفر لكى يختبئوا من هجوم الخيالة.

قام رشيد باشا بالهجوم عند الفجر وكانت النتائج كما هو متوقع. فقد اليونانيون ألف وخمسمائة جندى... وهو أكثر من كل ما كانوا قد فقدوه فى أى يوم منذ بدأت الحرب. بعد راحة ليلة، عندما نزل كل من كوشرين وتشيرش من سفينته، كان أن وجدا الناجين مرهقين تمامًا وخائفين، يجرون أقدامهم نحو الشاطئ؛ ويصعدون بجهد بالغ إلى قوارب صغيرة للفرار بجلودهم. فى محاولة لاستعادة سمعته، بقى تشيرش صامدًا على نحو بطولى فى فاليرون مع مجموعة صغيرة من رجاله لمدة ثلاثة أسابيع أخرى، ولكن فى نهاية الشهر، أجبرتهم شدة الحرارة والعطش على الاستسلام، وبعد أيام قليلة استسلمت كذلك الحامية الموجودة على الأكروبوليس.

ترى من المسؤول؟ على نحو أو آخر، الكل مسؤول. كوشرين لعجرفته الزائدة ورفضه الاستماع إلى من هم أكثر منه حكمة، وتشيرش لعدم تصديه له، وكلاهما لبقائهما على سفنهما بينما كان ينبغى أن يكونا بين رجالهما، والضباط اليونانيون لعدم انضباطهم وعدم قدرتهم على الاتفاق على قائد أعلى لهم. كان فشلهم مأساة، وكانوا يستحقون ذلك. فى الوقت نفسه كان موضوع التدخل الأوروبى يتحرك ببطء مع حركة السفراء المكوكية بين لندن وپارس وسان بطرسبورج. كانت المصالح البريطانية فى اليد القديرة لوزير الخارجية چورچ كاننج - George Canning، الذى خلف لورد ليڤرپول فى أبريل 1927 كرئيس للوزراء؛ فمن خلال جهوده، إلى حد كبير، كان أن تم توقيع كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا على معاهدة لندن فى السادس من يوليو. بموجب هذه الاتفاقية ستحظى اليونان بحكم ذاتى، نظريًا: كمعتمدية تركية (بمعنى أنها ستدفع لها جزية سنوية) وعمليًا: مستقلة؛ حيث ستعترف بذلك الدول الثلاث بإقامة علاقات تجارية معها. ستوقع هى وتركيا هدنة فى غضون شهر - سيختصر كاننج هذه المدة إلى أسبوعين فيما بعد - وبعدها سوف تتدخل القوى الثلاث إن لم يتمكنا من ذلك. كانت تلك أخبار جيدة بالنسبة لليونانيين، الذين كانوا يعرفون أن تركيا سوف ترفض أى اقتراح بهدنة... وهكذا سيكون التدخل مؤكدًا.

سوف تثبت الأحداث التالية أنهم كانوا على حق. قبل بضعة أشهر كان السلطان قد عين محمد على قائدًا أعلى – فخريًا - على كل القوات البرية والبحرية فى اليونان... التركية والمصرية معًا. بعد ذلك مباشرة سيكَوِّن محمد على جيشًا جديدًا قوامه نحو خمسة عشر ألف جندى، ويبنى أسطولًا جديدًا من ثلاث سفن حربية تركية وستين سفينة من حجم أصغر - منها خمس صناعة فرنسية - وأربعين سفينة نقل وست حراقات. كانت السفن فى مجملها تحمل نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة مدفع. كانت تلك هى القوة التى رست فى خليج ناڤورينو- Navarino فى السابع من سبتمبر؛ حيث كان إبراهيم ينتظرها.

أسرعت البحريات الثلاث المتحالفة إلى ناڤارينو، إلا أنه كانت هناك تعليمات مشددة لقادتها بألا يدخلوا فورًا في معركة. كان مطلوبًا منهم بداية أن يبذلوا قصارى جهدهم "لحث وتشجيع" كل السفن الحربية التركية والمصرية على العودة سالمة إلى القسطنطينية أو الإسكندرية، بالرغم من أن كاننج أوضح لهم أنهم إذا أصروا على البقاء في اليونان، فإن "أوامر الأدميرال البريطاني سير إدوارد كوردينجتون - Edward Cordington سوف تنفذ بالمدفع عند الضرورة، وبعد استنفاد كل الوسائل الأخرى". كان كوردينجتون، وهو محارب محنك آخر من محاربي ترافالجار وكان يقود السفينة الملكية أوريون- Orion، كان قد عين قائدًا أعلى للبحر الأبيض في ديسمبر السابق، وكان أول من وصل إلى ناڤارينو؛ حيث لحق به زميله الفرنسي الكومت دي ريني- Comte de Rigny بعد أيام قليلة. ولما كان الروس لم يصلوا بعد، قام القائدان البريطاني والفرنسي في الخامس والعشرين من سبتمبر، مع عدد قليل من كبار الضباط، وهنري- Henry ابن كوردينجتون (وكان طالب بحرية في التدريب على سفينة أبيه)، قاموا بعقد لقاء مع إبراهيم في خيمته بالقرب من مدينة پيلوس - Pylos المجاورة.

كان الحوار كما سجله هنري كوردينجتون "مهذبًا وديًا، مع كميات من القهوة وتدخين الشبق[17] المرصَّع بالجواهر»، مضت الجلسة على النحو الذي يمكن أن نتصوره؛ حيث أفصح كوردينجتون عن تحذيره بكل كياسة، ووافق إبراهيم على عدم اتخاذ أي إجراء إلى أن يتلقى تعليمات جديدة من الإسكندرية والقسطنطينية. من أسف أنهم لم يكتبوا محضر الاجتماع؛ إذ سرعان ما اتضح أن كل طرف كان له أفكاره المختلفة عما تم التوصل إليه. كان إبراهيم يعتقد أن اليونانيين، وكذلك الأتراك، ملتزمين بالهدنة المؤقتة، كما كان يتصور كذلك أنه لن يكون هناك اعتراض من الطرفين على قيامه بنقل مؤن ومواد تموينية للحامية التركية في پاتراس.

من جانبهم، لم يكن اليونانيون يجدون سببًا يجعلهم يعلنون موقفهم، فهم في النهاية كانوا قد قبلوا بشروط اتفاقية لندن؛ وكان الأتراك هم الذين رفضوها. وهكذا، في الأيام الأخيرة من سبتمبر، بينما كان تشيرش يقود حملة على پاتراس، كان أن أبحر إبراهيم متجهًا صوب المدينة بأسطول لا يقل عن ثمانية وأربعين سفينة، وهو عدد أكبر بكثير مما يمكن أن يكون مطلوبًا لمجرد توصيل مؤونة. ولكن إبراهيم لم يصل إلى المدينة. كان كوردينجتون هناك لكي يعترض طريقه، ثم قامت رياح استوائية شديدة بالباقي. حينذاك، غير إبراهيم تكتيكاته. قد يستطيع الأدميرالات إحباط خططه في البحر، ولكنهم لا يستطيعون إيقافه برًا. حسنًا! سوف يستمر في تدمير البيلوپونيز.

بعد أن كان اتفاق الخامس والعشرين من سبتمبر قد أصبح غير نافذ المفعول رغم عدم إلغائه رسميًّا، قرر قادة البحر الثلاثة - كوردينجتون ودى رينى، وكان قد انضم إليهما الروسى، الهولندى المولد، الأدميرال الكونت هيدين - Count Heiden، قرروا القيام باستعراض قوة. تم استدعاء ضباط البحرية الفرنسيين العشرة، الذين كانوا يعملون كمستشارين على السفن المصرية، وعند ضحى اليوم العشرين من أكتوبر قام كوردينجتون (من بارجته آسيا - Asia) بقيادة الأساطيل الثلاثة، كانت كلها مجتمعة تضم إحدى عشرة سفينة حربية وثماني بوارج كبيرة وثماني سفن أصغر حجمًا، قادها عبر المدخل الضيق نحو خليج ناڤارينو.

كان الجانبان ما زالا ملتزمين بأوامر عدم بدء أى أعمال عدائية، ولكن فى مثل هذا الموقف الشديد التوتر، من المستحيل معرفة ما إذا كان أى عمل فردى، مجرد استفزاز أو إجراء عدائى بالفعل. إلى جانب ذلك، فإن القادة الأتراك والمصريين لم يكونوا قد اتفقوا على خطة شاملة يسترشدون بها. عاجلًا أو آجلًا كانت المعركة حتمية. بدأت فى الثانية بعد الظهر واستمرت حتى السادسة تقريبًا. شهدت تلك الساعات الأربع آخر معركة لم تشارك فيها أى سفينة تجارية. اللافت للنظر كذلك، أن السفن كانت كلها راسية، وعلى مسافات قريبة فى خليج صغير؛ لم تكن تستطيع المناورة إلا بالدوران على كابلات المرسى لكى تكون المدافع على أجنابها فى مواجهة أهدافها المختارة. لم ينس الدكتور هاو أن يسجل المشهد:

«السفن التركية، وكانت أكثر من ثلاثة أمثال السفن المعادية، فتحت نيران كل مدافعها الجانبية، وبمساندة من البطاريات الشاطئية أطلقت كميات من القذائف، لو أنها كانت مصوبة جيدًا، لكان يمكن أن تدمر الأوروبيين تمامًا، إلا أن الأوروبيين كانوا يردون بنيران أكثر تدميرًا وإن كانت أقل حجمًا، فقد كان كل مدفع مصوبًا بدقة... وكانت كل طلقة مؤثرة، الحلفاء أرسلوا قواربهم التى قطعت كابلات الحراقات التركية وأضرمت فيها النار فجعلتها ترتطم بأسطولها. فى ظرف دقائق معدودة، كان الكثير من السفن الحربية المشتعلة يضيف إلى رعب المشهد الذى كان رهيبًا بالفعل؛ مجموعتان من السفن فى صفين طويلين، يزأر فوق كل منها نحو ألفى مدفع، الحراقات المشتعلة تندفع جيئة وذهابًا بين السفن التركية الضخمة التى كانت أشرعتها المتساقطة وهياكلها المشطورة تشهد على سير المعركة، البحر ملىء بصوار وأخشاب محترقة يتعلق بها ألوف البحارة الهاربين من سفنهم المنفجرة، خطوط البطاريات الشاطئية المشتعلة طوال الوقت، والجنود الأتراك يراقبون مشهدًا يتوقف عليه مصيرهم... ولكن الصراع لن يكون طويلًا عندما يكون لدى أحد الطرفين قوة

متفوقة لا يقودها سوى الغضب الأعمى ضد شجاعة هادئة رابطة الجأش وانضباط ومهارة بحرية...»

الغريب أن خسائر الحلفاء فى ناڤارينو كانت قليلة نسبيًا، لم تغرق لهم سفينة واحدة، خسائر الأفراد بلغت نحو 174 قتيلًا و475 جريحًا؛ أما بالنسبة للأسطول العثمانى فقد كانت القصة مختلفة تمامًا. منذ البداية، كان وضعه سيئًا. لم يشهد قائده الأعلى إبراهيم باشا المواجهة؛ حيث كان ما زال فى البيلوپونيز، الأدميرال المصرى محرم بك لم يكن له طاقة على القتال، وكان قد غادر مع الضباط الفرنسيين قبل أن يبدأ. لم يكن هناك سوى القائد التركى طاهر باشا، الذى غرقت سفينة القيادة الخاصة به فى مرحلة باكرة من المعركة. من التسع والثمانين سفينة حربية التى كانت تحت قيادته، لم ينج سوى تسع وعشرين. يقدر كوردينجتون عدد القتلى من الأتراك والمصريين بستة آلاف قتيل والجرحى بأربعة آلاف.

لقد تأرجح البندول على نحو درامى. قبل أقل من خمسة أشهر، فى يوم السادس من مايو، كان استعادة الأتراك لأثينا قد بدا وكأنه إعلان وفاة بالنسبة لآمال اليونانيين، بعد ناڤارينو كان استقلال اليونان قد بات مؤكدًا.

** ** **

لم ينته كل شىء تمامًا. بقيت قوات إبراهيم (نحو أربعة وعشرين ألفًا منهم) فى البيلوپونيز المدمرة، لم يتم حملهم على سفن مصرية وإعادتهم إلى الإسكندرية إلا فى سبتمبر 1828. استمر القتال إلى ما وراء خليج كورنثة، وكلما كان اليونانيون يتقدمون جنوبًا، كانوا يستولون على المزيد من الأراضى لدولتهم الجديدة. كان تشيرش فى الغرب، وديميتريوس إبسيلانتس فى الشرق يواصلان تقدمهما، الأول حتى آرتا والثانى حتى تيرموبيلاى المواجهة للحد الشمالى لـ «إيوبيا»، رغم أنه كان عاجزًا عن طرد الأتراك من أثينا نفسها.

فى الوقت نفسه، كان كاپودستريا قد وصل لتولى الرئاسة. على الفور، استعدى الضباط الثوار، عندما لم يبذل أى جهد لإخفاء احتقاره لفشلهم فى أن يتحدوا، وظلوا فى مشاحنات ومشاجرات بينما كان مصير بلادهم على المحك. إلا أنه كان يعمل ست عشرة ساعة فى اليوم لإعادة بناء البلاد، وكان لشهرته الواسعة فى الخارج أثرها الحاسم فى مداولات مؤتمر لندن الذى كان الآن يقوم بترسيم حدود الدولة اليونانية الجديدة. فى سبتمبر 1828، التقى سفراء الحلفاء الثلاثة فى القسطنطينية فى پوروس- Poros للنظر

فى تلك المسألة بالتحديد، وبعد ثلاثة أشهر أصدروا توصياتهم: خط يمتد من آرتا فى الغرب إلى ڤولوس- Volos فى الشرق، على أن يتضمن ذلك جزر إيوبيا وساموس وربما كريت.[18] كانت المشكلة الوحيدة هى تركيا التى رفضت تمامًا الحضور إلى طاولة المفاوضات، ولم يتم حل ذلك إلا باتفاقية أدريانوپل- Adrianople التى أنهت حربًا روسية - تركية فى سبتمبر 1829. بموجب شروطها، وافق الأتراك فى النهاية على الالتزام بأى قرارات مستقبلية خاصة باليونان، قد يتخذها الحلفاء. وأخيرًا، فى الثالث من فبراير 1830، فى لندن، أعلنت اليونان دولة مستقلة تحت حماية بريطانيا وفرنسا وروسيا.

كان لا بد من أن تمر بضع سنوات قبل أن يعود السلام. اغتيل كاپودسترا فى التاسع من أكتوبر 1831... ومرة أخرى عمت البلاد الفوضى، ولكن الأتراك أعطوا موافقتهم النهائية فى يوليو 1832 على خط آرتا - ڤولوس (إلا أنهم لم يوافقوا على أن يتضمن ذلك ساموس وكريت)، وأصبحت اليونان دولة ذات سيادة، ولكن تلك السيادة - حتى آنذاك - لم تكن كاملة. كانت القوى الغربية مصرة على أن تكون ملكية، واختارت لها ملكًا هو أوتو - Otto، أمير ڤيتلزباخ - Wittelsbach، وكان فى السابعة عشرة من العمر، وهو ابن لودڤيچ الأول- Ludwig I ملك باڤاريا. وصل إلى نوپليا فى صباح السادس من فبراير 1833 وقوبل بترحاب كبير وبهجة ترددت أصداؤها فى كل مكان.

وأخيرًا، تحقق حلم اليونان الذى طال انتظاره، ولكن متاعبها لم تنته.

هوامش الفصل الخامس والعشرين

(1) كانت عضويتها المشتركة فى الكنيسة الأرثوذوكسية أساس صلة عاطفية وثيقة بين روسيا واليونان.

(2) للمزيد عن حياة السبعة السابقين، انظر: P.49 و "Mani" و Patrick Leigh Fermor.

(3) من منطقة فنار – Phanar فى القسطنطينية؛ حيث كرسى البطريركية الأرثوذوكسية اليونانية.

(4) كانت الكنيسة الأرثوذوكسية فى أوائل القرن التاسع عشر ما زالت تستخدم التقويم اليوليوسى – Julian Calendar (النظام القديم) الذى كان أقل من التقويم الجريجورى باثنى عشر يومًا (النظام الجديد). النظام الجديد (الجريجورى) أدخله البابا جريجورى الثالث عشر Gregory xiii فى 1582 – رغم أن الدول البروتستانتية لم تتبعه لفترة طويلة. (أدخلت بريطانيا النظام الجديد فى سبتمبر 1752). وحيث إن الخامس والعشرين من مارس تاريخ مهم فى اليونان، سيكون – ومن المربك كذلك – تحديده بيوم السادس من أبريل؛ من هنا سوف نستخدم النظام القديم على مدى هذا الفصل. (المؤلف)

التقويم اليوليوسى – Julian Calendar ، تقويم شمسى يقسم السنة 365 يومًا وست ساعات، ويضيف إلى سنة رابعة يومًا، بحيث تصبح كبيسة مؤلفة من 366 يومًا. (المترجم)

(5) اقتباس عن ديڤيد بريور – David Brewer، من كتابه القيم The Flame of Freedom، الذى أفدت منه كثيرًا فى كتابة هذا الفصل.

(6) انظر الفصل الثانى.

(7) سفينة مزودة بالمتفجرات تعمل وسط السفن المعادية لإضرام النار بها. (حراقة – Fireship). (المترجم)

(8) اشتراها الملك لويس الثامن عشر، وهى الآن من مقتنيات "اللوڤر".

(9) كان من نوع النيوفوند لند – Newbound Land الضخم الذى يستطيع السباحة. (المترجم)

(10) ألبان من منطقة سولى – Souli البرية جنوب غرب إيانينا كانوا يعيشون على الابتزاز والسلب والنهب كان بايرون يعقد الأمل عليهم ولكن أمله خاب.

(11) أسره الأتراك بعد ذلك بوقت قصير ثم أطلق سراحه بعد توسط سير ستراتفورد كاننج – Stratford Canning، ثم السفير البريطانى لدى الباب العالى. فى 1827 استقر فى القسطنطينية؛ حيث عمل طبيبًا فى البلاط مع خمسة سلاطين متوالين.

(12) تبول الدم – Uraemia. (المترجم)

(13) سوف تعرف مودون – Modone وكورون – Corone من الآن فصاعدًا بأسمائها اليونانية.

(14) جراح أمريكى كان قد جاء إلى اليونان فى وقت سابق من ذلك العام، وهو زوج جوليا وورد هاو – Julia Ward Howe مؤلفة كتاب "The Battle Hymn of the Republic" "... بأم عينى رأيت المجد...".

(15) انظر الهامش رقم 10 – (المترجم)

(16) لعل من الأوقع عكس الحكمين.

(17) بيبة تدخين تركية طويلة. (المترجم)

(18) كان أن ظلت المنطقة شمالى خط آرتا – ڤولوس جزءًا من الإمبراطورية العثمانية حتى مايو 1913 بعد حرب البلقان الأولى.

الفصل السادس والعشرون

محمد على وشمال أفريقيا

- مؤتمر لندن: 1840
- الفرنسيون فى شمال أفريقيا
- مراكش
- ليبيا

كان السلطان العثمانى محمود الثانى يستحق أكثر مما حصل عليه، كان – من جوانب كثيرة – حاكمًا ومصلحًا مستنيرًا، فعل كل ما يستطيع لتحديث إمبراطوريته الهرمة. فى 1826، كان أن تخلص من الإنكشارية (الذين كانوا على مدى خمسمائة عام القوة العسكرية الممتازة للإمبراطورية، ولكنهم أصبحوا كثيرى التمرد)، وذلك بالأسلوب البسيط؛ قتلهم جميعًا؛ كوَّن محمود جيشًا جديدًا تحت قيادته المباشرة جاء له بمدربين ألمان، وأنشأ مدرسة عسكرية على غرار مدرسة نابوليون «Saint – Cyr“، ضرب سلطة علماء الدين وجردهم من مسؤولياتهم غير الدينية، نظم الخدمة المدنية وبسَّط إجراءاتها إلى حد بعيد، أدخل أساليب جديدة فى التعليم، بدأ خدمة بريدية، كما أنشأ أول جريدة باللغة التركية فى إسطنبول، أنشأ مدرسة للطب وسن قوانين جديدة للصحة العامة، وأخيرًا، وربما آسفًا، ألغى الزى التركى القديم فاختفت الأردية الطويلة والعمائم والسراويل المنتفخة والشباشب الخفيفة، وظهر الطربوش والسترة الفراك والبنطلون الأوروبى والحذاء الجلدى الأسود.

كان أمرًا محزنًا له فى الواقع أن تشهد فترة حكمه خسارة بحريته وضياع جنوب اليونان ومناطق كثيرة من الأراضى العثمانية السابقة، ثم يكون عليه أن يتصدى لتلك الشوكة الدائمة فى خاصرته... نقصد محمد على، فى القاهرة، كان محمد على يتوقع أن يكون حاكمًا على سوريا، مكافأة له على تدخله فى البيلوپونيز، ولكن محمود أعطاه كريت، وهو ما كان واليه يعتبره غير كاف؛ لذلك أرسل محمد على ابنه إبراهيم بجيش جرار إلى سوريا فى ربيع 1832، مع تعليمات باحتلالها بالقوة. نفذ إبراهيم الأمر حرفيًا. سقطت غزة، والقدس، وبعد حصار قصير سقطت عكا... وبعد ذلك زحف إبراهيم شمالاً صوب دمشق وحلب... ثم قاد جيشه عبر الأناضول حتى بات يهدد إسطنبول نفسها.

عندما وجد السلطان عاصمته مهددة وفى حالة ذعر، استغاث بلندن، ولما لم يبد وزير الخارجية البريطانى ”لورد پالمرستون – Lord Palmerston“ اهتمامًا بالأمر، لم يكن أمامه سوى أن يلجأ إلى روسيا... عدوه القديم. لم يكن ”القيصر نيكولاس – Tsar Nicholas“، المستعد دائمًا للتدخل فى الشؤون التركية، يتمنى أكثر من ذلك، فقام فى أوائل 1833 بإنزال قوة من ثمانية آلاف جندى فى ”سكوتارى – Scutari“ على البوسفور أمام إسطنبول. فى مواجهة قوة كتلك، كان إبراهيم يعرف أنه لا توجد فرصة أمامه، وعليه كان من الحكمة أن يقبل التفاوض. فى ذلك الوقت، كان پالمرستون قد

تنبه لخطورة الموقف وكذلك الحكومة الفرنسية، فقامت الحكومتان معًا (البريطانية والفرنسية) بإقناع الباب العالى بالإصرار على انسحاب الروس مقابل بعض التنازلات، تم تثبيت محمد على حاكمًا على مصر، والآن أضيفت إليها سوريا، التى كانت تضم دمشق وطرابلس وحلب وأضنة، فى الوقت نفسه - ولكن بموجب اتفاقية منفصلة – عقد السلطان محمود معاهدة هجوم ودفاع مع روسيا، يمنح بند سرى فيها السفن الحربية الروسية حق المرور من البحر الأسود إلى البحر الأبيض عبر المضايق، وهى ميزة لم تكن متاحة لأى من القوى الأجنبية الأخرى دون موافقة تركيا.[1]

هكذا استطاع السلطان أن يتجنب الأخطار الروسية والمصرية، إلا أن التكلفة كانت باهظة. كان محمد على قد أصبح خصمًا خطرًا بعد أن أصبح الحوض الجنوبى الشرقى من البحر الأبيض بكامله تحت سيطرته، وبالرغم من أن سوريا كانت قد منحت له طول حياته فحسب، فإن السلطان محمود كان يعرف جيدًا أنه كان ينوى أن يحول ممتلكاته إلى ما سوف يصبح ملكية وراثية مستقلة. بعد خمس سنوات سيتضح أنه كان محقًّا، عندما رفض محمد على فى 1838 أن يدفع الجزية السنوية للباب العالى. انتهز السلطان الفرصة وأعلن الحرب فى العام التالى؛ إذ أرسل جيشًا من أربعة وعشرين ألف مقاتل يعاونه أسطول إلى سوريا بأوامر واضحة: طرد المصريين من هناك مرة وإلى الأبد.

كانت النتيجة كارثية من وجهة نظره. فى الرابع والعشرين من يونيو، استطاع جيش إبراهيم – بالرغم من أنه كان أقل عددًا – أن يهزم قوات السلطان عند «نيزيب – Nezib" فى شمال سوريا. كان بفضل الرشوة المصرية، أن فر عدد كبير من الجنود الأتراك من الخدمة، بينما قام قائد الأسطول – لنفس السبب تقريبًا – بالذهاب إلى الإسكندرية مباشرة، وسلم الأسطول لمحمد على. كان ذلك يوم الأول من يوليو 1839، يوم وفاة السلطان محمود فى إسطنبول. لم يتحرك الفرنسيون، الذين كانوا يعرفون أن مصلحتهم مع مصر، ولم يتخذوا أى إجراء، إلا أن القوى الأخرى أصابها الرعب. فى الخامس عشر من يوليو 1840، عقد مؤتمر فى لندن ترأسه پالمرستون، وشاركت فيه النمسا وبروسيا، وجه إنذارًا لمحمد على بضرورة سحب قواته من شمال سوريا وكريت وإعادة الأسطول التركى إلى إسطنبول. إذا نفذ ذلك، سيكون له ولورثته من بعده حكم مصر، وحكم جنوب سوريا طوال حياته فحسب، أما فى حال الرفض، فسوف تقوم الأساطيل البريطانية والروسية بمحاصرة كل من مصر وسوريا.

على أمل تلقى مساعدة كبيرة من فرنسا – غنى عن القول أنها لم تكن مؤكدة – رفض محمد على الإنذار، وكان البريطانيون عند كلمتهم. فى ذلك الخريف ذاته، قامت فرقة

بريطانية بقيادة الكابتن "تشارلز نابير – Charles Napier" بقصف قلاع بيروت وعكا وتدميرها، بل وقامت بإبرار قوة تحت قيادة نابير كذلك، تمكنت بسهولة بمساعدة العرب – الذين كانوا قد عانوا الأمرين تحت حكم محمد على – من أن توقع الهزيمة بجيش محمد على المحتل فى معركة "بوهارسف – Boharsef" (أحد انتصارات البحرية الملكية غير المهمة)؛ غضب الفرنسيون بسبب ما اعتبروه عدوانًا غير مبرر وهددوا بالحرب، إلا أن أحدًا لم يأخذهم على محمل الجد، وكما أشار الملك لويس – فيليب نفسه فيما بعد، كان هناك فرق شاسع بين التلويح بالحرب والقيام بها. بعد ذلك أبحر نابير إلى الإسكندرية التى كان يمكن أن تلقى مصير المينائين السوريين، لولا أن محمد على وافق على التفاوض. أعاد الأسطول التركى إلى إسطنبول، واستأنف دفع الجزية للسلطان، وانسحب كلية من سوريا وكريت.

عاش ذلك العجوز الشرس حتى العام 1849 ليموت فى الثمانين، كان حاكمًا وراثيًّا على مصر والسودان ولكن تحت السلطة العثمانية العليا، ولم يقم بأى محاولات أخرى للتوسع الإقليمى. كان رجلًا شديد الذكاء، وكما يقال صاحب شخصية ساحرة، كان قويًّا وعلى درجة كبيرة من الكفاءة، لا شك أن حكمه أحدث تحسنًا كبيرًا عما كان عليه الأمر من قبل، ولكنه لم يكن متعلمًا، ولم يكن لديه رؤية سياسية حقيقية ولا أيديولوجية. كان يحكم بحسب المبادئ العثمانية، ورغم أنه مضى قدمًا نحو صنع مجتمع جديد أكثر تقدمًا، فإن الكثير من وقته كان مكرسًا لتثبيت سلطانه ومقاومة المحاولات المتكررة من قِبَلِ السلاطين المتوالين للتخلص منه، كان ناجحًا فى ذلك أيما نجاح، استمرت الأسرة التى أسسها أكثر من مائة عام (حتى منتصف القرن العشرين)، وإذا كان قد أضاع الفرصة لوضع أسس دولة مصرية حديثة، فإنه – على الأقل – مهد الطريق أمام من خلفوه، وإذا كانوا قد فشلوا هم كذلك، فمن الصعب أن نعزو هذا الفشل إليه.

** ** **

فى أحد أيام شهر أبريل من عام 1827، ضرب داى[2] الجزائر – حسين – غاضبًا القنصل الفرنسى بمذبته ثلاث مرات، مستاءة لإهانة ممثلها الرسمى أرسلت الحكومة الفرنسية مجموعة بحرية إلى المدينة مطالبة بالاعتذار والتعويض، وعندما رفض الداى، تم وضع القنصل والرعايا الفرنسيين على السفن، ومحاصرة الجزائر. بعد ذلك، نزلت حملة عسكرية فى يوليو 1830، فى «سيدى فروش – Sidi – Ferruch"، الواقعة على بعد عشرين ميلًا غربى الجزائر تقريبًا، فى الوقت الذى كانت المدينة نفسها تحت قصف قوى من البحر. بعد أسابيع قليلة سقطت المدينة ونفى الداى وبدأ احتلال الجزائر.

إلا أن الأمر لم يستتب للمحتلين، نشب القتال فى الداخل اعتبارًا من 1832 تحت قيادة زعيم للمقاومة كان فى الخامسة والعشرين من عمره، يدعى عبد القادر؛ ليستمر نحو خمسة عشر عامًا، ولكن عندما استسلم عبد القادر للمارشال توماس – روبرت بوجو – Thomas – Robert Bugeaud فى 1847، كان المستعمرون الفرنسيون يتدفقون على الجزائر. فى 1841 كان هناك منهم بالفعل أكثر من سبعة وثلاثين ألفًا، وقبل نهاية القرن كانوا قد أصبحوا يمثلون نحو عشرة فى المائة تقريبًا من عدد السكان. كانت الجزائر - كما وجدوها - مكانًا مريحًا للإقامة، والحقيقة أن شعوبًا أخرى كثيرة كانت قد فعلت ذلك من قبلهم: القرطاجنيون والرومان والبيزنطيون والعرب والأتراك، كانت قوة القراصنة البربر قد زادت لدرجة أن أصبحوا بالفعل سادة البلاد، رغم أنهم لم يحكموها؛ إذ إنهم لم يحاولوا، أما الذى لا خلاف عليه، فهو أن الجزائر تحت الجيش الفرنسى والدواوين العربية التى أنشاها بوجو، كانت تدار على نحو أكثر كفاءةً وأكثر إنصافًا مما كانت على عليه مدى قرون سابقة.

على امتداد الساحل وفى الجبال الشمالية يسود طقس متوسطى؛ حيث يكون دافئًا جافًا فى الصيف، وممطرًا معتدلًا فى الشتاء. قبل مجىء الفرنسيين، لم تكن البلاد بعيدة عن المدنية – ففى 1834 كان جنرال فرنسى قد لاحظ أن الأمية لم تكن سائدة، كانت هناك مدرستان فى كل قرية – وبالرغم من أنها كانت تحت السيادة العثمانية، فإن حكوماتها المتوالية لم تعرف الاستقرار، من بين أسلاف الداى الثمانية والعشرين، كان أكثر من النصف قد قتل، لم تكن حقوق الملكية واضحة، ولم يكن ذلك مهمًا بالنسبة للفرنسيين، وعندما تكلم بوجو أمام الجمعية الوطنية فى 1840، عبر عن رأيه بكل وضوح قائلًا: ”حيثما يوجد ماء عذب وأرض خصبة علينا أن نضع مستوطنين دون أن نشغل أنفسنا بمن يملك تلك الأراضى“. من ناحية أخرى، كان هناك نحو مليون هكتار (حوالى أربعة آلاف ميل مربع) مملوكة للحكومة العثمانية وممكن أن نقول: إن الفرنسيين ورثوها، إلى جانب مساحات أخرى تم الاستيلاء عليها، إما لأنها كانت متروكة دون زراعة، أو نتيجة لمخالفات الملاك السابقين.

فى بدايته، كان حكم بوجو يتسم بقدر من الدكتاتورية وقليل من التفاهم بين الحكام والمحكومين، وبالتدريج أصبحت توجهات الفرنسيين أكثر استنارة. بعد وقت قصير من تأسيس الجمهورية الثانية فى 1852، كان نابوليون الثالث يقول: إنه بينما كان يأمل فى أن يحافظ على عدد الفرنسيين المتزايد على الجزائر الفرنسية، لا بد من التذكر دائمًا أن واجب فرنسا الأول كان إزاء الثلاثة الملايين عربى من سكانها؛ فالجزائر ”لم تكن

إقليمًا فرنسيًّا، وإنما هي بلد عربى ومستعمرة أوروبية ومعسكر فرنسى". على أية حال، كان أن استمر الحكم الفرنسى إلى ما بعد سقوط الجمهورية الثانية فى 1870. قبل ذلك الوقت، كان "الحاكم العام – Governor General" – وهو اللقب الذى منح لأول مرة لـ "بوجو" – يمنح دائمًا لضابط كبير فى الجيش. فى عام 1870 فحسب، كان أن بلغ عدد المستوطنين نحو مائتى ألف جندى مزارع – Colons – وأصبحوا مصرين على فرض المزيد من السيطرة على شؤونهم مثل أقرانهم فى مناطق البحر الأبيض الأخرى، كانت الجزائر قد تم ضمها رسميًّا لتصبح جزءًا لا يتجزأ من فرنسا نفسها، وكانت تُحْكَم من خلال وزير الداخلية الفرنسى.

لهذا السبب كان وضع الجزائر مختلفًا بالضرورة عن أوضاع جيرانها من ناحية الشرق والغرب؛ أى تونس ومراكش. هنا كذلك، كان النفوذ الفرنسى قويًّا، ولكن حيث إن الهجرة كانت قليلة نسبيًّا هناك، كان هذان البلدان يعتبران مجرد محميات تتولى شؤونهما وزارة الخارجية الفرنسية. كذلك كانت تونس من الناحية العملية ولاية عثمانية رغم تمتعها بحكم ذاتى مستقل. عندما احتل الفرنسيون الجزائر فى 1830، قَبِلَ باى تونس الحاكم آنذاك – وإن بحذر شديد – التطمينات الفرنسية بعدم التدخل، ولكن فى سنة 1835 انتهزت الإمبراطورية العثمانية فرصة الصراع على الخلافة فى ليبيا المجاورة، وأزاحت الأسرة الحاكمة هناك، وأعادت تثبيت حكم عثمانى مباشرة. من هنا، وجدت تونس نفسها فى وضع حرج، محصورة بين قوتين كبريين: فرنسا وتركيا، وكلتاهما تنظر إليها بنهم، حتى سنة 1881، كانت فرنسا تقوم بدور متوازن، ثم بذريعة أن عددًا من رجال القبائل التونسية كانوا قد ذهبوا للاستقرار فى الأراضى الجزائرية، قامت بغزو البلاد، ونقلت سلطات الباى الخاصة بالشؤون المالية والشؤون الخارجية إلى فرنسا، وعينت وزيرًا فرنسيًّا مقيمًا.

سلطنة مراكش – البلد الوحيد فى شمال أفريقيا الذى يطل على البحر الأبيض والمحيط الأطلنطى – كان وضعها مختلفًا مرة أخرى، بسبب قلة الموانئ الطبيعية لديها، وطبيعتها الجبلية، والمسافة الشاسعة التى تفصلها عن المراكز الكبرى فى الشرق، كانت ما تزال فى منتصف القرن التاسع عشر... معزولة إلى حد كبير، كانت تلك العزلة – التى شجع عليها حكام متوالون – هى التى مكنتها بداية من أن تحافظ (إلى درجة كبيرة لم تكن ممكنة فى أماكن أخرى) على تراثها الإسلامى والبربرى والأفريقى، كما مكنتها، ثانيًا: من مقاومة الضغوط الخارجية وبخاصة ضغوط حروب الاسترداد الإسپانية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وهكذا تظل مراكش البلد العربى الوحيد الذى لم يحدث

أن كان جزءًا من الإمبراطورية العثمانية التى حكمت باقى دول العالم العربى الأخرى.

لم يكن بالإمكان تجاهل وصول الفرنسيين إلى الجزائر المجاورة، تدهورت العلاقات بشدة فى 1844، بعد أن لجأ الثائر عبد القادر إلى مراكش، ودفع السلطان بجيش إلى الحدود، رد الفرنسيون بقصف "طنجة – Tangier" فى أوائل أغسطس، ثم "موجادور – Mogador" بعد عشرة أيام، وفى الرابع عشر من الشهر كانوا قد دمروا جيش السلطان مولاى عبد الرحمن فى "إسلى – Isli" بالقرب من "أوچدا – Oujda" كان السلطان مجبرًا، بين أشاء أخرى، على تقديم وعد باعتقال عبد القادر فى حال دخوله أراضى مراكش مرة أخرى. كان عند كلمته، ففى 1847، عندما حاول عبد القادر اللجوء مرة أخرى، ألقت القوات المراكشية القبض عليه وأجبرته على الاستسلام، ومن دواعى الارتياح القول: إن الفرنسيين كانوا رحماء به، فقد أمضى بقية حياته فى منفى كريم فى دمشق.

بموت السلطان فى 1859، سيتحول تسليط الضوء لفترة قصيرة إلى إسپانيا، وسيواكب ذلك نزاع حاد حول حدود الأراضى الإسپانية المحاطة بأرض أجنبية فى سبتة[3] – Ceuta. انتهى ذلك بإعلان مدريد الحرب، واستيلاء إسبانيا على تطوان – Tetouan فى العام التالى، واضطر السلطان إلى الموافقة على تعويض كبير وزيادة كبيرة فى حجم أراضى سبتة. فى الوقت نفسه كان البريطانيون والإيطاليون يأملون فى الحصول على نصيبهم من الكعكة المراكشية، ولكن الرشوة الفرنسية كانت جاهزة، فوافقت بريطانيا على إطلاق يد الفرنسيين هناك مقابل تعهد بعدم التدخل فى خططها فى مصر، بينما فعلت إيطاليا الشىء نفسه فيما يتعلق بليبيا، فى 1880 وقع البريطانيون والفرنسيون والإسبان والألمان والإيطاليون والأمريكان، وقعوا اتفاقًا فى مدريد – كان نظريًّا على الأقل – يضمن استقلال مراكش، ولكن ذلك لم يمنع فرنسا من توقيع اتفاقية سرية مع إسپانيا – بتواطؤ تام مع بريطانيا – على "مناطق نفوذ" لكلتيهما فى البلاد. كان ذلك هو الوضع، عندما وصل القيصر ولهلم الثانى – Kaiser Wilhelm II إلى طنجة فى نهاية مارس 1905 على الباخرة هامبورج – Hamburg ، وكعادته... أطلق القط بين الحمام! فى رده على كلمات الترحيب، أعلن تأييده: أولًا: لسيادة السلطان الكاملة واستقلاله، وثانيًا لوحدة أراضى مملكته، وثالثًا لـ "مراكش مفتوحة للمنافسة السلمية أمام كل الدول دون ضم أو احتكار".

كان ذلك كله يبدو أمرًا محمودًا أو غير ضار، ولكنه كان فى الوقت نفسه بالنسبة للقوى الأوروبية، محاولة صريحة لوضع عصا فى العجلة الفرنسية... وكذلك فى

العجلة الإسپانية، وإن بدرجة أقل. فى العام السابق، كان القيصر قد اقترح بأن تقوم ألمانيا باستئجار "بورت ماهون – Port Mahon" (فى مينوركا) من إسپانيا، وهى الفكرة التى قوبلت ببرود من كل من فرنسا وبريطانيا؛ حيث إن الجزيرة كانت فى موقع يجعلها تتحكم فى طرق الوصول إلى طولون، كما أنها تقع على خط مباشر بين القاعدتين البريطانيتين المهمتين فى مالطة وجبل طارق. كان آخر شيء تريده الدولتان هو أن يتدخل ولهلم مرة أخرى فى شؤون غرب المتوسط. فى آخر الأمر، تم بحث القضية كلها بالتفصيل، ويبدو أنه كان قد تم حلها بشكل مرض فى 1906، عندما دعى لاجتماع الموقعين على اتفاقية 1880 فى "الچيسيراز – Algeciras" لمناقشة المسألة المراكشية برمتها. أكد ذلك الاجتماع وحدة أراضى البلاد والمساواة الاقتصادية بين القوى، ولكنه أقر إشراف فرنسا وإسپانيا على الموانئ المراكشية، والقيام بمهام الشرطة بها، وتحصيل الضرائب الجمركية.

حتى آنذاك لم تكن القصة قد انتهت تمامًا؛ ففى 1907 قامت فرنسا (المتلهفة دائمًا على زيادة نفوذها فى شمال أفريقيا) باحتلال كازابلانكا (الدار البيضاء – Casablanca)، وعندئذ قام عبد الحافظ، شقيق السلطان عبد العزيز بقيادة تمرد عليه، متهمًا إياه بخيانة الأعراف الإسلامية، لجأ عبد العزيز إلى طنجة بينما أُعلن عبد الحافظ سلطانًا فى فاس - Fez. اعترفت به القوى الأوروبية فى العام التالى، إلا أنه لم يقم بأى محاولة لفرض النظام فى أرجاء البلاد، وفى آخر الأمر، اضطر مع تزايد الفوضى لطلب مساعدة فرنسا، كانت النتيجة اتفاقية فاس فى 1912، التى أصبحت مراكش بموجبها محمية فرنسية، أما طنجة التى طالما كانت مقرًّا للبعثات الدبلوماسية الأوروبية، فوضعت تحت إدارة منفصلة.

وأخيرًا، كلمة عن ليبيا. أى زائر لذلك البلد سيفاجأ بجغرافيته غير العادية. فى الغرب؛ حيث طرابلس العاصمة – توجد "تريپوليتانيا – Tripolitania"، التى ينتابك فيها الشعور بأجواء روما القديمة وبخاصة فى مواقع مثل "ليپتس ماجنا – Leptis Magna" أو "سابراتا – Sabrata"، وفى الشرق توجد "كيرينايكا – Cyrenaica" (مركز بنغازى) التى تعيدنا على الفور إلى عالم اليونان القديمة، وبخاصة فى أماكن مثل "أپولونيا – Apollonia" وكايرين – Cyrene وغيرها. بين تريپوليتانيا وكيرينايكا نحو ستمائة أو سبعمائه ميلا خالية من أى شئ، ماعدا بلدة سرت – Sirte الصغيرة التى تقع فى منتصف المسافة. هذه البلاد ظلت متحدة بسبب عاملين: طائفة السنوسية الذين يدعون إلى شكل تطهرى من الإسلام – رغم أن ذلك كان مركزا إلى حد كبير

فى كيرينايكا – ثم الاستعمار الإيطالى.[4] مثل جيرانها، كانت ليبيا مستقلة بذاتها تقريبا، رغم أنها كانت تحت حكم تركى اسمى، إلى أن استغلت الإمبراطورية العثمانية أحد الصراعات التى لا نهاية لها حول الخلافة، فى سنة 1835؛ لكى تعيد فرض حكم مباشر عليها، على مدى سبع وسبعين سنة تالية، سيكون موظفون مدنيون من إسطنبول هم الذيم يديرون شؤون البلاد، إلى أن تتولى إيطاليا الأمر، وتعطيها اسمها (ليبيا)، وتحكمها إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

هوامش الفصل السادس والعشرين

(1) هى معاهدة يونيكار – سكيليسى : Unikar – Skelessi التى لا نعرف عنها الكثير؛ لأنها لم تعش طويلًا. فى يوليو 1841 ضمنت القوى الاستقلال العثمانى، وأعلنت البوسفور والدردنيل مناطق مغلقة أمام كل الدول فى فترة السلم.

(2) الـ داى – Dey كلمة تركية بمعنى الخال، وقد أنشئ المنصب فى 1671 . فى السنوات الأولى كان الداى ينتخب بواسطة القراصنة، وكان يتولى واجبات الباشا المعين من قبل السلطان العثمانى، وكان هو الذى يعين البكوات رؤساء للمحليات.

(3) أصبح هذا الميناء الحر على ساحل مراكش مستقلًا لأول مرة على أيام البيزنطيين، ولكن ملكيته كانت باستمرار محل خلاف لأهميته كمركز لتجارة العاج والذهب والعبيد، فى 1415 سيطرت عليه البرتغال ثم انتقلت السيطرة إلى إسبانيا فى 1580، وفى 1688 قننت اتفاقية لشبونة تبعيته لها. أما بالنسبة لـ مليله – Melilla القريبة منها، فقد كانت دائمًا إسبانية، ولم تكن أبدًا جزءًا من الأراضى المراكشية.

(4) انظر الفصل الحادى والثلاثين.

الفصل السابع والعشرون

"The Quarantotto"- الـ " كوارانتوتو "

• صقلية مستقلـة: 1848 • مانن وتوماسيو: 1848 • ڤيڤا سان ماركوا: 1848
• دستور من أجل رومـا: 1848 • ڤينيسيا تواصل القتال: 1848

عندما ثار شعب باليرمو فى الثانى عشر من يناير 1884 - يوم عيد الميلاد الثامن والثلاثين للملك فرديناند الثانى -[1] على حكامهم البوربون، لم يكن لديهم أى فكرة عن العمل الذى شرعوا فيه، لم تكن الانتفاضات شيئًا جديدًا على المملكة، كانت قد سبقت ثورة يناير انتفاضات فاشلة فى نابولى (1820) وفى بيدمونت (1821)، كما كانت صقلية نفسها قد شهدت انتفاضة فى 1837 على أثر وباء الكوليرا فى أول ظهور للمرض فى أوربا الغربية، إلا أنه كان من السهل – نسبيًا - التعامل مع مظاهر الغضب الناجمة عن ذلك. ما حدث فى 1848 أو الكوارانتوتو[2] كما تتذكرها إيطاليا، كان شيئًا مختلفًا. كان ثورة، وبحلول آخر العام كانت قد تبعتها ثورات أخرى: فى باريس وڤيينا ونابولى وروما وڤينيسيا ولوكا وپارما ومودينا وبرلين وميلان وكراكاو ووارسو وبودابست.

مع مطلع العام، كانت مظاهرات الطلاب قد أجبرت السلطات على إغلاق الجامعة، كما كان قد تم القبض على أعداد كبيرة من المواطنين المعروفين بتوجهاتهم الليبرالية، كما تم توزيع منشور بدون توقيع يدعو الناس للثورة يوم عيد ميلاد الملك. كان عدد كبير من الثوار من لصوص الجبال وقطاع الطريق - أسلاف مافيا هذه الأيام - أو من المزارعين البسطاء. كان قليل منهم لديهم فكرة عما يناضلون من أجله، بصرف النظر عن التطلع إلى حياة أفضل بشكل عام، إلا أنهم كانوا يناضلون بضراوة. كان الدمار قد أصاب الكثير من القرى والبلدات الصغيرة والكثير من المناطق الريفية.

كان للبوربون قوات قوامها نحو سبعة آلاف جندى فى حامية باليرمو، إلا أنها كانت بلا فائدة. كانت وسائل الاتصال رديئة والطرق سيئة، ومن الصعب الوصول إلى الأماكن فى الحال. عندما شعروا باليأس، قرروا أن يقصفوا المدينة، وهو القرار الذى سيندمون عليه بعد قليل.[3]

انقض الدهماء على القصر الملكى فنهبوه - إلا أنهم، والحمد لله، أبقوا على كنيسة البلاط الصغيرة - وأضرموا النار فى سجلات الدولة وأرشيفاتها. تراجعت الحامية ثم عادت مسرعة إلى نابولى. فى الأيام التالية شُكِّلت لجنة حكومية برئاسة روجيرو سيتيمو - Ruggero Settimo- الوطنى الصقلى البالغ من العمر سبعين عامًا (ووزير البحرية السابق فى نابولى)، وفى الوقت نفسه كانت الثورة قد انتشرت فى كل المدن الرئيسية، ما عدا مسينى التى نأت بنفسها حقدًا على باليرمو، وفى نحو مائة قرية؛ حيث كان دعم المزارعين قد تأكد بوعود بمنحهم أراضىَ زراعية، لم تواجه الثورة أية مقاومة تستحق الذكر.

بنهاية الشهر، كانت المدينة قد أصبحت خالية من القوات الملكية، وفى الخامس من فبراير أعلن سيتيمو أن "شرور الحرب انتهت وأن عهدًا من السعادة يبدأ الآن فى صقلية". فاته أن يذكر أن قلعة مسينى كانت ما تزال فى أيدى النابوليين، إلا أنه كان من الواضح بالنسبة للملك فرديناند أن ظهره كان للحائط، وبسبب المظاهرات المستمرة فى نابولى على النموذج الصقلى، عرض منح جزئى مملكته دستورًا ليبراليًا، ينهض بأعباء مجلسين تشريعيين وقدر من الحقوق، كتب السفير النمساوى الأمير شوارزنبيرج - Prince Schwarzenberg، الذى أصابه الرعب، إلى رئيسة متيرنخ - Metternich يقول: "لقد فقد الملك ووزراؤه عقولهم تمامًا"، أما متيرنخ فكتب على هامش الرسالة: "أتحدى أن يكون الوزراء قد فقدوا شيئًا لم يملكوه قط".

لا بد من أن تكون الأخبار التى وصلته فى آخر فبراير قد أصابته بالمزيد من الحزن. فى باريس، كان لويس فيليب "الملك المواطن"، قد تم إسقاطه عن العرش فى الرابع والعشرين من فبراير، وأعلنت الجمهورية. الآن كان الانهيار قد بدأ. كان فرديناند، الذى كان قد حقق قدرًا من الشعبية بعد عرضه منح دستور، قد أصبح ممقوتًا أكثر من أى وقت مضى، لم تعد الدساتير الليبرالية تكفى. فى الوقت نفسه كان الصقليون قد رفضوا العرض، وأبلغوه، دون مبالاة، بأن "صقلية لا تريد دساتير جديدة، صقلية تريد استعادة حقوق كانت لها منذ قرون". أعلنوا عزله فى پاليرمو، وبدلًا من عَلَم البوربون، كان هناك الآن العلم الثورى ذو الألوان الثلاثة، وذلك الشعار الغريب على شكل عجلة بدون إطار، وثلاثة أرجل كأنها أشعة خارجة منها.

الآن كانت صقلية مستقلة بحق، ولأول مرة منذ القرن الرابع عشر، المشكلة كانت فى عدم وجود آلية لإدارة جيدة، انتشرت العصابات المسلحة على الجزيرة، كثرت حوادث الخطف والابتزاز، إلا أن ذلك كله كان مجرد أعراض لمرض أشد ضراوة، بارت التجارة وزادت نسبة البطالة وانهار النظام القضائى. لم يعد عام 1848، بالنسبة لكثير من أهالى صقلية، عام الثورة، كان عام الدمار والفوضى.

قرب نهاية أغسطس، أرسل فرديناند قوة برية - بحرية مشتركة بقيادة الفيلد مارشال "كارلو فيلانجييرى - Carlo Filangieri" لإعادة الهدوء للمدينة. رد الثوار قتالًا بقتال؛ أما حقد القرون الكامن بين النابوليين والصقليين، فتفجر فى أعمال عدائية بين الجانبين، لدرجة أن قادة البحر البريطانيين والفرنسيين الذين روعهم الدم المسفوح والوحشية فى مياه صقلية، أقنعوا فرديناند بإعلان هدنة لمدة ستة أشهر، كان يمكن أن تكون فرصة للخروج من ذلك المأزق، إلا أن كل عروض التسوية كان يتم رفضها على

الفور، كانت النتيجة أن قام فيلانجييرى بالاستيلاء على "تاورمينا – Taormina» فى الثانى من أبريل، وعلى كاتانيا فى السابع من الشهر نفسه، وفى الخامس عشر من مايو دخل پاليرمو. بما يتصفون به من عدم كفاءة وفقدان لروح الاتحاد، وبسبب رفضهم لكل الحلول الوسط، كان الصقليون يقدمون نموذجًا لما يجب ألا يكون عليه طريق الثورة. كان جيرانهم اليونانيون قد أظهروا عيوبًا مشابهة، إلا أنهم كانوا يجدون دعمًا من القوى الغربية. لم يحصل الصقليون على شىء من ذلك... ودفعوا الثمن.

** ** **

رغم أن الثورة فى ڤينيسيا كانت فاشلة هى الأخرى فى آخر الأمر، فإنها كانت تدار بثقة ومهارة أكثر. فى يونيو 1844، كان ثلاثة من شباب الضباط الڤينسيين: الشقيقان أتيليو - Attilio وإميليو - Emilio باندير - Bandiea، وصديقهما دومينيكو مورو - Domenico moro، كانوا قد أبحروا من كورفو قاصدين كالابريا للانضمام إلى حركة تمرد ضد بوربون ناپولى، كانت رحلة دونكيشوتية غريبة، لم يكونوا قد استعدوا لها على أى نحو، لم يتخذوا أى تدابير وقائية، وتم إلقاء القبض عليهم فى الحال، بعد شهر تم إعدامهم فى وادى روڤيتو - Rovito بالقرب من كوسنزا - Cosenza.[4] كان لأخبار موتهم صدى بالغ الأثر فى الرأى العام الإيطالى؛ فإذا كان ثلاثة من أبناء ڤينيسيا - ناهيك عن شهداء آخرين كثيرين من پيروجيا وريمينى ومدن أخرى - على استعداد للموت من أجل ناپولى، فإن الوحدة الإيطالية فى آخر الأمر لا بد من أن تكون أكثر من حلم أجوف، كان يبدو ألا يكون موت أولئك الأبطال ضربًا من العبث، كان هناك الآن اتفاق عام فى ڤينيسيا على أن اللحظة قد حانت؛ لكى يتكلم كل أهالى المدينة بصوت واحد، وكان ذلك هو صوت دانييل مانن - Daniele Manin.

مانن من مواليد ڤينيسيا فى الثالث عشر من مايو 1408، وكان أبوه اليهودى قد تحول إلى المسيحية فى شبابه، واتخذ لنفسه اسم أبيه بالمعمودية، پيترو مانن - Pietro Manin - شقيق لودوڤيكو - Ludovico، الدوچ الأخير. عازمًا على أن يكون محاميًا مثل أبيه، كان دانييل قد نشر أول عمل له، وهو رسالة عن الوصايا "Wills" فى سن الثانية عشرة، عندما حصل على درجة الدكتوراه من جامعة پادوا وهو فى الواحد والعشرين، كان لديه إلمام جيد باللاتينية واليونانية والعبرية والفرنسية والألمانية، إلى جانب الإيطالية، وڤينيسيته الوطنية، كان كما أنشأه والده قد تشرب أفكاره الجمهورية والليبرالية، كما كان ناشطًا سياسيًا على مدى نحو ستة عشر عامًا، عندما بدأ ما أطلق عليه نضاله القانونى - lotta legale، مع نمو الوعى القومى فى إيطاليا فى 1847 ضد

الاستبداد النمساوى. فى تلك المرحلة، لم يكن يطالب بالاستقلال الكامل لڤينيسيا، وإنما مجرد الحكم الذاتى تحت إمبراطورية الهابسبورج، وعندما تم رفض ذلك - كما كان يعرف جيدًا أنه سيحدث - دعا أبناء وطنه لحمل السلاح.

جاءت أولى لحظات التحدى العلنى فى الثلاثين من ديسمبر 1847، عندما ألقى الأكاديمى المتميز نيكولو توماسيو- Niccolò Tommaseo محاضرة، كان موضوعها الظاهرى "حالة الأدب الإيطالى"، بينما كانت فى حقيقتها هجومًا مباشرًا على الرقابة النمساوية. فى النهاية، قام بتمرير عريضة وقعها أكثر من ستمائة شخصية قيادية من ڤينيسيا وڤينيتو، وكتعبير إضافى عن سخطهم، اتبع أهالى ڤينيسيا النموذج الذى كان أهالى ميلان قد انتهجوه قبل أسابيع قليلة، وتوقفوا عن التدخين.[5] كانوا كذلك قد أصروا على عدم التصفيق استحسانًا، للفرقة الموسيقية العسكرية النمساوية فى الساحة العامة، وأصبحوا - من الآن - يغادرون المكان عندما تبدأ العزف. بعد أسبوع، أتبع مانن ذلك ميثاقًا من ستة عشر نقطة، يطالب فيه بين أشياء أخرى بحقوق لجميع الإيطاليين تحت الحكم النمساوى، وبحكومة منفصلة فى الشمال الإيطالى تكون مسؤولة أمام الإمبراطور، وإلغاء الرقابة نهائيًا، وكانت تلك هى القشة الأخيرة بالنسبة للسلطات الإمبراطورية، فى الثامن عشر من يناير 1848، أُلقى القبض على مانن وتوماسيو وتم اقتيادهما إلى السجن المجاور لقصر الدوچ، بمجرد أن عرف أهالى ڤينيسيا مكانهما، كانت الجماهير تتجمع يوميًا فى المكان فى وقفة صمت وإجلال لهما.

فى أوائل مارس، ولدهشة الجميع تمت تبرئة الاثنين، إلا أن قائد الشرطة النمساوية صمم على استمرار احتجازهما فى السجن، كانت غلطة كارثية، تم إلغاء الكرنڤال السنوى، وتولى المحامون من رفاق مانن تصريف أعماله دون أجر. بالرغم من ذلك، كان أهالى ڤينيسيا ما زالوا مترددين فى اللجوء للسلاح؛ إذ كانوا يعرفون أن الجيش النمساوى فى ڤينيسيا - لومبارديا، تحت قيادة المارشال چوزيف رادتسكى[6] - Joseph Radetzky (81 سنة) لم يكن يقل عن خمسة وسبعين ألف مقاتل. بعد ذلك، جاءت باخرة البريد من تريستا - Trieste بأخبار مفادها أن ڤينيسيا كانت فى حالة ثورة وأن الثوار انتصروا، وأن الأمير المكروه متيرنخ كان قد فر قبل أربعة أيام لينجو بحياته، بين عشية وضحاها تغير الموقف؛ إذ عندما ذاعت الأخبار فى المدينة، تدفقت الجماهير الحاشدة على مقر الحاكم فى الركن الجنوبى من الميدان الكبير وهم يهتفون- Furoi! Manin e Tommaseo[7] كان من الواضح أن أحدًا لن يستطيع الوقوف فى طريق الشعب بعد ذلك.

فى آخر الأمر، أطل «الكونت پالفى - Count Palffy“ من النافذة، معلنًا أن ليس من سلطته إطلاق سراح السجناء، حتى وإن كان يريد ذلك. آنذاك، اندفعت الجماهير بقيادة "جيورجيو – Giorgio“ (16 سنة) ابن مانن، من الرواق إلى السجن، وراحوا بكل عنف يدقون الأبواب التى فتحت فى النهاية. أما دانييل مانن الذى لم يكن لينسى فى كل الظروف أنه محام، فكان من الطبيعى أن يرفض مغادرة المبنى دون قرار رسمى بذلك، وهو القرار الذى وقعه پالفى على عجل، بناء على إلحاح من زوجته التى كانت فى حالة شبه هستيرية. آنذاك فحسب ظهر هو وتوماسيو لتحمله الجماهير على الأعناق إلى مقر الحكم، كانت الجماهير على وشك أن تحطم الأبواب، ولكن مانن كبح جماحهم قائلًا: لا تنسوا أنه لا يمكن أن يكون هناك حرية حقيقية، أو أن الحرية يمكن أن تستمر إلا إذا كان هناك نظام“. وبعد أن ساد الهدوء تركهم يحملونه إلى بيته.

** ** **

إذا كانت استقالة مترينخ وهروبه يوم الثالث عشر من مارس قد ألهمت إيطاليا لكى تعمل، إلا أنها تركت النمسا فى حالة من الفوضى، كانت الحكومة بلا ضابط أو رابط، والجيش مرتبكًا وغير واثق من ولاءاته، وكان ذلك دون شك، مؤشرات للمتمردين والثوار فى أرجاء إيطاليا. التمرد الكبير فى ميلان، المعروف لكل الإيطاليين بـ "الأيام الخمسة من 18: 22 مارس - cinque giornate“، أدى إلى طرد النمساويين من المدينة ونصَّب حكومة جمهورية، فى اليوم الأخير من تلك الأيام الخمسة، ظهر مقال فى الصفحة الأولى من جريدة "الريزورجمنتو - Il Riosorgimento“ (البعث) فى تورين - Turin، بقلم رئيس التحرير الكونت كاميللو كاڤور- Count Camillo Ca-vour، كتب: "دقت الساعة الحاسمة“ و"هناك طريق واحد مفتوح أمام الأمة، أمام الحكومة، أمام الملك. الحرب!“

بعد يومين، أعلن ملك ساڤوى، تشارلز ألبرت - Charles Albert، من پيدمونت استعداد بلاده لمنح دعمها الكامل لڤينيسيا - لومبارديا فى الصراع القادم، بالإضافة إلى عزمه القيام شخصيًا بقيادة جيشه فى المعركة. لسوء حظه، وبالرغم من قدرته على تعبئة نحو سبعين ألف جندى على الفور، لم تكن پيدمونت جاهزة للحرب، لم يكن لدى جيشها كله خريطة واحدة لـلومبارديا، ولسوء الحظ كذلك، أن الملك لم يكن قائدًا عسكريًا كفئًا - المؤكد أنه لم يكن ندًّا لـرادتسكى العجوز الذى كان قد عرف قيادة الجيوش قبل أن يولد تشارلز ألبرت.

من ناحية أخرى، بالرغم من أن المحصلة النهائية للأعمال العدائية بين النمسا

وبيدمونت كان لا بد من أن تكون نهاية محتومة من وجهة النظر العسكرية، لا بد من أن يكون رد فعل الدول الإيطالية الأخرى قد شجع الملك، أرسل الدوق الأكبر ليوبولد الثانى- Leopold II، دوق توسكانيا جيشًا على الفور، كان يضم قوات نظامية ومتطوعين، الأكثر مدعاة للدهشة أنه كانت هناك استجابة مماثلة من فرديناند ملك نابولى، الذى أرسل قوة من ستة عشر ألف جندى، بقيادة جنرال كبير من كالابريا يدعى "جليلمو پيبى – «Guglielmo Pepe. ربما لم تكن تلك الإسهامات تعنى شيئًا مهمًا من الناحية الإستراتيجية، إلا أنها كشفت دون شك عن أن القضية كانت قضية إيطالية قومية، وبمجرد أن اتخذوا أماكنهم إلى جوار البيدمنتويين، كان الحكام زملاء تشارلز ألبرت يعتبرون أنفسهم رفاقًا، وليس مجرد حلفاء.

وحده دانييل مانن، لم يدّع أنه كان يحارب من أجل إيطاليا، كانت ڤينيسيا هى قضيته. قبل أشهر قليلة، كان يمكن أن يستقبل الأخبار التى وصلت مساء إطلاق سراحه من السجن على اعتبار أن الملك وافق على مبدأ الحكومة الدستورية لـ ڤينيسيا - لومبارديا، إلا أن مثل ذلك العرض كان قد أصبح شيئًا قليلًا جدًا... ومتأخرًا جدًا. كان مانن الآن مصرًا على عدم الموافقة على ما هو أقل من طرد كل النمساويين من الأراضى الڤينيسية، صباح يوم الثانى والعشرين من مارس - وهو يوم خُلِّدت ذكراه بإطلاقه على أهم شارع تجارى فى ڤينيسيا - قام هو ورجاله باحتلال الترسانة العسكرية دون مقاومة، وصادروا كل ما بها من أسلحة وذخائر، ثم قام بعد على رأس موكب نصر بالتوجه إلى الميدان الكبير ليعلن قيام جمهورية، منهيًا كلمته بصيحة مدوية "ڤيڤا سان ماركو".- Viva San Marco!- كانت تلك أول مرة تسمع فيها تلك العبارة علنًا على مدى أكثر من نصف القرن. فى نفس الوقت، كان پالفى قد وقع مرسوم استسلام، تاركًا السلطة الفعلية لـ "الحكومة المؤقتة التى سيتم تشكيلها"، ومتعهدًا بجلاء كل القوات النمساوية - دون أسلحتها - إلى تريستا - Trieste.

مرة أخرى، عادت ڤينيسيا جمهورية، إلا أنه كان من الواضح منذ الأيام الأولى أن الجمهورية كانت تواجه خطرًا قاتلًا. انسحب النمساويون لكنهم لم يُهزموا، كما أن الثورة كانت مقصورة على المدن الرئيسية. كان راديتسكى يسيطر على معظم المناطق الريفية، وبعد سقوط "ڤيزنزا – Vicenza" فى العاشر من يونيو كانت كل اليابسة الڤينيسية قد عادت لأيدى النمساويين. لم تكن ڤينيسيا تتصور أنها ستقف وحيدة، وهكذا فى الرابع من يوليو، صوّت المجلس الڤينيسى، الذى كان قد انتخب حديثًا، للاندماج مع بيدمونت؛ حيث كان كاڤور ينادى، على نحو أكثر إلحاحًا، بالوحدة الإيطالية. كان يومًا

مأساويًا بالنسبة لدانييل مانن، الذى سلم فورًا لحكومة مؤقتة واعتزل الحياة العامة. (بعد عدة أيام شاهدوه يرتدى زى جندى أثناء قيامه بالحراسة فى الرواق). فى الوقت نفسه كان نحو ثلاثة آلاف جندى من قوات پيدمنتو قد سمح لهم بالإقامة فى المدينة، وكان ذلك بالنسبة لأهالى ڤينيسيا أمرًا سيئًا، وكأن النمساويين عادوا مرة أخرى.

«كل يوم يثبت البابا أنه شخص يفتقر إلى الخبرة، كان قد ولد ونشأ فى أسرة ليبرالية، وتعلم فى مدرسة سيئة، ولم يوجه عقله لشئون الحكم، ولأنه كان دافئ القلب ضعيف العقل ترك نفسه - منذ أن وضع التيرة على رأسه - لكى يرضخ ويقع فى شراك لم يعد يعرف كيف يخرج منها، وإذا مضت الأمور فى مسارها الطبيعى، فسوف يطرد من روما.»

العبارات النبوئية السابقة، كان قد كتبها الأمير متيرنخ، السكرتير الأول فى سفارة النمسا إلى سفيرة فى پاريس فى أكتوبر 1847. كان موضوعها هو چيوڤانى ماريا ماستاى - فيريتى- Giovanni Maria Mastai- Ferretti، أسقف أيمولا - Imola سابقًا، ورئيس أساقفة سپوليتو- Spoleto، الذى كان قد انتخب فى العام السابق - وهو فى الرابعة والخمسين - ليكون البابا پيوس التاسع بواسطة ليبرالى إيطاليًا، وكل أوربا الغربية فى الحقيقة، وكانت أخبار انتخابه مثيرة ومبهجة. كان البابا الجديد يبدو واحدًا منهم، ففى أول شهر له فى المنصب، أصدر عفوًا عن أكثر من ألف من السجناء السياسيين والمنفيين[8]، وبعد أسابيع قليلة كان يقيم احتفالات للجنسين فى الهواء الطلق فى حديقة الكورينال. فى الوقت نفسه شجع على قيام مشروعات للسكك الحديدية وإنارة شوارع روما بالغاز. أسس صحافة حرة أو قريبة من ذلك، وبدأ إصلاحات التعرفة، وأدخل غير الإكليريكيين للعمل فى الإدارة البابوية، كما ألغى ذلك القانون الشاذ الذى كان يجبر اليهود على الاستماع إلى موعظة مسيحية مرة فى الأسبوع. باحتشاد الناس حوله أينما ذهب، كان أن أصبح أكثر شخص محبوب فى إيطاليا.

إلا أن تلك السمعة الطيبة كان لها مخاطرها. كانت كل تظاهرة سياسية، من أكثرها اعتدالًا إلى أكثرها ثورية تدعى الآن دعمه لها وتطالب بالمزيد منه، فظهر اسمه على ألوف اللافتات وكثيرًا ما كان ذلك من أجل قضايا كان يعارضها بشدة. بتفجر ثورات 1848، أصبح الدفاع عن موقعه أو المحافظة عليه أكثر صعوبة. پيو نونو... پيو نونو... پيو نونو، Pio Nono!, Pio Nono!, Pio Nono!، أصبح الاسم هتافًا تردده الجموع وهى تموج عبر شوارع مدينة بعد أخرى، وعندما أنهى البابا كلمة له بعبارة "فليبارك الرب إيطاليا"، فهمت العبارة على الفور باعتبارها مصادقة على الحلم العام بإيطاليا موحدة، متحررة إلى الأبد من الحكم النمساوى. (من الصعب فى الحقيقة القول: إن پيوس

كان يريد أن يرى إيطاليا موحدة، فبصرف النظر عن أى شىء آخر، ماذا سيكون مصير الدول البابوية؟). باختصار، كان البابا قد وجد نفسه الآن على قطار جامح بلا سائق، أمله الوحيد أن يوقفه بأى طريقة.

بنهاية يناير من ذلك العام المشؤوم، كان فيضان الدساتير الجديدة قد بدأ، كان فرديناند قد منح نابولى دستورًا فى التاسع والعشرين من الشهر، وبعد ذلك بأسبوع، منح الدوق الأكبر فلورنسا دستورًا آخر. فى الخامس من مارس، بعد ثورة پاريس وهروب لويس فيليپ، منح تشارلز ألبرت ملك سافوى دستورًا لـ تورين. ثم جاء دور ڤيينا فى الثالث عشر من مارس، عندما هرب مترنيخ نفسه. كانت تلك أهم الأخبار، كان هناك أمل جديد فى صدر كل زعيم وطنى إيطالى ممن كانوا ينظرون إلى الڤاتيكان كمبادر. فى الخامس عشر من مارس، منح البابا پيوس روما دستورًا، لم يكن دستورًا شديد الليبرالية. كان وزيره الأول الكاردينال أنتونيللى[9] قد راعى ذلك - كما أنه لم يستمر طويلًا كما كشفت الأمور فيما بعد، إلا أنه حقق الهدف منه. پيوس، الذى لم يكن على استعداد لأن يقود ثورة أوروبية، لم يكن يريد كذلك أن يبدو متقاعسًا.

فى الرابع والعشرين من مارس - نفس اليوم الذى أعلن فيه تشارلز ألبرت الحرب على النمسا - قام الجنرال چيوڤانى ديوراندو - Giovanni Durando بقيادة الحرس المتقدم لجيش بابوى، خارجًا من روما لحماية الحدود الشمالية للدول البابوية من أى هجوم نمساوى محتمل. كان ذلك يعتبر إجراء دفاعيًّا، ولكن مثيرى الحرب رفضوا أن يعتبروه كذلك؛ فالنمسا، حسب زعمهم، كانت قد أعلنت الحرب على إيطاليا المسيحية. كانت تلك إذن حربًا مقدسة، حربًا صليبية، ذات هدف مقدس، وهو طرد الغزاة من الأراضى الإيطالية المقدسة.

كان المتوقع أن يستثير ذلك غضب البابا پيوس، كان لا يمكن أن يتغاضى عن سياسة عدوانية كتلك، على الأقل ضد دولة كاثوليكية، كما كان من الضرورى جدًّا بالنسبة له أن يوضح موقفه مرة وإلى الأبد، كانت النتيجة ما عرف بـخطبة 29 أبريل 1848 التحذيرية - Allocution of 29 April 1848، بعيدًا عن قيادة الحملة من أجل إيطاليا موحدة، أعلن أنه كان ضدها بكل قوة. ينبغى على الإيطاليين التقاة الذين يخشون الرب أن ينسوا فكرة الوحدة برمتها، وأن يتعهدوا مرة أخرى بالولاء لأمرائهم الفرديين.

رحب الملك فرديناند بخطبة التاسع والعشرين من أبريل، وكان يراها عذرًا كافيًا لإعادة الجيش الذى كان قد أرسله إلى الشمال بقيادة الجنرال پيپى. (بحسب لـپيپى أنه لم ينفذ أوامره، وقاد نحو ألفين من رجاله دفاعًا عن ڤينيسيا). عن طريق عدد كبير من

الوطنيين الإيطاليين الذين كانوا يجوبون البلاد طولًا وعرضًا، انتقلت الأخبار التى تلقاها الناس بقدر من الرعب، غير أن قضية الوحدة لم تتأثر كما ستكشف الأحداث التالية. كانت الحركة قد انتشرت ومن المتعذر إيقافها، كان الضرر الوحيد الذى وقع هو ما لحق بسمعة بيوس نفسه، حتى ذلك الحين كان بطلًا، من الآن سيصبح خائنًا، بالإضافة إلى أن تلك الخطبة أظهرت (وربما مثلما لم يظهر أى شىء آخر) مدى ضعف البابا وعدم قدرته على التأثير فى الأحداث، كل شعبيته الوهمية ذهبت أدراج الرياح بين عشية وضحاها، والآن كان قد جاء دوره لكى يواجه الثورة، فى الشهور السبعة الأولى، كان يكافح من أجل الصمود، ولكن عندما تعرض وزيره الأول الكونت بيلليجرينو روسى Count Pellegrino Rossi لاعتداء بالضرب كاد أن يفضى إلى موته، وهو يدخل مبنى المستشارية، أدرك أن روما لم تعد مكانًا آمنًا بالنسبة له. فى الرابع والعشرين من نوفمبر، تسلل متنكرًا فى ثياب قس صغير وخرج من قصر كويرين، عن طريق باب جانبى، فارًا إلى جاييتا – Gaeta؛ حيث استقبله الملك فرديناند بحفاوة.

فى البداية، حقق جيش بيدمونت قدرًا من النجاح، ففى وقت سريع، ألحق هزيمة منكرة بجيش تشارلز ألبرت فى الرابع والعشرين من يوليو بالقرب من كاستوزا - Cus-toza على بعد أميال قليلة، جنوب غرب ڤيرونا. بعد ذلك ارتدا إلى ميلان بينما كان راديتسكى يطارده، وفى الرابع من أغسطس اضطر لطلب هدنة وانسحب هو وجيشه إلى ما وراء حدودهم، بعد يومين، استسلم أبناء ميلان، وقاد المارشال العجوز - الذى لا يقهر - جيشه عائدًا إلى المدينة.

انتهت المرحلة الأولى من الحرب وخرجت منها النمسا منتصرة تمامًا، لم تعد لتكون مسيطرة دون منازع على ڤينيسيا - لومبارديا فحسب، وَقَّعت نابولى سلمًا منفصلًا. روما استسلمت. فرنسا، فى شخص وزير خارجيتها الشاعر ألفونس دولامارتين - Alphonse de Lamartine، أصدرت بيانًا جمهوريًّا أحدث جلبة مشجعة، وإن لم يقدم أى مساعدة نشطة أو مادية. بعد أقل من خمسة أشهر من إعلان الجمهورية الڤينيسية الجديدة، كانت قوى الثورة المضادة قد غدت منتصرة على امتداد البر الإيطالى الرئيسى.

لم تكن ڤينيسيا آسفة وهى تودع البيدمونتيين، إلا أنها - مرة أخرى - كانت تقف وحيدة، كان أملها الوحيد الآن هو مانن الذى كان قد خلع زى الجندية تمامًا، وفى الثالث عشر من أغسطس دعاه المجلس لتولى سلطات مطلقة. رفض على اعتبار أنه لم يكن يعرف شيئًا عن الشؤون العسكرية، ولكنه اقتنع فى النهاية برئاسة حكومة ثلاثية، كانت شهرته طاغية لدرجة أن زميليه قبلا بأن يظلا قابعين فى خلفية المشهد: الحقيقة أن

مانن كان دكتاتورًا فى كل شىء باستثناء الاسم. تحت إرشاده فحسب، كان أن واصلت جمهورية ڤينيسيا الحرب طوال الشتاء التالى بشجاعة... وإن كان فى ظل يأس متزايد.

كانت الكوارانتوتو سنة حاسمة بالنسبة لكل الدول الإيطالية. إستراتيجيًا، كان الوضع قد تغير قليلًا، وفى معظم المواقع كانت النمسا قد ظلت سيدة... سياسيًا، كان هناك تحول دراماتيكى فى الرأى العام. فى مطلع العام، كان معظم الإيطاليين الوطنيين يفكرون من منظور التخلص من قوى الاحتلال النمساوى، وعند نهايته كان الهدف الأهم - فى كل مكان ما عدا ڤينيسيا - هو إيطاليا موحدة، كان التغيير يلوح فى الأفق. أخيرًا، بدا الإيطاليون وكأنهم قاب قوسين أو أدنى من تحقيق حلمهم الذى طال انتظاره. لقد بدأ الريزورجيمنتو Risorgimento – أو البعث.

هوامش الفصل السابع والعشرين

(1) مات فرديناند الأول فى 1825 وخلفه ابنه فرانسيس الأول الذى حكم لمدة خمس سنوات فحسب. ابنه فرديناند الثانى حكم من 1830 – 1859 .

(2) Quarantotto كلمة إيطالية تعنى "ثمانية وأربعين؛ تفصيلًا، Quaranta تعنى "أربعين" و Otto تعنى "ثمانية" وتلفظ الكلمة كلها: Kwah – rahn – toht – toh . (المترجم)

(3) كان ذلك الحدث هو الذى أعطى فرديناند لقب الشهرة "الملك بومبا – King Bomba".

(4) تم تخليد ذكراهم فى البندقية بإعادة تسمية كامبو س. چيوڤانى السابق فى براجورا – Bragora، الذى يعرف الآن بـ كامبو بانديرا ومورو – Campo Bamdiera e Moro .

(5) كانت النمسا تحصل على عائدات كبيرة من لومبارديا من جراء الضرائب الكبيرة على السيجار، وكان رد الجيش النمساوى على ذلك هو توزيع كميات كبيرة من السيجار مجانًا على الضباط والجنود، مع أوامر بنفث الدخان فى وجوه الإيطاليين.

(6) كان رادتسكى قد شارك فى الحملات النمساوية الأولى ضد نابليون قبل أكثر من نصف القرن، وكان رئيسًا للأركان فى معركة ليبزج – Leipzig فى 1813. شارك فى سبع عشرة حملة، وجرح سبع مرات، وقتل تحته تسعة خيول.

(7) "أطلقوا سراح ماتن وتوماسيو !".

(8) كان مترنخ يهدد متذمرًا "إن الرب لا يمنح العفو هكذا.. بل يصفح !".

(9) كان أنتونيللى مسئولًا إلى حد كبير عن تمكين البابا من التمسك بسلطته الزمنية إلى أطول مدة، كان سياسيًا ممتازًا وصاحب شخصية ساحرة ومغامرات جنسية عديدة، يشهد على ذلك أبناؤه الكثر غير الشرعيين. "عندما يقف فى أحد الصالونات بالقرب من امرأة جميلة، عندما يقترب منها ليتكلم ويلمس كتفيها مربتًا، ويدقق فى النصف الأعلى العارى من ثوبها، ترى فيه رجل الغابة وترتعد عندما تفكر فى العربات المقلوبة على جانب الطريق". Edmond About «La question romaine»؛ اقتباسًا عن Holt من كتابه Risorgimento . ص 139.

الفصل الثامن والعشرون

"The Risorgimento"- الـ " ريزورجيمنتو "

• ماتزيني: 1837 • غاريبالدى: 1848 • أودينوت يزحف على روما: 1849 • غاريبالدى يغادر إيطاليا: 1849 • موت مانن: 1857 • نابوليون الثالث يلتقى كاڤور: 1858 • سولفرينو: 1859 • استدعاء كاڤور: 1860 • غاريبالدى وكاڤور: 1860 • غاريبالدى فى ناپولى: 1860 • صنع إيطاليا: 1861 • التحالف الروسى الإيطالى: 1866 • الحرب الفرنسية البروسية: 1870

لعل مترنخ لم يتجاوز الحقيقة عندما قال: إن «إيطاليا ليست سوى تعبير جغرافى»، لم يحدث على مدى تاريخها أن كانت إيطاليا دولة واحدة، حتى أيام روما الإمبراطورية، كانت مجرد جزء – صغير دائمًا – من الدولة الرومانية، منذ العصور الوسطى الباكرة - وربما من قبل ذلك - كان مفهوم الدولة الإيطالية موجودًا، ولكن كتصور بعيد: كان دانتى وبترارك قد حلما به، كما حلم به ماكيافيللى- Machiavelli فيما بعد، جغرافيًّا ولغويًّا، كان ذلك أمرًا معقولًا، إلا أن الأرض كانت منقسمة على نفسها، كما كانت الفجوات والخصومات حادة بين مدينة ومدينة، وبين الجويلف والجيبلليين، وبين الإمبراطور والبابا، لدرجة أن الوحدة لم تكن تبدو أمرًا واردًا فى القرن التاسع عشر.

ولكن جاءت الكوارانتوتو فتغير كل شيء. فجأة، أصبح الحلم البعيد هدفًا يمكن تحقيقه. لم يكن لدى الكونت كاميللو كافور سبب جيد، لكى يطلق على جريدته اسم "البعث- IL Risorgimento" - لم يكن من الوارد أن يكون هناك انبعاث نحو هدف لم يكن له وجود من قبل - ولكن الكلمة كان لها وقع جميل وسرعان ما تم تبينها. كان المطلوب الآن هو وجود قيادة.

مع بداية العام 1849، كان هناك مناضل واحد جاد فحسب، على المستوى القومى، كانت فينيسيا - لومبارديا ما زالت تحت الحكم النمساوى، من الواضح أن روما كانت مستبعدة؛ حيث إن مشكلة البابوية كانت قد بقيت دون حل، بالرغم من أن البابا بيوس كان فى منفاه الاختيارى منذ أسابيع، لم تكن نابولى تحت حكم الملك بومبا - Bomba المتزمت جديرة بالاعتبار، كما أن الدول الإيطالية الأخرى كانت صغيرة وضعيفة وغير مؤهلة لذلك، كانت بيدمونت هى الخيار الواضح، وبالرغم من أنها كانت ما زالت تعانى من هزيمتها فى العام السابق، كانت نشطة وطموحة ويكبر حجمها باضطراد.[1] كان ملكها تشارلز ألبرت على العرش منذ 1831، وكان عدوًّا لدودًا للنمسا.

إلا أن تشارلز ألبرت، كملك فى الحكم، لم يستطع أن يعطى الحركة - التى كانت فى النهاية جمهورية إلى حد بعيد - القيادة الشخصية الكاريزمية التى كانت تتطلبها. فى السنوات الباكرة على الأقل، سيكون ذلك مهمة جيوسيبى ماتزينى - Giuseppe Mazzini. ماتزينى من مواليد جنوة فى 1805، ولكن تدابير مؤتمر فيينا بعد عشر سنوات جعلته من مواطنى بيدمونت بشكل تلقائى، ورغم أنه درس الطب والقانون على نحو عابر، كانت فكرة التجديد الإيطالى مسيطرة عليه منذ الدراسة الجامعية، لدرجة أنه

اعتقل لفترة قصيرة، ثم نفى إلى مرسيليا فى فبراير 1831 نتيجة نشاطه الثورى، وبقى منفيًا طوال حياته حيث عاش هناك وفى لندن.

عندما جاء إلى مرسيليا، كان أن أسس ماتزينى الحركة التى أطلق عليها la giovine Italia (إيطاليا الفتاة)، وكما كان اسمها يدل عليها، كانت موجهة حصريًا لمن هم تحت الأربعين من العمر، فى محاولة لتنمية وعيهم القومى؛ لتصبح بعد ذلك "رابطة قومية إيطالية كبرى" ذات هدف معلن، وهو تحرير إيطاليا عن طريق الثورة إذا لزم الأمر. حققت الرابطة نجاحًا فوريًا، ففى غضون عامين من تأسيسها كان عدد أعضائها قد بلغ عضوًا. أصدرت الرابطة مطبوعة دورية - كانت تحمل اسم الرابطة نفسه - صدر منها ستة أعداد فى عاميها الأولين: كان ذلك إنجازًا لا يستهان به، فقد كان كل عدد منها يضم مائتى صفحة، كتب معظمها ماتزينى.

بحلول العام 1833، كان ماتزينى جاهزًا للعمل. اجتذبت "إيطاليا الفتاة" عددًا كبيرًا من شباب ضباط وجنود جيش بيدمونت، والآن كان يخطط مع صديق طفولته چاكوبو رافينى- Jacopo Raffini لانتفاضات متزامنة فى چنوة وأليساندريا - Alessandria، كان يعتقد أنها سوف تنتشر فى ربوع البلاد للإطاحة بالحكومة، وإسقاط تشارلز ألبرت فى آخر الأمر. من أسف أن الخطة اكْتُشِفَت قبل أن تبدأ تلك الانتفاضات. لم يكن اكتشاف الخطة نتيجة خطأ من أى من المدبرين الرئيسيين لها، ولكن ما حدث هو أن تم إلقاء القبض على شركائهما، وأعدم اثنا عشر منهم رميًا بالرصاص. قطع رافينى أوردته فى السجن.

لم يكن ماتزينى فى خطر مباشر على الحدود الفرنسية، ولكن مارسيليا كانت تعج بعملاء بيدمنتو، فأسرع بالمغادرة إلى چنيڤ ليكون فى مأمن، بعد ثلاث سنوات وبعد عدة مؤتمرات فاشلة، كانت سويسرا قد أصبحت غير آمنة بالنسبة له كذلك، وصل إلى لندن فى يناير 1837 حيث سيقضى الإحدى عشرة سنة التالية لتصبح لندن وطنه الثانى. هنا، سيلقى بنفسه مرة أخرى فى دوامة النشاط المحموم: ينفخ حياة جديدة فى "إيطاليا الفتاة"، ويؤسس مدرسة مجانية للأطفال الإيطاليين، ويصدر جريدة أخرى، ويكتب مئات الرسائل كل يوم للوطنيين الإيطاليين والمنفيين فى العالم - حيث كان قد أصبح هناك الآن لجان ثورية، ليس فى إيطاليا فحسب، بل وفى دول أوروبية أخرى عديدة، إلى جانب الولايات المتحدة وكندا وأمريكا اللاتينية.

كان لديه طاقة على العمل ومثابرة، جعلت من ذلك الإيطالى المتميز شخصية شهيرة فى لندن، بعد سبع سنوات من مجيئه، كان يحظى بشهرة مفاجئة وغير متوقعة، كان

لها فائدة كبيرة بالنسبة لقضيته. فى أوائل 1844، بدأت تساوره الشكوك فى أن رسائله كانت تفتح سرًا قبل تسلمها، الأمر الذى أكدته تجارب قليلة بسيطة، على الفور، شكا لصديق له كان عضوًا فى البرلمان، فقدم بدوره استجوابًا فى مجلس العموم. فى البداية، أنكر السير چيمس جراهام - Sir James Graham وزير الداخلية الاتهام، إلا أنه عند مواجهته بالدليل اضطر للاعتراف بأن مكتبه كان يقوم بالفعل بفتح الرسائل، بطلب من سفير النمسا. الفضيحة التى نجمت عن ذلك (بدأ الناس يكتبون على مظاريف رسائلهم: ممنوع الجرهمة "Not to be Grahamed") لم تسلط الضوء على ماتزينى فحسب، وإنما جعلته كذلك يكتب "رسالة مفتوحة" إلى جراهام يوضح فيها القضية الإيطالية بالتفصيل، كما أن إعادة نشر الرسالة على نطاق واسع، حققت له ما كان يحتاجه من شعبية. كان صديقه توماس كارليل- Thomas Carlyle يرى أن فتح رسائله كان أفضل شىء حدث له.

الرحيل السريع للبابا فاجأ روما. كان الوزير الأول فى الحكومة البابوية جيوسيپى جاليتى- Giuseppe Galletti- وكان صديقًا قديمًا لـ "ماتزينى" وعاد إلى روما بموجب العفو العام وخلف روسى المقتول - أرسل أولًا وفدًا إلى جاييتا لإقناع پيوس بالعودة، وعندما تم رفض مقابلة الوفد، دعا جاليتى لتشكيل مجلس رومانى لوضع دستور، يكون مكونًا من مائتى عضو منتخب يجتمع فى المدينة فى الخامس من فبراير 1849. كان الوقت ضيقًا والحاجة ملحة، وفى الموعد المحدد كان قد جاء 142 عضوًا إلى قصر كانسيلاريا. بعد أربعة أيام، صوت المجلس فى الثانية صباحًا (كانت النسبة مائة وعشرين صوتًا إلى عشرة أصوات وامتناع اثنى عشر عن التصويت) لوضع نهاية للسلطة الزمنية للبابا وتأسيس جمهورية رومانية. لم يكن ماتزينى حاضرًا، أما الشخصية الأكثر هيمنة على كل هذه الأحداث، فكان مغامرًا فى الواحد والأربعين من العمر اسمه جيوسيپى غاريبالدى- Giuseppe Garibaldi

كان غاريبالدى، المولود فى نيس فى 1807 مثل ماتزينى، من پيدمونت، أما نيس فسوف يتم التنازل عنها لفرنسا فى 1860، كان غاريبالدى قد بدأ حياته المهنية تاجر بحر، وكان قد أصبح عضوًا فى "إيطاليا الفتاة" فى 1833. وكرجل أفعال كعادته، تورط فى العام التالى فى تمرد فاشل - أحد الحركات الفاشلة الكثيرة فى تلك السنوات الباكرة - وصدرت مذكرة بالقبض عليه. تمكن من الهرب إلى فرنسا فى الوقت المناسب، وفى الوقت نفسه كان قد حكم عليه غيابيًا فى تورين بالإعدام متهمًا بالخيانة، بعد فترة قصيرة من العمل فى البحرية التجارية الفرنسية، التحق ببحرية باى تونس، الذى عرض عليه

منصب القائد العام للأسطول، رفض العرض وأبحر أخيرًا فى ديسمبر 1835 كوكيل ثان للربان، على سفينة شراعية فرنسية كانت متجهة إلى أمريكا الجنوبية، هنا سيمضى الاثنى عشر عامًا التالية، الأربعة الأولى منها يحارب فى صفوف دولة صغيرة كانت تحاول - دون نجاح - التحرر من السيطرة البرازيلية، خرج بصعوبة فى 1841 إلى مونتڤيديو- Montevideo هو وصديقته البرازيلية أنيتا ريبيرو دا سلڤا- Anita Ribeiro da Silva؛ حيث عين على الفور مسؤولًا عن بحرية أوروجواى، وقيادة رابطة من الإيطاليين المنفيين، أوائل جماعة القمصان الحمراء - Red Shirts، التى سيرتبط اسمه بها فيما بعد - بعد انتصاره فى معركة سانت أنتونيو- Sant, Autonio البطولية (وإن كانت غير مهمة) فى 1846، امتدت شهرته إلى أوربا. الآن، كان قد أصبح ثائرًا محترفًا، سوف تضعه خبرته فى حرب العصابات فى المكان الذى يليق به فى القادم من السنوات.

بمجرد أن سمع غاريبالدى بثورات 1848، جمع ستين عضوًا من "القمصان الحمراء" واستقلوا السفينة التالية عائدين إلى إيطاليا. بعد أن رفضت عروضه الأولى للحرب لصالح البابا، ثم لصالح پيدمونت - كان تشارلز ألبرت لم ينس بعد أنه كان تحت حكم بالإعدام - اتجه إلى ميلان؛ حيث كان ماتزينى قد وصل بالفعل، ودخل المعمعة على الفور. تجاهل الهدنة التى تلت هزيمة تشارلز ألبرت فى كاستوزا، وواصل حربه الخاصة ضد النمساويين، وفى آخر أغسطس لم يكن أمامه سوى أن ينسحب إلى سويسرا أمام التفوق العددى الذى كان يواجهه، سيمضى هناك الأشهر الثلاثة التالية مع أنيتا، ولكنه عندما يسمع بفرار البابا، سيهرع فورًا مع جماعة من المتطوعين الذين يعملون معه إلى روما، وهناك سينتخب عضوًا فى مجلس النواب الجديد، وكان هو الذى اقترح رسميًا ضرورة أن تكون روما منذ ذلك الحين جمهورية مستقلة.

المدهش أن ماتزينى لم يكن موجودًا أثناء تلك الأحداث المثيرة. واصل رحلته من ميلان إلى فلورنسا - التى كان الدوق ليوپولد الأكبر قد غادرها على عجل - على أمل عقيم، بإقناع الحكومة بأن تعلن الجمهورية وتتحد مع جمهورية روما، وفى أوائل مارس كان أن شق طريقه - لأول مرة - إلى العاصمة الجديدة؛ حيث كان ينتظره مقعد فى مجلس النواب، وكما كان متوقعًا، تم استقباله استقبال الأبطال، ودعى للجلوس على يمين الرئيس.

كان من سوء الحظ أن يختار ملك پيدمونت تلك اللحظة ليعلن انتهاء الهدنة التى كان قد تم توقيعها قبل سبعة أشهر، ويستأنف حربه ضد النمسا، أما لماذا فعل ذلك، فيظل

لغزًا غير مفهوم، ربما كان يخشى عصيانًا آخر وأن يفقد عرشه، والأكثر احتمالًا أنه كان يرى نفسه بطل إيطاليا ومحررها، من هنا كان إصراره على عدم السماح بأن تكون هزيمة كاستوزا نهاية لتاريخه العسكرى، كانت الهزيمة قد أظهرت له أنه لم يكن قائدًا عسكريًا، وفى المرحلة الثانية من الحرب، بينما كان يحتفظ بالقيادة الاسمية، كان قد أسند القيادة الفعلية لشخص بولندى يدعى ڤوچتيك كرزانوڤسكى Wojtiech Chrza-nowski، كان محاربًا محنكًا فى حروب نابوليون.

لا شك فى أن يكون كرزانوڤسكى قد بذل كل ما فى وسعه، ولكنه لم يكن چنرالًا أفضل من رئيسه، بعد أقل من أسبوعين من استئناف الحرب وجد أبناء بيدمونت أنفسهم فى مواجهة راديتسكى فى نوڤارا - Novara، التى تبعد نحو ثلاثين ميلًا غربى ميلان، ومثلما كان الوضع فى كاستوزا، لم يكونوا ندًّا للنمساويين الذين كانوا أكثر عددًا بفارق ضئيل، ولكنهم كانوا أكثر انضباطًا واحترافًا، أبدى تشارلز ألبرت شجاعة نادرة، وكان يتحرك بجسارة ودون خوف فى الميدان بينما تدوى من حوله الطلقات من كل اتجاه. نجا من الموت ولم يصب بأذى، ولكن قواته هزمت وخسروا المعركة. مدينة واحدة هى بريشيا- Brescia، صمدت أيامًا قليلة، ولكن سرعان ما هزمت بدورها أمام الچنرال النمساوى چوليوس ڤون هاينو- Julus von Haynau بكل وحشيته وضراوته التى كان معروفًا بها.[2] تنازل تشارلز ألبرت عن العرش لابنه ڤيكتور إيمانويل- Victor Emmanuel دوق ساڤوى، معلنًا أنه لم يكن يستطيع مواجهة توقيع هدنة جديدة، بعد أن سُمح له بالمرور كمواطن عادى عبر الخطوط النمساوية، لجأ إلى أوپورتو- Oporto ليموت هناك بعد أربعة أشهر، ربما بسبب أزمة قلبية.

** ** **

كثيرًا ما كان جيوسيپى ماتزينى يظن أن روما الإمبراطورية وروما البابوية لا بد من أن تتبعهما روما ثالثة: روما الشعب. الآن، كان الحلم قد أصبح حقيقة. كان مجلس النواب قد وضع الجمهورية الجديدة بين أيدى حكومة ثلاثية، كان هناك تجاهل فعلى لاثنين من أعضائها. الآن، كان ماتزينى هو الحاكم الفعلى والمطلق، لروما. لم يكن الدكتاتور الأول ولن يكون الأخير، ولكن يمكن القول: إنه لم يكن له مثيل، فى مكتبه الصغير الضيق فى قصر الكويرينال، كان بإمكان أى شخص أن يصل إليه، كان يتناول طعامه كل يوم فى نفس المطعم الإيطالى الرخيص الذى اعتاد الذهاب إليه، تبرع براتبه الشهرى (32 ليرة) للأعمال الخيرية. الآن، كذلك، كان ذلك الداعية الديماجوجى قد أصبح إداريًا متقنًا لعمله، ألغى عقوبة الإعدام، أدخل الاقتراع العام للذكور، أعلن الحرية الكاملة للصحافة،

وأعاد النظام للدول البابوية التى كانت قد أصبحت نهبًا للمتطرفين الجمهوريين. كان بلا شك بإمكانه أن يفعل أكثر من ذلك، إلا أنه كان يعرف أنه كان يسابق الزمن: قال أمام مجلس النواب: "لا بد من أن نعمل كرجال يرون العدو على أبوابهم، وفى الوقت نفسه كرجال يعملون من أجل الخلود"، لم يكن يقول أكثر من الحقيقة. فى أوائل أبريل، كانت هناك أخبار من باريس تنذر بالسوء، كان هناك حملة فرنسية قد بدأت زحفها، قادمة على الطريق.

فى الثامن عشر من فبراير، كان البابا بيوس فى جاييتا، قد تقدم بمناشدة رسمية لكل من فرنسا والنمسا وإسبانيا ونابولى للمساعدة، لن يكون بين تلك القوى الأربع من سيتخلى عنه؛ ولكن الخطر الأعظم بالنسبة لماتزينى كان فرنسا - التى ستكون استجابتها متوقفة على طبيعة جمهوريتها الجديدة، وبخاصة على الأمير لويس نابوليون - Louis Napoleon رئيسها المنتخب الجديد. قبل نحو عشرين سنة، كان الأمير متورطًا فى مؤامرة ضد البابوية، وتم طرده من روما، التى كان ما زال يحمل ضغائنه لها. من ناحية أخرى، كان منذ نوفارا، يمكنه أن يرى النمسا أكثر قوة فى إيطاليا، منها فى أى وقت آخر، فكيف يمكن أن يفكر فى إمكانية قدوم النمساويين الآن إلى الجنوب ويعيدون البابا بشروطهم؟ إذا لم يقم هو بإجراء ما، فإن ذلك ما سوف يقومون به. لم يكن لديه شك فى ذلك.

بناء على ذلك أصدر أوامره. فى الخامس والعشرين من أبريل 1849، رسا الجنرال نيكولاس أويدينو- Nicholas Oudinot، ابن أحد مارشالات نابوليون - فى شيڤيتاڤيكيا، على رأس قوة مكونة من نحو تسعة آلاف مقاتل، وبدأ مسيرة الأربعين ميلًا نحو روما. كان منذ البداية واقعًا تحت سوء فهم. كان قد أصبح يعتقد أن الجمهورية كانت مفروضة من قبل مجموعة من الثوار، على شعب كارهٍ لها، وأنها سوف تسقط فى وقت قصير، وأنه ورجاله سيكونون محل ترحيب باعتبارهم محررين. كانت أوامره هى عدم إعطاء الحكومة الثلاثية أو المجلس أى اعتراف رسمى، وإنما القيام باحتلال المدينة سلميًا... ودون طلقة واحدة إن أمكن.

كانت هناك مفاجأة فى انتظارة، رغم أن أهالى روما لم يكن لديهم أمل كبير فى الدفاع عن مدينتهم ضد جيش مدرب جيد التجهيز، كانوا مستعدين للقتال، كانت قواتهم الخاصة مكونة من القوات البابوية النظامية، والكارابنييرى،[3] وهى قوة خاصة ضمن الجيش الإيطالى كانت تقوم بمهام الشرطة، والحرس الوطنى المكون من نحو ألف جندى، وقوات المتطوعين التى شكلت فى المدينة من نحو 1400 فرد، والجماهير نفسها التى

كان يمكن أن تستخدم كل ما يتيسر لها من أسلحة، ولكن الأعداد الكلية كانت ما زالت قليلة جدًا، ولذلك كانت فرحتهم كبيرة عندما دخل غاريبالدى المدينة، على رأس فيلق من 1300 مقاتلًا كان قد جمعهم فى «روماجنا – Romagna».[4] بعد يومين، كانت هناك قوة من «بيرسجلييرى – Bersaglieri»[5] لومبارديا، بقبعاتهم المميزة ذات الحواف العريضة المزينة بريش الديكة الأخضر، كانت أعداد المدافعين تتزايد، ولكن التفوق كان ما زال فى غير صالحهم، وكانوا يعرفون ذلك.

وقعت المعركة الأولى للاستيلاء على روما فى الثلاثين من أبريل، كان جهل أودينو وعدم إدراكه سببًا فى إنقاذ الموقف، لم يكن قد أحضر معه مدافع للحصار ولا سلالم لتسلق الأسوار، وعندما كانت قواته تتقدم نحو الڤاتيكان وتل چازيكلوم، استقبلته نيران وانفجارات، وهنا فقط بدأ يدرك موقفه، بعدها هجم عليه فورًا فيلق غاريبالدى، وتبعه حملة الرماح من البيرسجلييرى. حارب هو ورجاله لمدة ست ساعات بكل قوتهم، إلا أنهم بحلول المساء اعترفوا بهزيمتهم، وانسحبوا عائدين إلى شيفيتاڤيكيا. فقدوا خمسمائة مقاتل بين قتيل وجريح، وأسر منهم 365 فردًا، ولكن ربما يكون ما لحق بهم من عار، هو أسوأ ما فى القصة.

فى تلك الليلة، كانت روما كلها فى حالة من الفرح الغامر، إلا أن الكل كان يعرف أن الفرنسيين لا بد أن يعودوا، كان الفرنسيون قد أدركوا أن روما أقوى مما كانوا يتوقعون، وبالرغم من ذلك كانوا مصممين على كسر شوكتها، بعد أقل من شهر، كان غاريبالدى خلال ذلك الوقت، قد زحف هو وفيلقه وقوات البيرسجلييرى جنوبًا لمواجهة جيش قادم من ناپولى، وطردوه من أراضى الجمهورية بسهولة – كان أودينو قد تلقى التعزيزات التى كان قد طلبها؛ وبواسطة ألف مقاتل من ورائه وتسليح أفضل من ذى قبل، كان أن زحف على روما فى الثالث من يونيو، للمرة الثانية.

متقدمًا من الغرب، كانت أهدافه الأولى هى «ڤيللا پامفيلى Villa Pamfili» و"ڤيللا كورسينى – Villa Corsini" على تل جانيكلوم. بنهاية اليوم كانت الاثنتان فى يده بكل أمان، ومدافعه رابضة فى مواقعها، كانت روما قد أصبحت بالفعل على وشك السقوط. ظل المدافعون عنها يحاربون بكل بسالة لمدة شهر تقريبًا، ولكن فى صباح الثلاثين من يونيو، كان ماتزينى يخاطب المجلس. كان هناك، كما قال لهم، ثلاثة احتمالات: الاستسلام، أو مواصلة القتال والموت فى الشوارع، أو اللجوء إلى التلال ومواصلة النضال. قرب منتصف النهار، ظهر غاريبالدى يغطيه التراب وقميصه الأحمر غارق فى الدم والعرق، كان قد حسم أمره. الاستسلام غير وارد، وقتال الشوارع – كما قال

– كان مستحيلًا، وعند التخلى عن منطقة "تراستيڤير – Trastevere"،[6] كما سيكون ذلك ضروريًا، سوف تتمكن المدافع الفرنسية من تدمير المدينة بكل سهولة. التلال إذن هى الحل، وكما قال: «حيثما نكون، ستكون روما».[7]

الغريب أن أغلبية النواب لم يوافقوا واختاروا خيارًا رابعًا: عدم الاستسلام، ولكن مع إعلان وقف إطلاق النار والبقاء فى روما. كان ذلك مسارًا يبدو أنه لم يكن قد ورد على ذهن ماتزينى، وعلى أية حال وافق فى آخر الأمر أن يتبناه بنفسه. كان الفرنسيون الذين باتوا يعتقدون أنه كان طاغية وكان مكروهًا، كانوا مدهوشين لرؤية رجل كذلك يسير فى الشوارع دون خوف، ويحييه الناس باحترام أينما يذهب، لدرجة أنهم لم يكونوا يجرؤون على إلقاء القبض عليه، ولكن ماتزينى كان يعرف جيدًا أنه حتى وإن بقى حرًا طليقًا، سيكون بلا حول ولا قوة. بعد أيام انسل إلى لندن. كان يقول: إيطاليا بلدى، ولكن إنجلترا بيتى... إن كان لى بيت!»

فى الوقت نفسه، كان غاريبالدى يطلب متطوعين. «ليس عندى أجر ولا طعام ولا مأوى، عندى الجوع والعطش والزحف القسرى والقتال والموت، فليتبعنى من يحب وطنه بقلبه وليس بشفتيه فحسب». هرع نحو أربعة آلاف شخص للانضمام إليه، وبعد شهر تقريبًا، كانوا قد انسحبوا إلى جمهورية سان مارينو- San Marino الصغيرة، وهناك تفرق الجمع، ومن هناك غادر غاريبالدى وأنيتا وعدد قليل من أتباعه المخلصين إلى ڤينيسيا، الجمهورية الإيطالية الوحيدة التى كانت ما زالت تقاتل من أجل البقاء.

من أسف أن السفينة التى أبحروا عليها اعترضت سبيلها سفينة حربية نمساوية، وأُجبر غاريبالدى على النزول منها فى منطقة بعيدة عن الساحل، تعرف الآن بـ پورتوغاريبالدى، وقبل أن يتمكن من الوصول إلى البحيرة الڤينيسية ماتت حبيبته أنيتا بين ذراعيه. مؤقتًا، ضعفت حماسته ووهنت روحه. مرة أخرى غادر إيطاليا ليصل إلى نيويورك بعد أسابيع قليلة... لكى تبدأ المرحلة الثانية من منفاه الأمريكى.

** ** **

حتى لو كان غاريبالدى قد تمكن من الوصول إلى ڤينيسيا، لما استطاع أن يصنع الكثير. على مدى الشتاء السابق كله، وبالرغم من حصار نمساوى متقطع، كان دانييل مانن قد ركز كل جهده على بناء جيش قوى، وهى المهمة التى أوكلها للجنرال پيپى، الذى أعلن بكل فرح عن استعداده لتقديم حياته فداء لإيطاليا ولجمهورية ڤينيسيا. وباعتباره أحد أبناء كالابريا، أثبت پيپى قدرته على تجنيد عدد كبير من الضباط والجنود السابقين

فى جيش نابولى، وبحلول أوائل أبريل 1849، كانت النتيجة قوة منظمة من نحو عشرين ألف مقاتل، الأمر الذى شجع المجلس وملأه ثقة لكى يصدر مرسومًا بطوليًا: "ڤينيسيا سوف تقاوم أيًا كان الثمن، وبهذا الهدف قد تم منح الرئيس مانن سلطات بلا حدود".

استمر الحصار حتى مايو 1849، عندما قبل القائد النمساوى أخيرًا فكرة استحالة تطويق بحيرة يبلغ محيطها نحو تسعين ميلًا، بينما تحتاج مدينة يبلغ تعدادها نحو مائتى ألف نسمة إلى وقت طويل لكى تتضور جوعًا، فلم يكن أمامه سوى ضرب حصار عسكرى كامل حولها. كان الهدف الأول هو قلعة مالجيرا- Malghera (مارجيرا- Marghera الآن)، الواقعة عند نهاية جسر السكة الحديد، بعد قصف استمر ثلاثة أسابيع استسلمت، إلا أن الجسر نفسه مع عدد كبير آخر من الحصون المؤقتة على امتداده ظلت صامدة إلى حد ما. فى وقت باكر من شهر يوليو، كانت هناك فكرة عادية لدى النمساويين لمحاولة إلقاء قنابل على ڤينيسيا من أسطول من بالونات ضخمة، إلا أن التجربة فشلت تمامًا، وأعطت أهالى ڤينيسيا مادة للسخرية على الأقل، ولكنهم لم يكن لديهم أكثر من ذلك. أدى الحصار إلى نقص شديد فى المواد الغذائية، وبمرور الشهر وجدوا أنفسهم على حافة مجاعة. حتى السمك - المنتج الڤينيسى الرئيسى - كان قد أصبح شحيحًا؛ حيث كانت الكمية التى تنتجها البحيرة غير كافية لسد رمق الأهالى، تم تقنين حصص الخبز، إلا أن الأمر استمر فى التدهور. فى الثامن والعشرين من يوليو، سأل مانن رسميًا أعضاء المجلس، ما إذا كان بإمكان ڤينيسيا أن تستمر فى المقاومة أكثر من ذلك، ولكن مستمعيه كانوا مصرين على القتال حتى النهاية.

بدأ قصف المدينة بلا هوادة ليلة التاسع والعشرين، كان التركيز على الجزء الغربى منها، ربما لأن المدافع النمساوية، حتى عند رفعها إلى أعلى مسقط رأسى، لم يكن مداها يصل إلى ما هو أبعد من ذلك، ولحسن الحظ أن كان الميدان الرئيسى خارج المرمى المؤثر، من حسن الحظ كذلك أن معظم القذائف كانت مجرد كرات وليست قنابل قابلة للانفجار، كان النمساويون عادة يقومون بتسخينها لدرجة كبيرة قبل إطلاقها إلا أنه لم يكن هناك أفران تكفى لذلك، وكان من السهل التعامل مع النيران الصغيرة الناجمة عنها من قبل فرق الإطفاء فى المدينة، التى كانت تضم الآن دانييل مانن كأحد أعضائها.

ولكن ضراوة القصف على مدى الأسابيع الثلاثة ونصف الأسبوع التالية كان لها أثرها الكبير فى الروح المعنوية لأهالى المدينة، التى كانت قد سقطت فى ذلك الوقت فريسة لأكبر بلاء وهو الكوليرا، بنهاية يوليو كان الوباء قد انتشر فى أرجاء المدينة، وبسبب حرارة الجو زاد الأمر سوءًا وبخاصة فى منطقة "كاستيللو - Castello"،

المزدحمة فى الجزء الشرقى، وكان معظم المعرضين للخطر فى الجزء الغربى قد فروا إليها، لم يكن حفارو القبور قادرين على ملاحقة أعداد الموتى - علمًا بأن الدفن عملية صعبة فى فينيسيا بطبيعة الحال - وكانت الجثث التى تنتظر الدفن تبقى مكدسة فى سهل كاتدرائية "سان بيترو دى كاستيللو S. Pietro di Castello" القديمة فى ڤينيسيا، وكما يروى، كانت الرائحة خانقة.

كان من الواضح أن النهاية قد اقتربت، فى التاسع عشر من أغسطس انطلق جندولان إلى "ميستر – Mestre" رافعين الرايات البيضاء، وبعد ثلاثة أيام، كان قد تم التوصل إلى اتفاق، كانت الشروط النمساوية متساهلة على نحو مثير للدهشة، كان مطلبهم الرئيسى أن يغادر ڤينيسيا فورًا كل الضباط والجنود الإيطاليين من رعايا الإمبراطورية الذين حاربوا ضدها، بالإضافة إلى طرد أربعين من القيادات الڤينيسية، فى السابع والعشرين من أغسطس احتل النمساويون المدينة، وفى ذلك المساء نفسه أبحرت السفينة الفرنسية "بلوتون – Pluton" من "جيوديكا – Giudecca"، حاملة ججليملو بيپى ونيكولو توماسيو ودانييل مانن، مع سبعة وثلاثين آخرين.

استقر مانن وزوجته وابنته فى پاريس؛ حيث كان يكتب المقالات للصحف الفرنسية ويعطى دروسًا فى الإيطالية، كان آنذاك قد تخلى عن مثله الجمهورية، إلا أن أنظاره قد بقيت، مثل ماتزينى، على توحيد بلاده، كتب: "إننى مقتنع بأن واجبنا الأول هو أن نجعل إيطاليا حقيقة... الحزب الجمهورى يعلن لبيت ساڤوى: إذا صنعتم إيطاليا فنحن معكم، وإن لم... فلسنا معكم"، مات فى پاريس فى الثانى والعشرين من سبتمبر 1857 وكان فى الثالثة والخمسين، بعد إحدى عشرة سنة أعيد رفاته إلى ڤينيسيا ليوضع فى مقبرة تم تصميمها خصيصى مقابل السور الشمالى لكنيسة سان مارك. أمام منزله فى كامپو سان پاتيرنيان Campo S.paternian سابقًا (الآن كامپو مانن) يربض أسد ضخم من البرونز يهز ذيله فى غضب.

** ** **

هل ضاعت الكوارانتوتو هباء؟ بحلول خريف 1849 كان الأمر يبدو كذلك. كان النمساويون قد عادوا إلى روما محتلة من الفرنسيين، وفى ناپولى كان "الملك بومبا - King Bomba" قد مزق الدستور ليجمع فى يده- مرة أخرى- سلطة مطلقة؛ فلورنسا ومودينا وپارما- وكانت كلها تحت حماية النمسا- كانت كلها تقريبًا فى نفس الوضع. فى شبه الجزيرة كلها، لم يكن قد تبقى حرًّا سوى پيدمونت، ولكن پيدمونت كانت قد تغيرت هى الأخرى، كان تشارلز ألبرت الممشوق القوام، الوسيم، المثالى، قد مات. ابنه

إيمانويل كان قصير القامة غليظ الجسم وقبيحًا. كان كل همه - أو هكذا كان يبدو- الصيد والنساء، إلا أنه كان أكثر ذكاء مما يدل عليه مظهره، وبالرغم من خجله وارتباكه عندما يكون وسط الآخرين، لم يكن ينقصه الكثير من الناحية السياسية، من الصعب تصور الريزورجيمنتو بدونه.

إلا أن ڤيكتور إيمانويل كان يمكن أن يسقط، لولا الوزير الأول لديه كاميللو كاڤور، الذى خلف ماسيمو دازيجليو - Massimo d'Azeglio، المقاوم القوى للإكليروس، فى أواخر 1852، وبقى متنفذًا، مع فترات انقطاع قصيرة على مدى السنوات التسع التالية، وهى السنوات التى كانت بالغة الأهمية بالنسبة لإيطاليا، كان مظهر كاڤور خادعًا مثل مظهر رئيسه. كان قصير القامة، عظيم البطن، بشرته مليئة بالبثور، خفيف الشعر، جاحظ العينين، رث الثياب دائمًا، لا يترك انطباعًا جيدًا عند من يلتقيه لأول مرة ولا يثير فيه أى درجة من الإعجاب بشخصيته. من ناحية أخرى كان ذهنه أشبه بسيف ذى حدين، يقع الكثيرون تحت سحره بمجرد أن يشرع فى الكلام. داخليًا، واصل برنامج دازيجليو فى الإصلاح الإكليروسى – وغالبًا تحت معارضة شديدة من ملك كاثوليكى ورع – وبينما كان يفعل كل ما فى وسعه لتقوية الاقتصاد، كانت سياسته الخارجية موجهة فى الوقت نفسه نحو حلمه بإيطاليا موحدة، وپيدمونت على رأسها.

إلا أننا قد نتساءل: ما علاقة قضية إيطاليا الموحدة بحرب القرم – Crimean War، التى تحالفت فيها بيدمونت مع القوى الغربية فى يناير 1855؟ كان لدى كاڤور عدة أسباب. قبل كل شىء كان يعرف أن بريطانيا وفرنسا كانتا تريدان جر رجل النمسا إلى الحرب، وهو ما قد يؤدى بدوره إلى تحالف فرنسى – نمساوى طويل المدى يمكن أن يقضى على فرصه لإنهاء الوجود النمساوى فى شبه الجزيرة، ومن ناحية أخرى إذا استطاعت إيطاليا أن تظهر للعالم روحها القتالية، فإن تلك الفرص سوف تزداد بنفس الدرجة. كلما كان مجدها العسكرى أعظم، يصبح الأكثر ترجيحًا أن تأخذ بريطانيا وفرنسا طموحاتها على محمل الجد، لم تكن التجربة ناجحة تمامًا. سيحارب أبناء پيدمونت معركة واحدة فحسب، وهى غير مهمة نسبيًا. قُتِل ثمانية وعشرون منهم وهو عدد قليل مقارنة بالألفين الذين قضوا فى الكوليرا فى نهاية العام؛ مما يدعو للغيظ كذلك أن تهديد النمسا بدخول الحرب كان هو الذى أقنع الروس بأن يلتمسوا السلام، ولكن إذا كانت پيدمونت قد فشلت فى أن تكون مؤثرة فى ميدان القتال، فقد كسبت على الأقل دعوات لـ ڤيكتور إيمانويل ليقوم بزيارات رسمية للملكة ڤيكتوريا – Queen Victoria ونابوليون الثالث[8] – Napoleon III فى ديسمبر 1855، كما حصلت

على مقعد، على طاولة السلام فى باريس بعد ذلك بشهرين، بالإضافة إلى ذلك، كان فى إطار محادثاته مع الفرنسيين فى ذلك الوقت أن بدأ كافور يعلل النفس بأمل جديد مثير، وهو أن نابوليون الثالث بعد سياساته السابقة غير المفيدة، ربما يكون مستعدًا الآن للمساعدة فى طرد النمساويين، وهو الأمر الذى كان قد طال انتظاره.

لعلها حقيقة غريبة أن يبدو ما جعل الإمبراطور يحمل السلاح نيابة عن إيطاليا، هو مؤامرة من جانب وطنيين إيطاليين لاغتياله، وقعت المحاولة فى الرابع عشر من يناير 1858 عندما كان هو والإمبراطورة فى طريقهما لحضور عرض لأوبرا "وليم تل – William Tell"، عندما ألقيت قنابل على عربتهما. لم يصب أيهما بسوء بالرغم من وقوع خسائر بين المرافقين وبعض شهود الحادث، كان قائد المتآمرين "فيليس أورسينى – Felice Orsini" جمهوريًا معروفًا، وأحد المشاركين فى عدد من المؤامرات السابقة، بينما كان فى سجنه فى انتظار محاكمة، كتب رسالة للإمبراطور، قُرِئتْ فيما بعد فى جلسة علنية ونشرت فى الصحافة الفرنسية وفى بيدمنتو. كان ختام الرسالة عبارة تقول: "تذكر أنه طالما كانت إيطاليا غير مستقرة، فإن سلام أوروبا وسلام سموك يظلان حلمًا فارغًا... أطلق سراح بلادى وسوف تتبعك بركات شعب من خمسة وعشرين مليون نسمة فى كل مكان.. وإلى الأبد".

رغم فشل تلك العبارات النبيلة فى إنقاذ أورسينى من يد كتيبة الإعدام، يبدو أنها ظلت فى ذهن نابوليون الثالث، الذى توصل فى منتصف صيف 1858 إلى فكرة تعاون مشترك لطرد النمساويين من شبه الجزيرة الإيطالية مرة وإلى الأبد، إلا أن دوافعه لم تكن مثالية تمامًا، صحيح أنه كان يكن حبًا حقيقيًا لإيطاليا، وكان يسعده أن يقدم نفسه للعالم باعتباره محررها، إلا أنه كان يعرف كذلك أن منزلته وشهرته كانتا فى سبيلهما إلى الزوال، كان يدرك كذلك أنه فى حاجة إلى حرب بأى شكل، وأن حربًا مضمونة كتلك، ستعيد له المنزلة والشهرة، وأن النمسا كانت هى العدو الوحيد المتاح لذلك. كانت الخطوة التالية هى أن يناقش هذه الإمكانيات بوضوح مع كافور، وفى يوليو 1858 التقى الاثنان سرًا فى منتجع "پلومبيير – لى بان – Plombieres – les – Bains" فى فوزكس – Vosges"؛ حيث تم التوصل إلى اتفاق بسرعة، ستقوم بيدمونت بتدبير نزاع مع "دوق مودينا – Duke of Modena"، وترسل قوات بزعم أن ذلك تم بناء على طلب من الأهالى، ستكون النمسا ملتزمة بدعم الدوق، وتعلن الحرب، بعد ذلك ستلجأ بيدمونت إلى فرنسا وتطلب مساعدتها، وفى مقابل ذلك سوف تتنازل لفرنسا عن كونتية سافوى ومدينة نيس، وحيث إن الأخيرة (نيس) كانت مسقط رأس غاريبالدى، فقد كانت

دواء مرًا بالنسبة لـ كاڤور، إلا أن تجرعه كان ضروريًا، إذا كان ثمنًا للتحرير.

تصديقًا على هذا الاتفاق، اتفق الرجلان كذلك على زواج بين السلالتين: يتم تزويج الأميرة "كلوتيلد – Clotilde"، الابنة الكبرى لڤيكتور إيمانويل، من الأمير ناپليون ابن عم الإمبراطور، بمجرد إعلان هذه الخطبة أصاب الفزع عددًا كبيرًا من الناس وبخاصة فى پيدمونت، كانت الأميرة فى الخامسة عشرة، شديدة الذكاء والجاذبية، أما خطيبها فكان معروفًا فى كل مكان بفسقه وغرابة أطواره، وكان فى السابعة والثلاثين من العمر، لم يخف ڤيكتور إيمانويل، الذى لم يستشره أحد سابقًا - استياءه، وترك القرار النهائى لـ كلوتيلد نفسها، وافقت الأميرة على إتمام الزواج بما يوحى بشعورها بالواجب، وكان مفاجئًا للجميع أن يكون زواجًا سعيدًا.

** ** **

كان الزفاف فى آخر يناير 1859، بينما كانت فرنسا وپيدمونت تستعدان للحرب بكل نشاط وعلى نحو واضح، بعد ذلك، سرعان ما كان هناك إعادة نظر من قِبَل ناپوليون فى المسألة برمتها – ولم يكن ذلك على هوى كاڤور، الذى كان يدرك تمامًا أن بلاده لن تستطيع أن تتصدى للنمسا بمفردها، الأسوأ أن بريطانيا وبروسيا وروسيا كانوا يتحدثون الآن عن مؤتمر دولى محتمل، من المؤكد أن يتضمن نزع سلاح پيدمونت طوعًا. باختصار، كان كاڤور يعرف أنه فى مواجهة كارثة، ما أنقذه فى اللحظة الحرجة كان النمسا نفسها، التى أرسلت إنذارًا إلى تورين - Turin فى الثالث والعشرين من أبريل، طالبة نزع السلاح ذاك فى غضون ثلاثة أيام. الآن، كانت النمسا قد كشفت عن أنها هى المعتدى، لم يعد ناپوليون يأمل فى التملص من التزاماته.. ولم يحاول. أمر بتعبئة الجيش الفرنسى فورًا، سيدخل جزء من قواته التى تضم مائة وعشرين ألف مقاتل إيطاليا عبر جبال الألپ، بينما يذهب الجزء الآخر إلى جنوة بحرًا.

كان كاڤور يعرف تمامًا أن ذلك كله يتطلب وقتًا، وفى الوقت نفسه كان النمساويون قد بدؤوا زحفهم، لمدة أسبوعين على الأقل، سيكون على أهالى پيدمونت وحدهم أن يواجهوا النمسا، وكان ذلك توقعًا مخيفًا، ولحسن الحظ كان هناك ما أنقذه مرة أخرى – كان الإنقاذ هذه المرة بسبب أمطار غزيرة، والخلاف على الإستراتيجية بين القيادات النمساوية، أعطى التأخير الناجم عن ذلك فرصة من الوقت للفرنسيين؛ لكى يصلوا بقيادة الإمبراطور شخصيًا، الذى رسا فى جنوة فى الثانى عشر من مايو، وكانت تلك هى المرة الأولى فى حياته التى يتولى فيها قيادة جيشه بنفسه. كان أن وقعت المعركة الحاسمة االأولى فى الرابع من يونيو عند "ماجنتا – Magenta"، وهى قرية صغيرة

تقع على بعد أربعة عشر ميلًا تقريبًا إلى الغرب من ميلانو؛ حيث هزم الجيش الفرنسى جيشًا نمساويًّا من خمسين ألف مقاتل. كان الجيش الفرنسى يقاتل تحت قيادة الچنرال ماريا – پاتريس دى مكماهون – "Marie – Patrice de Macmahon"، الذى رقاه ناپوليون مكافأة على انتصاره إلى رتبة الماريشال، وعينه دوقًا على ماجنتا، كانت الخسائر فادحة على كلا الجانبين، وكان يمكن أن تكون أكثر من ذلك، لو أن أبناء پيدمونت لم يصلوا متأخرين بعد انتهاء المعركة، وكان تأخرهم بسبب تردد قائدهم، إلا أن هذه المحنة لم تمنع ناپوليون وڤيكتور إيمانويل من دخول ميلان فى موكب نصر بعد أربعة أيام.

بعد ماجنتا، انضم غاريبالدى إلى جيش فرنسا – پيدمونت، وكان قد عاد من أمريكا فى 1854 مملوءًا بحماسته وحيويته القديمة. هذه المرة، كان ڤيكتور إيمانويل قد طلب منه أن يشكل لواء من "صيادى الألب – cacciatori delle Alpi"، وكان قد حقق انتصارًا لافتًا فى "ڤاريس – Varese" قبل نحو عشرة أيام، بعد ذلك تقدم الجيش و"صيادو الألب" معًا؛ ليواجهوا الجيش النمساوى برمته فى الرابع والعشرين من يونيو بالقرب من "سولفرينو – Solferino" جنوبى بحيرة جاردا. المعركة التى نشبت – وشارك فيها ما يزيد عن مائتى وخمسين ألف مقاتل – جرت على نطاق أوسع من أى معركة أخرى منذ "ليپزج – Leipzig" فى 1831. هذه المرة لم يكن ناپوليون هو الملك الوحيد الذى يتولى القيادة: ڤيكتور إيمانويل فعل الشىء نفسه، وكذلك "فرانز جوزيف – Franz Joseph" إمبراطور النمسا (29 سنة)، الذى كان قد خلف عمه فرديناند فى 1848. وحدهم الفرنسيون، هم الذين استطاعوا أن يكشفوا عن سلاح سرى: مدفعية محززة حلزونيًّا زادت من دقة مدافعهم ومن مداها المؤثر.

القتال الذى دار معظمه متلاحمًا بدأ باكرًا فى الصباح، واستمر معظم اليوم، بالقرب من المساء، وبعد أن فقد نحو عشرين ألفًا من جنوده فى المطر الشديد، أمر فرانز چوزيف بالانسحاب عبر نهر "مينسيو – Mincio"، ولكنه كان انتصارًا باهظ التكلفة؛ حيث فقد الفرنسيون والپيدمنتيون من الرجال قدر ما فقد النمساويون، كما أن تفشى الحمى – التيفوس غالبًا – الذى تلا المعركة، راح ضحيته المزيد من كلا الجانبين. تركت مشاهد المذبحة تأثيرها البالغ على شاب سويسرى يدعى "هنرى دونان – Henry Dunant"، تصادف أن كان موجودًا، ونظم حالة طوارئ وخدمات لإسعاف الجرحى. بعد خمس سنوات، وكنتيجة مباشرة لهذه التجربة سيؤسس الصليب الأحمر.

لم يكن دونان وحده هو الذى تأثر بشدة بما شهده فى سولفرينو، كانت صدمة ناپوليون

الثالث شديدة كذلك، وكانت كراهيته للحرب وما جرته من مآس – بالتأكيد – أحد الأسباب التى جعلته يعقد صلحًا منفردًا مع النمسا، بعد مرور أقل من أسبوعين على المعركة، كان هناك آخرون كذلك، مضت الأمور على نحو سيئ بالنسبة للنمساويين، إلا أنهم ظلوا بمأمن فيما كان يعرف بـ "الكوادريليتيرال[9] – Quadrilateral"، الذى كان يضم قلاع "پسكييرا – Peschiera" و"ڤيرونا – Verona" و"ليجنانو – Legnano" و"مانتوا - Mantua"، والتى لم يكن لدى الإمبراطور أى أمل واقعى لإزالتها. كان قلقًا كذلك من رد فعل الألمان، كان التحالف الألمانى – German Con-federation يقوم بتعبئة نحو ثلاثمائة وخمسين ألفًا من المقاتلين الذين كان يمكن أن يقضوا على الخمسين ألف جندى فرنسى، الذين كانوا قد بقوا فى فرنسا.

وأخيرًا، كان هناك الوضع فى إيطاليا نفسها، كانت الأحداث الأخيرة قد أقنعت العديد من الدول الأصغر – وبخاصة توسكانيا وروماجنا ودوقيات مودينا وپارما – بالتفكير فى الإطاحة بحكامهم السابقين، ومحاولة الانضمام إلى پيدمونت، ستكون النتيجة دولة مرعبة على الحدود الفرنسية مباشرة، تغطى كل شمال ووسط إيطاليا تقريبًا: دولة قد تستوعب فى الوقت المناسب بعض أو كل الدول البابوية وربما الصقليتين، هل يمكن أن يكون من أجل ذلك حقًّا، أن دفع من سقطوا فى سولفرينو حياتهم؟

وهكذا، التقى إمبراطورا فرنسا والنمسا فى الحادى عشر من يوليو 1859 فى "ڤيللا فرانكا – Villa Franca" بالقرب من فيرونا، وتقرر مصير شمال ووسط إيطاليا فى خلال ساعة، سوف تحتفظ النمسا بقلعتين من الكوادريليتيرال، هما مانتوا وپسكييرا، ويسلم الباقى من لومبارديا لفرنسا التى ستسلمه بدورها لـ پيدمونت. الحكام السابقون لـ توسكانيا ومودينا سيعودون إلى عروشهم،[10] ويتم تأسيس كونفدرالية إيطالية، تحت الرئاسة الشرفية للبابا ولكنها ستبقى تحت السيادة النمساوية.

لنا أن نتخيل مدى غضب كاڤور، عندما قرأ تفاصيل اتفاق ڤيللا فرانكا، بدون پسكييرا ومانتوا، حتى لومبارديا لن تكون إيطالية بالكامل، أما بالنسبة لوسط إيطاليا، فإن تلك المنطقة كانت قد فُقدت حتى قبل أن يتم استعادتها على نحو صحيح، هو نفسه لن يكون له علاقة بالاتفاق، بعد مقابلة طويلة ومجهدة مع ڤيكتور إيمانويل، قدم كاڤور استقالته. كتب إلى صديق له يقول: «سنعود للمؤامرة»، إلا أنه سينهض من كبوته بالتدريج. على الأقل، لم يكن هناك ذكر فى الاتفاق لقيام فرنسا بضم نيس وساڤوى، وهو ما كان قد عرضه فى «پلومبيير – Plombieres" على مضض، فالوضع الحالى وإن لم يكن كما يتمنى، كان أفضل كثيرًا مما كان عليه قبل عام.

على مر الأشهر القليلة التالية تحسن الوضع؛ حيث اتضح أن توسكانيا ومودينا رفضتا قبول المصير الذى كان مقررًا لهما؛ وأوضحتا أن لا شيء كان يمكن أن يجعلهما تقبلان بعودة حكامهما السابقين. فى فلورنسا وبولوجنا وبارما ومودينا ظهر حكام، كان كل منهم مصرًّا على الاندماج مع بيدمونت، كانت العقبة الوحيدة من قبل بيدمونت نفسها. كانت الشروط التى تم الاتفاق عليها فى ڤيللا فرانكا قد تم تضمينها الآن اتفاقية رسمية وقعت فى زيورخ، ولم يكن الچنرال "ألفونسو لا مارمورا – Alfonso La Marmo-ra"، الذى خلف كاڤور رئيسًا للوزراء، على استعداد لاتخاذ أى إجراء لتحديها. إلا أن الحكام الطغاة كانوا مستعدين تمامًا للانتظار وتحمل الوقت. فلورنسا احتفظت باستقلالها فى الوقت نفسه، روماجنا (التى كانت تتضمن بولوجنا) وبارما ومودينا، اتحدت كلها فى دولة جديدة أطلقوا عليها اسم "إميليا – Emilia"؛ حيث إن نهر "رومان ڤيا أميليا – Roman Via Amelia" يمر بثلاثتهم.

كان كاميللو كاڤور الذى انسحب بعد استقالته إلى عزبته فى ليرى - Leri بالقرب من ڤيرسيللى - Vercelli، كان يتابع تلك التطورات بكل رضا، فاتفاق ڤيللا فرانكا لم يتطور إلى شيء أسوأ على أية حال. عندما استدعاه ڤيكتور إيمانويل فى يناير 1860- بعد بعض تردد -[11] ليرأس حكومة جديدة، كان سعيدًا بعودته إلى تورين، لم يكد يعود إلى منصبه حتى وجد نفسه منجرفًا فى مفاوضات مع ناپوليون الثالث، ولم يتوصل الطرفان إلى اتفاق قبل مرور وقت طويل، ستقوم بيدمونت بضم توسكانيكا وإميليا، وفى مقابل ذلك سيتم التنازل عن ساڤوى ونيس لفرنسا، أجريت عمليات استفتاء فى كل تلك الولايات، وفى كل منها كانت الأغلبية الساحقة مع الترتيب الذى يمكن الاتفاق عليه، ففى إميليا على سبيل المثال كان التصويت 426000 مقابل 1500، وفى ساڤوى 130500 مقابل 235، كانت هناك انفجارات غضب متوقعة من قبل غاريبالدى، إلا أنه لم يكن لديه الكثير ليفعله ضد تلك الأغلبية، ولكن الحقيقة أن المناطق التى كان قد تم ضمها، كانت هى الأكثر سعادة، كانت بيدمونت تكره أن تفقد ساڤوى ونيس، فرنسا عارضت ضم توسكانيا؛ حيث كان الإمبراطور يخشى أن يعطى ذلك قوة كبيرة لبيدمونت على حساب مملكة وسط إيطاليا التى كان يفضلها بقوة؛ النمسا، بصرف النظر عن فقدان لومبارديا، كانت تأسى لرحيل دوق توسكانيا الكبير، ودوق مودينا اللذين كانت تسيطر عليهما بالفعل.

** ** **

كان أحد أقرب رفاق غاريبالدى السياسيين إليه محاميًا من صقلية يدعى فرانسيسكو

كرسپى- Farncesco Crispi. فى سنة 1855 وأثناء فترة نفى فى لندن، كان الرجل كذلك صديقًا لـ ماتزينى، الذى يحلم منذ وقت طويل بغزو صقلية، بعد أربع سنوات، كان كرسپى قد زار صقلية متنكرًا، تحت اسم زانف، وعاد إلى لندن وهو مقتنع بأنها كانت - مرة أخرى - ناضجة للثورة، كان كل المطلوب حملة صغيرة مسلحة لكى تهب الجزيرة كلها، كان السؤال الوحيد هو: ومن يقود هذه الثورة؟ على الفور، قفز إلى الذهن اسم غاريبالدى، إلا أنه كان مترددًا. كان ما زال يرغى ويزبد بسبب ڤيللافرانكا، كان يداعبه شخصيًا حلم آخر: الاستيلاء على نيس وإعادتها إلى پيدمونت.

كان لا بد، على أية حال، من أن تؤجل الأفكار حول نيس لفترة غير محدودة، فى الرابع من أبرايل 1860، كان هناك عصيان عام فى پاليرمو، إذا سار كل شىء بحسب الخطة، كان بالإمكان أن يصحب ذلك انتفاضة فى نفس الوقت بين صفوف الأرستقراطية؛ إلا أن شيئًا ما لم يمض فى طريقه الصحيح. حدث خطأ ما، تم إبلاغ السلطات فى ناپولى سرًا؛ ليجد الثوار والمتمردون أنفسهم مطوقين، حتى قبل أن يخرجوا من منازلهم، من لم يقتل فى الحال، تم إعدامه فيما بعد، هذه العملية، التى كان من المفترض أن تلهم ماتزينى مثل كل العمليات الأخرى، فشلت فشلًا ذريعًا، إلا أنها أطلقت شرارة الكثير غيرها عبر صقلية الشمالية، ولم تكن السلطات تستطيع أن تتصدى لها كلها، كذلك لم تستطع القضاء على الشائعات التى سرت مثل النار فى الهشيم عبر الجزيرة، مضيفة المزيد من الزيت إلى لهب الثورة... بأن غاريبالدى كان قادمًا فى الطريق.

كان الأمر آنذاك مجرد أمنيات أو تفكير مرغوب فيه، إلا أن غاريبالدى عندما سمع الأخبار، تصرف على الفور، رفض كاڤور طلبه تشكيل لواء من جيش پيدمنتو، ولكنه فى غضون أقل من شهر، كان قد كون جماعة من المتطوعين الذين أبحروا من ميناء كوارتو- Quarto الصغير (الآن جزء من چنوة)، ليلة الخامس من مايو 1860؛ ليرسوا دون مقاومة تذكر فى مارسالا - Marsala فى صقلية الغربية يوم الثانى عشر، كانوا يمثلون عينة عريضة من المجتمع الإيطالى، كان نصفهم تقريبًا من المهنيين مثل المحامين والأطباء وأساتذة الجامعات، والنصف الآخر من الطبقات العاملة، كان بعضهم ما زال جمهوريًا، ولكن قائدهم أوضح لهم أنهم لم يكونوا يقاتلون من أجل إيطاليا فحسب، وإنما من أجل الملك ڤيكتور إيمانويل كذلك، وأن ذلك - على أية حال - لم يكن الوقت الملائم للجدال.

من مارسالا، اتجه "الألف" - كما أطلق عليهم رغم أنهم كانوا 1089 فردًا - إلى داخل البلاد؛ حيث سرعان ما تضاعف عددهم من المتطوعين الصقليين، وفى

كالاتافيمى - Calatafimi، التى تبعد نحو ثلاثين ميلًا من ناحية الشمال الشرقى وجدوا قوات البوربون فى انتظارهم، نشبت المعركة يوم الحادى عشر من مايو واستمرت عدة ساعات وكان معظم القتال ملتحمًا، وبواسطة الحراب أكثر منه بالبنادق، كان رجال غاريبالدى أقل عددًا، إلا أنه كان - من ناحية أخرى - يعتمد على ميزة نفسية أكبر. بالنسبة لكل الإيطاليين كان جيش القمصان الحمر هذا - بكل سلسلة انتصاراته فى أمريكا الجنوبية وإيطاليا - صاحب شهرة أسطورية، وكان البسطاء والسذج من الناس يعتقدون أن أعضاءه لديهم قدرة سحرية على مقاومة الرصاص، كان جنود ناپولى خائفين وليس لهم طاقة على القتال، كان "الألف" يقاتلون من أجل مثل أعلى يؤمنون به كلهم خلف قائد يتمتع بكاريزما ملهمة، إذا انتصروا فى هذه المعركة الأولى، كما قال غاريبالدى، فسيكون هناك احتمال كبير أن تنتهى مقاومة المعارضة، وهكذا، فى غضون أسبوع أو اثنين، سيصبحون هم سادة صقلية.

ما حدث هو أنهم انتصروا، وثبت أن غاريبالدى كان محقًّا، لم يكن هناك مزيد من العقبات أمام پاليرمو، بل على العكس، هرع الألوف من الصقليين للالتحاق بقواته، وعندما وصل فى السادس والعشرين من مايو، وجد أن المواطنين كانوا قد ثاروا على حكومة البوربون، كان هناك القليل من القتال المتقطع، ولكن لم يمض وقت طويل قبل أن يعطى قائد قوات ناپولى الأمر بإخلاء پاليرمو، بنهاية الشهر، كان غاريبالدى قد أصبح سيد المدينة، تبع ذلك فترة قصيرة لتوطيد أركانه، وصلت أثناءها تعزيزات مهمة من شمال إيطاليا، بعد ذلك واصل زحفه فى أوائل يوليو، آخر معاركة فى صقلية خاضها فى ميلازو - Melazzo، وهى ميناء بحرى حصين يبعد نحو خمسة عشر ميلًا غربى مسينى، كانت معركة حامية الوطيس وأكثر ضراوة مما سبقها، ولكنها فتحت الطريق نحو مسينى نفسها، التى استسلمت دون مقاومة، باستثناء حامية صغيرة شجاعة كانت تابعة للبوربون، بقيت صامدة فى القلعة لفترة أطول قليلًا.

سحب الناپوليون قواتهم من كل المدن والبلدات الأخرى، وهكذا، بهذا الاستثناء الضئيل، كانت صقلية قد أصبحت حرة، كان كاڤور يسعى لضمها الفورى رسميًا لمملكة ڤيكتور إيمانويل، التى كانت آخذة فى الاتساع - وهى الفكرة التى كانت تلقى معارضة شديدة من كل من غاريبالدى وفرانسيسكو كرسپى، الذى كان قد أصبح ذراعه اليمنى الآن. بالرغم من كل النوايا والأهداف التى كانوا يتجادلون حولها، كانت صقيلة بالفعل جزءًا من المملكة، كان الصقليون بالتأكيد يفهمون ذلك، ولكن الإجراءات القانونية الطويلة كان يمكن أن تنتظر حتى ينتهى القتال، كان يقلقهم كذلك - رغم حرصهم على ألا

يقولوا ذلك صراحة - أن كاڤور فى حال ضم الجزيرة قد يستغل سلطته الجديدة، ويرفض السماح لهم باستخدامها قاعدة انطلاق، يتقدمون منها نحو ناپولى وروما وڤينيسيا.

لم تكن تلك المخاوف بلا أساس، ففى الأول من أغسطس، كتب كاڤور مستقتلًا لرئيس وزرائه وصديقه الحميم كوستانتينو نجرا - Costantino Nigra:

> **إذا تمكن غاريبالدى من المرور إلى البر الرئيسى واستولى على ناپولى، كما فعل بالنسبة لصقلية وپاليرمو، فسوف يصبح سيد الموقف دون منازع... سيفقد الملك ڤيكتور إيمانويل كل مكانته تقريبًا، بالنسبة لمعظم الإيطاليين هو مجرد صديق لـ غاريبالدى، سيحتفظ – ربما - بتاجه، ولكن هذا التاج سيلمع فقط من الضوء المنعكس الذى سيلقيه عليه مغامر بطولى... الملك لا يستطيع أن يتناول تاج إيطاليا من يد غاريبالدى.. لن يكون مستقرًا على رأسه... لا بد من أن نتأكد من سقوط حكومة ناپولى قبل أن تطأ قدم غاريبالدى البر الرئيسى، بمجرد ذهاب الملك لا بد من أن نتسلم الحكم باسم النظام والإنسانية، بينما ننتزع من يد غاريبالدى قيادة الحركة الإيطالية كلها، هذا الإجراء الجسور الذى يمكن أن تصفه بالتهور، سوف يثير الفزع فى أوروبا، سيخلق تعقيدات دبلوماسية خطرة، وربما ورطنا فى مرحلة تالية فى حرب مع النمسا، ولكنه ينقذ ثورتنا ويحفظ للحركة الإيطالية صفتها التى هى مجدها وقوتها، صفة الرابطة القومية والملكية.**

كان كاڤور قد أقنع ڤيكتور إيمانويل فعلًا بأن يكتب رسميًا لـ غاريبالدى يطلب منه ألا يقوم بغزو البر الرئيسى، فعل الملك ذلك، ولكنه أتبع رسالته رسالة أخرى، مذكرة خاصة، ربما بتجاهل هذه التعليمات الرسمية، الآن كان يبدو أن تلك المذكرة الثانية لم يتم تسليمها - وعندما اكتشفت كان الخاتم ما زال عليها - ولكن ذلك لم يكن له أهمية: كان تفكير غاريبالدى قد استقر على أمر ما، آنذاك، أرسل كاڤور عناصر تحريض - agents provocateurs، لإثارة قلاقل فى ناپولى على أمل إشعال ثورة تحررية، إلا أن ناپولى (فى تناقض بيِّن مع پاليرمو) كانت لامبالية وفاترة الشعور، لم يكن هناك ما يمكن عمله... سوى ترك الأمور تسير فى مجراها الطبيعى.

** ** **

فى الثامن عشر من أغسطس 1860، عبر غاريبالدى ورجاله مضايق مسينى فى أولى خطوات زحفهم على ناپولى، وإذا كان ذلك قد سبب انزعاجًا لـ كاڤور، فإن الملك فرانسيس (24 سنة) كان قد تملكه الرعب، كان فرانسيس الثانى[12] قد خلف والده فرديناند قبل عام، أفاد الدبلوماسى البريطانى أودو راسل - Odo Russell الذى كان يخدم آنذاك

ضمن بعثة فى نابولى، أفاد فى تقرير له أن الملك عندما دخل غاريبالدى باليرمو، "أرسل خمس برقيات تلغرافية فى خلال أربع وعشرين ساعة يطلب المباركة من البابا"، كما أن "الكاردينال أنتونيللى - Antonelli... أرسل المباركات الثلاث دون الإشارة إلى قداسته، قائلًا: إنه كان مفوضًا بذلك". كان فرانسيس الأول يعرف أن جيشه لم يكن قادرًا على المزيد من مقاومة القمصان الحمر التى لا تقهر، وأنه شخصيًا، كان عاجزًا عن أن يجعل الحياة تدب فيه. كان البديل الوحيد هو الفرار. فى السادس من سبتمبر استقل السفينة إلى جايينا، بعد أقل من أربع وعشرين ساعة دخل غاريبالدى نابولى.

كانت المسافة التى قطعها عبر كالابريا بالغة السهولة بدرجة مضحكة؛ حيث فى مواجهة جنود نابولى البالغ عددهم نحو ستة عشر ألف جندى فى الإقليم، كانت طليعته مكونة ثلاثة آلاف وخمسمائة جندى فحسب، ولكن بعد مقاومة ريجيو- Reggio، لم تكن هناك أية مقاومة أخرى، وكان أمام رجاله ثلاثمائة ميل أخرى تقطعها فى حرارة الصيف الحارقة، ولكن بعد استسلام قوات البوربون الفورى، وتسليم أسلحتهم عندما اقتربوا، لم يكن هناك خوف على سلامتهم، من جانب آخر، كان شغوفًا على الوصول إلى نابولى بأسرع ما يمكن - لم يكن يثق بكافور إطلاقًا، كما كان يخشى ضربة استباقية. لحسن الحظ، كان الملك الراحل فرديناند قد بنى خط سكة حديد، فقام غاريبالدى بمصادرة كل ما وجد من عربات وملأها بجيشه، هو نفسه مع ستة من رفاقه، صعدوا إلى عربة مكشوفة وتوجهوا إلى نابولى بعد ظهيرة يوم السابع من سبتمبر، فى ذلك المساء، خاطب جمهورًا مبتهجًا من شرفة القصر الملكى، شاكرًا أهالى نابولى باسم كل إيطاليا، "التى أصبحت أمة أخيرًا بفضل تعاونهم"، كانت كذبة وقحة - إذ إنهم يرفعون إصبعًا - إلا أنه كان يشعر - دون شك - أن قدرًا ضئيلًا من النفاق لن يكون ضارًا فى تلك المرحلة.

كانت نابولى أكبر مدن إيطاليا والثالثة فى أوروبا، وعلى مدى الشهرين التاليين حكمها غاريبالدى - مع صقلية - كحاكم مطلق، كان فى الوقت نفسه يخطط لعمليته التالية التى ستكون زحفًا فوريًا على الدول البابوية... وعلى روما، إلا أن تلك الخطوة لم تتخذ قط. كافور، الذى لم يكن قادرًا على منع غزوه للبر الرئيسى، كان كله تصميم الآن على إيقاف مسيرته، مدركًا أن تركه هكذا قد يعنى الحرب مع فرنسا، ولربما وجدت قوات القمصان الحمراء الفرنسيين المدربين جيدًا أمرًا مختلفًا تمامًا عن كل ما واجهوه حتى الآن، بل ربما فقدت إيطاليا كل ما كسبته فى العامين السابقين، كانت هناك كذلك اعتبارات أخرى: كان غاريبالدى الآن - كما كان يخشى - أكثر شعبية من ڤيكتور إيمانويل نفسه، كان جيش بيدمنتو حاقدًا على انتصاراته الأخيرة، وكان يلوح دائمًا

خطر ماتزينى - الذى وصل إلى نابولى فى السابع عشر من سبتمبر - وقد يقنع أتباعه غاريبالدى بالتخلى عن ملك پيدمونت، وتبنى القضية الجمهورية.

كان غاريبالدى يعى جيدًا عداء كاڤور، مثلما كان واثقًا من دعم الملك الضمنى، وبعد وصوله إلى نابولى بوقت قصير، تمادى لدرجة أن طلب استقالة رئيس الوزراء، بفعل ذلك، كان يبالغ فى استخدام سلطاته، وعندما أدرك ڤيكتور إيمانويل أنه لم يعد يستطيع أن يوقع بين الرجلين، وجد من الأكثر أمانًا قبول سياسة حكومته، لا شىء من ذلك، ولا أى عدد من الرسائل (بوحى من كاڤور) من شخصيات أجنبية بارزة، من الوطنى المجرى لاچوسك وسوت - Lagjos Kossuth، إلى الإصلاحى الاجتماعى البريطانى لورد شافتسبرى - Shaftesbury، لا شىء من ذلك كله قلل من إصرار غاريبالدى على الزحف على روما، كانت الحجة الوحيدة التى يمكن أن تكون مؤثرة والتى أدت إلى ذلك فى آخر الأمر هى القوة القاهرة - Force majeure.

فجأة، وجد جيشين قويين يصطفان ضده: جيش نابولى وجيش پيدمونت، استطاع الملك فرانسيس أن يُكون جيشًا جديدًا فى جاييتا، وبعد وقت قصير من مغادرة غاريبالدى ورجاله نابولى فى المرحلة الأولى من تقدمهم شمالاً، وجدوا قوة من نحو خمسين ألف مقاتل مصطفة على امتداد شاطئ نهر ڤولتورنو- Volturno. كان هنا أن لقوا أول هزيمة منذ رسوهم فى صقلية خارج مدينة كايازو- Caiazzo الصغيرة؛ وفى الغياب المؤقت للقائد حاول أحد جنرالاته عبور النهر وفشل، وفقد فى هذه المحاولة نحو مائتى وخمسين مقاتلًا، فى أول يوم من شهر أكتوبر، على أية حال، استطاع غاريبالدى أن يثأر لذلك. دارت المعركة بالقرب من كاپوا - Capua داخل وحَوْل قرية سان أنجلو- S.Angelo الصغيرة فى فورمز- Formis.[13] كان انتصارًا باهظ الثمن - راح فيه نحو ألف وأربعمائة قتيل وجريح - إلا أنه أنقذ إيطاليا.

فى الوقت نفسه، كان جيش پيدمونت يواصل زحفه. كاڤور، الذى كان مصرًّا على استعادة المبادرة من غاريبالدى، بدأ غزوًا خاصًا به للأراضى البابوية فى أومبريا - Umbria والمناطق الحدودية، بتركه روما وعدم المساس بها، تفادى استعداء فرنسا وربما النمسا كذلك، كما فتح الطريق إلى الجنوب حيث - لأن غاريبالدى كان حاكمًا مطلقًا الآن - كان بإمكانه أن يدعى أن جيش پيدمونت كان مطلوبًا على عجل لإنقاذ نابولى من قوى الثورة، الشىء الأهم هو أنه أزال المانع الجغرافى الذى كان يقسم إيطاليا جزأين منفصلين ما دام موجودًا، ويجعل الوحدة أمرًا مستحيلًا، لم تكن الحملة نفسها كبيرة ولكنها كانت مؤثرة، تغلب جيش پيدمونت على مقاومة قوية فى پيروجيا

- Perugia، حقق نصرًا صغيرًا على جيش بابوى بالقرب من قرية كاستلفيداردو- Castelfidardo الصغيرة بالقرب من لورنتو - Lorento، ثم انتصارًا أكبر قليلًا فى أنكونا - Ancona بعد خمسة أيام، عندما استولى على مائة وأربعة وخمسين مدفعًا وسبعة آلاف أسير، بمن فيهم الچنرال الفرنسى كريستوف دى لامورسيير - -Chris tophe de Lamoricière، قائد القوات البابوية، كانت تلك نهاية الجيش البابوى، ومن ثم لم تعد هناك متاعب أخرى أمامهم.

جاء الآن ڤيكتور إيمانويل تصحبه صديقته - طويلة الأمد - روزينا ڤيرسيلانا - -Ro sina Vercellana (التى يقال: إنها كانت فى أبهى زينتها)، جاء ليتولى القيادة الشرفية لجيشه، منذ تلك اللحظة، بدأ نجم غاريبالدى يخبو، أقنعته معركة ڤولتورنو - Volturno بأن الزحف على روما لم يكن ممكنًا، والآن والملك نفسه فى الطريق، كان يرى أن حكمه فى الجنوب لا بد من أن ينتهى، تأكد ذلك فى آخر شهر أكتوبر، عندما أجريت استفتاءات فى مملكة نابولى وفى صقلية وفى أومبريا والمناطق الحدودية لاستطلاع رأى المصوتين، ما إذا كانوا يريدون أن تكون بلادهم جزءًا لا يتجزأ من إيطاليا تحت حكم ڤيكتور إيمانويل، كانت الأصوات المؤيدة لذلك كبيرة: ففى صقلية مثلًا كان عدد المؤيدين 432,053 مقابل 667 معارضًا.

رضخ غاريبالدى عن طيب خاطر، واتجه شمالًا مصحوبًا بحاشية كبيرة لمقابلة الملك، وفى السابع من نوفمبر دخلا نابولى جنبًا إلى جنب فى العربة الملكية. لم يطلب سوى معروف واحد: أن يسمح له بحكم نابولى وصقلية عامًا واحدًا كنائب للملك، ولكن رجاءه رفض. كان فى آخر الأمر راديكاليًّا خطرًا ومعاديًا للإكليروس، وكان ما زال يداعب خياله حلم الاستيلاء على روما من البابا؛ ليجعل منها عاصمة لإيطاليا. فى محاولة لتحلية الدواء المر، عرض عليه ڤيكتور إيمانويل رتبة الچنرال بالإضافة إلى عزبة ساحرة، ولكن غاريبالدى لم يحصل على شىء من ذلك. ظل ثائرًا، وطوال الفترة، التى كانت فيها النمسا ما زالت تحتل الـ Veneto والبابا مستمرًّا كحاكم زمنى فى روما، كان مصممًا على الاحتفاظ لنفسه بحرية الحركة والتصرف، فى التاسع من نوفمبر، أبحر متجهًا إلى مزرعته على جزيرة كاپريرا- Caprera الصغيرة بالقرب من ساحل سردينيا، كان يحمل معه مبلغًا صغيرًا - كان قد اقترضه؛ حيث لم يكن قد ادخر أى أموال أثناء الأشهر التى قضاها فى السلطة - وكيس بذور لحديقته.

يوم أحد الآلام[14]، السابع عشر من مارس 1861، أُعْلِنَ ڤيكتور إيمانويل الثانى ملكًا على إيطاليا. يقال: إن ماسيمو دازيجليو الكبير سلف كاڤور كرئيس للوزراء قال عندما

سمع الخبر: لقد تم صنع إيطاليا، علينا الآن أن نصنع الإيطاليين»[15]. ولكن بالرغم من أن نصف العبارة الأول كان صحيحًا - كانت دولة إيطالية قد خرجت إلى حيز الوجود وإن لم تكن كاملة - فإن النصف الثانى كان أكثر صحة، واصل فرانسيس الثانى مقاومته، كان البلد مقسمًا منذ نهاية الإمبراطورية الرومانية، وكان القليل من الشعب البالغ عدده اثنين وعشرين مليون نسمة تقريبًا هم الذين يعتبرون أنفسهم إيطاليين، لم يكن هناك أى شىء مشترك بين الشمال والجنوب، مع مستويات معيشة مختلفة تمامًا (مثلما هو الأمر اليوم). كان لا بد من بناء طرق وخطوط سكة حديد على نحو عاجل، كان لا بد من إنشاء جيش قومى، وبحرية جديدة، إلى جانب نظام قانونى، وإدارة خدمة مدنية، وإصدار عملة مشتركة، فى الوقت نفسه، لم يكن هناك بديل عن تبنى مؤسسات بيدمنتو، ولكن ذلك الأسلوب الاضطرارى كان يلقى معارضة شديدة، ولم يحقق الكثير من أجل الوحدة. حتى قرار الملك بالإبقاء على لقبه «الثانى» كان مصدر استياء. كملك لإيطاليا، المؤكد أنه كان ڤيكتور إيمانويل الأول، فهل كان الـ «ريزورجيمنتو» بالفعل ميلادًا جديدًا... بعثًا لإيطاليا، أم تراه كان هزيمة لإيطاليا على يد بيت ساڤوى؟

بعد أقل من ثلاثة أشهر من الإعلان الملكى، مات كاڤور، كان قد أمضى الأسابيع الأخيرة من حياته فى جدل عارم حول مستقبل روما، التى (لا بد من أن نسجل هنا) لم تطأ قدمه أرضها مرة واحدة، كانت كل المدن الإيطالية الرئيسية الأخرى، كما كان يقول، بلديات مستقلة، كل منها تقاتل من أجل نفسها؛ وحدها روما، باعتبارها كرسى الكنيسة، هى التى ظلت فوق كل تلك الخصومات، ولكن بالرغم من أن البابا لا بد من أن يُطلب منه التخلى عن سلطته الزمنية، لا بد من ضمان الاستقلال البابوى بأى ثمن - «كنيسة حرة فى دولة حرة»، واجه قدرًا كبيرًا من المعارضة - كان أقواها من قِبَل غاريبالدى الذى انشقت كابريرا - Caprera عنه فى أبريل، وتقدم مندفعًا إلى المجلس، مرتديًا قميصه الأحمر وبونشو جنوب أمريكا الرمادى؛ ليطلق سيلًا من السباب على ذلك الرجل الذى - كما كان يرعد - باع نصف بلاده للفرنسيين، وبذل كل ما فى وسعه لمنع غزو الصقليتين، ولكنه نجح فحسب فى تأكيد الرأى العام، بأنه بالرغم من كونه قائدًا عسكريًا كبيرًا، فالمؤكد أنه لم يكن رجل دولة؛ بكل سهولة، فاز كاڤور فى التصويت الذى تبع ذلك، كان ذلك آخر انتصاراته السياسية، مات فجأة فى السادس من يونيو بأزمة قلبية حادة، كان فى الخمسين من العمر.

لو قدر لكاڤور أن يعيش عقدًا آخر، لشهد آخر قطعتين من الأحجية الإيطالية توضعان فى مكانهما الصحيح فى الصورة لتكتمل، بالنسبة لروما، فالوضع لم يفد شيئًا من

غاريبالدى الذى قام بمحاولة غريبة - على نحو ما - فى 1862 لتكرار انتصاره الذى كان قبل عامين، رافعًا شعار "روما أو الموت"، تمكن من جمع نحو ثلاثة آلاف متطوع فى پاليرمو، استولى بهم على كاتانيا - Catania الهادئة؛ ثم فى أغسطس، بعد أن قام بقيادة سفينتين تجاريتين محليتين، عبر برجاله إلى كالابريا- Calabria؛ ليبدأ زحفًا آخر على روما. هذه المرة كانت القوات الحكومية مستعدة له. لم يكن قد وصل إلى أبعد من الجزء الرئيسى من جبال أسپرومونتى فى أقصى جنوب كالابريا (حافر إيطاليا)، حتى هجموا عليه. أمر غاريبالدى رجاله بعدم الرد بإطلاق النار خشية اندلاع حرب أهلية، وبالرغم من ذلك كانت هناك بعض الخسائر، هو نفسه تحطم رسغ قدمه اليمنى. أُلقى القبض عليه وأُرسل إلى ناپولى فى قارب حربي؛ حيث أطلق سراحه فورًا. ظل بطلًا، ولم تجرؤ الحكومة على اتخاذ أى إجراء ضده.

** ** **

فى الوقت نفسه، كانت الدبلوماسية الهادئة تبدو أكثر نجاحًا، كان البابا پيوس نفسه يرفض التنازل عن أى شىء، وعلى قدر اهتمامه، كان يمسك بالولايات البابوية للعالم الكاثوليكى، وكان ملزمًا بحكم قسم التتويج أن يسلمها لمن يخلفه، على النقيض من ذلك، كان ناپوليون يصبح أكثر ميلًا، على نحو مضطرد، للتفاوض، وبموجب ما عرف بمعاهدة سبتمبر الموقعة فى الخامس عشر من الشهر عام 1864، وافق على سحب قواته من روما فى غضون عامين. إيطاليا بدورها، تعهدت بضمان تأمين الأراضى البابوية ضد أى هجوم، كما وافقت على نقل عاصمتها من تورين إلى فلورنسا فى غضون ستة أشهر.

لم تُحَسِّن المعاهدة، التى كان أن بقيت نافذة لست سنوات، أفق أو احتمالات استيعاب روما فى الدولة الإيطالية الجديدة مباشرة، والحقيقة أنها كانت تبدو - على الأقل مؤقتًا - ضامنة للوضع القائم، من ناحية أخرى، بوضع نهاية للاحتلال الفرنسى الذى دام خمس عشرة سنة، فإنها بتجميدها الوضع القائم فى روما، مكنت الحكومة من توجيه اهتمامها إلى الضرورات الملحمة فى تلك السنوات الأولى من عمر الدولة الإيطالية؛ أى استعادة الـ ڤينيتو- Veneto (ڤينيسيا). فيما مضى، ولفترة ما، كانت فكرة غزو البلقان تداعب خيال الملك ڤيكتور إيمانويل - ربما بقيادة غاريبالدى - لإثارة تمرد بين الشعوب التابعة للنمسا، وعندما تكون النمسا مشغولة باستعادة النظام، سيكون من السهل احتلال الأراضى الإيطالية، لسوء الحظ، كان أن استخف ناپوليون الثالث بتلك الفكرة، وعليه تخلى عنها الملك، كان دعم ناپوليون يمكن أن يكون شديد الأهمية.

الآن، وبضربة حظ غير متوقعة، فرج فجأة من القمقم، المارد الذى سيلقى بالمنطقين المشتهاتين فى حجر إيطاليا، كان ذلك هو المستشار البروسى أوتو ڤون بسمارك- Otto Von Bismarck، الذى كان الآن فى طريقه لتحقيق حلمه بتوحيد الدول- الولايات الألمانية فى إمبراطورية واحدة، كانت حجر العثرة الوحيدة هى النمسا، التى كان مصرًّا على القضاء على نفوذها فى ألمانيا، وعليه فقد تودد للچنرال لا مارمورا- La Marmora، الذى كان قد أصبح رئيسًا لوزراء ڤيكتور إيمانويل مرة أخرى، واقترح عليه تحالفًا عسكريًا: يتم الهجوم على النمسا من جبهتين فى الوقت نفسه، بروسيا من الشمال وإيطاليا من الغرب. فى حال الانتصار، ستكون ڤينيسيا هى المكافأة التى تحصل عليها إيطاليا. وافق مارمورا عن طيب خاطر، كما لوح نابوليون الثالث بأنه لم يكن له أى اعتراض على ذلك. تم توقيع الاتفاق فى الثامن من أبريل 1866، وفى الخامس عشر من يونيو بدأت الحرب.

بعد ستة أسابيع، كانت قد انتهت. كانت معركة واحدة تكفى بالنسبة للبروسيين، وقعت تلك المعركة فى سادوڤا- Sadowa على بعد خمسة وستين ميلًا تقريبًا شمال شرق پراغ- Prague، وشارك فيها أكبر عدد من القوات- نحو ثلاثمائة وثلاثين ألفًا- فى تاريخ ميادين القتال فى أوروبا- (كانت الأولى كذلك التى يتم فيها استخدام السكك الحديدية والبرق على نطاق واسع). كان الانتصار البروسى كاملًا شاملًا. أدى إلى إفلاس الموارد العسكرية للإمبراطور النمساوى فرانز چوزيف الأول- Franz Joseph I وفتح الطريق إلى ڤيينا. حقق بسمارك ما كان يريده تمامًا، وكان سعيدًا بالموافقة على طلب النمسا عقد هدنة.

لسوء الحظ، كان ما تحقق بالنسبة لإيطاليا أقل من ذلك بكثير. هُزم جيشها الرئيسى، بقيادة الملك ولامارمورا والچنرال إنريكو سيالدينى- Enrico Cialdini، عدة مرات فى كاستوزا وحولها - وذلك لسوء حظ آل ساڤوى - كما دمرت بحريتها كلها تقريبًا فى البحر بالقرب من ليسا- Lissa. (الآن جزيرة ڤيز- Vis الكرواتية). الأخبار الطيبة الوحيدة كانت تلك عن غاريبالدى، الذى لبى بكل سعادة دعوة لقيادة قوة من خمسة وثلاثين ألف مقاتل على التيرول- Tyrol، ورغم أنه لم يسجل انتصارًا كبيرًا، أحدث الكثير من الارتباك للنمساويين. الحكومة الإيطالية، التى كانت مستقرة الآن فى فلورنسا، بالرغم من استيائها إلى حد ما لعدم استشارتها حول شروط الهدنة، رحبت بها على الأقل بسبب ما تقرر بشأن "ڤينيتو"، وحيث إن النمسا لم تكن قد اعترفت بعد بالمملكة الإيطالية الجديدة، تم اتباع نفس الأسلوب الذى كان قد سبق تطبيقه على لومبارديا قبل

خمس سنوات: التنازل عن الإقليم لـ "نابوليون الثالث"، الذى قام بتسليمه لـ "ڤيكتور إيمانويل" على الفور، تم تأكيد التخلى عن الإقليم باستفتاء كانت نتيجته قرارًا كان قد تم اتخاذه سلفًا، كان هناك قدر من خيبة الأمل؛ لأن المنطقة التى تم التخلى عنها لم تكن تتضمن تيرول الجنوبية- South Tyrol (ما يطلق عليها الإيطاليون: ترنتينو- Trentino) أو ڤينيزيا جيوليا- Venezia Giulia التى كانت تضم تريستا - Trieste وپولا- Pola وفيوم- Fiume (ريكا- Rijeka الحديثة)؛ بالنسبة لتلك المناطق، سوف تنتظر إيطاليا إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، ولكن ڤينيسيا أصبحت مدينة إيطالية أخيرًا، وأصبح لإيطاليا أن تزهو بميناء جديد عظيم القيمة على الأدرياتيكى الشمالى. روما، فحسب، هى التى بقيت.

** ** **

بنهاية العام 1866، كان آخر الجيش الفرنسى قد غادر روما. لم تكن جماعة المرتزقة المؤلفة من عناصر مختلفة، التى كان البابا پيوس قد جندها، لم تكن لتمثل أى خطر على أحد، وبحلول أوائل العام 1867 كان المتآمرون القدامى قد استعادوا قوتهم. ما تزينى، الذى كان يلعب على مخاوف بسمارك من تحالف فرنسى – إيطالى، كان يطلب أموالًا ومؤونة ليقلب الحكومة فى فرنسا؛ غاريبالدى – وليس للمرة الأولى – كان يجهز للزحف على روما، وتمادى فى ذلك لدرجة أن أصدر نداء يدعو فيه كل محبى الحرية من أهالى روما إلى الثورة، وحيث إن معاهدة سبتمبر كانت ما تزال أمامها أربع سنوات تظل فيها سارية، لم يكن أمام الحكومة سوى أن تلقى القبض عليه وتعيده إلى كاپريرا – Caprera، إلا أنه سرعان ما تمكن من الهرب. كان الآن فى الستين من العمر، وأعاد تجميع متطوعيه ليبدأ زحفه الموعود.

** ** **

كان قد أسقط الفرنسيين من حساباته. نابوليون الثالث، بعد أن أدرك أنه سحب قواته باكرًا، أرسل جيشًا جديدًا مجهزًا ببنادق "الشاسيپو – Chassepot". رسا الجيش فى شيڤيتاڤيكيا فى الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر، لم يكن أمام المتطوعين، الذين كانوا أقل عددًا وكفاءة أى فرصة، بعد يوم أو يومين، لقوا حتفهم فى "مينتانا – Mentana". تمكن غاريبالدى من أن ينسل عائدًا عبر الحدود إلى داخل إيطاليا، ومن ثم وقع فى يد السلطات، أعادوه مرة أخرى إلى كاپريرا؛ حيث سيبقى – هذه المرة تحت حراسة مشددة – تحت الإقامة الجبرية، أما رجاله فكانوا أقل حظًا، وقع أكثر من ألف وستمائة منهم فى الأسر.

مرة أخرى، وبفضل سرعة تصرفه، أنقذ الإمبراطور ناپوليون السلطة الزمنية للبابوية، لم يكن أحد يتوقع أنه بعد أقل من ثلاث سنوات سيكون له دور كبير فى إسقاطها. كان المحرك الرئيسى مرة أخرى هو بسمارك، الذى جر رجل فرنسا بكل دهاء إلى حرب، عندما هدد بوضع أمير من أسرة "هوهنزولرن – Hohenzollern" البروسية الحاكمة على عرش إسبانيا. تم إعلان ذلك – بواسطة فرنسا وليس بروسيا – فى الخامس عشر من يوليو 1870. أسفر ذلك عن صراع مرير، سيكون ناپوليون فى حاجة إلى كل جندى لديه للقتال القادم. وبنهاية أغسطس، لم يكن هناك جندى فرنسى واحد قد بقى فى روما.

كان البابا پيوس على دراية تامة بالخطر، لم يكن قد بقى لحمايته سوى جيشه الصغير المكون من المرتزقة. بعد ثلاثة أيام من إعلان الحرب وأثناء أول اجتماع للڤاتيكان[16]، وفى ذروة أعتى عاصفة رعدية قد يتذكرها أى من أهالى روما، حاول البابا أن يدعم مركزه بإعلانه مبدأ العصمة البابوية – Papal Infallibility، كانت خطوة جلبت على قضيته من الأضرار أكثر مما جلبت من الفائدة[17]، ولكن كان هناك بعض الجدوى من مناقشتها: هزيمة ناپوليون فى «سيدان – Sedan" فى الأول من سبتمبر، أعلنت نهاية الإمبراطورية الثانية ودمار الآمال الأخيرة لـ پيوس، كان الموضوع الوحيد الذى ما زال فى حاجة إلى حسم، فى رأى أعضاء الحكومة، هو مسألة التوقيت: هل يستطيع جيشهم احتلال روما فورًا، أم ترى عليهم انتظار حدوث تمرد أو انتفاضة شعبية؟ كانت معاهدة سبتمبر على وشك الانتهاء، وكانت إزالة أحد الموقعين عليها تعنى أنها لم تعد سارية المفعول.

فى الوقت نفسه، وجه ڤيكتور إيمانويل مناشدة أخيرة للبابا "بكل حب الابن، وإيمان الكاثوليكى، ووفاء الملك وروح الإيطالى"، مضيفًا أن الأمن الإيطالى وكذلك أمن الكرسى المقدس نفسه، كان يعتمد على وجود القوات الإيطالية فى روما، هل يقبل قداسته هذا الوقع الراسخ ويظهر تعاونه الكريم؟ من أسف أن قداسته لن يفعل شيئًا مثل ذلك، سوف يرضخ، كما أعلن، للعنف فحسب، وحتى آنذاك سيقوم بقدر ضئيل من المقاومة على الأقل. كان عند كلمته، عندما دخلت قوات إيطالية روما صباح العشرين من سبتمبر 1870 عن طريق "پورتاپيا – Porta Pia"، وجدت فى انتظارها مفرزة من السفن البابوية. انتهى القتال بسرعة، ولكن ليس قبل أن يخلف تسعة عشر شخصًا من أتباع البابا وتسعة وأربعين إيطاليًّا موتى فى الشوارع.

فى غضون الساعات القليلة التالية، كانت روما تعج بالقوات الإيطالية، تاركةً الڤاتيكان وكاستيل سان أنجلو فحسب، التى كانت ترفرف عليها الآن راية الاستسلام البيضاء، توقفت المقاومة، انسحب البابا بيوس إلى داخل أسوار الڤاتيكان؛ حيث سيبقى طوال السنوات الثمانية الباقية من عمره، كانت نتيجة الاستفتاء الذى أجرى بعد ذلك بوقت قصير: 133,681 صوتًا لصالح إدماج روما فى مملكة إيطاليا، و1507 أصوات ضد ذلك. الآن، كان أن أصبحت روما جزءًا من إيطاليا، ليس من خلال حق الغزو، وإنما بناء على رغبة شعبها وإرادته، كانت مدينة الڤاتيكان فحسب، هى التى بقيت دولة ذات سيادة.

لم يدخل ڤيكتور إيمانويل عاصمته الجديدة رسميًا إلا فى الثانى من يوليو 1871، كانت الشوارع مزدانة لهذه المناسبة عندما أبرق للعمدة، الأمير "فرانسيسكو پالاڤيسينى – Francesco Pallavicini" لكى يوقف كل مظاهر الاحتفال. وباعتباره كاثوليكيًا ورعًا، أصابه الخوف وليس الحزن فحسب، عندما صدر ضده حكم بالحرم الكنسى. كتب المؤرخ البروسى فرديناند جريجوروڤيوس –Ferdinand Gregorovius، المتخصص فى تاريخ روما فى العصور الوسطى، كتب فى مفكرته إن الموكب كان بسيطًا، بلا أبهة أو عظمة أو فخامة... أو حيوية، وكأن ذلك هو ما ينبغى؛ حيث إن ذلك اليوم كان إعلانًا بنهاية حكم الباباوات الألفى لروما". بعد الظهر، استحثوا الملك على عبور النهرَ إلى "تراستيڤير – Trastevere"؛ حيث كان قد تم ترتيب احتفال صغير بواسطة الجماهير، الذين كان معظمهم من الطبقة العاملة، رفض الملك بشدة، مضيفًا، بلهجة پيدمونت، التى ربما لم يكن معظم من حوله يفهمون كلمة منها، "إن البابا على بعد خطوتين فحسب من هنا، وربما يؤذيه ذلك. لقد صنعت ما يكفى بالفعل بحق ذلك العجوز المسكين".

هوامش الفصل الثامن والعشرين

(1) فى ذلك الوقت لم تكن تضم منطقة دوقيات سافوى القديمة بما فى ذلك عاصمتها تورين فحسب، كانت هناك كذلك جزيرة سردينيا، وكونتية نيس، ومنذ 1815 كانت هناك مدينة جنوة – Genoa.

(2) كان معروفًا حتى فى إنجلترا. فى الرابع من سبتمبر 1850 دخل مع صديقين له مصنع باركلي نر للجعة فى لندن، وسرعان ما تعرف عليه العمال من شاربه الطويل الغريب، فهاجموه وألقوا عليه الروث. طاردوه إلى أن لجأ إلى نزل قريب؛ حيث أنقذته الشرطة منهم فى النهاية.

(3) الـ "كارابنييرى" – Carabinieri : جنود القربينة (البندقية القصيرة). (المترجم)

(4) منطقة فى الشمال الإيطالى. (المترجم)

(5) فيلق مشاة من حملة البنادق. (المترجم)

(6) ذلك الجزء من روما الواقع غرب نهر التيبر.

(7) Dovunque saremo, Colà sera Roma.

(8) كان الأمير نابوليون قد استغل سقوط الملك لويس – فيليب فى 1848؛ ليتم انتخابه فى ديسمبر من ذلك العام نفسه رئيسًا للجمهورية الفرنسية الثانية؛ وفى 1852 تم تثبيته ليكون الإمبراطور نابوليون الثالث.

(9) مربع القلاع. (المترجم)

(10) لم يكن هناك ذكر لـ روماجنا – Romagna أو پارما – Parma أو پياكنزا – Piacenza التى لم يكن مسئولًا عن أى منها إمبراطور بعينه.

(11) لم يكن قد غفر لـ كاڤور كلماته القاسية بعد ڤيلّلا فرانكو ولا اعتراضه – بنجاح – بعد موت الملكة ماريا أديلاد Maria Adelaide فى 1855 وهى فى الثالثة والثلاثين، على زواجه من عشيقته.

(12) تصفه دائرة المعارف الإيطالية – Enciclopedia Italiana بأنه كان "جادًا، قليل الكلام، سوداويًا، خجولًا، أخرق، دائم الشك فى نفسه وفى الآخرين".

(13) كان نجاة كنيسة سان أنجلو من الدمار أشبه بالمعجزة، وهى أعظم أثر فى كامبانيا – Campania ، جدرانها مغطاة من الداخل برسوم جصية تعود للقرن الحادى عشر وما زالت بحالة ممتازة.

(14) أحد الآلام – Passion Sunday : الأحد الخامس من آحاد الصوم الكبير. (المترجم)

(15) L' Italia e fatta , restano a fare gli italiani.

(16) استدعى البابا المجلس فى 1868 لمناقشة عدة موضوعات لاهوتية وإدارية.

(17) خاطب ماتزينى الأساقفة السبعمائة الحاضرين: "العلم يمضى فى طريقه للأمام، غير عابئ بمعتقداتكم، ولا باتهاماتكم أو مداولاتكم، ممزقًا مع كل اكتشاف جديد صفحة أخرى من ذلك الكتاب الذى تدعون عصمته".

الفصل التاسع والعشرون

الملكات والكارليون

• الحروب الكارلية: 1839 • ماريا كريستينا تعود إلى الوطن: 1843 • الهجوم على قصر الملكة: 1854 • المناداة بدون كارلوس ماركا: 1868 • انتهاء الحرب الكارلية الثانية: 1876 • موت الملكة إيزابيل: 1904

فى الثلاثين من سبتمبر 1868، استقلت «إيزابيل الثانية – Isabel II" ملكة إسبانيا قطارًا هى وأبناؤها من سان سيباستيان – SAN Sebastian فى طريقهم إلى المنفى، لم يكن رحليها نهاية لحكمها فحسب، بل ربما لأكثر الفترات اضطرابًا فى تاريخ البلاد.

كانت القصة قد بدأت بأبيها فرديناند السابع – Ferdinand VII ، الذى كان قد تنازل مع جدها شارل الرابع Charles IV عن حقه فى العرش.[1] كان من الواضح أن سقوط نابوليون جعل تلك التنازلات كأن لم تكن، وبعد أن ورث فرديناند العرش فى 1814، حكم إسپانيا لمدة خمس عشرة سنة، كانت بعيدة كل البعد عن الكفاءة، عندما ترمل فى 1829 للمرة الثالثة، مات كل أبنائه من زوجاته الثلاث فى سن الطفولة، وكان شديد الرغبة فى أن يكون له ابن، ورغم أن فرصة ذلك كانت تبدو شديدة الضآلة بسبب مرض النقرس ونوبات الصرع المتكررة، كان يرفض أن يفقد الأمل فى الإنجاب، كانت المشكلة هى أن يجد الزوجة المناسبة، كان شقيقه الأصغر فرانسيسكو دى پاولا – Francisco de Paula متزوجًا من إحدى بنات فرانسيس الأول – Francis I ملك ناپولى، وكانت قد عُمِّدت باسم ماريا لويزا كارلوتا – Maria Luisa Carlotta، إلا أنها كانت تعرف فى إسپانيا باسم كارلوتا - Carlota، كانت هى التى أرت الملك صورة صغيرة – مرسومة – لشقيقتها ماريا كريستينا – Maria Cristina ذات الثلاثة والعشرين ربيعًا، فلم يعد فرديناند ينظر أبعد من ذلك، فى الثانى عشر من ديسمبر 1829، تزوج من الأميرة الصغيرة فى كنيسة السيدة العذراء فى مدريد.

كانت كريستينا شديدة الجاذبية عابثة بلا حياء، ولديها طاقة هائلة على الاستمتاع بالحياة، وكانت مثل نسمة رقيقة منعشة هبت على البلاط الإسبانى؛ لتبدد كآبته الخانقة، سرعان ما أسرت قلوب الكل إلا قليلًا؛ حيث إن الزواج كان قد جاء ضربة قاصمة لولى العهد دون كارلوس – Don Carlos، الشقيق الأصغر للملك، كما كان أكثر من ضربة قاصمة لزوجته ماريا فرانسيسكا البراجانزية – Maria Francisca of Braganza، كانا زوجين غير متجانسين، كان دون كارلورس قزمًا تقريبًا، برغم ذقنه وأنفه ذات الملامح البوربونية البشعة، كان متدينًا بدرجة مرضية شديدة التزمت، مستبدًّا، متعصبًا... وضعيفًا. يصفه كاتب اليوميات الإنجليزى هنرى جريڤل بأنه كان "أبله.. شديد التعصب.. شاذًّا جنسيًّا.. شديد الجبن.. خاملًا.. ليس لديه ذرة من موهبة". على العكس من ذلك تمامًا، كانت ماريا فرانسيسكا جميلة وجليلة وذكية وطموحًا وصاحبة حضور

طاغ. حتى ذلك الحين، كانت متأكدة من اعتلاء زوجها العرش، أما الآن فأصبحت هناك فرصة لأن يضيع منه. القادم كان أسوأ، عندما أُعْلِنَ بعد ثلاثة أشهر من الزفاف أن الملكة كانت حاملًا، أعلن فرديناند عن تطبيق المرسوم الملكى القديم Pragmatic Sanction، الذى تم التخلى بموجبه عن القانون الصالى – Salic Law،[2] الذى كان يمنع تولى الإناث العرش بالوراثة، بمعنى آخر، فإن المولود الذى كان قد طال انتظاره، ذكرًا جاء أو أنثى، سوف يرث عرش إسبانيا.

أما المولود الذى كان قد طال انتظاره فكان طفلة، عُمِّدت فى العاشر من أكتوبر 1830 باسم ماريا إيزابيل لويزا – Maria Izaєel Luisa. الكارليون – The Carl-ists – كما أصبح يطلق على الموالين لدون كارلوس – كان يمكن أن يشعروا بقدر من الارتياح لذلك، ولكن بمرور الوقت، ومع تدهور صحة الملك بدأت فكرة أن تتولى ملكة الحكم تصبح مثيرة للقلق، بعد ذلك، أصيب فرديناند إصابة جسيمة فى حادث مركبة، وهو فى طريقه إلى قصره الصيفى فى لاجرانجا – La Granja فى يوليو 1832، وبعد شهرين كان ما زال فى النزع الأخير. الملكة التى كانت نادرًا ما تفارق موقعها بجوار فراشة طوال الشهرين، استشارت أحد وزرائه الكبار، وأصابها الفزع عندما علمت منه أن البلاد كلها سوف تتجمع حول دون كارلوس على الفور، من المؤكد أن تكون ماريا فرانسيسكا قد همست بتحذيرها الشديد، وتم إقناع الملك الذى لم يكن فى كامل وعيه بضرورة إلغاء المرسوم الملكى القديم، إن كان له أن يتفادى حمام دم متوقع. على وجه السرعة، تم صياغة مرسوم وقعه بيد مرتعشة. بعد قليل، أعلن عن وفاته، وكان ما يتراءى للكل هو أن دون كارلوس هو الملك.

إلا أنه لم يكن. فجأة، اكتشف الحانوتية الذين كانوا قد جاؤوا لتجهيز الجثمان وجود دلائل على أنه كان ما زال حيًّا... ثم بدأ فرديناند يفيق شيئًا فشيئًا. حتى بالرغم من ذلك، كان يمكن أن تظل الوثيقة التى وقعها، ولم يكن الحبر الذى كتبت به قد جف بعد، سارية المفعول، لولا كارلوتا زوجة شقيقه. بمجرد أن وصلتها الأخبار فى كاديز – Cadiz، طلبت عربتها وانطلقت بأقصى سرعة لتقطع مسافة أطول من أربعمائة ميل من الطرق الوعرة، متجهة إلى لاجرانجا. لم تكن صحة الملك ذات أهمية كبيرة بالنسبة لها، ولكنها كانت تكره دون كارلوس وزوجته، ولم يكن لديها النية أن تتركهما يحرمان ابنة أختها من تاجها المستحق. بمجرد وصولها، ذهبت مباشرة إلى الملكة ووبختها بعنف لضعفها، وطلبت أن ترى مرسوم إلغاء القانون. وهم يرونه لها، خطفته من يد المسؤول ومزقته.

عاش فرديناند سنة أخرى، رأس خلالها حفلًا فى كنيسة لوس چيرونيموس –

Los Jeronimos القديمة فى مدريد، كان مخصصًا لتدعيم حق ابنته الصغيرة فى خلافته. اصطف كل أعيان إسبانيا – مع استثناء واحد – وراحوا يقبلون أيدى الملك والملكة والأميرة الصغيرة – In Fanta – ذات العامين. فى التاسع والعشرين من سبتمبر 1833، أصيب فرديناند بسكتة دماغية. هذه المرة لم يعد إلى الحياة، أما الأميرة الصغيرة، فأعلنت ملكة باسم إيزابيل الثانية - Isabel II. اعترفت بها كل من بريطانيا وفرنسا والبرتغال؛ من ناحية أخرى فإن دون كارلوس الذى أعلن نفسه ملكًا باسم شارل الخامس – Charles V، لقى تأييد روسيا والنمسا والبابا، أما الأكثر غرابة فكان تأييد فرديناند الثانى ملك نابولى شقيق ماريا كريستينا. أما بالنسبة لإسبانيا نفسها فقد انشطرت نصفين، كانت مدريد والجنوب بالإجماع مع إيزابيل، بينما هب كثير من المدن والبلدات فى الشمال على الفور يؤيدون دون كارلوس. بدأت الحروب الكارلية – آخر حروب التاريخ الأوروبى، التى تقاتل فيها خصمان يدعى كلاهما أحقيته فى العرش – وكان أن استمرت على نحو متقطع على مدى ما يقرب من نصف القرن، وربما أكثر من ذلك.

هناك من يرى أن القوميين – Nationalists فى الحرب الأهلية الإسبانية، كانوا كارليين فى حقيقة الأمر؛ حيث أصبحت الكارلية - Carlism تعنى ما هو أكثر من موالاة دون كارلوس، والاقتناع الراسخ بأنه كان الحاكم الشرعى لإسبانيا، كذلك فإنها كانت تمثل كل التقاليد الإسبانية الرجعية: الكاثوليكية المتشددة، مع طاعة عمياء للكنيسة، وربما الحنين لمحاكم التفتيش "ذلك المنبر المرعب الذى جاءت به الملائكة من السماء إلى الأرض"، والاستبداد السياسى تحت ملك مطلق السلطة "وليس ملكة تحت أى ظرف من الظروف"، وتقشف وزهد كانا طويلًا من ملامح الشخصية الإسبانية، فى مواجهة ذلك كله، كانت هناك موجة الليبرالية الهائلة التى اكتسحت أوروبا كلها فى القرن التاسع عشر، وكانت تمثلها الآن إيزابيل الصغيرة ورعاياها المخلصون لها، لم يعرف عن الأسرة الملكية الإسبانية أية آراء يسارية، إلا أنهم مقارنة بالكارليين، كانوا يعتبرون ثوريين متطرفين، كانوا على أية حال فى حاجة لدعم ليبرالى، وهكذا أصبحوا ليبراليين على غير رغبة منهم، وقد برهنوا على ذلك بإعادة دستور 1812 المعروف بملامحه الليبرالية الواضحة.[3]

كانت إسبانيا الآن ممزقة بسبب الحروب الأهلية، والمعروف أن الحرب الأهلية هى أقسى الحروب وأكثرها ضراوة، كان القتال عنيفًا فى الشمال، مع ارتكاب كثير من الفظائع بحق الرجال والنساء والأطفال فى كلا الجانبين. وأخيرًا، تفاوض الكارليون سرًّا فى أغسطس 1839 على اتفاق للاستسلام، عبر دون كارلوس الحدود إلى فرنسا حزينًا؛

حيث احتفظ ببلاط غريب نوعًا ما مع زوجته الثانية[4] وأبنائه الثلاثة فى بورجيس – Bourges. عاش خمس عشرة سنة أخرى، ولكنه لم يعد إلى إسبانيا قط.

** ** **

بالقرب من نهاية أغسطس 1840، انطلقت ماريا القائمة بالوصاية إلى برشلونة ظاهريًا للاستشفاء فى منتجع كالداس، والحقيقة أنها كانت تريد أن تلتقى بـ "بالدوميرو إسپارتيرو – Baldomero Espartero"، أبرز چنرالات البلاد لتستشيره فى كل الأمور، كان دستور 1812 قد منح درجة كبيرة من الاستقلال لبلديات الدولة، وكان الكثير منها قد حصل على ما كانت هى تعبره أكثر من الميزات التى منحت فى الحرب الأخيرة. كان الأعضاء الأكثر محافظة فى الحكومة حريصين الآن على تحجيم سلطات البلديات بواسطة ما عرف بـ "قانون البلديات – Municipal Bill"، وكانت ماريا كريستينا معهم فى ذلك قلبًا وقالبًا، ومن ناحية أخرى كان الليبراليون مصرين على عدم تنفيذ ذلك. كان من الواضح أن هناك مشكلة كبيرة تختمر، وباعتبار أن قطالونيا لم تكن ممن يكنون حبًا كبيرًا للأسرة الحاكمة، إلا أن ماريا كريستينا فوجئت بالاستقبال الدافئ لها وكانت مسرورة لذلك، ولكنه لم يكن شيئًا مقارنة بالاستقبال الرائع لإسپارتيرو بعد يومين، وعندما أبلغها الچنرال بمعارضته الشديدة للقانون، كانت شديدة الضيق والغضب لذلك، وقامت على الفور بتوقيعه نكاية فيه.

فى تلك الليلة، هبت برشلونة كلها احتجاجًا، أحاط العامة بالقصر يهتفون بحياة الچنرال والدستور، ويهددون بقتل الوصية على العرش ووزرائها، فى الواحدة ليلًا، كانت كريستينا تتوسل للچنرال مذعورة لكى يطلب من الجماهير الانصراف، ولكنه رفض أن يفعل ذلك حتى تسحب موافقتها على القانون. فعلت ذلك، إلا أنها حاولت أن تغير رأيها بعد أيام قليلة، ومرة أخرى دبت الفوضى. هربت ماريا إلى ڤالينسيا، إلا أن الشرارة كانت قد انطلقت، ففى الأول من سبتمبر، ثارت مدريد ونددت بالحكومة.. وسرعان ما حذت حذوها مدن أخرى كثيرة، وبعد أن ابتلعت ما كان قد تبقى من كرامتها ودعت إسپارتيرو لتشكيل حكومة، عاد للبلاد قدر من الهدوء. آنذاك، ألقت ماريا كريستينا قنبلتها، أعلنت تنازلها عن الوصاية على العرش، رجاها إسپارتيرو وطلب منها أن تعيد التفكير فى الأمر، إلا أنها أصرت على موقفها. يقال: إن آخر كلماتها له كانت: "لقد جعلت منك دوقًا (على موريللا – Morella)، إلا أننى فشلت فى أن أجعل منك شخصًا نبيلًا". ودَّعت الأميرتين الصغيرتين بعد ذلك (كانتا فى العاشرة والثامنة على التوالى؛ حيث كانت الصغرى ماريا لويزا فيرناندا من مواليد 1832)، وفى السابع

عشر من أكتوبر استقلت سفينة مع أسرتها الثانية، شبه السرية[5]، حاملة معها كل ما فى القصر من أموال ومجوهرات وفضيات ومفروشات.[6]

ربما كانت الغنيمة التى حملتها معها ماريا كريستينا كافية لكى تجعلها تعيش هى وأسرتها فى راحة ودعة بقية حياتهم، إلا أن تنازلها عن الوصاية كان قصيرًا، لقيت هى وأسرتها ترحيبًا واستقبالًا حارًا فى پاريس، سافر الملك لويس فيليپ إلى فونتين بلو- Fintaineblean للقائهم، كما خصص لهم مسكنًا فخمًا فى الپاليه رويال. فى ديسمبر قاموا بزيارة لروما؛ حيث وقعت إقرار ندم وتوبة – مكتوبًا - عن كل القوانين المعادية للإكليروس التى كانت قد وافقت عليها، حصلت من البابا جريجورى السادس عشر- Gregory XVI على غفران شامل، قبل أن تعود إلى پاريس، ولكن فى الثامن من نوفمبر، أعلن أن الملكة إيزابيل الثانية، وكانت فى الثالثة عشرة، كانت قد بلغت السن القانونية. الآن لم تكن هناك أى عقبات سياسية تحول دون عودة أمها إلى إسبانيا، كانت المشكلات القائمة مشكلات مالية فحسب، طلب الليبراليون أن تدفع كريستينا أولًا تعويضًا عن كل ما حملته معها عند مغادرتها إلى فرنسا. أدى ذلك إلى جدال قانونى طويل، وبخاصة بعد أن رفعت دعوى مضادة مطالبة بمعاش لم يدفع لها؛ إلا أنه بعد تسوية الأمور، كان أن أصبحت أغنى من ذى قبل، وفى آخر الأمر، كانت مستعدة للعودة إلى وطنها.

فى كل مرحلة من مراحل رحلتها عبر إسپانيا، كانت تلقى استقبالًا حارًا، أظهرت هى كذلك أنها بعد خمسة عشر عامًا، وبرغم الزيادة الكبيرة فى وزنها، لم تفقد شيئًا من سحرها وفتنتها الشبابية، بعد عودتها إلى مدريد، عاد للبلاط بهاؤه القديم، حدث ذلك بين عشية وضحاها، حفلات الرقص والاستقبال والعشاء... توالت، كانت تطغى فيها ماريا بجمالها ورقى تصرفاتها على حضور ابنتها الجافة نوعًا ما، التى أصبحت أكثر جفافًا عندما أدركت أن أمها كانت أكثر رقيًا، هذه الأحوال على أية حال ليست غريبة بالنسبة للمراهقات، ولكن إيزابيل تغيرت بسرعة.

** ** **

فى الثالث من أبريل 1846 أرسل الكومت دى برسو - Comte de Bresson، السفير الفرنسى لدى البلاط الإسپانى، أرسل إلى وزير خارجيته فرانسوا جيزو – Francois Guizot رسالة موجزة محددة: الملكة بلغت سن الزواج لمدة ساعتين"[7]. لم يكن كثير من السفراء يمكن أن يهتم بمثل تلك الملاحظة، ولكن من الصعب القول: إن ماريا كريستينا لم تكن تنتظر تلك اللحظة السعيدة، على مدى عدة شهور، كانت قد

كرست وقتًا طويلًا للتفكير فى أمر زواج ابنتها، لم يفكر أحد فى استشارة إيزابيل نفسها. هناك فى بورجس- Bourges، كان دون كارلوس يقوم بتدبير الأمور نيابة عن ابنه كونت مونتمولا- Count Montemolin، إلى درجة التنازل له عن العرش، كان من الواضح أن زواجًا مثل ذلك يكفى لإنهاء قضية الكارليين إلى الأبد، إلا أنه كان يمكن أن يخفض الملكة إلى وضع الملكة المرافقة- Queen Consort، وهو المنصب الذى كانت أمها قد رفضت أن تفكر به. فى پاريس، كان لويس فيليپ يدعم ابنه دوق دى مونپنسييه- Duc de Montpensier؛ بينما فى لندن- حيث كانت فكرة الاتحاد الملكى بين فرنسا وإسپانيا أمرًا بغيضًا - كانت الملكة ڤيكتوريا واللورد پالمرستون- Palmer-ston يضغطان من أجل ابن عم زوجة الأمير، ليوپولد Leopold، أمير كوبرج- Co-burg. كان ذلك بدوره غير مقبول بالنسبة لـ لويس فيليپ، الذى أشار، بكل تهذيب إلى أنه كان هناك بالفعل أمراء لـ كوبرج فى بروكسيل ولندن ولشبونة، وأن أربعة سيكون عددًا كبيرًا. اقترح ملك ناپولى شقيقه كونت تراپانى- Count of Trapani، ولكن حيث إنه كان يدرس فى روما مع الچيزويت الذين كانوا محظورين آنذاك فى إسپانيا، لم يأخذ أحد اقتراحه على محمل الجد.

فى آخر الأمر، كانت ماريا كريستينا مضطرة لتخفيض نظرتها، والبحث فى إطار العائلة، وتم الاتفاق فى النهاية على أن تتزوج إيزابيل سيئة الحظ من فرانسيسكو دى أسيس- Francisco de Asis[8] ابن عمها وابن خالتها كارلوتا- Carlota التى كانت قد توفيت من وقت قريب، لم تكن التوقعات مبشرة، كان الزوج المستهدف قصير القامة، شخصية غير جذابة، عالى الصوت بدرجة مزعجة، وكان الشائع عنه أنه شاذ جنسيًا وربما يكون عنينًا، وكأن ذلك لم يكن كافيًا. ما زاد الأمر سوءًا، كان قرار أن تتزوج شقيقته الملكة الأصغر (والأجمل) لويزا Luisa من دوق دى مونپنسييه- Duc de Montpensier، الأكثر جاذبية ووسامة ورقيًا، وكان المفترض أن يتم الزواج فى الوقت نفسه.

تم الزواج الثنائى فى العاشر من أكتوبر 1846، يوم عيد ميلاد إيزابيل السادس عشر، عندما تم إعلان فرانسيسكو دى أسيس (الذى كان يبدو كما يقال مثل فتاة صغيرة فى ثياب چنرال) وإيزابيل زوجين، انخرط كلاهما فى البكاء، بعد سنوات سأل أحد الأصدقاء الملكة عن ليلة زفافها. أجابت: "ماذا أقول عن رجل كان يرتدى من اللاسيه أكثر مما كنت أرتدى؟". الحقيقة أن هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أنها حتى قبل زواجها كانت قد عرفت أول عشاقها الكثر، كان ذلك هو الچنرال فرانسيسكو سيرانو-

Francisco Serrano "أكثر الرجال وسامة فى إسبانيا"، ولكن عندما ظهرت عليها علامات الحمل فى أواخر صيف 1847، وأصبح التقارب الرسمى مع زوجها ضروريًا، تم نقل سيرانو إلى غرناطة برتبة أعلى، لم تأسف إيزابيل (حتى على انفراد) لرحيله؛ حيث كانت قد عرفت مطربًا شابًا من الأوبرا.

عندما بلغت سن الزواج، كان دخول الحب حياتها عاملًا مهمًا فى التغيرات التى طرأت على شخصيتها، ذهبت عنها الفظاظة، صحيح أنها لم تكن جميلة، إلا أنها كانت تبدو الآن وريثة لبعض دفء أمها، وبالرغم من نهمها الجنسى، كانت تقية وخيرة متسامحة وتراعى مشاعر الآخرين. فى السنوات الأولى لها فى الحكم، كان رعاياها يحبونها، ولكن تدريجيًا بعد أن عرفت قافلة طويلة – جنود وبحارة ومغنون وراقصون وموسيقيون وطبيب أسنان – طريقها إلى حجرة نومها، انتشرت الشائعات، لدرجة أن أصبح سلوكها حديث كل أوروبا الغربية وليس إسبانيا وحدها.

فشلت أمها فى تحسين سمعة العائلة. منذ زواجها الثانى، كانت حياة ماريا كريستينا العائلية لا غبار عليها، إلا أن اسمها أصبح الآن مرادفًا للفساد. رغم أن الثورة الصناعية الإسبانية كانت ما تزال صدى هزيلًا للثورة البريطانية، كان ذلك عصر حقوق وامتيازات تجارية، وخاصة فيما يتعلق بالطرق والسكك الحديدية، وكان يسعدها دائمًا أن تستخدم نفوذها الكبير فى عمليات ابتزاز وتحقيق مكاسب، كما اشتهرت بتعاملاتها الباطنة فى البورصة، كان الفساد الذى تنتقل عدواه دائمًا قد انتشر الآن فى الحكومة والإدارة، إلى أن أصبحت إسبانيا ناضجة للثورة فى صيف 1854. بدأت الاضطرابات الخطرة مساء السابع عشر من يوليو عندما قام العامة بهجوم منظم على قصر ماريا كريستينا لينهبوا كل ما طالته أيديهم، وليدمروا كل ما لم يستطيعوا حمله، لو لم تتمكن الملكة العجوز من الاختفاء هى وابنتها فى اللحظة الحاسمة لما نجت فى تلك الليلة.

اتخذت إيزابيل التى كانت فى حالة من اليأس السبيل الوحيد الذى كان متاحًا أمامها: أرسلت تطلب حضور الجنرال إسبارتيرو، لم يكن هناك ود مفقود بينهما منذ تخلى أمها عن العرش، إلا أنها كانت تدرك أنها إذا كانت تريد أن تظل ملكة، فإن الجنرال كان هو الأمل الوحيد لكى يعيد الهدوء، الشرط الذى أصر عليه – وهو أنها كان لا بد من أن تصلح حياتها الخاصة – جعلها تستشيط غضبًا، ولكنها كانت مضطرة للموافقة على ذلك، فى الثامن والعشرين من يوليو دخل الجنرال مدريد، تم التخلص من كل ما لا لزوم له فى البلاط، وبدت تلوح الفرصة لأن تظل إيزابيل محتفظة بالعرش. من ناحية أخرى، ظلت ماريا كريستينا بمثابة مسؤولية قانونية، وفى الساعات الأولى من صبيحة الثامن

والعشرين من أغسطس، غادرت مدريد إلى منفاها الثانى – والدائم هذه المرة – يصحبها مونوز – Muñoz وأبناؤهما.

كانت إيزابيل مذعورة إلا أنها بقيت متماسكة إلى حد ما، سرعان ما نسيت التعهد الذى قدمته لإسپارتيرو، وقبل أن يمر وقت طويل عرفت كارلوس مارفورى - Carlos Marfori- الشاب، الابن البطين لخباز فطائر إيطالى، الذى عينته رئيسًا للشؤون المنزلية الملكية، مع بداية ستينيات القرن التاسع عشر، كانت الكتابة قد ظهرت على الجدران مرة أخرى! جاء سقوطها الأخير على يد أحد مؤيديها السابقين.. كان چنرالًا يدعى چوان پريم - Juan Prim، وكانت أولى أفكاره أن يضع مكانها أختها لويزا- Luisa وزوج لويزا الدوق مونپنسييه -Duc de Montpensier، وكان مونپنسييه قد دفع له مبلغًا كبيرًا لتمويل تمرد لصالحهما، ولسوء حظه كان أن ارتكب الچنرال الخطأ الفادح بإبلاغ ناپوليون الثالث الذى كان يأمل فى دعمه المالى كذلك، ناپوليون، الذى كان الآن قد زرع لويس فيليپ على العرش الفرنسى، لم يكن لديه النية للسماح لابن سلفه وابنة شقيقه أن يشغلا عرش إسپانيا، وهكذا ضاعت آمال الدوق.

فى الوقت نفسه كان هناك تحدٍّ آخر من مصدر آخر هو الأدميرال چوان بوتستا توپيتى- Juan Bautista Topete، قائد الأسطول الموجود فى كاديز- Cadiz. كان معه الچنرال سيرانو، عشيق الملكة القديم وسرعان ما انضم إليهم پريم. قامت ثورة أخرى فى الثامن عشر من سبتمبر 1864، وسرعان ما انتشرت فى أرجاء البلاد، كانت إيزابيل آنذاك فى سان سيباستيان - San Sebastian التى تبعد عن الحدود الفرنسية بأميال قليلة، كانت رغبتها الأولى هى أن تعود فورًا إلى مدريد، ولكن قبل أن تفعل ذلك، جاءت الأخبار بأن سيرانو كان قد بدأ زحفه على العاصمة التى كانت قد ثارت ضدها، لم تتخل عن العرش مثلما فعلت أمها من قبل، بل ذهبت بهدوء إلى محطة السكة الحديد مع زوجها وعشيقها وأطفالها، وفى التاسع والعشرين من سبتمبر 1868، استقلت القطار التالى إلى فرنسا. كانت ما تزال فى الثامنة والثلاثين من عمرها، وكانت قد حكمت لمدة خمس وثلاثين سنة، وستعيش بعد ذلك ستًّا وثلاثين أخرى، بصرف النظر عن شبقها المرضى، لم تكن امرأة سيئة، لكنها كانت ملكة لا أمل فيها ولا رجاء... والمؤكد أن بلادها كانت أفضل بدونها.

** ** **

لعل بلادها كانت تعد بذلك، إلا أن الكثير كان يتوقف على من يخلفها، بالنسبة لبناتها الأربع وابنها الوحيد، الذين يمكن أن نكون واثقين من أنهم جاؤوا من آباء مختلفين، لم

يكن هناك شك فى شرعيتهم؛ حيث إنها ظلت متزوجة من فرانسيسكو، ابنها ألفونسو - Alfonso، المولود فى 1858 يُعتقد أنه كان نتيجة علاقة بمساعد طبيب أسنان أمريكى يدعى مكيون- McKeon، إلا أنه كان منذ مولده معترفًا به كوريث للعرش، ومنح اللقب التلقيدى أمير أستورياس- Prince of Asturias. من المؤكد أن رحيل إيزابيل المفاجئ أعطى أملًا جديدًا للكارليين.

منذ نهاية الحرب الكارلية الأولى فى 1839، كانوا قد حافظوا على مستوى محدود من المشاركة العامة والظهور، الكونت مونتمولا، الذى كان دوق كارلوس (شارل الخامس) قد تنازل لصالحه فى 1846، كان مثل والده شخصية باهته، لا يترك انطباعًا حسنًا أو أثرًا جيدًا.[9] عدة مرات فى حياته، كان قد دعا الشعب الإسپانى للثورة على مغتصبى العرش، لصالح الملك الشرعى، ولكن أحدًا لم يكن ليهتم كثيرًا، وهو نفسه كان يختفى وقت الحاجة إليه. كان شقيقه دون چوان (الذى دون رغبة منه، أصبح المطالب بالعرش بعد موت مونتيمولا فى 1861، إلا أنه فضل أن يعيش فى برايتون- Brighton فى هدوء) أكثر لامبالاة، وكانت فرص الكارليين ضعيفة إلى أن ظهر دون كارلوس، الابن الأكبر لـ "دون چوان"، على مسرح الأحداث، كان فارع الطول، وسيمًا، فارسًا ممتازًا عاشقًا للجندية، وكان مقتنعًا تمام الاقتناع بعدالة قضية الكارليين، مصممًا على القتال فى سبيلها إلى أن يعتلى العرش الذى كان من حقه. كان كذلك شديد الثراء، بفضل المهر الذى جاءت به زوجته الأميرة مارجريت أميرة پارما- Margaret of Parma. لا عجب كثيرًا أن يعلن فى أثناء اجتماع لمجلس الكارليين الأعلى- عقد فى لندن فى صيف 1868- الشاب دون كارلوس (الذى كان فى العشرين) ملكًا بشكل رسمى، وأن يهتفوا باسمه، بعد أسابيع قليلة، وقع دون چوان مرسومًا بالتخلى عن العرش لابنه.

المؤكد أن دون كارلوس سيكون ملكًا رائعًا، وكان الظاهر الآن أنه ربما تكون له الأفضلية على ألفونسو إستورياس الصغير، الذى تبع أمه إلى المنفى، وكان ما زال فى العاشرة من عمره، بعد عامين، اقتنعت المكلة إيزابيل بالتنازل عن العرش لابنها ألفونسو، كانت الصعوبة الآن - بالنسبة لكلا المطالِبَيْن بالعرش - أن لجنة طوارئ (كان قد تم تشكيلها بعد مغادرتها إسپانيا) قضت رسميًا بأن البوربون كانوا قد فقدوا كل أحقية فى العرش، بالرغم من ذلك، كانت إسپانيا ما زالت مملكة... كل ما كانت تحتاجه الآن... ملكًا.

ولكن كيف يمكن أن تجد ملكًا؟ عرض التاج على ملك البرتغال، وعلى الأمير ليوپولد هوهنزولرن- سيجمارنجن[10]. Prince Leopold of Hohenzollern- Sigmar-ingen، وعلى دوق چنوة... لم يقبله أى منهم، وفى النهاية تم إقناع أماديو - Amadeo

دوق أوستا - Aosta ابن ڤيكتور إيمانويل بقبوله؛ ليدخل عاصمته الجديدة مزهوًا يوم 31 ديسمبر 1870، كون هذا اليوم تحديدًا هو اليوم الذى شهد اغتيال الچنرال پريم صانع الملك، جعل من الواضح أنه برغم سعادة أماديو بقبوله إسپانيا، فإن إسپانيا كانت منذ اللحظة الأولى أقل حماسة له، تنامى السخط، إلى أن دعا دون كارلوس فى أبريل 1872 إلى انتفاضة شاملة، فى الثانى من مايو، دخل إسپانيا، من فرنسا، بصحبة مجموعة قليلة، ولكن بدلًا من أن يجد البلاد كلها مسلحة ومستعدة للقتال، كما كان يتمنى، لم يجد سوى نحو ألفين من جنود العصابات غير المدربين وغير المجهزين، لم يكادوا أن يصلوا إلى قرية أوروكيتا- Oroquieta الجبلية، الواقعة على بعد أميال قليلة من الحدود، حتى هاجمتهم قوات حكومية وهزمتهم هزيمة منكرة. أُسِرَ منهم نحو سبعمائة، إلا أن دون كارلوس تمكن من الهرب ليعود إلى فرنسا.

ظل أماديو يناضل عدة أشهر أخرى، ولكنه كان يلقى مقاومة شديدة سواء من الجمهوريين أو الكارليين- الذين كان يوجد عدد كبير منهم فى البلاط- وأخيرًا اضطر بدوره للتخلى عن العرش فى فبراير 1873. أدى ذلك إلى مزيد من الفوضى. فى آخر الأمر، أُعلنت إسپانيا جمهورية وانتهز الكارليون- غاضبين- فرصتهم. كان الكارليون دائمًا أقوياء فى المناطق الشمالية- قطالونيا وناڤار والباسك- ومرة أخرى دعوا إسپانيا لحمل السلاح دفاعًا عن الملكية، كانوا هذه المرة أكثر نجاحًا منهم فى العام السابق. كان القتال ضاريًا ووحشيًا من كلا الجانبين، ولكن بحلول منتصف الصيف، كانت كل البلاد شمال إبرو- Ebro، باستثناء عدد قليل من المدن، فى أيدى الكارليين، لو أن دون كارلوس كان قد زحف مباشرة على مدريد لكان قد حقق الانتصار النهائى، إلا أنه لسبب غير مفهوم فضل أن يضرب حصارًا على بلباو- Bilbao، تاركًا مهمة التقدم جنوبًا لشقيقه دون ألفونسو كارلوس – Don Alfonso Carlos ولزوجته البرتغالية القوية ماريا دى لاس نيڤيس - Maria de las Nieves، ذات التسعة عشر عامًا، التى كانت ترتدى زى جندى وتحارب إلى جوار زوجها. هذان الاثنان، على رأس جيش مكون من نحو أربعة آلاف رجل، استوليا على كوينكا - Cuenca التى تبعد عن العاصمة نحو ثمانين ميلًا من ناحية الشرق، نتج عن ذلك سفك دماء كثيرة؛ ما ألحق ضررًا بالغًا بسمعة الكارليين.

الآن، كان المد قد بدأ يغير اتجاهه أخيرًا، فى مايو 1874، رفع سيرانو الحصار عن بلباو، من الآن فصاعدًا سيصبح الكارليون فى حالة دفاع، وفى نهاية العام، كانوا قد لقوا ضربة قاصمة: أصدر بريجادير صغير هو "أرسينيو مارتينيز كامپوس – Arsenio Martinez Campos" بيانًا رسميًا – Pronunciamiento يدعو لعودة ألفونسو،

كانت الاستجابة خارج الشمال الكارلى فورية وعامة، على الفور انطلق ألفونسو من إنجلترا – حيث كان يدرس فى كلية سان هيرست العسكرية الملكية – ليستقل سفينة حربية إسپانية من مرسيليا، ويرسو فى برشلونة، ويدخل مدريد فى العاشر من يناير 1875، باعتباره الملك ألفونسو الثانى عشر، وسط ترحيب كبير، لقد استدعاه رعاياه واعترف به البابا، أما عدوه دون كارلوس فلم يكن قد بقى لديه ما يمكن الاعتماد عليه.

من أسف أن دون كارلوس لم يوافق على الفور، واستمر يقاتل على مدى العام التالى؛ لم يستسلم إلا بعد سقوط إستيللا – Estella فى التاسع عشر من فبراير 1876، فى اليوم الثامن والعشرين عبر الحدود الفرنسية، رغم أنه كان يهدد بالعودة، فإن الحرب الكارلية الثانية كانت قد انتهت، تحت الحكم الخير لألفونسو الثانى عشر – Alfonso xII، دخلت إسپانيا ربع قرن من الحكم المستقر، أول ما عرفت منذ وفاة الملك فرديناند قبل ثلاث وأربعين سنة.

** ** **

الآن، بعد تثبيت ابنها على عرش إسپانيا، عادت الملكة إيزابيل وبناتها إلى إسپانيا، لم يسمح لهن على أية حال بالإقامة فى مدريد، وبدلًا من ذلك خصص لهن مقر لائق على بعد خمسة وعشرين ميلًا، فى قصر فيليپ الثانى الضخم فى الإسكوريال - Escorial. كان ذلك إجراء وقائيًا حكيمًا، طوال حياتها كانت إيزابيل متطفلة دائمًا، تتدخل فيما لا يعنيها، ولم تفلح سنوات المنفى من شفائها من ذلك الداء، بمجرد أن استقرت، دخلت فى خلاف وجدال عقيم مع الخزانة حول المعاش المقرر لها، وقبل مرور وقت طويل، كانت قد بدأت من جانبها تخطط وتدبر المكائد مع البابا وتفتعل نزاعًا مع رئيس الوزراء؛ لينتقل هجوم الطرفين إلى الصحافة، كان من الواضح أنه لا بد من اتخاذ إجراء ما، كان من الصعب نفيها مرة أخرى، ولكن تقرر إبعادها عن العاصمة أكثر مما كانت، إلى القصر القديم فى أشبيلية- Seville، "وهكذا فى غضون أشهر قليلة"، كما كتبت ابنتها إيولاليا- Eulalia، "انتقلنا من الملل البارد لبلاط شمالى، إلى ظلم وضجر حرملك شرقى".

لم يكن تغيير مكان الإقامة يكفى لكى تتوقف مكائد إيزابيل، كانت كل طاقتها الآن مكرسة لكى تجد عروسًا مناسبة لابنها، إلا أن ألفونسو استبق ذلك وبادر بأن أعلن بنفسه خبر خطوبته لـ مرسيدس- Mercedes الفاتنة، ذات الستة عشر ربيعًا، ابنة خالته وابنة دوق دى مونپنسييه- Duc de Montpensier، بذلت أمه قصارى جهدها لتثنيه عن ذلك، إلا أنه كان زواجًا مناسبًا، وعن حب حقيقى، وعندما أدركت أنها كانت عاجزة، عادت حانقة إلى پاريس تاركة بناتها خلفها، تم الزفاف يوم الثالث والعشرين من يناير

1878؛ حيث أسرت سعادة الزوجين الواضحة وجمال العروس وسحرها كل القلوب. بعد خمسة أشهر، ولم تكن العروس قد بلغت الثامنة عشرة بعد، ماتت على أثر حمى مَعِدية، فى نهاية 1879، تزوج من ابنة كارل فرديناند أرشيدوق النمسا، وكانت تدعى ماريا كريستينا كذلك، ولكنه ظل زواج مواءمة اجتماعية. هذه المرة وافقت إيزابيل العجوز، وعادت إلى إسپانيا لحضور الزفاف.

كانت حماة الملكة الجديدة وسميتها قد ماتت فى بيتها فى سانت أدرس- Sainte-Adresse، بالقرب من لى هاڤر- Le Havres، بعد أقل من شهرين من وفاة مرسيدس، كما كان مونوز زوجها الثانى قد مات كذلك من زمن، وهكذا أعيد رفاتها إلى إسپانيا ليدفن بالقرب من رفات زوجها الأول فرديناند السابع فى الإسكوريال، ثم فى الخامس والعشرين من نوفمبر 1885، قبل ثلاثة أيام فقط من عيد ميلاده الثامن والعشرين، مات الملك ألفونسو بالسل. أصبحت ابنته الصغرى مرسيدس، ذات الخمسة أعوام، ملكة على إسپانيا، ولكن ليس لفترة طويلة: كانت الملكة ماريا كريستينا التى كانت تحب زوجها جدًّا بالرغم من خياناته المتعددة، والتى لم تغادر مكانها إلى جوار سريره فى أيامه الأخيرة، كانت حاملًا لها ثلاثة أشهر، وفى مايو 1889 وضعت مولودًا ذكرًا - الذى ولد ملكًا فى الحكم لأول مرة فى خمسة قرون، كان والده يريد أن يسميه فرناندو- Fernando، إلا أن ماريا كريستينا كانت مصرة على غير ذلك، بعد خمسة أيام، وحول عنقه نموذج مصغر من وسام الصوف الذهبى، تم تعميده ألفونسو "الثالث عشر"- وكان فألًا سيئًا أن يحمل هذا اللقب.

فى الوقت نفسه، كانت إيزابيلا الكبيرة، جدة الوليد (كانت آخر ملكة فيما عدا اثنتين) ما تزال على قيد الحياة، وتتدخل فى كل شىء كلما وجدت الفرصة، لدرجة أنها حاولت أن تنتزع الوصاية من زوجة ابنها، عندما فشلت تلك المحاولة، استسلمت للضغوط وعادت إلى پاريس وإلى حياة الحفلات والولائم التى كانت تحبها. بقيت ميولها الأخرى كما هى، كانت الآن قد وجدت سكرتيرًا وأمين صندوق جديدًا، كان إنسانًا شريرًا بغيضًا يدعى هولتمان- Haltman وكان ملازمًا لها، ظلت ملكة قلبًا وقالبًا، كانت تتراسل مع الملكة ڤيكتوريا - Victoria، وزميلتها فى المنفى الإمبراطورة أوچينى- Eugenie أرملة ناپوليون الثالث، والواقع أنه ربما يكون إصرارها على الانتظار فى رواق به تيار هوائى شديد لاستقبال الإمبراطورة، ثم الإصرار على البقاء لوداعها، ربما يكون ذلك هو سبب وفاتها، السعال العنيف الذى أصابها انقلب إلى التهاب رئوى حاد لتموت فى التاسع من أبريل 1904، كانت فى الثالثة والسبعين.

هوامش الفصل التاسع والعشرين

(1) انظر الفصل الرابع والعشرين.

(2) مجموعة من القوانين عاش فى ظلها الصاليون – Salians، وهم قبيلة من الفرنجة سكنت مناطق الراين الواقعة قرب بحر الشمال. (المترجم)

(3) كان دستور 1812 – المعروف بدستور كاديز – يقيد سلطات الملك، ويقر برلمانًا من غرفة واحدة (مع عدم تمثيل خاص للنبلاء أو الكنيسة)، كما أدخل نظامًا حديثًا للإدارة يقوم على المقاطعات والبلديات.

(4) بعد موت ماريا فرانسيسكا فى 1834، تزوج من أميرة بيرا – Princess of Beira ، أخت زوجته.

(5) بعد موت فرناند – وربما قبله – كانت قد اتخذت عشيقًا لها، كان عريفًا فى الحرس يدعى فرناندو مونوز – Fernando Monoz. تزوج الاثنان سرًا فى 27 ديسمبر 1833، بعد ذلك أسمته بـ "عريس غرفة النوم – Groom of the Bedchamber ، وبالرغم من إنجابهما أربعة أطفال، لم يعترف بزواجهما علنًا حتى 1845 عندما أصبح مونوز دوقًا على ريانسار – Riansares .

(6) بحسب رئيس الوزراء الفرنسى فرانسوا جيزو – Francois Guizot ، الذى كان يعرفها جيدًا، "لم تترك ستة ملاعق".

(7) "La Reine est nubile depuis deux heures"

(8) Asis ، هى بالإسبانية: Assisi .

(9) فى شبابه فى لندن، كان خطيب الآنسة أدلين دى هورسى – Adeline de Horsey ، التى كانت بعد ذلك الزوجة الثانية لإيرل كارديجان – Earl of Cardigan ، قائد اللواء الخفيف فى بالاكلافا.

(10) قبله فى البداية ثم رفض، لو أنه كان قد رفض رأسًا لما وقعت الحرب الفرنسية البروسية؛ إذ إنها اندلعت؛ لأن نابوليون الثالث لم يكن مستعدًا للتفكير فى تحالف أسرى بين بروسيا وإسبانيا. انظر الفصل الثامن عشر.

الفصل الثلاثون

مصر والقناة

• مشكلات مالية: 1870 • عزل الخديوى: 1879 • حاشية: 1956

قناة السويس الأولى حفرها الفرعون نيخو – Necho فى القرن السابع ق.م. هذا ما يقوله لنا، على الأقل، هيرودوتس – Herodotus، الذى يضيف أن مائة وعشرين ألف مصرى قضوا فى عملية الحفر تلك، وأن الرحلة فى القناة كانت تستغرق أربعة أيام، وأنها كانت تتسع لمرور جيشين جنبًا إلى جنب، إلا أنه بعد مرور نحو خمسة قرون، لم يكن لها أثر تقريبًا، عندما أمر نابليون بإجراء أول عملية مسح مفصلة للبرزخ؛ لينتهى كبير مهندسى المساحة لديه، چان – باپتست لوپير: Jan – Baptiste Le Pere (چان باپتست الأب) إلا أن مستوى طرفى أى قناة يتم حفرها سيكونا مختلفين، وقدر بالفعل أن يكون مستوى الطرف الجنوبى أعلى بنحو عشرة أمتار، ولكن سرعان ما أصبحت تلك نظرية قديمة، وعندما قدم تقريره النهائى كان الفرنسيون قد رحلوا عن مصر، وكان الإنجليز الذين طردوهم مصممين على الرحيل، هم كذلك، بأسرع ما يكون، مرة أخرى ذهبت الفكرة طى النسيان، وظلت كذلك لمدة نصف قرن آخر.

فى 1854، منح خديوى مصر سعيد (والى السلطان العثمانى)، الابن الرابع لمحمد على - شابًا فرنسيًا حالمًا يدعى الكونت فرديناند دى ليسپس - Count Ferdinand de Lesseps ، ممثلًا لشركته الفرنسية، حقَّ إنشاء قناة تمر لمسافة مائة ميل تقريبًا عبر البرزخ، من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر. بدأ العمل فى 1859 واستغرق عشر سنوات بدلًا من الست التى قدرها دى ليسپس، وظهرت فى وقت باكر مشكلات تتعلق بالعمالة المصرية الكبيرة، وفى 1865 كان انتشار الكوليرا يهدد بتوقف المشروع كله، إلا أنه تم التغلب على الصعاب فى النهاية. اتضح أن مخاوف لوپير لم يكن لها أساس، ولم تكن هناك حاجة لعمل هويس، وفى الثامنة والنصف من صباح السابع عشر من نوفمبر 1869 دخل اليخت الإمبراطورى الفرنسى "The Aigle" القناة من ناحية بور سعيد، حاملًا على متنه الإمبراطورة أوچينى – Eugenie ودى ليسپس نفسه، وكان يتبعه خمسة وخمسون سفينة أخرى تحمل الخديوى إسماعيل الذى كان قد خلف سعيدًا ابن أخيه، وضيوفه الرسميين والسفراء الأجانب وغيرهم من كبار المدعوين. صباح اليوم العشرين، دخل اليخت Aigle البحر الأحمر على أنغام فرقته الموسيقية، هناك اعتقاد خاطئ شائع أن "عايدة" أوپرا ڤيردى Verdi، كانت قد كتبت خصيصى للاحتفال بافتتاح القناة، والواقع أن ڤيردى لم يكن مباليًا بذلك الحدث التاريخى لدرجة أنه كان قد رفض كتابة لحن افتتاحى للمناسبة، إلا أن عالم المصريات الفرنسى

أوجست مريت – Auguste Marette، أرسل إليه فى الأشهر الأولى من العام 1870 سيناريو يعتمد على قصة متخلية، تقع أحداثها فى أحد العصور المصرية القديمة، راقت له الفكرة وعلى الفور كلفه الخديوى إسماعيل بكتابة أوپرا، فشرع بكل همة، بالرغم من أن العرض الأول كان مقررًا له أن يكون على مسرح الأوبرا الجديدة التى شيدها إسماعيل فى القاهرة، تم الاتفاق على أن يتم إعداد المناظر والملابس فى پاريس، وكان قرارًا سيئ الحظ؛ حيث أدت الحرب الفرنسية البروسية وحصار المدينة إلى تأخير وصولها عدة أسابيع. وأخيرًا وصلت الديكورات والملابس وافتتحت الأوپرا ليلة رأس سنة 1871، لم يكن فيردى حاضرًا، ويبدو ذلك أمرًا غريبًا إلى حد ما، رغم أنه حضر العرض الأول لها فى ميلان فى أوائل العام التالى.

بالنسبة لأراضى وموانئ شرق المتوسط، كان شق قناة السويس بمثابة منحة سماوية – رغم أن أحدًا لم يدرك ذلك إلا بعد فترة، لم تعد معزولة، وأصبح من الممكن أن تستعيد وضعها القديم كمحطات توقف على طرق التجارة العالمية، حتى دول الشرق الأقصى أفادت منها؛ حيث أصبحت العلاقات التجارية بينها وبين الغرب أكثر قوة. غدا العالم مكانًا أصغر حجمًا.

إلا أنه منذ افتتاح القناة، كانت شركة قناة السويس أسيرة عدة مشكلات مالية، كان حملة الأسهم، الذين كان دى ليسپس قد أقنعهم بأنهم كانوا يستثمرون فى منجم ذهب، كانوا يريدون عائدًا سريعًا على أموالهم، ولكن أوروبا كانت بطيئة فى الاستفادة من الإمكانيات الجديدة، فى أول سنة من تشغيلها، كان عدد السفن التى تمر بها يوميًّا أقل من اثنتين تقريبًا، كان دى ليسپس قد توقع دخلًا سنويًّا نحو عشرة ملايين فرانك، لم يحصل سوى على أربعة، بعد ذلك كان هناك جدال دولى حول الجوانب المالية، لم ينجح المؤتمر الذى دعا إليه الباب العالى فى حسمه، وفى آخر الأمر هدد دى ليسپس الغاضب بإغلاق القناة كلية، بينما أرسل الخديوى – مدعومًا من الباب العالى – قوة عسكرية إلى القناة، وسفينتين حربيتين إلى بور سعيد، مع تعليمات بالاستيلاء على القناة فى حال إصرار الشركة على موقفها. فرنسا، التى سبق أن دعمت دى ليسپس، سحبت دعمها الآن، وكان عليه أن يعترف بالهزيمة.

إلا أن الحرب الفرنسية البروسية كانت قد وجهت للإمبراطورية الثانية الضربة القاصمة، وكان نفوذ فرنسا على القناة يزداد ضعفًا. من ناحية أخرى كان نفوذ بريطانيا يتزايد. كانت حكومة اللورد پالمرستون والحكومات التى خلفتها قد عارضت شق القناة؛ إذ كانوا يرونه خطرًا استعماريًّا فرنسيًّا، ولكن بعد أن أصبح الفرنسيون بعيدين عن

الأمر بالفعل، كان الرأى يتغير بسرعة فى إنجلترا. فجأة، اختصرت المسافة إلى الهند إلى النصف، وانتعش ما كان يعرف بالصناعة السياحية من بومبى إلى كالكوتا. فى غضون عقدين، كان التدفق السنوى على الهند من الشابات فى سن الزواج؛ بحثًا عن أزواج – أو أسطول الصيد كما كان يعرف – قد أصبح أشبه بالمؤسسة.(1) بدأت حظوظ قناة السويس نفسها فى التحسن اعتبارًا من عام 1873، مع التحسن فى الزيادة السنوية المضطردة فى عدد السفن التى تعبرها، كان ثلثا تلك السفن بريطانيًّا، وقال الخديوى للوكيل البريطانى: إنه لم يكن يسعده فحسب أن تكون القناة ملكًا لشركة إنجليزية، بل إنه فى حال تأسيس شركة كتلك، سيبذل كل ما فى وسعه لتسهيل عملية نقلها إليهم.

فى الوقت نفسه، كانت مصر تغرق أكثر فأكثر فى الديون، وبحلول نوفمبر 1875، وجد الخديوى نفسه فى حاجة ماسة لنحو أربعة ملايين جنيه لمواجهة التزاماته، كان السبيل الوحيد أمامه هو أن يقوم ببيع أو رهن أسهمه فى شركة قناة السويس، بدأت مجموعتان فرنسيتان منفصلتان من رجال البنوك تتجادلان أحدهما بالأخرى فى باريس، ولكن لم تكن أيهما أسرع أو أكثر حسمًا من «بنچامين دزرائيلى – Benjamin Disraeli"، الذى كان قد خلف "جلادستون – Gladstone" قبل وقت قصير رئيسًا للوزراء، والذى كان على علم بما يجرى بالضبط عن طريق صديقه "ليونيل دى روتشيلد – Lionel de Rothschild"، الذى كان يتناول العشاء معه بانتظام مساء كل أحد، استمرت المفاوضات فترة، ولكن فى الرابع والعشرين من نوفمبر 1875، تم الاتفاق على أن تشترى الحكومة البريطانية من خديوى مصر 177,642 سهمًا من أسهم قناة السويس مقابل أربعة ملايين جنيه إسترلينى. كتب دزرائيلى للملكة: "لقد حصلت عليها يا سيدتى، لقد تفوقت على الحومة الفرنسية"، وردت الملكة بأن ذلك كان بالفعل "حدثًا عظيمًا وبالغ الأهمية"، وأضافت ساخرة "العيب الوحيد هو ذلك المبلغ الكبير".(2)

إلا أن الأربعة الملايين جنيه كان لا بد من أن تجمع، مرة أخرى لجأ دزرائيلى إلى دى روتشيلد، الذى أرسل إليه سكرتيره الخاص مونتاجو لورى كورى – Montagu Lowry Corry . فى السنوات التالية كان يحلو لكورى أن يروى قصة ذهابه إلى مكتب روتشيلد وإبلاغه بأن رئيس الوزراء كان فى حاجة إلى أربعة ملايين جنيه: سأله روتشيلد: متى؟ فكانت الإجابة: غدًا، التقط روتشيلد بعض حبات من العنب ولفظ القشر وسأل: ومن يضمنكم؟ قال: الحكومة البريطانية. رد: حسنًا! ستحصلون على المبلغ. بعد أيام قليلة، تم تسليم الأسهم للقنصلية البريطانية العامة فى القاهرة. تم عدها فوجدوها 176,602 سهمًا؛ أى أنها كانت أقل من العدد الذى كان قد تم التعاقد عليه بمقدار 1,040

سهمًا، وعليه تم تخفيض السعر إلى 3,976,582 جنيهًا. لا بد من أن يكون ليونيل دى روتشيلد قد ساوره القلق.

لا بد من التأكيد أن بريطانيا لم تشتر القناة، ولا حتى حق الرقابة عليها، إلا أنها بامتلاكها 40% من الأسهم، منعت تلك الرقابة من أن تكون بكاملها فى يد الفرنسيين لو لم تقدم على ذلك. كان من حقها الآن تعيين ثلاثة من أربعة وعشرين مديرًا فى مجلس إدارة الشركة، وهو عدد سوف يرتفع إلى عشرة بعد سنوات قليلة، من بين كل حملة الأسهم، بالإضافة إلى ذلك، كانت هى الأقوى والأغنى.

هل كان شراء بريطانيا الأسهم مقدمة لإعادة توطيد وجود بريطانى فى مصر بدرجة ما؟ كانت المعارضة الليبرالية ترى ذلك، يبدو فى الواقع أن دزرائيلى لم يكن لديه اهتمام خاص بذلك. فى الوقت نفسه، كان على نفس القدر من الأهمية أن تكون القناة محمية جيدًا، وبينما كانت تلك الحماية تتم فى الماضى من قبل الحكومة العثمانية ونفوذ السلطان، كانت قد أصبحت الآن فى يد الخديوى الذى أظهر أكثر من مرة تبذيره وعدم شعوره بالمسؤولية، وأنه لا يمكن الثقة به، لدرجة أن الميزانية المصرية فى 1876 وضعت تحت إشراف مراقبين: أحدهما بريطانى والآخر فرنسى، هذه الرقابة الثنائية كما أطلق عليها منعت الانهيار إلى حد ما، ولكن سرعان ما اتضح أن الخديوى كان لا بد من أن يذهب. وجهت بريطانيا وفرنسا مناشدة مشتركة للسلطان، وفى يونيو 1879 تم خلعه. ابنه توفيق، الذى خلفه على الفور، وجد نفسه فى مواجهة ثورة كبيرة من الوطنيين المصريين، الذين قاموا بانقلاب فى 1881؛ ليقيموا ما كان بالفعل أشبه بدكتاتورية عسكرية، وتبع ذلك بعد تسعة أشهر أعمال شغب فى الإسكندرية، قتل فيها أكثر من خمسين أوروبيًا.

آنذاك، كانت بريطانيا قد أرسلت أسطولًا بحريًا إلى الإسكندرية. وهو ما رد عليه المقدم أحمد عرابى (المعروف للغرب بـ "عرابى باشا") بالبدء فى بناء تحصينات على الجانب المواجه للبحر، أمره الأدميرال البريطانى بالتوقف عن ذلك، وعندما رفض، قصف التحصينات ودمرها، رست القوات البريطانية باسم الخديوى، ومضت لاحتلال المدينة، إلا أن عرابى رد هذه المرة بتهديد جديد: أن يغلق ترعة المياه الحلوة التى كانت تصل النيل ببرزخ السويس، وكانت المصدر الوحيد لإمداده بالماء العذب. مع التدهور السريع فى الموقف، رست حملة عسكرية كاملة بقيادة الجنرال الشهير السير "جارنت ولسلى – Sir Garnet Wolsely"، فى التاسع عشر من أغسطس فى بور سعيد، بينما كانت قوات أخرى فى طريقها إلى السويس قادمة من الهند. بعد شهر، فى الثالث عشر

من سبتمبر، لم يكن هناك صعوبة فى أن تلحق بعرابى هزيمة ساحقة عند التل الكبير على طرف الدلتا، وأن تحتل القاهرة فى اليوم التالى.

هنا، لا بد من أن نتساءل: وأين كانت فرنسا أثناء ذلك الوقت العصيب؟ كانت فرنسا قد أرسلت هى الأخرى أسطولاً إلى الإسكندرية، إلا أنه على الفور – ولسبب غير معروف – واصل إبحاره إلى بور سعيد، ولم يشارك فى القصف أو إنزال قوات، لو أنه كان قد بقى واتبع النموذج البريطانى، لما اعترضت بريطانيا، بكل تأكيد، بل ربما كانت قد رحبت بمثل تلك المشاركة، يبدو أن الحكومة الفرنسية كانت قد فقدت اهتمامها آنذاك بالأمر، بفضل المعارضة الشديدة "لـچورچ كليمنصو – Georges Clemenceau"، كما يقال، فشلت فى إقرار التمويل اللازم للتدخل العسكرى، وهكذا بجرة قلم، ضحت بنفوذ فرنسا التقليدى فى مصر، وأعطت منافسها البريطانى الفرصة للتصرف كما يحلو له، فى آخر 1882، ألغيت الرقابة الثنائية على قناة السويس.

عندما احتلت القوات البريطانية مصر فى الماضى، كانوا يفكرون فى الخروج منها بأسرع ما يستطيعون، إلا أنهم هذه المرة كان قد أصبح لديهم حبل نجاة يدافعون عنه. لعدة سنوات، كانت بريطانيا تزعم أن احتلالها مصر لم يكن سوى إجراء مؤقت. بالنسبة للضم الكامل، فإن الحكومات المتوالية كانت تحتج بأن ذلك كان أبعد ما يكون عن تصورهم؛ كانت مصر جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، وكان يسعدهم أن تظل كذلك. إلا أن القناة كان لا بد من حمايتها، وكانت مهمة بريطانيا هى أن تقوم بذلك، وإذا كانت تلك الحماية تستدعى احتلال مصر... فلا بأس.

الآن، كانت بريطانيا قد ضمنت لنفسها السيطرة الفعلية على القناة فى حال نشوب حرب، إلا أنها كانت تدرك أن مثل ذلك القرار المتعجل لن يرضى القوى الأخرى، وهكذا فإن ممرًا مائيًا بهذه الأهمية الإستراتيچية يمكن - فى آخر الأمر - حمايته بواسطة التحييد الكامل، كانت المفاوضات الدبلوماسية المطلوبة قبل التوصل إلى ذلك دقيقة ومعقدة، ولكن أخيرًا فى التاسع والعشرين من أكتوبر 1888، وقَّع ممثلو تسع دول فى القسطنطينيـة اتفاقية قنـاة السويس، التى أرست "نظامًا واضحًا، لا لبس فيه؛ لضمان استخدام كل القوى قناة السويس البحرية فى كل الظروف"، وتقرر أن تكون القناة مفتوحة أمام كل السفن أيًا كان مصدرها، فى وقت الحرب كما فى وقت السلم. لا تسد مداخلها ولا تقام على شواطئها أو على امتدادها أية تحصينات دائمة. لا يحق لأى سفن عسكرية متحاربة إنزال قوات أو مؤن فى موانيها أو فى أى مكان على امتدادها. تحت شروط الاتفاقية الأصلية الموقعة فى 1854، تظل الاتفاقية سارية حتى 1968؛ أى بعد

99 عامًا من افتتاح القناة. آنذاك فحسب، ستؤول ملكيتها للحكومة المصرية.

** ** **

ربما يكون هذا الفصل فى حاجة إلى حاشية موجزة.

فى نوفمبر 1914، كانت بريطانيا قد أعلنت الحرب على الإمبراطورية العثمانية، وأعلنت الحماية على مصر مع إعادة الخديوى عباس – لم يعد لقب الوالى مستخدمًا بالنسبة له – بلقب "سلطان". بعد أربع سنوات فحسب، مُنحت مصر الاستقلال الكامل (مع بعض تحفظات) لتصبح مملكة مستقلة. أول حاكم الملك فؤاد الأول (السلطان سابقًا)، خلفه ابنه فاروق على العرش فى 1936، الذى حكم حتى 1952، عندما قامت مجموعة من ضباط الجيش بقيادة العقيد جمال عبد الناصر بقلب نظام الحكم الملكى وأعلنت مصر جمهورية. فى 1954 وقعوا اتفاقية مع بريطانيا، تنسحب بموجبها كل القوات البريطانية من قناة السويس: بعد عامين، فى السادس والعشرين من يوليو 1956 – قبل اثنى عشر عامًا من الموعد المحدد لعودة القناة لمصر كما سبق الاتفاق عليه – تم الاستيلاء على القناة وتأميمها، فى نهاية شهر أكتوبر، وبعد أن فشلت كل الاحتجاجات الدبلوماسية، قامت دولة إسرائيل التى كانت قد نشأت حديثًا بمشاركة من بريطانيا وفرنسا - بغزو مصر بهدف استعادة القناة عنوة، تم إنزال قوات بريطانية فى بور سعيد تحت ستار من قصف بحرى، بينما احتل الإسرائيليون سيناء بسرعة، زادت قوة الرفض الدولى للعملية – وبخاصة من قبل الولايات المتحدة – لدرجة أن اضطرت القوات الإنجليزية والفرنسية للانسحاب تاركة عبد الناصر – برغم الخسائر العسكرية الكبيرة – منتصرًا، والقناة فى أيدى المصريين. انتهى النفوذ البريطانى فى مصر، عاد الأهالى إلى بور سعيد، وتم خلع تمثال دى ليسبس من قاعدته... دى ليسبس الذى لولا رؤيته وعزيمته لما كانت قناة السويس، فى قلوب الطغاة.. الوفاء عاطفة نادرة.

هوامش الفصل الثلاثين

(1) من النتائج المؤسفة لذلك أن ضباط الجيش الهندى كانوا يتخلون عن زوجاتهم الهنديات ويجيئون بصديقاتهم من بريطانيا، وكثيرًا ما كان لذلك نتائج كارثية بالنسبة للعلاقات البريطانية الهندية.

(2) الأكثر غرابة كان رد فعل أمير بروسيا، الذى أصبح فيما بعد القيصر "ولهلم الثانى – Kaiser Wilhelm II" الذى قال مبتهجًا: رائع !

الفصل الحادى والثلاثون

حروب البلقان

• ارتقاء چورچ الأول الهيلليني العرش: ١٨٦٣ • «الفظائع البلغارية»: ١٨٧٩ • عبد الحميد الثانى: ١٨٧٦ • اليونان تعلن الحرب متأخرًا جدًا: ١٨٧٨ • كريت وقبرص: ١٨٩٨ • قضية هيلين ستون: ١٩٠١ • عبد الحميد يعيد الدستور: ١٩٠٨ • الإمبراطورية العثمانية بعد عبد الحميد: ١٩٠٩ • هجوم القيصر ولهلم الودى: ١٨٩٨

ظلت اليونان فى سنوات استقلالها الأولى بلادًا تعيسة، ملكها الجديد على نحو خاص كان خيبة أمل كبيرة، لم يكن هناك كذلك أمل كبير فى أن يستطيع «أوتو – Otto" ذو السبعة عشر ربيعًا، الذى لا ينطق بكلمة يونانية واحدة، وليس حتى عضوًا فى الكنيسة الأرثوذوكسية، لم يكن هناك أمل كبير فى أن يجعل نفسه محبوبًا من رعاياه ذوى البشرة الداكنة الذين روعتهم الحرب، كان "لودفيج الأول -Ludwig I "، والد ملك "بافاريا – Bavaria"، قد قام باسم قوى مؤتمر لندن (بريطانيا وفرنسا وروسيا) بتعيين مجلس وصاية من ثلاثة كانوا كلهم بافاريين، واحد منهم فقط هو الذى كانت قدمه قد وطأت أرض اليونان، لم يبد أى منهم أى شعور بالعادات أو التقاليد المحلية، أدخلوا أنظمتهم القانونية والتعليمية الخاصة، ألجموا الصحافة، فرضوا الضرائب الباهظة المجحفة، واستمروا على ذلك النحو ثلاث سنوات - كانت تعرف بـ «الباڤاروقراطية – Bava-rocratia"، ولكن حتى بعد أن بلغ أوتو من العمر عتيًا فى 1835، لم يكن هناك سوى تغير طفيف، كان النفوذ الباڤارى قويًا كما كان دائمًا، وكان يواجه معارضة متزايدة، وكان اليونانيون يتساءلون ما إذا كان ذلك هو ما حاربوا من أجله ببسالة طويلًا، كان حكامهم الجدد أكثر سوءًا من الأتراك.

بلغت الأمور ذروتها فى 1843، عندما أجبر انقلاب عسكرى أبيض أوتو على منح دستور، وكان ذلك يبدو وضعًا ليبراليًا على الورق؛ لأنه كان يقدم - بين أمور أخرى - حق الاقتراع العام لكل الذكور (رغم أنه كان على الإناث أن ينتظرن حتى 1952)، وفى الوقت نفسه تم طرد الوزراء الباڤاريين لتحل محلهم حكومة جديدة مكونة من يونانيين على وجه الحصر، مع مجلس وطنى يونانى. الواقع أن المجتمع اليونانى التقليدى - بفضل الاحتلال التركى الطويل - كان قد تطور على نحو مختلف تمامًا عن مجتمعات أوروبا الغربية، ولم يكن الناس مهيئين لديموقراطية حديثة متطورة، وبالرغم من ذلك كان يبدو أن اليونان قد اتخذت خطوة مهمة إلى الأمام، وكانت هناك أرضية تجعلهم يأملون فى مستقبل أفضل.

من أسف أن تلك الآمال ضاعت هباء، كل ما حدث أنه كان قد تم تنحية أوليجاركية[1] باڤارية لصالح أوليجاركية يونانية، ولعلها كانت أحكم قبضة من سابقتها، عندما نشبت حرب القدم فى مارس 1854، كان المتصور – بالتأكيد - أن يكون اليونانيون عاطفيًا مع روسيا - التى كانت آنذاك القوة الرئيسية الأخرى الوحيدة التى لديها كنيسة أرثوذوكسية

قومية - وأن يعارضوا الإمبراطورية العثمانية، التى كانت قد استعبدتهم قرابة خمسمائة عام، من ناحية أخرى، كانت حماقة شديدة تلك التى جعلتهم يقومون بغزو فاشل لـ: تيسالى - Thessaly وإبييريوس - Epirus اللتين كانتا فى أيدى الأتراك، كان من نتائجه أن قامت الأساطيل البريطانية والفرنسية باحتلال "بيرايوس – Piraeus"، وإنزال وحدات من القوات الأجنبية لتبقى على الأراضى اليونانية حتى 1877. كان ذلك يبدو كثيرًا بالنسبة لوضع اليونان المستقل الذى كانت قد حصلت عليه أخيرًا.

فى السنوات الأخيرة من حكمه، كان أوتو يبدى وطنية حقيقية تجاه وطنه بالتبنى، وكان يسيطر عليه ما كان يعرف بـ «الفكرة العظيمة: The Great Idea»: فى جوهرها، استئصال العثمانيين ليحل محلهم بيزنطة جديدة، إمبراطورية يونانية مسيحية عاصمتها - مرة أخرى - القسطنطينية. إلا أن أوتو لم يكن محبوبًا من رعاياه. فى 1862، وفى إحدى جولاته فى البيلوبونيز، قام عصيان مسلح فى القلعة الڤينيسية القديمة فى "ڤونتزا – Vonetza"، وقبل أن يتمكن اليخت الملكى من العودة إلى أثينا، أعلنت الحكومة خلع ملكها، عاد أوتو إلى ألمانيا ليستقر فى "بامبرج – Bamberg"، وليموت هناك بعد خمس سنوات.

قبلت القوى طرده دون اعتراض، وشرع رعاياه يبحثون عن خليفة له، استمر البحث عامين، وقع اختيارهم الأول على الأمير ألفريد، الابن الثانى للملكة ڤيكتوريا، ولسوء الحظ أن كان من بين شروط اتفاقيتى 1827 و 1830 ألا يشغل عرش اليونان أى من أعضاء الأسر الحاكمة فى القوى الثلاث، ولذا تم إهمال ذلك الاقتراح. بعد ذلك، كانت هناك محاولة مع ابن "كريستيان التاسع - Christian IX" ملك الدانمرك (وكان فى السابعة عشرة)، الذى كانت أخته ألكساندرا قد تزوجت حديثًا من أمير ويلز، كان اسمه "وليم" تفوح منه رائحة الشمال، وتقريبًا كان لا يمكن كتابته بحروف يونانية، إلا أنه كان سعيدًا بتغييره، وهكذا كان أن شغل العرش باسم "الملك جورج الأول الهيلينى - kiny Georye I oy the Hellenes"؛ ليظل عليه لمدة نصف القرن، عندما اغتيل بينما كان يتمشى مساء الثامن عشر من مارس 1913 فى "تيسالونيكا – «Thessalonica.

كان حكم الملك چورچ قد بدأ بداية مبشرة، عندما تخلت بريطانيا طواعية - رغم المعارضة الشديدة من "وليم إيوارت جلادستون - William Ewart Gladstone" - لليونان عن الجزر الإيونية التى كانت تحت حمايتها منذ 1815.(2) استمر ذلك بنجاح آخر: وضع الدستور الجديد فى 1864، وكان تحسينًا كبيرًا لدستور 1844، كانت شعبية چورچ التى جاءت فيما بعد، تعود إلى حد كبير، إلى تبنيه مبادئ مناقضة لمبادئ أوتو:

فبدلًا من محاولة فرض شخصيته وأسلوب قيادته، حاول أن يبقى رئيسًا صوريًّا لا يتدخل فى شؤون الحكم إلا قليلًا بقدر الإمكان، تاركًا لوزرائه مطلق التصرف.

الآن، وبعد أن أصبحت الجزر الإيونية جزءًا من المملكة، كانت المشكلة التالية المتعلقة بالأرض هى كريت، كان تلك الجزيرة تجربة أطول مع السيطرة الأجنبية، فبعد أربعة قرون تحت ڤينيسيا، كانت على خلاف كورفو ومعظم قريناتها[3]، قد عانت من البقاء تحت الحكم العثمانى قرنين آخرين مكان حكم راسخ، أيام تبعيتها لڤينيسيا، كانت دائمًا إقليمًا للعصيان المسلح، كما أن حرب الاستقلال زادت من التهاب الشعور القومى بين السكان المسيحيين، لدرجة أن أهالى كريت لم يكونوا يضعون نصب أعينهم طرد الأتراك فحسب، وإنما كذلك الاتحاد مع المملكة اليونانية الجديدة، كانت كريت قد أوفدت ممثلين إلى المجلس الوطنى فى آرجوس فى 1929، ولكن فى العام التالى - كما رأينا - كان السلطان محمود قد وهب الجزيرة لمحمد على مكافأة على خدماته له أثناء خصوماته الأخيرة، هذه الوحدة مع مصر، وأقل ما يقال بشأنها: إنها كانت غير طبيعية، لم تدم أكثر من عشر سنوات؛ ففى 1840 ، قام السلطان باستردادها عندما غضب على واليه الذى تمرد عليه.

بالنسبة لأهالى كريت، لم يكن يهمهم كثيرًا، ما إذا كانوا تحت حكم الأتراك أو المصريين، كان مطلبهم هو الاتحاد «enosis» مع اليونان، استمرت الانتفاضات المسلحة التى كان أكثرها دموية تلك التى هبت فى 1866، فى هذا السياق، كان أن قام مانيسيس Maneses، رئيس دير أركاديون - Arkadion، وأحد الأبطال العظام فى تاريخ كريت، بتفجير مخزن البارود بدلًا من أن يستسلم، رغم غرابة أن يكون هناك مخازن للبارود فى الأديرة، حمام الدم الذى نجم عن ذلك، الذى قتل فيه عدد كبير من النساء والأطفال بدم بارد، أحدث فضيحة عالمية؛ كانت الحكومة البريطانية على نحو خاص، محل لوم شديد عندما كشف النقاب عن أنها كانت قد أصدرت الأوامر للبحرية الملكية بإنقاذ المدنيين الكريت من جميع الأعمار، الذين كانت تهددهم المذبحة، حتى لا ينظر إلى تلك العمليات باعتبارها تخليًا عن الحيادية التى كانت بريطانيا مصممة على الحفاظ عليها.

وأخيرًا، وجه السلطان، الذى كان قد ضاق ذرعًا بالدعم المكشوف الذى كانت الحكومة البريطانية تقدمه للمنتفضين والمتمردين، وجه إنذارًا فى 1868: على اليونان أن تتعهد فى غضون خمسة أيام بالتوقف عن تجهيز السفن للعدوان على تركيا، وكانت هناك بنود أخرى، إلا أنها لم تكن عملية، رفضت اليونان الإنذار، قطعت العلاقات

الدبلوماسية، وهدد هوبارت باشا بمحاصرة البلاد، كان هوبارت باشا أحد قادة البحرية الملكية المتقاعدين، وكان يعمل فى خدمة السلطان قائدًا للأسطول التركى، بدت الحرب وشيكة، ولكن مؤتمرًا للسفراء الأوروبيين نجح فى إقناع اليونانيين بقبول الشروط التركية، واستؤنفت العلاقات فى العام التالى، فى مقابل ذلك منح السلطان كريت دستورًا يوفر لها قدرًا من الحكم الذاتى ويهدئ الخواطر ولو مؤقتًا.

فى صيف 1876، انفجر الموقف فى شبه جزيرة البلقان.[4] بدأ الاشتعال عندما هبت جماهير الصرب الأرثوذوكس فى البوسنة والهرسك ضد حكامهم العثمانيين، وسرعان ما هبت صربيا ومعتمدية مونتينيجرو – Montenegro - وهى أرثوذوكسية وتتكلم الصربية كذلك - لمساعدتهم، ولم يكن من المتصور ألا يتحرك البلغار وهم الشعب السلاڤى الوحيد الآخر فى شبه جزيرة البلقان، انطلق العصيان المسلح فى ولاية الدانوب - Vilayet of the Danube - كما كانت بلغاريا تسمى رسميًا - فى مايو 1876، كان العصيان فى حد ذاته ضئيلًا نسبيًا، إلا أن إخماده تم بطريقة غاية فى الوحشية، فى قرية باراك - Barak التى استسلمت بعد مقاومة قصيرة، تم ذبح معظم الذكور من الأهالى، وتم اقتياد النساء والأطفال إلى كنيسة ومدرسة القرية ثم أشعلت فيهما النيران. فقدت باراك وحدها نحو خمسة آلاف من سكانها البالغ عددهم سبعة آلاف نسمة، وقدر عدد من تم ذبحهم من المسيحيين فى ذلك الشهر الواحد بما لا يقل عن اثنى عشر ألفًا.

استقبل العالم المتحضر - وخاصة فى روسيا - أخبار تلك المجزرة برعب شديد؛ حيث أعلن القيصر تضامنه فورًا مع شركائه فى العقيدة، فى لندن كانت "الفظائع البلغارية" موضوع كتيب غاضب لمستر جلادستون - Gladstone – الذى كان قد ترك منصبه - الذى انتقد بشدة سياسة إدارة دزرائيلى الموالية للأتراك - الاستياء الشديد الذى تم التعبير عنه فى كل مكان، كان له أثره حتى فى القسطنطينية؛ حيث نظم نحو ستة آلاف من طلاب المدارس والمعاهد الدينية مظاهرة حاشدة مطالبين بطرد الوزير الأول والمفتى الأكبر، رضخ السلطان عبد العزيز على الفور، ولكن المتظاهرين - والشعب كله فى الحقيقة - ظلوا غير راضين. منذ تلك اللحظة، كما يقول السفير البريطانى، "أصبحت كلمة (الدستور) على كل لسان".

فى الوقت نفسه، كان الجيش التركى قد أوقع بالصرب هزيمة ساحقه ويستعد على للزحف على "بلجراد – Belgrade". لولا تدخل القوى - التى كانت ألمانيا والنمسا قد انضمتا إليها الآن - فى الوقت المناسب وأصرت على عقد هدنة، صاغ القيصر وإمبراطور النمسا معًا، تدعمهما ألمانيا، ما عرف بمذكرة برلين --Berlin Memo

randum، للضغط على الباب العالى للقيام بإصلاحات جذرية، وطلبوا تعاون بريطانيا، رفض دزرانيلى الطلب تمامًا، مشيرًا إلى أن بريطانيا لم يتم استشارتها سابقًا، كما رفض أن تشارك القوى الثلاث فى "وضع سكين على رقبة تركيا"، ولكى يدعم الروح المعنوية التركية أكثر من ذلك، أمر بأن تشارك مجموعة من السفن من الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض وتتخذ مواقعها فى مدخل الدردنيل، ومصرًّا على منع الحرب التى كانت روسيا قد عقدت عزمها عليها، دعا لمؤتمر للقوى الست يعقد فى القسطنطينية فى شهر ديسمبر التالى.

لم يتحسن الوضع فى المدينة برغم القلق المتزايد حول حقيقة الصحة العقلية للسلطان، كان عبد العزيز قد خلَف أخاه غير الشقيق عبد المجيد فى 1861، كان أحد السلاطين القلائل المرعبين الذين عرفتهم الأزمنة الحديثة، كان طوله نحو سبع أقدام - ما زال سريره الذى يبلغ طوله ثمانية أقدام موجودًا فى قصر دولما باشى - ولحية كثة سوداء وطباع وحشية، وكان ذلك كله يجعله يبدو فى نظر الكثيرين فى بلاطه من مخلفات أسوأ أيام القرنين السابع عشر والثامن عشر، فى 1876 وكان ما زال فى السابعة والثلاثين، دعاه نابوليون الثالث إلى فرنسا لحضور المعرض العالمى الكبير، وقام بزيارة ڤيينا ولندن فى طريقه، كان بذلك أول سلطان فى التاريخ العثمانى يضع قدمه سلميًّا على أرض أوروبا المسيحية، وبقيت الذكرى راسخة فى رأسه مثبتة فيه إصرارًا على أن يكون لديه أسطول من السفن الحربية الحديثة (رغم إصابته بدوار البحر وهو يستعرض الأسطول الوطنى مع الملكة ڤيكوريا فى سپتهيد - Spithead، كما تركت الزيارة لديه شغفًا بالسكة الحديد، التى استطاع أن يحققها فى القسطنطينية بعد ست سنوات، ولكن مع كل عام يمر، كانت نوبات الغضب المرضية تزداد وطأة وتصبح خارج السيطرة، وبحلول العام 1876، كانت الدولة قد أصبحت على حافة الإفلاس بسبب بذخه وتبذيره.

بعد تفرق طلبة اللاهوت وانصرافهم بفترة وجيزة، كان أن قام "حسين أڤنى --Hüseyin Avni قائد الجيش، فى الساعات الأول من يوم الثلاثين من مايو فى ذلك العام الرهيب، بتطويق قصر دولما باشى بكتيبتين من جنود المشاة، بينما كانت قوة بحرية على أهبة الاستعداد فى البوسفور. عندما دخل القصر، وجد نفسه على الفور فى مواجهة السلطان الذى كان يقف على السلم بملابس النوم وبيده سيف، وعندما قدم له قرار العزل، لم يبد عبد العزيز أى مقاومة، وقام صاغرًا بالصعود إلى البارجة الرسمية التى كانت فى انتظاره لتحمله إلى قصر طوپكاپى - Topkapi القديم. هناك تم احتجازه ليلة، بكل فظاظة، فى الغرفة التى كان سلفه سليم الثالث قد قتل فيها فى 1808، قبل إرساله

فى اليوم التالى عبر البوسفور مرة أخرى إلى مكان أبعد وهو قصر سيراجان Çirağan (الذى يوجد بجواره الآن أحد فنادق إسطنبول الفخمة) وبعد أربعة أيام، وجدوه ميتًا فى مقر إقامته الجديد بعد أن كان قد قطع شرايينه بمقص، كانت هناك شائعات عما هو أكثر من مجرد عملية انتحار، إلا أن شهادة ثمانية أطباء بعكس ذلك، يبدو أنها قبلت فى النهاية.

يمكن أن يكون ذلك كله مثيرًا، إلا أن الدراما كانت ما تزال فى بدايتها، بعد أسبوع ماتت الشركسية الشابة زوجة عبد العزيز المفضلة أثناء الولادة، وكانت مأساة تركت أثرًا كبيرًا على أخيها - الذى كان مسؤولًا عن الإسطبل السلطانى - لدرجة أنه اقتحم اجتماعًا لمجلس الوزراء يوم الرابع عشر من يونيو، وقتل قائد الجيش ووزير الخارجية، وكان لذلك التطور الأخير أثره كذلك على مراد الخامس، السلطان الجديد، الذى كان قد أغمى عليه عند سماعه خبر موت عمه، وظل يتقيأ لمدة ست وثلاثين ساعة؛ كما أدخلته أخبار الاغتيالات الأخيرة فى حالة من الاكتئاب، فشل إدمانه للكحول فى أن يخرجه منها، فى آخر أيام أغسطس، كان أن قضى نحبه مثل عبد العزيز، ولكن لم يكن هناك مقصات فى هذه المرة، كان قد بقى سجينًا فى قصر سيراجان على مدى الثمانية والعشرين عامًا الأخيرة.

بالنسبة للسلطان عبد الحميد الثانى، يمكن أن نقول: إنه كان أفضل من سابقيه، وإن بدرجة ما، كان والده عبد المجيد قد أهمله بعد أن ماتت أمه الشركسية وهو فى السابعة من عمره، فانسحب الطفل داخل نفسه بلا أصدقاء أو رفاق، كان شديد القسوة والدهاء كإنسان، ضعيفًا ومترددًا كحاكم، مع خوف شديد من الاغتيال طغى على حياته وقلل من ظهوره العام إلى أدنى حد ممكن، كان يكره قصر دولما باشى الخاص بوالده عبد المجيد بسبب موقعه المكشوف المعرض للخطر على البوسفور، وبنى لنفسه سراى جديدًا - مركزًا للحكم والسلطة - خلف الأسوار العالية المنيعة لبستانه فى ليدز-Yildiz أعلى التلال، من هنا كان ذلك الكيان الأحدب، المحنى الكتفين، ذو الأنف المعقوف واللحية السوداء والبشرة الشاحبة - كان دائمًا ما يبدو وكأنه ينكمش مرتعدًا من منجل متخيل - من هنا كان ينسج خيوط مؤامراته ومكائده ويستقبل جواسيسه ومخبريه، ويدير بنفس الأسلوب إمبراطوريته المتهاوية.

لم يكن عبد الحميد - فيما أعتقد - من الحكام الذين يمكن أن يمنحوا رعاياهم دستورًا، إلا أنه كان فطنًا بما فيه الكفاية لكى يدرك أنه إن لم يمض على الأقل نحو تهدئة السخط العام إلى حد ما، فقد يصبح السلطان الثالث الذى يفقد عرشه فى غضون ذلك العام

المشؤوم، كان كذلك حريصًا على طمأنة المندوبين الأوروبيين فى المؤتمر القادم، ففى آخر الأمر، إذا ظهر أن تركيا كان لديها مشروع خاص بها للإصلاح الدستورى، فأى دور يمكن أن تقوم به تلك الدول بعد ذلك؟ لم تكن مصادفة بالتأكيد أن يصدر ويعلن مرسوم الدستور الجديد صبيحة يوم انعقاد المؤتمر، إلا أنه لا بد من أن يقال: إن ممثلى الدول لم يقتنعوا، حتى رئيس الوفد البريطانى، ماركيز سالزبرى Manquess of-Salisbury، الذى كان وزير الخارجية لشؤون الهند فى إدارة دزرائيلى، وكان لا بد أن يكون المتوقع أن يشارك رئيسه تعاطفه، حتى ماركيز سالزبرى هذا لم يحاول أن يخفى استياءه، على خلاف زملائه، سُمِحَ له بلقاء السلطان عبد الحميد، إلا إنه وصفه فيما بعد بأنه كان "إنسانًا بائسًا ضعيفًا، قال لى: إنه لا يجرؤ على تقديم ما نطلبه منه؛ لأنه كان يخشى على حياته.[5]

هكذا - إلى حد ما - بسبب الدستور الذى سرعان ما اتضح أنه لم يكن يساوى الورق الذى طبع عليه وتم تعليق العمل به على أى حال - وإلى حد ما كذلك - وبسبب كون السلطان لم يكن لديه النية لمنح بلغاريا والبوسنة والهرسك حكمًا ذاتيًا، لمجرد أن القوى الأوربية كانت تريد ذلك، لهذه الأسباب فشل مؤتمر القسطنطينية فشلًا ذريعًا، كانت الحرب حتمية.

كانت روسيا أول دولة تتحرك؛ حيث عبرت جيوشها الحدود الأوروبية والآسيوية لتركيا فى الرابع والعشرين من أبريل 1877، بعد شهر، أعلنت رومانيا استقلالها وانضمت للمحاربين، وقبل أن يمر وقت طويل، كانت تركيا تتراجع على كل الجبهات، وأخيرًا فى 31 يناير 1878 وافق السلطان على هدنة. كان ذلك بالفعل استسلامًا، وبرغم ذلك لم ينجح كثيرًا فى تهدئة الأوضاع أو حالة الذعر على البوسفور، كانت تبدو هناك إمكانية حقيقية لأن يتراجع الهلال أمام الصليب بعد أكثر من أربعة قرون.

إلا أن هذا الاحتمال لم يكن يروق كثيرًا للنمسا، التى كانت تضع الآن عينها على البوسنة والهرسك، كما لم يكن يروق لبريطانيا؛ حيث كان دزرائيلى دائمًا صديقًا لتركيا، وحيث كان الشعب الذى كان ما زال يتذكر حرب القرم - يجأر بقوة بالأغنية المعاصرة:

لا نريد أن نحارب، إلا إذا كان من أجل المسيح؛

لدينا السفن، لدينا الرجال، لدينا – كذلك -

المال. لقد حاربنا الدب من قبل، وبينما يظل

البريطانيون صادقين، لن يستولى الروس على القسطنطينية.

لتأكيد هذا الأمر أكثر من ذلك، أمرت بريطانيا مجموعة سفن من أسطولها فى البحر الأبيض، فى منتصف فبراير، بعبور المضايق إلى بحر مرمرة، وبأن ترد النار بالنار إذا اقتضى الأمر ذلك، وبأن تحتل مواقعها أمام المدنية، أما إذا كان الهدف من ذلك تهدئة الأوضاع - كما كان من المرجح، فإن الهدف لم يتحقق، لم تفلح كل تلك الإجراءات، كان السلطان خائفًا أكثر منه فى أى وقت مضى، بينما اعتبر الروس الإجراءات البريطانية عملًا عدوانيًا وواصلوا تقدمهم نحو مرمرة ولم يتوقفوا إلا عند سان ستيفانو -- San Stefano (الآن موقع المطار الدولى - يسلكوى: Yeşilköy). مع ميل بريطانيا وروسيا المتزايد نحو الحرب، وافق «الدوق الأكبر نيكولاس - Grand Duke Nicholas - الذى كان يقود القوات الروسية - على عدم التقدم أبعد من ذلك، كما وافق السير فيبز هورنباى - Sir Phipps Hornby من جانبه، على سحب سفنه إلى جزيرة الأميرات التى تبعد نحو ثمانية أميال إلى الجنوب من القرن الذهبى.(6)

بالنسبة لليونانيين، كانت الأحداث الأخيرة توحى بأن «الفكرة الكبرى - The Great Idea" لم تعد أملًا كاذبًا كما كانت تبدو من قبل؛ رؤية العلم اليونانى يرفرف فوق كنيسة سان صوفيا - St Sophia كانت تصورًا لا يمكن أن يقاومه أى يونانى مخلص، كان هناك، كذلك الأمل الإضافى، وهو أن الأعمال العدائية الواضحة قد تشجع اليونانيين فى الإمبراطورية العثمانية على الثورة، وقد قامت بالفعل انتفاضات فى تيسالى - Thessaly وإبيريوس - Epirus، ثم – حتمًا - فى كريت، وهكذا دخلت اليونان الميدان، من أسف أن التوقيت كان فى غاية السوء: أعلنت الحرب فى الثانى من فبراير 1878، وليس لديها فكرة عن الهدنة التى كان قد تم التوصل إليها قبل ثمانية وأربعين ساعة، تم استدعاء الجيش اليونانى، الذى كان قد عبر الحدود التركية بالفعل؛ لكى يعود على عجل، ولم يكن الأمر يخلو من ارتباك، عاد الهدوء بسرعة إلى إبيروس، ثم إلى تيسالى، مع بعض أعمال قتال متقطع.

أدت الهدنة مباشرة إلى معاهدة سان ستيفانو، التى وقعها ممثلو روسيا وتركيا فى الثالث من مارس، كان اتفاقًا غير عادى، لم يرض أحدًا سوى بلغاريا التى استعادت إمبراطوريتها التى كانت عظيمة ذات يوم فى العصور الوسطى، كما وضع الاتفاق نهاية لكل الطموحات اليونانية فى مقدونيا، لا تعنينا مواد المعاهدة الأخرى ويكفى القول أنها ما كانت لتطبق. اجتمعت القوى الكبرى - التى كانت تضم الآن الإمبرطورية العثمانية كذلك - بعد ثلاثة أشهر فى برلين حيث كانت مداولاتهم مرضية لليونان بشكل أكبر، إلا أن الحكومة التركية أخلفت وعودها، وظلت تماطل وتراوغ ولن يحصل اليونانيون على

أى جزء مما أعطى لهم، قبل أن تمر ثلاث سنوات أخرى، فى آخر الأمر، كان عليهم أن يقنعوا بالحصول على تيسالى، وهى إقليم شديد الأهمية والقيمة، وكان قد بقى تركيًا على مدى خمسة قرون، كما حصلوا على جزء من إيبيريوس بما فى ذلك آرتا – Arta.

ظلت كريت فى يد الأتراك، فى ذلك العام نفسه (1878) منحها السلطان ما كان بمثابة دستور تكميلى. تم بموجبه تشكيل مجلس تشريعى من 49 مسيحيًا و31 مسلمًا، كما قضى، بين أمور أخرى، بأن تكون اليونانية لغة المجلس والمحاكم، وبأن يخصص نصف العائدات السنوية لبناء المدارس والمستشفيات والموانئ والطرق... التى لم يكن قد أنفق عليها شىء منذ أيام الفينيسيين. هذا التدبير، جعل الجزيرة تنعم بالهدوء لمدة عقد تقريبًا، إلى أن هبت انتفاضة مسلحة جديدة فى 1889 تلتها انتفاضتان أخريان فى 1896 و1897، وكانتا من القوة والخطر، حتى إن الثانية أسفرت عن مذبحة للمسيحيين فى شوارع كانيا - Canea وإحراق الحى المسيحى فى المدينة.

بعد هذه الفظائع، لم تبق اليونان ساكنة أكثر من ذلك، غادر الأمير چورچ Prince George، الابن الثانى للملك، غادر سالاميس - Salamis بأسطول صغير من قوارب الطوربيد؛ ليمنع عمليات إبرار تعزيزات تركية؛ وفى الخامس عشر من فبراير 1897 رسا 1500 يونانى بأسلحتهم بالقراب من "كانيا" - مع تذكارات بقمصان غاريبالدى الحمراء فى صقلية لحفزهم - للاستيلاء على الجزيرة باسم الملك. ربما، حتى عند هذه النقطة، كان بالإمكان، عن طريق إجراء حازم منسق بين القوى الأوروبية، منع ارتكاب فظائع أخرى، وهو ما لم يكن يريده الملك أو السلطان، ولكن إجراء كذلك لم يكن متيسرًا؛ وفى السابع عشر من أبريل، أعلنت تركيا الحرب.

كان الملك نفسه قد طمأن زائريه الأجانب إلى أن كل اليونانيين فى إمبراطورية السلطان، سوف يقومون فى حال الحرب على ظالميهم، وعلى أن معظم الجاليات المسيحية الأخرى سوف تحذو حذوهم، من أسف أن شيئًا من ذلك لم يحدث، فحرب الثلاثين يومًا - كما أصبح يطلق عليها - جاءت بسلسلة من الكوارث على اليونان، بحسب موسوعة كمبردج للتاريخ الحديث، فإن "البحرية اليونانية التى كانت متقدمة عن بحرية الأتراك، لم تقم بشىء سوى القصف غير المؤثر لـ "پريڤيزا"، والاستيلاء على شحنة خضراوات فى سانتى كوارانتا - Santi Quaranta وسفينة أحد أعضاء البرلمان البريطانى من محبى الثقافة التركية. أما على البر، فكان أداء اليونانيين أفضل قليلًا، كان من حسن حظ اليونان أن القوى عندما تدخلت أجبرت المتحاربين على الموافقة على هدنة. تم سحب كل المقاتلين اليونانيين من كريت؛ لتكون بعد ذلك تحت

إشراف وحراسة قوة دولية. كان على اليونان، التى كانت قد أصبحت مفلسة تمامًا، أن تدفع تعويضًا ضخمًا للسلطان، ومن ناحية أخرى، كان عبد الحميد مجبرًا فى النهاية على الوفاء بوعده بالانفصال الرسمى لتيسالى، وكان ذلك عهدًا قطعه على نفسه قبل عشرين عامًا.

حينذاك فحسب، بذلت القوى جهدًا جادًا لحل مشكلة كريت مرة وإلى الأبد. تم إقناع السلطان باتخاذ خطوة أبعد، وهى منح الجزيرة حق الحكم الذاتى تحت السيادة العثمانية. فى نوفمبر 1898 انسحبت آخر قوات تركية من كريت، واعتبارًا من نهاية العام، أصبح يحكم الجزيرة من كانيا مفوض سامى - (High Commissoner)، هو الأمير چورچ، الابن الثانى للملك اليونانى، بينما كانت القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية والروسية تحتل المدن الرئيسية، أصبح لليونان علم.. وعملة.. وطوابع بريد.

مرة أخرى، خفَّت قبضة عبد الحميد، وبالرغم من ذلك لم يكن يريد أن يرحل نهائيًا. كان لا بد من مرور خمسة عشر عامًا أخرى قبل أن يحصل اليونانيون على مكافآتهم.

** ** **

حدث كذلك أن كان لمؤتمر برلين تأثيره على مصير جزيرة كبيرة أخرى من جزر المتوسط. كانت قبرص تحت الحكم العثمانى منذ أن استولى عليها الأتراك من الفينيسيين فى 1570. فى البداية، كان هناك ترحيب كبير من أغلبية الشعب بتغيير الحكم. كان الأتراك قد سمحوا بإعادة الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، التى تولى أسقفها دور السفير لرعاياها، وليكون متحدثًا ووسيطًا مع الإدارة التركية. كان قد تم إلغاء النظام الإقطاعى وتحرير الأقنان؛ ومرة أخرى أصبح بإمكان القبارصة تملك الأراضى، إلا أنهم كانوا - برغم ذلك - يدفعون الضرائب. كانوا أقل سعادة لأنهم وجدوا نحو ثلاثة آلاف تركى يحصلون على أراض ويقيمون على الجزيرة بشكل دائم، وهو التطور الذى سيكون له نتائجه الوخيمة إلى اليوم، ولأن المجتمعين كانا مختلفين في اللغة والعقيدة، لم يكن هناك زواج مختلط ولا اندماج كبير. من البداية، كان القبارصة منقسمين بحدة.. وسيظلون كذلك.

مع نشوب حرب الاستقلال اليونانية، تنبه الحاكم التركى للجزيرة بشدة للخطر، استدعى رئيس الأساقفة كبريانوس - kyprianos وزعماء الكنيسة الآخرين - كان من بينهم أساقفة بافوس وكيتيوم وكيرينيا ورئيس رهبان دير كايكو - Kykko إلى نيقوسيا؛ لكى يتم قتلهم بدم بارد.(7) أما الآخرون من رجال الكهنوت، فقد وفر لهم القناصل الأجانب أماكن آمنة فى ليماسول، إلا أن سلطة القبارصة كانت تتآكل يومًا بعد يوم.

بحلول منتصف القرن، كانت الأوضاع قد بدأت فى التحسن على الجزيرة. تعهد السلطان عبد الحميد بمعاملة متساوية لكل رعاياه بصرف النظر عن العرق أو المعتقد، وألغى التطبيق الظالم لضرائب الأطيان.(8) أمر كذلك بأن تكون الوظائف الحكومية بالتعيين بدلًا من بيعها لمن كان يستطيع أن يدفع أكثر، مثلما كان الوضع فى السابق. ثم جاءت الأخبار المثيرة فى 1869 عن قناة السويس، التى أفادت منها قبرص كثيرًا بالنسبة لتجارتها. كان بنچامين دزرائيلى من أوائل رجال الدولة الذين تنبهوا لذلك، واستطاع أن يتوصل مع تركيا إلى ما عرف باتفاقية قبرص. بموجب هذه الاتفاقية تعهدت بريطانيا بالانضمام إلى السلطان للدفاع عن ممتلكاته فى آسيا، فى حال تعرضها لأى عدوان روسى، ولكى تتمكن من القيام بذلك على نحو أفضل، خصص لها السلطان قبرص لكى تكون، كما عرف «مكانًا للسلاح – a place of arms" فى الليڤانت مقابل دفع إتاوة سنوية. حتى تلك اللحظة، كانت الصلة التاريخية الوحيدة بين بريطانيا وقبرص هى غزو ريتشارد قلب الأسد للجزيرة فى 1191. الآن، رغم أنها ستبقى عمليا جزءًا من الإمبراطورية العثمانية حتى ضمها الرسمى لبريطانيا فى نوفمبر 1914، كانت بالفعل مرة أخرى فى يد بريطانيا. وحيث إنه كان لا بد من دفع عائدات كبيرة للقسطنطينية، كانت الجزيرة دائمًا مسئولية مالية، وبالرغم من ذلك، قبل وبعد الضم، وعلى مدى الثمانين عامًا التالية، كان لا بد من أن تقوم بريطانيا بضخ أموال فيها، وتحول زراعتها، وتبدأ مشروعات طموحة بها، مع إنشاء الطرق والمرافق العامة. باختصار، لم تكن قبرص قد شهدت شيئًا من ذلك القبيل من قبل، رغم أن فكرة الوحدة – enosis - مع اليونان لم تكن مستبعدة قط.

** ** **

فى أحد أيام أواخر صيف 1901، قام جماعة من الثوار المقدونيين باغتصاب مبشرة بروتستانتية أمريكية من بوسطن، هى السيدة هيلن ستون - Helen Stone بينما كانت مسافرة بعربتها بالقرب من مدينة بانسكو - Bansko. لم يكن معها سوى صديقة، كل ما هو معروف عنها هو أن اسمها كان مدام تسيلكا - Tsilka ولا شىء أكثر من ذلك، أحاط الثوار بالاثنتين وحملوهما إلى الجبال، آنذاك فقط، اكتشف الخاطفون أمرًا زاد تعقيد الموقف، كانت مدام تسيلكا حاملًا، فلم يكن أمامهم سوى أن يعاملوا الأسيرتين باحترام بقدر المستطاع، إلى أن وضعت تسيلكا مولودتها فى قبو نبيذ بإحدى القرى المجاورة، فى تلك الليلة العاصفة، كان الكل فى حالة ابتهاج، شربوا فى صحة الأم والمولودة، وعندما أغارت قوات تركية على القرية فروا جميعًا، ركبت مدام تسيلكا حصانًا وركب شخص آخر حصانًا حاملًا المولودة.

دفعت الحكومة الأمريكية الفدية (ما يوازى 66000 دولار) (بالرغم من أنه كان من الضرورى الحصول على موافقة الرئيس ماكنلى - McKinley، الذى كان آنذاك على فراش المرض، على أثر طلقة من إرهابى قبل أيام قليلة). حمل الدكتور هاوس - Dt. House، رئيس إرسالية مس ستون - Miss Stone الذهب بنفسه فى صناديق خشبية إلى بانسكو، إلا أنه علم فى الوقت المناسب أن الأتراك كانوا قد عقدوا النية على الاستيلاء عليه عند تسليمه. بعد أن أبلغ المختطفين وحذرهم أولًا، قام بإخفاء المبلغ فى مكان كان قد تم إعداده من قبل، وملأ الصناديق ببعض الحديد الخردة. فى الوقت المحدد، هجم الأتراك عليهم وعادوا بهم إلى سرس - Serres قبل أن يكتشفوا الخدعة. فى الوقت نفسه كان قد تم إطلاق سراح السيدتين فى مدينة ستروميكا - Strumica. كان يعتقد أن الكل قد أحسنوا التصرف، كانت السيدة ستون على نحو خاص سعيدة بالمعاملة التى لقيتها، لدرجة أنها عندما عادت إلى بوسطن، اعتبروها البطل الأمريكى الأول للمنظمة المقدونية الداخلية للثورة، والتى أصبحت تعرف بـ «إيمرو - Imro": Internal Macedonian Revolutionary Organization.

فى ذلك الوقت كانت مقدونيا جزءًا من الإمبراطورية العثمانية منذ أكثر من خمسة قرون، لم تكن قد سببت لغزاتها أية قلاقل حتى سنة 1870، عندما قامت روسيا بإقناع تركيا - فى محاولة لمد نفوذها فى البلقان عن طريق العقيدة الأرثوذكسية - بالسماح بإنشاء كنيسة بلغارية مستقلة، وكان لا بد من أن يثير ذلك غضب اليونان وصربيا. أعلن البطريرك اليونانى على الفور أن الكنيسة الجديدة كانت منشقة، وعارض اتساع النفوذ البلغارى فى مقدونيا بشدة، سواء أكان نفوذًا قوميًّا أو ثقافيًّا أو إكليركيا. الصرب، رغم كونهم سلاف كذلك، كانوا يشعرون بنفس الدرجة من الاستياء والرفض لجيرانهم البلغار - هكذا بدأ التنافس الثلاثى على الإقليم، الذى سرعان ما أصبح رباعيًّا بظهور المقدونيين الذين كانوا قد أسسوا IMRO كجمعية سرية فى 1896، واختاروا لها علمًا أسود يحمل جمجمة، وعظمتين متصالبتين بلون قرمزى.

أعطى حادث هيلين ستون المنظمة الشهرة العالمية التى كانت فى حاجة إليها. اتجهت أنظار القوى نحو مقدونيا ورضخت الحكومة العثمانية للتوبيخ القاسى المعتاد للسفراء الغربيين، عن أهمية المزيد من الإصلاحات فى أراضى البلقان، وكان اللوم يتزايد مع زيادة الانتفاضات الغاضبة فى تسالونيكا وأماكن أخرى.(9) كانت كل القوى، باستثناء واحدة مع استمرار الحكم العثمانى؛ وحدها بريطانيا، كانت هى التى تريد انسحابًا كاملًا للقوات العثمانية من المنطقة.

لعل ما لم تفهمه القوى تمام الفهم هو أن السلطان كان أمامه هموم أخرى عاجلة، وأهمها جماعة سرية أخرى، كانت هذه المرة على عتبة بابه: هى حزب «تركيا الفتاة». يبدو أن تلك الجماعة نشأت كذلك فى العقد الأخير من القرن – ويقال: إن أول خلية فيها كانت مكونة من طلبة الطب العسكريين فى 1889 - ورغم أن أعضاءها كانوا كلهم من العسكريين، فقد كانوا كلهم من صغار الضباط، فى تلك المراحل الأولى لم تكن جهودهم مكرسة لإسقاط الإمبراطورية العثمانية، كان كل ما يريدونه هو الإصلاح وبخاصة الغربنة - Westernization. ظلوا خطرًا قائمًا، وبمرور الوقت أصبحوا مصدر قلق متزايد لشرطة عبد الحميد السرية، كان جزءًا من هذا القلق أن أعضاء تركيا الفتاة كانوا قد وجدوا فى شبه جزيرة البلقان أرضًا خصبة يجندون منها موالين لهم، وبخاصة فى مقدونيا، مضيفين بذلك عنصرًا جديدًا لمنطقة كانت تتحول بسرعة لكى تصبح مرجلًا يغلى بالغضب والاضطرابات. هناك، أسس كثيرون منهم منظمات أخرى خاصة بهم، كانت إحدى هذه المنظمات "الوطن - The Vatan" أو "حركة أرض الآباء"، التى أسسها ضابط صغير (25 سنة) كان من مواليد تسالونيكا، ولكن نشاطه السياسى فى مقدونيا كان قد أدى إلى إبعاده إلى دمشق. كان اسمه مصطفى كمال، الذى سيعرفه العالم فيما بعد باسم "أتاتورك"، أو أبو الأتراك.

كانت المنظمات الداخلية – مثل "الوطن" - سرية بالضرورة، أما خارج الإمبراطورية فإن "تركيا الفتاة" - على العكس من ذلك - كانت تريد أكبر قدر من الذيوع والانتشار فى العلن. دعوا لأول مؤتمر لهم فى باريس فى 1902، وعقدوا مؤتمرًا آخر فى المدينة نفسها فى ديسمبر 1907، وبعده مباشرة اتخذ القادة اسم "لجنة الاتحاد والترقى" Committee of Union and Progrness -(CUP)،[10] وأسسوا سكرتارية دائمة، كما استوعبت اللجنة الكثير من الجمعيات الأصغر - كان من بينها الوطن - قبل أن تخضع لقوى طاردة عن المركز وتبدأ معارضة بعضها البعض.

كان أن بلغت الأمور ذروتها فى 1908، عندما قام ماجور يدعى أحمد نيازى بتمرد مسلح، كان نيازى متمركزًا بعمق فى المنطقة الخلفية من مقدونيا بين موناستير - Mo-nastir وبحيرة أوكريد - Ochrid. انضم عدد كبير من صغار الضباط من المواقع المقدونية الأخرى إليه، ومنحتهم "الاتحاد والترقى" دعمها، وبنهاية الصيف كان ما يعرف الآن بشمال اليونان مستعدًا للقتال. سرعان ما انتقلت الحالة النفسية السائدة للقوات التى تم إرسالها على عجل، عبر الأناضول، ووجد عبد الحميد أن عليه أن يتصرف بسرعة إن كان له أن ينقذ عرشه، فى الرابع والعشرين من يوليو أعلن أن دستور 1876

المعلق سوف يتم استعادته فورًا، وتبع هذا الإعلان عفو عام عن السجناء والمنفيين السياسيين. وأخيرًا، صدر فى الأول من أغسطس مرسوم سلطانى بإلغاء الشرطة السرية والاعتقال العشوائى، وسمح بالسفر إلى الخارج والمساواة بين مختلف الأجناس والعقائد، مع وعد بإعادة تنظيم كل الإدارات الحكومية فى الإمبراطورية.

مستبقة برد فعل السطان وبحجم ما قام به من إصلاحات، فقدت "الاتحاد والترقى" توازنها، إلا أن باقى الرعايا كانوا سعداء، كانوا قد توقعوا أن يظل عبد الحميد متشبثًا بمبادئه الاستبدادية التى كان قد انتهجها على مدى الاثنين والثلاثين عامًا السابقة، وأن التنازلات - إن كان هناك تنازلات - كان لا بد من أن تنتزع منه تدريجيًا. الآن فجاة، ودون إطلاق رصاصة واحدة من أى مكان أقرب من مقدونيا، كان السلطان يقدم لهم - على طبق - أكثر مما كانوا يأملون فيه. فى يوم الجمعة ذاك، كان يطوف شوارع القسطنطينية وسط الجماهير التى كانت تهتف باسمه، وهو ذاهب للصلاة فى أيا صوفيا، التى كانت قد أصبحت مسجدًا منذ الغزو التركى فى 1453، كانت تلك هى المرة الأولى فى ربع قرن، التى يجرؤ فيها على عبور القرن الذهبى.

** ** **

كان لا بد من أن يكون لمثل هذة التطورات الدرامية صداها خارج حدود الإمبراطوية العثمانية، فى ڤيينا، كان القلق الرئيسى هو ذلك المتعلق بأراضى البوسنة والهرسك، التى رغم أنها كانت – واقعيًا – تركية، كان النمساويون يعتبرونها إحدى مستوطناتهم: ماذا لو كان المطلوب إرسال نواب للبرلمان الجديد بمجلسيه التشريعيين، الذى كان سيتم افتتاحه بعد قليل فى قصر سيراجان - çirağan؟.

لم تضيع حكومة الإمبراطور فرانز چوزيف -Franz Joseph وقتًا، ففى السادس من أكتوبر 1908، وبعد أيام قليلة من مفاجأة السلطان المذهلة قامت النمسا المجر بضم البوسنة والهرسك بمرسوم، قبل ذلك بأربع وعشرين ساعة فحسب، فى صوفيا، كان فرديناند أمير ساكس – كوبرج، الذى كان قد عين أميرًا على بلغاريا فى 1887، كان قد هز السلطة العثمانية وأعلن نفسه "قيصرًا" على البلغار -Tsar of the Bulgarians (وهو اللقب الذى كان تم إجباره على تخفيضه إلى" ملك"، مقابل اعتراف القوى به بعد أشهر قليلة). فى الوقت نفسه، قامت كريت بمحاولة أخرى نحو وحدتها المنتظرة، رغم أن وصول قوة بحرية بريطانية إلى مياه كريت كان بمثابة تذكرة مفيدة بأن بريطانيا لن تشجع أى نقل للسيادة أو الاستقلال إلى أن يحين الوقت لذلك.

فى القسطنطينية، سرعان ما أصبح من الواضح أن الثورة السلمية كانت قد قطعت شوطًا كبيرًا.. وبسرعة كبيرة. المسلمون الأصوليون، بعد أن صدمهم منظر النساء غير المحجبات اللاتى ظهرن فجأة فى الشوارع، بدأوا يشنون حملاتهم لإعادة تبنى قيمهم التراثية؛ لهذا الهدف تأسست جمعية الوحدة الإسلامية - Society of Islamic Unity، التى كان من بين أعضائها المؤسسين الابن الرابع للسلطان، وكانت هناك شائعات عن تلقيها دعمًا ماليًا من يلدز، ولكن لم يثبت ذلك؛ ثم فى أبريل 1909، كان أن قامت مظاهرة أخرى من طلبة اللاهوت، والغريب أنها كانت مدعومة من أفراد فى الحاميات المحلية، تطالب بإقالة الحكومة؛ ليحل محلها نظام إسلامى أصولى يحكم حسب الشريعة الإسلامية، ويؤكد سلطة السلطان فى دوره الدينى كخليفة للمسلمين. وافق عبد الحميد على تلك المطالب... ويُعتقد أن موافقته كانت على مضض.

كان فى ذلك حتفه، حدث اضطراب فورى فى البرلمان الجديد، وصدر بيان يدين تصرفات السلطان، فانصاع مرة أخرى ولكن الوقت كان قد فات، لم يعد بالإمكان الثقة بحاكم يحنى رأسه لكل هبة هواء؛ لكى يكون أمينًا على حكم دستورى كذلك الذى كانت تنشده تركيا الآن. فى السابع والعشرين من أبريل 1909 تم عزل عبد الحميد. لم يكن واردًا أن يودع قصر سيراجان مثل سابقيه، فالقصر كان قد أصبح مقرًا للبرلمان ولذا تقرر نفيه، وعندما علم بذلك خر مغشيًا عليه، أقرب إلى الميت، بين يدى كبير الأغوات. وفى تلك الليلة نفسها وضعوه فى قطار مع أميرين وثلاث زوجات وأربع محظيات وخمسة أغوات وأربعة عشر خادمًا... سيوصلهم القطار بعد نحو أربع وعشرين ساعة – ويا للمفارقة الساخرة - إلى تسالونيكا، المدنية التى كانت قد بدأت منها كل متاعبه.

باختفاء عبد الحميد من المشهد، لن تعود الإمبراطورية العثمانية مثلما كانت؛ كان أخوه غير الشقيق، محمد الخامس (64 سنة) الذى خلفه، كان قد أمضى معظم حياته فى عزلة شبه إجبارية، لا يؤنسه سوى الشراب والجوارى. لم يكن غبيًا ولا جاهلًا، كان مطلعًا على الأدب الفارسى إلا أنه لم يكن كفئًا للحكم بالمرة، وهو عيب قليل الأهمية فى الواقع؛ إذ لم يكن مطلوبًا منه ذلك. كانت السلطة الآن - على الأقل نظريًا - فى يد البرلمان، وكانت الإصلاحات تترى فى كل مجال، بقيت هناك بعض مظاهر القمع، وبالرغم من ذلك كان يمكن أن تحقق الحكومة الجديدة الكثير، لو كان قد توفر لها سنوات قليلة من الهدوء والاستقرار.

من أسف أن ذلك لم يحدث. كانت الامبراطورية القديمة منقسمة، وكانت أضخم من اللازم. كانت هناك أقليات قومية كثيرة يشعر أبناؤها بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية.

ظلت مقدونيا جرحًا مفتوحًا؛ ألبانيا ثارت فى 1910؛ فى أرمينيا كانت هناك قلاقل خطرة؛ المسلمون فى سوريا ولبنان شكلوا حركة شبابية عربية على غرار "تركيا الفتاة"، بينما كان إخوانهم فى شبه الجزيرة العربية والحجاز يحرضون على التمرد والعصيان؛ مما كان يسبب قلقًا كبيرًا للحكومة فى القسطنطينية، لدرجة اضطرارها لإرسال معظم حامياتها فيما يعرف بليبيا إلى أماكن التوتر، أدى ذلك إلى إضعاف شديد للجزء الأخير من ساحل شمال أفريقيا، فكان من الصعب أن يظل تحت السيادة التركية، وكان الإيطاليون يجدون فى ذلك فرصة لهم.

** ** **

على مدى الثلاثين سنة السابقة على ذلك؛ أى منذ أن احتلت فرنسا تونس فى 1881، كان الإيطاليون ينظرون إلى ليبيا بعين الطمع. انسحاب جيش الاحتلال العثمانى، فيما عدا قوة من ثلاثة آلاف جندى، أقنعهم بأن الوقت كان قد حان، وبأنهم إن لم يتحركوا بسرعة، فمن المحتمل جدًّا أن يقوم الفرنسيون بالغزو من الغرب، باسطين نفوذهم من مراكش إلى الحدود المصرية. بحلول صيف 1911، كان من الواضح أن القوات الإيطالية كانت تجهز للهجوم، كل ما كان بوسع الحكومة التركية أن تفعله هو ضمان أن يكون رجال القبائل المحلية مزودين بالأسلحة والذخيرة.

عندما حانت اللحظة فى 27 سبتمبر 1911، تم اتباع الأسلوب القديم العقيم نفسه: إصدار إنذار يكيل اتهامات عدة، وغالبًا مبالغ فيها، مع مطالب معروف مقدمًا أنها لن تكون مقبولة، وبعد رفض الإنذار يتم إعلان الحرب على الفور. فى الثامن والعشرين من الشهر، تم إبرار قوات إيطالية فى طرابلس وبنغازى ودرنة وطبرق، كانت عمليات الإبرار تلك مصحوبة بأول غارات جوية فى التاريخ بواسطة طيارين يقودون طائرات ثنائية السطح(11) فوق الأهداف، ويلقون قنابل صغيرة بأيديهم، لم يكن باستطاعة الأتراك أن يفعلوا الكثير فى مواجهة مثل تلك القوات المتفوقة؛ أما على البر فكان الموقف عكس ذلك. لم يكن الغزاة الذين لا يعرفون شيئًا عن حرب الصحراء ندًّا لرجال القبائل، وفشلوا فى التغلغل إلى الداخل، ولكن نجاحًا جزئيًّا كان يكفى، ففى الخامس من نوفمبر، أعلنت الحكومة الإيطالية ضم تريبوليتانيا - Tripolitania وكيرينايكا - Cyrenaica رسميًّا، وبعد خمسة أشهر، فى أبريل 1912 مضت شوطًا أبعد، إذا قامت وحدة من الأسطول الإيطالى بقصف الحصون التى تحمى مدخل الدردنيل، بعد أن فشلت فى الدخول، عادت للاستيلاء على رودس وباقى جزر الدوديكانيز - The Dodecanese، التى كانت جزءًا من الإمبراطورية العثمانية طوال القرون السابقة.

لا شك فى أن الإمبراطورية كانت تترنح آنذاك، فإذا كانت إيطاليا بعد أقل من أربعين سنة كدولة واحدة - قد تمكنت من أن تنزل بها ضررًا بهذا الحجم، فالمؤكد أن الطريق كانت قد باتت مفتوحة أمام كل أعدائها الآخرين لكى يتحركوا.. كل بالأصالة عن نفسه. بنهاية الصيف، كانت الصرب واليونان وبلغاريا ومونتينيجرو تنحى خلافاتها جانبًا، ويكونون معًا عصبة أمم البلقانBalkan League بهدف طرد الأتراك من القارة الأوروبية نهائيًا، بدأت أعمال القتال فى أوائل أكتوبر، وبعد أسبوع بعد أن ظهر التفوق العددى للعصبة بنسبة أكبر من 2 :1، وقعت الحكومة العثمانية "صلح الجبناء" مع إيطاليا، اعترفت بموجبه بسيادتها على تريپوليتانيا وكيرينايكا، مقابل إعادة جزر الدوديكانيز، وهو الشرط الذى وافق عليه الطليان ولم يفوا به. بنهاية نوفمبر، كان البلغار قد اجتاحوا تراقيا -ThRace ، والصرب احتلوا كوسوڤو - Kosovo وموناستير – Monastir وسكوپجى –Skopje. وأوكريد – Ochrid - والأهم من ذلك كله - أن ميناء تسالونيكا أهم موانئ المتوسط كان فى أيدى اليونانيين.[12]

فى ديسمبر، كان هناك توقف مؤقت للقتال، وافقت كل من بلغاريا وصربيا ومونتينيجرو على هدنة - رغم معارضة اليونان بشدة - وقبل عيد الميلاد بخمسة أيام، بدأ مؤتمر سلام أعماله فى لندن، إلا أنه كانت هناك أعمال كثيرة لم يتم الانتهاء منها، وفى بداية فبراير 1913، اشتعلت الحرب ثانية، ثم كانت هدنة أخرى فى منتصف أبريل وتم توقيع اتفاقية سلام فى لندن فى 30 مايو، فقدت تركيا كريت (كانت اليونان قد ضمتها رسميًا فى 13 سبتمبر) ومقدونيا وتراقيا وألبانيا ومعظم جزرها فى بحر إيجة، كان كل ما تبقى من «تركيا فى أوروبا» هو القسطنطينية ومنطقتها الخلفية - أكبر قليلًا من نصف المساحة التى تشغلها اليوم - كما أن الحدود الحالية خلف أدرنة مباشرة، هى نتيجة لما عرف بحرب البلقان الثانية التى استمرت أسبوعًا أو أسبوعين، هذه الحرب أشعلها البلغار، الذين كانوا مستائين لمكاسب اليونان وصربيا فى مقدونيا، فقاموا بهجوم مفاجئ فى الساعات الأولى من صباح 29 يونيو (فى عام 1913 نفسه) على حلفائهم السابقين الذين انضمت إليهم رومانيا بسرعة فيما بعد. قرر الأتراك أن يتدخلوا، وقام ميجور يدعى إنڤر -Enver (أنور باشا فيما بعد) - وكان أحد ملهمى تركيا الفتاة - بقيادة قوات الخيالة التابعة له وتقدم بسرعة رهيبة عبر تراقيا الشرقية صوب أدرنة، ليستولى على المدينة دون إطلاق رصاصة واحدة. كانت مغامرة جسورة وناجحة، إلا أنها لم تستطع أن تخفى حقيقة أنه فى غضون أقل من سنة، كانت الإمبراطورية قد فقدت أربعة أخماس أراضيها الأوروبية وأكثر من ثلثى سكانها الأوروبيين.

لم يكن هناك خلاف على أن الجيش كان هو المسؤول عن كل تلك الخسائر، كان من الواضح أنه كان فى حاجة إلى إعادة تنظيم وإعادة بناء، كما كان الأفراد الذين لم يحصلوا على رواتبهم من شهور فى حالة معنوية رديئة، ثيابهم رثة ومعظمهم جائع، كان الأسطول كذلك متهالكًا وفى حالة مزرية. يقال: إن الضباط الألمان الذين جاؤوا لمساعدة القوات المسلحة لكى تقف على قدميها مرة أخرى، أصابهم الفزع لهول ما رأوا، وبخاصة عندما اكتشفوا أن اللغة التركية لا تعرف كلمة "الصيانة".

كان من الطبيعى أن يكون الألمان هم الذين يقومون بهذا العمل، فعلى مدى سنوات سابقة كان القيصر ولهلم الثانى يقوم بمساع حميدة، وكان مثل القوى الأخرى قد سمع بالاكتشافات الحديثة لكميات كبيرة من النفط فى بلاد الرافدين، وكان يتوق للحصول على موافقة السلطان على مد خط السكة الحديد الموجود بين برلين والقسطنطينية حتى يصل إلى بغداد فى الشرق، كان قد زار القسطنطينية لأول مرة على متن يخته هوهنزولرن - Hohenzollern فى 1889 بعد عام من اعتلائه العرش، وفى زيارته الثانية فى 1898 عبر هو والسلطان عبد الحميد البوسفور ليفتتحا رسميًا محطة نهائية جديدة رائعة فى "حيدر باشا". بعد ذلك، واصل رحلته البحرية إلى فلسطين؛ حيث دخل القدس فى موكب رسمى (فى 29 أكتوبر 1898) وكانت تلك أول زيارة رسمية للقدس يقوم بها إمبراطور ألمانى منذ زيارة فردريك الثانى فى 1229، دخل ولهلم الثانى على حصان أسود مرتديًا زيًا رسميًا أبيض، يعلو خوذته نسر ذهبى، ربما يكون ذلك قد ترك أثرًا سيئًا، كما كتبت الإمبراطورة ماريا فيودوروفنا - Maria Fyodorovna لابنها القيصر نيكولاس الثانى - Tsar Nicholas، إلا أن ذلك جعل تلك الزيارة وصاحبها فى الذاكرة، فى الثلاثين فى يونيو 1913 - نفس اليوم الذى قام فيه البلغار بهجومهم المفاجئ - قام القيصر بتعيين الجنرال أوتو ليمان ڤون ساندرز - Otto Liman von Sanders قائدًا لبعثة عسكرية ألمانية إلى القسطنطينية.

لن يعرف أحد شيئًا عن مهام تلك البعثة هناك، وبعد سنة من ذلك اليوم تقريبًا، سقط الأرشيدوق فرانز فرديناند - Arehduke Franz Ferdinand مغتالًا برصاصة فى سراييڤو، واشتعلت الحرب فى أوروبا كلها.

هوامش الفصل الواحد والثلاثين

[1] الأوليجاركية – Oligarchy: حكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة هدفها تحقيق المنافع الذاتية. (المترجم)

(2) انظر الفصل الرابع والعشرين.

(3) كانت "لوكاس - لوكاس- Leucas(لفكاس- Lefkas) هى الوحيدة من بين الجزر الإيونية، التى بقيت تحت الحكم التركى فترة طويلة.

(4) لا بد من أن أسجل هنا أننى مدين بالشكر للسيد آلان پالمر - Alan Palmer الذى أفدت كثيرًا من كتابه: The Decline and Fall of The Ottoman Empire، أثناء كتابة هذا الجزء والأجزاء التى تليه.

(5) ربما يكون رأيه قد جاء متأثرًا بقرار السلطان منح زوجته ليدى سالزبرى- التى كانت ترافقه - وسام الشرف من الدرجة الثالثة.

(6) حدث أن كان لويس، أمير باتنبيرج- Prince Louis of Battenberg يخدم على السفينة الملكية "سلطان"، بينما كان شقيقه الأمير ألكساندر أحد ضباط جيش الدوق الأكبر. رحب قائد السفينة «سلطان» بألكساندر، وتصادف أن كان هذا القائد أيضًا هو الأمير الفريد- Prince Alfred دوق أدنبره، الابن الثانى للملكة ڤيكتوريا وزوج ابنة القيصر الوحيدة، التى كانت ما زالت على قيد الحياة

(7) كان البطريرك الأرثوذكسى جريجوريوس قد لقى مصيرًا مماثلًا فى نفس الوقت تقريبًا فى القسطنطينية (انظر الفصل الخامس عشر)، وكذلك المئات إن لم يكن الألوف من اليونانيين سواء من رجال الدين أو العلمانيين، فى أرجاء الإمبراطورية العثمانية.

[8] الذى كان يسمح بأن يقوم أفراد متنفذون بشراء حق جمع الضرائب من الحكومة ويقومون بتحصيلها من الأهالى.

(9) روعت أوروبا كذلك بمذابح السلطان لرعاياه الأرمن، كانت تلك المذابح قد بدأت فى ١٨٩٤، ويقال: إنها بنهاية العام التالى، كانت قد أودت بحياة نحو ثلاثين ألفًا منهم.

(10) معروفة فى الأدبيات العربية باسم "جمعية الاتحاد والترقى". (المترجم)

(11) Biplanes – طائرات ذات زوجين من الأجنحة يقوم أحدهما فوق الآخر. (المترجم)

(12) هرع عبد الحميد المسكين وأسرته على السفينة الألمانية – Lorelei، عائدًا إلى إسطنبول ليمضى السنوات الست الباقية له فى قصر بيلرباى - Beylerbey على البوسفور.

الفصل الثانى والثلاثون

الحرب العظمى

• الدردنيل: 1915 • مصطفى كمال: 1915 • الرسو والإنزال فى خليج سلفًا: 1915
• كيز وكتشنر: 1915 • الإخلاء الأخير: 1915 • اجتياح مقدونيا: 1916
• اللنبى والـ E.E.F: 1917 • اللنبى يلتقى لورانس: 1917 • أطلال الإمبراطورية العثمانية: 1918

جرت أحداث الحرب العالمية الأولى فى الأساس، كما يعرف الكل، فى خنادق الشمال الفرنسى وبلچيكا. لم تكن حربًا متوسطية بأى معنى، إلا أنها امتدت ثلاث مرات إلى البحر الأبيض للتركيز على عدوها الشرقى... الإمبراطورية العثمانية، فى المرة الأولى، كانت الحملة سيئة الطالع على الدردنيل و"جاليپولى- Gallipoli"، والثانية إنزال الحلفاء فى سالونيكا، أما الثالثة فكانت فى فلسطين.

فى السابع والعشرين من ديسمبر 1914، وجه "ونستون تشرشل- Winston Churchill"، وكان آنذاك لورد أول البحرية، وجه على نحو مميز رسالة نصح لـ "هربرت هنرى أسكويث - Herbert Henry Asquith". قال: إن الحرب كانت قد وصلت إلى طريق مسدود، كان الجيشان على أهبة الاستعداد، لدرجة أن التقدم عدة ياردات كان من المرجح أن يسفر عن ضحايا بالألوف، كان المطلوب كسر طوق الحصار والخروج إلى مسرح جديد تمامًا للحرب، وتساءل تشرشل: "ألا توجد بدائل أخرى لإرسال جيوشنا لمضغ الأسلاك الشائكة فى الفلاندرز؟" كان يرى بديلين. إحدى الأفكار كانت القيام بغزو "شلزويج – هولشتين - Schleswig- Holstein" والاستيلاء عليها لتمكين الدانمرك من الانضمام إلى الحلفاء، وفتح البلطيق أمام سفن الحلفاء؛ حينذاك سيكون بمقدور الروس إنزال جيش على مسافة تسعين ميلًا من برلين، كان ذلك هو الخيار المفضل بالنسبة له.

إلا أنه عرض فكرة أخرى، كانت أكثر طموحًا وأوسع خيالًا: غزو شبه جزيرة جاليپولى؛ حيث إن السيطرة عليها ستمكن البحرية الملكية من شق ممر بالقوة عبر الدردنيل إلى بحر مرمرة، وبالرسو عند مدخل القرن الذهبى يمكن أن تهدد بقصف القسطنطينية، وهو خطر شديد فى الواقع؛ نظرًا للشوارع الضيقة والمنازل الخشبية الآيلة للسقوط فى المدينة القديمة، كما أن تدمير جسر "جالاتا – Galata" سيعزل "پيرا – Pera" عن إسطنبول، كذلك فإن مصنعى الذخيرة الوحيدين فى تركيا مقامان على حافة الماء وسيكونان هدفًا سهلًا للمدفعية البريطانية، كل ذلك يمكن أن يرغم حكومة السلطان على التماس السلام، الذى لن تكون بعده صعوبة - كما كان تشرشل يعتقد - فى إقناع اليونان التى كانت ما زالت محايدة، وكذلك رومانيا وصربيا وبلغاريا بأن تلقى بثقلها مع الحلفاء، كانت تلك فكرة نموذجية تمامًا تليق بـتشرشل، وفى حال نجاحها كان يمكن أن تختصر أمد الحرب، إلا أنها لم تنجح، وعلى مدى قرن كامل، كان المؤرخون

العسكريون يحاولون تحليل الأسباب التى جعلت فكرة كتلك كانت تبدو واعدة، تؤدى إلى أسوأ كوارث الحرب.

يبدو أن المشكلة كانت تكمن فى عدم وجود خطة شاملة منسقة، كان تشرشل فى الأساس قد تصور عملية عسكرية وبحرية مشتركة؛ ففى منتصف يناير 1915، كان يقود هجومًا بحريًّا فقط، بالرغم من المعارضة الشديدة من الأدميرال سير "چون فيشر John Fisher- " لورد أول البحرية - صديقه الذى كان يخشاه فى الوقت نفسه. بعد شهر، وقبل أقل من أسبوع قبل قيام المدفعية بقصف الدردنيل، تقرر إرسال قوات دعم، كان ذلك يعود إلى حد كبير إلى حقيقة أن تشرشل، الذى كان يبذل كل جهده وطاقته دعمًا لهذه الفكرة، كان مجرد وزير فى الحكومة، ومسؤوليته مقصورة على البحرية. لم يكن له سلطة على الجيش، لم يكن "اللورد كتشنر - Lord Kitchener" وزير الدولة لشؤون الحرب والمسؤول عن الجيش، لم يكن متحمسًا للفكرة وكذلك رئيس الوزراء، لو كان تشرشل يمتلك السلطة التى ستكون بيده بعد خمس وعشرين سنة، فلربما كانت حملة جاليپولى قد انتهت نهاية مختلفة تمامًا.

أما بالنسبة للبحرية، فكانت له السيادة المطلقة عليها، وبفضله كان الأسطول الذى حشده البريطانيون والفرنسيون أكبر تجمع لقوة بحرية عرفها البحر الأبيض، بصرف النظر عن الطرادات والمدمرات والسفن الأصغر حجمًا، كان البريطانيون قد أسهموا بأربع عشرة سفينة حربية، كانت من بينها "كوين اليزابيث"، التى كان قد تم الانتهاء منها مؤخرًا، والتى كانت تحمل مدافع من عيار 15 بوصة - التى لا توجد على أى سفينة – أخرى - وتجعل منها أقوى سفينة فى البحر، كانت مدافع معظم السفن الأخرى من عيار 12 بوصة، ولكن هذه الأخيرة كذلك، كانت متفوقة على أى شيء يمكن أن يتباهى به الأتراك فى الحصون الإحدى عشر - على جانبى المضايق - التى كانت تمثل دفاعاتهم الرئيسية، إلى هذه القوة الضاربة، أضاف الفرنسيون أربع سفن حربية أخرى وملحقاتها.

فى الثامن عشر من فبراير 1915، كان الأسطول المشترك قد اتخذ مواقعه، وعند الساعة التاسعة وواحد وخمسين دقيقة من صباح اليوم التالى بدأ الهجوم، واستمر طول اليوم، كان الأسطول يتقدم ويقوم بقصف الحصون والقلاع من مسافة قريبة. فى الوقت نفسه، كانت كاسحات الألغام تعمل لفتح الطريق إلى المضايق، بحلول المساء، لم يكن هناك نتيجة حاسمة. قائد الحلفاء، نائب الأدميرال "ساكڤيل كاردن- Sackville Carden" وجد أنه لا يمكن تحقيق شيء مهم، إلا إذا اقتربت سفنه من أهدافها أكثر من

ذلك؛ لسوء الحظ انقلب الطقس فجأة، وأصبح القصف الدقيق مستحيلًا بسبب البحر الهائج، استمرت الظروف الجوية السيئة لمدة خمسة أيام قبل أن تُستأنف المعركة، فى اليوم الخامس والعشرين تقدم نائب الأدميرال "جون دى روبك – "John de Robeck" حتى المضايق نفسها، فانسحب المدافعون فى اتجاه الشمال، فى الأيام القليلة التالية، رست جماعات صغيرة من جنود البحرية على كلا الشاطئين الأوروبى والآسيوى، يدمرون كل ما يجدونه فى طريقهم من معدات، ولكن معظم المنطقة كان يبدو مهجورًا. فى الثانى من مارس، أبرق كاردن إلى لندن بما يفيد أنه كان يأمل أن يكون فى القسطنطينية فى غضون أسبوعين، فى حال وجود طقس جيد.

كم كان مخطئًا! سرعان ما اكتشف أن الدردنيل كان عبارة عن حقل ألغام كبير، وكاسحات الألغام لا تستطيع القيام بعملها بسبب المدفعية المعادية، والبحرية لا تستطيع إسكاتها حتى يتمكنوا من إزالة الألغام، وبعد أسبوعين، بدلًا من الرسو فى القسطنطينية، كان كاردن فى طريقه عائدًا إلى لندن مصابًا بانهيار عصبى. خلفه فى القيادة دى روبك، الذى قاد هجومًا على المضايق فى الثامن عشر من مارس؛ من أسف أنه فشل بسبب خط ألغام لم يكونوا قد اكتشفوه، فأدى إلى غرق سفينة فرنسية وسفينتين بريطانيتين، لم يكن دى روبك يعرف - رغم أنه كان لا بد من أن يتوقع ذلك - أن مرابض المدفعية التركية كانت آنذاك تعانى من نقص كبير فى الذخيرة، ولم يكن لديها أمل كبير فى الحصول على المزيد منها. كان يعرف خسائره الفادحة فحسب، وأن القسطنطينية كانت تبدو بعيدة كما كانت دائمًا. أما بالنسبة للأتراك، فإن جنودهم البالغ عددهم نحو ستين ألفًا، الذين كانوا منتشرين ويقودهم بمهارة الجنرال "ليمان ڤون ساندرز- Liman von Sanders"، فقد حققوا أول انتصار لهم منذ سنوات، على البحرية الملكية، التى كانوا يعتقدون مثل كثير من باقى العالم أنها لا تقهر، لقد تم إنقاذ القسطنطينية من براثن بريطانيا، مرة أخرى كانوا يستطيعون أن يمشوا مرفوعى الهامة.

والآن، كان قد أصبح من الواضح لمعظم الحكومة البريطانية أن البحرية لا تستطيع القيام بالاختراق بمفردها، كتب الأدميرال فيشر إلى "ديڤيد لويد چورچ - David Lloyd George": "لا بد من أن يقوم أحد بالرسو فى جاليبولى فى وقت ما"، وفى منتصف مارس، وافق كتشنر على مضض بأن يرسل الفرقة 29 من إنجلترا – نحو سبعة عشر ألف مقاتل - مع فرق أسترالية ونيوزيلندية (ثلاثون ألفًا أخرى) كانت موجودة فى مصر فى انتظار التحرك. إلى جانب ذلك، كانت هناك فرقة فرنسية أخرى (ستة عشر ألف مقاتل)، وفرقة البحرية الملكية (عشرة آلاف مقاتل)، وعيِّن "الچنرال

سير إيان هاميلتون- General Sir Ian Hamilton"، صديقه القديم منذ أيام "حرب البوير - Boer war"، قائدًا عامًا، وتم الاتفاق على تجميع الجيوش فى جزيرة "ليمنوس -Lemnos" لاستلام معداتها وتموينها ووضع خطط الحملة القادمة.

فى ليمنوس، كانت خيبة أمل أخرى تنتظرهم، كان قد تم تحميل سفن النقل من إنجلترا دون أن يكون لديهم أى فكرة عن الجيش الذى سيستقبلها، وصلت الخيول والمدافع على سفينة، والسروج وعدة الخيل والذخيرة على سفينة أخرى، بينما نسوا تمامًا صنادل إبرار الجنود والعتاد، كما كان هناك عدد كبير من الشاحنات تم تحميلها، بالرغم من عدم وجود طرق على شبه جزيرة جاليبولى. إلى جانب ذلك كله، لم يكن لدى الجيش خرائط أو مخططات دقيقة للمنطقة التى سيحارب عليها. فى آخر الأمر، تم اكتشاف أن معدات الإبرار وغيرها، وكذلك التجهيزات على جزيرة ليمنوس لم تكن كافية وربما لا وجود لها، والنتيجة أنه كان لا بد من إعادة تحميل كل شىء مرة أخرى، والاتجاه بالسفن إلى الإسكندرية لكى يعاد تجميع الجيش بكامله وتجهيزه للمعركة، لم يكن هناك فرصة الآن لكى تكون القوة المشتركة جاهزة قبل منتصف أبريل على أقل تقدير، سيعطى ذلك هاميلتون نحو ثلاثة أسابيع للتحضير والتخطيط لأكبر عملية برمائية وأكثرها طموحًا فى تاريخ الحروب.

أما بالنسبة للبحرية، فقد كانت أفضل حظًا من ناحية الإمداد، كان أسطول جديد من المدمرات - كاسحات الألغام قد وصل مع ثلاث سفن حربية هيكلية، وهى سفن بسيطة، تم كسوتها بشكل متقن بهياكل ومدافع هيكلية لتكون بمثابة شراك خداعية قد تغرى الأسطول الألمانى بالظهور للقتال، كان يمثل الطيران الملكى "كومودور الجو تشارلز سامسون -Air Commodore Charles Samson" عند إخراج طائرته الثلاثين من الشحنة، وجدوا خمسة وعشرين منها غير صالحة للعمل، وبالنسبة للباقى كان هناك عدد من القنابل التى سيلقى بها المراقب أو مساعد الطيار، كان أهم ما تقوم الطائرات هو الاستطلاع والتصوير الجوى لمرابض مدفعيات العدو ومواقع جنوده والمساحات الشاسعة من الأسلاك.. وهو ما ملأ هاميلتون بالغم والحزن.

** ** **

الإبرار الذى تأخر طويلًا، تم فى الساعات الأولى من صباح 25 أبريل، نزل البريطانيون فى "كيب هيليز – Cape Helles" على الطرف الغربى من شبه الجزيرة، والأستراليون والنيوزيلنديون فى خليج صغير - سيعرف فيما بعد بـ "جون أنزاك – Anzac Cove" الذى يبعد نحو ثلاثة عشر ميلًا على امتداد الساحل الشمالى، فى الوقت

نفسه رسا الفرنسيون عند "كوم كاليه – Kum Kale" على الساحل الجنوبى. المدافعون الأتراك، بالرغم من تفوق الحلفاء عددًا وعدة، ورغم أنهم (الأتراك) كانوا معرضين للقصف المستمر من السفن، ظلوا يقاومون ببسالة، كما كانت قوات الحلفاء تقاتل ببسالة مماثلة، إلا أن مهمتهم كانت أصعب بسبب تفضيل هاميلتون ونائبيه (الچنرال إيلمر هنتر – وستون: Aylmer Hunter – Weston" والچنرال "سير وليم بيردوود – Sir William Birdwood" اللذان كانا يقودان البريطانيين والأنزاك – The Anzacs" على التوالى) البقاء فى البحر أثناء الساعات الأولى الحيوية بعد الإبحار. وهكذا، عندما بدأت ترتيبات الإشارة فى الإخفاق وانهارت الاتصالات بين قوات الحلفاء، كانت كل وحدة تتصرف حسب ظروفها دون علم بما يدور على الشاطئ التالى لها. بنهاية اليوم الأول، وبعد خسائر ثقيلة فى الجانبين، كانت القوات الغازية ما زالت على الشاطئ.

أى زائر لشبه جزيرة جاليپولى لا بد أن تصدمه قسوة التضاريس والبيئة بشكل عام، صحيح أن هناك كثيرًا من المناظر الجميلة مثل هضبة "تروى – Troy" الممتدة جنوبًا إلى ما وراء الدردنيل ثم ترتفع عن البحر فى الغرب، وهناك جزر "إمبروس – Imbros وسامو تراقيا – Samotrace"، ولكن الشواطئ نفسها، وهى مجموعة من الخلجان الصغيرة، ضيقة ومليئة بالجروف الصخرية التى تبرز متعامدة تقريبًا على بعد ياردات قليلة من الشاطئ، تشقها وهاد ضيقة شديدة التحدر تغطيها شجيرات وأجمات سرخس تجعل المرور متعذرًا فى مواضع كثيرة، وهكذا كان الأتراك فى مواقعهم على المرتفعات يستطيعون الاختفاء وسط النباتات الكثيفة، وأمامهم مجال ملائم لإطلاق نيرانهم على القوات المحصورة على الشاطئ تحتهم، وكأنها فى فخ لا فكاك منه.

هنا يحق لنا أن نتساءل: كيف كان لدى من خططوا لهذه العملية أى تصور لنجاحها؟ هاميلتون، وبعض كبار ضباطه، كانوا قد قاموا باستطلاع أولى، بأن أبحروا فى مدمرة لمسافة أبعد قليلًا من الساحل، وكان لديهم بعض الصور الجوية، لم يكن لدى أى منهم خريطة جيدة، كما كانت هناك بعض المناطق - وبخاصة جون أنزاك - التى لم تكن قد رسمت لها خرائط بالمرة، وبالرغم من ذلك، عندما شق الأستراليون والنيوزيلنديون طريقهم إلى الشاطئ فى الساعات الأولى من صباح يوم الأحد ذاك، كانوا يحاربون مثل النمور. استطاع بعضهم أن يشق ممرًا عبر الشجيرات والعشب البرى بواسطة حرابهم، وبحلول الساعة الثامنة صباحًا، كان يبدو أن الأتراك قد بدؤوا يفرون فى أماكن متفرقة، فى تلك اللحظة، وصل إلى موقع الأحداث أحد أبرز الرجال الستة الذين عرفهم القرن العشرون.

كان مصطفى كمال - الذى ظهر على نحو خاطف فى الفصل السابق - فى الرابعة والثلاثين آنذاك، وكان قائد فرقة، تم استدعاؤه لكى يشتبك مع الغزاة بكتيبة صغيرة، فقام أولًا وحده دون مساعدة بإيقاف انسحاب مجموعة من الجنود الأتراك، واستطاع معتمدًا على قوة شخصيته أن يقنعهم بالعودة إلى القتال، وبعد أن أدرك أن المعركة كانت أكثر خطورة وأوسع نطاقًا مما كان يتصور، قام على مسئووليته، باستدعاء كتيبة تركية متفوقة بالإضافة إلى إحدى الوحدات العسكرية العربية، كان مصطفى كمال – بذلك - يتجاوز صلاحياته، إلا أنه أبلغ قيادته بذلك قبل حلول المساء. آنذاك، كان سير المعركة قد تحول لصالحه، وعاد إلى وحدته وبيده السلطة المؤثرة فى جبهة الأنزاك بكاملها.

حافظ على الضغط طوال اليوم وبدأت قوات الحلفاء فى المنطقة، التى كانت قد تمكنت من التقدم لمسافة قصيرة، بدأت فى التقهقر فى اتجاه البحر، كان بيردوود قد اكتشف – مرتعدًا - أنه قد أنزل رجاله على الشاطئ الخطأ، كان قد توقع أن يجد شريطًا ساحليًا بطول ميل على الأقل، بدلًا من جون أقل من نصف ذلك، بين الماء والمنحدر الصخرى، كان لا بد من إحضار كل شىء إلى هنا: المدافع والذخيرة ودواب الحمل - على وجه السرعة - ونقالات لحمل الموتى والجرحى. فى تلك الليلة بعث برسالة إلى القائد الأعلى يطلب الإذن بالتخلى عن موقعه وإعادة رجاله إلى البحر.

ولكن هاميلتون رفض؛ إذ إن أى عملية لإعادة الرجال إلى السفن، كما أوضح، ما كانت لتستغرق أقل من يومين. فى الوقت نفسه، كانت قد وصلته تقارير تفيد بأن غواصة أسترالية كانت قد عبرت المضايق ودخلت بحر مرمرة؛ حيث أغرقت زورقًا حربيًا تركيًا بطوربيد، لم يكن أمام الجنرال المسكين سوى أن يأمر رجاله بحفر الخنادق والبقاء فى وضع الدفاع، كان يمكن أن تهن عزيمة بيرد وود الذى كان مشغولًا بالأنزاك، لو أنه علم بما حدث للقوات الأوروبية. كان الفرنسيون قد حققوا قدرًا من النجاح: كانوا قد رسوا بالقرب من مقبرة "أخيل – Achilles" الشهيرة، واستولوا على قلعة كوم كاليه المهجورة واحتلوها، ومستعدين الآن للالتحاق بحلفائهم البريطانين فى كيب هيليز. إلا أن عمليات الرسو والإبرار هنا كانت كارثية. كان الأتراك قد حبسوا نيرانهم إلى أن اقتربت سفن النقل من الشاطئ وتم تحميل الأفراد، ثم قاموا فجأة بإطلاق وابل من الطلقات القاتلة. لم تكن هناك حماية للقوات البريطانية، وفى لمح البصر، كما قال سامسون كومودور الجو، الذى كان يراقب المشهد من طائرته: "كان البحر الأزرق الهادئ قد اصطبغ بلون الدم على امتداد خمسين ياردة من الشاطئ... كان المنظر مرعبًا"، وفى مناطق المياه الضحلة، كانت الأمواج الصغيرة قد استحالت قرمزية اللون، فى غضون

ثلاث ساعات، كانت ثلاثين جثه تقريبا تغطى الشاطىء. كان الموقف أفضل كثيرًا فى مواقع الرسو والإبرار، والمعروف أن خسائر الأتراك كذلك كانت كبيرة. بالرغم من ذلك كان تفاؤل هاميلتون المستمر مثيرًا للدهشة. كتب فى 26 إبريل:

«بفضل الله الذى أسكن هياج البحر، وبفضل البحرية الملكية التى حملت زملاءنا إلى الشاطئ بهدوء وكأنها فى سباق للزوارق، وبفضل الروح الجسورة التى أبداها الجميع، استطعنا إبرار 29000 جندى على ستة شواطئ فى مواجهة مقاومة شرسة»؛ ولكن بحسب التقارير التى تسربت إلى لندن، لا يمكن أن يكون هناك شك لدى أحد فى أن تكلفة عملية جاليبولى فى الأرواح وحدها كانت أكبر بكثير مما كان متوقعًا، وأن آفاقها بعيدة المدى كانت محل شك كبير».

بعد ثلاثة أيام، كان هناك هدوء مؤقت تبعه ما يشبه الورطة. كان البريطانيون والأنزاك قد تمكنوا من التقدم لمسافة ميل أو ميلين تقريبًا فى التلال وأن يحفروا لأنفسهم خنادق يتحصنون بها، ولم يستطع الأتراك زحزحتهم. لفترة ما، كان يبدو أن أعمال القتال لن تتحرك أبعد من خنادق شبه الجزيرة كما كان الوضع فى الفلاندرز. فى الوقت نفسه، كانت كل بوادر الضيق والقلق بين الحكومة البريطانية قد بدأت تظهر للعلن فى لندن. أولًا: فى الخامس عشر من مايو، استقال الأدميرال فيشر، أو بالأحرى انسحب احتجاجًا. ثانيًا: اضطر «أسكويث – Asquith"، رئيس الوزراء لتشكيل حكومة ائتلافية - تم استبعاد ونستون تشرشل منها بكل إصرار - فى أكبر انتكاسة درامية له فى عمله السياسى حتى ذلك الحين.

بالنسبة للجنود على شواطئ جاليبولى وأقرانهم على المنحدرات الصخرية الشاهقة، كان صيفًا طويلًا، مع ارتفاع درجة الحرارة أصبح الذباب لا يطاق: الطعام، الجثث الملقاة فى العراء، الجروح العديدة المتقيحة، قربهم من المراحيض... كل ذلك جعل الذباب يتكاثر بالملايين لتصبح حياة الجنود جحيمًا، ثم كانت الديزنطاريا. بحلول شهر يوليو كانت السفن تحمل أسبوعيًّا آلاف المرضى إلى لمينوس وغيرها من الجزر. إلا أنه كانت هناك أخبار طيبة وسط هذا الجو المأساوى: فى يونيو، تم الاتفاق فى لندن على إرسال خمس فرق إضافية ليصبح عدد قوات هاميلتون نحو مائة وعشرين ألف مقاتل. دى روبك كذلك، بعد أن كان فيشر قد انزاح من الطريق، حصل على تعزيزات كبيرة لأسطوله. مع هذه الظروف التى تغيرت تمامًا، كان هناك ما يوحى بعملية رسو وإبرار جديدة، وهذه المرة وقع الاختيار على "خليج سلفًا – Sulva Bay"، الواقع على بعد أميال قليلة شمالى جون أنزاك. من هنا، كان المأمول هو التقدم بسرعة وقطع الأميال الأربعة المتبقية إلى المضايق، وعزل الجزء الرئيسى من الجيش التركى عند رأس شبه الجزيرة.

كان خليج سلڤا يبدو فى البداية مبشرًا بالوفاء بالغرض. على خلاف الأشكال الهلالية الضحلة فى غيره من الخلجان، كان سلڤا أشبه بحدوة الحصان، ومن ثم كانت مياهه بمثابة مرسى مثالى للأسطول. لم تكن هناك مرتفعات صخرية شاهقة يمكن السيطرة منها عليه، وربما لهذا السبب لم يكن يوجد به سوى قوة دفاع خفيفة - اتضح فيما بعد أنها كانت عبارة عن 1800 جندى موزعين حول الخليج دون أى أسلاك شائكة أو مدافع ماكينة؛ كانت الأسلاك والمدافع حول لسان جون أنزاك فحسب، وكانت السيطرة عليه تعنى إيواء جزء كبير من قوات الحلفاء المشتركة (الدومينيون)، للتخفيف من الكابوس الذى تحملوه طويلًا. بدأت عملية الإبرار تحت جنح الليل ليلة الرابع من أغسطس واستمرت حتى السادسة صباحًا. لم يكن الأتراك يتوقعون شيئًا مثل ذلك. بعد أن تم إبرار كل شىء، بدأت الأمور تنحو منحى خطأ إلى حد الخطر. لم تكن القوات التى وصلت حديثًا مدربة ولا منضبطة وكان قادتها من كبار السن، غير أكفاء، وغير قادرين على التأقلم مع الظروف البالغة الصعوبة المحيطة بهم. سرعان ما انهار التسلسل القيادى.. كان هاميلتون بعيدًا ولا يمكن الاتصال به.. كانت الأوامر تتغير من النقيض إلى النقيض فى اللحظات الأخيرة.. كان قادة الوحدات يتصرفون كل كما يشاء، ونادرًا ما كان يتم إخطار الجنود بما هو مطلوب منهم.

إلا أنه كانت هناك نجاحات قليلة مؤقتة. الهجوم البطولى للقوات الأسترالية على "لون پاين – Lone Pine" كلفهم أربعة آلاف قتيل، إلا أنه عاد عليهم بما لا يقل عن سبعة أوسمة من طبقة "صليب ڤيكتوريا – Victoria Cross"، وأسفر عن الاستيلاء على خط الدفاعات التركية. النيوزيلنديون دمروا جزءًا آخر من الخط؛ ليجدوا أنفسهم أمام مؤخرة المواقع التركية. إلا أنه كانت هناك مع كل نجاح أوجه فشل كثيرة؛ ففى مساء الثامن من أغسطس أُجبر الحلفاء على العودة إلى خنادقهم بعد أن منوا بخسائر فادحة وفشلوا فى تحقيق أى من أهدافهم الرئيسية. فى آخر أغسطس، اعترف هاميلتون بفشله لـ كتشنر. قال: إنه لم يكن باستطاعته أن يفعل أكثر مما فعل دون تعزيزات قوية؛ ذكر رقم 95000 مقاتل، إلا أن الفيلد مارشال هز كتفيه استخفافًا. كانت حكومة الحرب - فيما يبدو - قد قررت التركيز مرة أخرى على الجبهة الغربية. هل كان المطلوب طى صفحة جاليبولى؟

فى الأسبوع الأخير من سبتمبر، كانت هناك كارثة أخرى أشد قسوة. بعد أن أعلنت بلغاريا التعبئة، كان من المؤكد أنها - فى ظرف أسبوع على الأقل - ستدخل الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا، وتزحف معهما على صربيا. كان ذلك نذيرًا بتغير الموقف

برمته فى البلقان، ولذا قرر الحلفاء نقل فرقتين، فرقة فرنسية ثم أخرى بريطانية، من جاليبولى إلى "سالونيكا – Salonica"؛ حيث يمكنهما من هناك، الزحف شمالًا لمساعدة الصرب. كان يبدو آنذاك أن هاميلتون لا بد أن يكون مستعدًا لتجنب سلفا - Sulva تمامًا. كذلك كان هناك احتمال آخر، ولعله كان موقعًا للكآبة فى النفس أكثر من ذلك: فى الحادى عشر من أكتوبر أبرق كتشنر إلى هاميلتون يسأل: ما تقديرك للخسائر المحتملة بين قواتك، فى حال القيام بإخلاء شبه جزيرة جاليبولى؟ لم يتم اتخاذ أى قرار بهذا الخصوص بعد... إلا أننى أشعر بضرورة معرفة رأيك". رد عليه هاميلتون فورًا؛ قال: إن 50% ربما يكون تقديرًا واقعيًا، وأضاف: "من ناحية أخرى، بوجود كل هذه القوات الخام قليلة الخبرة فى سلفا، وكل أولئك السنغاليين فى كيب هيلز لا بد أنه ستكون هناك كارثة محققة". عندما وضعت هذه الرسالة أمام لجنة الدردنيل فى الرابع عشر من أكتوبر، تقرر مصير هاميلتون. بعد يومين... تم الاستغناء عنه.

** ** **

خليفة هاميلتون الليفتنانت جنرال سير تشارلز مونرو – Charles Monro جاء من الجبهة الغربية مباشرة. لم يخف منذ اليوم الأول له أنه كان يعتبر حملة جاليبولى برمتها فكرة خطأ، كان يعتقد أن الانتصار فى الحرب يمكن أن يتحقق فى فرنسا، وأن أى انحراف أو تحول عن الهدف الرئيسى مرفوض. وحيث إن الأوامر الصادرة إليه كانت أن ينصح إما بإخلاء شبه الجزيرة أو بعدم إخلائها، فإن طبيعة استشارته كانت تبدو نهاية مقررة سلفًا. كما أنه عندما وصل، لم يجد شيئًا يجعله يمكن أن يغير رأيه. رغم أن برودة الجو كانت قد بدأت تتزايد، لم تكن ملابس الشتاء قد وصلت من لندن. لم يكن قد أبقى من معظم القوات سوى نصف عددها تقريبًا، وربما أقل، وكانوا فى حالة من الضعف والهزال شديدة. كانت الذخيرة قليلة ومقنن المدافع قذيفتان فى اليوم. عندما رأى مونرو خليج سلفا لأول مرة تأكدت مخاوفه. يقال: إنهم سمعوه يتمتم: "مثل آليس فى بلاد العجائب... أعجب.. وأعجب". فى اليوم التالى أرسل توصياته إلى كتشنر.

بالرغم من ذلك، لم يكن كل شىء قد ضاع. كان "الكومودور روچر كيز Commo-dore Roger Keyes"، رئيس أركان الأدميرال دى روبك، كان يرى من المناسب أن يعترض. كانت خطته فى غاية البساطة: أن يتم تجميع كل أسطول البحر الأبيض الذى كان موزعًا فى أشهر الصيف فى عدة مواقع فى بحر إيجه؛ لكى يقوم بمحاولة مخططة لعبور المضايق، بينما يتم قصف بطاريات الأتراك الموجودة على الشاطئ بكثافة. كان يعتقد أن ذلك سيفاجئ الأتراك. وبمجرد أن يصبح الأسطول فى بحر مرمرة، سيكون من

السهل إغلاق البرزخ عند الحافة الشمالية لشبه الجزيرة، وعزل الفرق التركية العشرين الموجودة هناك. كان دى روبك متشككًا، إلا أنه سمح لـ "كيز" بالعودة إلى إنجلترا ليدافع عن فكرته. وفعل.

تركت الفكرة انطباعًا جيدًا لدى كبار القادة العسكريين، وعلى لورد أول البحرية "آرثر بلفور- Arthur Balfour" ، وبالطبع على ونستون تشرشل.

لم يكن قد بقى سوى لورد كتشنر، الذى روعته سرعة وفحوى رد مونرو، وكان هو شخصيًا الذى اختار هاميلتون لقيادة عملية جاليبولى، ولم يكن يسعده بالتأكيد أن يرى صديقه ممتهنًا. على الفور، وافق على فكرة كيز. وطلب منه أن يحاول الحصول على تعهد محدد من البحرية، وبعد ذلك أعلن (لبيردوود وليس لمونرو) عن قراره بالذهاب شخصيًا إلى الدردنيل فى اليوم التالى، كانت آخر عبارة فى رسالته "أرفض تمامًا توقيع قرار بالإخلاء، الذى سيكون فى رأيى أكبر كارثة، وأن أحكم على نسبة كبيرة من رجالنا بالموت أو السجن. سيعين مونرو لقيادة القوة المتجهة إلى سالونيكا". ثم انطلق، عبر باريس - حيث كان الفرنسيون قد أكدوا معارضتهم للإخلاء - إلى مرسيليا، ثم إلى جاليبولى على متن السفينة الملكية "دارموث- Darmouth".

لو كان كيز قد رافقه - كما طلب منه كتشنر إلا أن الرسالة لم تصل - فلربما كان قد نجح فى تهدئة الفيلد مارشال، ولكن مناخ الآراء بين القادة كان قد تغير على الفور إلى حد كبير منذ رحيل كيز؛ ليجد كتشنر نفسه محاطًا بـ مونرو و دى روبك وبيردوود، وكان ثلاثتهم مع فكرة الإخلاء. لم يتكلم أحد عن كيز ولا عن خطته، بعد يومين من النقاش خرج الفيلد مارشال فى رحلة تفتيش على رؤوس الجسور الثلاثة الرئيسية، وأصابه الحزن لما رأى، إلا أنه كان أقل من حزن مونرو، وفى الثانى والعشرين من نوفمبر، أبرق بتوصية إلى لندن بضرورة إخلاء سلفا وخليج أنزاك فورًا والاحتفاظ بكيپ هيليز "موقتًا". بعد يومين أبحر إلى إنجلترا.

حتى ذلك الحين لم يكن أحد من المعنيين بالعملية - من أعلى إلى أدنى مستوى - يشعر بغير الاشمئزاز من شبه جزيرة جاليبولى، إلا أنهم لم يروها فى أسوأ ظروفها. فى 27 نوفمبر ضربتها أقوى عاصفة ثلجية على مدى أربعين سنة على الأقل. أربع وعشرون ساعة على الأقل من المطر الغزير، تبعتها رياح شمالية عاتية لإعصار استوائى مع تساقط ثلوج كثيف وليلتان من الصقيع. كانت السيول تنهمر كاسحة من التلال حاملة معها جثث الغرقى من الجنود الأتراك. فى جون أنزاك بخاصة؛ حيث كان كثير من الأستراليين ووحدة هندية صغيرة، ربما يرون الثلوج لأول مرة فى حياتهم.

لم يكن هناك أى وسيلة للحماية من البرد القارس. لم يكن قد تم صرف ملابس الشتاء للجنود ولم يكن أمامهم سوى الاحتماء بالبطاطين الغارقة بالماء، التى سرعان ما كانت تتجمد. استمر هذا العذاب ثلاثة أيام وثلاث ليال، وعندما انتهى كان هناك مائتا قتيل بين غريق وميت من البرد، ونحو خمسة آلاف يعانون من قضمة الصقيع. كان كثير منهم قد عارض الإخلاء من قبل، مصرين على استمرار العملية حتى النهاية. الآن، وبالرغم من الأخطار الشديدة، لم يكن باستطاعتهم الخروج من هنا بسرعة.

كان من الواضح أن الإخلاء سيكون عملية طويلة وشاقة.[1] عن رأس جسر سلقا - أنزاك وحده، كان هناك نحو ثلاثة وثمانين ألف جندى، غير خمسة آلاف حصان وحمار وألفى مركبة ونحو ألفى مدفع وعدة أطنان من المواد التموينية. كان الأمل الوحيد هو الانسحاب سرًّا وفى هدوء فى غضون أسبوعين أو ثلاثة. حتى آنذاك، كانت هناك مخاطر شديدة: القصف التركى المتواصل قد يجعل عملية التحميل مستحيلة، الطقس السيئ والبحر الهائج قد يفسدا الخطط المعدة مهما كانت جيدة، كما أن انقلاب الشمس الشتوى كان قد اقترب. إلا أنه لم يكن هناك بديل آخر. من الأسبوع الثانى فى ديسمبر بدأت مجموعات صغيرة من البوارج والقوارب الصغيرة فى التسلل إلى الخليج ليلًا لتغادر قبيل الفجر، محملة عن آخرها بالأفراد والحيوانات والأسلحة. كان يتم تحميل المرضى والجرحى أولًا، وكان قد تم إعداد ست وخمسين سفينة مجهزة كمستشفى بشكل مؤقت. كان هناك 12000 سرير فى المستشفيات جاهزة فى مصر. كانت الحياة أثناء النهار تسير كالمعتاد لدرء شكوك الأتراك: قوافل البغال مستمرة فى رحلاتها من الشواطئ إلى الجبهة وبالعكس. الفارق الوحيد هو أن الأقفاص والصناديق التى كانت تحملها كانت فارغة. مع تقدم عملية الإخلاء أصبح الخداع والتمويه أكثر صعوبة: نفس الرجال والحيوانات كان لا بد من أن تواصل السير جيئة وذهابًا عدة مرات مثل جيش على خشبة مسرح. لم يكن هناك خيام، وكان لا بد من إشعال الألوف من مواقد الطهى كل ليلة.

بعد أسبوع، تسارع معدل الحركة؛ فى الثامن عشر من ديسمبر، كان نصف القوة - نحو أربعين ألف جندى - قد أقلع، إلا أنه لم يكن بالإمكان خداع العدو أكثر من ذلك، تم الاتفاق على أن تغادر بقية الجيش فى الليلتين التاليتين، فى بعض قطاعات الجبهة لم يكن يفصل بين خنادق الحلفاء وخنادق الأتراك أكثر من عشر ياردات (ما زال بعض الخنادق موجودًا إلى الآن)، وربما كان يبدو من المستحيل مغادرتها دون أن يتنبه العدو لذلك، إلا أن ذلك حدث على نحو ما. قبل بزوغ فجر اليوم الواحد والعشرين تحركت

آخر القوارب من الشاطئ؛ عند جون أنزاك، جرح جنديان على إثر طلقات طائشة أثناء صعودهم السفينة؛ فى خليج سلڤا خرج كل الرجال والحيوانات فى سلام، كان آخر شىء فعلوه قبل مغادرتهم هو إشعال الفتائل التى كانت موضوعة على الشاطئ بعناية. بعد عشر دقائق كانو يسمعون - بكل ارتياح - سلسلة الانفجارات المدوية فى مستودعات الذخيرة.

** ** **

ولكن ماذا عن البريطانيين؟ بالنسبة لفرقهم الأربع - نحو 35000 جندى - عند رأس جسر هيليز كان الوضع يبدو خطرًا بالفعل. كان الأتراك قد تركوا الأنزاك يهربون من ناحية اليمين على مرأى منهم؛ والمؤكد أنهم لن يرتكبوا الخطأ نفسه مرة أخرى. بدلًا من ذلك، سيلقون بكل ثقل جيشهم ضدهم؛ حيث لم يعودوا مقيدين فى أنزاك وسلڤا. لم يعد رفض الإخلاء ممكنًا، مونرو، وبيردوود، ودى روبك - الذى كان مريضًا فى بلاده وعاد قبل عيد الميلاد - كانوا متفقين الآن: لا بد من الإخلاء مهما كانت صعوبته.

بدأت العملية يوم السبت الأول من يناير 1916. غادر الفرنسيون أولًا، وبعد أسبوع كان عدد القوات البريطانية المتبقية قد انخفض إلى تسعة عشر ألف جندى. حتى ذلك الحين كان هناك قليل من المقاومة من جانب العدو، وهو أمر كان يدعو للدهشة بالفعل. بعد ظهيرة اليوم السابع، بدأ الأتراك هجومهم بقصف متواصل استمر نحو أربع ساعات ونصف الساعة. بعد أن صمتت المدافع كان أن بدأ الهجوم المتعذر اجتنابه. واجهه البريطانيون من خنادقهم بالمدافع والبنادق، ولكنهم فوجئوا بالمشاة الأتراك يقفون فى أماكنهم رافضين التقدم، رغم ما كانوا يُعرفون به من شجاعة وانضباط. حتى حلول المساء، لم يكن جندى تركى واحد قد اخترق خط الدفاع البريطانى. لم تكن هناك أى متاعب على مدى الأربع والعشرين ساعة التالية، واستمرت عملية الإخلاء.

فى الوقت نفسه كانت الحالة الجوية تزداد سوءًا. بحلول اليوم الثامن من يناير، كانت الرياح العاتية التى بلغت سرعتها نحو خمسة وثلاثين ميلًا فى الساعة تطيح بكل شىء. تحطم مشعلين ليرتطما بإحدى الدعامات المؤقتة، كان كل شىء يتحطم أثناء محاولات إصلاحه ولم يكن العمل في الظلام سهلًا بينما البحر هائج، كانت الرياح والأمطار كذلك سببًا فى بطء حركة الجنود الباقين وهم يقطعون الأميال الثلاثة أو الأربعة من خنادقهم إلى الشاطئ؛ إلا أنه فى الرابعة إلا الربع صباحًا، كان آخر فرد قد صعد إلى آخر سفينةٍ مغادرة، بعد عشر دقائق انفجرت مخازن الذخيرة فى مشهد درامى أخير، كما حدث فى أنزاك وسلڤا من قبل.

لم يكن هناك ما يليق بعملية الإخلاء أكثر من نهايتها: من بين المساخر الكثيرة فى قصة جاليبولى أن تكون عمليات الإخلاء الأخيرة نموذجًا لدقة التنظيم والتخطيط، برغم الارتباك والفوضى التى اكتنفت العملية كلها من البداية، لم يكن هناك أى خسائر تقريبًا ولم يتبق أى فرد فى المكان. إلا أنه ربما تكون هناك سخرية أخرى: كانت الحملة الفاشلة برغم ذلك كله فكرة جيدة، كان ينبغى - وكان يمكن - أن تنجح. بعد الحرب ببضع سنوات اعترف تقرير رسمى لرئاسة الأركان العامة التركية بأن معركة 19 مارس البحرية كانت قد خلفتهم بلا ذخيرة، ولو أن دى روبك كان قد عاود الهجوم على الفور، فلربما كان قد تمكن من التقدم دون عائق إلى القسطنطينية عبر المضايق، وفى تلك الحالة فإن «الفرق الثمانية التى كانت هناك، ما كانت لتستطيع الدفاع عنها». وفى حال احتلال القسطنطينية، فلربما لم يقدم الروسى على توقيع صلح منفرد - ولربما لم تحدث الثورة الروسية. حتى بعد عمليات الإبرار، كان الانتصار ممكنًا؛ فالتقرير التركى يعترف كذلك بأن الحلفاء كان يمكنهم القيام باختراق دفاعاتهم أثناء الحملة مرتين (أثناء أول إبرار فى أنزاك فى شهر أبريل، وفى خليج سلفًا فى شهر أغسطس)، لولا الجاذبية الشخصية لمصطفى كمال.[2] لو أنهم كانوا قد تمكنوا من ذلك، لو أن الحملة كانت قد نجحت - وكانت على وشك تحقيق ذلك - فلربما كانت الحرب العظمى قد انتهت قبل نهايتها الفعلية بثلاث سنوات، ولما زهقت ملايين الأرواح.

** ** **

كان موقف اليونانيين من عملية إبرار القوات فى سالونيكا غامضًا وملتبسًا، رحب رئيس الوزراء «إلفتيريوس ڤينيزيلوس- Eleftherios VeNizelos» بالخطة سرًّا، بالرغم من أنه سجل اعتراضًا رسميًّا من باب التمسك بالشكليات، من ناحية أخرى كان الملك "قسطنطين -Constantine" (كان قد خلف والده چورچ قبل عامين وكان متزوجًا من شقيقه القيصر) معارضًا بشدة على أساس أنه حتى عبور الجيش البلغارى الحدود، فإن وجود قوات أجنبية على الأراضى سيكون انتهاكًا لحيادية اليونان، أما بالنسبة لليونانيين أنفسهم. فكانوا إلى جانب الملك تمامًا. لم يكن لديهم رغبة فى وجود قوات للتحالف ويشعرون أنهم أجبروا، على غير إرادتهم، على دخول الحرب. كانت النتيجة ما أصبح يعرف بـ «الشقاق القومى – National Schism»، وأجبر ڤينيزيلوس على الاستقالة.

من الخطأ دائمًا أن تتدخل الملكيات الدستورية فى السياسة الخارجية، وهذه المرة كان الخطأ كارثيًّا. الآن، فتح الملك قنوات محادثات سرية مع الألمان، وفى الثالث والعشرين

من مايو 1916، وبأوامر منه، سلم الجيش اليونانى قلعة "روپل - Rouple" الأمامية؛ مما مكن القوات الألمانية والبلغارية من اجتياح مقدونيا الشرقية. كذلك صدرت الأوامر لـ "قولة – kavalla" بالاستسلام، وأرسلت حاميتها إلى ألمانيا كأسرى حرب. كان ڤينيزيلوس، يصرخ فى البرلمان "أين... أين على الأقل الثلاثين قطعة فضة. التى حصلتَ عليها؟". ربما لم تكن تلك هى الملاحظة الأكثر دبلوماسية للمناشدة الأخيرة للملك للانضمام إلى الحلفاء قبل أن يتأخر الوقت، وكما كان متوقعًا، تجاهل الملك الأمر تمامًا.

بالنسبة لقوة الحملة، كان الموقف يزداد صعوبة. منذ يوم وصولها، كان أن وجدت أنها لم تكن محل ترحيب، واضطرت لإقامة معسكرها بعيدًا عن المدينة بعدة أميال، بينما بقى قناصل العدو فى الداخل دون قيود عليهم. فى ذلك الشتاء، ارتد الصرب إلى الأدرياتيكى وتم احتلال صربيا. كان الحلفاء يتساءلون: ماذا يريدون؟ كان أن أخذ القائد الفرنسى فى سالونيكا آنذاك - الجنرال "موريس سيريل – Maurice Serrail" القانون فى يده، وألقى القبض على قناصل العدو وعملائه وسجنهم فى القلعة، بينما قام بالاستيلاء على قلعة أخرى تحمى مدخل الخليج. الآن، سقطت الأقنعة: طلبت قوات الحلفاء رسميًّا تسريح الجيش اليونانى وحل البرلمان وطرد الحكومة. فى سبتمبر 1916، تسلل ڤينيزيلوس إلى موطنه كريت؛ حيث قام بقيادة حركة تمرد على الملك. عاد بعد ذلك إلى اليونان ليشكل حكومة مؤقتة فى تيسالونيكا، اعترف بها الحلفاء بعد شهر.

فى ديسمبر، قام البريطانيون والفرنسيون - الذين لم تكن مطالبهم قد تحققت بعد - بإبرار قوات فى پيرايوس -Piraeus ، فى محاولة لإجبار الملك على تسليم ما لديه من أسلحة وذخيرة، كان ذلك خطأ كبيرًا؛ ردًّا على ذلك قاتل اليونانيون، وقام الأسطول الفرنسى بقصف القصر الملكى، الملوم بالطبع - وإن بلا مبرر - هو ڤينيزيلوس الذى حرمه أساقفة أثينا كنسيًّا فى السادس والعشرين من ديسمبر، فرض الحلفاء حصارًا على جنوب اليونان، وفى يونيو 1917 طلبوا تنحى الملك - ودعم الفرنسيون هذا الطلب بإنزال قوات فى كورنثة، رفض قسطنطين التنحى، إلا أنه غادر البلاد مع ابنه الأكبر إلى سويسرة.

الآن، كان الموقف قد تغير بين عشية وضحاها. فى أثينا، التى كانت تتضور جوعًا بسبب الحصار، كما كانت بمثابة مدينة محتلة من الفرنسيين، خلف الابن الثانى لقسطنطين أباه. بعد أيام قليلة عاد ڤينيزيلوس من سالونيكا بحكومته ليتم استقباله بحرارة ويصبح رئيس وزراء الملك الجديد ويحتفل بتعيينه بكلمة استمرت تسع ساعات أمام البرلمان. الآن، كان الملكيون هم الذين يعانون، والحقيقة أنه تم تطهيرهم - من الحكومة والخدمة

المدنية والجيش... حتى الكنيسة. انقسم المجتمع اليونانى شطرين، وسيبقى كذلك على مدى جيل كامل على الأقل؛ وأخيرًا.. دخلت اليونان الحرب إلى جانب الحلفاء. جيشها الذى كان مكونًا من مجندين إلزاميين وغير مدرب، حارب ببسالة فى مقدونيا. حارب مع البريطانيين وهزموا بلغاريا، ومع الفرنسيين والصرب وطردوا الألمان من صربيا، وفى آخر انتصار لها دخلت القوات اليونانية القسطنطينية لأول مرة منذ 1453. كانت تلك أسعد لحظات العمر بالنسبة لإلفيتيريوس ڤينيزيلوس.

** ** **

كانت أخبار جاليپولى المثيرة وما خلفته الحملة من إحباط قد حجبت الأضواء عن مسرح آخر للحرب: مسرح الشرق الأوسط، كان الشرق الأوسط – كذلك - يشكل جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، وشهد مسرحه الجيش التركى وهو واقع تحت ضغط مستمر من الحلفاء سواء فى بلاد الرافدين أو فلسطين. كانت الحملة الفلسطينية - مرة أخرى - محاولة أخرى لرفع الروح المعنوية لبريطانيا التى أنهكتها الحرب: لإعطاء شعبها شيئًا تفكر به بدلًا من الهلاك المستمر فى خنادق الفلاندرز، بينما تنزل ضربة قوية بالعدو فى أضعف نقاطه، لم يكن المحرض الرئيسى عليها، على أية حال، هو ونستون تشرشل، كان ما زال خارج الحكومة بسبب كارثة جاليپولى - وإنما رئيس الوزراء ديڤيد لويد چورچ، الذى خلف أسكويث. كان يمكن تلخيص هدفه فى ثلاث كلمات: "القدس قبل عيد الميلاد"، وكان الرجل الذى اختاره لتحقيق ذلك هو الچنرال سير إدموند اللنبى - Edmund Allenby. لم يكن اللنبى شخصية محبوبة بين الجيش: طوله الفارع، وحضوره الطاغى، ومزاجه الغاضب دائمًا، وغطرسته... كل ذلك جعلهم يطلقون عليه لقب "الثور" - The Bull -[3] والحقيقة أن عدوانيته كانت تطغى على عشق حقيقى لديه للطبيعة، وحب عميق للموسيقى والأدب والفلسفة.[4] ولأنه كان جنديًّا قلبًا وقالبًا والجندية فى دمه، أصابه الحزن الشديد عندما صدرت له الأوامر بترك الخنادق والذهاب إلى فلسطين؛ لم يكن يعرف أن تلك النقلة التى لم يكن يرغب فيها، هى التى ستصنع اسمه وشهرته، وتأتى له بعصا المارشالية ورتبة ڤيكونت – Viscount، ومنحة قيمتها خمسون ألف جنيه إسترلينى.

كان معظم قوة الحملة المصرية[5] - كما أطلق عليها - من الأستراليين، وكانت موجودة أساسًا لحماية قناة السويس، مع احتمال المشاركة فى قتال الأتراك، كانت القناة آمنة، أما بالنسبة للقتال ضد الأتراك فإنها لم تحقق الكثير، وذلك بالرغم من تفوقها عددًا وعدة عن الجيش الذى كان يواجهها وراء شبه جزيرة سيناء. كتب لويد چورچ يقول:

«فى فلسطين وبلاد الرافدين لم يكن شىء أو أحد يمكن أن ينقذ الأتراك من الهزيمة الكاملة فى 1915 و1916 سوى أركاننا العامة». لم يشهد ربيع 1917 أى تحسن فى الموقف. كانت هناك محاولتان هزيلتان للاستيلاء على غزة... انتهت كلتاهما بالهزيمة. كانت مهمة اللنبى الأولى إذن عندما وصل إلى القاهرة فى الثامن والعشرين من يونيو، هى بث روح جديدة فى ذلك الجيش المحبط البائس، واستطاع أن يحقق ذلك فى غضون أسبوع واحد. كان سلفه الجنرال «أرشيبالد موراى – Archibald Murray» قد فضل أن يكون مقر قيادته فندق "سافوى – Savoy" بالقاهرة. نقله اللنبى إلى معسكر خيام رثة وأكواخ بائسة خانقة من شدة الحرارة والرطوبة فى مكان متقدم خلف خط الجبهة فى غزة، وقام على الفور بجولة تفقدية على كل الوحدات المتقدمة، كما أقام اتصالًا مباشرًا بضباطه وجنوده. كنا فى ذروة الصيف؛ حيث تصل درجة الحرارة عند الظهيرة إلى 120 فهرنهايت والعواصف الرملية تكون متكررة وخانقة، ولكن لم يكن شىء من ذلك يمكن أن يمنع الجنرال الكبير من الجلوس بكامل زيه الرسمى منتصب القامة، بجوار سائق أسترالى صغير يرتدى قميصًا وبنطلونًا قصيرًا، فى سيارة فورد قديمة، يجول بها الصحراء لتفقد الدفاعات وإمدادات المياه، يعطى الأوامر ويعبر بوضوح من عدم رضائه. أينما حل، كانت الروح المعنوية ترتفع إلى عنان السماء.

كانت مهمة اللنبى المباشرة هى تكوين فكرة واضحة عن قواته، والمهمة التالية هى وضع خطة للحملة، وكان ذلك يتطلب تعزيزات كبيرة: فرقتان أخريان إلى جانب السبع الموجودة بالفعل فى فلسطين. ولشرح خطته والدفاع عنها فى وزارة الحرب، أرسل إلى لندن ضابط اتصال شابًا هو الليفتنانت كولونيل أ.ب. ويڤل - A.P.Wavell (الفيلد مارشال فيما بعد فى الحرب العالمية الثانية، ونائب الملك فى الهند) بفضل قوة إقناع ويڤل - إلى حد كبير - وسمعته الطيبة التى كانت تتردد، حصل على كل ما يريد، مع مدفعية ووحدات أخرى من الطيران الملكى، وبعد وقت قصير كان ويڤل هو الذى يشرح خطة اللنبى لرئيس الأركان العام الملكية ولحكومة الحرب. كانت الخطة باختصار تتكون من التقدم باندفاع رئيسى إلى آبار "بيرشيبا - Beersheba" الوافرة التى تبعد نحو ثلاثين ميلًا تقريبًا، إلى الداخل من غزة، على أن يحمى ذلك الاندفاع هجوم خداعى على غزة نفسها. كالعادة، كانت استعدادات اللنبى شاملة: تم جمع ثلاثين ألف جمل لنقل الماء للقوات التى ستتقدم، مع بناء طرق جديدة وإعداد خرائط أكثر دقة - بفضل الاستطلاع الجوى الحديث - من تلك السابقة التى كان قد أعدها هـ.هـ. كتشنر فى سبعينيات القرن التاسع عشر. فى الوقت نفسه قرأ اللنبى كل ما هو متوفر عن المنطقة منذ "هيرودوتس - Herodotus" و"سترابو – Strabo"، إلى تاريخ الحملات الصليبية، وآخر أوراق الجمعية الجغرافية الملكية.

أثناء فترة التحضير تلك فى أواخر صيف 1917 ، كان أن قابل اللنبى لأول مرة الضابط البريطانى الوحيد الذى سيفوقه شهرة فى المنطقة: الكابتن "تى.إى. لورانس - T.E.Lawrence"، الذى كان فى التاسعة عشرة. لورانس الابن الثانى بين أبناء خمسة لـ "بارونيت[6] - «Baronet» إنجليزى - أيرلندى، كان قد خبر العالم العربى فى 1908 لأول مرة، عندما قام بجولة فى سوريا ولبنان ليسجل قلاعها الصليبية التى لم يكن يعرف أحد عنها الكثير. ثم اشتغل بعد ذلك - باعتباره عالم آثار - على حفريات المتحف البريطانى فى سوريا حتى نشوب الحرب؛ ليجد نفسه فى القاهرة برتبة ملازم أول فى إدارة الاستخبارات العسكرية، ضمن قوة الحملة المصرية (EEF) وكان يمكن أن يظل هنا، لولا الثورة العربية.

هبت الثورة العربية على الأتراك فى العاشر من يونيو 1916 بقيادة الشريف حسين بن على، حاكم مكة والحجاز. بعد ثلاثة أشهر خمدت الانتفاضة وهدأ التمرد بعد أن فشل المتمردون أكثر من مرة فى طرد الأتراك من المدينة. كانت روحهم المعنوية قد انطفأت. كان لورانس قد التقى بقادة الثورة، وترك فيصل الابن الثانى للشريف حسين بن على انطباعًا جيدًا لديه، فوضعا خطة للاستيلاء على العقبة، الميناء العثمانى الرئيسى على الطرف الشمالى للبحر الأحمر. كانت حملتان بحريتان بريطانيتان قد فشلتا من قبل، إلا أن لورانس كان يعتقد أن بالإمكان الاستيلاء على العقبة عن طريق البر. فى أوائل يوليو، وبعد مسيرة شهر تقريبًا، واجتياز نحو ثمانمائة ميل فى الصحراء، وبواسطة قوة من البدو المحليين الذين كان قد تم تجنيدهم فى الطريق كيفما اتفق، كان أن استسلمت الحامية التركية، وهكذا صنع لورانس اسمه.

لكم يتمنى المرء لو أنه كان هناك عندما دخل لورانس بخطى مسرعة، وبحجمه الضئيل مرتديًا زيًا عربيًا كاملًا – كما كانت عادته - مكتب اللنبى الضخم وهو جالس فى زيه الرسمى الأنيق. لا بد من أن يكون أكثر من ضابط قد طردوه لكى يخلع عنه ذلك الثوب الغريب ثم يعود للقاء الچنرال، كل ما فعله اللنبى هو أن حملق فيه، ولكنه راح يستمع إليه، وهو يشرح كيف سينشر التمرد شمالًا عبر العقبة ضد دمشق، ويقوم بهجمات متواصلة على خط سكة حديد الحجاز الأحادى، الذى كان طريق المواصلات الوحيد من هناك إلى المدينة. ربما كان من الصعب احتمال أسلوبه المغرور المصحوب بالغطرسة الزائدة، إلا أن حججه كانت مقنعة. قام الچنرال بترقيته على الفور، وجعله – هو وقوة فيصل - مسؤولين أمامه مباشرة، كما وعده بتقديم كل ما يستطيع من مساعدة.

المؤكد أن ذلك كان هو الطريق أمام اللنبى لتحقيق هدفه الرئيسى: تدمير الإمبراطورية العثمانية، وكان كذلك - كما كان يعلم - ضمانًا لمتاعب المستقبل. فى ربيع العام السابق، كانت بريطانيا قد دخلت فى اتفاق مع فرنسا وروسيا، يمكن بموجبه التوفيق بين مطالب فرنسا فيما يتعلق بسوريا والتعهدات والوعود البريطانية للعرب. كانت روسيا قد خصصت للقسطنطينية بضعة أميال من الأراضى الخلفية على كلا جانبى البوسفور، مع جزء كبير من شرق الأناضول حتى القوقاز، وكانت فرنسا تطالب بمعظم سوريا ولبنان وجزء كبير من جنوب الأناضول ومنطقة الموصل فى العراق، أما نصيب بريطانيا فكان يتكون من بقية العراق الحديث - بما فى ذلك بغداد والبصرة - وقطاع من فلسطين يضم موانئ حيفا وعكا. لو نجحت خطة لورانس للتقدم فى اتجاه الشمال، لما كان من المحتمل - على أقل تقدير - أن تؤيد الجيوش العربية المنتصرة مثل ذلك الترتيب، إلا أنه سيكون هناك ما يكفى من الوقت لتناول مثل تلك المشكلات.

بدأ التقدم الرئيسى نحو غزة وبيرشيبا بالقرب من أواخر أكتوبر 1917، وبالرغم من التحصينات القوية للخط بواسطة القائد الألمانى الچنرال "كريس ڤون كرسنشتاين - Kress von Kressenstein"، سقطت بيرشيبا فى آخر يوم من الشهر... وبعد أسبوع سقطت غزة. قرر اللنبى أن يحافظ على الزخم ولم يرحم نفسه ولا قواته التى لم يسمح لها بالراحة؛ فى بعض الوحدات كانت الخيول تشرب مرة واحدة فى خلال اثنين وسبعين ساعة، وتُستعجل لترمح بلا شفقة فى اتجاه الشمال لمد خطوط الاتصال والتموين إلى أبعد مدى. سقطت يافا فى السادس عشر من نوفمبر، وتجمع الجيش المنهك العطشان فى تلال يهوذا استعدادًا للهجوم الأخير على القدس. كان إصرار اللنبى على ألا يكون هناك قتال فى المدينة المقدسة، كان يتضمن مناورة طويلة ومعقدة للقيام بتطويق المدينة. مما زاد الأمر سوءًا، رداءة الأحوال الجوية فكانت حوافر الخيل إما أن تغوص فى الوحل أو تنزلق متعثرة على الصخور. بالرغم من ذلك استمر التقدم، وفى الأسبوع الأول من ديسمبر أبلغ الحاكم التركى دمشق بإخلاء المدينة قبل أن يقوم هو شخصيًا بتحطيم آلة التلغراف الخاصة به بمطرقة. المدينة نفسها استسلمت فى التاسع من ديسمبر، وبعد يومين دخل اللنبى القدس رسميًا. كان معه الچنرال ويڤل والميچور لورانس فى زى عسكرى استعاروه له. قبل تسعة عشر عامًا، كان القيصر ولهلم قد دخلها على حصانه... اللنبى كما أعلن فى كل مكان دخلها على قدميه. بعد 730 سنة، عادت القدس مرة أخرى إلى أيد مسيحية، ولكن – بأوامر منه - لم يرفع عليها علم رسمى. أصدر بيانًا قصيرًا، كانت سطوره الأخيرة تقول:

حيث إن مدينتكم تحظى بتقدير كبير من أتباع الأديان الثلاثة العظمى فى تاريخ البشرية، وحيث إن أرضها قد قدستها صلوات أو رحلات حج أعداد كبيرة من الأتقياء أتباع تلك الديانات الثلاث على مدى قرون عدة، أعلن لكم جميعًا أن كل مبنى مقدس، أو أثر أو بقعة مقدسة، أو هيكل، أو موقع تراثى، أو وقف أو إرث دينى، أو أى مكان معتاد للصلاة فيه أو أداء أى شعيرة تابعة لأى من الديانات الثلاث... سيتم الحفاظ عليها وحمايتها، حسب العادات والأعراف القائمة لمن يقدسونها.

بعد الاستيلاء على القدس كانت هناك فترة توقف نحو عام، قبل استئناف الحملة. كان اللنبى يعرف أنه إذا كان لا بد من أن يتقدم حتى حلب، سيكون فى حاجة إلى قوة أكبر مما لديه آنذاك. رفض أن يتحرك إلا بعد توفير تلك القوة له. ما حدث هو أن جيشه أعيد تنظيمه بالكامل. غادرت بعض القوات إلى أوروبا، وجاءت أخرى من الهند وغيرها من الأماكن، إلى أن أصبح لديه قوات من أكثر من 12 دولة ومستعمرة، من بينها سنغافورة وهونج كونج وجنوب أفريقيا ومصر وجزر الهند الغربية. كانت هناك – حتى - وحدة من راروتونجا - Rarotonga فى جنوب الباسيفيكى. كان من بين أفراد الكتائب اليهودية الثلاث التى جاءت على إثر إعلان بلفور– Balfour Declaration، كان هناك ديڤيد بن جوريون - David Ben-Gurion، الذى سيصبح أول رئيس وزراء لإسرائيل.

وهكذا لم يطلق اللنبى قوته الضخمة غير المتجانسة إلا فى التاسع عشر من سبتمبر 1918. كانت مكونة من 12000 جندى خيالة و75000 جندى مشاة و540 مدفعًا. أطلقها على 11 فرقة تركية قوامها 4000 جندى خيالة و40000 جندى مشاة و430 مدفعًا. كانت القوة التركية تحتل جبهة من يافا شرقًا إلى نهر الأردن بامتداد شاطئه الشرقى إلى البحر الميت. بعد 12 يومًا، وبعد واحدة من أشهر الحملات العسكرية، دخلت قواته المتقدمة دمشق. سقطت بيروت فى الثامن من أكتوبر، وطرابلس فى الثامن عشر، وحلب فى الخامس والعشرين من الشهر نفسه. فى غضون ما لا يزيد عن ستة أسابيع، كان قد تقدم لمسافة 350 ميلًا تقريبًا؛ ليدمر الجيش التركى فى سوريا تمامًا، ويأسر 75000 جندى، ويستولى على المدافع الأربعمائة والثلاثين كلها، وعلى كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة والمواد التموينية. بلغت الخسائر البريطانية نحو 5666 فردًا. فيما بعد سيكتب المؤرخ العسكرى "ليدل هارت - Liddell Hart" أن الحملة "كانت واحدة من أبرع حملات التاريخ؛ إذ إنها بلغت حد الكمال فى التنفيذ، كما فى التخطيط لها".

الآن، كان أن أصبحت الإمبراطورية العثمانية أطلالًا، وهى التى كان من المفترض أن تكون معبرًا ألمانيًا إلى الخليج الفارسى وآسيا الوسطى. ضاعت أراضيها العربية، ليس فى فلسطين وسوريا فحسب، بل وفى بلاد الرافدين كذلك.... إلى جانب شبه الجزيرة العربية. سقوط بلغاريا فى سبتمبر، فتح طرق المرور الغربية إلى القسطنطينية، بينما كانت القوات البريطانية والهندية تتقدم من الجنوب والشرق. وراء البحر الأسود، فى اتجاه القوقاز، كان رعايا السلطان السابقون (الچورچيون والأرمن والأذربيچانيون والأكراد) يكافحون لإنشاء دولهم. فى الثلاثين من أكتوبر، وعلى متن السفينة الملكية "أجاممنون - Agamemnon" (وهو اسم يليق بالظروف)، وبالقرب من جزيرة "مدروس – Mudros" فى بحر إيجه، كان ممثلو الإمبراطورية يتوسلون السلام.

هوامش الفصل الثانى والثلاثين

(1) يوجد وصف رائع لعملية الإخلاء فى الفصل السابع عشر من كتاب آلان مورهيد - Alan Moorehead : جاليبولى - Gallipoli وقد اعتمدت عليه كثيرًا فى وصفى للحملة.

(2) يقول المؤرخ البريطانى الرسمى ما هو أكثر من ذلك.. "من النادر أن يكون هناك فى التاريخ من بين قادة الفرق من يستطيع أن يكون له مثل هذا التأثير على سير معركة، بل وربما على مصير حملة ومستقبل أمة ثلاث مرات".

(3) "خر عقيد من المهندسين العسكريين مغشيًا عليه خارج مكتبه بعد لقاء معه، وسقط ضابط آخر فى غرفته أمام مكتبه". انظر: Brian Gardner p.177 ، Allennby . .

(4) أعتقد أنه لم يكن هناك ضباط كثيرون يكتبون من جنوب أفريقيا أثناء حرب البوير، يطلبون إرسال كتب إليهم، كما كان يفعل اللنبى.

(5) EEF (The Egyptian Expeditionary Force).

(6) البارونيت -The Baronet حامل رتبة وراثية أو درجة شرف تحت «البارون» وفوق «الفارس». (المترجم)

الفصل الثالث والثلاثون

السلام

• الشرق الأوسط الجديد: ١٩٢٢ • الأبيض المتوسط.

فى الثامن عشر من يناير 1919؛ أى بعد شهرين وأسبوع من الهدنة، عقد مؤتمر السلام في باريس جلسته الافتتاحية. المثير للدهشة أنه كان يوم سبت، إلا أنه كان التاريخ الذى تم الإصرار عليه - بما يتضمنه ذلك من سخرية، من قبل رئيس الوزراء الفرنسى چورچ كليمنصو - Georges Clemenceau، حيث كان يصادف الذكرى الثامنة والأربعين لتتويج ولهلم الأول Wilhelm I قيصرًا على ألمانيا، كانت المهمة الأولى أمام الوفود هى صوغ أوروبا جديدة.. وهكذا فعلوا. يمكن قياس درجة نجاحهم بحقيقة أنه بعد عشرين عامًا بالتمام والكمال، بدأت أوروبا الجديدة التى صنعوها - مثل القديمة تمامًا - تمزق نفسها إربًا.

بالنسبة للبحر الأبيض، كانت الدول المصطفة على ساحله الجنوبى ما زالت تحت السيطرة الأجنبية، كانت مراكش والجزائر وتونس تتطلع إلى فرنسا، وليبيا إلى إيطاليا، ومصر إلى بريطانيا (التى أعلنتها محمية - protectorate، فى 1914). كل الدول على امتداد الساحل الشمالى - باستثناء واحدة هى إسپانيا التى نجحت - إلى حد ما - فى الحفاظ على حيادها - كانت متورطة فى الأعمال العسكرية بدرجة أو أخرى، وكانت كلها قد حاربت على أراضيها، كانت الدول التى انتهى بها الأمر فى الجانب المنتصر تمنى نفسها بأن يعود عليها المؤتمر بفائدة ما فى البحر الأبيض أو عليه، والآمال كلها تتركز على حقيقة واحدة: تفكيك الإمبراطورية العثمانية، فرنسا، التى كانت قد فقدت نحو ربع سكانها من الذكور بين الثامنة عشرة والثلاثين من العمر وأضعاف ذلك العدد من الجرحى، كانت منشغلة بألمانيا قبل أى شىء آخر، إلا أنها كانت تضع عينها كذلك على سوريا ولبنان، وكانت تضع الخطط السياسية لذلك منذ فترة طويلة. إيطاليا، التى كانت سعيدة بسقوط عدوها القديم: النمسا - المجر، كان يقلقها ما يدور عبر الأدرياتيكى، وبخاصة احتمال قيام دولة متحدة بين سلاڤ الجنوب - تضم كرواتيا وسلوڤينيا وصربيا ومونتنيجرو والبوسنة والهرسك وشمال شرق مقدونيا، التى كان يبدو من المرجح أن تحل محل ممتلكات السلطان فى البلقان، سيكون من الأفضل كثيرًا بالنسبة لها أن تخرج من المؤتمر بالأراضى الممتدة من ترنتو - Trento إلى تريستا - Trieste، ومن ساحل دالماشيا حتى ألبانيا، وأخيرًا جزر الروديكانيز، وربما جزء صغير من أراضى الأناضول.

كانت اليونان كما رأينا فى الفصل السابق فى حالة فرح عندما انتهت الحرب، إلا أن طموحات ڤينيزيلوس، ربما كانت أعلى من تلك التى لدى رجال الدولة فى باريس، كان

تفكيره منصبًا كما كان طيلة حياته على الفكرة الكبرى The Great Idea: بيزنطة مستعادة، مع آسيا صغرى يونانية، وأيا صوفيا عائدة إلى العقيدة الأرثوزوكسية، وملك يونانى مرة أخرى على العرش فى القسطنطينية، لم يكن بالطبع يستطيع الإفصاح عن مثل تلك المطالب بكلمات كثيرة فى المؤتمر، كل ما طلبه كان إيبيريوس الشمالية، وتراقيا، وعددًا قليلًا من الجزر، وقطعة كبيرة من آسيا الصغرى من بحر مرمرة إلى سميرنا Smyrna (إزمير – Izmir)، ولم تتضمن مطالبه القسطنطينية، (رغم أنه كما قال لأصدقائه وهو يضحك: بمجرد طرد الأتراك منها، فإن المدينة سوف تسقط فى يد اليونانين عاجلًا أو آجلًا). داخل وخارج جلسات المؤتمر التى عقدت مكتملة النصاب، كان ڤينيزيلوس يترك انطباعًا جيدًا لدى الجميع. تأثير شخصيته جعل منه ألمع نجوم المؤتمر، أما سحر حديثه فكان يتكفل بالباقى. لم تكن أوروبا الغربية قد رأت، أو سمعت رجلًا من هذا النوع، كان الدبلوماسى الشاب هارولد نيكلسون - Harold Nicolson، يصفه مدهوشًا بأنه: "مزيج غريب من السحر واللصوصية والوطنية والشجاعة والأدب والدهاء السياسى، وفوق ذلك كله، فهو الرجل المبتسم، المفتول العضلات، الذى يختلس النظر من خلف نظارته الطبية، وعلى رأسه قلنسوة مستديرة ضيقة، من الحرير الأسود".

من ناحية أخرى، كان لا يمكن أن توصف بريطانيا، بأى حال من الأحوال بأنها دولة متوسطية، غير أنها كانت تمتلك من القواعد الشديدة الأهمية (فى جبل طارق ومالطة وقبرص وجزئيًا فى قناة السويس)، ما يجعلها أكثر اهتمامًا بمصالحها الواسعة فى مصر والشرق وهكذا؛ حيث إنها كانت قد حصلت على الكثير مما كانت تريد (كانت البحرية الألمانية والتجارة البحرية الآن آمنة فى يدها، والمستعمرات الألمانية فى أفريقيا استسلمت، وانهيار روسيا وضع نهاية لذلك الخطر على شمال الهند وما كان يسمى بـ (اللعبة الكبرى - Great Game)، كانت تستطيع الآن أن تركز كل قوتها بعد ذلك على الحوض الشرقى من البحر الأبيض، فى الركن الشمالى الشرقى منه، كانت مهتمة بمنع السفن الحربية المعادية من المرور عبر المضايق من وإلى البحر الأسود، كذلك كان قلقها يتزايد بخصوص حلفائها الفرنسيين، كانت الدولتان قد وقفتا معًا بكل إخلاص فى الحرب، إلا أن السلام قد يأتى بضغوط وتوترات جديدة - ليس أقلها تلك الناجمة عن الحاجة لضمان الإمدادات النفطية من الموصل فى شمال العراق ومن فارس، التى كانت تتزايد أهميتها. منذ العام 1916، كان السير مارك سايكسSir Mark Sykes - والمسيو چورچ پيكو - M.Gerrges Picot قد اتفقا سرًا على أنه عندما يحين وقت تقسيم ممتلكات السلطان فى الشرق، ستكون سوريا ولبنان من نصيب فرنسا، بينما تحصل بريطانيا، إلى جانب معظم العراق الحديثة، على الموانئ المتوسطية فى عكا وحيفا، وبجوار هذين الميناءين يتم حجز مساحة (بحجم دولة إسرائيل الحالية تقريبًا)

بسبب وضعها الخاص باعتبارها الأرض المقدسة؛ ليقوم فيها حكم دولى خاص بها، كان من الواضح بالفعل أن التقسيم لن يكون سهلًا، كما أن دخول اللنبى القدس مؤخرًا، لم يفعل الكثير لطمأنة فرنسا الكاثوليكية، باختصار لم تكن القوتان الأوروبيتان الرئيسيتان فى الشرق الأوسط تثقان إحداهما بالأخرى قيد أنملة - وكانت كلتاهما على حق فى ذلك.

من ناحية أخرى، ارتكبت كلتاهما الخطأ نفسه: كانتا تسويان حساباتهما دون اعتبار للعرب، وصول الأمير فيصل إلى المؤتمر؛ (حيث قدمه لورانس، الذى كان يرتدى زيه العربى كذلك، بكل تقدير) سرعان ما غير ذلك كله، كان فيصل هاشميًّا، ينتمى إلى واحدة من أكثر الأسر العربية أصالة؛ إذ يمتد نسبها - من جهة الذكور - إلى ابنة النبى. فى عام 1915، كان السير هنرى مكماهون - Sir Henry Mcmahon، المندوب السامى البريطانى فى مصر، قد وعد شريف مكة (والد الملك فيصل) بأنه فى حال قيام العرب بالثورة على الأتراك سيمنحهم البريطانيون كل ما يحتاجونه من مساعدة، وبعد نجاحها سوف يحصلون على الاستقلال.[1] بمساعدة لورانس، الذى كرر تلك الوعود - رغم أن ذلك كان على مسئوليته ولا أكثر- كان فيصل قد أوفى بنصيبه من الصفقة، وجاء الآن إلى باريس مطالبًا بالمكافأة الموعودة.

حصل فيصل على المكافأة بشكل ما، فى ذلك العام نفسه، عينه اللنبى رئيسًا على إدارة عسكرية فى دمشق. تولى الفرنسيون مسؤولية الساحل واتخذوا من بيروت مركزًا لهم، بينما استولى البريطانيون على فلسطين؛ إلا أن ذلك لم يكن أكثر من ترتيبات مؤقتة، فى مارس 1920، اجتمع مجلس للنواب فى دمشق ليعلن فيصل ملكًا على سوريا موحدة تتضمن فلسطين، وبعد شهر قرر مؤتمر الحلفاء فى سان ريمو-San Remo وضع الاثنين تحت نظام انتداب - Mandate جديد، وأن تكون سوريا تحت الانتداب الفرنسى، بدأ الفرنسيون كما كانوا يريدون أن يستمروا، ففى شهر يونيو أصدروا إنذارًا يطلبون اعتراف سوريا بسلطتهم الجديدة، ثم زحفوا بعده وطردوا فيصل، وأخيرًا وافقت عصبة الأمم - The League of Nations فى شهر يوليو 1922 على الانتداب على سوريا ولبنان، التى أعلنت نفسها دولة مستقلة. فى الوقت نفسه عين فيصل ملكًا على العراق، بينما تسلم شقيقه الأكبر عبد الله تاج شرق الأردن، التى ستعرف فيما بعد (بدءًا من 1949) بـ "المملكة الأردنية الهاشمية".

بينما لا تهمنا هنا أى تفاصيل عن الأردن أو العراق، إلا أن فلسطين مهمة، كان آخر وافد على مؤتمر السلام فى باريس، الذى يستحق الذكر هنا هو الدكتور حاييم وايزمان- Dr. Chaim Weizman - الذى سيعين بعد وقت قريب رئيسًا للمنظمة الصهيونية العالمية. وايزمان الذى كان إلى حد كبير مسؤولًا عن إعلان بلفور- Balfour Declaration. خاطب المجلس الأعلى فى السابع والعشرين من فبراير مع طلب ملح لإقامة

وطن يهودى فى فلسطين، كما كان حاضرًا كذلك - كعضو مراقب - مؤتمر سان ريمو، الذى أكد الإعلان ومنح بريطانيا الانتداب على فلسطين، فيما بعد فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين ستكون مهارات وايزمان التفاوضية موضع اختبار صعب، عندما تفقد بريطانيا حماستها السابقة للصهيونية، وتحاول التملص من التزاماتها، وبعد أن تجد نفسها فى مواجهة اضطرابات مدنية متزايدة، نتيجة لحركة القومية العربية الناشئة. إلا أنه سينتصر فى آخر الأمر ليصبح رئيسًا لدولة إسرائيل فى 1948.

وضع مؤتمر باريس للسلام الذى عقد فى 1919 واتفاقية فُرساى التى تلته وضعًا نهاية للعالم القديم وبداية للعالم الحديث فى 1914، كان هناك خمس إمبراطوريات عظمى تتمركز حول عواصم أوروبية. بعد خمس سنوات كانت ثلاث منها قد زالت - الألمانية، والنمساوية - المجرية، والروسية - أما الرابعة (العثمانية) فكانت على فراش الموت، الإمبراطورية الأخيرة (البريطانية) فحسب هى التى بقيت ومنذ ذلك اليوم سيصبح العالم مكانًا مختلفًا.

وهكذا... روينا قصتنا على الأقل حتى المرحلة التى هى موضع اهتمام هذا الكتاب، من الواضح أن صفحات تاريخ البحر الأبيض المتوسط لن تطوى قبل أن يجف البحر نفسه، ولكن بينما يمكن إكمال مرحلة بعينها وصولًا إلى نهاية محكمة، إلا أن مرحلة تتخذ من منطقة معينة من العالم موضوعًا لها يمكن أن تصل بنا إلى نهاية اعتباطية... والقصة طويلة بالفعل، مع كل يوم يمر تصبح الحياة أكثر امتلاء بالأحداث، لا يصبح التاريخ أطول فحسب، ولكنه يتحرك بسرعة أكبر كذلك، فى الفصول الأولى من هذا الكتاب، كان بالإمكان تغطية قرن كامل فى صفحة أو صفحتين، بالقرب من نهايته كان الفصل يستوعب بالكاد عقدًا من الزمن، ولو أننا واصلنا مسيرتنا عبر الحرب العالمية الثانية ونتائجها حتى آخر الألفية الثانية، فلربما كنا قد أصبحنا أمام مجلد بضعف هذا الحجم على الأقل، ولكان ذلك عبئًا كبيرًا على الكاتب والقارئ على السواء.

قبل ستة أو سبعة آلاف سنة، كان البحر الأبيض المتوسط قد تمخض عن الحضارة الغربية كما نعرفها. حجمه الصغير نسبيًّا، كيانه المحصور، اعتدال طقسه، خصوبة وتنوع تضاريس شطآنه الأوروبية والأسيوية... كل ذلك ساعد على توفير بيئة حامية فريدة لحياة وازدهار شعوبه، حتى الضوء له دور هنا... بما يعطيه لهذه الشعوب من وضوح فى الرؤية لا مثيل له فى مناطق أخرى، لقد آمنت هذه الشعوب بالآلهة، يشهد على ذلك ما لا يقل عن ثلاثة أديان كبرى، ولكن فى البحر الأبيض الذى يغمره ضوء الشمس، لم يكن هناك مكان للأشباح أو الشياطين أو العفاريت أو الكائنات الخرافية التى تسكن الكهوف أو تقيم تحت الأرض، كما تظهر كثيرًا فى فولكلور الشمال الكئيب الملبد بالضباب والغيوم؛ لذلك كله ولغيره نحن مدينون بالكثير الكثير، يبقى سؤال مهم يحتاج

إلى إجابة: الآن وقد تمت المشاركة، إلى أى مدى يظل المشارك مهمًّا؟ هل ما زال البحر الأبيض المتوسط يحتفظ بالأهمية التى كانت له عندما كان العالم صغيرًا؟

من أسف أن الإجابة لا بد أن تكون: لا! عندما كان العالم صغيرًا كان بلا حدود، والآن انكمش على نحو مؤسف... ومعه انكمش البحر. اليوم، خوض حرب فى العراق أو حتى فى كوريا أسهل من نقل جيش من إنجلترا إلى إيطاليا أو إسبانيا قبل قرن. الطيران من جبل طارق إلى إسطنبول يستغرق أكثر قليلًا من ثلاث ساعات؛ طرق التجارة لم تعد موجودة، سفن النقل والشاحنات مستمرة فى الحركة جيئة وذهابًا من وإلى المحطات النهائية لخطوط أنابيب نفط الشرق الأوسط، إلا أن البحر تستولى عليه - باضطراد - ظاهرة مرعبة: سفن الرحلات الطوافة الضخمة التى تجوس بلا انقطاع من ميناء إلى آخر، ومن جزيرة إلى أخرى؛ لتلقى على كل منها بأعداد من البشر لم تعرف مثلها من قبل.

لذا، فى مطلع الألفية الثالثة، يصبح أكثر وضوحًا كل يوم أن علة وجوده القديمة قد ضاعت إلى الأبد، وأن الهدف الرئيسى لمتوسط اليوم هو المتعة والترفيه، ربما لا يكون ذلك شيئًا سيئًا على إطلاقه، ويمكن أن يقال: إن المياه التى كانت فى أغلب الأحيان مختلطة بالدم قد أصبحت رائقة وصافية. يميل الواحد منا كذلك إلى نسيان تعاسة الأيام السابقة فى البحر، أيام كانت السياط تلهب ظهور عبيد المجاذيف على السفن الشراعية، أيام كان الطاعون يضرب السفن ويجبرها على البقاء بعيدًا عن الشاطئ حتى يهلك كل من عليها، أيام كانت رياح صيفية مفاجئة بمثابة حكم بالموت على طاقم سفينة بالكامل، ما يدعو للحزن هو ضياع تلك المنزلة النبيلة: أن يصبح أهم صحن مائى تاريخى فى العالم ملوثًا، وألا يقض ذلك مضجع أحد، أن يصبح الكثير من شطآنه مغطى بفضلات لدائن بلاستيكية قديمة فيهجرها الناس.

ربما يكون هناك سبب آخر لكى ينتهى الكتاب حيث ينتهى، لقد سرد كثيرًا من الكوارث فى تسلسلها الزمنى، وقدرًا غير قليل من المآسى، وتتبع البحر الأبيض وتحولاته من مهد إلى لحد، من رابط إلى عائق، ومن نعمة إلى نقمة ساحة قتال، كم هو مؤسف أن نشهده وقد تحول إلى ملعب، والموانئ القديمة إلى أحواض لليخوت، وبدلًا من السفن القديمة ثلاثية المجاذيف، قوارب التزحلق النفاثة. لكم كان من الأفضل لو أسدلنا الستار على الأبيض المتوسط الذى كان... عندما كانت كل موجة تروى قصة، وكل قطرة ماء تلمع بالنبل والكبرياء.

هوامش الفصل الثالث والثلاثين

(1) لم يكشف النقاب قط عن اتساق هذا الوعد مع اتفاق سايكس – بيكو، ولا مع إعلان بلفور فيما بعد.

Bibliography

ABULAFIA, D. *Frederick II: A Medieval Emperor.* London 1988.

—— (ed.) *The Mediterranean in History.* London 2003.

ABUN-NASR, J. M. *A History of the Maghrib in the Islamic Period.* Cambridge 1987.

ACTON, H. *The Bourbons of Naples (1734–1825).* London 1957.

——. *The Last Bourbons of Naples (1825–1861).* London 1961.

ALSOP, J. *From the Silent Earth: A Report on the Greek Bronze Age.* London 1965.

ANCELL, S. *A Circumstantial Journal of the Long and Tedious Blockade and Siege of Gibraltar.* Liverpool 1785.

ANTONIUS, G. *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement.* London 1938.

ARMSTRONG, K. *Islam: A Short History.* London 2000.

ARONSON, T. *Royal Vendetta: The Crown of Spain 1829–1965.* London 1967.

ASPREY, R. B. *The Rise and Fall of Napoleon Bonaparte.* 2 vols. London 2000.

ATKINSON, W. C. *Spain: A Brief History.* London 1934.

BALBI DI CORREGGIO, F. *The Siege of Malta, 1565.* Trans. H. A. Balbi. Copenhagen 1961.

BARBER, M. *The New Knighthood: A History of the Order of the Temple.* Cambridge 1994.

BARKER, E. *Macedonia: Its Place in Balkan Power Politics.* London 1950.

BARNETT, C. *Bonaparte.* London 1978.

BARRACLOUGH, G. *From Agadir to Armageddon: Anatomy of a Crisis.* London 1982.

BERTRAND, L. *The History of Spain. Part I: From the Visigoths to the Death of Philip II.* Trans. W. B. Wells. London 1952.

BOWMAN, J. *Crete.* London 1970.

BRADFORD, E. *Mediterranean.* London 1971.

——. *The Sultan's Admiral: The Life of Barbarossa.* London 1969.

——. *The Shield and the Sword: The Knights of St John.* London 1972.

BRANTÔME, ABBÉ DE. *Oeuvres du Seigneur de Brantôme.* Paris 1740.

BRAUDEL, F. *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II.* 2nd edn. Paris 1966.

———. *Autour de la Méditerranée.* Paris 1996.

BREWER, D: *The Flame of Freedom: The Greek War of Independence 1821–33.* London 2001.

BRIGHT, J. F. *Maria Theresa.* London 1897.

BURN, A. R. *Minoans, Philistines and Greeks, BC 1400–900.* London 1930.

BUSH, CAPT. E. W. *Gallipoli.* London 1975.

CAMBON, H. *Histoire du Maroc.* Paris 1952.

The Cambridge Illustrated History of the Middle Ages. Ed. R. Fossier. Cambridge 1989.

The Cambridge Medieval History. Planned by J. B. Bury. 8 vols. Cambridge 1911–32.

The Cambridge Modern History. Planned by Lord Acton. 13 vols. Cambridge 1902–12.

CARR, R. *Spain, 1808–1939.* Oxford 1966.

CARR, R. (ed.) *Spain: A History.* Oxford 2000.

CHAMBERLIN, E. R. *The World of the Italian Renaissance.* London 1982.

CHEYNE, A. G. *Muslim Spain: Its History and Culture.* Minneapolis 1974.

CHURCHILL, W. S. *World Crisis, 1911–1918.* 4 vols. London 1923.

COLLISON-MORLEY, L. *Naples Through the Centuries.* London 1925.

CONN, S. *Gibraltar in British Diplomacy in the Eighteenth Century.* New Haven 1942.

CORBETT, J. S. *England in the Mediterranean, 1603–1713.* 2 vols. London 1904.

DAKIN, D. *The Greek Struggle for Independence 1821–33.* London 1973.

Dizionario biografico degli Italiani. Rome, 1960–.

DODWELL, H. *The Founder of Modern Egypt: A Study of Muhammad 'Ali.* Cambridge 1931.

DRINKWATER, J. *A History of the Siege of Gibraltar.* London 1846.

DUFAYARD, C. *Histoire de Savoie.* Paris 1922.

EGGENBERGER, D. *A Dictionary of Battles.* London 1967.

ELGOOD, P. G. *Bonaparte's Adventure in Egypt.* London 1931.

Enciclopedia universal ilustrada Europeo-Americana. 70 vols. with appendices and annual supplements. Barcelona, Bilbao, Madrid 1909–.

The Encyclopedia of Islam. 4 vols. London and Leyden 1913–38.
EULALIA, HRH THE INFANTA OF SPAIN. *Court Life from Within*. London 1915.
——. *Memoirs*. London 1936.
EUSEBIUS, BISHOP OF CAESAREA. *A History of the Church from Christ to Constantine*. Trans. G. A. Williamson. London 1965.
FERMOR, P. LEIGH. *A Time of Gifts*. London 1977.
FINLAY, G. *A History of Greece from its Conquest by the Romans to the Present Time, B.C.146–A.D. 1864*. 7 vols. Oxford, 1851–77.
FINLEY, M. and MACK SMITH, D. *A History of Sicily*. 3 vols. London 1968.
FISHER, SIR G. *Barbary Legend: War, Trade and Piracy in North Africa, 1415–1830*. London 1957.
FISHER, H. A. L. *A History of Europe*. London 1936.
FORSTER, E. M. *Alexandria: A History and a Guide*. Alexandria 1922.
FOSS, A. *Ibiza and Minorca*. London 1975.
GARDNER, B. *Allenby*. London 1965.
GEORGE, H. B. *Genealogical Tables Illustrative of Modern History*. 5th edn. Oxford 1916.
GHORBAL, S. *The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali*. London 1928.
GIBBON, E. *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*. Ed. B. Radice. London 1983.
GILLINGHAM, J. *The Life and Times of Richard I*. London 1973.
GRANT, M. *Cleopatra*. London 1972.
——. *History of Rome*. London 1978.
——. *Julius Caesar*. London 1969.
GREEN, P. *A Concise History of Ancient Greece to the Close of the Classical Era*. London 1973.
GREGORY, D. *Minorca, the Illusory Prize: A History of the British Occupations of Minorca between 1708 and 1802*. London and Toronto 1990.
GSELL, S., Marçais, G. and Yver, G. *Histoire d'Algérie*. Paris 1927.
GUNN, P. *Naples: A Palimpsest*. London 1961.
HAMILTON, I. *Gallipoli Diary*. London 1920.
HARDEN, D. *The Phoenicians*. London 1962.
HASLIP, J. *The Sultan: The Life of Abdul Hamid*. London 1958.
HAZEL, J. *Who's Who in the Greek World*. London 2000.
HEARDER, H. and WALEY, D. P. (eds.) *A Short History of Italy*. Cambridge 1963.

HILLS, G. *Rock of Contention: A History of Gibraltar.* London 1974.
HOOK, J. *The Sack of Rome.* London 1972.
HORDEN, P. and PURCELL, N. *The Corrupting Sea: A Study of Mediterranean History.* London 2000.
INALCIK, H. *The Ottoman Empire: The Classical Age 1300–1600.* Trans. N. Itzkowitz and C. Imber. London 1973.
JACKSON, G. *The Making of Medieval Spain.* London 1972.
JAMES, L. *Imperial Warrior: The Life and Times of Field-Marshal Viscount Allenby, 1861–1936.* London 1993.
JAMES, R. R. *Gallipoli.* London 1965.
JENKINS, R. *Churchill.* London 2001.
JOINVILLE, SIEUR DE. *Histoire de Saint Louis.* Ed. N. de Wailly. Paris 1874.
JULIEN, C.-A. *Histoire de l'Afrique du Nord.* Paris 1961.
JURIEN DE LA GRAVIÈRE, ADMIRAL. *Les derniers jours de la marine à rames.* Paris 1885.
——. *Doria et Barberousse.* Paris 1886.
——. *Les chevaliers de Malte et la marine de Philippe II.* 2 vols. Paris 1887.
——. *Les corsaires barbaresques et la marine de Soliman.* Paris 1887.
——. *La guerre de Chypre et la bataille de Lepante.* 2 vols. Paris 1888.
KANTOROWICZ, E. *Frederick the Second, 1194–1250.* Trans. E. O. Lorimer. London 1931.
KEYES, R. *The Naval Memoirs of Admiral of the Fleet Sir Roger Keyes.* London 1934.
KING, R. *Sardinia.* London 1975.
KINROSS, LORD. *Atatürk: The Rebirth of a Nation.* London 1964.
——. *Between Two Seas: The Creation of the Suez Canal.* London 1968.
——. *The Ottoman Centuries: The Rise and Fall of the Turkish Empire.* London 1977.
KNIGHT, W. S. M. *The History of the Great European War: Its Causes and Effects.* 10 vols. London 1914–20.
LANE, F. C. *Venetian Ships and Shipbuilders of the Renaissance.* Baltimore 1934.
——. *Venice and History.* Baltimore 1966.
——. *Venice, a Maritime Republic.* Baltimore 1973.
LANE FOX, R. *Alexander the Great.* London 1973.
LANE-POOLE, S. *The Barbary Corsairs.* London 1890.
LAVERY, B. *Nelson and the Nile.* London 1998.

LAWRENCE, T. E. *Revolt in the Desert*. London 1927.
LEO AFRICANUS. *The History and Description of Africa, and of the Notable Things therein Contained*. Trans. J. Pory, ed. R. Brown. 3 vols. London 1896.
LEWIS, B. *The Muslim Discovery of Europe*. London 1982.
LIVERMORE, H. V. *A New History of Portugal*. Cambridge 1976.
LLOYD, C. *The Nile Campaign*. Newton Abbot and New York 1973.
LUKE, SIR H. *Malta: An Account and an Appreciation*. London 1949.
MACBRIDE, M. (ed.) *With Napoleon at Waterloo, and other unpublished documents of the Waterloo and Peninsular Campaigns*. (Includes extracts from the diary of Sgt. D. Nicol, *With Abercrombie [sic] and Moore in Egypt*.) London 1911.
MACKAY, A. *Spain in the Middle Ages: From Frontier to Empire, 1000–1500*. London 1977.
MACKESY, P. *British Victory in Egypt, 1801*. London 1995.
MACMILLAN, M. *The Peacemakers: The Paris Conference of 1919 and its Attempt to End War*. London 2001.
MADELIN, L. *Histoire du Consulat et de l'Empire*. 16 vols. Paris 1937–52.
MANSEL, P. *Constantinople: City of the World's Desire, 1453–1924*. London 1995.
MARKHAM, F. *Napoleon*. London 1963.
MARKOE, G. *Phoenicians*. London 2000.
MASEFIELD, J. *Gallipoli*. London 1916.
MASSON, G. *Frederick II of Hohenstaufen: A Life*. London 1957.
MAUROIS, A. *A History of France*. London 1949.
MAZOWER, M. *Salonica, City of Ghosts: Christians, Muslims and Jews 1430–1950*. London 2004.
MELLERSH, H. E. L. *Chronology of the Ancient World*. Oxford 1994.
MILLER, W. *The Latins in the Levant: A History of Frankish Greece, 1204–1566*. London 1908.
——. *Essays on the Latin Orient*. Cambridge 1921.
MOOREHEAD, A. *Gallipoli*. London 1956.
MOUSSET, A. *Histoire d'Espagne*. Paris 1947.
The New Encyclopedia Britannica. 15th edn. Chicago 1998.
NICOLSON, H. *Peacemaking 1919*. London 1933.
NORWICH, J. J. *The Normans in the South*. London 1967.
——. *The Kingdom in the Sun*. London 1970.
——. *Venice: The Rise to Empire*. London 1977.
——. *Venice: The Greatness and the Fall*. London 1981.

——. *Byzantium: The Early Centuries.* London 1988.
——. *Byzantium: The Apogee.* London 1991.
——. *Byzantium: The Decline and Fall.* London 1995.
——. *Paradise of Cities: Nineteenth-Century Venice Seen through Foreign Eyes.* London 2003.
OMAN, C. *Nelson.* London 1947.
The Oxford Classical Dictionary. Oxford 1996.
The Oxford Dictionary of National Biography. 61 vols. Oxford 2004.
PALMER, A. *The Kaiser: Warlord of the Second Reich.* New York 1978.
——. *The Decline and Fall of the Ottoman Empire.* London 1992.
PARRY, J. H. *The Discovery of the Sea.* London 1975.
PASTOR, L. *The History of the Popes from the Close of the Middle Ages.* Trans. F. I. Antrobus and R. F. Kerr. London 1891–1953.
PETTIFER, J. (ed.) *The New Macedonian Question.* London 1999.
PICK, ROBERT. *Empress Maria Theresa.* London 1966.
PRESCOTT, W. H. *History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic.* 3 vols. Philadelphia 1864.
PRICE, W. H. C. *The Balkan Cockpit: The Political and Military Story of the Balkan Wars in Macedonia.* London 1915.
PROCOPIUS. *The Secret History.* Trans. G. A. Williamson. London 1966.
PRYOR, J. H. *Geography, Technology and War: Studies in the Maritime History of the Mediterranean, 649–1571.* Cambridge 1988.
READ, J. *The Moors in Spain and Portugal.* London 1974.
READ, P. P. *The Templars.* London 1999.
RICO, E. *Maria Cristina, la reina burguesa.* Barcelona 1994.
RODD, SIR R. *The Princes of Achaia and the Chronicles of Morea: A Study of Greece in the Middle Ages.* 2 vols. London 1907.
ROSSITER, S. *Crete* (Blue Guide). London 1974.
RUNCIMAN, S. *A History of the Crusades.* 3 vols. Cambridge 1951–4.
——. *The Sicilian Vespers.* Cambridge 1958.
RUSSELL, J. *Gibraltar Besieged.* London 1965.
RUSSELL, P. E. *San Pedro de Cardena and the Heroic History of the Cid. Medium Aevum,* vol. xxvii, no. 2 (1958).
SCHLIEMANN, H. *Troy and its Remains.* London 1875.
SHEPHERD, W. R. *Historical Atlas.* 8th edn. London 1956.
SPILSBURY, J. *A Journal of the Siege of Gibraltar, 1779–1783.* Gibraltar 1908.

SUETONIUS. *History of Twelve Caesars*. Trans. P. Holland. London 1930.

SWIRE, J. *Bulgarian Conspiracy*. London 1939.

TENENTI, A. *Piracy and the Decline of Venice, 1580–1615*. Trans. J. and B. Pullan, London 1967.

THIRY, BARON. *Les Années de jeunesse de Napoléon Bonaparte*. Paris 1975.

———. *Bonaparte en Egypte*. Paris 1973.

THUCYDIDES. *History of the Peloponnesian War*. Trans. and introd. R. Warner. London 1962.

TRAILL, D. A. *Schliemann of Troy: Treasure and Deceit*. London 1995.

TURNER, W. *Journal of a Tour in the Levant*. London 1820.

VAN DEN MEER. *Atlas of European Civilisation*. Eng. version by T. A. Birrell. Amsterdam 1954.

VILLARI, L. *The Republic of Ragusa: An Episode of the Turkish Conquest*. London 1904.

VILLEHARDOUIN, GEOFFREY OF. *La Conquête de Constantinople*. Ed. E. Faral. 2 vols. Paris 1938–9.

WARNER, R. *Men of Athens*. London 1972.

WAVELL, COL. A. P. *The Palestine Campaigns*. London 1929.

WHITMAN, C. H. *Homer and the Heroic Tradition*. Cambridge, MA 1958.

WILSON, SIR R. *History of the British Expedition to Egypt*. London 1803.

WRIGHT, J. *The Jesuits: Missions, Myths and Histories*. London 2004.

YOUNG, K. *The Greek Passion: A Study in People and Politics*. London 1969.

YOUNG, M. *Corfu and the other Ionian Islands* (Travellers' Guide). London 1977.

ZIEGLER, P. *The Black Death*. London 1969.

OF AUSTRIA

MAXIMILIAN I = Mary, dau. of Charles the Bold.
1493–1519.

Philip, ob. 1506. = Joanna (the mad), heiress of Spain, ob.1555.

Ferdinand I, = Anne, heiress of Hungary and Bohemia.
1556–1564.

Mary = MAXIMILIAN II
1564–1576.

Mary = Charles D. of Styria.

Mary Anne = FERDINAND II,
1619–1637.

FERDINAND III, 1637–1657. = Mary, dau. of Philip III of Spain.

LEOPOLD I = Margaret Theresa, dau. of Philip IV of Spain.
1658–1705.

CHARLES VI = Elizabeth Christina, dau. of Lewis Rudolf, D. of Brunswick-Wolfenbüttel.
1711–1740.

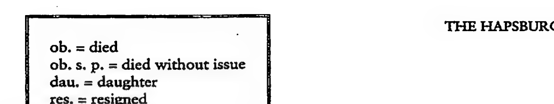
FRANCIS I, D. of Lorraine, = MARIA THERESA,
1745–1765. ob. 1780.

3. Maria Carolina = Ferdinand I of Naples.

5. Marie Antoinette, = Louis XVI of France.
executed 1793.

Francis = Sophia, dau. of Maximilian I of Bavaria.

FRANCIS JOSEPH = Elizabeth of Bavaria
1848–1916. (assassinated 1898)



CHARLES V,
1519–1556, res.;
ob. 1558.

Don John.
ob. s. p. 1578.

Philip II of
Spain.

JOSEPH I,
1705–1711.

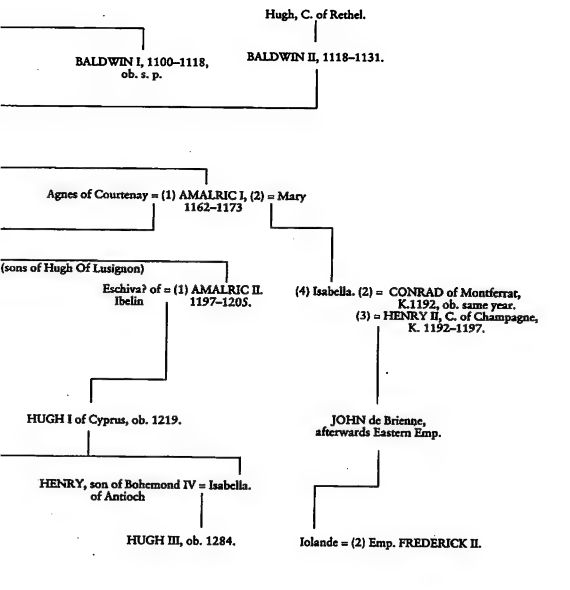
1. JOSEPH II
1765–1790, ob. s. p.

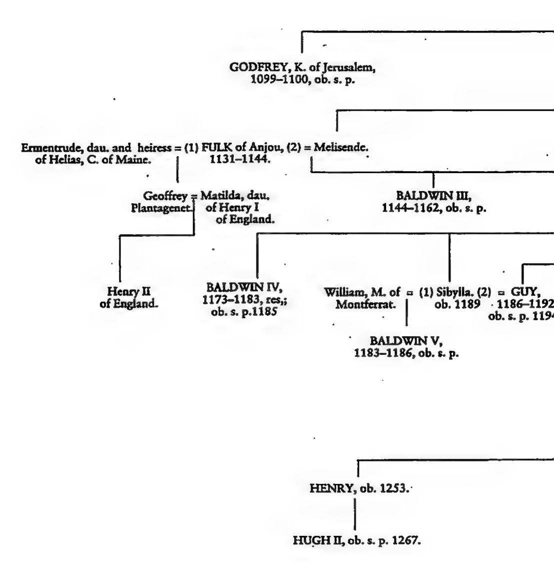
2. LEOPOLD II = Maria Louisa, dau. of
1790–1792. Charles III of Spain.

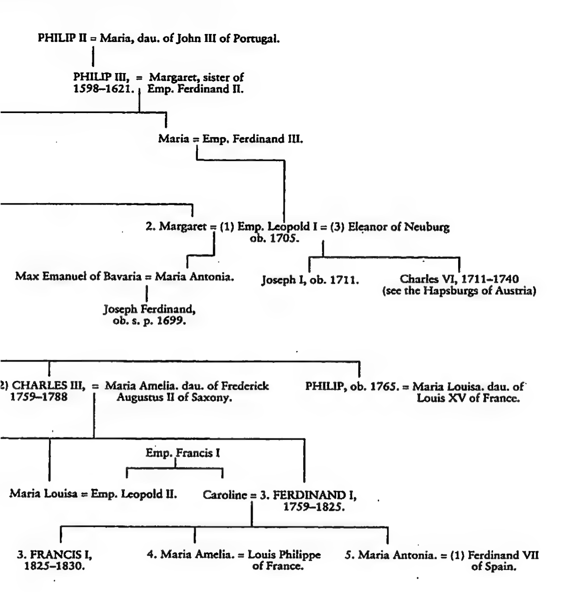
1. FRANCIS II, = Maria Theresa. dau. of
1792–1835. Ferdinand I of Naples.

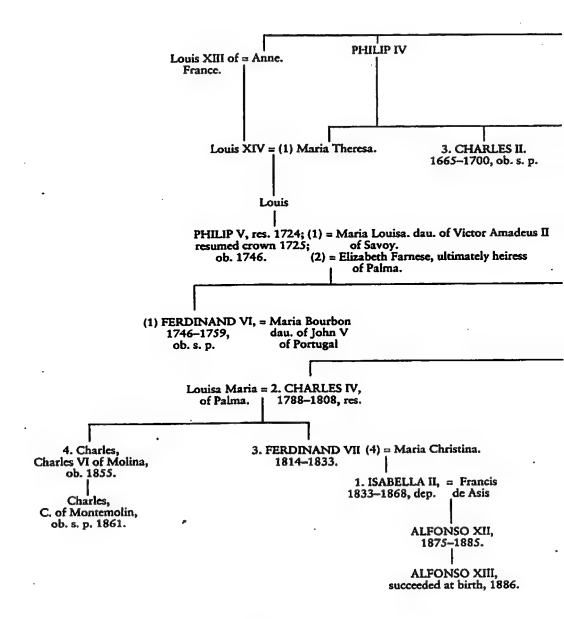
FERDINAND
1835–1848, res.

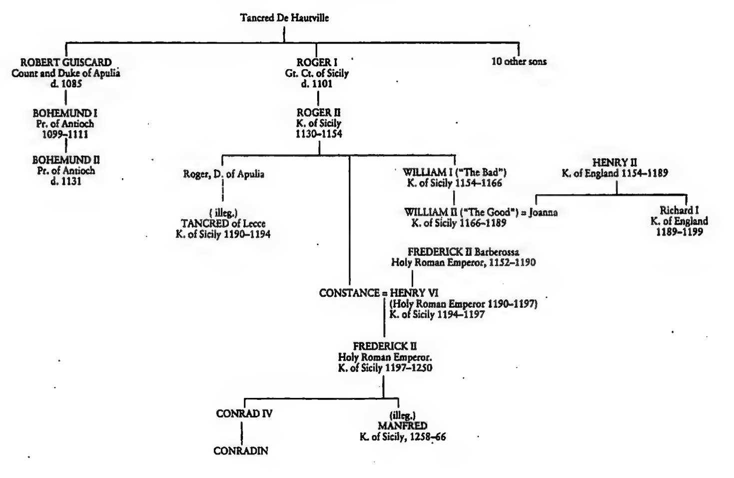
ERUSALEM AND CYPRUS



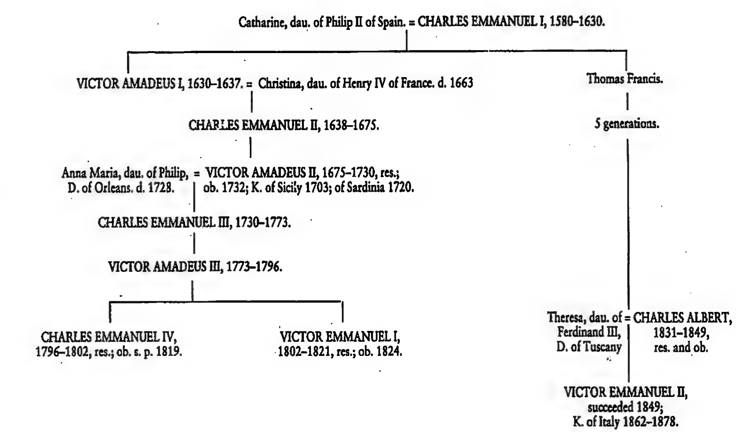

GODFREY, K. of Jerusalem,
1099–1100, ob. s. p.
Ermentrude, dau. and heiress = (1) FULK of Anjou, (2) = Melisende.
of Helias, C. of Maine.
1131–1144.
Geoffrey = Matilda, dau.
Plantagenet.
of Henry I
of England.
BALDWIN III,
1144–1162, ob. s. p.
Henry II
of England.
BALDWIN IV,
1173–1183, res.;
ob. s. p.1185
William, M. of = (1) Sibylla. (2) = GUY,
Montferrat.
ob. 1189
1186–1192
ob. s. p. 119
BALDWIN V,
1183–1186, ob. s. p.
HENRY, ob. 1253.
HUGH II, ob. s. p. 1267.


PHILIP II = Maria, dau. of John III of Portugal.
PHILIP III, = Margaret, sister of
1598–1621. Emp. Ferdinand II.
Maria = Emp. Ferdinand III.
2. Margaret = (1) Emp. Leopold I = (3) Eleanor of Neuburg
ob. 1705.
Max Emanuel of Bavaria = Maria Antonia.
Joseph I, ob. 1711.
Charles VI, 1711–1740
(see the Hapsburgs of Austria)
Joseph Ferdinand,
ob. s. p. 1699.
2) CHARLES III, = Maria Amelia. dau. of Frederick
1759–1788 Augustus II of Saxony.
PHILIP, ob. 1765. = Maria Louisa. dau. of
Louis XV of France.
Emp. Francis I
Maria Louisa = Emp. Leopold II.
Caroline = 3. FERDINAND I,
1759–1825.
3. FRANCIS I,
1825–1830.
4. Maria Amelia. = Louis Philippe
of France.
5. Maria Antonia. = (1) Ferdinand VII
of Spain.


PHILIP IV
Louis XIII of = Anne.
France.
Louis XIV = (1) Maria Theresa.
3. CHARLES II.
1665–1700, ob. s. p.
Louis
PHILIP V, res. 1724; (1) = Maria Louisa. dau. of Victor Amadeus II
resumed crown 1725; of Savoy.
ob. 1746. (2) = Elizabeth Farnese, ultimately heiress
of Palma.
(1) FERDINAND VI, = Maria Bourbon
1746–1759, dau. of John V
ob. s. p. of Portugal
Louisa Maria = 2. CHARLES IV,
of Palma. 1788–1808, res.
4. Charles,
Charles VI of Molina,
ob. 1855.
Charles,
C. of Montemolin,
ob. s. p. 1861.
3. FERDINAND VII (4) = Maria Christina.
1814–1833.
1. ISABELLA II, = Francis
1833–1868, dep. de Asis
ALFONSO XII,
1875–1885.
ALFONSO XIII,
succeeded at birth, 1886.

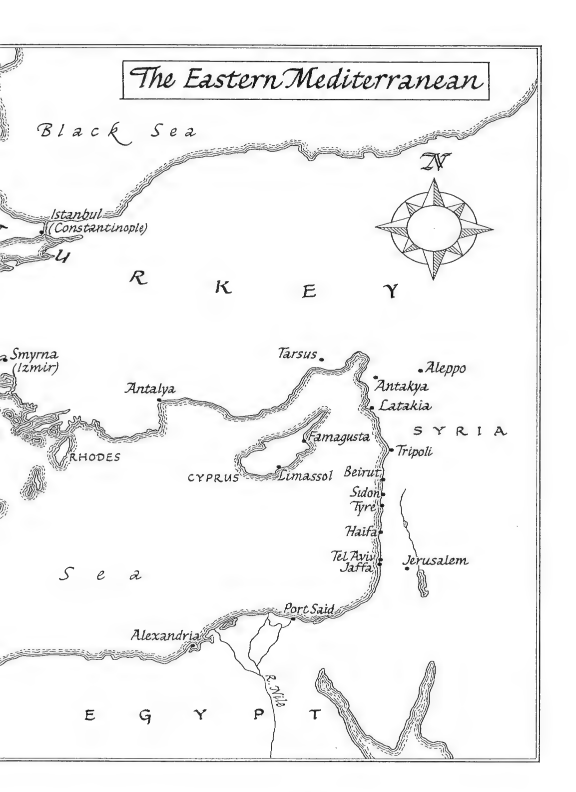

THE HOUSE OF HAUTEVILLE
Tancred De Hautville
ROBERT GUISCARD
Count and Duke of Apulia
d. 1085
ROGER I
Gt. Ct. of Sicily
d. 1101
10 other sons
BOHEMUND I
Pr. of Antioch
1099–1111
BOHEMUND II
Pr. of Antioch
d. 1131
ROGER II
K. of Sicily
1130–1154
Roger, D. of Apulia
(illeg.)
TANCRED of Lecce
K. of Sicily 1190–1194
WILLIAM I ("The Bad")
K. of Sicily 1154–1166
WILLIAM II ("The Good") = Joanna
K. of Sicily 1166–1189
HENRY II
K. of England 1154–1189
Richard I
K. of England
1189–1199
FREDERICK II Barberossa
Holy Roman Emperor, 1152–1190
CONSTANCE = HENRY VI
(Holy Roman Emperor 1190–1197)
K. of Sicily 1194–1197
FREDERICK II
Holy Roman Emperor.
K. of Sicily 1197–1250
CONRAD IV
CONRADIN
(illeg.)
MANFRED
K. of Sicily, 1258–66

THE HOUSE OF SAVOY

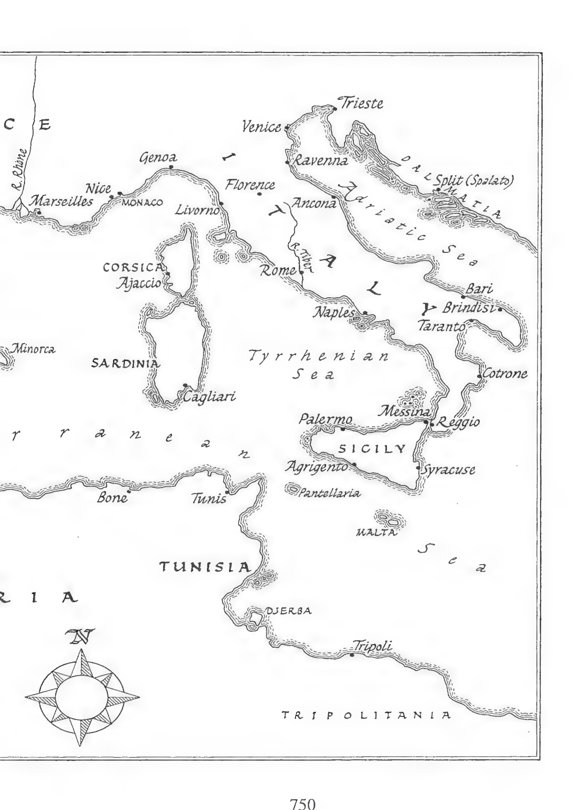


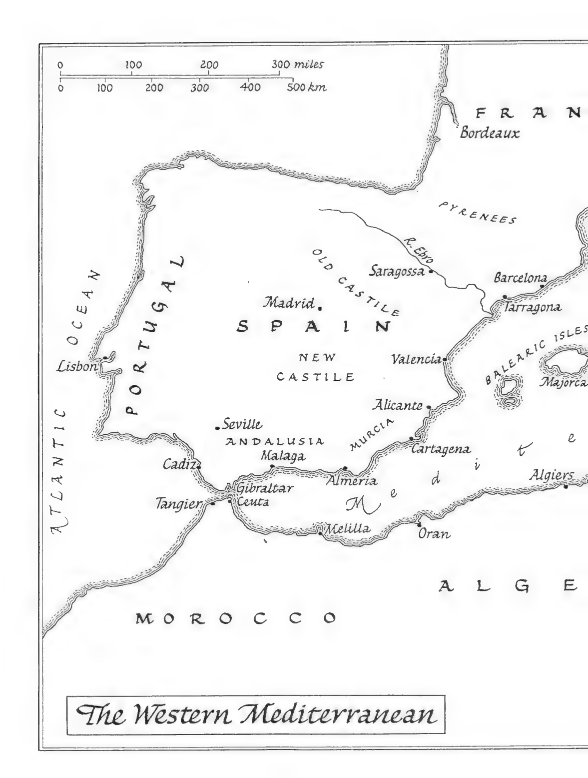
الخرائط (*)

(*) الخرائط بريشة رينالد يجوت " Reginald Diggott"

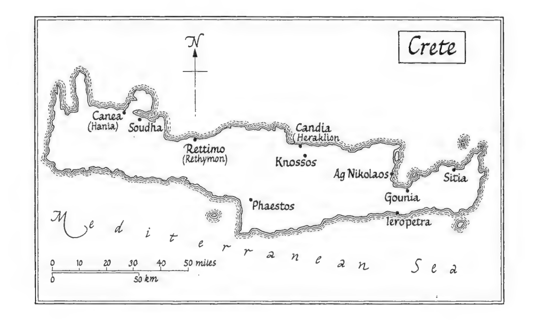

The Eastern Mediterranean
Black Sea
N
Istanbul
(Constantinople)
U
R
K
E
Y
Smyrna
(Izmir)
Tarsus
Aleppo
Antakya
Antalya
Latakia
SYRIA
Famagusta
Tripoli
RHODES
CYPRUS
Limassol
Beirut
Sidon
Tyre
Haifa
Tel Aviv
Jaffa
Jerusalem
Sea
Port Said
Alexandria
R. Nile
EGYPT

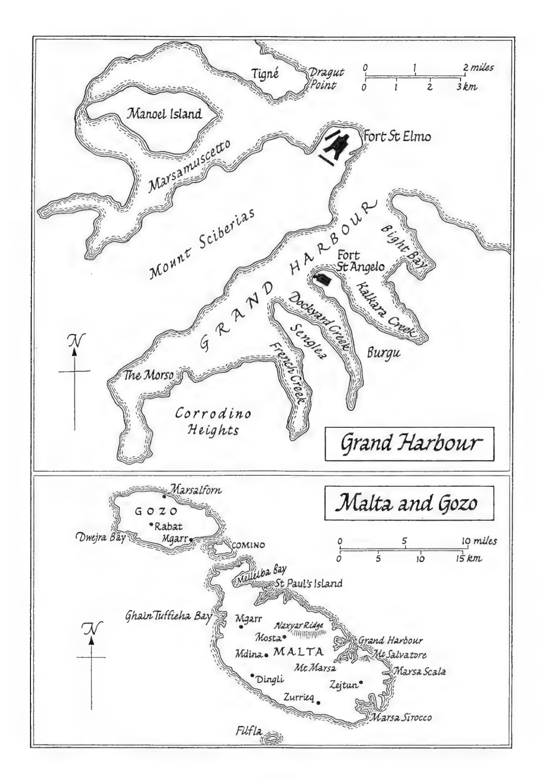

0
100
200
300 miles
0
100
200
300
400
500 km
Trieste
Split (Spalato)
Ancona
Dubrovnik (Ragusa)
DALMATIA
ITALY
Durres
(Durazzo)
Thessalonica
Bari
Brindisi
Naples
Taranto
GREECE
Lemnos
Aegean Sea
CORFU
(Kerkyra)
Lesbos
Cotrone
LEUKAS
(Lefkas)
EUBOEA
Athens
CEPHALONIA
Messina
Palermo
Corinth
Reggio
ZANTE
(Zakynthos)
Naxos
SICILY
Agrigento
Syracuse
Heraklion
MALTA
CRETE
Mediterranean
Tripoli
Benghazi
Tobruk
CYRENAICA
LIBYA

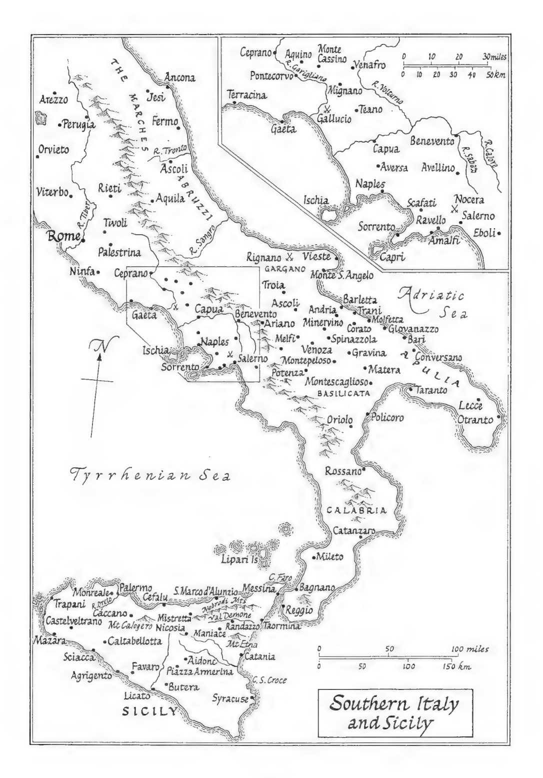

Trieste
Venice
Ravenna
Genoa
Florence
Ancona
Nice
Marseilles
MONACO
Livorno
R. Rhône
Split (Spalato)
Adriatic Sea
CORSICA
Ajaccio
Rome
R. Tiber
ITALY
Bari
Brindisi
Naples
Taranto
Minorca
SARDINIA
Tyrrhenian Sea
Cotrone
Cagliari
Messina
Palermo
Reggio
SICILY
Agrigento
Syracuse
Pantellaria
Bone
Tunis
MALTA
TUNISIA
DJERBA
Tripoli
TRIPOLITANIA

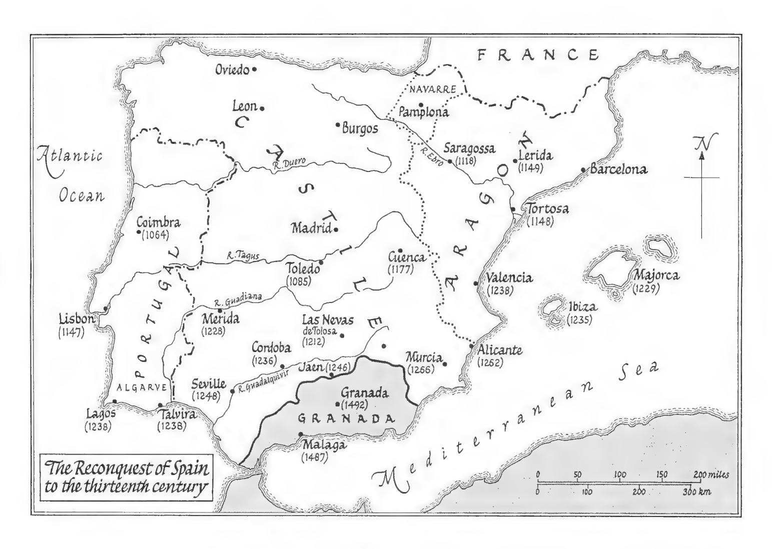


The Western Mediterranean

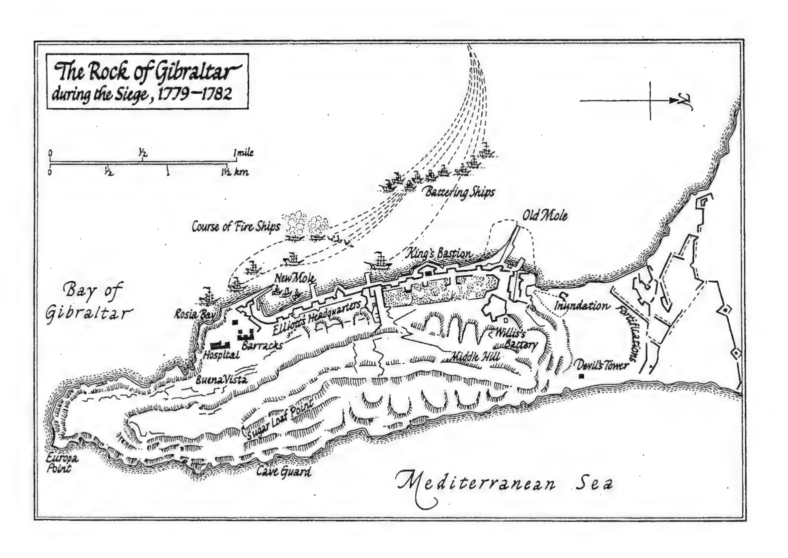

Crete
N
Canea
(Hania)
Soudha
Rettimo
(Rethymon)
Candia
(Heraklion
Knossos
Ag Nikolaos
Sitia
Gounia
Ierapetra
Phaestos
Mediterranean Sea
0 10 20 30 40 50 miles
0 50 km

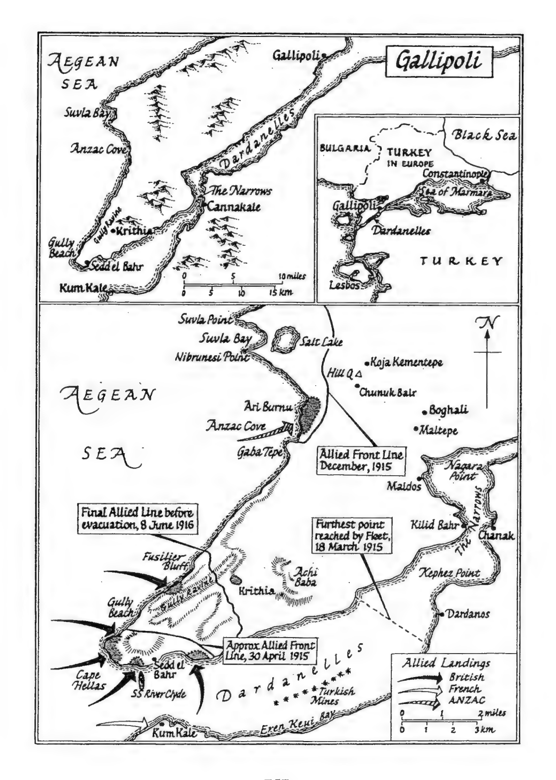

Tigné
Dragut Point
0 1 2 miles
0 1 2 3 km
Manoel Island
Fort St Elmo
Marsamuscetto
Mount Sciberias
GRAND HARBOUR
Bight Bay
Fort St Angelo
Kalkara Creek
Dockyard Creek
Senglea
French Creek
Burgu
N
The Morso
Corrodino Heights
Grand Harbour
Marsalforn
GOZO
Rabat
Mgarr
Dwejra Bay
COMINO
Malta and Gozo
0 5 10 miles
0 5 10 15 km
Mellieha Bay
St Paul's Island
Ghain Tuffieha Bay
Mgarr
Naxyar Ridge
Mosta
Grand Harbour
Mt Salvatore
Mdina
MALTA
Mt Marsa
Marsa Scala
Dingli
Zejtun
Zurrieq
Marsa Sirocco
Filfla
N


Southern Italy and Sicily
Ceprano
Aquino
Monte Cassino
Venafro
Pontecorvo
R. Garigliano
Mignano
R. Volturno
Terracina
Gallucio
Teano
Gaeta
Capua
Benevento
R. Sabato
R. Calore
Aversa
Avellino
Naples
Ischia
Scafati
Nocera
Ravello
Salerno
Sorrento
Amalfi
Eboli
Capri
0 10 20 30 miles
0 10 20 30 40 50 km
THE MARCHES
Ancona
Arezzo
Jesi
Perugia
Fermo
Orvieto
R. Tronto
Ascoli
ABRUZZI
Viterbo
Rieti
Aquila
R. Tiber
Tivoli
R. Sangro
Rome
Palestrina
Rignano
Vieste
GARGANO
Ninfa
Monte S. Angelo
Troia
Adriatic Sea
Barletta
Ascoli
Andria
Trani
Molfetta
Ariano
Minervino
Corato
Giovanazzo
Melfi
Spinazzola
Bari
Venoza
Gravina
Conversano
Montepeloso
Matera
APULIA
Potenza
Montescaglioso
Taranto
BASILICATA
Lecce
Otranto
Oriolo
Policoro
N
Tyrrhenian Sea
Rossano
CALABRIA
Catanzaro
Lipari Is
Mileto
C. Faro
Bagnano
Messina
Palermo
S. Marco d'Alunzio
Monreale
Cefalu
Trapani
R. Oreto
Nebrodi Mts
Reggio
Caccano
Mistretta
Val Demone
Castelveltrano
Mt Calogero
Nicosia
Randazzo
Taormina
Maniace
Mt Etna
Mazara
Caltabellotta
Catania
Sciacca
Aidone
Favaro
Piazza Armerina
Agrigento
C. S. Croce
Butera
Licato
Syracuse
SICILY
0 50 100 miles
0 50 100 150 km



The Reconquest of Spain to the thirteenth century


The Rock of Gibraltar
during the Siege, 1779–1782
0
½
1 mile
0
½
1
1½ km
N
Battering Ships
Old Mole
Course of Fire Ships
King's Bastion
New Mole
Bay of Gibraltar
Rosia Bay
Elliott's Headquarters
Inundation
Fortifications
Willis's Battery
Barracks
Hospital
Middle Hill
Devil's Tower
Buena Vista
Sugar Loaf Point
Europa Point
Cave Guard
Mediterranean Sea


Gallipoli
Aegean Sea
Suvla Bay
Anzac Cove
Dardanelles
The Narrows
Cannakale
Krithia
Gully Ravine
Gully Beach
Sedd el Bahr
Kum Kale
0 5 10 miles
0 5 10 15 km
Black Sea
BULGARIA
TURKEY IN EUROPE
Constantinople
Sea of Marmara
Gallipoli
Dardanelles
TURKEY
Lesbos
Suvla Point
Suvla Bay
Salt Lake
Nibrunesi Point
Hill Q
Koja Kementepe
Chunuk Bair
Aegean
Sea
Ari Burnu
Boghali
Anzac Cove
Maltepe
Gaba Tepe
Allied Front Line December, 1915
Nagara Point
Maldos
Final Allied Line before evacuation, 8 June 1916
Furthest point reached by Fleet, 18 March 1915
Kilid Bahr
The Narrows
Chanak
Fusilier Bluff
Achi Baba
Kephez Point
Krithia
Gully Ravine
Gully Beach
Dardanos
Approx Allied Front Line, 30 April 1915
Cape Hellas
Sedd el Bahr
SS River Clyde
Dardanelles
Turkish Mines
Allied Landings
British
French
ANZAC
0 1 2 miles
0 1 2 3 km
Kum Kale
Eren Keui Bay
N

ملحق الصــور



صوفيا شليمان تتقلد الحلى الذهبية والمجوهرات التى كان زوجها يعتقد – خطأ – أنها كانت تخص هيلين الطروادية



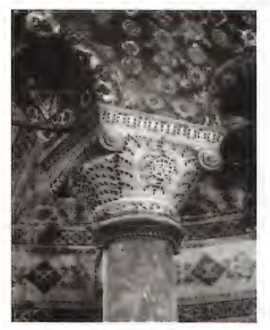
ناووس – تابوت حجرى – الإسكندر. العصر الهيلينى، ٣٢٠ ق.م تقريبا



المسجد الكبير - قرطبة – ٧٨٥ تقريبا



بيركليس – نسخة رومانية عن الأصل اليونانى – ٤٤٠ ق.م تقريبا



كنيسة سان صوفيا – اسطنبول – ٥٣٥ م تقريبا



راقينا – ضريح سان فيتالى – الإمبراطور چستنيان – موازييك – القرن السادس



راقينا – ضريح جالايلا سيديا: الراعى الصالح – موازييك – منتصف القرن السادس



جيش صلاح الدين



السلطان محمد الثانى – ألوان مائية – من الفن التركى – القرن الخامس عشر

معركة ليبانتو – ٧ أكتوبر ١٥٧١



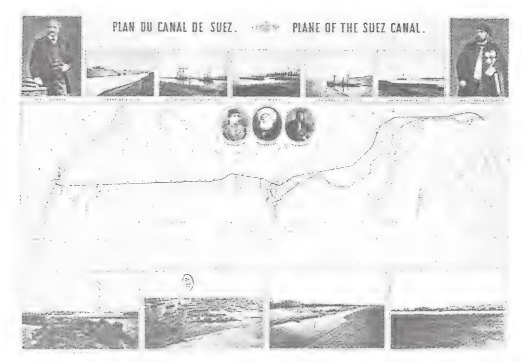
السلطان سليمان المعظم



معركة النيل – تدمير السفينة «لورنيت» – «الشرق - L'Orient"، أغسطس ١٧٩٨



معركة الأهرام – ٢١ يوليو ١٧٩٨



خريطة قناة السويس – ١٨٦٩، مع صور لفردينان دى ليسبس والخديوى إسماعيل ولقطات من القناة



كليمنصو وويلسون ولويد جورج، بعد توقيع اتفاقية فرساى

المؤلف فى سطور

چون چوليوس نورويش.

John Julius Norwich

- لورد بريطانى.
- مؤرخ (له عدة مؤلفات تاريخية مهمة عن صقلية النورمندية وجمهورية ڤينيسيا والإمبراطورية البيزنطية).
- له اهتمام خاص بالعمارة والموسيقى ومسرحيات شكسبير التاريخية.
- قام بإعداد نحو ثلاثين فيلمًا وثائقيًا لتليفزيون B.B.C
- الرئيس السابق لمؤسسة: Colnaghi، أقدم المؤسسات المعنية بالفنون التشكيلية فى لندن.
- عضو مجلس إدارة الأوبرا القومية البريطانية ومكتبة لندن.
- عازف بيانو.

-من أشهر مؤلفاته:

- The Normans in the South
- Venice: The Rise to Empire
- Venice: The Greatness and the Fall
- Byzantium: The Early Centuries
- Byzantium: The Apogee
- Byzantium: The Decline and Fall
- shakespear's Kings
- Paradise of Cities

المترجم فى سطور:
طلعت الشايب

- كاتب ومترجم مصرى من مواليد ١٩٤٢.
- تخرج فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية المعلمين بالقاهرة (١٩٦٢)
- عمل بالتدريس والترجمة والصحافة الثقافية فى مصر والكويت وقطر.
- عمل مترجمًا بالقيادة العامة للقوات المسلحة المصرية فى الفترة من ١٩٦٨: ١٩٧٤ حيث شارك فى ترجمة عدد كبير من المراجع والوثائق والمؤتمرات (من وإلى العربية والإنجليزية والروسية).
- عمل مستشارًا ومنسقًا للمشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة (٢٠٠٣ – ٢٠٠٦) ومساعدًا لمدير المركز القومى للترجمة (٢٠٠٦ – ٢٠١٠).
- المحرر الرئيسى لموسوعة الأعمال الكاملة للرئيس الماليزى السابق "مهاتير محمد"، الصادرة بالإنجليزية والعربية عن دار الكتاب المصرى – دار الكتاب اللبنانى (١٩٩٦)، ومترجم ثلاثة أعمال منها هى: "التحدى"، و"الإسلام والأمة الإسلامية"، و"خطة جديدة لآسيا".
- حصل على جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة لأحسن رواية مترجمة (١٩٩٧) وهى "البطء" لـ "ميلان كونديرا".
- حصل على جائزة اتحاد الكتاب للترجمة (٢٠٠٣).
- عضو اتحاد الكتاب ولجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة ولجنة الإنسانيات بالمركز القومى للترجمة ومجلس تحرير مجلة "أدب ونقد" ورئيس تحرير سلسلة "آفاق عالمية" (٢٠٠٢ – ٢٠١٠)، ومحرر سلسلة "ميراث الترجمة" (٢٠٠٦- ٢٠١٠).

- ترجم نحو ثلاثين عملاً من بينها:

- حدود حرية التعبير (تجربة كُتَّاب القصة والرواية فى مصر فى عهدى عبد الناصر والسادات)، رسالة دكتوراه للمستعربة السويدية مارينا ستاج. (شرقيات – ١٩٩٥).
- المثقفون، تأليف: پول چونسون (شرقيات – ١٩٩٨).
- صدام الحضارات. تأليف: صامويل هنتنجتون (سطور – القاهرة ط. أولى ١٩٩٨، ط. ثانية ١٩٩٩).
- فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى. تأليف: آرثر هيرمان (المشروع القومى للترجمة – ط. أولى ٢٠٠٠، ط. ثانية ٢٠٠٩).
- الحرب الباردة الثقافة: دور المخابرات المركزية الأمريكية فى عالم الفنون والآداب. تأليف: ف. س. سوندرز (المشروع القومى للترجمة – ط. أولى ٢٠٠٣، ط. ثانية ٢٠٠٣، ط. ثالثة ٢٠٠٤، ط. رابعة ٢٠٠٩).

- فى طفولتى: الطفولة فى السيرة الذاتية العربية. رسالة دكتوراه للمستعرب السويدى تيتز روكى. (المشروع القومى للترجمة – ط. أولى ٢٠٠٣، ط. ثانية ٢٠٠٩).
- غياب السلام. تأليف: نيكولاس جويات (المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٥).
- الفنون والآداب تحت ضغط العولمة. تأليف: چووست سمايرز (المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٥، ط. ثانية: مشروع مكتبة الأسرة ٢٠٠٩).
- نحو فهم للعولمة الثقافية. تأليف: پول هوپر، (المركز القومى للترجمة – ٢٠١١).
- أدب الحرب الباردة: كتابة الصراع الكونى، تحرير وتقديم: أندرو هاموند، (المركز القومى للترجمة، تحت الطبع).

ومن ترجماته فى الإبداع:

- البطء، رواية «ميلان كونديرا»، (شرقيات – ١٩٩٦).
- الملاك الصامت، رواية "هنريش بول"، (الهيئة العامة لقصور الثقافة – ١٩٩٧).
- فتاة عادة، رواية "آرثر ميللر" (شرقيات – ١٩٩٧).
- عاريًا أمام الآلهة، رواية "شيف كومار"، (شرقيات – ١٩٩٨).
- الحرير، رواية "أليساندرو باريكو"، (الهيئة العامة لقصور الثقافة – ١٩٩٧، ط. ثانية ٢٠١٢).
- الخوف من المرايا، رواية "طارق على"، (المشروع القومى للترجمة – ٢٠٠٠).
- اتبعى قلبك، رواية "سوزانا تامارو" (شرقيات – ٢٠٠٠).
- بقايا اليوم، رواية "كازو إيشيجورو" (المشروع القومى للترجمة ٢٠٠١، ط. ثانية ٢٠٠٩)
- الحمامة، رواية "پاتريك زوسكند"، (شرقيات – ١٩٩٩).
- هوس العمق وقصص أخرى، پاتريك زوسكند (توت – ٢٠٠٣).
- أنا القمر: مختارات من الخرافة الصينية (الهيئة العامة لقصور الثقافة – ١٩٩٩).
- أصوات الضمير، مختارات شعرية (سما – ١٩٩٩).
- مكتوب: مختارات من پاولو كويليو (ميريت – ٢٠٠٤).
- كتاب صلاح الدين، رواية "طارق على" (كتب خان - تحت الطبع).

قام بمراجعة نحو عشرين عملاً من بينها:

- ربما فى حلب ذات يوم، مختارات من القصة الأمريكية، (ترجمة: أحمد الشيمى).
- عالم آخر ممكن، تأليف: هـ. باتوماكى و ت. تفانين (ترجمة: محمد فرج).
- موسوعة كمبريدج للتاريخ: تاريخ الفكر السياسى فى القرن العشرين (ترجمة: مى مقلد).
- جدل الإسلام والمعرفة فى عالم متغير (ترجمة: ملك حماد).
- العولمة والثقافة، تأليف: جان نيدرفين بيترس، (ترجمة: خالد كسروى).
- الحرب الباردة الكونية، تأليف: أود آرن وستاد (ترجمة: مى مقلد).



مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

التصحيح اللغوى : مبروك يونس
الإشراف الفنى : حسن كامل